مجلة الأزهر

مجلة دينية علمية خلقية تاريخية حكمية

تصدرها مشيخة الأزهر

في كل شهر عربي

الجزء الأول	المحرم سنة ١٣٥٩	المجلد الحادي عشر

مدير إدارة المجلة ورئيس تحريرها

محمد فريد وجدي

الإدارة

ميدان الأزهر

تليفون : ٨٤٣٣٢

الرسائل تكون باسم مدير المجلة

الاشتراكات عن سنة

	مليم
داخل القطر	٢٠٠
لطلبة الجامعة الأزهرية خاصة	١٠٠
خارج القطر	٣٠٠

ثمن الجزء الواحد ٢٠ مليما داخل القطر و ٣٠ خارجه

(مطبعة الأزهر — ١٩٤٠)

١٠

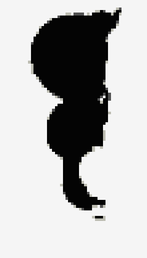

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

بسم الله الرحمن الرحيم

السنة الحادية عشرة لمجلة الازهر

الحمد لله الذي جعل للحق أعلاما تدل عليه ، وسخر له ألسنة من خلقه تهدي اليه . والصلاة والسلام على المثل الأكمل للفطرة الإلهية ، والمظهر الأجمل لجميع الكمالات الخلقية ، محمد خاتم رسله الأكرمين ، وعلى آله وصحبه وتابعيه الى يوم الدين .

أما بعد : فاننا نفتتح بهذا العدد المجلد الحادي عشر لمجلة الأزهر ، راجين الحق جل وعز أن يمدنا من عونه بمثل ما أمدنا به في المجلدات السابقة . فانْ كنا قد أحسنا في القيام بما أسند إلينا ، فانما يرجع ذلك الى إمداده وتوفيقه ؛ وانْ كنا نَعِد قراءنا بالمثابرة على عملنا ، وبالدؤوب على زيادة تحسينه بمستانف البحوث ، ومستطرف الموضوعات ، فانما نفعل ذلك استنادا الى فضله ، واعتمادا على إحسانه .



وإننا وجميع من يعاوننا من أجلاء العلماء ، وكرام الكاتبين ، نجدد عهدنا لحضرات القارئين ببذل الوسع في الاضطلاع بما نُدبنا له من إبلاغ رسالة الأزهر الى العالم الاسلامي كافة ، وخدمة أصول هذا الدين بما يصل اليه جهد العلم من التدليل والتدعيم ، ودحض الشبهات التي يثيرها خصومه أينما كانوا ، وتحت أي مظهر ظهروا .

ونحن إذا ذكرنا الأزهر ، وجب علينا أن ننوه بما لقيه ويلقاه هذا المعهد التاريخي الفخم من رعاية الأسرة العلوية وحمايتها ، وخاصة من فرعي دوحتها الجليلين : المغفور له الملك فؤاد ، ونجله حضرة صاحب الجلالة الفاروق ، الذي أحيا سيرة السلف الأولين بما جرى عليه من التقاليد الصالحة ، والسنن القيمة . حفظ الله وجوده عزا للدنيا والدين ، وأمتع بفضائله وكالائه المسلمين .

ولا بد من إلمامة في هذا الموطن بما يبذله حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الامام الشيخ محمد مصطفى المراغي شيخه الأكبر ، فإنه بما يقوم به فيه من إصلاح وطيد ، وما يستنبته في بيئته من غراس طيب ، يعدُّه لدور انتقال يصبح معه أفخم في الأعين مظهرا ، وأعم في تمثيل رسالة الاسلام أثرا .

وإنه ليسرنا أن نفتتح عدد هذه السنة بدرس ديني لفضيلته ألقاه في رمضان في حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم ، وفي حشد من رجال دولته ، وهو كجميع دروس فضيلته غذاء للأرواح والعقول . أمد الله فضيلته بروح من عنده ، وأيده بمدد من جنده ؟

محمد فريد وجدي

تفسير سورة الحجرات

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الإمام الشيخ محمد مصطفى المراغى
شيخ الجامع الأزهر

الدرس الأول الذى ألقاه فضيلته فى رمضان سنة ١٣٥٨
بمسجد الأستاذ البوصيرى بالاسكندرية

وقد تفضل بالاستماع له حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم



بسم الله الرحمن الرحيم

(يأيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدى الله ورسوله ، واتقوا الله ، إن الله سميع عليم) :

تقدموا : يصح أن يكون من قدّم المتعدى ، أو من قدّم بمعنى تقدم . وعلى الثانى يكون معناه : لا تتقدموه . وتحقيقه ـ كما قال الراغب ـ لا تسبقوه بالقول والحكم ، بل افعلوا ما يرسمه لكم ، كما هو شأن عباده المكرمين من الملائكة : لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون . وذلك لازم التقدم ، لأن الذى يجعل لنفسه حق التقدم على أحد ، يجعل لنفسه حق إبداء الرأى والسبق به ، وحق المخالفة . وحكى ابن جرير أن العرب تقول : فلان يقدم بين يدى إمامه ، على معنى يعجل بالأمر والنهى دونه . وعلى الأول إما أن يلاحظ تعدّيه الى مفعول محذوف لقصد التعميم ، ومعناه حينئذ : لا تقدموا شيئا ما بين يدى الله ورسوله ، قولا أو فعلا ؛ وإما أن ينزل منزلة اللازم ، ومعناه : لا يحصل منكم تقديم ، غير منظور إلى أن المقدم ماذا ، على طريق قوله تعالى : « يحيي ويميت »



ومآل المعنى على الوجوه كلها : النهى عن الإقدام على أمر من الأمور دون التقيد بكتاب الله تعالى وسنة رسوله . وقد نقل عن ابن عباس : لا تقولوا خلاف الكتاب والسنة . وهو معنى قول الله سبحانه : « وما آتاكمُ الرسولُ فخذوه ، وما نهاكمْ عنه فانتهوا ، واتقوا اللهَ ، إنّ اللهَ شديدُ العقاب » .

ومعنى « بين يدى الله » : أمامه ، لأن المكان الذى بين العضوين المعروفين هو الأمام . وحقيقة قولهم : جلست بين يدى فلان ، أن يجلس بين الجهتين المسامتتين ليمينه وشماله حتى ينظر اليه من غير تقليب حدقة . وذكر الرسول ، باعتبار أنه المبلغ المبين ، الحافظ للشريعة ، والمدافع عنها .

« واتقوا الله » : أى اجعلوا وقاية بينكم وبين سخطه وعذابه ، وهى اتباع أوامره واجتناب نواهيه ، والوقوف عند الحدود التى بيّنها .

والسميع : إذا وصف به الله سبحانه كان المراد به علمه بالمسموعات وتحريه المجازاة بها . وكل موضع أثبت الله فيه السمع للمؤمنين ، أو نفاه عن الكافرين ، أو حث عليه ، فالقصد به الى تصور المعنى والتفكر فيه والاعتبار به ، نحو « الذينَ يستمعون القولَ فيتّبعون أحسنَه (١) » ، « وإنْ أحدٌ من المشركين استجاركَ فأجرْه حتى يسمعَ كلامَ الله (٢) » ، « إنّ فى ذلك لآيةً لقومٍ يسمعون (٣) » « ولهُمْ آذانٌ لا يسمعون بها (٤) » . والله يعلم المسموعات ، ويعلم المراد منها ، ويعلم ما فى الضمير ، وما توسوس به النفوس ، لا تخفى عليه خافية .



وهذه الآية تقرر أصلا عظيما من أصول الاسلام ، وهو أن الحكم لله وحده ، لامعقّب لحكمه ، وهو أحكم الحاكمين . ويقرر هذا الأصلَ أتم تقرير قولُه تعالى : « فلاَ وربِّك لايؤمنون حتى يحكّموك فيما شجَر بينهم ثم لا يجدُوا فى أنفسهم حرجاً مما قضيتَ ويسلموا تسليما (٥) » وقولُه تعالى : « ولا تقولوا لِمَا تصِفُ ألسنتُكم الكذِبَ هذا حلالٌ وهذا حرام لتفترُوا على اللهِ الكذِبَ ، إنّ الذين يفترون على اللهِ الكذبَ لا يُفلحون . متاعٌ قليلٌ ، ولهم عذابٌ أليمٌ (٦) » ، وقوله تعالى : « يأيُّها الذينَ آمنُوا أطيعوا اللهَ وأطيعوا الرسولَ وأولى الأمْرِ منكم ، فإن تنَازعتم فى شىء فردّوه إلى الله والرسولِ إن كنتم تؤمنون باللهِ واليومِ الآخِرِ ، ذلكَ خيرٌ وأحسنُ تأويلاً (٧) » . وطاعة الله سبحانه هى العمل بما فى كتابه ، وما بينه رسوله صلى الله عليه وسلم ؛ وطاعة الرسول فى الحقيقة طاعة لله ، وذكر باعتبار أنه مبلغ ومبين . أما أولو الأمر فهم الذين يفهمون كتاب الله ويستثمرونه فى الحوادث ، ويفهمون سنة رسوله القولية والفعلية ؛ فهم قادة الأمة فى الدين ، الذين يدركون أسراره ، ويفهمون أغراضه ، ويحيطون بأحوال زمانهم وأمتهم إحاطة تمكنهم من تطبيق الكتاب والسنة تطبيقا صحيحا ، ومن الاجتهاد لاستنباط الأحكام المحققة لمصلحة الأمة ، فى دائرة الكتاب والسنة ؛ وذلك معنى الرد الى الله ورسوله . وعلى هذا جرى سلف الأمة ، واستثمر

(١) الزمر : ١٨ (٢) التوبة : ٦ (٣) النحل : ٦٥ (٤) الاعراف : ١٧٩ (٥) النساء : ٦٥
(٦) النحل : ١١٦ ، ١١٧ (٧) النساء : ٥٩

العلماء نصوص الكتاب والسنة ، ووضعوا قوانين الدولة الاسلامية كاملة فى زمانهم ، ولم يكن لهم شهوة فى الخلاف ، بل كانت وجهة الجميع بيان أحكام الله حسب اجتهادهم الخالص لله ؛ لكن الأحداث غيرت مجرى الأمور ، وحب الجاه والسلطان لوى الناس عن الحق ؛ وكان أصحاب الأهواء يحاولون رد أهوائهم الى الدين ليقال إنهم على الحق ، غير خارجين على حدود الله ، فتعسف الناس فى التأويل ، وجدّت مذاهب وآراء تبرأ منها اللغة ، ويتجافى عنها الدين ، وتعصب لها أصحابها ومقلدوها ؛ تعصب لها أصحابها على علم بضلالها ، وتعصب لها مقلدوها على علم أو جهل وحسن نية ، فتفرق المسلمون فرقا وأحزابا ، تحمل كل فرقة ضغنا على مخالفيها ، وتجيز قتالها وهدمها ، ولم يكن مثل هذا معروفا فى صدر الاسلام ، وعند صالحى الأمة وكبار الأئمة .



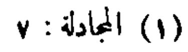
جرت الأمور على هذا النحو ، فضعف شأن المسلمين ، وقاتل بعضهم بعضا ، ثم وهنت العزائم ، وأحبوا الحياة ، وتحللوا من الأوامر والنواهى الإلهية ، إما بالخروج عليها ظاهرا جهارا ، وإما بالخروج عليها تأويلا ، وتقطعت بينهم الروابط ، ونسوا الوحدة ، ونسوا لوازم الأخوة الاسلامية التى عقدها الله فى كتابه بين المسلمين .

هذا شأن المسلمين اليوم ، وقبل اليوم بقرون ؛ ولا نجاة لهم إلا بالرجوع الى الله ، وتفهم كتاب الله ، والعمل بما سنّه رسول الله . ومن الخطأ كل الخطأ أن يظن ظان أن تأخر المسلمين نشأ عن دينهم ، كلا ! فإن فى دينهم من الأخلاق الكاملة الفاضلة ، ومن الحث على العلم ، ومن الأمر بتسخير ما خلقه الله للإنسان ، ومن النظم الدقيقة للمجتمع ، ومن الأوامر التى تحث على البذل والصدقة ، والتضحية فى سبيل الحق — ما لا يوجد عند غيرهم . ومن الحق أنهم تركوا دينهم فذلوا ، وتركوا هدى الرسول فضلوا . ولعل العبر الماثلة الآن تفتح عيون المسلمين ، وتبصرهم أن الخروج عن الأديان ، واتباع المذاهب الضالة ، هو سبب ما فى العالم من شرور قد تطوح بالإنسانية الى الدرك الأسفل ، كما تطوح بأصحابها فى الآخرة الى النار .



لعل هذه العبر توقظ النائم ، وتنبه الغافل ، وتحرك الجامد ؛ ولعل نفحة من قِبَل الله تهبّ فتعدّهم لتلقى النور الإلهى ، وتحملهم على الرجوع الى الهدى النبوى ، وما ذلك على الله بعزيز .

وجملة « بين يدى الله » : تدل بعد ما تقدم على الحضور ؛ والله سبحانه حاضر دائما مع العباد : « ما يكونُ من نَجْوَى ثلاثةٍ إلا هُو رابعهم ، ولا خَمسةٍ إلا هُو سادسُهم ، ولا أدْنَى من ذلكَ ولا أكثَر إلا هو معهم أيْنَما كانوا ، ثم يُنبّئُهمْ بما عمِلوا يومَ القيامةِ ، إنّ اللهَ بكلّ شيءٍ عليمٌ (١) »


(١) المجادلة : ٧

وإذا عرفت أن الآية جاءت لتقرير أصل من أصول الاسلام عظيم ، وبيان ما يجب من الأدب مع الله سبحانه ، فلا يعنينا بعد ذلك أن نبين سبب النزول ، وأن نذكر أنها نزلت فى مماراة الشيخين أبى بكر وعمر رضى الله عنهما فيمن يكون أمير وفد تميم ، أو فى ذبيحة الأضحية ، أو فى النهى عن صوم يوم الشك ، أو فى غير ذلك .

وبضم التاء فى « تقدموا » قرأ قراء الأمصار . وقال ابن جرير : لا أستجيز القراءة بخلافها لإجماع الحجة من القراء عليها . وقرأ بعضهم « لا تَقَدَّموا » بفتح التاء ، على معنى لا تتقدموا .

***

(يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى ، ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون) :

ظهور الشىء بإفراط لحاسة السمع أو حاسة البصر : جهر . فمن الأول : « سواء منكم من أسر القولَ ومن جَهَر به (١) » ، ومن الثانى : رأيته جهارا ، و « أرنا الله جهرة » . والحبْط : مأخوذ من الحبَط ، وهو أن تكثر الدابة من الأكل حتى ينتفخ بطنها . وفى الحديث « إن مما يُنبت الربيعُ ما يقتل حَبطا أو يُلم » .

وحبوط الأعمال على أضرب :

أحدها : أن تكون الأعمال دنيوية لا يؤمن صاحبها بالله واليوم الآخر ، فلا تغنى فى الآخرة شيئا ، كما فى قوله تعالى : « وقَدِمْنَا الى ما عَمِلوا من عَمَلٍ فجعلناه هباءً مَنْثوراً (٢) » .

والثانى : أن تكون أعمالا أخروية لم يقصد بها وجه الله ، كما روى أنه « يؤتى يوم القيامة بالرجل فيقال له : بم كان اشتغالك ؟ فيقول : بقراءة القرآن ، فيقال له : قد كنت تقرأ ليقال هو قارئ ، وقد قيل ذلك ، فيؤمر به الى النار » .

والثالث : أن تكون أعمالا صالحة ولكن توجد بإزائها سيئات تطغى عليها .

كانت الآية السابقة لبيان الأدب مع الله ، وهذه الآية وآيات بعدها لبيان الأدب مع النبى صلى الله عليه وسلم . فقد أمر الله المؤمنين ألا يجعلوا أصواتهم عند الحديث مع الرسول الأكرم

(١) الرعد : ١٠ (٢) الفرقان : ٢٣

مرتفعة فوق صوته ، وألا يكون خطابهم إياه كخطاب بعضهم بعضا فى الجهر وعلو الصوت . وقد قيل إن الأول يخص حال المكالمة ، والثانى حال صمته عليه السلام ؛ وكأنه قيل : لا ترفعوا أصواتكم فوق صوته إذا نطق ، ولا تجهروا له عند دعائه إذا سكت وتكلمتم . ويلزم من هذا كله أن يكون صوتهم أخفض من صوته ، وأن يراعوا فى دعائه ومخاطبته اللين فى القول ، أدبا مع مقام النبوة وجلالها . ولعل وجهه أن النهى عن رفع صوتهم فوق صوته صلى الله عليه وسلم يستلزم حتما ألا يكون خطابهم معه كخطاب بعضهم بعضا ، فلو لم يحمل أحد النهيين على حالة ، والآخر على حالة أخرى ، لزم التكرار ، وأن يكون الثانى تأكيدا . والظاهر أنه لا داعى الى هذا ، لأن الأول أفاد النهى عن رفع الصوت فوق صوته ، وهو وإن تضمن ما تضمنه الثانى ، لكن الثانى يفيد دلالة أن مقامه ليس كمقامهم ، وأن ما يليق بهم فى التخاطب لا يليق به ، وأن الخطاب معه يجب أن يكون على حال من الأدب واللين والرقة يناسب ذلك المقام الرفيع الشأن .



نُهوا عن ذلك مخافة بطلان أعمالهم ، وذهابها سدى من غير مثوبة ولا جزاء ، من حيث لا يشعرون أن أعمالهم حابطة ، وذلك لأن النهى جعل الجهر معصية ، لكن العادة قد تجعل الانسان غافلا عما فى المنهى عنه من سوء ، وبخاصة إذا كانت العادة متأصلة ؛ وقد كان القوم جفاة غلاظا قريبى عهد بالتبدِّى ، ومن عادة التبدى الجفاء فى الخطاب ، والإغلاظ فى القول .

أدَّبهم الله بهذا الأدب ، ونهاهم عما يؤذى النبي صلى الله عليه وسلم ، ولم يكن النبي جبارا ولا متكبرا ، بل كان جم التواضع ، كثير الحياء ، تقفه الأَمَة فى الطريق لتحدثه فلا يتركها حتى تتركه ، وقال : «إنما أنا ولد امرأة كانت تأكل القديد» ، لكن الرسول الأكرم كان كثير الفكر والهم ، كثير الشواغل ، يتلقى الوحى من ربه ويبلغه ويبينه ، ويسوس المسلمين دنيا وأخرى . يفكر فى عزتهم ودفع الأذى عنهم ، ويفكر فى حرب من يحاربه ، وسلم من يسالمه ، ويفكر فى توفير الخير للمسلمين ؛ وهو مع ذلك كله بشر تؤذيه الغلظة وتقلق خاطره ، ومَن كان هذا حاله ، وجب أن يوفر له الهدوء والسكينة ، وأن يباعد عنه كل شىء مشوش للخاطر .

أدبهم لله هذا الأدب مع الرسول ، ونهاهم عن الغلظة ؛ ومن شأن النهى أن يردعهم ، وأن يمكن فيهم عادة اللين والأدب فى القول ، وأن تطرد تلك العادة معه ومع غيره ؛ فهذا الأدب كما أنه أدب مع الرسول ، هو أدب مع المؤمنين بعضهم مع بعض . ولا تجد رجلا لين القول سهلا عند الحديث إلا وهو ذو نفس مهذبة ، صقلته الأيام ، وفاض عليه طيب عنصره وكرم أرومته مما جعله محببا عند الناس .

وعلى العاقل أن يرعى أخلاقه ، ويداوم على التنبه اليها ؛ وقد يكون ارتكاب

محرم ما داعيا الى استمرائه والاسترسال فيه ، فتكثر السيئات ، وتحبط الأعمال من حيث لايشعر . فالرذيلة تكون أولاً حالاً ، ثم تصير ملكة ؛ وكذلك الفضيلة . وقد نقل عن أفلاطون : لا تصحب الشرير فان طبعك يسرق وأنت لا تدرى . وقد روى أن أبا بكر رضى الله عنه بعد نزول هذه الآية قال : يارسول الله : والله لا أكلمك إلا السِّرار أو أخا السرار حتى ألقى الله ! وكان إذا قدم على رسول الله الوفودُ ، أرسل اليهم من يعلمهم كيف يسلمون ، ويأمرهم بالسكينة . وقد روى أيضا أن ثابت بن قيس بعد أن نزلت الآية ، جلس فى بيته يبكى ، وقال : إنى رجل جهير الصوت ، وأخاف أن يكون قد حبط عملى ! فبعث اليه صلى الله عليه وسلم وقال له : إنك لست من أهل النار ، تعيش بخير ، وتموت بخير . وقد مات شهيدا ، رضى الله عنه .

***

(إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى ، لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ) :

الغض : النقصان من الطرف والصوت ، ومنه « قل للمؤمنين يَغُضُّوا من أبصارهم(١) » « واغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ (٢) »

والامتحان فى الأصل : إذابة الذهب ليخلص إبريزه من الخبث وينقى منه . ويطلق الامتحان على الاختبار والتجربة ، يقال : امتحن فلانا لأمر كذا فوجده قويا عليه ، أى جرّبه ؛ ويلزم من هذا معرفته .

تضمنت الآية السابقة التحذير من رفع الصوت ، وتضمنت هذه الترغيبَ فى القول اللين ، فقد جعل جزاؤه المغفرة والأجر العظيم . والمعنى : إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله قوم أخلص الله قلوبهم وصفاها وأعدها للتقوى ؛ أو عرف الله قلوبهم معدة للتقوى بعد الاختبار ، فهؤلاء لهم مغفرة وصفح عما اقترفوه من السيئات ، ولهم أجر عظيم على ما كسبوه من الصالحات .

***

(إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ . وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ، وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) :

(١) النور : ٣٠ (٢) لقمان : ١٩

الحجرة : القطعة من الأرض تحجر ، أى يمنع من الدخول فيها بحائط أو نحوه . ووراء : فيه معنى المواراة والاستتار ، فكل ما استتر فهو وراء ، خلفا كان أو قداما ، إذا لم تره ؛ فالوراء بالنسبة للحجرات : ما كان خارجها .

وقد أخرج البخارى فى الأدب عن داود بن قيس قال : رأيت الحجرات من جريد النخل مغشاة من خارجها بمسوح الشعر . وعن الحسن : كنت أدخل بيوت أزواج النبى صلى الله عليه وسلم فى خلافة عثمان فأتناول سقفها بيدى ، وقد أدخلت فى المسجد فى عهد الوليد بن عبد الملك ، وبكى الناس لذلك . وقد قال سعيد بن المسيب إذ ذاك : والله لوددت أنهم تركوها على حالها ليراها النشء من أهل المدينة ، ويقدم القادم من الآفاق فيرى ما اكتفى به النبى صلى الله عليه وسلم فى حياته ، فيكون ذلك داعيا الى ترك التفاخر والتكاثر .

وعن زيد بن أرقم : جاء أناس من العرب الى النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال بعضهم لبعض : انطلقوا بنا الى هذا الرجل ، فإن يكن نبيا فنحن أسعد الناس به ، وإن يكن ملكا عشنا فى جناحه ؛ ثم جاءوا الى حجر النبى ينادونه : يا محمد ، فأنزل الله هذه الآية ؛ وقد تأذى الرسول صلى الله عليه وسلم من ندائهم على هذه الصفة .

وقد حكم الله على أكثرهم بعدم العقل ، إما لأن فيهم من لم يكن موافقا ، أو لأنه أقام الأكثر مقام الكل ، على عادة البلغاء فى عباراتهم . وعدم العقل جاء من ناحية الجهل بقانون الأدب فى النداء ، والجهل بما ينبغى أن يكون عليه الطالب ، من تخير الوقت ، وتخير المكان ، وتخير العبارة . وقد كان عليه السلام لا يحتجب عن الناس إلا حيث تتقاضاه دواعيه الخاصة فى بيته ، فليس من الحق ولا من الأدب ألا تترك له الفرصة للاستجمام .

ولو أن هؤلاء صبروا حتى تخرج إليهم لكان ذلك خيرا لهم ، لكن الله غفور : يغفر مثل هذه الزلات التى لم تصدر عن سوء قصد ، ولم يكن سببها إلا تلك الطبيعة الجافة التى لم تهذب من قبل بعلم ولا دين . ورحيم : يرحم مثل هؤلاء ، ومن رحمته أن ينزل من الآيات الخالدة ، ما يؤدب عباده بالأدب الذى ترضاه النفوس الكريمة ، والطباع الشريفة . وهكذا يدخل القرآن فى شئون العباد ، فيعلمهم طريق النداء ، وطريق الاستئذان . وقد حكى عن ابن عبيد : ما دققت بابا على عالم حتى يخرج فى وقت خروجه . وكان ابن عباس يذهب الى أبىّ فى بيته لأخذ القرآن عنه ، فيقف عند الباب ولا يدق الباب حتى يخرج .

هكذا فعل القرآن ، وصقل الناس بادبه الكريم ؛ وهكذا لا تسمو النفوس حتى تسترشد بالقرآن ، وتهتدى بهديه .

***

(يأيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين) :

فسق فلان : خرج عن حجر الشرع ، مأخوذ من قولهم : فسق الرطب ، إذا خرج عن قشره . يقع الفسق بالقليل من الذنوب وبالكثير ، لكن تعورف فيما كان كثيرا ، وهو أعم من الكفر ، لكن أكثر ما يقال لمن التزم حكم الشرع وأقر به ثم أخل بأحكامه كلها أو بعضها . وقوله تعالى : « أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقا (١) » يدل على أن الفسق أعم من الكفر ، لأنه قابل به الإيمان .

والبيان : الكشف عن الشيء . وبينته وأبنته ، إذا جعلت له بيانا يكشفه . والتبين : التعرف وطلب البيان . والندم : التحسر من خطأ الرأى فى أمر فائت . والتركيب يدل على الملازمة ، ومنه المنادمة والمداومة . فالندم : تحسر يلازم صاحبه . وعامة قراء المدينة : فتثبتوا . وهما قراءتان معروفتان متقاربتا المعنى ، فبأيهما قرأ القارئ فهو مصيب .

وقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث الوليد بن عقبة فى صدقات بنى المصطلق ، فلما سمعوا مقدمه أعدوا أنفسهم للقائه ، تعظيما لمن بعثه رسول الله ، فحدثه الشيطان أنهم قاتلوه ، فرجع وقال : إن بنى المصطلق منعوا صدقاتهم ؛ فأغضب ذلك النبي والمسلمين معه ، وهم بغزوهم ، فلما بلغهم رجوع ابن عقبة أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وصفوا له حين صلاة الظهر ، وقالوا : نعوذ بالله من سخط الله وسخط رسوله ! بعثت إلينا مصدقا فسررنا وقرت أعيننا ، ثم رجع من بعض الطريق فخشينا أن يكون ذلك لغضب من الله ورسوله ؛ فلم يزالوا يكلمونه حتى جاء بلال وأذن لصلاة العصر ، ثم نزلت الآية .

وأياما كان سبب النزول ، فالآية تقرر أصلا عظيما له خطره فى الحياة . وكم فرق الكذب بين الأصدقاء ، وكم سفك من الدماء ، وكم شن من غارات ، وأثار إحناً وترات ، وكم فرق العشائر ، وذهب بالأنفس والأموال ! لذلك كان للصدق من المكانة ما جعل النبي عليه السلام يقول فيه : « إن الصدق يهدى الى البر ، وإن البر يهدى الى الجنة » ، وكان للكذب من الرداءة والحطة ما جعل النبي عليه السلام يقول فيه : « إن الكذب يهدى الى الفجور ، وإن الفجور يهدى الى النار » ، ألا لعنة الله على الكاذبين !

وخطر الأخبار لا يجيء من ناحية الفسق وتعمد الكذب وحده ، بل يجيء من نواح أخرى ، فقد يكون الرجل عدلا لكنه لا يعرف كيف يسمع الأخبار ولا كيف ينقلها ،

(١) السجدة : ١٨

فلا يحسن السمع ولا يحسن الأداء ؛ وقد يكون الرجل عدلا ذا غفلة فتدس اليه الأخبار من الـكاذبين وينقلها على ظن الصدق .

والتثبتُ فى الأخبار فضيلة ليست كثيرة عند الناس ، وأكثر الناس يقعون فى تصديق الأخبار من حيث لا يشعرون ، ولبعض مهرة الـكاذبين حيـل تخفى على أشـد الناس تثبتا من الأخبار .

وكثيرا ما يقع عـدم التثبت من العظماء الذين يملـكون النفع والضرر ، يجيئهم ذلك من ناحية استبعاد أن يكذب بطانتهم عليهم ، وهو مدخل للخطر عظيم .

والذين هم فى أشد الحاجة الى العمل بهذه الآية ، هم الذين بيدهم مقاليد الأمور ، وبيدهم الضر والنفع ؛ أما الذين لا يملـكون ضرا ولا نفعا فحاجتهم اليها أقل من حاجة هؤلاء . والآية على العموم أدب عظيم لا بد منـه لتـكميل النفس ، وإعدادها لتعرف الحق ، والبعد عن مواطن الباطل .

ولو أن النبى صلى الله عليه وسلم عمل بقول ابن عقبة لغزا قوما مؤمنين يحبون الله ورسوله ، وسفك منهم دماء ، وأخذ منهم أموالا بغير حق .

فالله تعالى يرشـد عباده الى هـذا الأدب الـكامل ، ويحذرهم أن يعملوا بالأخبار قبـل الـكشف عنها ، وقبل التثبت ، لئلا يصيبوا أقواما بسبب الجهل ، وبسبب الأخبار الـكاذبة التى لا تفيد علما عند العقلاء ، فيصبحوا بعد ذلك آسفين نادمين ، يلازمهم الحزن على ما فرط منهم . فيجب الـكشف عن الخبر بكل الوسائل المستطاعة ، ويجب على المؤمن أن يتعلم طرق الـكشف عن الأخبار ، ويروض نفسه عليها . وقد قال الحسن : فوالله لئن كانت الآية نزلت فى هؤلاء القوم خاصة إنها لمرسلة الى يوم القيامة ما نسخها شىء .

والنبأ : هو الخبر العظيم . أما الأخبار التافهة التى لا يترتب شىء عليها ، فهى فى غير حاجة الى التبين والتثبت .

* * *

(وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ ، وَلَـٰكِنَّ اللهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِى قُلُوبِكُمْ ، وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ ، أُولَـٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ . فَضْلًا مِنَ اللهِ وَنِعْمَةً ، وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) :

العنت : الجهد والمشقة والهلاك . والزينة ثلاثة أنواع : نفسية كالعلم ، وبدنية كالقوة وطول القامة ، وخارجة عنهما كالجاه والمال .

كفر النعمة وكفرانها : سترها بترك أداء شكرها . والكافر على الإطلاق متعارف فيمن يجحد الوحدانية ، أو الشريعة ، أو النبوة ، أو ثلاثتها . وقد يقال : كفر ، لمن أخل بالشريعة وترك ما لزمه من شكر الله ، نحو « مَنْ كَفَرَ فعليه كُفْرُه » إذ هو مقابل لقوله : « وَمَنْ عمِل صالحاً فَلأنفسِهِمْ يَمْهَدُونَ (١) » . والذى تنطوى عليه الطبيعة الانسانية هو كفران النعمة وعدم القيام بشكرها ، يدل عليه « إنّ الإنسانَ لَكفورٌ مُبينٌ (٢) » لكنه قد يخرج بالتعليم والتهذيب وتقويم الدين الى حالة أخرى ، وذلك هو المقصود بقوله تعالى : « وكرّه إليكم الكفرَ والفُسوقَ والعصيان » . فهؤلاء صحابته صلى الله عليه وسلم : فاض عليهم نوره ، وغمرهم أدبه ، وهذبهم تعليمه ورياضته ، فحبب إليهم الإيمان ، وصار زينة عندهم ، وكرهوا الكفر والفسوق والعصيان .

والعصيان : خروج عن الطاعة . ويقال لمن فارق الجماعة : شق عصا الطاعة . وأصله أن يمتنع الرجل بعصاه .

والرشد : خلاف الغي ، يستعمل استعمال الهداية . وقيل الرُّشْد فى الأمور الدنيوية والأخروية ، والرَّشد فى الأمور الأخروية لا غير . والراشد والرشيد يقال فيهما جميعا .

والحكمة : إصابة الحق بالعلم والعقل . والحكمة بالنسبة لله : علم الأشياء ، وإيجادها على غاية الإحكام ، وبالنسبة للإنسان : معرفة الموجودات ، وفعل الخيرات .

تذكر الروايات التى رويت فى قصة ابن عقبة وبنى المصطلق ، أن النبى عليه السلام ، حدثته نفسه بغزوهم ، وأنه غضب على بنى المصطلق بعد أن سمع خبر ابن عقبة ، وأنه لم يصدق وفدهم عند حضوره إلا بعد نزول الآية ، وأنه بعث خالدا وأمره باستطلاع حالهم ، وعدم العجلة فى حربهم ، وأن من المسلمين من حسّن غزوهم ، ومنهم من كان مع الرسول فى التريث والتثبت .

وقد دعا هذا بعضَ المفسرين الى توزيع الخطاب ، فجعل قوله : «لو يطيعكم فى كثير من الأمر لعنتم» لمن كان همه غزوهم ومطالبة الرسول به ، وقوله :«ولكنّ الله حبّب اليكم الإيمان» للفريق الذى لم يطالبه بالغزو وكان معه فى التريث وطلب التثبت ؛ ورأوا أنه لا يصح أن يكون المخاطبون واحدا فى الطرفين ، لأنه ذكر أولاً أن طاعتهم توجب العنت ، وذكر ثانياً أنه حبب اليهم الإيمان ، وكرّه الفسوق والعصيان ، والأمران متناقضان لا يجتمعان فى فريق واحد . غير أن توزيع الخطاب على هذا النحو لا يليق ببلاغة القرآن وإعجازه ، وليس هناك ضرورة تدعو اليه ؛ وسيعلم ذلك مما يأتى :

(١) الروم : ٤٤ (٢) الزخرف : ١٥

بعد أن حذر الله المؤمنين أخبار الفاسقين ، نبههم الى أن الرسول بينهم ، وليس المقصود ظاهر الخبر ، لأن ذلك معروف بالعيان ، بل المقصود لازمه وهو وجوب التحرز من الكذب وتوقيه ، لأن المؤمنين ورئيسهم الأعظم بينهم ، يجب أن يكونوا بعيدين عن الدنايا ، وعن الكذب الذى يؤدى الى المفاسد ، ويجر الى ويلات قد يشترك فيها النبى الأكرم ؛ ولا يليق بمن يحبه ويؤمن به ويعظمه ، أن يوقعه فى مثل هذا الخطر الذى يؤدى اليه الكذب ؛ وهذا الحب وهذا الإجلال يدعو الى الاحتراس من وقوع المحبوب فيما لا يليق أن يقع فيه . والإعلام بأن فيهم رسول الله ، تنبيه لهم على وجود المرشد الذى يجب اتباعه ، وتجب طاعته . وبذلك عاد الحديث الى الطاعة ، والى عدم السبق بالرأى ، والتعجل فى الحكم ، وهو موضوع أول آية فى السورة .

والسر فى ذلك الوجوب : هو أن الرسول مبلغ أمر الله ، ومبين له ، وأنه أدرى بالأغراض الإلهية ، وأدرى بمصالح الأمة وما ينفعها ، من كل من كان حوله ، يؤيده الوحى ، ويمده النور الإلهى ، ومقامه مقام المتبوع ، ومقامهم مقام التابع ؛ فيجب أن يطيعوه لا أن يطيعهم ؛ ولو أن الأمر انعكس وأطاعهم لنالهم من طاعته إياهم عنت وجهد ، ومشقة وهلاك ؛ ولكن ذلك لا يكون ، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم بحكم منصبه ، لا يتبع إلا ما يوحى اليه من ربه ، وهذا مبدأ معروف لم يجر حديث عنه فى الآية ، ولأن جماعة المؤمنين بحكم إيمانهم لا يرضون ذلك ولا يطالبون به ، لأن الله حبب اليهم الإيمان بالله ورسوله ، وذلك يستدعى طاعة الله ، وطاعة رسوله ؛ وحسّنه فى قلوبهم فهو لاصق بها ، وكره اليهم الكفر بالله ورسوله ، وكره اليهم الخروج عن الطاعة ، وركوبَ ما نهى الله عنه ؛ وقد جرت عادة القرآن أن يخاطب الجميع ولو كان الذى فعل الفعل البعض ، تنبيها على أن المسلمين يعدّون وحدة وإن كثرت الأعداد ، وأن ما يفعله البعض منهم يعد صادرا عن الجميع .

ومن المفسرين من حمل الفسوق على الكبائر ، والعصيانَ على الصغائر . وقد نقل عن ابن زيد : الفاسق فى كتاب الله كله : الكاذب . ولذلك حمل الفسوق على الكذب ، والعصيان على الإخلال بالأركان .

ثم وصف الله سبحانه من حبب اليهم الإيمان وكره اليهم الكفر ، على طريق الالتفات ، بأنهم الراشدون ، السالكون طريق الحق ، المهتدون اليه ؛ وبين أنه فعل ذلك فضلا منه ونعمة عليهم . وقد قيل : إن الفعل إذا نظر الى صدوره من جانب الحق سمى فضلا ، وإذا نظر الى وصوله الى العبد سمى نعمة .

والله عليم : بأحوال الخلق ، وبالمحسن منهم والمسىء ، ومن هو أهل لفضله ، ومن ليس أهلا للفضل . وحكيم : يضع الأشياء موضعها .



هجرة النبي صلى الله عليه وسلم

وأصحابه الى المـدينة

بدء تألف الأنصار للدعوة الاسلامية :

كانت يثرب ، وهى التى اشتهرت باسم المدينـة ، يسكنها قبيلتان : بنو الأوس ، وبنو الخزرج ، وكان الأوس والخزرج أخوين ، وكان بين أولادهما وأحفادهما من التنافس مالا يكون مثله إلا بين الأعداء الألداء ، وكان يجاور هاتين القبيلتين بيثرب قبائل الجاليات يهودية هاجرت من مواطنها ببـلاد الدولة الرومانيـة هربا بدينها من اضطهاد المسيحيين ، فكان بنو الأوس وبنو الخزرج يتفقون مع بعض جماعاتهم لمحاربة بعضهم لبعض . واتفق أن حدثت بينهم حرب ، دعيت يوم بُعاث على عادة العرب من تسمية حروبهم بالأيام ، أتت على أكثر قادتهم . فرأى بنو الأوس أن يحالفوا قريشا على أولاد عمهم الخزرج ، فارسلوا وفداً منهم تحت قيادة إياس بن معاذ ، وأبى الحيسر أنس بن رافع ، يفاوضون قريشا فى عقد هذا الحلف .

فلما بلغ النبي صلى الله عليه وسـلم خبر قدومهم جاءهم وقال لهم : هل لـكم فى خير مما جئتم له ؟ أن تؤمنوا بالله وحده ، ولا تشركوا به شيئا ، وقد أرسلنى الله الى البشر كافة ، وتلا عليهم آيات من القرآن الحـكيم .

فقال إياس بن معاذ : هذا والله خير مما جئنا له ، فعارضه أبو الحيسر وقال له : لقد جئنا لغير هذا ، فسكت إياس .

فلما جاء موسم الحج تقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم لرجال من الخزرج عددهم ستة ، ودعاهم الى الاسلام ، فشرح الله له صدورهم ، وقبلوه دينا لهم ، وقالوا لرسول الله : إنا تركنا قومنا وبينهم من السخائم ما بينهم ، فان يروا رأينا فى الاسلام فلا يـكون رجل أعز لدينا منك ، ووعدوه باللقاء فى الموسم المقبل .

فلما أقبل الموسم قدم الى مكة اثنا عشر رجلا للتفاوض مع النبي صلى الله عليه وسلم ، منهم عشرة من الخزرج واثنان من الأوس ، واجتمعوا برسول الله عند العقبة ، واتفقوا معه على الاسلام ، وبايعوه على أن لا يشركوا بالله شيئاً ، ولا يسرقوا ولا يزنوا ولا يقتلوا أولادهم ، ولا يأتوا ببهتان ولا يعصوه فى معروف . وقد سمى هذا الاتفاق ببيعة العقبة الأولى .

ولما أزمعوا العود الى يثرب أصحبهم النبي صلى الله عليه وسلم رجلين من خيرة رجاله : مصعب بن عمير العبدرى ، وعبد الله بن أم كلثوم ، ليذيعا الاسلام فى القبيلتين ، ويدعوا اليه ، ويعلما من يدخل فيه .

فنزل مصعب على أحد الذين بايعوا رسول الله وهو أبو أمامة أسعد بن زرارة ، وأخذ يدعو الناس للاسلام . فلما نمى الخبر الى سعد بن معاذ رئيس الأوس ، قال لابن عمه أسيد بن حضير : يا ابن عم ألا تقوم الى هذين الرجلين اللذين يفتنان ضعفاءنا لتزجرهما ؟

فنهض أسيد بن حضير يريدهما ، فلما رآه أسعد بن زرارة ، مضيف مصعب ، قال له : هذا سيد قومه قد جاءك فاصدُق الله فيه .

فلما حاذاهما قال لهما : ما جاء بكما تسفهان ضعفاءنا ؟ اعتزلا إن كان لكما بنفسيكما حاجة .

فقال له داعية الاسلام مصعب : ألا تجلس فتسمع فان رضيت أمرا قبلته ، وإن كرهته كففنا عنك ما تكره ؟ فجلس ، فقرأ عليه مصعب آيات من القرآن فيها هدى وبلاغ ، فوقعت من قلبه أرفع موقع ، فلم يقم من مجلسه إلا مسلما .

لما عاد أسيد بن حضير الى رئيسه سعد بن معاذ سأله عما فعل ، فقال : والله ما رأيت بالرجلين بأسا .

فاستشاط سعد غضبا وقام لهما بنفسه ، فقابله مصعب بما قابل به رسوله ، فلم يتمالك نفسه بعد سماعه ما سمع إلا أن أسلم ، وكان إسلامه خيرا وبركة ، فانه لما عاد لقى رجالا من بنى عبد الأشهل وهم من الأوس وقال لهم : ما تعُدُّوننى فيكم ؟ فأجابوه أنت سيدنا وابن سيدنا ، فقال : كلام رجالكم ونسائكم علىّ حرام حتى تسلموا .

فلم يبق بيت من بيوت بنى عبد الأشهل إلا أجابه ، وسُرْعان ما عم الاسلام يثرب كلها ولم يبق لأهلها حديث غيره .

بيعة العقبة الثانية :

لما أقبل العام التالى لعام البيعة الأولى ، قدم مكة كثيرون من أهل يثرب ، فلقى النبى صلى الله عليه وسلم مسلميهم ، فواعدوه الاجتماع ليلا عند العقبة ، فامرهم أن يتلطفوا فى المجىء ، وأن لا يشعروا بهم أحدا ، لكى لا يتنبه لهم القرشيون ، ويعملوا على منع اجتماعهم . فلما

مضى ثلث الليل الأول خرجوا من مضاربهم يتسللون تسلل القطا الى مكان الاجتماع ، وما زالوا يحتشدون حتى تم عددهم ثلاثة وسبعين رجلا ، منهم اثنان وستون من الخزرج ، وأحد عشر من الأوس ، ومعهم امرأتان ، ووافاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومعه عمه العباس بن عبد المطلب وهو على دين قومه وإنما جاء معه ليشد أزره . ولما أنصتوا ليسمعوا ما يلقى إليهم ، قال لهم العباس : إن ابن أخى محمدا فى منعة من عشيرته لم يمكنوا منه أحدا ، وقد تحملوا فى ذلك أعظم العنت ، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما وعدتموه به من الحماية ، ومانعوه ممن يتقصده بسوء ، فأنتم وما تحملتم من ذلك ، وإلا فدعوه بين عشيرته يحمونه بما يصل اليه جهدهم .

فقال كبير القوم البراء بن معرور : والله لو كان فى أنفسنا غير ما ننطق به لقلناه ، ولكننا نريد الوفاء والصدق ، وبذل أنفسنا دونه .

عند ذاك قال القوم للنبي صلى الله عليه وسلم : خذ لربك ولنفسك ما أحببت .

فقال : أشترط لربى أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا ، ولنفسى أن تمنعونى مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم متى قدمت عليكم .

فقال له الهيثم بن التَّيِّهان : يارسول الله إن بيننا وبين الرجال عهودا ، وإنا قاطعوها ، فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ، ثم أظهرك الله أن ترجع الى قومك وتدعنا ؟

فتبسم صلى الله عليه وسلم وقال : بل الدم الدم ، والهدم الهدم . أى إن طالبتم بدم طالبت به معكم ، وإن أهدرتموه أهدرته .

ثم بدأت المبايعة على ما طلب . ولما تمت اختار منهم اثنى عشر رجلا ، تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس ، لكل عشيرة منهم واحد ، والتفت اليهم قائلا : أنتم كفلاء على قومكم ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم ، وأنا كفيل على قومى .

فبلغ قريشا أمر هذا الاجتماع فهالهم ، ولقوا أهل يثرب وقالوا لهم : يا معشر الخزرج بلغنا أنكم جئتم لصاحبنا تخرجونه من أرضنا ، وتبايعونه على حربنا . فأنكر مشركوهم ذلك ، لأنهم لم يشعروا به ، وحلفوا لهم أنه لم يحصل منهم شىء فى ليلتهم ، وقال لهم رئيسهم عبد الله بن أُبَىّ : ما كان قومى ليفتاتوا على بشىء من مثل هذا .

يثرب معقل الاسلام :

لما عاد وفد الأوس والخزرج الى مدينتهم شاع فيها الاسلام ، وتحققت قريش من ذلك أن ما كان بلغها من ممالأة أهلها للنبي صلى الله عليه وسلم صحيح ، وأدركت ما يبتنى على إغضائها عنه من الأحداث والكوارث ، فشددت الرقابة على رسول الله ، وزادت فى التضييق على أصحابه لتحملهم على الانفضاض من حوله . فأمرهم صلى الله عليه وسلم بالفرار بدينهم الى المدينة ، فأخذوا

يتسللون اليها خفية ، حتى لم يبق فى مكة غير أبى بكر وعلى وصهيب الرومى وزيد بن حارثة وقليل من المستضعفين الذين لا يستطيعون الانتقال . وأراد أبو بكر الهجرة ، فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : على رِسْلك فانى أرجو أن يؤذن لى ، فقال الصديق : وهل ترجو ذلك ؟ قال نعم ، فمكث أبو بكر مع رسول الله ليهاجر معه ، وأخذ فى إعداد راحلتين كانتا له وتغذيتهما ورق السَمُر لتقويا على تحمل مشاق السفر .

مبادرة قريش الى اتخاذ قرارات خطيرة :

لم تكتف قريش بما اتخذته من رقابة ، وما بالغت فيه من اضطهاد ، ورأت أن أمر رسول الله قد استفحل بما أصبح له من علاقات خارجية تفضى لا محالة الى نشوب حروب طاحنة ، ونشوء كوارث ماحقة ، لذلك دعت رجالاتها الى الاجتماع للمشاورة فى دار ندوتهم ، على عاداتهم فى الشئون الهامة ؛ وكانت هذه الندوة دار قصى بن كلاب .

فلما التأم جمعهم أخذوا يتآمرون ، فقال قائل منهم : نخرجه من أرضنا كى نستريح منه .

فرد عليه بعضهم بقوله : إذا خرج فيوشك أن تجتمع عليه الجموع فلا نأمن غائلته ، ونجد منه ومن مناصريه عنتا .

وأدلى واحد آخر برأيه فقال : نحبسه حتى يأتيه الموت .

فعارضه بعض المؤتمرين بقوله : إذا فعلنا ذلك فلا نأمن أن يجىء أنصاره بيثرب لتخليصه ، فتقع الحرب بيننا وبينهم .

هنا انبرى شيخ منهم وقال : الرأى عندى أن تشترك جميع بطون قريش وأفخاذها وعشائرها فى قتله ، بأن ننتدب من كل منها شابا فيجتمع عليه هؤلاء الشبان فيضربوه ضربة رجل واحد ، فيتفرق دمه فى القبائل فلا تقوى عشيرته على حرب قريش كلها ، ويرضون بأخذ ديته . فقبل جميع المؤتمرين هذا الرأى ، وأصروا على تنفيذه .

فأوحى الله الى رسوله بما بيته له قومه ، وأمره أن يهاجر الى يثرب ليلحق بأنصاره هنالك ، ويستقبل من أمر الدعوة عهدا جديدا .

نظرة علمية فى هذه الحوادث :

قبل أن نأتى على تفصيلات الهجرة النبوية ، وما احتوشتها من محاولات القرشيين فى منعها وتعقبها ، رأينا أن نقف فى هذا الموطن هنيهة للنظر فى التعليلات التى أبديت لتفسير الاسلام الفجائى لقبيلتين لا تمتان بسبب الى أية دعوة دينية ، ولا يعنيها من أمر النهوض الاجتماعى للأمة العربية ما لا يعنى غيرها . فاننا نرى أن تلك التعليلات ، حتى الاسلامية منها ، لاتقنع الخبيرين بعوامل التطورات النفسية والاجتماعية ، ولا تبين من حقيقة هذا الأمر الجلل ما يجب أن يُعرف ، وخاصة فى هذا العصر الذى لا ينخدع أهله بالخلابات الكلامية .

إنى أرى فى هذا الأمر حادثا اجتماعيا لم يسجل تاريخ التطورات النفسية والاجتماعية له مشبها، فان كان كل ما لا يمكن تعليله بعلة طبيعية يعتبر آية ، فهو آية يزيدها مر الأيام جلالا وعظما . ولكن المدار على وضع هذه المسألة وضعا علميا تصلح معه لأن تحلل الى عناصرها الأولية .

وفى نظرى أن بيان هذه الناحية من قوة السريان فى الديانة الاسلامية ، وفى سرعة تلقف النفوس لها ، والتأثر بها الى أقصى حدود التضحية ، يكشف من أسرار هذا الروح الإلهى ، وهو الاسلام ، ومن صحة رسالة الداعى اليه ، وهو محمد ، ما لا تكشفه أية ناحية أخرى .

علل كتاب السيرة المسلمون هذا الأمر الجلل بأن اليهود الذين كانوا مجاورين لأهل يثرب كانوا يتحدونهم بقولهم لهم: إن نبيا يرسل آخر الزمان من بلاد العرب ، فاذا ما ظهر اتبعناه واتفقنا معه عليكم وقهرناكم . فلما بعث النبى صلى الله عليه وسلم ودعا للاسلام ، تذكر أهل يثرب ما كان يهددهم به أعداؤهم ، وقال بعضهم : لبعض هلم بنا اليه ، لا يسبقنا الاسرائيليون الى اتباعه . ثم ما كان منهم إلا أن تسارعوا الى تلبية ندائه ، واضطلعوا من مهام نصرته بما لا يقدم عليه إلا المتفانون فى ولائه .

هذا التعليل الذى تناقله جميع كتاب السيرة ، ويفرح به الذين لا يرون فى حوادث الدعوة الاسلامية إلا أمورا عادية يمكن تعليلها بعلل طبيعية ، لا يسلم من النقد ، بل لا يقوى على احتماله ، لأن أهل يثرب لم يدخلوا فى الاسلام ، ولم ينتدبوا للاضطلاع بالدفاع عنه ، إلا بعد أن مضى على إعلان النبى صلى الله عليه وسلم له نحو ثلاث عشرة سنة ، فأين كانوا من الاسلام طوال هذه المدة ، وكيف لم يخشوا أن يسبقهم اليه اليهود الذين توعدوهم به ، ولم أحجم هؤلاء اليهود عن المسارعة الى قبول دعوته ، وقد بلغتهم بمكة وبالمدينة أيضا قبل إسلام الأوس والخزرج بسنين كثيرة ؟

ألا يدل هذا الانصراف الطويل من الجانبين على أنهم كانوا لا يفكرون فى الاستنصار بالنبى الجديد على مناهضيهم ؟

وإذا صح أن اليهود كانوا يعتقدون بوشك ظهور نبى فى بلاد العرب ، وأنهم يعولون على الانضمام اليه ، والاستنجاد به ، أكانوا يصرحون بذلك لأعدائهم غير خاشين أن يسبقوهم الى الدخول فى دينه ، ولم يعهد فى تاريخ بنى إسرائيل أنهم كانوا من إفشاء أسرارهم بحيث يطلعون أعداءهم على صميم سرائرهم ؟

وإذا كان هذا مما لا يمكن قبوله ، فهل يمكن قبول أن الأوس والخزرج كانوا من السذاجة بحيث يصدقون كلام اليهود ، ويبادرون الى الدخول فى دين جديد ، وخاصة إذا كان الداعى اليه مضطهدا ، وأصحابه مستضعفين لا يغنون عن أنفسهم شيئا ؟

كان ميلهم الى الدخول فى طاعته ، إذا كان لديه رجال ومال يرجون أن يتقووا بهم على

أعدائهم ، مما يمكن أن يعقل ، أما والنبى نفسه كان يطلب اليهم الحماية والنصرة على أعدائه ، وليس لديه مال ولا عتاد يمكن الاعتماد عليهما ، فما يستحيل تعقله ، وخاصة لأن الاتفاق معه يوقعهم فى حرب مع قريش ، فكيف يصدر من قوم عقلاء أن يستكثروا من الأعداء فى الوقت الذى كانوا هم فيه يريدون الاستكثار من الأنصار بطلبهم محالفة قريش ؟

أجمع كتاب السيرة على أن الأوس كانوا أوفدوا رجالا منهم لطلب معونة قريش ، وأن النبى صلى الله عليه وسلم قابلهم ودعاهم للاسلام فقبلوه ، فكيف يتفق هذا وما قالوه من أن الأوس والخزرج بادروا الى الاسلام للاستنصار بالنبى صلى الله عليه وسلم على أعدائهم ؟

لم يبق إلا أن يقال إن هؤلاء اليثربيين أسلموا لأنهم تحققوا أن الله ناصر رسوله لا محالة ، وأنهم بالدخول فى طاعته يضمنون التغلب على خصومهم ، وهذا مما لا يسيغه العقل ، ولا يمكن أن يقبله العلم ، وتدل ماجريات الحوادث على خلافه .

فأنَّى لقبيلتين جاهليتين أن تعتقدا برسالة لم يقم دليل على صحتها ، بل لا تزال مضطهدة ، مغلوبا على أمرها ، ولم يظهر بعدُ ما يدل على أن العاقبة ستكون لها ، وليستا أهل كتاب ، ولا تعرفان من أمر النبوات إلا ما يترامى إليهما من أحاديث عامة اليهود فى بلادهما ؟ وأنَّى لآحادها أن يحصلوا إيمانا راسخا يسمح لهم أن يبيعوا أنفسهم ، ويبذلوا أموالهم ، فى سبيل نصرة ديانة لم يتم تكونها بعد ؟

بعض هذا لم يعهد فى طبيعة البشر ، فما ظنك به كله طفرة وعلى غير انتظار ؟

لننظر فى تعليلات غير المسلمين :

يقولون : إن الحرب التى كانت قائمة بين الأوس والخزرج كانت قد طال عهدها وأصبحت علة مزمنة دفعتهما لطلب المخرج منها بأى ثمن ، فلما انتشرت الدعوة الاسلامية رأتا أن خير وسيلة لوضع حد لذلك التناحر ، أن يدخلا فى الدين الجديد ، ويعودا الى سالف صفائهما بسببه ، فأقدما على ما أقدما عليه .

نقول : فهل كان غاب عن الأوس والخزرج أنهما بالحصول على السلام بينهما بهذا الثمن يستجلبان عداوة قريش وحلفائها ، ومن يهمه ملاشاة الدعوة الاسلامية من سائر العرب ، فتقعا فى شر مما هربت منه ، وتصبحا هدفا لسخط العرب واليهود معا ؟

أما توهم أن قريشا كانت تغضى عن محمد وعنهما فمستحيل ، لأن العرب كانوا يتقاتلون لأضعف الأسباب كسبق حصان ، أو قتل ناقة ، أو قصيدة هجاء ، فهل كانت تغضى قريش ، وهى القيمة على دين العرب ، عن إيواء قبيلتين رجلا منها يسب آلهتها ، ويحقر ديانتها ، ويسفه أحلامها ، ويتوعدها بالشر ، ويستهوى الناس لاتباعه ، حتى إذا ما قوى شأنه ، أغار عليها فأزال سلطانها ، وحطم أصنامها ، وأباد خضراءها ؟

اللهم لا ، وكان الأوس والخزرج يعلمون ذلك ولا يتجاهلونه ، فهل كان بلغ بهم اختلال العقل الى جلب عدد لا يحصى من الشرور على أنفسهم فى سبيل التخلص من شر واحد يمكن أن يُتقى بوسائل كثيرة ؟

الخيال فى هذه المواطن خصب ، فيمكن أن تُنتحل لدخول الأوس والخزرج فى الاسلام فجأة أسباب معاشية ونفسية واجتماعية ، فيقال مثلا : إنهم أرادوا بالانضمام الى دعوة دينية أن تمهد لهم سبل الغارات والفتوح ، فيغنموا ويثروا تحت ستار إقامة الحق فى الأرض .

أو أن يكونوا قد تهذبت نفوسهم ، وتطورت عقولهم ، فكرهوا أن يقيموا على وثنية منحطة كالتى كان يدين بها العرب ، فلما ظهر دين التوحيد الخالص تسارعوا الى اتباعه .

أو أن يكونوا قد ترقى شعورهم القومى فكرهوا أن يبقى العرب على الحالة القبيلية إزاء أمم العالم ، وتاقوا لأن ينتقل مواطنوهم درجة أو درجات فى سلم الاجتماع ، ورأوا أن هذا لا يكون إلا تحت ستار دعـوة دينية ، أو نعرة جنسية ، فلما بُعث النبى صلى الله عليه وسلم ودعا الى التآلف والتحاب اتبعوه لتحقيق غرضهم الشريف .

كل هـذه خيالات لأن الأوس والخزرج لم يكونوا فى حالة يرجـون معها أن يوسعوا على أنفسهم دائرة التناحر ، أو ينهضوا للفتوح دون أن يعتمدوا على ركن ركين من مال وجاه .

ولم يعرف عنهم تهذب نفسى ، وتطور عقلى ، يدفعانهم الى تطلب غذاء روحى أرقى مما لغيرهم من سائر العرب . فاذا كانت قريش على كثرة صِلاتها بالقبائل ، وانتقالاتها الى الخارج ، لم تبلغ مثل هذه الدرجة ، فيصعب أن يتصور العقل أن تبلغها قبيلتان متناحرتان ، لم تدع لهما حالة الحرب فرصة صالحة للتفكير فى الشئون الدينية والاجتماعية . وهذه الأمم المتمدنة أمامنا متى وقعت فى حرب تجردت للنضال ، وتركت هذه الشئون جانبا ، حتى يجىء عهد السلام ، وتتفرغ للتأمل والتفكير هادئة مطمئنة .

بقيت شبهة يمكن أن يتذرع بها متلمس التعليلات الطبيعية ، وهى أن قبيلتى الأوس والخزرج بَرِمتا باليهود الى حـد تلمس المخلص منهم من أى وجه كان ، فترامتا على الاسلام رجاء أن تصادف فيه مخرجا .

هذه الشبهة لا تقوى على النقد ، لأننا رأينا أن الأوس والخزرج كان بعضهم يتفق مع بعض قبائل اليهود على بعض ، فـكان البأس الشديد بينهم وبين أنفسهم ، لا بينهم وبين اليهود .

على أننا نقول : من أية النواحى كانوا يرجون المخلص بالدخول فى الاسلام وهو يحملهم أعباء حربية جديدة ، ويدفعهم الى التورط فى منازعات لا تعتبر منازعات اليهود بجانبها شيئا ، منها عداء قريش ، وعداء جميع قبائل العرب ، ويزيد عليهم اليهود أيضا ؟

فهذه الافتراضات كلها كما ترى خيالية ، ولا يمكن أن يقام لها وزن فى تعليل مثل هذه الانتقالات الفجائية ؟

فلم يبق أمامنا إلا تعليل واحد ، وهو أن قيم الوجود تعلقت إرادته أن يحدث فى العالم الانسانى انتقالا جديدا ، بارسال خاتم للمرسلين اصطفاه من بلاد العرب ، أبعد بيئات العالم عن توليد الانقلابات الاجتماعية ، ليكون أمره كله إعجازا فى إعجاز ، فبث فى رُوع قبيلتين منها هداية إجماعية ، وهو أمر بعيد الحصول فى عالم التطورات العقلية ، فقبلتا أن تضطلعا بعبء حماية الدعوة الاسلامية ضد الأبيض والأسود ، أى ضد العالم كله ، وهى مهمة تعتذر عن قبولها أمة عظيمة ، فماظنك بقبيلتين صغيرتين لا يتجاوز عدد أهلها خمسة آلاف نسمة ، ولا تستطيعان أن تلقى فى ساحة الوغى أكثر من ألف رجل على أكبر تقدير ، وليس لهما من المال ما تنفقانه على مثل هذا العسكر سنة واحدة .

ما هذا الإقدام المحير للعقل من جماعة من الناس لو توجهت إليها حفيظة أمة برمتها لخروجها عليها ، لارتعدت فرائص أشجع أبطالها ؟ بل ما هذه التضحية التى لا يقبلها إلا من وصل الايمان الى أعماق قلبه ، حتى فنيت فيه شخصيته ، وأين هو من الأوس والخزرج ولم يجتمعا بالنبى صلى الله عليه وسلم إلا لحظات مختلسة فى الليالى المظلمة ؟

لو كان لمحمد مال ، أو مدد من الرجال ، أو اتصال بأمة عظيمة تنصره إذا اقتضت الحال ، لقلنا إن الأوس والخزرج إنما مالوا الى حيث يرجون العز والسؤدد ، ولكنهم حيال رسول عدم الناصر من قومه ، وليس يتوقع له فوز يطمع فى خيره ، فما الذى جمعهم على التطوع لنصرته ، والتضحية بنفوسهم فى سبيل دعوته ؟

اللهم إنى عجزت عن تعليل هذا الأمر الجلل بالعلل الطبيعية ، ولا أراه إلا آية إلهية ، وكم فى الأرض والسموات من آيات يتخيلها الجاهلون أمورا عادية ؟

محمد فريد وجدى

التنزيه الخالص

قال الله تعالى : « يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علما » .

وقال النبى صلى الله عليه وسلم : « إن الله احتجب عن البصائر كما احتجب عن الابصار ، وإن الملأ الأعلى يطلبونه كما تطلبونه أنتم » .

وقال على رضى الله عنه : « كل ما يتصور فى الأوهام فالله بخلافه » .

وقال الشافعى رضى الله عنه : « من انتهض لطلب مدبره فان اطمأن الى موجود ينتهى إليه فكره فهو مشبه ؛ وإن اطمأن الى نفى محض ، فهو معطل ؛ وإن اطمأن الى موجود واعترف بالعجز عن إدراكه فهو موحد » .

السنة

حكم الوصية بالمال وغيره

عن سعد بن أبي وَقاص رضى الله عنه ، قال : « جاء النبيّ صلى الله عليه وسلم يَعودُنى وأنا بمكة ـ وهو يكرهُ أن يموتَ بالأرض التى هاجر منها ـ قال : يرحمُ اللهُ ابنَ عَفْراء ، قلت : يا رسول الله : أُوصِى بما لى كله ؟ قال : لا ، قلت : فالشطر ؟ قال : لا ، قلت : الثلث ؟ قال : فالثلث والثلث كثير ، إنك إنْ تدعَ ورثتك أغنياءَ خيرٌ من أن تَدَعَهم عالةً يتكففُون الناسَ فى أيديهم ، وإنك مهما أنفقت من نفقة فانها صدقة حتى اللقمة ترفعها الى فى امرأتك ؛ وعسى الله أن يرفعَك فينتفعَ بك ناسٌ ويُضَرَّ بك آخرون . ولم يكن له يومئذ إلا ابنة » . رواه البخارى فى الوصايا .

يتعلق بشرح هذا الحديث أمور : (١) بيان معنى الوصية وحكمها . (٢) بيان معنى الحديث إجمالا . (٣) بيان ما تضمنه الحديث من الحث على الاقتصاد فى المال حتى فى عمل الخير مراعاة لحقوق الورثة .

(١) تطلق الوصية فى اللغة على معان ، يقال : أوصيت الى فلان بمال : جعلته له وخصصته به . ويقال : أوصيته بولده : استعطفته عليه . ويقال : أوصيته بالصلاة : أمرته بها . وتطلق لغة أيضا على وصل الشيء بالشيء ، فيقال : وصيت الحبل بالحبل إذا وصلته به . ومناسبة هذا المعنى للمعنى الشرعى الآتى بيانه ، أن الموصى لما أوصى بالمال بعد موته كأنه وصل ما بعد الموت بما قبله فى نفوذ تصرفه . وتجمع الوصية على وصايا ، على زنة هدية وهدايا .

وأما معناها فى اصطلاح الفقهاء : فقد عرفها الحنفية بأنها « تمليك مضاف الى ما بعد الموت بطريق التبرع » . فقولهم : « تمليك » يشمل العقود التى تنقل الملكية ، كالبيع والهبة وغيرها . وقولهم : « مضاف لما بعد الموت » معناه أن الملك فى الوصية لا يتقرر إلا بعد الموت ، بحيث لا يكون العقد نافذا إلا بعد الموت . وهذا القيد يخرج جميع العقود ما عدا الوصية . أما قولهم : « بطريق التبرع » فانه لزيادة الإيضاح . وبعضهم أخرج به الإقرار بالدين

لأجنبى ، فلو أقر فى حياته بدين لآخر ثم مات ، كان ذلك الإقرار تمليكا للدين بعد الموت . ولكن الواقع أن الإقرار ليس هو تمليكا للدين ، وإنما هو إظهار لما فى الذمة من حق مملوك للدائن من أول الأمر ، فهو خارج بلفظ التمليك . ولا فرق فى الموصَى به بين أن يكون عينا أو منفعة . فاذا أوصى ببستان أو نقود أو غيرها فانه يصح ، كما إذا أوصى بمنفعة ذلك البستان من ثمر وغيره . ولا يشترط أن يصرح بلفظ الوصية ، كما لا يشترط أن يضيفها الى الموت لفظا ؛ إنما الشرط أن يذكر لفظ الوصية أو ما يدل عليها . فاذا قال : لفلان ألف قرش مثلا من ثلث مالى ، فان ذلك يكون وصية ؛ أما إذا قال : من نصف مالى أو ربعه ، فان ذلك لا يصح ، لأن الوصية لا تكون إلا من ثلث المال ، فلا دلالة فى مثل هذه العبارة على الوصية .

وهذا التعريف قد وافق عليه بعض محققى المالكية بنصه ، ولكن المشهور فى نص تعريف الوصية عندهم هو أنها « عقد يوجب حقا فى ثلث مال العاقد يلزم بموته ، أو يوجب نيابة عنه » . ومعنى الجزء الأول من هذا التعريف متفق عليه بينهما ، لأنه عبارة عن تمليك مترتب على عقد التبرع بمال بعد الموت ، ولا يكون ذلك العقد لازما إلا بعد الموت . ومعنى الجزء الثانى وهو قولهم : « أو يوجب نيابة عنه » أن عقد الوصية كما يوجب حقا فى ثلث المال بعد الموت كذلك يوجب نيابة عنه فى التصرف فى بعض الأمور بعد الموت ، كأن يوصى بأن يقوم شخص على أولاده الصغار بعد الموت ، أو يزوج بناته ، أو يفرق ثلث ماله ، أو يقوم بتجهيزه ودفنه بصفة خاصة ، أو نحو ذلك . والوصية بهذا المعنى تكون إيصاء بمعنى إقامة الوصى . فالوصية عندهم عقد يوجب حقا فى مال المتوفى ، أو يوجب النيابة عنه فى بعض الشئون . والمالكية يشترطون فى صيغة الوصية أن تكون مشتملة على ما يدل على الوصية من لفظ صريح : كأوصيت ، أو غير صريح ولكن تفهم منه الوصية بالقرينة : كأعطوا لفلان كذا بعد موتى .

أما الشافعية فقد عرّفوا الوصية بأنها « عقد تبرع بحق مضاف الى ما بعد الموت » سواء أضاف ذلك التبرع الى الموت لفظا أولا . ويشترط عندهم أن تكون بلفظ يدل على الوصية صريحا أو كناية ، فمثال الصريح : أوصيت بكذا لفلان ، أو أعطوه كذا ، أو هذا المال لفلان بعد موتى ، أو هو له هبة بعد موتى ؛ فكل ذلك ونحوه وصية صريحة . وأما الكناية فكأن يقول : لفلان كذا من مالى ، ولم يذكر بعد الموت .

ومما لا خفاء فيه أن الوصية تطلق فى اللغة على الإيصاء بمعنى إقامة الوصى ، كما تطلق على ما يوصى به من مال أو غيره . وهذا المعنى لم يختلف مع المعنى الشرعى فى الواقع ، لأن الشارع يعتبر إقامة الوصى وصية ، كما يعتبر العقد الذى يدل على تمليك الموصى به شيئا من مال أو غيره وصية . فاذا لوحظ هذا المعنى كان متفقا عليه عند الجميع . والحنفية يقولون :

إن لفظ التمليك الذى ذكر فى التعريف يتناول تمليك المال وغيره ، ولا فرق فى هذا بين تمليك وصى أو غيره .

أما حكم الوصية : فقد اتفقت الأئمة الأربعة على أن الوصية ليست بواجبة ، ولكن قد تكون واجبة لأمر خارج عنها ، وذلك كما إذا كان عليه دين أو عنده وديعة يخشى أن تضيع على صاحبها فانه يجب عليه أن يوصى بردها الى صاحبها ، كما يجب عليه أن يوصى بسداد دينه ولو كان مؤجلا . فالوصية إنما تجب إذا أريد منها أداء حقوق الغير الواجبة . وإنما تجب فى هذه الحالة إذا عجز عن تنجيز ما عليه ، ولم يكن لصاحب الحق مستند يمكنه أن يثبت به حقه . وقد تكون الوصية مندوبة ، وذلك فيما إذا رجا منها كثرة الأجر . وتكون مكروهة إذا لم يرج منها كثرة الأجر ، وذلك كأن يكون انتفاع الورثة بها أكثر . وتكون مباحة إذا استوى عنده الأمران . وتكون محرمة إذا ترتب عليها إضرار بالورثة ؛ فقد روى عن ابن عباس أن الإضرار فى الوصية من الكبائر . على أن بعض المجتهدين يقول إن الوصية واجبة على أى حال ، بحيث إذا كان لدى الشخص مال فانه يجب عليه أن يوصى . ومن هؤلاء داود وإسحاق . واختار هذا القول أبوعوانة الاسفرايني وابن جرير وغيرهم . ولكن جمهور المجتهدين يرى أنها ليست بواجبة ، حتى قال بعضهم : إن الإجماع قد انعقد على أنها ليست بواجبة سوى من شذ . وبذلك تعلم أن الرأى المعول عليه هو ما قررناه لك من أنها تارة تكون واجبة ، وتارة تكون محرمة ، وتارة تكون مندوبة .

ولنذكر هاهنا أمثلة مما تصح الوصية فيه ، ومما لا تصح عند الأئمة الأربعة : فتصح الوصية بالحج باتفاقهم جميعا ؛ فاذا أوصى شخص بأن يحج عنه بعد موته ، فان وصيته تصح ، ويجب تنفيذها من ثلث ماله . وبعض أئمة الحنفية يرى أن من لم يحج حجة الفريضة فانه يجب عليه أن يوصى بها .

ولا تصح الوصية بقراءة القرآن على القبور أو فى المنازل ، وتقع باطلة عند الحنفية . هذا إذا لم يعين شخصا يقرأ على قبره أو فى منزله ، كأن يقول : أوصيت لمحمد أو لعلى أن يقرأ على القبر الذى أدفن فيه ، ونحو ذلك ؛ فاذا عين شخصا يقرأ فان فى ذلك خلافا ، فبعض الحنفية يقول : لا تصح الوصية أيضا مع هذا التعيين ؛ وبعضهم يقول : إنها تصح بشرط أن يأخذ المال الموصى به بطريق البر والصلة ، لا بطريق الأجرة على القراءة .

ومثل الوصية بالقراءة ، الوصية بالتهاليل (العتاقة) المعروفة عند الناس ، فان الوصية بها باطلة إذا لم يعين شخصا ؛ فاذا عين شخصا ، جرى فيها الخلاف المتقدم . وقد خالفهم فى ذلك المالكية والشافعية ، فقالوا : إن الوصية لمن يقرأ على القبر أو فى المنزل تصح ، ويجب تنفيذها ، كالوصية بالحج ، لا فرق فى ذلك بين أن يعين الشخص الموصى له أو لم يعينه .

ولا تصح الوصية بالبناء على القبور ، فاذا أوصى بأن يشيد على قبره بناء تقع الوصية باطلة بلا خلاف . نعم تصح برم القبر الذى يوضع فيه الجسم إذا تهدم بشرط أن لا يبنى عليه بناء مرتفع كالمنازل مما يفعله الناس فى زماننا . نعم تصح الوصية ببناء ما يميز القبر ؛ وحدّه بعض الأئمة بمقدار شبر ، وبعضهم بمقدار ذراع ، ونحو ذلك .

ولا تصح الوصية بأن ينقل من الموضع الذى مات فيه الى موضع آخر ؛ وإذا نقله الوصى وأنفق عليه يكون ملزما بما أنفقه من ماله لا من التركة ، إلا إذا أجازه الورثة . وإذا أوصى بأن يدفن فى داره بطلت وصيته ، إلا أن تجعل داره مقبرة للمسلمين .

وإذا أوصى بمبلغ كبير يشترى به كفنه فانه لا يعمل به ، ويكفن بكفن المثل .

وإذا أوصى بمصاحف توضع فى المسجد ، فان وصيته تكون باطلة عند أبى حنيفة .

وبالجملة : فالوصية لا تصح إلا إذا كانت متعلقة بأمر من الأمور التى يجيزها الشارع .

(٢) هذا معنى الوصية وحكمها . أما شرح ألفاظ الحديث فظاهرة ، لأن سعد بن أبى وقاص سافر من المدينة الى مكة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع ، فمرض سعد بمكة مرضا شديدا حتى ظن أنه سيموت بمكة ، وهو يكره أن يموت بالأرض التى هاجر منها ، ويود أن يموت بالمدينة التى هاجر اليها ، فعاده النبى صلى الله عليه وسلم فقال صلى الله عليه وسلم : يرحم الله ابن عفراء ! يريد به سعد بن خولة ، وعفراء اسم أمه على التحقيق ، وخولة اسم أبيه ؛ وإنما قال ذلك صلى الله عليه وسلم ، لأن سعد بن خولة توفى بمكة بعد أن هاجر الى المدينة ، فكان عليه الصلاة والسلام يرثى له ، وقد ذكره لمناسبة كراهية سعد بن أبى وقاص الدفنَ بمكة .

وقوله : « إنك إن تدع » بكسر إنْ على الشرطية ، وجواب الشرط قوله « خير من أن تدعهم » ، ولا يضر حذف الفاء من الجواب ، لأن ذلك قد ورد عن العرب ، بل ورد فى كلام رسول الله حيث قال : « البينة وإلا حدٌّ فى ظهرك » . وقوله : « عالة » جمع عال ، ومعناه الفقير ، تقول : عال فلان يعيل ، إذا افتقر . وقوله : « يتكففون الناس فى أيديهم » : يسألون الناس بأكفهم ؛ يقال : تكفف الناس : إذا بسط كفه للسؤال ، أو سأل وضع الصدقة فى كفه ، أو سأل كفا من طعام . وقوله : « فى أيديهم » معناه بأيديهم . وقوله : « وعسى الله أن يرفعك » معناه : يطيل عمرك . وبذلك تعلم أن قوله فى الحديث : « وهو يكره أن يموت بالأرض التى هاجر منها » المراد به سعد بن أبى وقاص راوى الحديث ، وكان الظاهر أن يقول : وأنا أكره أن أموت بالأرض التى هاجرت منها ، ولكنه عبر بهذه العبارة بطريق الالتفات . والدليل على ذلك ما صرح به فى حديث آخر رواه البخارى ، وإن كان يحتمل هنا أن الضمير عائد الى النبى صلى الله عليه وسلم ، فانه يكره أن يموت بالأرض التى هاجر منها كما يكره سعد . وقد تحقق إخبار الرسول

صلوات الله عليه بذلك ، فان سعدا قد عاش بعد ذلك طويلا ، حتى إنه قاد الجيش الذى فتح مدائن كسرى فى عهد سيدنا عمر ، ورزق أولادا كثيرين نحو عشرة من ذكور وإناث .

(٣) أما بيان ماتضمنه الحديث من مراعاة حقوق الوارث فأمره ظاهر ، لأن النبى صلى الله عليه وسلم كان دائما يحث الناس على أداء حقوق من يعولون . وقد ورد حديث صريح فى ذلك ، وهو قوله صلى الله عليه وسلم: « كفى بالمرء إثما أن يضيع من يعول » . وهذا الحديث الذى معنا صريح فى ذلك ، لأنه صلى الله عليه وسلم قال : « مهما أنفقت من نفقة فانها صدقة حتى اللقمة ترفعها الى فى امرأتك » . فهذا صريح فى مراعاة حال الورثة الذين يتركهم بعده . وإذا كان الشارع قد أمر بمراعاة حال الورثة فى أعمال الخير والبر، فمن باب أولى مراعاة حالهم فى الإنفاق ، فليس من الحسن أن تستهوى الشهوات المرء فتسوقه الى تبذير المال وإنفاقه ذات اليمين وذات الشمال حتى ينفد ويترك ورثته فى ضنك وبؤس وشقاء ؛ ومن يفعل ذلك كان آثما لا محالة ؛ ولا بد أن يسأل عن ذلك يوم لا تنفعه الشهوات التى قد انقضت كأنها لم تكن، ويدخل تحت قوله صلى الله عليه وسلم : «لا يجوز ابن آدم الصراط حتى يسأل عن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه » ؛ وقوله تعالى : « إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين ، وكان الشيطان لربه كفورا » . فالخير كل الخير أن يعمل الانسان بقوله تعالى : « والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا ، وكان بين ذلك قواما » ؟

عبد الرحمن الجزيرى

قيمة العلم عند المسلمين

قال الله تعالى : « هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » .

وقال النبى صلى الله عليه وسلم : « يوزن مداد العلماء ودماء الشهداء يوم القيامة فلا يفضل أحدهما على الآخر ؛ ولغدوة فى طلب العلم أحب الى الله من مائة غدوة ؛ ولا يخرج أحد فى طلب العلم إلا وملك موكل به يبشره بالجنة ؛ ومن مات وميراثه المحابر والأقلام دخل الجنة » .

وقال على رضى الله عنه : « أقل الناس قيمة أقلهم علما » .

وقال سهل بن عبد الله التسترى : « ما عصى الله أحد بمعصية أشد من الجهل » .

فقيل يا أبا محمد : هل تعرف شيئا أشد من الجهل؟ قال : نعم الجهل بالجهل مطية من ركبها زل ، ومن صحبها ذل .

وقال على رضى الله عنه : « الحكمة ضالة المؤمن فالتقفها ولو من أفواه المشركين » .

وقال النبى صلى الله عليه وسلم : « هلاك أمتى فى شيئين : ترك العلم ، وجمع المال » .

مكان الزكاة فى الاسلام

من الشئون الاجتماعية

إن للمجتمعات شئونا بصلاحها تصلح المجتمعات ، وبفسادها تفسد المجتمعات ؛ ولا نعلم أمة عنيت بشئونها الاجتماعية ، فأصلحتها وركزتها على نظم قوية مثمرة ، إلا تماسكت حياتها ، واضطردت عزتها ؛ وكذلك لا نعلم أمة أهملت تنظيم شئونها الاجتماعية إلا تمكنت منها روح الفوضى ، وتأخرت فى مضمار التسابق الاجتماعى ، ثم عاجلها الله بالفناء أو الذل والاستعباد : « فأما الزَّبَدُ فيذهب جُفَاءً ، وأما ما ينفع الناس فيمكُث فى الأرض » .

هذا مبدأ شهد به التاريخ ، وأرشدت اليه المَثُلات ، ولفت اليه القرآن ، ونوّه به فى غير آية : « ذلك بأنّ الله لم يَكُ مُغيِّراً نعمةً أنعمها على قوم حتى يُغيِّروا ما بأنفسهم » ، « وعَدَ الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنّهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، ولَيُمَكِّنَنَّ لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، وليبدلنّهم من بعد خوفهم أمْناً » .

بهذا المبدأ آمن حضرة صاحب الجلالة مولانا ملك مصر ، الذى تغذى بلبان الإصلاح النقية ، فرأى ، حفظه الله ، أن صلاح أمته لا يكون إلا عن طريق إصلاح شئونها الاجتماعية، فأنشأ لأول مرة فى تاريخ مصر حديثه وقديمه ، وزارة حمّلها تنظيم هذه الشئون ، على وجه تتخذ به الأمة سبيلها الى الحياة الطيبة والعيش الرغيد .

ويسرنى ، كما يسر المصريين جميعا ، أن هذه الوزارة تؤمن بأن لكل مجتمع طابعا خاصا ، ترسمه له قوميته الخاصة التى يكوّنها دين المجتمع ، ولغته ، وتقاليده الطيبة ، فتقدر أن إصلاح الشئون الاجتماعية لكل مجتمع لا بد أن يكون بإيحاء القومية الخاصة لذلك المجتمع ، وأن إيحاء القوميات المختلفة بطرق الإصلاح الاجتماعى ، لا يمكن أن يكون واحدا فى جميع المجتمعات ، فإصلاح اجتماع غربى لا يكون طريقه طريقا لإصلاح اجتماع شرقى ، وإصلاح اجتماع غير متدين لا يكون طريقه طريقا لإصلاح اجتماع متدين .

على هـذا الأساس يجب أن تستقبل وزارة الشئون الجديدة عملها ، فتتجه الى الإيحاء القومى فيما يختص بالدين الى أهل الدين ، وفيما يختص بالأخلاق والتقاليد الى أهل الأخلاق والتقاليد ، وفيما يختص بالصحة والنشاط البدنى الى أهل الصحة والنشاط البدنى ، وفيما يختص بالاقتصاد والتدبير الى أهل الاقتصاد والتدبير .

وبهـذا تتنوع لجان العمل ، وتتمثل فيها طوائف الاخصائيين فى الشئون الاجتماعية ، بعناصر تبدى إيحاء قوميتنا الخاصة ، كل فيما يختص بدائرته .

ويجب أن يكون هذا عهدا بين الوزارة وهذه العناصر ، يوجب أولاً على هـذه العناصر أن تعمل جهـدها مخلصة فى تحرى إيحاء القوميـة الخاصة ، ويوجب ثانياً على الوزارة ، إذا ما تحققت من صلاح المقـترح ، أن تعمل بـكل ما منحت من إمداد مليـكها المصلح ، على تنفيذ ذلك المقترح ، وإسداء نفعه وخيره للبلاد .

وليجعل الجميـع نصب عينيه قوله تعالى : « وتَعاوَنوا على الـبر والتقوى » وقـوله تعالى : « والعصر ، إن الإنسان لفى خسر ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وتواصَوْا بالحق، وتواصَوْا بالصبر » .

وعلى هـذا الأساس أتحدث عن مكان الزكاة الاسلامية من الشئون الاجتماعية ، وبعبارة أخرى : عن الصلة التى وضعها الاسلام لتنظيم العلاقة بين الأغنياء والفقراء ، والمصالح العامة التى تتوقف عليها نهضة الأمة وتقدمها . ويجب أن نعلن هنـا أن الاسلام ليس دينـا روحيا فرديا ، تنحصر مهمته فى صرف الانسان عن دنياه الى أخراه ، وإنمـا هو دين اجتماعى قبـل كل شيء . . . دين له فى كل شأن من شئون الاجتماع تنظيم تقصر دونه عقول الحـكماء والفلاسفة ، دين مهمته أن يأخذ بالانسان الى السعادة فى الحياتين ، وأن يوجهه الى العمل للدنيا كأنه يعيش أبداً ، والى العمل للآخـرى كأنه يموت غـدا : « من كان يريد ثواب الدنيا ، فعند الله ثواب الدنيا والآخرة » . دين يرى أن سعادة الآخرة من سعادة الدنيا ، وأن سعادة الآخرة تتطلب قوة فى الحق ، ونهضة فى العمل الصالح ، ورغبة فى عمل الخير ، وأن من كان فى هذه الدنيا أعمى عمـا تتطلبه الآخرة فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا . . .

وسيظل المسلمون فى جميـع بقاع الأرض حيارى مضطربين ، الى أن يفهموا علاقة دينهم بالحياة الاجتماعية ، ويستقبلوا تعاليمه ، ويتخذوها عدّة فى حياتهم ، وطريقا لسعادتهم .

وهذه الزكاة ، التى جعلها الاسلام عبادة من العبادات ، وركنـا من أركان الدين ، سيرى فيها حضرات القراء أن الاسلام حتى فى عباداته لم يـكن إلا تهذيبا للفطرة الانسانية ، وتنظيما لشئون الجماعة .

بنى الاسلام فى العقيدة والعبادة على أركان خمسة : التوحيد ، والصلاة ، والصوم ، والزكاة ، والحج . ويطول بنا القول إذا بيّنا علاقة كل هذه الأركان بالشئون الاجتماعية . ونجتزئ الآن بأن التوحيد هـو الركن القلبى الذى يشاد عليه صرح الخير كله . والصـلاة والصوم ركنان بدنيان قصد بهما إعداد النفوس لعمل الخير ، والدعوة اليه . والزكاة ركن مالى قصد به تنظيم

شأن اجتماعى عظيم له خطره فى حياة الأمم، وأخلاق الأفراد، وهو علاقة الأغنياء بالفقراء، وبمصالح المجتمع.

قضت الحكمة الإلهية، أن يكون الناس مختلفين فى الدرجات، متفاوتين فى الغنى والفقر؛ وقضت بأن يعيش بعضهم تحت ظل البعض، يعمل له، ويستمد رزقه من رزقه: « نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا . . . »

وعلى هذا النظام الاجتماعى، قامت الأعمال، ودارت الحركات، واشتدت المنافسات حول الحصول على العيش، والارتقاء؛ ولكن الشح الذى طبع عليه الانسان جعل من اختلاف الناس فى المواهب والاستعداد، وتفاوتهم بالغنى والفقر، سببا فى مرض اجتماعى خطير: ذلك أنه شغل الأغنياء بأموالهم حتى ألهاهم عن حق الفقير والمسكين، والعامل والضعيف، ونمت فيهم فكرة الأثرة والاستغلال، وأحس الفقير بضيق فى صدره أخذ يتلمس له طريقا للخروج فلم يجد سبيلا، فتولد عنده حقد على الغنى لم يلبث أن انفجرت به صدور الفقراء نارا حامية يصطليها أرباب الأموال، وقاموا ينادون فى بعض الأمم المتحضرة، بالغاء نظام الملكية الفردية، فاضطرب حبل الجماعة، واختل توازنها؛ وانتهى الأمر بهم الى إنكار الأديان والقوانين، وأريقت فى ذلك دماء الملايين من النفوس البشرية. وما كان ذلك إلا نتيجة إهمال الغنى لحق الفقير، واستغلاله لمنفعته الشخصية . . . !

أما الاسلام فقد قدر، وهو فى أول مرحلة من مراحل الدعوة، قبل تهيئة النفوس للنظم والقوانين — خطر إهمال حق الفقير، كما قدر فوضى النظام وفساد الاجتماع إذا هو ألغى الملكية الفردية؛ فأقر الملكية الفردية، وأجرى سنة الكون فى مجراها الطبيعى؛ ثم وضع الطرق الواقية من شر الطغيان المالى، القاضى بتحكم أرباب الأموال، واستغلال الفقراء. وبهذا احتفظ بسنة القوانين، وأصول الجماعات والحقوق الفردية، وأمن فى الوقت نفسه فتنة الفوضى الشيوعية، فوقف وسطاً بين الإفراط والتفريط، شأنه فى كل تشريع: « وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداءَ على الناس، ويكونَ الرسولُ عليكم شهيدا ».

وإنى أحدثكم عن مجمل المبادئ التى اتخذها القرآن فى العهدين: عهد الدعوة بمكة، وعهد التقنين بالمدينة، اتخذها علاجا لتلك المشكلة الاجتماعية الخطيرة:

أعلن القرآن أن المال فى يد الأغنياء ليس إلا وديعة الله، استخلفهم فى حفظه وإدارته، وتوزيعه بما رسم لهم من طرق صالحة مفيدة: « آمِنوا بالله ورسوله وأنفِقوا مما جعلكم مستخلَفين فيه »، « وآتوهم من مال الله الذى آتاكم ».

أشعرهم بالوحدة القومية الموجبة للتكافل والتعاون والإيثار، وأن المال المملوك للبعض قوام المجتمع كله: « ولا تؤتوا السفهاءَ أموالَكم التى جعلَ اللهُ لكم قِياماً ».

حارب فيهم خلق الشح الذى يمنع من التراحم والبذل، ومساعدة الضعيف : « ومَن يُوقَ شحَّ نفسه فأولئك هم المفلحون » ، « ولا يحسبنّ الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم ، بل هو شر لهم ، سيُطوّقون مابخلوا به يوم القيامة ، ولله ميراث السموات والأرض » ، « إياكم والشحّ ، فانما هلك من كان قبلكم بالشحّ : أمرهم بالقطيعة فقطعوا ، وأمرهم بالبخل فبخلوا ، وأمرهم بالفجور ففجروا » ، « اتقوا الظلم فان الظلم ظلمات يوم القيامة ؛ واتقوا الشحّ فان الشحّ أهلك من كان قبلكم : حملهم على أن يسفكوا دماءهم ويستحلوا محارمهم » . ولعلك لا تجد أصرح ولا أقوى من هذا التعبير فى تصوير الخطر الاجتماعى الذى ينبعث من الشح بحق الفقير والمحتاج . والشحُّ بلا ريب من أكبر الآفات التى تضر بالمجتمع الانساني ، وتقضى على حياة الأمم وصلاح العمران ؛ فهو يمنع التعاون والتراحم ، ويغرس الحقد ، ويولد ثورة النفوس ، ويرمى بالمجتمعات فى الهوّات السحيقة .

هدّد الأغنياء إذا هم قصّروا فى حق الفقير ، واستغلوا حاجته لمنفعتهم الشخصية : « يمحق الله الربا ويُربى الصدقات» ، « اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين . فان لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله » . « ويل للأغنياء من الفقراء ! » « إن الصدقة تدفع البلاء » « صنائع المعروف تقى مصارع السوء » . وإنا لندع تفسير هذه الحرب التى آذن الله بها المستغلين ، وتفسير ذلك الويل الذى يصيب الأغنياء من الفقراء ، وتفسير ذلك البلاء الذى تدفعه الصدقة ، وتفسير مصارع السوء التى تقى الانسانَ منها صنائعُ المعروف ، ندع تفسير كل ذلك الى ما هو الواقع الآن فى أمم الحضارة من حرب الطبقات ، والى ما تنطق به الحوادث والوقائع ، فانه أعظم مفسّر يتلاشى أمام روعته البيانية ، كل مقال وبيان .

حرّكَ العواطف ، ونبّه الوجدان الى العطف الانسانى ، والعدة عليه بالثواب والحياة الطيبة . وحسبك فى عناية القرآن الكريم بالفقير والمسكين ، والحث على إطعامهما ، والقيام بكفايتهما ، أنك لا تكاد تجد سورة من سور القرآن إلا وفيها ذكر للفقير والمسكين ، أو ذكر لأحدهما .

جعل لهما حقا فى الصدقات المفروضة (١) ، جعل لهما حقا فى الغنيمة (٢) ، جعل لهما حقا فى الفىء الذى يمكّن الله منه جماعة المسلمين من غير قتال (٣) ، جعل لهما حقا فى المال إذا اقتسمه أربابه بمحضر منهما (٤) ، جعل لهما كفارة اليمين (٥) ، جعل لهما كفارة اعتداء المحرم على الصيد (٦) ، جعل لهما كفارة الظهار (٧) ، جعل لهما فدية الإفطار فى نهار رمضان (٨) .

(١) ارجع الى الآية ٦٠ من التوبة (٢) ارجع الى الآية ٤١ من الانفال (٣) ارجع الى الآية ٧ من الحشر (٤) ارجع الى الآية ٨ من النساء (٥) ارجع الى الآية ٨٩ من المائدة (٦) ارجع الى الآية ٩٥ من المائدة (٧) ارجع الى الآية ٢ من المجادلة (٨) ارجع الى الآية ١٨٤ من البقرة .

وقد بيّن الحكمة الاجتماعية السامية ، فى إعطائهم هذا العطاء ، وهى الخوف من أن يستأثر بالأموال طائفة الأغنياء يتداولونها فى أيديهم خاصّة ، فيثير الفقراء عليهم حربا طاحنة ، وذلك قوله فى آية الفىء : « كى لا يكونَ دُولةً بين الأغنياء منكم » .

ثم يجعل العطف عليهما بعد ذلك ، والقيام بحقهما ، من خصال البر الدالة على صدق الإيمان والتقوى : « وآتى المالَ على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكينَ وابنَ السبيل والسائلين وفى الرّقاب » .

ثم يمتدح الصدقات بوجه عام ، ويبين أنها خير للجماعة غير محدود ، أعلنت أم خفيت : « إن تبدوا الصدقات فنعمّا هى ، وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم » .

ثم يبالغ فى الوصية باليتامى والمساكين ، فيقرنها بتوحيد الله والإحسان الى الوالدين ، فى غير آية ؛ اقرأ : « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا ، وبالوالدين إحسانا ، وبذى القربى واليتامى والمساكين » ، « وقضى ربك ألاّ تعبدوا إلا إياه ، وبالوالدين إحسانا » . ثم يقول : « وآتِ ذَا القربى حَقَّه والمسكينَ وابنَ السبيل » .

ثم ينبّه الناس على ما يصرفهم عن مراعاة حقّ الفقير والمسكين ، فيذكر البخلاء ، والآمرين بالبخل ، ويذكر العذاب المهين ، الذى أعدّ للكافرين الذين خلت قلوبهم من الرحمة : « إن الله لا يحبّ من كان مختالا فخورا . الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ، ويكتمون ما آتاهم الله من فضله ، وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا » .

ولما كان التبذير من أسباب فقدان المال وحرمان الفقير ، شدّد النكير على المبذرين ، وبيّن سوء عاقبتهم ، فقال : « إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين ، وكان الشيطان لربه كفورا » . ومخافة أن يحمل ذلك البيان على التقتير فيمنع حق الفقير ، أرشد سبحانه الى الطريق المعتدل فقال : « ولا تجعلْ يدك مغلولة الى عنقك ، ولا تبسطها كل البسط فتقعدَ ملوما محسورا » .

ثم تعالوا واستمعوا بعد ذلك الى القرآن ، وهو يعتبر أن إطعام الفقير والمسكين هو العقبة الوحيدة ، التى إذا اقتحمها الانسان وصل الى السعادة الحقة ، التى لا يشوبها تنغيص ولا ألم : «فَلَا اقْتَحَمَ العقبَةَ ، وما أدراك ما العقبةُ : فكُّ رقبةٍ ، أو إطعامٌ فى يومٍ ذى مَسْغَبَةٍ ، يتيما ذا مَقْرَبةٍ ، أو مسكينا ذا مَتْرَبةٍ . ثم كان من الذين آمنوا وتواصَوا بالصبر ، وتواصوا بالمَرْحَمَةِ . أولئك أصحاب الميمنة » .

حسب الفقير أن الله لم يذكر فى كتابه شأنا من الشئون باسم العقبة إلا فى هذا الموضع ،

موضع تنظيم علاقته بالغنى ، فاقرءوا القرآن وتتبعوه لتعلموا مقدار حدب القرآن على الفقير والمحتاج والضعيف .

اسمعوا قول الله فيمن لا يحض على طعام المسكين ، وكيف اعتبرهم من المكذبين بالدين ، الذين لا تنفعهم صلاة ولا خشوع : « أرأيتَ الذى يكذب بالدين . فذلك الذى يَدُعُّ اليتيمَ . ولا يَحُضُّ على طعام المسكين . فويل للمصلين ، الذين هم عن صلاتهم ساهون ، الذين هم يراءون ويمنعون الماعون » .

اسمعوا قول الله فى المجرم الذى يصيبه خزى الله ونكاله : « إنه كان لا يؤمن بالله العظيم . ولا يحض على طعام المسكين . فليس له اليوم هاهنا حميم . ولا طعامٌ إلا من غسْلينٍ . لا يأكله إلا الخاطئون » .

اسمعوا قول الله فيمن يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله : « والذين يكنزون الذهب والفضة ، ولا ينفقونها فى سبيل الله ، فبشرهم بعذاب أليم » .

اسمعوا قوله فى أرباب الأموال الذين لا يقومون بحق الفقير والمسكين : « كلاّ ! بل لا تكرمون اليتيم . ولا تَحاضُّون على طعام المسكين . وتأكلون التُّراثَ أكلاً لَمّاً . وتُحبون المالَ حباً جمّاً . كلاّ إذا دُكّت الأرض دكاً دكاً . وجاء ربك والملك صفاً صفاً . وجِىء يومئذٍ بجهنّمَ ، يومئذٍ يتذكّرُ الإنسانُ وأنى له الذكرَى . يقول ياليتنى قدّمتُ لحياتى . فيومئذ لا يعذِّب عذابَه أحد . ولا يوثِقُ وثاقه أحد » .

ثم تعالوا واسمعوا جواب المجرمين حين يسألون يوم القيامة : « ما سلككم فى سقر . قالوا لم نك من المصلين . ولم نك نطعم المسكين » . . .

وأخيرا تعالوا واسمعوا قول الله فى أرباب الأموال الذين يحترفون التكاثر فيها حتى تلهيهم عن حق الفقير والمسكين : « ألهاكم التكاثر ، حتى زرتم المقابر ، كلاّ سوف تعلمون . ثم كلا سوف تعلمون . كلا لو تعلمون علم اليقين . لَتَرَوُنّ الجحيم . ثم لَتَرَوُنّها عينَ اليقين . ثم لتسألنَّ يومئذ عن النعيم » . . . هذا نزر قليل من علاج القرآن لمشكلة الفقير مع الغنى .

***

حرك عواطف الأغنياء بكل الطرق ، وأرهف وجدانهم ، واستدر عطفهم على الفقير والمسكين ، إصلاحا لهم وللمجموعة ، تارة بالترغيب ، وأخرى بالترهيب . وبعد أن استتب الأمر لجماعة المسلمين ، وتهيأت النفوس للقوانين والنظم ، وضع للفقراء حقوقا كورد دائم .

وضعه فى الـكـفّارات ، والأجزية على الأخطاء التى يرتـكبها الانسان فى حياته الشخصية أو عباداته ، وضعه فى الزكاة فرضا من الفروض الدينية ، ينفذه بالقوة ويقاتل من امتنع من أدائه ، وضعه فى الذهب والفضة ، وفى البضائع التجارية ، وفى المواشى ، وفى الزرع ، بنسب لا ترهق الغنى ، وتسعف المسكين والفقير ، وتصلح شأنه ؛ بنسب يفوق مجموعها مجموعَ ما يصرفه أغنياؤنا فى ترفهم وبذخهم فى البلاد الأجنبية كل عام من غير فائدة تعود عليهم وعلى أمتهم .

وقـد كان للزكاة فى صدر الاسلام نظام خاص ، وكان للحكام بها عناية خاصة فى جمعها وصرفها . كانوا يجهزون الجيوش ، ويدفعون المغارم ، ويتألفون قلوب الضعفاء ، ويعينون المحتاجين . أما اليوم فقـد خف عن كاهل الزكاة كثير تصرفه الدولة من مواردها الخاصة على المصالح العامة ، كالجيش والتعليم ، ولم يبق ما يخشى شره ، ويهدد العالم بثورته سوى الفقير وحاجته .

فهل للأغنياء أن يخرجوا هذه الزكاة الواجبة عليهم ، ويصرفوها فى مصالح الفقير ، فيستلوا بها حقـده عليهم ، ويصـير عونا لهم ، يحرس أموالهم ، ويعمل على تنميتها ، حتى يرفرف على الجميع علم الطمأنينة والسلام ؟ !

هل لهم أن يخرجوا زكاة أموالهم ، وينشئوا بها المصانع والمستشفيات التى لا تفى موارد الدولة بإنشائها ، فتطهر الأمة من جراثيم المرض ، ويخف عنها ضغط هذا الجيش العاطل الذى تبدو كتائبه فى المتسولين الذين يملأون الشوارع والأزقة ، وفى المتشردين الذين يهددون الأمن ، ويقلقون راحة الجميع ، وفى المتعلمين وأنصاف المتعلمين وأشباههم ، مما تطالعنـا باحصائهم فى كل عام نتائج الامتحانات ، وكشوف المنقطعين عن طلب العلم ؟ !

هل لهم أن يخرجوا زكاة أموالهم فيصلحوا من شأن هؤلاء ، ويوجدوا منهم رجالا عاملين فى الحياة ، يشعرون بالعزة والـكرامة ، ويشعرون بأنهم أعضاء حية من الأمة لها يعملون ، وعنها يسألون ؟ !

هل لهم أن يضعوا أيديهم فى يد وزارة الشئون الاجتماعية ويتضامنوا معها على إخراج نظام خاص للزكاة والصدقات ، به ينتشلون البلاد من خطر الفقير والعاطل ، فتطمئن الجماعة على حياتها ، وتنتفع بأموالهـا وبنيها ؟ !

إن الدين الاسلامى لم يترك فرصة لإحياء قلب الفقير إلا أمر بانتهازها . ولا يغيب عنكم أيها الأغنياء موقفه من الفقير عقب صيام رمضان ، فى الوقت الذى تعدون فيه العدة لاستقبال العيد ، الذى جعله الله مظهر فرح شامل ، لم يفته أن أوجب صدقة الفطر توزع على الفقراء والمساكين ، فيكون لهم منها سلوة عما أصابهم من فقر ومسكـنة .

فإذا قامت وزارة الشئون الاجتماعية ، تدعو الناس الى المبادرة باخراج زكاة الفطر إصلاحا لشأن له خطره فى المجتمع ، فقد قامت بواجب يحتمه عليها الدين ، واجب يحتمه عليها الاجتماع الصالح الذى تنشده وتعمل عليه . وإذا قامت تدعو الناس الى إيداع صدقاتهم فى صناديق تشرف عليها جهات نزيهة ، وتصرفه على الأسر التى أخنى عليها الدهر ، ويمنعها الحياء من الظهور بمظهر السائل والمحروم ، فقد قامت بواجب يحتمه عليها الدين ، واجب يحتمه عليها المجتمع الصالح الذى تنشده وتعمل عليه . وقد ذكر الله الفقراء الذين لا يستطيعون ضربا فى الأرض وأن الجاهل يحسبهم أغنياء من التعفف : « لا يسألون الناس إلحافاً » . وقد جاء فى الأخبار الصحيحة أن النبى صلى الله عليه وسلم جعل على صدقة الفطر ذلك الصحابى الجليل أبا هريرة ، على الأسرة الكريمة التى يمنعها حياؤها عن أن تسأل ... فلم تفعل وزارة الاجتماع إلا ترسمها لخطة الصدر الأول فى إعانة الفقير ، والمحافظة على كرامته .

***

هذه مكانة الزكاة والصدقات من الشئون الاجتماعية ، وهى مكانة القطب من الرحى . وهذا هو موقف الاسلام من الزكاة والصدقات ، وهو موقف يخفف من وطأة الأغنياء على الفقراء ، ويبعث فى الفقراء روحا طيبة للأغنياء ، ويهيئ للجماعة أن تنتفع بهؤلاء وهؤلاء .

وبعد : فليسمح لى حضرات الأمراء ، والأغنياء ، والمفكرين ، أن أصارحهم بكلمة صريحة حاسمة :

إن التطور الفكرى المتناقض ، قد تكاملت أسبابه ، وبدت مظاهره ، وصرنا به على ملتقى السبل ، فإما أن نسير فى سبيل الرأسمالية ، كما يلوح فى أفق الأغنياء ، فنصطليها نارا حامية من العاطلين والفقراء ؛ وإما أن نسير فى سبيل الشيوعية ، كما يلوح من أنات العاطلين والفقراء ، فنصطليها تخريبا وتدميرا !! ولقد جاءنا من الأنباء ما فيه مزدجر ، وأرشدنا ديننا ، وكتابه قائم بين أيدينا ، الى السبيل السوى الذى يقينا شر هذه ، وشر تلك ، ويجعل الأمة وحدة متكافلة فى البر والتقوى : « وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ، ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون » .

اللهم هل بلغت ؟ !! اللهم اشهد !

محمود شلتوت

أنبل الأخلاق الاسلامية

لعل مما يستلفت النظر ، ويبهر العقول ، من غيث الرحمة الاسلامية ، الذى أدرك العالم ، وقد مزقه الفساد ، وقوضته الفوضى فى كل شىء : فى الأنفس ، والأعراض ، والأموال ، ولوث النفوس فيه داء الأثرة ، والطمع ، ورذيلة الغدر والخيانة ، الى غير ذلك من عوامل الفناء والشقاء ، نقول : إن أنبل ما يبهر العقول مما جاء به الاسلام من الأخلاق ، المحافظة على العهد ، والصدق فى احترام المواثيق ، والتحذير من نكثها ، والوعيد الشديد على الخيس بها ، والحنث فيها ، لتصفو العلاقات بين الأفراد والجماعات ، وتطمئن النفوس ، وتحسن الصلات بين الأمم ، وتسير فى جو كله هدى ونور ، لا غدر فيه ولا خيانة ، فيتسع بذلك طريق الحق ، يسبح كيف يشاء ، وأنى شاء ، يعمّر البلاد ، ويصلح العباد .

مرت على الإنسان دهور طويلة ، وتقلبت عليه أطوار وأحوال ، وغشيته غَواشٍ ، وأحاطته أحداث ، وعالج إنقاذه مصلحون كثيرون ، وأرسل الله رسلا مبشرين ومنذرين . . . فأى دين من الأديان ، أو شريعة من الشرائع ، عنيت عناية الاسلام بالمحافظة على العهود والمواثيق؟

فهذا كتابه الكريم ، يجعل حفظ العهد من دعائم الفلاح والسعادة ، حيث يقول : « قد أفلح المؤمنون . الذين هم فى صلاتهم خاشعون » الى قوله : « والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون » .

وها هو ذا رسول الاسلام ، يرفع من شأن المحافظة على العهد ، واحترام الميثاق ، فيوجب على جميع من يدينون به أن يحترموا عهدا أعطاه للأعداء أقلُّ رجل مسلم ، وتوعّد بالشقاء فى الدنيا ، والعذاب الشديد فى الآخرة ، من فرّط فى ذلك ؛ فقد قال صلى الله عليه وسلم : « ذمة المسلمين واحدة ، يسعى (١) بها أدناهم ، فمن أخفر (٢) مسلما فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، لا يُقبلُ منه صَرف (٣) ولا عَدل » .

وقال أيضا : « ثلاثةٌ المسلم والكافر فيهن سواء : مَن عاهدته فوفِّ بعهده ، مسلما كان أو كافرا ، فإنما العهد لله ، ومن كانت بينك وبينه رحم فَصِلها ، مسلما كان أو كافرا ، ومن ائتمنك على أمانة فأدها اليه ، مسلما كان أو كافرا »

فهل سمع العالم قديمه وحديثه ، بدين أو شرعة ساوت بين جميع أتباعها فى احترام عهودهم ،

---

(١) أى يتصرف فيها . (٢) اى نقض عهده الذى أعطاه لغيره . (٣) الصرف : التوبة . والعدل : الفدية . وقيل الصرف : الشفاعة ، والعدل : الفدية .

ووجوب تنفيذها ، ولم تفرق فى ذلك بين عهد القائد والجندى ، والصغير والكبير ، والحر والعبد ، والرجل والمرأة ؟ فكل أولئك محترم عهده ، نافذ على جميع من عداه من المسلمين .

هذا فضلا عما تضمنه هذا المبدأ السامى من تربية ملكة الإحساس بالكرامة فى نفس كل مسلم ، وإيقاظ الشعور بعزة النفس ، والاعتداد بالرأى ، وتحمل المسئوليات ، فيقوى تفكيره ، وينضج رأيه ، وتسمو عن الصغائر نفسه .

فهل بَصُر المنصفون بهذا النبل فى الاسلام ، بعد ما ملأ أسماعهم ، وشَخَص أمام أعينهم ، مايزخر به محيط العالم المادي اليوم ، من تهالك عبّاد المادة ، وعشاق السيطرة الغاشمة ، على تمزيق العهود بعد توكيدها ، وانتهاك حرمة المواثيق التى أغلظوا الأيمان على احترامها ، وسجلتها هيآتهم النيابية ، وأقرها وزراؤهم ؟ ! يرتكبون كل ذلك ، ويفخرون به إن رأوا وراءه مغنما ولو حقيرا ، وأحسوا بضعف صاحب العهد ، وفقده القدرة على صد طغيانهم !! أما الكرامة ... أما الشرف ... أما العظمة الصحيحة ... فكل أولئك لا يقام له وزن ، ولا يقدر له حساب !!

ألم نشهد فى عصرنا هذا بعضَ مَن نفخه غرور القوة يقف على ربوة الاستهتار ، ويؤذن فى الناس بأن المعاهدات لا تعدو قصاصات أوراق لا يتمسك بها على غير ما تقع إلا الضعفاء ؟ ألم نر هؤلاء يعدّون الغدر والخيانة من الكياسة ، والتظاهر بالود وإضمار الكيد والإيذاء من السياسة ، حتى صار معروفا لديهم أن هناك معاهدات علنية ، ومن ورائها معاهدات سرية ، تنقضها عروة عروة ، وتهدمها لبنة لبنة ، وأصبح مقررا أن ليس للأقوياء أمان ، ولا لعهودهم حفاظ ، ولا لمواثيقهم حرمة ؟ !

كل هذا والاسلام واقف فى هذا الجو المظلم ، أبيض ناصعا ، يتلو على الناس كافة :

« وإمّا تخافَنّ من قومٍ خيانةً فانبِذ إليهم على سَواء ، إن الله لا يحبّ الخائنين » .

حرّم على أتباعه أن يفاجئوا معاهديهم ، إذا أحسوا منهم خيانة ، أو يأخذوهم على غرة ، وأوجب عليهم إعلانهم بقطع العلائق ، وانقضاء حكم الميثاق ، حتى لا تكون هناك لمتوهم ظنة ، ولا لمتقول عذر . ثم يتلو :

« وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ، ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها ، وقد جعلتم الله عليكم كفيلا ، إن الله يعلم ما تفعلون . ولا تكونوا كالتى نقضت غَزْلَها من بعد قوة أنكاثا (١) ، تتخذون أيمانكم دَخَلاً (٢) بينكم ، أنْ تكونَ أمةٌ هى أرْبَى من أمة ، إنما يبلوكم الله به ، ولَيبيّنَنّ لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون » .

(١) الأنكاث : جمع نكث كحمل وأحمال . والنكث : مانقض ليغزل ثانية ، وهو منصوب على أنه مفعول ثان على تضمين نقض معنى جعل ، كما تقول : فرق الشىء أجزاء أى جعله أجزاء .

(٢) الدخل بفتح الدال والخاء : الدغل والغش والخيانة .

فهل هناك نبل وسمو وراء هذا النبل وهذا السمو ؟ كتاب يحفز أهله على الوفاء بالعهد ، ويشعرهم مراقبة الله وحسابه ، ويحظر عليهم الدخل ، والغش ، والخيانة فى الأيمان ، ويحذرهم من أن يكونوا عبيد القوة ، فيعاهدوا هذا إذا كان قويا ، وينبذوا إليه عهده إذا رأوا من هو أقوى منه ، أو يخدعوا خصومهم بالعهود والأيمان حتى تحين لهم الفرص ، فينقلبوا عليهم أعداء .

كل أولئك خلال شر وضعة ، حرمها الاسلام على أتباعه ، تنزيها لهم ، وتشريفا لأقدارهم ، ورفعا لمنزلتهم فى نظر الكمال الخلقى ، والحق والفضيلة ، التى لا تقوى عوامل الهدم على النيل منها ، مهما تقلبت الأحوال ، أو تغيرت العادات .

وهل يتصور عقل ، أو يخطر على قلب بشر ، أن يبلغ تقديس العهد عند شرع من الشرائع حداً يتحتم فيه على المؤمن به أن يترك أخاه فى الدين ، وهو يستغيث به ويستنصره ، يلتهمه ظلم الكافرين ، وتنال منه قسوتهم تقتيلا وتشريدا ، مع قدرته على نصرته ، وصد عدوانهم عنه ، وليس لكل ذلك من سبب سوى المحافظة على العهد الذى قطعه مع هؤلاء العادين ، فلم يستطع منه فكاكا ، ولا عنه تحويلا ؟

« وإن استنصروكم فى الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق ، والله بما تعملون بصير » .

ذلك لأن الاسلام شرعة لا تعرف الغدر والخيانة ، ولا تقر إلا السياسة العادلة التى يستوى فيها الأتباع والأعداء .

وإنما عنى الاسلام هذه العناية بالمواثيق والأيمان ، لأنها غالبا تكون وليدة تفكير عميق توزن فيه الأمور بدقة ، وتقدر بحساب ، وينظر فيه الى العواقب القريبة والبعيدة ، ويضحى فيه بنزوات النفوس وشهواتها .

وبالجملة ، فالحكم فيه ـ غالبا ـ يسعى وراء المصلحة الحقة ، والعدالة المطلقة ، بقدر الإمكان . فاذا لم يحصنها الشارع بما يحفظها ، انطلق الشر من عقاله لأى بادرة ولو صغيرة ، وجمحت سورة الغضب والطيش ، وجلب الشيطان خيله ورجله ، فمزق الصلات ، وقطع العلائق ، وعاث فى الأرض فسادا .

لكل ذلك يقول كتاب الاسلام ، بعد أن أوصى وشدد بالمحافظة على العهود :

« إلا تفعلوه تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير » .

من كل هذا ، ومن بعضه ، نقف على قطرة من فيض فضل الله على الانسانية كافة ، بهذا الشرع الحكيم ، الذى انتفع به من آمن به ومن كفر ، ومن أطاعه ومن عصاه ، « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » .

عبد الجليل عيسى
شيخ معهد شبين الكوم

نظرات فى المذاهب المتطرفة

الشيوعية وسوء آثارها فى الهيئات الاجتماعية

بعد وصول الانسانية من المستوى العقلى الى درجة تسمح لها بالتفكير فى وسائل تحسين حالتها الاجتماعية ، ُعنى أفراد من أهل البصر منها بتخيل نظم ظنوا أن الجماعات لو قامت عليها ، وأخذت بأصولها ، تتأدى الى حالة أرفع مما هى عليها فى حياتها الراهنة .

ولكن حياة الشعوب الاجتماعية تقوم على سنة طبيعية ثابتة من التطور التدريجى ، فلا يستطاع نقلها من حال الى حال بنظام ُيبتكر أو ببرنامج ُيتخيل . ومن هذا القبيل كانت جمهورية أفلاطون ، وسياسة أرسطو ، والمدينة الفاضلة للفارابى ، وكل ما حدث فى القرون المتأخرة من المذاهب الاشتراكية والشيوعية والفوضوية . فمن أراد أن يعرف ما يفعله إطلاق العنان للخيال فى هذا المجال ، فلينظر فى الأصول التى تقوم عليها هذه المذاهب . فقد أتى كثير منها بأمور يأنف الضمير البشرى أن يعيرها التفاتا ، كرأى بعض الفرق الاشتراكية إبادة جميع الضعفاء وأصحاب العاهات حتى لا يبقى إلا الأقوياء على مكابدة الأعمال ، كى لا يكون المرضى والضعفاء عالة على المجتمع ؛ وكنُصح بعضها أن يحذف الزواج ويُجعل جميع النساء لجميع الرجال ، وما يولد من هذه المخالطات تستولى عليه الحكومة ، وتربيه على نفقتها ، ثم تقذف به الى المجتمع ليؤلف جيلا جديدا ، وهلم جرا ؛ وكتحتيم بعضها وجوب حذف الحكومة والدواوين وترك الناس لأنفسهم ينظمون شئونهم عرفيا ، زاعمين أن النواميس الطبيعية فى تدبيرها العلاقات بين الناس ، خير من النظم والقوانين التى تضعها الحكومات . قيل كل هذا وكتب ؛ ولكن الأمم جرت على سجيتها ، مكتنَفة بالعوامل المحيطة بها ، ولم ترفع بهذه الخيالات رأسا .

الأمر الذى تقوم عليه فتنة غلاة الاشتراكيين هو دعواهم أن الفاقة المنتشرة بين الدهماء منشؤها سوء توزيع الثروة الاجتماعية ، وأنهم قد ُهدوا تحت ضوء العلوم الاقتصادية الى نظم لو اتُّبعت لعاش الناس جميعا فى بحبوحة الرغد والرفاهية . وأشد هذه المذاهب تمدحا وتزيدا الشيوعية ، وقد وقعت فى حبائلها جماعات فازدادت تغلغلا فى الُعدْم والجاهلية .

ونحن إن اختصصناها بالكلام فى هذا البحث فليس ذلك باعتبار أنها شكل حكومى لأمة بعينها ، ولكن باعتبار أنها مذهب أصبحت له دعوة ودعاة يروِّجونه ما وجدوا آذانا تصغى اليهم .

الأصول التى تقوم عليها الشيوعية :

المذهب الشيوعى يقوم على أصول ثلاثة رئيسية : (أولها) محو الملكية الفردية ، والحقوق الوراثية ، وجعل أرض الامة وكل ما عليها ملكا لجميع أفرادها على السواء .

(ثانيها) حذف رءوس الأموال الفردية ، وجعل الحكومة قيّمة عليها .

(ثالثها) استئصال شأفة الدين من المجتمع ، باعتبار أنه ألد أعداء الشيوعية ، لتسلطه العظيم على عقول العامة ، وبثه فيها مبادئ تناقض إيجاد الفردوس الأرضى فى زعمهم .

ونحن نناقش هذا المذهب الحساب فى كل هذه الأصول ، لنثبت للناس أنه لا يخالف العلم فحسب ، ولكنه يخالف الأوضاع الطبيعية أيضا ، ويحاول هدم جميع البواعث التى تعمل على حفظ الانسانية وترقيتها ، سواء أكانت مادية أم أدبية .

أما أول هذه الأصول وهو محو الملكية الفردية ، فمناقض للوضع الطبيعى ، فإن أول ما كان عليه الناس أيام همجيتهم الأولى كان عدم الملكية ، لانحصار العناية فى أمر واحد هو الحصول على الغذاء ، فكان الأفراد يهيمون على وجوههم فى القفار ليصطادوا بعض الحيوانات ، أو يجوسون خلال الغابات لاستخراج بعض جذور الأشجار . فلما هُدوا الى استغلال الأرض ، كان كل منهم يزرع ما حول بيته ، والأرض واسعة والناس قليلون .

فلما ارتقى الاجتماع ، وازدادت معرفة الانسان بالزراعة ، وتميزت الأسر ، وبدأت تتحدد الحقوق ، وُجدت الملكية ؛ فالملكية ترق عن حالة الشيوعية التى سبقتها ، وكما وُجدت الملكية وُجد الزواج ، ووُجدت الحقوق والواجبات ، ووُجدت وشائج الاجتماع ومقوماته وحوافظه ، فتركب بعد سذاجته الأولى ، ومن تَرَكّبه نشأت قوة تماسكه ، ومتانة ترابطه ، وشدة مناعته ، وابتنى على هذا التركب كل ما للانسانية من حظ فى البقاء والاستمرار والترقى الى أبعد الغايات . وبمجرد النظر الى حالة الجماعات يهجم بك على الفرق بين ما تنتجه حالة التركب الاجتماعى ، وما تنتجه حالة البساطة الفطرية . وإنك لتعجب أن ترى جماعات ساذجة التركب لا تزال باقية على ما كانت عليه منذ ألوف السنين ، على حين أن التى ساعدتها الأحوال المحيطة بها على التركب قد بلغت شأوا بعيدا من المدنية . فالملكية ترق عن الحالة الشيوعية ، فإن عادت أمة إليها زايلها جميع ما ابتنى عليها من وشائج الاجتماع وروابطه ومناعاته ، فأصبح رهن ثورة تهب فيه تحلل عناصره ، أو شدة تصادفه تفكك أوصاله . لذلك يضطر القائمون عليه أن يمسكوه فى دائرة الاستقرار الاجتماعى بالقهر والإرهاب ، ويكون هو فى أثناء ذلك سريع التقلب يتربص أن يجد فرصة للتفكك لينتهزها .

وقادة مثل هذه الجماعات الشيوعية إنما يتوخون بمحو الملكية والوراثة ، أن يمنعوا أن يتناول بعض الأفراد من الثروة العامة فوق ما يكفيهم فيدخروه ويحجبوا غيرهم عن الانتفاع به . وما دروا أنهم بهذه الوسيلة التى لن يكون لها أثر يذكر فى تحسين الحالة الاقتصادية للمجموع ، يقتلون فى نفوس الآحاد روح التنافس المشروع ، فيصبح الكافة سواسية فى الفاقة

والعُدم ، ويحرم المجتمع من المشروعات العظيمة التى يتوق اليهما ذوو الكفايات المالية طلبا للمكسب .

ولا يعترض علينا بأن وجود الحكومة قيّمة على الثروة العامة ، يكفل حصول تلك المشروعات بواسطة لجان تؤلف لذلك ، فاننا نرد هذا الاعتراض بقولنا : إن فى قيام الحكومة مقام الأفراد والشركات خنقا لعاطفة الإقدام فى نفوس الآحاد ، وإحالةً للمجتمع الى حالة القِصَر الذى ارتقى عنه أمثالها من الجماعات ، فيصبحون فى حاجة ماسة الى حكم الإرهاب ، وهذا الحكم يقتضى بث العيون والأرصاد ، فيضحى بعض الأمة رقباء مأجورين على البعض الآخر ، فاذا مر على الأمة فى هذه الحالة ردح من الزمن أصبح تماسكها الاجتماعى صناعيا بعد أن كان طبيعيا ، وصارت عرضة للتفكك عقب أية هزيمة حربية أو كارثة اجتماعية .

وهم الشيوعية فى تحسين حالة الفقراء بمصادرة أموال الأغنياء :

يستهوى الشيوعيون الفقراء بأنهم سيجعلونهم فى رغد من العيش بحذف طبقة الأغنياء ، ومصادرة أموالهم ؛ وهو وهم كبير لا يطوف إلا برءوس الذين لا حظ لهم من العلم الاقتصادى .

كتب العلامة الاجتماعى الروسى (نوفيكو) فى كتاب له يعالج فيه مسألة الفقر :

« لقد انتشر فى العالم رأى كاد يعم الهيئة الاجتماعية ، وهو أن الفقر ما أنشب أظفاره فى الدهماء إلا بسبب سوء توزيع الثروة على الناس . ويقول أشياع هذا المذهب : إنه متى أخذت الثروة من أيدى المحتكرين لها ، وقسمت على الناس تقسيما عادلا ، ذهب الفقر ، وحل الكفاف ، وأصبح النوع الانسانى فى أرغد عيش أبد الآبدين .

« فما أجدرنا بأن يهنئ بعضنا بعضا بهذا الحل لو كان حقيقيا . . . !

« ولكن الحال وا أسفا ليست على ما يصفون ، فان الدهماء ليسوا بفقراء لأن بضعة رجال من أصحاب الملايين قد احتكروا الثروة ، ولكنهم فقراء لأن مقدار المواد الغذائية التى تنتجها الأرض لا تكفيهم . ولما كانت هذه الأزمة الغذائية ناشئة من البيئة ، فيمكن أن يقال إن الفقر ضارب بجرانه فى العالم ، لأن النوع البشرى لم يُعِدّ الأرض للإنتاج إعدادا يتفق ومصلحته الحقيقية .

« الفقر لا يُدفع بواسطة تقسيم الثروة بين الناس لسببين بسيطين :

« أولهما أن المال الذى يراد تقسيمه غير كاف لجميع حاجات الناس ، وقد تقرر ذلك بواسطة الإحصاءات . ذلك أنه لو صودرت الأرباح الفردية التى تزيد عن ١٠٠٠٠ فرنك وقسمت كلها على الناس الذين يقل دخلهم عن هذا القدر ، وجد أنه لا يخص كل فرد أكثر من ١٢ فى المائة من دخله الحالى . وبما أن الناس لا يصلون الى الرغد المرجو إلا إذا كان لكل منهم عشرة أضعاف

دخله الحالي ، أدركنا أن مسألة الفقر لا تندفع بتقسيم ثروة الأغنياء على الفقراء . . . . فإن العامل الذي يكسب الآن فرنكين يوميا ويشكو مر الشكوى من الفاقة ، لن تتغير حاله إذا أعطى الاثنى عشر في المائة التي تخصه من مصادرة أموال الأغنياء ، إذ أن أجره لن يزيد أكثر من ربع فرنك يوميا ، فماذا عسى أن تحسن هذه العلاوة الضئيلة من حاله ؟

« أما السبب البسيط الثاني فهو ناشئ من طبيعة الثروة ذاتها . ذلك أنه إذا كان دخل المستر بيرمور مورجان الأمريكي ٨٣ مليونا من الفرنكات في السنة ، فإن صودر هذا الدخل وقسم على إخوانه الأمريكيين ، نال الواحد منهم أقل من فرنك ، وماذا عسى أن يعمل هذا القدر الضئيل من تحسين حال الفقير الأمريكي ؟

« ولكن المستر بيرمون مورجان لن يكتسب في السنة التالية ٨٣ مليونا أخرى لأن الأمة صادرت كسبه الشخصي ، فيكتفي بكسب بضعة آلاف لحاجته الشخصية ، وما يصدق على المستر بيرمون يصدق على جميع الأغنياء ، فإن أفادت مصادرة أموالهم مرة واحدة فلن تتكرر هذه الإفادة ، فمن يسد خلة الفقراء وحاجاتهم تجدد في كل حين ؟ » .

ثم عمد الأستاذ الروسي الى بيان العلاج العلمي فقال :

« ثبت لنا من الفصل السابق أن حالة النوع البشري سيئة جدا ، وأننا فقراء لأن متحصلات الأرض السنوية لا تنتج المقدار الكافي من الغذاء والملبس ، فهل هذا لأن الكرة الأرضية تعجز عن موافاتنا بما هو ضروري لنا ؟ إن كان الجواب إيجابيا وجب علينا أن نرضى بما قسم لنا ، وأن نعتبر الفقر كما نعتبر الموت أمرا لا محيص منه . ولكن من حسن حظ العاملين أن هذا الافتراض خطأ ، فإن في قدرة الأرض أن تعطينا ليس ما يوازي ١٠٠٠٠ فرنك سنويا لكل منا فحسب ، ولكن في قدرتها أن تعطينا عشرة أضعافه ، فإن ينابيع الثروة فيها — كما قال الجغرافي المشهور (اليزيه ركلوز) — لا حد لها على الإطلاق » . انتهى

نقول : إذا كان هذا هو الرأي العلمي فلا يكون لحذف طبقة الأغنياء من نتيجة سوى قتل عواطف التنافس في الصدور ، وشل ملكات الإقدام في نفوس أهل النشاط والقوة الفياضة ، وحرمان مجموع الأمة من جهودهم العظيمة في إقامة المشروعات النافعة ، والحكم على الكافة بحالة من العدم تصل بالأمة الى مكان سحيق ، وتجعلها تتربص الخلاص منه عند كل بادرة من فتنة فتأتي بشر مستطير .

أما وقد رأيت أن الشيوعية لا تستند الى أساس علمي ، من الناحية الاقتصادية ، وأنها تفكك أواخي النظام الاجتماعي ، وتحلل من ربطه ، وتذهب بحوافظه ، فإننا نرجو أن نثبت لك خطأها في مناوأة الدين واعتباره سببا في إثارة العداوات بين الأمم ؟

محمد فريد وجدي

باب الأسئلة والفتاوى

الضمان في المعاملة الربوية :

هل يجوز شرعا أن يضمن الانسان صديقا له عند أحد البنوك ؟

الجواب :

إذا كان هذا السلف بفائدة فهو معاملة ربا ، وقد حرم الربا على آخذه ، ومعطيه ، وكاتبه ، وشاهده ، كما أشار الى ذلك الحديث الشريف ؛ فأولى أن يحرم على الضامن لأنه شريك فى التعاقد .

الصلاة فى مسجد بناه مسيحى — بيع السمك فى البحر :

(١) هل تجوز صلاة الجمعة فى مسجد بناه مسيحى ؟

(٢) هل يجوز بيع السمك فى البحر وهو مجهول ؟

الجواب :

(١) مذهب الحنابلة والشافعية والحنفية لا يرى مانعا من صلاة الجمعة وغيرها من سائر الصلوات فى المسجد الذى يبنيه مسيحى .

(٢) لا يجوز فى المذاهب الأربعة بيع السمك فى البحر وهو مجهول .

رضا الاب بتعميد ابنه :

مسلم تزوج مسيحية وقد سمح بتعميد ابنه منها ، وتم بحضوره هذا التعميد ، ثم هو يربيه تربية مسيحية ، هل هذا الأب يظل مع هذا العمل مسلما ؟

الجواب :

التعميد والتنصير منافيان للاسلام ، فرضاء الأب بذلك يعد خروجا عن الاسلام ، ويكون الأب بعمله هذا كافرا غير مسلم .

صداق المتوفى عنها زوجها قبل الدخول بها، وميراثها :

توفى رجل صبيحة عقده على زوجة ولم يدخل بها ، فماذا تستحق من الصداق والميراث ؟

الجواب :

تستحق هذه الزوجة جميع صداقها المعجل والمؤجل ، ولها نصيبها المقدر شرعا فى تركة الميت : الربع إن لم يكن للزوج ولد ، والثمن إن كان له ولد .

اليانصيب :

هل اليانصيب حلال شرعا ؟

الجواب :

ليست عملية اليانصيب مشروعة فى الإسلام ، والربح منها سحت ، لأنه من الميسر المحرم شرعا .

فى الرضاع :

أختان من الرضاعة ، هل يصح الجمع بينهما فى عصمة واحدة ؟

الجواب :

الجمع بين الأختين من الرضاع فى عصمة واحدة محرم ، كالجمع بين الأختين من النسب .

فى الميراث :

(١) توفيت امرأة وتركت ابنا وثلاث بنات هن أخوات هذا الابن منها فقط ، فما نصيب كل شخص ؟

(٢) وهل يحسب من التركة صداقها وثمنها وما ورثته من غيرها ؟

الجواب :

(١) تقسم التركة على الأشخاص الأربعة للذكر مثل حظ الأنثيين .

(٢) وتركة هـذه المرأة هى كل ما تركته من صداقها ، وجميع ما ورثته من غيرها ، وما آل اليها حال حياتها .

في الميراث :

توفي رجل عن : زوجة وثلاث بنات وأخ وأخت شقيقين ، فما نصيب كل ؟

الجواب :

جميع من ذكر في السؤال يرث ، أما نصيب كل منهم من التركة فكما يأتي :

للزوجة الثمن ، وللثلاث البنات الثلثان ، يقسم بينهن على سـواء ، والباقي للأخ والأخت الشقيقين ، على أن للأخ ثلثي هذا الباقي ، وللأخت ثلثه .

تعليم طرق الوقاية في المساجد :

هل يجوز إلقاء دروس طرق الوقاية من الغازات السامة في المساجد ؟

الجواب :

الوقاية من التهلكة مقصد سام من المقاصد التي أحاطها الاسلام المنزلة الجديرة بها من الرعاية ، وهو أصل بنيت عليه أحكام كثيرة في الدين ، وتعليم الناس طرق الوقاية سبب من أسبابها ، فلا بأس به مع المحافظة على ألا يشوش على المصلين .

في الطلاق :

ملخص السؤال : طلاق ثلاثا معلق على شيء حصل . طلاق بلفظ (خالصة) معلق على شيء حصل . طلاق بالثلاث معلق على أن تكون خالصة إذا فعلت شيئا معينا .

الجواب :

حيث إن مذهب المستفتي مذهب الامام مالك رضي الله عنه ، فنفيده أن مذهبه يرى وقوع الطلاق ثلاثا بمجرد حصول المحلوف عليه أول مرة ، وعلى ذلك تعتبر زوجته من ذلك التاريخ أجنبية بالنسبة له ، ولا تحل له حتى تنكح زوجا غيره نكاحا صحيحا مستوفيا شروط الحل للأول .

أما المذهب الذي جرت عليه المحاكم الشرعية المصرية أخيرا ، فيتلخص في أن اليمين المعلقة إذا كان القصد بها الحث على فعل أو المنع منه ثم حصل المعلق عليه ، فانه لا يلزم بها شيء ، وأيمان المستفتي كلها من هذا القبيل . وعلى ذلك فلا يلزمه شيء ، وزوجته لا تزال له لم تخرج عن عصمته ؟

رئيس لجنة الفتوى

محمد عبد اللطيف الفحام

حياة رجالات الإسلام

عبد الله بن العباس

تحدثنا فى مقالاتنا السابقة عن حياة عبقريين من أساتيذ مدرسة الاسلام الأولى الذين تخرجوا فى مدارج الوحى ، فكانوا آية من آيات النبوة الخاتمة ، وشرعة من شرائع الهداية السامية ، ومعجزة من معجزات معلم الانسانية ورسولها الأعظم ، تحمل فى مطاويها التحدى بها لفلاسفة العالم وحكمائه وعلمائه وساسته ، وقادة الفكر فى شرقه وغربه ، أن يأتوا بمثلها تكييفا لروح الايمان بالعقيدة حتى تكون صبغة الجيل وأمل الحياة فى زمنها عن طريق الفطرة الصادقة والعقل المستقيم ، ذانك هما : عمر بن الخطاب فاروق الاسلام ، وعلى بن أبى طالب بطل الاسلام .

والآن نحاول أن نجلو صورة جديدة لشخصية من طرز جديد فى أساتيذ تلك المدرسة المحمدية الخالدة ، هذه الشخصية عبّت من بحر العبقرية الاسلامية ، وعلى أساتذتها من رعيل الأنصار الأبرار وسادة المهاجرين الأولين تخرجت ، ومن منبع النبوة وفيض الوحى استقت ، ولكنها أخذت من الحياة بجانب العقل والفكر ، فانصرفت الى العلم ترويه وتحفظه ، وتبثه وتنشره ، جائلة فى كنوز الاسلام وشرائعه ، وآدابه وتعاليمه ، غائصة فى بحاره لالتقاط درره ، ذلكم هو عبد الله بن العباس ، حبر الأمة ، وعلَم الاسلام ، وعيلم العلماء ، وترجمان القرآن ، وابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم .

يحدثنا التاريخ أن عبد الله بن العباس رحمه الله وُلد وبنو هاشم محاصرون فى شعب أبى طالب ، أيام المحنة العظمى للدعوة الاسلامية ، بما تضافر عليها من اجتماع أنصار الباطل وحلفاء الوثنية ، حتى كانوا إلْباً على رسول الله وقومه ، لا يبايعونهم ، ولا يناكحونهم ؛ وكانت هذه الحادثة أشد مالقى الهاشميون من أذى قريش فى سبيل ذيادهم عن النبى صلى الله عليه وسلم عصبية له ، وكانت أيضا أول بدء للنضال القوى الصارم فى سبيل توطيد أركان الايمان بالعقيدة العتيدة ، ومناهضة موروثات الوثنية البالية عن طريق إيقاظ العقل وتخليصه من ربقة الأسر فى أغلال التقليد البليد ، فانها كشفت عن روح التحكم الاستبدادى والعسف الآثم فى مسلك قريش مع إخوتها وأبناء عمومتها ، حتى نهض بعض الأباة من أضراب هشام بن عمرو وزمعة بن الأسود وزهير بن أبى أمية وأبى البخترى بن هشام والمطعم بن عدى ، ينكرون

على قريش شنعتها ، ويأبون إلا أن يعيش الهاشميون مع الناس يأخذون ويعطون ، ويحيون حياتهم الأولى فى غير حرج ولا إعنات ، ولكنهم لم يكادوا يخرجون الى طبيعة الحياة حتى نكبوا بموت زعيمهم شيخ قريش ونبيلها أبى طالب عم النبى صلى الله عليه وسلم ، والقائم دونه يحميه ويذود عن دعوته ، فكانت وفاته من أشد ما آلم نفس النبى صلى الله عليه وسلم خاصة ، ونفوس الهاشميين عامة ، لمكانة أبى طالب فيهم وفى عامة العرب .

كان طبيعيا بعد موت أبى طالب وانحياز أبى لهب الى جانب قريش ، أن يقوم العباس ابن عبد المطلب مقام أخيه أبى طالب فى زعامة الهاشميين ، وكان مظهر الزعامة وقتئذ الوقوف فى وجه قريش دفاعا عن محمد بن عبد الله ودعوته ، فعضد العباس الدعوة المحمدية كما كان يعضدها أبو طالب . وكتب السيرة مجمعة على رواية حضوره بيعة العقبة العظمى مع النبى صلى الله عليه وسلم مستوثقا له من اليثربيين ؛ وكان العباس أول متكلم فقال : « يا معشر الخزرج إن محمداً منا حيث قد علمتم ، وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه ، وهو فى عز من قومه ومنعة فى بلده ، وقد أبى إلا الانحياز اليكم واللحوق بكم ، فان كنتم ترون أنكم وافون له فيما دعوتموه اليه ، ومانعوه ممن خالفه ، فأنتم وما تحملتم من ذلك ، وإن كنتم مسلميه وخاذليه بعد خروجه اليكم فمن الآن فدعوه » . وتمت البيعة بمحضر من العباس ، وفتح بها باب الهجرة الذى نفذ منه المسلمون الى جهاد عدوهم ونشر دعوتهم ؛ وعبد الله بن العباس لمـّا يشبّ عن الطوق ، ولكنه يرى ويسمع ، والحوادث تتوالى فى شدة وسرعة ، والآيات تترى ، والوحى يتتابع ، وشوكة الاسلام تقوى ، وكلمته تعلو ، وساعده يشتد ، وأنصاره يكثرون ، ومكة العصية تفتح ، وقريش الجامحة تؤمن ، وسادتها تطيع وتسلم ، والعباس يؤمن ويهاجر ، والحجاج العقلى يتعاظم ، والعرب قاصيها ودانيها تقبل فى وفود رءوسها مسلمة لله مبايعة لرسوله عليه السلام .

هذه هى العناصر الحيوية ، والمقومات الطبيعية ، والمبادئ الاجتماعية ، التى كونت حياة عبد الله بن العباس حبر الأمة وبحرها ، وقد كان لكل ناحية منها أثرها فى حياته ، ولكن حرصه على العلم كان أربى وأسمى نواحيه ؛ يحدث عن نفسه فيقول فيما يرويه عنه مولاه عكرمة : « لما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم قلت لرجل من الأنصار : هلم فلنسأل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فانهم اليوم كثير ، قال : واعجبا لك ! أترى الناس يفتقرون اليك ؟ ! فترك ذلك ، وأقبلت أسأل ، فان كان ليبلغنى الحديث عن رجل فآتى بابه وهو قائل ، ولو شئت أن يؤذن لى لأذن ، لكن أبتغى بذلك طيب نفسه ، فأتوسد ردائى على بابه يسفى علىّ الريح من التراب ، فيخرج فيرانى ، فيقول : يا ابن عم رسول الله ماجاء بك ؟ هلا أرسلت الىّ فآتيك ؟ فأقول : لا ، أنا أحق أن آتيك ، فأسأله عن الحديث ، فعاش الرجل الأنصارى حتى رآنى وقد

اجتمع الناس حولى يسألونى ، فقال : هذا الفتى كان أعقل منى » . وفى هذا الحديث من ضروب التربية التعليمية وأدب التهذيب ما يرفعه الى أن يـكون دستورا لحياة طالب العلم الذى رزق همة نبيلة ، ففيه تصوير لمقدار الحرص على التعلم ، وفيه تصوير لأدب تلقى العلم ، وفيـه تصوير لما يحتاج اليه طالب العلم من الصبر على لأواء الحياة ، وفيـه تصوير لقيمة الاعتداد بالنفس ومضاء العزيمة ، فان ابن عباس لم يكن حين توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم يجاوز ثلاث عشرة سنة من عمره ، فيما يجزم به الواقدى ، ومع ذلك فقد أبت همته أن يستصغر نفسه ، فدأب يسأل ويتعلم حتى بلغ هذا المبلغ الذى لقب من أجله بالبحر ، فيما يقوله مجاهد ، ويرويه البخارى عن جابر بن زيد « سألت البحر عن لحوم الحمر — وكان ابن عباس يسمى البحر » .

وقد حقق الله بما آتاه من العلم والحـكمة دعوة النبى صلى الله عليه وسلم له ، فقد روى عنه أنه قال : صليت خلف النبى صلى الله عليه وسلم ، فأخذ بيدى حتى جعلنى حذاءه ، فلما أقبل على صـلاته حبست ، فلما انصرف قال : ما شأنك ؟ فقلت : يارسـول الله أو ينبغى لأحد أن يصلى حـذاءك وأنت رسول الله ؟ فدعا لى أن يزيدنى الله فهما وعلما . وروى أنه بات عند خالته ميمونة أم المؤمنين رضى الله عنها ، فقام النبى صلى الله عليه وسـلم الى الخلاء فسكب له وضوءاً ، فلما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من وضع هذا ؟ فقالت السيدة ميمونة : ابن عباس ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل » . وكان عبد الله بن عمر يقول له : إنى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم دعاك فمسح رأسك وتفل فى فيك وقال : « اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل » .

وقد عرف له أجلاء الصحابة وعلماؤهم هذا الفضل ، فـكان عمر بن الخطاب يحبه ويقدمه على الأكابر من المهاجرين ، فقالوا له : ألا تدعـونا كما تدعو ابن عباس ؟ فقال عمر : ذاكم فتى الـكهول ، له لسان سؤول ، وقلب عقـول . ويقول عبد الله بن عتبة : كان عمر يأخذ بقول ابن عباس فى العضل ، وعمر عمرا ! ! ويخبرنا ابن عباس عن بعض شأن عمر معه فيقول : قدم على عمر رجل فسأله عن الناس ، فقال : قرأ منهم القرآن كذا وكذا ، فقال ابن عباس : ما أحب أن يسأل عن آى القرآن ، قال : فزبرنى عمر ، فانطلقت الى منزلى ، فقلت : ما أرانى إلا قد سقطت من نفسه ، فبينما أنا كذلك إذ جاءنى رجل فقال : أجب ، فأخذ بيدى ثم خلابى ، فقال : ما كرهت مما قال الرجـل ؟ فقلت : يا أمير المؤمنين إن كنت أسأت فاستغفر الله ! قال : لتحدثنى ، قلت : إنهم متى تنازعوا اختلفوا ، ومتى اختلفوا ضـلوا . قال : لله أبوك لقد كنت أكتمها الناس !

وكان على كرم الله وجهه يقول فيه : إنه لغوّاص . وينبئنا ابن عبد ربه فى كتاب العقد أن ابن عباس قال لعلى يوم التحكيم : اجعلنى أحد الحـكمين ، فوالله لأفتلن لك حبلا لاينقطع وسطه

ولا ينتشر طرفاه ! فقال له على : لست من كيدك ولا من كيد معاوية فى شىء ، لا أعطيه إلا السيف حتى يغلبه الحق ، قال : وهو لا يعطيك إلا السيف حتى يغلبك الباطل ، قال : وكيف ذلك ؟ قال : لأ نك تطاع اليوم وتعصى غدا ، وإنه يطاع ولا يعصى ! فلما انتشر عن على أصحابه قال : لله بلاد ابن عباس ! إنه لينظر الى الغيب من ستر رقيق . وسأل رجل عبد الله بن عمر عن آية ، فقال : انطلق الى ابن عباس فاسأله فانه أعلم من بقى بما أنزل الله تعالى على محمد . وفيه يقول عبد الله بن مسعود : أما إن ابن عباس لو أدرك أسناننا ما عاشره منا أحد ، ونعم ترجمان القرآن ابن عباس ! ولما مات زيد بن ثابت قال أبو هريرة : مات حبر هذه الأمة ، ولعل الله أن يجعل من ابن عباس خلفا . وكان ابن عباس شديد الإجلال لزيد بن ثابت ، فقد روى الشعبى قال : ركب زيد ابن ثابت فأخذ ابن عباس بركابه ، فقال : لا تفعل يا ابن عم رسول الله ، فقال ابن عباس : هكذا أمرنا أن نفعل بعلمائنا ، فقبّل زيد بن ثابت يده وقال : هكذا أمرنا أن نفعل بأهل بيت نبينا .

وقد جمع ابن عباس من صنوف العلم وفنونه مالم يكن لأحد من معاصريه ، لا يستثنى غير أمير المؤمنين على كرم الله وجهه ، حتى إن ابن سعد فى الطبقات يروى أنهم كانوا يميلون بينهما فيقولون : « إن عبد الله بن عباس كان أعلمهما بالقرآن ، وكان على أعلمهما بالمبهمات » . وما نظن هذا إلا لأن عليا شغلته السياسة عن الكلام فى تفسير القرآن ، وابن عباس تفرغ له فأكثر ، ومهما يكن فان ابن عباس تلميذ على أخذ عنه كثيرا . والشيعة يروون أن ابن عباس سئل : أين علمك من علم ابن عمك ؟ فقال : كنسبة قطرة من المطر إلى البحر المحيط . ويروى عن عطاء بن أبى رباح أنه قال : ما رأيت قط أكرم من مجلس ابن عباس ، أكثر فقها ، وأعظم خشية ، إن أصحاب الفقه عنده ، وأصحاب القرآن عنده ، وأصحاب الشعر عنده ، يصدرهم كلهم من واد واسع . وقال مسروق : كنت إذا رأيت ابن عباس قلت : أجمل الناس ، فاذا نطق قلت : أفصح الناس ، فاذا تحدث قلت : أعلم الناس . وروى أنه قرأ سورة النور وجعل يفسرها ، فقال رجل : لو سمعت هذا الديلم لأسلمت ! وكان سعيد بن جبير يقول : كنت أسمع الحديث من ابن عباس فلو يأذن لى لقبلت رأسه .

وكان ابن عباس واسع العلم بلغة العرب وآدابها ، روى أبو العباس فى الكامل عن أبى عبيدة معمر بن المثنى أن عكرمة مولى ابن عباس قال : رأيت ابن عباس وعنده نافع بن الأزرق ــ أحد رءوس الخوارج ــ وهو يسأله ويطلب منه الاحتجاج باللغة ، فسأله عن قول الله جل ثناؤه : « والليل وما وَسَقَ » فقال ابن عباس : وما جمع ، فقال نافع : أتعرف ذلك العرب ؟ قال ابن عباس : أما سمعت قول الراجز :

إن لنا قلائصا حقائقا مستوسقات لو يجدن سائقا

وسأله عن قوله عز وجل : « قد جعل ربك تحتك سَرِيًّا » فقال ابن عباس : هو الجدول ، وأنشده :

سَلْما ترى الدالج منه أزورا　　إذا تعب فى السرى هرهرا

وسأله عن قوله تعالى : « عُتُلٍّ بعد ذلك زَنِيمٍ » ما الزنيم ؟ قال ابن عباس : هو الدعى الملزَق ، أما سمعت قول حسان بن ثابت :

زنيم تداعاه الرجال زيادة　　كما زيد فى عرض الأديم الأكارع

وسأله عن قوله جل اسمه : « والتفت الساقُ بالساق » فقال ابن عباس : الشدة بالشدة ، وأنشده :

أخو الحرب إن عضت به الحرب عضها　　وإن شمّرت عن ساقها الحرب شمرا

وسأله عن قوله عز وجل : « لهم أجر غير ممنون » فقال له ابن عباس : غير مقطوع ، فقال نافع : وهل تعرف ذلك العرب ؟ فقال : قد عرفه أخو بنى يشكر حيث يقول :

وترى خلفهن من سرعة الرَّجْـ　　ـع منينا كأنه أهباء

ولم يزل به يسائله حتى أملّه ، فجعل ابن عباس يظهر الضجر . وطلع عمر بن عبد الله ابن أبى ربيعة على ابن عباس وهو يومئذ غلام ، فسلم وجلس ، فقال له ابن عباس : ألا تنشدنا شيئا من شعرك ، فأنشده قصيدته التى يقول فى مطلعها :

أمن آل نعم أنت غاد فمبكر　　غداة غد أم رائح فمهجّر

بحاجة نفس لم تقل فى جوابها　　فتبلغ عذرا والمقالة تعذر

حتى أكملها وهى ثمانون بيتا ، فقال له ابن الأزرق : يا ابن عباس أنضرب إليك أكباد الابل نسألك عن الدين فتعرض ، ويأتيك غلام من قريش فينشدك سفها فتسمعه ؟ ! فقال : تالله ما سمعت سفها ! ! فقال ابن الأزرق : أما أنشدك :

رأت رجلا أما إذا الشمس عارضت　　فيخزى وأما بالعشى فيخسر

فقال : ما هكذا قال ، إنما قال :

رأت رجلا أما إذا الشمس عارضت　　فيضحى وأما بالعشى فيخصر

قال نافع : أو تحفظ الذى قال ؟ قال : والله ما سمعتها إلا ساعتى هذه ، ولوشئت أن أردها رددتها ، قال : فإنى أشاء ، فأنشده إياها ، فقال له نافع : ما رأيت أروى منك قط ، فقال ابن عباس : ما رأيت أروى من عمر ولا أعلم من علىّ .

وذكر المبرد فى الكامل أن عليا وجّه ابن عباس الى الخوارج ليناظرهم ، فقال لهم : ما الذى نقمتم على أمير المؤمنين : قالوا : قد كان للمؤمنين أميرا فلما حكم فى دين الله خرج من الايمان

فليتب بعد إقراره بالكفر نعُدْ له ، فقال ابن عباس : لا ينبغى لمؤمن لم يشب إيمانه شك أن يقر على نفسه بالكفر ، قالوا : إنه قد حكم ، قال : إن الله عز وجل قد أمرنا بالتحكيم فى قتل صيد فقال عز وجل : « يَحكم به ذوا عدل منكم » فكيف فى إمامة قد أشكلت على المسلمين ؟ فقالوا : إنه قد حُكم عليه فلم يرض ، فقال : إن الحكومة كالامامة ، ومتى فسق الامام وجبت معصيته ، وكذلك الحكمان لما خالفا نبذت أقاويلهما ، فقالوا : إذ كان على حق لم يشكك فيه وحكم مضطرا فما باله حيث ظفر لم يَسْب ؟ فقال ابن عباس : قد سمعتم الجواب فى التحكيم ، فأما قولكم فى السباء ، أفكنتم سابين أمكم عائشة ؟ فوضعوا أصابعهم فى آذانهم وقالوا : أمسك عنا غرب لسانك يا ابن عباس فانه طُلَق ذُلَق ، غواص على موضع الحجة . وقد صدق الخوارج فى وصفهم له ، فانه أوتى من البراعة فى البيان وقوة الحجة ماسد عليهم مسالك الجدل مع قوتهم فى الاحتجاج .

روى أن الحطيئة الشاعر نظر الى ابن عباس فى مجلس عمر بن الخطاب وقد فرع بكلامه ، فقال : من هذا الذى نزل على القوم بسنه وعلاهم فى قوله ؟ قالوا : هذا ابن عباس ، فأنشأ يقول :

إنى وجدت بيان المرء نافلة يهدى له ووجدت العى كالصمم
المرء يبلى وتبقى الكلم سائرة وقد يلام الفتى يوما ولم يلم

وحدّث شاعر الاسلام حسان بن ثابت قال : كانت لنا عند عثمان حاجة فطلبناها إليه بجامعة من الصحابة منهم ابن عباس ، وكانت حاجة صعبة شديدة ، فاعتل علينا ، فراجعوه الى أن عذروه ، وقاموا إلا ابن عباس ، فلم يزل يراجعه بكلام جامع حتى سد عليه كل حاجة ، فلم ير بدا من أن يقضى حاجتنا ، فخرجنا من عنده وأنا آخذ بيد ابن عباس ، فمررنا على أولئك الذين كانوا عذروا وضعفوا ، فقلت : كان عبد الله أولاكم بها ، قالوا : أجل ، فقلت أمدحه :

كفى وشفى ما فى الصدور ولم يدع لذى إربة فى القول جدا ولا هزلا
سموت الى العليا بغير شبيهة فنلت ذراها لا دَنيّا ولا وغلا

وكان ابن عباس من حلماء العرب ، فقد روى أن رجلا شتمه فقال له ابن عباس : إنك لتشتمنى وفىّ ثلاث : إنى لأسمع بالحاكم من حكام المسلمين يعدل فأحبه ولعلى لا أقاضى اليه أبدا ؛ وإنى لأسمع بالغيث يصيب البلاد من بلدان المسلمين فأفرح به ومالى بها سائمة ولا راعية ؛ وإنى لآتى على آية من كتاب الله تعالى فوددت أن المسلمين كلهم يعلمون منها مثل ما أعلم . والحديث عنه طويل الذيول فحسبنا هذه الصورة الإجمالية عن عبقريته لنتحدث عن إخوان له جروا فى شوطه ؟

صادق ابراهيم عرجون

الكلام والمتكلمون

تعريف علم الكلام ، وموضوعه ، وغايته ، وظروف نشأته

أثبتنا فى فصول مضت أنه كان للمسلمين فلسفة قبل عصر الترجمة ، وأن هذه الفلسفة قد عالجت موضوعات هامة قبل أن يعرف العرب فلسفة الإغريق ، وذلك مثل وجود الله ووحدانيته ، وأزليته وأبديته ، وكماله وقدرته وعلمه ، واستحالة رؤيته بالحواس أو إمكان ذلك ، ومثل خلود الروح والحياة الأخرى والجزاء فيها ، وغير ذلك من المشاكل العويصة التى دوخت الفلاسفة منذ عهد المدرسة الأليائية الى ذلك الحين ، وأثبتنا أيضا أن الجدل الذى احتدم حول هذه المشاكل قد سمى فى تاريخ الفكر الاسلامى باسم « علم الكلام » . وقد رأى الأستاذان : « مانك » و « كارا دى فو » هذا الرأى ، فقررا أن العرب كان لهم فلسفة ولدت ودرجت فى حضن الاسلام تحت اسم « علم الكلام » كما سمى المشتغلون بها بالمتكلمين (١) .

فلننظر الآن ماهو حد علم الكلام ، وموضوعه ، والغاية المقصودة منه ، وما منشأ تسميته ، ومن هم وضّاعه ، وما هى التطورات التى مر بها ؟

حده صاحب « المواقف » بقوله : « والكلام علم يقتدر معه على إثبات العقائد الدينية . والمراد بالعقائد : مايقصد به نفس الاعتقاد دون العمل ، وبالدينية : المنسوبة الى دين محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، فان الخصم وإن خطأناه لا نخرجه من علماء الكلام » . أما موضوعه عنده فهو : « المعلوم من حيث يتعلق به إثبات العقائد الدينية تعلقا قريبا أو بعيدا » (٢) .

وحده ابن خلدون بأنه : « هو علم يتضمن الحجاج عن العقائد الايمانية بالأدلة العقلية ، والرد على المبتدعة المنحرفين فى الاعتقادات عن مذاهب السلف وأهل السنة » (٣)

لا ريب أن من يتأمل هذين التعريفين يبين له أن بينهما فرقا عظيما ، إذ يرى الأيجى يعرف علم الكلام بما كان يعرف به قبل تغلب المدرسة الأشعرية على خصومها : أى حين كان يشمل آراء جميع الفرق ، من : صفاتية ، وقدرية ، وجبرية ، وغير ذلك . وهو لهذا يعلق على تعريفه إياه بقوله : « فإن الخصم وإن خطأناه لا نخرجه من علماء الكلام » . أما ابن خلدون فإنه خضع فى تعريفه للأمر الذى أصدرته الأشعرية باقصاء جميع آراء خصومها عن علم الكلام ،

---

(١) انظر صفحتى ٣٠٩ و ٣١٠ من كتاب « مزيج من الفلسفتين : اليهودية والعربية » للاستاذ « مانك » ، وصفحة ١٥ من كتاب « ابن سينا » للبارون كارادى فو . (٢) انظر صفحة ٧ من « المواقف » طبعة القاهرة .
(٣) انظر صفحة ٤٠٠ من مقدمة ابن خلدون ، طبعة القاهرة .

وباختصاصها أهـل السنة وحدهم باسم المتكلمين . وهو لهذا يقـول : « والرد على المبتدعة المنحرفين فى الاعتقادات عن مذاهب السلف وأهل السنة » .

أما غايته : فهى الوصول عن طريق البرهان الى دفع الشبه التى اتجهت الى العقيدة المتلقاة عن الوحى . وقد أجمل الأيجى فوائده والغاية المثلى من الاشتغال به ، فقال : « وهى أمور : الأول : الترقى من حضيض التقليد الى ذروة الإيقان . ويرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العـلم درجات . الثـانى : إرشاد المسترشدين بإيضاح المحجة ، وإلزام المعاندين بإقامة الحجـة . الثالث : حفظ قواعد الدين عن أن تزلزلها شبه المبطلين . الرابع : أن تنبنى عليه العلوم الشرعية ، فإنه أساسها ، وإليه يؤول أخذها واقتباسها . الخامس : صحة النية والاعتقاد ، إذ بهما يرجى قبول العمل . وغاية ذلك كله الفوز بسعادة الدارين » (١)

ويرى الأيجى أيضا أنه إنمـا سمى علم الـكلام « لأنه بازاء المنطق للفلاسفة ، أو لأن أبوابه عنونت أولاً بالـكلام فى كذا ، أو لأن مسألة الـكلام أشهر أجزائه ، أو لأنه يورث قـدرة على الـكلام فى الشرعيات ومع الخصم » (٢)

غير أن هذا التحديد الذى وضعه الأيجى للتعريف والموضوع والغاية والتسمية ، إنما هو ناجم عن نظرته الى علم الـكلام بعد عصر الترجمة ، لا فى نشأته الأولى إبان خلافة عبد الملك ابن مروان ، كما سنبينه فى موضعه . وآية ذلك أنه يقول : إما لأنه بازاء المنطق للفلاسفة ، أو لأن مسألة الـكلام أشهر أجزائه حتى كثر فيه التناحر والسفك ، فغلب عليه . إذ من المعلوم أن المنطق لم يعرف عند العرب إلا فى العصر العباسى ، وكذلك التناحر والسفك لم يحدثا حول مسألة الـكلام إلا بعد نشأة علم الـكلام وتسميته كلاما بأكثر من ستين سنة . وإذاً ، فذكره إياهما يدل على أن نظرة المؤلف إلى علم الـكلام متأخرة عن تاريخ نشأته بزمن بعيد ، وهذا يحيل أن تـكون إحداهما علة فى التسمية .

وقد ذهب الأستاذ « اشمولديرس » الى « أن المتكلمين هم من اشتغلوا بكلام الإله » . وهذه عبارة متموجة يمكن أن تفهم منها مشايعة هذا المستشرق رأى الأيجى الذى ذكرناه آنفا ، وأن يفهم منها كذلك أن كلمة المتـكلمين تطلق على من اشتغلوا بالقرآن شرحا وتأويلا واستنباطا . وقد فهم « البارون كارادى فو » هذا المعنى الأخير فنقده بقوله : « لو كان هذا الرأى صحيحا ، لـكان المفسرون والفقهاء والنحويون والأدباء جميعا متكلمين . وهذا لم يقل به أحد من علماء المسلمين ، ولا من الباحثين المحدثين (٣) .

(١ و ٢) انظر صفحتى ٨ و ٩ من « المواقف » طبعة القاهرة . (٣) انظـر صفحة ١٢ من كتاب « الغزالى » تاليف « البارون كارادى فو » .

والحق بعد كل الذى تقدم هو أن كلمة « كلام » كان معناها فى أول الأمر : كل حوار حول مسألة من المسائل ، ثم تطورت فأصبح معناها النظر العقلى فى مشكلة من مشاكل الغيبيات .

أما واضعه : فيقرر المستشرقون أنه غير معروف ، ويميلون الى أنه لم يوجد له واضع بعينه ، وإنما تكوّن من مجموعة المحاورات الأولى التى دارت حول ما ورد فى القرآن من مشاكل فلسفية نص عليها فى آيات متشابهات ، ثم من شبه نتجت بعد ذلك من الأخذ والرد اللذين اتسع مجالها على توالى الزمن ، ولكنهم يرون أيضا أن كبار الفقهاء كأبى حنيفة وأبى يوسف قد ساهموا فى تأسيس علم الكلام بقسط وافر ، أما الشافعى فقد هاجمه وحمل عليه فى شىء من العنف وإن كان لم يستطع أن يتخلص منه بحكم عقليته المنقفة ، ومهنته كفقيه عظيم .

أما ظروف نشأته وتطوره : فهى تتلخص فى أنه لما وقعت الاضطرابات السياسية ، وعظمت الفتنة بين المسلمين ، جرف تيارها جميع نواحى الحياة ، فجرؤ الدخلاء والمنافقون على بث شبههم بين المسلمين مستترين خلف حجب الآيات المتشابهة ، محتمين بأمر القرآن الصريح فى إباحة النظر . فألجأت هذه الحركة مفكرى المسلمين الى المساهمة مع محاوريهم فى مزاولة الجدل واستخدام التأويل .

ومنذ ذلك العهد أخذ المتأدبون يجتمعون حول مشاهير الأساتذة ، يتلقون عنهم المعرفة ، ويحاورونهم فى البراهين والشبه ، ومن هذه المحاورات تكوّن علم الكلام .

قال التفتازانى فى شرح العقائد النسفية ما نصه :

« وقد كان الاوائل من الصحابة والتابعين رضوان الله عليهم أجمعين لصفاء عقائدهم ببركة صحبة النبى عليه السلام وقرب العهد بزمانه ولقلة الوقائع والاختلافات وتمكنهم من المراجعة الى الثقات ، مستغنين عن تدوين العلمين وترتيبهما أبوابا وفصولا ، وتقرير مباحثهما فروعا وأصولا ، الى أن حدثت الفتن بين المسلمين ، وغلب البغى على أئمة الدين ، وظهر اختلاف الآراء ، والميل الى البدع والأهواء ، وكثرت الفتاوى والواقعات ، والرجوع الى العلماء فى المهمات ، فاشتغلوا بالنظر والاستدلال ، والاجتهاد والاستنباط ، وتمهيد القواعد والأصول ، وترتيب الأبواب والفصول ، وتكثير المسائل بأدلتها ، وإيراد الشبه بأجوبتها ، وتعيين الأوضاع والاصطلاحات ، وتبيين المذاهب والاختلافات ، وسموا ما يفيد معرفة الأحكام العملية عن أدلتها التفصيلية بالفقه ، ومعرفة أحوال الأدلة إجمالا فى إفادتها الأحكام بأصول الفقه ، ومعرفة العقائد عن أدلتها بالكلام ... ثم لما نقلت الفلسفة الى العربية وخاض فيها الاسلاميون ، حاولوا الرد على الفلاسفة فيما خالفوا فيه الشريعة ، فخلطوا بالكلام كثيرا من الفلسفة ، ليتحققوا مقاصدها فيتمكنوا من إبطالها ، وهلم جرا ، الى أن درجوا فيه معظم الطبيعيات والإلهيات ، وخاضوا فى الرياضيات حتى كاد لا يتميز عن الفلسفة لولا اشتماله على السمعيات ، وهذا هو كلام

المتأخرين (١) » . وقال ابن خلدون بعد أن ذكر بيانا لأمهات المعتقدات الاسلامية التى ورد بها القرآن وآمن بها الصدر الأول كما جاءت دون بحث عما عسى أن يكون فى ثناياها من شبه :

«هذه أمهات العقائد الايمانية معللة بأدلتها العقلية . وأدلتها من الكتاب والسنة كثيرة».

عن تلك الأدلة أخذها السلف ، وأرشد اليها العلماء ، وحققها الأئمة ، إلا أنه عرض بعد ذلك خلاف فى تفاصيل هذه العقائد ، أكثر مثارها من الآى المتشابهة ، فدعا ذلك الى الخصام والتناظر والاستدلال بالعقل زيادة الى النقل ، فحدث بذلك علم الكلام (٢) .

هذا هو مجمل الآراء فى تعريف علم الكلام وموضوعه وغايته ، وعلة تسميته ، وظروف نشأته وتطوره . فلننظر الآن نشأة أهم مدارس المتكلمين ، وأبرز آرائها ، سالكين فى ذلك نهج الترتيب الزمنى لنشوء تلك المدارس .

القدرية أو أهل العدل :

كانت المشكلة الأولى التى دار حولها الجدل هى مشكلة : القضاء والقدر وما نتج منها من الآراء المختلفة بإزاء الجبر والاختيار ، وتحديد ما لدى الفرد من هذا الأخير ، وهل هو محدود منحصر فى دائرة معينة ، أو لا حد له فى جميع الأفعال التى من شأن الفرد أن يقوم بها . وأول من قال بالرأى الثانى هو معبد الجهنى ، ثم عطاء بن يسار ، وأبو مروان الدمشقى .

جاهر أولئك العلماء بحرية الفرد المطلقة ، وعززوا ما ذهبوا إليه بالأدلة العقلية ، فأعلنوا أنه لامعنى للتكاليف ولا للثواب والعقاب إلا إذا كانت الحرية مكفولة ، وإلا لكان التكليف عبثا أو تعجيزا ، وكان الثواب منحة من غير استحقاق ، والعقاب ظلما على غير إثم . وقد أيدوا حججهم كذلك بطائفة من الآيات القرآنية تنص على أن الفرد مختار فيما يسلك فى حياته من سبل ، مسئول عما يبرز من أفعال ، وذلك مثل قول القرآن : « فمن شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر » ، « اعملوا ما شئتم » ، « بل سولت لكم أنفسكم أمرا » ، « لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت » ، « كل نفس بما كسبت رهينة » ، « من يعمل سوءا يجز به » ، « كل امرئ بما كسب رهين » ، « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » ، « ربنا ظلمنا أنفسنا » ، « إنى كنت من الظالمين » ، « رب إنى ظلمت نفسى » .

ولما كان خلفاء بنى أمية يدينون بأن كل شىء قد أثبت فى سجل القدر قبل وقوعه ، وأن فريقى الناجين والهالكين قد عينا فى أم الكتاب التى لا محو فيها ولا إثبات ، وبالتالى : ليس فى وسع الفرد إلا أن يخضع لهذا القدر المحتوم ، فقد سخطوا على القائلين بهذا الرأى

(١) انظر صفحة ٤٢ وما بعدها من شرح العقائد النسفية للتفتازانى طبعة محمود شاكر بالقاهرة .
(٢) انظر صفحة ٤٠٤ من مقدمة ابن خلدون .

وتعقبوهم . فأمر عبد الملك بتعذيب معبد ثم بقتله فى سنة ٨٠ ﻫ بحجة أن مذهبه أحدث اضطرابا فى الأمة الاسلامية . وقد تبع هذا الرأى — رغم معارضة الخلفاء إياه — عدد من خاصة المفكرين ، منهم أبو مروان الدمشقى الذى أمر هشام بن عبد الملك بصلبه على باب دمشق . أما عطاء بن يسار ، فقد فر ، وتوفى وفاة طبيعية عند نهاية القرن الأول الهجرى .

ولما كان الحديث الشريف صريحا فى أن القدرية هم خصماء الله فى القدر ، وأنهم مجوس هذه الأمة ، فقد أطلق أنصار القضاء المحتوم على أنصار حرية الفرد اسم « القدرية » ليكونوا هم المقصودين بالحديث ، لأنهم خاصموا الله فى قدره ، وأسندوا الى أنفسهم القدرة على الاستقلال بالأفعال .غير أن هؤلاء الخصوم لم يرتضوا لأنفسهم هذه التسمية ، وأعلنوا أن القائلين بالقدر : خيره وشره هم أولى منهم بهذه التسمية . وبالتالى : هم أولى بأن يكونوا مجوس هذه الأمة . أما هم فجديرون بأن يطلق عليهم اسم : « أصحاب العدل » لأنهم وحدهم أنصاره الحقيقيون ، إذ أن العدل الحقيقى لا يكون إلا حيث تتحقق الحرية الكاملة فى الأفعال ، وإلا فهل من العدالة أن تعاقب فردا على ما أجبرته على فعله ؟

« يتبع »

الدكتور محمد غلاب
أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

الشهرة ومبغضوها

الشهرة وبعد الصيت أحب الأشياء الى قلوب الناس وقد يؤثرونها على الثروة ، وقد رأينا من أنفق ماله كله وأصبح معدما فى سبيلها ، ولكن من الناس من تغلّب عليهم همّ أعلى وأرفع من هم أنفسهم ، فكانوا يهربون منها هربهم من البوائق الجائحة خشية أن يصرفهم العرض الزائل عن الجوهر الخالد . وهذا من غريب أمر الأفذاذ ، وهو يدل على عراقة النفس البشرية فى السمو ، وإنما تحجبها عنهم الشهوات الجسدية ، والأهواء الوقتية .

قال خالد بن صفوان : كان الأحنف يفر من الشرف والشرف يتبعه . والأحنف هو ابن قيس سيد بنى حنيفة ومن أخص أنصار على رضى الله عنه ، الذى قيل فيه : إذا غضب الأحنف غضب لغضبه مائة ألف سيف لا يسألونه فيم غضب .

وقال الحسن البصرى : لقد صحبت أقواما إن الرجل لتعرض له الكلمة من الحكمة لو نطق بها لنفعته ونفعت أصحابه فما يمنعه إلا مخافة الشهرة .

وقال ابن سيرين : لم يمنعنى من مجالستكم إلا مخافة الشهرة ، فلم يزل بى البلاء حتى أخذ بلحيتى فأقمت على المصطبة ، فقيل : هذا ابن سيرين .

وقال الفضيل بن عياض : كان أحدهم إذا جلس اليه أربعة أو أكثر ، قام مخافة الشهرة .

في عالم الأدب العربي

نظرات فى الادب العربى

جاهليته وإسلاميته

كان يقعد بى عن الاندماج فى الحياة الأدبيـة العامة ، والانضواء تحت لوائها ، والسير فى ركابها ، والخضوع لناموسها العام ، بمواصـلة الـكتابة ، وموافاة الصحف والمجلات ، بالمساجلات والبحوث ، والآراء فى الشعر والأدب ، وما الى ذلك ؛ وبالحرص على الاتصال بالأدباء ، وشهود مجتمعاتهم ، وعمارة منتدياتهم ــ أقول : كان يقعد بى عن هذا المذهب ، أو بعبارة أدق ، عن معالجة ما لاينبو بى موضعى عن معالجته منها ، أننى امتهنت التدريس من عهد مبكر ؛ وفيما جرى من نفسى مجرى النفَس ، من آداب أساتذتى الجلة ــ أحسن الله اليهم أحياء وأمواتا ــ أن الـكرامة الشخصية رأس مال المدرس ، وسر الانتفاع بعلمه وبخلقه ؛ ولا ريب أن فى معالجته لما يخرج عن واجبه الدراسى ، إشراكا ، يضعف مُنّته فى الداخل وفى الخارج ، ويعرضه للخطأ ، وشذوذ الرأى ، ثم للتخطئة والنقاش والجدل ، الذى لاسبيل الى تحريره مما يتجافى به عن مناهج أدب الخطاب ؛ على حين أنه لم يعتد فى درسه إلا نفوذ الـكلمة وقوة السلطان ، وفلج الحجة ، بتوفره على عمله ، والانقطاع له ، والإخلاص فى الحرص على عرضه فى أقرب الصور الى الـكمال .

فلما تقدمت بنا السن ، واتصلت حجر دراستنا بشوارع الحياة العامة ، فسلـكها بعض طلبتنـا ، ووقف على أبوابها آخرون ، ومن دونهم طبقـات أخر من الشادين ، كان يعزينا الاتصال غير المباشر بوساطة أبنائنا ، عن الاتصال المباشر بأنفسنا ؛ على أنه ــ مع ذلك ــ كان لنا فضل المرشد الناصح الأمين ، الذى يضع الهناء موضع النقب ، ويرى من صميم واجبه أن يوجـه أبناءه الى أفضل مناهج الحياة وغاياتها ، كما يوجههم ــ على قـدر جهده ــ الى أنفع مناهج التعليم وغاياتها . ولعل أغنى أيامى بالسعادة ، ذلك اليوم الذى أقرأ فيه لأحد أبنائى بحثا علميا أو أدبيا ، أو قصيدة شعرية ، فى صحيفة راقية ، أو مجلة محترمة ، أو أطـالع له مؤلفا مفيدا مطبوعا ، أو ديوانا من الشعر . وكم لى فى التشجيع والحث على الإقـدام والشجاعة وتطلب الإجادة بشتى وسائلها فى هذا السبيل ، من مواقف كان لها شىء من القوة والأثر المحمود :

فكأنى وما أزيّن منها قَعَدِى يزيّن التحكيما
كَلّ عن حمله السلاح الى الحر ب ، فأوصى المطيق ألاّ يقيما

***

بيد أن الزمان قد تقدم تقدما يشبه الثورة الجامحة ، وطغت موجة النشاط الجسمى والعقلى طغيانا اجترف أو كاد كل واقف على الحياد ، بفضل ما نضحت به السرعة وقوة المواصلات ، من احتكاك الأفكار ، وانتشار المعرفة ، وتقدم العلم والفن ، حتى أصبح التخاف عن مجاراة الحياة الحاضرة خورا فى الطبيعة ، وشذوذا فى الفطرة ، ودليلا على عدم الصلاحية للحياة .

لذلك ، ولوجوه من الآراء والمذاهب الأدبيـة يعالجها الصفّ الآخر من صفَّى الحيـاة العلمية فى هذا البلد ، أكتب فى هذا الموضوع ، شارحاً وجهة النظر الأزهرى فى الأدب ، ومدافعا عنها ، ومبينا ما يقبل عندنا — معشر الأزهريين — وما لا يقبل ، من روائع النقد الحديث ؛ وسأوالى البحث ، وأتابع الحديث ، إن شاء الله .

١ — الأدب الجاهلى :

جدّ فى الأدب ، فى القرن الحاضر ، بحوث ومذاهب ، منها الإجمالى العام ، ومنها التفصيلى الخاص ؛ ولعلنا لا نبعد عن الصواب إذا قلنا : إن النقد التفصيلى الخاص فى هذا العصر ، كان فتحا جديدا ، جنى الأدب من غزواته طرائف ، فيها جـدة ، وفيها جمال ، وفيها حياة ، وقد صادف التوفيق كثيرا منها ؛ وما لم يوفق منها الى تمام الغرض ، لم يخطئه التوفيق فى الطريق . على أنى لست بسبيل أن أتكلم على النقد الخاص الآن ، فقـد جعلت منزلته بعد الحديث عن النقد العام جملة .

أهم ما جدّ فى النقد العام للأدب الجاهلى فى القرن الحاضر رأيان ، أحدهما : أن الأدب الجاهلى أكثره مشكوك فيه ؛ والثانى : أن الأدب الجاهلى جنى على ما جاء بعده من أدب العصور الاسلامية الى اليوم . وكلا الرأيين جدير بالعناية ، جدير بالدرس ، جدير ببيان ما فيه من صواب ، وما خالطه ممـا يجافى الصواب ، إذ الرأيان كلاهما ، صدرا عن دراسة طويلة ، وعن بحث عميق ، واستندا الى دلائل وشواهد ، لا مناص من مناقشتها ، ومعرفة مبلغ ما تحمل من قوة وصحة ، قبل الحكم بسداد الرأى أو فساده ، نزولا على طبيعة البحث ، وعلى حكم النظر .

ومنشأ الرأى الأول : أن العرب — كما هو معروف — ينقسمون الى قسمين : قحطانيين ، ومنازلهم اليمن ؛ وعدنانيين ، وهؤلاء : ربعيون ومضريون ، ومنازلهم شمال الجزيرة العربية . فأما شعر اليمنيين ، فهو موضوع منحول فى الاسـلام لليمنيين لأغراض دينية أو سياسية أو عصبية أو أدبية أو اجتماعية ، لأن أشعار اليمن قـد رويت بلغة قريش ، مع أن لليمن لغة

تخالف لغة الشمال ؛ قال أبو عمرو بن العلاء : ما لسان حمير بلساننا ، ولا لغتهم بلغتنا . وأثبت البحث الحديث اختلاف اللغتين إثباتا لا يحتمل الشك . فنحن بين أمرين : إما أن نبطل هذا التقسيم الوطنى والقبلى بين العدنانيين والقحطانيين ، وإما أن نرفض نسبة ما روى من شعر اليمن الى اليمنيين . والرأى الأخير أرجح ، لأسباب فصّلها صاحب هذا الرأى تفصيلا لا يغنى الإجمال عن الرجوع إليه ، منها أن الحال السياسية والاجتماعية ، كانت تقتضى غلبة الحميرية اليمنية على العدنانية ، لا العكس ؛ ومنها أن بين بعض شعراء اليمن وشعراء ربيعة ، رحماً واشجة ، ونسبا قريبا ، كامرئ القيس ومهلهل ، ومع ذلك لم نجد فى شعر أولها أقل تعرض لمقتضيات هذه القرابة . . . الى غير ذلك .

أما شعر ربيعة من العدنانيين ، فمشكوك فيه ، لأسباب ، منها اختلاف اللغتين : الربعية ، والقرشية ، اختلافا أيسر من الاختلاف بين هذه وبين الحميرية ، وقد رويت أشعار الربعيين فى بيان قرشى مبين ؛ ومنها ذلك الضعف الذى يلمس لمسا فى أكثر ما روى للربعيين من الأشعار ؛ ومنها غير ذلك .

بقى شعر مضر ، وهو مقبول فى الجملة قطعا ، بيد أن الرواة لم يعفوه من التزيّد والحمل ، فقد نحلوا شعراء مضر كثيرا من الشعر الذى لم يقولوه ، ولم تنضح به قرائحهم ؛ وأقوى الأسباب التى تجعل الشعر المضرى مقبولا ، أن كثيرا من الشعراء المضريين أدركوا الاسلام ، واستمرت سلسلة مدرسة أوس بن حَجَر أستاذ شعراء مضر حتى كثيّر وجميل من شعراء الدولة الأموية ؛ وأن للشعر المضرى خصائص فنية يدركها الناقد الأديب واضحة جلية فى كل ما أثر من الشعر الصحيح عن المضريين ؛ فما لم تظهر فيه مما نسب إليهم ، فهو مظلم النسبة ، منحول مدخول .

***

والناقد الأديب المبرأ من الغرض ، لا يرى فى هذا المذهب شيئا يزيد على ما روى عن قدامى النقاد من العرب ، إلا فرق ما بين الإجمال والتفصيل ، فكبار النقاد مجمعون على أن زعيم الكوفة فى الرواية والحفظ هو حماد الراوية ، وأن زعيم البصرة فى الرواية والحفظ خلف الأحمر ؛ وأهل الكوفة والبصرة مجمعون على تجريح الرجلين فى دينهما وخلقهما ومروءتهما ، ومجمعون على أنهما لم يكونا يحفظان الشعر ، ويحسنان روايته ليس غير ، وإنما كانا شاعرين مجيدين ، يصلان من التقليد والمهارة فيه الى حيث لا يستطيع أحد أن يميز بين ما يرويان وما ينتحلان . فأما حماد فيقول عنه المفضل الضبى : إنه قد أفسد الشعر إفسادا لا يصلح بعده أبدا ؛ فلما سئل عن سبب ذلك : ألحن أم خطأ ؟ قال : ليته كان كذلك ! فان أهل العلم يردون من أخطأ الى الصواب ، ولكنه رجل عالم بلغات العرب وأشعارها ، ومذاهب الشعراء ومعانيهم ، فلا يزال يقول الشعر يشبه به مذهب رجل ويدخله فى شعره ، ويحمل عنه ذلك فى الآفاق ، فتختلط أشعار القدماء ، ولا يتميز الصحيح منها ، إلا عند عالم ناقد ؛ وأين ذلك ؟ .

ويروى ابن سلام : أن حمادا دخـل على بلال بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعرى ، فقال له بلال : ما أطرفتنى شيئا ؛ فغدا عليه حماد ، فأنشده قصيدة للحطيئة فى مدح أبى موسى عدة أبياتها أربعة عشر بيتا ، يقول فى مطلعها :

هل تعرف الدار مذ عامين أو عام   دار لهند بجـزع الخرج فالدام

قال بلال : ويحك ! يمدح الحطيئة أبا موسى ، ولا أعرف ذلك ، وأنا أروى شعر الحطيئة ؟ ! ولـكن دعها تذهب فى الناس .

وقد تركها حماد فذهبت فى الناس ، وهى فى ديوان الحطيئة . قال العلامة الرافعى رحمه الله : والبصير بالشعر ومذاهبه ، إذا قرأ شعر الحطيئة ، أخرج هـذه القصيدة منه ، لأنها تقليد ومقاربة ، وإن كان المدائنى قد صحح أنها للحطيئة فى أبى موسى ، ونفى أن يكون حماد نحلها الحطيئة تقربا الى بلال ، فان نَفَس الشاعر أصدق فى نسبة كلامه من ألسنة الرواة .

وأما خلف الأحمر ، فيقول ابن سلام : إنه كان أفرس الناس ببيت شعر . ويقال إنه وضع لأهل الـكوفة ما شاء الله أن يضع ، ثم نسك فى آخر أيامه ، فأنبأ أهل الـكوفة بما كان قد وضع لهم من الشعر ، فقالوا له : أنت كنت عندنا فى ذلك الوقت أوثق منك الساعة ! فبقيت أشعاره على حالها . ويقال إنه وضع لامية العرب على الشنفرى ، ولامية الحماسة التى مطلعها :

إنّ بالشِّعب الى جنب سَلْعٍ   لقتيـلا دمه ما يطـــلّ

على ابن أخت تأبط شرا فى رثاء خاله . قالوا : ومن علائم وضعها هذه الدقة التى لم تكن من خصائص العصر بعد ، فى قوله منها :

حادث ّما نابنى مُصْمَئِلّ   جـلّ حتى دقّ فيه الأجـلّ

وقال الأصمعى : سمعت خلفا يقول : أنا وضعت على النابغة القصيدة التى يقول فيها :

خيـل صيام ، وخيل غـــير صائمة   تحت العجاج ، وأخرى تعلك اللجما

وقد ذكر غير واحد من العلماء : أنه لما جاء الاسلام ، واندفع به العرب الى الفتوح ، اشتغلوا عن الشعر بالجهاد والغزو حينا من الزمن ، فلما راجعوا روايته بعـد ذلك ، وقد أخـذ منهم السيف والحيف ، وذهب كثير من الشعر وتاريخ الوقائع بذهاب رواته ، صنعت القبائل الأشعار ، ونسبتها الى غير أهلها ، تتـكثر بها ، وتعتاض مما فقدته . وكان فى العرب قوم آخرون قلّت وقائعهم وأشعارهم ، فأرادوا أن يلحقوا بذوى الـكثرة من ذلك ، وإنما العزة للـكاثر ، فقالوا على ألسن شعرائهم مالم يقولوه ، وأخـذ عنهم الرواة . وأول القبائل التى وضعت الشعر فى الاسلام قريش ، وكانت أقل العرب شعرا وشعراء ؛ فانها لما تعاضهَتْ واستبّت وكذب بعضها على بعـض أول العهد بالاسـلام ، حين كان منها المسلمون ، ومنها

القاسطون ، ومنها دون ذلك ، وضعوا على حسان بن ثابت رضى الله عنه أشعارا كثيرة لا تليق به ولا تجوز عليه ، وما ترى العرب إلا أخذت إخذها فى ذلك من بعد .

***

إذا علمنا هذا — وهو متعالَم معروف — تحقق لدينا أن هـذا الرأى ليس جديدا فى جوهره ، ولا بدعة فى الأدب لم يسبق اليها ، وإنما الجديد فيه ، هو هذا التفصيل والإيضاح والشرح ، وضرب المثل ، مما نوّع نواحى البحث فيه ، وفتح للباحث أبوابا ، لم تكن تخطر له قبل ذلك ببال . إن القدامى من النقاد ، أرسلوا شكهم فى الأدب الجاهلى إرسالا ، وعمّموه تعميما ، فلم يفرقوا فى هذا الشك بين شعر وشعر ، ولا بين عرب وعرب ؛ فأما صاحب هذا الرأى ، فقد تناول الموضوع ففصله تفصيلا ، وقسمه أقساما ، ثم أصدر حكمه على كل قسم ، معللا مبرهناً ، تارة بما ترتاح اليه نفس الأديب ، وأخرى بما لا يخلو من تعسف واضطراب ؛ وكلتا الحالتين مجدية على الأدب ، لا يخلو النظر فيها من جدّة ، ولا يقصّر عن نفع . ولعمرى لو صدر هـذا الرأى عن غـير من صـدر عنه ، ثم جرد من تلك الفضول التى تضر الأدب أبلغ مما تنفعه ، لقوبل فى العالم العربى بغير ما قوبل به إبان ظهوره ، ولسكنت أقلام كثيرة حركها مَبعثُه بما كان الى العلم والمنطق ، أقرب منه الى النقد الأدبى والأدب . فالثورة على الرأى ، فى حقيقة الأمر ، لم تكن لما أصاب الأدب من شك فى نسبته ، إذ هو أدب سواء أكان صحيح النسبة أم كان منحولا ، وإنما كانت ثورة على تلك الفضول التى استتبعها التوسع فى استخدام حرية الرأى — من رجل معروف بالغلو فى حرية الرأى — الى حد غير مقبول ولا مجد على أدب ، ولا على غير أدب .

***

فالأزهر يلتقى مع صاحب هذا الرأى فى الناحية الأدبية فى جملتها ، ويفيد بما تعلق به من بحوث وأطراف ، فيها لذة ، وفيها متعة ، وفيها فنون من الأدب خصيبة ؛ ليس من البر بالأدب مطاردتها وإغلاق الأبواب دونها ، وضرب الأسـداد على الطلاب حتى لا يتناولوها فيفتتنوا بما فيها من خير ، عما فى طواياها من شر ؛ فالحـكمة ضـالة المؤمن يلتقطها حيث وجدها ، والخير لا يصد الوجوه عنه ، مصاحبة الشر له .

ما ينفع الرجس من قرب الزكى ؟ وما على الزكى بقرب الرجس من ضرر

وها نحن أولاء نبعث البعوث الى أوربا ، لتأخذ فلسفة العلوم والفنون عن علماء الغرب ، وفيهم اللادينى ، وفيهم الملحد ، وفيهم اليهودى والنصرانى ، وغيرهم ، ولا تصرفنا عداوتهم لنا فى الدين والمعتقد ، عن مصادقتهم فى العلم والفن ووسائل ترقية الحياة .

***

بيد أننا نفترق عن صاحب هـذا الرأى ، وعن السواد الغالب من شيعته وأشباهه ، لا فى تلك الفضول التى مررنا بها مراً آنفا فحسب ، بل وفيما يحاولونه ويدأبون فى السعى إليه فى أناة وحسن تأتٍّ ورقة أسلوب ، وهو فصل اللغة عن الدين ، والبحث فيها مجردة عن مِسْحته ، وعن ملابساته ، وعدم التقيد فى بحثها بالقيود التى تربطها به ، وتقصرها عليه ؛ وعندى أن هـذا أخطر الأمرين ، وأسوأ الناحيتين ، إذ أن الدين من اللغة ، بمنزلة الروح من الجسد ، ففصل أحدهما عن الآخر ، قضاء عليهما جميعا ؛ وليس هـذا رأينا — معشر الأزهريين — وحدنا ؛ فالمرحوم مصطفى صادق الرافعى ، وهو صاحب مذهب فى الأدب العربى معتقد ، ومكانته فى البحث والنظر لا تجحد ، يقول فى كتابه (تاريخ آداب العرب ص ١٣ ج ١) : وأنت خبير بأن الرجال فى تاريخ الآداب الأوربية ، هم قِطَعُه التى يتألف منها ، لأنهم متصرفون فى اللغة كأنها إنما توضع لمعهدهم أوضاعا جديدة . فـكل رجل منهم فى طريقته ومذهبه فن علم ، أو هو على الحقيقة قطعة متميزة فى تركيب التاريخ العقلى . ولـكن الرجال عندنا فى قياسهم بأولئك ينزلون منزلة التشبيهات من المعانى الأصلية ، إلا ماندر ، ولا حكم للنادر . وذلك لأن فى لغتنا معنى دينيا ، هو سرها وحقيقتها ، فلا تجد من رجل روى أو صـنّف أو أملى فى فن من فنون الآداب ، أول عهدهم بذلك ، إلا خدمة للقرآن الـكريم ؛ ثم استقلت الفنون بعد ذلك ، وبقى أثر هـذا المعنى فى فواتح الـكتب . والقرآنُ نفسه حادثة أدبية ، من المعجزات الحقيقية التى لا شبهة فيها ، وإن لم يفهم سر ذلك « من لا يفهمونه » اه : هكذا وضع — رحمة الله عليه — من لا يفهمونه ، بين قوسين ، يريد بذلك أن ينبه من لا يفهم ، الى أنه يقصد الى قوم معينين ، تبين جنوحهم الى هذا الرأى ، وعملهم على تطبيقه ، والسعى فى سبيله . وما كان الرأى الذى أسلفنا الحديث عنه فى هذا البحث إلا طليعة ومقدمة لتطبيق هذا المذهب الذى لم يُمته قيام الثورة فى وجهه ، بل ها هو ذا :

يبدو وتضمره البلاد كأنه سيف على شرف يسلّ ويغمد

فتراه اليوم فى متجهات النقد الحديث ، ونظم التعليم ، كما رأيته أمس فى الأدب الجاهلى .

وعلى الجملة ، فصميم الفرق بين مذهب الأزهر فى اللغة والأدب ، وبين مذهب الجامعة فيهما ، أن الأزهر يخدم بدراستهما الـكتاب والسنة ، وهما أصل الدين الذى يأخذ نفسه بحياطته والقيام عليه ، وأن الجامعة تدرسهما على أنهما من خصائص الشرق ، وأدوات تاريخه ، ومقومات حياته .

وفيما يلى من فصول هذه النظرات ، مزيد إيضاح لمظاهر هذا الاختلاف ؛ فإلى اللقاء ؟

عبد الجواد رمضان
كلية اللغة العربية

نظام الوقف فى الاسلام

وآثاره المترتبة عليه

عرضنا فى بحوث سابقة لنظام الوقف وآثاره . والوقف لغة : الحبس والمنع ، وهو مصدر وقف ، تقول : وقفت الدابة إذا منعتها من السير فوقفت ، ووقفت الدار إذا حبستها ، ولا تقول : أوقفتها فانها لغة رديئة . وقد اشتهر إطلاق المصدر بمعنى اسم المفعول ، فيقال : هذا البيت وقف أى موقوف ، ومن ثم جمع على أوقاف .

يبقى بعد ذلك أن أئمة الفقه الاسلامى رضوان الله عليهم اختلفوا فى معنى الوقف شرعاً ، فيذهب أبو حنيفة رضى الله عنه الى أن الوقف هو حبس العين على ملك الواقف مع التصدق بمنفعتها ، أو صرف منفعتها الى من أحب . فالنوع الأول كما لو وقف الواقف عينا من أول أمره على جهة بر لا تنقطع كالفقراء والمساجد والمدارس والمستشفيات والحصون والمقابر والسقايات والقناطر والملاجئ والتكايا ونحو ذلك . والنوع الثانى كما لو وقف على جماعة من الأغنياء عينا ومن بعدهم على جهة بر لا تنقطع . وفى هذه الحالة يعتبر الامام النوع الثانى وقفا قبل انقراض الموقوف عليهم ولا يعتبره صدقة . ومذهبه مبنى على أنه رضى الله عنه لايقول بلزوم الوقف ، فهو يرى كما يفهم من تفاصيل مذهبه أن العين الموقوفة تجرى عليها أحكام الملكية بعد موت الواقف ، فتورث وتوهب ، وتعرض لها صفات الملكية كما لو لم تكن موقوفة .

ويذهب الصاحبان : أبو يوسف ، ومحمد رضى الله عنهما ، الى أن معنى الوقف هو حبس العين عن أن تملك لأحد من العباد ، فيما يروى العلامة ابن عابدين ، والتصدق بمنفعتها ابتداء وانتهاء ، أو انتهاء فقط . فالحالة الأولى كما لو وقف من أول الأمر على جهة بر لا تنقطع ؛ ويسمى الوقف حينئذ وقفا خيريا . والحالة الثانية كما لو وقف على من يحتمل الانقطاع واحدا كان أو أكثر مما لا يعتبر الصرف اليه صدقة ثم جعلها من بعدهم لجهة بر لا تنقطع ، كما إذا وقف على نفسه وذريته ومن بعدهم للمساكين ، ويسمى الوقف حينئذ وقفا أهليا ، فاذا آل الى جهة بر دائمة صار خيريا . وتلك التسمية الثانية تسمية عصرية ، وإن كانت فى مدلولها متمشية مع كل عصر وجيل . وعلى مذهب الصاحبين يكون الوقف لازما ، فلا يوهب ولا يورث ولا يوصى به لأنه لا يملك لأحد من العباد .

ومما لا مراء فيه أن الوقف بنوعيه الخيرى والأهلى عمل من أعمال البر والخير ، ووسيلة من وسائل القربى الى الله ، وهو فيما وراء ذلك نظام صالح يسيغه العقل وتدعو إليه نواميس المجتمع ، وهو مع ذلك لا يعدو أن يكون نظاما لتوثيق ما بين الأغنياء والفقراء من صلات

تقوم على التعاون بينهما ، فالأغنياء يبذلون نوالهم ، والفقراء يكفون عن الحقد عليهم والتبرم بما فيما أيديهم .

وهو فوق ذلك نظام أرشد إليه الكتاب والسنة ، وتواصت به أمم مسيحية مع اختلاف فى الأوضاع والأساليب والمقاصد ، فيندرج فى كثير من الآيات التى حثت على فعل الخير والتزود به للآخرة ، مثل قوله تعالى : « وافعلوا الخير لعلكم تفلحون » ، وقوله : « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » ، وقوله : « وابتغوا إليه الوسيلة » ، وقوله : « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره » ، وقوله : « وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتى أحدكم الموتُ فيقولَ رب لولا أخرتنى الى أجل قريب فأصّدّقَ وأكنْ من الصالحين » .

وقد دلت على مشروعيته أيضا الأحاديث الكثيرة والآثار المتضافرة ، واستمرار عمل الأمة من لدن رسول الله صلى الله عليه وسلم الى يومنا هذا على الأخذ بالوقف من غير نكير . وهذا إجماع عملى على مشروعيته ، وهو حجة . قال زيد بن ثابت رضى الله عنه : لم نر خيرا للميت ولا للحى من هذه الحبوس الموقوفة . أما الميت فيجرى أجرها عليه ، وأما الحى فتحبس عليه ولا توهب ولا تورث ولا يقدر على استهلاكها .

فنظام الوقف بنوعيه فى الشريعة الاسلامية أوفى غرضا للمجتمع ، وأعم فائدة لمصلحة الجماعة والفرد . وما يعرض له من المساوئ فى تصرف النظار مما يطرح كل يوم فى ساحة القضاء لا يغض من قيمته ولا يؤثر فى مشروعيته . فاذا أحكمت طريقة مراقبة النظار والأخذ على أيدى العابثين منهم ، أنتج نظام الوقف لنوع من بنى الانسان أفضل وجوه المعونة ، وأكفل طرائق العطف والمثوبة ؟

عباس طه

الى حضرات القارئين

لم نستطع فى هذا العدد أن ننشر كل ما لدينا من مقالات حضرات العلماء والكتاب التى تراكمت لدينا فى الشهرين اللذين لا تصدر فيهما المجلة ، وهما ذو القعدة وذو الحجة ، فنعتذر الى حضراتهم راجين أن نوفق الى نشرها تباعا .

وكذلك نعتذر لحضرات المؤلفين الذين رغبوا إلينا فى نقد مؤلفاتهم ، فقد ضاق هذا العدد عن نشر شىء من ذلك ، آملين أن نوفيها حقها فى الأعداد المقبلة ، إن شاء الله ؟

تفسير سورة الحجرات

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الإمام الشيخ محمد مصطفى المراغى
شيخ الجامع الأزهر
الدرس الثانى الذى ألقاه فضيلته فى رمضان سنة ١٣٥٨
بمسجد السيدة نفيسة بالقاهرة
وقد تفضل بالاستماع له حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم

بسم الله الرحمن الرحيم

(وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ، فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ ، فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ ، وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ) :

الطائفة من الناس : جماعة منهم ، ومن الشىء : قطعة منه ، وهى جمع طائف ، وقد يكنى بالجمع عن الواحد ، فيراد بها الواحد .

والبغى : طلب تجاوز الاقتصاد فيما يتحرى فيه ، سواء تجاوزه أم لم يتجاوزه . وهو قسمان : محمود ، ومذموم . فالأول: تجاوز العدل الى الإحسان ، والثانى : تجاوز الحق الى الباطل ، أو تجاوز الحق الى الشُّبَه ، وقد قال عليه السلام : « الحق (١) بيّن والباطل بيّن ، وبين ذلك مشتبهات ، ومن رتع حول الحمى أوشك أن يقع فيه » . وقولُ الله سبحانه : « إِنَّمَا السَّبِيلُ على الذين يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فى الأرضِ بغير الحقِّ » دليل على أن هناك بغيا بالحق .

والفىء والفيأة : الرجوع الى حالة محمودة . والعدل : هو التقسيط على سواء ، وهو مساواة فى المكافأة ، إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر . والإحسان : مقابلة الخير بأكثر منه ، والشر بأقل منه . ويقال : قسط الرجل ، إذا جار فأخذ قسط غيره ؛ وأقسط ، إذا عدل فأعطى قسط غيره .

(١) المشهور فى الرواية « الحلال بين والحرام بين الخ » . والرواية المذكورة ساقها الراغب فى مفرداته .

روى عن ابن عباس أن الآية فى الرجلين ، أو النفر والنفر ، أو القبيلة والقبيلة من أهل الاسلام : يقتتلان ، فأمر الله تعالى أئمة المسلمين أن يقضوا بينهم بالحق الذى أنزله الله فى كتابه : إما القصاص والقود ، وإما العقل والدية ؛ فإن بغت إحداهما على الأخرى بعد ذلك ، كان المسلمون مع المظلوم على الظالم حتى يرضى بحكم الله . وعلى هذا فالصلح والقتال المطلوبان فى الآية واجب الإمام ، لأنه قائم مقام المسلمين ، ونائب عنهم ، وخليفتهم ؛ فاذا وجد بلد لا يمتد اليه سلطان إمام المسلمين ، وجب على جماعة المسلمين ما هو واجب على الإمام . ولجماعة المسلمين تصرفات نافذة معروفة فى كتب المذاهب . وروى الزهرى عن سالم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه » .

وعلى هذا فاذا اقتتل اثنان أو جمعان من المسلمين ، فعلى الإمام الإصلاح بينهما ، بالدعاء الى حكم كتاب الله ، والرضا بما فيه ، وبالنصح وإزالة الشبهة ؛ فإن تعدت إحداهما ما جعله الله عدلا بين خلقه ، وطلبت العلو بغير الحق ، ورضيت به الطائفة الأخرى ، قاتل المسلمون الطائفة الباغية حتى ترجع الى حكم كتاب الله ؛ فإن رجعت بعد القتال ، أصلح بينها وبين الطائفة الأخرى بالعدل والإنصاف ، ولا يكتفى بالمتاركة والمحاجزة والكف عن القتال ، بل لا بد من الإصلاح بالعدل ، لتزول الضغينة ، ويأمن الناس رجوعهما بعد ذلك الى القتال . والله تعالى يحب المقسطين ، فيجازيهم أحسن الجزاء على عدلهم .

تقاتل الفئة الباغية ما قاتلت ، فاذا قبضت أيديها عن الحرب وكفت ، تركت ؛ وإذا ولت وركنت الى الفرار لا يجهز على جريحها ، ولا يقتل أسيرها ، ولا يطلب هاربها ، ولا يقسم فيئها ؛ وإن بغى الفئتان معا ، أصلح بينهما على الطريقة التى يراها المسلمون كافلة للموادعة والمكافة ؛ فان لم تتحاجزا وأقامتا على البغى ، وجبت مقاتلتهما معا ، لأن البغى فساد فى الأرض ، وخروج على السنن الإلهية ، وتعد على العدل الذى يحبه الله ويأمر به ؛ وعلى المسلمين أن يطهروا الأرض من البغى والفساد ، لتعمر بالعدل والإحسان .

هكذا يطلب الله من المسلمين أن يكونوا حراسا للعدل ، وقواما عليه . ومن حق من يضعه الله فى هذا الموضع ، ويمنحه هذه الدرجة من الشرف ، أن يعد نفسه لهذا الشرف ، وأن يقدم كل شىء يملكه تلبية لهذا الواجب الرفيع الشأن ، من نفس ومال .

وإن اقتتل فئتان بشبهة دخلت عليهما ، وكلتاهما ترى نفسها محقة ، وجب إزالة الشبهة وإطلاعهما على مراشد الحق ؛ فإن ركبتا متن الغواية واللجاجة ، ولم تعملا بما هديتا اليه ونصحتا به ، اعتبرتا فى حكم الباغيتين .

وللفقهاء أحكام مفصلة فيما يتلفه العادل على الباغى ، وبالعكس . ولا بأس من ذكر بعضها هنا إجمالا :

أما المتلفات فى غير القتال فمضمونة ، على القواعد الممهدة فى قصاص النفوس وغرامة الأموال . وأما متلفات القتال فلا تضمن ؛ لا يضمن العادل لأنه مأمور بالقتال ، ولا يضمن الباغى لأن إزالة الضغينة وحب الإسراع فى وقف القتال يدعوان الى التسامح فيما أتلف من نفس ومال . وعلى ذلك كانت الوقائع التى جرت فى عصر الصحابة والتابعين ، فلم يطلب فيها بعضهم من بعض ضمان نفس أو مال . لكن الأموال المأخوذة فى القتال ترد بعد انقضاء الحرب الى أهلها من الجانبين . وهذا كله فى البغاة الذين لهم شوكة من عدد وعدة ، ولهم تأويل باطل ؛ أما الذين لاشوكة لهم فهم فى حكم قطاع الطريق ، عليهم ضمان ما أتلفوه من نفس ومال .

والذين لهم شوكة وليس لهم تأويل ، اختلف الفقهاء فيهم ، فمنهم من ضمّنهم ، وهو الظاهر الموافق لقوله سبحانه : « وأقسطوا إن الله يحب المقسطين » ، ومنهم من نفى الضمان عنهم .

***

(إنما المؤمنون إخوة ، فأصلحوا بين أخويكم ، واتقوا الله لعلكم ترحمون) :

فى هذه الآية تقرير لما أمر الله به من الإصلاح فى الآية السابقة ، وبيان للعلة فيه . ذلك أن الإيمان عقد بين أهله ، من السبب القريب ، والنسب اللاصق ، ما هو إن لم يفضل الأخوة ولم يبرز عليها ، لم ينقص عنها ، ولم يتقاصر عن غايتها . وقد جرت العادة بين الناس على أنه إذا نشب قتال بين أخوين من أخوة الولاد لزم سائر الناس أن ينهضوا فى إزالته ورفعه ، ويمشوا بالصلح بينهما الى أن يرقعوا ما وهى من الوفاق ؛ فالأخوة فى الدين أحق بذلك ، وأحق بأكثر منه . وعن النبى صلى الله عليه وسلم : « المسلم أخو المسلم : لا يظلمه ، ولا يخذله ، ولا يعيبه ، ولا يتطاول عليه فى البنيان فيستر عنه الريح إلا بإذنه » .

وطلب الله بعد عقد الأخوة بين المؤمنين أن يتقوه ؛ وبيّن أن تقواه سبيل التواصل والتراحم ، وأن هذا سبب وصول رحمة الله اليهم .

***

(يأيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ، ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن ، ولا تلمزوا أنفسكم ، ولا تنابزوا بالألقاب ، بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ، ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون) :

السخرية : الاستهزاء والنظر الى المسخور منه بعين النقص ، واحتقاره قولا أو فعلا ، بحضرته .

والقوم : الرجال خاصة ، لأنهم القائمون على شئون النساء ؛ ومنه قول زهير : أقومٌ آلُ حصن أم نساء * وأما قوم فرعون وقوم نوح وعاد ، فمن باب تغليب الذكور على الإناث .

واللمز : الطعن والضرب باللسان ، والتنبيه على المعايب فى حضرته . ولا يدخل فى مفهومه قصد الاحتقار ، كما يدخل فى السخرية . وهـذا هو الفارق بينهما .

والتنابز بالألقاب : التداعى بها . والاسم : معناه الذكر ، مأخوذ من قولهم : طار اسمه فى الآفاق .

ينهى الله المؤمنين عن سخرية بعضهم من بعض ، فلا يحل لرجل أن يسخر من رجل أو امرأة أو جمع من الناس ، ولا لامرأة أن تسخر من امرأة أو رجل أو جمع من الناس . وقد جاء النهى فى الآية منصبا على سخرية القوم من القوم ، والنساء من النساء ، بناء على ما هو الأعم الأغلب من وقوع السخرية فى المجامع ، ومن أن القوم يسخرون من القوم ، والنساء من النساء . على أن هذا التركيب يدل بالعرف اللغوى على النهى عن السخرية على أى وجه من الوجوه .

ثم بيّن الله تعالى العلة فى النهى ، وهى أن المسخور منه قد يكون خيرا من الساخر فى الواقع ونفس الأمر وعند الله ، لأن الناس لا يطلعون إلا على ظواهر الأمور ، ولا علم لهم بالخفيات ، وليس هناك شىء يقام له وزن عند الله إلا التقوى وخلوص الضمائر ، وهو وحده الذى يعلمها ، ولا علم للعباد بشىء منها ، فلا يجوز لأحد أن يجترئ على السخرية بأحد ، ولو كان ممن تزدريه العيون لرثاثة حاله ، وقلة ماله ، وقبح صورته ، وعىّ لسانه وفهاهته ، فلعله أخلص ضميرا ، وأنقى قلبا ، وأطهر سريرة ؛ ولعله يحمل بين جنبيه نفسا كريمة شريفة الخصال ، كاملة الخلق ، مهذبة بالعلم ؛ ولعله فى هذا كله أحسن حالا من الساخر ؛ وفى السخرية ظـلم بتحقير من هو فى نفسه عظيم لا يستحق التحقير .

ثم نهى الله المؤمنين عن اللمز والطعن ، وعن نداء بعضهم بعضا بما يكرهونه من الألقاب ؛ ونبههم الى أنهم ، وهم كنفس واحدة ، وكجسد واحد ، لا يليق أن يطعن بعضهم بعضا ، لأن الطاعن فى هذه الحالة يطعن نفسه ، ويطعن جسده ؛ وهذا هو السر فى قوله تعالى : « ولا تلمزوا أنفسكم » مع أن اللامز إنما يلمز غيره لا نفسه . وذهب صاحب الكشاف الى أن المعنى : وخُصوا أنفسكم أيها المؤمنون بالنهى عن اللمز ، ولا عليكم أن تلمزوا غيركم ممن ليس على دينكم أو ممن ليس على سيرتكم ، وهم المجاهرون بالفسق . وفى الحديث الشريف : « اذكروا الفاجر بما فيه كى يحذره الناس» . وقد روى أنه من حق المؤمن على أخيه المؤمن أن يسميه بأحب الأسماء اليه .

ولقد كانت الكنية من الأدب الحسن . وقال عمر : أشيعوا الكنى فانها منبهة . وقلّ من تجده من المشاهير فى الجاهلية أو الاسلام ولا تجد له لقبا حسنا أو كنية : كالعتيق لأبى بكر ، والفاروق لعمر ، وسيف الله لخالد . ولم تزل الألقاب الحسنة والكنى تجرى فى الأمم كلها فى تخاطبهم وكتاباتهم من غير نكير .

تقدم النهى عن التلقيب بما هو مكروه ؛ ونذكر هنا أنه لا فرق بين أن يكون اللقب المكروه صفة له أو لأبيه أو لأمه أو غيرهما ممن له به صلة . وروى عن الحسن : أدركنا السلف وهم يرون العبادة الكف عن أعراض الناس . وقد قال الله تعالى : « ويل لكل هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ » . والهمزة : الطعّان فى الناس .

بعد هذا بين الله سبحانه أن السخرية واللمز والتداعى بالألقاب موجبة للفسوق والخروج عن طاعة الله ، فلا يليق بالمؤمن الذى حل قلبه الإيمان أن يطلق عليه كلمة فاسق ، وأن يشيع ذكره بين الناس على وصف أنه فاسق بعد أن عُرف بالإيمان .

فمعنى « بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان » : بئس الذكر أن يُذكَر المؤمن بالفسوق بعد أن اتصف بالإيمان ، أى أنه لا ينبغى اجتماع هذين الوصفين : الإيمان والفسق ، كقولهم : بئس الشأن بعد الكَبْرة الصبوة . وهم يريدون استقباح الجمع بين الصبوة ـ أى ما يكون فى حال الشباب من الميل الى الجهل ـ وكبر السن .

وينبغى أن نذكر أن اللقب القبيح قد يشيع فيذكر ولا يتأذى صاحبه منه ، وقد تدعو اليه الضرورة فيذكر لا على قصد التحقير ، كما يقول المحدثون : سليمان الأعمش ، وواصل الأحدب . وفى هذه الحالة لا ينهى عنه .

ثم ذكر الله سبحانه أن التوبة عن هذه الأمور واجبة لازمة كالتوبة عن سائر المعاصى ، وأن من لم يتب فهو ظالم لنفسه ، لأنه عرضها لسخط الله وعذابه .

وينبغى أن نذكر هنا كلمة عن التوبة : فهى ليست قول الشخص : أستغفر الله وأتوب اليه . كلا ! هذا القول لا يسمى توبة ، ولا هو الذى يطلبه الله سبحانه ويحبه : « إنَّ اللهَ يحبُّ التّوابينَ ويُحب المتَطَهِّرين » . التوبة تستدعى معرفة عِظَم ضرر الذنوب والإدمان عليها ؛ وتستدعى ألم القلب وحزن النفس من البقاء على الحالة الأولى حتى يشعر الانسان بوصول الألم الى العظم ، وحزّه فيه ، وبأن كبده تكاد تذوب ، وبأن الكرب يحيط به ولا مفرج له إلا الله سبحانه ؛ وتستدعى العزم على ترك الذنب والإقلاع عنه .

فحقيقة التوبة : علم ، وندم ، وقصد . وإذا فقد أحدها فقدت . وغير خاف أن معرفة كون المعاصى مهلكات جزء من الإيمان ؛ وعدم المبادرة الى التوبة مفوت لجزء من أجزاء

الإيمان ؛ ولو كان الإيمان كاملا لما أقدم مؤمن على معصية . وهذا يفسر قول النبي صلى الله عليه وسلم : « ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن » . ولا بد في التوبة المقبولة أن تكون قريبة من الذنب : « إنما التوبةُ على اللهِ للذين يعملون السُّوءَ بجهالةٍ ثم يتوبون من قريبٍ ، فأولئك يتوبُ اللهُ عليهم ، وكان اللهُ عليماً حكيماً . وليست التوبةُ للذين يعملون السيئاتِ حتى إذا حضرَ أحدَهمُ الموتُ قال إني تبتُ الآنَ ، ولا الذين يموتون وهم كفارٌ ، أولئك أعتدنا لهم عذاباً أليماً (١) » . وقد يسترسل المذنب في ذنوبه حتى تصير طبعا ، وران على القلب فلا تحله الندامة على الذنب ، ولا القصد الى الخلوص منه ؛ فإذا قال صاحب هذا القلب : إني تبت إليك ، كان قوله كقول القصاب الذي يغسل الثياب : إني غسلت الثوب ، دون أن يغسله .

***

(يأيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم ، ولا تجسسوا ، ولا يغتب بعضكم بعضاً ، أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه ، واتقوا الله ، إن الله تواب رحيم) :

اجتنبه : كان على جانب منه ، ثم شاع في التباعد اللازم له .

والظن : اسم لما يحصل عن أمارة قوية أو ضعيفة ؛ فإن قويت جدا أدت الى العلم ، وإن ضعفت جدا لم تتجاوز حد الوهم .

والإثم : الفعل المبطئ عن الثواب ، وجمعه آثام . وقوله : « أخذته العزةُ بالإثم (٢) » معناه : حملته على فعل ما يؤثم . والآثم : الذي يحتمل الإثم .

والجس : مسّ العرق وتعرّف نبضه للحكم به على الصحة والسقم . وهو أخص من الحس ، فإن الحس تعرّف ما يدركه الحس . ويرى بعضهم أنهما متقاربان ، وأن مشاعر الإنسان يقال لها الجواس ، كما يقال لها الحواس .

والغيبة : أن يذكر الإنسان غيره بسوء ، وبما فيه من عيب في غيبته ، من غير أن يحرج الى ذلك . وقد سئل صلى الله عليه وسلم عن الغيبة فقال : « أن تذكر أخاك بما يكرهه ، فإن كان فيه فقد اغتبته ، وإن لم يكن فيه فقد بهته » .

---

(١) النساء : ١٧ ، ١٨ (٢) البقرة : ٢٠٦

من الظن ما يباح اتباعه : كالظن فى أمور المعاش وما أشبه ذلك ؛ ومنه ما يجب اتباعه : كالظن فى الأحكام الشرعية الثابتة بأدلة غير قطعية ؛ ومنه ما يحرم اتباعه : كالظن فى الإلهيات والنبوات ، والظن حيث يوجد دليل شرعى قطعى يخالفه . ومن الظن المحرم ظن السوء بالمؤمنين ؛ فقد حرم الله من المسلم دمه وعرضه ، وأن تظن به السوء . والمحرم هو عقد القلب وحكمه على غيره بالسوء ؛ أما حديث النفس ، والخواطر ، والشك ، فكل ذلك معفو عنه . والمنهى عنه ركون النفس وميل القلب . والأسرار لا يعلمها إلا علام الغيوب ؛ فليس لك أن تعتقد سوءا إلا إذا انكشف لك بعيان ، أو ثبت ببرهان . أما ما لم تشاهده ولم تسمعه فى أذنك ، بل وقع فى قلبك ، فالشيطان يلقيه ، والشيطان فاسق كاذب . ولا يستباح ظن السوء إلا بما يستباح به المال من مشاهدة أو بينة عادلة . وأمارة سوء الظن وعقد القلب ، تغيرُ القلب عما كان . نعم قد يعذر الانسان فى ظن السوء إذا أخبره العدل الثقة .

هذا الذى سبق بيانه خاص بالمعروف بالصلاح ، ومن أونست فيه الأمانة ، أو شوهد منه التستر ؛ أما المجاهر بالمعاصى ، ومن يتعاطى الريب ، فلا يحرم سوء الظن به وإن لم يره الظان على معصية ، لأنه مكّن من صفحته ، وأزال حرمة عرضه .

ومن الظن ما هو قهرى غير مستطاع الدفع ، فلا يتعلق به النهى لعدم القدرة عليه ، بل يتعلق بعدم العمل بموجبه . وقد يظن شخص أن أحدا يريد به سوءا ، فهذا الظان لا يضره أن يحترس ، لكن يضره أن يوقع أذى بالمظنون منه السوء . وعن سعيد بن المسيب قال : كتب الىّ بعض إخوانى : « أن ضع أمر أخيك على أحسنه ما لم يأتك ما يغلبك ، ولا تظنن بكلمة خرجت من امرئ مسلم شرا وأنت تجد لها فى الخير محملا ، ومن عرض نفسه للتهم فلا يلومنّ إلا نفسه ، ومن كتم سره كانت الخيرة فى يده ، وعليك بإخوان الصدق ، فكن فى اكتسابهم ، فانهم زينة فى الرخاء ، وعدة عند عظيم البلاء ، واعتزل عدوك ، واحذر صديقك ، إلا الأمين ، ولا أمين إلا من خشى الله تعالى ، وشاور فى أمرك الذين يخشون ربهم بالغيب » .

نهى الله سبحانه عن ظن السوء بالمؤمنين ، لأنه مدعاة الى التحقير والسخرية واللمز ، ومدعاة الى إيقاع الضرر بالمظنون به . وظن السوء خدش للعرض وهتك للحرمة ، وقد صان الله عرض المسلم كما صان دمه . وقد عرف مما سبق وجه قول الله : « اجتنبوا كثيرا » ، فان بعض الظن يباح اتباعه ، وبعضه يجب اتباعه .

نهى الله عن ظن السوء ، ونهى عن التجسس ، وتتبع عورات المسلمين ؛ ومن حق المسلم على المسلم ستر عوراته ؛ ومن ستر على مسلم ستره الله تعالى فى الدنيا والآخرة . وقال عليه السلام لمعاوية : « إنك إن تتبعت عوراتِ الناس أفسدتهم ، أو كدت تفسدهم » . وقال

أبو بكر : لو رأيت أحدا على حد من حدود الله تعالى لما أخذته ، ولا دعوت اليه أحدا حتى يكون معى غيرى . وفى الحديث الشريف : « يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه ! لا تتبعوا عورات المسلمين ، فان من تتبع عورات المسلمين فضحه الله فى قعر بيته » . وكل من أغلق باب داره ، وتستر بحيطانه ، فلا يجوز الدخول عليه بغير إذنه لتعرف المعصية . وقد دفعت كراهة المنكرات عمر بن الخطاب الى تتبع العورات بعض الأحيان ، فقد كان يعس بالمدينة فسمع صوت رجل فى بيته يتغنى ، فتسور عليه ، ووجد عنده امرأة ، وعنده خمر ، فقال عمر : ياعدو الله ! أظننت أن الله يسترك وأنت على معصية ؟ ! فقال : وأنت يا أمير المؤمنين لا تعجل على ! إن كنتُ عصيتُ الله تعالى واحدة فقد عصيتَ أنت الله فى ثلاث : قال : « ولا تجسسوا » وقد تجسست ؛ وقال : « وأتوا البيوت من أبوابها » وقد تسورت ؛ وقال : « لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها » وقد دخلت بغير إذنى ! ! ! وكأنه قال له : وأنت أمير المؤمنين تبعاتك وعصيانك أشد ! فقال عمر : فهل عندك من خير إن عفوت عنك ؟ قال الرجل : نعم ، والله يا أمير المؤمنين لئن عفوت لا أعود الى مثلها أبدا ! فعفا عنه عمر ، وخرج وتركه .

نهى الله تعالى عن الظن ، وعن التجسس ؛ ونهى عن الغيبة أيضا ، وهى أن يذكر الانسان أخاه المسلم فى غيبته بما يكرهه ، سواء كان الذكر صراحة ، أو كناية ، أو إشارة ، أو رمزا ؛ وسواء كان ما يذكره متعلقا بدينه أو دنياه ، وبخلقه أو خلقه ؛ وسواء أكان متصلا به أو بمن له به رابطة وصلة : من ولد ، وزوجة ، وأب ، وأم . وتحرم غيبة المعروف بالصلاح ، ومستور الحال ؛ ولا تحرم غيبة المجاهر بالفسق ، والداخل فى مواطن الريب . وقد نقل القرطبى إجماع المسلمين على أن الغيبة من الكبائر . وبعد أن صورها الله أبشع تصوير فى آخر الآية ، لا يصح أن تعد فى الصغائر . ثم منها ما هو هين كعيب الشخص فى لباسه أو دابته ، وما أشبه ذلك مما لا يتصل بالدين والخلق ؛ فاذا قيل : إن مثله من الصغائر كان مقبولا .

ويجوز لمن ظُلم أن يشكو ظالمه ، ويذكر ما فعله معه مما يعد عيباً ، كما يجوز لمن يريد تغيير منكر أن يذكر ذلك المنكر للقادر على تغييره ؛ ويجوز تحذير المسلمين من شر ، بتجريح الشهود والرواة ، وإطلاعهم على أمور تدبر ضارة بالمجتمع الاسلامى ، كما يجوز ذكر ما فى الولاة والقضاة من شر للقادر على عزلهم .

وقد تضمنت الآية لطائف : ففيها ذكرت أمور ثلاثة مرتب بعضها على بعض : نهى عن الظن فى المسلم ، والقول فيه بغير علم ؛ ونهى عن البحث عن ذلك لتحقيقه ؛ ونهى عن إذاعة ذلك إذا تحقق . وختمت الآية بإطماع المؤمنين فى رحمة الله بالتوبة ؛ وفتح الله الباب بقوله على سبيل المبالغة : « إن الله تواب رحيم » .

ومن أخبث أنواع الغيبة ، غيبة القراء والعلماء ، يظهرون أنهم لا يحبون الغيبة ولا يحبون سماعها ، ولـكنهم يحتالون عليها بالباسها ثوب الدعاء والإشفاق لمن يريدون اغتيابه . مثلا يذكر أمامهم شخص فيقولون : الحمد لله الذى لم يبتلنا بالدخول على السلطان ، ولا بطلب حطام الدنيا ! أو يقولون : والله ما أحسنه ! ما كان يقصر فى عبادة ، لـكنه ابتلى بما يبتلى به سائر الناس ، لطف الله به ! أو يقولون : والله لقد غمنا أمره وما ابتلى به ، مسكين ، أحسن الله حاله !

وقد يُظهر القارئ والعالم الغضب لله سبحانه ، والغيرة على دينه ، أو يتعجب من ظهور المنكرات ، وفشو الفسق ، فيقول مثلا : انظر إنما نحن فى آخر الزمان ، لقد شوهد فلان وهو يفعل كذا ، أو بلغنى أن فلانا فعل كذا .

وللغيبة أسباب ، أهمها : الغيظ ، وهياج الغضب ، فيذكر الانسان عيوب غـيره لشفاء النفس من غضبها ، ومجاملة الرفقاء ، وإرادة أن يرفع الانسان نفسه بالنقص من غيره . ومنها الحسد ، وهو أهم الأسباب . ومنها اللعب ، والهزل ، والمفاكهة ، وإضاعة الوقت .

وقد صور الله المغتاب على أخش وجه وأشنعه ، وضرب له مثلاً من يأكل لحم أخيه ميتا ؛ وذلك أن صاحب العرض يغار على عرضه ويألم له كما يألم الرجل من تمزيق لحمه ؛ فالمغتاب يمزق لحم من اغتابه . ولما كان ممزّق اللحم غـير حاضر وغير محس تمزيق عرضه وقت الغيبة ، كان كالميت إذا مزق لحمه ، وكان المغتاب آكلا لحم أخيه ميتا .

وقوله تعالى : « فـكرهتموه » واقع موقع جواب شرط ، وكأنه قيل : لا يحب أحـد أن يأكل لحم أخيه ميتا ، فإن صح هـذا منكم ، وهو لابد صحيح ، فقد كرهتموه ، ومتى كرهتموه فاتقوا الله بترك ما يماثله وهو الغيبة .

وهو تواب : يفتح باب توبته لمن يقبل عليه . وهو رحيم : يرحم التائبين .

وتقول العرب للمغتاب : فلان يأكل لحوم الناس . ومنه قول الشاعر :

وليس الذئب يأكل لحم ذئب ... ويأكل بعضُنا بعضا عيانا

وقول الآخر :

فإن يأكلوا لحمى وَفَرت لحومهم ... وإن يهدموا مجدى بنيت لهم مجدا

كلمة الاستاذ الاكبر

فى احتفال الأزهر بعيدى الهجرة والميلاد الملكى

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الإمام الشيخ محمد مصطفى المراغي شيخ الجامع الأزهر مواقف فى مناسبة الذكريات الإسلامية يترقبها المسلمون فى العالم بأسره، أخصها ذكرى الهجرة النبوية؛ فقد اعتاد فضيلته أن يلقى فيها خطبة مغلغلة يتناقلها الناس فى الآفاق، ويتدارسونها فى نواديهم. وقد أفاض الله على فضيلته فى هذه السنة كلمة جمعت بين ماضى المسلمين وحاضرهم، وعرضت من أدوائهم ودوائهم ما شعوبهم فى أشد الحاجة إليه لإصلاح شئونهم، ورأب صدوعهم، فى سمو يأخذ بالألباب، وبيان يستهوى الأسماع. وقد اتفق أن كان قد أظل عيد ميلاد حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم، فختم فضيلته خطابته بذكر مناقب جلالته، وما أفاض الله على مصر والعالم الإسلامى من فضائله وفواضله، فازداد الاحتفال بذلك جلالا على جلاله.

والى القراء نص خطبة الأستاذ الإمام حفظه الله :

بسم الله الرحمن الرحيم. ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيىء لنا من أمرنا رشدا.

أيها الإخوان :

أحييكم تحية الاسلام، وأهنيكم بالعام الهجرى الجديد، الذى اجتمعنا الليلة فى الأزهر تحية له، وتمجيداً للهجرة، ولصاحبها سيدنا محمد بن عبد الله، أشرف من سعى على الأرض، وأطهر الخلق ضميرا، وأشرفهم غاية وقصدا. وأبعث من هذا المكان الطاهر تهنئتى وتحياتى الى الأمم الإسلامية فى أقطار الأرض قاصيها ودانيها.

هاجر محمد من وطنه، والوطن لاصق بنفس صاحبه، عزيز عليه أن يفارقه؛ وإذا فارقه فالنفس نازعة اليه، شديدة الشوق والحنين. وقد قيل قديما: ليس الناس بشىء من أقسامهم أقنعَ منهم بأوطانهم. وقد عمر الله البلدان بحب الأوطان.

وليس أدل على أن الوطن عديل النفس، وعديل الأبناء، من قول الله سبحانه: « ألم تر إلى الملأ من بنى إسرائيل من بعد موسى إذ قالوا لنبى لهم ابعث لنا مَلِكا نقاتلْ فى سبيل الله، قال هل عسَيتم إن كُتب عليكم القتالُ ألّا تقاتلوا، قالوا وما لنا ألّا نقاتلَ فى سبيل الله وقد أُخرجنا من ديارنا وأبنائنا »، وقولِ الله سبحانه: « ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا

من دياركم مافعلوه إلا قليل منهم » . فهؤلاء الأشراف من بنى اسرائيل قد قالوا : كيف لا نقاتل فى سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا ، فجعلوا الإخراج من الديار داعيا قويا ملحا فى الإقدام على سفك الدم ، والاستهانة بالأرواح ، ولم يكن سبيل الله عندهم كافيا وحده للقتال ، بل الذى أغراهم به وهاج نفوسهم اليه هو الإخراج من الديار والأبناء ؛ وقد سوّى الله سبحانه بين الأمر بقتل النفس والأمر بالخروج من الديار فى أنه لا يفعله إلا القليل .

هذه قيمة الوطن عند الأشراف ، وتلك قيمته عند عامة الناس أيضا .

وسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فى الذؤابة من قريش ، وكان أطهرهم نفسا ، وأكرمهم خلقا ؛ وكان شديد الحرص على هداية قومه ، حتى خاطبه الله سبحانه بقوله : « فلعلّك باخعٌ نفسَك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أَسفاً » ؛ فلم يكن من الهين على نفسه الكريمة أن يفارق وطنا ولد فيه ، وطعم طعامه ، وشرب ماءه ، وتنفس فى جوه ، وأشرقت عليه فيه شمس الهداية الربانية ، واتصلت روحه فيه بالوحى الإلهى ، ولقى فيه أخاه جبريل موفدا من قبل الله سبحانه لهداية قومه والناس ؛ لكن الدواعى قوية ملحة ؛ فقد حاربه قومه ، وحاولوا الحط من شأنه : كذبوه فى دعوى النبوة ، وأغروا به الشعراء يهجونه ، وأعنتوه فطلبوا منه معجزة كونية كمعجزة موسى وعيسى « وقالوا لن نؤمن لك حتى تَفْجُرَ لنا من الأرض يَنبُوعا ، أو تكونَ لك جنةٌ من نخيل وعنب فتفجّرَ الأنهارَ خلالها تفجيرا ، أو تسقطَ السماء كما زعمتَ علينا كِسَفا ، أو تأتىَ بالله والملائكة قبيلاً ، أو يكونَ لك بيت من زخرف ، أو ترقَى فى السماء ، ولن نؤمن لرقيك حتى تنزِّل علينا كتابا نقرؤه ، قل سبحان ربى هل كنتُ إلا بشراً رسولا » .

ضاقت قريش ذرعا به وضاق بها ذرعا ، فلم يكن إلا شىء واحد : أن تظفر به أو يظفر بها ، فقد عاب معتقداتهم ، وسخر من آلهتهم ، وضلل آباءهم ، وسفه عقولهم ، وفتح للناس باب الحرية ، وساوى بين الشريف والوضيع ، ولم يقم للأنساب وزنا ، وجعل الكرامة للتقوى ، وهوّن شأن المال ؛ وكل هذا يغرس البغضاء فى نفوس أهل الثراء ، ويولد الحقد عند ذوى الأنساب ، وهو لا يحتمل مثله اليوم بعد أن مضى على الإسلام قرابة أربعة عشر قرنا ، فأولى ألا يحتمل عند أشراف قريش فى الجاهلية .

لذلك قامت قريش تحاربه بكل ما تستطيع من الحول والقوة ، تناولته بالأذى ، وشردت أتباعه ، وأذاقتهم عذاب الهون ؛ ولا يخفى ما للحسد من القوة على بعث الشر وإيقاظ الفتنة ، وما للقرابة من الأثر فى إيقاد نار الحسد والبغضاء . وقد كان الوليد بن المغيرة يقول : أينزل الوحى على محمد وأترك أنا كبير قريش وسيدها ، ويترك عروة بن مسعود الثقفى سيد ثقيف ؟ « لولا نُزِّل هذا القرآنُ على رجل من القريتين عظيمٍ . أهم يقسمون رحمة ربك ! نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا »

وقد نقل عن أبي جهل قوله : تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرفَ : أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا ، حتى إذا تحاذينا على الركب وكنا كفرسي رهان ، قالوا : منا نبي يأتيه الوحي من السماء ؛ فمتى ندرك مثل هذه ؟ والله لا نؤمن به أبدا ولا نصدقه !

حاربوه بالدعاية ، وحاربوه بالحصار الاقتصادى كما تفعل الدول اليوم ، فقالوا : ساحر كذاب ، وقالوا : أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه ، وقالوا : معلم مجنون يفرق بين المرء وزوجه ، والولد ووالده ، والعشيرة والعشيرة ، والقبيلة والقبيلة ، وكتبوا كتابا تعاقدوا فيه على مقاطعة بنى هاشم وبنى المطلب ، لا يصهرون اليهم ، ولا يبيعونهم ، ولا يبتاعون منهم ، وعلقوه فى جوف الكعبة توكيداً لما فيه .

بعد هذا كله ، لم يكن بد من الهجرة ، لأنه لم يكن هو وأتباعه من القوة بحيث يكون لهم الظفر على قريش ، فهاجر فرارا بنفسه وبدينه من هذه البيئة المليئة بالحقد ، وبظلمة الكفر ، الى بيئة يجد فيها راحة ومتنفسا ، وله فيها أمل وثيق فى قبول دعوته وفى الأخذ بيده . وقد كان موقف قريش معه وموقفه معها من أكبر العوامل فى نجاحه بعد الهجرة ، فان ثباته على الدعوة واحتماله هو وأتباعه كل ما وجه اليهم من أذى ، كان من شأنه أن تتواتر أخباره ، وأن تترامى الى القبائل ، وكان من شأنه أن يفتح العين لإبصار نور الحق ، وأن يفتح بابا للتفكير ، حتى عند أشد الناس جمودا ، وأقواهم صلابة فى الباطل ، وهكذا يخدم الحق بما يوجه اليه من الأذى ، ومن هذا يجب أن تؤخذ العبرة .

ولا أظن أنه قد بقى فى الهجرة معنى لم يتناوله الناس فى خطبهم ومقالاتهم وأشعارهم ، فنحن إذا قلنا فإنما نقول مكررا معادا .

لكننا مع هذا نحاول العودة الى العبرة ، ولا يجوز لنا أن نمر بها وبما يلابسها دون أن نعتبر ونتعظ ؛ وما قيمة ذكرى الهجرة إذا مرت ونحن عن العبر معرضون ، فندخل فى قوله سبحانه : « وكأيّنْ من آية فى السموات والأرض يَمُرُّون عليها وهم عنها معرضون » !

وما ابتليت الأمم عامة ، وما ابتلى المسلمون خاصة ، بأشد من البلاء بالإعراض عن الآيات والنذر ، والغفلة عن وجوه العبر .

أتظنون أن قوم نوح وعاداً وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة ، ركبوا من الإثم والبهتان أكثر مما ركبت الأمم فى هذا الزمان ؟ وهل استمرءوا من الشهوات أكثر مما استمرأت الأمم اليوم ؟

وهل تظنون أن الله يهمل أمم اليوم فلا يعاقبهم كما عاقب تلك الأمم التى قص علينا فى كتابه ما حل بها ؟ كلا ! إن الله قد بدأ ينزل على العالم بسبب طغيانه وتمرده مثل ما أنزله على الأمم الغابرة .

أغرق قـوم نوح بالطوفان ، وأرسل على عاد ريحا صرصراً عاتية ، سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما ، وأرسل حاصبا على آل لوط ، وأهلك آل ثمود بصيحة . كل هذه الآيات فاجأت تلك الأمم ، ولم يطل انتظارهم إياها من قبل .

وأين هذا من الرعب المستولى على العالم جميعه الآن ، حيث لا يعرف أحد عاقبة ما تصل إليه ويلات الحروب ، ولا يعرف هـل يكون له مدى من العمر يستمتع فيه بأهله وزوجه وأولاده وأصحابه ، أو يختطف فى لحظة من اللحظات ، فى البر أو فى البحر ، ومن صاعقة السماء أو من خسف الأرض ؟! وهذا الرعب تصاحبه صواعق القذائف ، من الجو ، ومن الأرض ، ومن البحر ؛ ويصاحبه الحرق والغرق . وقذائف الطائرات لا ترحم طفلا فى مهده ، ولا مريضا فى سريره ، ولا ناسكا فى معبده ، ولا عالما فى معهده ، ولا مقعدا ولا شيخا فانيا .

لا شبهة أيها الإخوان فى أن هذا كله إنما هو جزاء ما اقترف من الشرور ، من إلحاد وكفر ، وفسوق وعصيان ، وافتنان فى الشهوات ؛ وجزاء الأثرة والإعراض عن استغاثة الضعفاء والمظلومين ، من هول ما يلقونه من الأقوياء والظالمين ؛ وجزاء تسخير الأقوياء للأمم الضعيفة وعدِّها أنعاما سائمة ترعى ثم تستمتع بخيراتها على ألوان من المتاع لم يكن يعرفها الناس من قبل هذه المدنية ، المارقة ، الفاجرة ، التى أغرق أهلها فى الشهوات ، وأغرقوا فى الإشادة بها والدعوة اليها .

أيها الناس :

تدبروا قول الله سبحانه : « قل هذه سبيلى أدعو الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى ، وسبحان الله ، وما أنا من المشركين . وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحى إليهم من أهل القرى ، أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ، ولَدارُ الآخرة خير للذين اتقوا ، أفلا تعقلون . حتى إذا استيأَس الرسل وظنوا أنهم قد كُذِبوا جاءهم نصرنا فنُجّىَ من نشاء ، ولا يُردُّ بأسنا عن القوم المجرمين . لقد كان فى قَصصهم عبرةٌ لأولى الألباب »

الإيمان بأن محمدا صلى الله عليه وسلم يدعو هو ومن اتبعه الى الله على بصيرة ، قاض بإجابة تلك الدعوة والعمل بها ، وهى قاضية بالإقلاع عن الشرور والمعاصى ، والتزام حدود الله ، والاتعاظ بما قصه الله سبحانه من سير الأولين ، والتدبر فى عاقبة ما حل بالأمم جزاء ما اقترفته ؛ فقد آن للمؤمنين أن يتدبروا ، وآن للأمم أن تعتبر وتتعظ ، وآن لهم أن يؤمنوا بأنه لا يرد بأسه عن القوم المجرمين ، فقد حل بأسه ، وسينجى الذين اتقوا ، وستكون لهم دار الآخرة ، ولدار الآخرة خير للذين اتقوا ، أفلا تعقلون ؟!

لا يأس من روح الله ؛ وقد آن للمسلمين أن يستعدوا لحمل نصيب وافر من مدنية فاضلة روحية تخلف هذه المدنية الفاسدة ، التى جعلت العالم أتُّوناً ، وساقت الى ذلك الأتون أبناءها

طعاما ووقودا ؛ وآن لنا أن نفكر فى حياة عزيزة يصفو لنا فيها العيش ، فنستمتع بثمرات جهودنا ، ونضرب فى العلم بسهم ، وننصر مدنية فاضلة ؛ وآن أن نجاهد فى سبيل هذا لا نريد ظلما ولا نريد عدوانا « ولَيَنْصُرَنَّ اللهُ من ينصره ، إن الله لقوى عزيز . الذين إن مكّنّاهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتَوُا الزكاة ، وأمروا بالمعروف ونَهَوْا عن المنكر ، ولله عاقبة الأمور » .

لكن هذا لا يكون إلا إذا غيرنا أحوالنا : « إن الله لا يغيّر ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » . ونحن لم نذلّ عن قلة ؛ نحن كثر ، ولكننا كغثاء السيل ، لكننا مع هذا نستطيع أن نضع أمام أعيننا قبلة نولى وجوهنا إليها ، وأن نضع أمامنا هدفا نسعى إليه ؛ وإذا كنا ضعافا فنحن نقوى بالاتحاد ، ونقوى بالتناصر ؛ ولسنا بأضعف من موسى وقومه أمام فرعون وملئه ؛ وقد قال الله تعالى : « ونريد أن نَمُنّ على الذين اسْتُضْعِفوا فى الأرض ، ونجعلَهم أئمة ، ونجعلهم الوارثين . ونمكّنَ لهم فى الأرض ، ونُرىَ فرعونَ وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون » .

أيها المسلمون :

فكروا وتدبروا ، وقابلوا الحوادث بالصبر ، واغتنموا الفرص فهى لا تسنح فى كل وقت ، واحرصوا على الإيمان فهو لصيق العزة ، إنما العزة لله ولرسوله وللمؤمنين ، وكونوا تلك الأمةَ الصالحة المؤمنة التى وعد الله أن يمكن لها فى الأرض ، ويبدلها من بعد خوفها أمنا : « إن تنصروا الله ينصرْكم ويثبتْ أقدامكم . والذين كفروا فَتَعْساً لهم وأضلَّ أعمالهم » .

أيها السادة :

كان من الحظ والسعادة فى مصر وفى الأزهر ، أن يقارن الاحتفالَ بالهجرة المباركة الاحتفالُ بعيد ميلاد مليك البلاد المفدى المحبوب ، حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق الأول ، أيده الله وأدام توفيقه ! والأزهر يصطفى جلالة الملك بحب طاهر ، وجلالته يخص الأزهر برعاية تامة ، عرفها الأزهريون فى أوقات عدة ، وفى مظاهر مختلفة ؛ وقد ورث جلالته هذه الرعاية عن المغفور له والده العظيم ، وكلاهما يعتقد اعتقادا خالصا أن الأزهر يؤدى رسالة دينية سامية للبلاد المصرية وللعالم الإسلامى ، وأن حياة الأمم حياة صالحة لا تكون إلا بفهم الدين وبيانه وإرشاد الناس اليه .

وكما أن مصر موضع آمال الأمم الاسلامية فى الثقافة والعلم والمدنية ، وفيما يجيش بصدور تلك الأمم من آمال جسام للإسلام وأهله ، من مجد وعزة ، الى صولة وقوة ودفاع عن الحق ، الى مقاومة للطغيان ، حتى يعود التاريخ الإسلامى سيرته الأولى فى أروع مظاهرها ، كذلك الفاروق ـ أطال الله حياته فى السعادة والعز ـ هو قبلة الجميع ، ومعقد رجائهم ، وله من الفطرة

السليمة ، والسريرة الطاهرة ، والنظر الثاقب ، والإحاطة التامة بأحوال الأمم الإسلامية ، والحرص على أن يراها عزيزة متحدة متضامنة فى الغاية والقصد ، عزيزة بالعلم والدين ، لها من المكانة الرفيعة ما يجعلها فى الصف الأول من صفوف الامم ، قائمة بقسط عظيم فى سلام العالم ، وتضميد جراحات الانسانية ؛ له من ذلك كله ما يجعله أهلا لأن تتجه اليه الأبصار .

وكما نحتفل بالهجرة لما لها من الآثار البالغة فى قوة الإسلام وعزه ، نحتفل بعيد الفاروق ، لخلاله الكريمة الجديرة بالإعجاب ، ولما نؤمله فيه من عز للإسلام عظيم يكون لجلالته فيه أكبر الأثر وأحسن التوجيه .

ونسأل الله القادر على كل شىء للأمة المصرية رعاية من الله وعونا ، وهديا وتوفيقا ، وللأمم الإسلامية جميعها صفاء وأمنا وسلاما ، وأن يعيد للعالم جميعه عهد سلام ورجوع الى الله سبحانه ، وأن يؤيد الفاروق بروح من عنده ، ويديم له التوفيق ، ويعزه بالدين !



السيرة المحمدية
تحت ضوء العلم والفلسفة

هجرة النبي صلى الله عليه وسلم الى المدينة

انتهى أمر قريش الى التآمر على حياة النبي صلى الله عليه وسلم على حالة لا تمكن عشيرته من الثأر له ، فتكتفى بقبول الفدية عنه ، وذلك جريا على رأى أحدهم فى أن يشترك فى ضربه بالسيف شاب من كل بطن من بطون قريش وأفخاذها ، فيتفرق دمه فيهم جميعا ، فلا تقع حرب بسببه . وقرروا البدء فى العمل من فورهم .

فأنبأ الله رسوله بما استقر عليه رأى المشركين ، وأمره باللحاق بأصحابه فى المدينة ، فجاء من ساعته الى أبى بكر وأخبره أن الله قد أذن له فى الهجرة ، فطلب إليه أبو بكر أن يصحبه ، فقبل طلبه . وأتى الصدّيق براحلتيه اللتين أعدهما ، وبجراب فيه طعام يكفيهما أياما ، واستأجرا هاديا ماهرا اسمه عبد الله بن أرقط ، فدفعا إليه راحلتيهما ، وواعداه غار ثور بعد ثلاث ليال .

ثم ترك أبو بكر النبي صلى الله عليه وسلم ، مواعدا إياه التقابل فى جنح الظلام خارج مكة ، وكانت تلك الليلة ليلة استعداد قريش لتنفيذ ما أقره مؤتمرهم ، فأمر النبي عليا أن يرقد فى سريره ، موهما أنه هو حتى يشغلهم عنه بعض الوقت ، وخرج هو متخفيا حتى لحق بصاحبه خارج مكة ، وأخذا يسيران جادّين حتى انتهيا الى غار مهجور يقال له غار ثور ، فدخلا فيه .

أما المشركون فكانوا قد حاصروا الدار ، واستعدوا لاقتحامها متى مضى هزيع من الليل ، وكانوا فى أثناء ذلك ينظرون من خِصاص الباب (أى فُرَجه) فيرون رجلا على سرير النبي صلى الله عليه وسلم وهو نائم مسجًّى ، فيظنونه هو فيطمئنون على وجوده . فلما جاء الوقت اقتحموا السور ودخلوا البيت ، فتنبه النائم وإذا هو على بن أبى طالب ، فسألوه : أين محمد ؟ فقال : لا أدرى ، فأوجعوه ضربا ، ثم رأوا أن يتعقبوا رسول الله ، فخرجوا خلفه ومعهم قائف يعرف مواقع الأقدام ، فمازالوا يسيرون حتى انتهى القائف الى الغار وقال : ها هنا انقطعت آثار الأقدام . فلما نظروا الى الغار وما هو عليه من الظلام والوحشة ، وما أوى إليه من الهوام والحشرات ، كبر عليهم أن يصدقوا أن رجلا يجازف بنفسه فيدخل فيه ، وكان فى أثناء ترددهم على الغار يرى أبو بكر أرجلهم ، فأدركه من ذلك فزع عظيم بكى منه ، فنظر إليه النبي صلى الله عليه وسلم

وهدأ روعه ، وبشره بأن الله منقذه ، وقد جاء ذلك فى القرآن الكريم فى قوله تعالى : « إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين إذ هما فى الغار ، إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا ، فأنزل الله سكينته عليه ، وأيده بجنود لم تروها ، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى ، وكلمةُ الله هى العليا ، والله عزيز حكيم » . وقد صدَقه الله وعده ، فصرف الكفار عن اقتحام ذلك الغار استبعادا منهم أن يكون قد أوى إليه .

فأقام رسول الله وصاحبه فى الغار ثلاث ليال ليتحققا من انقطاع الطلب ، وكان يبيت معهما عبد الله بن أبى بكر وهو شاب ثقِف لقِن (أى حاذق سريع الفهم) ، فكان يُدلج من عندهما سحرا فيصبح بمكة كبائت فيها ، فيتسمع الأخبار ثم يعود إليهما ليلا متسللا ، فيخبرهما بما وعاه . وكان عامر بن فهيرة يروح عليهما بقطعة من غنم يرعاها ويغدو بها عليهما .

ولما انقطع عنهما الطلب خرجا بعد أن جاءهما الدليل بالراحلتين ، وسارا متبعين الساحل لا يلوون على شىء ، وكان أهل المدينة قد أخبروا بسفره اليهم ، فكانوا ينتظرونه كل يوم ، حتى أقبل فاحتفوا به فرحين مغتبطين وساروا معه ، فعدل بهم ذات اليمين حتى نزل بقباء حيث بنو عمرو بن عوف ، وكان ذلك فى ٢٠ سبتمبر سنة ٦٢٢ .

فأقام صلى الله عليه وسلم بقباء ليالى أسس فيها مسجدا ، وصلى فيه بمن معه من أصحابه المكيين واليثربيين ، وقد دُعى الأولون بالمهاجرين ، والآخرون بالأنصار .

ثم تحول النبى صلى الله عليه وسلم الى المدينة فاستقبله أهلها نساء ورجالا بما يستقبل به كبار الفاتحين ، وكان الناس يسيرون خلفه مشاة وركبانا يتنازعون زمام ناقته كل منهم يريد أن ينزل عنده .

وأدركته صلاة الجمعة وهو فى ديار بنى سالم بن عوف ، فنزل وصلاها ؛ وهذه أول جمعة صلاها جماعة ، وخطب فيها ، صلى الله عليه وسلم .

ثم سار وكلما مر على ديار للأنصار دعوه للنزول عندهم ، ولكنه فضل أن ينزل بدار خالد ابن زيد ، وهو الذى عُرف بعد بأبى أيوب الأنصارى ، وكان من بنى عدى بن النجار أخواله الذين تزوج منهم هاشم جده .

وفى المحل الذى أناخ فيه رسول الله ناقته ، بنى مسجده ، وجعل بجواره حجرات لسكنه ، وبعد أن تم السكن انتقل اليه بعد أن لبث فى دار أبى أيوب الأنصارى سبعة أشهر .

وتنافس أهل يثرب فى إيواء المهاجرين حتى حكموا بينهم القرعة .

ولما استقر برسول الله المقام بالمدينة ، أرسل زيد بن حارثة وأبا رافع الى مكة ليأتيا بمن تخلف من أهله ، فقدما بفاطمة وأم كلثوم بنتيه ، وسودة زوجته .

نظرة علمية تحليلية فيما سبق :

إن صبر النبي صلى الله عليه وسلم ثلاث عشرة سنة على هذا الاضطهاد البالغ أقصى حدود الوحشية ، إذا لم يكن فوق الطاقة البشرية ، فانه يشف عن عقيدة راسخة فى رسالته . ولو كان هذا الصبر منه وهو فى ميعة السن ، وريِّق الصبا ، لأمكن تعليله بأنه من فتوة الشبيبة ، ومجازفاتها فى سبيل الشهرة ، ولكنه كان فى عشرة الخمسين ثم آلت الى عشرة الستين حيث تهدأ ثوائر النفس ، وتسكن جيشات الأهواء ، وتهيب الطبيعة بصاحبها الى الهدوء والسكينة .

ولو كانت مجرد مشادّات كلامية ، ومناظرات مذهبية ، لهان أمرها على التعليل ، فان من الناس من يأنسون الى مثل هذه الحياة الحافلة بالمجادلات ؛ ولكنها مشادات عدوانية امتدت معها أيدى المشركين على أصحابه وعليه بالأذى حتى اضطر عدد كبير منهم الى المهاجرة مرتين ، ضنا بأنفسهم على الهلاك ، وليس الاضطهاد الذى يحمل الأسر برمتها على الهجرة الى البلاد القاصية ، بالأمر الذى يستهان به . ناهيك بالمخاوف التى تحمل أصحاب النبى على تركه يدفع أذاهم وحده ، بل التى تحمل مثل عمر فى شدته على النجاة بنفسه والمهاجرة الى يثرب ، وتدفع بأبى بكر فى تفانيه فى حب نبيه على أن يستأذنه فى أن يهاجر كغيره ، وما أخره إلا منع رسول الله له ليهاجر فى صحبته .

فالداعية الذى يرى أخلص أصحابه وأشجعهم يتفرقون من حوله ، ويدعونه وحده إزاء أعدائه ، ولا تتزعزع ثقته بفوزه ، لا يعقل أن يكون مفتريا فى نبوته ، ولا متكلفا لما هو بصدده ، ولكن الذى يعقل هو أنه كان يعتقد بأن أعداءه لن يصلوا اليه بسوء ، اعتمادا على ما وعده ربه به عند أول عهده بالنبوة فى قوله تعالى : « يأيها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك ، وإن لم تفعل فما بلغت رسالته ، والله يعصمك من الناس ، إن الله لايهدى القوم الكافرين » .

وهذه الثقة من النبى صلى الله عليه وسلم فى وعد ربه له بالعصمة ، تتجلى على أتم وجه فى بقائه بمكة الى الليلة التى تآمر فيها المشركون على قتله ؛ وكان فى وسعه أن ينجو بنفسه قبل ذلك بأيام بل بأسابيع ، حين لم يبق أمل فى كسر شرة خصومه ؛ وهل كان مثل عمر يضن بنفسه عن هذا الموقف ، وأبو بكر يستأذن النبى ليلحق به ، إلا والخطر محدق ولا يمكن دفعه ؟

وأعظم ما تجلت ثقة النبى صلى الله عليه وسلم بربه كان فى غار ثور ، وقد احتوشه من أرسلتهم قريش للحاق به ، وأبو بكر يرى أرجلهم تحوم حوله ، ويسمع أصواتهم وهم يتآمرون على اقتحامه ، فكان من أثر ذلك على الصدِّيق أن بكى من هول ما رأى وما سمع ، فالتفت اليه رسول الله وهدأ روعه قائلا له : لا تحزن إن الله معنا ؛ وقد جاء ذكر ذلك فى القرآن الكريم كما رآه قراؤنا فى الآية المذكورة فى هذا الفصل .

فهذا الثبات المحير للعقل فى وسط هذه المخاوف الموجبة لليأس ، لا يمكن أن يعزى لفضيلة الشجاعة فحسب، لأنها جاءت مصاحبة لثقة تامة بالخلاص والفَلْج ، وهذا لا يكون بغير وحى .

ومن يتأمل فى انصراف المشركين عن الغار وقد انتهى اليه الأثر ، يأخذه العجب ولا يستطيع أن يعلل ذلك بعلة يثلج عليها الصدر . فلقد كان القرشيون أحرص الناس على أن يقبضوا على رسول الله ويقتلوه تخلصا مما عسى أن يجره عليهم من الحروب والمنازعات القبيلية ، وقد دلهم قائفهم على أن آثار الأقدام انتهت عند ذلك الغار ، وكان للعرب ثقة مطلقة فى قافتهم(١) ، فيكون عدم تعويلهم على قوله مع وجود الغار فاغراً فاه ، ومع عدم استحالة الولوج فيه ، من أعجب ما يروى عن قوم كالعرب شديدى الكَلَب على أعدائهم !

رضينا أن نظن أن يكونوا قد تهيبوا النزول الى الغار لتفتيشه ، وأن يكونوا قد تخيلوا أن من ينزله تنوشه أفاعيه وترديه ، ولكننا لا نرضى ولا نقبل أن نتخيل أنهم يتركونه ويرجعون أدراجهم دون أن يحاصروه أياما وليالى حتى يتحققوا من خلوه ، والا اضطررنا أن نتهمهم بالإهمال فى أمر خطير فى نظرهم الى أبعد حدود الخطورة .

ولسنا نكتفى بهذا ، ولكننا نقول : كان يجب عليهم أن يقيموا فى كل الطرق التى يمكن أن يتسرب منها الى يثرب كبكبة من الفرسان ، تقطع الطرق على خصمهم كما هى عادة من يهمهم القبض على خصم . فإذ لم يفعلوا مع تحليهم بأرفع صفات الحيطة الحربية ، فان إغفالهم له قد فُسر بأن الله قد صرفهم عنه ، ولو كان لدىّ دليل على هذا الصرف لقلت به ، ولكنى التزمت فى هذه السيرة أن لا أتجاوز أصول الدستور العلمى ، فلا ألجأ الى الظن فى موطن يمكن تفسيره بالعلل الطبيعية ، وحياة النبى صلى الله عليه وسلم حافلة بالآيات الدامغة ، فلا حاجة بها الى ما يمكّن الخصوم من تجريحه . لذلك فأنا أفسره بأنه تغابٍ من قريش عما هم بصدده ، كما تغابوا عن هجرة كبار الصحابة الى يثرب ، كأنهم اكتفوا بأن يبعد عنهم النبى الى حيث لا يراه العرب فى مواسم الحج فيفتتن بعضهم ببيانه وشدة عارضته .

بقى علينا أن ننظر فى النظام الذى أقامه النبى صلى الله عليه وسلم لجماعته ، وفى الأصول التى وضعها للقيام بمهمته ، وفى المنازعات التى ابتنت على دعوته ، والحروب التى أثارتها الوثنية لمعاكسته ، وفى الأسلوب الذى جرى عليه صلى الله عليه وسلم فى بناء دولته . كل هذه المناحى ستؤدينا الى خوض دراسات إسلامية نرجو أن تكون موجبة لوضع السيرة المحمدية على نحو يناسب عقلية معاصرينا ودرجة ثقافتهم ، إن شاء الله ؟

محمد فريد وجدى

(١) القائف : من يتتبع آثار الأقدام لمعرفة اين انتهت . وهو يستعمل فى تعقب الهاربين ، جمعه قافة . وقيَّف وتقيَّف مثله .

أفعال العباد

طلب إلينا أن نكتب كلمة فى أفعال العباد نبين فيها الحق مما عليه الفرق الاسلامية . فنذكر ما حضرنا من كلام العلماء ، ومما أفيض علينا ، مما لعله أعظم الحلول وأفضل الآراء ، فنقول :

إنه ليكفى لنصرة مذهب أهل السنة ، وسقوط مذهب الجبرية ، أن الجبرية قد صادموا البديهة ، وخالفوا المحسوس ، فإن كل إنسان يفرق تفرقة ضرورية بين حركاته الاختيارية والاضطرارية ؛ وكل ما صادم الضرورة وناقض البديهة فهو غير مسموع ولا مستحق للرد عليه ؛ وقد كان من حقهم ألا يشتموا من شتمهم ، ولا يضربوا من ضربهم ، ولا يعاقبوا من جنى عليهم . ولكن من عرف استعداد الانسان ، وأنه مظهر المتضادات والمتناقضات ، ومجمع العجائب والغرائب ، لم يستغرب ذلك .

ولقد رأينا من متناقضات النوع الإنسانى ما يضحك الثكلى ويبكى الحليم ، فترى المعتزلة والجهمية قد غالوا فى التوحيد بزعمهم حتى وصلوا الى التعطيل ، بنفى الصفات ، وستسمع شيئا عنهم بعد ؛ والمشبهة تصدوا حتى وصفوا الخالق بصفات الأجسام ؛ والرافضة غالوا فى النبوة والإمامة حتى وصلوا الى الحلول ، والقول بالعصمة فى غير الأنبياء ؛ والخوارج فرطوا حتى كفّروا بالذنب ؛ والمرجئة أفرطوا حتى أغروا الناس بالمعاصى ولم يقيموا لها وزنا ، الى غير ذلك من الحماقات والجهالات .

وإن شئت فانظر الى ما وقع فيه الخلاف حتى كان المختلفون فيه على طرفى نقيض : كالعلم ، وهو من أظهر الأشياء لدى كل إنسان ، فقال بعضهم : إنه لا يحد لكونه ضروريا ؛ وقال آخرون : لا يحد لكونه من النظريات التى يصعب تحديدها ؛ وكذلك اختلافهم فى الوجود ، وفى الضوء ، الى آخر ما يلهيك عن أعظم المصاب وأكبر الألعاب . ولا غرو فقد قال الله فى حق الإنسان : « إنه كان ظلوما جهولا » ، وقال فى بيان طيشه : « خُلق الإنسان من عَجل » « وكان الإنسان عجولا » . وإن من ضعفه الذى خلق عليه جهله بضعفه ، « ولو عرف ضعفه لكانت تلك المعرفة دواء ضعفه » . وقد يفسد استعداد الإنسان حتى يكون الدليل عنده مثيرا للشبهة والشك ؛ والنور لا يزيد الخفاش إلا تخبطا وحيرة .

ولو تأمل المعتزلة قليلا لعلموا أن الموجودات تنقسم الى ما له الوجود من ذاته ، والى ما له الوجود من غيره ، وكل ما له الوجود من غيره فلا قوام له بنفسه ؛ بل إذا اعتبرت ذاته من

حيث هي كان عدما محضا . وقد عرف فى أحكام الممكن أنه ليس له شيء من ذاته ، وأن الوجود والعدم بالنسبة اليه سواء ، فلا بد أن يكون وجوده وجميع أحواله مفاضة عليه من غيره ، وهو الواجب عز وجل .

أليس من أوضح الأدلة على أن العبد فى قبضة الحق يصرفه كيف شاء أنه تعالى أظهر للناس كل شيء ، وبين لهم كل طريقة ، ولكن لا يمكنهم أن يسلكوا من طرق السعادة الدنيوية أو الأخروية إلا ما أراده الله لهم : « فريقا هدى وفريقا حق عليهم الضلالة » ، فبينهم كتاب الله ينطق بالهدى ، وسنة رسوله تهدى الى صراط مستقيم ؛ وكم سمعوا من نصائح الناصحين وإرشاد المرشدين ؛ وكل ذلك واضح المعنى ، عالى المبنى ، سافر المحيا غير مبرقع ولا محجوب ، فهو على طرف الثمام للمتناول ، ولكنهم يمرون به فلا يرون ضوءه المتلالى ، ولا يسمعون نداءه العالى ؛ وكأن فى آذانهم وقراً ، وعلى أبصارهم غشاوة !

وكذلك مسألة السعادة الدنيوية . وانظرها إن شئت فى الأغنياء الذين لا يعرفون كيف يسيرون ، والأذكياء الذين قتلوا كل شيء بحثا ، وتجلت لهم كل الطرق بأوضح معانيها ، وأدق خوافيها ، وجميع مباديها ، وغاية مراميها ؛ فكأن لسان القدرة الإلهية يقول : أوجدت كل شيء من وسائل الخير والشر والضلال والهدى ، وجعلته واضحاً بيناً على جانبى الطريق الذى تمرون فيه كل يوم ، تشاهدونه بأبصاركم ، وترون من يقع ومن ينجو ، ومن يرتفع ومن ينخفض ، ومع ذلك كله لا يمكنكم أن تقتطفوا ثمرة من تلك الثمار ، أو تتظللوا بشيء من ظلال تلك الأشجار ، أو تتوسلوا الى سعادتكم بشيء من تلك الوسائل التى جعلتها غير محظورة ولا محجورة ، وكأنكم لا تبصرون أو لا تعقلون ! أفلا تعرفون بذلك أنكم مسيرون بقدرتنا نصرفكم كيف نشاء ، ولم يمنعنا من ذلك كله جعل الأعلام واضحات ، والطرق بينات ، والدلائل ناطقات ، ووجوه الأمور سافرات ، ليكون ذلك أدل على قدرتنا ، وأظهر فى بيان تصرفنا واختيارنا ، فنجعل الأشياء سافرة تمام السفور ، ونعطيكم الأبصار تخرق الستور ، ومع ذلك نجعلكم لا ترون ذلك النور ، فلا تسلكون ولا تستطيعون ، لتعلموا أن الله بكل شيء محيط ، وأنه على كل شيء قدير ؛ فأين تذهبون أيها المحجوبون ؟ ! سنستدرجكم من حيث لا تعلمون ؛ وإنما أمرنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون ؛ وبيدنا ملكوت كل شيء وإلينا ترجعون .

ومع ذلك كله يتجرأ المعتزلة على القول بأن العبد يخلق أفعال نفسه الاختيارية وإن لم يردها الله عز وجل ، فتنفذ مشيئته دون مشيئة الله ! « كبرت كلمة تخرج من أفواههم ، إن يقولون إلا كذبا » !

على أننا نرى كل أحد يحس بالقضاء القاهر ، حتى الملحدين والماديين ، وإن كان لهم عبارات

أخرى تغاير عبارات الموحدين ، فيقولون : لم تمكنا الظروف ، أو الظروف قضت بكذا ، ولم يساعدنا الحظ ، الى آخر عباراتهم الدالة على امتلاء نفوسهم بالقهر الإلهى والعجز البشرى .

وأما تشبث المعتزلة بالبحث عن أسرار الله فى خليقته ، وحكمته فيما قضى وقدر ، فناشئ عن جهلهم بالله ، وجهلهم بأنفسهم ، فإن حل مسألة القدر على وجهها التفصيلى يستدعى أن تدرك كنه علاقة الخالق بالمخلوق . والفكر الانسانى له حد محدود يقف عنده ولا يتأتى أن يجاوزه ، وكأن من خواصه أنه لا يصل الى كنه الأشياء وحقائقها ؛ ومتى أراد ذلك اعترته الشكوك والأوهام ، فارتد طرفه خاسئا وهو حسير ، فليس له بالعلم إلا درجة مخصوصة يقف عندها ولا يتعداها ، ولذلك كانت الفلسفة فى كل زمان مثار الأوهام ، ومعشش الخيالات ، ومنبع الشبهات .

ولنتنزل قليلا فنقول : هل يمكن الطفل أن يعرف السر فى كل ما فعله أبوه ؟ وهل يتأتى تفهيمه ذلك ؟ ولو صح هذا للزم أن يكون استعداد الطفل كاستعداد أبيه ، وفهمه كفهمه أو قريبا منه . ولديك الوجدانيات التى لم نعرفها ولا ما يشابهها ، لا يمكننا أن نفهمك إياها ، كطعام لم تذقه قط ، ولا ذقت ما يشبهه ؛ ولذلك لا يمكننا أن نفهم الصبى لذة الوقاع ، ولا من خلق أكمه تلك الألوان المختلفة ؛ وهكذا الأشياء كلها . وأنت تعلم أن الحيوان البهيمى لا يبلغ بما له من الإلهام الى تعرف حكمة الحكماء ، وتصانيف الأذكياء ، ومعارف الفطناء ، ولا يتمكن من معرفة مقدار زيادتهم عليه ؛ فكذلك الحكماء لا يعرفون جميع حكمة الله تعالى ، ولا يستطيعون أن يعرفوا مقدار زيادتها على ما يعرفون . وقد انكشف لموسى عليه السلام ، وهو هو ، صحة ما فعل الخضر بعد القطع ببطلانه . ومما يجب الالتفات اليه أن الطبع فى هذه المسألة غالب بقوته على من لم يعارضه بتذكر كمال الربوبية ونقص العبودية ، ويتضرع الى الله فى إمداده بهدايته .

وينبغى للانسان فى هذا المقام أن يتذكر ما يعلمه من نفسه من شدة الجهل وقلة العلم ، وتردده فى الأمور وحيرته فى أشياء كثيرة ، ورجوعه عما كان عليه مرارا ، وندمه البالغ على كثير مما فرط منه ؛ وقد قلنا : إن الله تعالى وصفه فى كتابه العزيز بأنه ظلوم جهول .

وقد كان ينبغى أن تعلم من التجربة المتكررة ومن قصة الخضر عليه السلام ، التفاوت العظيم بين الخلق فى معرفة الدقائق وخفيات الحكم ومحكمات الآراء ومعرفة عواقب الأمور ، فكيف يكون التفاوت بين الخلق وخالقهم عز وجل !

ولنتنزل غاية التنزل فنقول : لو وهب الله عز وجل لبعض خلقه نصف علمه سبحانه لجاز أن يكون ذلك التأويل فى النصف الآخر ، فما أتى الانسان فى توهمه نفى الحكمة إلا من جهله بقدر علمه وعلم الله تعالى ، مع أن علمه الجلى بحكمة ربه كاف شاف ، وأن علمه بكمال ربه

فى جميع أسمائه الحسنى مع نقص العبد فى كل شىء وكثرة جهالاته وظلمه ، وخبث كثير من طباعه وغلبتها عليه ، يكفيه وازعاً عن اتباع سنة إبليس حيث نازع ربه فى حسن سجوده لآدم . وهذه هى سنة السفهاء من الناس الذين قالوا : « ما ولاّهم عن قبلتهم التى كانوا عليها » . وقد قال سبحانه وتعالى لملائكته : « إنى أعلم ما لا تعلمون » . قال على كرم الله وجهه لمن سأله عن مثل هذا : اعلم أيها السائل أن الراسخين فى العلم هم الذين أغناهم عن اقتحام السدد المضروبة دون الغيوب ، الإقرار بجملة ما جهلوا تفسيره من الغيب المحجوب ، فمدح الله اعترافهم بالعجز عن تناول ما لم يحيطوا به علما ، وسمى تركهم التعمق فيما لم يكلفهم البحث عنه رسوخا . وقد قال مالك لمن جادله : أو كلما جاءنا رجل أجدل من رجل تركنا لجداله ما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم ؟ !

ولنقف هنا اليوم ، وموعدنا العدد الآتى ، إن شاء الله .

يوسف الدجوى

عضو جماعة كبار العلماء



فضيلة العمل والكسب

قال على رضى الله عنه : من مات تعبا من كسب الحلال ، مات والله عنه راض .

وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : إنى لأرى الرجل يعجبنى فأقول : هل له حرفة ؟ فان قالوا : لا ، سقط من عينى .

وروى أن داود عليه السلام مر باسكاف فقال له : يا هـذا اعمل وكل فان الله يحب من يعمل ويأكل ، ولا يحب من يأكل ولا يعمل .

وقال أحد الحكماء : كسب الحلال ، والنفقة على العيال ، من أعمال الأبدال .

وقيل لبعض العلماء : ما المروءة ؟ فقال : العفة والحرفة .

وقال يزيد بن المهلب بن أبى صفرة : ما يسرنى أنى كفيت أمر الدنيا كله لئلا أتعود العجز .

وقال سعيد بن المسيب : كان لقمان الحكيم خياطا . وقال ابن شوذب : كان إدريس عليه السلام خياطا .

السنة

طاعة ولاة الأمور

عن جُنادة بن أبي أُمَيّة ، قال : « دَخلْنا على عُبادة بن الصّامت وهو مَريضٌ ، قُلنا : أصلحك الله ! حَـدِّثْ بحديث يَنفعُك اللهُ به سمعتَه من النبي صلى الله عليه وسلم . قال : دعانا النبيُّ صـلّى اللهُ عليه وسلم ، فبايَعْناه ، فقال فيما أَخَـذَ علينا أَنْ بايَعَنا على السّمعِ والطاعةِ ، في مَنْشَطِنا ومَكْرَهِنا ، وعسرِنا ويُسْرِنا ، وأَثَرةٍ علينا ، وأنْ لا نُنازِعَ الأمرَ أهلَه ؛ إلا أنْ تَرَوْا كُفراً بَواحاً ، عندكم مِنَ اللهِ فيه بُرْهانٌ » . رواه البخاري في كتاب الفتن .

يتعلق بشرح هذا الحديث أمران : (١) بيان معناه إجمالا ؛ (٢) حكم طاعة ولي الأمر في الشريعة الاسلامية ، وبيان ما يترتب على مخالفته في السر والعلانية من الأضرار .

١ — أما معنى هـذا الحديث : فهو أن المسلمين في صدر الإسلام كانوا أحرص الناس على تعلم كل ما عساه أن يُصلح دينهم أو دنياهم ، وكانوا لا ينفكون عن البحث عن كل ما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم أو فعله ، ليكون لهم به أسوة حسنة . وهذا هو السر في نجاحهم وتفوقهم على الأمم القوية التي كانت في عهدهم .

فجنادة بن أمية رضي الله عنه ، ذهب لعيادة عبـادة بن الصامت وهو مريض ، فلم يترك الفرصة تمر دون أن يستفيد منه فائدة من الفوائد التي استفادها عبادة من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسأله أن يحدثه ببعض ما سمعه منه عليه الصلاة والسلام ، وقال له : إن هذا الحديث ينفعك الله به ، لأن من ينفع النـاس بعلمه يناله من ذلك النفع قسط كبير ؛ فإن الله سبحانه قد وعد العلماء الذين ينفعون الناس بعلمهم وعداً حسنا في الدنيا والآخرة .

وفي ذلك حث على نشر الفضائل الدينية وإذاعتها بين الناس ، لأن الذين يعلمون شيئا من قـول رسول الله صلى الله عليه وسـلم أو فعله ويكتمونه ولا يذيعونه ، لا ينتفعون به على الوجه الـكامل الذي يرضاه الله ورسـوله ، بل هم مسئولون عن ذلك ومؤاخذون عليه إذا تعمدوا كتمانه أو سئلوا عنه فلم يجيبوا . ولقد تأدب جنادة رضي الله عنه فلم يقل لعبادة

ذلك ، لأنه يعلم أن عبادة لا يضن بنقل ما يعرفه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم عن طيب خاطر ؛ وهـذا ما وقع فعلاً ، فإن عبادة قد حـدثه بحديث جامع لـكل ما يترتب عليه نظام الحياة الدنيوية والآخروية ؛ فقال له : إننا قد بايعنا النبي صلوات الله عليه على أشياء ؛ ثم ذكر له أهم هذه الأشياء ، وأعظمها قدرا ، وهو أمران :

(أحـدهما) : « السمع والطاعة » فى كل ما يأمرهم به وينهاهم عنه ، فى جميع الأحوال التى يستطيعون فيها العمل بذلك ؛ وهو صلى الله عليه وسـلم قد أمرهم بكل الفضائل الخلقية التى يترتب عليها صـلاح معاشهم ومعادهم ، ونهاهم عن كل الرذائل الخلقية التى تضرهم وتضر المجتمع الانسانى .

(ثانيها) : « ألا ينازعوا ولاة الأمور » ولا يخرجوا عليهم فى أمر من الأمور ، إلا إذا أمروهم بالمروق من دينهم ، فإنهم فى هذه الحالة لا يستجيبون لهم ؛ وذلك لأن الخروج على ولاة الأمور وعدم تنفيذ أوامرهم مثار للفتن الضارة التى قد تذهب بكيان الأمة ، كما سنبينه بعد .

وقوله فى الحـديث : « فى منشطنا ومكرهنا » ، معناه فى حال نشاطنا وفى حال كرهنا . فالمنشط بفتح الشين : مصدر ميمى معناه النشاط ، يقال : نشط بكسر الشين نشاطا فهو نشيط . والمـكره بفتح الميم والراء : مصدر ميمى كذلك معناه الـكره بضم الـكاف وهو المشقة . وغرض عبادة أن يقول : بايعنا الرسول صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة فى حالة النشاط وحالة الـكسل ، فلا يحـل لمسلم أن يتبع العوامل المثبطة عن القيام بمـا أمره الله به ورسـوله من كسل وغيره .

أما قوله بعد ذلك : « وعسرنا ويسرنا » ، فمعناه أننا بايعنا الرسول صلوات الله عليه على السمع والطاعة والقيام بما يأمرنا به فى حالة اليسر وفى حالة العسر . وليس معنى هذا أن الرسول قد كلفهم بما هو خارج عن مقدورهم ؛ فإن الله تعالى لا يكلف نفسا إلا وسعها ، وإنمـا معناه أن يقوم كل فرد من الأفراد بما هو فى طاقته ، فمن كان معسرا لا يستطيع أن يبذل مالا فعليه أن يعمل بجوراحه السليمة التى يستطيع أن يستخدمها فى طاعة الله ورسوله ، وخدمة دينـه ووطنه ، كما ورد فى حديث آخر .

وقوله : « وأثرة علينا » بفتح الهمزة والراء والثاء ، أو بضم الهمزة وسكون المثلثة ، أو بكسرها مع الإسكان ، معناه الانفراد بالشيء والاختصاص به مع كونه مشتركا . والمعنى أنه لا يستأثر على أصحابه بمـا لهم فيه استحقاق . فهو يقول : بايعنا الرسول على ألا ننحرف عن العمل الذى يكلفنا الله به ورسوله ومن يلى أمرنا من أجل أن يمنعنا حقنا فى الغنائم أو المناصب أو نحو ذلك ويؤثر بها غيرنا علينا ؛ بل يجب علينا أن ننفذ الأوامر والنواهى بصرف النظر عن كل اعتبار .

وذلك هو الفناء فى سبيل الإصلاح الاجتماعى والخلقى ، فان العامل فى سبيل الإصلاح ينبغى له أن ينفذ ما هو منوط به ، بصرف النظر عن كل ما يحيط به من عوائق ، فلا ينظر الى مصالحته الشخصية أيا كان حالها ، ولا يبالى بالأمور المادية التى تحيط به ، بل يجب أن يكون كل همه منحصرا فى أداء ما هو مكلف به من خدمة المجتمع الذى هو فرد من أفراده بجد وإخلاص ، بصرف النظر عما وراء ذلك من متاع الحياة الدنيا وزينتها . وذلك فى الواقع أساس الإصلاح الاجتماعى ، فإن العامل الذى يريد أن يرضى الله عز وجل فى قوله وعمله ، يجب عليه أن لا يتطلع الى ما وراء ذلك من مال أو جاه أو منصب ؛ ومن يفعل ذلك فقد أساء الى عمله المنوط به ، وأساء الى المجتمع الانسانى ، بل وأساء الى نفسه من حيث لا يدرى ، لأنه بذلك يكون قد أخل بأداء واجب من الواجبات المقدسة فى سبيل متاع زائل لا قيمة له فى الواقع ، وكان مثلا سيئا لمن عساه أن يقلده فى فعله فيتضاعف شره . ولعل كثيرا من الناس يغفلون عن هذا المعنى الجليل ، وهذا الأدب الخلقى العظيم ، فيقصرون فى أداء واجباتهم لأنهم يرون فى ذلك تشفيا لأنفسهم من حيف لحق بهم ، ولكنهم فى ذلك مخطئون كل الخطأ ، لأن الأعمال النافعة يجب أن تؤدى لذاتها ، وأن يقصد العاملون ابتغاء مرضاة ربهم بصرف النظر عما سواه .

أما قوله : « وألا ننازع الأمر أهله » ، فمعناه ظاهر ، وسيأتى بيانه بعد . وقوله : « إلا أن تروا كفرا بَواحا » فمعناه « كفرا ظاهرا » . تقول : باح بالشىء يبوح به بَواحاً ، إذا أذاعه وأظهره . وبعضهم يقول : يجب أن يكون اللفظ بؤاحا بالهمز ، لا بواحا . وعلى كل حال فالغرض منه مفهوم كما ذكرنا .

٢ — أما حكم طاعة ولى الأمر فى الشريعة الإسلامية فهى فرض مقدس لا يجوز لأحد من الناس أن يخرج عنه قيد شعرة ، قال تعالى : « يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ، فان تنازعتم فى شىء فردوه الى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر » . فطاعة ولاة الأمور مقرونة بطاعة الله ورسوله ، وقد وردت أحاديث صحيحة كثيرة فى وجوب طاعتهم ؛ منها قوله صلى الله عليه وسلم : « السلطان ظل الله فى الأرض يأوى إليه كل مظلوم من عباده ، فإن عدل كان له الأجر وكان على الرعية الشكر ؛ وإن جار أو حاف أو ظلم كان عليه الوز وعلى الرعية الصبر » . من حديث رواه ابن ماجه وغيره .

وهذا الحديث الذى معنا يدل دلالة صريحة على أن طاعة ولى الأمر فرض مقدس على المحكومين ، فإن عبادة يقول : إننا بايعنا الرسول عليه الصلاة والسلام على السمع والطاعة فى كل حال من أحوالنا ولو شق علينا فعله ؛ وبايعناه على أن لاننازع ولاة أمورنا فيما يأمروننا به ، بل ننفذه ولو لاقينا فيه عسرا ومشقة ، ماداموا لم يامرونا بالخروج على ديننا .

وهذا المعنى يدور عليه نظام الأمة الإسلامية فى كل أدوار حياتها ، لأن الدين الإسلامى قد حذر المسلمين عن إثارة الفتن التى يترتب عليها فساد نظامهم ، مهما لاقوا فى سبيل ذلك من العنت والإرهاق والعسر والمشقة . فان الصبر على مثل هذا يوطد دعائم الوحدة ، ويثبت أركانها ، ويجعلهم فى مأمن من أعدائهم فى الخارج ، لأن الفتن الداخلية من شأنها أن تذهب بقوتهم ، وتضعف شوكتهم ، وتجعلهم عرضة للمغيرين دائما . على أن الصبر على ما قد يشعرون به من المكاره قد يكون فيه مصلحة آجلة لهم تخفى عليهم حقيقتها ، فليس من الصواب أن يخرجوا على سلطانهم لمجرد مشقة أو عسرة يجدونها منه .

هذا إذا كان فى أمر السلطان ونهيه خفاء ؛ أما إذا أمرهم بما فيه مصلحة ظاهرة يقوم عليها شرفهم وحفظ كيانهم ، فإنه يفترض عليهم أن يطيعوه فى تنفيذها طاعة عمياء ، مهما كلفهم ذلك من مشقة وحرج ، وبذل نفس أو مال . ذلك لأنهم فى هذه الحالة لم يشعروا بنتائج الأمور ، ولم يقدروا الفضيلة حق قدرها . مثلا : إذا أمرهم السلطان بإعداد العدة للقاء عدو أو اتقاء شر ، فانهم فى هذه الحالة يفترض عليهم أن يتلقوا هذا الأمر بالسمع والطاعة ، وأن يتعاونوا جميعا معه على تنفيذه ، وأن لا يجدوا فى أنفسهم حرجا من هذا الأمر بأية حالة من الحالات ؛ فان الله تعالى قد أمرهم بمثل ذلك الأمر صريحا ، قال تعالى : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة » .

ولقد كان لهم فى المسلمين الأولين أسوة حسنة ؛ فسيدنا عثمان رضى الله عنه بذل جل ماله لتجهيز جيش كامل فى وقت كان المسلمون فى ضيق وعسر . وكثير من المسلمين كانوا يأتون الى رسول الله يحملون كل ما تملكه أيديهم من متاع ويقولون له : هذا ما نملكه أتينا به لينفق فى سبيل الجهاد .

سار المسلمون الأولون على هذا المنوال من تضحية المال والأنفس والشهوات فى سبيل العزة والكرامة ومقاومة الأعداء ، فأصبحوا بذلك سادة العالم يومئذ .

ويا حبذا لو اقتدى بهم من بعدهم فى هذا العمل الجليل ، وذلك الخلق الفاضل ، فانهم لو فعلوا ذلك لظلت لهم شوكتهم قائمة ، وعزتهم باقية خالدة . ولكن من الأسف الشديد غلب عليهم حب الشهوات والأنفس والأموال ، فضاعت بذلك شجاعتهم الأولى ، واستمرءوا عيش الذلة والهوان ، فضنوا بما يصون كرامتهم ، ويحفظ لهم عزتهم التى كانوا عليها ! ؟

عبد الرحمن الجزيرى

ذكرى هجرة محمد

صلى الله عليه وسلم

قال تعالى : « إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين إذ هما فى الغار ، إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا ، فأنزل الله سكينته عليه » . وقال تعالى : « وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ، ويمكرون ويمكر الله ، والله خير الماكرين » :

للحوادث الجسام رنين قوى على الأسماع حين ورودها عليها ، إذ تحدث برناتها القوية على السمع تكيفاً للنفس ، وتأثيرا على الروح والعقل ، فتجعل السامع ينتقل بفكره من حالته العادية الى حالة السمو والارتفاع الى الدرجة التى تجعله فى مستوى من شاهد تلك الحوادث وكان منها على مرأى ومشاهدة . وأعظم حادث عرفه التاريخ الاسلامى ، حادث الهجرة التى انطلق فيها محمد صلى الله عليه وسلم وصاحبه أبو بكر الصديق من مكة خفية ، إذ خرجا من دار أبى بكر فى الثلث الأخير من إحدى ليالى الصيف قاصدين الى يثرب ، وقد كانا يعلمان حمارّة القيظ ، وما تتلظى به رمال الصحراء المحرقة الفسيحة فى تلك الآونة من الزمن ، ولكنهما لشدة إيمانهما وقوة يقينهما ومنتهى تضحيتهما من أجل غايتهما ، نسيا أهوال السفر ومتاعب السير ومشاق الرمال ، وهانت عليهما هذه الصعوبات المهلكة ، وتناسيا تلك الخطوب المدلهمة ، نظرا لأنهما قد ارتفعت أرواحهما ، وصفت نفوسهما ، ورقت أفكارهما الى درجة جعلت غايتهما منحصرة فى الوصول الى سلامة الدعوة التى حملها الرسول وآزره عليها صاحبه أبو بكر الصديق .

ولم يكن التفكير فى الهجرة والباعث اليها وليد الأسابيع والأشهر ، بل هو وليد السنين والظروف القاسية ، والحوادث المتتابعة ، التى أنبتتها الأحقاد والحسد فى نفوس قريش ، وما خافوا عليه من زوال سلطانهم ، وعفاء عزهم ، وانمحاء سيطرتهم على أهل تلك الجزيرة ، وذلك لأنهم كانوا حراس الكعبة ، وبيدهم مقاليد البيت الذى تحج اليه العرب جميعها ، ويفدون اليه من كل صوب ؛ فاذاً تفكير محمد فى الهجرة وبحثه عن مكان يبث فيه الدعوة قد جال بنفسه عقيب البعثة ، عند ما نزل عليه قوله تعالى : « وأنذر عشيرتك الأقربين » ، عند ما دعا أهله وعشيرته ليتخذ منهم عونا على نجاح دعوته وإبلاغ رسالته ، فما كان منهم إلا أن سخروا منه ، وكانوا حربا عليه وعلى ما جاء به من الدعوة الى عبادة الله وحده ، وترك السجود لأصنامهم التى ورثوا عبادتها عن آبائهم ، وكانت ينبوع المجد والفخار عندهم .

ولقد أخذ التفكير فى الهجرة يزداد فى نفس محمد يوما بعد يوم ، فكلما وجد من أهل مكة إعراضا عن دعوته ، ومعاكسة لها ، ازداد تفكيره واشتد بحثه فى إيجاد بقعة صالحة يغرس فيها شجرة الإيمان ، ويثبت فيها أصلها ويعلو فرعها ، بعد أن اشتد يأسه من إسلام أهل مكة ومن جاورها ، وبعد أن ردته ثقيف حين ذهب الى الطائف يلتمس من أهلها الظهير والمعين ، فما كان منها إلا أن أغرت به سفهاءها وصبيانها للسخرية منه ، والاستهزاء بما دعاهم اليه ، حتى لقد بلغ به اليأس والقنوط ؛ فجلس بعد جهد سفهاء قريش له عند حائط لعتبة وشيبة ابنى ربيعة يحتمى به من عبث السفهاء وسخرية الأغبياء من أهل ثقيف ؛ ولقد جلس الى ظل شجرة من عنب وابنا ربيعة ينظران اليه والى ما هو فيه من شدة الكرب وظلمة الدنيا فى وجهه وضيقها عليه على ما هى به من رحابة وسعة ، حتى لقد دفعته هذه الحادثة إذ يئس من النصير والمعين الى أن يرفع أكف الضراعة الى الله تعالى ، ويفوه بقوله عليه السلام : « اللهم اليك أشكو ضعف قوتى ، وقلة حيلتى ، وهوانى على الناس ، يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين ، وأنت ربى ، الى من تكلنى ، الى بعيد يتجهمنى ، أو الى عدو ملكته أمرى ، إن لم يكن بك غضب علىّ فلا أبالى ، ولكن عافيتك أوسع لى ! أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، من أن تنزل بى غضبك ، أو تحل علىّ سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك » !

ولم يكن نصيب محمد من ثقيف بأكثر مما كان نصيبه من كندة وكلب وبنى عامر وبنى حنيفة وغيرها من قبائل العرب التى اشتد أذاها وخشن قولها له ، فقد قل نصيره ، واشتد أعداؤه ، حتى بلغ التفكير بهم الى العمل على إماتته مع من تابعه جوعا ، وكتبت بذلك صحيفة علقت فى جوف الكعبة تتضمن قطع العلاقات بين محمد وأتباعه ، وبين سائر قريش ، حتى لقد حرموا البيع والشراء بينهم ، وتوعدوا من خالف تلك الصحيفة أو عمل على نقض حرف مما جاء بها بالنذير الشديد والعذاب الأليم ، طمعا منهم فى أن يعدل محمد عن الدعوة التى جاء بها ، ويبقى على سلطانهم وعزهم ونخارهم فى تلك الجزيرة ، فكلما فشلت قريش فى مكيدة من مكائدها عمدت الى مكيدة أخرى .

ولقد كانت آخر تلك المكائد ونهاية السهام التى توجهها قريش الى محمد ، هو ذلك الاجتماع وتلك المؤامرة التى حدثت بدار الندوة ، إذ تشاوروا فى أمر محمد وكيفية الخلاص منه والقضاء عليه ، واستراحتهم من المخاوف التى ينتظرونها ، فأشار بعضهم بحبسه وتكبيله بالسلاسل والأغلال حتى ينحصر شره وتخمد نار دعوته وينساه أصحابه ؛ فعورض ذلك الرأى بأن أصحاب محمد لا يتركونه دون أن يخوضوا غمار حرب تصطلى نارها جزيرة العرب وتدور الدائرة عليها . وقال البعض الآخر : أخرجوه من مكة حتى تنقطع دعوته عن أهلها ويزول اتصاله بأتباعه ؛ فعورض ذلك الرأى أشد المعارضة لما كان يتوقعه المعارضون الذين

لم ينسوا بيعتى العقبة الصغرى والكبرى اللتين أبرمهما محمد مع أهل يثرب ؛ وكان المعارضون يعرفون شدة الوفاء والمناصرة من أهل يثرب الذين قالوا عند العقبة الكبرى ، وهم زعماء الأوس والخزرج ، قولة صدق يفدونها بالمال والولد والنفس والنفيس : « بايعنا على السمع والطاعة فى عسرنا ويسرنا ومنشطنا ومكرهنا ، وأن نقول الحق أينما كنا لا نخاف فى الله لومة لائم » . فقد جال بخاطر المعارضين وطرقت آذانهم تلك المبايعة ، وما قطعته الأوس والخزرج على نفسها من مناصرة محمد ، والوقوف بجانبه ، والدفاع عن الحق الذى جاء به . كل هذه العوامل لم تغب عن أذهان هؤلاء المعارضين ، فاندفعوا لمعارضة هذا الرأى وقالوا : لا تخرجوه لأنه سيرجع عليكم مع أتباعه من أهل يثرب ، ويوقعون بكم شر البلاء وأعظمه .

وحينما عورض هذان الرأيان انبرى أبو جهل فى صلف وكبر وزهو ، لما عرف به بين أهله من قوة الشكيمة وشدة المعارضة والخصومة لمحمد وأتباعه ، وقال : الرأى أن نجمع من كل قبيلة رجلا جليدا فيضربوه بأسيافهم ضربة واحدة ، فإذا قتلوه تفرق دمه فى القبائل فلا يقوى بنو هاشم على محاربة قريش كلها ، فيرضون بأخذ الدية . فانصاع الكل الى هذا الرأى ، وأخذوا يحبذونه .

وحينذاك صح العزم من الرسول صلى الله عليه وسلم على الهجرة ، حماية للدعوة ؛ وأمر على بن أبى طالب أن يبيت فى مضجعه ، وأن يتسجى ببردته ، فبادر على الى طاعته ، مع اعتقاده أن القوم يتربصون الفرصة لاقتحام الدار لقتل محمد ، ولكن عليا لم يعبأ بهذه المخاطر ، بل عزم على التضحية بنفسه افتداء لمحمد ودعوته ، وصحب النبى أبا بكر فى السير حتى دخلا غار ثور ، ولم يفتهما أن قريشا لا بد أن تطلبهما فى غداة اليوم الذى تركا فيه مكة ، وقد تحقق ذلك ، فإن قريشا ذهبت تطلبهما ، وحلقت حول الغار الذى استترا فيه ، وفى تلك اللحظة من الزمن اشتد خوف أبى بكر على الرسول صلى الله عليه وسلم ، وفى هذا نزل قوله تعالى : « إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين إذ هما فى الغار ، إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا ، فأنزل الله سكينته عليه » .

ولما اطمأنت نفسهما من خوف قريش ، واصلا السير حتى وصلا الى المدينة التى تهيأ للقائه أهلها ، واستمدوا جميعا من يهود ومشركين ومن آمن به من الأوس والخزرج ممن بايعوا بيعة العقبة الكبرى والصغرى ومن تابعه على الإيمان .

وهنالك اشتد الزحام ، وخرج الكل يجتلى طلعة هذا القادم العظيم . وكان أول ما فكر فيه الرسول حينما دخل يثرب ، أن شرع فى بناء المسجد ، ومسكنه الذى يأوى اليه . وطبيعى من محمد صلى الله عليه وسلم أن يجعل أول تفكيره بناء المسجد الذى يؤدى فيه الركن الأعظم من أركان دعوته ، والعماد القوى ، ألا وهو ركن الصلاة ، فانها عماد الدين وقوامه .

ثم فكر بعد ذلك فى جمع كلمة أهل مكة ، وإزالة ما بينهم من اختلافات من أجلها اشتدت الحروب وطال أمدها ؛ فهو واجد أمامه الأوس والخزرج اللذين نشأت بينهما الحروب التى اختتمت ببعاث ، أكبر حرب عرفها الأوس والخزرج ؛ ووجد أمامه اليهود تحتل بقاعا كثيرة فى المدينة وحولها ، وتحتكر التجارة ، وغير هؤلاء وهم المهاجرون الذين تبعوه فى الهجرة وتركوا أموالهم وأولادهم بمكة . إذاً لا بد لمحمد من أن يعمل على جمع الكلمة ومحو أسباب الخلاف .

ولقد وفق الى طريق يحقق له بعض ما أراد ، وذلك هو طريق الإخاء بين المهاجرين والأنصار ، فقد آخى بين نفسه وبين على بن أبى طالب ، وبين عمه حمزة ومولاه زيد ، وبين أبى بكر وخارجة بن زيد ، وبين عمر بن الخطاب وعتبان بن مالك الخزرجى ، وتآخى كذلك كل واحد من المهاجرين مع واحد من الأنصار إخاء رتب عليه الرسول أحكام إخاء الدم والنسب . وبهذه الوسيلة استطاع محمد أن يوحد بين المسلمين القاطنين بيثرب ، واستطاع أن يقضى على الدسائس والوقيعة بين الأنصار والمهاجرين ، واستطاع أن يجعل للحرية فى العقيدة منزلة محترمة لا يقدر أحد على مهاجمتها ، ولا يعذب صاحب الرأى ولا صاحب العقيدة من أجل المخالفة وترك ما ورثه من التقاليد وعبادة الأوثان .

وفكر بعد ذلك أن يوثق الرابطة بين المسلمين واليهود حتى يأمن من شرهم على الدعوة ، فأبرم بينه وبينهم معاهدات حسن الجوار وعدم العدوان وتمكين الحرية ، وبذلك استطاع النبى أن يتفرغ لبث تعاليم الاسلام ، ويوثق الروابط بين المسلمين ، ويزيد المودة بينهم والإخاء ، بتعاليمه ومثله العليا التى كان يضربها لهم بأفعاله وأقواله ، إذ يقول فى بعض خطبه : « من استطاع أن يقى وجهه من النار ولو بشقة من تمر فليفعل ، ومن لم يجد فبكلمة طيبة فان بها تجزى الحسنة عشر أمثالها » . وكان يضرب لهم الأمثال بتواضعه وزهده فى الحياة ، وما عليه من التقشف فى المعيشة من مأكل وملبس ومسكن .

ولقد ظهرت تعاليمه واضحة جلية حينما سأله على بن أبى طالب عن السنة التى يرتضيها النبى صلى الله عليه وسلم لنفسه فقال : « المعرفة رأس مالى ، والعقل أصل دينى ، والحب أساسى ، والشوق مركبى ، وذكر الله أنيسى ، والثقة كنزى ، والحزن رفيقى ، والعلم سلاحى ، والصبر ردائى ، والرضا غنيمتى ، والفقر فخرى ، والزهد حرفتى ، واليقين قوتى ، والصدق شفيعى ، والطاعة حسبى ، والجهاد خلقى ، وقرة عينى فى الصلاة »

كل جملة من هذه الجمل تصلح دستوراً تبنى عليه أقوى الحضارات وأرقاها ، إذ بالعقل وحده تستطيع الحضارة والمدنية أن تقوى دعائمهما ، فما بالك إذا انضم الى العقل سلاح العلم ؟ وما بالك أيضا إذا انضم إليهما جميع هذه الصفات التى جملها الرسول صلى الله عليه وسلم من سنته وأصول تعاليمه ، التى أخذت تزداد يوما بعد يوم فى المدينة وما جاورها ، مما أوقع الرعب فى قلوب

اليهود ، وجعل قوتهم تضعف يوما بعد يوم ، ودسيستهم تشتد بين المسلمين دون جدوى ولا فائدة ، حتى لقد خيل إليهم أن يستميلوا محمدا ويعملوا على إخراجه من المدينة موطن عزهم ومحط تجارتهم بدعوى أن الرسل جميعاقد استقر بهم الأمر ببيت المقدس ، فأولى بمحمد أن يترك المدينة وينزل بيت المقدس مهبط وحى الأنبياء ومحط تعاليمهم . وهنالك فكر محمد مليا فى القضاء على هذه المكيدة ، وقلب وجهه فى السماء مبتغيا الى الله الوسيلة ، وفى تلك الآونة حقق الله مراده ، واختار طريق الخلاص من هذه الفتنة ، وأنزل عليه قوله تعالى : « قد نرى تقلُّبَ وجهك فى السماء فلنولّينّك قبلةً ترضاها ، فولّ وجهك شطر المسجد الحرام، وحيثما كنتم فولُّوا وجوهَكم شطْره » .

وبذلك خاب رجاء اليهود فيما أملوا ، وتبين لهم فشل المكيدة التى دبروها ، وتحطمت آمالهم فوق الصخرة التى وضعها الرسول ليبنى عليها تعاليمه ، ويثبت عليها دعائم الإيمان .

وبعد كل هذه المحاولات والقضاء عليها ، فكر محمد طويلا فى مكة ومن ترك بها من أهله وعشيرته ، وفكر طويلا فيما صنعته قريش به من الأذى وما أذاقوه له ولأتباعه من العذاب والهوان ، وفكر أيضا فى تمكين دعوته وبثها فى جزيرة العرب وما جاورها ، بل فكر فوق ذلك فى محو الشرك والوثنية والعمل على توحيد الله والإخلاص له ، وحدد عبادته بما فى قوله تعالى : « قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كُفُواً أحد » .

هذا هو أساس التوحيد الذى دعا إليه ، ومن أجله آذته قريش ، ومن أجله طاردته ثقيف وكندة ، ومن أجله اجتمع المشركون فى دار الندوة مؤتمرين على قتله ، ومن أجله ترك مكة ملتمسا المدينة ، ومن أجله تحمل كل المصاعب وضحى بكل شىء .

ولم يترك الرسول أمر مكة وكفار قريش ، وكذلك لم يترك أهل مكة محمدا دون أن يعملوا على الكيد له ، وبذلك وقعت الغزوات بينه وبينهم ، من بدر ، وأحد ، وغيرها ؛ وحصل بينه وبينهم صلح الحديبية الذى نقضت قريش ما جاء فيه وما قطعته على نفسها من عهود . ولقد كانت نتيجة النقض أن لا يجد محمد بداً من القضاء على قريش ، وأن يضع الحد الفاصل ويقول الكلمة النهائية بينه وبينهم ، وذلك بأن يدخل مكة ويقرر مصير أهلها حتى يأمن شرهم ، وقد أعد جيشا عرمرما بلغ عدده عشرة آلاف مقاتل ، وزحف به الى مكة قاصدا فتحها دون إراقة دم .

ولما اقترب منها خرج اليه عمه العباس بن عبد المطلب ، وسفيان بن حرب ، وبديل ، وغيرهم يستطلعون قوته ومعداته ، وينظرون الى ذلك الذى خرج من بلدهم مكرها مغلوبا على أمره بالأمس ، وإذ به يعود اليوم قويا فاتحا عزيزا مكرما يحمل راية الحق والدين الذى

دعاهم اليه ، فما كان منهم إلا المعاندة والخصومة . ولقد دخل أنصار الله الى مكة فلم يجدوا منها مقاومة ، اللهم إلا بعض مناوشات وقعت بين جيش خالد بن الوليد ومن لقيه من أهل مكة .

ولما استقر المقام بمحمد صلى الله عليه وسلم أخذ يستعرض صحيفة الماضي والذكريات الأليمة التي لحقته في هذه الأمكنة من قريش ، والعذاب الذي ذاقه ؛ ولكن نفس محمد أعلى من أن ينتقم لنفسه ويثأر لها ، فقد شكر الله تعالى أن هيأ له الرجوع الى هذا البلد الأمين مكة ، أم القرى ، ومهبط وحيه ؛ ثم أخذ يطوف بالكعبة التي تشوقت نفسه إليها ، ولم ينقطع تفكيره عنها .

ولما قضى طوافه وقف على باب الكعبة وتكاثر الناس حوله ، فقام فيهم خطيبا يتلو عليهم كتاب الله ، ويبين لهم حدوده وتعاليمه ، وأوامره ونواهيه ، ثم تلا عليهم قوله تعالى : « يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، إن الله عليم خبير » . ثم سألهم بعد ذلك فقال : يا معشر قريش : ما ترون أني فاعل بكم ؟ قالوا : خيرا ، أخ كريم وابن أخ كريم . قال : فاذهبوا فأنتم الطلقاء .

لقد عفا محمد صلى الله عليه وسلم عن الأعداء بعد أن ملك ناصية أمرهم ، واستولى على أرواحهم ، وأموالهم ، وما ذلك إلا لأنه قد وصل الى غايته ، وأدى رسالة ربه ، فليس في نفسه حفيظة أو غيظ ، أو حقد أوحسد ، لأن روحه العالية قد سمت فوق الحفيظة والغيظ ، والحقد والحسد .

من أجل هذا كله كانت الهجرة وبواعثها من الأمور الجسيمة التي تحول الاسلام بسببها من حالة الركود والمعارضة بمكة ، الى حالة النشاط والجد والعمل بالمدينة : وهكذا كان الضرر والأذى والعنت الذي لحق النبي صلى الله عليه وسلم بمكة حتى أجلاه عنها سبباً في الخير ، ونصرة الحق ، وإعلاء كلمة الله . وصدق الله وحقت كلمته حيث يقول : « وَعد اللهُ الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات لَيستخلفنّهم في الأرض كما استخلَف الذين من قبلهم ، وليمكّننّ لهم دينهم الذي ارتضى لهم ، ولَيبدلنّهم من بعد خوفهم أمناً » ؟

عبد الله مصطفى المراغي

وكيل قسم المساجد بوزارة الأوقاف

نظرات فى المذاهب المتطرفة

الشيوعية وسوء أثرها فى الهيئات الاجتماعية

نظرنا فى المقال السابق فى الناحية الاقتصادية من الشيوعية ، وهى الناحية التى يحاولون أن يفتنوا الفقراء من قِبَلها ؛ وقد رأيت أن سيادة هذا النظام الاجتماعى يزيدهم فقرا على فقرهم ، وإذا تمادى بهم حل وحدتهم ، وأتى على جميع حوافظهم الاجتماعية . واليوم ننظر فى هذا المذهب من ناحية مناهضته للدين ، وهى أخص ماتعنى به هذه المجلة :

عرّف الدينَ موجد الشيوعية (كارل ماركس) الاسرائيلى الألمانى فى بعض كتبه فقال : « الدين عبارة عن تنهدات الجماعات المظلومة » . يريد بذلك أن يقول : لو ارتفع الظلم عن هذه الجماعات لما وُجد الدين .

ويقول الذين يدعون الى هذا المذهب : « فى كل مجتمع قائم على أساس الطبقات لابد للدين من أن يولد تحت تأثير النير الاقتصادى ، ويكون إحدى قوى الضمير الاجتماعى . أما عندنا فإن الشروط الاجتماعية التى كانت تنشأ عنها الأفكار والعقائد الدينية قد اضمحلت وأصبح الدين كائناً ميتاً لا تأثير له فى الاقتصاد وفى النظام الاجتماعى » .

ونحن نبادر الى دحض هذه الآراء قبل الانتقال الى غيرها حتى لايلتبس الأمر على القارئين :

أما قول مؤسس الشيوعية : إن الدين هو تنهدات الجماعات المظلومة ، فهى عبارة شعرية ليس فيها عبقة من علمى النفس والاجتماع ، فقد ثبت أنه يستوى فى عاطفة التدين المظلومون وغير المظلومين ، بل ثبت أن غير المظلومين من كبراء الأمم وأثريائها وسراتها ، أكثر تدينا من رعاعها وغوغائها ؛ وقد تقرر أن منهم من تنازلوا عن عروشهم وخرجوا عن أموالهم تورعا وتزهدا ؛ وفى الأرض اليوم جماعات غير مظلومة تعيش فى ظلال الديمقراطية الوارفة الظلال ، أشد تمسكا بدينها من الأمم التى تعتبر فى عرف الشيوعيين مظلومة .

وأما قول أشياع الشيوعية من أن كل مجتمع قائم على أساس الطبقات يتولد فيه الدين تحت تأثير النير الاقتصادى ، فغير صحيح ؛ فقد ثبت علميا أن الدين تَولّد فى الجماعات الأولية الساذجة ، قبل أن يُعرف نظام الطبقات فيها ، بل قبل أن يكون لها جماعة بالمعنى المعروف اليوم . أعنى بهذا أيام كان كل إنسان يعمل لنفسه ولا يسأل عن غيره ، ويجهل النظم الاجتماعية كل الجهل . فاذا كان الشيوعيون يلاشون كل النظم المعروفة فلا يؤملنّ من وراء ذلك أن يسقطوا سلطان الدين ، لأنه لا يستمد هذا السلطان من جوع الجماعات ، ولا من وقوعهم تحت براثن

القادة الظالمين ، ولـكنه يستمده من أشرف عواطف النفس ، وأكرم غرائز العقـل . وقد عرف بالمشاهدة أن الانسان إذا كانت قواه مستوعَبة فى طلب القوت ، ومحاولاته وقفا على فتق الحيل للوصول اليه ، ضعف سلطان الدين عليه ، ولم يجد وقتا للنظر فى نفسه ومصيرها ، وحيانه وينبوعها ، ولا للفكر فى آدابه ونظامها ، وسيرته وقوامها ؛ وكثيرا ما أداه شظف العيش الى الـكفر . هـذه حقائق يمكن الاهتداء اليها بالمشاهدة ، فانك حيث تصادف الفاقة والعُدْم تجد خمود الشعور ، وهمود العواطف ؛ وحيث تؤانس اليسار والخفض ، تلفى التوق للسمو الأدبى ، والحنين لاختراق حجب الغيب لتنور الأسرار العلوية . وهل الدين فى حقيقته غير الانتهاء الى المثل العليا فى الأدب النفسى والمعرفة ؟ وأين هما من الجائع المكدود ، والمعدم اللاصق بالتراب ؟

فان تخيلت كائنا ميتا تسميه الدين ، فهو عند الجماعات المنكودة الحظ ، الواقعة تحت كلاكل الظلم ، لا عنـد الجماعات التى نالت حظها من الرغد ، وفرغت من همـوم الـكد ، ووجدت عقولها وقتا للنظر والتأمل ، واستعدت نفوسها للترقى والتـكمل .

ويقول أنصار الشيوعية :

« إن بقاء المعتقدات الدينية يقوِّى بواسطة السلطة الإلهية والدينية جميع النزعات الرجعية فى أفـكار الناس ، ويستبقى العادات القديمة ، ويعزز الميول العدوانية نحـو النساء ، ويخلق شريعة العبودية والتعصب ، ويوطد أصول الرأسمالية » .

نقول : من حسن الحظ أن الذين يقومون بهذه الفلسفة هم فى أوربا لا فى مجاهل أفريقا ، ولا فى سهوب الأقيانوسية ؛ وليس فى العالم مظهر أروع ، ولا مشهد أكمل ، من الأمثال التى تضربها شعوب أوربا فى التخلص من النزعات الرجعية ، والوراثات التقليدية ؛ وفى تحرير النساء ومنحهن حقوقهن الطبيعية ؛ وفى تحطيم أغلال العبودية ؛ وفى تلطيف سلطان العصبية ، وتعـديل الأصول الرأسمالية ، لتوافق المصالح الاقتصادية ، ولا تتحيف حقـوق الضعفاء فى الهيئة الاجتماعية .

لا أظن أن عهدا من عهود البشرية تجلت فيـه روح الإنشاء والتجديد فى كل مجال من مجالات النشاط العلمى والاقتصادى والاجتماعى ، مثل تجليها فى الغرب فى القرنين الأخيرين :

فقد تطورت العلاقات بين الحـكومات والشعوب ، وبلغت أرقى ما يمكن أن تبلغه من الثقة بين حاكم ومحكوم فى هذه الحياة الأرضية .

وتهـذبت الصلات بين أصحاب الأموال والعمال ، حتى اعتبر العمل ورأس المال عاملين متساويين فى الحقـوق ، فلم يعـد العامل مستعبدا لصاحب المصنع ، ولا عالة عليه ، ولـكن

شريكا له فى الإنتاج . لذلك اعترفت له الحكومات بالنقابات التى تضمن حقوقه الطبيعية ، وتهيمن على مصالحه الاقتصادية ، وسمحت له بالدفاع عن تلك الحقوق والمصالح بكل ما تسمح به لسواه فى حدود النظام .

واندفعت تلك الأمم فى ميدان الترقيات المادية والروحية طليقة حرة ، زارية بالرجعية والرجعيين ، والتقليد والمقلدين ، حتى كادت تقطع الصلة بين القديم والحديث .

وبالغت فى تحرير النساء حتى اتهمت بمحاباتهن ، وبث روح التمرد فى قلوبهن ؛ وليس بعد هذه الدرجة من مزيد إلا إذا أريد قلب الأوضاع الطبيعية بجعل الرجال تحت قيادة النساء ، وليس هذا من الإصلاح فى شىء .

فلا أدرى بعد هـذا كله معنى لتبجح الشيوعية بمبادئها الجديدة ولم تبلغ الجماعات التى أخذت بها بعض ما بلغته الأمم التى نذكرها ، وكان المعقول أن تعطى العالم مثالا فى تفوقها ، وفى سرعة تطورها ؛ فأى سبق تدعيه عليها ، وأى تخلف عنها تعيرها به ، وهى لا تحفظ وجودها فى عقر دارها إلا بسيف القهر ، تقطع به وتين كل من تحدثه نفسه برفع نيرها عن عاتقه ؛ وتلك الأمم تعيش فى بحبوحة الحرية ، لكل منها الحق أن تنتقد حكومتها ، وأن تسقطها وتقيم سواها متى تعدت إرادتها ، لا تعرف حكم الإرهاب ولا يعرفها ، سلطانها الإجماعى فوق سلطان آحادها ، رضيت بهـذا الحظ الموفور من كرامتها ، واتجهت لبلوغ غايات المثل العليا بالعلم والعمل على سجيتها .

لعل الذى أطال من لسان الشيوعية ضد الدين الى هـذا الحد ، أن عامة الأمم وجهلتها لا يزالون يدينون بالخرافات العتيقة ، ويحافظون على ضلالات الأولين لا يريدون عنها حولا ، ولكن أصحاب البصر من تلك الأمم يرون ذلك ويدأبون على إصلاحه بوسائل تلائم الطبيعة البشرية ، من طريق ترقية مداركهم ، ورفع مستوى عقليتهم ، كل ذلك مع عدم العدوان على العاطفة الدينية التى اعترفت الفلسفة أنها من لوازم الفطرة البشرية ، وأنها لارتكازها على أرفع مميزات النفس لا يمكن ملاشاتها إلا باسقاط الإنسان الى حضيض الحيوانية ، وإلهائه عنها بالمطالب الجسدانية ، وهو جهد محكوم عليه بالضياع ، لأن الفطرة الانسانية تعود فتتنبه للنظر فى ذاتها وعلاقتها بالوجود ، فتستيقظ العاطفة الدينية من سباتها ، وتبحث عن مقوماتها من العقائد والتقاليد . فاذا أصر الشيوعيون على مقاومة هذه الميزة الفطرية فى النفس البشرية بالقوة ، أداهم ذلك الى ارتكاب ضروب من العسف تترفع أية حكومة متمدنة عنه .

ولكن لم هذا العداء كله للدين ؟

لو كان كل أمة ذات دين ترزح تحت كلا كله ، ولا تنتعش من كبوتها حتى تتخا[illegible] منه ، كان للشيوعيين عذر فى العمل على ملاشاته فى جماعاتهم ، ولكن المشاهد أن الدين لم يمنع ارتداء

الأمم الى أرفع درجات المدنية فى خلال العهود الانسانية كلها ، بل شوهد أن منها من لم ينهض بعد جمود طال عليها العهد فيه إلا على يد دين ، كالأمة العربية ، فقد نفث فيها الاسلام روحا عالية ، فأسست أعظم دولة عرفها تاريخ البشر ، وبلغت من المدنية الى أوج لا يزال مضرب الأمثال الى اليوم ؛ وهذه الأمم المعاصرة لم تمنعها أديانها ، ولا أوهام عامتها ، من بلوغ الغايات البعيدة من العلم والفلسفة والمدنية . ذلك لأن هذه الأمم الحرة الرشيدة بدل أن تقيد حرية الضمائر ، وتنشئ لحكومتها هما كبيرا من هذه الناحية ، يدفعها الى ضروب من التعسف ، قطعت ما بين الحكومة والكنيسة من الاتصال ، فاقتصر سلطان العقائد على الحيز الشخصى ، واتسع للمجتمع بجملته مجال التطور والارتقاء غير مقيد بقيد ، فلم يقف فى توثباته عند حد .

فالمذهب الشيوعى لم يكفه أن تتولى حكومته توزيع الأرزاق على الأفراد ، وتقييد حريتهم فى الاستثمار والادخار ، فخول نفسه فوق ذلك الحق فى تقييد عقولهم ، وحصرها فى دائرة يحدها لهم . وهذه سيطرة لم ترضها الانسانية من قادة الدين أنفسهم ، فبذلت فى سبيل التخلص منها أرواح أبنائها ، مع أنهم كانوا يريدون أن يمسكوها فى دائرة العقائد الدينية التى تقدسها ولا ترى لها حياة بدونها ، فهل تقبلها من قادة الشيوعية وهم يرمون الى ملاشاتها ، والتعفية على آثارها ؟

إن الطبيعة البشرية قد أبت السيطرة كما رأيت فيما تهوى ، فهل يطوف برأس متخيل أنها تقبلها فيما لا تهوى ؟

فهذا التورط الشنيع الذى تتكلفه الشيوعية وتحتفظ به فى سيل عرم من دماء البشر ، فى سبيل اجتثاث جرثومة الدين من قلوبهم ، لا يعقل أن يدوم ولو حققت لهم حلم الفردوس الأرضى ، فليس الانسان بالكائن الذى إذا امتلأ بطنه بالطعام اكتفى بذلك ولم يعد يسأل عن علاقته بالوجود ، ولا عن المثل الأعلى للحياة ، ولا عن مصيره بعد الموت ، ولا عن غذائه الروحانى الذى يحس بحاجته الماسة اليه . فالشيوعية تريد الانسان على أن يكون حيوانا لا تبعد همته عن محيط كرشه ، وقد خلق إنسانا لا تقطعه الدنيا عن البحث فى حقيقة نفسه ، وعلة وجوده ، وعلاقته بمبدعه . وهل الدين غير هذه الميول الفطرية فيه ؟ فاذا كان من المحال تغيير الفطرة ، فمن المحال كذلك هدم الدين ؟

محمد فريد وجدى

حياة رجالات الإسلام

عبد الله بن عمر

أشرقت شمس الإسلام فأرسلت بأشعتها الى بيوتات مكة ، وكان من أول ما انفرج لها سقف آل الخطاب ، فأضاءت قلب فتى الفتيان عمر بن الخطاب فأصبح فاروق الاسلام ، وسرت منه سريان الكهرباء الى قلب ناشئه وفلذة كبده وأكرم أهله عليه : ابنه عبد الله بن عمر ، فآمن معه ولما يشب عن الطوق ؛ وقد اشتدت قناة الإسلام ، وعزت شوكته بهذه العناصر الجديدة التى دلفت اليه فى ظل الفاروق وحمايته ، وضاقت قريش بهذه العزة وتلك الحماية ، فتسعَّر حقدها ، وازداد بالمؤمنين أذاها ، حتى أذن الله لرسوله ولأصحابه بالهجرة ، فكانت فتحا مبينا ؛ وهاجر عمر ، وتبعه من أهله ابنه عبد الله وسنُّه لا تعدو العشر ، وإذا نضال اللسان والحجة يتحول الى جهاد السيف والقوة ، ويخرج جنود الحق يقودهم رسول الله ، ويحدوهم الايمان الى غزوة النصر : الى بدر الكبرى ؛ ويتقدم عبد الله بن عمر فى أسنان أمثاله يعرضون أنفسهم على القائد الأعظم صلوات الله وسلامه عليه ، فيردهم لصغرهم ، فيرجع عبد الله ونفسه ـ على طفولته ـ تضطرم شوقا الى الجهاد ، فيرتقب الفرص ؛ وسرعان ما تقبل غزوة المحنة التى صهر الله بها نفوس المؤمنين ، واستخلص رجولتهم ، وطهر قلوبهم ، ومحص بطولتهم ، وأدبهم أكمل الأدب ، فينهض عبد الله فى غضارة شبابه ، وحماسة طفولته ، يعرض نفسه جنديا يجود بروحه فى سبيل دينه وعقيدته التى ولد فى أحضانها ، ونهد فى مهدها ، فيأبى رسول الله إلا الصبر ، لطراءة إهابه وصغر سنه ، فيعود عبد الله وفى نفسه ما فيها متربصا النُّهَز ، وكأنما هو فى تشوقه الى وقفة فى صفوف المجاهدين يدفع بالزمن دفعا ليتقدم به الى سن الجهاد حتى وقف به على سلم الخامسة عشرة من عمره ؛ وأقبلت على المجاهدين غزوة الخندق ، فتقدم اليها عبد الله يعرض نفسه على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يتوجس خيفة من الرد ، ولكنه فى هذه المرة انتصر وفاز برضاء القائد الأعظم أن يسلكه فى عقد الرجولة ، وينظمه فى سلك المجاهدين ؛ ومن يومئذ لم يعرف أنه تخلف عن غزوة غزاها رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومن ثم كان من أحرص الصحابة على ملازمة النبى صلى الله عليه وسلم ، وتعرف أحواله فى حركاته وسكناته ، ونطقه وصمته ، وإقامته وسفره ، والى جانبه أكابر أصحابه ؛ روى ابن القاسم ... مالك بن أنس رضى الله عنه قال : « أقام ابن عمر بعد النبى صلى الله عليه ...

ستين سنة يقدم عليه وفود الناس، فلم يخف عليه شيء من أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أصحابه؛ وكان ابن عمر من أئمة الدين». وسأل يحيي بن يحيي مالكا: هل سمعت المشايخ يقولون: من أخذ بقول ابن عمر لم يدع من الاستقصاء شيئا؟ قال: نعم!

ولقد كان بعض أئمة التابعين يعدل بينه وبين أبيه، وهـذه منزلة رفيعة جدا، حتى كان سلمة بن عبد الرحمن يقول: «مات ابن عمر وهو مثل عمر فى الفضل، كان عمر فى زمان له فيه نظراء، وكان ابن عمر فى زمن ليس له فيه نظير».

وحقا لقد أوتى عبد الله بن عمر من المزايا والخصائص ما جعل حياته خصبة حافلة، فملازمته للنبي صلى الله عليه وسلم، وحرصه الشديد على المتابعة فى كل شأن من شئونه، وقرابة المصاهرة به، ومكانه من نفس أبيه، الى مكانة أبيه من نفس النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين، كل أولئك جعل لحياة عبد الله شأنا عظيما فى الحياة الاسلامية، فكان من أوسع الصحابة علما، وأمثلهم بالأحاديث النبوية، وأقومهم بفهم القرآن.

وكان فى فقهه يمثل مذهب المحافظين المتبعين أكمل تمثيل، وهو يرى أن جميع حركات النبي صلى الله عليه وسلم وسكناته مكفولة بالعصمة؛ قال الزبير بن بكار: «كان ابن عمر يتحفظ ما سمع من رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويسأل من حضر من الصحابة إذا غاب عن قوله وفعله، وكان يتبع آثاره فى كل مسجد صلى فيه، وكان يعترض براحلته فى طريق رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم عرض ناقته، وكان لا يترك الحج، وكان إذا وقف بعرفة يقف فى الموقف الذي وقف فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم».

وكان رضى الله عنه من أشد الناس اتقاء للحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وحذرا من الإقدام على الفتيا، فقد روى أنه سئل عن شيء فقال: لا أدرى، ثم قال: أتريدون أن تجعلوا ظهورنا جسورا فى جهنم؟ تقولون: أفتانا بهذا ابن عمر!

وقد ذاق حلو الحياة ومرها، فأقبلت عليه الدنيا حتى كان يضارب بالأربعين والخمسين ألفا. روى ابن الجوزى عن ابن عمير التيمى قال: سمعت عبد الله بن عمر يقول: شهدت جلولاء وابتعت من الغنائم بأربعين ألفا، فقال عمر: ياعبد الله بن عمر لو انطُلق بى الى النار كنتَ مفتديّ؟ قلت: نعم بكل شيء أملك، قال: فانى مخاصم، وكأنى بك تبايع بجلولاء، يقولون: هذا عبد الله بن عمر صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن أمير المؤمنين، وأكرم أهله عليه، وأن يرخصوا عليك كذا وكذا درهما أحب اليهم من أن يغلوا عليك بدرهم، وسأعطيك من الربح أفضل ما ربح رجل من قريش؛ ثم أتى باب صفية بنت أبى عبيد فقال: ياصفية بنت أبى عبيد: أقسمت عليك أن تخرجى من بيتك شيئا وإن كان عنق ظبية! قالت: يا أمير المؤمنين ذلك لك؛ ثم تركنى سبعة أيام، ثم دعا التجار فباع منهم متاعا بأربعمائة ألف، فأعطانى

ثمانين ألفا وأرسل ثلاثمائة وعشرين ألفا الى سعد ، فقال : اقسم هذا المال فيمن شهد الوقعة ، فان كان مات منهم أحد فابعث بنصيبه الى ورثته .

ولكن الدنيا بإقبالها لم تكن لتأخذ من قلب عبد الله بن عمر حيّز ذرة ، بل كان معها أملك شباب قريش لنفسه ، وأبعدهم عن الميل للدنيا . يقول عبد الله بن مسعود : « لقد رأيتنا ونحن شباب متوافرون فما بيننا شاب هو أملك لنفسه عن الدنيا من عبد الله بن عمر » . ويقول جابر بن عبد الله : « ما منا من أحد أدرك الدنيا إلا مالت به ومال بها غير عبد الله بن عمر » . ويقول السدي : « رأيت نفرا من الصحابة كانوا يرون أنه ليس أحد فيهم على الحالة التي فارق عليها النبي صلى الله عليه وسلم إلا ابن عمر » . ولهذا يقول سعيد بن المسيب : « كان ابن عمر حين مات خير من بقي ، ولو شهدت لأحد من أهل الجنة لشهدت لابن عمر » .

وكان رضي الله عنه بالدنيا جوادا في سبيل الله ، يؤثر الإنفاق بأحب شيء لديه ؛ روى أن عبد الله بن جعفر أعطاه في مولاه نافع عشرة آلاف درهم أو ألف دينار ، فقيل له : ماذا تنتظر ؟ قال : فهلا ما هو خير من ذلك ؟ هو حر ! ومن أمثلة العليا في الإيثار ما رواه نافع قال : كانت لابن عمر جارية معجبة تدعى رمثة ، فاشتد عجبه بها فأعتقها ، وزوجها مولى له ، فأتت منه بولد ، فكان ابن عمر يأخذ الصبي فيقبله ثم يقول : واها لريح فلانة ! فقيل له في ذلك ، فقال : سمعت قول الله تعالى : « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » . وروى نافع أيضا أن عبد الله اشتكى فاشترى له عنقود بدرهم ، فأتاه مسكين ، فقال : أعطوه إياه ، فخالف إنسان فاشتراه منه بدرهم ثم جاء به اليه ، فجاء السائل ، فقال : أعطوه إياه ، فخالف إنسان آخر فاشتراه بدرهم ، ثم أراد السائل أن يرجع فمنع ، ولو علم بذلك ابن عمر لما ذاقه .

وكان ابن عمر يتخادع في الله لمواليه فيعتق الصلحاء منهم ، فعرفوا منه ذلك فكانوا يخدعونه بكثرة عبادتهم ، فقيل له في ذلك ، فقال : « من خدعنا في الله قبلنا منه » . وروى زيد بن أسلم أن عبد الله مر براع فقال : هل من جزرة ؟ قال : ليس هاهنا ربها ، قال : تقول له : إن الذئب أكلها ، قال : فاتق الله ! فاشترى ابن عمر الراعي والغنم وأعتقه ووهبها له ؟

صادق ابراهيم عرجون

التجديد فى الاسلام

— ٩ —

المجددون فى القرن الثانى الهجرى

١ — الإمام أبو حنيفة

١ — من هو أبو حنيفة ؟

هو الإمام الأعظم ، والحبر المقدم ، أول من دوّن علم الفقه ، ورتبه كتبا وأبوابا ؛ الذى أطبق العلماء على علمه ودينه ؛ اتخذه المسلمون حجة فيما بينهم وبين الله تعالى ؛ صاحب المذهب الذى اتبعه وأخذ به مئات الملايين من المسلمين ، وعبدوا الله بمقتضاه ، وحكموا به فى الأموال والدماء والأعراض ؛ وهو الذى يقول فيه الإمام مالك رضى الله عنه : لم أر مثل أبى حنيفة ، تالله لو قال إن هـذه الأسطوانة من ذهب ، لأقام الدليل القياسى على صحة قوله . والذى يقول فيه الإمام الشافعى رضى الله عنه : الناس فى الفقه عيالٌ على أبى حنيفة . والذى يقول فيه الإمام ابن المبارك : من جعل أبا حنيفة بينه وبين الله تعالى لا يخاف ، ولا يكون فرط فى الاختيار لنفسه . والذى يقول فيه العلامة ابن خلدون : أبو حنيفة النعمان ، مقامه فى الفقه لا يلحق ، شهد له بذلك أهل جلدته ، خصوصا مالكا والشافعى .

٢ — نشأة أبى حنيفة وعصره وبيئته :

نشأ الإمام بالكوفة ، وولد بها فى النصف الثانى من القرن الأول الهجرى ، فى زمن جماعة من الصحابة رضى الله عنهم . ولقد عاش أبو حنيفة فى النصف الأخير من القرن الأول ، قرن الصدر الأول ، كما عاش نصف القرن الثانى ، حتى توفى سنة ١٥٠ هـ

فعاصر التابعين ، وكان من كبارهم ، وعاصر الدولة الأموية من عهد عبد الملك بن مروان الى عهد مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية ، ورأى كيف ألفت الجمعية السرية ، وكيف عملت على نقل الخلافة من الأمويين الى العباسيين ؛ وعاصر الدولة العباسية فى مستهلها ؛ وعاصر من خلفائها السفاح ، والمنصور ؛ وعاصر الحوادث التى حدثت من عهد عبد الملك بن مروان الى عهد المنصور . وعاش بالكوفة وبغداد ، وكانتا زاهيتين زاهرتين بمجالس العلم ، وأندية الأدب ، وكان بهما عدد لا يحصى من العلماء ، والفقهاء ، والحكماء ، والأدباء ، والشعراء ، والنحاة ، وغيرهم ؛ فلقد عاش الإمام أبو حنيفة إذاً فى أفضل البيئات الاسلامية الحافلة بأعاظم الرجال ، وأكابر العلماء ، والعاملة بتعاليم الإسلام وثقافته وفضائله ، تلك الفضائل التى تكوّن أفضل الرجال ، وتجلب لمن اتبعها سعادة الدنيا والآخرة .

فى ذلك العصر ، كان المسلمون قد اتصلوا بغيرهم من الأمم ، وشرعوا يعلمونهم الدين الاسلامى ، واللغة العربية ، ونشأ عن هذا الاتصال بين الأمة الاسلامية الممتلئة نشاطا وإيمانا وبين الأمم القديمة ، ذات الحضارات الخصبة العظيمة : نشاط عقلىّ عظيم ؛ وكان العراق من أهم مراكز هذا النشاط ؛ ولعل من الأسباب التى دعت الى هذا النشاط ، كما قال أحد الباحثين ، أن العراق كان مركز المعارضة السياسية لبنى أمية ، يثيرها شيعة بنى هاشم من ناحية ، والخوارج من ناحية أخرى ، ويثيرها عربها أنفسهم لانهم لم يكونوا من قريش ، ولم يكونوا من مضر ، وكانوا يطمعون ألا تكون السلطة مقصورة على القرشيين ، أو المضريين ، بل تكون فى العرب جميعا . فى هذا العصر ، وفى هذه البيئة ، كانت الصلات قد استوثقت بين العرب ، وبين غيرهم من الأمم الأخرى ، وكان الذين اتصل بهم المسلمون قد أخذوا يتقنون العلوم الاسلامية ؛ وكان الموالى قد بلغوا حظا عظيما من النشاط فى العلوم الاسلامية على اختلافها ، وفى كل ما كان يرويه العرب ، ويتوارثونه عن آبائهم فى جميع أنواع المعارف ؛ وكانت الأحزاب السياسية فى العراق قد بلغت من الخصومة مبلغا كبيرا ، وانتهت من التضارب بالسيف والسنان ، الى نتيجة طبيعية : وهى التناضل بالقلم واللسان ؛ وأخذت تنظم آراءها ، وتدافع عنها فى المساجد والمجالس ؛ وكان أئمة المسلمين من رؤساء الأحزاب ، يجتمعون فى مساجد العراق ، خصوصا فى مساجد الكوفة والبصرة ، كل يعرض مذهبه ، ويناظر فيه ، ويدافع عنه ، ويرد على خصومه ؛ وكان الناس يختلفون الى هؤلاء الأئمة يسمعون منهم ؛ ففى هذا العصر ، وفى هذه البيئة ، نشأ الإمام أبو حنيفة ، رضى الله عنه وأرضاه ، فكان لهما من الأثر فيه ما سيأتى إن شاء الله تعالى .

٣ — هل هو من الموالى أو من غيرهم ؟

(١) وردت نصوص تاريخية صحيحة يظهر منها أن الإمام أبا حنيفة كان من الموالى ، كما وردت نصوص أخرى تدل على أنه ليس منهم . ومن الإنصاف للحقيقة والتاريخ أن نذكر نصوص الطرفين : فأما الذين قالوا إنه من الموالى ، فنهم يعقوب بن أبى شيبة بن الصلت ، فقد قال : أبو حنيفة النعمان بن ثابت ، مولى لبنى تيم الله بن ثعلبة بن بكر بن وائل . ومنهم عبد الحميد بن عبد العزيز القاضى الذى يقول : سألت ابن اسماعيل بن حماد بن أبى حنيفة فقلت : لمن ولاؤكم ؟ فقال : سُبى ثابت أبو أبى حنيفة ، من كابُل شاه ، فاشترته امرأة من بنى تيم الله ابن ثعلبة ، فمنّت عليه بالعتاق ، فولاؤنا لها . ومنهم عبد الرحمن المقرى القائل : قال لى أبو حنيفة : ممن أنت ؟ قلت : من أهل دورق ؛ قال : فما يمنعك أن تعتزى الى بعض أحياء العرب ؟ فهكذا كنت أنا ، حتى اعتزيت الى هذا الحى من بكر بن وائل ، فوجدتهم حى صدق . وأما الذين قالوا إنه ليس من الموالى ، فنهم إسماعيل بن حماد بن أبى حنيفة ، فقد

قال : أنا اسماعيل بن حماد بن النعمان بن ثابت ، بن النعمان ، بن المَرْزُبان ، من أبناء فارس ، من الأحرار ، والله ما وقع علينا رق قط ! ومنهم صالح بن الحسن العابد الذى يقول : حسدت العرب أبا حنيفة لأنه لم يكن منهم ؛ وحسده الموالى لأنه لم يكن منهم . فقيل له : يا أبا الفضل ، ممن كان أبو حنيفة ؟ فقال : سأله رجل يوما فقال له : من أنت ؟ من ولدك ؟ فقال : أنا من أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، ممن منّ الله علىّ وعلى والدىّ بالاسلام ، أنت فى حل .

(٢) وعلى كل حال ، فالامام أبو حنيفة عربى المولد والنشأة والثقافة ؛ وإن كان جدوده من فارس ، ولا غضاضة فى ذلك ؛ فقد سوّى الإسلام بين الناس جميعا ، وأعلن أنه لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى ، فهى أعلى الأنساب ، وأقوى الأسباب ، فشرف العلم والتقوى فوق شرف النسب .

وكم للموالى ، وعلماء الفرس فى الإسلام من فضل ، وكم لهم من مآثر ، وكم خدموا الاسلام وعلومه ، قال عطاء : « دخلت على هشام بن عبد الملك بالرصافة فقال : يا عطاء ، هل لك علم بعلماء الأمصار ؟ قلت : بلى يا أمير المؤمنين ؛ فقال : فمن فقيه أهل المدينة ؟ قلت : نافع مولى ابن عمر . قال : فمن فقيه أهل مكة ؟ قلت : عطاء بن أبى رباح . قال : مولى أم عربى ؟ قلت : مولى . قال : فمن فقيه أهل اليمن ؟ قلت : طاوس بن كيسان . قال : مولى أم عربى ؟ قلت : مولى . قال : فمن فقيه أهل اليمامة ؟ قلت : يحيى بن أبى كثير . قال : مولى أم عربى ؟ قلت : مولى . قال : فمن فقيه أهل الشام ؟ قلت : مكحول . قال : مولى أم عربى ؟ قلت : مولى . قال : فمن فقيه أهل الجزيرة ؟ قلت : ميمون بن مهران . قال : مولى أم عربى ؟ قلت : مولى . قال : فمن فقيه أهل خراسان ؟ قلت : الضحاك بن مزاحم . قال : مولى أم عربى ؟ قلت : مولى . قال : فمن فقيه أهل البصرة ؟ قلت : الحسن البصرى وابن سيرين ؟ قال : موليان أم عربيان ؟ قلت : موليان . قال : فمن فقيه أهل الكوفة ؟ قلت : ابراهيم النخعى . قال : مولى أم عربى ؟ قلت : عربى . قال هشام : لولا قولك عربى ، لكادت نفسى تخرج » .

وعلى الجملة فحملة العلم فى الاسلام أكثرهم من الموالى والعجم ؛ وقد علل ذلك ابن خلدون فقال : « السبب فى ذلك : أن الملة فى أولها لم يكن فيها علم ولا صناعة لمقتضى أحوال السذاجة والبداوة ، وإنما أحكام الشريعة كان الرجال ينقلونها فى صدورهم ، وقد عرفوا مأخذها من الكتاب والسنة ، بما تلقوه من صاحب الشرع وأصحابه ، والقوم يومئذ لم يعرفوا أمر التعليم والتأليف والتدوين ؛ وجرى الأمر على ذلك زمن الصحابة والتابعين ؛ فلما بعد النقل احتيج الى وضع التفاسير القرآنية ، وتقييد الحديث ، ثم كثر استخراج أحكام الوقائع من الكتاب والسنة ، وصارت العلوم الشرعية كلها ملكات ، واحتاجت الى علوم أخرى هى قوانين العربية ، فصارت العلوم كلها علوما ذات ملكات محتاجة الى التعليم ، فاندرجت

فى جملة الصناعات ، وهى من منتحل الحضر ؛ والعرب أبعد الناس عنها ، فصارت العلوم لذلك حضرية ، وبعد عنها العرب ؛ والحضر لذلك العهد هم العجم ، أو من فى معناهم من الموالى ، وأهل الحواضر الذين هم تبع للعجم فى الحضارة وأحوالها من الصناعات والحرف ؛ لأنهم أقوم على ذلك للحضارة الراسخة فيهم منذ دولة الفرس ؛ فكان صاحب صناعة النحو سيبويه ، والفارسى من بعده ، والزجاج من بعدهما ؛ وكلهم عجم فى أنسابهم ، وإنما ربوا فى اللسان العربى ، فاكتسبوه بالمربى ومخالطة العرب ، وصيروه قوانين وفنا لمن بعدهم ؛ وكذلك حملة الحديث أكثرهم عجم أو مستعجمون باللغة والمربى ؛ وكان علماء الأصول كلهم عجما ؛ وكذا حملة علم الكلام وأكثر المفسرين ؛ ولم يقم بحفظ العلم وتدوينه إلا الأعاجم ؛ وظهر مصداق قول النبى صلى الله عليه وسلم : « لو تعلق العلم بأكناف السماء ، لناله قوم من أهل فارس » . ومن هذا يتبين أنه لا غضاضة مطلقا إذا كان الإمام الأعظم من الموالى ، أو فارسى الأصل ، بعد أن ظهر أنه لم يقم بتدوين العلم وحفظه إلا الموالى والأعاجم ، وبعد أن سوى الاسلام بين الناس جميعا ، وأعلن أنه لا فضل لمخلوق على مخلوق إلا بالتقوى والعمل الصالح ؟

السيد عفيفى

حكم متفرقة

قال أرسطو : العاقل يوافق العاقل ، والجاهل لا يوافق الجاهل ولا العاقل ؛ مَثَل ذلك : المستقيم الذى ينطبق على المستقيم ، فأما المعوج فانه لا ينطبق على المعوج ولا على المستقيم .

دخل خالد بن صفوان الخطيب المشهور الحمام ، فسمع رجلا يقول لابنه وهو يريد أن يعرِّف خالدا بلاغته : ابدأ بيداك وثنِّ برجلاك . ثم نظر الى خالد وقال له : يا ابن صفوان هذا زمان قد ذهب أهله . فقال له خالد : بل ما خلق الله له أهلا !

قال أبو الأسود الدؤلى : إن أردت أن تعذب عالما فاقرن به جاهلا .

وقال أفلاطون : ما ألمت نفسى إلا من ثلاث : من غنى افتقر ، وعزيز ذل ، وحكيم تلاعبت به الجهال .

وقال أرسطو : الجاهل عدو لنفسه فكيف يكون صديقا لغيره ؟

وأحسن ما قيل فى ذم الجهل :

وفى الجهل قبل الموت موت لأهله ... وأجسامهم قبل القبور قبور
وكل امرئ لم يحى بالعلم ميت ... وليس له حتى النشور نشور

الكلام والمتكلمون

— ٢ —

المعـــــتزلة

ظهورها ومنشأ تسميتها :

أخفتَ الاضطهاد صوت أنصار حرية الفرد زمنا ، فظلت البيئات العلمية تتناقل هـذا الرأى وتتجادل سرا ، حتى دخل يوما رجل على الحسن البصرى فقال : يا إمام الدين : لقد ظهرت فى زماننا جماعة يكفرون أصحاب الكبائر ، والكبيرة عندهم كفر يخرج به عن الملة ، وهم وعيدية الخوارج ؛ وجماعة يرجئون أصحاب الكبائر ، والكبيرة عندهم لا تضر مع الإيمان ، بل العمل — على مذهبهم — ليس ركنا من الإيمان ، ولا يضر مع الإيمان معصية كما لا ينفع مع الكفر طاعة ، وهم مرجئة الأمة ؛ فكيف تحكم لنا فى ذلك اعتقادا ؟ فتفكر الحسن فى ذلك وقبل أن يجيب قال واصل بن عطاء : أنا لا أقول : إن صاحب الكبيرة مؤمن مطلق ، ولا كافر مطلق ، بل هو فى منزلة بين المنزلتين ، لا مؤمن ولا كافر . ثم قام واعتزل الى أسطوانة من أسطوانات المسجد يقرر ما أجاب به على جماعة من أصحاب الحسن . فقال الحسن : اعتزل عنا واصل . فسمى هو وأصحابه معتزلة .

هذه هى الأقصوصة الشهيرة التى يرجع اليها مؤرخو الحركة العربية نشأة المعتزلة وتسميتها . وقد ردها الأستاذ هـ . س . « نينبرج » فى دائرة المعارف الاسلامية الفرنسية ، فصرح بأنه يستبعد أن يتباهى زعماء المعتزلة باسم وضعه لهم خصومهم ورموا به الى أن هؤلاء الزعماء قد حادوا بآرائهم عن الطريق السوى ، كما أعلن أهل الحديث هذه التسمية فيما بعد ليرفعوا من شأن الجماعة ويحطوا من شأن خصومهم . وعند هذا المستشرق أن منشأ هذه التسمية سياسى ، وأن واصلا ليس أول من سمى معتزلا كما تزعم الأقصوصة السابقة ، وإنما هذا الاسم يصعد فى تاريخ الاسلام الى سنة ٣٥ هـ حيث بدأت الفتنة السياسية ، وامتنع عدد من أكابر الصحابة عن مبايعة على ، وبايعه عدد عن طيب خاطر ، وعدد من وراء قلوبهم ، وظل كثير منهم على الحياد ، فتناقلت الألسنة أنهم اعتزلوا الخصومة القائمة ، ثم أخـذت هـذه الكلمة تتطور وتصطبغ شيئاً فشيئا بالصبغة السياسية ، الى أن كوّن سعد بن أبى وقاص ، وعبد الله بن عمر ، ومحمد بن مسلمة ، وأسامة بن زيد ، حزب المحايدين ، ورفضوا علنا مقاتلة علىّ كما رفضوا القتال فى صفه ، وإن كانوا قد أعلنوا أنهم معه بقلوبهم ، وأنهم يجلونه ويثقون فيه ، فأطلق عليهم اسم المعتزلة ، وكان ذلك أساساً لتسمية المعتزلة الذين أتوا بعد ذلك .

ويعلق ذلك الأستاذ المستشرق على هذا بقوله : وإذاً فمعتزلة السياسة قد سبقوا معتزلة التوحيد ، والأولى هى التى كونت الثانية ، لا سيما وأن مسألة المنزلة بين المنزلتين التى هى سبب الاعتزال النظرى لم تكن إلا مسألة سياسية تتعلق فى عمقها ببعض مشاهير الأشخاص الذين ساهموا فى القتال ، وليس أدل على ذلك من الأمكنة التى تشغلها شخصيات على وعائشة وطلحة والزبير بين محاورات واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد وغيرهما من زعماء المعتزلة . وفوق ذلك فان هؤلاء الزعماء السياسيين كانوا فى نظر أولئك العلماء المعتزلين مؤمنين أتقياء ، ولكن الحرب التى اشتعلت بينهم شطرتهم شطرين متعاديين ، أحدهما على حق ، والآخر على باطل ، لأن الحق لا يتعدد . وهذا يقتضى أن يكون أحد الفريقين آثما ، ولكننا لا نعرف أيهما الآثم ، فينبغى أن يترك أمره لمن يعلمه . أما نحن فواجبنا أن نقف على الحياد ، وأن نحكم بأن أحد الفريقين فاسق لا تقبل شهادته ، بل إن عمرو بن عبيد — فيما يرى أهل الحديث — كان أقسى على هذين الفريقين من واصل ، إذ صرح بأن كل من اشترك فى واقعة الجمل فاسق لأنه ارتكب كبيرة ، ولما كان قد تقرر أن منزلة مرتكب الكبيرة بين منزلتى الكافر والمؤمن ، فقد ظل كل هؤلاء المحاربين بين الكفر والإيمان . وبما أن هؤلاء المحاربين هم إما أسلاف العلويين أو أسلاف الأمويين ، فقد وجب أن يكون أخلافهم على باطل . ومن هذا يتضح أن نشأة الاعتزال النظرى كانت أول الأمر دعاية للعباسيين قبل استيلائهم على العرش ، ولهذا حينما ظهرت الدعوة العباسية كان أنصارها ينادون علنا بوجوب اعتناق آراء المعتزلة ، وأن هذه الآراء ظلت آراء البلاط العباسى زهاء قرن كامل .

وكما أرجع هذا المستشرق نشأة الاعتزال الى السياسة ، أرجع كذلك إليها نشأة الجبرية ، حيث رأى أن جهم بن صفوان الذى كان ينادى بالجبرية المطلقة ، كان من دعاة الأمويين ، دفعوه الى مخاصمة المعتزلة الذين كانوا يقولون بحرية الفرد التى كانت متناقضة مع عقيدة ملوك بنى أمية ، ومتلائمة مع أنصار الانقلاب المنتظر .

ونحن لا نستبعد أن يكون كل ذلك حقا ، لأن تعذيب معبد ثم قتله بأمر عبد الملك ابن مروان ، وصلب أبى مروان الدمشقى على باب دمشق بأمر هشام بن عبد الملك ، وضعف هذه الحركة فى عهد الأمويين ، وانتعاشها وتباهى أنصارها بها فى عصر العباسيين ، وكذلك صداقة أبى جعفر المنصور لعمرو بن عبيد وشهادته له بالسمو والنزاهة فى قوله : « كلكم يطلب صيد ، غير عمرو بن عبيد » . واحتضان المهدى والرشيد والمأمون لرؤساء المعتزلة فى عصورهم ، وإعلان المأمون فى غير مواربة أنه يدين بالآراء الاعتزالية ، وتعذيبه بعض الفقهاء وأهل السنة الذين لم يدينوا بآرائه . كل ذلك يدل فى وضوح على صحة ما ذهب إليه هذا المستشرق .

غير أن العباسيين لم يكادوا يستولون على العرش حتى التفتوا الى العلويين ليقضوا عليهم كما قضوا على الأمويين . وكانت هـذه الحركة أيضا فى حاجة الى دعاية ، فأوحوا الى رؤساء المعتزلة أن يخاصموا الشيعة ويشهروا بهم ، فأطاعهم أكثر معتزلة البصرة — وعلى رأسهم عمرو بن عبيد — من غير قيد ولا شرط ، وشذ عدد آخر عن هذا الأمر ، وأبى أن يكون لعبة فى أيدى السياسة ، فأعلن أنه لا يذم إلا المفرطين فى التشيع ، أما المعتدلون فهم على حق . فـكان ذلك أحد أسباب اختلافات المعتزلة وتفرقهم الى هذه الفرق التى سنشير إليها هنا .

فرقها المختلفة :

أوصل المؤرخون المعتزلة الى عشرين فرقة ، هى :

(١) الواصلية أصحاب واصل بن عطاء . (٢) العَمرية أصحاب عمرو بن عبيد . (٣) الهذيلية أصحاب أبى الهذيل العلاف . (٤) النظـامية أصحاب ابراهيم بن سيار النظـام . (٥) الأسوارية أتباع الأسوارى . (٦) الاسكافية أتباع أبى جعفر الاسكاف . (٧) الجعفرية أصحاب الجعفرين : ابن مبشر وابن حرب . (٨) البشرية أصحاب بشر بن المعتمر . (٩) المزدارية أتباع عيسى بن صبيح المزدار . (١٠) الهشامية أصحاب هشام بن عمرو الغوطى . (١١) الصالحية أصحاب الصالحى. (١٢) الحابطية أتباع أحمد بن حابط . (١٣) الحدبية هم أتباع فضل الحدبى . (١٤) المعمرية هم أصحاب معمر بن عباد السلمى . (١٥) الثمامية هم أصحاب ثمامة بن أشرس النميرى . (١٦) الخياطية أتباع أبى الحسين بن أبى عمرو الخياط . (١٧) الجاحظية هم أنصار عمرو بن بحر الجاحظ . (١٨) الـكعبية هم أتباع أبو القاسم بن محمد الـكعبى . (١٩) الجبائية هم أنصار أبى على الجبائى . (٢٠) البهشمية أنصار أبى هاشم (١) .

نبذة من تاريخ مدارسها :

لم يكد القرن الثالث يحل حتى كان المعتزلة قد كونوا مذاهب ذوات صبغات خاصة تمكنها من أن تجابه خصومها مجابهة الند للند ، وأسسوا لهم مدارس خصبة لم تلبث أن أزهرت وآتت ثمارها فى البصرة وبغداد والقاهرة وسوريا والأندلس ، وكان من الطبيعى أن تنتج من هذه الحركة القوية مجادلات واختلافات ، وأن تتفرع من كل مدرسة فروع متباينة فى آرائها العلمية ونزعاتها السياسية . وهذا هو الذى حدث بالفعل .

ففى البصرة مثلا : أنشأ يوسف بن عبد الله الشحام ، وأبو على الأسوارى وآخرون ، دعاية كبرى لمذهب أبى الهذيل، كما قام عباد بن سليمان بمناصرة مذهب الغوطى ، وإبراهيم بن إسماعيل

(١) انظر صفحة ٥١٤ وما بعدها من المواقف للايجى ، وصفحة ٤٨ وما بعدها من الجزء الأول من كتاب الشهرستانى ، وصفحة ٤٠ وما بعدها من كتاب اعتقادات فرق المسلمين والمشركين للامام فخر الدين الرازى .

المعروف بابن علية بمناصرة مذهب الأصم . ثم انفرد النظام من بين تلاميذ أبي الهذيل فأسس مذهبه الخاص الذي كان من دعاته فيما بعد : عمرو بن بحر الجاحظ . وفى النصف الأخير من القرن الثالث كان أبرز معتزلى البصرة الجبائى الذى أثرت مدرسته فى كثير من شباب عصره ، ولكن لم يكد القرن الرابع يبتدئ حتى تفوقت عليها مدرسة ابنه أبى هاشم الذى كان من تلاميذه أبو عبد الله الحسين بن على البصرى المتوفى فى سنة ٣٦٩ هـ — سنة ٩٧٩ م ، وأبو الحسين الأزرق التنوخى المتوفى فى سنة ٣٧٧ هـ — سنة ٩٨٧ م ، وأبو إسحاق ابراهيم بن عياش البصرى وتلميذه القاضى عبد الجبار بن أحمد الهمذانى الذى ارتحل فى سنة ٣٦٠ هـ الى الرى وأسس فيها مدرسة هامة ، ثم توفى فى سنة ٤١٥ هـ — سنة ١٠٢٤ م

وفى بغداد أسس بشر بن المعتمر المتوفى فى سنة ٢١٠ هـ — سنة ٨٢٥ م أول مدرسة اعتزالية فى تلك الحاضرة . وقد خالف مبادئ العباسيين وتشيع لعلى ، فاضطهده هارون الرشيد ، ولكن المأمون الذى كان يقول بتفضيل علىّ على أبى بكر قد منح هذه المدرسة حمايَتَه ومساعدته ، فتقوت وكثر أنصارها الأذكياء الذين نخص منهم بالذكر ثمامة بن أشرس المتوفى فى سنة ٢١٠ هـ — سنة ٨٢٥ م ، وقد تفرعت من هذه المدرسة فروع أخرى اتفقت فى بعض المبادئ واختلفت فى البعض الآخر . ومما اتفقت فيه القول بخلق القرآن ، والحملة العنيفة على خصوم ذلك الرأى . وهذا هو أحد أسباب حماية المأمون لهذه المدرسة بفروعها المختلفة ، لأنه كان من أنصار القول بخلق القرآن . غير أن هذا الرأى كان شؤما على أصحابه ، إذ أن المتوكل الذى لم يكن يدين به هجرهم بين أيدى خصوم قساة حملوا عليهم وشهروا بهم ، كابن الراوندى الذى ترك الاعتزال فى النصف الأخير من القرن الثالث والتحق بالرافضية المغالية ، وكتب ضد المعتزلة نقدا عنيفا عزا إليهم فيه آراء لم تدر لهم بخلد ، فبرهن بذلك على بعده عن النزاهة والإنصاف .

ومن المدارس الاعتزالية التى نشأت فى بغداد مدرسة عيسى بن صبيح المزدار ، وكان معاصرا لبشر بن المعتمر ، ومدرسة الجعفرين : جعفر بن بشر المتوفى فى سنة ٣٢٤ هـ — سنة ٨٤٨ م ، وجعفر بن حرب المتوفى فى سنة ٢٣٦ هـ — سنة ٨٥٠ م ، ومدرسة محمد بن شداد المسمعى زرقان المتوفى فى سنة ٢٧٨ هـ — سنة ٨٩١ م ، ومدرسة أبى الحسين عبد الرحيم ابن محمد الخياط المتوفى فى نهاية القرن الثالث ، والذى كان فيما يظهر أعلم أهل عصره بتاريخ المعتزلة ، كما يشهد بذلك كتاب « الانتصار » ، ومدرسة أبى بكر أحمد بن على الأخشيد المتوفى فى سنة ٣٢٠ هـ — سنة ٩٣٢ م ، ومدرسة أبى القاسم عبد الله بن أحمد البلخى الكعبى تلميذ الخياط الذى بدأ مذهبه فى بغداد ثم ارتحل الى نسف فأسس فيها مدرسته الخاصة ، وتوفى بها فى سنة ٣١٩ هـ — سنة ٩٣١ م .

« يتبع »

الدكتور محمد غلاب
أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

البناء الاساسى للاسلام

بقلم Edwin E. Calverley

نقلا عن المجلة الملوكية لآسيا الوسطى

تستعمل لفظة (إسلام) ومشتقتها (مسلم) فى أربعة معان مختلفة ، لكل منها مدلولها التاريخى. وقد راج استعمال هذه المعانى الأربعة فى الكتب الانجليزية ، وإن كانت لم تدخل بعد فى قواميس هذه اللغة .

ففى الناحية الأولى : يستعمل اللفظان بمعنى دينى عام للدلالة على الخضوع والتسليم لله ، وهذا المعنى راعاه كل من المستشرقين (Sale) و (Roawill) و (Palmer) فى ترجمة القرآن .

ولقد لُفِت النظر بحق الى هذا الإطلاق العام ، ولكن ليس صحيحا أن القرآن لا يحتوى على نص طائفى .

ومن الناحية الثانية . يستعمل اللفظان فى القرآن بمعنى شامل للدلالة على الدين الواحد الحق الذى أوحى به الله الى الشعوب المختلفة فى العصور المتباينة ، عن طريق رسله وأنبيائه المتعاقبين .

وعلى هذا التفسير يمكن اعتبار اليهود والصابئين والنصارى الخ مسلمين ، وديانتهم الاسلام . ويعتبر هذا تفسيرا شاملا . وقد ذاع بين جماعات من المصلحين الحديثين فى تركيا والهند وغيرهما من الذين يريدون أن يعتبروا أنفسهم مسلمين من حيث الديانة ، ولكنهم يرفضون التسليم بالقوانين واللوائح التى يرجع إليها أتباع النبى فى شئونهم الدنيوية .

وفى الناحية الثالثة : يطلق لفظ (إسلام) على القيام بالواجبات الدينية المطلوب من المسلمين قاطبة « تأديتها » . وعلى هذا الاعتبار يكون لفظ (إسلام) مرادفا للعبادات (الخمس) ، ومرتبطا أولاً (بالإيمان) بقواعده الستة المطلوب من كل مسلم التصديق بها ، وثانيا (بالإحسان) الذى يحض على عمل الخير المفروض على كل مسلم مراعاته .

وفى الناحية الرابعة : يطلق لفظ (إسلام) على ذلك النظام الدينى بحذافيره الذى أسسه محمد ، والعمل على مقتضاه .

وعلى هذا يكون الاسلام مرادفا للفظ (مسلمين) ، ويصبح له معنى طائفى لا شك فيه .

وقد حصرنا بحثنا فى هذا المقال على الاسلام بمعناه الرابع (الأخير) إذ هو الشائع والمقصود عادة من هذا الاصطلاح ، لأننا إذا ذُكر الاسلام تتذكر الديانات العالمية الأخرى كالنصرانية والبوذية والهندوسية وما أشبهها .

ولكننا إذا وضعنا الديانة الاسلامية ضمن الديانات العالمية الأخرى ، وجب أن لا يفوتنا أن نعلم أن الاسلام كدين عالمى ، ينطوى على معان أكثر مما تظن الشعوب الغربية الحديثة عندما يستعملون كلمة الدين .

فللعالم الحديث طابعان خاصان يتميز أحدهما عن الآخر : أحدهما يقسم الحياة الى قسمين : دينى ودنيوى . والثانى يقصر السلطة الدينية على التأثير النفسانى . لهذا ننظر نحن الى الدين كناحية من نواحى الحياة الأخرى ، مثله كمثل الناحية أو المصلحة الدنيوية التى تتفرع منها بالتالى نواح متعددة : سياسية ، واجتماعية ، وثقافية ، واقتصادية .

أما الإسلام فليس هو مجرد ناحية من نواحى الحياة كما يفهمه الغربيون ، ولكنه نظام شامل لمصالح الحياة كافة . وهو من هذه الناحية شأنه شأن الأديان الأخرى فى البلاد الشرقية ؛ فهو يدبر اتجاهات وأعمال أتباعه ، ولذلك لم يخطئ الذين وصفوا الاسلام بأنه (الجامع) . وطبقا لهذا الوصف يمكن تعريف الاسلام بأنه عبارة عن نظام الحياة كما وضعه محمد ، لأن محمدا مع علاقته بالله — جعل للدين السيطرة الكاملة على كل مصالحه الشخصية ، سواء أكانت دينية أم خاصة أم عامة .

فأول ما تلقاه من الوحى جعله رسولا ونبيا وداعيا من الله الى عباده ، لا يشاركه أحد فى قياد زمام الناس وتعليمهم وإرشادهم الى ما فيه صلاح شئونهم الدينية والدنيوية . وقد غيّر قبلة الصلاة طبقا للوحى ، فحوّلها من بيت المقدس الى مكة . وكثيراً ما كان يتلمس الوحى والإلهام فى إدارة شئونه المنزلية الداخلية المحضة ، وقد نزلت الآيات تحض المسلمين على إطاعة الله والرسول ليوطد بها علاقاته العامة والسياسية .

ولقد آمن الكثيرون بمحمد فأصبحوا (محمديين) أو مسلمين ، وشايعه تلاميذه وأصحابه ومن قلدهم وتابعهم فى كل ناحية من النواحى الاجتماعية والسياسية ، وتمسكوا بعبادته وقلدوه فى كل أعماله ، وكان تقليدهم له مبنيا على القرآن ، وتوسع فيه الحديث . ومع ذلك فما كان لهم أن يقلدوه فى كل شىء . ونكتفى هنا بالإشارة الى مثل واحد (وسيأتى غيره فى سياق الكلام فى هذه الرسالة) : ذلك أن الدين قد أباح للرجل الاقتران فى وقت واحد بعدد من الزوجات جعل حده الأقصى أربعا . غير أن الحد الأقصى للنبى غير ذلك . وعلى كل حال فقد كان أصحابه يطيعونه فى كل ما يأمرهم به . فقد أسس جماعة جديدة ، وأصبح هو القائد والمدبر لمن أسلم ، يرشدهم ويسوسهم فى أمورهم المنزلية والاجتماعية والمدنية والدينية ، يؤيده الله فى قيادته ونبوته ؟

محمود شاهين

(مجلة الأزهر) :

أتينا على ما كتبه المستر إدوين ا . كلا فيرلى فى معنى الاسلام ، وقد عربه حضرة صاحب العزة محمود شاهين بك ، وسنأتى على بقية ما كتبه فى بنائه السياسى والاجتماعى والدينى فى الأعداد المقبلة مع التعقيب عليها ، إن شاء الله ، كما نفعل فى هذا الفصل اليوم .

لا بأس بالتقسيم الذى ذكره المستر إدوين فى نواحى الاسلام ، ولكنه فى الناحية الثانية من معانى الاسلام ، وهى « دلالته على أنه الدين الواحد الحق الذى أوحى الله به الى الشعوب المختلفة فى العصور المتباينة » ، لم يأت الكاتب فيها بالبيان الذى يقتضيه هذا المقام ، وهو أخص مدلولات الاسلام ، وأولاها بالنظر والاعتبار ، لأنها هى وحدها التى جعلت منه دينا عاما للبشرية بأسرها ، وهى التى كانت سببا فى قوة سريانه فى النفوس ، وسلطانه على العقول ، ولا تزال ذات التأثير الكبير فى لفت الأنظار اليه ، وجمع القلوب عليه .

ألا ترى أنه يوجد فرق عظيم بين أن يحسب الناس الاسلام واحدا من الأديان السماوية يدعو الى المعروف وينهى عن المنكر ، مشاركا فى هذه الخصائص جميع الأديان ، وبين أن يعتبروه دين الله الأقدم الذى أرسل به جميع رسله فى خلال العصور ، ثم أعاد إنزاله على خاتم رسله محمد صلى الله عليه وسلم فى الزمان الأخير ، ليخلص الناس مما وقعوا فيه من الضلال فى العقائد ، والشطط فى الشرائع ، وما بلوا به من شرور التشبيه والتعديد فى ذات الخالق ، ببعضها ، ومن الخلط والخبط فى القواعد ، ومن طغيان التأويلات والشروح على الحقائق ؟

فبالاعتبار الأول لا يكون للاسلام ميزة على الأديان ، ولا لإنزاله من موجب فى نظر الانسان . ولكنه بالاعتبار الثانى تكون له مهمة عالمية عالية ، وهى إعادة الوحى الإلهى الأول الى صورته الصحيحة ، خالصا من كل ما ألحق به من الأوهام البشرية ، والآراء الخيالية ، ليلجأ اليه من حار بين المتناقضات المذهبية ، فلم يهتد الى الصواب منها ، ومن أمضته الخزعبلات الاعتقادية فلم يثلج صدره على كونها إلهية ، فبقى مترددا بين أن يكفر بها جملة ، وبين أن يؤمن ببعضها تاركا ما يترجح عنده أنه من الموضوعات البشرية .

فالاسلام بهذا الاعتبار يعد إصلاحا عاما للأديان ، وموحدا لها ، ليصبح للانسانية دين واحد يسيغه عقلها ، والمسلمات المنطقية لا تتعدد لدى جميع أفرادها .

والذى يقرره الاسلام فى هذا الأمر الجلل : هو أن الدين عند الله الاسلام ، أى الاستسلام لإرادة الله ، والتخلى عن جميع الأهواء والأوهام ، واتباع ما يأمر به الله ، وهو لا يأمر إلا بما يسيغه العقل ، وتستقيم عليه الحياة ، ويصلح به أمر الاجتماع ، ويمكن الاستدلال على صحته بكل ذرائع الاستدلال ، قال تعالى : « إن الدين عند الله الإسلام ، وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ، ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب .

فإن حاجوك (أى جادلوك) فقل أسلمت وجهيَ لله ومن اتبعن ، وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين (يريد بالأميين العرب) أأسلمتم ؟ فإن أسلموا فقد اهتدوا ، وإن تولوا فإنما عليك البلاغ ، والله بصير بالعباد » .

ثم بيَّن الله أن هذا الدين هو دين الله الأقوم ، وهو العروة الوثقى الذى تجتمع عليه الانسانية فى وحدة لا انفصام لها ، وأنه لامعدى عنه للعالمين أجمع ، قال تعالى مستنكراً فعل من يحاول أن يتخذ غيره دينا له : « أفغيرَ دين الله يَبغُون وله أسلمَ مَن فى السموات والأرض طوعا وكرها وإليه يرجعون ؟ قل آمنا بالله وما أنزل علينا ، وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط ، وما أوتى موسى وعيسى والنبيون من ربهم ، لا نفرق بين أحد منهم ، ونحن له مسلمون » .

ثم ذكر الكتاب أن من الناس من يحاول فصم عرى الانسانية فيؤمن ببعض المرسلين ويكفر ببعض ، تعصبا لقومية ، أو مشايعة لنزعة مذهبية ، منبها أن هؤلاء يعتبرون كافرين حقا ، فقال تعالى : « إن الذين يكفرون بالله ورسله ، ويريدون أن يفرّقوا بين الله ورسله ، ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ، ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا ، أولئك هم الكافرون حقا ، وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا » .

من هنا يتبين كل قارئ أن دين الله من حيث هو واحد لا يتعدد ، وأن رسله يعتبرون رسلا للعالم كافة لا لأمة دون أخرى . فيجب الايمان بهم جميعا لتتحقق الوحدة الدينية للانسانية بأسرها . وتجلية هذه الحقيقة حق تجليتها يضع الاسلام فى الموضع الذى أراده الحق له ، ويرفعه الى المكانة التى هى مكانته ، ويدفع بالأمم الى تبين حقيقته ، وتَعَرُّف صحة طريقته ، وليس ذيوعه فى العالم كافة بحاجة الى أكثر من هذا ؛ فان الناظر فيه لن يفوته أحد أمرين : وهما إما أن يجد فيه مثله الأعلى فيدخل فيه ، وإما أن يعتقد اعتقادا جازما بأن المستقبل كله له ، وأنه سيرث الأديان جميعا فلا يوجد فى الأرض دين غيره ، وهو إن لم يبلغ هذا الشأو بعد ، فسيبلغه يوم تخلص البشرية من أوهامها ، وتتجرد من موروثاتها ، وليس هذا اليوم ببعيد ، فان العلوم الكونية تقوم بهذه المهمة التطهيرية منذ ثلاثة قرون .

فاذا فات المستر إدوين لفت النظر الى هذه الحقيقة بعد بيانها على الوجه الذى تقدم ، فقد قمنا به ، وله الشكر على أن أتاح لنا هذه الفرصة .

محمد فريد وجدى

الشعوبية وأثرها فى الادب العربى

— ٦ —

سواء أكانت تلك المناظرة التى جرت بين النعمان بن المنذر وبين كسرى ، وما استتبعها من بعث وفد من وجوه العرب ليقوم بمهمة الإعلان عنهم ، كما رأيت فى المقالين السابقين ، ممعنة فى الصحة أم مسرفة فى البطلان ، فانها تدل فى صراحة ومن غير التواء على أن التعصب للجنس طبيعة لا تحول ولا تزول . ذاك لأن المخترع لهذا ولأمثاله يلزم نفسه خطة المحاكاة الدقيقة التى تنم عن روح العصر الذى يحاكيه ، وتتحدث عنه كأنها وقعت فيه ؛ وعلى غرار هذا نهج رواة الشعر الذين اشتهر عنهم أنهم يقرضون القصيد المعجب الرائق ، وينحلونه أعلام الشعر الذين طبقت شهرتهم الآفاق ، لإشباع نهم خاص فى مشاربهم ، وإرضاء نزعة معلومة فى نفوسهم ! !

ولما كانت روح الاسلام قوية غلابة فى عصره الأول ، لم يظهر تعصب من الجانبين فى الصورة الشائنة التى ظهر بها فيما بعد .

ومما يدل على أن العاطفة الجنسية ، وإن كانت كبتتها أصول الاسلام العالمية ، بقيت فى أعماق النفوس حية لم تمت ، ما رواه بعض المؤرخين من أن طائفة من أصحاب علىّ مشوا اليه فقالوا : يا أمير المؤمنين : أعط هذه الأموال ، وفضّل هؤلاء الأشراف من العرب وقريش على الموالى والعجم ، واستمل من تخاف خلافه من الناس ؛ فقال لهم : أتأمرونى أن أطلب النصر بالجور ؟ !

فذلك يدل فى غير مواربة على أن قادة الرأى فى عصر الاسلام الأول ، أخذوا بهذا الأصل القيم ، وجروا عليه ، فضربوا بذلك مثلا أعلى بقى الى اليوم علما على سمو الاسلام وصلاحيته لأن يكون دينا لجميع البشر .

فلما كان الحكم الأموى ، وأصاب النفوس بعض الوهن فى الدين ، رفع العرب عقيرة العصبية ، وجأروا بصوتها ، ونادوا بامتيازهم على جميع الأمم .

والى القارئ الكريم بعض الشواهد التى تؤازر ما نقول وتوضحه :

نزل جرير بقوم من بنى العنبر، فلم يضيفوه حتى اشترى منهم القرى ، فانصرف وهو يقول :

يا مالك بن طريف إن بيعكم ... رِفد القِرى مفسد للدين والحسب
قالوا : نبيعُكه بيعا فقلت لهم : ... بيعوا الموالى واستحيوا من العرب

ففرق فى المعاملة بين العرب والموالى ، وقد حرم الاسلام هذه التفرقة .

وروى أبو الفرج فى أغانيه قال : إن رجلا من الموالى خطب بنتا من أعراب بنى سليم وتزوجها ، فركب محمد بن بشير الخارجى الى المدينة ، وواليها يومئذ ابراهيم بن هشام

ابن إسماعيل ، فشكا اليه ، فأرسل الوالى الى المولى ، ففرق بينه وبين زوجته ، وضربه مائتى سوط ، وحلق لحيته ورأسه وحاجبيه ؛ فقال محمد بن بشير فى ذلك :

قضيت بسنة وحكمت عدلا ولم ترث الحكومة من بعيد

ومنها :

وفى المائتين للمولى نكال وفى سلب الحواجب والخدود
إذا كافأتهم ببنات كسرى فهل يجد الموالى من مزيد
فأى الحق أنصف للموالى من اصهار العبيد الى العبيد ؟

وهذا كما لا يخفى بعيد عن روح الاسلام ، ومخالف للتجديد الخطير الذى أتى به .

وذهب أعرابى الى سوّار القاضى فقال : إن أبى مات وتركنى وأخاً لى ـ وخط خطين ناحية ـ ثم قال : وهجينا لنا (١) ـ وخط خطا آخر ناحيـة ـ ثم قال : كيف ينقسم المال بيننا ؟ فقال : المال بينكم أثلاثا ؛ فقال له الأعرابى : لا أحسبك فهمت ! إنه تركنى وأخى وهجينا لنا ؛ فقال سوار : المال بينكم سواء ، فقال الأعرابى : أيأخذ الهجين كما آخذ ويأخذ أخى ؟ قال : أجل ؛ فغضب الأعرابى وقال : تعلّم والله إنك قليل الخالات بالدهناء ! !

وأنت ترى أن القاضى حكم عدلا على مذهب الاسلام ، ولكن الأعرابى لم يرضه ذلك .

وقال نصر بن سيار يخاطب النزارية واليمانية ، ويحذرهم هذا العدو الداخل عليهم من الأجناس الأخرى :

أبلغ ربيعة فى مَرْوٍ وإخوتهم فليغضبوا قبل ألا ينفع الغضب
ولينصبوا الحرب إن القوم قد نصبوا حربا ، يحرّق فى حافاتها الحطب
ما بالكم تلقحون الحرب بينكم كأنّ أهل الحجا عن رأيكم عُزُب
وتتركون عدوا قد أظلكُمُ مما تأشب ، لا دين ولا حسب
قِدْماً يدينون دينا ما سمعت به عن الرسول ، ولم تنزل به الكتب
فمن يكن سائلا عن أصل دينهمو فان دينهمو أن تقتل العرب

وما كان للأعاجم أن يغمضوا أعينهم عن هـذه الصورة التى ظهر بها العرب إبان حكم بنى أمية ، بل نافخوا — وبخاصة الفرس منهم — عن جنسهم ، ونخروا بسالف مجدهم وسابق عزهم ، وتغنوا بحضارتهم التى شغلت سمع التاريخ وبصره أمدا غير قصير ؛

فهذا هو إسماعيل بن يسار الشاعر الشعوبى يفخر على العرب بملء شدقيه إذ يقول :

رُبَّ خال متوَّجٍ لى وعم ماجد مجتدًى كريم النِّصابِ

(١) الهجين : من كان أبوه عربيا وأمه أمة .

إنما سمى الفوارس بالفر س مضاةَ رفعة الأنساب
فاتركى الفخر يا أُمامُ علينا واتركى الجور وانطقى بالصواب
واسألى — إن جهلت — عنا وعنكم كيف كنا فى سالف الأحقاب
إذ نربِّى بناتنا وتدسُّو ن سِفاهاً بناتكم فى التراب

ودخل يوما على هشام بن عبد الملك فى خلافته ، فأنشده قصيدة يقول فيها :

إنى وجدِّك ما عودى بذى خور عند الحفاظ ولا حوضى بمهدوم
أصلى كريم ومجدى لا يقاس به ولى لسان كحد السيف مسموم
أحمى به مجد أقوام ذوى حسب من كل قرْم بتاج الملك معموم
جحاجحٍ سادةٍ بُلجٍ مرازبة جرد عتاق مساميح مطاعيم
مَنْ مثل كسرى وسابور الجنودِ معا والهُرْمُزَان لفخر أو لتعظيم ؟
أسد الكتائب يوم الروع إن زحفوا وهم أذلوا ملوك الترك والروم
يمشون فى حلق الماذِىّ سابغة مشى الضراغمة الأسد اللهاميم
هناكِ إن تسألى تنبَىْ بأن لنا جرثومة قهرت عز الجراثيم

فغضب هشام وقال : أعلىَّ تفتخر ! وإياى تنشد قصيدة تمدح بها نفسك وأعلاج قومك ! ! غطّوه فى الماء ؛ فغطوه فى البركة حتى كادت نفسه تخرج ، ثم أمر باخراجه وهو يشر ، ونفاه من وقته الى الحجاز .

وما لبث هذا الصوت الخافت الضعيف الذى سمعناه وسمعته من إسماعيل بن يسار فى العصر الاموى ، أن انقلب الى صوت جهورى دوى فى أنحاء البلاد الاسلامية فى أواخر أيام الدولة الأموية ، ولولا أن الله حفظ الاسلام بالسمو الذى أودعه أصوله ، والحق الذى ضمنه تعاليمه ، لتخاذلت الأجناس التى كان يتألف منهم المسلمون ثم تناحرت ، ولكن هذه الفتنة لم تلبث أن تلاشت ، وعاش جميع المسلمين مدى تاريخهم كله على اختلاف أجناسهم متآخين متحابين حتى حقق الله بهم وعده ، وهم اليوم على أكمل ما يكونون ألفة ؟

أحمد ابراهيم موسى البارودى
تخصص البلاغة والأدب

نية القتل

فى الشريعة الاسلامية والقوانين الوضعية

ما زال كثير من خاصة الناس يجهلون التشريع الاسلامى ونظره للحوادث وحكمه فيها ، وما زال فريق آخر ينظر الى أحكام هذا التشريع الجليل نظرة خاطئة فينكب عنه ولا يلتفت اليه كلما أعوزه البحث والتفكير لمعرفة وجه الحق فى قضية من القضايا .

وكان من الخير والعدل أن اتجهت الأنظار أخيرا الى هـذا التشريع ، وطلب من رجاله الأجلاء أن يمثلوه فى المؤتمر الدولى الذى عقـد بمدينة لاهاى فى العام المنصرم ، إذ ما كاد المؤتمرون يصغون لرسالة الأزهر الشريف حتى أجمعوا على أن مبادئ الشريعة الاسلامية منبع فياض ، ومنهل عذب للقضاء والتشريع .

ولما كنت ممن تفقهوا فى الأزهر ، ودرسوا القوانين الحديثة فى غيره ، رأيت واجبا علىّ أن أتقـدم الى قراء مجـلة الأزهر الغراء بين آونة وأخرى بأبحاث فقهية أقارن فيها بين حكم الشريعة الاسـلامية وحكم القوانين الوضعية فى مسائل معينة ، مشيرا الى ما قد يكون من اختلاف فى وجهة النظر ، والى ما يظهر لى رجحانه جهد استطاعتى ، آملا أن يكون التوفيق رائدى فى هذه الأبحاث ، وأن يجد فيها من يعنيهم ذلك ما تطمئن له النفس ، ويرتاح له الفكر ، ويستقيم معه المنطق .

وسأبحث اليوم فى أم الجرائم التى تقع من الانسان على أخيه الانسان ، وهى جريمة القتل ، وأبين مكان النية منها فى القوانين الجنائية الحديثة ، وفى الشريعة الاسلامية ، وما يترتب على معاصرتها لفعل القتل أو عـدم معاصرتها له من اختـلاف فى الحـكم ، وكيف يستدل علماء الشريعة وعلماء القانون على وجود هذه النية وعدم وجودها :

قانون العقوبات المصرى — وهو على غرار القانون الفرنسى — ينص على أن : من قتل نفسا عمدا مع سبق الإصرار على ذلك أو الترصد ، يعاقب بالإعدام (م ١٩٤ ع) ، ومن قتل نفسا عمدا من غير سبق إصرار ولا ترصد ، يعاقب بالأشغال الشاقة ... (م ١٩٨ ع) ، ومن قتل نفسا خطأ بغير قصد ولا تعمد يعاقب بالحبس ... (م ٢٠٢ ع) .

وأحـكام الشريعة الاسلامية تنظر الى القتـل فى ذاته وتقسمه الى أنواع ثلاثة فتقول : القتل إما عمد ، بأن يعمد الى ضرب المجنى عليه بما يقتل غالبا ، وجزاؤه القصاص ؛ وإما شبه عمد ، بأن يعمد الى ضربه بما لا يقتل غالبا ، وجزاؤه دية مغلظة ، وزاد عليها أبو حنيفة

الكفارة ؛ وإما خطأ ، بأن لا يقصد الجناية أصلا أو يقصد زيدا فيصيب عمرا ، وجزاؤه دية مخففة ، وزاد عليها أبو حنيفة أيضا الكفارة .

ونظرة سريعة فى هذه النصوص تدل على أن القوانين الجنائية الحديثة تقسم هذه الجريمة الى فرعين أساسيين ، وهما : القتل عمدا ، وعقوبته الأشغال الشاقة ؛ والقتل خطأ ، وعقوبته الحبس ؛ وأن القتل العمد قد يقترن بما يسمونه ظرفا مشددا كسبق الإصرار على ارتكابه ، فتتغير العقوبة الى الإعدام ، بينما نرى أحكام الفقه الاسلامى تنوع هذه الجريمة الى ثلاثة أنواع كما تقدم .

والتوجيه العقلى لتنويع القتل الى أنواعه الثلاثة فى الفقه الاسلامى ، هو أن الجانى إما أن يقصد ضرب المجنى عليه بالذات أو لا يقصده ، ففى الحالة الأولى لا يخلو الأمر من أن يكون الجانى قد قصد ضربه بما يقتل غالبا فقتله ، وحينئذ فالجريمة هى القتل العمد ، أو يكون قد قصد ضربه بما لا يقتل غالبا ولكنه قتله أيضا ، وحينئذ فالجريمة هى القتل شبه العمد ؛ وفى الحالة الثانية ، وهى ما إذا لم يقصد الجانى ذات المجنى عليه بأن لم يقصد الجريمة أصلا أو قصد زيدا فأصاب عمرا ، تكون الجريمة هى القتل خطأ .

أما علماء القانون فانهم يعتمدون فى تقسيمهم على النية ، أى قصد ارتكاب الجريمة فقط ، فتى وجد كان القتل عمدا وإلا كان خطأ . والمراد عندهم قصد القتل لا قصد الضرب ، خلافا لما ورد فى النصوص الشرعية التى تتحقق العمدية فيها بقصد الضرب بما يقتل وإن لم يكن القتل مقصودا .

ونظرة فاحصة فى التشريعين ترشد الى أن القتل فى كل منهما نوعان : عمد ، وخطأ . غاية الأمر أن الشريعة الاسلامية اعتبرت من يقصد هذه الجريمة ويستعمل لتنفيذها آلة قاتلة أشد خطرا من غيره ، فشددت عليه العقاب ؛ ويكون استعمال الآلة القاتلة ظرفا مشددا فى الشريعة الاسلامية يؤدى الى وجوب القود ، كظرف سبق الإصرار أو الترصد الذى اعتبره القانون ظرفا مشددا ، ورتب على تحققه عقوبة الإعدام .

لكن هناك أمرا تنبغى الاشارة اليه : ذلك أن العمدية تتحقق فى نظر الشريعة الاسلامية بوجود قصد الضرب بما يقتل وإن لم يكن القتل مقصودا ؛ أما النصوص القانونية فتشترط قصد القتل .

وقد يفهم من ذلك أن فى أحكام الشريعة قسوة ليست فى أحكام القانون ، لكن هذا مردود بأن المشرعين العصريين فى أرقى الأمم حضارة ومدنية يذهبون الى ما يماثل نظر المشرع الاسلامى فى أحوال كثيرة . من ذلك أن قانون العقوبات الانجليزى يقضى بعقوبة القتل العمد على من قصد قتل آخر فضربه بعصا خفيفة ثم مات المجنى عليه ولم يكن موته نتيجة مباشرة

لهذا الضرب الخفيف بل كان بسبب مرض باطنى مثلا حركه هذا الضرب . وهذه الحالة بالذات يعتبرها الشرع الاسلامى قتلا شبه عمد لا قصاص فيه .

وأكثر من هذا دلالة على رجوع متشرعى الأمم المتحضرة الى وجهة النظر الاسلامية ، أن علماء الانجليز وغيرهم يذهبون الى قيام القصد الاحتمالى مقام القصد الثابت فى جريمة القتل ، ويحكمون بعقوبة القتل العمد فيما لو ضرب إنسان آخر بزجاجة فى رأسه قاصدا الضرب فقط ، دون إحداث الموت ، ولكنه يقدر أن حدوث الموت ممكن ؛ فى هذا المثل يرى أن الجانى لم يقصد القتل وإنما قصد الضرب ، ولم يبال بما عساه أن يحدث . وهو ضرب فى مقتل من شأنه إحداث الموت أى بما يقتل غالبا ، يعنى أن جميع العناصر اللازمة لاعتبار الحادثة قتلا عمدا فى نظر المشرع الاسلامى ثابتة ، فهو قتل عمد فى نظره ، وهو أيضا قتل عمد فى نظر المشرع الحديث .

عرفنا مما سبق أن النية ركن للعمدية فى الشرع الاسلامى والقوانين الوضعية ، وأن المقصود منها فى الأول نية الضرب ، وفى الثانية نية القتل ، وأن أحدث التشاريع يكتفى بنية الاعتداء دون أن يكون القتل مقصودا ، لاعتبار الجريمة عمدية ؛ وضربنا لذلك بعض الأمثال ، فلم يبق إلا أن نعرف متى تعتبر النية حاصلة ، وكيف يستدل على وجودها أو عدمه .

هذه النية التى هى من مقومات القتل العمد يستدل عليها الشرعيون بالآلة التى تستعمل لارتكاب الجريمة ، فتى كانت مما يقتل غالبا أى من شأنه إحداث الموت ، اعتبر القتل عمدا وإلا فلا . ويقولون فى توجيه ذلك : إن النية هى القصد ، ولا سبيل للوقوف عليه إلا بدليله ؛ ودليله استعمال القاتل آلة قاتلة ، فأقيم الدليل وهو آلة القتل مقام المدلول وهو القصد ، وذلك لأن الدلائل تقوم مقام مدلولاتها فى المعارف الظنية الشرعية . ومعنى هذا أنه يجب على القاضى تطبيق عقوبة الجريمة العمدية حتى لو أنكر الجانى التعمد ، أو لم يذكر شهودا لإثبات أنه كان متعمدا . وإذا كان علماء الشريعة يستدلون على وجود النية بالآلة التى استعملت وقت ارتكاب الجريمة ، فلا معنى للبحث عندهم فى معاصرة النية أو عدم معاصرتها للفعل ، لأن المعاصرة من لوازم ذلك .

أما علماء القانون فانهم يستدلون على وجود نية القتل بكافة الطرق حتى القرائن البسيطة ، ويشترطون معاصرتها للفعل المادى وهو القتل ؛ ولكنهم يجيزون إثبات عكس هذه القرائن بكافة الطرق أيضا . وعلى هذا فالجانى الذى يمكنه إثبات أنه لم يقصد القتل مع أنه استعمل سلاحا فاتكاً ، لا يعتبر قاتلا عمدا ، ولا تطبق عليه عقوبة هذه الجريمة .

ولا شك أن هذه الطريقة فى الاستدلال على النية قد تفتح بابا واسعا للاجتهاد الذى قد يخطئ صاحبه ، ولشهادة الشهود الذين قد لا يقررون الحق ، بينما تحول وجهة النظر الاسلامية دون ما عساه يحدث من ذلك ، والله سبحانه وتعالى يعلم السر وأخفى ؟

سيد سليم درويش



في الإسلام والمسلمين

حكم الإسلام كان أجدى للأجانب من نظام الامتيازات الحالى

نشر الأستاذ شكرى قرداحى العضو بالجمع العلمى للحقوق الدولية ، والمدرس بمدرسة الحقوق الفرنسية فى بيروت ، كتابا بالفرنسية فى باريس أسماه (إيجاد وممارسة القانون الدولى الخاص فى بلاد الاسلام) ، تكلم فيه عن حالة الأجانب فى بلاد المسلمين ، متتبعا فى بحثه أدوار التاريخ . فأفاض فى تفصيل الأطوار التى دخلت فيها حالة الأجانب على عهد الدولة العربية أولاً ، ثم على عهد الدولة التركية ، فلم يجد بداً من الاعتراف بأن معاملة الأجانب فى بلاد المسلمين كانت تصدر عن شعور صادق بالتسامح لا يوجد ما يقابله فى معاملة الدول الغربية للأجانب عنها .

فلما تقرر نظام الامتيازات الأجنبية فى بلاد المسلمين بإلحاح الدول ، وهو النظام الذى جعلوه مشابها لنظام الأقليات العنصرية فى العهد الراهن ، ظهر جليا أمر لم يكن منتظرا ، ذلك أنه قد ثبت أن حالة الأجانب تحت ظل الامتيازات أصبحت أقل ملاءمة لهم من كل وجه ، من حالتهم على عهد الدولة العربية . فاتضح أن عاطفة التسامح الإسلامى كانت أجدى عليهم من نظام الحماية التى يتمتعون بها الآن .

نقول : هذه شهادة على سمو أصول الإسلام لا تخفى قيمتها الأدبية والعلمية . فإن المسلمين فى معاملتهم الأجانب ، يقومون على أصول شرعية لا يعقل أن يتخيل العقل خيرا منها ، أساسها الأول قوله تعالى : « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ، ولم يخرجوكم من دياركم ، أن تبروهم وتقسطوا إليهم ، إن الله يحب المقسطين » ، فلم يكتف سبحانه وتعالى بالأمر بالعدل معهم ، ولكنه تجاوزه الى التوصية بالبر بهم ، والبر غاية الإحسان . ومثل هذا التسامح لم يدوّن فى تاريخ أمة من الأمم وخاصة قبل نحو ألف وأربعمائة سنة ، حيث كان المتدينون يقتل بعضهم بعضا لا لشىء غير أنهم متخالفون فى الدين ، حتى بادت أمم برمتها فى هذه السبيل . فالمعاملة التى شرعها الإسلام للأجانب عنه تعتبر تطورا عالميا لا يشتبه بغيره ، يسجل لهذا الدين فى تاريخ المدنية الانسانية سابقة لا يمحوها تقادم العهد بها ، بل يزيدها مر الأيام جدة ؛ ولو أضفت إليها أمثالها فى كل ضرب من ضروب الشئون الانسانية ، لتألف منها مجموع ضخم يرتد عن جلالته الطرف ، ويكون من أدل الأدلة على أن الاسلام وحى إلهى لا عمل إنسانى ، وإلا فأنى للأمم فى عهد جاهليتها ، واعتزازها بقومياتها وأديانها ، أن تتغلب على أهواء نفوسها فتقوم على نظام

من المعاملات يقصر عن مثله ما أوجدته المدنية بعد مجالدة للحوادث دامت قرونا طويلة ، وبعد أن بلغت العلوم شأوا لم يكن ليتخيله الأقدمون فى أيامهم الأولى ؟

أليس من أعجب الأمور أن يعترف أساتذة القانون الدولى أن ما كانت عليه حالة الأجانب تحت ظل التسامح الإسلامى على عهد الدولة الإسلامية ولا مراقب عليها ولا حسيب ، كان أحسن مما آلت إليه على عهد الامتيازات التى مُنحوها بإملاء الدول الأجنبية أنفسها ، وقد اختارت لرعاياها أفضل ما تخيلته من ضروب الحمايات ، وصنوف الضمانات ؟ فأى دليل بعد هذا على أن الوضع الإلهى لحماية الأقليات الضعيفة كان أجدى عليها مما اختارته لها دولها القوية ؟

هذا الأمر ليس بعجيب فحسب ، ولكنه يريك بدليل محسوس مصداق قول الله تعالى : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » ، فكان أثر هذه الرحمة على تلك الأقليات أجل مما اختاره لها أقوامها الأقوياء ، وقد حاطوهم بأكمل ما تخيلوه لصيانة أموالهم وأنفسهم ، وحماية مصالحهم وتنمية مواردهم .

ومما يلفت النظر ، العناية العظيمة التى بذلها المسلمون لتنفيذ ما أمر به الله من البر بالأجانب حتى أصبح ذلك مضرب الأمثال اليوم ، فعلوا ذلك طيبة به نفوسهم ، غير مكرهين ولا مدفوعين ، وفيه دليل محسوس على أن نظرهم لاختلاف الأديان والأجناس واللغات كان نظرا عاليا لا تشوبه شائبة تعصب ، وهذا من الشعوب قبل ألف وأربعمائة سنة كان من أبعد الاحتمالات . فان تلك الشعوب كانت تفهم أديانها على وجه لا يسمح بوجود أى تسامح معه فى حق الأديان الأخرى ، بل كانت تعد ذلك تراخيا منها فى ورعها .

***

المعضلة الإسلامية

هذا عنوان كتاب لمدام (مارى بوجيبا) قالت فى مقدمته : إنه كفاح عن حقوق أخواتها المسلمات . أما مدام بوجيبا فهى سيدة مغربية أمها جزائرية وأبوها فرنسى ، كان مديرا لإحدى المصالح . ذكرت فى كتابها هذا أنها تألمت كثيرا من رؤية الحالة السيئة التى عليها المرأة المسلمة فى بلادها ، ووقوعها فى أسر زوجها ورضائها بهذه الحالة وعدم ثورتها عليها . كل هذا دفعها الى موالاة البحث فى مشكلة المرأة المسلمة منذ خمس عشرة سنة ، فوضعت عشرة كتب فى ذلك . وقد وصفت المرأة المسلمة فقالت : إن حياتها الاجتماعية شذوذ طال عليه الأمد ، ومعضلة ليست بمستحيلة الحل ، وهى سبة حية لمدنيتنا الحالية . الخ

ولكن ما هو الدواء فى نظر مدام مارى بوجيبا لهذه العلة ؟

قالت : الدواء هو أن نحرر أخواتنا المسلمات من العبودية التى يرسفون فى قيودها داخل

ستور وخلف أقفال من حديد ، ولكن لأجل أن يكون هذا الدواء شافيا يجب أن يأتى منها هى لا من الرجل . وطريق إيجاده هو أن تتعلم ما هو ضرورى لحياتها ، وأن تربى ملكاتها ومواهبها . فيجب الإكثار من فتح المدارس لها ليجد جميع أفراد جنسها محلات تسعهن فيها، ويجب مع هذه المعارف الضرورية التى تعطاها أن تعرّف بحقوقها ، وبوجوه الكفاح للوصول اليها ، وأن توقف على ما يحتوش مسألة الزواج فى بلادها من الشذوذات الخانقة لحريتها ، القاضية على حياتها . الخ الخ .

***

نقول : إننا قد ألفنا هذه اللهجة الإصلاحية حتى لم تعد تلفت لنا نظرا ، لا لأننا لا نهتم لإصلاح حالة المرأة عندنا ، فليس فينا من لا يعترف بحاجتها الى الإصلاح والتقويم ، ولكن لأنها تتردد منذ نحو أربعين سنة ، فكانت ثمرتها وبالاً على المرأة من كل وجه . نعم إنها نقلتها درجة من ناحية الشكل والمظهر ، فأصبحت لا تتميز المصرية عن الاوربية ، ولكنها صارت أكثر عبودية مما كانت عليه ، وليست المرأة الغربية بأحسن حالا منها من هذه الناحية . لأن العبودية لا تنحصر فى أن تمنع المرأة عن التبرج والاختلاط ، ولكنها تمتد فتتناول حالتيها الأدبية والاقتصادية . فالمرأة المتمدنة من الناحية الأدبية ليست فى المكانة التى يرجى أن تكون فيها ، وليس أدل على ما نقول مما يكتب فى حقها من إيثارها الإسراف فى التبرج ، والإغراق فى التبذل . وليس هنا محل تعيين من تقع عليه التبعة ، فى سقوطها فى هذه الهوة .

وأما من الناحية الاقتصادية ، فان المرأة اليوم أصبحت فى العالم المتمدن أشد عبودية مما كانت عليه فى أى زمان مضى . فلقد خلقت المرأة لأن تكون زوجة ، وأن لا تكلف حاجاتها الضرورية ، لتتفرغ لمهمتها الطبيعية الكريمة ، من تكثير النوع الانسانى وتربيته ، ولكنها اليوم على وجه عام تعمل لتكسب قوتها اليومى ، فى كل ناحية من نواحى النشاط العملى ، وبأجور لا تكاد تكفى ضرورياتها . وقد غصت بهن دور التجارة ، وأماكن اللهو والشراب ، وبيئات الفساد والفجور ، وليست توجد عبودية دون هذه العبودية لكائن خاق لأن يكون بمنجاة من كل هذه الأعمال المرهقة ، والمزالّ الموبقة .

فالذى تشكو منه مدام مارى بوجيبا وتنصح بالعمل على معالجته ، ربما كان خيرا مما ترجو أن تؤول اليه حالها متى أكثرت لها من فتح المدارس ، ونفثت فيها بدروسها روح التمرد والثورة .

لو كانت تعلم مدام مارى بوجيبا ماخص الاسلام به المرأة من الحقوق الاجتماعية والاقتصادية ، وما منحها إياه من الامتيازات فى الحياة الزوجية ، لأدركت أن أية امرأة فى العالم لا تحلم بأكثر من هذه المنح ، وأن السبب فى حرمانها منها لاجهلها فحسب ، ولكن جهل رجلها أيضا ، بل

لتحققت أن جهل رجلها أشد تأثيرا فى حرمانها منها من جهلها هى بها . فيجب على كل غيور على المرأة أن يطالب بنشر نور العلم بين الرجال وتفهيمهم واجباتهم نحو نسائهم .

ومن العجب أن كثيرا من المسلمين الذين أخذوا إخذ المدنية الغربية ، يظنون ظن مدام مارى بوجيبا ، فيتخيلون أن الاسلام هو الذى قضى على المرأة الجاهلة بما هى فيه ؛ والواقع أن السبب فى نكبتها هو جهل الرجال بحقوقها المشروعة ، وحرمانها منها . فادام الرجال يجهلون أن لنسائهم كرامة يجب أن تصان ، وأن لهن حقوقا يجب أن توفى لهن ، فلا عجب أن عاملوا نساءهم معاملة البهائم مادمن لا يساوونهم فى القوة الجسدية . والرجال الجهلاء لا يحسنون معاشرة أصحابهم بالمعروف ، ولا حفظ كراماتهم الشخصية ، فتراهم إذا جلسوا يتصاخبون ويصطرخون ، ثم يتسابون ويتلاعنون ، وقد يزداد ما بهم فيتضاربون ويصطرعون . هذه حالتهم العادية تشاهد لمن يتعمد رؤيتها فى بيئاتهم . فهل تريد من هؤلاء الوحوش الآدمية أن يحسنوا معاشرة زوجاتهم ، وأن يلطفوا من سلطانهم عليهن الى الحد الذى نرضى به منهم ؟

الشرع الإسلامى يحض الرجال على معاشرة زوجاتهم بالمعروف ، وعلى القيام بجميع حاجاتهن ، حتى لم يكلفهن بخدمتهم ، ولا خدمة أولادهن وأنفسهن ، إلا إذا كان رجالهن فقراء لا يستطيعون أن يستأجروا لهن خدما ؛ وطلب الشرع منهم فوق ذلك أن لا يضاروهن ولا يسبوهن ، ولا يعاملوهن معاملة الأطفال القصر ؛ وعرّف الزواج بأنه سكن لكلا الجنسين يجدان فيه العطف والمحبة ، فقال تعالى : « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها ، وجعل بينكم مودة ورحمة » .

والإسلام لا يقول بقصر المرأة ، فقد أباح لها أن تدير أموالها بنفسها ، وأن تتصرف فيها بدون تدخل من زوجها فى شئونها ، وأن تفتى فى الدين ، وتقضى بين المتخاصمين ، وتدرّس العلوم العالية إذا تأهلت لذلك كله . ومنحها فوق ذلك حق التصرف فى عصمتها ، فتستبقى زوجها ما شاءت أن تستبقيه ، فإذا لاح لها أن تفارقه فعلت ذلك لا يعارضها فيه معارض .

فهذا كله إعلان من الإسلام برشدها وصلاحيتها لكل ضروب التصرفات ، فهل درست مدام مارى بوجيبا الإسلام قبل أن تطعن فيه وتسوئ سمعته فى بلاد المتمدنين ؟

تقول مدام بوجيبا : إن المرأة المسلمة مسجونة ، وإن الإسلام قضى عليها بذلك ؛ وهذا خطأ عظيم ، فإن الإسلام لم يأمر الرجل بحبس المرأة ، ولكنه أمر بحفظ عرضها سليما من الدنس ، وسمعتها نقية من سوء القالة . فإذا غلا بعض الجهال فى ذلك فليس هذا مما تقع تبعته على الاسلام ، ولكن على جهل العامة ، فاذا أحسنا تعليمهم ظهرت المرأة من وراء هذه الكسف الخلقية أكثر حقوقا من المرأة الغربية ، فلنعلمهم كيف يكونون مسلمين .

محمد فريد وجدى

نظام الوقف فى الاسلام

وآثاره المترتبة عليه

قدمنا لحضرات القراء أن حكم الوقف عند أبي حنيفة جائز غير لازم ، فهو عنده بمنزلة العارية ، على معنى أن للواقف أن يرجع عنه ، وأن يتصرف فى العين الموقوفة بالبيع والرهن والهبة والوصية وسائر التصرفات الناقلة للملكية ، فاذا مات الواقف ورث عنه كما يجوز للمعير أن يرجع فى عاريته ويتصرف فيها تصرف المالك فيما ملك ، حتى تقسم بين ورثته لو مات . فيجوز للواقف أن يتصرف فى العين الموقوفة بعد وقفها بسائر أنواع التصرفات الناقلة للملكية . فلو مات قسمت هذه العين بين ورثته كما لو كانت غير موقوفة . هذا معنى عدم لزوم الوقف عند الإمام أبي حنيفة .

فحكم الوقف عند أبي حنيفة جوازه مع عدم لزومه لما بيّنّا . وحكمه عند الصاحبين أبي يوسف ومحمد لزومه لمجرد تمام ضبطه وصيغته ، فليس للواقف أن يرجع عنه قيد حياته ، ولا أن يتصرف فيه تصرفا من التصرفات الناقلة للملكية إطلاقا ، وإذا مات لا يورث عنه . قال العلامة ابن عابدين فى إحدى رسائله : « لأنه خرج بعد ضبطه ، وتمامه من ملك الواقف الى ذمة الله ، فلا يجرى عليه تصرف من التصرفات اللاحقة للملكية ، وهذا علة لزومه عند الصاحبين »

وبه أفتى جمهرة ساحقة من السلف والخلف ، وكاد ينعقد عليه الإجماع بين جمهرة من المتأخرين وفريق من الفقهاء المشترعين ، وعليه عمل القضاء والفتيا منذ قام نظام القضاء الشرعى فى الأمم الاسلامية ، ومصر منها فى الطليعة ، ولم يتصل بعلم أحد من المشتغلين بنظريات الوقف أن محكمة من محاكم الموضوع نقضت إشهادا بوقف توفرت شرائطه وأركانه ، وسلمت أسبابه وبواعثه . فمذهب الصاحبين كما أسلفنا هو المفتى به ، وهو المعول عليه .

استدل الامام أبو حنيفة على عدم لزوم الوقف بقوله صلى الله عليه وسلم : « لا حبس عن فرائض الله تعالى » . ومعناه أنه لا يحبس مال بعد موت صاحبه عن القسمة بين ورثته ، تطبيقا لآية المواريث فى القرآن ، فهو ظاهر فى عدم خروج المال الموقوف عن ملك الواقف المقتضى لعدم لزوم الوقف ، وإلا كان اللزوم مصطدما بآية المواريث ، وخارجا عن مدلول هذا الحديث .

هذا أولا ، وثانيا : أن شريحا القاضى رضى الله عنه صرح فيما صرح بتلك المقالة المشهورة ، وهى « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء ببيع الحبس » بضمتين ، وهى جمع حبس بضم فسكون

وهو المال الموقوف . وصريح تلك الرواية عن شريح أن الأموال المحبوسة كان بيعها محظورا فى عصور الجاهلية ، فلما بعث الرسول الأعظم أجاز بيعها والتصرف فيها ، فكان لكل مالك عين حبسها على بعض عبدة الأوثان أو على جهة من جهات المنفعة أن يتحلل من ذلك القيد فى الاسلام ، وأن يستمتع بنعمة الحرية التى هى ملك عام للناس جميعا ، فيجوز له أن يتصرف فى العين المحبوسة على سبيل الوقف ، كما لو كانت ملكا خالصا للواقف انتهاء ، والوقف على كل حال يشبه العارية ، والعارية جائزة الرجوع فيها ، والواقف حين رصد عينا على جهة إنما رصدها لله وفى سبيل الله ، فليس لأحد أن يسلبه حق الاختيار فى بقائها موقوفة أو رجوعها الى ملكه لأنه تصرف لا يعدو تبرعا . وأيضا فإن حقوق العباد لم تنقطع حال قيام صفة الوقف عن العين الموقوفة ، حيث لهم أن ينتفعوا بالموقوف زراعة وسكنى مثلا ، فبقاء هذه الحقوق متصلة بالموقوف دليل بقاء الملكية للواقف ، ولا ملك لغيره ما دام صاحب العين الموقوفة منه ابتداء . وهذا قدر متفق عليه بين الامام وصاحبيه ، فلزم عن ذلك أن يكون الملك للواقف لا لغيره .

ومما يؤيد اتجاه الامام رضى الله عنه أن للواقف نصب النظار على وقفه يختارهم بأسمائهم أو بشرائطهم المعينة لخصائصهم التى استحقوا بها الأرجحية عنده عمن سواهم ، كما له عزلهم ، وله صرف غلات الوقف على مقتضى شرطه . وأحكام المحاكم الشرعية قائمة على احترام تلك الشروط التى شرطها الواقف لنفسه فى كتاب وقفه ، وهذا دليل بقاء أثر الملكية للواقف فى العين الموقوفة ؟ « يتبع »

عباس طه

المقالات والتقاريظ المتأخرة

منعنا تزاحم المواد من نشر بحوث ومقالات ممتعة ، منها زيادة بيان فى بحث الزكاة لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمود شلتوت ؛ ومنها الحلقة الثانية من بحوث فضيلة الأستاذ الفاضل الشيخ عبد الجواد رمضان فى الأدب ، ودراسات قيمة أخرى فى التراجم والاقتصاد والنقد ، وتقاريظ لمؤلفات ثمينة وصلت إلينا ، فنعتذر عن ذلك ، ونعد بنشرها فى الأعداد المقبلة إن شاء الله .

معرض الآراء العالمية
فى الإسلام والمسلمين

حكم الإسلام كان أجدى للأجانب من نظام الامتيازات الحالى

نشر الأستاذ شكرى قرداحى العضو بالمجمع العلمى للحقوق الدولية ، والمدرس بمدرسة الحقوق الفرنسية فى بيروت ، كتابا بالفرنسية فى باريس أسماه (إيجاد وممارسة القانون الدولى الخاص فى بلاد الاسلام) ، تكلم فيه عن حالة الأجانب فى بلاد المسلمين ، متتبعا فى بحثه أدوار التاريخ . فأفاض فى تفصيل الأطوار التى دخلت فيها حالة الأجانب على عهد الدولة العربية أولاً ، ثم على عهد الدولة التركية ، فلم يجد بداً من الاعتراف بأن معاملة الأجانب فى بلاد المسلمين كانت تصدر عن شعور صادق بالتسامح لا يوجد ما يقابله فى معاملة الدول الغربية للأجانب عنها .

فلما تقرر نظام الامتيازات الأجنبية فى بلاد المسلمين بإلحاح الدول ، وهو النظام الذى جعلوه مشابها لنظام الأقليات العنصرية فى العهد الراهن ، ظهر جليا أمر لم يكن منتظرا ، ذلك أنه قد ثبت أن حالة الأجانب تحت ظل الامتيازات أصبحت أقل ملاءمة لهم من كل وجه ، من حالتهم على عهد الدولة العربية . فاتضح أن عاطفة التسامح الإسلامى كانت أجدى عليهم من نظام الحماية التى يتمتعون بها الآن .

نقول : هذه شهادة على سمو أصول الإسلام لا تخفى قيمتها الأدبية والعلمية . فإن المسلمين فى معاملتهم الأجانب ، يقومون على أصول شرعية لا يعقل أن يتخيل العقل خيرا منها ، أساسها الأول قوله تعالى : « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ، ولم يخرجوكم من دياركم ، أن تبروهم وتقسطوا إليهم ، إن الله يحب المقسطين » ، فلم يكتف سبحانه وتعالى بالأمر بالعدل معهم ، ولكنه تجاوزه الى التوصية بالبر بهم ، والبر غاية الإحسان . ومثل هذا التسامح لم يدوّن فى تاريخ أمة من الأمم وخاصة قبل نحو ألف وأربعمائة سنة ، حيث كان المتدينون يقتل بعضهم بعضا لا لشىء غير أنهم متخالفون فى الدين ، حتى بادت أمم برمتها فى هذه السبيل . فالمعاملة التى شرعها الإسلام للأجانب عنه تعتبر تطورا عالميا لا يشتبه بغيره ، يسجل لهذا الدين فى تاريخ المدنية الانسانية سابقة لا يمحوها تقادم العهد بها ، بل يزيدها من الأيام جدة ؛ ولو أضفت إليها أمثالها فى كل ضرب من ضروب الشئون الانسانية ، لتألف منها مجموع ضخم يرتد عن جلالته الطرف ، ويكون من أدل الأدلة على أن الاسلام وحى إلهى لا عمل إنسانى ، وإلا فأنّى للأمم فى عهد جاهليتها ، واعتزازها بقومياتها وأديانها ، أن تتغلب على أهواء نفوسها فتقوم على نظام

من المعاملات يقصر عن مثله ما أوجدته المدنية بعد مجالدةٍ للحوادث دامت قرونا طويلة ، وبعد أن بلغت العلوم شأوا لم يكن ليتخيله الأقدمون فى أيامهم الأولى ؟

أليس من أعجب الأمور أن يعترف أساتذة القانون الدولى أن ما كانت عليه حالة الأجانب تحت ظل التسامح الإسلامى على عهد الدولة الإسلامية ولا مراقب عليها ولا حسيب ، كان أحسن مما آلت إليه على عهد الامتيازات التى مُنِحوها بإملاء الدول الأجنبية أنفسها ، وقد اختارت لرعاياها أفضل ما تخيلته من ضروب الحمايات ، وصنوف الضمانات ؟ فأى دليل بعد هذا على أن الوضع الإلهى لحماية الأقليات الضعيفة كان أجدى عليها مما اختارته لها دولها القوية ؟

هذا الأمر ليس بعجيب فحسب ، ولكنه يريك بدليل محسوس مصداق قول الله تعالى : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » ، فكان أثر هذه الرحمة على تلك الأقليات أجل مما اختاره لها أقوامها الأقوياء ، وقد حاطوهم بأكمل ما تخيلوه لصيانة أموالهم وأنفسهم ، وحماية مصالحهم وتنمية مواردهم .

ومما يلفت النظر ، العناية العظيمة التى بذلها المسلمون لتنفيذ ما أمر به الله من البر بالأجانب حتى أصبح ذلك مضرب الأمثال اليوم ، فعلوا ذلك طيبةً به نفوسهم ، غير مكرهين ولا مدفوعين ، وفيه دليل محسوس على أن نظرهم لاختلاف الأديان والأجناس واللغات كان نظرا عاليا لا تشوبه شائبة تعصب ، وهذا من الشعوب قبل ألف وأربعمائة سنة كان من أبعد الاحتمالات . فان تلك الشعوب كانت تفهم أديانها على وجه لا يسمح بوجود أى تسامح معه فى حق الأديان الأخرى ، بل كانت تعد ذلك تراخيا منها فى ورعها .

***

المعضلة الإسلامية

هذا عنوان كتاب لمدام (مارى بوجيبا) قالت فى مقدمته : إنه كفاح عن حقوق أخواتها المسلمات . أما مدام بوجيبا فهى سيدة مغربية أمها جزائرية وأبوها فرنسى ، كان مديرا لإحدى المصالح . ذكرت فى كتابها هذا أنها تألمت كثيرا من رؤية الحالة السيئة التى عليها المرأة المسلمة فى بلادها ، ووقوعها فى أسر زوجها ورضائها بهذه الحالة وعدم ثورتها عليها . كل هذا دفعها الى موالاة البحث فى مشكلة المرأة المسلمة منذ خمس عشرة سنة ، فوضعت عشرة كتب فى ذلك . وقد وصفت المرأة المسلمة فقالت : إن حياتها الاجتماعية شذوذ طال عليه الأمد ، ومعضلة ليست بمستحيلة الحل ، وهى سبة حية لمدنيتنا الحالية . الخ

ولكن ما هو الدواء فى نظر مدام مارى بوجيبا لهذه العلة ؟

قالت : الدواء هو أن نحرر أخواتنا المسلمات من العبودية التى يرسفون فى قيودها داخل

ستور وخلف أقفال من حديد ، ولكن لأجل أن يكون هذا الدواء شافيا يجب أن يأتى منها هى لا من الرجل . وطريق إيجاده هو أن تتعلم ما هو ضرورى لحياتها ، وأن تربى ملكاتها ومواهبها . فيجب الإكثار من فتح المدارس لها ليجد جميع أفراد جنسها محلات تسعهن فيها ، ويجب مع هذه المعارف الضرورية التى تعطاها أن تعرّف بحقوقها ، وبوجوه الكفاح للوصول اليها ، وأن توقف على ما يحتوش مسألة الزواج فى بلادها من الشذوذات الخانقة لحريتها ، القاضية على حياتها . الخ الخ .

***

نقول : إننا قد ألفنا هذه اللهجة الإصلاحية حتى لم تعد تلفت لنا نظرا ، لا لأننا لا نهتم لإصلاح حالة المرأة عندنا ، فليس فينا من لا يعترف بحاجتها الى الإصلاح والتقويم ، ولكن لأنها تتردد منذ نحو أربعين سنة ، فكانت ثمرتها وبالاً على المرأة من كل وجه . نعم إنها نقلتها درجة من ناحية الشكل والمظهر ، فأصبحت لا تتميز المصرية عن الأوربية ، ولكنها صارت أكثر عبودية مما كانت عليه ، وليست المرأة الغربية بأحسن حالا منها من هذه الناحية . لأن العبودية لا تنحصر فى أن تمنع المرأة عن التبرج والاختلاط ، ولكنها تمتد فتتناول حالتيها الأدبية والاقتصادية . فالمرأة المتمدنة من الناحية الأدبية ليست فى المكانة التى يرجى أن تكون فيها ، وليس أدل على ما نقول مما يكتب فى حقها من إيثارها الإسراف فى التبرج ، والإغراق فى التبذل . وليس هنا محل تعيين من تقع عليه التبعة ، فى سقوطها فى هذه الهوة .

وأما من الناحية الاقتصادية ، فان المرأة اليوم أصبحت فى العالم المتمدن أشد عبودية مما كانت عليه فى أى زمان مضى . فلقد خلقت المرأة لأن تكون زوجة ، وأن لا تكلف حاجاتها الضرورية ، لتتفرغ لمهمتها الطبيعية الكريمة ، من تكثير النوع الانسانى وتربيته ، ولكنها اليوم على وجه عام تعمل لتكسب قوتها اليومى ، فى كل ناحية من نواحى النشاط العملى ، وبأجور لا تكاد تكفى ضرورياتها . وقد غصت بهن دور التجارة ، وأماكن اللهو والشراب ، وبيئات الفساد والفجور ، وليست توجد عبودية دون هذه العبودية لكائن خاق لأن يكون بمنجاة من كل هذه الأعمال المرهقة ، والمزالّ الموبقة .

فالذى تشكو منه مدام مارى بوجيبا وتنصح بالعمل على معالجته ، ربما كان خيرا مما ترجوأن تؤول اليه حالها متى أكثرت لها من فتح المدارس ، ونفثت فيها بدروسها روح التمرد والثورة .

لو كانت تعلم مدام مارى بوجيبا ماخص الاسلام به المرأة من الحقوق الاجتماعية والاقتصادية ، وما منحها إياه من الامتيازات فى الحياة الزوجية ، لأدركت أن أية امرأة فى العالم لا تحلم بأكثر من هذه المنح ، وأن السبب فى حرمانها منها لاجهلها فحسب ، ولكن جهل رجلها أيضا ، بل

لتحققت أن جهل رجلها أشد تأثيرا فى حرمانها منها من جهلها هى بها . فيجب على كل غيور على المرأة أن يطالب بنشر نور العلم بين الرجال وتفهيمهم واجباتهم نحو نسائهم .

ومن العجب أن كثيرا من المسلمين الذين أخذوا إخذ المدنية الغربية ، يظنون ظن مدام مارى بوجيبا ، فيتخيلون أن الاسلام هو الذى قضى على المرأة الجاهلة بما هى فيه ؛ والواقع أن السبب فى نكبتها هو جهل الرجال بحقوقها المشروعة ، وحرمانها منها . فمادام الرجال يجهلون أن لنسائهم كرامة يجب أن تصان ، وأن لهن حقوقا يجب أن توفى لهن ، فلا عجب أن عاملوا نساءهم معاملة البهائم مادمن لا يساوونهم فى القوة الجسدية . والرجال الجهلاء لا يحسنون معاشرة أصحابهم بالمعروف ، ولا حفظ كراماتهم الشخصية ، فتراهم إذا جلسوا يتصاخبون ويصطرخون ، ثم يتسابون ويتلاعنون ، وقد يزداد ما بهم فيتضاربون ويصطرعون . هذه حالتهم العادية تشاهد لمن يتعمد رؤيتها فى بيئاتهم . فهل تريد من هؤلاء الوحوش الآدمية أن يحسنوا معاشرة زوجاتهم ، وأن يلطفوا من سلطانهم عليهن الى الحد الذى نرضى به منهم ؟

الشرع الإسلامى يحض الرجال على معاشرة زوجاتهم بالمعروف ، وعلى القيام بجميع حاجاتهن ، حتى لم يكلفهن بخدمتهم ، ولا خدمة أولادهن وأنفسهن ، إلا إذا كان رجالهن فقراء لا يستطيعون أن يستأجروا لهن خدما ؛ وطلب الشرع منهم فوق ذلك أن لا يضاروهن ولا يسبوهن ، ولا يعاملوهن معاملة الأطفال القصر ؛ وعرّف الزواج بأنه سَكَن لكلا الجنسين يجدان فيه العطف والمحبة ، فقال تعالى : « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها ، وجعل بينكم مودة ورحمة » .

والإسلام لا يقول بقصر المرأة ، فقد أباح لها أن تدير أموالها بنفسها ، وأن تتصرف فيها بدون تدخل من زوجها فى شئونها ، وأن تفتى فى الدين ، وتقضى بين المتخاصمين ، وتدرّس العلوم العالية إذا تأهلت لذلك كله . ومنحها فوق ذلك حق التصرف فى عصمتها ، فتستبقى زوجها ما شاءت أن تستبقيه ، فإذا لاح لها أن تفارقه فعلت ذلك لا يعارضها فيه معارض .

فهذا كله إعلان من الإسلام برشدها وصلاحيتها لكل ضروب التصرفات ، فهل درست مدام مارى بوجيبا الإسلام قبل أن تطعن فيه وتسوئ سمعته فى بلاد المتمدنين ؟

تقول مدام بوجيبا : إن المرأة المسلمة مسجونة ، وإن الإسلام قضى عليها بذلك ؛ وهذا خطأ عظيم ، فإن الإسلام لم يأمر الرجل بحبس المرأة ، ولكنه أمر بحفظ عرضها سليما من الدنس ، وسمعتها نقية من سوء القالة . فإذا غلا بعض الجهال فى ذلك فليس هذا مما تقع تبعته على الاسلام ، ولكن على جهل العامة ، فاذا أحسنا تعليمهم ظهرت المرأة من وراء هذه الكسف الخلقية أكثر حقوقا من المرأة الغربية ، فلنعلمهم كيف يكونون مسلمين .

محمد فريد وجدى

تفسير سورة الحجرات

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الإمام الشيخ محمد مصطفى المراغى
شيخ الجامع الأزهر
الدرس الثالث الذى ألقاه فضيلته فى رمضان سنة ١٣٥٨
بمسجد البيومى بالقاهرة
وقد تفضل بالاستماع له حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم

بسم الله الرحمن الرحيم

(يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، إن الله عليم خبير) :

الشعب : الطبقة الأولى من الطبقات التى عليها العرب ، أعنى أنها أعم الطبقات ، فهو أعم من القبيلة ، والقبيلة أعم من العمارة ، والعمارة أعم من البطن ، والبطن أعم من الفخذ ، والفخذ أعم من الفصيلة . فخزيمة مثلا شعب ، وكنانة قبيلة ، وقريش عمارة ، وقصى بطن ، وهاشم فخذ ، والعباس فصيلة . وسميت شعوبا لأن القبائل وما بعدها تتشعب منها وتتفرع عليها . وقيل : إن الشعوب فى العجم ، والقبائل فى العرب ، والأسباط فى اليهود .

ومعنى الآية : أن الله سبحانه خلق كل واحد من الناس من أب وأم ، فهم متساوون فى أصل الخلقة ، وفى المادة التى منها الخلقة ، كما أنهم متساوون فى الصدور عن الإله جل شأنه ؛ وأن الله جعلهم شعوبا وقبائل ليعرف بعضهم بعضا ، فى قرب القرابة وبعدها ، وليصلوا الأرحام ، ولا يعتزى أحد الى غير آبائه . والنسب غير مكتسب للإنسان ، وليس للإنسان إلا ما سعى ، فليس له شأن يعول عليه ويكون مدارا للفخر . والتقوى هى المكتسبة ، وهى التى عليها تجرى المقاييس عند الله تعالى ؛ فاذا جاز الفخر بشىء ، فان أحق شىء بالفخر هو التقوى فافخروا بها ، فان أكرمكم عند الله أتقاكم . فقوله تعالى : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » تعليل للنهى عن الفخر بالأنساب ، وبيان للطريق الصحيح فى الفخر . والله خبير بأحوال الناس ، عليم بأعمالهم ، وسيجازيهم على أعمالهم ، ويقدم أحسنهم عملا ، لا أشرفهم نسبا .

وقد استفاضت الأخبار بأن الكرامة لا ترتبط بالأنساب ، بل بالعمل . من ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « الناس رجلان : بَرٌ تقى كريم على الله ، وفاجر شقى هيّن على الله ؛ الناس كلهم بنو آدم ، وخلق الله آدم من تراب » ؛ ثم قرأ هذه الآية . وخطب صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع فقال : « ألا إن ربكم واحد ، لا فضل لعربى على عجمى ، ولا لعجمى على عربى ، ولا لأسود على أحمر ، ولا لأحمر على أسود ، إلا بالتقوى ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ؛ ألا هل بلغت ؟ قالوا : بلى يا رسول الله ؛ قال : فليبلغ الشاهد الغائب » . وعنه صلى الله عليه وسلم : « لَيَنْتَهِيَنّ قوم يفخرون بآبائهم أو ليكونُنّ أهون على الله من الجِعلان (١) » .

الاسلام دين عام خالد ، قد اعتبر المؤمنين جميعهم أمة واحدة ، واعتبرهم جسدا واحدا إذا اشتكى منه عضو تداعت له سائر الأعضاء بالسهر والحمى . وما كان يمكن أن تسير قبائل العرب وشعوب العجم تحت راية الاسلام ، تقاتل مخالفيه ، وتنشر تعاليمه ، وتثبت قواعد التوحيد ، إذا استمرت القبائل تفخر على القبائل ، والشعوب تفخر على الشعوب . وما عرف أن أمة توحدت وفيها أجناس تشعر بالتفاوت والتغاير . ولا بد لوحدة الأمة من أن تندمج جميع عناصرها ، وتنتظمها وحدة تكون هى الغايةَ التى يحافَظ عليها ، ويقاتَل من أجلها . وهذه الوحدة التى اعتبرت ، رباطها الإيمان ؛ فهو الجامع لجميع الأجناس ، والموحد لجميع القبائل والشعوب ؛ وهو الذى يدافَع عنه ، ويقاتَل من أجله .

بهذه الآية وجد الرباط القوى بين الأمم والأجناس ، وقضى على النزعة الهادمة التى كانت تسود العرب ، حيث كانوا يفاخرون بالأنساب ، ويفخرون بنسبهم على العجم ؛ وكان هذا التفاخر يوجد بينهم أحيانا عداوات وترات . وبهذه القاعدة مهّد الاسلام للعامل المجدّ ، أن يفتح أمامه طريق المجد ، وأن ينال فى الدنيا ما يصل اليه جهده ، وفى الآخرة ما تعده له تقواه . والتقوى تنال بالأعمال الصالحة ، وليست الأعمال الصالحة صلاة وصوما وحجا فحسب ، بل هى هذه وحياطة الاسلام ، والجهاد فى سبيله وفى سبيل الحق . وفى آخر هذه السورة : « إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله » ، فمن الممكن أن يكون أى شخص هو الأكرم عند الله . وإذ قد عرف المسلمون أن الكرامة عند الله بالتقوى ، فقد وجب عليهم أن يكون ذلك هو المعيارَ عندهم ، وأن يكون المتقون هم الأكرمين .

هذا هو السمو بالنفس الانسانية الى أعلى الدرجات ؛ وهذا ماجاء به الاسلام منذ أكثر من ثلاثة عشر قرنا ؛ وكان الناس إذ ذاك فى ظلمة العبودية وتقديس الطغيان . وبعد أن عرفت

(١) الجعلان بكسر الجيم : جمع جعل بضم الجيم وفتح العين : دابة سوداء كالخنفساء . وقيل هو أبو جعران .

الأمم هذا نخرت به ، وظنت أنها وقعت على شىء جديد لم يعرف ، والاسلام عاثر الجد بينهم بما هو براء منه ، وبما جاء لهدمه .

جاء الاسلام بهدم مزايا الأجناس ، وبالتعويل على التقوى والعمل الصالح . وأين هذا مما عليه المسلمون الآن ، من اعتزاز كل أمة بجنسها ، وكل واحد بقبيلته أو أسرته ، مما أدى الى تقطيع الروابط ، والى ألا يكون المسلمون تحت وحدة يدافعون عنها ، فأصبحوا أذلة بعد العزة ، وضعفاء بعد القوة ، فهم على كثرتهم كأنهم غثاء السيل ، لا يقام لهم وزن :

ويُقضَى الأمرُ حين تغيب تيم ولا يستأمرون وهم شهود

هذه الآداب التى ساقها الله فى الآيات السابقة ، والتى طلب أن يكون عليها المؤمنون ، قائمةٌ على أصول هى اعتبار المسلمين وحدة ، واعتبار أفرادهم إخوة ؛ وقائمة أيضا على أصل خطير فى الحياة ، وهو وجوب رد الظالمين عن ظلمهم ، والأخـذ بيد الحق ، والوقوف فى صف المظلومين . هذه درجة سامية كرمهم الله تعالى بها ؛ ومن الواجب أن يفقهوها ، ويتدبروها ، ويعملوا عليها ، ليكونوا أشرف الناس ، وأعزهم جانبا ، وأكرمهم مبدأ . ونسأل الله الهداية والتوفيق ! !

* * *

(قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا ، قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَـكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِى قُلُوبِكُمْ ، وَإِنْ تُطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ لا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِـكُمْ شَيْئاً ، إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) :

الأمن : طمأنينة النفس وزوال الخوف . وقد أخذ منه الإيمان وجعل اسما للتصديق الذى معه الأمن ، وهو الإذعان للحق ؛ ومنه قول الله تعالى : « وما أنت بمؤمن لنا (١) » أى بمصدق . والاسلام : استسلام وانقياد وترك للتمرد والعناد . والتسليم عام ، يكون فى القلب واللسان والجوارح . فالاسلام أعم ، والإيمان أخص ، وهو أشرف أجزاء الاسلام .

هـذا ما تعطيه اللغة ، لـكن الإيمان والاسلام حدث لهما استعمالات شرعية أخرى ، فقد استعملا مترادفين ، ومختلفين ، ومتداخلين .

ومن الترادف قول الله تعالى : « فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ . فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٢) » ، ولم يكن فيها بالاتفاق إلا بيت واحد . وفى الحديث الشريف « بنى الإسلام على خمس » . وقد سئل النبى صلى الله عليه وسلم مرة عن الإيمان فأجاب بمثل هذا .

(١) يوسف : ١٧ (٢) الذاريات : ٣٥ ، ٣٦

ومن الاختلاف قول الله تعالى : « قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا » ، أراد بالإيمان التصديق وطمأنينة النفس ، وبالاسلام الانقياد والاستسلام فى الظاهر . وفى حديث جبريل لما سأله عن الإيمان قال : « أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وبالبعث بعد الموت ، وبالحساب ، وبالقدر خيره وشره » ؛ ولما سأله عن الاسلام قال : « أن تعبد الله ولا تشرك به شيئا ، وتقيم الصلاة ، وتؤدى الزكاة المفروضة ، وتصوم رمضان » .

ومن التداخل : سئل صلى الله عليه وسلم : أى الأعمال أفضل ؟ قال : الإسلام ؛ فقيل : أى الإسلام أفضل ؟ قال : الإيمان . وهو دليل على أن الاسلام أعم والإيمان أخص . وهذا يوافق الاستعمال اللغوى ، لأن الإيمان عمل من الأعمال هو أفضل جزء فى الاسلام ، لأن الاسلام يشمل تسليم القلب ونطق اللسان وعمل الجوارح . وأفضل هذه الثلاثة تصديق القلب ، وهو الإيمان .

وعند الترادف يكون هناك تعميم فى الإيمان ، بإطلاقه على التصديق ، وعلى ثمرة التصديق ، وهى النطق باللسان ، والإتيان بالأعمال . وعند الاختلاف يكون هناك تخصيص فى الاسلام ، حيث خص بالتسليم الظاهرى ، وهو الإقرار باللسان ، والطاعة بالأعمال .

وقد جاء استعمال الإيمان فى العمل الصالح : « وما كان اللهُ لِيُضِيعَ إيمانَكم (١) . وفى الحديث الشريف : جعل إماطة الأذى عن الطريق ، والحياء من الإيمان .

ولا خلاف فى أن النطق بالشهادتين كاف فى إجراء أحكام الإيمان فى الدنيا ، ويعتبر المقر بلسانه مؤمنا ، وعلينا أن نظن أنه ما قاله بلسانه إلا وهو منطو عليه قلبه ؛ كما أنه لا خلاف فى أنه إذا لم يكن مصدقا بقلبه فهو كافر مخلد فى النار . لكن هناك خلاف فيما يجب أن يضم الى التصديق القلبى للنجاة فى الآخرة ، وعدم الخلود فى النار :

فمن جمع بين التصديق والإقرار ، والإتيان بالأعمال الصالحة ، فلا خلاف فى أن الجنة مستقره ؛ ومن صدق وأقر وارتكب شيئا من الكبائر فهو لا يدخل النار عند المرجئة ، لأنهم يرون أنه لا يدخل النار من كان فى قلبه مثقال ذرة من الإيمان ؛ ويخلد فى النار عند المعتزلة ، لأن مرتكب المعصية يخرج فى رأيهم عن الإيمان ، والجنة لايدخلها إلا مؤمن . وهو عند الجمهور رجل عاص يدخل النار فيطهر فيها ثم يخرج منها ، لأنه لا يخلد فى النار إلا الكافرون .

ويمكن بعد هذا أن نقول : إن الإيمان الذى لا يخلد صاحبه فى النار هو التصديق وحده عند الجمهور وعند المرجئة . أما الايمان عند المعتزلة فهو مركب من ثلاثة أشياء : التصديق ،

(١) البقرة : ١٤٣

والإقرار ، والعمل الصالح . ومذهب المعتزلة على هذه الصفة هو المروى عن السلف ، رضى الله عنهم ؛ فقد نقل اتفاقهم على أن الإيمان تصديق ، وقول ، وعمل . لكن الجمهور يقولون : إن المروى عن السلف هو تفسير للإيمان الكامل الذى يجعل مستقر صاحبه الجنة ، وينجيه من دخول النار ، وذلك للقطع بأن الصحابة رضى الله عنهم لم يكونوا يعتبرون العصاة غير مؤمنين . ولا شبهة فى أن المتتبع لآيات الله سبحانه ، وللسنة المحمدية ، وأقوال الأئمة ، يقطع بأن الاسلام يعتبر العصاة مؤمنين ، يعذبون ويطهرون ثم يخرجون الى دار النعيم .

لاته عن كذا يليته : صرفه عنه ونقصه حقًا له . والمصدر ليت .

ولا يلتكم من أعمالكم : أى لا ينقصكم من أعمالكم . ولات وألات بمعنى نقص .

هؤلاء الأعراب إما أن يكونوا مصدقين مقرين ، وإما أن يكونوا مقرين غير مصدقين . فان كانوا مصدقين مقرين ، كان المعنى : لا يصح لكم أن تقولوا آمنا على الإطلاق ، لأن معنى آمنا ، على الإطلاق : حققنا القول بالعمل ، ويصح لكم أن تقولوا قولا لا إشكال فيه على سامعيه ، وإن قلتموه كنتم محقين فى قوله ، وهو أن تقولوا : أسلمنا ، أى دخلنا فى الملة بالشهادة التى تحقن الدم وتصون الأموال . وعلى هذا يكون معنى قوله : « ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم » : لم يدخل العلم بشرائع الإيمان وحقائقه ومعانيه فى قلوبكم . وإن تطيعوا الله ورسوله ، وتعملوا بما فرضه الله عليكم ، وتنتهوا عما نهاكم عنه ، لا يظلمكم شيئا من أجور أعمالكم ، ولا ينقصكم من ثوابها شيئا . وهو غفور لمن تاب ، ورحيم لا يعاقب بعد التوبة . ويمكن أن تكون الطاعة هنا بمعنى التوبة عن النفاق ، وعقد القلب على الإيمان ، ليوافق القلب اللسان ، فإذا فعلتم ذلك قبل الله التوبة منكم ، وغفر لكم .

وإن كانوا مقرين غير مصدقين ، كان المعنى : لم تؤمنوا إيمانا وافق القلب فيه اللسان ، لأنكم لم تصدقوا ، وقولوا : أسلمنا ، أى انقدنا ودخلنا فى زمرة أهل السلم ، ولما يدخل الايمان الحقيقى وهو التصديق فى قلوبكم . ولا تكرار بين قوله : « لم تؤمنوا » وقوله : « ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم » لأن الجملة الثانية فى موضع الحال من الضمير فى « قولوا » ؛ وهو توقيت لما أمروا أن يقولوه ؛ فالمعنى : قولوا أسلمنا فى الوقت الذى لم يدخل الإيمان فيه قلوبكم .

***

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ ، أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ) :

رابه : أوقعه فى الشك والتهمة ؛ وارتاب : مطاوعه ؛ وريب المنون : ليس الشك فيه من جهة حصوله ، بل من جهة وقته .

والمجاهدة : استفراغ الوسع فى مدافعة العدو . والجهاد : يشمل جهاد العدو الظاهر ، وجهاد النفس . وفى الحديث : « جاهدوا أهواءكم كما تجاهدون أعداءكم » . والجهاد الظاهرى يكون باليد ويكون باللسان . وفى الحديث : « جاهدوا الكفار بأيديكم وألسنتكم » .

يقول الله سبحانه : ليس الإيمان هو ما زعمتم من قول لايوافقه عقد القلب ، أو من تصديق وقول لم تؤازرها الأعمال ، ولم تشدها الطاعة ، بل الايمان الذى يعتمده الله سبحانه ، ويستحق أهله الحمد والثناء ، ويباعد بين أهله وبين النار ، هو تصديق لا أثر للريب فيه ، يملأ القلب فتظهر ثمراته على الجوارح ، بالطاعة ، وأداء ما فرضه الله سبحانه من التكاليف البدنية ، والتكاليف المالية ، والتضحية بالنفس والمال ، فى سبيل الله الذى ارتضاه لعباده ، وهو إعلاء كلمة الله ، وتمكين الحق ، ودفع البغى ، وعمارة الأرض ، وتطهيرها من الفساد . أولئك الذين هذه خصالهم ، وهذا إيمانهم ، هم الصادقون إذا قالوا آمنا على الإطلاق ، وهم الذين إيمانهم إيمان صدق ، وحق ، وجد ، وثبات .

وخص الله الجهاد بالنفس والمال بالذكر ، لأنه أشق أنواع الطاعة .

وقوله : « ثم لم يرتابوا » إما أن يكون معناه : آمنوا واستمروا على التصديق والإذعان للحق ، ولم يعترضهم الريب بعد ذلك ، لأن المؤمن قد يبتلى بمن يضلله ويقذف فى قلبه ما يثلم اليقين ، أو ينظر نظرا خاطئا يسقط به على الشك فيركب رأسه ، لا يطلب المخرج ؛ فوصف المؤمنون حقا بالبعد عن هذا . وإما أن يكون معناه : آمنوا ولم يداخل إيمانهم ريب ؛ وأفرد بالذكر مع أن الايمان يقتضيه ، للدلالة على مكانة نفى الريب والشك من الإيمان . وجاء « ثم » للدلالة على استقرار الإيمان فى الأزمنة المترامية المتطاولة ، غضا طريا .

الجهاد بالنفس يشمل القتال ، والمرابطة فى الثغور على حدود بلاد الاسلام ، ويشمل الحراسة ، وكل عمل من الأعمال التى يحتاج اليها القتال . والجهاد بالمال يشمل جميع أنواع البر ، من الزكاة ، والصدقة ، وبناء المساجد ، والمصحات ، وإنشاء المرافق العامة للمسلمين . ومن أهم أنواع الجهاد بالمال ، تجهيز الغزاة بالمعدات ، والإنفاق عليهم فى طعامهم وشرابهم ولباسهم .

ذكر الجهاد فى هذه الآية وحده من بين أنواع الطاعة ؛ وفرض على المسلمين فى آية « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا » أن يكونوا مع المظلوم على الظالم حتى يرجع الى الحق . والجهاد فى سبيل الله معناه الجهاد لإعلاء كلمة الله ، وإعزاز دينه ؛ وإعلاء كلمة الله . إعزاز

إعلاء للحق ؛ فكأن المسلم ندب من الله لنصر الحق وإعزازه ، والضرب على أيدى البغاة ؛ وندب لتطهير الأرض من الفساد .

هذه منزلة وضع بها فى الدرجة العليا من منازل الكرامة ؛ فعليه أن يعد نفسه لها ، وأن يعتبر نفسه جنديا ، إما فى القتال والغزو ، وإما فى الرباط ، وإما على أهبة أن يدعى لواحد منها . وقد جعل الله أجر الجهاد عظيما ، وجعل عقوبة التخلف عنه سخطه وغضبه . ولا أريد أن أعرض لحكم الجهاد فى بقاء فرضيته الى الأبد ، وفى أنه فرض عين أو كفاية ، فهذه مسائل تكفلت بها كتب الفقه . ولكن مما لا نزاع فيه عند أحد أنه إذا قوتل المسلمون واعتدى عليهم ، قتالا للدين أو للوطن ، وجب على المسلمين الجهاد ، وقتال المعتدين ، وأنهم يأثمون جميعا إذا لم يتعاونوا جميعا على قتال الأعداء . والجهاد فى سبيل الله هو الجهاد الذى لا يقصد منه مغنم دنيوى . فعن أبى موسى أن أعرابيا أتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله : الرجل يقاتل للمغنم ، والرجل يقاتل للذكر ، فمن فى سبيل الله ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : « من قاتل لتكون كلمة الله العليا فهو فى سبيل الله » .

ويمكن أن نعتبر الآية الكريمة الآتية دستور الاسلام فى القتال : « لا يَنهاكم اللهُ عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من ديارِكم أنْ تَبرُّوهم وتُقسِطوا إليهم ، إن الله يحب المقسطين . إنما ينهاكمُ اللهُ عن الذين قاتَلوكمْ فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظَاهَرُوا على إخراجكم أن تولَّوهم ، ومَنْ يتولَّهم فأولئك هم الظالمون (١) » .

أمر الله ورسوله بالجهاد ، وبين فضله ، ورغب فيه . وفى الكتاب العزيز : « فلْيقاتلْ فى سبيل الله الذين يَشْرُون الحياةَ الدنيا بالآخرة ، ومَن يقاتلْ فى سبيل الله فيُقتلْ أو يَغلِبْ فسوف نؤتيه أجرا عظيما (٢) » ، « لا يستوى القاعدون من المؤمنين غيرُ أولى الضَّرَرِ والمجاهدُون فى سبيل اللهِ بأموالِهم وأنفسِهم ، فَضّل اللهُ المجاهِدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجةً ، وكلًّا وَعدَ اللهُ الحسْنى ، وفضّل اللهُ المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما : درجات منه ومغفرةً ورحمةً ، وكان الله غفورا رحيما (٣) » ، « أجعلتم سِقَايَةَ الحاجِّ وعِمارةَ المسجدِ الحرام كمن آمنَ باللهِ واليومِ الآخرِ وجاهدَ فى سبيل اللهِ ، لا يستوون عند اللهِ ، واللهُ لا يهدِى القومَ الظالمين . الذين آمنوا وهاجَروا وجاهَدُوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظمُ درجةً عندَ اللهِ ، وأولئك همُ الفائزون . يبشّرهم ربُّهم برحمة منه ورِضوانٍ وجناتٍ لهم فيها نعيمٌ مقيمٌ . خالدين فيها أبدا ، إنّ اللهَ عنده أجرٌ عظيمٌ (٤) » .

وعن النبى صلى الله عليه وسلم : « ضَمِن اللهُ لمن خرج فى سبيله لا يخرجه إلا جهادٌ فى سبيله وإيمانٌ به ، وتصديقٌ برسله ، أن يُدخله الجنةَ ، أو يَرجعه الى منزله الذى خرج منه

(١) الممتحنة : ٨ ، ٩ (٢) النساء : ٧٤ (٣) النساء : ٩٥ (٤) التوبة : ١٩ ــ ٢٢

نائلا ما نال من أجر أو غنيمة » . وعنه أيضا : « عينان لا تمسهما النار : عين بكت من خشية الله ، وعين باتت تحرس فى سبيل الله . ألا أنبئكم بليلة أفضل من ليلة القدر ؟ حارس حرس فى أرض خوف لعله ألا يرجع الى أهله ؛ ومن رابط ليلة حارسا من وراء المسلمين كان له أجر من خلفه ممن صلى وصام » . والرباط : هو الذى يكون آخر بلاد الاسلام على حدود بلاد الأعداء .

وعنه صلى الله عليه وسلم : « من أعان مجاهدا فى سبيل الله أظله الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله » . وقال : « رباط يوم فى سبيل الله خير من الدنيا وما فيها ، والروحة يروحها العبد ، أو الغدوة ، خير من الدنيا وما فيها » .

أمر الله بالجهاد ، وأمر بأن يعد للأعداء العدة ، حتى لا يؤخذ المسلمون على غرة ، فقال : « وأعِدّوا لهم ما استطعتم من قوّةٍ (١) » . والقوة تختلف باختلاف العصور ، وتجد فى كل عصر عدة وأسلحة للقتال ، فلا يجوز أن يكون المسلمون متأخرين عن غيرهم فى العدة ، وعليهم أن يتقنوها ، وعليهم أن يصنعوها ، وعليهم أن يحرزوا موادها ، وعليهم أن يعرفوا أسرار المواد ، وأسرار الصنعة ، كل هذه معارف يجب على المسلمين أن يحيطوا بها ، كما يجب أن يحيطوا بالدين وأسراره ، واللغة العربية وعلومها .

لكن المسلمين قد حرموا بعض هذه المعارف ، فعاقبهم الله بما هم فيه من ذل وهوان ! !

يجب على المسلم أن يعد نفسه جسمانيا ليكون دائما على أهبة القتال ، فيتعلم ضروب الرماية ، والسباحة ، ويمرن عقله ، ويمرن نفسه على الصبر واحتمال الأخطار . كل هذا يدخل تحت قول الله سبحانه : « وأعِدّوا لهم ما استطعتم من قوة » . وفى الحديث الشريف : « كل شىء ليس من ذكر الله فهو لهوٌ ، إلا أربع خصال : مشى الرجل بين الغرضين (أى بين الهدفين اللذين يوضعان للرمى) ، وتأديب فرسه ، وملاعبة أهله ، وتعليم السباحة » . وعنه أيضا : « من تعلم الرمى ثم تركه فليس منا ، ومن تعلم الرمى ثم نسيه فهى نعمة جحدها » .

وحرم الله فى القتال الفرار من الزحف : « يأيها الذين آمنوا إذا لقيتمُ الذين كفروا زحفاً فلا تولّوهم الأدبارَ ، ومن يولّهمْ يومئذ دبرَه إلا متحرّفاً لقتال ، أو متحيّزاً الى فئةٍ ، فقد باء بغضبٍ من الله ، ومأواه جهنّمُ ، وبئس المصيرُ (٢) » .

وحث الله تعالى على الإسراع فى إجابة الدعوة الى القتال فى سبيل الله ، وحرم التثاقل ، فقال تعالى : « يأيها الذين آمنوا ما لكُمْ إذا قيل لكُمُ انفِروا فى سبيل الله اثّاقلتم الى الأرض ؟ ! أرَضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة ! فما متاعُ الحياةِ الدنيا فى الآخرة إلا قليلٌ .

(١) الانفال : ٦٠ (٢) الانفال : ١٦

إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليما ، ويستبدل قوماً غيركم ، ولا تضروه شيئاً ، والله على كل شيء قدير (١) » .

وعن النبي صلى الله عليه وسلم : « ثلاثة لا ينفع معهن عمل : الشرك بالله ، وعقوق الوالدين، والفرار من الزحف » . وفي حديث آخر : « خمس ليس لهن كفارة — وعد منهن : الفرار من الزحف » .

هذه هي أحكام الجهاد ، وفضله . ولم يشرعه الاسلام للتوسع والغنم ، بل شرعه دفاعا عن الحق ، وذودا عن حياض الدين .

أعد الله المسلم ليكون في القتال رجلا إذا دعا الداعي وحانت ساعة الإقدام ، وليكون ملكا مهذب الأخلاق ، سمح الطباع ، لا يسخر من أحد ولا يلمزه ، مؤدبا مع الله سبحانه : لا يقدم رأيا على رأيه ، ومع الرسول الكريم : يخاطبه باللين والرفق ، ويجاهد نفسه وهواه . هذا هو المسلم الذي يريده الاسلام .

فهل آن للمسلمين أن يفهموا المسلم ، وأن يتدبروا ما هو مطلوب من المسلمين ، وأن يهبوا لدفع الأخطار المحيقة ببلادهم ، والأخطار التي ربما قوضت مبادئ الدين ؟ !

أعتقد أن ناقوس الخطر دق ، وأن مؤذن الفلاح والصلاح قد صاح ، وأن الفرصة سانحة الآن لخير الاسلام والمسلمين .

* * *

(قل أتعلمون الله بدينكم والله يعلم ما في السموات وما في الأرض ، والله بكل شيء عليم) :

يعني : أتعلمونه عقيدتكم وتقولون آمنا ؟ ومعناه : أطعنا وتحققنا بالشرائع ، أو صدقنا ووافق قولنا ما في قلبنا وأنتم على غير ذلك ، وهو عالم بما كان ويكون وما هو كائن ، لا تخفى عليه خافية .

* * *

(يمنون عليك أن أسلموا ، قل لا تمنوا على إسلامكم ، بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين) :

(١) التوبة : ٣٨ ، ٣٩

كان هؤلاء الأعراب يقولون للنبي صلى الله عليه وسلم : إنا أسلمنا بغير قتال ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان وبنو فلان . فأمر صلى الله عليه وسلم أن يقول لهم : لا تمنوا على إسلامكم ، بل الله هو الذى يمن عليكم أن وفقكم للإيمان بالله ورسوله على حسب زعمكم ، فان كنتم صادقين فى قولكم آمنا ، فالله وحده هو الذى هداكم لهذا الإيمان الذى تزعمونه وتدعون أنكم أرشدتم اليه .

يقال : منّ عليه بيد أسداها اليه . والمنة : النعمة التى لا يستثيب مسديها ، من المن وهو القطع ، لأن مسديها أراد قطع حاجة صاحبها ، ولم يطلب المثوبة . ومنّ عليه صنعه : إذا اعتده عليه .

قال صاحب الكشاف : سياق الآية فيه لطف ورشاقة : ذلك أن الكائن من الأعاريب قد سماه الله إسلاما ، ونفى أن يكون إيمانا كما زعموا ، فلما منّوا ما كان منهم قال الله لرسوله : إن هؤلاء يعتدّون عليك ما ليس جديرا بالاعتداد به ، من حديثهم الذى حقه أن يقال له إسلام ، فقل لهم : لا تعتدُّوا علىّ إسلامكم ، أى حديثكم المسمى عندى إسلاما لا إيمانا ، بل الله يعتد عليكم أن أمدكم بتوفيقه حسب زعمكم للإيمان ؛ فان صح زعمكم ، وصدقت دعواكم فالله صاحب المنة ؛ لكنه زعم يعلم الله خلافه .

***

(إن الله يعلم غيب السموات والأرض ، والله بصير بما تعملون) :

وإذا كان يعلم الغيب فى السموات والأرض ، فهو يعلم الصادق منكم والكاذب ، والداخل فى الاسلام رغبة فيه ، والداخل خوفا من جند الله وحقنا لدمه ، فلا يصح لكم أن تعلموه ما أنتم عليه ، فهو يعلم ما تكنه الضمائر ، وما تحدث به النفس ، وما غاب عنكم فاستتر فى خبايا السموات والأرض ؛ وهو بصير بأعمالكم التى تعملونها سرا وجهراً ، وطاعة ومعصية ؛ وهو مجاز على هذا كله ، يجزى على الشر بالشر ، وعلى الخير بالخير .

وأسأل الله العلى القدير ، أن يوفق المسلمين لمعرفة دينهم ، والعمل على سعادتهم فى الدنيا والآخرة ، إنه سميع مجيب ؟

السيرة المحمدية
تحت ضوء العلم والفلسفة

نشوء الدولة الاسلامية

بين العوامل المختلفة

لما وصل النبي صلى الله عليه وسلم الى المدينة ، احتفل به أهلها أيما احتفال ، وانتشر بينهم الاسلام أيما انتشار ، حتى لم يبق بيت إلا دخله نوره الساطع ، فكان انقلاب فى عشية وضحاها لم تشهده مدينة قبلها فى الأرض ؛ وأى مدينة جاهلية فى أية بيئة من بيئات المعمور ، يجلو عنها دين رسخت أصوله فى عقول أبنائها منذ ألوف من السنين ، ويحل محله دين جديد ، ليس الداعى إليه بملك عظيم يرجى أن تعمهم عطاياه ، وتحميهم من أعدائهم جيوشه وسراياه ، ولكنه صاحب دعوة نبتْ به دياره ، وعاداه قومه ، ولحق به من شيعته رجال لا يملكون شروى نقير ، حاملا إليهم معه الجهاد الفادح ، والنضال العنيف ؟ فلو كان سألهم سائل : بأى شيء تفرحون ، وأنتم بقايا سيوف لا تزال تنطف دما ، وجَزَر معارك لا يفتأ صداها يملأ الجواء ؟ لقد جئتم الى قريش لتستنصروا بها ، أفتعودون وقد استجلبتم سخطها ، واستهدفتم حربها ؟ وكنتم تستنجدون البعيدين عنكم ، على عدو كان يساويكم عددا وعدة ، أفتنقلبون وقد أثرتم عليكم العرب كلهم ؟ فماذا ترجون من وراء هذه المغامرة التى لم تندفع فى تيارها جماعة قبلكم إلا باءت بالويل الوائل ، والهول الهائل ؛ قلنا لو كان سألهم سائل هذه المسألة ، ولعلهم لم يعدموا من سألهم إياها ، لكان جوابهم أنهم يرجون إحدى الحسنيين : إما إقامة دولة الحق فى الأرض ، وإما الشهادة فى سبيلها .

إيمان راسخ يعجز علم النفس عن تعليله لو حدث لرجل واحد ، فما ظنك وقد حدث لقبيلتين متحاقدتين ؟ فى هذه البيئة من الإيمان المتين ، والتسليم المطلق ، أسس النبى صلى الله عليه وسلم حكومته (النبوية) ، وهى طراز من الحكومات لا تقوم إلا فى عهد الرسالات الدينية ، أساسها الوحى الإلهى والشورى ؛ الوحى فى الأمور الكلية التى تتأصل فيها الأصول ، وتتدعم المبادئ الأولية للدين والدولة المستقبلين ، والشورى فى الأمور الجزئية التى تترك لتصرف العقل . فالجانب المطلق من هذه الحكومة كان لله وحده ، والجانب الشورى كان للجماعة

على نظام الحكومات الدستورية . فكان إذا حدث أمر سأل النبيُّ صلى الله عليه وسلم أصحابه عن وجه السداد فيه ، فكانوا يقولون له : أنزل فيه قرآن يا رسول الله ؟ فكان يقول لهم : لو نزل فيه قرآن ما سألتكم . فكانوا يتباحثون فيه . وربما خالف رأيهم رأيه فيعدل عن رأيه الى رأيهم .

على موجب هذا النظام تألفت جماعة المسلمين ، وتم فيها نزول القرآن على حسب الحوادث التى يقتضيها قيام جماعة من أول تكوُّنها الى أن تصل الى درجة أمة ، ولا يخفى أن بين هذين الطرفين تتعاقب أحداث ، وتطرأ مشاكل ، تارة تصادف حلولا ، وطورا تؤدى الى مآزق تصطهر فيها النفوس ، وتبلى السرائر ، وتبلغ الروح الحناجر ، لذلك جاء هذا القرآن الكريم حاويا كل ما تحتاج اليه كل نفس بشرية فى تكملها ، وكل هيئة اجتماعية فى تطورها ، فكان كما وصفه جل وعز : « ما فرّطنا فى الكتاب من شىء » .

فالباحث الاجتماعى يستطيع بتتبع أطوار جماعة المسلمين ، وما اقتضت نزوله من الآيات القرآنية ، أن يشرف على نشوء نواةٍ أكبر أمة عالمية نالت من زعامة الأرض مكانة لم تنلها أمة قبلها ولا بعدها ، ووضعت من صرح المدنية الفاضلة أصولا لا تزال أثبت وأقوى قواعدها الى اليوم . وهذا ماسنقوم به فى هذه السيرة متبعين أصول الدستور العلمى ، وفاء بما شرطناه فى مقدمتها على أنفسنا ، فنقول :

استقر النبى صلى الله عليه وسلم من يثرب فى جماعة قبلت الاسلام دينا ، وسلمت له مقادتها يقودها الى حيث يشير به عليه الوحى من سلم وحرب ، لا ينازعه منهم منازع ، ولا يعقّب على حكمه معقّب ، وهى قيادة لم ينلها قبله فى قبيلة أجنبى عنها . فقد جرت العادة عند العرب وغيرهم أن الذى يسود القبيلة ويقودها واحد منها ، فكان يستحيل أن يسود قريشا غطفانى ، ولا غطفان تميمى . هذا كان بين القبائل التى تنتمى الى أصل واحد ، كالقبائل التى يتصل نسبها بعدنان ، فما ظنك بمن تنتمى الى أصلين مختلفين ؟ لا جرم كان هذا من أشد المحالات .

كان فى بلاد العرب نوعان من القبائل : عدنانية ، ويمانية ، نزحت هذه الأخيرة من اليمن عقب كارثة سيل العرم الى جهات كثيرة من الشمال ، لحافظت على لهجتها وعاداتها وتقاليدها ، منها قبيلتا الأوس والخزرج اللتان عمرتا يثرب ، فقد كانتا يمانيتين قحطانيتين ، وكان من المحال عليهما أن تضعا على رأسيهما زعيما عدنانيا ، تلك كانتا تعدانها مسبة لا تزول عنهما وصمتها مابقى الفرقدان . فكان قبولها لزعامة محمد صلى الله عليه وسلم وهو من صميم قريش ، غير آبهتين بعاداتهما التقليدية ، انقلابا عجيبا فى نفسية أولئك القوم ، لا يمكن عزوه إلا الى عظم سلطان الاسلام على قلوبهم ، حتى جعلهم لا يبالون بأقدس تقاليدهم الاجتماعية .

ولكن الاسلام لم يكن قد عم جميع آحاد تينك القبيلتين ، فبقى منهم قوم على كفرهم باطناً ، وإن كانوا التحفوا الاسلام ظاهرا ، وأولئك كانوا يدعون بالمنافقين ، وكان أمرهم لا يخفى

على النبي صلى الله عليه وسلم وبعض أخصائه ، ولـكنه كان يقبل منهم ظاهرهم ، وا كلاً سرائرهم الى الله ، ما داموا خاضعين لحـكومته ، ومتظاهرين بالاعتقاد برسالته . فـكان ضررهم ينحصر فى حل عزائم المؤمنين ، إذا دعاهم الرسول للجهاد ، بنفث الذعر فى قلوبهم ، وبث اليأس فى نفوسهم ، بالتهويل فى قوى أعدائهم ، والمبالغة فى عـددهم . فاذا لم تفلح وسائلهم فى صرفهم ، عمـدوا الى ما هو أفعل فى إفشالهم ، فخرجوا معهم ، حتى إذا تلاقى الجمعان فى ساحة الوغى تبادروا الى الهزيمة ليجرّوا المؤمنين معهم ؛ وهو تدبير خطير يؤثر فى القوى المعنوية للمقاتلة أسوأ تأثير ؛ فـكان النبي صلى الله عليه وسلم يغض الطرف عن فعلهم ، ويقبل واهن أعذارهم .

فاذا وضعت الحرب أوزارها ، وعاد المسلمون الى بلدهم ، عادوا الى سابق إرجافهم ، وتظاهروا بالإشفاق على إخوانهم ، وروجوا من سيء المبادئ ، وسقيم الآراء ، ما تتسمم به النفوس ، وترتبك العقول ، فـكانوا أشد على النبي وصحبه من أعدائه المصارحين بعداوته ، المتوعديه بحل جماعته . كل هذا ولا يأذن صلى الله عليه وسلم فى اصطلامهم لاتقاء شرهم ، لمخالفة ذلك للمبدأ الاسلامى العظيم من قبول الظاهر ، وترك الباطن لعلاّم السرائر ؛ وهـذا مبدأ جليل القدر ، بعيد الأثر فى تربية الأمم على احترام الحياة البشرية ، وعدم الإسراف فى سفك الدماء جريا وراء الظِنَن الحزبية . والأمة التى تربى على هذا المبدأ من لدن تأسيسها الأول ، تمضى فى تطبيقه فى جميع أدوارها ، كتقليد من تقاليدها الاجتماعية ، فتتقى شرور التناحر فى حياتها المدنية ، حيث تختلف المبادئ ، وتتباين المذاهب ، فلا تتصدع وحدتها لمجرد الخلاف فيها لاختلاف وجهات النظر . وهذا الضبط للنفس من أجلّ ما تتصف به الأمم الرشيدة ، وقد اعتبر اليوم وليد الثورة الفرنسية ، وهو كما ترى وليد الديانة الاسلامية .

ومما يوجب الدهش فى أمر الاحتمال الذى أمر به الاسلام حيال المنافقين ، أن ما وصفهم به القرآن من المخادعة والمراوغـة ، وبذر بذور الفتن بين الفئام ، واستغلال الحوادث لحل جماعة المؤمنين ، مما لا تطيقه إلا أمة بلغت من ضبط النفس ، وكبح الهوى ، درجة ليس بعدها مرتقى . ونحن نورد لك بعض ما جاء عنهم فى الـكتاب الـكريم إدلالا على ما نقول :

قال تعالى : « ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين . يخادعون الله والذين امنوا ، وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون . فى قلوبهم مرض ، فزادهم الله مرضاً ، ولهم عذاب أليم بما كانوا يـكذبون ، وإذا قيل لهم لا تفسدوا فى الأرض ، قالوا إنما نحن مصلحون . ألا إنهم هم المفسدون ولـكن لا يشعرون . وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس ، قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ، ألا إنهم هم السفهاء ولـكن لا يعلمون . وإذا لقُوا الذين آمنوا قالوا آمنا ، وإذا خَلوْا الى شياطينهم (أى الى إخوانهم فى الـكفر) قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون » .

« إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرَسولُ الله ، والله يعلم إنك لرسوله ، والله يشهد إن المنافقين لكاذبون . اتخذوا أيمانهم جُنّة فصدوا عن سبيل الله ، إنهم ساء ما كانوا يعملون . ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون . وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم ، وإن يقولوا تسمعْ لقولهم ، كأنهم خشب مسندة ، يحسبون كل صيحة عليهم ، هم العدو فاحذرْهم ، قاتلهم الله أنى يؤفكون » .

« هم الذين يقولون لاتنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضّوا ، ولله خزائن السموات والأرض ، ولكن المنافقين لايفقهون » .

استمر المنافقون يدأبون على حل جماعة المسلمين وهم فى صميمها ، والنبى غير مبال بهم ، حتى تفاقم شرهم ، فنزل فى حقهم قرآن يهددهم بأخذهم بالعنف ، فقال تعالى : « لئن لم ينته المنافقون والذين فى قلوبهم مرض والمرجفون فى المدينة ، لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلا . ملعونين ، أينما ثقفوا أخذوا وقُتلوا تقتيلا » ، أى لئن لم يقلع المنافقون عما هم بسبيله من المفاسد ، لنسلطنك عليهم ، فيضطرون للجلاء عن المدينة ، وعدم مجاورتك فيها ، ويصبحون بعد ذلك ملعونين ، وتهدر دماؤهم أينما صودفوا . ومع هذا استمر الاسلام على مطاولتهم حتى لم يبق فى جزيرة العرب من يصغى الى إفكهم ، ففنوا فى جماعة المسلمين ، وطهرها الله منهم . وهذا ما لم يسمع بمثله فى تاريخ الانقلابات الاجتماعية ، حيث تراق الدماء ، وترتكب الإفراطات ، وتروج الظنن والاتهامات ، حتى تتغلب الآراء الجديدة ، فتثوب الجماعة الى رشدها ، وتستقر الأمور فى نصابها (راجع تواريخ الثورات الكبرى) .

* * *

لم تكن عوامل الفساد فى جماعة المسلمين الأولين مقصورة على المنافقين ، فقد كانت تجاور المدينة ثلاث قبائل يهودية : بنوقينقاع ، وبنوالنضير ، وبنوقريظة ، وقد ساءها أن تتأسس فى يثرب ديانة يُتوقع أن يكون أشياعها أشد عليهم من قبيلتى الأوس والخزرج ، فتجليهم عن البيئة التى اتخذوها دار هجرة لهم ، وتعيد لهم عهد الاضطهاد الذى ذاقوا مرارته تحت سلطان الدولة الرومانية ، فاتفقوا مع المنافقين على مناوأتها العداء ما استطاعوا اليه سبيلا . فكان أولئك بما تظاهروا به من الاسلام يخالطون المسلمين ، ويسعون بينهم بالنمائم والإرجافات ، وينقلون الى الآخرين ما يقفون عليه من الأخبار ، وما يترامى اليهم من الأسرار .

ولكن نظرا لأن هؤلاء كانوا أهل دين سماوى ، وكان فيهم أحبار متضلعون فى الثقافة الدينية ، وعارفون بالأساليب الجدلية ، كانوا من هذه الناحية أشد على جماعة المسلمين من جميع أعدائهم . لأن قوام الدعوة الاسلامية كان يتوقف على تأثيرها فى العقول والقلوب ، وهؤلاء الأحبار كانوا لا يَنُون فى مهاجمة عقائد الاسلام وأصول شريعته ، بقصد بذر الشبهات ضدها ،

فكانوا بهذا العمل مثيرين على الاسلام حربا أدبية ، أفعل فى الصد عنه من الحرب المادية ؛ فلو كان فى مكان النبى صلى الله عليه وسلم الأمة العربية بأسرها فى أميتها وجاهليتها وبعدها عن العلم ، لما نهضت لها حجة إزاء هؤلاء الأحبار ، الذين كانوا من أخبار النبوات وتواريخ الأمم القديمة والمعاصرة ، وشئون الحياة المدنية ، فى مستوى أمثالهم من رجال الدين فى البيئات المتحضرة . واليهودية أقدم الأديان الساميَّة بعد دين ابراهيم ، وأهلها يدّعون أن ماجاء بعدها قد استمد وجوده منها ، وهم لا يزالون يروجون هذه الدعوى الى اليوم ؛ فأراد الحق سبحانه وتعالى أن ينزل الاسلام فى هذه البيئة من النضال الدينى ليثبت للعالم بدليل محسوس أنه لم يستمد وجوده من دين سابق عليه ، ولكنه هو نفسه الدين الأول الذى استمد كل دين مادته منه ، كما قرر ذلك بقوله تعالى : « شرع لكم من الدين ماوصى به نوحا ، والذى أوحينا اليك ، وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى : أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه »

لهذا السبب جاءت فى القرآن آيات كثيرة جدا فى مجادلة اليهود وإلزامهم الحجة ، فسردت ما كانوا عليه من الاستعصاء على عهد أنبيائهم الأولين قبل موسى عليه السلام ، وما كانوا يقابلونهم به من الالتواء والمراوغة ، وما استحقوه بسبب ذلك من تسلط الوثنيين عليهم ، ثم عقبت ذلك بما كانوا عليه على عهد موسى من الشقاق ، وما أظهروه فى مواطن شتى من العصيان والخلاف ، وما جناه ذلك عليهم من الوقوع فى أسر الأمم الفاتحة ، حتى أدى ذلك الى هدم هيكلهم المقدس مرات ، وتشتيتهم فى الأرض ، وضياع استقلالهم فى عقر دارهم ، يتخلل ذلك ما عمدوا اليه من مسايرة أهوائهم ، ومتابعة شهواتهم ، وما جنوه على أصولهم بالتأويل والتحريف حتى حللوا كثيرا مما كان محرما عليهم .

فهذه الناحية من القرآن الكريم كشفت عن أصالته فى سمو المبادئ ، واستقامة الأصول ، وعن تحليه بضروب المناعات حيال كل شبهة تثار عليه ، فإن المقابلة التى اقتضاها الجدل بين الدينين أبانت بدليل محسوس عن الفرق البعيد بينهما ؛ فقد دل الأول على أنه دين أسرة واحدة ، مرتبطة بأرض معينة ، لا يصح لها وجود بدونها ، وأنه خلاصة عقلية تلك الأسرة فى أطوارها المختلفة ، فلا يصلح لغيرها ؛ ودل الثانى على أنه دين البشرية بأسرها ، وأنه جامع لكل ما بلغته من خير فى جميع أطوارها ، وأنه بما طبع عليه من صفة العمومية ، وما تحلى به من مزية الإطلاقية ، وما وقف عنده من المثل العليا ، يصلح لكل زمان ومكان .

فى هذه البيئة وما حوته من العوامل الأدبية والمادية المختلفة ، ناضل الاسلام عن وجوده وإقام دولته ، ومنها امتد الى أقطار الأرض ، ولمّا يبلغ مداه بعد ؟ (يتبع)

محمد فريد وجدى

السنة

الوفاء بالعهد

عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أربعُ خِلالٍ مَنْ كنّ فيه كان منافقا خالصا : مَن إذا حدّث كذَب ، وإذا وَعد أخلف ، وإذا عاهد غَدَر ، وإذا خاصم فَجَرَ ؛ ومن كانت فيه خَصلةٌ منهن كانت فيه خَصلةٌ من النفاق حتى يَدَعَها » . رواه البخارى فى كتاب الجهاد ، وفى كتاب الإيمان .

يتعلق بشرح هـذا الحديث أمور : (١) بيان معنى النفاق ، وهل ينطبق هـذا المعنى على من كانت فيه هـذه الخصال أو بعضها ؟ (٢) بيان قيمة الوفاء بالعهود فى نظر الشريعة الاسلامية وما يترتب على نكثها من آثام وأضرار . (٣) بيان ما يترتب على كل خصلة من باقى الخصال المذكورة فى الحديث من مضار خلقية واجتماعية .

(١) معنى النفاق فى اللغة : مخالفة الظاهر للباطن . ومعناه فى الشرع : الاعتراف بصدق الرسول باللسان فقط مع كون القلب منكرا غير مقر . وإن شئت قلت : هو الإقرار باللسان والإنكار بالقلب . فالمنافقون فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم هم الذين كانوا يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر ؛ فكانوا شرا على المسلمين من المشركين الذين كانوا يجاهرون بالعدوان ، ويعلنون عبادة الأوثان ؛ لأنهم كانوا يختلطون بهم ويعرفون أسرارهم المتعلقة بالجهاد وغيره ، ويحاولون التأثير على بعض المؤمنين المخلصين ليفسدوا عليهم اعتقادهم . ولولا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان متصلا بالوحى الإلهى حقا ، وكان الله سبحانه يحذر النبى وأصحابه من شرهم ، ويبين لهم ما يخفون من عقائد ، لكان خطرهم على الاسلام يومئذ عظيما . ولكن الله سبحانه حذر منهم نبيه ، وأنزل فيهم كثيرا من الآيات ، وهددهم بالعذاب العاجل والآجل .

وقد كانت تبدر منهم هنات تدل على نفاقهم ، كتخلفهم عن الغزو ، وانتهاز الفرص للإيقاع بين المهاجرين والأنصار ، وبث بذور العداوة والبغضاء بينهم . فمن ذلك ما روى البخارى معناه من أن المسلمين كانوا فى غزوة ، فوقع شقاق بين رجلين ، أحدهما من الأنصار ،

والآخر من المهاجرين ، فاستغاث كل منهما بقومه على عادة الجاهلية كي يستفزهم لمناصرته فيقع القتال بين الفريقين ؛ وكان في القوم رأس المنافقين عبد الله بن أبي ابن سلول ، فانتهز الفرصة ، وقال : لئن رجعنا الى المدينة ليُخرجن الأعزُّ منها الأذلَّ . فلما بلغ رؤساء الأنصار ورؤساء المهاجرين هذا الأمر ، غضبوا وطلبوا من النبي صلى الله عليه وسلم أن يأمرهم بقتل ابن أبي ؛ فأبى عليهم ذلك ، وقال لهم : إنكم إذا قتلتموه يقول الناس : إن محمدا يقتل أصحابه . وأصلح بينهم ، ونهاهم عن التمسك بعادات الجاهلية الفاسدة .

وقد أنزل الله في ذلك سورة المنافقين ، فقال تعالى : « إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله ، والله يعلم إنك لرسوله ، والله يشهد إن المنافقين لكاذبون » الخ ، وقال فيها : « يقولون لئن رجَعْنا الى المدينة لَيُخرجنّ الأعزّ منها الأذلّ ، ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون » .

ولعل قائلا يقول : إنك قد عرّفت النفاق بأنه الإقرار باللسان مع الإنكار بالقلب ؛ والكذب وصف للإقرار اللساني ؛ وهؤلاء قالوا بألسنتهم : نشهد إنك لرسول الله ، فكيف يصفهم الله بالكذب في هذا القول مع كونه صدقا لا شك فيه ؟

والجواب : أن قولهم : نشهد إنك لرسول الله ، وإن كان مطابقا للواقع ونفس الأمر ، ولكنه ليس مطابقا للواقع عندهم ؛ والكذب هو عبارة عن عدم مطابقة الواقع في نفس الأمر أو في زعم المخبر ؛ فالذي يخبر بخبر يعتقد أنه ليس بصحيح يكون كاذبا في نظر الشرع ، وإن كانت صيغة الخبر صحيحة ، لأن الشارع يعتبر النية في هذا المقام ، كما قال صلى الله عليه وسلم : « إنما الأعمال بالنيات » . ألا ترى أن المجتهد إذا أخبر بخبر يعتقد صدقه ولم يكن صادقا فيه يثاب عليه ؟ لأنه إنما أخبر بناء على اعتقاد يرضاه الشرع ويقره . وبعضهم يقول : إنهم كاذبون في الشهادة ، لأن قولهم نشهد ، يتضمن دعوى أن هذا يسمى شهادة ؛ والشهادة في لسان الشرع يشترط فيها أن يكون ما في القلب مطابقا للنطق باللسان . وتسمية قول الزور شهادة من باب التجوز ، لأن المفروض فيها أن يكون اللسان فيها مطابقا لما في القلب ؛ فمن شهد الزور فقد سقط في نظر الشريعة عن الاعتبار . وهناك وجهان آخران في الجواب لاحاجة الى ذكرهما هنا .

من هذا تعلم أن المنافقين بهذا المعنى من أرذل الكافرين وأخسهم ، سواء كانوا من أهل الكتاب أو من المشركين ، ولذا قال تعالى : « إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار » . فلهم الخزي في الدنيا ، ولهم في الآخرة سوء العذاب .

ومما لا خفاء فيه أن النفاق بهذا المعنى ليس بمقصود في هذا الحديث ، وإنما المراد أن هذه الخصال السيئة يتجافاها المؤمنون حقا ، الذين تخلقوا بأخلاق الاسلام ، وعملوا بما جاءهم به

الرسول صلوات الله عليه من مكارم الأخلاق وأحاسن الصفات . فهذه الخصال المذكورة فى الحديث لا ينبغى أن تصدر إلا من المنافقين الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر . وعلى هذا يكون معنى الحديث أن صاحب هذه الخصال شبيه بالمنافقين فى أعمالهم ، وإن كان مؤمنا بقلبه مقرا بلسانه .

وبعضهم يقول : إن النفاق ينقسم الى قسمين : نفاق فى العمل ، ونفاق فى الاعتقاد . فالذين يعملون ما نهى عنه الشارع من الرذائل الخلقية مع اعتقادهم بصدق الرسول فيما جاء به ، منافقون فى العمل دون الاعتقاد . ومن ذلك ما روى عن عمر رضى الله عنه أنه قال لحذيفة : هل تعلم فىّ شيئا من النفاق ؟ فان مراده نفاق العمل طبعا .

(٢) الوفاء بالعهود فى نظر الشريعة الاسلامية فرض من الفرائض المقدسة التى ينبغى القيام بها على وجه تام لا انحراف فى أى ناحية من نواحيه . ويطلق العهد فى اللغة على معان كثيرة ، منها الأمان ، يقال : أعطى لفلان عهدا ، إذا أمنه من شر ؛ ومنها اليمين ، يقال : علىّ عهد لأفعلن كذا ، أى يمين ؛ ومنها الذمة ، يقال : لفلان علىّ عهد ، أى ذمة . وهذه المعانى كلها قد أمرت الشريعة الاسلامية بالوفاء بها . وهذا الحديث الذى معنا صريح فى أن من خالف عهدا من العهود كانت فيه خصلة من خصال المنافقين المذمومة .

من أجل ذلك قال الله تعالى : « يأيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود » . والوفاء والإيفاء أيضا : هو القيام بما يقتضيه العقد . والعقد هو العهد الموثق سواء كان متعلقا بأمر مادى أو أدبى ، كالتعاقد على معونة فى عمل من الأعمال ، أو ضمان ، أو كفالة ، أو مناصرة على عدو أو دفع أذى ، أو غير ذلك من الأمور المشروعة التى تستلزمها الحياة الانسانية .

فمن عاهد ثم غدر كان من شر الفجار الآثمين فى نظر الاسلام ، ولذا ذم الله سبحانه وتعالى المشركين بنكث العهود أقبح ذم ، فقال : « إن شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون . الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم فى كل مرة وهم لا يتقون » ؛ فقد وصفهم الله بانهم أسوأ حالا من الدواب التى لا تعقل معنى الشرف والكرامة ، ولا تقيم للعهود والمواثيق وزنا ، وذلك لأن الانسانية تقتضى تبادل المنافع ودفع الشر بقدر المستطاع ، فاذا تعهد أفراد أو جماعات على أن يكف بعضهم عن إيذاء بعض ، أو ينفع بعضهم بعضا ، فانه يجب عليهم أن ينفذوا ما تعاهدوا عليه بالدقة ؛ وإذا لم تكن للعهود والمواثيق قيمة عندهم ، ارتفعت الثقة من بينهم ، وأصبحوا كالحيوانات العجم الذين لا همّ لهم إلا انتهاز الفرص لقضاء شهواتهم وملء بطونهم ، بل كانوا أضر على المجتمع الانسانى من الحيوانات ، لأن الحيوان شره محدود يمكن دفعه بسهولة ، أما الانسان فشره مستطير لا يقف عند حد ، ولا يمكن دفعه إلا بعد مشقة وعناء .

(٣) أما الفجر فى المخاصمة ، فمعناه أن يكثر الشخص فى القول على وجه غير صحيح كى يظهر على خصمه ويقتطع منه حقا بالباطل ، فيأتى بزخرف القول ، ويستعمل العبارات التى لا يستطيع خصمه إفحامه فيها ، ويزين الباطل كلما وجد لذلك سبيلا .

ولا ريب فى أن ذلك مذموم كل الذم ، فقد أخرج البخارى ومسلم عن عائشة رضى الله عنها أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « أبغض الرجال الى الله تعالى الألَدُّ الخَصِم » . والألد : الشديد فى خصومته ؛ والخصم بفتح الخاء وكسر الصاد : الشديد فى خصومته أيضا ؛ قال تعالى : « وهو ألد الخصام » أى شديد المخاصمة فى الباطل . وكفى بذلك زجرا لمن تحدثه نفسه باقتطاع حق الغير ، وأخذه منه بالباطل ، اعتمادا على قوة فى المنطق ونحوها . فمن الفجور المرذول أن ينتزع شخص من آخر ما ليس له بقوة المنطق وحسن البيان ونحوهما من الوسائل المفحمة للخصم بالباطل . ومن قضى له بشىء من ذلك فكأنما قطعت له قطعة من النار ، كما ورد فى حديث آخر .

أما الكذب : فهو أن يقول الانسان الباطل الذى يعرف أنه باطل ويعتقد أنه باطل ، وهو ضد الصدق . فإن كان ذلك متعلقا بأموال الناس وأعراضهم وأنفسهم كان من أشد الكبائر وأشنع الجرائم التى تضر المجتمع الانسانى ، وتقضى على العدل والنظام الاجتماعى شر قضاء . فإن الذى يكذب ويقول الزور يقتطع حقوق عباد الله أو يثلمهم فى أعراضهم أو يؤذيهم فى أنفسهم ، فهو أضر على المجتمع الانسانى من كل ما يضره ويؤذيه . فقد يكون ذلك سببا فى بث الفوضى ، وإغراء المجرمين على اقتراف الجرائم ، فينالون من أعراض الناس وأموالهم ما يشتهون تحت ستار الكذب .

ومن ذلك الكذبُ على الله ورسوله ، فمن استهوته شهوته الى أن يقول : قال الله كذا ، أو قال رسوله كذا ، وهو يعلم أنه كاذب فى ذلك ، فإنه يكون قد ارتكب جريمة من أرذل الجرائم الخلقية ، وليس لصاحبها إلا أن يتبوأ مقعده من النار .

هذا وقد يعنى عن الإخبار بغير الواقع فى بعض المواطن ، كالكذب لإنقاذ مظلوم من الهلاك ، أو تعظيم قوة الأمة الحربية فى نظر الخصم ليرهب جانبها ، أو تضليل الخصم المتعدى ليدفع شر عدوانه ، أو نحو ذلك من مهام الأمور ، بل قد يكون ذلك واجبا إذا اقتضاه النظام الاجتماعى . وقد ورد فى ذلك أحاديث ، وليس فى ذلك ضرر على الصدق ، لأن هذه الأحوال ليست هادمة له ، بل هى فى الواقع تزيد معناه تأييدا ، لأن الصدق إنما كان ممدوحا لما يترتب عليه من مصلحة المجتمع وفائدة الانسان . ولا نظر فى هذه الأحوال إلا للفائدة التى ينشدها العقل والدين ، ويمتدح من أجلها الصدق ؟

عبد الرحمن الجزيرى

ذكرى شهر ربيع الاول

ميلاد خاتم المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم

يوافق صدور هذا العدد اليوم الأول من شهر ربيع الأول ، وهو الشهر الذى شرفه الله بميلاد خاتم المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم فيه ، وكان ذلك فى اليوم التاسع منه ، من العام الأول لحادثة الفيل ، وهو يوافق اليوم العشرين من إبريل سنة (٥٧١) بالتاريخ الميلادى .

ولد محمد صلى الله عليه وسلم فى دار عمه أبى طالب بشعب بنى هاشم . وقد تولت الإشراف على ولادته الشفاء أم عبد الرحمن بن عوف ، وهو الذى صار بعد بعثته من أجلاء أصحابه .

لما أشرق العالم بنور وجهه الوضاح ، أرسلت أمه آمنة بنت وهب لجده عبد المطلب سيد قريش ، تبشره بميلاد حفيد له ، فأقبل من فوره وأسماه محمداً .

وكانت حاضنته أم أيمن بركة الحبشية أمة أبيه عبد الله بن عبد المطلب ، وأول من أرضعته ثويبة أمة عمه أبى لهب .

وكان من عادة العرب أن يرسلوا بأولادهم الى البادية ليمضوا فيها عهد الرضاع ، اعتقادا منهم أن ذلك يكون أدعى الى النجابة ، ذهابا منهم أن تمضية أولادهم هذا العهد فى المدن يجعلهم خامدى الذهن ، ضعيفى الارادة . فكان الطفل محمد بن عبد الله من حظ حليمة بنت أبى ذؤيب من بنى سعد . وكان اسم زوجها أبا كبشة وهو والده من الرضاع .

ذكرنا هنا أن ولادته صلى الله عليه وسلم كانت فى السنة الأولى من حادثة الفيل . وتتلخص هذه الحادثة فى أن أصحمة ملك الحبشة كلف أبرهة عامله على اليمن ، وكانت خاضعة لسلطانه ، أن يبنى كنيسة بصنعاء ، ويصرف العرب من الحج الى الكعبة الى الحج اليها . فصدع بأمره وسار على رأس جيش لجب الى مكة لهدم الكعبة ، وكان من مطاياه فى حروبه فيل ضخم على عادة الفرس والهنود وغيرهم فى استعمال الفيلة فى حروبهم ، ولم يكن للعرب عهد بها ، فنزل بجوار مكة يتأهب للشروع فيما هو بسبيله ، فأرسل الله عليهم طيرا أبابيل (أى جماعات) ، ترميهم بحجارة من سجيل (أى من طين متحجر) ، فجعلهم كعصف مأكول ، أى جعلهم كورق الشجر الذى أكلته الديدان . أخذ جمهور المفسرين هذه الآية على ظاهرها ، وأولها بعضهم بأن المراد منها أن الله أرسل عليهم ميكروبات الطاعون فاجتاحهم .

فلما بلغ النبى صلى الله عليه وسلم الرابعة من عمره استردته أمه ، وتوجهت به الى يثرب لزيارة أخوال أبيه بنى عدى بن النجار . وبينما هى آيبة الى مكة مرضت بالطريق وأدركتها الوفاة

بقرية فى الطريق أقرب الى يثرب منها الى مكة يقال لها الأبواء . فحضنته أم أيمن بركة الحبشية ، حاضنته الأولى ، وكفله جده عبد المطلب ، ولكنه لم يلبث أن توفى ، فكفله عمه أبو طالب والد على كرم الله وجهه ، وكانت سن رسول الله إذ ذاك ثمانى سنين .

ولما بلغت سنه صلى الله عليه وسلم الثانية عشرة استصحبه عمه معه الى الشام .

ولما بلغت سنه العشرين حضر حرب الفِجَار ، وهى حرب كانت بين قريش ومعها كنانة ، وبين بنى قيس . وسببها أن واحدا من كنانة قتل رجلا من بنى قيس ، فثارت الحرب بينهما وتورطت فيها قريش الى جانب كنانة ثم تصالحوا .

ولما بلغت سنه الخامسة والعشرين سافر الى الشام المرة الثانية فى تجارة لخديجة بنت خويلد ، وكانت ذات مال . ولما آب بالربح الوفير وتحققت فيه الأمانة والكرامة ، أرسلت اليه تخطبه لنفسها ، فقبل صلى الله عليه وسلم زواجها ، فكان يعظمها ويجلها لعقلها وفضلها ، وهى أم أولاده جميعا إلا ابراهيم فإنه ولد من سريته مارية .

ولما صدع السيل بعض جدران الكعبة ، وشرعت قريش فى ترميمها اختلف رجالاتها فيمن يضع الحجر الأسود موضعه ، فقال لهم أبو أمية بن المغيرة المخزومى : حكموا بينكم رجلا ترضونه . فقالوا : نكل الأمر لأول داخل علينا ، فكان النبى صلى الله عليه وسلم أول داخل عليهم ، فحكموه ، فبسط رداءه ووضع فيه الحجر ، وأمر أن تأخذ كل قبيلة بناحية منه ، فلما انتهوا الى موضعه رفعه بيده ووضعه فيه .

أما سيرة النبى صلى الله عليه وسلم فى شبيبته فكانت مثالا لشرف النفس وعلو الهمة ، والبعد عن السفاسف ، والإخلاص والعفاف والصدق وكرم الأخلاق والجود والحلم والشجاعة والتواضع ، لم تحفظ عليه هفوة ، ولم تحصَ عليه زلة . وما زال يتقدم فى سنه المباركة على هذا النحو من الكمال الفطرى حتى بلغ الأربعين ، فشرفه الله بوحيه وأرسله الى الناس كافة . وها نحن نجهد العقل ، ونكد القلم ، ونستخدم العلم الحديث كله ، لنصل الى تصوير بعض ما أفاض الله على يديه من الخير العام ، والحياة الفاضلة ، علينا وعلى الناس قاطبة ، فلا نكاد نبلغ منه إلا غيضا من فيض . ولا غرو فإن إدراك النهايات البعيدة التى كان عليها خاتم المرسلين فى أخلاقه وشمائله ، والمثل العليا التى أتى بها العالم كله ليقيمه على سواء الصراط ، والوقوف على العوامل التى صاحبت هذا الانتقال الانسانى الجلل ، كل ذلك لا يكون إلا على قدر عقولنا لا على قدر ما هو عليه فى ذاته ؟

محمد فريد وجدى

مكان الزكاة من الشئون الاجتماعية

الضرائب والخراج لا يمنعان وجوب الزكاة

حضرة صاحب العزة مدير مجلة الأزهر :

السلام عليكم ورحمة الله . وبعد : فقد نشرت لنا المجلة فى الجزء الأول الصادر فى المحرم سنة ١٣٥٩ مقالا فى « مكان الزكاة فى الاسلام من الشئون الاجتماعية » ، بسطنا فيه عناية القرآن بحق الفقير ، وما يجب على الأغنياء من التراحم ، والبذل ، ومساعدة الضعفاء ، والمساهمة بأموالهم فى صلاح الأمة وحياتها حياة طيبة قوية . وقلنا : إن الاسلام جعل الزكاة فرضا من الفروض الدينية ينفذه بالقوة ، ويقاتل من امتنع عن أدائه ؛ جعلها فى الذهب والفضة ، وفى البضائع التجارية ، وفى الماشية ، وفى الزرع ، بنسب لا ترهق الغنى ، وهى فى الوقت نفسه تسعف المسكين والفقير ، وتصلح من شأنهما ، وترد من غائلتهما . وقلنا : إن هذا النظام سلكته الشريعة بعد أن استتب الأمر لجماعة المسلمين ، وتهيأت النفوس للقوانين والنظم كمورد دائم للفقراء والمساكين ؛ ولم تقف عند هذا الحد ، بل وكلت الأمر فيما وراء هذه المقادير — إذا استدعته الحاجة — الى العاطفة الدينية الأخوية ، ورغبت فى البذل بعظيم الثواب فى الآخرة ، وبعظم الإخلاف فى الدنيا .

وقد جاءنا خطاب من الفاضل « محمود الرويني » بالمنصورة من قراء مجلة الأزهر ، يتلخص فى أنه يرى أن أرباب الأموال يدفعون من أموالهم فوق مقادير الزكاة التى حددتها الشريعة الى الحكومة ، باسم الضرائب والخراج ، والحكومة تنفق ما تأخذه فى مصارفها المبينة فى ميزانيتها . ويرى أن بعض هذه المصارف من مصارف الزكاة . ويقول بعد ذلك : « فماذا ترون قد بقى فى ذمة الملاك من حق الزكاة ؟ » . ويرى بذلك أن حاجة الفقراء التى يجب سدها على المسلمين الأغنياء أصبحت بهذا الوضع فى عنق الحكومة التى لا سبيل لنا عليها ؛ وكأنه يريد أن يصل من ذلك الى سقوط حق الزكاة عن الأغنياء ، والى إلقاء التبعة فى إهمال الفقير الذى يهدد الغنى فى حياته على الحكومة ، ويرجو أن يقرأ فى ذلك بيانا مفصلا يرضى الله ورسوله .

ويكفينا فى هذا البيان المفصل الذى يلتمسه أن نقول :

إن الضرائب نظام مالى سياسى ، استدعته فى نظر الحكومة المصلحة العامة ، تفرضه الحكومة — بناء على ما تراه فى المصلحة — مرة ، وتلغيه أخرى ، وتخففه ثالثة . فليس لها الوضع الدينى الدائم المفروض عينا على المالك القادر باعتباره مسلما ، كما فرضت عليه الصلاة والصوم . ولا يمكن أن تقوم الضرائب — ووضعها كما نعلم — مقام الزكاة التى يقول الله فيها : « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها » . وإذا كان الناس يحسون بشىء من الإرهاق فى بعض

ما يفرض عليهم من ضرائب ، فتبعة ذلك لا ترجع الى الفقير بحرمانه من حقه الذى أوجبه الله له . وسبيله مطالبة الحكومة بالاقتصاد فى مصارفها ، ومحاسبتها على ما تجمع وتنفق . ومحاسبة الحكومة على أعمالها عامة ، مما تشهد به أصول الإسلام ، وتقضى به المصلحة الاجتماعية العامة التى يضعها الدين فى المكان الأول

أما الخراج الذى تأخذه الحكومة على الأراضى الزراعية ، فيرى جمهور أئمة المسلمين أنه حق مغاير لحق الزكاة ، فى دليله ، وسببه ، ومصرفه ، وحكمته ؛ فلا يمنع أحدهما الآخر . وبالمقارنة بين أدلة هؤلاء وأدلة مخالفيهم يتبين جليا رجحان مذهب هؤلاء الجمهور ، مع ملاحظة أن مخالفيهم لا يرون تأثير الخراج على كل أنواع الزكاة ، وإنما يرون تأثيره خاصا بزكاة الزروع ؛ أما زكاة الأموال وما اليها فلا تأثير للخراج عليها ، لأنه غير متعلق بها ، وإنما يتعلق بالأرض التى يتعلق بها أو بزرعها العشر .

وإذا كان الاتجاه فى الضرائب والخراج هو ما ذكرنا ، وليس أحدهما مبذولا بحكم الدين وقضاء واجب النفس فى التطهير من خلق الشح ، ولا بقضاء واجب الأخوة الدينية التى أراد الله أن يستكمل بها إنسانية المؤمن ، فلا ينبغى التفكير فى محاولة اعتبارها قائمين مقام الزكاة .

فالزكاة فرض دينى كالصلاة والصوم يجب على الانسان محاسبة نفسه عليه متى ملك النصاب فارغا ـ كما يقول الفقهاء ـ عن حاجته الأصلية .

ولعل صاحب السؤال يذكر الكلمة التى ختمنا بها مقالنا الذى يشير إليه . وتذكيرا له بها نختم بها هذا البيان :

« وبعد فليسمح لى حضرات الأمراء والأغنياء والمفكرين أن أصارحهم بكلمة صريحة حاسمة :

« إن التطور الفكرى المتناقض قد تكاملت أسبابه ، وبدت مظاهره ، وصرنا به على ملتقى السبل ، فإما أن نسير فى سبيل الرأسمالية كما يلوح فى أفق الأغنياء فنصطليها نارا حامية من العاطلين والفقراء ، وإما أن نسير فى سبيل الشيوعية كما يلوح من أنات العاطلين والفقراء فنصطليها تخريبا وتدميرا . ولقد جاءنا من الأنباء ما فيه مزدجر ، وأرشدنا ديننا ـ وكتابه قائم بين أيدينا ـ الى السبيل السوى الذى يقينا شر هذه وشر تلك ، ويجعل الأمة وحدة متكافلة فى البر والتقوى : « وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ، ولا تتّبعوا السُّبُلَ فتفرّقَ بكم عن سبيله ، ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون » . والسلام عليكم ورحمة الله ؟

محمود شلتوت

العوامل الادبية التى اعتمد عليها الاسلام

فى تقويم الشخصية الانسانية بسرعة لم يعهدها البشر

المعلوم من التاريخ بالضرورة ، أن الاسلام نشأ فى شبه الجزيرة العربية ، فآخى فى سنين معدودة بين قبائلها المتضاغنة ، وألّف منهم أمة ؛ وحلّى تلك الأمة بالرُبُط الأدبية والمادية التى لابد منها لكل بنية اجتماعية ، وأحاطها من الحوافظ الذاتية بما صان وجودها ، فى جميع ما طرأ عليها من أدوار الانتقالات والانقلابات ، سليما قويا ؛ وأودع كيانها من بواعث التطور ما دفعها للترقى فى جميع مجالات النشاط العلمى والعملى ، خالصة من جميع القيود التقليدية التى تعطل من انتقال الجماعات ، وتبطئ من سيرها ، فوصلت فى نحو قرنين الى مستوى رفيع حصلت معه على الزعامة العالمية . وهى ميزة لم تمنحها إلا أمم معدودة فى الأرض .

وصلت الى هذا الأوج فى خُطًى متزنة ، وتدرج محكم ، ونظام مدبّر ومُثُل عليا ، شأن كل جماعة تصدرعن ذخر أدبى متأصل فى طبيعتها ، أوتمرست به أجيالا متعاقبة من حياتها .

فإذا كان هذا الحادث الفذ فى تاريخ البشر يعتبر صعب التعليل بالأسباب المعروفة ، فلا يقل عنه فى صعوبة التعليل تأثيره طفرة فى جماعات مفككة الأوصال لم تعتد النظام ، ولم يعمل فيها ناموس التطور منذ أجيال ، ولم تعرف قبائلها الوحدة منذ وجودها ، ولم يُؤثر فى تاريخها أن داعيا دعاها إليها فى عهد من عهودها .

ومما يكسب هذا الحادث الجلل مظهرا ممتازا، أنه كان مصاحبا لسمو لم تشهده البشرية من قبل، فى أخلاق القائمين به وآدابهم ، وتطور لم يكونوا قد وصلوا إليه ولا الانسانية أجمع، فى أصولهم ومبادئهم . فإذا كان الناس قد عهدوا أن الانقلابات العالمية الكبرى أول ما توجد طائشة هوجاء ، تثور ثوران الزوبعة لا تفرق فى هبوبها المفرط بين ما يجب تحطيمه وما يجب الإبقاء عليه ، فى طغيان من القائمين بها ، لا تردها حكمة ، ولا تردعها شكيمة ، فإن الانتقال الذريع الذى أحدثه الاسلام ، رافقته رحمة بالمقهورين ، وعطف على المستضعفين ، وأمان للخائفين ، وإنصاف للمظلومين ، واحترام لعقائد المخالفين ، كأنه حركة مدبرة فى مهلة طويلة من التروى والتفكير ، أوخطة مقررة دُرست مقدماتها ونتائجها فى مَلاوة من الزمان صُرفت فى الحسبان والتقدير ؛ وليست الحركات العادية للجماعات فى شىء من هذا ، كما تدل عليه الانقلابات الكبرى التى مرت بالانسانية فى عهدها الطويل بالوجود ؛ والانقلابات التى يكون مصدرها بلاد العرب ، أبعد البيئات عن النظام ومراعاة الأصول ، أولى أن تكون على مثال جميع الانقلابات العالمية التى سبقتها من هذه الناحية .

فصدور أكبر انتقال فى العالم الانسانى ، فى بيئة لا عهد لها بمثله ، بل ولم تشارك العالم فى غيره ، على ما رأيت ، منظما مقدرا ، ومصاحبا لأعظم انقلاب أدبى لم يصل اليه النوع الانسانى بعد ، يجب أن يكون موضوع دراسات عميقة على ضوء العلوم الاجتماعية والنفسية ، وقد قطعت هذه العلوم شوطا بعيد المدى فى تفلية الحوادث ، وتعقب تطوراتها ، للوصول الى أبعد مناشئها ، وتحليل الحالات العقلية ، وتتبع أدوارها ، لوجدان بواعث صدورها ؛ فاذا أنجحنا فى ذلك أطرفنا العالم بجديد من البحوث لا تقف دعايته للاسلام ، ودلالته على معجزاته عند حد .

مواطن التأثر فى النفس البشرية :

لا يتأتى أن تقوم دعوة فى الأرض إلا إذا حلت مواطن التسليم من بعض النفوس ، وهذا التسليم حكم عقلى لا معدى عن الخضوع له .

فموطن التأثر بالدعوات هو العقل ، لذلك تعقبه أصحاب النحل ، وحاولوا النقص من سلطانه على ضروب شتى ، أهمها زعمهم أن ما هم بصدده من العقائد يعلو متناول العقل ، فيجب أن يسلم به بدون عرضه عليه ؛ ويفوتهم أنهم لو كانوا مصيبين فيما يقولون لوجب الأخذ بجميع العقائد المناقضة لأحكام العقل ، لعدم وجود المرجح لأقربها الى الحق .

ومن شبهاتهم على سلطان العقل ، أنه لم يصل الى كماله بعد ، فما يقرر حقيته اليوم ، وهو فى درجة من التطور ، ينقضه متى اجتاز تلك الدرجة ، وربما عاد الى ما كان نقضه من قبل .

قالوا هذا ، وفاتهم أن المراد بسلطان العقل ما حُمِّله بفطرته من العلم الضرورى بجواز الممكنات ، وطلب الدليل على وقوعها ، واستحالة المستحيلات البدهية ، كاجتماع النقيضين ، ووجود الشيء فى مكانين الخ ، وهذه الأصول الأولية عامة فى جميع أفراد النوع البشرى لا تتخلف فى بعض آحاده إلا لعلة عقلية ، فيرتفع التكليف عن أصحابها بتخلفها .

فهذا السلطان الفطرى للعقل كاف فى حمايته من الضلال فى أصول المعتقدات ، وهو مناط التكليف ، وموطن المؤاخذة .

هذا هو المراد بسلطان العقل ، لا أن يكون قادرا على خوض غمرات البحوث المختلفة ، وإدراك مراميها البعيدة ، وبناء النظريات المجردة ، وإقامة أدلتها ، والترجيح بينها الخ الخ ، مما لا ينال إلا بتحصيل علوم كثيرة ، لا تتسنى إلا لأفراد ينقطعون لها سنين طويلة .

فاذا أقام الناس سلطان العقل الفطرى ، لم يستطع أصحاب الأهواء أن يسمموا نفوسهم بالعقائد الضالة .

العوامل التى تمكن بها المضلون من هدم سلطان العقل :

مع قيام سلطان العقل الفطرى بين الناس ، وترتيبهم أعمالهم الدنيوية عليه ، استطاع

المضللون هدم هذا السلطان فيما يتعلق بالعقائد الدينية ، فكان ذلك سببا فى فساد نفسياتهم ، وطول أمد جاهلياتهم ، حتى صار مألوفا أن الامم التى تقع فى التحجر الاجتماعى لا تنجو منه إلا بثورة على عقائدها تقلبها رأسا على عقب .

وإنما نجح المضللون فى هدم سلطان العقل الفطرى ، باعتمادهم على جهل الجماعات التى تبلى بهم ، وبإلهائها بالخيالات والأوهام ، وبالتذرع فى إخضاعها لها بوسائل الإرهاب ، وهذه العوامل الثلاثة إذا اجتمعت فلا تقوى الجماعات الساذجة على مقاومتها ، فتستخذى لها ، وتقبل من رؤساء دينها كل ما يلقنونها إياه من التعاليم وإن جافت حكم العقل ، لأنها جردته فى هذه الناحية من سلطانه فلا يكون له سبيل اليها ، وإذا طاف برأسها خيال منه طردته من مجاله ، واعتبرت ذلك من نفسها تورعا ، واستمرت على هذه الحال حتى تحفزها المثلات الى الحركة ، فتهب من سباتها ، وأول ما تخلعه من عنقها باعتبار أنه سبب جمودها ، نير الدين ، الدين الذى ألفته الأوهام ، لا الدين الفطرى الذى جبلت عليه كل نفس بشرية كما ستراه .

ما اعتمد عليه الاسلام فى بناء صرح الدين الخالد :

اعتمد الاسلام فى بنائه صرح الدين العام الخالد على العقل والفطرة ، وهما الركنان الطبيعيان اللذان تقوم جميع الشئون الانسانية عليهما ، فلم يبق الدين بذلك بمعزل عن حياة الانسان ، يعتريه من الجمود والتحجر ما يعترى الأصول الموقوفة ، ولكنه جعله فى دائرة محاولاته يترقى فى إدراك أسراره ، واستشراق أنواره ، كما يترقى فى فهم الوجود الذى يعيش فيه ، وفى تحصيل العلم الذى يتعرفه به ، فأصبح الاسلام بذلك عند الآخذين به عنصرا سائدا على نفسياتهم ، بقدر ما للعقل والفطرة من سيادة عليها .

ولما كان الانسان أشد وأسرع ما يكون انقيادا للشيء إذا وافق عقله وفطرته ، وكان الاسلام من هذه الناحية حاصلا على هذه الميزة بقيامه على العقل والفطرة معاً ، وهو مادل عليه كتابه ، فقد انتشر ما بين حدود اسبانيا الغربية بأوربا ، الى حدود الصين الشرقية بآسيا ، وشمال أفريقا كله ، فى نحو قرن من الزمن ، ودخل فيه نحو مائة مليون من النفوس ، منها أمم برمتها قبلته دينا لها بلا دعوة منظمة ولا إجبار . وهذا حادث عالمى فذ يجب درسه ، وتعرف ما يهدى اليه العلم من عجائبه .

هـذا هو السبب الرئيسى فى تسارع الناس الى قبول الاسـلام ، وفى شدة تمسكهم به ، وتحمسهم له ، وبذلهم المهج رخيصة فى سبيله . ونحن فى دراستنا للاسـلام من ناحية سرعة تطويره للشخصية الانسانية ، وشدة تأثيره فيها ، سنسير تحت ضوء الركنين اللذين امتاز بهما ؛ والله نسأل أن يجعل السداد رائدنا فى هذا الموضوع الخطير ، الذى نرجو أن يكون تأثيره عميقا فى نفوس الشباب المتعلمين ؟

محمد فريد وجدى

حياة رجالات الإسلام

عبد الله بن عمر

— ٢ —

خرّجت مدرسة الاسلام الأولى من قادة الفكر، وزعماء العلماء ورجال العرفان، كثرة لا تعرف فى التاريخ لمدرسة أخرى فى أمة من الأمم التى سبقت الأمة الاسلامية أو عاصرتها. وقد كانت تلك الكثرة متفاوتة فيما بينها تفاوت قواها المدركة واستعدادها الفطرى؛ وقد اشتهرت منهم جماعات فى جوانب الحياة المتناوحة، وكان من أشهر هؤلاء عبادلة الاسلام، الذين برزوا فى العلم وتميزوا بالنبل، يقدمهم عبد الله بن عمر أحد ستة من تلاميذ هذه المدرسة لم يكن فى رجال الاسلام أروى للحديث، ولا أعلم بأحوال النبى صلى الله عليه وسلم منهم؛ وكان عبد الله منذ نعومة أظفاره ذكى الفؤاد ملهما، لقنا لبقا. روى البخارى فى صحيحه عنه «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها وهى مَثَل المسلم، حدثونى ما هى؟ فوقع الناس فى شجر البادية، ووقع فى نفسى أنها النخلة، قال عبد الله: فاستحييت، وفى رواية: فإذا أنا عاشر عشرة أنا أحدثهم، ورأيت أبا بكر وعمر لا يتكلمان فكرهت أن أتكلم، فقالوا: يارسول الله أخبرنا بها، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: هى النخلة. قال عبد الله: فحدثت أبى بما وقع فى نفسى، فقال: لأن تكون قلتها أحب الىّ من أن يكون لى حُمْر النَّعم».

وكان ابن عمر شديد الأخذ لنفسه وتكييفها بما يعلم، لا يتكاءده فى سبيل العمل شىء، ففى الصحيحين عنه: «كان الرجل فى حياة النبى صلى الله عليه وسلم إذا رأى رؤيا قصها على النبى صلى الله عليه وسلم، فتمنيت أن أرى رؤيا أقصها على النبى صلى الله عليه وسلم، وكنت غلاما أعزب أنام فى المسجد على عهد النبى صلى الله عليه وسلم، فرأيت فى المنام كأن ملكين أخذانى فذهبا بى الى النار فإذا هى مطوية كطى البئر، وإذا لها قرنان كقرنى البئر، وإذا فيها ناس قد عرفتهم، فجعلت أقول: أعوذ بالله من النار! فلقيهما ملك آخر، فقال لى: لم ترع! فقصصتها على حفصة، فقصتها حفصة على النبى صلى الله عليه وسلم، فقال: نعم الرجل عبد الله لو كان يصلى من الليل! قال سالم — هو ابن عبد الله بن عمر — فكان عبد الله لا ينام من الليل إلا قليلا». وفى بعض الروايات «فرأيت فى يدى سَرَقَةً من حرير فما أهوى بها الى مكان

فى الجنة إلا طارت بى إليه ، فقصصتها على حفصة ، فقصتها على النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال : إن عبد الله رجل صالح » . وهذه شهادة عظمى من الصادق المصدوق ، ترفع درجة عبد الله الى ذروة اليقين .

ويحدثنا نافع مولاه : « أنه كان له مهراس فيه ماء ، فيصلى ما قُدّر له ثم يصير الى فراشه فيغفى إغفاء الطائر ثم يقوم فيتوضأ ويصلى ، ثم يرجع الى فراشه فيغفى إغفاء الطائر ، ثم يثب فيتوضأ ثم يصلى ، يفعل ذلك فى الليل أربع مرات أو خمسا » . وكان رضى الله عنه يكره من الناس الملق له ، فقد روى « أن رجلا قال له : لا يزال الناس بخير ما أبقاك الله ! ! فغضب وقال : إنى لأحسبك عراقيا ، وما يدريك علام أغلق بابى ! ! » . وكان من أحلم العرب ، جعل رجل يسبه وهو ساكت ، فلما بلغ باب داره التفت اليه فقال : « إنى وأخى عاصم لا نسب الناس » . وكانت له فى الله تعالى ثقة لا تحد ، فقد روى ميمون بن مهران « أن أصحاب نجدة الحرورى مروا بإبل لابن عمر فاستاقوها ، فجاء الراعى فقال : يا أبا عبد الرحمن احتسب الإبل ، وأخبره الخبر ، قال : فكيف تركوك ؟ قال : انفلت منهم لأنك أحب الى منهم ؛ فاستحلفه فحلف ، فقال : إنى أحتسبك معها ! فأعتقه ؛ فقيل له بعد ذلك : هل لك فى ناقتك الفلانية فإنها تباع فى السوق ؟ فاراد أن يذهب إليها ، ثم قال : قد كنت احتسبت الإبل فلأى معنى أطلب الناقة » ؟ !

وقد رزق الله تعالى عبد الله عمرا طويلا ، فنبل وساد حتى كان شيخ قريش وعالمها ، يرجع إليه فى الملمات ، ولا سيما فى أحداث الفتن التى فرقت كلمة المسلمين . وكان شديد النكير على زعماء الفرق الذين تحدثهم أنفسهم بمس جانب الاحترام والإجلال فى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم . روى البخارى فى الصحيح « جاء رجل من أهل مصر حج البيت فرأى قوما جلوسا ، فقال : من هؤلاء القوم ؟ قال : هؤلاء قريش ، قال : فمن الشيخ فيهم ؟ قالوا : عبدالله ابن عمر ، قال : يا ابن عمر إنى سائلك عن شىء فحدثنى عنه : هل تعلم أن عثمان فر يوم أحد ؟ قال : نعم ؛ فقال : تعلم أنه تغيب عن بدر ولم يشهد ؟ قال : نعم ؛ قال : هل تعلم أنه تغيب عن بيعة الرضوان فلم يشهدها ؟ قال : نعم ؛ قال : الله أكبر ! قال ابن عمر : تعال أبين لك : أما فراره يوم أحد فأشهد أن الله عفا عنه وغفر له ! وأما تغيبه عن بدر فانه كانت تحته بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت مريضة ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن لك أجر رجل ممن شهد بدرا وسهمه ؛ وأما تغيبه عن بيعة الرضوان فلو كان أحد أعز ببطن مكة من عثمان لبعثه مكانه ، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عثمان ، وكانت بيعة الرضوان بعد ما ذهب عثمان الى مكة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده اليمنى : هذه يد عثمان ، فضرب بها على يده فقال : هذه لعثمان . فقال له ابن عمر : اذهب بها الآن معك » .

وروى البخارى أيضا « جاء رجل الى ابن عمر فسأله عن عثمان ، فذكر عن محاسن عمله ،

قال : لعل ذاك يسوءك ؟! قال : نعم ، قال : فأرغم الله بأنفك ! ثم سأله عن عليّ فذكر محاسن عمله ، قال : هو ذاك بيته أوسط بيوت النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : لعلّ ذاك يسوءك ؟! قال : أجل ، قال : فأرغم الله بأنفك ! قال : انطلق فاجهد عليّ جهدك » .

وقد كان لعبد الله بن عمر موقف من النزاع الذي مزق وحـدة المسلمين بسبب الخلافة من أنبل المواقف وأسلمها ، استمع فيه الى نصيحة أبيه الفاروق رضي الله عنه : روى الثقات من المؤرخين أن عمر بن الخطاب لما طعن وأيس من نفسه قال لابنه عبد الله : اذهب الى عائشة واقرئها مني السلام ، واستأذنها أن أقبر في بيتها مع صاحبي ، فأتاها عبد الله فأعلمها ، فقالت : نعم وكرامة ، ثم قالت : يابني أبلغ عمر سلامي ، وقل له : لاتدع أمة محمد بلا راع ، استخلف عليهم ولا تدعهم بعدك هملا فإني أخشى عليهم الفتنة فأتى عبد الله فأعلمه ، فقال : ومن تأمرني أن أستخلف ؟ ثم قال : ما أجد أحق بهذا الأمر من هؤلاء النفر الذين توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض ، وسماهم ، ثم قال لهم : وأحضروا معكم الحسن بن علي وعبد الله ابن عباس فان لهما قرابة وأرجو لكم البركة في حضورهما وليس لهما من أمركم شيء ، ويحضر ابني عبد الله مستشارا وليس له من الأمر شيء ، قالوا : يا أمير المؤمنين إن فيه للخلافة موضعا فاستخلفه فانا راضون به ، فقال : حسب آل الخطاب تحمل رجل منهم الخلافة ، ليس له من الأمر شيء ! ثم قال : يا عبد الله إياك ثم إياك لا تتلبس بها ! !

وأخلص عبد الله لموقفه وامتثاله نصيحة عمر إخلاصا لم يميّله ، مع الترغيب والإطماع اللذين بسطهما له حزب الزبير وطلحة في خروجهما وإخراجهما أم المؤمنين عائشة ، فانه لما اجتمعت كلمتهم على المسير الى البصرة قال طلحة للزبير : إنه ليس شيء أنفع ولا أبلغ في استمالة أهواء الناس من أن نشخص عبد الله بن عمر ، فأتياه فقالا : يا أبا عبد الرحمن إن أمنا عائشة خفت لهذا الأمر رجاء الإصلاح بين الناس فاشخص معنا ، فان لك بها أسوة ، فان بايعنا الناسُ فأنت أحق بها . فقال ابن عمر : أيها الشيخان أتريدان أن تخرجاني من بيتي ، ثم تلقياني بين مخالب ابن أبي طالب ؟ ! إن الناس إنما يخدعون بالدينار والدرهم ، وإني قد تركت هذا الأمر عيانا في عافية أنالها ! فانصرفا عنه ، ثم غدا مروان بن الحكم الى طلحة والزبير فقال لهما : عاودا ابن عمر فلعله يفيء ، فعاوداه فتكلم طلحة فقال : يا أبا عبد الرحمن إنه والله لرب حق ضيعناه وتركناه فلما حضر العذر قضينا بالحق وأخذنا بالحظ ، إن عليا يرى إنفاذ بيعته ، وإن معاوية لا يرى أن يبايع له ، وإنا نرى أن نردها شورى ، فان سرت معنا ومع أم المؤمنين صلحت الأمور وإلا فهي الهلكة ! فقال ابن عمر : إن يكن قولكما حقا ففضلا ضيعت ، وإن يكن باطلا فشر منه نجوت ، واعلما أن بيت عائشة خير لها من هودجها ، وأنتما المدينة خير لكما من البصرة ! !

لم يحد عبد الله بن عمر عن هذا المبدأ رغم تقلب الأعاصير ، ورغم توسل زعماء الأشياع والأحزاب بكل وسيلة الى ضمه اليها لما له من المكانة السامية فى نفوس المسلمين ، فان الموقف لم يكد يصفّى بين علىّ وحزب عائشة ، ويقف معاوية وجها لوجه أمام على كرم الله وجهه ، حتى التجأ معاوية الى ابن عمر يطمعه ويرغبه لينضم اليه ، فكان موقفه معه هو موقفه مع طلحة والزبير ، فقد كتب اليه معاوية « أما بعد : فانه لم يكن أحد من قريش أحب الىّ أن يجتمع الناس عليه منك بعد عثمان ، وإنى لست أريد الإمارة عليك ، ولكنى أريدها لك ، فان أنت أبيت كانت شورى بين المسلمين » . فكتب اليه عبد الله فى رده « أما بعد : فان الرأى الذى أطمعك فى هذا هو الذى صيّرك الى مصيرك ، وقد حدث أمر لم يكن الينا فيه من رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد ، ففزعتُ الى الوقوف ، وقلت : إن كان هذا فضلا تركته ، وإن كان ضلالة فشر منه نجوت ، فاغن عنى نفسك » .

وقد زاد هذا الموقف المسالم من عبد الله بن عمر مكانه فى قلوب المسلمين ، وبهذه المكانة وصل عمرو بن العاص الى قلب أبى موسى الأشعرى فى التحكيم ، فقال له فى اجتماعهما : «هل لك أن نخلعهما جميعا ونجعل الأمر لعبد الله بن عمر ، فقد صحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يبسط فى هذه الحرب يدا ولا لسانا ، وقد علمت من هو مع فضله وزهده وورعه وعلمه ؟ ! فقال أبو موسى : جزاك الله بنصيحتك خيرا ! وكان أبو موسى لا يعدل بعبد الله ابن عمر أحدا ، لمكانه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومكانه من أبيه ، ولفضل عبد الله فى نفسه » . فلما بلغ عبد الله ما كان من رأى أبى موسى كتب اليه « أما بعد : يا أبا موسى فانك تقربت إلىّ بأمر لم تعلم هواى فيه ، أكنت تظن أنى أبسط يدا الى أمر نهانى عنه عمر ، أوكنت ترانى أتقدم على علىّ وهو خير منى » ؟!

رحم الله عبد الله ، فقد خلص نفسه من فتنة جامحة جائحة ، ونجا منها صفيا ، ومات والمسلمون لا يرون أحدا يعاصره أفضل منه ؟

صادق ابراهيم عرجون

آداب الجلوس

من آداب الجلوس أن يجلس الانسان حيث يجد متسعا له ، وقد كان هذا دأب الكملة من أهل هذه الملة . أما التضييق على الجالسين بقصد التصدر فلا يكسب أهله إلا ضعة .

قال الأحنف بن قيس : ما جلست مجلسا خفت أن أقام منه لغيرى .

وقال الشعبى : لأن أدعى من بعيد أحب الىّ من أن أدفع من قريب .

عمر بن عبد العزيز

— ٥ —

رأيه فيمن سب الخليفة :

نشأ عمر على قول الحق ، لا يحابى كبيرا ، ولا يمالئ عظيما ؛ فشاوره سليمان بن عبد الملك يوما فى رجل سبّه ، فقال من حوله من الناس : اكتب بضرب عنقه ، وعمر بن عبد العزيز ساكت لا يتكلم ، فقال له سليمان : ما الذى أسكتك ياعمر ؟ فأجاب قائلا : أما إذ سألتنى رأيى فلا أعلم فى شرعة من الشرائع أن سبة أحات دم امرئ مسلم كان أو غيره ، إلا سبة نبى . فقام مَن عنده ومنهم عمر ، فقال سليمان : لله بلادك ياعمر ! والله لو قرشى طبخت فى مرقته لأنضجتها .

بعثه العلماء الى البادية :

أراد عمر أن ينشئ أهل البادية تنشئة دينية ، ويعلمهم ما فيه صلاح حالهم دينا ودنيا ، فبعث لهم بيزيد بن عبد الملك ، والحارث بن محمد ، ليبينا لهم كتاب الله وسنة رسوله ، وجعل لهما أجراً على ذلك ، فقبل يزيد ، ولم يقبل الحارث ، وقال : ما كنت لآخذ على علم علمنيه الله أجرا ! فلما ذكر ذلك لعمر قال : ما نعلم بما صنع يزيد بأساً ، وأكثر الله فينا مثل الحارث !

عطفه على الفقراء :

كان يعطى السائل ولا ينهره ، ويعطف على الفقراء تارة من ماله ، وأخرى من بيت مال المسلمين ، كل هذا لوجه الله ، لا يريد منهم جزاء ولا شكورا ؛ فوفدت عليه امرأة من العراق لها من البنات خمس قد لبسن لباس الجوع والفقر ، فلما وصلت الى باب بيته قالت : هل على أمير المؤمنين حاجب ؟ فقالوا : لا ، فدخلت المرأة على فاطمة زوجه وهى جالسة فى بيتها وفى يدها قطن تعالجه ، فسلمت ، فردت عليها فاطمة السلام وأذنت لها فى الجلوس ، فجلست وجالت ببصرها فى البيت فلم تر شيئا ذا بال ، فقالت : إنما جئت لأعمر بيتى من هذا البيت الخراب ! فقالت لها فاطمة : ما خربه إلا عمارة بيوت أمثالك ! فأقبل عمر حتى دخل الدار فمال الى بئر فى ناحيتها ، وانتزع منها دلاء صبها على طين كان يحضره فى البيت ، ولم يغض الطرف عن فاطمة ، فقالت لها تلك المرأة : استترى من هذا الطيان فانى أراه يديم النظر اليك ، فقالت : ليس هو بطيان وإنما هو أمير المؤمنين ! !

فلما انتهى عمر من عمله هذا ، دخل مصلاه فصلى ما شاء الله أن يصلى ، ثم سأل عن المرأة وأخذ يحبوها بعطفه وحنانه ، ويختار لها أطيب ما عنده من عنب كان بمكتله ويطعمها إياه ،

فلما استقر بها المقام قال لها : ما حاجتك ، ومن أنت ؟ فقالت : امرأة من العراق لى خمس بنات كُسَّد ، يفترشن الأرض ، ويلتحفن بالهواء ، ويضعن الأحجار على بطونهن من شدة الجوع ، وجئتك أبتغى حسن نظرك إليهن ! فجعل يقول : كُلُّ كُسَّد ! وأخذ القرطاس والمحبرة وقال لها : سمى كبراهن ، فسمتها ، ففرض لها ، فحمدت الله ، ثم قال لها : سمى الثانية والثالثة والرابعة ، فسمتهن ، ففرض لهن ، فحمدت الله .

فلما فرض للأربع أخذتها نشوة من الفرح ، واستفزها السرور فشكرته ودعت له ، فرفع يده ولم يفرض للخامسة ، وقال : كنا نفرض لهن حين كنت تولين الحمد أهله ، أما وإنك أوليتنيه وأنا لست أهلا له فمرى هؤلاء الأربع يفضن على الخامسة منهن . وكتب بذلك الى والى العراق ، وسلمها الكتاب لتعطيه له ، فانطلقت به اليه ، ففضه وقرأه ثم بكى وقال : رحم الله صاحب هذا الكتاب ! فقالت له المرأة : هل مات ؟ قال لها : نعم ، فصاحت وولولت ، فقال لها : لا بأس عليك ، ما كنت لأرد كتابه فى شىء ، ثم قضى لها وفرض لبناتها .

حالته قبل الخلافة وبعدها :

كان عمر قبل الخلافة من أعظم الأمويين ترفها وتملكا ، غذى بالملك ، ونشأ فيه لا يعرف إلا هو ، يلمس الحرير فيستخشنه ، ويتطيب بالدهن فتشع رائحته فى أى مكان حل به ، ويرخى ثيابه ، ويمشى مشية التبختر حتى تعلمتها الجوارى من حسنها ، وسمينها « العمرية » ، فلما استخلف أقلع عن كل شىء غير مشيته ، فإنه لم يستطع الإقلاع عنها ، لا عمدا منه ، ولكن لتعذر تركها مرة واحدة ، لذلك أمر مزاحما أن يذكره كلما عاد اليها .

عاش عيشة التقشف ، وتبذل حتى استنعم الصوف واستلانه ، فعجب له رباح بن عبيدة ، وكان تاجرا من أهل البصرة يشترى له ما أراد حين كان واليا ، فاشترى له جبة من الخز بعشرة دنانير ، فلمسها فاستخشنها ، فلما ولى الخلافة اشترى له بأمره جبة من الصوف بدينار ، فلمسها فاستلانها ، فقال له رباح : عجبا لك يا أمير المؤمنين تستخشن الحرير بالأمس وتستلين الصوف اليوم ! فقال له : هذه حال وتلك حال .

وزهد فى الدنيا طلبا للآخرة ، وآثر النعيم الدائم على المتاع الزائل ، فكان ينفق كل ماله على المسلمين وفى حوائجهم ، فعاده الناس فى مرض موته فلم يجدوا عليه غير قميص مرقع ، فقال مسلمة لأخته فاطمة : ائتنى بقميص غير هذا ، فنظر اليه عمر وقال : دعها يامسلمة فما أصبح ولا أمسى لأمير المؤمنين ثوب غير الذى يرى عليه !

المأثور من كلامه :

إياكم والمزاح فانه يورث الضغينة وينبت الغل . إذا جاءك الخصم وعينه فى كفه ، فلا

تقض له حتى يجيئك خصمه . من عمل بغير علم كان ما يفسد أكثر مما يصلح . قد أفلح من عصم من المراء والغضب والطمع . أزهد الناس فى الدنيا على بن أبى طالب رضى الله عنه . ما يسرنى لو أن أصحاب محمد عليه الصلاة والسلام لم يختلفوا ، لأنهم لو لم يختلفوا لم تكن رخصة . خذوا من الرأى ما قاله من كان قبلكم ، ولا تأخذوا ما هو خلاف لهم ، لأنهم كانوا خيرا منكم وأعلم . الرضا قليل ، والصبر معقل المؤمن . قيدوا النعمة بالشكر ، وقيدوا العلم بالكتاب . العفاف الأكبر القناعة وكف الأذى . إن الله لا يعذب العامة بذنب الخاصة ، ولكن إذا عمل المنكر جهاراً نهاراً فقد استحقوا العقوبة كلهم .

وقال فى وصف القاضى : ينبغى أن يجتمع للقاضى خمس خصال : أن يكون عالما بما قضى به الكتاب والسنة ، سلما ، ذا أناة ، عفيفا . فإن اجتمع فيه ذلك كان قاضيا ، وإن نقص منهن شىء كان وصما فيه .

ودخل عليه رجل يشكو ظلما فقال له : إنك إن تلقى الله ومظلمتك كما هى ، خير لك من أن تلقاه وقد انتقصتها .

وقال : ملاقاة الرجال تلقيح لألبابها ، القلوب أوعية السرائر والألسن مفاتيحها ، فليحفظ كل امرئ منكم مفتاح وعاء سره . إذا وافق الحق الهوى فهو ألذ من الشهد وأحلى . وما وجدت فى إمارتى هذه شيئا ألذ من حق وافق هواى .

عمر والغلام :

دخل على عمر فى بدء ولايته وفود المهنئين ، فتقدم وفد الحجازيين بين يديه ، ثم قام من بينهم غلام لم يتجاوز الحادية عشرة من عمره ، وأراد أن يتكلم عن قومه فقال له عمر : اجلس أنت وليقم من هو أسن منك . فقال الغلام : أيدك الله يا أمير المؤمنين ! إن المرء بأصغريه : قلبه ولسانه ، فاذا منح الله العبد لسانا لافظا ، وقلبا حافظا ، فقد استحق الكلام ، ولو كان الأمر بالسن لكان فى الأمة من هو أحق منك بمجلسك هذا ! فسر عمر من حسن جوابه وفصاحة لسانه ، وأكرمه ، وسمع منه شكاة فئته ، وقضى حوائجهم .

نفور بنى أمية من عدله واجتماعهم اليه :

حينما ولى عمر الخلافة أقبل على رد المظالم الى أهلها ، فقطع بذلك عن بنى أمية جوائزهم ، وأرزاق أحراسهم ، ورد ضياعهم الى الخراج ، وأبطل قطائعهم ، فساءت حالتهم ، وتبدل أمنهم خوفا ، وثراؤهم فقرا ، الأمر الذى دفعهم الى الاجتماع اليه ، ثم قالوا له : إنك قد أجلبت بيت مال المسلمين وأفقرت بنى أبيك فيما ترد من هذه المظالم ، وهذا أمر قد وليه غيرك قبلك ، فدعهم وما كانوا يفعلون ، واشتغل أنت وشأنك ، واعمل بما رأيت . فقال لهم : هذا رأيكم ؟ قالوا : نعم ، قال : ولكنى لا أرى ذلك ، والله لوددت أن لا تبقى فى الأرض مظلمة

إلا رددتها على شرط ألا أرد مظلمة إلا سقط لها عضو من أعضائى أجد ألمه ، ثم يعود كما كان حيا ، فاذا لم يبق مظلمة إلا رددتها سألت نفسى عندها ! فخرجوا من عنده ودخلوا على بعض ولد الوليد وكان كبيرهم وشيخهم ، فسألوه أن يكتب الى عمر يوبخه لعله يرجع عن إساءتهم ، فكتب اليه : أما بعد : أزريت بمن كان قبلك من الخلفاء ، وسرت بغير سيرتهم ، وسميتها المظالم ، نقصا لهم وعيبا لأعمالهم ، وشتما لمن كان بعدهم من أولادهم ، ولم يكن ذلك لك ، فقطعت ما أمر الله به أن يوصل ، وعملت بغير الحق فى قرابتك ، وعمدت الى أموال قريش ومواريثهم وحقوقهم فأدخلتها بيت مالك ظلما وجورا وعدوانا ، فاتق الله يا بن عبد العزيز وراقبه ، فانك قد شططت ، لم تطمئن على منبرك حتى خصصت ذوى قرابتك بالظلم والقطيعة ، فوالذى نفس محمد صلى الله عليه وسلم بيده لقد ازددت من الله بعداً فى ولايتك هذه التى تزعم أنها بلاء من الله عليك ، وهى كذلك ، فاقتصد فى بعض ميلك وتحاملك ، اللهم فاسأل سليمان بن عبد الملك عما صنع بأمة محمد صلى الله عليه وسلم .

فرد عليه عمر قائلا : سلام على من اتبع الهدى . أما بعد : فانى أحمد اليك الله الذى لا إله إلا هو ، إنك نشأت جبارا شقيا ، كتبت الى تظلمنى وزعمت أنى حرمتك وأهل بيتك من مال المسلمين الذى فيه حق القرابة والضعيف والمسكين وابن السبيل ، إنما أنت كأحدهم ، لك مالهم وعليك ما عليهم ، وإن أظلم منى وأترك لعهد الله ، الذى استعملك صبيا سفيها تحكم فى دماء المسلمين وأموالهم برأيك ، لم تحضره نية ، ولم يكن يحمله عليه إلا حب الولد ، ولم يكن ذلك له ولا حق له فيه ، فويل لك وويل لأبيك ! ما أكثر طلابكما وخصماءكما يوم القيامة ! وكيف النجاة لمن كثر خصماؤه ! وإن أظلم منى وأترك لعهد الله من جعل لعالية البربرية سهما فى فىء المسلمين وصدقاتهم . أهاجرت ثكلتك أمك ، أم بايعت بيعة الرضوان فاستوجبت سهام المقاتلين ! وإن أظلم منى وأترك لعهد الله من استعمل قرة بن شريك أعرابيا جلفا جافيا على مصر ، وأذن له فى المعازف والبرابط وشرب الخمر ! وإن أظلم منى وأترك لعهد الله من ولى يزيد بن أبى مسلم على جميع المغرب يجبى المال الحرام ، ويسفك الدم الحرام . رويدك لو قد التفت عليك حلقتا البطان وطالت بى حياة ورد الله الحق الى أهله لتفرغت لك ولأهل بيتك ، فطالما أخذتم بنيات الطريق وتركتم الحق وراءكم ظهريا ؛ ومما وراء هذا ما أرجو أن يكون خير رأى أبته بيع رقبتك ، فإن لكل مسلم فيك سهما فى كتاب الله . والسلام على من اتبع الهدى . ولا ينال سلام الله الظالمين !

محمد مصطفى شادى

باب الأسئلة والفتاوى

التصوير والصور

ورد الى لجنة الفتوى بالأزهر من حضرة المحترم (حمزة يوسف أفندى ميجاج) ببلدة هرجيسة ـ الصومال البريطانى ـ استفتاء عن حكم الصورة ، أحلال هى أم حرام ؟

الجواب

جاء فى صحيح البخارى وغيره أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن أشد الناس عذابا يوم القيامة المصورون » ، وأنه قال : « إن الذين يصنعون هذه الصور يعذبون يوم القيامة ، يقال لهم : أحيوا ماخلقتم » ، وأن ابن عباس رضى الله عنهما أتاه رجل فقال : إنى أصوّر هذه الصور فأفتنى فيها ، فقال : ادن منى ، فدنا حتى وضع يده على رأسه وقال : « سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « كل مصوِّر فى النار » ، ثم قال : إن كنت لابد فاعلا فاصنع الشجر وما لا نفْس فيه » . الى غير ذلك مما صح فى النهى عن التصوير واتخاذ الصور من أحاديث كثيرة تكاد تبلغ حد الشهرة .

قال الجمهور من العلماء فى شرح هذه الأحاديث : إنما عظمت عقوبة المصور ، لأن الصور كانت تعبد من دون الله ، وكانت أصنام الجاهلية فى العرب تماثيل على صور الانسان ؛ فتكون حكمة النهى عن التصوير راجعة الى الاحتياط فى سد أبواب الشرك ، والمحافظة على عقيدة التوحيد ، بتجنب كل ما قد يؤدى الى عبادة غير الله ، ولو فى النادر القليل .

وقد أجمع الفقهاء — أخذاً من هذه الأحاديث — على حرمة تصوير الحيوان مجسما كاملا ، لا نعلم لأحد فى ذلك خلافا ؛ أما الصور غير الكاملة كالتماثيل النصفية التى لا تمثل إنسانا أو حيوانا يستطيع أن يعيش ، فانها ليست من الصور المتوعَّد عليها بهذه العقوبة الشديدة ، ومع ذلك فقد كرهها العلماء واستحسنوا تركها .

وقد استثنى بعض العلماء من الصور المحرمة ، التماثيل الصغيرة التى يتخذها الأطفال لعبة لهم ، استناداً لما ورد فى صحيح البخارى عن عائشة رضى الله عنها قالت : « كنت ألعب بالبنات عند النبى صلى الله عليه وسلم ، وكان لى صواحب يلعبن معى » . وفى فتح البارى : أخرج أبو عوانة وغيره عن عائشة قالت : « كنت ألعب بالبنات ، وهن اللعب » . وحكى القاضى عياض عن الجمهور أنهم أجازوا بيع اللعب للبنات لتدريبهن من صغرهن على أمر بيوتهن وأولادهن .

وكذلك اتفق العلماء على إباحة تصوير الشجر وما لا نفس له ، لما تقدم فى حديث ابن عباس رضى الله عنهما . قال الخطابى : « إنما فرقوا بين ما له روح وما ليس له روح ، لأن الأول من جنس ما كان يعبد من دون الله ، وأما ما ليس له روح فانه لم يعبد من دون الله » .

أما الصور غير المجسمة التى لا ظل لها : كالصور الفوتوغرافية ، والصور الزيتية ، والصور المنقوشة فى الثياب وعلى الجدران ، فهى فى مجال النظر عند الفقهاء ، فنهم من حرمها ، ومنهم من أباحها . وتميل اللجنة الى الرأى الثانى عملا بما صح عن النبى صلى الله عليه وسلم من استثناء الصور المرقومة فى الثياب من الصور المحرمة ، ولأنه لم ينقل أن أمة عبدت صورة مرقومة غير مجسدة .

هذا ، وإذا قيل : « إن المصورين الآن لا يقصدون من التصوير توجيه الناس الى عبادة الأوثان ، وإنما يقصدون من تماثيلهم أن تكون مظهرا من مظاهر الفنون الجميلة التى لا يأباها الدين ، وفى التماثيل فوق ذلك إحياء لذكرى العاملين بتصوير أشخاصهم التى تكون مثار الاقتداء بهم والنسج على منوالهم ، وقد ارتقى العقل البشرى وصار من المستحيل أن يعتقد فى حجر منحوت باليد استحقاقه العبادة من دون الله ، فالعاقبة إذن مأمونة ، وعلة التحريم غير قائمة ، وحينئذ يكون التصوير الآن على اختلاف أنواعه مباحا لا تحريم فيه » .

إذا قيل ذلك ، فجوابه : أن توارث العقيدة بين الأبناء والآباء ، وتشبه الأمم بالأمم ، وتأثير البيئة على الانسان ، كل ذلك قد يطغى على العقل والتفكير ، ويبعد الانسان عن التفكير الصحيح ، والتمييز بين الحق والباطل ، فلا يصل الى الدين الحق ؛ وقد عبدت الأشخاص والأصنام والأرواح حتى فى أزهى العصور العلمية وأرقاها ، وفى العصور الناضرة من عصور الحضارة والارتقاء ، فى وقتنا الحاضر وفى غير وقتنا الحاضر ، فعلة التحريم قائمة .

وإذا كان الغرض من التصوير ، كما قيل ، إحياء ذكرى العاملين بتصوير أشخاصهم ، وبعث النفوس الى الاقتداء بهم ، وكان هذا الباعث الشريف غاية الناس من هذا العمل ، فانه قد ينجم عنه بتطاول الزمن ما لا تحمد عقباه فى عقيدة التوحيد . فقد صح عن ابن عباس فى أوثان قوم نوح أنه قال : « كان ودٌّ وسُواعٌ ويَغوثُ ويَعوقُ ونَسْرٌ ، أسماء رجال صالحين من قوم نوح ، فلما هلكوا أوحى الشيطان الى قومهم أن انصبوا الى مجالسهم التى كانوا يجلسون فيها أنصابا وسموها بأسمائهم ، ففعلوا ، فلم تعبد حتى إذا هلك أولئك وتنسخ العلم عبدت » . أخرجه البخارى وغيره .

وإن الفنون الجميلة لا ينحصر مجالها فى التصوير الذى حرمه الاسلام محافظة على عقيدة التوحيد ، وسدا لعبادة الأحجار والأوثان ؛ وكذلك الأسوة بالعظماء لا تتوقف على نحت

تماثيل حجرية تقام فى الميادين وتمر عليها السنون والدهور ولا تكون منارا لشىء مما يرجع الى الأسوة والاقتداء ؛ وإن فى العمل الصالح وتدوين تاريخ العاملين والإشادة بذكرهم لأوضح مرشد لمن يريد الاقتداء بهم ، والنسج على منوالهم .

إن تماثيل العظماء التى تقام فى الميادين تقتضى نفقات طائلة لو أنها أنفقت باسم هـؤلاء العظماء فى أعمال البر والصدقات الجارية ، لـكان ذلك أجدى وأنفع فى تخليد ذكراهم ، واستدرار رحمة الله عليهم فى دار الخلد وجنات النعيم .

والله الهادى الموفق الى سواء السبيل .

* * *

محاريب المساجد

وورد الى لجنة الفتوى بالأزهر استفتاء عن المحاريب المجوفة فى المساجد ، أهى بدعة منكرة فى الدين ، أم هى أمر مستحسن يعين على معرفة جهة القبلة ؟

الجواب

إن التجويف الذى اتخذ علامة على القبلة فى المساجد وسماه الناس « محرابا » لا يعدو شأن أية علامة تتخذ للقبلة . وقد اتخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم الخشبة علامة عليها ؛ ورأى عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه اتخاذ هذا التجويف علامة على القبلة فى المسجد النبوى الشريف أيام كان واليا على المدينة من قبل الوليد بن عبد الملك ، فى أواخر القرن الأول الهجرى ، ولم ينكر عليه أحـد من علماء التابعين ، بل إنهم استحسنوه لأنه عام النفع فى جميع الأشخاص والأوقات ؛ وتتابع المسلمون فى مشارق الأرض ومغاربها على اتخاذه ليكون علامة على القبلة ؛ ولم ينقل أن أحداً من متقدمى العلماء اعتبر ذلك ابتداعا فى الدين ، أو إحداثا لما ليس منه .

إن الابتداع المنهى عنه لا يتناول مثل هذا التجويف ، لأنه لم يُتعبَّد به الله ، ولـكنه جعل وسيلة لمعرفة القبلة التى جُعل التوجه اليها شرطا فى صحة الصلاة . وإنما يدخل الابتداع فيما يتعبد به : من إحداث عبادة مستقلة ، أو زيادة فى عبادة ، أو تغيير فى كيفية عبادة ، على أن يقصد التعبد بالمستحدث كما يتعبد بأصل المشروع . وهذا هو مايدل عليه حديث النهى عن الابتداع ، وهو قوله صلى الله عليه وسلم : « من أحدث فى ديننا ما ليس منه فهو رد » ، فإن الإحداث (فى الدين) لا يتناول إلا ما استحدث على أنه عبادة أو زيادة فى عبادة كما قلنا . أما وسائل العبادات فإن استحداثها لا يقال له إحداث (فى الدين) ، فلا يدخل فى حد الابتداع أصلا ؛ وذلك كنقل الأذان من باب المسجد الى سطحه ثم الى المنارة ، لا يعد ذلك ابتداعا ،

بل هو من الوسائل التى تحقق الغرض من الأذان فى أكمل معانيه ؛ وكذلك مدافع الإفطار والإمساك فى شهر رمضان ليست ابتداعا فى الدين ، مادام الغرض منها ضبط الوقت الذى ينتهى به الصوم ، والوقت الذى يبدأ فيه بالصوم ؛ وكذلك اتخاذ منبر للخطابة ذى درج مرتفع لغرض إسماع الناس فى المساجد الكبيرة ليس من الابتداع فى شىء ، وإن كان مخالفا لمنبر الرسول عليه الصلاة والسلام فى مادته وشكله وعدد درجاته .

فهذا أصل يجب أن يتحاكم إليه فى معرفة كون المحدث بدعة منهيا عنها أو ليس بدعة . وفى اعتقادنا أن التحاكم الى هذا الأصل يقرّب مسافة الخلف بين الطوائف الاسلامية فى كثير من الفروع التى يختلفون فى مشروعيتها وعدم مشروعيتها ، ويجعلهم ذوى دين واحد ، ووجهة واحدة ، يبتغون فضلا من الله ورضوانا .

أما تعصب كل فريق لموروثه ، وعناده لما سواه ، فهذا شىء يأباه الدين ويمقته ، ويصور المسلمين بصورة أرباب الأديان المختلفة ، وبصورة الجاهلين بدينهم هذه الأجيال المتعاقبة .

ورب قائل يقول : كيف ترون اتخاذ المحاريب مباحا وليس بدعة ، وقد روى البيهقى فى سننه أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : « اتقوا هذه المذابح » ، وفسرها البيهقى بالمحاريب ؟

وجوابه : أن هذا الحديث قد ضُعّف بعضُ رجاله . على أن النهى فيه موجه الى اتخاذ المسلمين مذابح فى مساجدهم كمذابح النصارى ؛ وقد صرح بذلك فى حديث موسى الجهنى ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تزال هذه الأمة بخير مالم يتخذوا فى مساجدهم مذابح كمذابح النصارى » . فالنهى لا يتناول التجويف الذى يسميه الناس الآن محرابا ، لأنه يخالف المذبح فى ذاته ، وشكله ، والغرض منه ، كما يعرف بالمقارنة بينهما .

وحاشا لعمر بن عبد العزيز ، الرجل الفقيه التقى الورع ، أن يعمد الى مسجد الرسول الكريم ومهبط الوحى الأمين ، فيحدث فيه مذبحا كمذابح النصارى فى كنائسهم ! وحاشا لعلماء المدينة أن يقروه على هذا المنكر الشنيع ! وحاشا لأئمة المذاهب المجتهدين من بعدهم أن يسكتوا على هذا الحدث العظيم ، بَلْهَ أن يعتمدوه فى مذاهبهم فيعتبروا محاريب المسلمين مرتبة مقدمة فى العلم بجهة القبلة على مرتبة الاجتهاد والتحرى !

نعم قد أطلق لفظ البدعة فى كثير من كتب الحديث والفقه على كل ما لم يكن فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ؛ وعلى هذا الإطلاق قسّم بعض الفقهاء البدعة الى بدعة حسنة ، وبدعة سيئة . والغرض هو ما أشرنا إليه من أن ما استحدث بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا كان يرجع الى إحداث عبادة ، أو زيادة فى عبادة ، أو تغيير فى كيفية عبادة ، فهو بدعة سيئة ، لأنه يرجع الى التعبد بما لم يأذن به الله . أما إحداث أمور أخرى لم تكن على عهد

رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم تكن من هذا القبيل ، بل كانت من قبيل الوسائل التى تساعد على أداء العبادة ، فهو بدعة حسنة ، وعلى هذا التوجيه يحمل ما ورد فى كتب الفقه من أن إحداث المحاريب بدعة :

وبعد : فإلى كل الطوائف والجماعات التى تحارب البدع وتحرص على خدمة الاسلام ونشر تعاليمه ، نوجه هذه النصيحة .

ياقوم ! دعوا هذه النوافه التى لا تفيد إلا أن تثير الفتنة ، وتزيد فى عوامل الفرقة بين المسلمين ، وتجعل بعضهم حربا على بعض .

دعوا المحاريب — وقصارى أمرها فى نظركم أنها فرع من الفروع الخلافية فى المذاهب الاسلامية — واعمدوا الى المنكرات المجمع على إنكارها ، وحاربوها بكل ما استطعتم من قوة ، وهنالك يحمد لكم المسلمون جهادكم ، ولا يضيع عند الله جزاؤكم .

وفقنا الله وإياكم لخدمة الاسلام والمسلمين ؟

رئيس لجنة الفتوى

محمد عبد اللطيف الفحام

اتخاذ الأصدقاء

قال محمود الوراق الشاعر :

تكثر من الاخوان ما اسطعت إنهم ... عماد إذا استنجدتهم وظهور
فما بكثير ألف خل وصاحب ... وإن عدوا واحدا لكثير

قيل لابن المقفع : أصديقك أحب إليك أم نسيبك ؟ فقال : إنما أحب النسيب إذا كان صديقا ، والصديق نسيب الروح .

وإلى هذا المعنى أشار شاعر فقال :

نسيبك من ناسبت بالود قلبه ... وجارك من صافيته لا المصاقب

المصاقب : المجاور ، من صقبت الدار أى قربت .

وقد بالغ بعض الأدباء فقال : الأخ الصالح خير لك من نفسك ، لأن النفس قد تأمر بسوء ، والأخ الصالح لا يأمر إلا بالخير .

وقال المأمون : الاخوان ثلاثة : أخ كالغذاء يحتاج اليه فى كل وقت ، وأخ كالدواء يحتاج اليه أحيانا ، وأخ كالداء لا يحتاج اليه أبدا .

وقال عمر بن الخطاب : احذر صديقك إلا الأمين ، ولا أمين إلا من خشى الله

الكلام والمتكلمون

— ٣ —

المعـــــتزلة

تتمة الحديث عن مدارسهم :

وفى أصفهان أنشأ أبو بكر محمد بن ابراهيم الزبيرى ، وهو من أنصار أبى الهذيل ، دعاية للاعتزال ؛ وقد توفى فى القرن الرابع .

وفى القرن الرابع نشأت دعايات لمختلف المذاهب الاعتزالية فى مدن : قرميسين ، وجرجان ، ونيسابور ، وغيرها . وكل هذه المذاهب تعتبر فروعا للمدرسة البغدادية العامة . وفى القرن الخامس بدأت المذاهب الاعتزالية تندمج فى الزيدية . ويعتبر الزمخشرى المتوفى فى سنة ٥٣٨ هـ - سنة ١١٤٣ م أشهر زعماء متأخرى المعتزلة فى القرنين : الخامس والسادس ، ولكن اندماج هذه المذاهب فى الزيدية لم يقض عليها ، بل ظلت حية الى عهد الاجتياح المغولى .

وفى مصر كان إبراهيم بن إسماعيل الملقب بابن علية ، الذى رأيناه فى البصرة خصما لمدرسة العلاف ، والمتوفى فى سنة ٢١٨ هـ — سنة ٨٣٣ م ، أول المعتزلة ، إذ أسس مدرسته فى أوائل القرن الثالث ، وتبعه فيها حفص الفرد ، الذى ظل ممثلا للآراء الدينية الرسمية فى الدولة طول مدة محنة الواثق ، غير أن الخياط أعلن فسوقه وخروجه على الشريعة .

وفى الأندلس كان أبو بكر فرج القرطبى أول من نشر المبادئ الاعتزالية ، وذلك بعد أن ارتحل الى الشرق وتلقى العلم على الجاحظ . وإذاً ، فالمبادئ التى أذاعها فى الأندلس هى المبادئ الجاحظية ، أو بعبارة أدق : النظامية محوّرة بعض الشىء ، ولكن هذه المبادئ لم تلبث أن امتزجت فى تلك الأصقاع بالباطنية ، وخالطتها عناصر أجنبية خطيرة لم تخطر لأصحابها الأولين ببال (١) .

لمحة عن أشهر زعماء المعتزلة

واصل بن عطاء :

هو أبو حذيفة الغزّال واصل بن عطاء ؛ وقد ولد فى المدينة فى سنة ٨٠ هـ — سنة ٦٩٩ م ،

(١) انظر صفحة ٨٤١ وما بعدها من المجلد الثالث من دائرة المعارف الاسلامية الفرنسية .

وكان من موالى بنى مخزوم أو بنى ضبة ثم أعتق . وعلى أثر تحرره سافر الى البصرة فالتحق بمدرسة الحسن البصرى ، وإذ ذاك اتصل بجهم بن صفوان ، وبشار بن برد الذى كان كثيرا ما يسخر من طول عنقه ، فيقول : إن واصلا يحمل رأسه فوق عنق زرافة . ولكن صلته بهؤلاء الرجال الثلاثة لم تلبث أن فترت ثم انقطعت .

كان واصل حسن الخلق ، نزيها محسنا ، حتى إنه ـ لفرط إحسانه على الغزّالات الفقيرات ـ لقب بالغزّال . وكان زاهدا فى المال فلا يتقاضى منه إلا ما هو من حقه ؛ وكان فصيحا قادرا على امتلاك ناصية الكلام الى حد أنه — للثغه فى حرف الراء — قد استطاع أن يتجنب هذا الحرف فى خطبه ودروسه ، بل فى محادثاته العادية ؛ وقد كان تلميذا للحسن البصرى الى أن وقع بينهما الخلاف فى مسألة « المنزلة بين المنزلتين » فافترقا كما أسلفنا . وأخيرا توفى فى سنة مائة وإحدى وثلاثين للهجرة — سبعمائة وثمان وأربعين ميلادية .

ويعتبر واصل المؤسس الأول لفرق المعتزلة ، وإن كان معبد الجهنى ، وعطاء بن يسار ، وأبو مروان الدمشقى وأنصارهم قد سبقوه الى مبدأ حرية الفرد . كان السبب الذى تذرع واصل بأنه هو الذى دفعه الى الاعتزال ، هو تنزيه الإله عن جميع شوائب الظلم والعجز والتعدد .

فلكى ينفى شائبة الظلم قال بقدرة الفرد على جميع أفعاله ، لتتحدد مسئوليته ، فتتحقق العدالة بعقابه وثوابه .

ولكى ينفى شائبة العجز عن الإله قال بأنه قدر الشرور المادية كالأمراض والآلام والموت ، ولكنه لم يقدر الشرور الأخلاقية ، لأنه فى الحالة الأخيرة يكون قد قدر ما يكرهه ، ولا يفعل ذلك إلا العاجز .

ولكى ينفى شائبة التعدد ، قال بنفى جميع الصفات ، لأن ثبوتها يتنافى مع الوحدانية ، كما سنبسط ذلك حين نتناول المذهب العام للمعتزلة .

لم تكن مدرسة واصل أولى مدارس المعتزلة فحسب ، بل كانت أهم المدارس التى ظهرت فى عصر ماقبل الترجمة على الإطلاق ؛ وقد ظلت مستمتعة بالحياة والأنصار الى أن خفتت حركة الاعتزال فى عهد المدرسة الأشعرية .

عمرو بن عبيد :

هو أبو عثمان عمرو بن عبيد بن رباب ، وهو مولى بنى تميم ، وكان جده رباب من سبى كابل من رجال السند ، ولا يعرف تاريخ مولده بالضبط ، وإنما كل ما عرف من هذا التاريخ هو أنه كان معاصرا لواصل بن عطاء ، وأنه توفى فى سنة ١٤٤ هـ ، وأنه كان بعد وفاة واصل شيخا للمعتزلة ، وأن له خطبا ورسائل لها قيمتها ، وأنه قد بلغ من الصراحة والنزاهة وعزة النفس والنبل حدا لا يكاد يوجد لدى معاصريه جميعا . ومن دلائل ذلك أنه مثل يوما بين يدى أبى جعفر المنصور ،

فقال له الخليفة : عظنى ، فوعظه ، فأمر له بعشرة آلاف ، فقال : لا حاجة لى فيها . فقال أبو جعفر : والله لتأخذنها ! قال : لا ، والله لا آخذها ! وكان المهدى حاضرا فقال : يحلف أمير المؤمنين وتحلف ؟ ! فالتفت عمرو الى أبى جعفر فقال : من هـذا الفتى ؟ قال : هـذا محمد ابنى ، وهو المهدى ، وهو ولى عهدى . قال : أما والله لقد ألبسته لباسا ماهو من لباس الأبرار ، ولقد سميته باسم ما استحقه عملا ، ولقد مهدت له أمنع ما يـكون عنه ! ثم أقبل عمرو على المهدى فقال : نعم يابن أخى ، إذا حلف أبوك أحنثه عمك ، لأن أباك أقوى على الـكفارات من عمك ! فقال له المنصور : هل لك من حاجة يا أبا عثمان ؟ قال : نعم . قال : ماهى ؟ قال : ألا تبعث الى حتى آتيك . قال : إذاً لا نلتقى . قال : هى حاجتى ! فمضى وأتبعه المنصور بطرفه ثم قال :

« كلـكم يمشى رويد * كلـكم يطلب صيد * غير عمرو بن عبيد » !

وقد دخل على المنصور بعد ما بايع للمهدى فقال له : عظنى يا عمرو . فقال : يا أمير المؤمنين ، إن الله أعطاك الدنيا بأسرها ، فاشتر نفسك منه ببعضها ، وإن هذا الذى فى يدك لو بقى فى يد غيرك لم يصل إليك ، فاحـذر ليلة تمخض بيوم لا ليلة بعده !

أما مذهبه ، فهو يشبه مذهب واصل فى النظريات الفلسفية ، ولا يختلف عنه إلا فى مبدئه السياسى الذى يقضى بتفسيق الفريقين المتحاربين من المسلمين .

أبو هذيل العلاّف :

هو محمد بن الهذيل العبدى العلاف ، ولد فى البصرة فى سنة ١٣٥ هـ — سنة ٧٥٢ م ، وكان من موالى بنى عبد القيس . ولما شبّ تلقى العلم فى بغداد على عثمان بن خالد الطويل أحد تلاميذ واصل بن عطاء ، وكان فى زمانه شيخ المعتزلة ، ومقدم الطائفة ، ومقرر الطريقة ، والمناظر عليها ؛ وكان من أشهر أهل زمانه فى القـدرة على الجدل . وقد حدثنا المؤرخون أنه لم يـكد يستقر فى بغداد حتى بلغت شهرته مسمع المأمون ، فقربه من مجلسه ، وجعل يثير بينه وبين خصومه وأنصاره مناظرات علمية جدية ، وكذلك طالما كان الجدل يشتعل بينه وبين هشام بن الحـكم زعيم الروافض فى ذلك الحين . وقـد اعتبر العلماء أبا الهـذيل أول منشىء الاعتزال الفلسفى المؤسس على الاطلاع الواسع . وأخيرا توفى أبو الهـذيل فى سـنة ٢٢٦ هـ — سنة ٨٤٠ م ، أو فى سنة ٢٣٥ هـ — سنة ٨٤٩ م أى عن إحدى وتسعين سنة فيما يرى الأول ، ومائة سنة فيما يرى الثانى . وقد رجح الأستاذ كارادى فو فى دائرة المعارف الاسلامية الفرنسية الرأى الأول .

كتب أبو الهذيل كثيرا من المؤلفات ، ولـكنها فقـدت جميعها . وكل ما وصل إلينا من آرائه هو نقول عن تلاميذه وخصومه وعن المؤرخين المحايدين .

غير أن ما وصل إلينا من هذه الآراء يدلنا دلالة واضحة على أن المترجمات الاغريقية كانت

قد بدأت تعمل عملها فى البيئات العربية ، إذ لا يكاد الباحث يتأمل فى آراء أبى الهذيل حتى يتبين له أنها قد غذيت بعناصر جديدة لا عهد للقدماء بها ، فهو مثلا لم يعتنق الرأى القديم القائل بنفى الصفات بتاتا ، بل قال بأن البارى عالم بعلم ، وعلمه ذاته ، قادر بقـدرة ، وقدرته ذاته ، وهلم جرا . وقد تأثر فى هذا الرأى بقول الفلاسفة : إن ذاته واحدة لا كثرة فيها بوجه ، وإنما الصفات ليست وراء الذات معانى قائمة بذاته ، بل هى ذاته ، وترجع الى السلوب أو اللوازم .

وقد علق الشهرستانى على هذا الرأى بقوله : « والفرق بين قول القائل : عالم بذاته لا بعلم ، وبين قول القائل : عالم بعلم ، هو ذاته ، أن الأول نفى الصفة ، والثانى إثبات ذات هو بعينه صفة ، أو إثبات صفة هى بعينها ذات . وإذ أثبت أبو الهذيل هذه الصفات وجوها للذات ، فهى بعينها أقانيم النصارى أو أحوال أبى هاشم (١) » .

وهذه الصلة التى يعقدها الشهرستانى بين وجوه أبى الهذيل وأحوال أبى هاشم ، وبين أقانيم المسيحيين ، لها وجاهتها فيما أرى ، على الرغم من أن الأستاذ كارادى فو يقول : إنه لا يرتضى هذا التشبيه . ولو أنه علل نقده للشهرستانى لناقشناه فيه ، ولـكنه قد ساقه على عواهنه . أما نحن فبرهاننا على صحة التشبيه ما أثبتناه حين عرضنا لدرس الفلسفة المسيحية من أوصاف للأقانيم تشبه كثيرا وجوه أبى الهذيل وأحوال أبى هاشم ، فليرجع اليها الباحث فى مواضعها .

ومن أبرز آرائه التى تأثر فيها بالفلسفة الإغريقية قوله : إنى لا أقول بحركة لا أول لها ولا آخر ، ولـكنى أقول بسابقية السكون على الحركة وتلوه إياها ، وبأن بدء الخلق هو بدء هذه الحركة ، ونهايته نهايتها . وهـذا تصوير من بعض الوجوه للنظرية الاغريقية التى ترجع الى الحركة إبراز كوامن الهيولى الأزلية وتسييرها من القوة الى الفعل ، وتوليد المشخصات المختبئة فى المتحركات ، وإنما نقول : من بعض الوجوه ، لأن النظرية الأغريقية تصرح بأزلية الحركة وأبديتها على عكس رأى أبى الهذيل .

ومن هـذه الآراء أيضا تقسيمه الـكلام الإلهى الى قسمين : الأول لا فى محل ، وهو ما يتعلق بالخلق والإيجاد ، فان قول البارى : ليكن كذا ، ليس فى محل ، لعدم وجود المحل إذ ذاك . والقسم الثانى فى محل ، وهو ما يتعلق بالأمر والنهى .

ومنها كذلك قوله : بأن المقتول لا يموت بأجله ، وإنما قبله . وقوله : بأن العقلاء من أهل الفترة غير ناجين ، لأن العقل السليم هو وحده مناط التـكليف .

هذا ، وله نظريات أخرى غير ماذكرنا ، ولـكننا نكتفى بهذا القدر ؟

(١) انظر صفحة ٥٦ جزء أول من الشهرستانى .

الدكتور محمد غلاب
أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

« يتبع »

تاريخ الفقه الاسلامى
فى مصر

تمهيد :

لا شك أن اللغة العربية قد دخلت ، بإشراق شمس الاسلام ، فى عهد جديد كله خير وبركة .

ولا شك أن الفكر الانسانى ، والعقل العلمى ، قد وجدا فى الاسلام غذاء جيدا لا يفنى ، ومادة غزيرة لا تنفد .

فأما اللغة العربية ، فقد نزل بها القرآن الكريم ، فسمت بسموه ، وخلدت بخلوده ، وترقت ألفاظها وعباراتها بمحاكاة البلغاء إياه ، واقتباسهم منه ، وزال ما كان بها من جفوة وغلظة ، فأصبحت بيضاء نقية ، لا لبس فيها ولا إبهام ، ولا عيب مما يعترى الكلام .

ثم رفهت بما أحدثه القرآن والحديث فيها من علوم وفنون ، وانتشرت بانتشارها فيما فتح الله على المسلمين من أمصار ، واستعلت على سائر اللغات فى مواطنها ، وأصبحت لغة قوم ذوى عز وسيادة ، ومدنية وملك ، كما أصبحت لغة علوم وفنون ، وتدوين وتصنيف .

وأما الأفكار والعقول ، فقد وجدت فى الاسلام دينا رحب الصدر ، واسع الاحتمال ، لا يهاب العقل ، ولا يصادم العلم .

وضعت قواعد الاسلام وقضاياه من أول يوم بين يدى العقل ، وطرحت على بساط العلم والبحث ، فجعلت تفحصها العقول ، وتصهرها مراجل العلوم ، وتبلوها التجارب ، وهى ترفع رأسها رويدا رويدا فى ثقة وإيمان ، لا تخشى أن تخفضه الأيام وفى الناس عقول ، وفى الدنيا إنصاف .

ثم ظلت فوق ذروتها العليا ، تحدجها الأبصار حينا ، وتكل عنها حينا ، وهى فى كل حال ينبعث منها نور الحق ، وينبثق منها شعاع الهدى .

ومرت عصور ، وتوالت دول ، وتولت ملوك ، وأقيمت نظم ثم بدلت ، واشتجر صراع عنيف بين العلوم ، والأديان ، واللغات . فماذا كان حظ الاسلام فى لغته وعلومه ، من هذا الصراع العنيف ؟ وبماذا خرج من هذه المعارك المختلفة الألوان والأغراض ؟

إنه خرج منها منتصرا مرفوع الرأس ، يحمل بإحدى يديه عقيدته سليمة طاهرة ، نقية صافية ، ويحمل بالأخرى علومه ولغته وتاريخه !

لو أن أحدا مثل له تاريخ الاسلام العلمى ، فوقف بحيث يستعرضه ، وتمر عليه جيوشه ، وتجرى أمامه كتائبه ، لرأى ما يملأ النفس روعة وجلالا ، وما يعمر القلب يقينا وإيمانا .

فهذه كنوز ثمينة ، فى التأليف والتصنيف ، ورثناها عن آبائنا وجدودنا .

كنوز فى اللغة : متونها ، وآدابها ، وشعرها ، ونثرها ، ونحوها وصرفها ، واشتقاقها ، ومعانيها ، وبيانها ، وبديعها ، وسائر فنونها .

وكنوز فى علوم القرآن : تفسيره وتأويله ، ومجازه ، وأسباب نزوله ، وطرق الاستنباط منه ، وهدايته ، ومبادئه فى الإصلاح وبناء الأمم ، وأسلوبه فى التربية والتشريع .

أسرار لا تحصى ، للفقيه فيها نظر ، وللأديب نظر ، وللغوى نظر ، ولصاحب النحو نظر .

وفى دائرتها يعمل المصلح ، والمربى ، والمرشد ، ورجل الدين ، ورجل القانون .

وكنوز فى علوم السنة : من رواية ودراية ، وتجريح وتعديل ، وناسخ ومنسوخ ، ومذاهب فقه ، وأصول أحكام ، وتاريخ رجال . وغير ذلك من علوم وفنون .

هذه صفحة من تاريخ الاسلام العلمى ، كتبها أبطاله الأولون ، وسار على سنتهم أبناؤهم وأحفادهم ، الى هذا العصر الذى نعيش فيه .

وهذه قافلة العلم مازالت تسير ، لا تقف عند حد ، ولا تعرف الركود ولا الجمود .

ونحن — أبناء هذا العصر — من حقنا ، بل من واجبنا أن نسير فى هذا الركب كما سار الذين من قبلنا ، وأن يضع كل منا لَبِنة فى هذا البناء الشامخ الذى شيده آباؤنا .

ومن الخير أن يعمد القادرون منا الى استكشاف النواحى التى مازال بها شىء من الغموض ، وارتياد المواطن التى تحتاج الى التمهيد والتعبيد ، فقد طال ما جرينا فى السهل ، وتخلينا عن الوعر ، وكثيرما آثرنا المنال القريب ، على المنال البعيد ! !

إن العلم لا يعرف الترفه ولا التنعم ، وإنما يسلس جامحه ، وينال صعبه ، بالتقشف والتخشن .

وإنى أضرب لهذا مثلا قريبا حاضرا : لماذا لم يعن أحد من المؤلفين أو الكتاب فى عصرنا الحاضر العناية الواجبة بتاريخ الحركات العلمية واللغوية والأدبية فى مصر خاصة ؟

إننا إذا أردنا أن نقف على تاريخ هذه الحركات فى مصر ، اضطررنا الى الرحلة الى بلاد غير البلاد ، لا أقصد الرحلة الحقيقية التى هى سفر واغتراب ، وإنما أريد الرحلة الى الكتب العامة ، التى لم تتقيد ببلد دون بلد ، وإنما تتحدث عن الآداب والعلوم فى البلاد جميعا بوجه عام .

فلما تجد كتابا يجمع بين دفتيه الحديث عن الأدب المصرى قديمه وحديثه ، ويخصص أبوابه وفصوله لهذا الموضوع تخصيصا . فإذا أردت أن تقف على هذه الناحية فإنك لابد راحل

الى الـكتب العامة ، التى تسوق الحديث عن الأدب مختلطا من غير تمييز ، فتجمع أدب الحجاز الى أدب الشام ، الى أدب العراق ، وربما عرجت على الأدب المصرى فمسته مسا رقيقا رفيقا ، لا أثر فيه لدراسة أو تمحيص ، ولا لتعمق أو استيعاب ، عندئذ ترى جملا متفرقة ، ونتفا مبعثرة ، لا تقوم بها شخصية مستقلة ، ولا تتالف منها صورة واضحة ! وتكون النتيجة أنك تعود من هذه الرحلة كما بدأت ، خالى اليدين مما أردت ! !

وقل مثل هـذا عن النحو والنحاة ، فلا شك أنه كان لمصر نحو ، كما كان لها أدب ؛ ولا شك أنه كان فى مصر نحاة ، كما كان فيها أدباء وشعراء ؛ ولا شك أنه كان لهؤلاء النحاة طرق تتفق أحيانا مع طرق غيرهم ، وتختلف أحيانا ، وأن هذا الاختلاف تارة يكون يسيرا هادئا ، وتارة يكون عنيفا شديدا ، ولـكن ، هـل تستطيع أن ترسم للنحو صورة مصرية واضحة ؟ وهل تستطيع أن تجمع من النحاة المصريين هيئة مستقلة متميزة ؟

لا ! وأنت مضطر أيضا الى الرحلة الى كتب النحو العامة ، لتقرأ ، من حيث يحـلو لك أو لا يحلو ، الأحاديث الطوال عن نحو البصرة ، ونحو الـكوفة ، ونحاة البصرة ، ونحاة الـكوفة.

فاذا عثرت على شىء من الحـديث عن المصريين ، ونحو المصريين ، وجدته مجملا مقتضبا مشتتا ، وحينئذ تعود مسرعا من حيث أتيت ، خالى اليدين مما أردت !

وتعال معى الى الفقه ، وتاريخ الفقه ، أو كما يقولون عنه « تاريخ التشريع » : أكان فى مصر فقهاء ؟ أكان لهم فقه ؟ أكان لهم رواية عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ ما لون هذا الفقه فى عصوره المختلفة من عهد الفتح الى اليوم ؟ وما هذه الرواية ؟ وما مدى انتفاعهم بها ؟

ارجع الى الـكتب المؤلفة فى « تاريخ الفقه » . ارجع الى الـكتب التى تتحدث عن أصول الفقـه ، وتذكر الأسس التى بنى عليها الأئمة والفقهاء مذاهبهم . ارجع الى كتب التاريخ العـام ، ارجع الى كتب المذاهب المختلفة التى تتحدث عن فقه أصحابها وتجمع رأى الحجازى والعراقى والشامى والمصرى والمغربى ، لا تفرق بين أحـد منهم ، ولا تعنى بتبيين وجهات أنظارهم .

ارجع الى ذلك كله ، وارحل اليه ، ولتطل رحلتك كما تحب أن تطول ، ثم حدثنى : هل عدت فى هذه المرة من رحلتك مملوء اليدين ؟ وهل استطعت أن ترى للفقه المصرى صورة واضحة ، وأن تتبين ملامح هذه الصورة ثابتة غير مهتزة ولا متأرجحة ؟ وهل استطعت أن تحلق بفكرك فى جو من الفقه الاسلامى له طابع مصر ، وفيه روح مصر ؟ وهل استطعت أن تصل روحك بروح فقيه مصرى خالص أو غير خالص ، لتهتدى الى نفسه وعقله ، وثقافته ، وطريقة تفكيره ؟ لا بد من « لا » .

هذه نواحى نقص من غير شك ، ولكننا مع ذلك نصرف النظر عنها ، وترى مؤلفنا أو كاتبنا يفر منها فرارا ، لأنه يؤثر الراحة ، والطمأنينة ، ويكره أن يقلق راحته بحث عميق ، ويعكر صفوه نظر دقيق ، ويرى أنه لا بأس عليه إذا ترك الورد لما حوله من أشواك !!

يجب أن يتقدم أصحاب الأدب لتلافى هـذا النقص من الناحية الأدبية ، فيقوم منهم من يؤرخ أدبنا المصرى العـربى ، ويحرص على أن يعطى قراءه فـكرة واضحة عنه ، وعن أدبائه وشعرائه ، وعن عهود انحطاطه وارتقائه .

يجب أن يكون لنا شأن غير هذا الشأن ، وأن تـكون لنا همة أعلى من هذه الهمة .

ويجب أن يتقـدم المشتغلون بالنحو بمثل ذلك فى ناحيتهم ، فيدرسوا النحو المصرى العربى ويؤرخوا رجاله ، ويدلوا على ما عسى أن يكون لهم من آثار علمية أو عملية فى هـذا العلم العظيم .

ويجب أن يتقدم المشتغلون بتاريخ الفقه غير هيابين ولا وجلين ، فيزاملوا الفقه الإسلامى من عهد الفتح الى اليـوم ، ويبينوا كيف كان شأنه فى مصر ، ويعطوا صورة عمن اشتركوا فى فتح البلاد من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعمن جاء بعدهم من التابعين والفقهاء ، وماذا كان نصيب مصر من المذاهب الفقهية ، وما شأن القضاء فيها ، وهل كان لها فقه (فى حدود الشريعة) يمتاز عن فقه غيرها من الأمصار ؟ والى أى مدى كانت تتأثر بفقه الحجاز والعراق مثلا ؟ والى أى مدى كانت تأخذ بالرأى أو تعمل بالحديث ؟

عليهم أن يتنقلوا مع هذا التاريخ مرحلة بعـد مرحلة حتى تنتهى بهم الرحلة الى عصرنا ، وينظروا فيما عليه اليوم فقهنا .

هذا اقتراح أعرضه على الأدباء والعلماء راجيا أن يصادف منهم قبولا .

ولعلنا بذلك نخدم التاريخ العلمى لمصر ، كما خدم تاريخها السياسى قديما وحديثا .

وإنى أتقدم للمساهمة فى هذا العمل ، وآخذ على عاتقى نصيبا من عبئه ، وأرجو أن يوفقنى الله الى الحديث عن « تاريخ الفقه الاسلامى فى مصر » فى مقالات متتابعة ، ابتداء من العدد القادم ، وبالله أستعين ، وهو حسبى ونعم الوكيل ؟

محمد محمد المدنى
المدرس بكلية الشريعة

الورع والمال

ترك عبد الله بن المبارك دنانير وقال : اللهم إنك تعلم أنى لم أجمعها إلا لأصون بها حسبى ودينى .

وقال ابن عيينة : من كان له مال فليصلحه ، فإنـكم فى زمان من احتاج فيه الى الناس كان أول ما يبذله دينه .

في عالم الأدب العربي

نظرات في الادب العربي

جاهليّه وإسلاميّه

— ٢ —

جناية الأدب الجاهلي على الأدب العربي

ظهر هذا البحث في الربيع الماضي ، ونشرت لنا مجلة الرسالة فيه كلمة ، تحت عنوان : « بين جناية الأدب الجاهلي والجناية عليه » كانت على هامش الموضوع ، ولم تكن في صميمه ؛ ولا يخامرني ريب في أنها كانت واضحة أو قريبة من الوضوح ، في معناها المراد ، بدرجة تغنيني عن الشرح والتوجيه .

ومُثير هذا البحث ، رجل قويّ الخلق ، متين الدين ، معروف التاريخ ؛ يحميه سياج من تربيته ، وعقله ، واتزانه ، أن ينفذ الشك الى نيّته ، أو يستراب في نبل الغاية التي رمى إليها . ولعل من الخير أن أشير هنا ، الى أنه ليس أخطر على آرائنا — معاشر الأزهريين — من أن ننزع فيها عن قوس عاطفتنا الحادّة ، التي ركّبتها في طبيعتنا تلك البيئة الدينية الغالية ، التي لا يمكن حمل فضلها على الناس ؛ فليس أكمل لرجل الدين من سعة الصدر ، واصطناع الأناة ، وتقليب الرأى على وجوهه ، قبل إصدار الحكم فيه . وإن خيرا للدين ألف مرة ومرة ، أن أجمّع عليه البر والمسيء ، من أن أفرق عنه كل من قصّر به عمله عن أن يكون من كبار الصالحين ؛ ومن يدرى ؟ فقد يكون لمن أذوده عن الدين باسم الدين ، وجهة نظر هي أشبه بحقيقة الدين من وجهة نظرى ؛ وبخاصة من تربّى تربيتى ، وتكمّل بما حرمتنى الأقدار بعضه أو كله . أنا رجل رجعى ، يعرف خلطائى جميعا ، أننى أرى الدين والأزهر بخير ، ما بقيت فينا طائفة تمثل الجمود الديني بأتمّ معانيه ، حتى تردّنا الى الحد الوسط ، أمام طغيان الحضارة الغربية الفاتنة الرهيب ، ولكننى أريدها لحفظ التوازن ، لا للحرمان ؛ ونحن في طور انتقال .

لم يكن لهذا البحث من خطر الشأن ، بعضُ ما كان لبحث « الشعر الجاهلي » ، ولعله كان يمرّ على القراء في عناية معتادة أو فوق المعتادة بقليل ، لو لم تُتَح به فرصةٌ لخصم مُصَاول ،

اهْتَبَلَها، فثَمَّرها فيما أجدى على شيوع البحث من جهة، وعلى إظهار براعته هو فى تشقيق الكلام، وبصره بفنون الأدب، وقدرته على الاستطراد، من جهة أخرى. ومردّ الفرق بين البحثين، الى أن هذا البحث لا اتصال له بالدين إلا من ناحية غير مقصودة، كما ستعرف؛ ثم الى فرق ما بين الباحثَين؛ فهذا باحث تغلب عليه النزعة العلمية، وذاك باحث أديب؛ والموضوع من موضوعات الأدب، يقوّمه الذوق الأدبى، أكثر بكثير مما يقوّمه النظر العلمى. ومن ذا الذى يريد الشعراء على أن يَنْزِلوا على حُكم العقل والواجب غير العلماء ؟! فأمّا الأدباء، فانهم أرقّ أكبادا من أن يَحْرِموا الشعراء حرية التحليق فى آفاق الخيال. وأكبر الظنّ أنّ صاحب هذا البحث قد أراد به رياضة نفسه بحملها على ما تأبى، ورياضة قلمه باجرائه فيما يعارض هواه؛ أو أنه — وقد جدّد فى زيّه — ظن أنه يستطيع كذلك أن يجدّد فى آرائه، فأبت عليه الخِلْقة الأزهرية المحافظة، التى تبدو من خَلَل حُلّته الفرَنجيّة، أن ينال كبيرَ حظ من النجاح؛ وقديما قيل:

يراد من القلب نسيانكم وتأبى الطباع على الناقل

ترجع اهمية الشعر الجاهلى فى نظر كل عربى بخاصّة، وفى نظر كل مسلم بعامّة، الى أمرين أساسيين؛ فأما أحدهما، فهو ما أشار إليه صاحب ضحى الإسلام نفسه ج ١ ص ٣١١ بقوله:

« ووردت فى القرآن والحديث ألفاظ لغوية، فضربوا أكباد الإبل الى البادية، يستفسرون عن لفظ، أو يقفون على تعبير؛ ودعاهم ذلك الى حفظ الأشعار، ففيها أحيانا ما يفسر لفظا قرآنيا، أو يساعد على فهم تعبير قرآنى. فأكثروا من رواية اللغة والأشعار لذلك، ودققوا فيها، وتحرّوا الموضوع من الصحيح؛ وما كان يبذل هذا الجهد، وذلك التحرى، لولا ما وراءه من باعث دينى ». اهـ بنصه. وعلق عليه فى هامش الصفحة نفسها بقوله:

« قال الثعالبى فى أول كتابه فقه اللغة: « أما بعد، فإن مَنْ أحبَّ الله أحب رسوله المصطفى، صلى الله عليه وسلم، ومن أحبّ النبى العربى أحبّ العرب؛ ومن أحب العرب، أحبّ اللغة العربية، التى بها أنزل أفضل الكتب، على أفضل العجم والعرب؛ ومن أحب العربية، عُنى بها، وثابر عليها، وصرف همته إليها ». ويقول: « والعربية خير اللغات والألسنة، والإقبالُ على تفهمها من الديانة، إذ هى أداة العلم، ومفتاح التفقه فى الدين. الخ ».

« وقال ابن عباس: « الشعر ديوان العرب، فاذا خفى علينا الحرف من القرآن الذى أنزله الله بلغة العرب، رجعنا الى ديوانها فالتمسنا معرفة ذلك منه ». وسئل عن قوله تعالى: « عن اليمين وعن الشمال عِزِين » قال: عزين: الحَلَقَ الرقاق، قال عبيد بن الأبرص:

فجاءوا يهرعون إليه حتى يكونوا حول منبره عزينا

انظر الاتقان: ١ — ١٤٩ وما بعدها ». اهـ بنصه من ضحى الاسلام.

ومما يتصل بقول الثعالبي : « والعربية خير اللغات والألسنة » ما ذكره صاحب المثل السائر ، قال : « وحضر عندى فى بعض الأيام رجل من اليهود ، وكنت إذ ذاك بالديار المصرية ، وكان لليهود فى هذا الرجل اعتقاد ، لمكان علمه فى دينهم وغيره ؛ وكان - لعمرى - كذلك ؛ فجرى ذكر اللغات ، وأن اللغة العربية هى سيدة اللغات ، وأنها أشرفهن مكانا ، وأحسنهن وضعا ، فقال ذلك الرجل : « كيف لا تكون كذلك ، وقد جاءت آخرا ، فنفت القبيح من اللغات قبلها وأخذت الحسن ؛ ثم إن واضعها تصرف فى جميع اللغات السالفة ، فاختصر ما اختصر ، وخفف ما خفف ؛ فمن ذلك اسم « الجمل » فانه عندنا فى اللسان العبرانى : كوميل ، ممالاً ، على وزن فوعيل ، فجاء واضع اللغة العربية ، وحذف منها الثقيل المُسْتَبشَع ، وقال : جمل ، فصار خفيفا حسنا . وكذلك فعل فى كذا وكذا ، وذكر أشياء كثيرة . ولقد صدق فى الذى ذكره ، وهو كلامُ عالم به » اه بنصه ص ٧٣ المطبعة البهية .

ومن هذا الذى ذكره صاحب الضحى ، ومما نقله عن ابن عباس رضى الله عنه ، وعن الثعالبى ، يظهر السبب فى شدة الرشيد على الحسن بن هانئ لما خرج على سنة شعراء العرب ، ونعى عليهم افتتاح القصائد بوصف الطلول ، والوقوف بالديار ، والتألم للفراق ، والحنين الى اللقاء ، الخ . واستبدل بذلك فى كثير من مطالع قصائده وصف الخمر ؛ فسجنه الرشيد ، وبالغ فى تهديده ؛ وزاد من حَنَقه عليه استهانته بالعرب : عدنانيّهم ، وقحطانيّهم ؛ فقد هجا عدنان ، وافتخر بقحطان ، بقصيدته التى مطلعها :

لَيْستْ بدارٍ عفتْ وغَيرهَا ... ضربانُ من قَطْرِها وحاصبِها

وفيها يقول :

فافخر بقحطان غير مكتئب ... فحاتم الجود من مناقبها
واهجُ نِزارا وأفْرِ جِلدَتَها ... وهَتّك السّتْرَ عن مثالبها

ثم عاد فهجا اليمن فى قصائد كثيرة ؛ منها قصيدته التى يقول فيها :

لِأَزْدِ عُمانٍ بالمهلب نَزْوة ... إذا افتخر الأقوام ، ثم تلين
وبَكر ترى أن النبوة أنزلت ... على مِسمع فى الرّحم وهو جنين (١)
وقالت تميم : لا نرى أن واحدا ... كأحنفنا - حتى الممات - يكون (٢)
فما لمتُ قيسا بعدها فى قتيبة ... ونخرٍ به ، إن الفخار فنون (٣)

(١) مسمع ، كمنبر : أبو قبيلة من ربيعة ، وآل مسمع : بيت بكر بن وائل فى الاسلام . (٢) الاحنف بن قيس التميمى الذى يضرب به المثل فى الحلم . (٣) هو قتيبة بن مسلم الباهلى القيسى ، القائد الاسلامى العظيم ، يقال إنه فتح سبع مدن فى خراسان ، فيها سبعة حصون ، لم يصل اليها أحد قبله .

وقد أرغم أبو نواس على العودة الى وصف الطلول ، فعاد فى خيث ، وذلك حيث يقول :

أعِرْ شعرك الأطلال والمنزل القفرا فقد طالما أزرى به نعتُك الخمرا
دعانى الى نعت الطلول مسلط تضيق ذراعى أن أرد له أمرا
فسمعا — أمير المؤمنين — وطاعة وإن كنت قد كلفتنى مركبا وعرا

وكذلك فعل الرشيد مع الفضل بن يحيى ، حين أنكر على الأصمعى إمعانه فى وصف الجمل من قصيدة للعجّاج ، ليلة سمره مع الرشيد ، إذ قال الفضل للأصمعى : « مالك تضيّق علينا كل ما اتسع من مشاهدة السمر فى ليلتنا هذه ، بذكر جمل أجرب ؟ ! فقال الرشيد : « اسكت ، هى التى أخرجتك من دارك ، وأزعجتك من قرارك ، وسلبتك تاج ملكك ؛ ثم ماتت ، فعُملت جلودها سياطا يضرب بها قومك ضرب العبيد . ثم قهقه ، ثم قال : لا تدع نفسك والتعرض لما تكره » ! فقال الفضل : « لقد عوقبت على غير ذنب ، والحمد لله » ! قال الرشيد : « أخطأت فى كلامك ، يرحمك الله ! لو قلت : وأستعين الله ، قلت صوابا ؛ إنما يحمد الله على النعم » .

ولما نهض تبادر الخدم فأمسكوا بيده ، حتى نزل عن فرشه ، ثم قدمت النعل ، فجعل الخادم يسوى عقب النعل فى رجله ، فقال : ارفق ، ويحك ، حسبك ، قد عقرتنى . قال الفضل : لله در العجم ! ما أحكم صنعتهم ! لو كانت سِنْدية ، ما احتجت الى هذه الكلفة . قال الرشيد : هذه نعلى ، ونعل آبائى ، رحمة الله عليهم ، وتلك نعلك ونعل آبائك . لا تزال تعارضنى فى الشىء ، ولا أدعك بدون جواب يمضّك ! ! ! « العقد الفريد لابن عبد ربه »

وعلى صلة بهذا ، قول يزيد المهلبى ، يعيب على بنى العباس تقريب الموالى وإبعاد العرب ، من مرثيه له فى الخليفة المتوكل على الله ، قتيل الأتراك :

لمّا اعتقدتم أناسا لا حلوم لهم ضِعتم ، وضيعتم من كان يُعتقد
ولو جعلتم على الأحرار نعمتكم حمتكم السادة المنسوبة الحُشُد
قوم هم الجِذم ، والأنساب تجمعهم والمجد ، والدين ، والأرحام ، والبلد
إذا قريش أرادوا شد ملكهم بغير قحطان ، لم يبرح به أود
أضحى شهيد بنى العباس موعظة لكل ذى عزة ، فى رأسه صَيَد

***

وأما الآخر ، فهو توقف تعلم صناعة الشعر على رواية الأدب الجاهلى وحفظه ؛ فقد اتفق أهل البصر بالشعر ، على أن من قل حفظه أو عُدِم ، لا يكون له شعر ؛ وإذا جاء بشىء منه ، كان نظما ساقطا ، لا قيمة له عند أهل الصناعة ؛ وفى درجته ما كان من جنسه ، كأشعار العصرين : الاسلامى والعباسى ؛ وعلى قدر جودة المحفوظ وطبقته فى جنسه ، وكثرته وقلته ، تكون جودة الملكة الحاصلة عنه للحافظ . قال العلامة ابن خلدون :

« اعلم أن الأساليب عندهم عبارة عن المنوال الذى ينسج فيه التراكيب ، أو القالب الذى يفرغ فيه ؛ ولا يرجع الى الكلام باعتبار إفادته أصل المعنى الذى هو وظيفة الإعراب ، ولا باعتبار إفادته كمال المعنى من خواص التراكيب الذى هو وظيفة البلاغة والبيان ، ولا باعتبار الوزن كما استعمله العرب فيه الذى هو وظيفة العروض ؛ فهذه العلوم الثلاثة خارجة عن هذه الصناعة الشعرية ، وإنما يرجع الى صورة ذهنية للتراكيب المنتظمة ، كلية ، باعتبار انطباقها على تركيب خاص ، وتلك الصورة ينتزعها الذهن من أعيان التراكيب وأشخاصها ، ويصيّرها فى الخيال كالقالب أو المنوال ، ثم ينتقى التراكيب الصحيحة عند العرب ، باعتبار الإعراب والبيان ، فيرّصها فيه رّصا ، كما يفعل البناء فى القالب ، أو النساج فى المنوال ، حتى يتسع القالب بحصول التراكيب الوافية بمقصود الكلام ، ويقع على الصورة الصحيحة باعتبار ملكة اللسان العربى فيه ؛ فان لكل فن من الكلام أساليب تختص به ، وتوجد فيه على أنحاء مختلفة ؛ فسؤال الطلول فى الشعر ، يكون بخطاب الطلول ، كقوله : يادارمية بالعلياء فالسند ؛ ويكون باستدعاء الصحب للوقوف والسؤال ، كقوله : قفا نسأل الدار التى خف أهلها ؛ أو باستبكاء الصحب على الطلل ، كقوله : قفانبك من ذكرى حبيب ومنزل ؛ أو بالاستفهام عن الجواب لمخاطب غير معين ، كقوله : ألم تسأل فتخبرك الرسوم ؟ ومثل تحية الطلول بالأمر لمخاطب غير معين بتحيتها ، كقوله : حى الطلول بجانب العزْل ؛ أو بالدعاء لها بالسُّقيا ، كقوله :

أسقى طلولهمو أجش هزيم وغدت عليهم نضرة ونعيم

أو سؤاله السقيا لها من البرق ، كقوله :

يا برق ، طالِع منزلا بالأبرق واحد السحاب لها حُداء الأينق

أو مثل التفجع فى الجزع باستدعاء البكاء ، كقوله :

كذا فليجلّ الخطب ، وليفدح الأمرُ وليس لعين لم يَفِضْ ماؤها عذرُ

أو بالتسجيل على الأكوان بالمصيبة لفقده ، كقوله :

منابِتَ العشب ، لا حامٍ ، ولا راعى مضى الردَى بطويل الرمح والباع

أو بتهنئة فريقه بالراحة من ثقل وطأته ، كقوله :

ألقى الرماح ربيعة بن نزار أودى الردى بفريقك المغوار

ولا يفيد هذه الأساليب ، إلا حفظ كلام العرب نظما ونثرا » اهـ مقدمة ص٤٧٢ طبعة فهمى.

ومن هنا كان أهل العلوم كلهم ، من الفقهاء والنحاة وغيرهم ، قاصرين فى الشعر ، لقلة [illegible] ظهم من جهة ، ولخدش ملكة البلاغة عندهم بما يسبق الى محفوظهم وبذا . . .

القوانين العلمية ، والعبارات الفقهية التى لا حظ لها فى البلاغة . ولقد كان الأزهريون ، ولا يزالون ، يعتقدون أن الأدب والعلم لا يجتمعان . وهم فى ذلك جِدّ مصيبين ؛ ويشهد لهم أننا لم نر أزهريا أحرز فَوْقا فى الأدب ، إلا جاء مقصراً فى العلم ، أو ترك ساحته جملة .

* * *

يساند الأمرين الآنفين ، أننا قومٌ عرب ، والعرب أشد الأمم عصبية وحنينا الى وطنهم الأول وعيشتهم الأولى ؛ لذلك لم تلههم مفاتن ما فتحوا من البلاد والممالك ، عن التغنى بذكر بلادهم ، وعن اتخاذ الشعر القديم نموذجا لهم فى الصناعة وفى الخيال . وأن الحنين الذى هز أبا الحسن علىّ بن جُودِى ، وهو فى رياض الأندلس ، الى نجد ، فأطلق لسانه بقوله :

أحنّ الى ريح الشمال فانها ... تذكرنا نجدا ، وما ذَكرت نجدا
تمر على ربع أقام به الهوى ... وبدل من أهليه جاثمة رُبْدا

وقوله :

خليلىّ ، عن نجد ؛ فان بنجدهم ... مصيفا لبيت العامرىّ ومربعا
ألا رَجِّعا عنها الحديث ، فانى ... لأغبط من ليلى الحديث المرجعا
عزيز علينا ـ يابْنَةَ القوم ـ أننا ... غريبان شَتّى ، لا نطيق التجمعا
فريق هوى منا : يَمَانٍ ومُشئِم ... يحاول يأسا ، أو يحاول مطمعا
كأنا خلقنا للنوى ، وكأنما ... حرام على الأيام أن نتجمعا

أقول : إن الحنين الذى هز هذا الأندلسى الرافه ، الى مرابع نجد ومصايفها ، فأطلقه سجعا مرددا ، وغَرَدا ساحرا ، هو هو الذى يهز المصرى والشامى والأفريقى والسودانى ؛ أو بعبارة أعم وأشمل ، هو نفسه الذى يهز مشاعر كل مسلم الى معاهد الاسلام الأولى ، فيطلق لسانه بمحاكاة أول أسلوب عرفه الاسلام .

* * *

أما بعد ما تقدم ، فاعتبارُ تأثر الأدب العربى ، بالأدب الجاهلى ، جناية ، هو — كجناية الآباء على الأبناء التى اشترعها الحكيم الشاعر أبو العلاء المعرى ، بقوله : هذا جناه أبى علىّ ، وما جنيت على أحد — اعتراض على الطبيعة ، أو على شىء غير الطبيعة ، بوّأ الأدب الجاهلى من الأدب العربى هذا المُبوَّأ ، لا اعتراض على جوهر الأدب .

وتحقيق قضية هذه الجناية ، فى المقال التالى ، إن شاء الله ؛ فلقد طال هذا الحديث ؟

عبد الجواد رمضان
كلية اللغة العربية

فى حفلة المحمـــــل

دورات الجمل السبع

كثر كلام الناس فى « حفلة المحمل » و « دورات الجمـل السبع » ، فمنهم من يحب التمسك بها إبقاء للقديم على قدمه ، ومنهم من يرى إلغاءها لأنها من المحدثات التى لم تؤثر عن الصدر الأول .

وإرشادا للحق فى هذه المسألة أقول :

لحفلة المحمل ناحيتان : ناحية تاريخية ، وناحية دينية . فأما الناحية التاريخية فلا أعرض لها ، ولا أذكر فيها إلا ما هو معروف من أن العصر الذى نشأت فيه فكرة المحمل ، لم يكن من عصور الرقى الفكرى والدينى ، وإنما كان من عصور التأخر والانحطاط التى أضيف فيها الى الدين ما ليس منه .

وأما الناحية الدينية ، فإننا إذا نظرنا الى حفلة المحمل كحفلة يقصد منها الدعاوة للحج ، وخروج الكسوة بمظهر يلفت إليها أنظار المسلمين ، فيثير فى نفوسهم الرغبة فى أداء فريضة الحج ، وجدناها حفلة لا يأباها الدين ، ولا تنكرها الشريعة ، ما دامت مبرأة من كل ما يسىء إليها ، ويشوه وجهها السمح . ذلك أن الاسلام لا يأبى أن يأخذ بأية وسيلة من شأنها أن تعين على إظهار شعيرة ، أو الإعلان عن سنة .

فهو مثـلا ، لا ينكر المحراب لأنه وسيلة الى معرفة القبلة ، ولا ينكر مدفع الظهر لأنه وسيلة لتحديد وقت الصلاة ، ولا ينكر إعلاء صوت الخطيب بأداة تضخيم الأصوات ، ما دام ذلك وسيلة لإبلاغ صوت الحق الى الناس ، وإذاعته بينهم .

وإنما الذى يأباه الدين ، هو العادات المنافية له ، المخالفة لأغراضه ، أو التى تثير فى نفوس الناس اعتقادا غير صحيح فى الأحكام الدينية .

فمن ذلك ما يحدث عادة يوم الاحتفال بالمحمل من اختلاط النساء بالرجال على صورة شائنة ، تنكرها الآداب ، وتمجها الأذواق ، ولا ترضى بها الشرائع والأخلاق .

ومن ذلك دوران المحمل سبع مرات كما يدور الطائفون بالبيت ، واستلام مقوده كما يستلم الحجر الاسود ، فى إجلال وتقبيل .

فالإســلام لا يعرف طوافا إلا حول البيت ، ولا يعترف بالتقبيل والتعظيم لشىء يستلم

إلا للحجر الأسود ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يطف بشيء إلا بالبيت ، ولم يقبّل شيئا إلا هـذا الحجر ، ولذلك يقول عمر بن الخطاب رضى الله عنه : « والله إنى لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ، ولولا أنى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبّلك ما قبلتك » .

هـذه هى روح الاسلام ، ومبادئ الاسـلام ، التى يعرفها الفقهاء ، ويقررها الأئمة . يقول الفقهاء : « إن وقوف الناس — غير الحجاج — يوم عرفة مجتمعين فى مكان تشبها بالواقفين بعرفات ، مكروه كراهة تحريم ، لأنه مخترع فى الدين ؛ إذ الوقوف إنما عهد قربة بمكان مخصوص ، فلا يجوز فعله فى غيره ، كالطواف ونحوه . ألا ترى أنه لا يجوز الطواف حول مسجد أو بيت سوى الكعبة » .

هـذا نص صريح من كلام الفقهاء . فدورات المحمل إذاً صورة لما يحدث من الطواف حـول البيت ، فى ذاتها ، وفى عـددها ؛ وهى مخترعة لا يعرفها الدين ، وليست ضرورية فى الدعاوة للحج ، لأنه يمكن أن تتم هـذه الدعاوة على خير وجه بدونها ؛ وكذلك القول فى استلام المقود وتقبيله ؛ وهما بعد ذلك صورتان تشوهان وجه الدين ، وتعينان خصومه على ما يبنغون من تلمس أسباب الطعن فيه ، والغض منه . فمن الطبيعى إذاً أن يتناولها هذا النص الفقهى الذى قدمنا ، وأن يعمل أولو الأمر على حماية الناس من اعتقاد أنهما من الدين ، وحماية الدين من أن يلصق به ما ليس منه .

وبعد : فهذا هو رأينا فى المسألة من وجهتها الدينية ، أرجو أن يجد القراء فيه ما ينير لهم سبيل الحق والهدى ؟

محمود شلتوت

مما قيل فى المـال

روى عن النبي صلى الله عليه وسـلم أنه استعاذ بالله من الفقر . والفقر هو أن لا يجـد الانسان حاجته وحاجة عياله ، لا المتفق عليه اليوم من الاقلال مع الـكفاف . فالفقر بمعناه الصحيح مذموم لأنه من أكبر القواطع عن ممارسة الفضائـل . ولذلك قال على بن أبى طالب رضى الله عنه لابنه محمد : يابنى إنى أخاف عليك الفقر فاستعذ بالله منه ، فإن الفقر منقصة للدين مدهشة للعقل ، داعية للمقت .

وروى عن لقمان أنه كان إذا مر بالأغنياء قال لهم : يأهل النعيم الأصغر ، لا تنسوا النعيم الأكبر . وإذا مر بالفقراء قال : إياكم أن تغبنوا مرتين .

وقيل لأفلاطون : لم صار الرجل يقتنى مالا وهو شيخ ؟ فأجاب : لأن يموت الانسان فيخلف مالا لأعدائه ، خير من أن يحتاج فى حياته الى أصدقائه .

فى بلاغة القرآن

« اللهم ارزقنى التفكير والتدبر لما يتلوه لسانى من كتابك ، والفهم له ، والمعرفة بمعانيه ، والنظر فى عجائبه ، والعمل بذلك ما بقيت ، إنك على كل شىء قدير » . عمر بن الخطاب

جلوت لك فى الحديث السابق بعض ما تهدَّى إليه عقلى ، واستطفّ لى بيانه من أسرار البلاغة فى آيتين من آى الذكر الحكيم ؛ ولعلك عجبت منها العجب كله . « وأى شىء أعجب من أن تتجاذبك معانى الوضع فى ألفاظ القرآن ، فترى اللفظ قارا فى موضعه لأنه الأليق فى النظم ، ثم لأنه مع ذلك الأوسع فى المعنى ، ومع ذلك الأقوى فى الدلالة ، ومع ذلك الأحكم فى الإبانة ، ومع ذلك الأبدع فى وجوه البلاغة ، ومع ذلك الأكثر مناسبة لمفردات الآية مما يتقدمه أو يترادف عليه ؟ » . وهذا من أظهر الفروق بين أنواع البلاغة فى القرآن وبين هذه الأنواع فى كلام البلغاء . فنظم القرآن يقتضى كل ما فيه منها اقتضاء طبيعيا بحيث يبنى هو عليها لأنها فى أصل تركيبه ، ولا تبنى هى عليه ؛ فليست فيه استعارة ولا مجاز ولا كناية ، ولا شىء من مثل هذا يصح فى الجواز أو فيما يسعه الإمكان أن يصلح غيره فى موضعه إذا تبدلته منه ، فضلا عن أن يفى به ، وفضلا عن أن يُربى عليه ولو أدرت اللغة كلها على هذا الموضع . فكأن البلاغة فيه إنما هى وجه من نظم حروفه ؛ بخلاف ما أنت واجد من كلام البلغاء ، فإن بلاغته إنما تصنع لموضعها ، وتبنى عليه ؛ فربما وفت وربما أخلفت ، وهى لو رفعت من نظم الكلام ثم نزل غيرها فى مكانها لرأيت النظم نفسه غير مختلف ، بل لكان عسى أن يصح ويجود فى مواضع كثيرة من كلامهم .

كم حارت العقول الواصفة فى وصفه ، وكلت الألسنة البارعة عن نعته ، لأنه المطمع بظاهره فى نفسه ، والممتنع فى باطنه بنفسه ، ولأنه لا يشبه كلاما تقدمه ، ولا يشبهه كلام تأخر عنه ، ولا يتصل بما قبله ، ولا يتصل به ما بعده ، فهو الكلام القائم بنفسه ، البائن من جنسه ، العالى على كل كلام قرن اليه وقيس به . وإنه ليرى فيه عند الانفراد بتلاوته من غرائب الفصاحة ، وثواقب البلاغة ، ونوادر الكلم ، وينابيع الحكم ، ما يعجز الخواطر عن الكلام فيه ، والإيضاح عن عجائب ما فيه . حقا إنك « لتحار إذا تأملت تركيب القرآن ونظم كلماته فى الوجوه المختلفة التى يتصرف فيها ، وتقعد بك العبارة إذا أنت حاولت أن تمضى فى وصفه ، حتى لا ترى فى اللغة كلها أدل على غرضك ، وأجمع لما فى نفسك ، وأبين لهذه الحقيقة غير كلمة « الإعجاز » .

« ثم ماذا يبلغ القول من صفة هذا التركيب العجيب وأنت ترى أن أعجب منه مجيئه على هذا الوجه الذي يستنفد كل ما في المعقول البيانية من الفكر ، وكل ما في القوى من أسباب البحث ، كأنما ركب على مقادير العقول والقوى ، وآلات العلوم وأحوال العصر المغيبة » .

« ولن تجد في وصفه كلاما أدق ولا أبرع ، ولا أخصر ولا أجمع مما وصفه به من أوتي الحكمة وجوامع الكلم ، الذي لم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعا ، ولا أصدق لفظا ، ولا أعدل وزنا ، ولا أجمل مذهبا ، ولا أكرم مطلبا ، ولا أحسن موقعا ، ولا أسهل مخرجا ولا أفصح عن معناه ، ولا أبين في فحواه ، من كلامه صلى الله عليه وسلم كثيرا ؛ فهو الكلام الذي قل عدد حروفه ، وكثر عدد معانيه ، وجل عن الصنعة ونزه عن التكلف ، وهو الذي ألقى الله عليه المحبة ، وغشاه بالقبول ، وجمع له بين المهابة والحلاوة ، وبين حسن الإفهام وقلة عدد الكلام . ولعل بعض من لم يتسع في العلم ، ولم يعرف مقادير الكلام ، يظن أنا تكلفنا له من الامتداح والتشريف ، ومن التزيين والتجويد ، ماليس عنده ، ولا يبلغ قدره ؛ كلا والذي حرم التزيد على العلماء ، وقبح التكلف عند الحكماء ، وبهرج الكذابين عند الفقهاء ! لا يظن هذا إلا من ضل سعيه (١) »

لن تجد في وصف القرآن أحسن من وصفه صلى الله عليه وسلم : حدث الترمذي أن ابن أبي طالب رضي الله عنه سمع الرسول وهو يقول : « أما إنها ستكون فتنة » . فقال له : فما المخرج منها يارسول الله ؟ فقال عليه السلام : « كتاب الله فيه نبأ ما قبلكم ، وخبر ما بعدكم ، وحكم ما بينكم ، وهو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله تعالى ، ومن ابتغى الهدى من غيره أضله الله تعالى ؛ وهو حبل الله المتين ، وهو الذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم ، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ؛ ولا تشبع منه العلماء ، ولا يخلق على كثرة الرد ، ولا تنقضي عجائبه ؛ وهو الذي لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا : « إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدي الى الرشد فآمنا به » ، من قال به صدق ، ومن عمل به أجر ، ومن حكم به عدل ، ومن دعى اليه هدى الى صراط مستقيم » .

أضف الى هذا أنه كلما دار الزمان ، وتقدمت العلوم ، وتكشفت للإنسان أسرار الكون ، استبان للناس من عظمة القرآن ، واتضح لهم من وجوه إعجازه ما لم يدر لهم ولا لآبائهم بخلد . فهذه أسرار طبية ، وهذه أسرار فلكية ، وتلك أسرار زراعية كشف عنها العلم الحديث ؛ وإلى الأخيرة نلفت النظر لطرافتها وغضارتها :

قال الله تعالى : « ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتا من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين ، فإن لم يصبها وابل فطل ، والله بما تعملون بصير » .

---

(١) البيان والتبيين للجاحظ .

لقد ساءلت نفسي وأنا أتدبر هذه الآية : لماذا كانت هذه الجنة بربوة ؟ ولماذا عبر الله عن سقياها بإصابة الوابل ؟ وهل لذلك من فائدة فى كونها تؤتى أكلها ضعفين ؟

قال الخليل : الربوة : أرض مرتفعة طيبة ، وخص الله بالذكر التى لا يجرى فيها ماء من حيث العرف فى بلاد العرب ، فمثل لهم ما يحسونه ويدركونه . وله رحمه الله :

ترفعت عن ندى الأعماق وانخفضت عن المعاطش واستغنت بسقياها
فمال بالخوخ والرمان أسفلها واعتم بالنخل والزيتون أعلاها

وقال ابن عباس الربوة : المكان المرتفع الذى لا يجرى فيه الأنهار ، لأن قوله : « أصابها وابل » يدل على أنها ليس فيها ماء جار . قال أبو حيان : وتفسير ابن عباس الربوة بالمكان المرتفع الذى لا يجرى فيه ماء إنما يريد المذكورة هنا ، لقوله : أصابها وابل ، فدل على أنها ليس فيها ماء جار ، ولم يرد جنس الربوة لا يجرى فيها ماء ، ألا ترى الى قوله تعالى « ربوة ذات قرار ومعين » ؟ وخصت بأن سقياه الوابل لا الماء الجارى فيها على عادة بلاد العرب بما يحسونه كثيرا ؛ وخص الربوة لحسن شجرها وزكاء ثمرها » . فهل من الحق أن القرآن عبر بإصابة الوابل عن السقيا لأن هذه الربوة التى أشار إليها لا تجرى فيها الأنهار كما روى عن ابن عباس ، أم جريا على عادة بلاد العرب ، وتمثيلا لهم بما يحسونه ويدركونه كما يقول غيره من المفسرين ؟ عندى أن القرآن لم يرد ذلك ، ولم يذهب إليه ، وإنما ذهب الى سر عظيم كشف عنه العلم الزراعى : فقد أثبت علماء النبات بعد تجارب أخطأها الحصر وما أخطأها الصواب ، أن الحدائق التى تنشأ فى الأراضى المرتفعة تغل أحسن من الحدائق المنشأة فى الأراضى الواطئة ، لأنها بعيدة عن الرشح الزائد ، والماء الراكد ، ولأن الهواء يتخلل بين طبقاتها فى يسر وسهولة ، فيساعد على التأكسد وصلاح المواد الغذائية ، التى تمتصها الشعيرات الجذرية طيبة سائغة وتغذى بها الساق ، والأوراق والزهور ، فيزكو الزرع ويستغلظ ويستوى على سوقه ، يعجب الزراع ، ويؤتى أكله ضعفين بإذن الله .

ولقد أثبت هؤلاء العلماء أيضا أن أحسن طريقة للسقى ، طريقة المطر الصناعى ، لأنه يزيل ما على الأشجار من أوضار ، فتتفتح مسام الأوراق ، وتسهل عليها الفتح والتنفس ، أو « التمثيل الكلوروفلى » .

ولأنه ينشر الماء على سطح الأرض بالتساوى ، فتأخذ منه كل بقعة حاجتها ، ولا تتعرض الأشجار والنباتات للأذى . فهذا سر إيثار « الربوة » وسر « إصابة الوابل » كما بينه العلم الحديث ؛ وجاء بيانه مصداقا لقوله تعالى : « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ، أو لم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد » .

السيد أحمد صقر



المستشرق إميل ديميرجهام الفرنسي

يشهد بأن الاسلام دين عالمي عام

أو فدت جريدة (لا بورص اجيبسيان) مندوبا لها الى أشهر رجالات التفكير العالى فى فرنسا لمعرفة آرائهم فى موضوع (فرنسا والاسلام) ، ونشرت له فى عدد ٢٧ مارس من هذه السنة كلاما للمستشرق الجليل إميل ديمير جهام تحت العنوان المتقدم صدرته بقولها :

« بعد أن نشر إميل ديميرجهام (Emile Demergham) بحوثا على جوزيف دوميستر وتوما مور ، ومفكرى عهد النهضة الأوربية ، رأى نفسه مأخوذا بروحانية الاسلام وخاصة بناحيته الباطنية ، فعُنى منذ سنين بدراسة كل ما يختص بهذا الدين . فبعد أن نظر فى كل ما صادفه من عادات المراكشيين وتقاليدهم الدينية ، ترجم (خمرية) عمر بن الفارض الصوفى سلطان العاشقين وشرحها للشيخ عبد الغنى النابلسى . وقد نشر كتابا أسماه (حياة محمد) ، وهو عمل نهائى فى سيرة النبى ، أبان فيه عن ألمعية ، وتفوق فى بعد النظر ، وعن مواهب فى الاستشهاد بالتاريخ ، وخاصة عن الميل الى ديانة التوحيد التى نشأت فى البلاد العربية ، ولم تغب عنه عظمتها وقوة انتشارها باعتبار أنه كاثوليكى وفرنسى الجنس .

« إن إميل ديميرجهام يشتغل منذ زمان طويل فى عمل كتاب على « حياة الأولياء المسلمين » سيملأ نشره أهل المعرفة غبطة ، وسيعتبره القارئ الغربى البعيد عن هذه الأمور كشفا . هذه الدراسة ، كما يسره الاعتراف به ، قد سمحت له بالتروض على « الصبر » و « الفقر » و « التوكل » ، وهى الثلاث الفضائل الاسلامية المحض . ولا يوجد أمامنا أمثل من ديميرجهام ليشفى غلتنا فيما نحن بسبيله من الاستفتاء الذى شرعنا فيه . ذلك لأنه مع إكبابه على دراسة النصوص العربية ، تضلع فى معرفة العقلية الاسلامية لأهل أفريقا الشمالية . فاليك ماقاله لمندوبنا :

« إن المسلمين باعتبار كونهم أمة وسطا بتسمية القرآن ، يلوح لى أنهم معدون جغرافيا وروحيا لأن يكونوا جماعة اتصال بين الغرب والشرق الأقصى ، وبين شعوب شمال البحر المتوسط وأفريقا . فهذا الارتباط الذى لابد منه دون شك لحفظ التوازن الروحى للعالم ، وهذا

الموضع من قلب الكوكب الأرضى من جاوة والهند الى المغرب ، يظهر أنه اختص هذه الكتلة المؤلفة من ثلاثمائة مليون من البشر أن يكونوا مركز الثقل للعالم القديم . ولهذا السبب نجدها محل عناية العناصر المختلفة — وقد صار ذلك أشد وضوحا اليوم — فى أوروبا التى يمزق بعضها بعضا أمام نظرها الآن .

« للمؤرخ ظاهرة فى هذا الموطن يفرض عليه تسجيلها ، وهى أن أساس التقليد التاريخى المشترك بين أوروبا والعالم الاسلامى هو الوحى الذى أنزله الله الى ابراهيم ومن جاءوا بعده ، ومنهم موسى وعيسى ؛ والثقافة اليونانية التى نقلها العرب الى الغرب مع رياضييهم وفلاسفتهم : أفلاطون وأرسطو وبلوتان من مصر ؛ وفكرة القانون والنظام الشرعى الذى كان قائما فى روما .

« فليس يدهشنا والحالة هذه أن الضمير الاسلامى يستنكر ، جريا على مبدئه وغريزته ، كل مذهب يدعو الى العنصرية والنيتشية (١) والى الفلسفة المادية لتاريخ البشرية ، والى أية حكومة استبدادية ، ذهابا الى أن الله قدس الشخصية الانسانية والهيئة الاجتماعية معا . فالخضوع الاسلامى المرموز اليه بكلمة (عبد) لمولاه الحق ، يعتبر ضمانا لكرامة المسلم الذاتية . وعند المسلمين أن كل الكائنات المستمدة وجودها من واجب الوجود المطلق ، التى يطلق عليها عالم الشهادة وتكلم عنها الأنبياء ، تتساوى كلها فى قيمتها وفى تلاشيها أمام رب العالمين ، ولكن ما أوتينه من الإلهام الإلهى لا ينسخ . وقد وجه الاسلام دعوته لجميع الشعوب دون اعتداد منه بالجنسيات والأصول . وجميع الذين اتبعوه يأتون من أربعة آفاق الأرض كل سنة محرمين بالحج . معتقدين أن الناس أجمعين سيلتقون يوم الحساب عارى الأجسام يتصببون عرقا ، ويطفحون كربا .

« إن الشعوب الاسلامية والشعوب المسيحية التى لم تصبأ الى الوثنية الحديثة ، تستوى فى اكتوائها بتغلب الظلمة والمتمذهبين بالماكيافيلية ، وبالخضوع لفاتحين متغشمرين ، فلا شىء يمنع أن يكون قد وقر فى صميم ضمائرهم الايمان بالمكانة العامة للعلم ، والعدالة ، وقدسية الأمر الواقع » .

(مجلة الأزهر) : إنا مع شكرنا للأستاذ ديميرجهام المستشرق على حسن نظره فى الاسلام ، ننكر عليه صرفه لمدلول آية « وكذلك جعلناكم أمة وسطا » عن مرماها الدينى الى مرمى اجتماعى ، وخاصة فى موطن كبير الدلالة على مهمة الاسلام ، وعلى ميزته على سائر الأديان . فقوله تعالى : « وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس » ليس معناه : وكذلك جعلناكم أمة فى بلاد تصلح لأن تكونوا فيها جماعة اتصال بين الشرق والغرب ، ولكن معناه : وكذلك

(١) النيتشية : مذهب فريدريك نيتشه الفيلسوف الالمانى . وقد أسسه على وجوب تربية القوة المحبوبة والارادة بصرف النظر عن كل اعتبار روحى أو إنسانى ، وهو يعتبر الرحمة والعطف ضعفا فى النفس وخورا فى الطبيعة .

جعلنا كم أمة هى من عقائدها وأصولها وآدابها على الصراط السوى ، بعيدة عن الإفراط والتفريط ، لتكونوا شهودا على غيركم فى غلوهم وتقصيرهم ، وخروجهم عن سواء السبيل فى عقائدهم وتقاليدهم . وهذه أمانة أدبية لم تحمّلها أمة غير الأمة الاسلامية ، وإنا حذرا من أن تتحول عن معناها بمثل ماذكره الأستاذ ديمبرجهام رأينا أن نعقب على قوله بهذه الملاحظة .

الاسلام والعصر الراهن

للكاتبة المغربية (سيدة سافيترى)

هذه السيدة المغربية تجيد الفرنسية الى درجة التأليف بها ؛ ألفت كتابا فى الإسلام باسم (الإسلام والعصر الراهن) وصفه المسيو جاك نارجو فى جريدة (البتى بلو) الباريسية بقوله :

« إن هذا الكتاب سيسهل كثيرا على الأوربيين معرفة الدين الاسلامى ، وإنه سيعدل آراء ضالة عنه ، ويكشف عن أصوله القيمة للانسانية المتجهة بمجموعها نحو مدنية فاضلة » .

وقالت السيدة سيدة :

« نحن معشر النساء المسلمات لا نزال بعيدات عن الآراء الغربية وكلها فى مصلحة الاسلام . أما اللاتى أخذن طريقهن فى الترقى على الطراز الغربى فلا نظن أنهن سعيدات . فان المرأة التى تتمنى أن تتحرر لترتع فى الملاذ الدنيوية لم تفهم الغاية التى خلقت من أجلها ، ولا مثلها الأعلى وقيمته بالنسبة لها .

« أما خلاصة ما أريد قوله ، فهو أن لدى المسلمة التى تريد أن تعقل من عناصر إيمانها قاعدة صالحة لأن تقيم عليها حياة سعيدة . فهى ليست مضللة بعقيدة الخطيئة الأولى ، ولها أن تتجه الى الحياة بقلب نقى ، متتبعة مثلا أعلى لا غبار عليه ، وشاعرة بقيمتها الذاتية التى لا نزاع فيها » .

ولم تهمل السيدة سيدة أن تلم بمسألة تعدد الزوجات ، وهى المسألة التى اتخذها خصوم الاسلام تكأة للنيل منه ، قالت :

« أما مسألة تعدد الزوجات فهى تشريع حكومة تعترف بالقوانين الطبيعية بغير نفاق ، ولا هرب من التبعات . فالاسلام لا يوجب تعدد الزوجات إيجاباً ، ولكنه يسمح به . والاسلام بقبوله تعدد الزوجات استطاع أن يحرم الزنا على الرجال والنساء » .

نقول : لقد أحسنت السيدة سيدة كل الاحسان بعملها الجليل الذى يقول عنه محرر البتى بلو إنه يزيل كثيرا من ضلالات الأوربيين عن الاسلام ، فما أولاها بقول المتنبى :

فلو كان النساء كمن ذكرنا لفضلت النساء على الرجال

محمد فريد وجدى

نظام الوقف فى الاسلام

وآثاره المترتبة عليه

ذكرنا فى العدد السابق أن خلافا نشب بين أبى حنيفة وصاحبيه فى لزوم الوقف وعدمه ؛ وأن مذهب أبى حنيفة هو عدم لزومه ، بخلاف الصاحبين فان مذهبهما لزوم الوقف وتأبيده . فنذكر اليوم بإيجاز أدلة كل من المذهبين ، ولكن يجدر بنا أن ننبه قبل ذلك الى أن أباحنيفة لا ينكر ألبتة مبدأ الوقف ، فهو مبدأ متفق عليه ، بل على أنه قربة الى الله عند الجميع .

فمن أدلة الصاحبين :

(١) أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله إنى أصبت أرضا بخيبر لم أصب مالا قط أنفس عندى منه ، فما تأمرنى ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن شئت حبست أصله وتصدقت بثمرته . فجعلها عمر صدقة لا تباع ولا توهب ولا تورث . . . وقد أشهد عمر فى زمن خلافته على كتاب وقفه نفراً من المهاجرين والأنصار . قال جابر بن عبد الله : فما أعلم أحداً ذا ميسرة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا حبس مالا من ماله صدقة مؤبدة لا تشترى ولا توهب ولا تورث .

فحادثة عمر رضى الله عنه وما يتبعها من رصد موسرى الصحابة الأعيان وإطلاق غلتها على الفقراء ، آية على أن العين الموقوفة يمتنع التصرف فيها بالبيع ونحوه . وهذا هو معنى لزوم الوقف عند الصاحبين .

(٢) استمرار عمل الأمة الاسلامية من عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد حادثة عمر من الصحابة والتابعين ومن بعدهم خلفاً عن سلف ، وجيلا بعد جيل ، على وقف الأموال وحبسها أبدا . فقد وقف أبو بكر وعمر وعثمان وعلى وطلحة والزبير بن العوام وعائشة وغيرهم من الصحابة رضى الله عنهم ، أموالا على سبيل التأبيد ، واستمر العمل بعدهم الى يومنا هذا من غير نكير . وهذا إجماع عملى على خلاف قول الإمام أبى حنيفة ، وهو حجة شرعا .

(٣) أن نية الواقف يوم أشهد على وقفه كانت قائمة على تأبيد ما وقف ، ليستديم بهذا التأبيد استمرار المثوبة من الله ما دامت منفعة وقفه جارية على أهلها حسب ما شرط فى إشهاد وقفه . فلو قدر الواقف فى دخيلة نفسه عدم لزوم الوقف وانحلال الموقوف بعد موته ليقسم بين ورثته لما أشهد على كتاب وقفه .

هذا تلخيص ما اعتمد عليه الصاحبان فى التدليل على ما ذهبا اليه من لزوم الوقف .

أما الإمام الأعظم أبو حنيفة فقد استدل على عـدم لزوم الوقف ، وجواز الرجوع فيه من الواقف ، أو التصرف فيه بالبيع والشراء والهبة ، بما يلى ملخصا :

(١) قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « لا حبس عن فرائض الله سبحانه وتعالى » . ومعنى الحديث ألا يحبس مال بعد موت صاحبه عن القسمة بين ورثته . فاللازم عن هذا الحديث عدم خروج المال الموقوف عن ملك الواقف . وإذاً يكون الوقف غير لازم .

(٢) ما روى عن شريح رضى الله عنه أن محمدا صلى الله عليه وسلم جاء ببيع الحبس . . وقد ذهب صاحب البدائع الى أن الأموال الموقوفة كان بيعها محظورا فى الجاهلية ، فلما بعث الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم أباح بيعها ، وتلك الإباحة صريحة فى جواز التصرف فى الموقوف وعدم لزومه .

(٣) مما يستدل به لمذهب أبى حنيفة أيضا ما حرره العلامة الكمال بن الهمام ، وخلاصته : أن حقوق العباد لم تنقطع عن الموقوف ، فلهم حق الانتفاع به زراعة إن كان مما يزرع ، أو سكنى إن كان مما يسكن ، مثلا ؛ وبقاء الحقوق فى الموقوف دليل بقاء الملكية فيه ، ولا ملك لغير الواقف من العباد اتفاقا ، فلزم عن تلك المقدمات المسلمة أن يكون الملك للواقف . ويؤيد هـذه القضية أن للواقف نصب النظار على وقفه وعزلهم ، وصرف غلات الوقف على مقتضى شرطه . وملك التصرفات مجتمعة أو منفردة أمارة على بقاء الملكية فى يد الواقف وعـدم زوالها عنه .

(٤) أنه يلزم على قول الصاحبين أن يخرج الموقوف عن ملك الواقف الى غير مالك ، وهو خلاف المعهود ، على أنه غير معلوم من مبادئ الشريعة .

هذه هى أدلة الفريقين باختصار . ولا أدرى كيف يقع بين الإمام وصاحبيه هذا الخلاف ، وكيف تترتب عليه آثاره فى يومنا الراهن بعـد أن نقل عن الامام رضى الله عنه أنه يستثنى من قاعدته الجارية على عدم لزوم الوقف حالة أخرى ، وهى أن يصدر بالوقف حكم حاكم . ومعنى ذلك أن حكم القاضى يرفع الخلاف بين الامام وصاحبيه ، فيصبح الوقف المقضى فيه بحكم القاضى وقفا لازما عند أبى حنيفة .

وبدهى أن عهدنا الراهن قامت فيه خصومات حول الحبوس كلها تقريبا ، فما من وقف إلا وقد عرضت أعيانه وغلاته على القضاء فيقضى فيه قضاءه ؛ وما من وقف إلا اتصل به علم القضاء فيقول فيه كلمته ، فأصبحت الأوقاف لازمة عند أبى حنيفة تطبيقا لهذا الاستثناء ، ولقاعدة « كل حكم من القاضى يرفع الخلاف » ، فلا أدرى بعد ذلك مدى للخلاف ، ولا أثراً يترتب عليه ؟

عباس طه

الفتح الربانى :

تم الجزء الثانى عشر من كتاب الفتح الربانى وهو جامع لمسند الامام احمد بن حنبل . قام بترتيبه وتبويبه فضيلة الأستاذ الفاضل الشيخ احمد عبد الرحمن البنا . وقد وضع عليه شرحا أسماه « بلوغ الأمانى » لا يترك حاجة فى نفس قارئه إلا وفاها . فجاء عملا جليلا يشكر عليه الأستاذ . وفقه الله لاتمامه ونفع المسلمين به .

عنوانه عطفة الرسام رقم ٥ بالغورية بالقاهرة .

بين صديقين :

هذا عنوان كتاب وضعه حضرة الأستاذ الأديب الشيخ احمد جمعه الشرباصى الطالب بكلية اللغة ، موضوعه تحاور بينه وبين صديق له ، أهداه لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الامام وقال فى إهدائه : « هذا كتاب تنبعث منه بوادر الثورة الاصلاحية التى سيقوم بها الشباب فى المجتمع عما قريب » . وكتابه يشمل عددا وفيرا من عللنا الاجتماعية ، وآراء جديرة بالعناية لعلاجها . ولكن مما يعيبه ويضع من قيمته ، صراحته فيما يجب أن يكتم ، بل فيما الخير كله أن يكتم ، من الاعتراف بالانحرافات الخلقية ، والرعونات الشهوانية . وإنا لنأمل فى الغيرة الملتهبة للأستاذ أن يرأب هذا الصدع فى أسلوبه ليكون ما يجىء منه جميلا كله .

ثورة الاسلام وبطل الانبياء : أبو القاسم محمد بن عبد الله

للاستاذ الأصولى الجليل محمد لطفى جمعه جولات علمية يقوم بها فى أثناء اشتغاله بالمحاماة يأتى فيها بالطريف الغض من الدراسات ، فاذا ألم بالقديم الذى روضته الأقلام ، جاء بأسلوب فيه يكشف منه نواحى جديدة تتطلبها النزعة العقلية فى العصر الراهن . عرفت للأستاذ هذه الموهبة الثمينة فصار لما يكتبه أثر بليغ فى توجيه الثقافة قل فى الكتاب والمؤلفين من يساويه فيها .

وقد أتحف المطبوعات العربية حديثا بكتاب جليل القيمة أسماه (ثورة الاسلام وبطل الانبياء أبو القاسم محمد بن عبد الله) موضوعه دراسة تفصيلية للبيئة العربية والنشأة المحمدية ، فجاءت من خير ما كتب على أسلوبه الذى أشرنا إليه ، عالج فيه موضوعات لم يعالجها مؤلف قبله ، وكشف عن نواح تعتبر ذات دلالات حاسمة فى تقدير نفسية النبى وسمو نشأته .

فنثنى على همة الأستاذ الجليل محمد لطفى جمعه ، ونرجوه أن يتابع هذه السلسلة القيمة حتى يأتى بجميع ما تشمله السيرة المحمدية من بحوث ، على أسلوبه هذا ، فهو من أفعل الأساليب فى تجلية الحقائق ، وفى بناء فكرة صحيحة ثابتة للقارئ .

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة حضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الامام

فى احتفال الأزهر بليلة مولد النبي صلى الله عليه وسلم

احتفل الجامع الأزهر المعمور فى مساء يوم السبت الثانى عشر من شهر ربيع الأول لسنة ١٣٥٩ باحياء ذكرى المولد النبوى الكريم ، فاحتشدت فيه ألوف كثيرة من أقطاب العلم ورجال الدولة وطلبة العلم ووجهاء الناس ، وبعد تلاوة ما تسنى من آيات الكتاب الحكيم ألقى حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الامام خطبة طنانة جمعت بين الحكمة الدينية والبيان الباهر ، فكانت قبسة من نور الحق أفيضت عليه ، فأشعها على الحاضرين ، وحملتها موجات الأثير الى جميع أكناف الأرض .

لا جرم أن فضيلة الأستاذ الإمام قد جمع من شمائل النبي صلى الله عليه وسلم وعظم خصائصه فى صحف معدودة ، وبعبارات هى غاية فى السمو الكتابى ، ما ضاقت عنه المطولات ، فكان ذلك منه إعجازا فى الإيجاز ، لا يعرف قدره إلا من عانى هذه المواقف . واختتم فضيلته الاحتفال بالدعاء لحضرة صاحب الجلالة الملك معز الاسلام ، ومؤيد الدين .

قال فضيلة الأستاذ الامام حفظه الله :

بسم الله الرحمن الرحيم ، به نستعين ، وعليه نتوكل ، ومنه نطلب التوفيق والسداد ، والهدى والرشاد .

رسولَ الله محمد بن عبد الله ! عليك صلوات الله وتحياته وسلامه وبركاته ، ما ذرّ شارق ولمع طارق . خصصت بصفات ميزك الله بها عن سائر ولد آدم ، فى جسمك ، ونفسك ، وعقلك ، وعلمك ، وخلقك ، ولسانك ، وبيانك ؛ وأكمل لك هذا بما لم يؤته أحداً من خلقه ؛ فأنت الشجرة المباركة الكاملة فى دوحة الانسانية ، أخذت أكمل ما فى الدوحة من خصائص ثم آتت أحسن ما تؤتى شجرة مباركة من ظل وثمر .

أيها السادة :

كلما تعاقبت الأيام على الحوادث أبلتها ، لكن جسيمات الحوادث يزيد مرّ الأيام ذكرها ، ويعلى قدرها ، ويكشف عن جمالها وبهائها ، وقوتها وعظمتها . وحادث ميلاد النبي العربى الأمى من أكبر الحوادث خطراً ، وأبعدها أثراً . غيّر وجه التاريخ ، وأفاض على الانسانية من الخير والبركة ، والعلم والعرفان ، ما لم يكن لها به عهد من قبل . ولكل نوع من الخليقة مثال

يخال إن لم يكن موجوداً ؛ وسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ذلك المثال الكامل من نوع الانسانية ، إذا نظرت إليه من جميع أقطاره ونواحيه ، يبهرك وملأك إعجاباً ، وقهرك على التأمل والبحث .

وإذا كان سرّ الوجود لا يزال محجباً ، والناس تجدّ فلا تصل إليه ، ولا تدرك إلا بعض الخصائص ، وأمامهم إليها سفر طويل ، ومراحل لا نهاية لها : « ما أشهدتهم خلقَ السموات والأرض ولاخلق أنفسهم » ، « أشهدوا خلقهم ، ستكتب شهادتهم » ، فكذلك سرّ العظمة المحمدية لا يزال محجباً ، ولم يعرف الناس إلا بعض الخصائص ؛ ولا يزال سرّ العظمة مبرقعاً بالجلال والجمال ، منيعاً بروعة الضوء وقوة النور ، لكن الآثار تهدى العارفين ، وتسوق أرباب البصائر الى العظة والاعتبار .

وإذا كان الله سبحانه وهو أحكم الحاكمين ، وهو أعلم حيث يجعل رسالته ، قد اختار محمداً صلى الله عليه وسلم أمينا على وحيه ، مبلغا أكمل دين وأتم نعمة ، وأقوم هدى وأقوى رشاد ، واختاره خاتم الأنبياء ، واصطفاه للانسانية بعد أن قطعت مراحل شاسعة فى سبيل الكمال ، واصطفاه للعالم جميعه أحمره وأسوده ، فقد صنعه الله على عينه مثالا كاملا خصه بأكمل الصفات ، وأرفع الدرجات .

وماذا أصنع أنا أو غيرى أمام هذه العظمة التى ترد الطرف كليلا ، سوى أن ألفت النظر الى بعض تلك الشمائل للعظة والذكرى ، والذكرى تنفع المؤمنين .

كل ما صح فى الروايات عن أوصافه الخلقية ، يدل على أنه منح أجمل صفات الرجل وأكملها : بسط الله له فى الجسم ، ومنحه من القوة ما أعدّه به لمصارعة الحوادث ، واحتمال الشدائد ، والصبر على المكاره ، ليكون رجل جلاد وجهاد ، إذا صارعه الباطل صرعه ، وإذا دعاه الحق نصره . وقد رووا أنه صرع (ركانة) وكان أشد أهل وقته ، وصارع أبا ركانة فى الجاهلية مرات وصرعه ، فهو شبيه فى هذا بأخيه موسى عليه السلام حيث وكز شخصا فقضى عليه ، وقيل فيه : « إن خير من استأجرت القوى الأمين » .

وإذا نظرتم الى حسن تدبيره ظواهر الخلق وبواطنهم ، وإلى سياسته العامة والخاصة ، وما أفاضه على الوسط حوله من علم وتهذيب ، وخلق وقوة وعزم وحسن معاشرة ، حتى خرج من هؤلاء الذين لم يدرسوا فى مدرسة ، ولم تخرجهم جامعة ، أمثال أبى بكر وعمر وعثمان وعلى ومعاوية وعمرو وخالد وأبى عبيدة وابن عباس وابن مسعود ، من فحول العلماء ، وجلة الفقهاء ، وأبرع القواد ، ودهاقين السياسة ، وحماة الأخلاق ، وذوى البر والرحمة والشجاعة والنجدة ــ علمتم مقدار ما كان له من الأثر البالغ فى تربية الرجال ، وتهذيب النفوس ، وتطهير الأخلاق .

ولقد كان مثلا أعلى للأبطال فى الشجاعة ، يؤيدها سلاح اليقين بالله . حضر المواقف كلها ثابتا لا يبرح ، مقبلا لا يدبر ، وقد فر من حوله الكماة والأبطال مرات ولم تحفظ عنه فرة ، حتى قال ابن عمر : « ما رأيت أشجع ولا أنجد ولا أجود من رسول الله » .

وقال على : « كنا إذا حمى البأس ، واحمرت الحدق ، اتقينا برسول الله ، فما يكون أحد أقرب الى العدو منه ؛ ولقد رأيتني يوم بدر ونحن نلوذ بالنبي صلى الله عليه وسلم وهو أقربنا الى العدو ، وكان يومئذ أشد الناس بأساً » . ولقد فزع أهل المدينة ، وانطلق ناس قِبَل الصوت ، فتلقاهم النبي راجعا قد سبقهم الى الصوت ، واستبرأ الخبر ، والسيف فى عنقه ، وهو يقول : « لن تراعوا » .

هذه القوة ، وهاتيك الشجاعة ، كانت لله ، وفى سبيل الله ، يصاحبها قلب رحيم ، وصبر لا يفنى ، وحلم لا ينفد . قال فى أُحدٍ لما كُسرت رَباعيته ، وشُجّ وجهه : « اللهم اهد قومى فانهم لا يعلمون » . فقدم لهم العذر بالجهالة ، ودعا لهم بالهداية ، ولم يشارك أخاه نوحا فى الدعاء على قومه ، حيث قال : « رب لا تذر على الأرض من الكافرين دَيّارا . إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفارا » ، بل قال : « أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله ولا يشرك به شيئاً » . ومثله فى هذه الرحمة مثل أخيه عيسى حيث قال : « إن تعذْبهم فانهم عبادك ، وإن تغفر لهم فانك أنت العزيز الحكيم » .

كانت أخلاقه القوية الباهرة ، يؤيدها الوحى الإلهى ، والفناء فى امتثال أوامر الله : « خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين » ، « واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور » ، « فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل » ــ مادةً لهذا المزيج العجيب الذى يرضى إذا رضى الوحى والكتاب ، ويغضب إذا سخط الوحى والكتاب ، ويغضى عما فرط من أعدائه فى حق شخصه ، ويدعو لهم بالهداية ، ويقول يوم فتح مكة : « اذهبوا فأنتم الطلقاء » .

ولقد دلت أطواره جميعها ، قبل النبوة وبعدها ، على أنه كان سديد الرأى ، قوى الفطنة ، واسع الحكمة . انظر الى تصرفه فى وضع الحجر عند اختلاف قريش على من يضعه منهم ، حيث أمر بثوب وضع فيه الحجر وأمسك كل فريق منهم بطرف من أطرافه ، حتى إذا دنا من موضعه أخذه بيده الطاهرة فوضعه موضعه ، وبذلك أزال الضغينة ، وحقن الدماء .

هذه الحكمة التى كانت قبل النبوة ، زادتها النبوة قوة وثباتاً ، فلم تفارقه فى تبليغ الوحى ، ولا فى الحروب ، ولا فى تأليف الناس ، ولا فى سياسة العامة والخاصة . وكتب السير مليئة بالأمثلة والشواهد التى يخطئها العد ، وتفوق عن الحصر .

أسعده فى هذا كله طيب العنصر ، وشرف النسب ، والحياء ، والتواضع ، والشكر ، والزهد ، والعفة ، والجود ، والمروءة ، وبيان ساحر يملك على النفوس أمرها ، ويقفها موقف المشدوه العاجز .

وسع الناس جميعَهم خلقُه ، فصار أبا رحيما ، وصاروا أبناء بررة ، كلهم عنده فى الحق سواء ، لا يذكر أحدا بسوء ، وإن اقترف أحد سيئة قال : « ما بال أقوام يصنعون كذا » . لم يطو عن أحد بِشْرَه . على أنه كان أعرف الناس بالناس ، وكان شديد الحذر . كان يقول : « أحبكم الىّ وأقربكم منى مجالس يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا ، الموطؤن أكنافاً ، الذين يألفون ويؤلفون » . يكرم كريم الأقوام ، ويتفقد أصحابه لايغفل عنهم . لكل حالة عنده عتاد . يقرب الأخيار ، وأفضلهم عنده أعمهم نصيحة لله وللرسول وللمؤمنين ، وأكرمهم عنده أحسنهم مواساة ومؤازرة . يلبس الشملة والكساء الخشن ، والبرد الغليظ . لا يبيت عنده دينار إلا ديناراً أعده لقضاء دين عليه .

ثابر على الصراط المستقيم ، وثابر على الدعوة اليه ؛ ففنى فى الحق ، ولم ير له وجوداً إلا بالحق ، فنعم بلذته ، ونعم بجوار ربه حيا ، ونعم بجوار ربه ميتاً ، فسلام الله عليه يوم ولد ، وسلام الله عليه يوم مات ويوم بعث حيا .

ولقد فاز بكل مادعا به ربه فى دعائه المشهور ، المملوء جمالا وسحرا :

« اللهم إنى أسألك رحمة تهدى بها قلبى ، وتجمع بها أمرى ، وتلمّ بها شعثى ، وتصلح بها غائبى ، وترفع بها شاهدى ، وتزكى بها عملى ، وتلهمنى بها رشدى ، وتعصمنى بها من كل سوء. اللهم إنى أسألك الفوز فى القضاء ، ونزل الشهداء ، وعيش السعداء ، والنصر على الأعداء » .

ولقد صح عنه صلى الله عليه وسلم : «ما من نبى من الأنبياء إلا أُعطى ما مِثْلهُ آمن عليه البشر ، وإنما كان الذى أوتيت وحيا أو حاه الله إلىّ ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة » . وروى عنه أنه قال : « المعرفة رأس مالى ، والعقل أصل دينى ، واليقين قوتى » .

قفوا عند هذا ، وأطيلوا الوقوف ، وتأملوه وافقهوه ، فما الخير إلا فى فهمه ، وإطالة الوقوف عنده .

لم تكن معجزته قارعة من القوارع ، يراها أهل جيلها ومن حضرها منهم ثم تغيب فلا تعرف إلا بالأخبار والسماع ، فلا عصا موسى وتفجير الينابيع من الأحجار ، ولا شفاء الأمراض المستعصية ، ولا الريح الصرصر والناقة ، ولا الطوفان ، لاشىء من ذلك باق أمام العقل والفهم ، تستمد منه الحكمة ، وتتفجر منه ينابيع البلاغة ، ويشفى أمراض المجتمع ، ويقيم العدل ، ويعرف الناس ما يليق أن يعرف من الغيب ، ويضىء الطريق أمام الانسان فيضع لنفسه أحسن النظم وأكمل القوانين .

لكن القرآن باق لا يبيد ولا ينقطع ، تجدد فى كل حين آياته ، ويتذكر الناس بعظاته ؛ وهو الحصن إذا اشتد الكرب ، والملاذ إذا عميت السبل ، وتشابهت الامور ؛ وهو سفينة النجاة من هذا البحر المضطرب الذى تغشاه الظلمات .

على أساس العقل — كما يقول الرسول صلى الله عليه وسلم — كانت معجزته ؛ وعلى أساس العقل شرعت الشرائع وسنت القوانين ؛ وعلى أساس العقل واجه الاسلام الانسان ووضعه حيث هو ، حيوان ذو عقل ، أباح له الدنيا وزينتها ، ومكنه من الطيبات فى حدود حددها ، ووفّى غرائزه حقها بما يصلحها ، ثم رفع منزلته حتى جعله خليفة الله فى الأرض ، وحبب إليه المعرفة ، وجعلها رأس المال ، وفتح أمامه الطريق واسعاً لإشباع شهوة العقل وفهمه فى الحدود اللائقة به .

على أساس العقل قامت الدولة الاسلامية ، وقام العلماء الصالحون يفسرون الكتاب ، ويوضحون العقائد والشرائع ، فكانوا أئمة الهدى ، ومنار الرشد ، وساسة العدل ، وأساطين الحكمة ؛ وكانوا لله وفى سبيل الله ، لا لأنفسهم ، ولا لأئمة الجور والطغيان . ولما زحزح الناس الأساس ، ولم يرعوا حرمة العقل فى مصائر الأمور ، زحزح الله الخير عنهم ، وأبعدهم عن فقه الدين ، كما أبعدهم عن الدين : « أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يَلْقَوْنَ غَيّاً » .

على أساس العقل يجب أن يفهم الكتاب ، وتفهم السنة ، وتفسر الآيات ، وينظر الى مصالح البشر . ومن أهدر العقل فقد أضاع الأساس وباء بالخسران .

رأس ماله صلى الله عليه وسلم المعرفة ، فهى تصحح العقيدة فى الغائب والشاهد ، وتفسر آية الكون ، وتسخّر الطبيعة وتذللها للانسان ، وتجلب سعادة الدنيا والآخرة ، وترفه على الانسانية ، وتلطف حدّة الطبيعة وقوتها ، وتعز الأمم وترفع قدرها ؛ لكن على شريطة أن يصاحبها الدين ، وتشدّها الأخلاق ، فإذا فارقت الدين والخلق ، نتجت شر النتاج ، وأمطرت سحبها الشر ، وقذفت صواعق الهلاك ، وكانت وبالاً على الانسانية . فما هذه الشرور الجائحة فى العالم اليوم إلا نتيجة المعرفة بظواهر الحياة الدنيا مع الغفلة عن الآخرة : « يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون » . نسوا الله فأنساهم أنفسهم ، وأنكروه فعاقبهم ، سلبهم بهجة الحياة ، من طمأنينة ، وأمن ، وسلام ، ورضا بالقدر ، وقناعة بما قدره الله .

اليقين هو القوة ، فما اعتزّت أمة إلا باليقين ؛ فهو الذى يدفع الى العمل ، ويسوق الى الأسباب .

اليقين يزيل الراسيات ، ويحول مجرى الأنهار . ينبت الأخلاق الفاضلة إن لم تكن ، ويقويها إن كانت . فهو إيمان بالله وبالحق ، وبأن الحياة الدنيا متاع الغرور ، وأن الآخرة خير وأبقى ، وأن الموت آت لا محالة ، إن كان مقدورا لا تقى منه البروج المشيدة ، ولا الآطم المحصنة ؛ وأن الجنة أعدت للمتقين المجاهدين فى سبيل الله ، وفى سبيل الحق ، وفى سبيل الذود عن الوطن

والعرض ؛ وأن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم بأن لهم الجنة ، وأن الغَـدوة والروحة فى سبيل الله خير من الدنيا وما فيها ؛ وأن الشهداء فى جوار الله ينعمون . وإيمان بأن الجبان الفارّ عاقّ لله وللوطن ، وخائن للأهل والعشيرة والذرية .

أيها السادة :

لا يصلح أمر هـذه الأمة إلا بالعقل ، والمعرفة واليقين ؛ فلم يذهب مجـدها وعلمها وفقهها إلا بإهدار هذه الأسس ، وبعدها عن فهم الـكتاب وتعاليمه الراشدة ، وعن هدى صاحب الرسالة ، صلوات الله عليه ؛ وقد فرقها الجهل ، وأذهب ريحها عدم استعمال العقل .

قد يكون ذلك الشر الذى تعانيه الأمم بسبب غضب الله وسخطه على عباده ، وبعدها عن الأديان وغلوها فى الإلحاد ، قد يكون سببا فى الأوبة والرجوع الى الله . يقول الله تعالى : « وإذا مَسّ الانسان الضر دعانا لجنبه أو قاعدا أو قائما ، فلما كشفنا عنه ضره مرّ كأن لم يدعنا الى ضر مَسّه ، كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون » . فهذه المحن والويلات قد توجه الناس الى الواحد المعبود ، يطلبون النجاة فلا يجدونها إلا عنده ، فى وحيه وهديه ، وقد تنسيهم هذه الشهوات الجامحة فيبحثون عن الشفاء . ومصائب الأمم لا تنسى سريعا ، وضرها لا ينكشف قريباً ، وآثاره تبقى ماثلة طويلا ، وفى هذه الحقبة تفكر فى الدين وتعود اليه ، إن شاء الله .

أيها الإخوان :

أحييكم تحية الاسلام ، وأهنيكم بمولد النبى محمد صلى الله عليه وسلم ؛ وأسأل الله لى ولـكم عونا وتوفيقا ؛ وأسأله لى ولـكم عيش السعداء ، وإيمان الأصفياء ؛ وأسأله للعالم عقلا يدنيه من الصواب ، ويشفيه من الجنون ، إنه اللطيف الرحيم .

وأسأله لبلادنا العزيزة طمأنينة وسلما ، وسعادة وهديا ، ولصاحب الجلالة العزيز المحبوب مليكنا المعظم ﴿ فاروق الاول ﴾ رعايةً من الله وعزاً ، وأن يـكون عونا على الحق ، ناصراً للدين .

وسلام الله عليكم ورحمته وبركاته ؟

السيرة المحمدية
تحت ضوء العلم والفلسفة

الحرب فى شرعة الاسـلام

لما استقر النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة ، وأسس بها حكومته النبوية على ما وصفناها فى الفصل المتقدم ، كان مقصودا بالقتل من قريش . وليس يُعقل أن تغمض قريش عينيها ، ومصلحتها الحيوية قائمة على زعامة الدين فى البلاد العربية ، عن قيام زعامة أخرى فى بلد كيثرب يصبح منافسا لأم القرى ، وربما بزها سلطانا على العقول ، وكر على قريش فأباد خضراءها ، وسلبها حقها الموروث .

ولا يسع الاسلام من جانبه مهما كانت ميوله سلمية « فاصفح عنهم وقل سلام » ، أن يستمر فى منع القائمين به عن الدفاع عن أنفسهم ، وعن الدين الذى أنزل للانسانية كافة ، فى عالم يضيع الحق فيه إن لم تكن وراءه قوة تؤيده . فكان لا مناص من السماح للمسلمين بحماية أنفسهم ودينهم بالسلاح الذى يشهره خصومهم فى وجوههم ، فأنزل الله قوله تعالى : « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير . الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع ، وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ، ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز . الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ، ولله عاقبة الأمور . وإن يكذبوك فقد كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وثمود ، وقوم ابراهيم وقوم لوط ، وأصحاب مدين ، وكُذب موسى ، فأمليت للكافرين ثم أخذتهم فكيف كان نكير ؟ فكأين من قرية أهلكناها وهى ظالمة ، فهى خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد ! أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها ، أو آذان يسمعون بها ، فانها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور . ويستعجلونك بالعذاب ، ولن يخلف الله وعده ، وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون . وكأين من قرية أمليت لها وهى ظالمة ، ثم أخذتها وإلىّ المصير . قل يأيها الناس إنما أنا لكم نذير مبين . فالذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة ورزق كريم ، والذين سعوا فى آياتنا معاجزين أولئك أصحاب الجحيم »

هذا ولم يُغفل الاسلام حتى فى هذا الموطن ، موطن الدفاع عن النفس والدين ، أن ينصح لأتباعه بعدم العدوان ، لأن الموضوع حماية حق لا موضوع انتقام ولا شفاء حزازات الصدور .

وهـذا من مميزات الحـكومة النبوية ، فإن القائم عليها من نبي يكون كالجراح يضع مشرطه حيث يوجد الداء لا ستئصاله ، مع عـدم المساس بالأعضاء السليمة ، ومقصده استبقاء حياة المريض لا قتله . والعالم كله في نظر الحـكومة النبوية شخص مريض تعمل لا ستدامة وجوده سليما قويا ، خالصا من الأمراض العضالة . والاسلام باعتبار أنه دين عام للناس كافة ، يعد العالم كله أمة واحدة ، غير معتدٍ بما أحدثته البيئات والتقاسيم الجغرافية بينهم من الفروق في الألوان واللغات والأديان . لهذا السبب ولأن موحيه هو رب العالمين الذي وسعت رحمته كل شيء ، أحيطت جميع آيات الجهاد فيه بأوامر مشددة في مراعاة العدل مع المحاربين ، وعدم الإسراف في سفك دمائهم ، والاعتداد بالظاهر من أعذارهم ، مما يعد مُثُلا عليا لم تصل المدنية بعد جهادها الطويل ألوفا من السنين الى خيال منها ، ناهيك أنه يحرم على أهله أن يقتلوا خدم المحاربين الذين يمـدونهم بالطعام والشراب ، ويعينونهم على حمل عتادهم ، وخدمة دوابهم ، وهذا غير ما أمر من احترام حياة شيوخهم وولدانهم ونسائهم ورجال أديانهم ، وعدم الاجهاز على جرحاهم ، وعدم تعقب مهزوميهم للفتك بهم من خلفهم . فقال الله تعالى : « وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين » وقال : « ولا يجرمنكم شنآن قوم (أي ولا يحملنكم بغضكم لقوم) ، أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا ، وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعـدوان ، واتقوا الله إن الله شـديد العقاب » وقال : « ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى ، واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون » .

بهذه القيود الرحيمة ، وفي هذه الحدود العادلة ، أذن الله للمسلمين أن ينبذوا لأعدائهم على سواء ، وأن يقابلوا قوتهم بمثلها حتى يحق الله الحق ، ويزهق الباطل ، ويظهر دين الله على جميع ما حاكته الأوهام من عقائد باطلة ، وخيالات عاطلة . ولما كان القرشيون قد صارحوا النبي صلى الله عليه وسـلم وأصحابه بالحرب ، ولو كان تركهم وشأنهم بعد شخوصه الى المدينة لما تركوه وشأنه ، فقد اعتبرهم في حالة حرب ، وعاملهم على موجب هذا الاعتبار .

هنا لا بد لنا من نفي شبهة كثيرا ما أثارها خصوم الاسلام ضده ، إذ قالوا : إن الاسلام دين شرعت فيه الحرب ، والدين الحق يجب أن يتنزه عن ذلك فلا يدعو إلا الى السلام ، لأن الحرب من بقايا الوحشية الأولى ولا يجوز أن يعتمد عليها دين إلهي أنزل ليكون رحمة للعالمين .

لا جرم أن الذين يُدلون بهـذه الشبهة لا يعرفون من طبيعة العالم الأرضي ومن عوامل الاجتماع الانساني ، ولا من تاريخ الأديان السماوية ، ما يجب أن يعرف ليجيء حكمهم عادلا ، ورأيهم مسددا .

إن طبيعة هذا العالم مبنية على التدافع والتغالب ، ليس فيما بين الناس فحسب ، ولـكن فيما

بينهم وبين الوجود المحيط بهم ، وفيما بين كل فرد والعوامل المتسلطة عليه من نفسه . ولا تشذ عن هذه القاعدة العامة الحيوانات ولا النباتات أيضا . وقد بنى علماء النباتات والحيوانات وعلماء الانسان على هذا التدافع كل ترق طرأ على هذه العوالم الثلاثة ، ولا أظن أن قارئا من قرائنا يجهل الناموس الذى اكتشفه دارون وروسل ولاس ودعواه ناموس تنازع البقاء ، وبنيا عليه كل تطور أصاب الأنواع النباتية والحيوانية والانسان أيضا . وقد أشار الله الى خطر هذا الأصل العظيم بقوله تعالى فيما يتصل بالانسان : « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ، ولـكن الله ذو فضل على العالمين » . وإنما تفسد الأرض بتغلب الأشرار ، وتقاعس الأخيار عن التنكيل بهم . وفضلا عن تغلغل الأشرار فى شرورهم ، فانهم لا يدعون الأخيار أحرارا فى ممارسة فضائلهم . وقد صرح الـكتاب الـكريم بهذا فى قوله تعالى : « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبِيَع ، وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا » . ألم تر كيف تصدى خصوم الدين النصرانى للمسيح وما كان يدعو إلا للصلاح والسلام ، حتى أنهم استصدروا أمرا بصلبه فنجاه الله منهم ، وما زالوا بالذين اتبعوه يضطهدونهم ويقتلونهم حتى مضت ثلاثة قرون وهم مشردون فى الأرض لا تجمعهم جامعة ، الى أن حماهم من أعدائهم السيف على يد الأمبراطور قنسطنطين الرومانى ، واتفق أنه كان يدين بالنصرانية ، فلما ولى الملك أعمل السيف فى الوثنيين ، وهدم هياكلهم ، وأجبرهم على قبول المسيحية دينا لهم . ومن ذلك العهد أمكن المسيحيين أن يجاهروا بدينهم ، وأن يتخذوا لهم زعامة دينية . وأفادهم هـذا الدرس القاسى فى ضرورة استخدام السيف لنشر الدعوة ، ولقمع الوثنيين ، حتى دانت لهم أوروبا كلها . ولا يمكن أن ينسى أحد ما حـدث بين البروتستانتية والـكاثوليكية من الحروب الماحقة حتى استقر كل فريق منهم فى الحيز الذى هو فيه .

أوَلم تر أيضا كيف تصدى الجاهليون لمحمد صلى الله عليه وسـلم فمنعوه عن نشر الدين الذى أوحاه الله إليه ، وانتهى أمرهم بالتألب عليه لقتله ، والفراغ من أمره ؟ ثم ما حدث منهم بعد أن هاجر الى المـدينة حيث تقصدوه بها ، مؤلبين عليه القبائل الجاهلية لإبطال أمره ، والتعفية على أثره ؟

أفيريد مثيرو هذه الشبهة أن يقوم دين على غير السنن الطبيعية فى عالم مبنى على مبدأ التدافع والتنازع ، واستخدام القوة الحيوانية لطمس معالم الحق ، ودك صروح العدل ؟

يقول المعترضون : وماذا أعددتم من حجة حين تجمع الأمم على إبطال الحروب ، وحسم منازعاتها من طريق التحكيم ، وهذا قرآنـكم يدعوكم للجهاد ، ويحثكم على الاستبسال فيه ؟

نقول : أعددنا لهذا العهد قوله تعالى : « وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم » .

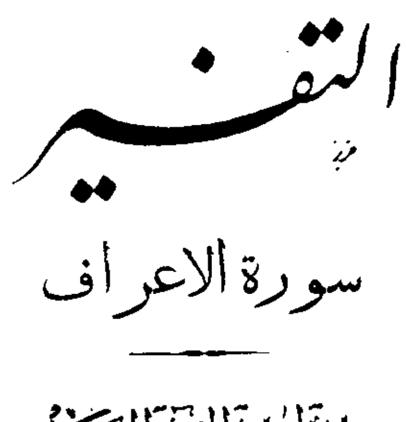
هذه حكمة بالغة من القرآن ، بل هذه معجزة من معجزاته الخالدة ، وهى أدل دليل على أنه لم يشرع الحرب لذاتها ، ولكن لأنها من عوامل الاجتماع التى لابد منها مادام الانسان فى عقليته ونفسيته المأثورتين عنه . غير أنه لم ينف أن يحدث تطور عالمى يُتفق فيه على إبطال الحرب ، فصرح بهذا الحكم قبل حدوثه ليكون حجة لأهله من ناحية ، وليدل على أنه لا يريد الحرب لذاتها من ناحية أخرى . ولو كان يريدها لذاتها لما نوّه بهذا الحكم . ولو كان ذُكر له إمكان جنوح الأمم للسلم ، لكر على هذا القول بالدحض ، ولحض أهله على عدم الإصغاء اليه ، وعلى اعتباره من عوامل التثبيط لهم .

ومما يجب لفت النظر إليه ، أن الاسلام قد أشاد من ذكر كلمة السلام بما لم يفعله مذهب اجتماعى قبله . ناهيك أن الله قد سمى نفسه السلام ، وجعل السلام تحية الاسلام يتبادلها المسلمون فى اليوم ملايين المرات ، ونوه القرآن فى آيات كثيرة بكلمة السلام ، ودعا الجنة التى وُعد بها المؤمنون بدار السلام ، وذكر أن تحية أهلها فيها سلام ، فجواء البلاد الاسلامية مشبعة بهذه الكلمة يتنفسها المسلمون ممتزجة بأوكسيجين الهواء ، وليست هذه سيرة الأمم التى تجعل شعارها الحرب فى الحياة ، ولكنها سيرة الذين يحبون السلام ويعملون على رفع لوائه بين الناس .

ويزيد هذا الأمر اتضاحا أن الاسلام إنما سمح بالحرب لايجاد السلام ، لا لتأييد مبدأ التناحر بين الأنام ، فقال تعالى : « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ، ويكون الدين كله لله » . ومن العجيب أن الأمم المؤيدة للسلام هى فى مثل هذه الضرورة اليوم ، فقد تجردت لحرب طاحنة مكرهة عليها ، لاهم لها إلا إيجاد السلام ، فعلى من يتهم الاسلام باقرار مذهب التناحر أن يعتبر بما سيقت اليه الأمم الديموقراطية اليوم من مجزرة بشرية هائلة دُفعت إليها دفعا فى سبيل تحطيم مبدأ التناحر لا فى سبيل شيء آخر . فاذا كانت هذه الأمم التى وصلت من المدنية الى درجة رفيعة ، تضطر الى الدخول فى مثل هذه الحرب الماحقة ، فى القرن العشرين ، أفلا تكون أمثال تلك الضرورة تنشأ فى الجماعات التى فى دور التكوُّن لتحمى وجودها ، فى عالم كان كل ما فيه موجها إليها لحلها ، وملاشاة كل ما حُمِّلته من عوامل الهدم والبناء لتأسيس عهد جديد يخرج بالانسانية من الظلمات الى النور ؟

يتضح مما مر كله أن اعتراف الاسلام بالحرب ، كضرورة لا محيد عنها ، كان لحكمة بالغة ، لو أغفلت لكان تلاشى كل ما حُمِّله الاسلام من عوامل إنهاض الأمم ، ووسائل نقلها من عهد كانت فيه ترزح تحت كِسَف من الضلالات ، وتنوء تحت آصار من الأوهام ، الى عهد حرية التعقل والنظر ، والبحث والتدليل ، والمسئولية الشخصية ، وهى الثلاثة الأركان التى ابتنى عليها صرح التطور الأخير للانسانية المتجهة الى كمالها المنشود .

محمد فريد وجدى



سورة الاعراف

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم لسورة الاعراف

« الـمـص . كتاب انزل إليك فلا يكن فى صدرك حرج منه لتنذر به وذكرى للمؤمنين » :

هذه سورة الأعراف ؛ والأعراف هى المواضع العالية الممتازة ، تخصص لأهل الشرف والامتياز . وسميت هذه السورة بسورة الأعراف ، لما جاء فيها من حديث عن أشراف أهل القيامة الذين يجعلهم الله إذ ذاك فى مكانة الإشراف على الخلق : على المؤمنين وهم يستقبلون ما وعدوا من نعيم خالد ، وعلى الكافرين وهم يستقبلون ما أنذروا من عذاب مقيم . اقرأ قوله تعالى : « وعلى الأعراف رجال يعرفون كلا بسيماهم ، ونادوا أصحاب الجنة أن سلام عليكم » ، وقوله تعالى : « ونادى أصحاب الأعراف رجالا يعرفونهم بسيماهم ، قالوا ما أغنى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون » .

وقد نزلت هذه السورة فى العهد الأول للدعوة المحمدية ، يوم كان الرسول صلى الله عليه وسلم يضع الحجر الأساسى لصرح الاسلام ، ويدعو الى توحيد الله ، بالتبشير والإنذار ، والتذكير بالمثلات التى خلت من قبل ؛ فلم يكن عهد نزولها عهد تشريع ، أو تفصيل الأحكام ، إذ لم يكن هناك أمة أو جماعة تنضوى تحت لواء واحد فتحتاج الى تشريع أو تفصيل لأحكام ؛ وإنما كان هناك صوت عال بالحق ، جرىء فيما أمره الله ، يرن فى أجواء مكة وما حولها ، ويدوى فى آذان قوم عاكفين على أصنام لهم ، ينحتونها بأيديهم ثم يعبدونها من دون الله قانتين ، ويتوجهون إليها مخلصين . كان هناك ذلك الصوت العالى الجرىء يدعو الى توحيد الله ، والى التحرر من ربقة الأوهام ، والى السمو بالكرامة الانسانية والعقل البشرى عن وهدة الشرك التى ارتكس فيها الانسان ، فعبد الحجر ، وعبد الشمس والقمر .

هـذا ما كان فى ذلك العهد الذى نزلت فيه سورة الأعراف . وهى أطول سورة نزلت فى ذلك العهد ، وأكثر ما نزل قبلها من سور الجزأين الأخيرين .

وهى تـكاد تكون مقررة لجميع ما ذكر فى السور التى نزلت قبلها ، ولهذا لا تجد فيها نداء للمؤمنين ، ولا خطابا لهم ، ولا لأهل الـكتاب ؛ وإنمـا تجدها تخاطب الانسانية فى أوسع حدودها ، وبأعم أسمائها :

« يا بنى آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يُوَارِى سوْءاتِكم ، وريشاً ؛ ولباسُ التقـوى ذلك خير » .

« يا بنى آدم لا يفتننّـكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة » ؛

« يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد » ؛

« يا بنى آدم إمّا يأتينّـكم رسل منكم يقصّون عليكم آياتى ، فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولاهم يحزنون »

الخطاب فى ذلك كله لأبناء آدم ، للناس جميعا ، لا للعرب ولا للمسلمين ؛ حتى وهى تتحدث عن الشرك وتصف الشركاء لا تريد خصوص شرك العرب ، ولا خصوص شركائهم ، وإنما تريد الشرك فى أقدم عهوده ، يوم طغى الوهم على الناس فأنساهم خلقهم وكفروا بخالقهم ، يوم خلق الله البشر من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن اليها : « هو الذى خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن اليها ، فلما تغشّاها حملت حملا خفيفا فمرّت به ، فلما أثْـقَـلَت دَعَوَا الله ربهما لئن آتيتنا صالحا لنكونن من الشاكرين . فلما آتاهما صالحاً جعلا له شركاء فيما آتاهما ، فتعالى الله عما يشركون » .

وكذلك لا تجد فيها أحكاما ولا نظما ، ولا تفصيلا لعبادة من العبادات ، وإنما تجدها تتحدث عن المبادئ العامة ، والأخلاق الفاضلة ، تدعو اليها الناس جميعا ، لا فرق بين جنس وجنس ، ولا دين ودين ؛ تتحدث عن المبادئ التى لو آمن الناس بها ونزلوا على حكمها لساد العالمَ السلمُ ، وشملته الطمأنينة . اقرأ : « قل إن الله لا يأمر بالفحشاء ، أتقولون على الله ما لا تعلمون . قل أمر ربى بالقسط ، وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد ، وادعوه مخلصين له الدين ، كما بدأكم تعودون » ، « وكلوا واشربوا ولا تسرفوا » ، « قل من حرّم زينة الله التى أخرَجَ لعباده والطيباتِ من الرزق » ، « قل إنما حرّم ربّىَ الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، والإثمَ والبغى بغير الحق ، وأن تشركوا بالله مالم ينزل به سلطانا ، وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون » ، « ولـكل أمة أجل » ، « لا نـكلف نفسا إلا وسعها » ، « ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها » ، « ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض » ، « والبلد الطيب يَخرُج نباتُه بإذن ربه ، والذى خَبُثَ لا يَخرُج إلا نكِداً » ، « أوَ لم يَهد للذين يرثون الأ

من بعد أهلها أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم » ، « ساصرف عن آياتيَ الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق ، وإن يرَوْا كل آية لا يؤمنوا بها ، وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا ، وإن يروا سبيل الغى يتخذوه سبيلا » ، « فلما نَسُوا ما ذُكِّروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بَئِيس بما كانوا يفسقون » ، « خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين » .

وسورة الأعراف بعد ذلك تقص علينا قصة الانسانية من يوم نشأتها ، فتذكر خلق الانسان وتصويره ، وتمكينه فى الأرض ، وما أخذ الله عليه من عهد فطرى ، بمنحه العقل ، وتوضيح الدلائل : « وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتَهم وأشهدَهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى » .

وتذكر آدم وزوجه ، وتأثرهما بقوة الشر ، ووسوسة الشيطان لهما حتى أخرجتهما مما كانا فيه ، وتضع العلاج الذى يقى الانسان شر التأثر بالهوى والشيطان : « إن الذين اتقوا إذا مسَّهم طائف من الشيطان تذكروا فاذا هم مبصرون » .

والسورة أيضا تتلو علينا كتاب الدين العام ، دين الله الحق فى فصوله المتعاقبة من عهد آدم ونوح ؛ وتذكر فى ثنايا ذلك ما نزل بالأمم التى عتت عن أمر ربها ، وكذبت رسلها ، وأن منهم من أهلكوا بالصيحة ، ومنهم من أخذتهم الرجفة ، ومنهم من أغرقهم الله ، ومنهم من ابتلاهم بأنواع من العذاب : « فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقُمَّل والضفادع والدم ، آيات مفصلات » . ثم هى تقفّى على ذلك بآخر فصل من فصول هذا الكتاب الإلهى الخالد ، فصل النبوة المحمدية : « قل يأيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعا ، الذى له ملك السموات والأرض ، لا إله إلا هو يحيى ويميت ، فآمنوا بالله ورسوله النبى الأمى الذى يؤمن بالله وكلماته ، واتبعوه لعلكم تهتدون » . هذا تعريف مختصر بسورة الأعراف .

أوائل السور

قال الله تعالى : « الٓمٓصٓ » :

هذه حروف مركبة تكوّن فى رسمها شكل الكلمة ، ولكنها لا تقرأ قراءة الكلمات ، وإنما تقرأ ساكنة هكذا : ألف ، لام ، ميم ، صاد . وقد ابتدأ الله بهذه الحروف وأمثالها تسعا وعشرين سورة من كتابه العزيز ، كلها مكية إلا قليلا نزل بالمدينة أول عهد المسلمين بالهجرة اليها .

واللغة العربية لا تعرف لهذه الفواتح معنى غير التى تتركب منها الكلمات . ولم يرد تفسير أثرى صحيح يبين المعنى المراد منها ، كما ورد فى مثل الصلاة والزكاة وسائر الكلمات التى أثبتت

الشريعة لها معنى جديدا . ولهذا وذاك ظلت تلك الفواتح منذ أن تناول الناس التفسير والتأويل موطن أقوال وتأويلات.

غير أن لهذه الحروف فى جميع مواطنها خاصة لا تكاد تفارقها ، وهى أنها يعقبها غالبا ذكر الكتاب ، والتنويه بشأنه ، وتوجيه الأنظار إليه . والكتاب هو الدين كله ، وهو الدعوة كلها ، وهو الفرقان القائم يغذى الحق ويغزو الباطل فى جميع العصور والأجيال :

«الم ، ذلك الكتاب لا ريب فيه ، هدى للمتقين » ، « الم ، الله لا إله إلا هو الحى القيوم . نزّل عليك الكتاب بالحق » ، « الر ، تلك آيات الكتاب المبين » ، « المر ، تلك آيات الكتاب ؛ والذى أنزل اليك من ربك الحقُّ » ، « الر ، كتاب أنزلناه اليك لتخرج الناس من الظلمات الى النور » ، « طسم تلك آيات الكتاب المبين » ، « طس ، تلك آيات القرآن وكتاب مبين . هدى وبشرى للمؤمنين » ، « طسم ، تلك آيات الكتاب المبين . نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون » ، « ص ، والقرآن ذى الذكر ، بل الذين كفروا فى عزة وشقاق » ، « حم ، تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم » ، « حم ، تنزيل من الرحمن الرحيم . كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون . بشيرا ونذيرا » ، « حم.عسق ، كذلك يوحى اليك والى الذين من قبلك اللهُ العزيز الحكيم » ، « ق ، والقرآن المجيد » .

وبهذه الخاصة نستطيع فقط توجيه الحكمة فى افتتاح هذه السور بتلك الحروف على وجه لا يعرفه القوم فى لغتهم ولا كلامهم .

إن حياة الرسول كانت فى ذلك العهد الذى نزلت فيه تلك السور حياة كفاح وجلاد ، وخصومة ولدد : يبلغهم رسالة ربهم فيعرضون عنه ويتهمونه بالكذب ؛ يتلو عليهم من كتابه فيقولون : هذا سحر ، ويقولون : إنما يعلمه بشر ؛ ولكنهم مع هذا يرون للقرآن سلطانا على نفوسهم ، وتأثيرا فى عقولهم ، فهم إذا سمعوه أخذتهم روعته ، وملكتهم قوته ، وبهرتهم بلاغته ، فماذا يصنعون ؟

يوصى بعضهم بعضا أن يصموا آذانهم ويغلقوا قلوبهم : « وقالوا قلوبنا غُلْفٌ » ، « وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه ، وفى آذاننا وَقر ، ومن بيننا وبينك حجاب » .

يوصى بعضهم بعضا أن يتصايحوا فى مجلسه ، وينطقوا باللغو فى أثناء قراءته ، على نحو ما تفعل السوقة من التهويش والتشويش : « وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغَوْا فيه لعلكم تَغلبون » .

هكذا كان موقفهم من القرآن ؛ فابتدأ الله بعض السور التى نزلت فى ذلك العهد بهذه الحروف التى لا يألفها القوم ، قرعا لأسماعهم ، وتوجيها لأنظارهم ، وقسراً لهم على استماع

القرآن ، واستخداما للغريزة الانسانية المولعة باستكشاف الغريب واستطلاع العجيب . ذلك بأنهم إذا سمعوا قارئا يتلو « المص » « حم عسق » ، عجبوا لما سمعوا ، وأنصتوا بعد ما أعرضوا ، فيدخل القرآن بذلك آذانهم ، ويخدش عقولهم ، ويصل بدعوته الى نفوسهم ، وكان ذلك طريقا الى انتفاعهم بالقرآن ، وحملا لهم على الدخول فى هداية الرحمن .

وبعد : فهذا كتاب الكون لم يزل كثير من أسراره محجبا لا تدركه العقول ، ولا تهتدى إليه الأفكار ، على شغف الانسان باستطلاع خباياه ، وجده فى معرفة خفاياه ، واستكشاف غرائبه : « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » . وكذلك كتاب الله المكنون ، فمنه آيات محكمات هنّ أم الكتاب ، وأُخَرُ متشابهات ، استأثر الله بعلمها ، وقضت حكمته بحجبها ، ابتلاء واختبارا ؛ « فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتّبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، وما يعلم تأويله إلا الله . والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كلٌّ من عند ربنا ؛ وما يذّكر إلا أولو الألباب » .

قال الله تعالى : « كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ » :

جاءت هذه الآية بعد « المص » على النمط الذي أشرنا اليه ، تنويها بشأن الكتاب ، وتفخيما لقدره ، وتقريراً لإنزاله على محمد صلوات الله عليه ، لغاية سامية : هى هداية البشر ، وإخراجهم به من الظلمات الى النور : « كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات الى النور بإذن ربهم الى صراط العزيز الحميد » . وحرج الصدر : ضيقه . وينشأ من فوات مرغوب أو ترقب فواته ، ومن حصول مكروه أو توقع حصوله . وقد كان النبى صلى الله عليه وسلم يقدر مشقة الرسالة من جهات : من جهة الوحى الذى ينزل عليه : « إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا » ، ومن جهة إيمان قومه به ، ومقدار حرصه على ذلك ؛ ومن جهة تكذيبهم إياه ، وما يلاقى من إعنات ومشقة . كل هذه الجهات كانت مبعث حرج وضيق؛ وكان شأن الله معه — وقد تولى أمره ، وكفل له العصمة من الناس ، والإقدار على تبليغ الرسالة — أن يخفف عنه آلام ذلك الموقف ، ويتعهده الفينة بعد الفينة بالنصح والإرشاد والتسلية ، وحمل ما يلقى فى سبيله : « لا تحرّك به لسانك لتعجل به ، إن علينا جمعه وقرآنه . فإذا قرأناه فاتبع قرآنه . ثم إن علينا بيانه » ، « فلعلك باخعٌ نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا » ، « قد نعلم إنه ليَحزُنك الذى يقولون ، فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون » ، « واصبر وما صبرك إلا بالله ، ولا تحزن عليهم ، ولا تك فى ضيق مما يمكرون » .

ومن هذا القبيل قوله جلت حكمته : « فلا يكن فى صدرك حرج منه » ، أى إذا كان

الواقع الذى تعلمه من قرارة نفسك أن هذا الكتاب منزل عليك من الله، فكن عند ثقتك بنفسك، ولا تدع لتكذيبهم أثرا فى قلبك، ولا لعدم إيمانهم سلطانا على نفسك، ولا لثقل الوحى اضطرابا فى قواك، فالله قد تولاك، وبفضله رباك، « ألم نشرح لك صدرك، ووضعنا عنك وزرك، الذى أنقض ظهرك، ورفعنا لك ذكرك » . فلا يضق صدرك عن تحمل أعباء الرسالة، وعليك بالصبر وقوة الاحتمال لتقوم بوظيفتك التى اصطفاك لها الله .

« لِتُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ » :

الإنذار : التبليغ مع التخويف . والذكرى : التبليغ مع توجيه النفس الى ما تعلم من جهات العظة والاعتبار . وقد ذكر الله فى هذه الآية الإنذار عاما، وخص الذكرى بالمؤمنين، وتلك سنة القرآن وطريقته غالبا فى الإنذار والذكرى : « لتنذر أم القرى ومن حولها »، « تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا »، « تبصرة وذكرى لكل عبد منيب »، « فإن الذكرى تنفع المؤمنين » . ولعل ذلك يرجع الى أن الإنذار كما قلنا تبليغ مقرون بالتخويف ؛ والتخويف زجر وتأديب . وهذا يناسب الكافة بما فيهم من الاستعدادات المختلفة والطباع النادرة . أما الذكرى فاحتكام الى النفس المهذبة والشعور الحى، والرجوع بهما الى ما فى الكون من عظات وعبر . فهى نوع من السمو جدير بالمؤمنين الذين صفت نفوسهم، واستعدت أرواحهم لما يتلقونه من وحى وتعليم : « إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد » .

محمود شلتوت

(يتبع)

القلوب الكبيرة

كان كعب بن زهير بن أبى سلمى الشاعر الجاهلى ممن هجا النبى صلى الله عليه وسلم، فأهدر دمه . فلما بلغه ذلك خشى عاقبة أمره بعد فتح مكة، ونصحه بعض أصحابه بأن يستسلم لرسول الله فإنه لا يحمل ضغنا لأحد، قائلا : إن هذا أنجى من كل وسيلة . فقصد اليه فى المسجد واندفع ينشده لاميته المشهورة حتى بلغ الى قوله :

نبئت أن رسول الله أوعدنى ... والعفو عند رسول الله مأمول

فألقى رسول الله صلى الله عليه وسلم بردته عليه .

السنة

سماحة الدين الاسلامى

عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : «إنَّ الدينَ يسرٌ، ولن يشادَّ الدينَ أحدٌ إلا غلبه ، فسدِّدُوا ، وقارِبُوا ، وأبْشِرُوا ، واسْتَعينوا بالغَدْوَةِ والرَوحةِ وشىءٍ من الدُّلْجَة » . رواه البخارى فى كتاب الايمان .

يتعلق بشرح هذا الحديث أمور : (١) بيان معناه إجمالا . (٢) بيان سماحة الدين الاسلامى . (٣) بيان ما يترتب على مخالفة هذا الدين من المضار الدنيوية والأخروية .

(١) يتضمن هذا الحديث نهياً عن التشدد فى الدين تشددا يوجب السآمة والملل ، أو العجز عن أداء الواجبات ؛ وحثا على القصد والتوسط فى أداء التكاليف الشرعية بدون إفراط أو تفريط .

ومعنى التشدد فى الدين : التعمق فى تطبيق قواعده الحكيمة السمحة ، والإفراط فى الأعمال والأقوال الدينية إفراطا ضارا . وذلك شر وبيل تجب مجافاته والفرار منه . فواجب على المؤمنين العاملين أن يزنوا قدرتهم على الاستمرار فى أعمال الخير والبر بميزان الدين الصادق ، فلا يرهقوا أنفسهم فى عمل من الأعمال الدينية بدون حساب للقدرة على الاستمرار فى أدائه بدون انقطاع ، سواء كان ذلك العمل صلاة ، أو صياما ، أو صدقة ، أو جهادا ، أو غير ذلك من الأعمال التى لا بد منها لإصلاح الأفراد والجماعات .

ولعل قائلا يقول : إن هذا الحديث وأمثاله إنما يناسب حال المؤمنين الأولين الذين كانوا يضحون بأنفسهم وأموالهم فى سبيل الله ، ويعبدون الله تعالى آناء الليل وأطراف النهار بدون تؤدة أو هوادة ، فاحتاجوا الى تنبيه بأن دينهم يأمر بالرفق والتوسط فى كل الأمور ؛ أما الآن فنحن فى زمن قد هجر فيه كثير من الناس قواعد دينهم الأساسية ، وأخلاقه الفاضلة ، التى سعد بالاستمساك بها من كان قبلهم من المؤمنين حقا ؛ فما لهؤلاء وما للعظة التى تأمر بالتوسط فى أعمال البر وتنهى عن المبالغة فيها خوفا من السآمة والملل أو العجز عن الاستمرار فى أدائها . فترى الآن كثيرا من الناس يجاهرون بالفسوق والعصيان ، والإمعان فى الشهوات الفاسدة الضارة

بالأنفس والأموال ، على عكس أسلافهم من المؤمنين الذين كانوا يرهقون أنفسهم فى سبيل الله ومن أجل الله . ومن أهل زماننا من بلغت به القحة وحبه للشهوات الفاسدة واللذات المحرمة مبلغا جعله يباهى بالرذائل الخلقية ، ويعتبر الفضيلة جمودا وانحطاطا . ومنهم من قادته زخارف المدنية الكاذبة الى التقليد الأعمى فى المفاسد والموبقات ، ومحاربة الله ورسله ، مع أنهم كانوا أحق بأن يقلدوا فى التمسك بأسباب القوة والمنعة ، ووسائل الشرف والكرامة . فكان من نتيجة كل هذا أن مكن الله منهم أعداءهم ، وأذاقهم هوان الشهوات الفاسدة ، وكانت عاقبة أمرهم خسرا . فما لهؤلاء والموعظة التى قالها رسول الله صلى الله عليه وسلم للمؤمنين الأولين الأطهار ، الذين كانوا يبالغون فى طاعة الله ورسوله ؟ !

والجواب : أن هذا الكلام حق لا ريب فيه ، وأن الفساد الذى طرأ على الأخلاق أصبح داء عضالا ، ولكن النظر فى هذا الحديث وأمثاله فيه عظات وعبر لأولئك الذين هجروا العمل بقواعد دينهم الحكيمة . فلعل هؤلاء يخجلون من أنفسهم ومن حسبانهم فى عداد المسلمين المؤمنين حقا ، إذا علموا أن أسلافهم الأولين كانوا يجهدون أنفسهم فى أعمال البر ، ويبالغون فى طاعة ربهم مبالغة قد تضر بأنفسهم وأموالهم وأهليهم ، فاحتاجوا الى نهى عن الزيادة الضارة التى قد تكون سببا فى العجز عن العمل عاجلا أو آجلا . لعل هؤلاء الذين يحاربون الله ورسوله بالانقياد الى شهواتهم تؤثر فيهم أخلاق أسلافهم الفاضلة ، ويكفون عن الموبقات الضارة بأبدانهم وأموالهم ، ويسيرون فى أعمالهم وأقوالهم سيرة مرضية ، فيظفرون ببعض ما ظفر به أسلافهم من عز ومنعة ، وشرف وكرامة . لعل هؤلاء تؤثر فيهم الموعظة الحسنة ، ويدركون أن القدوة الصالحة تنقذهم وتنقذ أمتهم من فوضى الشهوات الضارة ، وذل المعاصى المخزى ، فيكفون عن الموبقات ، ويعملون الصالحات التى تسعدهم فى دنياهم وآخرتهم .

ومع هذا فإنه يوجد فى زماننا هذا كثير من الجهلة يرهقون أنفسهم بالقيام بالأعمال المندوبة ، من أذكار ، وأوراد ، ونحو ذلك ، فتشغلهم عن أداء الفرائض التى لا بد منها لصلاحهم وصلاح المجتمع . ومنهم من يستمسك بعادات فاسدة ، فيرهق نفسه فى سبيل إحيائها باسم الدين ، ويترك ما هو واجب عليه اكتفاء بها . فترى بعض الجهلة يتهالكون على الإنفاق فى إحياء الموالد المبتدعة التى نهى عنها الدين ، ظنا منه أنها من القرب التى يتقرب بها الى الله ، ويترك زكاة أمواله وصلة أرحامه ، وإغاثة الملهوف ، والإنفاق فى سبيل الله ، اكتفاء بما قام به من الإنفاق فى إحياء ليالى المولد وذبح الذبائح . ومن هؤلاء من يرهق نفسه ويستدين لإحياء تلك البدع الضارة أو لإحياء ليلة يرضى بها شيخ طريقة ، فيستدين للإنفاق على ما يعتقده عبادة من أذكار محرفة ، وتمايل معيب وسط أغان محظورة . كل ذلك ونحوه مما يظنه بعض الناس عبادة تغنيهم عما كلفهم الله به من مهام الأعمال الخيرية ، لا يقره الله

ورسوله ، وإنما هم فى الواقع يشقون على أنفسهم بعمل ما سيشقون به عند الله عز وجل ؛ ولم يكلفهم الله إلا بعمل نافع لهم فى آخرتهم ودنياهم . وهناك فريق آخر يتشدد فيما لا فائدة فيه ، أو فيما عفا الشارع عنه ، كمن يضره الوضوء أو الغسل فيغتسل ، مع أن الشارع شرع له التيمم فى هذه الحالة ، أو يضره الصيام فيصوم ، مع أن الشارع نهاه عن الصيام فى هذه الحالة ، وشرع له الصيام فى أيام أخر .

أما قوله : « فسددوا » فمعناه : الزموا السداد ، وهو التوسط فى الأعمال من غير إفراط ولا تفريط . وقوله : « وقاربوا » معناه : إذا لم تستطيعوا فعل ما أمرتم به فافعلوا مايقرب منه مما هو فى طاقتكم . وقوله : « وأبشروا » أبشروا بثواب أعمالكم ، لأن الله سبحانه لا يضيع أجر العاملين ، وقد وعدهم أن يجزيهم على ما يستطيعون من العمل أحسن الجزاء ، ولن يخلف الله وعده .

أما قوله : « واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة » فمعناه أنه يجدر بالعاملين أن يتوخوا فى القيام بأعمالهم أوقات النشاط ، كما يتوخى المسافر أوقات النشاط ، فيسير فى الغدوة بفتح الغين (وهى السير أول النهار) . والروحة بفتح الراء المشددة (وهى السير بعد الزوال) . والدلجة بضم الدال وفتحها وإسكان اللام (سير آخر الليل) . وهذه الأوقات هى الأوقات المناسبة للمسافرين الذين يقطعون البوادى على رواحلهم . فالعاملون ينبغى لهم أن يسلكوا سبيل المسافرين فى اختيار أوقات النشاط التى لا يملون فيها . والغرض من هذا أن يقول لهم : لا يلزم أن تصرفوا كل أوقاتكم فى الأعمال فتدرككم السآمة ويلحقكم الملل ، فتعجزوا عن مواصلة العمل ، كما لو واصل المسافر سيره فإنه ينقطع ويمل .

وقد وردت أحاديث كثيرة فى الدلالة على هذا المعنى ، منها ما رواه مسلم : « كان أحب الأعمال الى الله أدومها وإن قل » . وروى البخارى ما معناه أن بعض المسلمين نزل ضيفا على صديق له فرأى امرأته رثة ، فسألها عن سبب ذلك ، فقالت له : إن أخاك منصرف الى عبادة الله ، فلما جن الليل وناما قام صاحب المنزل للصلاة فمنعه الضيف ، ولم يزل به حتى قرب الفجر فقاما معا للعبادة ، ثم بعد ذلك نهاه عن مواصلة العبادة وقال له : إن لبدنك عليك حقا وإن لزوجك عليك حقا . فينبغى مراعاة هذه الحقوق كلها مع عبادة الله . وهذه هى قواعد الاسلام الذى جاء باليسر فى كل شأن من شئونه .

(٢) لم تكن سماحة الدين الاسلامى وسهولته مقصورة على رفع الحرج والمشقة فى العبادات والمعاملات المتعلقة بأهل هذا الدين فحسب ، بل سماحة الدين الاسلامى تتجلى فى معاملة أعدائه وخصومه بصورة لا مثيل لها فى الأديان الأخرى ، حتى مع المشركين الذين كانوا يحاربون الله ورسوله بكل ما يستطيعون من قوة وبأس ، فإنه قد اتسع صدره لهم فى إبان قوته ، مع شدة خصومتهم ، ومحاولتهم القضاء عليه بكل ما يستطيعون .

عامل الدين الاسلامى الـكتابيين الذين جنحوا للسلم ورضوا بأن يدفعوا ما فرضه عليهم من ضرائب هينة ، معاملة أهله من المؤمنين فى كل شىء ، حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لهم ما لنا وعليهم ما علينا من الحقوق والواجبات المتعلقة بأمر الحياة ، وأباح لهم التمتع بعقائدهم وعباداتهم التى لا يقرها ، بدون حرج ، وكان يقتص للضعيف منهم كما يقتص للضعيف من المؤمنين بدون فرق . وكان صلى الله عليه وسلم يضرب للمسلمين الأمثال على هذه السماحة بنفسه ، فـكان يعامل يهود المدينة ، ويشترى منهم ما يحتاج اليه من السلع الموجود مثلها عند المسلمين ، الى حد أنه رهن درعه عند أحدهم ، مع سلطانه الواسع على جميع نفوس مواطنيه يومئذ ليكون هو بنفسه مثلا لجميع المسلمين .

وليس أدل على شعور المسلمين نحو أهل الـكتاب من قوله تعالى : « الۤمۤ غلبت الروم فى أدنى الأرض ، وهم من بعد غلَبِهم سيَغلِبون ، فى بضع سنين » . وذلك أن الفرس حاربوا الرومان فى ذلك العهد فى أطراف الشام ، وهى أدنى أرض العرب ، فانهزمت الروم وهم مسيحيون ، وغلبت فارس وهى يومئذ وثنية تعبد النار . فحزن المسلمون لذلك ، وفرح المشركون وقالوا : إن هزيمة الروم الـكتابيين وظهور الوثنيين عليهم فأل حسن للوثنيين . فنزلت هذه الآية الدالة على أن الروم ستظفر بالفرس . وقد تحقق ما أخبر به القرآن وغلبت الروم الفرس بعد ذلك فى المدة التى ذكرها الله فى هذه الآية .

فهذا مثل واضح يدل على ما كان فى نفوس المسلمين من المودة لأهـل الـكتاب الذين لم يناصبوهم العداء ، ورضوا بأن يخضعوا للنظم الاسلامية .

ولم تقتصر معاملة المسلمين لأهل الـكتاب على ما ذكرنا ، بل نص القرآن الـكريم على أكثر من ذلك ، فأباح للمسلمين طعام أهل الـكتاب الذى لا يختلف مع نصوصه القاطعة ، كما أباح أن يتزوج الرجل من نسائهم . وإنما لم يبح للمرأة أن تتزوج كتابيا ، حرصا على الولد ، لأن الشريعة الاسلامية جعلت للرجل سلطة التربية ، فلو أباح للمسلمة أن تتزوج كتابيا لترتب على ذلك أن يكون الولد غير مسلم . وبديهى أن الاسلام لا يسمح باخراج أحد منه ، مع أن قواعده تقتضى المحافظة عليه وعلى كل ما يزيد فيه . فلم يكن تحريم المرأة المسلمة على الـكتابى لنقص ومهانة ، وإنما كان لسبب عمرانى لا بد له منه .

أما المشركون فإن الاسلام كغيره من الأديان الأخرى كان شديدا عليهم ، فلم يقبل منهم جزية ، لأنهم كانوا يعبدون غير الله ، وكانوا لا ينفكون عن محاربة ما يقتضيه العقل من عبادة إله واحـد منزه عن كل ما لا يليق به . ومع ذلك فقد قال بعض الأئمة : إنهم إذا دفعوا الجزية يعاملون معاملة أهـل الـكتاب . فهذه المعاملة لا نظير لها فى الأديان الأخرى ، لأن التوراة صرحت لموسى باعـدام المشركين على بكرة أبيهم ، ونصت على استرقاق بعضهم ، واعتبرتهم [illegible]ام التى لا حرمة لها .

(٣) من هـذا تعلم أن مخالفة الدين الاسلامى الذى جاء بكل الفضائل ونهى عن كل الرذائل ، شر مطلق ، وأن المسلمين الذين هجروا دينهم واستهانوا بآياته الحكيمة ، وبقواعده الصالحة لكل زمان ومكان ، قد أضاعوا أنفسهم وأضاعوا كرامتهم ، وأضاعوا استقلالهم ، وأصبحوا أذلة بعد عـزة ومنعة . فعليهم أن ينتهوا عما هم فيه من شهوات فاسدة ، وعليهم أن يذكروا أن الله أمرهم بالاقتصاد فى أموالهم ، والمحافظة على أبدانهم من الإفراط فى الشهوات ، وأمرهم بأن يعدوا لأعدائهم كل ما استطاعوا من قوة وبأس . فعليهم أن يذكروا كل هذا وأن يستمسكوا به لعلهم يفلحون ؟

عبد الرحمن الجزيرى

الحكم النوابغ

قال ابن السماك : أعقل الناس محسن خائف ، وأجهلهم مسىء آمن .

نقول : إنما يخاف المحسن العاقل أن لا يكون قد وضع الاحسان موضعه ، لأنه يعلم أنه مسئول عن نتائج أعماله ، وأما الجاهل فيسىء وهو آمن ، ظانا أن الأمور فوضى لا ضابط لها ؛ وهذا غاية الجهل بالحقائق ، ومدعاة لأن يعيش الانسان متخبطا فى أعماله .

قيل لجالينوس : متى ينبغى للانسان أن يموت ؟ فقال : إذا جهل ما يضره مما ينفعه .

وقال حكيم : اجتنب الجاهل فإنه يجنى على نفسه وهى أحب النفوس إليه .

وقال غيره : الجاهل يفسد لعدم تهديه للإصلاح مع رغبته فى الصلاح . والأحمق يفسد لأنه يتلذذ بالفساد ، ويتألم من جريان الأمور على السداد .

وقال ذو النون المصرى : من جهل قدره ، هتك ستره .

وقال شاعر :

العلم أنفس شىء أنت ذاخره ... من يدرس العلم لم تدرس مفاخره
فاجهد بنفسك فيما أنت تجهله ... فأول العلم إقبال وآخره

وقال غيره :

موت التقى حياة لا نفاد لها ... قد مات قوم وهم فى الناس أحياء

باب الأسئلة والفتاوى

الحكم الشرعي في حمل المسلم بساط الرحمة :

سأل الأستاذ محمد عبد الوهاب البرعي المحامي أمام محكمة النقض والإبرام بالمنصورة ، عن حكم الشرع الاسلامي في رجل مسلم اشترك في حمل بساط الرحمة مجاملة لبعض أصدقائه من المسيحيين ، لا يقصد بذلك إلا المجاملة فقط .

الجواب

من المقرر في الدين الاسلامي أن الشعائر الدينية المختصة بأرباب الديانات الأخرى لا يحل للمسلم أن يشترك فيها بحال مهما كان الأمر .

ومن المقرر أيضا أن قيام المسلم بشعيرة مختصة بهم لا يخرجه عن الاسلام إلا إذا صحبته عقيدة الرضا به والاطمئنان اليه .

وعلى ذلك يحرم على المسلم الاشتراك في حمل بساط الرحمة الذي يسيرون به أمام جنائزهم استمطارا للرحمة على ميتهم ، كما تدل عليه تسميته بساط الرحمة . ولا يحل له أن يفعله ولو على سبيل المجاملة . وكيف يحمله المسلم وقد رسم عليه الصليب ، والصليب رمز لعقيدة معينة منافية لعقيدة الاسلام ؟ !

ولكن مهما عظمت الحرمة واشتد النهي لا يخرج المسلم بحمله عن الاسلام إلا إذا رضيه واطمأن اليه . والله أعلم ؟

الاقرار الكتابي كالاقرار اللساني

وجاء الى لجنة الفتوى بالجامع الأزهر الاستفتاء الآتي :

ما قولكم دام فضلكم في رجل توفي بحادثة فجائية عن زوجتيه : ليلى ، وسلمى ، وبعد وفاته أبرزت زوجته ليلى كتابا تزعم أنه بخط زوجها وتوقيعه مؤرخا قبل وفاته بسنتين ؛ وهذا الكتاب يتضمن العبارة التالية « إنني طلقت زوجتي سلمى طلاقا بائنا » .

ولم تعلم الزوجة سلمى بالطلاق قبل وفاة الزوج ، ولم تطلع على كتاب الطلاق الآنف الذكر ، وكان الزوج المتوفى يراسلها فيكتب اليها بخط يده وتوقيعه ، ومن ذلك كتاب مؤرخ بتاريخ يقع بعد تاريخ كتاب الطلاق المزعوم بأربعة أشهر ، من محتوياته هذه العبارة « إنني باق وسأبقى لك الزوج المخلص الأمين كما كنت » . وهناك عبارات أخرى من هذا القبيل تدل على بقاء الزوجية .

أضف الى ذلك أن الزوج المتوفى كان يدفع لزوجته سلمى نفقة على اعتبار أنها زوجته قبل وبعد تاريخ كتاب الطلاق الذى أبرزته الزوجة الثانية .

كما أن هنالك من يشهد بأن الزوج لحين وفاته كان ينكر حدوث الطلاق لزوجته سلمى ، ولأى شخص كان يحادثه فى الموضوع .

وبناء على مامر ذكره نرجو أن تفتونا فيما يلى :

١ — ماقيمة كتاب الطلاق المزعوم إذا ثبت أنه بخط وتوقيع الزوج المتوفى ؟

٢ — هل يعتبر الكتاب الذى أبرزته الزوجة المدعى طلاقها (سلمى) ، والذى يحتوى على قوله « إننى باق وسأبقى لك الزوج المخلص الأمين كما كنت » ، هل يعتبر هذا الكتاب تجديدا للزوجية ، أو استمرارا لها على الرغم من وجود كتاب الطلاق المذكور ؟ وهل يعتبر الطلاق طلاقا رجعيا أم طلاق فار ؟ وهل تحرم الزوجة سلمى المذكورة من الإرث أم لا ؟

مشهور ضامن بركات

الجواب

متى ثبت أن الخطاب الوارد لليلى ، المتضمن أن الزوج طلق زوجته طلاقا بائنا ، صادر من الزوج بتوقيعه ، فهو إقرار كتابى منه على نفسه بطلاق زوجته سلمى طلاقا بائنا . وقد قرر فقهاء الحنفية والحنابلة أن الإقرار الكتابى كالإقرار اللسانى ، كلاهما حجة ملزمة للمقر بما أقر به ، ولا يقبل منه بعد ذلك أن يدعى أنه كان كاذباً فى إقراره ، كما لا يقبل منه رجوع عنه .

وعلى هذا تكون زوجته (سلمى) مطلقة طلاقا بائنا من حين إقراره المذكور ، وليس لها حق فى ميراثه بعد موته .

أما قوله لها فى الكتاب الذى أرسله اليها بعد : « إننى باق وسأبقى لك الزوج المخلص الأمين كما كنت » فهو لا يخرج عن كونه إنكارا للطلاق الذى أقر به ، فلا يقبل ، ولا يصح أن يعتبر قوله هذا إقرارا بتجديد العقد بعد ذلك الطلاق المقر به ، لأن لفظه ينبو عنه ، إذ يقول : إنه باق على زوجيته لها ، أى لم يصدر منه طلاق .

والطلاق الذى أقر به ليس من طلاق الفار ، لأنه صادر منه فى حال صحته ، وشرط طلاق الفار أن يصدر من الزوج وهو فى مرض الموت . والله أعلم ؟

رأى الامام مالك فى حكم إفساد المرأة على زوجها لغرض التزوج منها :

وجاء الى لجنة الفتوى بالأزهر سؤال ملخصه ما يأتى :

عمل رجل على إفساد زوجة جاره ليتزوجها حتى تم له ما أراد . فهل تحل هذه الزوجة لهذا الرجل الذى أفسدها لهذا الغرض ؟

حسنى يوسف

الجواب

إن الدين الاسلامى يحرّم السعى بالفساد بين الناس ، ويعتبره من أكبر الكبائر ، وخاصة إذا كان بين المرء وزوجه .

والذى جرى عليه العمل فى مذهب الامام مالك ، أن إفساد الرجل زوجة غيره ليتزوجها يحرّمها عليه تحريما مؤبدا ، معاملة له بنقيض قصده . وبقية المذاهب لا ترى إفساد المرأة على زوجها محرما لها على من أفسدها ، ولكنها تعتبر هذا الافساد من أفسق الفسوق وأنكر أنواع العصيان . والله أعلم ؟

الرضاع لا يثبت بشهادة امرأة واحدة

وجاء الى لجنة الفتوى بالجامع الأزهر الاستفتاء الآتى :

أنا أريد أن أتزوج ابنة عمى ، ولكن عمى والد الفتاة كان متزوجا بخالتى وطلقها وتزوج بغيرها ، والفتاة التى أريد أن أتزوجها ابنته من غير خالتى ، وخالتى تقول إنها أرضعتنى لما كانت زوجة لعمى وتقول : إن فترة الرضاع استغرقت نحو خمسة عشر يوما كانت ترضعنى فى غالب أيامها ، ولما سألتها هل تجزم بأنها أرضعتنى أكثر من أربع رضعات ، قالت إنها لا تتذكر العدد إن كان أربعا أو أكثر أو أقل ، وأصرت على تلك الأقوال ، ولا يوجد من يؤيد أو ينفى أقوالها غيرها . وأنا أميل لتصديقها ، غير أنها ربما تضمر الشر لوالد الفتاة مطلقها ، ومن جهة أخرى فانها كانت قليلة اللبن ويحصل تشقق بثديها عقب كل وضع .

فهل يجوز العقد على الفتاة ؟ وإن كان بعض المذاهب يحرّم العقد بهذه الصورة ، فهل يوجد من المذاهب ما يبيح العقد ؟

عبد الفتاح اسماعيل

الجواب

يرى علماء المذاهب الثلاثة : الحنفية ، والشافعية ، والمالكية ، أن الرضاع لا يثبت بشهادة امرأة واحدة . ولما كان واضحا من السؤال أن الرضاع المستفتى عنه لم يشهد به إلا امرأة واحدة هى المرضعة ، لا يكون حراما على السائل أن يتزوج بابنة عمه التى يريد أن يتزوج بها . والله أعلم ؟

رئيس لجنة الفتوى

محمد عبد اللطيف الفحام

حظ الامم من الرسل

هل أرسل الى أمريكا والاقيانوسية وأطراف العالم القديم رسل ؟

كتب إلينا غير واحد من الفضلاء يسألوننا ، من ناحية اجتماعية بحت ، عن حظ الأمم من الرسل ؛ وآخر سؤال وصل إلينا من هذا القبيل ما وجهه إلينا طالب نجيب قال فيه :

« كل ما قرأناه عن الرسل محصور فى الذين أرسلوا الى الأمم القائمة فيما بين الفرات والرين ، وفيما بين بحر قزوين والنيل ، فلماذا لم يرسل الله تعالى رسلا الى أمريكا ، وإلى أطراف قارات العالم القديم كجنوب أفريقيا وشمال أوروبا ، وشرق الروسيا ؟

« نظن أنكم ستقولون إن هذه البقاع هى التى ازدهرت فيها الحضارة ، وعمرت بالخلائق ، فانتشروا منها فى كل بقعة حاملين معهم الموسوية والعيسوية اليها ؛ ولكن كيف نعد هذا الجواب شافيا والحفريات تثبت أن الانسانية وجدت قبل هذين الدينين بآلاف السنين ؟

« ثم ماذا تقولون فى الأمم التى لا تزال تعيش فى سهوب الأرض ووديانها القصية ، فهل أرسل اليها رسل ، وإذا كان لم يرسل فلماذا ، ومتى ؟ » انتهى .

*

نجيب حضرات الذين تشغلهم هذه المسألة بقولنا :

« إذا رئى توجيه هذا السؤال الى دين قائم ، فلا محل لتوجيهه الى الاسلام ، لأن فى كتابه الجواب الشافى عليه ؛ قال الله تعالى : « إنا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيرا ، وإنْ من أُمة إلا خلا فيها نذير » وإن هنا بمعنى ما ؛ والمعنى : وما من أمة إلا خلا فيها نذير . وقال تعالى : « ولقد أرسلنا رسلا من قبلك ، منهم من قَصَصنا عليك ، ومنهم من لم نَقْصُصْ عليك » .

وهذا كلام صريح فيما نحن بصدده ، مؤداه أن الله لم يحرم أمة من نصيبها فى هداية الرسل ، فأرسل اليهم رسله تترى ليعلّموهم ما يجب عليهم أن يعلموه ويعملوه ، ولكنه لم يقص سِيَرهم أجمعين ؛ والحكمة فى هذا الأمر ظاهرة أجلى ظهور ، فان عدد الرسل الذين أرسلوا من لدن وجود الانسان على الأرض يجب أن يكون من الكثرة بحيث لا تسع أسماءهم وحدها عدة أسفار . وقد جاء الكلام عنهم إجمالا فى آيات كثيرة ؛ قال الله تعالى : « ثم أرسلنا رسلنا تَتْرَى (أى تتوالى) كُلَّما جاء أمةً رسولُها كذَّبوه ، فأتبعنا بعضهم بعضا ، وجعلناهم أحاديث ، فَبُعداً لقوم لايؤمنون » . ومعنى هذا أنهم كذبوا رسل الله واتبعوا أهواءهم ؛ وهذا هو الذى حدث ؛ فان جميع الأساطير المنقولة عن الأمم تدل على أن تلك الجماعات عولوا فى بنائها على أوهامهم ، فلا يأخذنّ باحث من ذلك أنهم حُرموا حظهم من الرسل فضلوا هذا الضلال البعيد .

أما سبب اقتصار القرآن الكريم على ذكر الرسل المعروفين لأتباع الدينين اللذين سبقاه ، فلأن فى ذكر غيرهم إطالة لا محل لها ، يغنى عنها الإجمال الذى أتى به فى هذا الموضوع ، وهو من معجزات القرآن ، فقد علم سبحانه وتعالى أنه سيأتى زمان تتصل فيه الأمم اتصالا وثيقا بما يكتشف من وسائل الانتقال ، فيتساءل الناس : ألم يرسل الله رسلا الى الأمم التى لم يكن بيننا وبينها اتصال ؟ ولِمَ حُرموا ذلك ؟ وربما تولدت من هذه المسألة شبهة على القرآن وفيه قوله تعالى : « ما فرّطنا فى الكتاب من شىء » ، فالإلمام بهذه المسألة فى الكتاب على هذا النحو الشافى الموجز يعتبر آية توجب الدهش لدى علماء الاجتماع ، الذين يعرفون أن الأمم على عهد نزول القرآن كانوا يتخيلون أن العالم ينتهى عند الحدود التى وصلوا اليها ، وأن ما عداهم من الجماعات فهمج رعاع لا يُعنَى بهم الله إلا بقدر ما يعنى بالحيوانات .

ومما يزيد فى عظم شأن هذه الآية ، أن الكتاب الشريف بعد أن ألم بذكر الأمم ، قرر أن الله كان يبعث بالرسل إليهم فكانوا لا يرفعون بهدايتهم رأسا ، وكانوا منهم يسخرون ، فقال تعالى : « وكم أرسلنا من نبى فى الأولين . وما يأتيهم من نبى إلا كانوا به يستهزئون » : وقال تعالى : « وكذلك ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير ، إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون . قال أَوَلو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم ؟ قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون » ، وقال تعالى : « يا حسرةً على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون » . فهذه الآيات ، ومثلها كثير فى القرآن الكريم ، تدفع شبهة لم تكن قد وجدت الى العهد الذى كان يتنزل فيه القرآن ، وهى قولهم إن أديان الجماعات الانسانية فى جميع أدوار التاريخ لم تكن إلا مجموعات من أضاليل ، فلو كانوا حظوا برسل يهدونهم لكانوا أحسن مذاهب مما هم عليه الآن ، فكان فى تأكيد الكتاب أن الله ساوى بينهم وبين سواهم فى الإرسال إليهم ، ولكنهم آثروا أن يحافظوا على أساطيرهم ، وأن ينبذوا ما أتاهم من الوحى ظهريا ، دافع حاسم لهذه الشبهة ، ولا تزال أحوالهم تشهد بصحة هذا الدفع ، فإن جميع الشعوب التى احتك بها الأوربيون فى فتوحاتهم الأمريكية والأقيانوسية والإفريقية ، لا تزال محافظة على أوهامها رغما عما جاءوهم به من التعاليم النصرانية ؛ وليس يخفى أنهم حاولوا تنصيرهم على أساليب شتى ، فلم يصلوا الى ما أرادوا بعد صرفهم قناطير مقنطرة من الأموال فى هذه السبيل . فلا يصح أن يقال بعد هذا إن الله لم يرسل إليهم رسلا .

يتضح من هذا البيان أن السؤال الذى وجهه إلينا بعض الفضلاء فى هذا الشأن ، أجاب عنه القرآن بما لا يدع شيئا فى نفس مرتاب ، وعلى وجه يتفق ومقررات العلم من كل وجه ؟

محمد فريد وجدى

حياة رجالات الإسلام

عبد الله بن مسعود

شيخ العبادلة ، وفقيه المهاجرين الأولين ، وحبر العراقيين ، وإمام المدرسة التشريعية فى الكوفة ، وسادس ستة كانوا أسبق أهل الأرض الى الهداية والخير ، والاستجابة الى كلمة الحق ودعوة اليقين ، وأول من جهر بالقرآن الكريم بمكة ، فصك بقوارعه عنجهية الشرك وطغيان الجبروت ، وصاحب الهجرتين ، والغلام المُعلَّم ، كما لقبه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أول الاسلام ، وجندى بدر الكبرى ، وشاهد مواقع الاسلام بعدها ، وأخو الزبير ابن العوام حوارى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما قبل الهجرة ، وأخو سعد بن معاذ أحد سادات الأنصار فيما بعدها ، ومبعوث الفاروق الى أهل القادسية أستاذاً ومعلما .

ذلكم هو عبد الله بن مسعود ، صاحب سر رسول الله صلى الله عليه وسلم ومِطْهرته ، وحامل نعليه ، يرى منه ما لا يرى جميع الناس ، ويدخل عليه حين يحجب عامة الخلق وخاصتهم فيسمع ما لم يسمعوا ، ويشهد ما لم يشهدوا ، حتى كان أعلم الناس بأحوال النبى صلى الله عليه وسلم ، فى مدخله ومخرجه ، وسفره وحضره ، ونومه ويقظته .

قال العلامة العينى فى شرح البخارى : « وكان النبى صلى الله عليه وسلم خصص ابن مسعود بنفسه اختصاصاً شديداً : كان لا يحجبه رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا جاء ، ولا يخفى عنه سره ، وكان يلج عليه ، ويلبسه نعليه ، ويستره إذا اغتسل ، ويوقظه إذا نام ؛ وكان يعرف فى الصحابة بصاحب السواد والسواك ، وكان يقول له النبى صلى الله عليه وسلم : « أذنتك على أن ترفع الحجاب وتسمع سوادى حتى أنهاك » .

وروى البخارى عن أبى موسى الأشعرى أنه قال : « قدمت أنا وأخى من اليمن فكثنا حينا ما نُرى إلا أن عبد الله بن مسعود رجل من أهل بيت النبى صلى الله عليه وسلم ، لما نرى من دخوله ودخول أمه على النبى صلى الله عليه وسلم » .

وروى الترمذى عن حذيفة « أن ناسا قالوا له : حدثنا بأقرب الناس من رسول الله صلى الله عليه وسلم هديا ودلاً ، نلقاه فنأخذ عنه ونسمع منه ، قال : كان أقرب الناس هديا ودلا وسمتا برسول الله صلى الله عليه وسلم ابن مسعود ، لقد علم المحفوظون من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم أن ابن أم عبد من أقربهم الى الله زلفى » .

وقد كان لهذه الخصيصة أثر ظاهر فى حياة عبد الله بن مسعود العلمية ، جعلت منه أحد أولئك الغر البهاليل الذين حملوا لواء التشريع الاسلامى فى أطراف الأرض ، وخلفوا للانسانية تراثا فكريا خالدا يمدها بما تشاء من قوانين فاضلة ، وسياسة عادلة ، فى أى زمان أو مكان . وقد كان عبد الله بن مسعود فى هذا ملاذاً يرجع اليه أكابر الصحابة فى الفتيا والفقه وأصول الدين ؛ روى ابن سعد فى الطبقات « أن نفرا من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم كانوا فى دار أبى موسى الأشعرى يعرضون مصحفا ، فقام عبد الله بن مسعود فخرج ، فقال أبو مسعود : هذا أعلم من بقى بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم ، فقال أبو موسى : إن يكن كذلك فقد كان يؤذن له إذا حجبنا ، ويشهد إذا غبنا » .

وكان أبو موسى يسمى ابن مسعود « الحبر » ، فقد جاء فى الطبقات عن أبى عطية الهمدانى قال : « كنت جالسا عند عبد الله بن مسعود فأتاه رجل فسأل عن مسألة ، فقال : هل سألت عنها أحدا غيرى ؟ قال : نعم ، سألت أبا موسى ، وأخبره بقوله ، فخالفه عبد الله ، ثم قام فقال : لا تسألونى عن شىء وهذا الحبر بين أظهركم » . وكان عمر بن الخطاب إذا ذكر عبد الله بن مسعود يقول : « كُنَيْف ملئ علماً آثرت به أهل القادسية » . ولما سيّره عمر الى الكوفة معلما وبعث عمارا أميرا ، قال : إنهما من النجباء من أصحاب محمد فاقتدوا بهما . وقال على بن أبى طالب كرم الله وجهه : « لو كنت مؤمِّرا أحدا بغير مشورة لأمّرت ابن أم عبد » . وفى صحيح البخارى عن مسروق قال : ذكر عبد الله (بن مسعود) عند عبد الله بن عمرو فقال : ذاك رجل لا أزال أحبه بعد ما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « استقرءوا القرآن من أربعة : من عبد الله بن مسعود ، فبدأ به » .

وقال مسروق بن الأجدع : « لقد جالست أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم فوجدتهم كالإخاذ (مجتمع الماء) فالإخاذ يروى الرجل ، والإخاذ يروى الرجلين ، والإخاذ يروى العشرة ، والإخاذ يروى المائة ، والإخاذ لو نزل به أهل الأرض لأصدرهم ، فوجدت عبد الله بن مسعود من ذلك الإخاذ » . وفى الحديث الصحيح عن على رضى الله عنه « لَرِجل عبد الله أثقل فى الميزان من أحد » . ويقول بعض التابعين : « جالست أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فما رأيت أحدا أزهد فى الدنيا ولا أرغب فى الآخرة ولا أحب الىّ أن أكون فى صلاحه من ابن مسعود » . وكان عمر بن الخطاب يعظم ابن مسعود تعظيما كبيرا ، فقد روى أن عبد الله بن مسعود رأى رجلا قد أسبل إزاره ، فقال له : ارفع إزارك ، فقال الرجل : وأنت يا بن مسعود فارفع إزارك ، فقال : إنى لست مثلك ، إن بساقى حُموشة وأنا آدم الناس ، فبلغ ذلك عمر ، فضرب الرجل وقال له : أترد على ابن مسعود ؟!

وكان ابن مسعود على ضئولة جسمه يحمل بين جنبيه قلبا جريئا تمثلت فيه شجاعة الأبطال ،

وقد سجل له تاريخ الاسلام فى صحائفه مواقف عظيمة ؛ فقد روى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال يوما لأصحابه : « إنى أمرت أن أقرأ على الجن الليلة ، فمن يتبعنى » ؟ قالها ثلاثا ؛ فأطرقوا إلا عبد الله بن مسعود رضى الله عنه ، قال : « لم يحضر ليلة الجن أحد غيرى فانطلقنا حتى إذا كنا بأعلى مكة فى شعب الحجون ، نخط لى خطا ، وقال : لا تخرج منه حتى أعود إليك ، ثم افتتح القرآن وسمعت لغطا شديدا حتى خفت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وغشيته أسودة كثيرة حالت بينى وبينه حتى ما أسمع صوته ، ثم انقطعوا كقطع السحاب ، فقال لى رسول الله : هل رأيت شيئا ؟ قلت : نعم : رجالا سودا مستثفرى ثياب بيض ، فقال : أولئك جن نصيبين » .

وذكر أصحاب السير أن النبى صلى الله عليه وسلم لما فرغ من غزوة بدر أمر بأبى جهل أن يلتمس فى القتلى ، وقال : « اللهم لا يعجزَنَّك » ، وكان قد عقره معاذ بن عمرو بن الجموح ، فمر به وهو عقير معوّذ بن عفراء ، فضربه حتى أثبته ، ثم تركه وبه رمق ، فمر عبد الله بن مسعود بأبى جهل حين سمع أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يلتمس فى القتلى ، وقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : « انظروا إن خفى عليكم الى أثر جرح بركبته ، فأنى ازدحمت أنا وهو يوما على مأدبة لعبد الله بن جدعان ونحن غلامان ، وكنت أشف منه بيسير ، فدفعته فوقع على ركبتيه نخدش فى إحداها خدشا لم يزل أثره فيها بعد » . فقال عبد الله بن مسعود : فوجدته بآخر رمق فعرفته ، فوضعت رجلى على عنقه — وقد كان ضبث بى مرة بمكة فآذانى ولكزنى ، ثم قلت : هل أخزاك الله يا عدو الله ؟! قال : وبماذا أخزانى ؟ أعمد من رجل قتلتموه ؟! لمن الدبرة اليوم ؟ قلت : لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم ، وكان ابن مسعود يقول كما فى بعض الروايات : إن أبا جهل قال لى لما وضعت رجلى على عنقه : لقد ارتقيت مرتقى صعبا يا رويعى الغنم . ثم احتززت رأسه وجئت به الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت : يا رسول الله ، هذا رأس عدو الله أبى جهل ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : آلله الذى لا إله غيره ؟ — وكانت يمين رسول الله صلى الله عليه وسلم — قلت : نعم والله الذى لا إله غيره ، ثم ألقيت رأسه بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، نحمد الله !

وكان عبد الله بن مسعود من فصحاء الصحابة وخطبائهم الأبيناء ، وله أسلوب فى خطابته يشبه أسلوب أكثم بن صيفى حكيم العرب ، غير أن أكثم بن صيفى ينزع عن حكمة التجارب ووحى الفكر الصادق ، أما عبد الله بن مسعود فانه يمتح من منبع الدين ووحى الروح . وقد روى ابن عبد ربه فى كتابه (العقد) خطبة لعبد الله بن مسعود تؤيد ما ذهبنا اليه فى أسلوبه الخطابى ، قال : « أصدق الحديث كتاب الله ، وأوثق العرى كلمة التوحيد . التقوى خير زاد . أكرم الملل ملة ابراهيم صلى الله عليه وسلم . خير السنن سنة محمد صلى الله عليه وسلم .

شر الأمور محدثاتها . خير الأمور عزائمها . ما قل وكفى خير مما كثر وألهى . لنفس يحميها خير من إمارة لا يحصيها . خير الغنى غنى النفس . خير ما ألقى فى القلب اليقين . الخمر جماع الآثام ، النساء حبائل الشيطان . الشباب شعبة من الجنون . حب الكفاية مفتاح المعجزة . شر من الناس من لا يأتى الجماعة إلا دبرا ، ولا يذكر الله إلا هجرا . سباب المؤمن فسوق ، وقتاله كفر ، وأكل لحمه معصية . من يتألى على الله يكذبه ، ومن يغفر يغفر له . مكتوب فى ديوان المحسنين : من عفا عفى عنه . الشقى من شقى فى بطن أمه . السعيد من وعظ بغيره . الأمور بعواقبها . ملاك الأمر خواتمه ، أحسن الهدى هدى الأنبياء . أقبح الضلالة الضلالة بعد الهدى . أشرف الموت الشهادة . من يعرف البلاء يصبر عليه ، ومن لا يعرف البلاء ينكره » .

وإذا وازنا بين هذه الخطبة وخطبة أكثم بن صيفى بين يدى كسرى ، ظهر لنا جليا مكان المشابهة بين الأسلوبين ، ومنزع كل من الخطيبين . يقول أكثم : « إن أفضل الأشياء اعاليها ، وأعلى الرجال ملوكها ، وأفضل الملوك أعمها نفعا ، وخير الأزمنة أخصبها ، وأفضل الخطباء أصدقها . الصدق منجاة ، والكذب مهواة ، والشر لجاجة ، والحزم مركب صعب ، والعجز مركب وطئ . آفة الرأى الهوى ، والعجز مفتاح الفقر ، وخير الأمور الصبر ، وحسن الظن ورطة ، وسوء الظن عصمة . إصلاح فساد الرعية خير من إصلاح فساد الراعى . من فسدت بطانته كان كالغاص بالماء . شر البلاد بلاد لا أمير بها . شر الملوك من خافه البرىء . أحق الجنود بالنصر من حسنت سريرته . يكفيك من الزاد مابلّغك المحل . حسبك من شر سماعه . البلاغة الإيجاز . من شدد نفّر ، ومن تراخى تألف » .

ولولا اختلاف المنزع وظهور أثر البيئة فى الكلامين ، لصح لزاعم أن يزعم أنهما صدرا من نفس واحدة ؟

صادق ابراهيم عرجون

أحسن الانتقام

قيل لفيلسوف : بم ينتقم الانسان من حاسده ؟ قال : بأن يزداد فضلا فى نفسه .

حقا إن هذا من أشد ضروب الانتقام من الحساد ، وهل ألهب فى قلوبهم نيران الأحقاد إلا ما آنسوه فى المحسود من إقبال الناس عليه ومحبتهم له ، والتحدث بفضائله وفواضله ؟ فاذا أراد أن ينتقم ممن يحسده على ذلك فهل فى وسعه أفضل من أن يزداد تكملا فى نفسه ، ليحصل من حب الناس وتقديرهم أكثر مما له عندهم ؟ ولقد قيل :

ما ضرنى حسد اللئيم ولم يزل ... ذو الفضل يحسده ذوو التقصير

أبو يوسف يعقوب بن اسحاق الكندى

حياته وفلسفته

أصله ونشأته :

هو أبو يوسف يعقوب بن اسحاق بن الصباح بن عمران بن اسماعيل بن محمد بن الأشعث ابن قيس .

وأول من أسلم من آباء الكندى الأشعث بن قيس (انظر طبقات الأمم للقاضى صاعد ص ٥٢) .

وجاء فى كتاب تاريخ بغداد ج ١ ص ١٩٦ ، ١٩٧ : قال ابن الأثير الجزرى : وفد الى رسول الله صلى الله عليه وسلم سنة عشر من الهجرة فى وفد كندة ، وكانوا ستين راكبا فأسلموا ، وكان الأشعث ممن ارتد بعد وفاة النبي ، فسيّر أبو بكر الجنود الى اليمن فأخذوا الأشعث أسيرا ، فأحضر بين يديه ، فقال له : استبقنى لحربك ، وزوجنى بأختك . فأطلقه أبو بكر وزوّجه بأخته ، وهى أم محمد بن الأشعث .

سكن الكوفة وابتنى بها دارا ، وشهد صفين مع على رضى الله عنه ، وكان ممن ألزم عليا بالتحكيم ، وشهد الحكمين بدومة الجندل ، وكان عثمان رضى الله عنه استعمله على أذربيجان ، وكان الحسن بن على تزوج بنته . وتوفى سنة اثنتين وأربعين ، وقيل سنة أربعين .

وأما محمد بن الأشعث ، فقيل : إنه ولد على عهد رسول الله ، واستعمله ابن الزبير على الموصل (أسد الغابة ج ٤ ص ٣١١ ، ٣١٢) . وذكر الزبير بن بكار فى تسمية أولاد على : أن مصعب ابن الزبير لما غزا المختار بعث على مقدمته محمد بن الأشعث وعبيد الله بن على بن أبى طالب فقتلا ، وكان ذلك سنة سبع وستين .

ولمحمد بن الأشعث ولد يسمى عبد الرحمن ، فخرج على الحجاج واستولى على خراسان ، ثم سار الى جهة الحجاج وغلب على الكوفة ، وقويت شوكته . ثم أمدّ عبد الملك الحجاج بالجيوش فانهزم عبد الرحمن ولحق بملك الترك ، وأرسل الحجاج بطلبه وتهدد ملك الترك بالغزو إن أخره ، فقبض ملك الترك على عبد الرحمن وأربعين من أصحابه وبعث بهم الى الحجاج ، فلما نزل فى مكان فى الطريق ألقى عبد الرحمن نفسه من سطح فمات ، وذلك فى سنة خمس وثمانين .

جاء فى مجلة كلية الآداب عدد ديسمبر سنة ١٩٣٣ فى بحث قيم عن الكندى للأستاذ مصطفى عبد الرازق بك قال فيه :

يظهر أن هذا الحادث جنى على منزلة بيت الأشعث بن قيس عند آل مروان ، فخفت ذكرهم في التاريخ حوالى جيلين . من أجل ذلك سكت التاريخ عن اسماعيل بن محمد بن الأشعث أخى عبد الرحمن ، وعن ابنه صمران ، وهما جدان من جدود يعقوب بن إسحاق الكندى . بل قد سكت التاريخ عن شأن الصباح ، اللهم إلا ما جاء فى كتاب أخبار الحكماء نقلا عن ابن جلجل الأندلسى ، وكما جاء أيضا فى كتاب عيون الأنباء فى طبقات الأطباء ، أن يعقوب بن إسحاق الكندى شريف الأصل كان جده ولى الولايات لبنى هاشم .

وإذا كانت صلة بنى الأشعث بن قيس بالخلفاء من بنى مروان قد انقطعت منذ خروج عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث على الحجاج وعبد الملك بن مروان ، فإن بيت الكندى ظل فى الكوفة من بيوتات المجد والحسب الرفيع . ولما تولى الخلافة العباسيون عاد بيت الكندى الى الظهور فى ميدان السياسة والحكم ، فتولى إسحاق بن الصباح الكوفة فى أيام المهدى والرشيد .

والغالب أن الكندى ولد فى مطلع القرن التاسع الميلادى حوالى سنة ٨٠١ م سنة ١٨٥ هـ ، كما رجحه «دى بوير» (فى دائرة المعارف الاسلامية) . أما تاريخ وفاته فلم يعرض لذكره أحد ممن ترجموا له من الأقدمين . وقد حاول المحدثون أن يحددوا ذلك التاريخ من سبيل الاستنباط ، فنهم من جعل موته سنة ٢٤٦ هـ سنة ٨٦٠ م ، كالأستاذ « مسنيون » فى نصوصه الصوفية ؛ ومنهم من جعله نحو سنة ٢٦٠ هـ سنة ٨٧٣ م ، كالأستاذ « نللينو » فى محاضراته فى الفلك ، وتاريخه عند العرب فى القرون الوسطى .

والمرجح أن الكندى ولد فى أعقاب عمر أبيه ، وأن أباه تركه طفلا ، فنشأ فى الكوفة مع أمه فى تراث من السؤدد والغنى ، وفى حضن اليتم ، فدبرت له الأم المال ، ونشأته مقتصدا مرفها غنيا ، ثم ساقته فى سبيل العلم لما أنست من ذكائه وقوة عارضته ، فتعلم علوم اللغة والأدب ، ونهل من علوم الدين شيئاً ، ولكن الطفل كان بفطرته القوية يريد أن يحيط بكل شيء علماً ، فاقتحم أبواب الفلسفة وما اليها من العلوم المنقولة عن القدماء من الفرس واليونان والهند .

ويظهر أن الكندى كان عالماً بالسريانية ، وكان ينقل الكتب منها الى العربية . فقد جاء فى كتاب إخبار العلماء بأخبار الحكماء : ومما اشتهر من كتب بطليموس ، وخرج الى العربية « كتاب الجغرافيا فى المعمور من الأرض » . وهذا الكتاب نقله الكندى الى العربية نقلا جيدا ، ويوجد سريانيا . وفى كتاب طبقات الأطباء نقلا عن أبى معشر : حذاق الترجمة فى الاسلام أربعة : يعقوب بن إسحاق الكندى ، وثابت بن قوة الحرانى ، وعمر بن الفرخان الطبرى ، وحنين بن إسحاق . ومترجمو الكندى يكادون يتفقون على أنه كان كثير الاطلاع .

وفى مواضع متفرقة من كتاب الفهرست ما يدل على أن الكندى كان محيطا بمذاهب

الصابئة ومذاهب الثنوية الكلدانيين . وفى كتاب طبقات الأطباء ج ١ ص ٢٠٧ : أن الكندى كان عظيم المنزلة عند المأمون والمعتصم ، وأنه كان مؤدباً لأحمد بن المعتصم .

ومما يدل على ممارسة الكندى للأدب ما نقلوه عنه من نقد الشعر ، وفى الجدل وأسرار البلاغة العربية ، حتى ذكروا أن له كتابا فى صنعة البلاغة .

وأسلوب الكندى فى الترجمة لما يدرس بعد ، كما أشار الى ذلك الأستاذ مسنيون فى كتابه مجموع نصوص لم تنشر متعلقة بتاريخ التصوف فى بلاد الاسلام ، ص ١٧٥

ولما كان أكثر ما كتب الكندى قد عبثت به يد الضياع ، إلا بقايا توجد فى ترجمات لاتينية ، مثل رسائله فى العقل ، فان على الباحث فى أسلوب الكندى أن يكتفى بالنزر القليل الذى وصل الينا من مؤلفاته بالعربية كرسالته فى كية ملك العرب ، أو ما وصلنا من التراجم التى أصلحها الكندى ، مثل كتاب (أثولوجيا) الذى نقله عبد المسيح بن عبد الله بن ناعمة الحمصى وأصلحه لأحمد بن المعتصم بالله « أبو يوسف يعقوب بن اسحاق الكندى » .

والذى يلاحظ فى اسلوب الكندى اعتمادا على هذه المصادر : أن فيه غموضا يأتى بعضه من أن الألفاظ الاصطلاحية الفلسفية لم تكن استقرت فى نصابها وتحددت معانيها (مجلة كلية الآداب ديسمبر سنة ١٩٣٣) . بعد أن ترك الكندى الاشتغال بفنون الأدب وعلوم الكلام انصرف الى الحكمة فنبغ فى علومها ، وصار كما يقول « مسنيون » إمام أول مذهب فلسفى إسلامى فى بغداد ، واليه يرجع الفضل فى تحرير جملة من التراجم العربية لمصنفات يونانية فى الفلسفة . ونسب اليه المترجمون من الكتب فى الموضوعات المختلفة سبعة عشر نوعا .

ويقول ظهير الدين البيهقى فى كتابه تاريخ الحكماء ص ١٨ : جمع الكندى فى بعض تصانيفه بين أصول الشرع وأصول المعقولات .

ويقول « ده بوير » عند ترجمته للكندى : إن كوردان (Gurdan) وهو فيلسوف من فلاسفة النهضة (La Renaissance) يعد الكندى واحدا من اثنى عشر هم أنفذ الناس عقلا ، وأنه كان فى القرون الوسطى يعتبر واحدا من ثمانية هم أئمة العلوم الفلكية . ويقول ده بوير أيضا : إن الكندى كان مولعا بتطبيق الرياضيات لا فى العلم الطبيعى وحده ، ولكن فى الطب أيضا . فهو مثلا يفسر عمل الأدوية المركبة بالتناسب الهندسى الحادث من مزاج صفاتها الحسية : أى الحرارة ، والبرودة ، واليبوسة ، والرطوبة .

ولقد دفع الولع بالكندى فى الرياضيات الى أن كان يجعل من اللحون الموسيقية طبا لبعض الأمراض . وعلم الموسيقى كان يومئذ معتبرا فرعا من الفروع الرياضية ؛ وكان الكندى عالما بالموسيقى وبالطب ، وله فيهما مؤلفات ، كما سبق أن أوضحناه .

عنى الكندى بالكيمياء ، وأبطل دعوى الذين يدعون صنعة الذهب والفضة ، وترجم

الكندي رسالة : «إبطال دعوى المدعين صنعة الذهب والفضة من غير معادنها» . وقد نقض هذه الرسالة على الكندي «أبو بكر محمد بن زكريا الرازي»

وللكندي دراية تامة بالجغرافيا، إلا أن كتبه في هذا العلم ضاعت فيما ضاع من كتبه، وكانت مرجعا لمن جاء بعده من المؤلفين . ونجد في كتب المسعودي نماذج منها .

الكندي والفلسفة :

الكندي يقول عن الفلسفة فيما روى عنه ابن نباته المصري :

علوم الفلسفة ثلاثة : (فأولها) العلم الرياضي في التعليم، وهو أوسطها في الطبع. و(الثاني) علم الطبيعيات ، وهو أسفلها في الطبع . و (الثالث) علم الربوبية ، وهو أعلاها في الطبع .

وللكندي الفضل الأول في توجيه الفلسفة الاسلامية وجهة الجمع بين أفلاطون وأرسطو، وهو الذي وجهها في سبيل التوفيق بين الفلسفة والدين .

ويجدر بنا في هذا المقام أن نقف على التيارات المختلفة لهذا التوفيق الفلسفي .

موقف الكندي من علم الكلام :

تمثل الكندي كل ما كان في عصره من علم . وآراؤه في المسائل الكلامية فيها نزعة المعتزلة . ويذكر القفطي وابن أبي أصيبعة للكندي كتابا في أن أفعال الباري كلها عدل لا جور فيها. ويذكر أن له كتبا في التوحيد والعدل ، والتوحيد أكبر أصلين من أصول المعتزلة .

وله كتاب في إثبات النبوة على سبيل أصحاب المنطق ، وكان يحاول في نظرية النبوة التوفيق بينها وبين العقل . وقد عارض الكندي في رأيه في كتابه هذا نظرية كانت تنسب الى البراهمة أساسها أن العقل وحده يكفي مصدرا للمعارف البشرية .

موقفه من الرياضيات :

للكندي رسالة في أنه لا تنال الفلسفة إلا بعلم الرياضة ؛ وفلسفته في هذا الباب مزيج من الأفلاطونية الحديثة ، والفيثاغورية الجديدة .

موقفه من الله والعالم والنفس :

كان الكندي يذهب الى أن العالم مخلوق لله ، وفعل الله في العالم إنما هو بوسائط كثيرة ، فالأعلى يؤثر فيما دونه ؛ أما المعلول فلا يؤثر في العلة لأنها أرقى منه في مرتبة الوجود ، وكل ما يقع في الكون يرتبط بعضه ببعض ارتباط علة بمعلول ؛ ونستطيع من معرفة العلل التنبؤ بالمستقبل . ويذهب الكندي الى أن نفس الانسان جوهر بسيط غير فانٍ هبط من عالم العقل الى عالم الحس (وفي المكتبة التيمورية بدار الكتب رسالة للكندي في النفس رقم ٥٥

موقفه من نظرية العقل :

يذهب الكندي إلى أن معارفنا إما أن تكون حسية ، وإما أن تكون عقلية ، والحواس تدرك الجزئي أو الصورة المادية ، على حين أن العقل يدرك الكلي ، ويدرك الجنس والنوع ، أي الصورة العقلية .

هذه النظرية التي استحدثها الفيلسوف الكندي أخذت مكانا كبيرا عند فلاسفة المسلمين. (انظر رسالة في معنى العقل عند الأقدمين للكندي) ترجمها من اللاتينية الى العربية الأستاذ يوسف كرم المدرس بكلية الآداب

ويرجع الفضل في تكوين ثقافة الكندي الفلسفية الى أخذه بتعاليم أفلاطون وارسطو،حتى إنه قيل إنه لم يكن في الاسلام فيلسوف احتذى في تأليفه حذو أرسطاليس غير الكندي .

شخصية الكندي من وراء كتبه ونظرياته :

كان الكندي هادئا في حياته ، آخذا بأسباب الاقتصاد والنظام ، وسياسة النفس، ومجاهدة شهواتها . ومن حكمه المأثورة :

« اعص الهوى وأطع ما شئت » « لا تنجو مما تكرهه حتى تمتنع عن كثير مما تحب وتريد ».

والكندي كان يستوحي فكره ، ويستلهم ذكاءه الحاد ،وما تنطوي عليه نفسه الكبيرة من صفات فتتحكم في اتجاهه العقلي . فكان من نتيجة ذلك هذه الصور الذهنية الفلسفية المختلفة التي أخرجت للعالم نظاما فلسفيا قائما لا يزال محترما بين العلماء الى اليوم ، إلا أنه يكاد يستحيل على الباحث في المذاهب الفلسفية للكندي أن يرجعها الى أصل واحد ، أو أصول معينة فلسفية ؛ لأن هذا الرجل الغامض ، والذي يعد بحق أكبر فلاسفة العرب ، قد أخذ من كل أصل بطرف ، بل غذى مذهبه بمذاهب تشعبت طرقها ، واختلفت وتناقضت كل التناقض ، فلم يترك خيطا من خيوط التفكير الفلسفي إلا نسجه في مذهبه . فقد جمع الكندي في فلسفته أصولا ترجع لفلاسفة اليونان ومتقدمي العلماء من المتكلمين في الاسلام . فترى في هذا المزيج الأفكار اليونانية بجانب الأفكار الاسلامية البحتة . كل ذلك يضطرنا الى الاعتراف بما كان للرجل من صدق الحس وثقوب النظر في استخراج الحقائق .

لم يقتصر هذا الفيلسوف القانع من الحياة بالصمت في بيته ، والذي كان بيته أشبه البيوت ببيت الناسك ، إلا أن يحارب نزعات الأنانية والاستسلام للذات النفس ، فوضع دستوراً لحدود النفس أمام مفاسد الحياة وما يعتورها من تفسخ وانحلال .

يقول الجاحظ « في كتاب البخلاء » : إن الكندي كان بخيلا . فاذا كان ذلك صحيحا فإن ما قدمناه من سخائه ، وما بذله طول حياته من وقت وصحة ، ثروة لا تفنى ، خلفها للانسانية تبقى ما بقي الدهر ؟

عبد الحميد سامي بيومي

صفحات مختارة لأقطاب الفلسفة العصرية

لماذا أنا متدين ؟

يجيب الفيلسوف ساباتييه بقوله : « لأنى لا أستطيع أن أكون غير ذلك »

بذلت الفلسفة الإلحادية فى أوربا جهد المستبسل فى هدم صرح الدين ، واستعملت لذلك كل معول وصلت اليه يدها ، حتى ما لا يصح التعويل عليه من وسائل التضليل والتزوير فى مقررات العلم ، وقد أثرت فلسفتهم تأثيرا عظيما فى الذين لم يؤتوا القدرة على دحض الشبهات ، وقد أصابنا رشاش من طامّاتهم هنا ، فرأينا أن من أحسن الذرائع لإبطال مزاعمهم نقل ماصدر ضد هذه الحركة المشؤومة من أقطاب الفلسفة الغربية ، ليعرف الذين غرهم ظاهر هذه الشبهات منا أنها لا تصلح لهدم الدين ، بشهادة من هم أقرب من هؤلاء الملاحدة الى صميم العلم ، وأحذق منهم بصياغة الأدلة .

فنتحف قراء مجلة الأزهر اليوم بترجمة المقال الأول من كتاب جليل القدر للفيلسوف الكبير (أجوست ساباتييه) الفرنسى المدرس بجامعة باريس ، يُدعى (فلسفة الدين) ، كافح فيه شبهات الملحدين كفاحا موفقا كان سببا فى اعتبار كتابه علما من أعلام عهد جديد للعاطفة الدينية . قال تحت عنوان :

تأملات انتقادية أولية

« لماذا أنا متدين ؟ إنى ما أثرت هذه المسألة إلا تأديت لأن أجيب عليها جوابا واحدا وهو : أنا متدين لأنى لا أستطيع أن أكون غير ذلك . فان التدين حاجة من حاجات وجودى . يقولون لى : هذا من تأثير الوراثة أو التربية أو المزاج . وقد اعترضت بذلك على نفسى . ولكن تعليل المسألة على هذا الوجه يقهقرها ولا يحلها .

« إن الحاجة الى التدين التى أشاهدها فى حياتى الشخصية ، أشاهدها فى الحياة الاجتماعية للانسانية أكثر قوة . فان الانسانية ليست بأقل منى تعلقا بالعاطفة الدينية . فعبثا يعترض عليها بأن الديانات التى أخذت بها وتركتها ، قد خدعتها الواحدة بعد الأخرى ؛ وسُدًى يهدم لها نقد الفلاسفة والعلماء خرافاتها وأصولها الاعتقادية ، وباطلا يصور لها ما تركته الأديان فى تاريخ البشرية من آثار فظيعة للدماء والنيران ؛ فان الدين لا يزل باقيا وماثلا فى جميع أدوار الثقافة العلمية ، وجميع الانقلابات الثورية ، مثله كمثل نبات شديد الحيوية اجتث ألف مرة من

سطح الأرض ، ولـكن جذوره العميقة أعادته الى ما كان عليه قويا ذا أفنان وريقة . فمن أين أتت الدين هذه الحيوية التى لا ينضب معينها ؟ وما هى علة عمومية الدين وخلوده ؟

« أنا لا أستطيع أن أفسر هذا الأمر لنفسى إلا بمحاولة إيضاح وتحقيق آرائى فى الأصول النفسية التى ترتكز عليها العاطفة الدينية ، وفى جوهرها نفسه . سيكون هـذا موضوع تأملاتى الأولية .

« قبل التورط فى هـذا البحث ، يجب علىّ أن أبعد سببا خصبا من أسباب إساءة الفهم والوقوع فى الأخطاء ، وخاصة لدى الشعوب اللاتينية . هذه الأسباب مثارها كلمة (الدين) نفسها . فانها لا تعيّن الظاهرة النفسية المراد دراستها إلا تعيينا سيئاً جدا ، لأنها تحيط هـذه الظاهرة بآراء تبعية ، وأحيانا غريبة عنها ، تضلل الذين هم من الثقافة العلمية فى درجة متوسطة . وقد أتتنا هذه الكلمة من شعب هو أقل شعوب الأرض تدينا . وليس لها مرادف لا فى لغة العبرانيين القدماء ، ولا فى لغات اليونانيين والجرمانيين والسلتيين والهنديين ، وأعنى بهؤلاء الأممَ الانسانيةَ التى ثبت أنها من الناحية الدينية أعرق الشعوب وأكثرها تجديدا فيها . إن روما هى التى فرضت هذا اللفظ علينا ، كما فرضت علينا لغتها وعقليتها ونظمها .

« فالمسيحيون الأولون لم يكونوا يعرفونه ، وليس له وجود فى كتب العهد الجديد . ولما دخل فى القرن الثالث فى اللهجة المسيحية كابد ضربا من التنصير ، واكتسب معنى يتفق وروح الانجيل . فعرّف لاكتانس الدين بقوله : « هو العلاقة التى تجمع بين الانسان وربه » . ولـكن هذا اللفظ عند كتّاب روما القدامى لم يكن له هذا المعنى الباطنى العميق . فبدلا من أن يعين لاكتانس الناحية الصحيحة الشخصية لـكلمة دين ، ويشير الى أنها تعنى ظاهرة نفسية متنزلة من الروح ، حدّها من ناحيتها الظاهرية ، معتبرا إياها مجموعة تقاليد ونظم اجتماعية موروثة عن الأقدمين . وتنصير هـذا اللفظ لدى المسيحيين لم يمح منه هـذا المعنى ذا الأصل الرومانى . والدين لدى السواد الأعظم من الناس الى اليوم لا يعنى إلا مجموعة طقوس تقليدية ، واعتقادات فيما فوق الشئون الطبيعية ، ونظما سياسية . فهو كنيسة تملك الأسرار الإلهية ، وتقوم على نظام من الرتب الـكهنوتية ، لتهـذيب الأرواح الآدمية . هـذا هو الشكل الذى أدركت العقلية الرومانية الديانة المسيحية عليه ، وحققت وجودها فى العالم الغربى . والسلطان الذى تتمتع به كلمة الدين من الناحية السياسية والاجتماعية على أكثر العقول استنارة ، تقر ماذهب اليه المسيو برونتيير حينما أراد التنبيه على سمو الـكاثوليـكية على البروتستانتية حيث اكتفى ، متابعا فى ذلك (بوسويت) ، بقوله : إنها أكمل شكل لحكم الشعوب .

« وفى العصور والبلاد التى تغلب فيها هـذا الوصف السياسى للدين ، ظهر بضرب من ضروب الضرورة المنطقية تعليل من قبيـله لتولد الدين فى الجماعات الانسانية . فقـد قالوا :

لما كان الدين يصلح لحكم الشعوب على حالة توجب الإعجاب ، فقد اخترع إذاً للوصول الى هذه الغاية . فهو عمل القساوسة والبراطرة الذين أرادوا بهـذه الوسيلة تثبيت سلطانهم ، وضمان استمراره . على هذه العقيدة كان الرومانيون على عهد شيشرون ، والفلاسفة فى القرن الثامن عشر . ولم تعوز المدافعين عن هـذا الرأى الأدلة عليه . فن المحقق أن الدين كثيرا ما سُخر لخدمة السياسة ، وأنه قد ثبت أنه أداة عجيبة للحكم . وقد فُضحت تدليسات لابسة لبوس التقوى فى تواريخ جميع الأديان .

« ولـكن ماذا تثبت هذه الحوادث مهما بلغ عـددها المركوم ؟ إنه ليست التدليسات اللابسة لبوس التقوى هى التى أوجدت الدين ، لأنه لولاه لما راجت تدليسات من هذا النوع . فاذا قيل : إن القساوسة هم الذين أوجدوا الدين ، فأنا أسألهم بدورى : وما الذى أوجب وجود القساوسة ؟ أليس لأجل أن توجد القسيسية ، ولأجل أن يجد هذا الاختراع فى الشعوب كلها مشاركةً عامة فى اعتباره ، يجب أن يكون ثاويا فى سويداء القلوب عاطفة دينية ، نحلت هـذا الاختراع صبغة مقدسـة ؟ نعم ، فيجب قلب وضع العبارتين ، والقول بأنه ليست القسيسية هى التى تفسر وجود الدين ، ولـكن الدين هو الذى يعلل وجود القسيسية .

***

« النظرية التى وضعتها الفلسفة الوضعية أعمق معنى ، وأكثر تماسكا . قالوا إن الدين الذى كان موجودا فى أول وجود العالم لم يكن إلا تفسيرا ساذجا للظواهر الطبيعية العجيبة التى كانت تدهش الانسان الجاهل وتزعجه . فهو بداية العلم وصورته الطفلية . وهـذه الصورة يجب أن تترك مكانها على توالى الأحقاب لصور أخرى أرق منها وأكثر إتقانا . ولقد عهدنا الأطفال والمتوحشين يمنحون حياة روحية لـكل ما يحيط بهم . فهم يتخيلون وجود إرادات فعالة خلف جميع الظواهر التى تثير عندهم الخوف أو الرجاء . وبنـاء على هـذا عمدت مخيلة الأناسى الأولين الى ملء الوجود بعدد لايحصى من الأرواح الخيرة والشريرة ، وتوهموا أنهم يتأثرون بأعمالهم الخفية فى كل صغيرة وكبيرة مما يصيبهم . وقد رأينا الساعة كيف عللوا وجود الدين بوجود القسيسية ؛ وأمامنا الآن تفسير لوجود الدين بسبب وجود الأساطير الخرافية . ولـكن يغيب عنهم أن هذا يلزم منه الدور والتسلسل نفسه الذى تقع فيه بسيكولوجيا ناقصة تخلط بين العلة ومعلولها .

« القول بأن الدين ضرب من العـلم ، يعتبر خطأً لا يقل فى خطورته عن القول بأنه نوع من النظم السياسية . نعم ، مما لا مشاحة فيه أن العقيدة الدينية تكون مصاحبة دائما لشىء من العلم ، ولـكن هذا العنصر العقلى مهما ظهر أنه ضرورى للعقيدة ، فهو ليس فى شىء من مادتها ولا من جوهرها ، وأنه يتغير على الدوام فى أدوار الانتقالات الدينية . والصيغ

المذهبية ، والعبارات الأصولية ، هى وسائل للتعبير والتربية يستخدمها الدين لأغراضه ، ولكن يمكن أن يحل بعضها محل البعض الآخر فى أعقاب كل أزمة فلسفية . فالشعائر والمعتقدات قد تضعف أو تزول ، ولكن الدين يبقى على ما هو عليه من القوة بحيث لا يتأتى لأية صورة خارجية أو فكرة اعتقادية أن تستنفد مادته الجوهرية .

« يعرف الناس نظرية الأدوار الثلاثة التى مر بها الفكر الانسانى فيما ذهب إليه أجوست كومت وتلاميذه ، وهى : الدور اللاهوتى فى العصور الأوليـة ، ودور ما وراء الطبيعة فى القرون الوسطى ، والدور العلمى فى العهد الراهن . فاذا كان الدين فى جوهره علما ، لكان سرى عليه ما تقتضيه هذه القاعدة المنطقية من أدوار التطور ، وهو زوال الصورة الساذجة من العلم ليحل محلها صورة أرقى منها . والدليل على أن أمر الدين ليس من هذا فى شىء ، بقاء الدين وظهوره فى جميع العهود ، وفى درجات من الثقافة متباينة كل التباين . والذى يجب أن يتنبه له أن هذه الأدوار الثلاثة المذكورة آنفا ليست متعاقبة ، ولكنها توجد كلها فى وقت واحد . فهى لا تقابل ثلاثة عهود من التاريخ ، ولكنها تقابل ثلاث حالات مستمرة للروح الانسانية . فانك تجدها مجتمعة على درجات متخالفة فى العهد القديم لدى سقراط وأفلاطون وأرسطو ، وتجدها فى العهد الحديث لدى ديكارت وباسكال وليبنتز وكنت وكلود برنار وباستور . وبقدر ما يترقى العلم ويدرك أسلوبه الصحيح وحدوده ، يتميز عن الفلسفة وعن الدين . فليس من الدين البحث العلمى الذى لا يرمى إلا الى تحديد الظواهر وشروط حدوثها فى الزمان والمكان ؛ وليس من الدين كذلك الحاجة الفلسفية لفهم الوجود باعتبار أنه مجموعة كونية يمكن فهمها ، وتفسير كل ما هو موجود على أساس من التعليل الصحيح ؛ وليس من الدين أيضا الحاجة الاعتقادية التى إذا فهمت على حقيقتها لم تكن إلا مظهراً أدبيا للغريزة التى تحمل كل كائن على التشبث بالخلود . فكيف لا تظهر هذه الميول المختلفة للنفس فى آن واحد ، وعلى سموت متوازية ، وهى موجودة معا فى الجبلة الانسانية وفى كل زمان ؟

« فهل لنا أن نذهب للبحث عن أمثلة وأدلة لاستمرار العاطفة الدينية عند من هم أجدر بذلك من أشياع الفلسفة الوضعية أنفسهم ؟

« إن أجوست كومت وهربرت سبنسر وليتريه سيكونون شهودنا العدول على صدق ما نقول . فزعيم الفلسفة الوضعية (يريد اجوست كومت) الذى كان قد أنبأ بالانطفاء المحتم للعاطفة الدينية فى النفس الانسانية ، توج مذهبه وختم حياته العلمية بتأسيس ديانة جديدة ، نسجها بقلة مهارة على النظام الكهنوتى ، وطقوس الكاثوليكية الرومانية . نعم ، قد تأسست كنيسة للفلسفة الوضعية تؤدى فيها العبادة لقديسين ، ولها حفلات مقدسة وأعياد سنوية ، وكتاب تعاليم دينية ، على رأسها قس كبير ليس بأقل عصمة من الحبر القائم فى روما ، الأمر

الذى هاج على اجوست كومت بعض تلاميذه من جراء محاولته هذه ، وأرادوا الاعتذار عنه باتهامه بالجنون . ولكن هذا الاتهام يكذبه الواقع . والحقيقة هى أن اجوست كومت بعد ما فرغ من بناء مذهبه الاجتماعى ، أدرك الدور الذى تقوم به العاطفة والغريزة الدينية فى حياة الشعوب ، فرأى أنه لا يستطيع تدعيم بناء الجماعة المستقبلة إلا بالدين ، فأتاها به على أسلوبه . إنه ليقال إن بعض المبتورين يحسون بحكة شديدة فى مكان أعضائهم المقطوعة ، ويظهر أن اجوست كومت وتلاميذه الذين اتبعوه قد شعروا بما يشبه هذه الحكة ، فأحدثوا ما أحدثوه ، فتكون الطبيعة فى سخريتها بالمستخفين بها قد انتقمت منهم على ما ارتكبوه ضدها من العنف العظيم .

« ولسنا بحاجة لإطالة الكلام فى هربرت سبنسر ، فالناس يعلمون ما آل إليه فى مذهبه قوله (بالموجود الذى لا يمكن إدراكه) من اعتباره قوة غير محدودة ، ولا واعية ، تندّ عن مآخذ التفكير ، ولكنها مع ذلك فى نظره العلة المفسرة لكل تطور ، والينبوع المدّ الذى يستمد منه كل شىء وجوده . فبصرف النظر عن اختلاف الأشياء ، ألسنا نرى فى هذا القول المذهب القديم فى وجوب وجود علة أولية للوجود ، وصورة غير واضحة للإله الذى يقول به المؤمنون ؟ فهل ندهش من أن يصل المفكر الانجليزى على هذا النحو الى إعلان الدين الخالد ، وإلى حصر الحياة العقلية للانسان فى جهدين أصليين أولين : أولهما الجهد العلمى الذى يتعقب الظواهر الطبيعية واستحالاتها ، وثانيهما الجهد الدينى الذى يعمل على التأمل الباطنى والعبادة الصامتة للموجود العام ؟

« أما ليتريه فأمره أشد تأثيرا على النفس . فانى أذكر أنى قرأت له صفحة فخمة فى بعض مؤلفاته مؤداها أنه بعد أن طاف الأرض الثابتة للمعارف المحسوسة ، ووصل الى نهايتها القصوى ، جلس على قمة مرتفعة لقطعة من الأرض ممتدة الى البحر ؛ وهنالك وجد نفسه محاطا بالمساتير من كل مكان كأنها محيط لا ساحل له ، وليس لديه لأجل أن يكشف حقيقته سفينة ولا شراع ولا بوصلة ، فوقف يتأمله ، فاعتراه خشوع أمام هذا المجهول ، واستسلم لحركة من العبادة والثقة جددت لفكره قواه ، وأنزلت على قلبه السكينة والسلام . فسألت نفسى عند ذاك : ما معنى هذا التأمل فى هذا المستور الكبير إن لم يكن انفجارا فجائيا للعاطفة الدينية التى زادها العلم المحسوس قوة بدل أن يطفىء جذوتها ؟ وبما أننا هنا حيال ديانة الموجود الذى لا يمكن إدراكه أفلا يعتبر هذا المذهب من الأدلة على أن الدين ليس بعلم ولكنه غريزة ؟

« قد وصلت الآن ، وإن كان هذا المذهب أقدم مما مر ، فإنه يوصل الى ما يقرب من الغاية التى نرمى إليها . فقد قال شاعر لاتينى : (إن الخوف هو الذى ولّد الآلهة) . هذا التعليل إذا فهم على بعض الوجوه فهو صحيح . ذلك أنه مما لا مشاحة فيه أن عاطفة التدين تنبهت فى قلب

الانسان تحت تأثير الخوف الذي سببته له القوى الطبيعية الأولية المضطربة حوله . فانه وقد قذف به عارى الجسم ومجردا من السلاح على كوكب قريب العهد بالبرودة بعد أن كان نارا تتلظى ، كان يمشى وهو يرجف على أرض لا تزال تضطرب تحت قدميه ، واقعا فى حالة من الفاقة والبؤس تملأ فؤاده بذعر عظيم . نعم ولكن يجب إتمام هذا التعليل ، فإن الخوف وحده ليس فى ذاته فى شىء من الدين ، إذا أنه يشل القـوى ، ويطمس العقل ، ويسحق الانسان . فلأجل أن يكون الخوف خصبا من الناحية الدينية، يجب أن يلابسه من لدن وجوده شعور مضاد له ، أى بصيص من الأمل . يجب أن يشعر الانسان وهو بين براثن الوجل بإمكان التغلب عليه ، أعنى أن يؤمل أن يجد فوقه عونا يدفع عنه ما يتوقعه من خطر . وبناء على هذا فالخوف لا يولد الدين عند الانسان إلا لأنه يوقظ فيه الأمل ، ويلهمه الدعاء الذى يفتح لنوازله متسرّبا . هذا هو الصحيح من هذا الافتراض القديم . وهو يقربنا من الينبوع الذى نبحث عنه بوضعنا فى المجال العملى للحياة ، لا فى دائرة النظريات العلمية . فالأمر الذى يعنى الانسان من الدين هو نجاته من العطب ، فاذا ظهر أحيانا أنه يحاول بواسـطته أن يدرك سر الوجود ، فليس ذلك إلا ليحل بهذه الوسيلة سر حياته الشخصية . ونحن بعد أن وصلنا الى هذه النقطة يجب علينا أن نزيد هذه المسألة محاولة . فيتعين علينا أن نرى كيف ينبع الشعور الدينى من خلال المتناقضات الأساسية . وهو ما سنصل اليه بتحليل بسيكولوجى يستطيع كل إنسان أن يتابعه ، وأن يحققه بسهولة إذا كان ممن يملكون القدرة على ذلك بالاعتماد على تجاربهم الخاصة .

* * *

(مجلة الأزهر) : هذه محاولة فلسفية تعتبر أبدع ما أنتجته الفلسفة الأوربية لإثبات أن الدين غريزة طبيعية فى النفس البشرية ، فانظر كيف تتأدى الفلسفة العالية الى تأييد الـكتاب المجيد ؟ أليس كل ما فى هذا البحث الجليل محصورا فى قوله تعالى : « فأقم وجهك للدين حنيفا (فطرةَ الله) التى فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيّم ، ولـكن أكثر الناس لا يعلمون » ؟

محمد فريد وجدى

الكلام والمتكلمون

— ٤ —

المعـــــتزلة

تتمة الحديث عن مشاهير زعمائهم :

النظام :

هو أبو إسحاق ابراهيم بن سيار بن هانى . وقد لقبه الجرجانى بأحد شياطين القدرية ، ولا يعرف ما لدينا من كتب التاريخ المعتمدة متى ولد ، وإنما كل ما يعرف عن حياته الخاصة هو أنه نشأ فى البصرة وتلق النظر على أبى الهذيل العلاف وتابعه فى حملته على المانوية ، وأنه عنى عناية فائقة بالرد على الدهرية ، بل كرس لذلك شطرا عظيما من حياته ومجهوداته ، وأنه أمضى السنين الخصبة الأخيرة من حياته فى بغداد ، وأنه طالما اشتعل لهيب الجدل فى تلك الحاضرة بينه وبين زعماء المرجئة والجبرية ، وأهـل السنة والفقهاء ، وأنه حينما اشتهر بعلمه وذكائه انفصل عن مجلس أستاذه أبى الهذيل وأسس مذهبه الخاص الذى كان له على معتزلة بغداد أثر عظيم الشأن ، وأنه هو الذى خلق أهم المشكلات التى كانت موضع الجدل فى عصره ، وهو الذى وجه أعوص الاعتراضات الى أهل السنة ، وأن خصومه كانوا يشنعون عليه زاعمين أنه دهرى رغم ما صوبه إلى الدهرية من سهام الطعن والتجريح ، وأن الخليفة المأمون كان يشغف بسماع مناظراته مع أبى الهذيل . وقصارى القول أنه كان حوالى سنة ٢٢٠ هـ ساطعا فى سماء البيئات العربية المثقفة ، وأنه توفى فيما بين سنتى ٢٢٠ و ٢٣٠ هـ — ٨٣٥ و ٨٤٥ م .

أما آراؤه الخاصة فقد كانت متأثرة بالفلسفة الى حد بعيد كآراء كل معتزلة عصر الترجمة . ولهذا يحدثنا الشهرستانى أنه قرأ كثيرا من كتب الفلاسفة وخلط آراءهم بآراء المعتزلة .

غير أنه لما كانت كتبه قد فقدت ولم يبق منها إلا شذرات متفرقة نقلها الينا عنه تلميذه الجاحظ ، فاننا نرى أنفسنا مضطرين الى الاحتياط مما نسب اليه من آراء ، لاسيما وأن مؤرخى الحركة العقلية عنـد العرب قد عزوا اليه آراء كثيرة بعضها مختلق ، والبعض الآخر مشوه أو محرّف ، ونموذج ذلك التشويه ما نسبه اليه البغدادى فى كتابه « الفَرْق » من آراء تعتبر كما يقول أحـد المستشرقين — غاية فى الزيف والتضليل وسوء النية . ويرجح أن يـكون البغدادى قد نقلها عن ابن الراوندى .

ينبغى ، قبل أن نجمل آراء النظام الخاصة ، أن نشير الى أن فـكرتين هامتين قد غلبتا

عنـده كل ما عداها، وهما : فـكرة التوحيد البرىء من جميع شبه التعـدد وعلائق التألف مهما ضؤلت ، وعلى أى حال فرضت ؛ وفـكرة جعل القرآن هو المصدر الأوحد للإلهيات والأخلاقيات ، وقد أدخلته هـذه المغالاة فى مخاصمات عنيفة مع جميع الفرق المعاصرة له حتى المعتزلة أنفسهم .

يتلخص أهم هذه الآراء التى انفرد بها فيما يلى :

(١) قوله بأن القبح ليس مقدورا لله . وحجته فى ذلك أن الأولين قالوا : إن الله قادر على الأفعال القبيحة ، ولـكنه لا يفعلها لقبحها . فقـال لهم : إذا كان القبح مانعا من نسبة الفعل اليه ، فانه يجب أن يكون مانعا من نسبة الإمـكان اليه أيضا . ولما اعترض عليه بأن هـذا يستلزم أن تحد قدرة الله ، أجاب بأن القول الآخر يستلزم أن يحـد فعله ، ولا فرق بين الحالتين .

(٢) قوله إن الانسان فى الحقيقـة هو النفس ، والبـدن قالبها ، وإن الروح جسم لطيف مشابك للبدن ، مداخل له بأجزائه مداخلة المائية فى الورد ، والدهنية فى السمسم ، والسمنية فى اللبن (١) .

ويعلق الشهرستانى على هذا الرأى بما يفهم منه أن مبدأه محاكاة للفلاسفة «الميتافيزيكيين» ، ولـكن النظام قصر عن فهم مبادئهم ، فمال الى الطبيعيين منهم وجاراهم فيما قرروه . ولو أن النظام كان قد قرر أن الروح فى البدن كالماء فى الورد ، والدهن فى السمسم ، والسمن فى اللبن ، لـكان ما رماه به الشهرستانى صحيحا . ولـكن بما أنه يقرر أن الروح فى البـدن كالمائية والدهنية والسمنية ، والفرق بين النوعين جلى ، فنحن نرى أنفسنا بازاء هذا مضطرين الى الاحتياط من تهمة الشهرستانى .

(٣) قوله بنظرية الظهور والـكمون التى طعن عليه من أجلها كثير من خصومه الذين لم يفهموه ، والتى لم تكن فى الحقيقة إلا معْوَلا قاسيا استعمله فى هدم مذهب الدهرية .

(٤) تصريحه بأن إعجاز القرآن منحصر فيما أنبأنا به من أخبار ماضية ومعلومات ضرورية لنا ، وما احتواه من مغيبات وأسرار ، لا فى أسلوبه الذى كان من الممكن أن يحاكيه البشر لو لم يصرفهم الله عن هذه المحاكاة .

ولا يخفى أن مصدر هـذا الرأى هندى ، إذ أن بعض كهنة البراهمة قرروا أن محاكاة كتابهم المقدس « الفيدا » ممكنة ولـكن إلههم صرف المتحدّين عن هذه المحاكاة .

(١) انظر صفحة ٦٢ من الجزء الاول من الشهرستانى .

(٥) قوله بأن كل شىء فى الكون خاضع لناموس طبيعى ، ولا يوجد بين الكائنات كائن حر فى فعله وتركه إلا الانسان وحده .

(٦) رأيه القائل بنفى الجزء الذى لا يتجزأ ، وبقبول الأجسام انقسامات لا تتناهى .

(٧) قوله بأن الأعراض ، من طعوم وألوان وروائح ، أجسامٌ . وهذا الرأى الأخير متأثر برأى « الذَّرِّيين » من فلاسفة الاغريق القائل بأن الطعوم والألوان والروائح مؤلفة من ذرات اجتمعت بكميات معينة وعلى حالة خاصة .

(٨) تصريحه بأن كلام الإله جسم مخلوق ، وكلام الانسان أعراض . وغير ذلك من الآراء التى قد يكون غيره شاركه فيها ، ولكنها لم تشتهر عن هذا الغير اشتهارها عنه .

فضل بن الحدثى واحمد بن حابط :

هما من تلاميذ النظام ، وقد زادا على مذهبه أن للعالم خالقين : أحدهما قديم وهو البارى ، وثانيهما محدث وهو المسيح ، بدليل قول القرآن : « إذ تخلق من الطين كهيئة الطير » ، وأن المسيح هو الذى سيحاسب الناس يوم القيامة ، وأنه هو المقصود بقول القرآن : « وجاء ربك والملَك صفا » ، وهو الذى يأتى فى ظلل من الغمام ، وهو المعنى بقوله تعالى : « أو يأتى ربك » ، وهو المراد بقول النبى عليه السلام : « إن الله تعالى خلق آدم على صورة الرحمن » . وانفرد أحمد بن حابط عن صاحبه بقوله : إن المسيح تدرع بالجسد ، وهو الكلمة القديمة المتجسدة .

وقد قالا أيضا بالتناسخ ، فزعما أن البارى قد خلق الناس جميعا أصحاء عقلاء فى دار قبل هذه الدار ، وأسبغ عليهم نعمه ، وكلفهم بأوامر ، أطاعه فيها كلها فريق ، وعصاه فيها كلها فريق ثان ، وأطاعه فى بعضها دون البعض فريق ثالث ، فأبقى الفريق الأول فى تلك الدار السعيدة ، وأدخل الفريق الثانى النار ، وأقر الفريق الثالث فى هذه الدار على صور تختلف باختلاف أفعالهم ؛ فمن كانت آثامه أقل ، كانت صورته أقل قبحا ، ومن كانت آثامه أكثر ، كانت صورته أقبح . ولا تزال هذه الحيوانات تعود الى الدنيا مرة بعد أخرى ما دامت آثامها تصحبها .

ومما أثر عنهما أيضا : تأويل الحديث القائل بأنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر ، بأن الذى سيرى كالقمر هو العقل الفعال الذى قال به الفلاسفة (١) .

عمرو بن بحر الجاحظ : — المتوفى فى سنة ٢٥٥ هـ وهو أول موسوعى فى البلاد العربية ، وكان فى مبدأ شبابه تلميذا للنظام ، فتلقى عنه العلم وتأثر بآرائه . ولما نضج صار رئيسا لمدرسة البصرة الاعتزالية ، وقد كتب عددا عظيما من الكتب فى كثير من الفنون والعلوم المختلفة كالأدب والخطابة والتوحيد والفلسفة والتاريخ الطبيعى والجغرافيا ، وقد امتازت كتبه بميزات

(١) انظر صفحة ٦٧ وما بعدها من الجزء الاول من كتاب الشهرستانى .

كثيرة كالدقة والنقد وصوغ المعانى القوية فى ألفاظ أنيقة ، وكتجميل آرائه بزينة الأسلوب تارة ، وبمزجها بالفكاهة تارة اخرى . وإليك ما وصف به المسعودى هذه الكتب ، قال : « ولا يعلم أحد من الرواة وأهل العلم أكثر كتبا منه مع قوله بالعثمانية . وقد كان أبو الحسن المدائنى كثير الكتب ، إلا أن أبا الحسن المدائنى كان يؤدى ما سمع . وكتب الجاحظ مع انحرافه المشهور تجلو صدأ الأذهان ، وتكشف واضح البرهان ، لأنه نظمها أحسن نظم ، ورصفها أحسن رصف ، وكساها من كلامه أجزل لفظ . وكان إذا تخوف ملل القارىء وسآمة السامع ، خرج من جد الى هزل ، ومن حكمة بليغة الى نادرة ظريفة » . (١)

ومن أبرز آرائه قوله : إن معنى كون الإله عالما أنه لا يجوز عليه السهو ولا النسيان . ومعنى كونه مريدا أنه ليس مكرها ، وأن من اعتقد وحدة الإله ورسالة محمد لم يكلف بعد ذلك شيئا ، وأن من دان بالتشبيه أو بالجبر فهو كافر . أما أسخف ما نسب إليه من الآراء فهو قوله بان القرآن جسم ، تارة يكون رجلا ، وتارة يكون امرأة .

محمد الجبائى وابنه أبو هاشم — هما من بقايا تلاميذ المدرسة الواصلية . وقد كانا من أبرز أهل عصرهما وأذكاهم ذهنا ، وأكثرهم علما ، وأعلاهم كعبا فى النظر والبحث ، فأقرا كل أصول المعتزلة وزادا عليها أن إرادة الرب حادثة لا فى محل ، وأنه متكلم بكلام يخلقه فى جسم . وانفرد الجبائى بأن معنى كون الله سميعا بصيرا هو أنه حى لا آفة به ، وأنه يجب على الله لمن يكلفه إكمال عقله ، وتهيئة أسباب التكليف له . وانفرد أبو هاشم بقوله : إنه لا يتعلق علم بمعلومين على التفصيل ، وصرح بأن جحود قدماء المعتزلة الصفات بتاتا ضرب من التعسف ، وأن الحق هو أن العلم والإرادة والقدرة هى أحوال لله ، بها يعلم ويقدر ، وهى ليست معلومة ولا مجهولة ، أى أنها لا تعرف وحدها ، وإنما مع الذات فقط . وهذه الأحوال هى التى شبهها الشهرستانى بأقانيم المسيحية كما أسلفنا .

هذا ، وسنوالى البحث فى الفصول المقبلة فى مميزات المعتزلة ومذهبهم العام ؟

الدكتور محمد غلاب
أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

---

(١) انظر صفحتى ١٣٥ و ١٣٦ من الجزء الرابع من كتاب « مروج الذهب » للمسعودى طبعة القاهرة سنة ١٩٣٨

ذكرى ميلاد النبي الكريم

« محمد رسـول الله »

« هو الذى بعث فى الأميين رسـولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الـكتاب والحـكمة وإنْ كانوا من قبلُ لَفى ضلال مبين »

ليس من الحديث المـكرر ، ولا من القول المردد ، أن يعاود الـكاتب البحث فى شخصية النبي عليه السلام ، كلما جاءت ذكرى ميلاده ، أو ذكرى هجرته ، أو ذكريات غزواته ، أو أى عمل من الأعمال الجليلة التى قام بها ، والتى انتظمت عقداً تحلى به جيد الدهر ، وصار الناظر الى كل درة من درر هذا العقد ، يبهره سناؤها ، وتستولى على مشاعره وحواسه دهشة الإعجاب .

ولا غرو أن تـكون ذكرى ميلاده باعثا قويا ، وحافزا ملحا ، للكاتبين والواصفين ، فى أن يكشفوا للناس بعض صفاته الخلقية : من الشجاعة ، والـكرم ، ولين الطبع ، وقوة العزم ، وكمال التضحية ، والصبر على تحمل المشاق ، فى سبيل القيام بالواجب ونصرة الحق .

ففى محمد صلوات الله عليه ـ وقت أن كان جنينا فى بطن أمه ـ عبرة وعظة ؛ وفى رضاعه عبرة وعظة ، وفى معيشته والحصول على رزقه ـ قبـل بعثه ـ عبرة وعظة . فهو الذى حملت به آمنة بنت وهب بن عبد مناف سيد بنى زهرة ، ولما يمض على حملها إلا القليل من الزمن حتى أدركه اليتم بموت أبيه . وحان موعد ميلاده ، الذى كان ينتظره جده عبد المطلب بفارغ الصبر ، فأشرقت الدنيا به فى الليلة الثانية عشرة من ربيع الأول (٢٠ من ابريل سنة ٥٧١) ، فأسماه جده عبد المطلب (محمداً) .

ولقـد انتظرت أم اليتيم مجيء المراضع من بنى سعد لتدفع بطفلها الى إحداهن ، ليشب فى البادية على الصفات الحميدة ، وتلك عادة أشراف أهل مكة ، فانهم كانوا يسلمون أطفالهم الى المراضع من أهل البادية . ولـكن من هى تلك التى ترغب فى أخـذ ذلك اليتيم ، الذى لا يستطيع أهله دفع ما تطلبه المراضع ، من مال ونحوه ؟

ولقد كانت حليمة بنت أبى ذؤيب السـعدية ، ممن عرض عليهن هـذا اليتيم ، فأبت أن تأخذه أول الأمر ، ولما لم تجد من الأطفال من تأخذه ، رضيت بأخذ محمد صلى الله عليه وسلم .

ولئن كان محمـد قد أدركه اليتم بموت أبيه وهو فى بطن أمه ، فقد ماتت أمه وهو فى السادسة من عمره وهى آيبة من المدينة ، بعد زيارتها لبنى النجار ، أخوال زوجها عبد الله ابن عبـد المطلب ، فرجعت به أم أيمن الى مكة ، بعـد أن أصبح يتيما من الأبوين . ولم تمض

على هذه الحادثة الممضّة الأليمة إلا سنتان ، حتى توفى جده عبد المطلب ، الذى كان يحنو عليه حنوا يفوق حنوه على أبنائه .

ومحمد بعد ذلك ينتقل الى كفالة عمه أبى طالب ، ويرحل معه الى الشام ، ليندرب على التجارة ، ويتعرف مسالكها وأضربها .

ولسنا نطيل الحديث فى هذه الأدوار التى مر بها محمد قبل بعثه ، بل الذى يعنينا العناية كلها ، ما قام به من الأعمال ، بعد أن حمل رسالة ربه ، وكلف بتبليغ خلقه ، وأنزل الله عليه : « يأيها المدثر قم فأنذر . وربك فكبر » .

حينذاك واجه محمد قبائل متنافرة ، وعادات سيئة . فحروب يحمى وطيسها ، وتغلى مراجلها ، وتشتد أهوالها ، لأتفه الأسباب . ومعتقدات متضاربة نشأت من ظلمة العقول ، وانحطاطها الى الحضيض من الإدراك .

ولقد كانت جزيرة العرب ، مشتملة على أقوام لا يعتقدون بالخالق ويقولون : ماهى إلا أرحام تدفع ، وأرض تبلع ، وما يهلكنا إلا الدهر . وقد حكى الله عنهم ذلك فقال : « وقالوا ماهى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا ، وما يهلكنا إلا الدهر » . وبجانب هؤلاء وجدت فئة تؤمن بالخالق وتنكر البعث ، وفى هؤلاء يقول الله تعالى : « بل هم فى لَبْس من خلق جديد » .

وبجانب هؤلاء وأولئك ، كان عُبّاد الأصنام : من بنى كلب ، وهذيل ومذحج ، وهمذان وثقيف ، وقريش وكنانة ، والأوس والخزرج ، يعبدون : اللات والعزى ، ومناة ، ووداً وسواعا ، ويغوث ، ويعوق ، ونسرا . يحكى عنهم القرآن فيقول : « وقالوا لا تذرنّ آلهتكم ولا تذرنّ وَدًّا ، ولا سُواعاً ، ولا يَغوثَ ، ويعوق ونسراً » .

وبجانب من تقدم ، كان اليهود والنصارى الذين استحكم بينهم الخلاف ، واشتد الجدال ، وطال الحوار . وقد حكى الله تعالى ذلك عنهم فقال : « وقالت اليهود ليست النصارى على شىء ، وقالت النصارى ليست اليهود على شىء » « وقالت اليهود عزير ابن الله ، وقالت النصارى المسيح ابن الله » ، الى غير ذلك مما ورد فى القرآن الكريم ، من طعن كل من أهل هاتين الديانتين فى الديانة الأخرى .

* * *

ولقد كانت هذه المعتقدات المتضاربة المتنافرة ، سببا فى الاضطرابات المتتالية ، والدماء المراقة ، فى هذه الجزيرة التى طوحت بها ظلمة العقول ، واشتداد الجهل ، وفشو الخرافات ؛ وكان لا بد للرسول عليه السلام من أن يوطد لدينه ، ويمهد لدعوته ، ويثبت أركان رسالته فى هذه الجزيرة ، مهبط وحيه ، حتى يستطيع بعد ذلك أن يعمم رسالته ، ويبلغها الى جميع سكان المعمورة .

فكر النبي صلى الله عليه وسلم فى جمع الكلمة ، وربط القلوب ، وتوحيد الاتجاه ، وقد تم له ذلك ، إذ يقول الله تعالى مخاطبا نبيه عليه السلام : « وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله ، هو الذى أيدك بنصره ، وبالمؤمنين . وألف بين قلوبهم ، لو أنفقت ما فى الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ، ولكن الله ألف بينهم ، إنه عزيز حكيم » .

ولم تكن التشريعات الاسلامية تفرق بين غني وفقير ، ولا بين قوي وضعيف ، وما ذاك إلا لأن الاسلام دعا الى الوحدة ، وإلى الأخوة ، وإلى المساواة ، إذ يقول الله تعالى : « إنما المؤمنون إخوة » ، وإنما جاءت التكاليف الاسلامية موافقة للفطرة ، ملائمة للطبيعة الانسانية : لا عسر فيها ، ولا إرهاق ، ولا إعنات ، قال تعالى : « لا يكلف الله نفساً إلا وسعها » وقال : « يريد الله بكم اليسر ، ولا يريد بكم العسر » ، وقال : « وجاهدوا فى الله حق جهاده هو اجتباكم ، وما جعل عليكم فى الدين من حرج » ؛ وقال : « ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج » . فهو دين سمح ، لين سهل ، يكره الغلو ويبغض التشدد ، ويبيح للنفس التمتع بالطيبات ؛ يقول الله جل وعز : « قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده ، والطيبات من الرزق ، قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا ، خالصةً يوم القيامة ، كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون » ؛ ويقول : « يأهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم » .

***

حدد الاسلام العلاقة بين الحاكم والمحكوم ، وبين الراعى والرعية ، على أحسن وجه ؛ وأسسها على أقوم قواعد ، تنتج الصالح العام ، وعدم ضياع حق الفرد على الأمة ، وحق الأمة على الفرد ، وتحقق تكاتف القوى ، واتجاهها لغاية سامية ؛ فجعل الحكم شورى لا استبداد فيه ، ولا تجبر ولا طغيان ، إذ يقول الله تعالى : « وأمرهم شورى بينهم » ، ويخاطب رسوله الأمين صلوات الله عليه بقوله : « وشاورهم فى الأمر » . وقد كانت أعمال النبي صلى الله عليه وسلم شاهدة بذلك ، فكثيرا ما جمع أصحابه ، واستشارهم فى أمور مالية وسياسية ، وحربية ، فتراه فى غزوة (أحُد) يأخذ رأى أصحابه فى اختيار أحد أمرين ، هما : انتظار المؤمنين فى المدينة ، أو الخروج الى لقاء العدو خارجها ، وقد كان رأيه ورأى بعض أصحابه المكث بالمدينة ، ورأى الأغلبية الخروج الى لقاء العدو ، فنفذ عليه السلام رأى الأغلبية ، وخرج لملاقاة العدو ؛ فكانت الشورى أساس نظامه .

وقد جعل الاسلام بجانب الشورى فى الحكم ، وجوب الطاعة من الرعية لأولى الأمر ، إذ يقول الله تعالى : « يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ، فإن تنازعتم فى شيء فردوه الى الله والرسول ، إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، ذلك خير وأحسن تأويلا » .

***

تلك لمحات جاشت بالنفس عند ذكرى مولد النبي الأمي ، ذلك المصلح العظيم الذي ولد ليولد على يديه دين الفطرة ، ولتوجد في أسس هذا الدين الفطري ، مصالح الناس منظمة محققة ، تسعى لهم ويسعون لها آمنين مؤمنين .

فهل عند ذكر الميلاد المحمدي أو ذكراه ، يذكر لذلك الدين مجد ، وسمو ، وفضل على الدنيا ؟ الدنيا التي تشهد للاسلام بالسلام ، كما تشهد للانسان بالنسيان والطغيان .

صدق الله تعالى ، له الحجة على ابن آدم بعد أن قال له :

« وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولا يتلو عليهم آياتنا ، وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون » ؟

عبد الله المراغي
وكيل قسم المساجد



دين الاسلام كما يحفظه المسلمون

THE RELIGION OF ISLAM

يرى حضرات قرائنا أننا ألحقنا اليوم بمجلة الأزهر ملزمة انجليزية تحت عنوان (The Religion of Islam) وهي الملزمة الأولى من كتاب قيم وضعه حضرة الأستاذ الألمعي الجليل أحمد غلوش رئيس جمعية منع المسكرات في القطر المصري ، ووضعه خصيصا للتعريف بالاسلام للامم التي تتكلم الانجليزية ، وقد سبق لنا الاطلاع على هذا الكتاب الذي اطلع عليه عدد كبير من رجال العلم الانجليز والعرب ، فوجدناه جديرا بأن ينشر ملحقا لمجلة الأزهر تباعا حتى يتم ، والذي يجعل لهذا الكتاب قيمة كبيرة أن واضعه الفاضل توخى فيه بيان مزايا الدين الاسلامي ، وصلاحيته لكل زمان ومكان ، وتوفيته لجميع حاجات القلوب والعقول ، بعبارات بليغة تؤثر في قارئيه من أهل تلك اللغة أبلغ تأثير . وقد جلى فيه المسائل الاسلامية الكبرى تجلية جديدة بباحث واسع الاطلاع ، نير البصيرة .

في عالم الأدب العربي (١)

نظرات في الادب العربي

جاهليّه وإسلاميّه

— ٣ —

جناية الأدب الجاهلي ، على الأدب العربي أيضا

لم يكن صاحب هذا البحث ذاعُذْره ، ولا أول من وفق الى إثارته ؛ فقد عرفتَ أنّ الشاعر أبا نواس قد طرقه ، واستهجنه ؛ وأكبر ظني أنه لولا تلك النزعة الشعوبية التي كانت تبدو من خَلل أشعاره ، لمضى به ، ونجح فيه ، ولم يأخذه عليه أحد . ويؤيد هذا الظن ما زعموا : من أن أول من تنبه الى ذلك مطيع بن إياس العربي الكناني ، وهو شاعر من طبقة كانت في صدر الدولة العباسية ، قبل أبي نواس وأبي العتاهية ، قالوا : وقد اجتمع بفتى من أهل الكوفة ، ودار الحديث بينهما في هذا الشأن ؛ فقال مطيع :

لَأَحسنُ من بِيدٍ يَحارُ بها القطا ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ وَمن جبلَي طيّ ، ووصفكما سَلْعا

تلاحظ عيني عاشقين ، كلاهما ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ له مقلة في وجه صاحبه ترعَى

وكذلك تنبه له النقاد ؛ فهذا ابن رشيق يقول : « وليس بالمُحدَث من الحاجة الى أوصاف الإبل ونعوتها ، والقفار ومياهها ، وحمر الوحش ، والبقر ، والظُّلمان ، والوعول ـ ما بالأعراب وأهل البادية ؛ لرغبة الناس في الوقت عن تلك الصفات ، وعلمهم أن الشاعر إنما يتكلفها تكلفا ، ليجري على سنن الشعراء قديما ؛ وقد صنع ابن المعتز وأبو نواس قبله ومن شاكلهما في تلك الطرائق ، ما هو مشهور في أشعارهم ؛ كرائية الحسن في الخصيب ، وجيمية ابن المعتز المردفة في الضرب الثاني من الكامل . والأولى بنا في هذا الوقت ، صفات الخمر والقيان ، وما شاكلهما ، وما كان مناسبا لهما ، كالكؤوس والقناني والأباريق ، وتفاح التحيات ، وباقات الزهر ، الى ما لا بد منه : من صفات الخدود والقدود والنهود ، والوجوه والشعور ، والريق والثغور ، والأرداف والخصور ؛ ثم صفات الرياض والبرك والقصور ، وما شاكل المولدين ؛ فان ارتفعت البضاعة ، فصفات الجيوش وما يتصل بها ، من ذكر الخيل والسيوف ،

والرماح والدروع ، والقسى والنبل ، الى نحو ذلك ، من ذكر الطبول ، والبنود ، والمنحرفات والمنجنيقات ؛ وليس يتسع بنا هذا الموضع لاستقصاء ما فى النفس من هذه الأوصاف الخ » اه .

بيد أن الظاهرة البارزة ، التي تبدو سافرا للقارئ الكريم : أن الشعراء والنقاد القدامى ، تناولوا الموضوع برفق ، وعالجوه فى هوادة ولين ؛ فأما بحاثتنا العلامة ، فقد تناوله بعنف ، وثار فيه ثورة جامحة ، كلها لهب ، وكلها صخب ، وكلها هدم ، وكلها تدمير ؛ وليس فيها مخالفات ، ولا جنح مركزية ، بل كلها جنايات ، محكوم فيها بالإعدام ، بلا نقض ولا إبرام ! !

***

لا جرم أن للأدب الجاهلى الأثر البالغ فى الأدب العربى ، لقيامه منه مقام الأصل من الفرع ، كما أسلفنا القول ؛ ولكن هذا الأثر لم يجن على الأدب العربى ، ولم يَحُدَّ من فَراهته ، ولم يقصّر به دون السمو الى الغايات ، فى قوة النسج ، وسمو الخيال ، واتساع الأغراض ، وبديع المعانى ؛ وما كنت لأشرح هنا ما تكفلت به كتب تاريخ الأدب للمدارس الثانوية والعالية ، من أدلة ذلك ، فهو من الحديث المعاد ؛ وإن حسبى أن أقول : إن رجال النقد الأدبى على أن الشعر الاسلامى : شعرَ الأخطل والفرزدق وجرير ، وغيرهم من شعراء بنى أمية — أفضل من شعر الجاهليين ؛ بل لقد تعدوهم ، فقدموا شعر الصدر الأول من العصر العباسى ، على الشعر الجاهلى . قال العلامة ابن خلدون : « إنا نجد شعر حسان بن ثابت ، وعمر بن أبى ربيعة والحطيئة وجرير والفرزدق وغيلان ذى الرمة والأحوص وبشار ، ثم كلام السلف من العرب فى الدولة الأموية ، وصدر من الدولة العباسية ، فى خطبهم وترسيلهم ، ومحاوراتهم للملوك — أرفع طبقة فى البلاغة من شعر النابغة ، وعنترة ، وابن كلثوم ، وزهير ، وعلقمة بن عبدة ، وطرفة بن العبد ؛ ومن كلام الجاهلية ، فى منثورهم ومحاوراتهم ؛ والطبع السليم ، والذوق الصحيح ، شاهدان بذلك للناقد البصير بالبلاغة . والسبب فى ذلك ، أن هؤلاء الذين أدركوا الاسلام ، سمعوا الطبقة العالية من الكلام فى القرآن والحديث اللذين عجز البشر عن الإتيان بمثلهما ، لكونها ولجت فى قلوبهم ، ونشأت على أساليبها نفوسهم ، فنهضت طباعهم ، وارتقت ملكاتهم فى البلاغة ، على ملكات من قبلهم من أهل الجاهلية ، ممن لم يسمع هذه الطبقة ولا نشأ عليها ؛ فكان كلامهم فى نظمهم ونثرهم ، أحسن ديباجة ، وأصفى رونقا من أولئك ، وأرصف مبنى ، وأعدل تثقيفا ، بما استفادوه من الكلام العالى الطبقة ؛ وتأمل ذلك ، يشهد لك به ذوقك ، إن كنت من أهل الذوق والتبصر بالبلاغة » اه .

أما أبو الفتح بن جنى ، فيقول : « المولدون يستشهد بهم فى المعانى ، كما يستشهد بالقدماء فى الألفاظ » . ويعلل ذلك ابن رشيق ، بأن المعانى إنما اتسعت ، لاتساع الناس فى الدنيا ، وانتشار العرب بالاسلام فى أقطار الأرض ، فمصّروا الأمصار ، وحضّروا الحواضر ، وتأنقوا

فى المطاعم والملابس ، وعرفوا بالعيان عاقبة ما دلتهم عليه بداهة العقـول ... وصفة الانسان ما رأى ، يكون — لا شك — أصوب من صفته ما لم ير ؛ وتشبيهه ما عاين بما عاين ، أفضل من تشبيهه ما أبصر بما لم يبصر . .

ثم قال : « ولم أدل بهذا على أن العرب خلت من المعانى جملة ، ولا أنها أفسدتها ؛ لـكن دللت على أنها قليـلة فى أشعارها ، تـكاد تحصر لو حاول ذلك محـاول ؛ وهى كثيرة فى أشعار المتأخرين ، وإن كان الأولون قد نهجوا الطريق ، ونصبوا الأعلام للمتأخرين ... ومن هذا يتبين ما فى أشعار الصدر الأول الاسلاميين ، من الزيادات على معانى القدماء والمخضرمين ، ثم ما فى أشعار طبقة جرير والفرزدق وأصحابهما من التوليدات والإبداعات العجيبة ، التى لا يقع مثلها للقدماء ، إلا فى الندرة القليلة ، والفلتة المفردة ؛ ثم أتى بشار بن برد وأصحابه ، فزادوا معانى ما مرت قط بخاطر جاهلى ، ولا مخضرم ، ولا إسـلامى ؛ والمعانى أبدا تتردّد وتتولد ، والـكلام يفتح بعضه بعضا » اهـ .

وقال الجاحظ : « طلبت علم الشعر عند الأصمعى ، فوجدته لا يحسن إلا غريبه ؛ فرجعت الى الأخفش ، فوجدته لا يتقن إلا إعرابه ؛ فعطفت على أبى عبيـدة ، فوجدته لا ينقل إلا ما اتصل بالأخبار ، وتعلق بالأيام والأنساب ؛ فلم أظفر بما أردت إلا عند أدباء الـكتاب ، كالحسن ابن وهب ، ومحمد بن عبد الملك الزيات » . قال الصاحب : فلله أبو عثمان ! فلقد غاص على سرّ الشعر ، واستخرج أرقّ من السحر ! ! .

ولا غرو ، فقد قيل : الـكتاب دهاقين الـكلام . ومما يؤيد ذلك قول ابراهيم بن العباس الصّولى ، يمدح الفضل بن سهل :

لفضـل بن سهـل يدٌ تقاصر عنها المثـل
فبـاطنهـا للنـدى وظا هـرها للقبـل
ونائلهـــا للغـنى وسـطوتها للأجـل

وقد تناول ابن الرومى هذا المعنى فأجاد ، حين قال :

مقبـّل ظهر الـكف ، وهّاب بطنها له راحـة فيها الحطيم وزمـزم
فظاهرها للناس ركن مقبّل وباطنها عين من الجود عيْلَم

ولـكن الأول أخف وزنا ، وأرشق لفظا ومعنى ؛ وبيتاه — وإن كان فيهما زيادة — بإزاء البيت الأوسط فقط من أبيات ابراهيم الصولى .

ومن قوله فى هجاء ابن الزيات ، وقد بلغ فيه أبعد الغايات :

فـكن كيف شئت ، وقـل ما تشاء وأرعـدْ يمينا ، وأبرق شمالا
نجابك لؤمـك منجى الذباب حمتـه مقاذيره أن ينالا

وما أحسن قول ابن الزيات :

مالى إذا غبت لم أذكر بواحـدة ... وإن مرضت فطال السقم ، لم أعَد ؟
ما أعجب الشيء ، ترجـوه فتحرمـه ... قد كنت أحسب أنى قد ملأت يدى !!

وعلى الجملة : كم ترك الأول للآخر ! !

***

من المفروغ منه ، أن مستوى الشعر قد انحط فى العهود الأخيرة ، وأن جيده ومطبوعه لا يكاد يحس الى جانب زيفه ومصنوعه ؛ ولـكن مرد ذلك ليس الى جناية الأدب الجاهلى ، كما يرى الباحث الـكريم ، أو تأثره ، كما يرى القدماء ؛ بل الى ضعف العلوم والآلات ، وانحطاط الثقافة العربية أولاً ، والجهل بالثقافات الحديثة ثانيا . وإلا فقد امتدت جناية الأدب الجاهلى على الأدب العربى منذ صدر الاسلام ، ومع ذلك فقد تمردت عليها الآداب العباسية تمردا ، وطغت عليها طغيانا مبينا .

ويلذ لى أن أستدل هنا بقول صاحب ضحى الاسـلام جـ ١ ص ١٤ : « فإذا نحن طفرنا الى العصر العباسى ، وجدنا الناس ، وخاصة الفرس الذين دخلوا الاسلام ، لم يعودوا يتذوقون الشعر العربى الجاهلى ، وإنما يتذوقون ما ألفوا ، من التغنى فى شعرهم بالحب ، والخمر ؛ فظهر العباس بن الأحنف الخـراسانى البيئة ، وأبو نواس الفارسىّ الأم ، يشبعان ذوقهما : الأول فى عشقه ، والثانى فى خمرياته . قد كان للعربى الجاهلى شعر فى الحب ، وشعر فى الخمر ؛ ولـكن شتان بين خمـريات طرفة ، وخمريات أبى نواس ؛ وشتان بين شوق امرئ القيس ، وشوق العباس . ويعجبنى فى ذلك قـول الجاحظ : « كم بين قول امرئ القيس : تقول وقـد مال الغبيط بنا معا ، وبين قول على بن الجهم :

سقى الله ليلا ضمّنا بعد هجعة ... وأدنى فؤادا من فـؤاد معذب
فبتنا جميعا ، لو تُراقُ زجاجة ... من الراح فيما بيننا لم تسرّب

فقد أخذ الفرس الوزن العربى ، والقافية العربية ، والأسلوب العربى ؛ ولـكن أخذوا بجانب ذلك الخيال الفارسى ، والذوق الفارسى» اهـ .

وقد تأثر حبيب والمتنبى بالعلوم الفلسفية تأثرا أسرفا فيه إسرافا ، جرّ عليهما النقد ، لأن الشعر ما أطرب ، وهزّ النفوس ، وحرّك الطباع ؛ والفلسفة باب آخر غير الشعر ؛ وهذا باب أشهر من أن يدلّ عليه ، أو ينصّ بالإشارة إليه .

وليس عصرنا الحاضر بدعا من العصور الأخرى ؛ فمتابعو الحركة الفـكرية فيه ، لا يعوزهم الدليل على صحـة ما نرى : من ردّ ضعف الشعر ، وغير الشعر من فنون الأدب ، الى ضعف

الثقافة ، وشيوع النوع « الشيطانى » منها . وإنّ حسبك أن تستعرض تاريخ الفئة القليلة ، التى تحسن النقد الأدبي اليوم ، لتؤمن إيمانا صادقا بأن الثواب على قدر المشقة ؛ فان أحدا منهم لم يبلغ مابلغ ، حتى عَلّ ونهل من صميم الثقافة العربية فى الأزهر ، ثم انتجع أوربة ، فعلّ ونهل من مورد طريف ؛ فأنتج هذا «التطعيم الثقافى» مزيجا ، فيه متانة القديم ، وفيه طرافة الجديد ؛ ولا عجب أن تجىء منازلهم فى ذلك متفاوتة ، عند من عرف تفاوت حظوظهم من النضج الأزهرى ؛ فليس من شك فى أن التفوق والتبريز ، من نصيب المتفوق المبرز فى الثقافة العربية وإلا عَسُرَ المزج ، واستحال الهضم ؛ وجاء الإنتاج أخلاطا غير متماسكة ، وأمشاجا غير متشابكة ، ينكرها الشرق ، وينفيها الغرب ، فلا الى هؤلاء ، ولا الى هؤلاء .

أما بعد ، فقد أخذ علىّ بعض الأصدقاء ، أننى لم أصرح بأسماءِ مَنْ أتعرض لنقد آرائهم ؛ وجوابى : أننى ما أردت رداً ؛ فإن وقت الرد قد فات ؛ بل أردت مناقشة هذه الآراء فى جملتها ، وبيان وجهة النظر الأزهرية فيها ، توجيها لأبنائى من طلبة كلية اللغة العربية ، وتكميلا لمادتهم الدراسية ؛ فهذه النظرات الأدبية العابرة ، أبحاث صحفية ، متممة للبحوث المدرسية . على أن مثيرى هذه الموضوعات ، أشهر بآثارهم ومراكزهم ، من أن أدل عليهم ، أو أشيد بذكرهم .

وقد أشار أستاذى العلامة مدير مجلة الأزهر بالإيجاز ، فلأنزل على أمره ؛ ولأكتف فى تحقيق « جناية الأدب الجاهلى » بما قدمت ، وأنقل الحديث الى موضوع آخر . فالى اللقاء ؟

عبد الجواد رمضان
كلية اللغة العربية

ماهية التصوف

سئل رويم الصوفى عن الصوفى فقال : هو الذى لايملك شيئا ولا يملكه شىء .

وسئل رويم عن الأنس فقال : هو أن تستوحش من غير الله حتى من نفسك .

وقد سمع رويم ينشد :

ولو قلت لى مت متُّ سمعا وطاعة وقلت لداعى الموت أهلا ومرحبا

نقول : ربما ظن بعض الناس أن التصوف يغرى صاحبه بأن يكون عالة على غيره . وقد دحض عمر الفاروق هذه الشبهة بنفسه ، وقد سأل ناسا من أهل اليمن عن حالهم فأجابوه بأنهم متوكلون ، فقال لهم : كذبتم بل أنتم متّاكلون ! ألا أخبركم بالمتوكل ؟ هو رجل ألقى حبة فى بطن الأرض توكلا على الله .

وقال عمر رضى الله عنه : من أظهر للناس خشوعا فوق ما فى قلبه ، فإنما أظهر نفاقا على نفاق .

دراسات في القرآن الكريم

المجاز والكناية فى كتاب الله

نحت هـذا العنوان كتبت فى عدد من آى القرآن الـكريم . وسأكتب اليوم فى قوله تعالى : «وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم ؟ قالوا بلى ، شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين . أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبلُ وكنا ذرية من بعدهم ، أفتهلـكنا بما فعل المبطلون » .

وفى تفسير هذه الآية يقول المفسرون : إن معنى قوله تعالى : « وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم » أن الله تعالى مسح ظهر آدم فاستخرج منه ذرية ، ثم قال : هؤلاء للنار ، واستخرج فريقاً آخر ، ثم قال : هؤلاء للجنة ؛ وبنوا على ذلك ما يدّعونه عالم الذَّر ، وأن ذلك العهد كان فى هذا الحين الذى ذكروه .

يذكرون ذلك ، وإنا إذا رجعنا الى أصـول الدين المقررة المقطوع بهـا والمجمع عليها ، وجدنا ما ذكروا فى تفسير هـذه الآية من حديث عالم الذر الذى تخيلوه تخالوه ، ما يتنافى مع تلك الأصول منافاة واضحة لا تحتمل جدلا ، ولا تقبل مراء .

أليس من المعروف قطعا ، والمعلوم ضرورة ، والمتفق عليـه من جميع الفقهاء ، فى جميع العصور ، أن البلوغ هو الحد لجميع التكاليف التى جاء بها الاسـلام ، لأن الشارع الحكيم ، ومكون النفوس ومقدرها ، وعالم تطوراتها وقواها ، قد علم أن ذلك هو السن التى تتم فيها العقول ، وينضج فيها النظر؟ فكما ترى ، قد اقتضت حكمته السامية ألا يكلفهم قبل هذه السن ، وإن كانوا ناطقين مميزين ، يفهمون الخطاب ويدركون مقاصده ، ولـكنهم مع هـذا خفيفة أناتهم ، خداج أنظارهم ، مزدهاة أحلامهم . وبهذا تعلم أنه يكون من غير المعقول ولا المتصور أن يكلفهم وهم رضّع فى مهودهم ، وتعلم أنه أبعد من هـذا عن المعقولية والتصور أن يكلفهم وهم فى بطون أمهاتهم ، وإن كانت قد نفخت الروح فيهم ؛ أو أن يكلفهم مضغا أو علقات ، أو نطفا فى الأرحام .

وإذا كان كذلك ، وأنهم لم يكلفوا فى أطوار وجودهم ، مادنا منها من العدم وما بعد ، فـكيف يكون من الله أن يكلفهم فى ذلك العالم : عالم الذّر ، وهم فيه عدم ليس لهم من اعتبارات

الوجود إلا أن الله يعلمهم ، إذ علم الله محيط بالغابر والحاضر والمستقبل ، محيط بالواجب والممكن والمستحيل ؟

وكيف يجوز على الله وهو الحكم العدل ، أن يؤاخذ من الناس من يخالف ذلك العهد وهم ما سمعوه ولا قرءوه ولا علموه ، ولا خطر فى أنفسهم ولا على أقل وجوه الخطور ، ولا كما تخطر أضغاث الأحلام ، ولا كما يهجس الخيال بالأوهام ؟

هذا ما ندحض به هذا الذى أولوا به تلك الآية الكريمة أولاً ؛

وأما ثانيا : فإن من الأصول المقررة والمتفق عليها ، هو أن أهل الفطرة ناجون ، وقد استندوا فى هذا الأصل أولاً : لقوله تعالى : «وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا» ، وثانيا : لقوله تعالى : « رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل » . فالآية الأولى كما ترى تدل فى صراحة على أن الله عز وجل لا يوجه مؤاخذة على أحد من الناس حتى يعذر اليه بإرسال الرسل ، ليوقظوا الشعوب من نومهم ، وينبهوهم من غفلتهم ، ويبينوا لهم طريق الحق والمصلحة . كما أن الآية الثانية تدل فى قوة وصراحة على أنه لا يقطع حجة الناس نحو ربهم وخالقهم إلا إذا بُعثت اليهم الرسل يبشرون المستجيبين للحق ، وينذرون من أعرض ونأى . فهل يمكن مع هذا أن تطاوعنا عقولنا فنجيز أن يؤاخذ الله الناس ويحاسبهم بعهد يؤخذ عليهم قبل أن يوجدوا ، وقبل أن توجد آباؤهم بل وأجدادهم ، كما هو مقتضى تصوير عالم الذر الذى يحدثون عنه ؟ !

على أنه لو صح أن يراد من الرسول فى قوله تعالى : « حتى نبعث رسولا » العقل ، لما تغير الموقف ، ولبقيت الحجة قائمة قوية على عدم صحة هذا الذى حملوا عليه الآية : من أن العهد قد أخذ على بنى آدم يوم استخرج الله من ظهر آدم ما أراد أن يخلقه من البشر ؛ إذ أنه مع هذا التأويل يكون قد بقى أن العقل شرط للمؤاخذة والتكليف ، وقد علمت أنه حتى اشتراط العقل للتكليف لم يطلق إطلاقا ، بل قد جعل ارتباط التكاليف به مقيدا بنصاب منه خاص ، حين حدد للتكليف حالة خاصة أو سنا معينة .

وأما ثالثا : فإنه قد جعل فى نفس الآية من الحكمة فى أخذ هذا العهد على الناس ، أن تنقطع حجتهم فلا يقولوا : « إنا كنا عن هذا غافلين » . وواضح أنه لو كان الأمر كما قالوا ، وأن العهد قد أُخذ يوم استُخرجوا من ظهر آدم ، لما كان ذلك قاطعا حجتهم ، بل يبقى لهم أن يقولوا : إنا كنا عن هذا غافلين ، وهم إذ ذاك يكونون جِدّ محقين فى أنهم عن ذلك العهد غافلون . فإنه إذا كان خالقهم الحكيم الرحيم قد اعتبر ذلك حجة منهم إذا هو لم يرسل اليهم الرسل مع بروزهم للوجود ؛ ومع منحهم العقل أداة النظر وآلة التفكير ، ومع بسط صحائف الكائنات

أمام أنظارهم ، وقد امتلأت بالآيات البينات والبراهين الواضحة على ما يجب لله من إجلال وتقديس ، فهل يمكن بعد هذا أن يفهم فاهم أن الله ذا الحكمة البالغة ، والرحمة الشاملة ، يؤاخذ الناس بعهد ما عرفوه ولا أدركوه ، ولا خطر لواحد منهم ببال ؟ !

اللهم إن ذلك هو بعينه تكليف ما لا يستطاع . اللهم إن ذلك هو بعينه تكليف المحال ! تعالى الله عن ذلك ، فهو الذى يمتن على عباده فى مواضع مختلفة من كتابه بسعة رحمته وسمو حكمته ، يقول عز من قائل : « لا يكلف الله نفسا إلا وسعها » .

وأما رابعا : فإن الآية لم يكن التعبير فيها : وإذ أخذ ربك من آدم من ظهره ؛ كما هو مقتضى هذا التأويل للآية ، بل عبارة الآية كما ترى بلفظ « بنى » مضافا الى آدم ، ثم ذكر الظهر مجموعا « من ظهورهم » مما هو صريح فى أن الأخذ ليس من آدم نفسه ، ومما هو صريح فى أن الأخذ من ظهور البنين . فالآية واضحة فى أن المراد بالأخذ هو التناسل والتوليد . وعلى العموم ، فأى عقل ذلك العقل الذى يتسع لأن تكون تلك القطرة من الماء المنحدرة من ظهر إنسان قد اجتمعت فيها بذور نسلها إلى نهاية تلك الحياة ؟ ! وكيف يخاطبنا القرآن ، وهو الكتاب المبين ، بما لا تقبله العقول ، ولا تسيغه الأفهام ؟ !

أما ما روى عن عمر بن الخطاب ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من انه سئل عن هذه الآية فقال : إن الله سبحانه خلق آدم ، ثم مسح ظهره . . . الى آخر ما بينا سابقا ، من أنه قد خرج من ظهره فريق للنار وفريق للجنة ؛ أما هذا فهو إن صح ، لا يمكن إلا أن يكون من باب التمثيل ، وهو فى ذلك واضح كل الوضوح .

إلى هنا يتبين للناظر فى وضوح ، أنه ليس من الصواب أن تؤول الآية هذا التأويل . وعلى هذا فعلينا أن ننتحى بالآية ناحية تتفق وحكمة الله البالغة ، ورحمته الواسعة ؛ تتفق وجزالة القرآن ، وقوة أسلوبه ، وجلال معانيه .

إن الذى ينبغى أن تفسر به الآية الكريمة على ما يقع فى حدود الأصول المقررة فى الدين والمعلومة منه بالضرورة ، وعلى ما يتناسب مع حكمة الله ورحمته ، هو ما سنبديه ؟

« يتبع »

حامد محيسن
المدرس بكلية اللغة العربية

بحوث في المسائل الفقهية

تاريخ الفقه الاسلامى فى مصر

— ٢ —

١ – ما معنى تاريخ الفقه :

الفقه ، فى اللغة : العلم والفهم والفطنة ، قال تعالى : « لهم قلوب لا يفقهون بها » . وفى الحديث الشريف « من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين » .

وفى اصطلاح أهل الشرع : « العلم بالأحكام الشرعية العملية من أدلتها التفصيلية » .

فالذى يقال له الفقيه على الحقيقة ، هو العالم الفطن القادر على الاستنباط ، وهو المجتهد ؛ وأما غيره فلا يطلق عليه اسم الفقيه إلا مجازا وتوسعا إذا كان قد وصل فى العلم بالأحكام وتحصيل المسائل الى درجة يستباح معها التوسع والمجاز .

وتاريخ الفقه : هو النظر فى عهوده المختلفة ، وما طرأ عليه من أحوال ، وما اختلف عليه من رجال .

وهذا النظر يستتبع الكلام عن طريقة استنباط الفقهاء للأحكام ، وعن العوامل التى أثرت فى ذلك ، ولونت الفقه بالألوان المختلفة ؛

ويستتبع النظر فى الأسباب التى جعلت للفقه الاسلامى مكانته المرعية فى القانون والمعاملات ، حينا من الزمن ، وفى الأسباب التى انتزعت منه فيما بعد ذلك هذه السيطرة ، وأدت الى إقصائه ، تقريبا ، عن الحياة العملية ، وقصره على المسائل الشخصية والروحية !

ويستتبع النظر فى ثقافة رجال الفقه التى أثرت فى فقههم ، ومدى انتفاعهم بالرواية ، أو اعتمادهم على الرأى ؛ وبالجملة عن طريقة استنباطهم أو تفريعهم ، أو تطبيقهم للقواعد العامة على جزئياتها المتعددة ؛

ويستتبع النظر فى تآليفهم ، وأساليبها المختلفة ، فى عهود الرقى والانحطاط ، وما كان لهذه التآليف من أثر فى الإحسان الى الفقه أو الإساءة اليه . هذا هو تاريخ الفقه .

وبعض الذين يكتبون فى هذا العلم يسمونه « تاريخ التشريع » . وهذه العبارة نفسها هى العبارة الرسمية فى منهاج الدراسة بكلية الشريعة .

وقد أعجبنى تحقيق جيد لأستاذنا العلامة الشيخ محمود شلتوت فى محاضرة من محاضراته القيمة ، أثبت به أن هذا الإطلاق خطأ ينبغى أن يصلح !

ذلك أن كلمة التشريع لا تصلح هنا ، لأن التشريع هو وضع الشريعة ، فلا يسمى تشريعا إلا هـذه النصوص التي ينظر فيها الفقيه ، ويجتهـد فيها ، ويستنبط منها ، وهى نصوص الكتاب أو السنة .

أما الاستنباط ، والاجتهاد ، والترجيح ، والتأويل ، فذلك هو الفقه . وظاهر أن الذى له أحوال ، وعهود مختلفة ، وأطوار ، ورقى وانحطاط ، ليس هو النصوص ، وإنما هو الفقه ، فهو الذى يؤرخ له إذن .

نعم : إن النصوص قد ينظر فيها من حيث الدلالة ، والنص ، والكلية والجزئية ، والعموم ، والخصوص ، والنسخ والإحكام ، ونحو ذلك ، ولكن ذلك من أغراض علم الأصول ، فإذا عرض لها المؤرخ للفقه ، فهو يعرض لها تبعا لا استقلالا .

وعلماء كلية الشريعة الذين ألفوا كتابها قد فطنوا لذلك ، واعتذروا عنه بالتوسع فى معنى كلمة التشريع حتى يشمل الفقه ، وفهم النصوص وغيرها . ولسنا نرى مبررا لهذا التوسع الذى يقلب المسألة ، فيجعل الغرض المقصود تابعا يندرج فى سواه ، وحقه أن يكون متبوعا يندرج ما سواه فيه !

وأكبر الظن أنهم أرادوا مجاراة الخطأ الرسمى فى المنهاج ، ومجاراة بعض المؤلفين السابقين ، ولكن الحق أحق أن يتبع ، فلعلهم ، ولعل كلية الشريعة ، يعملون على إصلاح هذا الخطأ !

٢ — كيف كان الفقه فى عهد الفتح :

ونقصد فتح مصر ، ولا بد من هذا الفصل لنستطيع أن نتبين فى بحثنا مدى تأثر الفقه فى مصر بالفقه فى الحجاز .

ومن المعروف أن الحركة الفقهية يومئذ كان مركزها بلاد الحجاز ، بل كان مركزها المدينة خاصة ، حيث يقيم الخليفة ، وكبار الصحابة من المشتغلين بالفقه ، والرواية والفتيا ، فما هى الطريقة التى كانت متبعة فى الفقه ، والأحكام يومئذ ؟

هى الطريقة التى ارتضاها رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حياته لأصحابه : يعرضون مسائلهم على القرآن ، فان وجدوا فيه نصا أو دلالة ، وإلا عرضوها على سنة رسول الله ، فان لم يكن فيها شىء أعملوا فكرتهم مسترشدين بروح الشريعة ، ثم قضوا بما يقضى به الرأى السليم .

وهذه الطريقة هى التى وردت فى حديث معاذ بن جبل ، فقد روى أنه صلى الله عليه وسلم قال له لما بعثه الى اليمن : وكيف تصنع إذا عرض لك قضاء ؟ قال : أقضى بكتاب الله ، قال : فان لم يكن فى كتاب الله ؟ قال : فبسنة رسول الله ، قال : فان لم يكن فى سنة رسول الله ؟ قال : أجتهد

رأيى ولا آلو . قال معاذ : فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده على صدرى وقال : « الحمد لله الذى وفق رسول رسول الله لما يرضى رسول الله » !

ومثل ذلك ما روى عن سعيد بن المسيب عن على قال : « قلت يارسول الله : الأمر ينزل بنا لم ينزل فيه القرآن ، ولم تمض فيه منك سنة ؟ قال : اجمعـوا له العالمين ، أو قال : العـابدين من المؤمنين ، فاجعلوه شورى بينكم ، ولا تقضوا فيه برأى واحد » .

تلك كانت طريقة الصحابة بالإجمال ، ولـكن كان هناك عوامل أثرت بعض الآثار فى الفقه .

(١) منهـا أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان ينهى عن الإكثار من الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم خوف الخطأ أو التحريف أو الـكذب .

روى قرظة بن كعب قال : « خرجنا نريد العراق ، فمشى معنا عمر الى حرار فتوضأ فغسل اثنتين ثم قال : أتدرون لم مشيت معكم ؟ قالوا : نعم نحن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مشيت معنا ! فقال : إنكم تأتون أهل قرية لهم دَوِىٌّ بالقرآن كدَوِىِّ النحل ، فلا تصدوهم بالأحاديث فتشغلوهم ، جوِّدوا القرآن ، وأقلوا الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، امضوا وأنا شريككم ! فلما قدم قرظة قالوا : حدثنا ، قال نهانا عمر بن الخطاب » :

وروى البخارى ومسلم عن أبى سعيد الخدرى قال « كنت جالسا فى مجلس من مجالس الأنصار ، فجاء أبو موسى فزعا ، فقالوا : ما أفزعك ؟ قال أمرنى عمر بن الخطاب أن آتيه فأتيته ، فاستأذنت ثلاثا فلم يؤذن لى ، فرجعت ؛ ثم قال لى عمر : ما منعك أن تأتينا ؟ فقلت : إنى أتيت فسلمت على بابك ثلاثا فلم تردوا على ، فرجعت ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا استأذن أحدكم ثلاثا فلم يؤذن له فليرجع ، قال عمر : لتأتينى على هذا الحديث بالبينة ! فقالوا : لا يقوم إلا أصغر القوم ، فقام أبو سعيد معه فشهد له ، فقال عمر لأبى موسى : إنى لم أتهمك ولـكنه الحديث عن رسول الله » !

وهذا من حذق عمر وفطنته ، فانه مع علمه بصدق أبى موسى ونزاهته ، أراده على أن يأتى بالبينة ليطمئن قلبه ، فلما أتى بهـا أفهمه أن ذلك لم يكن عن شك فيه أو تهمة ، وإنما هو الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن حقه أن ينفى عنه أيسر الشبهات ! !

وكان من نتائج ذلك أن هاب الناس عمر ، فـلم يكثروا من رواية الحديث ؛ وقد كان على مذهب عمر فى ذلك جماعة من كبار الصحابة ، منهم عبد الله بن مسعود ، ومنهم على بن أبى طالب .

فأما عبد الله بن مسعود فقد كان يقل الرواية من الحديث ، ويتورع فى الألفاظ ، ويقول فى ذلك أبو عمر الشيبانى : « كنت أجلس الى ابن مسعود حولا لا يقول قال رسول الله ، فإذا قالها استقلته الرعدة ، وقال : هكذا أو نحو ذا أو قريب من ذا ... الخ »

وأما على رضى الله عنه فقد روى عنه أنه قال : « كنت إذا سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثا نفعنى الله بما شاء أن ينفعنى به ، وكان إذا حدثنى غيره استحلفته ، فإن حلف صدقته » .

ولا شك أن هذا التشديد ، وهذا الاحتياط فى الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قد أثرا فى الفقه لهذا العهد ، بل امتد أثرهما لما بعده من عهود ، فإنه لما كثر الحديث فيما بعد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أصبح الحذاق يرجعون الى الأحاديث التى كانت تروى لعهد عمر ، فإنها أوثق . روى ابن علية عن رجاء بن أبى سلمة قال : « بلغنى أن معاوية كان يقول : عليكم من الحديث بما كان فى عهد عمر ، فإنه كان قد أخاف الناس فى الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

(٢) ومنها أن عمر رضى الله عنه وأبا بكر من قبله ، كانا يتحريان أن يصلا الى ما يشبه الإجماع ، فكانا يستشيران المسلمين فيما يعرض من المسائل ، ويفسحان لهم مجال النقاش والتفاهم ثم يقضيان بما يظهر .

أخرج البغوى عن ميمون بن مهران قال : « كان أبو بكر إذا ورد عليه الخصوم نظر فى كتاب الله ... الى أن قال : فان أعياه أن يجد فيه سنة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم جمع رءوس الناس وخيارهم فاستشارهم ، فان أجمع رأيهم على شىء قضى به . وكان عمر رضى الله عنه يفعل ذلك ، فان أعياه أن يجد فى القرآن والسنة نظر هل كان فيه لأبى بكر قضاء ؟ فان وجد أبا بكر قضى فيه بقضاء قضى به ، وإلا دعا رءوس الناس ، فاذا اجتمعوا على أمر قضى به » .

وروى الضبى عن أشعث عن عامر قال : « إذا اختلف الناس فى أمر فانظر كيف قضى فيه عمر ، فانه لم يكن يقضى فى أمر لم يُقض فيه قبله حتى يشاور » .

وكان من آثار ذلك قلة الخلاف بين الصحابة ، ووضع أساس فكرة الشورى ، وتقررها بين المسلمين .

(٣) ومنها أن الصحابة رضوان الله عليهم ما كانوا يكلفون أنفسهم مشقة البحث فى الفروض ووضع الأحكام لما عسى أن يحدث — فيما بعد — من الأحداث ، بل كانوا يكرهون ذلك ، ويعرضون عنه .

روى عن زيد بن ثابت أنه كان إذا استفتى فى مسألة سأل عنها ، فان قيل له وقعت أفتى فيها ، وإن قيل لم تقع قال : دعوها حتى تكون !

وكان من آثار ذلك أن قلت كمية الأحكام المستنبطة تبعا لقلة الحوادث الفعلية .

هذه خلاصة لحال الفقه فى مركزه الرئيسى وهو المدينة لعهد عمر ، وهو العهد الذى فتحت فيه مصر ، فلنترك هذا الآن ولننظر فى حالة مصر نفسها فى ذلك الوقت ، وكيف دخل اليها الفقه الاسلامى .

٣ – كيف كانت مصر قبيل الفتح :

كانت مصر قبيل الفتح الاسلامى تعيش تحت ظلال الحكم الرومانى كما يعيش الأسير المعذب ، والذليل المستعبد ، وكأنما كانت القاعدة فى حكمها هى الظلم المطلق الذى لا يعرف حدا يقف عنده ، ولا مدى ينتهى إليه .

وكانت مصر تنظر الى ذلك كله وتعانى منه ما تعانى ، من غير أن تستطيع لهذا العناء دفعا ، ولا من هذا الظلم مهربا ، لأنها كانت لا تملك أمر نفسها . ولأن هؤلاء الولاة كانت تفرضهم عليها دولة سرت فيها عوامل الفساد ، ودب اليها دبيب الشيخوخة ، وآذنت حياتها بالانقضاء والزوال ، فمن أين لهؤلاء الولاة أن يشعروا برقابة فعالة قوية تخفف من غلوائهم ، وتخفض من كبريائهم ! !

ورأت مصر المسكينة أن تصبر على هذه الحقبة من تاريخها ، وأن تستسلم لبلواها ، وتخضع للمستبدين على كره منها ، وكأنها ترقب حادثا تاريخيا يقع فيغير منهاج حياتها ، وينقذها من مفترسيها ، ويفتح لها صفحة جديدة من صفحات المجد ، ويكتب لها فصلا خالدا من فصول التاريخ . وكان الله قد أذن بذلك ، ومن سنته أن يأتى النور بعد الظلمة ، والفرج بعد الشدة ، والبعث بعد الموت والفناء .

فجاء اليها المسلمون ينسلون من الصحراء ، تسبقهم هيبتهم الحربية ، وتدعو لهم شهرتهم بالعدل ومجافاة الظلم فيما يفتحون من بلاد .

فتلقتهم مصر كما تتلقى الأرض المجدبة غيث السماء ، تلقاهم الشعب بالبشر والارتياح ، وإن تلقتهم الحكومة بالحرب والكفاح : الشعب يريد أن يخلص من أسره وينتقم من ظالميه ، والحكام يريدون أن يحافظوا على أنفسهم ، ومناصبهم ، ومتاعهم .

ودخل المسلمون مصر ، لأن الله أراد ذلك ، ولأن الشعب أراد ذلك ، ولأن الحكام بقسوتهم وسوء سياستهم قد مهدوا لذلك !

وابتدأت مصر تكتب صفحتها الجديدة الخالدة !

محمد محمد المدنى
المدرس فى كلية الشريعة

المحاماة قديما وحديثا عند الامم

أسلفنا فى عدد سابق من هذه المجلة شطرا من الكلام عن أوضاع المحاماة فى عهود مختلفة كعهد الكلدانيين والمصريين واليونانيين والرومانيين ، وكيف أن فن المحاماة بلغ من النضوج العقلى والخطابى والأخلاق مستوى تتقاصر عنه الهمم فى كثير من نواحيه فى عهدها الأخير ، وكيف أن الحذر من تطرق الوهن الى مهنة المحاماة بلغ عند الجمهورية الرومانية مستوى يثير الإعجاب ويستحث الألباب ، حتى إنهم حظروا على المحامى أن يتخذ فى مجلس القضاء نوعا من التأثير عليه إرادة تحويله عن اتجاهه أو الهيمنة على شعوره ، ليجرى القضاء على سنن واضح من العدالة ، ويتخذ الى بث الطمأنينة فى قلوب المتقاضين طريقا مستساغا .

ولذلك صدر قانون قضى على الخطباء بأن لا يتخذوا المقدمات كوسيلة لتغطية الحقائق والتأثير على القضاء فى دفاعهم ، وأن يمتنعوا عن كل قول من شأنه استجلاب الرفق بموكليهم أو إثارة الغضب ضد خصومهم ؛ كما قضى على القضاة بأن لا ينظروا ولا يقيموا وزنا لما قد يبذله من وسائل استعطافهم ، حتى لقد بلغ من حرصهم على بقاء ذلك الطابع سليما من عبث العابثين ، وقوف منادين على المتقاضين والمحامين فى أول افتتاح كل جلسة ليذكروهم بنصوص القانون ، حتى لا يستخدم أحدهم تلك الوسيلة لينال الفوز فى خصومة باطلة .

وكان من أثر هذا القانون فتور عزائم الخطباء من المحامين ، ونحى بعضهم نحو الإطالة والإسهاب ، فصدر قانون يحدد زمان المرافعة لكل خطيب ، وجعلت مدته الكبرى ثلاث ساعات ، واتخذت فى قاعة الجلسة ساعات مائية لملاحظة ذلك .

وكان من المتعارف أن لا يخرج المحامون عن جادة الكمال والتواضع ، ولا يسعوا عند القضاة ليمهدوا طريق النجاح ، وأن لا يخطبوا فى المسألة الواحدة مرتين ، وأن يمتنعوا عن الشتائم ومر الكلام ، وأن لا يضربوا بأرجلهم الأرض فى خطابهم ، وأن لا يشوشوا على القضاة وهم يتداولون ، وأن ينسحبوا من الجلسة بالهدوء والسكينة ، وأن لا يجمعوا الناس حولهم . ومن خالف منهم تلك الوصايا كان عقابه التغريم .

وكانوا غير مأجورين على عملهم ، وإنما كانوا يكافأون بارتقاء الوظائف فى الحكومة ، لأن ذلك العهد كان قليل الخصومات ، ولأن انتخاب المحامين كان من بين الأسر الثرية ، لأن تقاليد الدولة كانت تعتبر المحامى عونا للقاضى فى أداء مهمته . ولو فهمت الحقائق على أوضاعها فى عصرنا الذى نعيش فيه لكان للمحاماة مع القضاء نوع من الازدواج على الأقل . وهنا يحكى العلامة « فتحى باشا زغلول » أن أول من أخذ أجرا من موكله هو « أنطيفون » ، وتبعه الباقون .

غير أن مبدأهم لم يتغير وهو نيل الشرف، وخدمة العدالة، ومساعدة صاحب الحق على أخذه. ولما جذب حب المال بعض أولئك الخطباء، وصار الكسب ضالتهم، عابهم قرناؤهم، ولامهم الناس لوما شديدا. ولم يغب عن الروما نيين منذ عهدهم الأول أن العدالة كيان الدولة، وأن القضاء أهم أركان العمران فى الأمم، ولذلك اختار «دومولوس» وهو أول ملوك الرومان عددا من الأشراف وشكل منهم مجلس الأعيان، وجعل الباقين من أمثالهم فى العلم قوّاما على مصالح الطبقة الثانية فى الأمة. فانقسم الناس الى فريقين: فريق المتبوعين ومنهم أعضاء المجلس، وفريق التابعين. وكان التابع يحترم متبوعه كما يحترم الولد أباه والعبد سيده، وحددت واجبات كل فريق بالنسبة الى الفريق الثانى، فلم تقتصر نسبة المتبوع الى تابعه على ما عليه الآن من نسبة المحامى الى موكله، بل كانت أوسع مجالا وأكثر مهاما. فكان يجب على المتبوع أن يعين تابعه فى جميع أموره، ويستخدم فى مساعدته ما أتيح له من العزة والجاه، وما لديه من العلم والمال، وهو الذى يشد أزره فى معاملاته عند الحاجة، ويقوم بالدفاع عنه أمام القضاء. وسوف نحاول فى فرصة أخرى أن نعرض للأدوار التى قطعها فن المحاماة فى عصوره المختلفة. فالى الأعداد القادمة؟

عباس طه

القول السديد، فى تفسير آيات النسخ والطلاق والربا من القرآن المجيد.

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ محمد الحسينى الظواهرى جولات فى تفسير الآيات الشريفة التى يكثر البحث فى موضوعها، وهو إذا عالج مسألة وفاها حقها بحثا واستقراء، ولم يدع مما يتصل بها قولا إلا أتى به ومحصه واعتصر مصاصته.

فأما مسألة النسخ فقد أفسح لها من كتابه سبعا وأربعين صفحة جاء فيها بكل ما يحسن الإلمام به عنها، وليس يخفى أن للمعتزلة والخوارج والملاحدة نظرا فيه يخالفون به أهل السنة، فأتى بكل ذلك وحتى ما كان منه بعيد المنال مما يدل على سعة الاطلاع وحب الاستيعاب.

ثم أفاض فى مسألتى الطلاق والربا على هذا النحو من الاستقراء والتفصيل، فجاء كتابه جامعا لكل ما يود محبو التوسع فى هذه المسائل أن يجدوه بين دفتى كتاب خاص.

فنشكر لفضيلة الأستاذ الموفر خدمته العلمية. لا زال موفقا فى اختياره، مسددا فى تقريراته.

تأخير بعض المقالات

تأخرت لدينا مواد، وخاصة (معرض الآراء العالمية) بسبب ضيق المقام.



بدء الصراع بين الحق والباطل ـ وقعة بدر وما سبقها من المناوشات

—

قلنا إنه بعد أن تمت هجرة النبي صلى الله عليه وسلم الى المدينة ، كانت حالة الحرب موجودة بين المسلمين والجاهليين . ولم يكن من الكياسة أن يتجاهلها الأولون فيتركوا لخصومهم الوقت الكافى للاستعداد لسحقهم فى دار هجرتهم ، هم ومن قبلوا دعوتهم من أهل معقلهم الجديد ، فكان من أوجب واجباتهم أن لا يغفلوا طرفة عين عن العمل لإضعاف عدوهم بكل ما يستطيعون من الوسائل . ومن أفعلها بهم أن يحاصروهم من الناحية الاقتصادية ليقطعوا عنهم المدد الذى يتمكنون به من الثبات فى مكافحتهم ، وليضطروهم الى التعجيل بمنازلتهم حتى لا يتخذوا من مطاولتهم عونا لهم على حل جماعتهم .

فكان أول ما ارتآه النبي صلى الله عليه وسلم من وسائل مناهدة الجاهليين ، إيصادطريق التجارة الخارجية فى وجوههم من ناحية الشمال . وكان من عادتهم أن يتبادلوا وسورية المحصولات والمصنوعات والمواد الأولية . ولما كان لا يمكن الوصول الى الشام إلا من طريق يثرب ، ندب رسول الله عمه حمزة بن عبد المطلب أن يقوم على رأس ثلاثين مقاتلا ليستولوا على تجارة لقريش وهى آيبة من سورية ، وكان يحرسها ثلاثمائة من رجال قريش تحت قيادة أبى جهل من كبار أعداء الدعوة الاسلامية . فصادف حمزة تجارة قريش عند ساحل البحر الأحمر من ناحية العيص ، وهى قرية من قرى المدينة ، فتصدى لقتال حماتها ، وتصافّ الفريقان فحجز بينهم أحد رجالات تلك الناحية : مجدى بن عمرو الجهنى ، ومرت القافلة بسلام . فشكر النبي صلى الله عليه وسلم مجديا على ما عمل ، لقلة عدد المسلمين بالنسبة لعدد عدوهم .

ثم بلغ النبي أن تجارة لقريش فى طريقها الى الشام ، فندب عبيدة بن الحارث على رأس ثمانين مقاتلا لاعتراض تلك التجارة . فصادفها ببطن رابغ ، وهو واد قريب من البحر بين مكة والمدينة ، فترامى الفريقان بالنبل ، ثم انهزم القرشيون خشية أن يكون هؤلاء الثمانون طليعة لجيش من المسلمين كمن لهم هنالك .

وخرج النبي صلى الله عليه وسلم نفسه فى السنة الثانية من الهجرة قاصدا أن يستولى على تجارة قريش فوجد القافلة قد أفلتت . وانتهز بنو ضمرة هذه الفرصة فاتفقوا مع رسول الله على التعاون فى الحرب ، ينجدهم وينجدونه وهم باقون على شركهم .

ثم خرج النبي صلى الله عليه وسلم بمائتى مقاتل عند ما بلغه أن تجارة لقريش راجعة من الشام مؤلفة من ألفين وخمسمائة بعير ، يحرسها مائة مقاتل ، تحت قيادة أمية بن خلف . فلما بلغ بواط ، وهى جبال جهة ينبع ، وجد القافلة قد مرت .

ثم خرج مرة ثالثة على رأس مائة وخمسين رجلا ، وقد بلغه أن تجارة لقريش فى طريقها الى الشام يحرسها بضعة وعشرون رجلا تحت قيادة أبى سفيان بن حرب ، فوجد القافلة قد مرت سالمة ، فعاد الى المدينة يترقب رجوعها . وقد بلغه أن فى هذه القافلة معظم أموال قريش .

فى هذه الأثناء أغار رجل من أصحاب الغارات اسمه كرز بن جابر الفهرى على سرح المدينة (١) واستاق عددا منها وهرب ، فخرج النبي صلى الله عليه وسلم يتأثره(٢) حتى بلغ سفوان ، وهو واد من بدر ، فوجد أن كرزا قد أفات . وتسمى هذه غزوة بدر الأولى .

وفى رجب من هذه السنة الثانية ، أرسل رسول الله فصيلة مؤلفة من ثمانية رجال تحت قيادة عبد الله بن جحش ، وسلم إليه كتابا مختوما وأمره أن لا يفضه إلا بعد أن يبعد عن المدينة مسيرة يومين . ففعل ما أمره به ، ووجد فى الكتاب هذه العبارة : « إذا نظرت كتابى هذا فامض حتى تنزل نخلة فترصد بها قريشا وتعلم لنا من أخبارهم » .

لا مشاحة فى أن ما فعله النبي صلى الله عليه وسلم من استخدام طريقة الأوامر المختومة كان منه عملا لم يسبقه إليه قائد حربى فى جزيرة العرب ، حيث الأمية كانت ملقية بجرانها لديهم ، وربما كان عملا لم يسبق إليه فى العالم كله ، وهو يدل لأول وهلة على مبدأ التجديد الذى جعله الاسلام شعار أهله فى جميع محاولاتهم ، سواء أكانت فى حركاتهم الحربية أم فى محاولاتهم المدنية ، حتى بلغوا فى سنين معدودة الى ما لم تبلغه الأمم فى قرون كثيرة ، كما سنبينه فى مواطنه من هذه السيرة .

سار عبد الله بن جحش على رأس رجاله متوخيا تنفيذ ما أُمر به ، وقد تخلف منهم اثنان لإضلالهما بعيرا كانا يعتقبانه . فلما وصل الى مكان يقال له نخلة ، مرت به قافلة لقريش يحرسها أربعة رجال ، فحمل عليها برجاله فقتلوا واحدا وأسروا اثنين ، واستاقوا الإبل وما حملت ، ورجعوا بهم الى المدينة . فعابهم المسلمون على ما فعلوا لأن قتالهم وقع فى شهر رجب ، وهو شهر كان يحرم فيه القتال عند العرب ، وقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم : أنا ما أمرتكم بقتال فى الأشهر الحرم .

---

(١) السرح : المال السائم من ابل وغنم وبقر الخ . (٢) يتأثره أى يتتبع أثره

وعابهم اليهود ، وسلقتهم قريش بألسنة حداد . فندموا على ما فعلوا ، فأنزل الله على رسوله فى هذه الحادثة قوله تعالى : « يسألونك عن الشهر الحرام قتالٍ فيه ، قل قتالٌ فيه كبير ، وصدٌّ عن سبيل الله وكفرٌ به ، والمسجد الحرام ، وإخراجُ أهله منه أكبر عند الله ، والفتنة أكبر من القتل » فسُرِّى عنهم .

ومعنى هذه الآية : يسألونك يا محمد عن الشهر الحرام أيجوز القتال فيه ، فقل لهم القتال فى الشهر الحرام ذنب كبير ، ولكن الصد عن سبيل الله ، والكفر به ، والصد عن المسجد الحرام وإخراج أهله منه يعتبر عند الله ذنبا أكبر من ذنب القتال فى الشهر الحرام ؛ وما فيه الكافرون من الجاهلية الجهلاء أكبر هولاً من القتل الذى ارتكبته السرية التى يرأسها عبد الله بن جحش فى الشهر الحرام .

هنا لا نرى بداً من لفت الأنظار الى انتقال خطير فى فهم علاقة الحياة البشرية بالتقاليد الدينية ، افتتح به الاسلام عهدا للإصلاح الجلل الذى حمله للانسانية ، وحمى وجوده الخالد به من صدمات فادحة تقتضيها الانتقالات العقلية والاجتماعية فى خلال الأطوار المتعاقبة التى لا تبقى من الأوضاع القديمة إلا أطلالا دارسة لا يكون لها وجود إلا فى ذكريات أهلها دون أن يكون لها تأثير فى حياتهم الدنيوية .

ونحن لأجل بيان هذا الإجمال نقول :

إن الذى عابته قريش على قائد السرية النبوية من خرقه حرمة الشهر الحرام ، كان يرتكبه الجاهليون على وجه يسجل عليهم الجمود والتلاعب معا . فقد كانوا إذا اضطروا للقتال فى شهر حرام ، ارتكبوه ، ولكن تحت ستار حيلة صبيانية ، وهى أنهم كانوا يتقاتلون فى أى شهر حرام أياماً ويحرمون القتال أياما على عددها من شهر غير حرام . كما يضطر مريض للفطر أياما من رمضان ويصوم بعددها أياما من أى شهر آخر ، أداء لما فاته من الأيام المفروضة . وقد فضح الله أمر الجاهليين فى هذه الناحية بقوله تعالى : « إنما النسىء زيادة فى الكفر يُضَل به الذين كفروا ، يحلونه عاما ويحرمونه عاما ليواطئوا عدة ما حرم الله ، فيحلوا ما حرم الله ، زُين لهم سوء أعمالهم والله لا يهدى القوم الكافرين » . وهذا الذى كان يسميه الجاهليون بالنسىء هو إبدالهم أياما عادية بأيام من الأشهر الحرم كما قدمنا ، ليستمروا فى القتال والتناحر ، وهذا العمل زيادة فى الكفر يضل به الشيطان الذين كفروا ، يجعلونه حلالا عاما ، وحراما عاما آخر ، وقد زُينت لهم أعمالهم السيئة ، والله لا يهدى الكافرين .

والفرق بين الذى كان يأتيه الجاهليون وبين ما رخص فيه الله ، كبير . فالأول مبنى على الحيلة التى لا تجوز على الجاهلين ، وتنطوى على معنى التلاعب والاستخفاف ، ومثل هذا التحايل فى حياة الأمم الأدبية ، يفضى الى إباحات لا تحصى لا تبقى معها شريعة ، ولا يصان معها من العبث أصل .

ولكن الثانى وهو الترخيص فى القتال فى الشهر الحرام ، فقائم على أصول قيمة يبتنى عليها انتقال بعيد المدى لعقلية الشعوب ، ويضع حدا للجمود على الأوضاع ، ويقضى على صفة خسيسة فى النفوس ، وهى التحلل من الواجبات بحيل صبيانية .

أما الأصول التى يقوم عليها هذا الترخيص ، ولها هذا الأثر الضخم فى حياة الجماعات أدبيا واجتماعيا ، فهى :

(أولها) أن كل تحليل أو تحريم فى الدين إنما قصد به مصلحة الانسانية ، ولم يقصد به تسخيرها أو تعطيل تقدمها ، فلا يجوز التحايل لتحريم حلال أو تحليل حرام جريا مع الهوى . فاذا حدث ما يوجب إعادة النظر فى حِلِّية ما هو حلال ، أو حرمة ما هو حرام ، ففى الدين الحق نفسه ما يغنى عن هذا التحايل . والدين فى هذا كعلم الصحة ، فإن فيه حلالا وحراما لا يجوز تعدى حدودها بالتحايل ، فإن احتيج للتحلل من أحدها فلا يجوز أن يعمد الى ذلك إلا بالاستهداء بمبادئ ذلك العلم نفسه . فان لم يوجد فيه ما يسوغ ذلك التحلل ، وجب الوقوف عند حده ، وإلا أصبح لا فائدة من وجوده .

(ثانيها) وجوب الاعتداد بالأحوال ، فان الشيء قد يكون ضروريا أو نافعا أو حسنا فى حال ، ونافلة أو ضارا أو قبيحا فى حال آخر . وأصحاب الأديان قبل الاسلام كانوا يمنعون النظر فى الأحوال فيلجأ الناس للاحتيال ، ويلجأ قادتهم إليه ، حتى أصبح الدين فى نظر الناس مع تقلب ضروب التحايلات عليه رسما لا حياة فيه .

(ثالثها) وجوب تقدير الأمور ، ومعرفة حدودها ، وتطبيقها على الأمر الذى تقضى به المصلحة الحقيقية ، لا الرغبة الخيالية ، وبنائه على الأصول المقررة ذات الأثر الذى يعم الكافة ، لا على الشهوات الشخصية التى تقوم على الأثرة أو الوحشية أو الانتقام ، بصرف النظر عن المصلحة الاجتماعية .

هذا التقدير للأمور فى الاسلام يجرى على مبادئ عامة ، ويقوم على أصول لم تملها الأهواء الشخصية ولا القومية ، ولكن أملتها مصلحة العالم الانسانى كله ؛ يشهد بهذا ما احتواه الكتاب جملةً من الوصايا بوجوب تحرى الحق مجرداً من كل صبغة ، وتطلّب المصلحة العامة وإن ناقضت المصلحة الخاصة .

(رابعها) تقديم المنفعة العالمية على الأوضاع التقليدية ، لأن الذى يتفق والمنطق هو أن كل وضع تقليدى إنما وضع فى الاسلام للمصلحة العالمية باعتبار أنه دين عام للبشر كافة ، لا أنه وضع باعتبار آخر أيا كان نوعه ، فإن الله غنى عن العالمين ، وقد جاء فى الكتاب : « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » ، وقوله : « ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ، ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم » .

فكل وضع دينى أو عمل تقليدى إنما أريد به فائدة العالم نفسه . وقد جرى الاسلام على هذا الأصل فى كل ما أمر به ونهى عنه ؛ فانه فرض الفرائض واستثنى منها المرضى ومن كانوا على سفر ، وحرم أشياء وأباحها للمضطرين اليها ، فقد قال : « فمن اضطُر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه » ، حتى أنه أباح للمسلم أن يتظاهر بالصبوء عن الاسلام تفاديا من هلاك نفسه، فقال تعالى : « إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان »

ولكن الأمر على عكس هذا لدى الأمم التى سبقت الاسلام ، فكان الأمر التقليدى لابد من القيام به ولو أتى على نفس الانسان . فوقع لهذا السبب من أهل تلك الأديان من التحايلات والمحللات ما يخجل أن يرتكبه عاقل . ولهذا السبب أيضا اعتبرت أكثر ما فى الأديان السابقة من تقاليد ، آثارا قديمة لا تقبل التطبيق على أهل هذا العصر فتُركت جملة .

ولكن الاسلام دين أنزل ليُعمل به ، ويُسار على هديه ، فكان لابد له من هذه القواعد التى تؤتى أوامره ونواهيه من المرونة ماتسمح له أن يوصى بها فى كل زمان ومكان ، وأن يطالب بها الناس ، ويهيب بهم اليها ، فى الحدود التى قررها لهم فى كتاب الله وسنة رسوله .

هذا الفهم الجديد للدين وللأوضاع المقررة فى الدين ، نقلت المسلمين من عداد الأمم التقليدية الى مصاف أمم خالصة من القيود لم توجد إلا فى القرون المتأخرة ، ولكن مع هذا الفارق العظيم ، وهو أن المسلمين على أى حال كانوا حيال التقاليد الدينية خضعوا لسلطان المبادئ الأدبية الخالدة ، مهدرين فى هذا السبيل الفوارق القومية ، والخصوصيات المحلية . فهم فى الوقت الذى يعلنون فيه أنهم يعتدُّون بالأحوال ، ويقدرون الأمور ، ويقدمون المصلحة الإنسانية على الأوضاع التقليدية ، يصرحون فيه بأنهم أشد الأمم تقيداً بالمبادئ الأدبية الخالدة ، والأصول العمرانية الحقة ، ويتشددون فى ذلك تشدداً كله خير وبركة على المجموعة البشرية .

والاسلام لم يقرر هذه المبادئ ليتحلل أهله من التقاليد المرعية فى الناحية الإيجابية فحسب ، ولكن فى الناحية السلبية أيضا ، فانه كما انتصر لعبد الله بن جحش قائد السرية فيما فعل من قتال المشركين فى الشهر الحرام ، أنكر على من لم يأخذ بالظاهر من أعمال الخصوم . فقد قتل صحابى فى الحرب رجلا نطق بكلمة الشهادة ، عندما أحيط به وأدرك أنه هالك ، فآخذه النبى صلى الله عليه وسلم على ذلك وتبرأ من عمله ، ونزل فى ذلك قرآن ينهى عن مثل فعله . فقال الصحابى فى دفاعه عن نفسه : يا رسول الله إنما قالها والسيف هاوٍ على رأسه ، ليتقى بها التلف عن نفسه . فرد عليه النبى صلى الله عليه وسلم شبهته بقوله : إننا أمرنا أن نأخذ بالظاهر والله يتولى السرائر .

فهذا الأصل الدال على أسمى ما يعرف عن العاطفة الإنسانية ، يجب أن يسجل للإسلام

فى أوجهِ صحف الدعوة الدينية . وإذا أضاف القارئ الى ذلك ما يعلمه عن الوحشيات التى استخدمها متحمسة الدينيين غير المسلمين فى مقاتلة خصومهم ، والتنكيل بمن لا يدين بدينهم ، حتى أبادوا فى فورة هذه الحماسة الجاهلية أمما برمتها ، أدرك مبلغ سمو هذا الأصل فى الاسلام ، وتنور مصدره الإلهى البحت .

وهذا الفهم الجديد للتصرف حيال التقاليد الدينية فى أمر هـذه الحادثة البسيطة ، لازمَ المسلمين فى جميع تصرفاتهم الاجتماعية ، فلم يجمدوا حيال الأمور ويمضوا فيها على ما توجبه التعاليم المقررة ، بدون فهم ، ولكنهم أعملوا أفهامهم ـ بأمر من كتابهم وبسنة من رسولهم ـ فلم يتكاءدهم أمر مهما أعضل ، ولاحيَّرهم خطب مهما أشكل ، بل واجهوا الأهوال بصدور رحبة ، ووجوه طلقة ، وعقول عمرت بأرفع المبادئ ، وقلوب استنارت بأسمى الأصول ، جاعلين غرضهم الأول جعْل كلمة الله هى العليا ، وكلمة الكفر هى السفلى ، ولكن فى غير عنف يوصم صاحبه بالجهل ، ولا عسف يقف براكبه دون الغاية ، ولا وهم يفتح أمام الخاضع له أبوابا من التخيلات تورطه فيما كان فى غنى عن التورط فيه . وكذلك تفعل المبادئ القويمة إن فهمت على وجهها ، وأُخذت على حقيقتها ، وقام بتلقينها رسول جمع من عقائل الصفات الانسانية ، وخصوصيات النفسية النبوية ما جمعه النبى صلى الله عليه وسلم ؟

محمد فريد وجدى

فى الظن والفراسة

قال النبى صلى الله عليه وسلم : « إن فى كل أمة محدَّثين ، أو مروَّعين ، فان يكن فى هذه الأمة أحد فان عمر منهم » .

المحدَّث : المصيب فى رأيه كأنما حُدث بالأمر . والمروَّع : الذى يلقى الأمر فى رُوعه أى قلبه أو عقله .

وقال على رضى الله عنه : ما أضمر أحد شيئا إلا ظهر فى فلتات لسانه وصفحات وجهه .

وقيل : اعتبر بما فى قلب أخيك بعينه ، فالعين عنوان القلب . وقدنظم شاعر هذا المعنى فقال :

ألا إن عين المرء عنوان قلبه تخبر عن أسراره شاء أم أبى

هذا ولا يجوز أن ينسى أحد قوله تعالى : « إن بعض الظن إثم » ، فلا يسترسل فى التظنى ، متوهما أنه من المحدَّثين أو المروَّعين ، فيتهم الناس بما لم يفعلوا اعتداداً بأوهامه .



سورة الاعراف(١)

الولاية لله وحده :

قال الله تعالى : « اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء ، قليلا ما تذكرون » :

بعد أن قوّى عزيمة الرسول ، ونصحه بالصبر وقوة الاحتمال ، إعداداً للقيام بمهمة الإنذار والذكرى ، بيّن هنا صيغة الإنذار العام الذى يوجهه الى الناس أجمعين ، فقال : « اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم » . وهو تحديد للتشريع الذى يجب اتباعه ولا يجوز العدول عنه ، وهو ما كان صادرا من الله ربكم ، خالقكم ومربيكم ، والعليم بنفوسكم ، فإنه قد أرسل الرسل لهدايتكم وتهذيب فطركم ، وشرع الأحكام لمصالحكم وإسعادكم فى الدنيا والآخرة .

وأما قوله : « ولا تتبعوا من دونه أولياء » فهو فى الحقيقة نهى عن اتخاذ غير الله وليا يرجع إليه الناس فى التشريع ، وفى التحليل والتحريم . وإذا كان مصدر التشريع الحق هو الولى الحق ، فلا ينبغى اتباع غيره ولا التوجه إليه . وقد قرر القرآن الكريم فى غير آية أن الولاية لله جميعا ، ونعى على من يتخذ وليا من دونه ، سواء أكان باعتقاد أن فيه سلطة غيبية ، أو فيه قداسة تحمل على اتباع آرائه وتشريعه . اقرأ إن شئت : « قل أغيرَ الله أتخذ وليا فاطِر السموات والأرض وهو يُطعِم ولا يطعَم » ، « أم اتخذوا من دونه أولياء ! فالله هو الولى » ، « الله ولىُّ الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور ، والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور الى الظلمات » .

هذا هو الأصل الذى يوجب على الانسان أن يلتزم ما أنزل الله ، وأن يبعد بالأديان عن تصرفات الأهواء والرؤساء ، والآباء والأجداد ، فمن عبد الله بما لم يأذن به الله وإنما استحسنه هو أو استحسنه غيره وقلده فيه ، فقد اتخذ وليا من دون الله ، ومن توجه

(١) بقية البحث المنشور بهذا العنوان فى العدد السابق .

فى شدائده وكشف همومه ومغفرة ذنوبه الى أحد من خلق الله ، فقد اتخذ وليا من دون الله . ومن هذا وذاك حُرّفت الأديان ، وبدّلت الشرائع ، وانطمست معالم الحق فيها . وكذلك نشأت عبادة غير الله ، وعبد الانسان ما لا يضر ولا ينفع ، ووقع فى طريق الغى والضلال .

ثم أشار الله بعد ذلك الى أن اتخاذ الله وليا ، والبعد عن ولاية غيره ، هو ما تقضى به الدلائل الفطرية ، ولكن قليلا ما يتذكر الناس هذه الأدلة وما تقضى به من إخلاص التوحيد لله ، والرجوع بكل شىء فى السكون اليه ؛ وذلك قوله تعالى : « قليلا ما تذكرون » .

ثم قال تعالى : « وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتاً أَوْهُمْ قَائِلُونَ » :

هذا هو التخويف الذى قرن به التبليغ السابق . وإهلاك الله للأمم إنما يكون بمخالفتها للسنن التى عقد الله بها الحياة الطيبة ، والشرائع التى أنزلها تنظيما لتلك الحياة . فاذا ما ظهر الظلم فى أمة ، وفشا فيها الغش والخداع ، وانصرف الناس عن الصالح العام ، وانتهكوا حرمات الله ، اختل نظامها ، وانحلت قواها ، وفسد أمرها ، وضعفت منعتها ؛ عندئذ يبادرها الله بالإهلاك أثرا طبيعيا لطغيانها ، فيأخذها من مأمنها ، ويأتيها من حيث لا تحتسب ، بياتاً وهم نائمون ، أو نهاراً وهم قائلون : « وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون » .

وليس إهلاك الله للأمم قاصرا على الأخذ بالصيحة ، أو بالريح العاتية ، بل له نوع من الإهلاك أشد فى النفوس أثرا : ذلك هو فقد عزتها ، وذهاب قوميتها ، وذوبانها فى غيرها ، واستعباد غيرها لها ، فيذلها ، ويسلب منها خيراتها : « وقضينا الى بنى إسرائيل فى الكتاب لتفسدُنّ فى الأرض مرتين ولتعلُنّ علواً كبيرا ، فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عباداً لنا أولى بأس شديد . فجاسوا خلال الديار ، وكان وعداً مفعولا » .

ثم قال : « فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلاَّ أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ » :

تقرير لطبيعة المذنب الذى أحاطت به خطيئته ، ونزل به ما يستحق من عقوبة : يندم ويتحير ، ويعترف بظلمه ، ويُنحى على نفسه باللائمة ؛ ولكن هيهات أن تنفعه ندامته ، أو تغنى عنه من الله معذرته ؛ إنما العلاج الحق هو ما رسمه الله تعالى بقوله : « إن الله لا يغيّر ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » . فعلى الأمم التى وقعت من جراء ذنوبها فى استعباد غيرها لها ، وإذلاله إياها ، أن تنشط من عقالها ، وتذكى روح العمل والنشاط والغيرة فى نفوس أبنائها ، حتى تحيا حياة طيبة ، وتحفظ لنفسها العزة والكرامة .

ثم قال تعالى : « فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين . فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين . والوزن يومئذ الحق ، فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون . ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون » :

بعد أن بين أنه أنزل الكتاب على الرسول لتبليغه والإنذار به ، وأمر الأمم بالاتباع ، وحذرهم المخالفة ، وأنذرهم عاقبتها بالمثلات التي خلت - أكد في هذه الآية أن الأمر ليس قاصرا على مظاهر النكال في الدنيا التي ينتهي أمدها بانتهائها ، وإنما له شأن آخر في يوم يفرغ فيه للثقلين ، ويتمحض الملك فيه لقوته القاهرة وسلطانه العظيم ؛ ذلك الشأن هو أنه سيسأل الجميع : يسأل الأمم التي أرسل إليها : « ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي وينذرونكم لقاء يومكم هذا » ، « ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين » ، « فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون » ؛ ويسأل الرسل الذين كلفوا الإنذار والتبليغ : « ولنسألن المرسلين » ، « يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم » ، « فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا » .

يسأل هؤلاء وهؤلاء ، إظهارا للخزي ، وإقامة للحجة ، وهو المحيط بكل شيء علما ، فلا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء : « فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين » ؛ وإنما هو العدل الحق ، يتجلى بجميع مظاهره ، وينكشف من جميع جوانبه ؛ الحق الواضح الذي لا تشوبه أبهة جاه زائل ، ولا عظمة سلطان زائف ؛ الحق السافر الذي لا يحجبه غطاء ، ولا يصانع في إخفائه بزخرف أو رواء : « ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا ، وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها ، وكفى بنا حاسبين » .

الوزن والميزان :

« فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون . ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون » :

ثقل الميزان كناية عن عظم القدر والقيمة . وخفته كناية عن الحقارة وعدم الاعتداد . ولا يكون الانسان ذا قدر وقيمة إلا بأثره الصالح ، وعمله المبرور ، وسعيه المشكور . فإذا عدم الفضائل وانغمس في الشهوات ، وباعد بينه وبين فطرته التي خلق عليها ، وضاع منه استعدادها ، كان على العكس خفيف الميزان ، عديم القدر ، ساقط المنزلة . فالوزن تقدير من الله لأعمال عباده . هذا ما نؤمن به ، ولا نسترسل في الخيال فنزعم أنه سيضع ميزانا له لسان

وكفتان ، وأن ما يوضع فى الميزان سيجسد أو سيوضع فى أجساد ، وأن الميزان جنسه كذا ، وصفته كذا ، وطوله كذا ، وحمولته كذا ، الى آخر ما يقال فى هذا الشأن ؛ فهذا شىء لم يبينه القرآن ، ولم ترد به سنة يصح الاعتماد عليها . وإن الله الذى هدى الإنسان الى اختراع أدق أنواع الموازين ، ومكنه بها من تقدير كل شىء حتى العواطف النفسية ، والاضطرابات الفكرية ، لأجل وأعلى أن يكون ميزان حسابه فى يوم سلطانه المطلق ذا لسان وكفتين ، ولو وسعت كفتاه الأرض والسموات .

قال تعالى : « ولقد مكناكم فى الأرض وجعلنا لكم فيها معايش ، قليلا ما تشكرون » :

لما بين الله الإنذار العام ، وخوف من عذابه ، وذكر بيوم حسابه ، عقب ذلك بتذكير الناس بنعمه عليهم ، المستوجبة لشكره والتزام طاعته : مكنهم فى الأرض ، وسخر لهم كل شىء فيها مما يكفل لهم الحياة طيبة هنية ؛ منحهم القوى والقدرة على الانتفاع بما أودع فيها من حيوان ونبات ، وماء وهواء ، ومعادن فى باطن الأرض ، وطير فى جو السماء ، وأنهار جاريات : « وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها ، وترى الفلك مواخر فيه ، ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون » .

هذه أمثلة من أنواع تمكين الله لعباده فى الأرض ، وهى كلها نعم تستوجب الشكر « وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ، إن الإنسان لظلوم كفار » ، « وقليل من عبادى الشكور » « قليلا ما تشكرون » . وليس الشكر أن يقول الناس بلسانهم : نشكر الله ونحمده ، وإنما الشكر الذى يطلبه الله ويعد عليه بالزيادة من نعمه ، هو : أن يذكر فلا ينسى ، وأن يعبد فلا يعصى ، وأن ينفق العبد جميع قواه فى مرضاته وخدمته .

مكان العبرة من قصة آدم وإبليس :

قال تعالى: (١) « ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين » الى آخر الآيات التى تحدثنا بهذه القصة .

هذا تذكير آخر ، يذكرنا بخلق الانسان وتصويره ، واستخلافه فى الأرض ، وتكريمه

(١) ذكرت هذه القصة فى سبع سور من القرآن الكريم : البقرة ، والاعراف ، والحجر ، والاسراء ، والكهف ، وطه ، وص . وفى عناصر القصة معان خلقية لها أثر سىء فى حياة الافراد والجماعات . وقد حارب القرآن هذه المعانى جميعها ، وكرر القصة كلما عرض لها أو لبعضها . ففيها من جانب إبليس : استكبار وجهل وتغرير وحسد وسوء عاقبة المتمردين ؛ وفيها من جانب آدم : نسيان وتأثر بالتغرير وحسن عاقبة التائبين . وبمثل هذا يوجه السبب فى تكرار ما كرر من القصص فى القرآن .

على جميع خلق الله : ولقد خلقناكم بخلق أبيكم آدم ، وصورناكم فأحسنا صوركم ، ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم ، فسجدوا كلهم تنفيذا لأمر الله ، ولكن إبليس الذى كان ممن تناوله الأمر بالسجود فسق عن أمر ربه ، وأبى عتوا واستكبارا أن يكون مع الساجدين . ومن ذلك الحين ظهرت قوة الشر ، وجرثومة التمرد ، وعامل الإغراء على الفساد . عند ذلك سأله رب العزة ، وهو العليم بكل شىء ، عن السبب الذى منعه من السجود ، وحمله على المخالفة حينما أمره مولاه ؛ فأجاب بأنه أفضل من آدم وخير منه ؛ فاعترض بذلك على أمر الله ، ولم يرق فى نظره ، وأخذ يحاج ربه إمعانا فى الطغيان ، فقال : إن المادة التى خلقت منها هى النار وهى أشرف من المادة التى خلق منها آدم وهى الماء والطين . يخالف الله ، ويستظهر على أمره ، ويحتج فى خطابه . لما حاج ربه هكذا ، وأعلن تكبره واستخفافه ، مع اعترافه بأن الله هو الذى خلقه ، وأفاض عليه نعمة الوجود ، حكم الله بطرده من مكانة التكريم ، وإنزاله فى مكان التحقير والازدراء : « قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج إنك من الصاغرين » ، « قال فاخرج منها فانك رجيم . وإن عليك اللعنة الى يوم الدين » . عند ذلك أدرك إبليس أن طرده من رحمة الله كان بسبب امتناعه عن الخضوع لآدم ، فسأل ربه أن يُنظره ، ويمهله ، ويمد فى حياته الى يوم يبعثون . وقصدُه من ذلك أن تتهيأ له الفرص فيتمكن من إفساد الأمر على آدم وذريته ، بأن يوسوس لهم الوقوع فى المخالفة والعصيان كما وقع هو فيها من قبل ، فيطردوا من مكانة التكريم كما طرد هو أيضا من قبل ، فأنظره الله كما طلب ، وجعله فتنة لعباده ليميز به الخبيث من الطيب : « أحسب الناسُ أن يُترَكوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون » . عندئذ انكشف الغطاء عن نيته ، وما أكنه فى نفسه لآدم وذريته : « لأقعدن لهم صراطك المستقيم » ، ولآتينهم من جميع جهات الخير فأسدها عليهم ، وجميع جهات الشر فأفتحها لهم ، أزين لهم وأغريهم ، وأفسد عليهم أمرهم ، فيتبعون الشهوات ، ويعبدون الأهواء ، ويرتكبون المظالم ، ويسفكون الدماء ، ويفسقون عن الأوامر ، ولا تجد أكثرهم شاكرين . فأجابته الحكمة الإلهية مبرمة ما أرادت ، منفذة ما قضت .

« قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُوماً مَدْحُوراً » :

يعنى مذموماً مبعداً ؛ وسأحذرهم إياك ، وأبين لهم عداوتك ، وأذكّرهم بسابقتك ، فمن اتبعك منهم بعد ذلك فلأملأنّ جهنم منكم أجمعين . وبهذا كانت الحياة الدنيا حياة نضال وتزاحم بين الخير والشر ؛ فمن مالت روحه الى الشر واستجاب لدعوة إبليس ، فهو من حزب الشيطان « ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون » ؛ ومن مالت روحه الى الخير ، وتعوذ بالله من إبليس وشره ، فهو من حزب الله « ألا إن حزب الله هم المفلحون » ، « إن عبادى ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين » ، « إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون » .

قال تعالى : « ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما ، ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين » :

يصور الله لنا بهذه القصة الفرصة الأولى التى انتهزها إبليس فى توعده آدم وذريته ، وهى أول محنة امتحن بها الانسان ، وكانت فى علتها وعلاجها أساساً لكل محنة تقع فى الأرض بعدها : أسكن الله آدم الجنة مع زوجه ، وأباح لهما أن يأكلا منها رغدا ، وأن يتمتعا بكل ما فيها سوى شجرة معينة نهاهما عن الأكل منها . وهكذا كانت شرائع الله فى أرضه : إباحة وتحريم ، وأمر ونهى ، فأخذ إبليس يوسوس لهما بالأكل مما نهيا عنه ، ويغريهما بأنواع المغريات ، قال لهما : إن ربكما لم يحرم عليكما الأكل من هذه الشجرة إلا لأن الأكل منها يجعلكما من الملائكة أو من الخالدين ، لا يقربكما موت ولا فناء ، وبالغ فى الإغراء بالقسم على أنه لهما لمن الناصحين ، وما زال يمد لهما حبل الغرور ويقويه حتى انزلقا به الى الأكل من الشجرة المحرمة ، ودلاّهما به الى هاوية العصيان ، فأكلا منها وعصيا ربهما ؛ وهكذا كانت الحياة خداعا وتغريرا ، يخدع الفردُ الفرد ، وتخدع الأمة الأمة . نسى آدم أن الله حذّره من إبليس بقوله : « إنّ هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنّكما من الجنة فتشقى » ، ونسى كذلك أنه أبى أن يسجد له ويطيع فيه مولاه ؛ ولكن هى الطبيعة البشرية معترك الخير والشر ، ومعترك المخالفة والامتثال ، والطاعة والعصيان ؛ وعند ذلك أدركا أنهما وقعا فى المخالفة ، وتجسمت أمامهما الجريمة ، وتمثلت لهما شناعة العصيان ، وظهر لهما ما كان خفيا عليهما فى أنفسهما من النقائص والسوءات ، فوقعا فى الحيرة والاضطراب ، ماذا يقولان لله الذى كرّمهما وأحسن تصويرهما ، وأغدق عليهما بالنعيم والتمكين ؟ أخذا يلتمسان ما يستر تلك العورة التى بدت ، ويحتالان على استرداد مكانتهما عند الله ، « وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقلْ لكما إن الشيطان لكما عدو مبين » ! قرّعهما على مخالفة أمره ، وأنّبهما على اتباع الشيطان والاغترار بمعسول أمانيه . عندئذ لم يجدا بُدا من أن يعترفا بذنبهما : « قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين » . فأجابتهما الحكمة الإلهية : « اهبطوا بعضكم لبعض عدو » ، يريد العداوة بين آدم وذريته من ناحية ، وبين إبليس وجنوده : دوافع الشر والفساد من ناحية أخرى ؛ وقال لهم : على هذه السنة التى علمتم من عداوة الشيطان لكما ولذريتكما ، اسكنوا الأرض ، ولكم فيها مستقر ومتاع بما هيأناه لكم الى حين ، الى يوم يبعثون ، فى الأرض تحيون وفى الأرض تموتون ، ومن الأرض تخرجون ، والى ربكم ترجعون .

وقانا الله وإياكم شر وسوسة الشيطان ، وبصّرنا بهداية القرآن ، إنه سميع مجيب ؟

محمود شلتوت

السُّنَّة

الكرم والصبر والعفاف

عن عطاء بن يزيد الليثي أن أبا سعيد أخبره « أن أناساً من الأنصار سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم يسأله أحد منهم إلا أعطاه حتى نَفِد ما عنده ، فقال لهم حين نفد كل شيء أنفَقَ بيديه : ما يكون عندي من خير لا أدّخره عنكم ، وإنه من يستعفف يُعِفَّه الله ، ومن يتصبر يصبّره الله ، ومن يستغن يُغنه الله ، ولن تُعطَوْا عطاءً خيرا وأوسع من الصبر » . رواه البخاري .

يتعلق بشرح هذا الحديث أمور : (١) بيان معناه إجمالا . (٢) بيان شيء من كرم رسول الله صلى الله عليه وسلم . (٣) بيان معنى الصبر وما يترتب عليه من محاسن . (٤) بيان فضيلة العفة وآثارها النافعة في المجتمع الانساني .

(١) معنى الحديث ظاهر ، وحاصله أن بعض فقراء الأنصار دفعتهم الحاجة الى أن يسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعطيهم مالاً يستعينون به على قضاء حاجتهم الضرورية ، فأعطاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى فرغ ما عنده من مال يومئذ . فنفد (بفتح النون وكسر الفاء) معناه فرغ . فقال لهم الرسول صلى الله عليه وسلم بعد ذلك : إنني لا أمنع عنكم مالاً أملكه ، فما يكون عندي من خير (أي مال) لا أدخره عنكم ولا أجعله ذخيرة لغيركم من أهل أو غيرهم . ثم أراد صلى الله عليه وسلم أن يذهب بهم الى معنى السعادة الحقيقية ، وما ينبغي أن يكون عليه الانسان من الصفات الممدوحة عند النوائب والمحن ، فقال لهم : « وإنه من يستعفف يعفه الله ، ومن يتصبر يصبّره الله ، ومن يستغن يغنه الله » الخ .

وهذا الحديث وأمثاله من الأحاديث التي تحث على الفضائل ومكارم الأخلاق ، يدل دلالة واضحة على ما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم من العناية بتهذيب أمته وتقويم أخلاقها ، وحثها على سلوك سبيل الفضائل في كل شأن من شئونها . فلو أن المسلمين علموا بما جاءهم به رسول الله صلى الله عليه وسلم على وجهه الصحيح وفهموه حقا ، وعملوا بما أمرهم به ، واجتنبوا ما نهاهم عنه ، لكانوا أسعد الأمم حظا ، وأجلهم قدرا في كل زمان ومكان .

يحث هذا الحديث على ثلاث خصال من مكارم الأخلاق ومحاسن الصفات ، وهي : الكرم ، والصبر على المكاره ، والعفة . وبديهي أن هذه الصفات من الصفات النفسية القوية التي يدور عليها صلاح الأفراد والجماعات . وقد آن للمسلمين أن يستيقظوا من نومهم العميق ، ويتدبروا ما كان عليه أسلافهم من مجد ومنعة وقوة بسبب استمساكهم بآداب دينهم وتعاليمه القويمة ، وطرحهم الشهوات الفاسدة جانبا . وإن هذا الزمان وما فيه من حادثات لهو من أكبر العوامل التي تبعثهم على اليقظة ، وتحثهم على الاستمساك بفضائل دينهم ، والاقتداء بأسلافهم الأطهار ، لعلهم أن يظفروا ببعض ما ظفر به هؤلاء الأسلاف من عزة ومجد . نعم قد آن لهم أن يحاربوا شهواتهم الفاسدة ، ويقلعوا عما فيه ضررهم وهوانهم من الاسترسال في الشره والشح والجزع ، وتقديم ما تقتضيه الشهوة على ما تقتضيه العزة والكرامة . وليعلموا أن كرامة النفس وعزتها هو أنفس ما يحرص عليه الأبرار ، وأعز ما يتصف به الأخيار ، وأجل تراث يتركونه لأمتهم وذريتهم من بعد « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره »

(٢) أما كرم رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه لاحدّ له فيوصف ، ولا نهاية له فيعرف ، بل كان صلى الله عليه وسلم أجود من الريح المرسلة ، كما ورد في بعض الأحاديث . وحدّ الكرم في الشريعة الاسلامية هو : أن ينفق الانسان ما تقتضيه الواجبات والحقوق ، وتتطلبه حالته المالية من وسائل البر وأعمال الخير النافعة للمجتمع الانساني . وقد جعلت الشريعة الاسلامية للإنفاق حدا لا ينبغي لأحد أن يتعداه حتى يتيسر له قطع مراحل الحياة آمنا مطمئنا ، قادرا على أداء الأعمال المطلوبة منه بدون انقطاع ، فلا يكون شحيحا ، ولا يكون مبذرا . قال تعالى : « والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يَقْتروا وكان بين ذلك قواما » . وهذا ميزان عادل صالح للبيئة في كل حين، لأن الانسان إذا بخل حمله بخله على الكف عن أداء الحقوق والواجبات ، وإذا أسرف نفد ماله وعجز عن أداء تلك الحقوق . فالنتيجة في كل حال واحدة وهي عدم أداء الحقوق والواجبات إما عاجلا أو آجلا . نعم إن البخيل أشد مقتا وأرذل خلقا وأخش أثرا من المبذر الذي ينفق ماله في أعمال البر ، ولكن ينبغي للعاقل ألا يحيد عن ميزان الشرع القويم ، فإن من حاد عنه ندم أشد الندم ، كما قال تعالى : « ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعدَ ملوما محسورا » .

وقد يقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم هو نعم القدوة في أقواله وأفعاله ، وقد ورد في صحيح مسلم وغيره « أنه صلى الله عليه وسلم لم يُسأل شيئا إلا أعطاه ، فأتاه رجل فسأله فأمر له بغنم كثير ملأت بين جبلين ، فرجع الى قومه فقال : ياقوم أسلموا فإن محمدا يعطي عطاء من لا يخشى الفاقة » ، والحديث الذي معنا يدل على أنه عليه السلام قد أنفق جميع ما عنده ؛ وهذا في ظاهره يتنافى مع ظاهر الآية ، ويتنافى مع القانون الشرعي وهو عدم التبذير والإسراف الموجب لنفاد المال والعجز عن أداء الحقوق والواجبات .

والجواب : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم متصل بالوحى ، وله سلطان على النفوس لا حدّ له ، فهو يعلم حق العلم أن إنفاقه للمال لا يعجزه فى وقت من الأوقات أو فى حال من الأحوال ، فهو دائما قادر على الحصول على المال من طريق شريف ممدوح ، وقد كانت له صلى الله عليه وسلم حالة خاصة ، وهى توسيع نطاق الاسلام ، وتكثير سواد المسلمين ، كما هو واضح فى هذا الحديث ، فإن الرجل قد أثر فيه بذل المال أحسن الأثر وأمر قومه بالاسلام ؛ وهذه هى الغاية العظمى التى يتوخاها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما كان فى عمله هذا مبذرا ، بل كان آمنا من شر الفاقة والاحتياج ، كما قال الأعرابى لقومه : إن محمدا يعطى عطاء من لا يخشى الفاقة . وكان على رضى الله عنه إذا وصف النبي صلى الله عليه وسلم قال : « كان أجود الناس كفًّا ، وأوسع الناس صدرا ، وأصدق الناس لهجة ، وأوفاهم ذمة ، وألينهم عريكة ، وأكرمهم عشيرة ؛ من رآه بديهة هابه ، ومن خالطه معرفة أحبه » الخ . فليت المسلمين يقتدون برسولهم الكريم فى أقوالهم وأعمالهم ليكونوا من المفلحين .

(٣) وأما الصبر فهو من أجل صفات النفس وأعظمها قدرا . وكفى به مدحا أن الله سبحانه قد مدحه فى أكثر من سبعين موضعا من القرآن الكريم . وهو : حبس النفس عن الجزع ، ومنعها عن محارم الله ، وإلزامها بأداء فرائضه . فمن اتصف بذلك كان صابرا . وينقسم الصبر باعتبار ما يتعلق به من الأمور الى ثلاثة أقسام :

القسم الأول : الصبر على طاعة الله تعالى ، ويشتمل هذا القسم على أداء ما أمر به الله تعالى من واجبات ، واجتناب ما نهى عنه من محرمات . ومن ذلك الثبات أمام الأعداء فى الحروب ، فمن فقد الصبر فى هذا الموطن فإنه يكون جبانا مرذولا فى نظر الشريعة الاسلامية . ولذا كان من أشد الكبائر فى نظر الدين الفرار من أمام الأعداء . قال تعالى : « يأيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون » . ومعنى « اصبروا » : امنعوا أنفسكم من الجزع وألزموها احتمال المكروه . ومعنى « وصابروا » : غالبوا أعداءكم فى الصبر على شدائد الحروب وويلاتها ، ولا تكونوا أقل صبرا منهم وثباتا . ومعنى « ورابطوا » : أقيموا فى الثغور مترصدين مستعدين للأعداء . فهذه الآية الكريمة صريحة فى كل ما يجب على الأمة الاسلامية أن تفعله بإزاء أعدائها الذين يريدون انتهاك حرماتها . فقد أمرهم الله بالصبر عن شهواتهم ولذّاتهم فى سبيل الذود عن كرامتهم ، وأمرهم بأن يصابروا أعداءهم بحيث يكونون دائما أكثر منهم صبرا وجلدا ، وأن يحافظوا على ثغورهم ولا يتركوها مفتوحة لأعدائهم . ذلك هو نص كتاب الله الذى لا ينفك المسلمون عن تلاوته ، فياليتهم يتدبرونه حقا ، ويعملون بما فيه بصدق عزيمة ورباطة جأش .

القسم الثانى : الصبر على المصيبة . وهذا القسم يتناول الصبر على فقد الأحباب ، ويتناول

الصبر على البؤس والفقر وضياع الأموال ، كما يتناول الصبر على لقاء الأعداء فى ميادين القتال وغيرها ، والصبر على المرض واحتمال الآلام وغير ذلك . وقد أثنى الله تعالى على الصابرين عند المصائب وأعدّ لهم جزاء حسنا وأجرا كبيرا . قال تعالى : « والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس ، أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون » . ومعنى البأساء : الفقر . ومعنى الضراء : المرض . وقوله تعالى : « وحين البأس » يعنى عند القتال ومنازلة الأعداء . فمعنى هذه الآية الكريمة : إننى أمدح الصابرين فى حال الفقر والمرض ، وحين قتال الأعداء ، وهؤلاء هم الصادقون فى إيمانهم بربهم ، الموقنون باليوم الآخر ، فلا يبالون بحادثات الدنيا ، ولا يرهبون عدوا ، ولا يخافون بطش أحد .

القسم الثالث : الصبر على ترك الشهوات التى نهى الله عنها . وهذا القسم لازم لسعادة الانسان فى دنياه وآخرته ، فان الله سبحانه قد نهى عباده عن الفحشاء والمنكر ليعيشوا فى هذه الحياة الدنيا آمنين مطمئنين ، فلا ينال أحدهم من عرض أخيه بالقول والفعل ، ولا يعتدى أحدهم على غيره فى ماله وبدنه ، ولا تغرهم الحياة الدنيا وزينتها فيسعون فى الأرض فسادا من أجل الحصول على لذاتها الفانية وشهواتها الفاسدة . فمن يصبر على ضبط لسانه عن الحرام فلا يغتاب ولا ينم ، ولا يقذف أحدا ، ولا يشهد الزور ولا ينطق بالفحش ، ولا يكذب ولا يساعد بقوله ظالما ، ولا يجادل بالباطل ، الى غير ذلك من آفات اللسان ، فإنه بذلك يكون قد صبر عن ارتكاب معاصى اللسان . ومن يصبر على حفظ فرجه فقد صبر على شهوة الفرج المحرمة . ومن صبر على ما لا يملكه من اللذات والشهوات فقد نجا من ألم الحسد والحقد وغير ذلك من الآفات المهلكات .

(٤) أما العفة : فهى صفة من صفات النفس الفاضلة ؛ وهى عبارة عن التوسط بين طرفى الإفراط والتفريط فى الشهوة والغضب ، فلا يشتهى شيئا حرمه الله تعالى ، وإن وجد فى نفسه باعثا لهذه الشهوة فانه يجب عليه مقاومته ودفعه بكل ما يستطيع من طول وحول ، لأن الله تعالى قد أباح له من الشهوات ما فيه الكفاية ، فلا يحل له أن يعتدى على غيره بعوامل الشهوة التى ليست من حقه ، وكذلك لا يغضب إلا عند موجبات الغضب التى أبانها له الدين ، فلا يؤذى أحدا بقول أو عمل بدافع الغضب بدون حق .

والله تعالى يوفق المسلمين الى العمل بقواعد دينهم الحكيمة ، وينقذهم مما هم فيه من فوضى الشهوات والأخلاق ، إنه سميع الدعاء ؟

عبد الرحمن الجزيرى

دراسات في القرآن الكريم

المجاز والكناية فى كتاب الله [1]

فى الآية السابقة على هذه الآية ، أعنى قوله تعالى : « وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة وظنوا أنه واقع بهم خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون » ، قد ذكر بنى إسرائيل بالعهد الذى وثقه معهم يوم رفع الجبل فوقهم بأن يأخذوا بما فى الكتاب المنزل على موسى صلى الله عليه وسلم ، وأن يذكروا دائما ما فيه ويتفهموه ، لما فى الأخذ بما فيه إذعان بنبوة خاتم النبيين ، وإيمان برسالة سيد المرسلين ، سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم . ولما كان العهد الذى ذكروا به فى الآية السابقة قد أخذ فى ظل آية مؤقتة ، ووثق تحت حجة هى بنت حينها ، وكان مقتضى العهد إنما هو العمل بما فى الكتاب ، وما فى الكتاب قد تخونه الأهواء وتعبث به الأغراض بالتبديل والتحريف ، كما حدثنا القرآن ، فكان يكون من تعللاتهم أنا لم نشهد تلك الآية التى كان الاقتناع بحقية ذلك العهد فى ظلها ، والتى كانت هى الدافع الى قوة الاستمساك به ، ولم يصلنا الكتاب إلا على هذا الوجه الذى لا يلزمنا بالاستجابة الى الدعوة المحمدية ، لما كان كذلك ، أخذ القرآن يذكرهم بعهد آيته لا تنسخ ، بل هى ثابتة على مدى الأيام ، ومقتضاه أصل من أصول الشرائع ، وهى الاعتراف بربوبية الخالق ، ذلك الأصل الذى هو غريزة فى النفوس ، وهو فطرة الله التى فطر الناس عليها . هذا من ناحية .

ومن ناحية أخرى : لما كان من طبيعة من غلفت الشهوات قلوبهم ، وأعمت الأهواء أبصارهم ، وأصمت الأغراض آذانهم ، أن يتلمسوا فى ساحة الحق القتام وإن كانت نيرة نقية ، وأن يتحسسوا فى أفقه الغيوم وإن كان صحواً صافيا ؛ لما كان من شأنهم أن يستمسكوا بالأباطيل ، ويتعللوا بواهن الشبه ، فكان لبنى إسرائيل أن يقولوا فى مقابلة تلك الآية الكريمة : إننا لا نعرف هذا العهد ، ولا هو قد أخذ علينا ، ولا وثق معنا ، وإنما أخذ على أسلافنا ، فلا تؤاخذنا بما فعل آباؤنا ، فإنك قلت وقولك الحق : « ولا تزر وازرة وزر أخرى » .

---

(١) بقية البحث المنشور بهذا العنوان فى العدد السابق .

لما كان لبنى إسرائيل أن يتعللوا بتلك الشبهة ، فقد أراد الله تعالى أن يقتلع تعللاتهم ، ويستأصل شبهاتهم ، ويقطع من أيديهم كل مستمسَك ، فذكّرهم بذلك العهد العام الشامل الذى لم يختص به جيل دون جيل ، ولا شعب دون شعب ، ولا الآباء دون الأبناء ، بل كل جيل يجدّ هو مأخوذ عليهم ، وموثق معهم ؛ ذلك العهد العام الشامل هو المذكور فى قوله تعالى : « وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم ؟ . . » الآية . وهذا العهد إنما ينعقد بين الناس وما أودعهم من عقول أقدرها مانحها على النظر والتفكير والتدبر والاستنتاج ، وبين ما أقام فى السموات والأرض وما بينهما من حجة واضحة وبرهان ناصع ، وما كتب فى أكوانه من آيات بينات ، وأدلة نيرات ، على أنه لا إله إلا هو الواحد القهار ؛ غير أنه قد سلك فى ذلك سبيل التمثيل على حد الاستعارة ، فأبرز ما بين العقول والكائنات من استعداد العقول القوىّ للنظر والتدبر ، واستخلاص الأدلة واستنتاج الآيات ، ومن وضوح ما فى الكون من أدلة قدرته ، وبراهين علمه وحكمته ، وآيات علوه وعزته ؛ أبرز ذلك فى صورة التقاول والمكالمة ، لينبه بذلك الى قوة ما فى العقول من الاستعداد للتفهم ، وقوة ما فى الكائنات من الاستعداد للانفهام ؛ فكأن آيات الله القائمة فى الأرض والسماء ، وما بينهما من كوكب ثابت وآخر سيار ، ومن كوكب ساطع مضىء ، وآخر دونه فى ذلك ، من زروع وأشجار ، وجبال وأنهار ، الى غير ذلك من جماد وحيوان ، وجامد وسائل ؛ كأن هذا يستنطق العقول بالاعتراف بربوبية بارئها ومحكمها ، وكأن العقول إزاء ذلك تنطق فى بيان معترفة بمبدعها ومودعها .

هذا هو ما ينبغى أن تحمل عليه الآية الكريمة ، حتى يقع فى حدود ما قرره الاسلام من قواعد وأصول ، وتساير المعلوم من الدين علما ضروريا .

وواضح : أنه لا يغيّر من هذا الاتجاه الذى اتجهناه بالآية ، أن نعتبر الآيات التى تخاطب عقول البشر وتقتضيهم الاعتراف بالربوبية ، هى آيات تطوراتهم من ظهور الآباء الى أرحام الأمهات ، وتطوراتهم فى أرحام الأمهات الى خروجهم من بطون أمهاتهم ، الى بلوغهم أشدّهم ؛ إذ فى ذلك من مظاهر الربوبية ، والتعهد والرعاية ، وآيات القدرة ، ما هو جلى واضح ، مثلهُ يكفى لمن نظر وتدبر أن يوحد الله بالعبودية ، وأن يفرده بالإعظام والإجلال ؛ ويكون إيثار تذكيرهم بهذا النوع من الآيات دون ما أقام من آيات فى الأرض والسماء وما بينهما ، يكون إيثار هذا النوع لما أن مظاهر التعهد والتربية ، وآثار الرأفة والرحمة فيها ، أجلى وأوضح ، لأنه تعهد ورحمة حين لا يستطيع أب لهم أو أم أن يجلب نحوهم نفعاً ، وأن يدفع عنهم ضرا ، وحين هم كذلك لا يقدرون لأنفسهم على شىء ما من خير يجلبونه أو شر يدفعونه ، فلا جرم أن كان معنى الربوبية فى ذلك أجل وأوفر ، وأعظم وأكثر ؛ ولا جرم أن كان أقوى استدعاء لهم أن يعترفوا له تعالى بالربوبية دون سواه .

والى هنا ، قد يدور بالخلد سؤال : إذا كان هـذا هو المعنى ، وجرينا على أن الآيات هى آيات الأرض والسماء ، لا آيات التطورات فى ظهور الآباء وأرحام الأمهات ، فلِمَ سلك له هذا الأسلوب ، وقد كان يمكن أن يؤدى بهذه العبارة : « وإذ أشهد ربك الناس على أنفسهم ألست بربكم ؟ قالوا بلى » ؟

وإنا إزاء هـذا السؤال لا بد لنا أن نوضح السر فى العـدول عن تلك العبارة الى العبارة التى جاء بها القرآن الكريم ، حتى يتبين لك ما فى الكتاب من دقة ، وما فى ثناياه من روائع معان هى التى أعجزت أرباب البلاغة وفرسان البيان ، وهى التى أعيت الرائضين شوامس القول ، والمذللين جوامح الكلام : ذلك أن الله عز وجل قد أراد أن يبين ماله على الناس من فضل كبير ، وما له بهم من رحمة واسعة ، وما هو عليه من عدل وحكمة ، مما اقتضى أن يمنحهم الاستعداد لإدراك ربوبيته ، واستحقاقه أن يعبـدوه ويقدسوه ، من أول أطوار وجودهم ، ومبدأ تهيئتهم للإبراز فى هذا الوجود ، فهم من ساعة أخذ بذرتهم من ظهور الآباء وإيداعها أرحام الأمهات وهم على ذلك الاستعداد الذى منحهم إياه ربهم ليدركوا به ما أقام فى الآفاق وفى أنفسهم من آيات وحدانيته وأدلة ربوبيته ؛ فهم بذلك لم يولدوا ولم يبرزوا من ظلمة الأرحام الى نور هذه الحياة إلا وهم على فطرة سليمة هى فطرة الله التى فطر الناس عليها ، كما قال الرسول الكريم : « كل مولود يولد على الفطرة ولكن أبواه يهوّدانه أو ينصّرانه » ، أعنى أن الله تعالى يريد أن يقول للناس : إنى لم أبرزكم الى هـذا الوجود إلا وأنتم على فطرة قـد زاوجتُ بينها وبين ما فى الأكوان من دلائل وآيات ، بما أودعته فيكم من الاستعداد للنظر والاستنتاج ، وما عليه الكون من وضوح آياته للناظرين ، وجلاء دلائله للمتدبرين ؛ وإذن فما هو عذركم الذى به تعتذرون ؟ وما هى شبهتكم التى بها تدفعون ؟ ما دمتم لم تحلوا هذا الوجودَ إلا ونور الهدى والحق بين أيديكم وبأيمانكم ؛ أما تلويث فطركم بتهويد الآباء والأمهات وتنصيرهم ، أمّا ما نسجته خرافات بيئات نشـأتم فيها من أغشية دون الحق الواضح الصريح ؛ أما ما بنته العقائد الباطلة التى حملتها أدمغة فاسدة من أوساط عشتم فيها ؛ أما ذلك كله فليس بمقيم لكم حجة ، ولا ببان لكم برهانا ، ولا معفيكم من عذاب الله ، ولم يبق لكم من الحجة أن تقولوا : إنا كنا عن هـذا غافلين ؛ فقد كان ينهض هذا حجة لو لم تمنحوا ذلك الاستعداد من أول أطوار وجودكم ، ولو لم تبرزوا لهذا الوجود وأنتم بتلك الفطرة النقية ، وبهذا النور الساطع المضىء أمامكم صحيفة الكون وما فيها من شواهـد وحدانيته وآيات ربوبيته ، فلو نظرتم وتدبرتم ، وأدمتم استعمال ذلك المنظار الربانى وتلك المنحة الإلهيـة ، ما تراكمت عليه أتربة الأباطيل والترّهات ، ولأحاطه قتام التقليـد والعادات من كل ما حجب عنكم نور الحق ، وأضلكم عن سواء السبيل ؛ كما أنه ليس لكم من الحجة أن تقولوا : إنما أشرك آباؤنا من

قبل ، وكنا ذرية من بعدهم ؛ فقد كان ينهض ذلك حجة لو أننا أهملناكم للآباء ، ولم نخرجكم من بطون أمهاتكم ونور الحق يحوطكم ، ولو لم نبسط أمام عيونكم صحيفة العهد من أرض وسماء تقرأ فى ظلمة الليل كما تقرأ فى وضح النهار ، فكان عليكم أن تنظروا وأن تتدبروا ، وآيات الله فى كونه ملحة فى دعوتكم الى النظر والتدبر ، وبالنظر والتدبر تمزق هذه الأغشية ، وتهدم تلك الحواجز ، وتقشع تلك الغيوم .

هذا هو السر فى أن عدل القرآن عن التعبير بقوله : وإذ أشهد ربك الناس على أنفسهم ، الى التعبير بما جاء عليه القرآن الكريم .

هذا ، وإن هناك الى ذلك سرًّا آخر لذلك العدول ، وهو أنه لما كان الأخذ بمقتضيات العهود ، والاستمساك بالمواثيق إنما يكون مكفولا ومضمونا إذا اقتنعت النفوس بحقيّته وأن المصلحة والخير فى العمل به ، إنما يكون مضمونا أو أقرب الى التحقق إذا آمنت به القلوب عن حجة ودليل ؛ لما كان كذلك كان من حكمة الله البالغة ألا يوثق مع عباده عهدا إلا كان إبرامه فى ظل آية من آيات قدرته ، وشاهد من شواهد تفرده بالتصرف ووحدانيته فى الكمال ، حتى لا يكون لهم إذا هم نقضوا عهدا بعد ميثاقه أن يقولوا تعللا واعتذارا : إنا كنا على التزام ذلك العهد مكرهين ؛ إذ تكون حجتهم حينئذ مدحوضة ما داموا قد التزموه عن اقتناع بالدليل . لهذا تراه فى الآية السابقة قد بيّن أنه لم يأخذ على بنى إسرائيل العهد الذى التزموا فيه الأخذ بما أوتوا من شرائع عن طريق رسولهم موسى صلى الله عليه وسلم إلا فى ظل آية من آيات قدرته ، وهى رفع الجبل فوقهم كأنه ظلة ؛ ولما ذكرهم به على لسان رسولنا الكريم ذكّرهم كذلك بالآية التى وُثق العهد تحت لوائها ؛ فهو جلت حكمته يعلم أن لا قهر على عقيدة ولا إكراه فى دين .

ومن هذا تدرك السر فى ذكر الأخذ من الظهور قبل ذكر العهد فى قوله : « ألست بربكم » : فهو قد أراد الإرشاد الى أن العهد الذى يجب أن يوثق بين عقول البشر وبين ما فى الكون من آيات ، لم يكلفوا به إلا بعد تذكيرهم بما سبق زمن التكليف من تلك التطورات العجيبة من حين أخذوا من ظهور الآباء فأودعوا أرحام الأمهات ؛ ثم صارت النطفة علقة ، والعلقة مضغة ، الى آخر التطورات التى تتقدم الاستعداد للنظر والتفكير ؛ وفى ذلك من آيات القدرة البينة ، وآثار التعهد والتربية ، ومظاهر الرحمة ، ما يستدعى منهم فى قوة وإلحاح أن يستمسكوا بذلك العهد الذى توحيه آيات الله فى الكون على ما منحوه من عقول .

والى هنا قد فرغتُ مما أردت أن أؤكد به تقرير المعنى الذى يجب أن تفسر به الآية الكريمة ، وأن أبيّن بطلان ما عداه من التأويلات .

والى القارئ بعد هـذا دقائق أخرى فى الآيات مما كان به القران معجزا ، ومما كان به مالـكا للنفوس ، مستوليا على العقول ، موجهاً لها الى الخير والحق :

يقول عز من قائل : « وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم » فيذكر مبدأين للأخذ على طريقة الإبدال : فيبدل قوله : « من ظهورهم » من قوله : « من بنى آدم » ، وقد كان يكفى أحدهما لأداء المعنى ؛ إلا أنك تدرك جلال القرآن وروعته حين تقارن بين الإتيان بهما وبين الاقتصار على أحدهما ؛ فانه لو اقتصر على قوله : « وإذ أخذ ربك من بنى آدم ذريتهم » لما كان فى هذا لفت الأذهان الى مبدأ تهيئة مادتهم للإيجاد ، ولا الى التطورات التى اجتازوها قبل خروجهم من بطون أمهاتهم الى هذا الوجود ، مع أن ذلك مقصود إليه لينبههم الى أنه قد بذرهم لأول مابذرهم فى صلاحية واستعداد للتدبر والنظر حتى تنقطع الحجة التى كان يصح لهم أن يحتجوا بها لو كان قـد منحهم الاستعداد متأخرا ، فجاء بعد ما برزوا لهذا الوجود ، وبعد ما يكونون قـد تأثروا بتقليد الآباء وتقاليد البيئات ؛ نعم لا يكون فى ذلك الاقتصار لفت الى ذلك ، مع إيهامه أنه أخذ كما يؤخذ من المرء ماله ، أو تؤخذ منه أمتعته ؛ وليس بلافت الى ذلك ، ولا مبعد لذلك الوهم إلا أن يبدل منه قوله : « من ظهورهم » . كما أنك تدرك جلال القرآن حين تقتصر على قوله : « وإذ أخذ ربك من ظهور بنى آدم ذريتهم » لما يوجبه ذلك الاقتصار من تقصير فى نسبة الأبناء الى الآباء ، ويكون التعبير الى ذلك موهما أنه أخذ كأخذ جزء من عضو خاص . فلتمام النسبة ودفع الإيهام جاء بالمبدأ الأول ، ولما قدمنا من التوجيه جاء بالمبدأ الثانى .

وإليك دقيقة أخرى : يقول تعالى : « ألست بربكم » ؟ ولم يقل : « أأنا ربكم » ؟ مع أنه هو الذى يظهر لنا ، بناء على ما يقرره علماء التفسير من أن المقرر به فى مثل ذلك هو ما بعد النفى ؛ لم يقل عز وجل : « أأنا ربكم » لأن الذى يتتبع أساليب اللغة بدقة يجد أن المقرر به دائما هو ما يوافق الحـال التى يـكون عليها الشخص . تقول للرجل قـد أحسنت إليه ثم هو يسىء إليك : ألم أحسن إليك ؟ ! لأن صنيعه من إساءة وعدم إحسان إنما يتفق مع عـدم الاحسان منك اليه . وإنما كان هذا لأن الغرض هو تنبيهه الى الحالة التى هو عليها ليقلع عنها لأنه لا يستطيع أن يواجه سائله بأنه لم يحسن اليه ، لـكن يستطيع أن يواجه سائله بأنه أحسن اليه حين يسأله عن الإحسان ؛ غير أنه لا يـكون فى ذلك تنبيه ، ولا يتوجه به إنكار ولا ملام .

إذا عرفت ذلك ، فلنرجع الى الآية نجـدها جارية على هـذا الأسلوب الدقيق ، ويكون المقرر به هو المنفى لا مابعد النفى كما يقوله المفسرون . ألا ترى أن المطرد من أحوال المجموعة البشرية هو الجحد والـكفران ؛ والجحد والـكفران هو ما يتفق مع عدم الاعتراف بالربوبية

مع ما أسبغ عليهم من نعمة وأدرّ عليهم من رحمـة ، ومع ما أقام لهم فى أنفسهم وفى عـوالم الـكون الأخرى من آيات ، ومن كل ما يقتضيهم فى قوة الاعتراف بالربوبية ! وبهـذا فهم إنما يسألون عن الحالة التى هم عليها حتى إذا فطنوا لها علموا أنهم على باطل واضح لا يسعهم أن يجيبوا بإيجابه ، ولا يستطيعون أن يواجهوا سائلهم بالاستقرار عليه .

وإليك دقيقة ثالثـة : إنك تعلم أن أول ما يوفـر للـكلام صفة البلاغة ، ويحله منهـا فى المقام الأول : أن يأخذ بذهنك الى المعنى فى طريق نـيّرة مستقيمة غير معوجة ، من غير بطء ولا توان ؛ ومما هو فى تلك المرتبة من أسباب توفير البلاغة وجزالة الأسلوب ، أن يسلك فى أداء المعنى سبيل الإيجاز ليكون أسرع فى الأداء ما دام الإيجاز لا يخل أقل إخلال بالغرض المقصود أداؤه ؛ من ذلك تدرك السر العجيب فى أن حُـكى جـوابُ الاستفهام فى « ألست بربكم » بقوله : « قالوا بلى » دون أن يقول : « قالوا أنت ربنا » ، إذ لو جاء بالجواب « بأنت ربنا » لـكان من الاحتمالات أن يغفل الذهن عن ارتباطه بالاستفهام ، وأنه جـواب له ؛ وفى ذلك وقفة بالذهن مهما كانت قليلة عن الوصول الى المراد . أما لفظة « بلى » فهى لا تكون إلا جوابا ، فلا يمكن للذهن أن يقف عن إدراك الارتباط بينها وبين الاستفهام السابق . هذا من ناحية . ومن ناحية أخرى ، فإن فى لفظة « بلى » إيجازا مشيرا الى أنهم حريصون على المسارعة بإظهار عقيدتهم وأداء اعترافهم بالربوبية . وإلى هنا ، قد يقال : إنه وإن كان فى ذلك تمام الارتباط والمسارعة بالإيجاز الى الأداء ، لـكن بقى أن لتفصيل الاعتراف من المزية ما ليس للإجمال ؛ وإنا نقول : لهذا ترى القرآن الـكريم قد جاء بعد ذلك بقوله : « شهدنا » الذى فيه تفصيل الاعـتراف ، ولـكنه قد جاء بهـذا التفصيل بعد أن جاء بالأول الذى قطع به كل احتمال ، وسارع به فى أداء المعنى لما فيه من إيجاز .

وإلى هنا ، وعلى ذلك القدر ، أقتصر ؛ فإنه ليس لأحد أن يطمع فى بيان كل ما تحتويه آيات القرآن الـكريم من دقائق وعجائب ؛ فهو كلام رب العالمين ، خالق القوى ، ومكوّن القُـدَر ؟

حامد محيسن
المدرس بكلية اللغة العربية

الكمال فى العقل

روى أن جبريل عليه السلام جاء آدم بثلاث خصال : الحياء ، والدين ، والعقل ؛ فقال : اختر واحدة منها . فقال : الحياء والدين ، أمرنا أن لا نفارق العقل

لولا العقول لـكان أدنى ضيغم   أدنى الى شرف من الإنسان

الكلام والمتكلمون

— ٥ —

المعـــــتزلة

مميزاتهم العامة :

اتفقت فرق المعتزلة — على اختـلاف نزعاتها وتباينها فى بعض المبادئ — فى كثير من المميزات ، كما اتفقت فى أصول مذهبها العام على ما سيجىء . وإليك أهم هذه المميزات :

(١) اعتمادهم على العقل قبل كل شىء ، وتأويلهم كل ما لا يتفق معه من السمعيات . وقد عللوا هـذا الرأى بأن العقل هو العمدة فى فهم الشرع ، وبالتالى هو مناط التكليف ، وهذا يستوجب احترامه وإنزاله المنزلة الرفيعة التى منحه إياها مبدع الـكون حين أصعده الى عرش الجسم الانسانى ، ووجّه إليه خطابه مباشرة ، وأخضع له كل قوى الطبيعة ، وسلّمه مفاتيح مغلقاتها ، وأباح له بنص القرآن الخوض فى التدليل على وجوده ووحدانيته وقدرته . فلو أننا أهملنا حكم العقل لخرجنا على الوضع الإلهى ، وتمردنا على من تنزل البارى جـل شأنه فاحترمه وأمر جميع مبدعاته بالخضوع له . أما تأويل النصوص الشرعية فلا إهانة فيه لمحترم ، ولا اعتداء على حق ، وإنما هو انتقال من معنى كان مباحا قبل اصطدامه مع العقل ، الى آخر قد أصبح واجبا بعد اتفاقه مع هذا العقل .

(٢) دفاعهم الحار عن الوحى وعن كل ما يتعلق به .

(٣) اعتبارهم القرآن هو المصدر الوحيد للأسماء والأحكام .

(٤) خصومتهم مع أهل الحديث الذين لم يلبثوا أن أعلنوا أن المعتزلة فسقة .

(٥) خصومتهم العنيفة مع الجبرية لقولهم بأن الفرد كالريشة المعلقة فى الهواء ، على ماسيجىء فى مذهبهم من مناقضة صريحة لرأى المعـتزلة القائل بأن الفرد يخلق بأتم أنواع الحـرية كل أفعاله ، وإلا لما كان هناك أى معنى للتكليف ولا للمسئولية ، ولاستوت الفضيلة والرذيلة ، ولـكان أقل تفريق بينهما ضربا من العنت والعبث .

(٦) حملتهم على الديانات الفارسية التى كان الشيعة قد نقلوها الى البلاد الاسلامية ، والتى كانت تروج لعبادة النار بقولها : إنها أشرف العناصر وأسماها ، ولهذا لم يكن من العـدل أن يسجد إبليس الذى هو من العنصر الأسمى لآدم الذى هو من العنصر الأدنى ؛ والتى كانت إحداها وهى المانوية تدعو الى الرهبنة وإبادة العالم . وقد ألجأتهم حملتهم على هذه الديانات

الى دراسة العناصر ، والى محاربة النار بالتراب . وقد نجم عن ذلك المسلك تعمقهم فى دراسة الفلسفة الطبيعية التى انتعش بانتعاشها المذهب الدهرى ، فأخذ المعتزلة يحاربونه كما حاربوا المانوية ، وإن كانوا قد تأثروا ببعض آرائه .

(٧) مهاجماتهم للرافضية التى كان هشام بن الحكم يمثلها فى عصره أصدق تمثيل . ويعتبر أبو الهذيل زعيم هذه المهاجمات التى وجهها المعتزلة الى الروافض . وقد دفعته عنايته بالرد على أولئك القوم الى دراسة كتب الفلاسفة ، فاستفاد كثيرا من الآراء التى لم يكن للعرب بها عهد من قبل ، وتأثر بها فى مذهبه . ولذلك أطلق عليه الباحثون اسم مؤسس الاعتزال الفلسفى الصحيح ، كما أسلفنا . ولما جاء تلميذه ابراهيم النظّام سار على منهجه فواصل حملته على الدهرية والمانوية والرافضية ، وأعلن أن القرآن كما هو أساس للأسماء والأحكام يجب أن يكون أساسا لجميع المبادىء الخلقية . وبهذا يكون أولئك الزعماء الأربعة : واصل ، وعمرو ، وأبو الهذيل ، والنظام ، هم الذين وضعوا على التوالى القواعد الأساسية للاعتزال . وقد وجدت أهم قواعد المذهب العام بين آراء الأول والثانى منهم ، وتمثلت فيهم المميزات التى أسلفناها .

مذهبهم العام :

اتفقت فرق المعتزلة كلها على خمس قواعد أساسية هى أصول مذهبهم . فالأولى : قاعدة التوحيد ، والثانية : قاعدة العدل ، والثالثة : قاعدة الوعد والوعيد ، والرابعة : قاعدة الأفعال والأحكام ، والخامسة : قاعدة العقل والسمع . وقد تفرعت عن كل قاعدة من هذه القواعد عدة مشاكل كانت مجموعة المذهب العام للمعتزلة .

فمن قاعدة التوحيد مثلا : تفرعت مشكلة الصفات ، إذ بينما أعلنت الصفاتية أن التوحيد معناه نفى القسيم فى الذات ، والنظير فى الصفات ، والشريك فى الأفعال ، صرحت المعتزلة بأن الله تعالى واحد فى ذاته لا قسيم ولا صفة له ، وواحد فى أفعاله لاشريك له ، فلا قديم غير ذاته ، ولا قسيم له فى أفعاله . فمحال وجود قديمين أو اجتماع مؤثرين على أثر واحد . وإذاً فالله قادر بذاته ، مريد بذاته ، عالم بذاته ، لا بقدرة أو إرادة أو علم ، لأن القدم أخص وصفه ، فلو شاركته الصفات فيه لشاركته فى الألوهية . وقد ادعوا أن هذا وحده هو التوحيد الحقيقى . ولذلك أطلقوا على أنفسهم اسم « أهل التوحيد » . وعن هذه القاعدة أيضا تفرعت مشكلة جحود رؤية الإله فى الدار الآخرة ، لانتفاء الشبه والجهة والتحيز عنه ، « لأنه لا كالأشياء ، وأنه ليس بجسم ولا عرض ، ولا عنصر ولا جزء ولا جوهر ، وإن شيئا من الحواس لا يدركه فى الدنيا ولا فى الآخرة » (١)

(١) انظر صفحة ١٥٣ جزء ثالث من كتاب مروج الذهب للمسعودى طبعة القاهرة سنة ١٩٣٨

ولما اتسع نطاق الفلسفة الاغريقية في البيئات العربية ، ألفى المعتزلة فى آراء الفلاسفة مرتعا خصيبا من الجدل ، وثروة واسعة من البراهين ، فبعد أن كان خصومهم من الصفاتية يكادون يتفوقون عليهم بقولهم : إن التقسيم لا يتحقق إلا عند التألف ، والتألف لا يكون إلا فى الأجسام ، أما مسألة الذات والصفات فليس التألف فيها حقيقيا ، عاد المعتزلة فهزموهم بما وجدوه مسطرا فى مؤلفات الفلاسفة من أن التأليف خمسة أنواع : الأول : التألف المادى كتألف الجسم الطبيعى من العظم واللحم ، والثانى : التألف العقلى كتألف الجسم من الهيولى والصورة ، والثالث : التألف بالقول الشارح كتألف تعريف الـكائن من الجنس والفصل ، والرابع : تألف الـكائن من ذاته وصفاته ، والخامس : تألفه من الماهية والوجود ؛ ثم أوضحوا لهم أن أى واحد من هـذه التألفات ينافى الوحـدة الحقيقية ، وأن القول بالصفات يقتضى التألفات الثلاثة الأخيرة من هذه الخمسة ، إذ هو يستلزم أن يـكون الإله مؤلفا من الذات والصفات ، وأن يـكون تعريفه ذا جنس وفصل ، وأن يـكون وجوده غير ذاته ، وبالتالى يكون قولنا : « الله موجود » قضية مؤلفة من موضوع ومحمول متغايرين ، والمغايرة تنافى الوحدة التامة ، إلى غير ذلك مما هو مبسوط فى أسفار فلاسفة الاسلام وخصومهم من أعلام المتـكلمين كالأئمة : الأشعرى ، والغزالى ، والرازى .

وعن قاعدة العدل : تفرعت مشـكلة وجوب فعل الصلاح على البارى لضرورته فى تحقق العدالة الإلهية ، لأنه بينما أعلنت الصفاتية أن العدل هو تصرف المالك فى ملـكه على مقتضى العلم والمشيئة ، والظلم ضد ذلك ، وبالتالى تكون تصرفات الإله كلها عادلة ، لأنها صدرت منه فى ملـكه بمقتضى علمه ومشيئته ، قررت المعتزلة أن العدل هو ما يقتضيه العقل من الحـكمة ، وهو إصدار الفعل على وجه الصواب والمصلحة . وهذا يقتضى أن يكون فعل الصلاح واجبا على الله ، لـكى يتحقق العدل المتوقف على الحـكمة .

ومن هذين التعريفين ، وما استقر عليه كل من الفريقين من حكم على العدل ، وعلى الأخص من براهين متأخرى المعتزلة فى هـذه المشكلة ، يتبين جليا أن هؤلاء الأخـيرين قد تأثروا بالفلسفة فنظروا الى العدالة فى ذاتها ، أى من حيث فـكرتها النظرية دون أى التفات الى الناحية العملية فيها . ولهـذا لم يعنهم فى التصرف إلا اتباع الحـكمة ، ولم يهتموا بأن يكون واقعا فى ملك المتصرف أو فى ملك غيره ، وإنما لاحظوا فى العـدالة الهيئة الهندسية التى تقابل عند الفيثاغوريين الشكل المربع ، والتى بها استوى نظام السماء والأرض ، وتحقق الانسجام فى جميع كليات الـكون وجـزئياته . أما عقلية الصفاتية فقد نظرت الى العـدالة من حيث ناحيتها العملية التى تلتفت الى النتائج لا الى الفكر النظرية . ولهذا كان كل ما شغلها هو أن يكون التصرف واقعا فى ملك المتصرف ، ولو كان معاديا للنظام ، مختصما مع الانسجام .

وفى هذه القاعدة أيضا ، اندمجت مشكلة قدرة الفرد على خلقه أفعاله الاختيارية ، تلك المشكلة التى أبنا لك أنها نشأت قبل ظهور فرقة الواصلية . وقد عللوا قولهم بحرية الفرد بعلة ضرورته كذلك لتحقق العدل الإلهى ، لأن عقاب المجرم ظلم ، وإثابته سفه ، والإله منزه عن الظلم والسفه ، أما التفضل فمنزلة وراء ذلك . ولهذا أطلقوا على أنفسهم وحدهم اسم : « أهل العدل » .

وفى قاعدة الوعد والوعيد أيضا : يمكن إدماج مشكلة حرية الفرد ، لأن الصفاتية قرروا أن وعد الله ووعيده أزليان ، فمن أثيب فبوعده ، ومن عوقب فبوعيده . أما المعتزلة فقد صرحوا بأن الوعد والوعيد محدثان ، وبأن من أثيب فبفعله ، ومن عوقب فبفعله . وإذا كان الفعل عندهم هو منشأ الثواب والعقاب ، فيجب أن يقع بأتم الحرية . وعن هذه القاعدة أيضا تفرعت مشكلة أزلية القرآن أو حدوثه ، لأنه كلام به أدى الوعد والوعيد المحدثان عند المعتزلة ، القديمان عند خصومهم . وقد تداخلت هذه المشكلة أيضا فى قاعدة التوحيد حيث اعترض المعتزلة على القائلين بقدم القرآن باعتراض تعدد القدماء .

وعن قاعدة الأسماء والأحكام : نشأت مشكلة المنزلة بين المنزلتين ، التى دار فيها الجدل حول مرتكب الكبيرة وهل يسمى مؤمنا أو كافرا ؟ وأعلن فيها المعتزلة القول بالتوسط بين الكفر والإيمان ، وكانت سبب اعتزال واصل عن الحسن ، أو سبب نشوء فرق المعتزلة على أحد الأقوال ، كما أبنا ذلك فى موضعه .

وعن قاعدة العقل والسمع : نشأت مشكلة المعرفة والوجوب وهل هما بالعقل أو بالشرع ؟ فاعلنت الصفاتية أن المعرفة بالعقل ، والوجوب بالسمع ، أى أن العقل لا يحسن ولا يقبح ، ولا يقتضى ولا يوجب ، بل يعرف فقط ، وأن السمع لا يوجد المعرفة بل يوجبها . وقررت المعتزلة أن المعارف كلها معقولة بالعقل ، واجبة بالنظر ، وأن الحسن والقبح صفتان ذاتيتان للحسن والقبيح ، فهما مدركتان بالعقل ، وأن شكر المنعم وفعل الخير وتجنب الشر واجبات بالعقل(١) . « يتبع »

الدكتور محمد غلاب
أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

(١) انظر صفحة ٤٨ وما بعدها من الجزء الاول من كتاب الشهرستانى .

حياة رجالات الإسلام

عبد الله بن مسعود

والقرآن الكريم

تحدثنا فى المقال السابق عن مزيد اختصاص عبد الله بن مسعود بالنبى صلى الله عليه وسلم فى خاص أحواله وخفى شئونه ، مما جعل بعض الأكابر من الصحابة يحسب أنه من آل البيت ، لما يرى من كثرة دخوله على النبى صلى الله عليه وسلم فى أوقات وأحوال ليس لأحد غيره أن يدخل فيها عليه .

ومن الطبعى أن هذا الاختصاص لرجل مثل ابن مسعود من السابقين الأولين الذين أوتوا حساً مرهفا ، وذكاء فطريا ، وذهنا خصبا ، وسريرة صافية ، كان له أكبر الفضل فى تميز ابن مسعود من بين إخوانه قادة الفكر الاسلامى الذين خرجتهم المدرسة المحمدية العظمى ، بألوان شتى من الحياة الاسلامية تولدت منها مذاهب وآراء لها فى تاريخ التشريع الاسلامى خطرها ، ولا سيما فيما يتعلق منها بالقرآن الكريم ، دستور الاسلام الأعظم ، حفظا وأداء وتدوينا ، وفقها فى أحكامه ، وغوصا على حِكمه وأسراره .

وقد رأينا أن هذه الناحية من المباحث الاسلامية عُنى بها أشد العناية علماء المشرقيات من باحثى الغرب فى عصرنا الحاضر ، ونشروا فى موضوعاتها كتبا وبحوثا وتعليقات تردد صداها بين الباحثين ، واشتجرت فى شأنها الأقلام ، فكان من حق البحث علينا ونحن نحاول أن نرسم لشباب الاسلام ـ فى صدد الحديث عن رجالات الاسلام وقادة الفكر ـ صورة موجزة عن حياة هذا النابغة الجليل ، أن نلم إلمامة عاجلة بما تردد على أسلات الأقلام حول تدوين القرآن وقراءاته الباعثة على جمع الناس حول مصحف عثمان رضى الله عنه ، وما يتصل بعبد الله ابن مسعود من ذلك ، متوخِّين ذكر ما تطمئن إليه النفس ويرتاح له الضمير .

كان عبد الله بن مسعود من أقرأ أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم للقرآن ، وأقومهم بأدائه ؛ رُوى « أن ابن عباس رضى الله عنهما قال لبعض أصحابه : أى القراءتين تعدُّون أولى ؟ فقالوا : قراءة عبد الله ، فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يُعرَض عليه القرآن فى كل رمضان مرة إلا العام الذى قبض فيه فإنه عرض عليه مرتين ، فحضره عبد الله بن مسعود

فشهد ما نسخ منه وما بدّل » . وهذا الأثر لم يتضح منه قراءة مَنْ مِن قُرّاء الصحابة التى جعلها ابن عباس فى مساءلته أصحابَه عِدلا لقراءة عبد الله بن مسعود ، وأقرب الظن أنها قراءة زيد بن ثابت . ويرشح هذا أمران :

(الأول) ما رواه ابن سعد فى الطبقات عن شقيق بن سلمة قال : « خطبَنا عبد الله بن مسعود حين أمر فى المصاحف بما أمر ، فذكر الغلول فقال : إنه من يَغْلُلْ يأت بما غَلّ يوم القيامة ، فغلوا فى المصاحف ، فلأن أقرأ على قراءة من أُحب أحبّ الىّ من أن أقرأ على قراءة زيد بن ثابت ؛ فوالذى لا إله غيره لقد أخذت مِن فى رسول الله صلى الله عليه وسلم بضعا وسبعين سورة ، وزيد بن ثابت غلام له ذؤابتان يلعب مع الغلمان ؛ والذى لا إله غيره لو أعلم أحداً أعلم بكتاب الله منى تبلغه الإبل لأتيته ! قال شقيق بن سلمة : ثم ذهب عبد الله فقعدت فى الحِلَق وفيهم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وغيرهم فما رأيت أحدا رد عليه ما قال » . ففى هذه الخطبة دلالة على أن المنافس لعبد الله فى قراءته هو زيد بن ثابت ، فهو أجدر أن يكون مزاحما بقراءته التى أصبحت فيما بعدُ قراءة الجمهور . وأثر ابن عباس يدلنا على أنه كان يذهب مذهب ابن مسعود فى قراءته ويقدمها على قراءة زيد معللا ذلك بأن عبد الله حضر العرضة الأخيرة التى استقر عندها محكم الكتاب .

(الثانى) أن زيد بن ثابت - كما يقول السيوطى فى الاتقان - انتهت اليه الرياسة فى القراءة ، وأنه هو الذى عهد اليه أبو بكر وعمر رضى الله عنهما بأول جمع للمصحف ، ولم يكن لغيره من القراء ما كان له ؛ فقراءته أقرب الى أن تكون هى الموازنة لقراءة عبد الله . والذى يظهر أن لهذين الإمامين الجليلين ميزة فى حفظ القرآن اختص كل واحد منهما بجانب منها ، وقد كانت براعة عبد الله فى حسن الأداء والترتيل ، فقد روى « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له : اقرأ علىّ ، فقلت : كيف أقرأ عليك ، وعليك أنزل ؟ قال : إنى أشتهى أن أسمعه من غيرى ، قال عبد الله : فقرأت عليه سورة النساء حتى إذا بلغت « فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا » قال لى : حسبك ! فنظرت اليه وقد اغرورقت عينا النبى صلى الله عليه وسلم وقال : من سَرّه أن يقرأ القرآن غضًّا كما نزل فليقرأه قراءة ابن أم عبد » . وقد كان رضى الله عنه أعطى حظا عظيما فى تجويد القرآن ، وكان يأمر به ويقول فيما روى عنه : « جوِّدوا القرآن » . وفى الصحيحين عنه « أن رجلا قال له : إنى أقرأ المفصَّل فى ركعة واحدة ، فقال عبد الله : هذّاً كهذّ الشعر ؟ إن قوما يقرءون القرآن لايجاوز تَراقِيَهم ، ولكن إذا وقع فى القلب فرسخ فيه نفع » . وكان رضى الله عنه يقول لتلاميذه وأصحابه : « لا تنثروه نثر الدَّقَل ولا تهذوه هذّ الشعر ، قفوا عند عجائبه ، وحركوا به القلوب ، ولا يكون همّ أحدكم آخر السورة » .

كانت هذه العناية الفائقة من ابن مسعود بالقرآن الكريم باعثا قويا على أن يدوّن لنفسه مصحفا يجمع بين دفتيه ما سمع من النبي صلى الله عليه وسلم. وحالة التدوين فى أول عهد المسلمين به غامضة، والروايات فى شأنها كثيرة، والناظر فى تلك الروايات واختلاف عباراتها اختلافا شديدا يدرك منها أن الذين دونوا ما سمعوه تدوينا فرديا لم يقصدوا الى أن يجمعوا القرآن الحكيم فى مصحف، وإنما قصدوا عمل مذكرات لهم يرجعون إليها عند الحاجة، ولم يقصد جمع القرآن فى مصحف يكون إماما للأمة ترجع إليه إذا أعوزتها آياته أحد قبل أبى بكر وعمر رضى الله عنهما، ولذلك لم يكن عملهما عملا فرديا كعمل غيرها. روى البخارى فى صحيحه عن زيد بن ثابت قال: «أرسل الىّ أبو بكر مَقتلَ أهل اليمامة فإذا عمر بن الخطاب عنده، فقال أبو بكر: إن عمر أتانى فقال: إن القتل قد استحرّ يوم اليمامة بقراء القرآن، وإنى أخشى أن يستحر القتل بالقراء فى المواطن فيذهب كثير من القرآن، وإنى أرى أن تأمر بجمع القرآن. فقلت لعمر: كيف تفعل شيئا لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال عمر: هو والله خير! فلم يزل براجعنى حتى شرح الله صدرى لذلك، ورأيت فى ذلك، الذى رأى عمر. قال زيد: قال أبو بكر: إنك شاب عاقل لا نتهمك، وقد كنت تكتب الوحى لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فتتبع القرآن اجمعه، فوالله لو كلفونى نقل جبل من الجبال ما كان أثقل علىّ مما أمرنى من جمع القرآن، قلت: كيف تفعلان شيئا لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال هو والله خير! فلم يزل أبو بكر براجعنى حتى شرح الله صدرى للذى شرح الله له صدر أبى بكر وعمر، فتتبعت القرآن أجمعه من العُسُب واللخاف وصدور الرجال، ووجدت آخر سورة التوبة مع أبى خزيمة الأنصارى لم أجدها مع غيره: «لقد جاءكم رسول» حتى خاتمة براءة، فكانت الصحف عند أبى بكر حتى توفاه الله، ثم عند عمر حياته، ثم عند حفصة بنت عمر». وقد لايُبعد من يفهم فى هذا الحديث أنه ظاهر جدا فى شدة الاحتياط فى قرآنية ما يدون تدوينا جماعيا، لأن زيدا قال: فتتبعت القرآن أجمعه من العسب واللخاف وصدور الرجال؛ فكأنه رضى الله عنه جعل لنفسه قاعدة لتدوين القرآن: أن يجد الآية أو السورة فى العسب واللخاف وصدور الرجال، وليس يكفى وجدانها فى واحد من هذه المصادر؛ ولما كان الوجود فى صدور الرجال يتعدد غالبا نبه فى الحديث على انفراد أبى خزيمة الأنصارى بآخر براءة مع القطع بأنها كانت مدونة فى العسب واللخاف؛ وبهذا التأويل ينقطع الإشكال على تواتر القرآن، ويثبت له التواتر النقلى والتدوينى؛ ولا أعلم فى الروايات بعد البحث ما ينافى هذا التأويل. وروى عن على رضى الله عنه وكرم وجهه أنه كان يقول: «أعظم الناس فى المصاحف أجرا أبو بكر، رحمة الله على أبى بكر! هو أول من جمع كتاب الله». وهذا الجمع من أبى بكر وعمر إنما كان خشية أن يذهب شىء من القرآن بذهاب حفظته، لأن أصل الكتابة والتدوين كان موجودا فى حياة النبى صلى الله عليه وسلم؛ قال الخطابى: «إنما لم يجمع صلى الله

عليه وسلم القرآن فى المصحف لما كان يترقبه من وجود ناسخ لبعض أحكامه أو تلاوته ، فلما انقضى نزوله بوفاته ألهم الله الخلفاء الراشدين ذلك ، وفاء بوعـده الصادق بضمان حفظه على هذه الأمة ، فـكان ابتداء ذلك على يد الصدِّيق بمشورة عمر » .

انتهى هذا الدور ، ولم يظهر أثر لاختلاف المصاحف ، ولم يتردد صدى شيء من هذا النحو الذى ظهر فى طور الجمع العثمانى ؛ وكان ذلك لأن السبب فى الجمعين مختلف ؛ قال ابن التِّين : « الفرق بين جمع أبى بكر وجمع عثمان أن جمع أبى بكر كان لخشية أن يذهب شيء من القرآن بذهاب حملته ، لأنه لم يكن مجموعا فى موضع واحـد ، فجمعه فى صحائف مرتِّبا لآيات سوره على ما وقفهم عليه النبى صلى الله عليه وسلم ؛ وجمع عثمان كان لما كثر الاختلاف فى وجوه القراءة حتى قرءوه بلغاتهم على اتساع اللغات ، فأدى ذلك بعضهم الى تخطئة بعض ، فخشى من تفاقم الأمر فى ذلك ، فنسخ تلك الصحف فى مصحف واحد ، مرتبا لسوره ، واقتصر من سائر اللغات على لغة قريش ، محتجا بأنه نزل بلغتهم ، وإن كان قد وسع فى قراءته بلغة غيرهم رفعا للحرج والمشقة فى ابتداء الأمر ، فرأى أن الحاجة الى ذلك قد انتهت فاقتصر على لغة واحدة » . وقال القاضى أبو بكر الباقلانى : « لم يقصد عثمان قصد أبى بكر فى جمع نفس القرآن بين لوحين ، وإنما قصد جمعهم على القراءات الثابتة المعروفة عن النبى صلى الله عليه وسلم وإلغاء ما ليس كذلك ، وأخذَهم بمصحف لاتقديم فيه ولا تأخير ولا تأويل أُثبت مع تنزيل ، ولامنسوخ تلاوته ، كُتب مع مثبت رسمه ومفروض قراءته وحفظه ، خشية دخول الفساد والشبهة على من يأتى بعد »

وهـذا الاختلاف فى القراءات الذى دعا عثمان الى جمع المصحف الإمام ، كان موجودا على عهد النبى صلى الله عليه وسلم ، كما يشهد له حديث الصحيح فى اختلاف عمر بن الخطاب وحكيم بن هشام فى سورة الفرقان وتحا كمهما الى النبى صلى الله عليه وسلم وتصويب قراءتهما جميعا ، لأن حياة النبى صلى الله عليه وسلم ونزول الوحى عليه كانت أعظم ضمان لتنزيه القرآن عن أحرف لم ينزل بها الوحى ، أما إذ انقطع الوحى بوفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يبق مناص من سـد الثغر التى ينفذ منها الخطأ ، وذلك بجمع الناس على مصحف واحد يتخذونه إماما لهم ، وذلك ما صنع عثمان رضى الله عنه .

من هذه الروايات الـكثيرة يظهر أن القرآن الـكريم كان فى حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم مكتوبا مجموعا مرتبا ترتيبه الذى تلقته عليه الأمة جيلا بعد جيل ، من غير زيادة حرف أو نقص حرف ، أو تقديم كلمة وتأخير أخرى ؛ وهو الذى تضافرت عليه أقوال الأئمة المعتد بهم فى جميع الدهور والأعصار ؛ قال القاضى أبو بكر الباقلانى : « الذى نذهب إليه أن جميع القرآن الذى أنزله الله وأمر باثبات رسمه ولم ينسخه ولا رفع تلاوته بعد نزوله هو هـذا الذى بين الدفتين الذى حواه مصحف عثمان ، وأنه لم ينقص منه شيء ولا زيد فيه ، وأن

ترتيبه ونظمه ثابت على ما نظمه الله تعالى ورتبه عليه رسوله من آى السور، لم يقدّم من ذلك مؤخّر، ولا أخر منه مقدم، وأن الأمة ضبطت عن النبي صلى الله عليه وسلم ترتيب آى كل سورة ومواضعها، وعرفت مواقعها، كما ضبطت عنه نفس القراءات وذات التلاوة » . وعن ابن وهب قال : سمعت مالكا يقول : « إنما أُلِّف القرآن على ما كانوا يسمعون من النبي صلى الله عليه وسلم » .

لم يبق سبيل للاعتماد على بعض الروايات الواهية أو المحرفة فى فهمها التى تنسب الى عبد الله ابن مسعود من إنكار كون المعوذتين وفاتحة الكتاب ليستا من القرآن لأنهما لم يوجدا فى مصحفه . قال الامام فخر الدين الرازى : « نقل فى بعض الكتب القديمة أن ابن مسعود كان ينكر كون سورة الفاتحة والمعوذتين من القرآن ؛ وهو فى غاية الصعوبة ؛ لأنا إن قلنا إن النقل المتواتر كان حاصلا فى عصر الصحابة يكون ذلك من القرآن، فإنكاره يوجب الكفر، وإن قلنا لم يكن حاصلا فى ذلك الزمان فيلزم أن القرآن ليس بمتواتر فى الأصل . والأغلب على الظن أن نقل هذا المذهب عن ابن مسعود باطل » . وقال النووى فى شرح المهذب : « أجمع المسلمون على أن المعوذتين والفاتحة من القرآن، وأن من جحد منها شيئا كفر، وما نقل عن ابن مسعود باطل ليس بصحيح » . وقال ابن حزم : « هذا كذب على ابن مسعود وموضوع ؛ وإنما صح عنه قراءة عاصم عن زرّ عنه وفيها المعوذتان والفاتحة » . والذى يدل لذلك إجماع الأمة من لدن عصر النبوة على أنه لم تقع صلاة فى الاسلام بغير فاتحة الكتاب، كما نقله صاحب الإتقان .

وقد قدمنا لك خطبة عبد الله بن مسعود التى تفيد أن الخلاف بينه وبين غيره إنما كان على القراءات، وقد قال له الناس حينما عزله عثمان عن الكوفة : أقم ونحن نمنعك أن يصل اليك شىء تكرهه، فقال : « إن له علىّ حق الطاعة، ولا أحب أن أكون أول من فتح باب الفتنة » .

صادق ابراهيم عرجون

حجاب القادة

ذم كثير من الأدباء الحجاب المضروب على القادة، كأنهم يريدون أن يدخل عليهم من يريد وقت ما يريد . وغاب عنهم أنهم لو سمحوا بذلك لما وجدوا وقتا لتصريف الأمور العامة . ومن هؤلاء الذى قال :

ليس الحجاب بالة الأشراف إن الحجاب مجانب الإنصاف
ولقل من يأتى فيحجب مرة فيعود ثانيـة بقلب صاف

ولكن أفضل من هذا وأحكم قول أبى تمام :

ليس الحجاب بمقص عنك لى أملا إن السماء ترجى حين تحتجب

باب الأسئلة والفتاوى

فى الميراث :

جاء الى لجنة الفتوى بالجامع الأزهر الاستفتاء الآتى :

توفى رجل وترك أولاد أختين : ثلاث بنات من واحدة ، وولدا وبنتا من الأخرى ، ومقدار التركة خمسة عشر جنيها ؛ فما بيان الحكم الشرعى ؟

شافعى سلامه
بسرياقوس

الجواب :

هؤلاء المذكورون من ذوى الأرحام ، وحكمهم فى هذه الحادثة أن أولاد كل أخت ينزلون منزلة أمهم ويأخذون ما كانت أمهم تأخذه لو كانت هى الموجودة وقت وفاة أخيها المتوفى .

والظاهر من السؤال أن الأختين شقيقتان ؛ فإذا كان الواقع كذلك فإن التركة تقسم نصفين ، كل نصف يوزع على أولاد أخت ، فيأخذ البنات الثلاث أولاد الأخت الأولى كل واحدة منهن جنيهين ونصفا ، ويأخذ الولد والبنت أولاد الأخت الثانية ما كانت تأخذه أمهم ، للذكر منهم مثل حظ الأنثيين ، فللولد خمسة جنيهات ، وللبنت جنيهان ونصف . والله أعلم .

فى الرضاع :

وجاء الى لجنة الفتوى بالجامع الأزهر الاستفتاء الآتى :

خديجة بنت محمد النهشاوى رضعت من والدتى مريم وقت أن كانت ترضع أخى الأكبر ، وإن خديجة محمد المذكورة قد تزوجت وأنجبت بنتا تسمى حياة ، وإن أخى الذى رضع معها قد توفى ؛ وأنا مرادى الزواج من بنت خديجة وهى حياة . فهل يصح لى الزواج منها أو لا ؟

ابراهيم مصطفى العوف — بمركز بوليس بئر السبع — حيفا

الجواب :

حيث إن خديجة رضعت من مريم فقد صارت مريم أمًّا لها من الرضاع ، وصار جميع أولادها إخوة لخديجة من الرضاع ، فلا يجوز لواحد منهم أن يتزوج حياة بنت خديجة ، لأنها بنت أخته من الرضاع . والله أعلم ؟

رئيس لجنة الفتوى
محمد عبد اللطيف الفحام

المستقبل للاسلام (١)

العلم والفلسفة يهيئان العقول والقلوب لقبول الاسلام دينا عالمياً

ربما خيل لمن لا يعرف الاسلام أن هذا إعلان جرىء ، ولكننا نعتقد أنه متى عرفه فسيقرنا عليه ، فكل ما علينا الآن أن نقيم عليه الدليل .

نعم ، إن العالم بفضل تحرره من الوراثات والتقاليد ، وإمعانه فى النقد والتمحيص ، يتمشى على غير قصد منه نحو الاسلام بخطوات متزنة ثابتة ، لا توجد قوة فى الأرض ترده عنه ، إلا إذا انحل عصام المدنية ، وارتكست الجماعات الانسانية عن وجهتها العلمية . هذا إجمال يعوزه البيان، فاليك :

قُذف بالانسان الى هذا العالم جاهلا به غاية الجهل ، عميا عن أسراره كل العماية ، ولولا أن خالقه جل شأنه أوجده حيث الماء والنبات ، لمات ظمأ وسغبا ؛ ولو لا أنه منحه معارف ضرورية يستطيع بها أن يهرب من الضوارى التى كانت تتعقبه ، ويحتمى من العوارض الطبيعية التى كانت تنصبّ عليه ، لما أمكنه أن يبقى أكثر من أيام معدودة . ولكنه وهبه عقلا ليس لسلطانه حد يقف عنده ، فأخذ يستهدى بنوره يسيراً يسيراً ؛ حتى استطاع أن يأمن شر العوادى ، وأن يجتمع على أمثاله ، وأن يكتشف أوليات العلم ، ومبادئ الحكمة . ثم ما برح ترقى حتى أسس الأمصار ، وأوغل فى المعارف ، وسخر قوى الكون ، وسبر مساتير الوجود ، واخترع الآلات المعجبة ، وهو اليوم يحدث نفسه بالصعود الى الكواكب ، وكشف عالم الروح ، والتحكم فى نواميس الحياة .

هذا كله مشاهد محسوس لا يحتاج لتدليل ، ولكن الذى يحتاج لتنبيه هو أن الانسان فوق كل ما يحصله من علم ، وما يكتشفه من مستور ، يزداد معرفة بما يجب أن يكون عليه الدين الحق ، وما يلزم أن تؤخذ به النفس من الآداب القويمة ، وما ينبغى أن يقيمه لتوثباته من المثل الأعلى للانسانية الصحيحة .

فى أثناء تمشى الانسان فى هذه السبيل الأدبية ، تحت ضوء العلم والفلسفة ، تسقط فى نظره

---

(١) طلب الينا أن ندلى باقوى ما نملك من حجج فى موضوع ان المستقبل للاسلام ، ففعلنا ، ولم نشأ أن نقصر انتشار هذا البحث الجامع على عدد محصور من القراء ، فرأينا أن نعمم إذاعته بنشره فى مجلة الازهر ليكون الى جانب نظائره مما نقوى به حجة الاسلام فى هذه المجلة .

الواحدة بعد الأخرى ، جميعُ الأوهام الموروثة ، والتعصبات التقليدية ، فيرى الخضوع لها عاراً عليه ، وسقوطاً لكرامته ، ويعمل على تطهير قلبه منها ، واجتثاث جذورها المنبثة فى أقصى ثناياه ، عادًّا ذلك من متممات وجوده الأدبى .

فتكون النتيجة الحتمية من وراء هذه المحاولات الثقافية فى هذه الناحية ، تأسس الأصول الآتية :

(أولا) زوال آثار الوراثات الدينية .

(ثانيا) انمحاء التعصب المذموم للعقائد الباطلة .

(ثالثا) قيام النظر العقلى مقام التقليد الأعمى .

(رابعا) قبول كل عقيدة تسلم من النقد وتنهض بها حجة .

(خامسا) الميل الى إيجاد زمالة عامة بين الناس كافة ، ومحاربة كل العقائد المفرقة للأمم ، والجاعلة إياها شيعا .

(سادسا) الاتجاه الى نصب العلم فاروقا بين الحق والباطل ، بغير اعتداد برأى أية طائفة من الطوائف ، أو فرد من الأفراد .

هذه الأصول الستة لا محيص من تولدها كثمرة طبيعية للثقافة العصرية . وقد تولدت فعلا وصارت جزءا من الدستور العلمى لدى ألوف من المشتغلين بجميع الفروع العلمية ، وليس بينها وبين أن تصبح عنصرا رئيسيا من عناصر العقلية الأوربية إلا أن تنتشر فيها المبادئ الفلسفية ، وهى لا تزال بعيدة عن الدهماء لأسباب اقتصادية ، ولكن لا بد من بلوغها هذه المنزلة بعد قرنين أو ثلاثة قرون .

فاذا بلغ العالم هذه المرتبة من التعقل ، والخلاص من آثار الوراثة ، ثم لاح له أن ينظر فى الأديان التى يعتبرها إذ ذاك بقايا أثرية ، للعقلية البشرية ، تبين له أنه فى صميم الاسلام ، وأنه فى جهاده العلمى الطويل كان يعمل لإقامة دولته ، وإعلاء كلمته ، وهو يتوهم أنه يهدمه فيما يهدم من العقائد الباطلة ، والوساوس المعطلة .

فكما جاءت الحوادث مصدقة لقوله تعالى : « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا » الآية . وقد كانوا يعبدون الله سرا ويخشون أن يتخطفهم أعداؤهم ويمزقوهم شذر مذر ، فآتاهم الله خلافة الأرض ، وجعل دينهم ظاهرا على الأديان كلها ، كذلك ستصدّق الحوادث ما وعد الله به من أنه سيُرى الناس آياته فى الآفاق وفى أنفسهم حتى

يتبين لهم أن هذا الدين هو الحق : « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ، أو لم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد » .

وقد ظهرت بوادر هذا الانقلاب فى أقوال الكثيرين من أقوال علماء الغرب ، وقد رأى بعضهم ومنهم (برنارد شو) أن أوربا قد لا يمضى عليها قرنان حتى تكون قد اتخذت الاسلام دينا .

أى شىء يعتبر فى حكمه هذا بعيدا عن العقل ؟ أليست الأصول الستة التى أثبتناها هنا ، وهى أخص أصول الدستور العلمى ، هى نفسها أخص أصول الاسلام ، بل هى معناه وروحه ، والموجب لجعله دينا للعالمين كافة فى كل زمان ومكان ؟

لقد كلّف الاسلام كل داخل فيه أن يكون متجردا من كل ما يربطه بالماضى من دين ووراثة وتقليد ووهم وخيال ؛ وأن يُقبل عليه خالى القلب من كل صورة ذهنية ، ورأى سابق ، على مثال ما يكون عليه الطفل ساعة تضعه أمه .

فاذا تمت له هذه التصفية ولُقن أمور الدين ، أُمر أن يتعقلها وأن ينظر فى أدلتها ، ونُهى أن يأخذ بها تقليدا مهما كانت مكانة الرجل الذى يقلده ؛ وكُلِّف أيضا أن يتأمل فيما نصبه الله فى الكون من معالم الحق ، وأن يدرسها دراسة المتتبع لأسرار الخلق ، مخضعا كل ما يحصله لأدق أساليب التمحيص والتحليل ، حتى لا يتورط فى الأخطاء فيضل ويضل ، وهو مسئول عن كل ما يستخدمه فى هذا السبيل من حواسه ومشاعره ، ومحاسب حتى على جيشات خواطره . وإنا لمقتبسون لك آيات من الكتاب تريك مكان هذه الأصول منه ، فاليك :

قال الله تعالى فى ماهية الدين الحق : « فأقم وجهك للدين حنيفا ، فطرة الله التى فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون » . وقد شرح النبى صلى الله عليه وسلم هذه الفطرة فقرر أنها مثل الحالة التى يكون عليها الطفل ساعة ميلاده : « كل مولود يولد على الفطرة ، وإنما أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » . أى أن كل مولود يولد على الدين الحق المطلق « الاسلام » ولكن أبويه ينقشان فى عقله من الصور ما يغيّران به هذه الفطرة السليمة لتعلق به فلا يستطيع عنها حولا .

وقال تعالى فى ذم الظنون والأوهام : « إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون » . وقال « وما يتبع أكثرهم إلا ظنا ، إن الظن لا يغنى من الحق شيئا »

وقال تعالى فى النهى عن اتباع الهوى : « ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله » . وقال فى وجوب إقامة سلطان العقل : « أفلا تعقلون » . وكرر ذلك فى آيات كثيرة بألوان مختلفة عشرات من المرات .

وقال فى ذم الذين لا يعرفون للعقل حقه : « إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون » . وقال : « صم بكم عمى فهم لا يعقلون » . وقال : « ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون » . وقال : « وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير . فاعترفوا بذنبهم فسُحقاً لأصحاب السعير » .

وقال تعالى فى المسئولية الشخصية ، وفى عدم جواز الاعتماد على الغير : « كل نفس بما كسبت رهينة » . وقال : « وأن ليس للانسان إلا ما سعى . وأن سعيه سوف يُرى . ثم يُجزاه الجزاء الأوفى » . وقال « واتقوا يوما لا تجزى نفس عن نفس شيئا ، ولا يقبل منها شفاعة ، ولا يؤخذ منها عدل (أى فداء) » .

وقال تعالى فى ذم التقليد الأعمى : « وقالوا (أى يوم القيامة) ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا » . وقال : « إذ تبرأ الذين اتُّبعوا (أى يوم القيامة) من الذين اتَّبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب . وقال الذين اتَّبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرءوا منا ، كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار » .

وقال تعالى فى وجوب طلب الدليل القاطع على كل عقيدة ، وفى النعى على الذين يعتقدون تقليدا بغير حجة : « ومن يدع مع الله إلها آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه » . وقال فى وجوب تقاضى الدليل من كل صاحب قول : « قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين »

وقال فى تسفيه أحلام الذين يجمدون على ما ورثوه من آبائهم من الأباطيل : « وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله ، قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا ، أَوَ لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون ؟ » « بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون » .

هذا دستور دينى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم فى زمن لم يكن فيه لدستور أيا كان نوعه دولة فى الأرض ، لا من الناحية السياسية ، ولا من الناحية العلمية ؛ أما من الناحية السياسية فقد كان لا يعرف أحد أن للحكومة دستورا قط . فكان الناس من هذه الناحية غرقى الى يا فيخهم فى حكومة الفرد لا يعرفون لهم حقوقا ، ولا وجودا معها .

أما أمر الدين فقد كان دستوره عندهم : « اعتقد وأنت أعمى » كما قاله العلامة لاروس فى دائرة معارف القرن التاسع عشر . أما هذا معقول وهذا غير معقول ، وهذا يحتاج الدليل ، فعبارات كانت تجر الى النار المحرقة فى تنانير كانت أعدت لذلك .

جاء محمد صلى الله عليه وسلم بذلك الدستور الدينى ، وهو القرآن ، والناس قاطبة على ما وصفنا من العمايات المتراكبة بعضها فوق بعض ، وقد جمدوا على ما كانوا عليه حتى صار حالا ملازما لهم لا يتصورون الحياة على حال غيره ، بل لا يحبون أن يسمعوا داعيا يدعوهم الى نقيضه ، وإذا

أقدم على ذلك وصموه بالجنون . وقد حكى الله ما قالوه للنبي صلى الله عليه وسلم حين دعاهم الى النور فقال تعالى : « وقالوا يأيها الذى نزل عليه الذكر إنك لمجنون » . وقالوا : « أإنا لتاركو آلهتنا لشاعر مجنون ؟ » . فرد الله عليهم بقوله : « أم يقولون به جنة ؟ بل جاءهم بالحق وأكثرهم للحق كارهون » .

فإذا كانت ثمرة هذا الدستور الإلهى فى البقعة الفسيحة من الأرض التى استولى عليها المسلمون فى أول الاسلام ، هى دخول أمم برمتها فيه ، بغير إجبار ، بل بغير دعاية منظمة ، والعقول لم تكملها العلوم ، والنفوس لم تصقلها الشكوك ، فماذا ينتظر أن يكون عليه حال العالم المتمدن إذا عرف الاسلام حق معرفته ، وتبين الناس أنه لا ينطبق على الدستور العلمى فحسب ، ولكن أصوله الأولية هى ذلك الدستور نفسه ، بالغا أكمل ما يمكن أن يصل إليه من السمو والإحاطة بكبريات الأمور وصغرياتها ، بحيث لا تفلت منه حتى همسات السرائر ، وحركات الضمائر : « إن تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله » .

العالم المتمدن يحاول حل مسألة الدين :

قد يقول معترض : إنكم تنفقون أوقاتكم فى الكلام عن العالم المتمدن من ناحية الدين ، على حين أنه قد فرغ منها ، ولم يعد يخطرها بباله ، وقد محض نفسه للبحوث المادية ، وتسخير قوى الكون لحياته الدنيوية .

الحقيقة أن المعترض غير مصيب فيما يقول . فإن العالم المتمدن اليوم أشغل ما يكون بالمسألة الدينية من جميع نواحيها . فإن كان لابد من الاستشهاد بأقوال أقطابه ، فإليك ما كتبه الأستاذ (هنرى بيرانجيه) فى المجلد الرابع والعشرين من مجلة المجلات الفرنسية ، قال :

« إن المسألة الدينية أهم ما يشغل العالم المتمدن اليوم ، لأن مستقبل الأمم المتحضرة يتوقف على حلها » .

ثم قال :

« إذا كان النقد التاريخى قد حطم اليوم كل الأشكال المتحجرة فى الأديان ، فإنه لم يستطع أن يعدو على العاطفة الدينية ، بل اعترف باستمرارها وشيوعها فى كل دور من أدوار التاريخ ، ورأى أن كل تلك الآلهة المختلفة المتعاقبة ، تشهد بأن الانسان مفطور على الاعتقاد بالله رغم أنفه . ففى كل جهة وكل زمان قد شوهدت حاجة الانسان الى الدعاء والعبادة والتضحية ، فى أخس الأديان الوثنية ، كما فى أرقى المذاهب الروحانية . هذه هى الشرارة البسيكولوجية (أى النفسية) التى استخلصها من رماد العصور الماضية تاريخ المقارنة بين الأديان . فمن المحال أن يطفئها ، ولكنه سينقلها الى المستقبل » .

ثم قال :

« إننا نأمل الوصول الى حل المسألة الدينية ، وبخاصة لأن الديانة الفطرية (أى الطبيعية) قد ولدت منذ مائة عام ، ودرست بواسطة بعض كبار الفلاسفة الفرنسيين . فجان جاك روسو ولمرتين ولامنيه وميشيليه وكينيه ، كانوا من كبار المبشرين بهذه الديانة الجديدة . وقريب منا إرنست ريناك وجيو وشوريه وساباتييه قد أمدوها بقوة عظيمة جديدة » انتهى .

نقول : ماهى هـذه الديانة الطبيعية التى يعتقد كبار المفكرين فى الغرب بأنها الديانة العالمية العلمية المستقبلة ؟

إنا نأتيك بها على لسان أحد كبار أشياعها ، وهو الفيلسوف الفرنسى (كارو) ، فقد قال فى كتابه :

(البحوث الأدبية على الزمان الحاضر) ما يأتى :

« أصول الديانة الطبيعية هى الاعتقاد بوجود إله مختار خلق الكائنات وعنى بها . وهو متميز عن العوالم الكونية وعن النوع الانسانى ، ووجود روح للانسان متصفة بالادراك والحرية ، ومحبوسة فى هذا الجثمان المادى أمدا لتبتلى فيه ، وهذه الروح تستطيع بارادتها أن تطهر هذا الجثمان وتنقيه ، إذا عرجت به نحو السماء ، ويمكنها أن تسفله باخلادها الى المادة الصماء ، والاعتقاد المطلق بسمو العقل على الحس ، ووضع الحرية الخلقية التى هى ينبوع وأصل جميع الحريات ، تحت سيطرة الاعتدال ، وإعطاء الصفات الفاضلة اسمها الحقيقى وهو الامتحان والابتلاء ، وتحديد غرضها الصحيح ، وهو التخليص التدريجى للنفس من علائق الجسم ، والتهيؤ لساعة الموت بالزهادة . وأخيرا الاعتراف بناموس الترقى . ولكن بدون فصل ترقى الانسان فى مدارج السعادة المادية عن العواطف الفاضلة التى هى وحدها تبرر تلك السعادة » اه .

نقول : هل يعنى كل هذا الجهد الجاهد من الفلاسفة والمفكرين ، غير محاولة الرجوع لدين الفطرة ، تحت تأثير حوافز من أنفسهم ، ومن تجلى آيات الله لهم ، فى الآفاق المحيطة بهم، مصداقا لتلك الآية الكريمة ؟

فالدين الفطرى (أى الطبيعى) آت لامحالة باعتبار أنه دين عالمى للبشر كافة بحكم العلم نفسه . والدين الفطرى هو الاسلام بنص كتابه ، وبموجب أصوله . فاذا آنس الناس تلكؤا فى التمشى اليه فذلك أمر طبيعى ، لأن أكثر الناس عوام يجمدون على ما ورثوه ، ويستميتون فى تأييده وإن كانوا لايعقلونه ، ولكن بوتقة الوجود دائبة على صهر العقول جيلا فجيلا تطهيرا لها من الكدر العالق بها طبقة بعد طبقة ، والحقائق فى الوقت نفسه تزداد ذيوعا بينهم ، فلا يزال الأمر جاريا على هذه الوتيرة حتى لا يبقى فى الناس من يعتقد فيما لا يعقل ، وإذ ذاك تحل الروح الاسلامية

فى العالم بكل ما قامت عليه من أصول عقلية ، ومبادىء علمية ، فيتحقق أعظم إصلاح عالمى يتمناه المصلحون فى العصر الحاضر .

فى ذلك اليوم لا يستطيع مفكر كالأستاذ (هنرى بيرانجيه) المتقدم ذكره أن يقول : « لما كانت الأديان ليست بشىء غير مظاهر رمزية للعاطفة الدينية فستتلاشى عاجلا أو آجلا ككل الآثار الانسانية ، ولكن تلك العاطفة لن تتلاشى أبدا إلا مع الانسان نفسه » .

نعم لا يستطيع أن يقول ذلك . لأنه يجد الدين الأخير منها هو تلك العاطفة نفسها ، كما ينص عليه كتابه فى قوله تعالى : « فطرة الله التى فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون » ، ويجد أن كل ما تستدعيه تلك العاطفة الدينية من معتقدات وعبادات ومعاملات مشروط فيه الرجوع به الى حكم العقل والعلم ، لا الى تحكم الهوى والجهل . فكل حق وهدى وعلم وخير وترق ، فهو فى شرعة هذا الدين الفطرى دين . وكل باطل وضلال وجهل وشر وتدل ، فهو فى شرعته كفر .

هذا هو الدين الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم دينا عاما للبشر كافة . فهل تجد محيصا للبشر عنه ؟

كيف يعقل ذلك والفطرة أساسه ، والعقل نبراسه ، والعلم مادته ؟ وهل للبشر محيص عن هذه الثلاثة الأصول الطبيعية مهما حاولوا ذلك وتكلفوه ؟ فان كان فى العالم أصول كلما أمعنتَ فى البعد عنها ، ازددت قربا منها ، فهى الفطرة والعقل والعلم .

وهذا كله معنى قوله تعالى : « أفغير دين الله يبغون ، وله أسلم من فى السموات والأرض طوعا وكرها واليه يرجعون ؟ قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والأسباط ، وما أوتى موسى وعيسى والنبيون من ربهم ، لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون » .

« يأيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا اليكم نورا مبينا . فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم فى رحمة منه وفضل ، ويهديهم اليه صراطا مستقيما » .

« يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون » .

« ويرى الذين أوتوا العلم الذى أنزل اليك من ربك هو الحَق ، ويهدى الى صراط العزيز الحميد » ؟

محمد فريد وجدى

بحوث في المسائل الفقهية

تاريخ الفقه الاسلامى فى مصر

— ٣ —

كيف دخل الفقه الاسلامى مصر

لم يكن الفتح الاسلامى فتحا سياسيا فحسب ، ولم تكن الحملة التى أرسلها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب حملة حربية فقط ، فان العرب كانوا دائما يحملون مع السيف علَم ثقافتهم ودينهم ، وكانوا يبسطون حيثما حلوا بساط عدلهم وأمنهم ، وكانت البلاد التى يفتحونها تتمتع سريعا بحكم عادل مستقر لأنه حكم الرحمة والمصلحة ، خال من التعقيد لأنه هو البساطة بعينها ، بعيد عن المشقة لأنه لا يعرف إلا اليسر والسهولة .

ولا تجد أمة راقية تكتفى أبدا بالفتح السياسى حتى تضيف إليه الفتح الثقافى .

بل إنه لا يفلح الفتح السياسى ، ولا تتوطد أقدام القائمين به إلا فى ظلال الفتح الثقافى ، والغزو الفكرى .

وها نحن أولاء نرى فى عصرنا الحاضر أثر الدعاوة السريع ، ومقامها العظيم ، وعناية الدول الحديثة بها ؛ ونرى أن الأمم المستعمرة تقدم ثقافتها ومبادئها بين يدى ما تبغى من فتح واستعمار ، وتغزو بجيوش العلم والفكر ، قبل أن تغزو بجيوش الحرب والطعان !

على هذه السنة كان الفتح الاسلامى لمصر ، فكان مع الفاتحين حملة ثقافية علمية دينية ، أعضاؤها من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الذين شهدوا الرسالة ، وصحبوا الرسول ، وقرءوا القرآن ، ورووا الحديث ، وشهدوا ما كان يفعل أبو بكر وعمر بعد وفاة الرسول فيما يعرض للمسلمين من قضايا ، وما يحدث لهم من أحداث .

ودخل مصر بعد الفتح أصحاب آخرون ، وكان من هؤلاء وأولئك أمراء تولوا حكمها ، وقضاة فصلوا فى قضاياها ، ومفتون ، وفقهاء ، ورواة حديث .

فعلى يد هؤلاء جميعا دخل الفقه الاسلامى الى مصر ، وعلى يد هؤلاء جميعا وضع أساس الفقه فيها ، أو كما يقال فى التعبير الحديث : أسست مدرسته الأولى .

فما هو طابع هذه المدرسة ؟ وماذا كان أثرها فى مصر من حيث القوانين والأقضية ، والأحكام ؟ وهل كان لمصر أثر خاص فى فقه هذه المدرسة ؟

مدرسة الصحابة :

ألف محمد بن الربيع الجيزى كتابا فيمن دخل مصر من الصحابة ، ذكر فيه مائة ونيفا وأربعين صحابيا ، ثم جاء جلال الدين السيوطى فألف كتابا أسماه « در السحابة فيمن دخل مصر من الصحابة » جمع فيه من ذكرهم ابن الربيع ، وزاد مثلهم أو أكثر ممن ذكروا فى مصادر أخرى ، فبلغت عدة هؤلاء وهؤلاء أكثر من ثلاثمائة .

وقد تتبعت أخبار هؤلاء الصحابة ، فوجدت كثيرا منهم رواة حديث يتفاوتون فى عدد مايروون منه ، فمنهم المقل ، ومنهم المكثر .

ووجدت قليلا منهم ممن عرفوا بالفتوى أو اشتغلوا بالقضاء ، ووجدت بعضهم قد مر بمصر مرورا ، أو أقام بها قليلا ، وبعضهم قد استوطنها واتخذها له دارا ، وبعضهم قد تولى شأنا من شئونها .

ونحن نعرض لبعض هؤلاء الأصحاب من قبيل التمثيل ، ليكون للقارئ فكرة عنهم :

فالزبير بن العوام : أحد الذين شهدوا الفتح ، وكان لهم أثر ظاهر فيه ، فهو الذى قدم الى عمرو فى مدد من أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، وهو الذى اقتحم الحصن على من فيه ، فتم بذلك النصر للمسلمين .

وهو من المعروفين بالفتيا ، وقد ألحقه ابن القيم بالمتوسطين(١) ، ولكنه لم يقم فى مصر إقامة تجعل له فى فقهها أو روايتها أثرا بارزا ، وقد ذكروا أن المصريين لم يرووا عنه إلا حديثا واحداً .

وعبادة بن الصامت : كان سفير المسلمين الى المقوقس فى أثناء الحصار ، وهو أيضا من المفتين المتوسطين ، ولكنه لم تطل إقامته كذلك ، ولم يرو المصريون عنه إلا عشرة أحاديث .

والمقداد بن الأسود : من المقلين ، وقد شهد الفتح ، وللمصريين عنه حديثان .

وأبو ذر الغفارى : شهد الفتح أيضا ، وأقام بمصر زمنا ، ولهم عنه عشرون حديثا ، وهو فى المقلين من المفتين .

وربيعة بن شرحبيل بن حسنة : شهد الفتح ، ولم يرو المصريون عنه شيئا ، ويظهر أنه كان ذا موهبة مالية دعت عمرو بن العاص أن يستعمله على المكس وهو الخراج (٢) .

---

(١) نقل ابن القيم فى كتابه أعلام الموقعين أن الصحابة عموما باعتبار فتاويهم قلة وكثرة ثلاث طوائف : مكثرون يمكن أن يجمع من فتوى كل منهم سفر ضخم ، ومتوسطون يجمع من فتوى كل منهم كتيب صغير ، ومقلون لا تعرف عن أحدهم إلا المسألة أو المسألتان أو الزيادة اليسيرة على ذلك . . الخ ١٣ ج ١

(٢) خطط المقريزى ١٢٣ ج ٢

ومسلمة بن مخلّد الأنصارى : قد ولاه معاوية على مصر ، وجمع له الصلاة والخراج وبلاد المغرب ، ولكنه كان مشغولا بالغزوات ، فلم يرو له المصريون إلا حديثا واحدا ، ولم يعرف عنه فتاوى مع أنه أقام بمصر أميرا خمس عشرة سنة !

وهناك رجلان يحدثنا الرواة أنه كان لكل منهما أثر فى المصريين ، ومقام محمود : أحدهما عقبة بن عامر الجهنى ، والثانى عبد الله بن عمرو بن العاص السهمى .

فأما عقبة ، فإنه لا يعد فى المفتين المقلين أو المكثرين ، وإنما يعد من رواة الحديث (١) ، أقام بمصر زمنا طويلا ، ومات بها سنة ٥٨ هـ ، وتولى إمارتها من قبل معاوية بن أبى سفيان سنتين وثلاثة أشهر .

وكان من أحسن الناس صوتا بالقرآن (٢) ، وإتقانا لقراءته ، وله مصحف كتبه بيده ، قال أبو سعيد بن يونس : رأيت مصحف عقبة بمصر على غير تأليف مصحف عثمان .

ويظهر أنه كان رجلا ظريفا ، لين الجانب ، عذب الحديث ، وهذه الصفات حببت فيه أهل مصر ، وجعلت له فيهم منزلة سامية ، فأقبلوا على حديثه يروونه عنه ، ويتناقلونه ، حتى عد من الذين أكثر عنهم المصريون ، فقد روى ابن عبد الحكم أن للمصريين عنه نحو مائة حديث .

وأما عبد الله بن عمرو ، فكان من نجباء الصحابة وعلمائهم ، عدوه فى المكثرين من المحدثين ، وفى المتوسطين من المفتين ، من طبقة عثمان بن عفان ، وسعد بن أبى وقاص ، وأبى موسى الأشعرى ، ومعاذ بن جبل ، ونحوهم .

كان له منزلة بين الصحابة ، حتى لقد تردد ذكره فى أيام التحكيم كمرشح للخلافة ، وحتى لقد قالت عائشة لعروة بن الزبير ، وهو أحد الفقهاء السبعة بالمدينة : يا بن أختى بلغنى أن عبد الله بن عمرو مارّ بنا الى الحج ، فالقه فاسأله ، فإنه قد حمل عن النبى صلى الله عليه وسلم علما كثيرا (٣) .

وكان له صحيفة كتب فيها ما سمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم يسميها « الصادقة » ويقول : « فيها ما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ليس بينى وبينه فيها أحد » .

وكان يحج ويعتمر ، ويأتى الشام ، ثم يرجع الى مصر (٤) ، وقد روى عنه الحديث كثير من الصحابة والتابعين فى المدينة والشام ومصر .

---

(١) قال عنه الحافظ ابن حجر فى كتابه الاصابة : روى عن النبى صلى الله عليه وسلم ، وروى عنه جماعة من الصحابة والتابعين ، منهم ابن عباس ، وأبو أمامة ، وخلق من أهل مصر . (٢) حسن المحاضرة ١٠٣ ج ١
(٣) تاريخ التشريع الاسلامى « المكتبة الشريعة » ص ١٣٦ . (٤) فجر الاسلام ٢٣٤ ج ١

وأكثر علم المصريين عنه . كانوا يرجعون اليه فى الفتيا ، ويكتبون عنه ما يحدث . روى أبو سعيد بن يونس فى تاريخ مصر عن حَيْوَة بن شريح قال : « دخلت على حسين بن شُفَى ابن مانع الأصبحى وهو يقول : فعل الله بفلان ! فقلت : ماله ؟ فقال : عمد الى كتابين كان شفى سمعهما من عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنه ، أحدهما : قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى كذا ، وقال رسول الله كذا . والآخر : ما يكون من الأحداث الى يوم القيامة ، فأخذهما فرمى بهما بين الخولة والرباب (١) .

وهذا الخبر يعطينا فكرة عما كان يرويه المصريون عن عبد الله بن عمرو بن العاص ، فهو يذكر كتابين : فى أحدهما أقضية رسول الله صلى الله عليه وسلم وأحكامه ، وفى الآخر أخبار لا تتصل بالفقه ، والنوع الأول هو الفقه الذى كان يبثه فى المصريين عبد الله مستعينا عليه بما يروى من قضاء رسول الله وأحكامه .

ويظهر أنه كان للمصريين عناية خاصة بالنوع الثانى تزيد على عنايتهم بالنوع الأول . وسبب ذلك أنهم كانوا مولعين بالقصص ، والاستماع الى غريب الأخبار ، والتطلع الى معرفة ما سيحدث فى المستقبل من الأحداث ، أكثر من ولوعهم بالأحكام .

ولذلك راج القصص ، وكثر القصاص فى هذا العهد ، بل أصبح القصص عملا رسميا يعهد به الأمير الى بعض الناس ، ويعطيه عليه أجرا ، كالذى يحدثنا به الكندى فى كتابه « تاريخ القضاة والولاة » من أن سليم بن عِتر التُّجيبى كان يقص بمصر فى سنة ٣٨ هـ وجُمع له القضاء الى القصص ، ثم عزل عن القضاء وأفرد بالقصص (*)

وكان الناس يجتمعون الى القاصّ فيذكرهم بالله ، ويقص عليهم حكايات وأحاديث وقصصا عن الأمم الأخرى وأساطير ونحو ذلك لا يعتمد فيها على الصدق بقدر ما يعتمد على الترغيب والترهيب (٢)

هذا النوع أخر انتشار الفقه زمنا طويلا ، روى الكندى والمقريزى عن أبى قبيل وغيره أن أول من نشر العلم بمصر فى الحلال والحرام « وفى رواية ابن يونس : ومسائل الفقه » يزيد بن أبى حبيب ، وكانوا قبل ذلك إنما يتحدثون فى الترغيب والفتن (٣) . ويزيد هذا هو أحد الثلاثة الذين جعل إليهم عمر بن عبد العزيز الفتيا فى مصر .

---

(١) خطط المقريزى ج ٢ ص ٣٣٣ وفيها « قال أبو سعيد : يعنى بقوله الخولة والرباب مركبين كبيرين من سفن الجسر كانا يكونان عند رأس الجسر مما يلى الفسطاط تجوز من تحتهما لكبرهما المراكب » .

(*) سليم بن عتر هذا ليس صحابيا ولكنه من الطبقة الاولى من التابعين ، تولى القضاء سنة ٤٠ وتوفى بدمياط سنة ٦٥ (٢) فجر الاسلام ص ١٩٦ ج ١ (٣) خطط المقريزى ٣٣٣ ج ٢

وقد رأيت فيما رواه المصريون عن عبد الله بن عمرو أحاديث كثيرة من هـذا النوع .

منها ما روى فى مسند الامام احمد عن أبى قبيل ـ وهو من الرواة المصريين ـ قال « كنا عند عبد الله بن عمرو بن العاص ، وسئل : أى المدينتين يفتح أولاً : القسطنطينية أو رومية ؟ فدعا عبد الله بصندوق له حلق ، فأخرج منه كتابا ، ثم قال : بينما نحن جلوس حول النبى صلى الله عليه وسـلم نكتب إذ سئل رسول الله : أى المـدينتين يفتح أولاً : القسطنطينية أو رومية ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : مدينة هرقل تفتح أولاً ، يعنى القسطنطينية .

ومنها عن أبى قبيل عن عبد الله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من مات يوم الجمعة ، أو ليلة الجمعة ، وقته فتنة القبر . . . الخ الخ

وإنك لتجد كثيرا من الأحاديث التى يرويها المصريون عن غير عبد الله بن عمرو أيضا من هذا النوع الذى يدور حول الترغيب والترهيب ، والأخبار والقصص ، والنبوءات ، ونحو ذلك .

تلك صورة عن الرواية والفتيا ، لهذا العهد ، من تاريخ الفقه فى مصر ، يمكننا بعد ذلك أن نستلخص منها هذه النتائج :

(١) لم تـكن الرواية كثيرة ، ولم يكن فى الصحابة الذين دخـلوا مصر أحد له أثر بارز فى الفتوى سوى عبد الله بن عمرو .

(٢) كان المصريون يروون عن الصحابة أحاديث فى موضوعات شتى ، منها ما يتصل بالفقه ومنها ما لا يتصل به ، وكانت عنايتهم بالنوع الثانى أكبر .

(٣) لم يكن الفقه فى هذا العهد منتشرا كعلم يقصد اليه خاصة .

هـذا كله فيما يتعلق بالرواية والفتيا ، وكان الى جانب ذلك حركة أخرى أثرت فى الفقه على يد القضاة ، ولها حديث بعد هذا الحديث إن شاء الله ؟

محمد محمد المدنى
المدرس فى كلية الشريعة

هل العقل يشقى صاحبه ؟

قال أبو الطيب المتنبى :

ذو العقل يشقى فى النعيم بعقله وأخو الجهالة فى الشقاوة ينعم

ولو سألت الأكثرين وجدتهم على مذهب أبى الطيب . والحق أن العقل لا يشقى صاحبه إلا إذا كسفه جهل فطالبه بالمحال : كأن يتمنى أن يكون نعيمه المـادى مقيما ، فى عالم كل ما فيه زائل ، ويغبى عما وراءه من عالم الروح الذى ليس لنعيمه وصف . فمثل هـذا العقل الناقص جدير أن يشقى صاحبه ولا كرامة !

في عالم الأدب العربي[1]

نظرات فى الادب العربى

جاهليه وإسلاميه

— ٤ —

تيســـــير النحو

لعله لم يمرّ فى تاريخ اللغة العربية عهد ، هو أخطر على حياتها من هذا العهد ؛ فلقد اصطلحت عليها عوامل داخلية وخارجية ، غزتها من جميع نواحيها ، وهددتها فى معاقلها ؛ ولولا ما ركّب الله فى طبيعة هذه اللغة من القوى الحيوية ، لألقت سلاحها ، وأرَزَت الى المساجد والمعاهد الدينية كما تأرِز الحية الى وكرها ، وانتهت الى المصير الذى انتهت إليه اللغات التاريخيـة من قبل .

فقد تحقق وكاد يكتمل ، ما تنبأ به علماء القرن التاسع عشر ، من تقدم العلوم الطبيعية ، وترعرعها ، وسيطرتها على سياسة العالم ، وإحكام الصِّلات بين أجزائه المتنائية ، حتى أصبح وكأنه قطر واحد ؛ ولا ريب أن السيادة لن تعدو لغة العلم ؛ فنصيب لغة الأمة من السيادة ، تابع لمقدار حظها من العلم الطبيعى ؛ والعلوم الطبيعية كما تفرض نفسها على العالم لمكان الحاجة الى آثارها ، كذلك تفرض لغتها التى هى مفتاح رموزها ، وكشّاف أسرارها . يقول بعض شراح مذهب دارون فى النشوء والارتقاء :

« والعقبة التى يقـدر لها عمر أطول من سواها ، هى عقبة التفاهم ، أى اللغة ، ولـكن العلوم الطبيعية نفسها — بجعلها العالم كأنه مدينة واحـدة بتقريبه المسافات بينه — ستجعل التنازع شديدا جدا بين اللغات ، حتى يقضى على الـكثير منها الذى لم يكن له فى هذه العلوم شأن يذكر . وكأن البقاء اليوم غير مقـدور إلا للغات ثلاث سيقتصر التنازع فى المستقبل بينها ، وهى الانـكليزية والفرنسية والألمانية ؛ وكان الراجح حتى الربع الأول من القرن الماضى أن يـكون الفوز للفرنسية ؛ لأنهـا أسبق اللغات ، وأمتهـا أسبق الأمم الى المبادىء الاجتماعية الراقيـة ؛ لولا شيوع كتب الأدب الخيالية المجونية ، وعلم الحقـوق اللذين صرفا الأفـكار الراقية عن الاشتغال بالعلوم الصحيحة ، وكان ضررهما على فرنسة وعلى العالم أشـد

من ضرر النظريات الدينية ، التي ما كادت تتخلص من شراكها فى ثورتها الأولى ، حتى وقعت من ذلك فى شراك أخرى أدهى وأشد . ففى القرن السادس عشر كانت إيطاليا فى مقدمة الأمم فى ذلك ، ثم فى القـرن السابع عشر إنجلترا ، وفى الثامن عشر فرنسة ، وأما فى القرن التاسع عشر ، فالسابقة ألمـانيا » اهـ .

فهذا أحد الأخطار التى تتهدد لغتنا الـكريمة ، وهو أنـكرها وأبلغها ؛ ويلزمه خطر آخر ، وهو السرعة التى تسود الحضارة الآلية الراهنة ؛ والسرعة عدوة الإعراب ؛ لأن اللغات المعربة تعتمد الفهم قبل القراءة ، بخلاف اللغات غير المعربة ؛ على أن اللغة آلة البيان والإفهام ، فإذا توقفت على الفهم ، انعكس الحال . وعلماء اللغات يذكرون أنه ليس فى لغات العالم ما هو معرب إلا الألمانية ، والحبشية ، والعربية ، ولـكن أولاهن فى نهاية الطريق الى التخلص من الإعراب ، وهى بذلك حق جديرة ، بعد أن عرفتَ منزلتها بين أمم العالم .

يضافر السببين الآنفين ، ماركب فى طبائع الضعفاء من تقليد المتغلبين ، والفناء فيهم ، والإعجاب بكل ما يحيط بهم من عادات ، وأزياء ، وآداب وفنون ، وغيرها ؛ وفى كل أولئك إضعاف للناحية العنصرية ، التى أهم مشخصاتها اللغة ؛ ولأمر ما ، قالوا : حياة الأمة بحياة لغتها .

***

لقد دخـل اللحن على العربية الفصحى ، أول عهد العرب بالفتوح الاسلامية ؛ وبقيت الدواوين بلغة البلاد المفتوحة أمداً طويلا ؛ وتسلط غير العرب من الديالم والأتراك وغيرهم على الممالك الاسـلامية ؛ ونقلت الدواوين الى التركية إبّان العهد العثمانى ، ولـكنه بقى للغة مع كل أولئك سلطانها المتغلب ، يرفع لواءه الخلفاء والولاة والأمراء ، والآداب والدين . فاما فى هذا العهد ، فإن طغيان العلم الطبيعى ، وآثار العلم الطبيعى ، تعصف بالعزائم الصادقة ، التى تنطوى عليها نفوس ملوك الاسـلام ، ورجالات الممالك الاسلامية ، وعلمائها وأدبائها ؛ وعذرهم فى ذلك قائم ؛ فإن المدرسة ، والمسرح ، والسوق ، والمنزل ، والنادى ، كل أولئك قد طغى فيه اللون الغربى الوافد ، على كل لون سواه . ومن هنا كانت مهمة المجامع اللغوية ، من أشق المهام ، وأعظمها خطرا ، وكان النجاح المرجو منها محدودا ، لأن آفات اللغة العربية ، تسير فى أنحاء العالم فى إثر الحاجة الطبيعية ؛ فأما عمل المجامع اللغوية ، فإنه متكلف مدفوع بقوى غـير طبيعية ، ولا قوية ؛ ولعـل أفضل ما فيها إحياء شعائر اللغة ، والقيام على ثغر من ثغورها ، وهو بيئة الخاصة ، ثم الانتفاء من مذلة الاستسلام ، وإلقاء السلاح ، بالدفاع عن حومة مجد العربية ، ولسان الاسلام ، حتى الرمق الأخير .

***

لمـا ظهرت فـكرة « تيسير النحو » ، انقسم الناس بإزائها الى قسمين : ذهب قسم الى أنها

أول خطوة الى التخلص من إعراب اللغة العربية ، باستبدال الحروف اللاتينية بالحروف العربية ، على طريقة الدولة التركية ، وهيأهم لهذا الفهم ما قدمت من أسباب ؛ ثم شجعهم عليه ، خطبة خطبها وزير المعارف الذى كان تيسير النحو من إصلاحاته ، رمى فيها الى بعض ما شرحت آنفا ، من عسر القراءة باللغة العربية ، عسراً يوقع فى الإلباس والضلال ؛ فمادة « علم » مثلا ، يحتمل أن تقرأ : عَلِمَ ، وعَلَم ، وعُلِمَ ، وعِلم ، وعُلِّم . . الخ .

وذهب آخرون — وأنا أولهم — الى أن الغاية من هذا التيسير نبيلة ، والقصد حسن ، والثمرة أقرب وأنضج ، من ثمرات طريقة التطويل التقليدية ، التى اشترعها أبو علم الاجتماع العلامة ابن خلدون ، وتابعه عليها الأزهر والمدارس ، منذ كان التدريس ، وكانت المدارس .

ووجهة النظر فى تيسير النحو ، تُجمَل فى الاكتفاء من النحو وقواعده بالقدر الذى لابد منه لتقويم اللسان ، كمعرفة الفاعل والمفعول والمبتدأ والخبر الخ ؛ والتعويل فى تمام إصلاح اللسان على الإكثار من المطالعة فى الكتب الصحيحة ، حتى تتربى عند الطالب ملكة من كثرة التكرار ، وتعود النطق الصحيح ، تغنيه عن قواعد النحو وتطبيقها إذا قرأ ، وإذا كتب . وعلى الرغم من جمال هذا المنحى ، واحترام هذا الرأى ، فإن الشطر الأول منه باطل ، والشطر الثانى نظرى ؛ وقد كفانا الاستدلال على بطلان الشطر الأول ، أبو عثمان الجاحظ ، إذ يقول فى كتابه « الحيوان » : « قال الخليل بن أحمد : لا يصل أحد من علم النحو الى مايحتاج إليه ، حتى يتعلم ما لايحتاج إليه . قال أبو شمِر : إذا كان لايتوصل الى ما يحتاج إليه ، إلا بما لا يحتاج إليه ، فقد صار ما لا يحتاج إليه ، يحتاج إليه » . اهـ

فأما أن الشطر الثانى نظرى ، فذلك ما يكرره الواقع المحس ، إذ لو كانت كثرة المطالعة فى الكتب الصحيحة كافية فى تقويم اللسان ، لكان الأزهر وفروعه ، كدار العلوم ، ومدارس المعلمين الأولية ، أغنى المعاهد عن دراسة النحو ، والتعمق فيه ، لأن طالب هذه المعاهد لا يدخلها ، إلا وقد حفظ القرآن الكريم ، حفظا مجودا ؛ وأثر القرآن فى إصلاح اللسان ، أبين من أن يشرح ؛ فإذا دخلها كان هِجّيراه المطالعة فى كتب تلتقى كلها فى صحة التراكيب ، وسلامتها من الخطأ العربى ، وإن اختلفت أساليبها ، واضطرب حظها من الفصاحة والبلاغة . وجميع ما يدرس فى هذه المعاهد من غير العلوم الشرعية واللسانية ، قد روعى فى كتبه وفى دراسته تلقينا وتلقيا ، التعريب الى أرقى حد مستطاع . ومع كل أولئك ، فان أحدا لا يستطيع أن يقول : إن الأزهرى ومن فى حكمه فى غنية عن دراسة النحو ، أو عن التعمق فيها ؛ ليس لمكانه من القيام على الشريعة واللغة فحسب ، بل لحاجته إليه إذا خطب ، وإذا كتب ، وإذا قرأ أيضا ؛ ومنكر ذلك جاحد للمشاهدات .

وإذا كان هذا حال الأزهر وما فى حكمه ، فما ظنك بالمدارس المدنية ، والحال فيها جد مختلفة

عن حال الأزهر ؟ فالطالب يدخلها خلوا من المعلومات ، إلا قليلا من مبادئ القراءة والحساب ؛ ودروس اللغة العربية فيها محـدودة ؛ ودروس الدين تعطى على سبيل البركة ! ولغـة مدرسى العلوم الأخرى لا هى عربية ، ولا هى سريانية ؛ أما مدرسو اللغات الغربية ، فالويل للطالب الذى ينطق عندهم بغير لغة الدرس ؛ قد يتنزل دارس اللغة العربية ، فيخاطب طلبته بالعامية ، ويناقشهم بالعامية ، فأما دارس اللغة الغربية فلا يتساهل ، ولا يتنزل .

زارنى فى إحـدى مدارس الأوقاف الملـكية ، المغفور له صالح مجـدى باشا المستشار ؛ فسألنى عن حال اللغة العربية والدين فى المدرسة ، فلم أحمدها ، وعللت ذلك : بأن اللغة تزاحمها اللغات الأجنبية ، والعلوم التى لا يلتزم مدرسوها النطق الصحيح ؛ وبأن الدين يدرس إضافيا . فأجابنى ـ أغـدق الله عليه فيوض رحمته ـ بقوله : لا ـ يا أستاذ ـ ليس ما ذكرت هو السبب فى ضعف اللغة والدين ، وإنما سببه ضعف الروح المعنوى فى نفوس مدرسى اللغة والدين ؛ ولو أخلص المـدرس للغته ودينه ، كما يخلص المبشر الأجنبى ، لوجـد السبيل الى تقويتهما وغرسهما فى النفوس ممهداً ميسورا . إن الرغبة أساس الانتفاع العلمى ؛ وعلى حسن حيلة المدرس تتوقف وسائل الرغبة ؛ ولو أننى كنت مـدرسا مـكانك ، لالتزمت الأسلوب الصحيح ، ولقصرت التمثيل فى دروس اللغة والدين والتاريخ وما الى ذلك ، على القرآن الـكريم والحديث الشريف ، ولظفرت بتوجيه التلاميذ توجيها عربيا دينيا من حيث لا يشعرون ، من غير استظهار بمنهج ، ولا استعانة بقانون . فلم أحر ـ والله ـ جوابا ؛ ولا وقفت موقفا كنت فيه أضعف من ذلك الموقف !

بيد أنه مما لا يرتاب فيه ، أن التعليم أصبح آليا بحتا ، وأن الرغبة أصبحت تابعة للإيجاب والإلزام ، أو بعبارة أصح : قامت رهبة القانون فيه ، مقام الرغبة فى التكمل النفسى ؛ ورانت ضرورات الحياة وقسوتها وتـكاليفها على قلوب المدرسين ، فقامت حائلا صفيقا دون الإخلاص للمهنة ، الذى هو سبيل الافتنـان فى العرض ، والاحتيـال فى التلقين ، والتفانى فى الوصول الى تربية الملـكات الـكفيلة بالوصول الى الغايات المبتغاة من العـلم والتعليم ؛ فـكل تيسير يشترع فى كل ما أوجبه القانون ، مؤدّ ـ بلا جدال ـ الى التحلل والتخفف من بعض العبء حسب ؛ وليس معناه فى نظر طالب اليوم ومدرس اليوم ، تحويل باب آلىّ من أبواب العلم ، الى نحو عملى ، قد يكون أعسر البابين ، وأشق العملين . فلتبق الواجبات ـ إذاً ـ والرسوم ، الى أن تخلص القلوب ، وترقى الفهوم ؟

كلية اللغة العربية

عبد الجواد رمضان

دراسات اجتماعية منوعة

النقود وسيلة المبادلة

الاسلام دين جامع لـكل المقومات الاجتماعية ؛ ومن أهم تلك المقومات انتظام الشئون المالية ؛ وفى الفقه أبواب كثيرة تبحث فى الثروة العامة وطرق توزيعها بين الأفراد ، وجبايتها لمصلحة الدولة ؛ فوإن كان كل ذلك لا يتوقف على التبسط فى معرفة تاريخ التعامل بالنقـد وبالأوراق المالية ؛ فان الالمام بحركة النقد ، وخاصة فى هذا العهد ، مما يحتاج اليه المشتغل بالفقه الاسلامى حتى لا يكون أجنبيا عن حركات التعامل الاقتصادية . وللاسلام ناحية لا يجوز إغفالها من التعاون ، وهذا لا يمكن معالجته إلا بدراسة مايتصل به من قريب وبعيد من الشئون .

لهذا كله نرى أن البحوث الاقتصادية ليست ببعيدة الاتصال بالاسلام ، بل هى من أخص ما تجب العناية به ، ولنتكلم اليوم فى النقود :

كان الناس فى بدء حياتهم يعيشون على ما تنتجه أرضهم ، أو يستبدلون محصولات الآخرين بمحصولاتهم للحصول على ما ينقصهم من الحاجات .

ولما نما عددهم ، وظهرت لهم صعوبة المقايضة وتعقدها ، اضطروا الى اختيار شىء ينسبون اليه قيم السلع المختلفة ، واتفقوا على أكثر الأشياء بروزا فى مجتمعهم التجارى ،فاختاروا الأرز فى اليابان ، والشاى فى وسط آسيا ، وكتل الملح فى أفريقيا الوسطى ، والفرو فى الشمال من أوربا . وأخيرا اهتدوا الى المعادن النفيسة كالذهب والفضة والنحاس ، واستعملوها كوسيلة للمبادلة لما تمتاز به من صفات كيماوية وطبيعية جعلت لها التفضيل على سائر السلع .

فالفضة والذهب غير قابلين للتلف ولا الصدأ ، ويسهل حملهما مع كبر قيمتهما بالنسبة لوزنهما ، فان متوسط ما يستطيع الانسان أن يحمله فوق ظهره هو ٦٥ رطلا ، وإن ٦٥ رطلا من الفضة تساوى ٢٢٠ جنيها ، ومن الذهب ٧٠٠٠ جنيه . ومن مزاياها دوامها لمدد غير محـدودة ؛ فلا تختلف قيمتهما من وقت لآخر . وعلاوة على ذلك فانهما لا يوجدان فى الطبيعة بالـكثرة التى تغير من قيمتهما .

كان الناس يستعملون ذينك المعدنين فى معاملاتهم فى العصور الأولى فى شكل سبائك بدون دمغها ، وكان ذلك يترك لهم فرصة للسرقة والتلاعب فى وزنها ، فضلا عما كان يلاقيه

التجار فى كل صفقة من العنت الناتج عن وزن النسب المتفق عليها من المعدن ؛ وكلما زادت لديهم الصفقات واختلفت ، اتضح لهم صعوبة تلك الطريقة وعقمها .

ولما أصبح استخدام المعادن كوسيلة لتسهيل المبادلات عادة بين الناس ، اتفقوا على تحديد وزن عام من المعدن لكل نوع من السلع ضمنته الهيئة الحاكمة ، فاتخذت بذلك المسألة النقدية صبغة رسمية ، وقسمت السبائك الى قطع صغيرة ، وأصبحت تعد بعد أن كانت توزن ؛ ثم تولت الحكومات المتمدنة دمغها وضربها عملة ، وجعلتها مستديرة ولها شرشرة ، وطبعت على أحد وجهيها رمزا للمملكة ، وعلى الوجه الآخر قيمتها الاسمية المحددة لها . ويقال إن أول من ضرب النقود ملك ليديا فى آسيا الصغرى حوالى سنة ٧٠٠ أو سنة ٦٥٠ قبل الميلاد . وتوجد عينة من نقوده فى المتحف البريطانى ، وهى مصنوعة من مخلوط من الذهب والفضة يسميه اليونان اليكترون ، وهى فى شكل البيضة ، وعليها علامات .

واستمر اهتمام أولى الأمر بمسألة النقد ، واحتفظت الحكومات لنفسها بحق ضربه ، واعتبرت قيام الأشخاص بذلك العمل جريمة تعاقب عليها أشد العقاب . ويرجع تاريخ هذا الاحتكار الى رغبة الأمراء والملوك فى العصور الأولى فى الاستئثار بالربح الناتج من سك النقود ، ولحرص الحكومات المتمدنة فى العصور الحالية على السهر لضمان وحدة مقياس المبادلة .

والعملة لا تضرب من المعدن وهو نقى ، لأنه وهو فى هذه الحالة لا يتحمل كثرة الاستعمال التى يقتضيها تداول النقود ، لذلك تضاف اليه نسبة مئوية من النحاس تحددها الحكومة لتكسبه الصلابة اللازمة .

وتقدمت المدنية ، وتطورت الصناعة والزراعة ، وتنوعت المنتجات ، واتسع نطاق المعاملات التجارية ، وتعددت الحاجات ، واختلفت قيم السلع ، ولزم الحال أن يشمل نظام النقد عددا كافيا من قيم مختلفة من العملة تنفق ومطالب الحياة اليومية ، حتى إنه أصبح من المتعذر قصر العملة على الذهب أو الفضة ، لأن ذلك يقتضى أن تصبح بعض القطع صغيرة ورقيقة جدا لدرجة تجعل من الصعب تداولها بين الناس ؛ لذلك استعملوا نقودا مساعدة من معادن أخرى ، كالنيكل والبرونز ، لتقوم بحاجة المبادلات الرخيصة .

وازدادت أهمية التجارة الدولية ، وهى تقوم على واردات وصادرات من وإلى الخارج ، ولا تقبل الدول فى الدفع ثمنا لبضائعها غير الذهب أو الفضة ، لذلك احتفظت الحكومات والبيوت المالية بكميات كبيرة من المعدنين لاستخدامها فى سداد ديونها الناشئة عن التجارة والصناعة . ولما كانت النقود المساعدة من النيكل والبرونز لا تكفى كل حاجات المبادلة الداخلية ، ولا يرغب الناس فى حمل كمية كبيرة منها لثقلها ، استعملت الحكومات فى التعامل الاقليمى نقودا ورقية منحتها صفتها النقدية بقوة القانون والاتفاق العام .

والنقود الورقية ليست جديدة فى التداول ، فان ماركوبولو الرحالة الأوربى الذى اشتهر

فى القرن الرابع عشر، جاء بكمية منها من الصين، ولكن لايعرف بالتدقيق من الذى اخترعها.

والنقود الورقية لا تستعمل إلا فى البلد الذى يخضع للقانون الذى أوجدها وحدد قيمتها، على عكس النقود المعدنية فان قيمتها واحدة فى كل مكان، وبذلك يقبل تداولها فى كل البلاد المتمدنة. هذا، ومن جهة أخرى فان النقود الورقية ليست لها قيمة تجارية فى ذاتها، لأنها تقوم على إدارة المشرع، ولذلك فان القانون الذى خلقها يمكنه أن يبطلها، وإذا أبطلت فلا يبقى فى يد صاحبها إلا قطعة ورق لا قيمة لها، على عكس النقود المعدنية، فان لها قيمة ذاتية تجارية، فاذا أبطل القانون اعتبار المعدن كنقد، فان مالك العملة لا يفقد كل شىء، بل تبقى فى يده قيمة النقد المعدنية.

ولما كان الغرض من النقود هو تبسيط مسائل المبادلة، فان الناس دائما يفضلون أسهل وسيلة لإدراك هذه الغاية، لذلك أقبلوا على النقود الورقية لأنها أخف وأيسر فى الحمل من النقود المعدنية. ثم تطور نظام التعامل بالورق النقدى واخترعت الشيكات، وهى عبارة عن أوامر بالدفع يأمر بها صاحب الشيك البنك، ويسمى المسحوب عليه، بأن يدفع الى وتحت إذن أى شخص، وهو المسحوب له، مبلغا من المال هو قيمة الشيك. وكان ذلك نتيجة لانتشار نظام البنوك واحتفاظ رجال الأعمال والمنتجين وكبار التجار والملاك برصد كبيرة من أموالهم فى البنوك. فاذا اشترى أحدهم من الآخر بضاعة فبدل أن ينقده ثمنا لها، وهذا يقتضى ضياع وقت ومصاريف فى عد النقود وفرزها ونقلها وتسليمها، فان المدين (المشترى) يعطى الدائن (البائع) شيكا على البنك تحت إذنه، أى يترك له حرية تحويل الشيك لمن يريد، فانه بذلك يستطيع تسديد دين عليه لآخر، وهذا يمكنه تحويله لدائن له، وهكذا ينتقل الشيك من يد إلى أخرى، وهو يمثل مبلغا من المال مرقوما على وجهه ومحفوظا فى البنك، فاذا انتهى الأمر الى دائن أوبائع وأراد سحب قيمته، فانه يرسله الى البنك الذى يقوم فوراً بالسداد. وانتشرت طريقة التعامل بالشيكات فى البلاد التجارية، وخصوصا انجلترا، على عكس ما يتمنى الفرد ويسعى اليه من الإكثار من حيازة النقود لتتسع ثروته، فان الأمة فى مجموعها لا ينبغى لها أن تزيد كمية النقود عن القدر اللازم لحاجة التبادل التجارى الذى يتوقف لديها على مقدرتها الإنتاجية وثروتها الزراعية والمعدنية، لأنها لو زادت عن هذا القدر فإن قيمتها تنخفض، وترتفع فى مقابل ذلك قيم السلع المعروضة للبيع بالنسبة لها، وبذلك ترتفع أسعارها. ويغلب حدوث هذه الظاهرة فى زمن الحرب حيث تكون الحكومات فى حاجة الى النقود لتدفع بها أثمان الأدوات والمهام الحربية، فتحتفظ بما لديها من المعادن النفيسة لشراء الذخائر والأسلحة من الدول الأجنبية التى لاتقبل ثمنا لهذه الأشياء غير الذهب أوالفضة، فتلجأ الى وسيلة إصدار الأوراق المالية دون أن يقابلها رصيد من الذهب، وإنما

تكتسب صفة النقد بقوة القانون ، وتستعملها الحكومة فى دفع المهايا والمرتبات وسداد ديونها الداخلية ، وتفرض التعامل بها فى المبادلات المحلية . وكلما استنفدت الحكومة جزءاً من المعادن النفيسة فى تجارتها وديونها الخارجية وأرادت سحب ما يوجد فى السوق الداخلية من نقود معدنية ، فانها تزيد كمية هذه الأوراق النقدية ؛ وبذلك ترتفع الأسعار ، ويقال عندئذ إن النقود فى حالة تضخم ؛ وهذا إذا استمر فانه يؤثر فى حالة البلد الاقتصادية ، ويوصم سمعتها المالية بالاختلال ، فتسعى رءوس الأموال الأجنبية التى تستثمر فيه إلى الفرار ، ورءوس الأموال الوطنيــة الى الانكماش ، وبذلك تضعف مقدرته الإنتاجية ، ويكون مهددا بالفقر والاضمحلال ، كما كانت حالة ألمانيا بعد الحرب العظمى .

ولقد حاولت روسيا البلشفية فى ذلك الوقت أن تقضى على النقد ، وذلك بالمبالغة فى إصدار النقود الورقية حتى تفقد النقود المعدنية قيمتها ، وتضيع ثقة الناس بها ، ويعتادوا التعامل بالورق ، فاذا تم لهم ذلك يستبدلون التذاكر النسبية ذات الكوبونات بالنقود الورقية ، وكل فرد يأخذ تذكرة دورية بها كوبونات بمقدار ما تحدده له الدولة من اللبن واللحم والخبز والسكر والوقود والملابس والأساس والكتب والخمور والملاهى وغيرها من الحاجات اليومية ، ويمكنه استبدال هذه الكوبونات بما تساويه فى المخازن العمومية ؛ وحددت الكمية من كل صنف من هذه الأشياء تبعا لقوة الفرد العملية ومقدرته الإنتاجية وحاجته المعيشية . ولكن المخازن العمومية لم يكن بها من البضائع ما يكفى هذه الطلبات ، ولذلك كان الناس يفتكون من نص القانون ويتعاملون سرا بنظام البيع والشراء القديم ؛ فكانوا يفضلون أن يبيعوا أو يشتروا سلعهم بالنقد ، ولذلك استمرت للنقود فى تلك البيئة قيمة تبادلية ؛ فلما أعلنت الحرب الحالية بدءوا يستعملون تلك التذاكر على نطاق أوسع فى ألمانيا وروسيا .

وكانت قد جرت الحكومات على سنة تقضى بالاحتفاظ برصيد كبير من الذهب تجعله الدعامة التى يرتكز عليها نقدها ، وكان أكثر ما تجمع من هذا الذهب لدى الدول الرأسمالية ، لذلك قامت الدول حديثة العهد بالصناعة تحرم تصدير النقود ، وتسعى من جهة أخرى لتشجيع صادراتها ، وتخفيض وارداتها ، لتجذب اليها مقدارا من هذا الذهب ، وأصبحت كل دولة وهى تضن بذهبها ونقودها تتبادل حاصلات ومنتجات فى مقابل حاصلات ومنتجات أخرى ، وبذلك عادوا الى طريقة المقايضة ، ولكن على أساس التقدير النقدى ؛ وحدد ذلك كمية التجارة الدولية ، واجتهدت كل دولة أن تكفى نفسها بوسائلها الخاصة ، وفرضت القيود الجمركية الشديدة ، وغلبت على المبادلات التجارية الروح الحربيــة ، وكانت النتيجة تحرج العلاقات التجارية بين الدول ، كما نرى ذلك فى السنين الأخيرة ؟

ابراهيم زكى

أساليب التربيـة والمنطق

فى دعوة ابراهيم عليه السلام

كان ابراهيم عليه السلام ، أوفر الأنبياء حظاً من عناية القرآن الكريم ، والتحدث عنه ، فى غير ما موضع ؛ وقد يرجع ذلك الى أنه أبو الأنبياء ، وأنه صادفه من المحن والشدائد ، ما كان غريبا فى التاريخ ، وعجبا فى الحوادث ، وأن حياته كانت مزيجا من حل وترحال ، واضطراب نفسى ، وقلق وجدانى ؛ ولم يكن ذلك الاضطراب ، وهذا القلق ، فيما يختص بسير الدعوة فحسب ، ولكنه كان مزيجا من أساليب الدعوة ، ومن هؤلاء الذين كان يوجه إليهم وحى الله ، وكلمة السماء ، ونداء الحق .

وفى الحديث عنه غذاء خصب ، لمن يتطلب أنماطاً من أساليب التربية الحديثة ، وفنونا من جدل المنطق ، وعراك الفلسفة ؛ فإذا كان أساتذة التربية اليوم يدّعون أنهم يدرسون شيئا جديدا ، أو يتقدمون الى الناس بطرق لا عهد لهم بها من قبل ، فإن القرآن الكريم يحدثنا أن ذلك لم يكن جديدا على الإنسانية ، ولا حدَثا من أحداث القرن العشرين !

ظهر ابراهيم عليه السلام فى « بابل » ، حيث الوثنية ضاربة أطنابها ، والجهل مخيم على العقول ، فلا يعرفون عن الإله إلا أنه هذا الحجر الذى ينحتونه فيعبدونه ، ولا يعرفون من العبادة إلا أنها تلك الطرق والرسوم التى يقومون بها بين يدى هذه الأصنام ، كل ذلك وإبراهيم يفكر فى نفسه ، أن ذلك ضلال قديم ، وعبث بعقول البشرية ، وأنه لابد من الثورة عليه والعمل على هدمه ، الى تدبير خطة حكيمة ، ورسم طريقة مثلى !

بدأ بأبيه ، ولكن أى سبيل يسلك الى إقناعه ، وأى وسيلة يتخذها الى هدايته ؟ لجأ الى الموعظة الحسنة التى لا تجافى أدب النبوة :

« يا أبت لِمَ تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئا . يا أبت إنى قد جاءنى من العلم ما لم يأتك فاتبعنى أَهدِك صراطا سويا . يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصيا . يا أبت إنى أخاف أن يمسّك عذاب من الرحمن فتكونَ للشيطان وليا » . فوقع قوله أسوأ موقع من قلب أبيه ، ورد عليه ردا تتمثل فيه عزة الأبوة ، وسلطان العقيدة :

« أراغبٌ أنت عن آلهتى يا إبراهيم ، لئن لم تنته لأرجمنك واهجرنى مليا » . فلم يسع ابراهيم إزاء هذا الرفض المؤيس إلا أن يستثير كل ما لديه من عطف الابن البار ، على أبيه المتمادى فى الضلال ، فلم يزد على أن قال له : « سلام عليك ، سأستغفر لك ربى إنه كان بى حَفِيًّا » .

هى فى الواقع دعوة جريئة من ابراهيم عليه السلام . يحارب أباه فى رزقه ، وقد كان ينحت الأصنام ليبيعها ، ثم هو مع ذلك يحاربه فى عقيدته ، وهل يكفيه أن دعا بهذه الدعوة فى عقر بيته ، وهو مكلف بأن يدعو إليها جميع قومه ؟ فماذا فعل ؟ خرج الى قومه ، وصادف أن كان ذلك اليوم عيداً لهم ، يتغلغلون فى باطن الصحراء ، ويغيبون عن صخب المدينة وضوضائها ، قالوا له : تخرج معنا الى المعَيَّد يا ابراهيم ؟ « فنظر نظرة فى النجوم ، فقال إنى سقيم . فتولوا عنه مدبرين » . ولم يكن به سقم ، ولكنها وسيلة لعمل خطير انتوى أن يقوم به ليدلل على فساد الوثنية بدليل محسوس . فقال فى نفسه : أحطم هذه الأصنام ، فإذا ما رجعوا إليها وجدوها جُذاذاً إلا كبيرا لهم ، لعلهم بذلك يسألون أنفسهم : كيف ساغ لهم أن يعبدوا ما لا يسمع ولا يبصر ، ولا يرد عن نفسه كيدا ! ! فلما رجعوا ووجدوا ما وجدوا ، اشتدت حيرتهم ، واستولى عليهم الغضب ، وأخذوا يتساءلون : من ترى هذا الذى يجرؤ على أن ينالنا فى عقيدتنا ، ويتهجم على آلهتنا ، ويعتدى على معبوداتنا ؟ « قالوا من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين ! قالوا سمعنا فتىً يذكرهم يقال له ابراهيم . قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون . قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا ابراهيم ؟ قال بل فعله كبيرهم هذا ، فاسألوهم إن كانوا ينطقون » .

ما أحسن الحجة تقرع الجمود ، والبرهان يصدم الضلالة ، والمنطق يتهافت أمامه الخطل !! ذلك هو الغَلب من غير جيش جرار ، أو سيف بتار : « بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون » . شعروا بالهزيمة ، وأحسوا الضعف « فرجعوا الى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم الظالمون . ثم نُكِسوا على رءوسهم » ، ولكنهم لابد أن يتلكئوا فى المنطق ، ويرتبكوا فى الجدل ، فقالوا لإبراهيم : « لقد علمت ما هؤلاء ينطقون » ، وما دروا أنهم بذلك يناقضون أنفسهم ، ويقيمون الدليل على ضعف حجتهم ، وحرج موقفهم ! « قال أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئا ولا يضركم ، أفٍ لكم ولما تعبدون من دون الله ، أفلا تعقلون » .

هنا موقفان عجيبان : فابراهيم يتسلح بالمنطق والبرهان ، وهم يتسلحون بالتقليد الأعمى ، يكاد كل منهم يذعن ، وقد وضح الصبح لذى عينين ، إلا أن هنالك شيئا آخر ، هو التقليد الموروث ، وهو لا يخضع لمنطق ، ولا ينزل على حكم برهان ...

أخذوا يتهامسون : هل هنالك من مخلص ؟ فلم يجدوا إلا أن قالوا « وجدنا آباءنا لها عابدين » . وكأن الوراثة دين آخر . ثم أدركهم ما يدرك المبطل المغرور : « قالوا حرّقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين » . فجمعوا الحطب الجزل ، وأججوه حتى صار كالجحيم ، وألقوا بابراهيم بين أحضان تلك النار ، فلما خبا أوارها ، وسكن شرارها ، وجدوه حيا ، لم ينله أذى ، وهى

آية تكفى أن تجعل أعناقهم لها خاضعين ، ولكن أدرك كبيرهم النمروذ ، داء الجبابرة الأولين ، فأمر بالقبض على ابراهيم ، وأخذ يحاجه فى ربه أن آتاه الله الملك « إذ قال ابراهيم ربىَ الذى يحيي ويميت » فأجابه النمروذ : « أنا أحيي وأميت ، قال ابراهيم فإن الله يأتى بالشمس من المشرق ، فأت بها من المغرب ، فبُهت الذى كفر » .

حجة بالغة ، ولكن أين القلب الذى يستضيء بها ، ويرجع عن غيه بتأثيرها ؟ وحينئذ رأى من حصافة العقل ، ورجاحة التفكير ، أن يتنزل الى مستواهم ، ويسير معهم ، على الطريقة التى ينسبونها « لسقراط » طريقة خلو الذهن ، وتجاهل العارف :

« فلما جنّ عليه الليل رأى كوكبا ، قال هذا ربى ، فلما أفل قال لا أحب الآفلين . فلما رأى القمر بازغا ، قال هذا ربى ، فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين . فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى ، هذا أكبر ، فلما أفلت قال يا قوم إنى برىء مما تشركون . إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا ، وما أنا من المشركين . وحاجه قومه ، قال أتحاجونى فى الله وقد هدان ، ولا أخاف ما تشركون به ، إلا أن يشاء ربى شيئا ، وسع ربى كل شيء علما ، أفلا تتذكرون . وكيف أخاف ما أشركتم ، ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانا ، فأى الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون » .

هذا هو ابراهيم شيخ الأنبياء ، وهذا هو الرجل الذى اعتمد على المنطق والفطرة السليمة ، والذى استعمل فى دعوته أساليب التربية الحديثة ، من الاستقراء ، والاستنباط ، والتمثيل بالبدهى المحسوس ، لتثبت دعواه ، من طريقى العلم والعمل ، فيطمئن قلب من يدعوه ، إن كان الله يريد أن يهديه للإيمان . وهذا هو إبراهيم الذى بلغ من عظمته أن تنازعته الأمم قديما وحديثا ، فرد الله عليهم ذلك كله : « ما كان ابراهيم يهوديا ، ولا نصرانيا ، ولكن كان حنيفا مسلما ، وما كان من المشركين » ؟

ابراهيم على أبو الخشب
المدرس بمعهد القاهرة

التشريع الاسلامى وأثره فى الأمم

ليس بين الشرائع الوضعية منذ تواضع الناس عليها قانون يكفل بقاءه وديمومته بين الناس واجب التطبيق مطرد النفاذ ، وذلك بدهى الثبوت . فإن قانونا تمس إليه حاجة فريق من البشر، وتستتبعه حالات معينة حفزت إليها ملابسات مجتمع بعينه ، وقضت بها ضرورة مؤقتة ، لا يمكن أن يكون أبدى البقاء ولا سرمدي الدوام ، فلكل أمة بل لكل جيل تقاليده ومراسيمه ، وعلى قدر تلك التقاليد يكون سير تلك الأمة ، وعلى هديها يجرى سننها وتطبق أحكامها فيما يتصل بها من معاملات ، سواء أكانت تلك المعاملات بين العباد بعضهم مع بعض ، أو بين العباد وخالقهم ، والقوانين أخلاق وعادات .

لكن التشريع الاسلامى دين خالد على وجه الزمن ، لا يتطرق إليه تعديل ولا تحول ، لأنه وضع مسايراً لمرافق الناس جميعا ، مرعيا فيه كل حالة تتصل بنظام الفرد والجماعة والأمة ، ويحكم نوعا من التعاون فى بناء هذا المجتمع ، يصل الحاضر بالماضى والمستقبل ، ويؤلف بين أجزاء هذا المجتمع ، ويجمع بين شتاته كل ما يتصل بالأخلاق وبالمعاملات العامة والنوعية والفردية ، فهو يقيم المجتمع كله على أسس صالحة ، ويقدر لكل حالة قوامها ولبوسها ، ويدعو الناس الى ممارسة الأعمال الصالحة بالحكمة والموعظة الحسنة ، وإلى العقائد المعتنقة بالحجة القارعة والادلة الدامغة .

فبينما تدعو الناس الشريعة المطهرة الى تذكيرهم بعالم الجزاء ، وأن هناك ميزانا لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، فلا يستغل الأقوياء ضعف الضعفاء ، فيتسلطوا عليهم ، يغصبونهم أموالهم ، ويسلبونهم أمنهم وطمانينتهم ، ويأخذون عليهم سبيل الاستمتاع بما أحل الله لهم من طيبات :

أخرج مسلم والترمذى فى صحيحيهما عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رجلا جاء الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله أرأيت أن رجلا جاء الىّ يأخذ مالى ؟ فقال : لا تعطه ، فقال : أرأيت لو أنه قاتلنى ؟ قال : قاتله ، فقال : أرأيت لو أنه قتلنى ؟ فقال : فأنت شهيد . قال : أرأيت لو أنى قتلته ؟ قال فهو فى النار .

بينما هى تدعو الناس الى هذا إذا بها تدعوهم الى التراحم والتآزر ، وقيام أواصر الاسلام ووشائج الدين بين المسلمين مقام روابط الأنساب والأرحام ، فلا يظلم بعضهم بعضا ، ولا يجور الكبير على حق الصغير :

أخرج الترمذى وأبو داود فى صحيحيهما « أنه صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه : أتدرون

من المفلس ؟ قالوا : يارسول الله المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع . فقال : إن المفلس من أمتى من يأتى يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ، ويأتى قد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا ، فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته ، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه من الحقوق أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح فى نار جهنم »

وبينما توصى الناس برعاية أحكام المجتمع ، فتشرع لهم شرعة يتوارثونها خلفا عن سلف فى أحكام دنياهم ، إذا بها تدعوهم الى مراقبة الله ورعايته ، فإنهم قادمون على يوم لا ينفع فيه نسب ولا نشب ، يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا ، وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً .

أوصت الشريعة الاسلامية فى دار الابتلاء برعاية حدود المعاملات ، تلك الحدود التى أقامها الشارع بين الناس اتقاء الطغيان والجور ، والطمع وسوء الخلق ، واعتداء الأقوياء على الضعفاء، فشرع فيما شرع من المعاملات : باب البيع والسلم والاجارة والقراض والوقف والهبة والوصية والعارية .

ثم أبان أن للانسان شهوات جامحة ونزعات طامحة ، فحذره من التردى فى حفائر الرذيلة والسقوط فى مهوى العار والخزى ، فشرع اجتناب الميسر والربا والزنا والسرقة وقطع الطريق على الآمنين والخمر ومعاقرتها والقذف فى أعراض الناس والجناية على النفس وعلى ما دون النفس .

ثم ركز الأخلاق على أسس من الخير متينة ، وأصول من السعادة الأبدية حصينة ، فأفاض فى الغاية من الدعوة الاسلامية ، وبلغ الناس على ألسنة الرسل والأنبياء ما أسعد العقول السليمة ، وأوزع النفوس الكريمة بما يعمر هذا المجتمع ويشع فيه من رحمة وطمأنينة وعدالة شاملة .

لقد جمعت تلك الشريعة السمحة بين أحكام المعاش والمعاد ، فحفزت الناس الى طلب المعاش برفق وهوادة ، وبصرتهم بعاقبة ما يجنى الحريص من حرصه ، والطامع من طمعه ، والشحيح من شحه ، والباغى من بغيه ، ثم نصبت لهم الحدود والمعالم ، وقالت : « من يعمل سوءا يجز به » « ومن يكسب إثما فإنما يكسبه على نفسه » ، ثم نوهت بجزاء المحسنين فى دار الجزاء والمثوبة ، فقال جل ثناؤه : « فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه وإنا له كاتبون » .

فهل رأيت أبلغ قصدا ، ولا أقوم حجة ، ولا أهدى سبيلا ، من تلك النظريات العامة الخالدة التى بعثها الله على ألسنة رسله وأنبيائه مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ؟

عباس طه



تشهد جريدة المونيتور بأن الأصول الاسلامية تعتبر غاية فى السمو ، وأن الاسلام وهب المرأة حقوقا لا تتمتع بمثلها المرأة الفرنسية

بعد أن زال التعصب الأعمى الذى كان يحمل أهل الملل على بَهْت بعضهم أديان بعض (١) ، واستقام العقل على سمت النقد الحر النزيه ، عند النخبة المتعلمة من الأمم ، بدأ مفكرو الغرب يغيرون آراءهم القديمة فى الاسلام ورسوله وكتابه ، واعترفوا بأنهم ضُللوا فى الحكم عليه تضليلا معيبا ، حتى أن أحد هؤلاء النخبة وهو الكونت هنرى دوكاسترى مؤلف كتاب (دراسات فى الاسلام وتأثرات) أتى على عشرات من أقوال المؤرخين السابقين فى الاسلام ورسوله وكتابه ، تدل على مبلغ ما كان يستولى على أولئك المؤلفين من روح التعصب الذميم ، والحقد المتأجج فى الصدور .

كان غير المسلمين كافة يعتقدون اعتقادا راسخا أن الاسلام دين بشرى صرف متنزل عن العقلية العربية ، وأنه قائم على المبادئ الجاهلية ، غرضه الأول الغزو وتدويخ البلاد(٢) للحصول على المغانم سداً لنهمة القائمين به ، وأنه لم يفد الانسانية بشىء غير نشر الذعر فى بقاع عظيمة من الأرض ، حطم عمرانها ، وأباد خضراءها ، وكان شرا عليها من كل شر أصابها ، وأن واجب الأمم التى لم تبل به أن تتألب على تخليص البشرية من ويلاته .

فأراد الحق سبحانه وتعالى أن يكون الذين قالوا هذا القول هم الذين يبرئون الاسلام من جميع هذه التهم ، ويقررون علميا أنه أسمى مظهر للعاطفة الدينية ، وأن أصوله ومبادئه تعتبر مُثلا عليا للانسانية فى تمشيها نحو كمالها المنشود ، وأنه آخى بين العقل والدين ، ووفق بين العلم والايمان ، مما نقلنا كثيرا منه نقلا عن الأستاذ الكبير الكسندر دريبر المدرس بجامعة نيويورك فى كتابه (المنازعة بين العلم والدين) ، كما نقلنا مثل ذلك عن كبار الفلاسفة والمؤرخين : جيبون وكارلايل الانجليزيين ، وسديو ولامرتين وجوستاف لوبون ودروى

---

(١) يقال بهته يبهته بهتا وبهتانا : أى قذفه بالباطل وافترى عليه الكذب . وهو من باب قطع .

(٢) يقال دوخ البلاد وديخها : قهرها واستولى على أهلها .

الفرنسيين وغيرهم من أجناس أخرى ، فى تعداد أسمائهم تطويل لا موجب له . وقد شاع فضل الاسلام على الأمم التى أخذت به ، وعلى الانسانية بأسرها ، بما أحدثه من انقلابات خطيرة فى الاجتماع والعلم والسياسة والديانة ، حتى صارت الجرائد والمجلات على اختلاف لغاتها تردده ، وبعضها يكتب فيه البحوث الطوال حتى ما لا يصل الى المسلمين منها ، خدمة للعلم ، وتقويما للآراء فى أمر جلل كهذا ، اعتبر قرونا كثيرة على خلاف ماهو عليه فى الواقع .

من هذه البحوث التى تكتب فى أوروبا لأهلها لا لغرض آخر ، ما نشرته جريدة (المونيتور) الفرنسية . فذكرت القرآن وقالت عنه : إنه كتاب دينى على شاكلة التوراة ، واعترفت بأنه كتاب لدين من أكبر الأديان البشرية ، وقررت أن صدوره من بلاد العرب التى لا يعرف أهلها غير قيادة الإبل يعتبر آية عظيمة .

ثم أخذت تعرّف الأصول والمبادئ التى نشرها القرآن ؛ وكان مما قالته :

« القضاء والقدر على ما هو مقرر عنهما فى القرآن ، يقصد منهما وجوب الخضوع للمقررات الخالدة للعناية الإلهية . ولكننا إن تتبعنا الأصول الاسلامية على الأسلوب الحرفى يتبين لنا أنهما لا يعنيان مذهب الجبر فى هذا الدين . فالقول بتدخل الإرادة الالهية فى جميع أعمال الانسان ليس إلا وهماً أريد به تشويه وجه هذه العقيدة الأولية (كذا) .

« أما الأصول الأدبية الواردة فى القرآن فكثيرة ، وتكشف عن سمو عقلى عظيم ، ولسنا نذكر إلا قليلا منها على سبيل المثال : حب الغير ، وعمل البر ، واحترام الذات ، والوفاء بالوعد ، والتسامح حيال أهل الكتاب أى اليهود والنصارى .

« وقد أوجد الاسلام إصلاحا عظيما فى حالة المرأة فى الهيئة الاجتماعية . ومما يجب التنويه به والإشادة بذكره ، أن الحقوق الشرعية التى منحها الاسلام للمرأة تفوق كثيراً الحقوق الممنوحة للمرأة الفرنسية .

« أما تعدد الزوجات الذى أصبح اليوم أخف وطأة مما كان عليه ، ولا يزال يأخذ فى النقص لدى المسلمين ، فيجب علينا أن نلفت الأنظار الى شرط قرآنى خاص بالزواج يجهله الناس على وجه عام ، وهو يسمح لممثل المرأة أن يشرط على الزوج عدم الزواج بأخرى ، فإذا لم يحترم هذا الشرط كانت امرأته فى حل من أمرها »

(مجلة الأزهر) الفرق بين لهجة المؤلفين والكتّاب السابقين ، وبين لهجة المؤلفين والكتاب المعاصرين فى الاسلام ، عظيم كما يراه القارئون . والفضل فى ذلك لسقوط دولة الأضاليل التى كان يروجها متحمسة الدينيين فى القرون الغابرة ؛ حتى إن من هذه الكتابات الدفاعية عن الاسلام ما لا يستطيع أن يزيد عليه المسلمون أنفسهم شيئا . وكثير مما نستشهد به الآن من سمو الأصول الاسلامية وآثارها العلمية والعمرانية فى العالم ، قد استفدناه من

بحوث كبار مؤرخيهم وفلاسفتهم . فقد درسوا تاريخ العلوم والصنائع والفنون ، ووقفوا على أدوار نشوئها وتطوراتها ، ووجدوا أن كثيرا منها قد اكتشفه المسلمون أو هذبوه وجعلوه صالحا لأن يستفاد منه فى تحسين وسائل الحياة ، فنبهوا الى أن مصدر ذلك المسلمون إبان نهضتهم الأولى ، فتألف من ذلك مذخور من المجد ليس لأمة مثله فى نظر المنصفين ، بل قالوا لولا أن المسلمين تولوا حفظ علوم الأولين بعد أن ترجموها الى لغتهم ، وتولوها بالترقية والتهذيب ، وسندوها بعلوم جديدة من مكتشفاتهم ، لبادت تلك المعارف القيمة ، ووقع العالم فى ظلام بهيم ، لأن مصادر تلك المعارف كانت مختزنة فى دور كتب عتيقة ، وفى حالة إهمال مطلق ، ترتع فيها الحشرات والهوام ، وتعبث بها الأيدى بأخذ صحفها للاستعمالات المنزلية ، كأنها أوراق مهملة لا تصلح إلا للحريق .

فمجد المسلمين من هذه الناحية لا يحاكيه مجد لأمة من أمم الأرض ، وقد اعترف بذلك مؤرخو الأمم غير الاسلامية كما قدمنا . وها نحن من هذه المقالة فى جريدة يومية إزاء تبرئة الاسلام من تهم كانت ملصقة بالاسلام ، ومعتبرة عنصرا من عناصر كيانه الأدبى ، كمسألتى القضاء والقدر ، والمرأة والأصول القرآنية . فقد كان الكتاب السابقون يقولون إن الأصول القرآنية ساذجة لا تصلح إلا للشعوب المنحطة ، وإنها تدعو الى التعصب الذميم وسفك الدماء البريئة ، وتحرض على النهب والسلب . وكتاب اليوم يقولون كما تقول جريدة المونيتور إنها أصول غاية فى السمو ؛ والفرق لا يقدر بين غاية السمو وبين السذاجة والدعوة الى الجرائم .

وكانوا يقررون أن الاسلام يقول بانحطاط المرأة ، وبأنها أسيرة فى يد الرجل لتجردها عن الحقوق ، حتى بالغ بعضهم فقالوا إن الاسلام يعلّم ذويه بأن المرأة لا روح لها ، وأنها لا ترث الحياة الآخرة . وقد أثبت العلم أنهم هم الذين كانوا يعاملون النساء هذه المعاملة ، فكانوا يحرمون عليهن الضحك والكلام ، ويضعون على أفواههن الأقفال . واليوم يقول كتابهم إن الحقوق المدنية التى منحها الاسلام للمرأة تفوق ما تتمتع به المرأة الفرنسية . ولا يخفاك أن المرأة الفرنسية فى مقدمة نساء الأرض حرية وثقافة . وخشية أن يتوهم قارئ أننا نبالغ فى القول ، ننقل له النص الفرنسى لهذه العبارة ، وهى :

Il est à remarquer que la femme musulmane a, de nos jours, une capacité juridique beaucoup plus dévelppeé que celle attribueé à la femme francaise ·

ليست هذه مبالغة من الكاتب النبيل ولكنها الحق الصراح ، وصدوره من رجال الصحف الكبرى فى أرقى الأمم مدنية ، أمر جلل يوجب التأمل والتفكير .

ننظر الى مسألة القضاء والقدر فى الاسلام ، والى تبرئة محرر جريدة المونيتور له من تهمة القول بالجبر ، فقد اعتمد فى دفاعه على أن القول بتدخل العناية الإلهية فى كل صغيرة من

صغريات الأعمال الانسانية من الأوهام التى قصد بها تشويه حقيقة هـذه العقيدة الأولية ، وكان أولى به أنه يقول : إنه مع اعتقـاد المسلمين أنه لا يقع شيء فى السموات والأرض إلا بارادة الله وتقديره ، فانهم لم يقولوا بمـذهب الجبر ، إلا طائفة صغيرة منهم ، وذلك لأنه مع هـذه العقيدة أمرهم دينهم بالعمل وترك الاحتجاج بالقضاء والقدر . وقـد عاب القرآن على المشركين الذين قالوا : « لو شاء الله ما أشركنا » ، وعد ذلك جهلا منهم .

فليس بين قـوله تعالى : « وما تشاءون إلا أن يشاء الله » وبين قـوله : « وقل اعمـلوا فسيرى الله عملـكم ورسوله » ، تناقض قط . فإذا لاح لك أن تعمل عملا فما الذى يعرِّفك بأن الله يشاء أولم يشأ أن تعمله ؟ إنك فى حالة الهم بعمل شيء تتيقظ فيك بواعث من ضروب شتى تحرضك على أدائه ، ولا تجد فى نفسك ميلا الى البحث : هل يشاء الله أن تفعله أم لم يشأ أن تفعله . وإذا رأيت أنك غير مريد لعمله ،لبثت حيث أنت ولم تحرك فى سبيل محاولته ساكنا .

على هذه الحال جرى الناس فى حياتهم الشخصية والاجتماعية ويجرون ، لا فرق بين الذين يقولون منهم بالجبر ومن لايقولون به ، ولم نر إنسانا أوى الى كسر داره ، وترك كل عمل اعتمادا على أنه مجبر على ما يفعل ، وكان أثر ذلك عليه أن قصر عن مساواة غيره باسم الدين ، وإن وقع مثل هذا الأمر لأحد وسئل أى آية من الـكتاب تأمرك أن تفعل بنفسك هذا الذى تفعله ؟ لم يحر جوابا . فالقرآن الـكريم كله حض على العمل وطلب الرزق ، والجهاد فى سبيل إعلاء كلمة الله ، وليس فيه آية واحدة تحض على الجمود والتراخى .

وإنما كان يصح أن يكون هنالك تناقض إن كان أمر الـكتاب شخصا بعينه أن يعمل عملا على حين أن الله قد قضى عليه بأن لا يعمله ، ولـكن الـكتاب يخاطب العالم كله جملة ، وفيهم من وفقه للعمل ومن قضى عليه بالنكول عنه . فإن كان الـكتاب ينص على أن لا إرادة مع إرادة الخالق ، فإنما هو يقرر حقيقة أولية ، وهى أنه لا يقع فى ملـكه إلا ما قدره وقضاه ، حتى سقوط ورقة جافة على الغبراء ، أو تحرك ذرة من ذرات الهباء .

ومن عجب أن كثيرا ممن كتبوا من الأوربيين عن المسلمين فى العهد الأخير ، عزوا تقصير أكثر الشعوب الاسلامية عن اللحاق بالأمم الراقية الى عقيدتهم فى القضاء والقدر . فإن صح ما قالوه فبم يعللون سرعة نهوض المسلمين فى صدر الاسـلام ، وما بذلوه من الجهود الجبارة فى إقامة دولتهم ، ومـكافحة أعدائهم ، وتعمير بلادهم ، ورفع منار العلم ، ونشر مدنية فاضلة يتحدث عنهما المؤرخون ، ويجدون فيهما كل يوم جديدا يعجبون به ويستنزلون عجب الناس منه ؟ بم يعللون هذه الحركات السريعة ، والأعمال المتواصلة ، والمجازفات التى تـكاد لا تعقل ، حتى قيل إن كريستوف كولومب مكتشف أمريكا وجد للمسلمين آثاراً فى الدنيا الجديدة ؟

محمد فريد وجدى

جمعية منع المسكرات

تحت رعاية حضرة صاحب السمو الأمير الجليل عمر طوسون

تقرير من المؤتمر الدولى الثانى والعشرين المنعقد فى فنلندا سنة ١٩٣٩

عقد مؤتمر دولى فى عاصمة هولاندة لمنع المسكرات شهده ٦٨٩ عضوا يمثلون ثلاثا وعشرين دولة ، وكان مندوب مصر فى هذا المؤتمر الأستاذ الجليل أحمد غلوش الذى قام بمهمته خير قيام استوجب إعجاب المؤتمرين وتقديرهم .

فى اليوم الثالث للمؤتمر دعى منـدوب مصر ليتكلم فى مساهمة الدولة المصرية رسميا فى مكافحات المسكرات ، فنهض الأستاذ غلوش ، وأبان عن اهتمام الحكومة المصرية بهذا الأمر وإزماعها وضع تشريع يضع حـدا لأضرارها ، وكان من ذلك حصر سلطة الترخيص بفتح حانات فى الأحياء الوطنية فى يد وزارة الداخلية ، فترتب على ذلك أن نقص عدد المحال التى تبيع الخمر من ٧٢٦ سنة ١٩٠٤ الى ٤٨٩ سنة ١٩١٧ ، وذلك رغما عن زيادة عدد السكان .

وشفع هذا بذكر اهتمام وزارة الصحة بهـذا الأمر أيضا صيانة للصحة العمومية . وهى على وشك استصدار قانون بمنع بيعها بعد الساعة العاشرة ، وتحريم تقديمها لمن تقل أسنانهم عن التاسعة عشرة ، وهى تقوم بمنع بيع الخمر المغشوشة ، وبمحاكمة بائعيها ، وبعدم النشر عنها فى الصحف وعلى جـدران الدور . ثم ذكر أن وزارة الدفاع ووزارة المالية ورجال الدين والجامع الأزهر تحت زعامة الأستاذ الامام يعاونون من جانبهم على محق هذه الآفة .

وختم خطبته بذكر المثل الأعلى الذى يضربه حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق الأول ، بمنع القصر الملـكى من تقديم الخمر فى الحفلات .

ثم دعت لجنة نشر الدعوة الدينية فى العالم حضرة الأستاذ غلوش ليلقى كلمة فى الخمر من الوجهة الاسلامية ، فلبى الدعوة ، وأفاض فى ذلك بما كشف من حكمة الاسلام ، وجلى عن قوة أصوله وسلامة مبادئه .

وفى الجلسة الختامية للمؤتمر ، تـكلم مندوب مصر الأستاذ غلوش ، فشكر الشعب الفنلندى والحـكومة الفنلندية باسم الشعب المصرى والحـكومة المصرية ، على مالقيه من حسن الضيافة والترحيب .

ومما حصل عليه الأستاذ غلوش مما يوجب الفخر لمصر أنه كان واحدا من خمسة رجال رشحوا لينوبوا عن رئيس المؤتمر فى جلساته المتوالية .

ثم ختم المؤتمر أعماله بإصدار قرار بأن يكون مكان انعقاد المؤتمر التالى سنة ١٩٤١ فى فرنسا .

ولا يفوتنا أن ننوه هنا أيضا بالمذكرة التى قدمها حضرة الأستاذ أحمد غلوش الى حضرات شيوخ الأمة ونوابها فى شأن المشروع المقدم من الحكومة بتعديل لائحة المحال العمومية ومكافحة الخمور ، فقد ألقى بها نورا على كثير من مواطن البحث تخدم هذا الموضوع خدمة جليلة . فنشكر لحضرة الأستاذ أحمد غلوش ، كلل الله جهوده بالنجاح ، وأثابه على هذه الخدم بما يثيب عباده المجاهدين .

أوائل الشهور العربية :

هل يجوز شرعاً إثباتها بالحساب الفلكى ؟

وضع حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ احمد محمد شاكر رسالة بهذا الاسم عالج فيها مسألتين : هل يجوز الأخذ بأقوال الفلكيين فى إثبات أوائل الشهور العربية ؟ وهل يجوز توحيد أوائل هذه الشهور لجميع بلاد المسلمين . فسلك فى الاجابة على هذين السؤالين مسلك الباحث الضليع فى الحديث والفقه ، وكان من جوابه على المسألة الاولى : يجب الأخذ بأقوال الفلكيين وعدم الاعتداد بشهادة الرؤية ، لما فى الأولى من القطع ، ولما يتطرق على الثانية من الخطأ والكذب .

وأجاب عن الثانية : بأن يجوز توحيد أوائل الشهور العربية لجميع الأمم الاسلامية ، واتخاذ مواقيت مكة مواقيت لبلاد المسلمين كافة بصرف النظر عن اختلاف المطالع .

وإننا نوافق على رأى الأستاذ فى وجوب الاعتداد بالتقريرات الفلكية ، لا سيما وقد ذهب اليه أئمة من المتقدمين . وأما رأيه الثانى فنكتفى بعرضه على حضرات رجال الدين راجين أن يوافونا برأيهم فيه . ومن واجبنا فى هذا المقام أن نشيد بألمعية الأستاذ أحمد شاكر ، وأن ننوه بنزعته التجديدية ، أكثر الله من أمثاله الغيورين على الدين .

أقدم جامعة إسلامية فى العالم :

وضع سعادة محمد خالد حسنين بك رئيس مفتشى العلوم والآداب بالجامعة الازهرية رسالة بهذا العنوان ، صغيرة الحجم ولكنها كبيرة الفائدة ، جمعت فى صفحاتها الاثنتى والثلاثين كل

مايجب أن يعرف عن تاريخ الأزهر، ونظام التدريس فيه قديما وحديثا، والقوانين التى صدرت لتنظيمه، ومراحل التعليم فيه، والعلوم التى تدرس به، والشهادات التى يمنحها المتخرجون فيه، وإدارته ومجلسه الأعلى، والمعاهد التابعة له، وعدد طلبته المصريين والأجانب، والممالك التى ينتسبون إليها، وسكناهم، وموارد الأزهر المالية، ودور كتبه، ومدينـة الأزهر الحديثة، وما يدرس فيه من عـلوم كونية، ولغات أجنبية، ومذهبه فى المحافظة على الدين، ورسالته فى العالم، وما أغدق عليه المغفور له الملك فؤاد وصاحب الجلالة الملك فاروق ـ أعزالله ملكه، وأيد عرشه ـ من ضروب الرعايات. فجاءت رسالته تغنى عن مؤلف ضخم. وإنها لمقدرة فى التأليف تسجل لسعادة خالد بك حسنين، ويغبط عليها. وفقه الله لجلائل الأعمال وأمده بروح منه.

المنظومة الشكرية :

لسعادة السيد شكرى باشا قصيدة مطولة أودعها كل ما عن له أن يتصدى للكلام فيه من دين وتاريخ وأدب وحوادث، على نظام لم يسبق اليه، وعلق عليها بما يشرح مجملاتها، فالمطلع عليها يشرف على ما وقع بعصر من الحوادث من عهد محمد على والى مصر الى اليوم، سواء كانت سياسية أم علمية وأدبية، مما يصعب أن يجده القارئ فى مؤلف واحد. وقد أتحفنا بالمجلد الرابع منها وهو يقع فى ٧٨٠ صفحة ضمنها سيرة النبى صلى الله عليه وسلم، وشرح ما أجمله فى أبياته شعراً، فجاءت سيرة حافلة بالتواريخ، وبحياة من ورد بها من الصحابة. فنشكر لسعادة الباشا عنايته العظيمة بالأدب والتاريخ، ونرجو أن يطيل فى أيامه، وأن يوفقه لما يرجوه من الصالحات.

اللمعة البهية فى الأدلة الاجمالية :

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير الشيخ ابراهيم الراوى الرفاعى، قدم صدق فى العلوم الدينية، وتاريخ الفرق، والمسائل الخلافية، وهو اليوم من أقطاب العلم فى بغداد يرجع إليه شيوخها فيما يشكل عليهم من مسائله، ويغمض من دقائقه. وقد وضع فى العهد الأخير رسالة دعاها (اللمعة البهية) ضمنها الكلام على مذهب الشيعة والوهابية ومصنفاتهم وأدلتهم. وضعها لنشر معلومات أولية عن هذين المذهبين تصلح للتفاهم بينهما. وقد سلك فى إيراد ما أراده طريقة تقرير الحقائق، بعيدا عن التعصب المذموم، وتحرى أن يتلاقى هـذان المذهبان فى غايتهما التى ينشدانها من طريقين مختلفين، وهى القيام على السنة الصحيحة، والطريقة القويمة.

وقد أبدع الأستاذ فى بيان المذهبين إبداعا دل على سعة اطلاعه، ووقوفه على كل ما كتب عنهما فى أدوار تاريخهما، وتجلى مراده فى التوفيق بينهما تجليا يستحق عليه كل ثناء، فنرجو أن يكلل الحق مسعاه بالنجاح، وأن يثيبه على عمله ثواب العاملين.

بسم الله الرحمن الرحيم

السيرة المحمدية

تحت ضوء العلم والفلسفة

وقعة بدر — النظام والشورى والاستبسال وتربية الوحى

ظل النبي صلى الله عليه وسلم مرتقبا عود تجارة قريش من الشام حتى بلغه خبر رجوعها، فندب صحابته للخروج معه اليها، فلبى دعوته ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلا، وهو عدد يكفى لما هو بسبيله، فاكتفى بهم، وكان عدد مطاياهم اثنين وسبعين يعتقبونها، منها فرسان وسبعون بعيرا.

فلما بلغ أبا سفيان بن حرب خبر خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم للاستيلاء على أموالهم، وكان قائدا لحامية القافلة، أرسل الى قريش رسولا يعلمهم بالخبر، واتبع هو طريقا غير طريق القوافل، رجاء أن يفلت ممن يترصدونه. وتسارعت رجالات قريش الى نجدته فخرجوا تحت قيادة كبرائهم فى تسعمائة وخمسين مقاتلا، معهم مائة فرس وسبعمائة بعير. ولم يعلم رسول الله بكل هذا، وقد عسكر خارج المدينة وأرسل رجلين يتعرفان له الأخبار، ثم سار حتى بلغ الروحاء، وهى على بعد نحو أربعين ميلا من الجنوب الغربى للمدينة، وهنالك جاءه الخبر بأن قريشا قد هبت تدافع عن أموالها، وأن تجارة قريش تمر من بدر غدا أو بعد غد. فاستدعى النبي صلى الله عليه وسلم كبراء جنوده وأخبرهم بأن الله أوحى إليه ووعده إحدى الطائفتين: قافلة التجارة، أو جيش قريش، فتبين أن الرأى الغالب يميل الى الاستيلاء على القافلة، واحتجوا بأنه لما استنفرهم لم يذكر لهم أنه بسبيل قتال، ليأخذوا له عدته، فأنزل الله فى ذلك قرآنا يعاتبهم وهو قوله تعالى: « وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم، وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم » ، أى أنكم طابتم الأيسر عليكم وكرهتم ما فيه عز وشوكة لكم.

عند ذلك قام المقداد بن الأسود وتكلم، وكان مما قاله: « يارسول الله امض لما أمرك الله، والله لو سرت بنا الى بَرْك الغِماد (١) لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه». فدعا له بخير. ثم التفت الى رجاله وقال: أشيروا على أيها الناس، وهو يريد أهل المدينة، لأن البيعة التى أخذها عليهم قد يفهم منها أنه لا تجب عليهم نصرته إلا ما دام مدافعا وهو بين أظهرهم.

(١) اسم موضع بعيد من بلاد العرب. ويطلق ويراد به أقصى المعمورة.

فقال له سعد بن معاذ سيد بنى الأوس : كأنك تريدنا يا رسول الله ؟ فقال : أجل .

فقال سعد بن معاذ : « قد آمنا بك وصدقناك وأعطيناك عهودنا ، فامض لما أمرك الله ، فوالذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر لخضته لنخوضنه معك ، وما نكره أن تكون تلقى العدو بنا غدا ؛ إنا لَصُبُر عند الحرب ، صُدُق عند اللقاء ، ولعل الله يريك منا ما تقر به عينك ، فسر على بركة الله » .

فأشرق وجه النبى صلى الله عليه وسلم لهذا الكلام وسر به . وعند ذاك التفت الى أصحابه وقال : « أبشروا والله لكأنى أنظر الى مصارع القوم » .

فأدرك القوم من هذا الكلام أن الحرب واقعة لا محالة .

قلنا إن أبا سفيان بن حرب قائد حامية القافلة اتبع طريقا غير طريق بدر ونجا بالتجارة ، وما كاد يأمن عليها حتى أرسل من يبلغ الجيش الذى سار لخلاصها أنه لا حاجة الى الحرب فقد أفلت هو ورجاله وما معهم .

فقال أبو جهل بن هشام وهو من رؤساء ذلك الجيش : لا نرجع حتى نصل الى بدر ونقيم بها ثلاثا ، ليسمع العرب بما فعلنا ، فيهابوننا أبد الدهر .

فلم يرق هذا الرأى الأخنس بن شريق الثقفى فأمر قومه وحلفاءه أن يرجعوا فرجعوا .

وسار جيش قريش حتى وصلوا الى وادى بدر فنزلوا شاطئه الأقصى فى أرض سهلة .

فلما بلغ النبىَّ صلى الله عليه وسلم ذلك ، سار حتى نزل من وادى بدر عند شاطئه الأدنى بعيدا عن الماء فى أرض سبخة ، فأصبح المسلمون ولا ماء لديهم ، فكادت تتثبط عزائمهم وهم قريبو عهد بالاسلام ، فاتفق أن جادتهم السماء بمطر مدرار حتى امتلأ الوادى وفاض ، فشربوا واتخذوا الحياض ، وملأوا أسقيتهم ، وتلبدت الأرض التى تحت أرجلهم . وكان أثر هذا الغيث وبيلا على المشركين ، فإن المياه أوحلت أرضهم وجعلتهم لا يستطيعون الانتقال وقد أشار الله الى هذه المعونة غير المتوقعة بقوله تعالى : « إذ يُغَشيكم النعاس أَمنة منه ، وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان ، وليربط على قلوبكم ، ويثبت به الأقدام » .

ثم سار النبى صلى الله عليه وسلم على رأس جيشه حتى نزل أدنى ماء من بدر . فقال له الحُباب بن المنذر الانصارى وكان مشهورا باصالة الرأى : يارسول الله أهذا منزل أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدم عنه أو نتأخر ، أو هو الرأى والحرب والمكيدة ؟

فقال رسول الله : بل هذا هو الرأى والحرب والمكيدة .

فقال الحباب : يارسول الله ليس لك هذا بمنزل ، فانهض بالناس حتى تأتى أدنى ماء من القوم ، فإنى أعرف غزارة مائه وكثرته ، فتنزله ونغوِّر ما عداه من الآبار ، ثم نبنى عليه حوضا فنملؤه ماء فنشرب ولا يشربون .

فقـال له النبي صلى الله عليه وسلم : لقـد أشرت بالرأى . ونهض حتى أتى أدنى ماء من القوم ، ثم أمر بالآبار التى خلفهم فغـوِّرت ، وبنى حوضا على البئر التى نزلوا اليها .

وبعد ذلك بُنى له عريش (١) فوق تـل ليشرف منه على المعركة ، ولما اجتمع المسلمون واستعدوا للحرب نهض رسول الله وقوَّم صفوفهم ، وجعل مناكبهم متلاصقة كأنهم بنيان مرصوص . ثم نظر الى قريش وقال : « اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحادُّك وتـكذب رسولك ، اللهم فنصْرَك الذى وعـدتنى به » . ثم نظر الى أصحابه وأخذ يحثهم على الثبات فى مجالدة أعداء الحق ، وكان مما قاله : « إن الصبر فى مواطن البأس مما يفرج الله به الهم ، وينجى به من الغم » .

ثم حدثت مبارزة بين رجال من المشركين ورجال من المسلمين ، وبعدها التفت النبي صلى الله عليه وسـلم لأصحابه وهم وقوف وقال : « لا تحملوا حتى آمركم ، وإن اكتنفتم القوم فانضحوهم بالنبل ، ولا تسلوا السيوف حتى يغشوكم » .

ثم قال صلى الله عليه وسلم : « سيهزم الجمع ويولون الدبر ، والذى نفس محمد بيده لايقاتلهم اليوم رجـل فيُـقتل صابرا محتسبا مقبلا غير مدبر إلا أدخله الله الجنة ، ومن قتل قتيـلا فله سَلَبه » .

وأمر النبي بالحملة على المشركين ، فما هى إلا ساعة من نهار حتى تزلزلت أقدامهم ، وخارت قواهم ، وأخذوا يولون الأدبار ، ثم أفضى بهم التراجع الى هزيمة منكرة .

ولما أحصى القتلى وُجـدوا سبعين فيهم رجال يعتبرون من كبار سادات قريش ، منهم : عتبة وشيبة ابنا ربيعة ، والوليد بن عتبة ، وأبو البخترى بن هشام ، والجراح والد أبى عبيدة ، وأمية بن خلف وابنه على ، وحنظلة بن أبى سفيان ، وأبو جهل بن هشام ، ونوفل بن خويلد ، وعبيدة والعاصى ولدا أحيحة سعيد بن العاص بن أمية .

وعُـد الأسرى فـكانوا سبعين رجلا أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يقتل منهم عقبـة ابن أبى مُعَيط والنضر بن الحارث ، وكانا من أشد خصوم المسلمين ، والمؤلبين عليهم ، والمستهزئين بهم .

ثم أمر صلى الله عليه وسلم أن يدفن قتلى المشركين فى قليب بدر ، فلما تم دفنهم ذهب الى شفة ذلك القليب وجعل يناديهم بأسمائهم ويقول : أيسركم أنـكم كنتم أطعتم الله ورسوله ، فانا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا ، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا ؟

فقال له عمر : يارسول الله ما تـكلم من أجساد لا أرواح فيها ؟

(١) العريش ، البيت يستظل به . وما عرش للـكرم . وشبه الخيمة من خشب وثمام جمعه عرش بضمتين .

فقال له رسول الله : والذى نفس محمد بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم .

وكان عدد من قتل من المسلمين فى وقعة بدر أربعة عشر رجلا .

الخلاف على مصير أسرى بدر .

استشار النبى صلى الله عليه وسلم أصحابه فيما يفعل بالأسرى ، فرأى عمر أن يقتلوا ، محتجا بأنهم صناديد قريش ، وأئمة الكفر فيهم ، وقادتهم الى الضلالة ؛ ووافقه سعد بن معاذ وعبد الله ابن رواحة .

ورأى أبو بكر أن يأخذ منهم الفداء قائلا : إن ما نأخذه منهم يكون لنا قوة على الكافرين، وعسى الله أن يهديهم للاسلام فيكونوا له عضدا .

فمال النبى صلى الله عليه وسلم الى رأى أبى بكر ، فكان منهم من يفتدى نفسه بأربعة آلاف درهم ، ومنهم بأقل من ذلك الى ألف على قدر طاقتهم . ومن لم يكن معه فداء وكان يحسن القراءة والكتابة جُعل فداؤه أن يعلم عشرة من غلمان المدينة .

وكان من الأسرى سهيل بن عمرو ، وهو من خطباء قريش ، وقد طال ما آذى المسلمين بلسانه ، فخاطب عمر فى شأنه النبىَّ صلى الله عليه وسلم قائلا : دعنى يا رسول الله أنزع ثنيتىْ سهيل ليندلع لسانه فلا يقوم عليك خطيبا فى موطن أبدا .

فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : لا أمثِّل فيمثل الله بى وإن كنت نبيا ، وعسى أن يقوم مقاما لا تذمه . وقد حقق الله ما أنبأ به النبى ، وذلك أنه لما توفى صلى الله عليه وسلم وأراد أهل مكة أن يرتدوا ، كما ارتدت قبائل العرب ، قام فيهم خطيبا ونصحهم بمراجعة عقولهم ، وعدم الإصغاء لمن يريدون تضليلهم ، فتراجع الناس عما كانوا عزموا عليه .

عتاب الله للمسلمين فى أمر الفداء :

قرر النبى صلى الله عليه وسلم بعد أخذ رأى أصحابه أن يقبل الفداء من المشركين الذين أُسروا ، فلما تم هذا الأمر نزل قرآن يعاتب المسلمين على ما فعلوا ، ويشير الى أن الأولى بالعمل كان أن يقتلوا ، لأنهم وهم سادة قريش كانوا سببا فى الصد عن دين الله ثلاث عشرة سنة ، وأنهم أسرفوا فى إيذاء المؤمنين واضطهادهم ، وأذاقوهم مر العذاب أيام كانوا بين أظهرهم ، وأنهم لايزالون يصرون على معاكسته ومكافحته ، رجاء أن يتمكنوا من حل جماعته ، والتعفية على أثره ، فقال تعالى : « ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يُثخن فى الأرض ، تريدون عرَض الدنيا والله يريد الآخرة ، والله عزيز حكيم . لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم » .

معنى هذا أنه ليس لنبى أن يكون له أسرى حرب إلا بعد أن يكثر من قتل أئمة الكفر ، لا أن يتركهم بعد أن يمكنه الله منهم ، ليعودوا الى شر مما كانوا عليه ، فيبذلوا جهدهم للثأر من المؤمنين ، ولتعطيل نشر الدين .

هنا يمكن أن يقول معترض : إن الذى عُرف عن الاسلام أنه دين رحمة وسماحة وصفح ، وأنه فيما سنه للحرب قد فاق فى تسامحه وسعة صدره كل ما عَرف من أوضاع المدنية الراهنة ، وهذا من أقوى الأدلة على إلهيته ، فما باله فى هذا الموطن يعتب على المسلمين أخذهم بمبدأ الرحمة فى معاملة رجالات قريش الذين اُسروا فى معركة بدر ؟

نقول : إننا نخالف المعترض ونرى فى هـذا التشديد أروع مظهر لإلهية هـذا الدين . وسنجلى هذا الفهم بقليل من البيان :

ذلك أن الأصول الاسـلامية التى يذكرها المعترض لم تـكن قـد نزلت بعد ، وما نزل فيها قرآن إلا بعد أن اشتد ساعد الاسلام ، وتوالت المعارك بينه وبين خصومه ، فلا تناقض هنا بين ما أوحى من وجوب قتـل الأسرى قبل الإثخان فى الأرض ، وبين الأصـول التى يذكرها المعترض .

للمعترض هنا أن يقول إن هذا الأصل ينافى الرحمـة التى يجب أن يتصف بها شرع إلهى .

وعلينا أن ندعوه ليتأمل معنا فى أن قتـال المسلمين لمشركى العرب كان الداعى إليه كسر شرتهم فى معاكسة الاصلاح العالمى الذى هبوا لنصرته ، وقد ارتكبوا ضده من ضروب الاضطهاد ما ينافى كل رحمة ، ويسجل عليهم كل وحشية ، فلا يكون موافقا للمنطق أن يقبضوا عليهم ويتركوهم فى مقابـل فدية يؤدونها إليهم ، ليعودوا الى أشد مما كانوا عليه ، فيضطروا للعود الى قتالهم وإزهاق أرواح كثيرة فى تدويخهم .

فاللوم جاء مترتبا على أن المسلمين ، وقد قبضوا على هؤلاء الطغاة الذين تلوثت أيديهم بدماء رجال من المؤمنين الأولين ، كان لايجوز لهم أن يطلقوا سراحهم ولم يذيقوهم وبال وحشيتهم.

وأما من ناحية أن فى العتاب القرآنى أروع مظهر لإلهية هذا الدين ، فذلك لأن مدعى النبوة يحتاج عادة الى ضروب من التسامح يكسر بها حـدة خصومه ، ويفل ما اسـتطاع من غَـرْبهم . فإذا ظفر ببعضهم فى إبان ضعفه ، فلا يبالغ فى النـكاية بهم تفاديا من أن يظهر بمظهر المتجبر ، فيُضغن عليه نفوسا كثيرة ، ويحملها على الاستماتة فى قمعه وإبطال أمره .

ومما لا يحتاج لتدليل أن قتل سبعين أسيرا من رجالات أشهر قبيلة فى البلاد العربية كان يقع من باقى أفرادها موقعا مؤلما للدرجة القصوى ، ويحملهم على تلمس الأنصار والأحلاف للأخذ بالثأر ممن قتلوهم .

فتجد مدعى النبوة يفكر فى هـذا الأمر جيدا ، ويتقى حصوله جهده ، فإذا ما جرى على شاكلته من هذه المصانعة ، حاول أن يستغلها لمصلحته ، متطلبا فرصة أخرى من مثلها لبلوغ مراده من السلطان والغلبة .

ولكن مجيء هذا العتاب يقلب هذه المدارأة رأسا على عقب ، ويتركها كأن لم تكن ، ويجعل المسلمين كأنهم ارتكبوا ما تحاشوه جهد استطاعتهم ، لأنه يؤذن بأنهم لن يكونوا بعد هذه المرة على شيء من التسامح قبل أن يثخنوا فى أعدائهم . وهذه صراحة تجافى ما عليه الجماعات بعضها إزاء بعض من المخاتلات والمداورات ، وتنشئ حالة لا تقوى على التظاهر بها إلا جماعة واثقة من مصيرها ، متحققة من مآلها ، لا يقفها دون بلوغ غايتها أن يتألب العالم كله عليها .

وفى كل هذا دليل ضمنى على أن الاجتماع الاسلامى كان يتولاه ويربه الوحى الإلهى فوق العقل البشرى ، لأن العقل فى مثل هذه الحالة يأبى أن يقف مثل هذا الموقف من الصراحة ، ويكبر عليه أن يصم نفسه على رءوس الاشهاد بأنه فيما تسامح به قد آثر عرض الحياة الدنيا على ما وُعد به من ثواب الآخرة .

فان قيل : إذا كان الأمر كما تقول فلم لم يتول الوحى الإلهى المسألة من أول أدوارها ، ولم لم يتداركها قبل تنفيذ القرار الذى اتخذ فى شأنها ؟

نقول : إن ولاية الوحى لجماعة المسلمين كانت على طراز التربية العملية الاستقلالية ، لا التربية النظرية الاتكالية . وكان القصد منها أن يتألف المجتمع الاسلامى قادرا على القيام بنفسه ، ومتمرسا على مكافحة الحوادث ، ومعالجة الكوارث بتدبيره ، حتى إذا تخلف عنه الوحى لم يضطرب فى سيره ، ولم يحتر فى تصريف أمره .

وقد عُرف أخيرا أن خير التربية هى أن لا تبالغ فى حياطة ولدك ، وحمايته من الأخطاء وما تجر اليه من النتائج ، ولكن أن تتركه لتصريف نفسه مع مراقبته ، فإن طاش وأصابه خدش ، أو أخطأ فى تقديره وعراه جرح ، فإن ذلك يفيده فى إكسابه الحزم والتثبت مالا يفيده ملء ذهنه من نظريات العلم .

كذلك الجماعة الاسلامية قد تولاها الوحى على هذا الأسلوب من التربية ، فتركها لعقول آحادها بعد أن أمدها بكل ما يُسمح به للبشر من نور الحكمة ، حتى إذا أحسنت وجدت مصداق ما وعدها به كتابها من استقامة الأمور ، وانتظام الأحوال ، وإن أساءت ذاقت وبال أمرها ، وأدركت حكمة ما أمرت باتباعه من الأصول القيمة .

هذه كانت سيرة الوحى فى ولايتها ، وقد نجح هذا الأسلوب نجاحا لا يعرف فى تاريخ البشرية له مشبه ، ألم تتأد الأمة الاسلامية فى سنين معدودة الى ما لم تبلغه الأمم التى سبقتها فى قرون كثيرة ؟

محمد فريد وجدى



سورة الشمس وضحاها

بسم الله الرحمن الرحيم

ذكرنا لك فى مقالنا السابق أن القرآن له عناية كبرى بذكر آيات الأنفس والآفاق علوية وسفلية ، وأنه يتفنن فى ذلك تفننا عجيبا ، فتارة يقول : « إن فى اختلاف الليل والنهار وما خلق الله فى السموات والأرض لآيات لقوم يتقون » ، وتارة يقول : وكأين من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون » ، وتارة يقول : « أفلا ينظرون الى الإبل كيف خلقت ، والى السماء كيف رفعت ، والى الجبال كيف نصبت ، والى الأرض كيف سطحت » ، وتارة يقسم بتلك العجائب التى غفل الناس عن النظر فيها والتأمل فى خوافيها ، فهم يمرون عليها وهم معرضون كما فى الآية الكريمة . ولو تأمل الانسان فى ذلك قليلا لامتلأ قلبه إيمانا ونفسه إيقانا ، ولوجد من ذلك لذة صافية لا تشبهها لذة ، ونعيما روحانيا لا يقاربه نعيم ، ولكن الناس محبوسون فى سجن الماديات ، هائمون فى أودية الشهوات ، لا يدرون من أين جاءوا ولا الى أين يذهبون « وإن تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله ، إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون » . وقد رأيت كلاما ممتعا فى هذا الموضوع لبعض الأوربيين الذين نظروا وفكروا ، نسوقه إليك لتعرف الفرق بينهم وبيننا معشر المسلمين الذين ينادى كتابنا بأن فى الأرض آيات للموقنين ، ويصل من تعظيمها ولفت الأنظار إليها أن يقسم بها عسى أن يلتفت لذلك أرباب النفوس الجامحة ، والعقول النائمة ، والقلوب القاسية التى هى كالحجارة أو أشد قسوة ، فنقول :

قال « سينكا » أحد الفلاسفة المعروفين مخاطبا لذلك الانسان الغافل عن عجائب الكون :
« إنك أيها الانسان لذاهل عن جمال القبة الزرقاء ، فلم تراقب شفقا ، ولا ساهرت بدرا ، ولا ساررت نجوما . هل فكرت من أين النور لعينيك فتبصر ، والدم لقلبك فتحيا ؟ وهل اتفق لك أن جعت فاشتهيت ما تسد به الرمق لتعرف قيمة نعم الله وآلائه بما خلق لك من مواش وقطعان ، وما أعد لها من كلأ ومرعى ؟ ألا فاحمد ربك الذى برأك من لا شىء ، وأتى بك من العدم ، وأخرجك من الظلمة الى النور » .

ويقول غيره : «ما الأرض إلا جنة أنزلت فيها آيات الجمال ، ومجرد وجودنا عليها بينة البينات . ألا يذكرك ذلك قوله تعالى : « ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون » ، وقوله : « هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون . ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات ، إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون » . فأين ذلك الانسان الرقيق الوجدان الذى يهيج حبه لله ، النظر فى آيات الله ، وما يقع عليه بصره من مخلوقات الله مما يثير عواطفه ويهيج لواعجه . والنظر فى آيات الله يوصل الى معرفة عظمة الله ، ويبعث على الطمأنينة والسلام ، بل على السرور والحبور . وإن ذلك ليسبغ علينا من آلاء الأفكار البهجة ، ونعمة القناعة والسلام العقلى ، ما يفوق كل ما تصبو إليه النفس من بهجة الدنيا وزخرفها . وشتان ما بين لذة جسمانية ولذة روحانية . فالشمس تشرق لتحييه ، والبدر يطلع ليناجيه ، والعصافير تغرد لتشجيه ؛ يمر بالأزهار يناديها بأسمائها فتبسم له ثغورها ، وتحدثه حديث تنويرها وتفتيحها ، وبالأشجار فتضحك له أغصانها ، وترقص له أفنانها ، وتسرد على سمعه أنسابها وفصائلها وأنواعها ، يستقبل الفصول ويودعها كأنه يودع خلانا عرف أطوارهم وأخلاقهم ، فهى تمضى وتحفظ لها فى نفسه تذكارات جميلة حتى تعود إليه فى أدوارها وأوانها العام التالى » الى أن يقول :

«ولو كان شروق الشمس وغروبها ، وما تكون عليه بينهما ، حوادث نادرة الطروء ، لأصبحنا مسحورين بجمال الفجر إذ تطفر الشمس غزالة من وراء الجبال ، ولأمسينا مأخوذين بسناء الشفق إذ تتوارى خلف البحار . وحقا إن تلك الأشعة الذهبية التى تنبثق من جبين الأفق صباحا ومساء ، كنز ثمين يفوق كنوز النضار ، وثروة طائلة تسمو على ثروة الذهب الإبريز . هب أن خلقا قدر لهم أن يولدوا ويعيشوا فى أحشاء الأرض على أوفر ما يكون من السعة والبحبوحة والرفاهية ، وإذا بهم يشاهدون أرضا مترامية الأطراف ، وخضما متسع النطاق ، وفضاء لا نهاية له ، وغيوما متلبدة ، وسحابا ممطرا ، ورياحا عاصفة ، وبروقا وامضة ، ورعودا قاصفة ، ثم تحين منهم التفاتة الى مليكة النهار فيأخذهم سناؤها ، ويذهلهم جمالها ، وترهبهم عظمتها طالعة من أفق الشروق ، فصاعدة فى قبة الفضاء ، فمائلة الى أفق الغروب ، إذ يعجبون لها مصباحا واحدا ينير الفضاء على اتساعه ، ثم تنسدل سجوف الظلام وتتراخى عليهم ستائره وحجبه فيعروهم ذهول الناظر المبهوت ، الجاهل ماسيكون ، وإذا بنجوم وأقمار ظاهرة بعد الخفاء ، بادية بعد الاحتجاب ، تطلع وتغيب ، وتسفر وتحتجب ، متنقلة فى أبراجها ، جادة فى سيرها حسبما تشاء نظاماتها ونواميسها التى رتبتها حكمة الحكيم العليم . لامراء أنهم يوقنون لساعتهم بوجود إله عظيم حكيم عليم ، ويؤمنون وطيدا ، ويعتقدون أكيدا أن ما رأوه إنما هو صنعة يدى ذلك الإله الخفى الأسرار ، العظيم الاقتدار ، الذى كان قد أتاهم نبؤه من قبل . وإذا أطلنا هذه النظرة

الى الانسان والطبيعة وما يكون فيهما من العجائب ، أفلا نعجب كيف تتحول النباتات والأوراق والأزهار والأثمار والبزور خبزا ولبنا وعسلا . . . » الى آخر ما قال أولئك الفلاسفة مما لا يمكن إحصاؤه ، ولا يتيسر استقصاؤه .

ولعلك عرفت بذلك كله سر الإقسام بالشمس والقمر ، وفهمت عظمة ذلك القسم على ما يشير اليه قوله تعالى : « فلا أقسم بمواقع النجوم . وإنه لقسم لو تعلمون عظيم » .

ويحسن بعد هذه المقدمة التى هى لب المقصود ، أن نشرع فى التفسير ، فنقول :

الواو فى قوله : « والشمس » واو القسم ، وجواب ذلك القسم قوله : « قد أفلح من زكاها » ، على ما ستسمع . والمراد بضحاها ضوؤها مطلقا ، أو وقت الضحى الذى يظهر فيه سلطانها ، ويعظم به لمعانها . وقد عرفت أن الله يقسم ببعض مخلوقاته المتضمنة للمنافع العظيمة حتى يتأمل المكلف فيها ويشكر عليها ، لأن الذى يقسم الله تعالى به يحصل له وقع فى القلب فتكون الدواعى الى تأمله أقوى .

هذا وقد قال بعض المفسرين : إن الكلام على تقدير المضاف ، أى ورب الشمس وضحاها . وقد علمت أنه لا داعى لذلك ، ولا لتحكم الفقهاء فيه بآرائهم ، لأن الله يقسم بما شاء مما عرفت بعض أسراره ، ولاح لك قليل من أنواره ، على أنه سيقسم به تعالى فى قوله : « وما بناها » الخ ، وهو لا يلتئم مع هذا التقدير كما هو ظاهر .

ولا نزال نقول : إن الشمس من آيات ربنا الكبرى ، ونعمه التى لا نطيق لها شكرا ، فليس يحصى ما تعلق بها من المنافع ، فان الناس بدونها لا بقاء لهم ولا حياة ، فان كل شىء فى هذا العالم من نبات وحيوان وإنسان لا بد له من الشمس . وإن شئت فانظر الى الناس فى الليل نائمين وكأنهم أموات ، فاذا ظهر أثر الصبح من المشرق صار ذلك كالصور الذى ينفخ قوة الحياة فى الأحياء فصارت الأموات أحياء ، ولا تزال تلك الحياة فى الازدياد والقوة والتكامل حتى تصل الى كمالها وقت الضحوة .

وقد رأينا أن ننقل لك ما قاله اللورد « إفبرى » فى هذا الموضوع ، فنقول :

« الشمس هى كرة متأججة بنار أشد وطيسا من كل نار على الأرض ، وهى أكبر من الأرض بأكثر من مليون مرة . أما بعدها عنا فنحو ٠٠٠ و ٥٠٠ و ٩٢ ميل ، هذا وإن هى إلا نجمة وليست هى فى عداد النجوم الكبرى ، وهنالك مشكلة أخرى أعيا حلها النهائى عقول العلماء والفلكيين ، هى أن الشمس كما يؤخذ من علم طبقات الأرض لم تزل تشع نفس المقدار أو نحوه من الحرارة مدة ملايين من السنين ، فإن كانت الحرارة الصادرة عنها نتيجة احتراقها فكيف لم تفن مادتها مع توالى العصور ؟ فلا شك أن طريقة الاحتراق الجارية فيها غير ما نعهد ونألف ، وإلا لكفاها ٦٠٠٠ سنة لتحترق وتنفد حرارتها .

« أما فضل الشمس علينا فليس أنها مصدر نورنا ونارنا فقط ، بل هي محور نظامنا السياري ، ومصدر حياتنا أيضا ، فهي التي تبخر مياه البحر وترفعها غيوما في الجو ، وتنزلها أمطارا على الأرض ، حيث تجري جداول وأنهارا تروى زرعنا ، وتنمي أغراسنا ، وتثير الرياح ، وتهيج الأنواء ، فتطهر الهواء وتنقيه ، وتزجي السفن والمراكب في عباب المحيط ، وهي التي تجر المركبات ، وتدير الآلات البخارية ، وما الفحم الحجري إلا حرارة نورها المدخرة منذ قديم الأدهار لينتفع بها بنو العصور المتأخرة ، ولا حياة لولا الشمس لحيوان ولا لنبات ، فالحيوانات تنتعش بحرارتها ، والأطيار تغرد بأنوارها وتسبح تسبيحا ، وبحرارتها وأنوارها تبزغ النباتات وتنمو الأشجار ، وتزهو الأزهار وتنضج الأثمار ، فنحن مدينون للشمس بمأكلنا ومشربنا ، وهي علة وجودنا على هذه الأرض » .

ولنقف هنا اليوم تالين قوله تعالى: « إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب ، الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ماخلقت هذا باطلا ، سبحانك فقنا عذاب النار » . وقوله تعالى : « إن في خلق السموات والأرض لآيات للمؤمنين . وفي خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون . واختلافِ الليل والنهار وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها وتصريف الرياح آيات لقوم يعقلون . تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق فبأى حديث بعد الله وآياته يؤمنون » . « أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها » ؟

يوسف الدجوى
عضو جماعة كبار العلماء

حول الجهاد

لما أرسل أبو بكر رضي الله عنه خالد بن الوليد ليقاتل بعض المرتدين من العرب ، كتب له :

اعلم أن عليك عيونا من الله ترعاك وتراك ، فاذا لقيت العدو فاحرص على الموت توهب لك السلامة ، ولا تغسل الشهداء من دمائهم ، فان دم الشهيد يكون له نورا يوم القيامة .

وحض منصور بن عمار على القتال وكان بين السامعين امرأة فطرحت رقعة كتب فيها : رأيتك يا ابن عمار تحض على الجهاد ، وقد ألقيت ذؤابتي فلست أملك والله غيرها ، فبالله اجعلها قيد فرس غاز في سبيل الله ، فعسى الله أن يرحمني . فارتج المجلس بعد قراءة هذه الرقعة بالبكاء تأثرا مما فعلت

نقول : بمثل هذه النفوس تحيا الأمم ، وبمثل هذه الهمم تدين لها الأمصار ، وتخضع لها الأقطار ، فان جمعت الى هذا الشعور حب العدل والانصاف والمساواة كما كان عليه المسلمون ، أصبحوا سادة الأرض ، وخلفاء الله فيها .

السُّنَّة

التحذير من الفتن

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «يوشك أن يكون خير مال المسلم غنم يتبع بها شعف الجبال ومواقع القطر يفر بدينه من الفتن» . رواه البخاري ومالك وغيرهما .

يتعلق بشرح هذا الحديث أمور : (١) بيان معناه والغرض منه . (٢) بيان معنى الفتن التي نهى عنها الدين وأمر بالفرار منها . (٣) بيان ما يترتب على العزلة والاختلاط من منافع ومضار .

(١) إن هذا الحديث وإن كانت عبارته ظاهرة ليس فيها شيء من الإبهام ، إلا في كلمة «شعف الجبال» بالشين المعجمة والعين المهملة مفتوحتين ، وهو أعلى الجبال ورءوسها ؛ ولكنه يدل دلالة واضحة على ما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم من الاتصال بالوحي الإلهي ، والعلم بما سيكون عليه العالم في آخر الزمان من الهرج والمرج ، والاضطراب الذي يذهب بالمعنويات لتحل محلها الماديات ، بحيث لا يكون للناس هم إلا في قضاء شهواتهم ، والحصول على لذاتهم ، بكل ما أوتوا من حول وقوة ؛ وتلك حالة تستلزم لا محالة أن تكثر الفتن والاضطرابات ، وتغلب على الأنفس طباع الحيوانات المفترسة التي لا همّ لها إلا الحصول على فريستها وقضاء لذتها بكل الوسائل .

وقد وردت في هذا المعنى أحاديث كثيرة ذكرها البخاري وغيره في كتاب الفتن ، منها قوله صلى الله عليه وسلم : « يتقارب الزمان ، وينقص العمل ، ويُلْقَى الشح ، وتظهر الفتن ، ويكثر الهرْج » . ومعنى يتقارب الزمان : تذهب بركته فينقضي سراعا فلا يتمكن العاملون من أداء أعمالهم على الوجه المطلوب ، لما يعتريهم من مشاغل الشهوات التي يلهون بها عن أداء ما عليهم من واجبات ، فيضيع عليهم زمنهم وهم لاهون غافلون . ولا مراء في أن ذلك مدعاة للغفلة عن الفضائل الخلقية ، والانصراف عن تحصيل العلوم التي تهذب المجتمع الانساني ، وتؤلف بين الأرواح والقلوب . ولهذا قد ورد في بعض الروايات تصريح بأن العلم ينقص كما ينقص العمل ، ولا خفاء في أن نقص العمل يستلزم نقص العلم ، لأن العلم يتطلب عملا جديا ومجهودا

كبيرا ، فمتى استولت الغفلة على النفوس ، واستحكمت فيها الشهوات ، انصرفت عن الفضائل الخلقية ، وانغمست فى اللذات ، فانقضى الزمان سراعا كأنه لم يكن ، وضاع لذلك العلم والعمل معا . وقد سئل صلى الله عليه وسلم عن الهرْج ما هو ، فقال : القتل ، القتل . فمعنى قوله : « يكثر الهرْج » : يكثر القتل . وذلك لأن بواعث الشهوات تدفع الناس الى التزاحم عليها ، فيفضى بهم ذلك الى قتل بعضهم بعضا .

وهذا الإخبار الذى أخبر به رسول الله صلى الله عليه وسلم حق لا ريب فيه ، فإن التزاحم على الماديات وصل بالناس الى حد لا يمكن وصفه . فالحديث الذى معنا يأمرنا أن نتقى الفتن بكل ما نستطيع من قوة ، فإذا لم نستطع فررنا منها وابتعدنا عنها ، ولو أدى بنا ذلك الى شظف العيش والسكنى فى رءوس الجبال .

(٢) أما معنى الفتنة فى أصل اللغة ، فهو : الاختبار والامتحان . تقول : فتن الصائغ الذهب يفتنه فتنة ، إذا أدخله النار ليعرف جودته من رداءته . وفعل الفتنة فتن يفتن فتنا ، كضرب يضرب ضربا . ثم استعملت الفتنة فيما يجر إليه الاختبار من مكروه . ثم أطلقت بعد ذلك على كل مكروه كالكفر ، والإثم ، والتحريق ، والفضيحة ، والفجور ، وغير ذلك . فكل هذا يسمى فتنة . وقد وردت الفتنة فى القرآن الكريم بهذه المعانى ، قال تعالى : « إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق » . فالمراد بفتنوا هنا : حرقوا المؤمنين ، والمحرقون هم أصحاب الأخدود الذين قص الله علينا خبرهم فى سورة البروج ، وذلك أن بعضهم قد آمن بالله وترك عبادة الأوثان ، فلم يرض ذلك ملك زمانهم ، فحفرلهم فى الأرض حفرا وأوقد فيها النار وألقاهم فيها أحياء وقال تعالى : « وفتناك فتونا » أى اختبرناك اختبارا . وقال تعالى : « وإن كادوا ليفتنونك عن الذى أوحينا إليك » أى يوقعونك فى بلية وشدة فى صرفك عن العمل بما أوحى إليك . وقال تعالى : « ما أنتم عليه بفاتنين » أى بمضلين عن الحق ، الى غير ذلك .

فإذا فشت المنكرات فى أمة من الأمم ، وكثر فيها الفجور ، وهتكت المحرمات ، كان من واجبات الصالحين فيهم أن يقاوموا هذه الشرور بكل ما استطاعوا من بأس وقوة ، فإذا عجزوا عن تقويم المعوج كان حقا عليهم أن يرتحلوا بعيدا عن هذه الشرور والمفاسد كى لا يصيبهم شرها ، أو يعمهم الله بعذاب فيهلكوا مع المفسدين .

وقد يقال : إن هذا ينافى ظاهر القرآن الكريم من أن الله سبحانه وتعالى قد رفع العذاب الدنيوى عن العالم إكراما لرسوله صلى الله عليه وسلم ، فانه تعالى قال : « وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم » ، وقال تعالى : « ولولا كلمة سبقت من ربك لكان لزاما وأجل مسمى » . ومعنى هذا أن الله تعالى يقول لنبيه عليه الصلاة والسلام : لولا أن سبقت كلمتى برفع العذاب عن الناس ،

بعد رسالتك وتأجيله الى أجل مسمى لكان العذاب الذى حاق بالأمم الماضية من الخسف والمسخ والإغراق لازما لا يرفعه عن هؤلاء المجرمين قوة ولا بطش .

والجواب : أن المراد برفع العذاب عن الناس : رفع عذاب الاستئصال والإبادة . أما تعذيبهم بنقص الأموال والأنفس والثمرات ، وإذاقة بعضهم بأس بعض ، فذلك غير مرفوع عن الناس الذين طغت عليهم شهواتهم ففسدت أخلاقهم . على أن الله تعالى لم يبين لنا الأجل المسمى ؛ وما يدرينا أنه قد انتهى ذلك الأجل ، وأن الناس إذا لم ينتهوا عن الفواحش ويكفوا عن الموبقات والفضائح ، ويجعلوا رائدهم فى أعمالهم الصدق والعدل ، فإنهم بذلك يعرضون أنفسهم لسخط الله وعقابه الذى كان يعاقب به الأمم الماضية ؟ إن ذلك ممكن لا شك فيه . فعلى الناس أن يتدبروا فى ذلك ، ويتعاونوا على إزالة الموبقات والمفاسد من بينهم ، وأن يعفوا عن المظالم التى تذهب بالضعاف ، وأن يتذكروا دائما أنهم مهددون بغضب إله منتقم عادل لا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء . فإذا لم ينتهوا فإن الله ليس بغافل عما يعمل الظالمون .

(٣) مما لا شك فيه أن الحديث الذى معنا والأحاديث التى وردت بمعناه ، تدل على أن العزلة إنما تكون فى حالة الفوضى وانتهاك حرمات الدين ، وطغيان سيل الشهوات على الناس بحيث لا يستطاع دفع شىء منها . أما إذا قدر المرء على إزالة المنكر ، وقدر على هداية الناس بقلمه أو لسانه أو جاهه ، فإن الاختلاط أفضل ، بل يكون الاختلاط فى هذه الحالة لازما فى نظر الدين ؛ لأنه يكون من باب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وقد أمر الله المسلمين به فى كتابه الكريم ، قال تعالى : « ولْتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، وأولئك هم المفلحون » . فالقادرون على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، يجب عليهم أن يخالطوا الناس ، ويبذلوا قصارى جهدهم فى أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر . فإذا لم يفعلوا حق عليهم غضب الله وسخطه . قال تعالى : « لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ، ذلك بما عصَوْا وكانوا يعتدون . كانوا لا يتناهَوْن عن منكر فعلوه ، لبئس ما كانوا يفعلون » .

ولقد وعد الله سبحانه الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر وعدا كريما ، وأعد لهم جزاء حسنا ، بل قد أخبر سبحانه فى كتابه العزيز بانه قد أنجى الآمرين بالمعروف من العذاب الذى حاق بأمتهم ، قال تعالى : « فأنجينا الذين ينهَوْن عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بَئِيس بما كانوا يفسقون » .

فانظر كيف أخبر الله تعالى أن هؤلاء الذين أهملوا ذلك الواجب المقدس ، وتركوا أشرارهم يأتون المنكر بدون أن يقاوموهم ، قد استحقوا لعنته وطردهم من رحمته كما يستحقها الكافرون،

وذلك منتهى ماتصل إليه عقوبة العاصين ؛ وفيه عظة بالغة وزجر شديد للقاعدين من المسلمين عن أداء ذلك الواجب المقدس الذى جعلهم الله بالقيام به خير أمة أخرجت للناس ، فكيف يرضون أن يكونوا ملعونين بتركه ؟ وكيف تطمئن أنفسهم الى شيوع الفاحشة بينهم وهم راضون ؟ ألا يخافون أن يحيق بهم ما حاق بالأمم السابقة ؟ لا ريب فى أن الأمر خطير ، وأن الناس عن دينهم غافلون . ولا يقف النهى عن المنكر عند حد من الحدود ، فكل أوامر الدين ونواهيه إذا انتهكت حرماتها فإنه يجب على القادرين على الأمر بالمعروف أن يعالجوا إزالتها بكل ما يستطيعون .

أما ما ذكره صاحب إحياء العلوم من أن بعض السلف الصالح كان يرى العزلة أفضل من الاختلاط ، فذلك إنما يناسب حال زمانه ، حيث كان الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر كثيرين . فإذا اعتزل أحد الناس قام غيره بذلك الواجب المقدس .

ولقد أمر الدين الاسلامى المسلمين بالاتحاد وعدم الفرقة ، قال تعالى : « ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات ، وأولئك لهم عذاب عظيم . يوم تبيضّ وجوه وتسودّ وجوه » . فيجب عليهم جميعا أن يتحدوا ، ويتآمروا بالمعروف ويتناهوا عن المنكر ، ويقوموا بوجباتهم الدينية والخلقية . ومن أول واجباتهم التضامن والاتحاد ، والجهاد فى سبيل الله ، والذود عن الكرامة والشرف ، ونبذ الشهوات الفاسدة ، وترك التبذير والإسراف ، والحرص على كل ما يصون أوطانهم . أما الحديث الذى معنا فهو يأمر بالعزلة عند فساد الزمان فسادا مطلقا ، بحيث تصبح قواعد الدين مهجورة عند جميع الناس وليس فيهم من يغار على عرضه ودينه ووطنه ، ولعل ذلك الزمن لم يأت بعد .

عبد الرحمن الجزيرى

مكان المال من المجتمع

قال الله تعالى : « إن ترك خيرا الوصية » : عبر عن المال بالخير ، وهو كذلك متى اكتسب من الوجوه المشروعة ، وبذل فى الأغراض الشريفة .

وقال النبى صلى الله عليه وسلم : « لا خير فيمن لا يحب المال ليصل به رحما ، ويؤدى به أمانة ، ويستغنى به عن خلق ربه » .

وقال الشافعى رحمه الله :

لقد طفت فى شرق البلاد وغربها ... وجربت هذا الدهر باليسر والعسر

فلم أر بعد الدين خيرا من الغنى ... ولم أر بعد الكفر شرا من القلة

دراسات في القرآن الكريم

— ٣ —

شبه قد ترد على القارىء

نعم قد يكون مما لا بد منه أن تتوافد الى نفس الناظر فيما أسلفنا من بحث فى الآية الكريمة تلك الشبه التى سنوردها :

فلقائل أن يقول : إنه قد انفهم مما تقدم أن الداعى للتذكير بالعهد المشار إليه فى الآية السابقة على التى نحن بصدد شرحها ، هو أن الوفاء به والعمل بمقتضاه يؤدى الى الإذعان برسالة خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم ، ولكن ما هو الداعى للتذكير بعهد إن وفوا به فانما يقتضى الاعتراف بربوبية الله وانفراده تعالى بها دون أن يكون له فى ذلك شريك ؛ ولا صلة له باذعانهم برسالة سيدنا محمد خاتم النبيين ، وبنو إسرائيل معترفون بربوبية الله الخالق العظيم ؟

وإنا لدفع هذه الشبهة نقول : أولا : أن التذكير بهذا العهد ليس خاصا ببنى إسرائيل ، بل هو تذكير للناس كافة على اختلاف نحلهم وأجناسهم ؛ وظاهر أن فى الناس المؤمن به والكافر ؛ وعلى ذلك يكون التذكير بهذا تذكيرا بالعام بعد التذكير بالخاص ، كالزام لبنى إسرائيل ، لما أن ما هم عليه من جحد لرسالة محمد صلى الله عليه وسلم وإعراض عنها ، ماس لهذا العهد وموهنه .

وثانيا : فإن بنى إسرائيل قد كانوا على عقائد وأحوال تتنافى مع الاعتراف بالربوبية ، ومع قدرهم لله حق قدره فإنهم لو أذعنوا بالربوبية صحيح الإذعان ، وقدروا الله حق القدر لما قالوا عزيرا ابن الله ، وفى ذلك جهل بالله أى جهل ، ومساس بقدسه أى مساس ؛ ولو قدروا الله حق قدره لذكروا سوابق نعمه عليهم وعلى الناس أجمعين ؛ تلك النعم التى من أجلها تقفيته الرسل بعضهم ببعض لتجديد هداية البشر وإصلاح ما قد يعترى أصول الدين من إفساد أو توهين ، وما قد يطرأ على مبادئه من تحريف أو تشويه ، فما كانوا يمانعون فى رسالة محمد صلى الله عليه وسلم على فترة من الرسل بعد ما أمسى العالم متخبطا فى ظلام من الفوضى حالك ، وغدا البشر فى ثنايا موجات من الشر متلاطمة . نعم لو قدروا الله حق قدره ما جرءوا على تكذيب الرسول محمد وهم يعلمون صدق رسالته ، وكانوا يتوقعونها من حين لآخر ، ويعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، لما فى ذلك من الجرأة على الله ، والاستهانة بوعيده ، الى غير ذلك مما يتنافى مع الوفاء بذلك العهد ،

ومما لو تخلوا عنه لأدى بهم الى الإيمان بمحمد والإذعان برسالته . وبهذا تدرك فى وضوح ما للتذكير بهـذا العهد من صلة بالغرض الذى يتصل به العهد الأول ، كما تدرك ما للتذكير به من إفحام لهم وإلزام .

هذا ، ولقائل أيضا أن يقول : إذا كان الله قد بين فى كتابه المجيد أنه لا تنقطع حجة الناس عليه تعالى إلا أن يرسل اليهم رسلا يبشرون وينذرون ، ويذكرون ويرشدون ، فـكيف يعتبر ما أودعه فيهم من عقول تفهم ، وما أودعه فى الـكائنات من دلائل وآيات تنفهم ، عهداً عليهم وحجة تلزمهم ، يثابون إن هم بها وفوا ، ويعاقبون إن هم بها أخلّوا ؟

وإنا دفعا لذلك نقول : إنه قد كان يصح أن يتجه هذا السؤال لو أن الله لم يكن قد أرسل الى عباده رسلا ؛ أما وقد أرسل اليهم رسله يذكرونهم بآيات الله ، ويدعونهم الى النظر فى السماء والأرض وما بينهما ، ليدركوا ما فى ذلك من دلائل ربوبيته ، وشواهد وحدانيته ، وآثار قدرته وحكمته ؛ أما وقد فعل ذلك ، فلم يبق محل لتلك الشبهة .

بقى أنه قد يستدعى ذلك سؤالا آخر ، فلقائل أن يقول : هل يكفى فى قطع الحجة على الله وحساب الناس بمقتضى هذا العهد ، أن يرسل اليهم رسولا واحدا ، أو أن الحجة لا تنقطع والعهد لا حساب عليه حتى يتتابع إرسال الرسل ، فيكون فى كل فترة من الزمن رسول يجدد للناس أمر دينهم ، ويوقظهم من سبات قد يكون غشيهم ؟

وإنا لدفع هذه الشبهة نقول : إن الذى يتضح من مجموع ما فى ذلك من بحوث وأفـكار ، هو أن المدار فى وجوب الاعتراف بالربوبية ومعرفة الله تعالى والمؤاخذة على اتخاذ رب سواه ، هو أن يتوفر لدى الشخص أحد أمرين :

(الأول) أن تبلغه دعوة رسول الى توحيد الله وإفراده بالعبادة والإجلال ، بغض النظر بعد ذلك عن أن يكون الله تعالى قد أرسل رسلا كثيرين ، أو أرسل رسولا واحدا ، ما دامت دعوته قد وصلت على أى وجه من وجوه بلوغها إياه .

(الثانى) أن يهيب بعقل المرء داع من نفسه الى النظر والتفكير فى شأن الصانع ، ثم يدفعه ذلك الى النظر بالفعل . ومتى توفر للانسان أحد هذين الأمرين ثم هو بعد ذلك يكون قد أهمل النظر ولم يصل الى حد التعرف بالله والاعـتراف بربوبيته ، ونظر ثم تأدى بالنظر الى اتخاذ غير الله ربا من كوكب أو شىء آخر ، فإنه يكون بذلك مؤاخذا بمقتضى هـذا العهد إن هو لم يأخذ به ، ومثابا إن هو وفى بمقتضاه .

وعلى هـذا فقول بعض العلماء : إن أهل الفترة ناجون ، لابد أن نسائلهم فيه ، فإن هم أرادوا بأهل الفترة من لم تبلغهم دعوة رسول من الرسل ، ولم يصادفهم من الشئون والحوادث ما أثار عقولهم نحو النظر وبعثها الى التفكير ، كانت نجاتهم عامة بالقياس الى جميع التكاليف ،

سواء منها الأصول الاعتقادية مما يتعلق بما يجب للصانع الحكيم ، وما يتعلق بالفروع العملية من واجب ومحظور .

وإن هم أرادوا بهم من بلغتهم دعوة رسول دون أن يواجههم بتفاصيل شريعته ، أو تحركت فى نفوسهم دواعى النظر ودفعتهم الى الاعتراف بالصانع الحكيم ، والخالق القدير ، والرب المنعم ، كانت نجاتهم بالنسبة الى الفروع العملية خاصة ، على معنى أنهم لا يؤاخذون بشربهم الخمر ، أو تركهم الصدقة ، مثلا .

ويرى الإمام الأعظم أبو حنيفة أن النظر واجب على كل إنسان وإن لم تبلغه دعوة رسول من الرسل ، ولا يشترط ما اشترطناه من أن يصادف الإنسانَ حادث من الحوادث التى تحرك فيه الداعى الى النظر والتفكير ، بل يرى أن مجرد وجود الانسان وأمام عينيه السموات والأرض ، وأمامه نفسه ، وما فى ذلك من آيات وشواهد على وجود الصانع الحكيم ، كاف فى وجوب النظر .

غير أن الإمام يرى ، مع إيجابه النظر على كل إنسان وإن لم يتوفر لديه أحد الأمرين المتقدمين أنه إذا أفضى بالناظر نظاره الى عدم الاعتراف بالصانع ، يكون غير مؤاخذ مادام قد فعل ما وجب عليه ، واجتهاده هو الذى أدى به الى اعتقاد غير صحيح .

إلا أن ما نعرفه لذلك الإمام العظيم من بعد نظر ، ورسوخ فى علم ، يحتم علينا أن نحمل هذا على غير الظاهر منه ؛ فلعل مراده من قوله « إنه غير مؤاخذ إن أدى بالمرء اجتهاده الى عدم الاعتقاد بالربوبية » إنما هو الفرض والتقدير ، إذ مثل الإمام أول من يعلم أن آيات الله فى أكوانه واضحة جلية لا يمكن أن يؤدى النظر فيها إلا إلى معرفة الله والاعتراف بربوبيته ؟

حامد محيسن

الكرم والتبذير

قال الله تعالى : « ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا » . « إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين ، وكان الشيطان لربه كفورا »

وقال على رضى الله عنه : كن سمحا ولا تكن مبذرا ، وكن مقدرا ولا تكن مقترا .

وقال سقراط : أفضل السيرة طيب الكسب وتقدير الانفاق .

وقال على : لا تستحى من العطاء القليل فإن الحرمان أقل منه .

بحوث في المسائل الفقهية

تاريخ الفقه الاسلامى فى مصر

— ٤ —

وصفنا فى مقالنا السابق حال الرواية والفتيا فى مصر لعهد الصحابة ، وقد كان الى جانب ذلك حركة أخرى تتصل بالفقه اتصالا شديدا ، وربما كانت صورة الفقه فيها أوضح من صورته فى غيرها : تلك هى حركة القضاء .

كان أمر القضاء عند المصريين ، قبل الفتح الإسلامى ، منوطا بنواب ماليين أو عسكريين ترسلهم حكومة الروم ، ولم يكن لهم قانون منظم معترف به ، يمكن التحاكم إليه ، والرجوع الى نصوصه ، وإنما كان قانونهم ما يراه القاضى ، الذى لم تكن صلته بالبلاد ومعرفته لأحوال أهلها ، بالقدر الذى ينبغى أن يكون فيمن يتولى مثل هذا الشأن .

فلما فتح المسلمون مصر أنشأ لهم عمرو المحاكم النظامية ، وقسمها الى مجالس دائمة وزمنية ، مؤلفة من أعضاء من الأهالين ذوى نزاهة واستقامة ، وبصر بأحوال البلاد ، وجعل المتقاضين حق استئناف الأحكام لتنقض أو تبرم (١) .

أما المسلمون فكان لهم قضاء خاص لا تجرى أحكامه إلا عليهم ، فكان لأهل البلاد قضاؤهم الخاص ، وللمسلمين قضاؤهم الخاص ، وكان الخصوم من القبط يلجئون أحيانا الى قضاة المسلمين مرتضين أحكامهم ، فيحكم القاضى المسلم بينهم ، ويحكّم عرفهم وأحوالهم ، ويقبل شهادتهم .

وأول قاض إسلامى فى مصر ، هو كعب بن ضنّة ، وهو ممن شهد فتح مصر ، وكان حكما فى الجاهلية (٢) :

كتب أمير المؤمنين عمر الى عمرو بن العاص أن يجعل كعب بن ضنّة على القضاء ، فامتنع كعب من ذلك ، وقال : والله لا ينجيه الله من أمر الجاهلية ، وما كان فيها من الهلاك ، ثم يعود أبدا ! (يقصد أنه تولى هذا الأمر فى الجاهلية ، فلا يحب أن يتولاه فى الاسلام تورعا) . فقال له عمرو : لا بد من السمع والطاعة لأمر أمير المؤمنين ، فاقض بين الناس حتى أكتب اليه . فقضى كعب حتى شاور فيه عمرو أمير المؤمنين ، فأعفاه بعد شهرين .

---

(١) تاريخ مصر لجورجى زيدان ص ٩٢

(٢) تاريخ الولاة والقضاة للكندى ص ٣٠١ وما بعدها .

ثم تولى القضاء بعده قيس بن أبى العاص من قِبل أمير المؤمنين عمر ، ثم ابنه عثمان بن قيس الذى استمر قاضيا حتى مات بعد مقتل عثمان بن عفان رضى الله عنه ، ولم يقم بمصر بعد ذلك قاض حتى قام معاوية ، فولى سليم بن عِتْر ، وأمره بالنظر فى الجراح ، وأن يرفع ذلك الى صاحب الديوان ، فكان الرجل إذا أصيب بجرح أتى الى القاضى ، وأحضر بينته على الذى جرحه ، فيكتب القاضى بذلك الجرح ديته على عاقلة الجارح ، ويرفعها الى صاحب الديوان ، فإذا حضر العطاء اقتُصّ من أعطيات عشيرة الجارح ما وجب للمجروح ، وينجم ذلك فى ثلاث سنين .

ويظهر أن اختصاص القاضى قبل ذلك لم يكن يشمل هذا النوع من الأقضية ، فقد رووا أن سليم بن عِتر هذا هو أول قاض نظر فى الجراح ، وحكم فيها . ولعل ذلك كان الى الولاة والحكام الإداريين إلحاقا بسلطة التنفيذ (١) .

ويظهر أنه كان بجانب القاضى من يبيّن وصف الجناية ، ويحددها ؛ وذلك أشبه بما نعرفه الآن من نظام الطب الشرعى الذى يدخل فى اختصاصه تكييف الإصابة وتحديد الجراح ، فكان القاضى يعتمد على هذا التحديد ، ويقدر دية الجراح على أساسه . قال زيد بن بشر : أدركت رجلا فى بيت المال إذا شُجّ الرجل أو جُرح ، بعث به القاضى الى ذلك الرجل ، فيقول : هذه مُوَضِحة (٢) وهذه مُنقلة (٣) ، وهذه كذا ، وهذه كذا ، فيكتب القاضى بدية ذلك الجرح . . . قال زيد : وكان على ذلك الرجل أرزاق جارية .

ومما حفظ عن سليم بن عتر أيضا أنه كان أول من سجل قضاءه بالكتابة ، قال ابن حجيرة : اختُصم الى سليم بن عتر فى ميراث ، فقضى بين الورثة ، ثم تناكروا ، فعادوا اليه ، فقضى بينهم ، وكتب كتابا بقضائه ، وأشهد فيه شيوخ الجند ، فكان أول القضاة بمصر سَجَّل سجلا بقضائه .

ومن قضاة مصر الذين اشتهروا برأى خاص فى العهد الأول ، بشير بن النضر المزنى ؛ كان

---

(١) يقول محمد بك الخضرى فيما كتبه عن القضاء فى الدولة الأموية : « ويظهر لنا أن قضاء القضاة فى عهد الخلفاء الراشدين كان قاصرا على فصل الخصومات المدنية ، أما القصاص والحدود فكانت ترجع الى الخلفاء وولاة الأمصار » . ويقول ابن خلدون : « إنما كان للقاضى فى عصر الخلفاء الفصل بين الخصوم فقط ، نعم قد يفوض له الخليفة نظر بعض الأمور العامة ، لا باعتبار أنها داخلة فى ولاية القضاء ، ولكن لما يراه فى القاضى من الكفاية للقيام بها » اه . من كتاب تاريخ القضاء فى الاسلام للاستاذ الشيخ عرنوس ص ٢٥

(٢) الموضحة : ما أوضحت عظم الرأس ، أى أظهرته .

(٣) المنقلة : ما ينقل فيها فراش العظم الرقيق ، فوق العظم المعتاد ، ليلتئم الجرح .

يقول فى قوله تعالى: « وعلى الوارث مثل ذلك » : الوارث هو الصبى (١) ، أى عليه فى ماله إذا ورث أباه إرضاع نفسه .

ومنهم عبد الرحمن بن حجيرة ؛ كان يقضى فى الشهود إذا تكافئوا أن يسهم بينهم ؛ فإن كان أحد المدعين أكثر شهودا برجلين أو أكثر كان الحق له ، وإذا كانت السلعة بيد أحدهما ، فجاء بشاهد عدل ، كانت له وإن جاء الآخر بأكثر (٢) .

هذه صورة الفقه فى القضاء ؛ وقد قدمنا قبل ذلك صورة الفقه على يد الرواة والمفتين .

وينبغى أن يعلم هنا أمران :

أولهما : أن هذه النواحى من النشاط الفقهى كان لها فى البلاد المصرية مركزان : الفسطاط ، والاسكندرية ، لأن المسلمين لهذا العهد ، لم يكونوا قد اختلطوا بغيرهم من أبناء البلاد ، ولا توزعوا فى القرى والأقاليم . وفى ذلك يقول المقريزى : « إن الديار المصرية لما افتتحها المسلمون ، كانت خاصة بالقبط والروم ، مشحونة بهم ، ونزل الصحابة رضى الله عنهم من أرض مصر فى موضع الفسطاط ، وبالاسكندرية ، وتركوا سائر قرى مصر بأيدى القبط ، ولم يسكن أحد من المسلمين بالقرى . . . ولم ينتشر المسلمون بالنواحى إلا بعد عصر الصحابة والتابعين . . . الخ » .

وما ذكره المقريزى هو الغالب الكثير .

الثانى : أن صلة الفقه فى جميع الأمصار بالفقه فى مركز الخلافة كانت وثيقة ، فان الأمراء والحكام ، والقضاة ، كانوا غالبا يعينون من قبل الخليفة ، وكانت عقليتهم الفقهية متشابهة أو متقاربة الى حد بعيد ، وكثيرا ما كانوا يتصلون بالخليفة طالبين رأيه فى قضية من القضايا العامة أو الخاصة ، فتارة يأتيهم الرأى ، وتارة يفوضهم الخليفة فى العمل بما يرون .

---

(١) اختلف العلماء فى المراد بالوارث فى قوله تعالى : « وعلى الوارث مثل ذلك » : فقال قتادة والسدّى وعمر بن الخطاب : هو وارث الصبى أن لو مات . وقال غيرهم : الوارث هو الصبى نفسه ، وتأولوا قوله « وعلى الوارث » المولود ، مثل ما على المولود له . وكان محمد ابن جرير يختار هذا القول . وحكى القرطبى فى تفسيره أن ممن قال هذا القول « بشر بن نصر » . ولا يبعد أن يكون محرفا عن « بشير بن النضر » الذى هنا .

(٢) هذا كله اجتهاد من القاضى ، مرجعه الأخذ بالقرائن ، وشواهد الأحوال ، وترجيح ما يغلب به الظن . قال ابن القيم فى كتابه « الطرق الحكمية ، فى السياسة الشرعية » : للحاكم أن يحكم بالقرعة ، ويحكم بشاهد الحال ، وبشهادة الواحد إذا علم صدقه من غير يمين . « راجع ص ٧١ ، ٧٥ من الكتاب » .

الخلاصة :

بعد هذا يمكننا أن نلخص ما تقدم عن الفقه المصرى ، لعهد الصحابة رضى الله عنهم ، فيما يلى :

(١) كان الفقه يستمد أحكامه من الرواية ، والفتيا ، والقضاء .

(٢) لم يكن للرواية أثر بعيد فى الفقه ، وإنما كان الأثر البعيد للقضاء ، ثم للفتيا .

(٣) لم يأخذ الفقه فى هذا العهد طابعا مصريا خاصا ، وإنما كان تابعا فى رجاله ، وأحكامه ، غالبا ، للفقه فى مركز الخلافة .

(٤) لم ينتشر الفقه الاسلامى فى جميع أنحاء البلاد ، وإنما اقتصر غالبا على المراكز التى كان بها المسلمون ، فلم يخرج عن كونه فقها خاصا « بالجالية الاسلامية » إلا قليلا .

(٥) يمكن أن تعد هذه الحلقة فى سلسلة تاريخ الفقه المصرى ، حلقة التمهيد ، والإعداد ، لما جاء بعد ذلك من العهود ؟

« يتبع »

محمد محمد المدنى
المدرس بكلية الشريعة



حكمة الشورى

قال الله تعالى : « وشاورهم فى الأمر » .

وقال تعالى : « وأمرهم شورى بينهم » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « ما خاب من استخار ، ولا ندم من استشار » .

وقال فيلسوف : لا رأى لمن تفرد برأيه .

وقال المأمون : إذا أنكرت من عقلك شيئا فاقدحه بعقل .

وقيل : الرأى مرآة العقل ، فمن أردت أن ترى صورة عقله فاستشره .

وقال حكيم : اجعل سرك الى واحد ، ومشورتك الى ألف .

وقال عبد الملك بن مروان : لأن أخطئ وقد استشرت ، أحب الى من أن أصيب وقد استبددت .

قال الحسن البصرى : الناس ثلاثة : فرجل رجل ، ورجل نصف رجل ، ورجل لا رجل ؛ فأما الرجل فذو الرأى والمشورة ؛ وأما نصف الرجل فالذى له رأى ولا يشاور ؛ وأما الذى ليس برجل لا رأى له ولا يشاور .

باب الأسئلة والفتاوى

فائدة الاربعاء

جاء الى لجنة الفتوى بالجامع الأزهر الاستفتاء الآتى ملخصه :

اعتاد كثير من الناس أن يقوموا بعمل فائدة تسمى (فائدة الأربعاء) ، فيتوجه من يريد قضاء حاجة من حاجاته أو تفريج كربة ، فى يوم الأربعاء قبل الظهر بساعة تقريبا ، الى ضريح سيدى عبد الله القرشى بقنا ويقرأ سورة « يس » مرة أو ثلاث مرات بنية قضاء الحاجة ، ثم يخرج متجها الى ضريح سيدى عبد الرحيم القنوى ، ويصلى بين الضريحين ركعتين وهو حاسر الرأس ، ثم يمسك عمامته بيده وحذاءه تحت إبطه ويتوجه الى ضريح سيدى عبد الرحيم القنوى على هذه الحالة ، ويدعو بدعاء خاص يتوسل فيه بالأنبياء جميعا وبسيدنا آدم وحواء وبالسيد عبد الرحيم القنوى أن تقضى حاجته ؛ ويعتقدون أن هذه الفائدة على هذا الوجه مرجوة القبول ، ومروية عن السيد عبد الرحيم القنوى . فما حكم الشرع فى ذلك ؟

الجواب :

هذه الفائدة — وإن احتوت على صلاة وقراءة قرآن ودعاء — قد حدد لها ولأجزائها التى تركبت منها زمان ومكان ، والتزمت فيها كيفية معينة : يتجه صاحب الحاجة الى ضريح معين ويقرأ فيه سورة « يس » بالنية التى يريدها ، ثم يمشى فى طريق ضريح آخر حتى يصل الى مكان مخصوص بين الضريحين فيصلى فيه ركعتين وهو حاسر الرأس ، ثم يمسك عمامته بإحدى يديه وحذاءه تحت إبطه ويتمم شوطه الى الضريح المقصود وهو على هذه الحالة ، ثم يدعو هناك بدعاء خاص يتوسل فيه بالأنبياء وبسيدنا آدم وحواء وصاحب الضريح الثانى ؛ وقد اقترنت هذه العملية فى نفوس الناس باعتقاد أنها إذا أديت على هذا الوجه كانت مرجوة النفع ، وإذا لم تؤد على هذا الوجه لم يكن لها الأثر المطلوب .

وهذه العملية ، بما قارنها من هذه العقيدة ، وبما فيها من الترتيب والالتزامات المذكورة ، لم يرد بها كتاب ولا سنة ، ولا يشهد بها أصل صحيح ، وذلك فضلا عما يصحبها من مظهر لا يتفق وجلال الدين وروعة العبادة ؛ فهى بدعة منكرة .

وإن الابتداع فى الدين كما يكون بإحداث عبادة لا أصل لها ، يكون بتحديد زمان أو مكان ، أو كيفية للعبادة التى شرع أصلها ، فما جعل الشارع له كيفية خاصة أو حدد له زمانا

أو مكانا كصلاة الجمعة والاستسقاء والحج ، وجب اتباعه فيما حدده ؛ وما لم يحدد له شيئا من ذلك كالنوافل المطلقة كان التحديد فيه ابتداعا وإحداثا فى الدين لا يصح عمله ، ولا ينبغى اعتقاده .

أما قراءة القرآن وصلاة النافلة والتضرع الى الله فى المهمات والكرب ، من غير التزام شىء مما ذكر ، ومع مراعاة الآداب الشرعية ، فهى أمور ندب اليها الشرع الشريف ، وصحت فيها الأحاديث .

واللجنة تنصح للمسلمين أن يلتزموا فى عقائدهم وعباداتهم وتضرعاتهم الى الله حدود ما شرع الله ، وألا يزيدوا من عند أنفسهم شيئا من كيفية أو التزام زمان أو مكان ، فإن ذلك أسلم لدينهم ، وأبعد عن مقت الله وغضبه .

« تلك حدود الله فلا تعتدوها ، ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون » . والله أعلم .

* * *

خدمة المسلم غير المسلم

وجاء الى لجنة الفتوى بالجامع الأزهر الاستفتاء الآتى :

هل هناك أى كراهية فى أن يستخدم المسلم للنصارى ؟

الجواب :

يرى أبو حنيفة رحمه الله أنه يجوز للمسلم أن يكون أجيرا لغير المسلم ، وأن يعمل له بنفسه أو بدابته ، بأجر معين ، إلا إذا كان ذات العمل مما يحرمه الدين الاسلامى فإنه يكون حينئذ حراما .

واللجنة تميل الى هذا الرأى توسعة على الناس ورفقا بهم ، وترى مع هذا أن الأولى بالمسلم والأفضل له أن يسلك طريقا يتكسب منه سوى خدمة غير المسلمين إذا تيسر له ذلك . والله أعلم .

* * *

طعام أهل الكتاب

الجبنة الرومى . السمك المملح . اللحمة المحفوظة .

وجاء الى لجنة الفتوى بالجامع الأزهر الاستفتاء الآتى :

الرجا الإجابة عن أكل وبيع الأصناف المبينة أدناه حلال أم حرام على مذهب الامام الشافعى :

١ — الجبنة الرومى .

٢ — السمك المملح (الفسيخ)

٣ — اللحمة التى تستورد من الخارج داخل علب صفيح ، وتسمى باللغة الانجليزية كورنابيف ، لأن بعض الناس يزعمون أنها تذبح على الطريقة الغير الشرعية ، والبعض الآخر يقول عكس ذلك .

يوسف عفيفى

الجواب :

طعام أهل الكتاب حلال للمسلمين لقوله تعالى : « أحل لكم الطيبات ، وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم » .

ولكن إذا تحققنا أن بعض الأطعمة عمل مما لا يحل لنا فى شرعنا ، كما إذا عمل الطعام من ميتة أو من لحم خنزير ، فانه يكون حراما علينا ولو أكله أهل الكتاب .

أما السمك المملح فهو حلال من أى نوع كان : رنجة ، ملوحة ، فسيخ ، بكلاه ، نشوقة ، الى غير ذلك من الأصناف . والله أعلم .

* * *

الحيل لا يقرها الشرع

وجاء الى لجنة الفتوى بالجامع الأزهر الاستفتاء الآتى ملخصه :

رجل طلق زوجته ثلاثا الواحدة بعد الأخرى ، ثم عقد عليها بعد ذلك على مذهب الشافعى طبقا لما افتى به .

وبعد ذلك بمدة قال لها فى يوم من الأيام : اعلمى أنه إن وقع عليك منى يمين طلاق تكونى محرمة ، وإن رددتك تكونى محرمة ، وإن رددتك تكونى محرمة ، وكان يكرر هذا الكلام دائما فى أغلب الأحايين ، وهو يصمم ويجزم بالتنفيذ لو وقع اليمين .

وفى يوم من الأيام قال لها : أنت طالق ، فهل هذا اليمين يحرمها عليه بالنسبة لما سبق أن قاله ؟ وإذا كانت الاجابة بالسلب أى أنها لا تحرم (ولو أنه مصمم أن يفعل) فهل تحرم عليه لو ردها بالنسبة لما قاله (وكان مصمما أن يفعل) ؟ وهل لها رد ، أى لها طريقة شرعية لرجوعها الى زوجها ؟ وما هو طريق ردها ؟

أحمد السيد زيد

الجواب :

يظهر أن هذا المستفتى أفتاه بعض الشافعية بفساد العقد الأول بناء على عدم استيفائه بعض الشروط التى يشترطها الشافعية كعدالة الشهود والولى، ورتب على ذلك أن الطلاق الثالث الذى أوقعه متفرقا لا يلزم لأنه أوقعه على غير الزوجة ، وبذلك أباح له أن يعقد عليها من جديد .

ولكن التصرف فى المسألة على هذا الوجه باطل لا ينطبق على الشرع الشريف ، لأن العقد الأول قد قلد فيه المتعاقدان مذهب الإمام أبى حنيفة كما هو الشأن فى عقود الزواج فى مصر، وهو صحيح على هذا المذهب ؛ وإذن يكون صحيحا محترما فى سائر المذاهب ، وتترتب عليه جميع الآثار الشرعية ، فيكون طلاقه لهذه الزوجة ثلاثا متفرقات واقعا عليها، قاطعا لعصمتها ، وتكون محرمة عليه حتى تنكح زوجا غيره .

وبناء على ذلك تقرر اللجنة أن العقد الجديد لا يرى أحد من الأئمة صحته ، الشافعية وغيرهم فى ذلك سواء ، وتنصح اللجنة جمهرة المسلمين أن يتجنبوا فى دينهم مثل هذه الحيل التى لا تتفق والشرع الشريف ، والتى تجعل أحكام الدين ألعوبة فى يد المحتالين . والله أعلم

محمد عبد اللطيف الفحام

طرف من كلام العارفين

قال على رضى الله عنه : إن العقل لاقامة رسم العبودية ، لا لإدراك الربوبية .

وقال : كل ما يتصور فى الأوهام فالله بخلافه .

وقيل إن رجلا سأله قائلا : هل رأيت ربك ؟ فقال : أفأعبد ما لا أرى ؟ فقال الرجل : كيف تراه ؟ فأجابه : لا تدركه العيون بمشاهدة العيان ، ولكن تدركه القلوب بحقائق الإيمان .

وسئل صوفى عن الدليل على الله تعالى ، فقال : أغنى الصباح عن المصباح .

وعن ابن مسعود وقد رفعه الى النبى صلى الله عليه وسلم : ليس الجماعة بكثرة الناس ، من كان معه الحق فهو الجماعة وإن كان وحده .

وقال سفيان الثورى : الجماعة العالِم ولو على رأس جبل .

وقال أيضا : إذا رأيت رجلا يحب أن يؤَم فأخره .

الكلام والمتكلمون

— ٦ —

المعـــــتزلة

تتمة الحديث عن آرائهم :

أسلفنا فى الفصل السابق الأصول الخمسة التى اتفق عليها المعتزلة وما تفرع منها من مشاكل هامة ؛ أما بعد ذلك فقد اختلفوا فيما بينهم اختـلافات شتى ، بعضها له نصيب كبير أو صغير من القيمة العلمية ، والبعض الآخر قد بلغ من السُّخْف حدا مضحكا .

فمن القسم الأول مثلا قول الفرقة الثمامية : « والعالم فعل الله بطبعه » ، أوقول الـكعبية : « فِعْلُ الرب واقع بغير إرادته » ؛ إذ أن هـذين الرأيين متأثران بالفـكرة الفلسفية القائلة بِعِلِّيَّةِ البارى للعالم دون اختيار منه لوجوده أو لعدمه ، وأن الصدور عن المبدع الأول طبيعة فيه لا يملك هو نفسه تغييرها ولا تصييرها قاحلة ، ولا يستطيع أن يخضع الموجودات لإرادته (تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا) ، لأنها معلولات وجدت علتها كاملة ، فاستحال تخلفها على أى حال .

ونحن لم نعد بعـد فى حاجة الى مناقشة هـذا الرأى ، إذ أننا أسلفنا مناقشته بالبرهـان فى فصول نشرناها فى هذه المجلة حين عرضنا لفلاسفة الاسلام ، فليرجع إليها من شاء .

وكذلك تأثرهذان الرأيان بالفـكرة الإغريقية الأخرى القائلة بأن الفرد يُوَلِّـد الفرد بطبع فيه لا يملك أحد تأخيره . وقـد قال بها أرسطو وألح عليها فى أكثر من موضع من كتبه ، معلنا أن الـكون والفساد متعاقبان على الموجودات تعاقبا آليا متى تحققت شروطه الطبيعية وقع لا محالة . وبهذا كان الوالد علة أساسية للولد . وقد نُقل هذا الرأى ضمن ما نقل من الآراء الفلسفية الى العربية ، فتأثر به المعتزلة وفلاسفة الاسلام . وقد ظهر بوضوح لا يعرف المواربة فى فلسفة ابن رشد حيث جزم بأنه هو وحده الصحيح ، وقرر أن الجوهر السابق هو مانح الوجود للجوهر اللاحق دون احتياج الى واهب صور أجنبى ، أى أن كل كائن يولد شبيهه دون افتقار الى فاعل منفصل ، وذلك لأن الجسم المشتمل على صورة فى موضوع ، يمـكن بوساطة قواه الإيجابية أن يحول المادة الى الحالة التى يجب أن تكون عليها لـكى تتقبل الصورة الجديدة ، وأن يولد الصورة فى هذه المادة المتحولة . وإذاً ، فـكون الموجودات ، هو متعاقب على فساد ما قبلها بطريقة ناموسية لا تتخلف ألبتة .

ومنها أيضا قول النظامية : « إن الله خلق العالم دفعة ، وإنما التقدم والتأخر فى الظهور والـكمون » . وهذا الرأى متأثر كذلك بالفـكرة الإغريقية التى تقول : « إن جميع أشخاص العالم كامنة فى هيولاه ، وإن ظهور هذه الأشخاص ليس إبداعا ، وإنما هو بروز بعد الـكمون أو انتقال من القوة الى الفعل » ، لأن كل جزء من المـادة مشتمل على جميع صور الأشخاص التى يتعاقب بعضها على بعض من هـذا الجزء . ففى قطعة الشمع مثلا : صور المثلث والمربع والمستدير وكل ما يمـكن أن يصنع منها كامنة فيهـا . وإذاً ، فوجود المـادة الأولى يعتـبر وجودا للعالم كله دفعة واحدة مادامت صوره جميعها كامنة فى هذه المـادة .

أما الآراء السخيفة فمنها غير ما أسلفناه فى ترجمة زعماء المعتزلة قول الحـدبية : « إن كل حيوان مكلف » ؛ أو قول الصالحية « بجواز قيام العـلم والقدرة والإرادة والسمع والبصر بالميت » . فهذه كلها آراء ليس لها أية قيمة فى ميدان العلم الصحيح .

وكما اختلفت فرق المعتزلة فى النظريات العلمية ، اختلفت فى الآراء السياسية ، ولـكن هذا البحث لا يعنينا الآن .

الجبرية :

الجبر عند الجمهور : هو نفى الفعل عن الفرد ونسبته الى البارى . وعند المعتزلة : هوعدم استقلال الفرد بالفعل . فعلى مقتضى التعريف الأول تـكون الجبرية هى الفرق التى سلبت الأفعال عن بنى الانسان ونسبتها الى الله ، كالجهمية والنجارية والضرارية . وعلى مقتضى الثانى تـكون جميع الفرق التى لم تقل بحرية الفرد جبرية . ولهذا عد المعتزلة جميع الصفاتية جبرية . وأيّاما كان ، فانه بينما كان المعـتزلة يعلنون أن الفرد يخلق جميع أفعاله الاختيارية ، كانت على الطرف المناقض لهم فرق أخرى تنفى عن الفرد كل اختيـار وفعل ، وتصرح بأنه كالريشة المعلقة فى الهواء تحركه الأقدار كيف شاءت ومتى أرادت دون اختيار منه ، ولا تسند اليه الأفعال إلا على سبيل التجوز ، فلا يقال : فعل فلان كذا إلا كما يقال : أثمرت الشجرة ، وجرى المـاء ، وتحرك الحجر ، وطلعت الشمس وغربت ، وتغيمت السماء وأمطرت ، وأنبتت الأرض وأزهرت . وقد استشهدوا على هـذا الرأى بقول القرآن مثلا : « والله خلقكم وما تعملون » على أن تـكون « ما » مصدرية ويـكون التقـدير : والله خلقكم وعملـكم ؛ وهو جزم بالتسيير وبسلب الإرادة البشرية سلبا تاما ؛ وقوله : « من يشأ الله يضلله ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم » ، « ليس عليك هداهم ولـكن الله يهدى من يشاء » ، « قـل كل من عند الله » ، « إن هى إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدى من تشاء » .

ولا ريب أن جميع هذه الآيات عندهم صريحة فى أن الله هو فاعل كل شىء ، وأن الانسان

ليس إلا آلة مسلوبة الإرادة والفعل ، يُجرى الإله بها ما يشاؤه من أفعال ، كما يجرى الانسان القطع بالسكين والإحراق بالنار دون أن يكون لهاتين الآلتين أدنى تصرف .

ونحن لا ندرى كيف كان هؤلاء القوم يفكرون ، وما معنى التكليف والمسئولية والجزاء عندهم ، بل لماذا هم يحترمون العادل أو الشريف ويحتقرون الظالم أو الوضيع ، مع أنه — لو صح مذهبهم — لما كان للأول فضل فى عدالته وشرفه ، ولا على الثانى ذنب فى ظلمه ووضاعته ، ما دام كلاهما مقهورا على فعله وسلوكه خيرا كان أو شرا ؟ ! ولكن السياسة ، ولحاها الله ، هى أساس الدعاية لهذا الرأى ، لأنه لما قام دعاة العباسيين بشن الغارة على أسلاف الأمويين الذين ساهموا فى قتال أشقائهم من المسلمين إبان الفتنة ، هرع الأمويون الى الارتكان الى القدر المبرم الذى شاء هذا القتال ، وصرحوا بأنه لابد لأولئك المتقاتلين فيما فعلوا ، لأن الأقدار أكرهتهم عليه إكراها . وقد استغل القائلون بهذا الرأى مثيلات الآيات التى أسلفناها هنا . غير أن أنصار الدعاية العباسية قد وقفوا على الطرف المناقض من هذا الرأى ، فزعموا أن الفرد مستقل بفعله كل الاستقلال ، مسئول عنه أدق المسئولية ، كما أبنا ذلك فى مواضعه من الفصول السابقة .

أما فيما عدا هذا الرأى فالجبرية متفقة مع المعتزلة بوجه عام فى أهم مابقى من الآراء ، مثل نفى الصفات ، وإمكان المعرفة بالعقل وحده ، وعدم إمكان رؤية الله فى الحياة الآخرة ، وما شاكل ذلك مما أسلفنا آراء المعتزلة فيه . وأولى فرقهم : الجهمية ، وهم أتباع جهم بن صفوان . وثانيتها النجارية ، وهم أصحاب الحسين بن محمد النجار . وثالثتها الضرارية ، وهم أنصار ضرار بن عمر .

وهم كالمعتزلة من حيث إن كل فرقة زادت على سالفتها بدعا خاصة بها . وهاك نبذة وجيزة عن كل فرقة منها :

جهم بن صفوان :

هو أبو محرز جهم بن صفوان الترمذى أو السمرقندى ، وهو من موالى بنى راسب ، وقد كان صنيعة بنى أمية يدعو الى جبريتهم المغالية ، ويناضل دعاة خصومهم الذين كانوا ينشرون مبدأ حرية الفرد ، كما أشرنا الى ذلك آنفا .

ولما آذن نجم الأمويين بالأفول ، وكان جهم قد انضم الى حارث بن سريج ذى الراية السوداء ، قتله سالم بن أحوز فى سنة ١٢٨ هـ — ٧٤٥ م .

ومن أبرز آرائه بعد المذهب العام ، جحوده أبدية الجنة والنار ، وتصريحه بأنه لا يصح وصف الله بصفة وصفت بها المخلوقات كسميع وبصير ومتكلم ، لأن فى ذلك مشابهة للحوادث ، وانما يصح أن يوصف فقط بأنه قادر ، فاعل ، خالق ، لأن هذه الأوصاف لا تطلق

موجود آخر غيره . ومن هـذه الآراء أيضا إثباته علوما حادثة للبارى يوجد كل منها عند وجود المعلوم . وعلل لذلك الرأى بقوله : لأنه لو علم ثم خلق ، أفيبقى علمه على ما كان أو لا يبقى ؟ فإن بقى فهو جهل ، فان العلم بأن سيوجد غير العلم بان قد وجد . وإن لم يبق فقد تغير والتغير مخلوق وليس بقديم . وإذا ثبت حدوث العلم ، فلا يخلو إما أن يحدث فى ذاته تعالى ، وذلك يؤدى الى التغير فى ذاته ، وأن يكون محلا للحوادث ، وإما أن يحدث فى محل فيكون المحل موصوفا به ، لا البارى تعالى ، فتعين أنه لا محل له ؛ فأثبت علوما حادثة بعدد المعلومات الموجودة (١) .

الحسين بن محمد النجار ـ وقد انقسمت فرقته الى عدة فروع ، منها : البرغوثية ، والزعفرانية ، والمستدركة . ومن أشهر آرائه الخاصة قوله : إن معنى كون الله مريدا أنه غير مكره ولا مغلوب . وتجويزه — بعد نفيه الرؤية — أن يحول الله القوة التى فى القلب الى العين فتدركه بها .

ضرار بن عمرو ، وحفص الفرد — هما منشئا فرقة الضرارية ، قد اتفقا على معنى كون الله عالما وقادرا هو أنه ليس جاهلا ولا عاجزا . ولا ريب أن هـذه هى سلوب الفلاسفة التى وصفوا بها البارى تحرجا من التألف الذى يلازم الصفات الإيجابية .

الصفاتية :

لما كان القرآن والحديث قد وصفا البارى بصفات كالحياة والعلم والإرادة والقدرة والسمع والبصر والعظمة والجود ، وعزوا إليه ألفاظا هى فى اللغة موضوعة للجوارح الانسانية كالوجه والعين واليد والأنامل والقدم وماشا كل ذلك ، فقد اعتقد السلف من المسلمين بالنوع الأول من الصفات ، فقالوا : إنه عالم بصفة العلم ، مريد بصفة الإرادة ، قادر بصفة القدرة . أما النوع الثانى وهو الصفات الخبرية ، فقد انقسموا فيها الى ثلاث فرق ، ذهبت الفرقة الأولى الى وجوب الايمان بها دون البحث فيها ، وقالوا : « إن التنزيل نبأنا بأنه ليس كمثله شىء ، فوثقنا بأنه لايشبهه شىء من الحوادث ولا يشبه شيئا منها ، إلا أننا لا نعرف معنى اللفظ الوارد فيه مثل قوله تعالى : « الرحمن على العرش استوى » ، ومثل قوله : « خلقت بيدى » ، ومثل قوله : « وجاء ربك » الى غير ذلك . ولسنا مكلفين بمعرفة تفسير هذه الآيات وتأويلها ، بل التكليف قد ورد بالاعتقاد بأنه لا شريك له ، وليس كمثله شىء ، وذلك قد أثبتناه يقينا (٢) » .

وأبرز من عبر عن رأيهم تعبيرا واضحا هو الامام مالك بن أنس ، حيث سئل فى معنى قول

(١) انظر صفحة ٩١ من الجزء الأول من « الملل والنحل » للشهرستانى .

(٢) انظر صفحة ٩٦ من الجزء الاول من كتاب الشهرستانى .

القرآن : «الرحمن على العرش استوى» فقال : «الاستواء معلوم ، والكيفية مجهولة ، والايمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة » .

أما الفرقة الثانية فقد رأت تأويل جميع الآيات التى وردت فى الصفات الخبرية .

وأما الفرقة الثالثة فقد جزمت بأخذ جميع الآيات الواردة فى الصفات الخبرية على ظاهرها ، فوقعوا فى التشبيه والتجسيم ، وساروا فيه الى أقصى حدوده ، فزعم بعضهم أن لله جميع الجوارح ماعدا الفرج واللحية . وزعم البعض الآخر أن له شعرا ولحما ودما ، وأن جسمه يزيد عن سطح العرش بمقدار أربعة أصابع من كل جهة ، الى آخر هذا السخف الذى تأباه العقول المتزنة ، بل الفطر السليمة .

وهذه الفرق كلها تسمى بالصفاتية لقولها بوجود الصفات . وقد أطلقت على المعتزلة اسم المعطلة لقولها بنفيها. وقد اعتقدت بالكسب المحدود للفرد فتوسطت بين الطرفين المتعارضين: القائل بالحرية المطلقة ، والقائل بالجبر المطلق ، وأطلقت على نفسها اسم أهل السنة ، ولكن خصومها لم يقروها على احتكارها هذا الاسم دونهم ؟

الدكتور محمد غلاب
أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

العلم العلم

سأل رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أفضل الأعمال ، فقال : العلم بالله ، والفقه فى دينه ؛ وكررهما عليه . فقال الرجل : يا رسول الله أسألك عن العمل فتخبرنى عن العلم . فقال له : إن العلم ينفعك معه قليل العمل ، وإن الجهل لا ينفعك معه كثير العمل .

وقال وهب : ابذل علمك لمن يطلبه ، وادع إليه من لا يطلبه ، وإلا فمثلك مثل من أهدى إليه فاكهة فلم يَطعمها ولم يُطعمها حتى فسدت .

وقال حكيم : قوت الأجسام المطاعم والمشارب ، وقوت العقل الحكمة والعلم .

وقال الزهرى : تعلم سنة خير من عبادة سنتين ، وثمرة الأدب العقل الراجح ، وثمرة العلم العمل الصالح ، وأفضل ما أعطى العبد فى الدنيا الحكمة ، وفى الآخرة الرحمة .

وقال أبو يوسف : مات لى ابن فأمرت رجلا أن يتولى أمر دفنه ، ولم أدع مجلس أبى حنيفة ، خفت أن يفوتنى منه يوم .

نقول: إن هذا هو أعجب مثال للحرص على العلم ، ولكنه ليس بحسن .

في عالم الأدب العربي

الشعوبية وأثرها في الادب العربي

— ٧ —

طويت بسقوط الدولة الأموية صفحة ملئت بالنخوة العربيـة ، وانقرضت عصور كان يشعر فيها العربى بالسيادة المطلقة ، والأنفة التى لا تحد ، وغـدت تلك المظاهر التى لمحناها فى العصر الأموى أحلاما لذيذة ممتعة إذا استعرضها العربى على مخيلته هلل وكبر ، وما إن يفتح ذراعيه لمعانقة ذلك الأمل ، إذا به قـد زوى وذبل ، لما يرى من حقائق واقعة ، وشواهد ملموسة .

فلقـد جاء العباسيون وقامت دولتهم على أكتاف الفرس ، فـكان طبعيا أن تلهج ألسنة العباسيين جهرة بالمدح والثناء ، وتؤمن قلوبهم من الأعماق بأنهم حسنة من حسنات الفرس ، وثمرة من ثمار جهادهم ؛ بذلك يجاهر داود بن على عم المنصور فيقول : « يأهل الـكوفة : إنّا والله مازلنا مظلومين مقهورين على حقنا حتى أتاح الله لنا شيعتنا أهل خراسان ، فأحيا بهم حقنا ، وأفلج بهم حجتنا ، وأظهر بهم دولتنا » .

ويقول أبوجعفر المنصور : « يأهل خراسان : أنتم شيعتنا وأنصارنا ، وأهل دعوتنا » . وحينما حضرته الوفاة أوصى ابنه قائلا : « وأوصيك بأهـل خراسان خيرا ، فانهم أنصارك وشيعتك الذين بذلوا أموالهم فى دولتك ، ودماءهم دونك ، ومن لا تخرج محبتك من قلوبهم ، أن تحسن اليهم ، وتتجاوز عن مسيئهم ، وتـكافئهم على ما كان منهم ، وتخاف من مات منهم فى أهله وولده » .

وكان يقابل ذلك الشعورَ من جانب العباسيين شعورٌ آخر من جانب الفرس ، ولـكنه شعور لا كالشعور السابق ، فلقد تملـكهم الزهو ، وسيطر عليهم فرح الانتصار ، وأحسوا بأنهم بناة ذلك المجد ، ومشيدو أركانه ، وبذلك يعلن أبو مسلم الخراسانى فى إحدى خطبه فيقول : « والله ما اخـترتم من حيث اختار الله لنفسه ساعة قط ، وما زلتم تختارون تيمياً مرة ، وعدويا مرة ، وأمويا مرة ، وأسديا مرة ، وسفيانيا مرة ، ومروانيا مرة ، حتى جاءكم من لا تعرفون اسمه ولا بيته يضربكم بسيفه ، فأعطيتموها عنوة وأنتم صاغرون . . . »

ولم يقف شعور الفرس عند هذا الحد ، بل طمع أبو مسلم فى الخلافة مما أحقد عليه نفس المنصور فقتله ليسلم من شره ، وعند ذلك يقول : « وإن أبا مسلم بايعنا وبايع الناس لنا على أنه من نكث بنا فقد أباح دمه ، ثم نكث بنا ، فحكمنا عليه لأنفسنا حكمه على غيره لنا ، ولم تمنعنا رعاية الحق له من إقامة الحق عليه » .

وكل أولئك لم يزعزع مكانة الفرس من نفوس العباسيين ، بل ما زال شأنهم يعلو صعدا حتى كان لهم ما فاضت به كتب التاريخ مما لا نقصده فى بحثنا . والذى يعنينا هنا أن نقرر فى غير مواربة ولا التواء ، أن المتعصبين على العرب وجدوا تربة خصبة مُمْرِعة الجناب ، فراحوا مسرفين فى الذم والقدح ، دون أن يصادفوا عنابا يقف من غلوائهم ، أو يلقوا عقابا يحد من طغيانهم ؛ فنرى بشار بن برد حامل هذا اللواء ، يطلق لنفسه العنان ما شاء أن يطلق ، ويرفع عقيرته مفاخرا بخراسان طورا ، فيقول :

وهجانى معشر كلهمو حمق ، دام لهم ذلك الحمق
ليس من جرم ولكن غاظهم شرفى العارض قد سد الأفق
من خراسان وبيتى فى الذرا ولدى المسماة فرعى قد سمق

وطورا آخر يفخر بالعجم فيقول :

ونبئت قوما بهم جِنّة يقولون من ذا ؟ وكنت العلم
ألا أيها السائلى جاهدا ليعرفنى ، أنا أنف الكرم
نمتْ فى الكرام بنى عامر فروعى وأصلى قريش العجم

ومن عجب أن يقول هذا أمام المهدى وعلى مسمع منه ، فلا يعاقبه كما فعل هشام بابن يسار ! بل يسأله : « من أى العجم أنت ؟ فيقول : من أكثرها فى الفرسان وأشدها على الأقران ، أهل طخارستان » . وكثيرا ما تبرأ من الولاء العربى ودعا الموالى الى نبذ ولائهم للعرب . فهذا هو صاحب الأغانى يحدّث : « أن رجلا من بنى زيد شريف قال لبشار : يابشار : قد أفسدت علينا موالينا ، تدعوهم الى الانتفاء منّا وترغبهم فى الرجوع الى أصولهم وترك الولاء ، وأنت غير زاكى الفرع ولا معروف الأصل ! فقال بشار : والله لأصلى أكرم من الذهب ، ولفرعى أزكى من عمل الأبرار ، وما فى الأرض كاب يود أن نسبك له بنسبه ! » .

فتلك الجرأة الجريئة التى تشاهدها فى كلام بشار حين يتناول العرب مجرحا ومنقصا ، ويكيل لهم بأوفى مكاييل الذم طاعنا وقادحا ، على مرأى من خلفاء العباسيين وأمرائهم ، دون أن يحرك أحد ساكناً فيضرب على يد الباغى ويأخذ بيد المهضوم كما كان ذلك إبان الحكم الأموى ، كل هذا يأخذ بيد الناظر السطحى حتى يقف على موطن الداء ، ويلمس تهاون العباسيين الذى لم يقف عند هذه التخوم القريبة ، بل تجاوزها فى لجاج الى أعمق وأبعد ! وكأنى بالفلك وقد استدار

دورته ، وراجع صفحة من تاريخه القديم ، تاريخ الجاهلية الأولى فى تلك الفترة التى كانوا يتغنون فيها بمفاخر الأنساب ونقاء الأحساب .

وإن الشواهد على ذلك لأكثر من أن تحصى؛ فذلك هو عبد الله بن طاهر ـ وهو فارسى ـ يفتخر بنسبه فى الفرس ، وبأنهم قتلوا الأمين ، فيقول :

أنا من قد تعرفى نسبى سلفى الغر البهاليل

ويقول : انظر المخلوع كلكله وحواليه المقاويل

فثوى والترب مضجعه غالَ عنه ملكه غول

قاد جيشا نحو نائلة ضاق عنه العرض والطول

من خراسانٍ مُصَمصمهم كليوث ضمها غيل

فانظر كيف يتغنى ابن طاهر بمجده الموروث عن آبائه من الفرس ، والخليفة عربى من بنى هاشم !

ولئن كان من السائغ أن يفتخر إنسان بنفسه وبجنسه حتى يبلغ السماء مجدا وشرفا ، ويطاول الجوزاء أنفة وعزا ، فلا يسوغ له أن يفخر بملء شدقيه بأن قومه قتلوا الأمين وطوّحوا به عن عرش الخلافة ، والمأمون بين الطرب والإعجاب راض عن كل هذا دون أن تأخذه الغيرة لأخيه ! ! وليس هناك من باعث على كل هذا سوى الحرية المطلقة من كل قيد ، وذلك ما أدى بالعباسيين الى تفلت الأمر من يدهم ، وما غبنهم الفارسيون ولكن كانوا أنفسهم يغبنون . ولا عجب فقد وسعت حرية المأمون الشعراء الهاجين الى حد أنه كان يسمع هجوه بنفسه ويصفح ! !

فمن ذلك ما يروى أن دعبلا حين هجاه بقوله :

أيسومنى المأمون خطة عاجز أوَ ما رأى بالأمس رأس محمد

الى أن يقول :

إنى من القوم الذين سيوفهم قتلتْ أخاك وشرفتك بمقعد

شادوا بذكرك بعد طول خموله واستنقذوك من الحضيض الأوهد

لم يزد على أن قال: « قاتل الله دعبلا ، متى كنت خاملا ، وفى حجر الخلافة ولدت ، وبدرها غذيت ، وفى مهدها ربيت » ! !

بذلك وأمثاله أخذ الفرس ، طليقين من كل عقال ، يمعنون فى تنقيص العرب والحط من شأنهم ، فيرد العرب قولهم بمثله ، وربما كان أفظع وأقذع .

من ذلك قول فارسي :

بهاليل غرّ من ذؤابة فارس إذا انتسبوا ، لا من عُرينة أو عُكل
هم راضة الدنيا وسادة أهلها إذا افتخروا ، لا راضة الشاء والإبل

وهكذا تجد ذلك العصر الذي نتحدث عنه مصدر يمن ومنبع خير للأدب العربي ، وإن كان معول هدم للعرب أنفسهم ؛ وذلك ما ستراه فيما بعد ؟

أحمد إبراهيم موسى
تخصص البلاغة والأدب

ملاحظاتنا على هذه المقالة

إننا ننشر هذه المقالة لا لأننا نعتقد بما جاء فيها ، ولكن لنعقب عليها بما لا بد منه ، فإن التشكيك في إخلاص بعض العناصر المكونة للأمة الاسلامية ، يسجل على الاسلام الفشل في تكوينه أمة ائتلافية عالمية ، ويشكك الناس في كل مايجيء عن تلك العناصر المتهمة من دين وفهم ونظر . وماذا أنت قائل إذا علمت أنهم هم الذين تولوا في فجر وجود الاسلام مهمة تأصيل أصوله ، ووضع علومه ، وتفسير كتابه وجمع سنته وتدوين تاريخه ؟

ألا إن المضي في هذه الفتنة الى حدودها المنطقية ، يشن على الاسلام شبهةً يعجز عن شنها عليه خصومه في مدى تاريخه كله ، ويعيد لهذه الأمة النزعة القومية ، وهي ما جاء الاسلام لإزالته ، وبناء رأي جديد في وحدة البشرية على أنقاضه . فهذا الرأي التجديدي العالي الشأن الذي انفرد الاسلام بالدعوة إليه ، وهو في الوقت نفسه من أدل الأدلة على إلهيته ، يحاول المتأدبون اليوم انقيادا لشهوة خيالية أن يحطموه ، وهم لا يعلمون أنهم يحطمون معه أقوى دعامة للاسلام ، يقوم عليها وجوده ، وتبتني عليها صحته ، وتشاد عليها الدعوة إليه في هذا العصر .

لذلك رأينا أن ننشر هذه المقالة ونتبعها بما نراه مزيلا للبس في هذه الناحية ، راجين من وراء ذلك الدفاعَ عن الاسلام نفسه ، الذي وضع لتوحيد النوع البشري أقوم الأصول الاجتماعية ، ونجح في ذلك الى حد أن اعتُبر ذلك منه آية خالدة . فنقول :

تمهيد :

أرسل الله خاتم رسله محمداً صلى الله عليه وسلم للناس كافة ، كما قال : « وما ارسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا » ، فآمن به عرب وفرس وترك وديلم وسودان وحبشان وروم الخ الخ ؛ وكان هذا الأمر انقلابا عالميا ضخما ، لم تكن تحلم به الشعوب ، ظهرت آثاره في الأمم ، فأحدثت فيها انتقالات أدبية واجتماعية غيّرت وجه الأرض من حال الى حال آخر .

وكان من الشعوب التي شاع الاسلام فيها ، الفرس ، وهم قوم كانت لهم قدمة في العلوم

والآداب والسياسة ، فسبقوا غيرهم من الشعوب الاسلامية فى النظر والتفكير ، والبحث والتمحيص ، ونبغ منهم أئمة فسروا الكتاب ، وأقطاب حفظوا سنة الرسول ، وأعلام جمعوا لغة العرب ووضعوا علومها وآدابها ، وبرّز رجال آخرون منهم فى كل مجال من مجالات النشاط العقلى فى كل ما يتصل بالدين والدنيا معا . فلم يشعر سائر المسلمين ومنهم العرب ، وكانوا أشد الناس تمسكا بالنعرة القومية فى جاهليتهم ، بمضض من ذلك ، لأنهم لو كانوا شعروا بذلك لأسقطوا إمامتهم ، وحقروا زعامتهم . ولكن كيف كانوا يسقطون الى هذا الحضيض وقد محا الاسلام من نفوسهم التعويل فى مجتمعهم النموذجى العالمى على الاختلافات الجنسية واللغوية واللونية ؟

ذكر السخاوى فى شرح ألفية الحديث للعراقى أن هشام بن عبد الملك الخليفة الأموى قال للزهرى : « من يسود أهل مكة ؟ قال : عطاء . قال بما سادهم ؟ قال الزهرى : سادهم بالديانة والرواية . قال هشام : نعم من كان ذا ديانة حقت الرياسة له . ثم سأله الخليفة عن اليمن . فقال الزهرى : إمامها طاوس . وكذلك سأل عن مصر والجزيرة وخراسان والبصرة والكوفة ، فأخذ الزهرى يعد له أسماء سادات هذه البلاد ، وكلما سمى له رجلا كان هشام يسأله : هل هو عربى أم مولى ؟ فكان الزهرى يقول : مولى ، الى أن أتى على ذكر النخعى ، فقال إنه عربى . فقال هشام : الآن فرجت عنى ، والله ليسودن الموالى العربَ ويخطب لهم على المنابر » .

ولما حضرت عمرَ الفاروقَ الوفاة ، أوصى أن يصلى بالناس صهيب وهو الذى صلى عليه بعد وفاته ، وكان يريد أن يصلى عليه على وعثمان فمنعهما ابن عمر احتراما لوصاة أبيه ؛ وصهيب هذا أصله رقيق رومى .

كان كل هذا جريا على المبدأ الاسلامى فى عدم جواز التفرقة بين الأجناس .

مضى الصدر الأول على هذا ، والصدر الأول هو الحال النموذجية التى يجب أن يكون عليها المسلمون فى جميع أدوارهم ، باعتبار أن دينهم عام لجميع الأمم ، وأنهم يؤلفون نواة الأمة العالمية التى يجب أن يكون عليها البشر .

ولكن لما انقضى عهد بنى أمية ، وتوطدت أركان الدولة الاسلامية ، وشرع الناس فى اقتباس ما يحفظ الاجتماع من العلوم والفنون والصناعات الضرورية للعمران ، جاء دور الأدب ، والعربية مجال فسيح له ، فكثر عدد الكتاب والشعراء كثرة لم يوجد مثلها لأية أمة . وهؤلاء كما لا يخفى يجرون وراء كل جديد من المعنى يبتكرونه ، وكل طريف من الموضوعات يخلقونه ، فلم يتركوا مجالا يمكن أن يكون موضوعا لشعرهم ونثرهم إلا جالوا فيه . وكان منها موضوع الشعوبية الذى نحن بصدده . وكيف يعقل أن يفلت منهم هذا الموضوع ، وجرثومته كانت لا تزال حية فى النفوس ، لا بين العرب وغيرهم من الشعوب الأجنبية ، بل بين بعض

العرب وبعضهم الآخر ؟ فقد كانوا يتفاضلون بقبائلهم ، وأشعارُهم غاصة بما نقول . فأى مطلع على تاريخ الأدب لايعرف أن العرب كانوا يضعون من باهلة وسلول وغيرها ؟ ألم يقل السمو أل :

وإنا أناس لا نرى القتــل سبة إذا ما رأته عامــر وســلول

أوَ لم يقل جرير :

فغض الطرف إنك من نمــير فــلا كعبا بلغت ولا كلابا

ولم يكن العرب وحدهم على هذا ، ولـكن كانت عليه جميع الشعوب أيضا . فهل يعقل وقد جاء عهد الأدب فى الاسلام أن لا تثار هذه المسألة بين المتأدبين ، وأن لا يتخذها بعضهم مادة لأشعارهم ، وكثير من الوضاعين موضوعا لمفترياتهم ؟ وهل كنت تحب أن تخـلو من هـذه الأقاصيص كتب المحاضرات ، وهى تقمش كل ما تجده بدون نقد ولا تمحيص ، وتملأ منه صحفا لتذيعها طُرَفا للقارئين ؟

ولما نشأت فى مصر للادب دولة فى العهد الأخير ، وجدت من كتب المحاضرات موردا عِدًّا فى هذا الموضوع ، فأخذته بحذافيره ولم تسرْ عليه الأسلوب النقدى التمحيصى ، فوقعت فى حبائل تلك الـكتب ، وزادت ما فيها صقلا بما اكتسبته من ألمعية الأدب الحديث ، فـلم لا يـكون موضوع الشعوبية بابا من أبواب الأدب لدى النابتة التى تستمد من حياض أدبائنا البارزين ؟ المقال الذى نعقب عليه هنا مثال حى لما نقول .

مناقشة المقالة التى نحن بسبيلها :

يقـول الأستاذ الـكاتب : « لقـد طويت بسقوط الدولة الأموية صفحة ملئت بالنخوة العربية ، وانقرضت عصور كان يشعر فيها العربى بالسيادة المطلقة !!! الخ الخ » .

يقول هذا ولا ندرى كيف لم ير أن الدولة الأموية نفسها التى يشيد بذكرها ، لم تكن متأثرة بهـذه النعرة القومية ، فلم يفرق الناس على عهدها بين العربى والأعجمى ، حتى إنهم لم يمنعوا الأعاجم من السيادة الدينية ، وقد بلغت أوجها على عهدها ، كما يتبين لك ذلك مما قدمناه هنا . فهل نحن أكثر منهم فهما لمعنى النخوة العربية ؟

ولست أدرى كيف يسوغ لمسلم أن يلفظ بكلمة (نخوة عربية أو سيادة عربية) ؟ فهل هى شىء غير نعرة القومية الجاهلية التى نهى الاسـلام عن ذكرها ؟ ألم يقل النبى صلى الله عليه وسلم : « قد أذهب الله عنكم نخوة الجاهلية وتفاخرَها بالآباء ، كلـكم من آدم وآدم من تراب ، لا فضل لعربى على أعجمى ، ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى أو بعمل صالح » ؟

وقال الأستاذ الـكاتب : « جاء العباسيون وقامت دولتهم على أكتاف الفرس ، فـكان طبعيا أن تلهج ألسنة العباسيين جهرة بمدحهم والثناء عليهم الخ الخ » ثم استدل على قوله بما فعله

عم المنصور والمنصور نفسه من الإشادة بذكر أهل (خراسان) . فهل غاب عنه أن خراسان ليست إلا إقليما واحدا من أقاليم المملكة الفارسية المترامية الأطراف ، وأن أهلها لا يبلغون عشر الأمة الفارسية ، فكيف ساغ له أن يفهم من ثناء العباسيين على أهل خراسان ، ثناءهم على الفرس قاطبة ؟ وهل كانت خراسان فى نظر أى مسلم من أهل العصر الأول إلا ولاية إسلامية كنجد واليمامة وتهامة الخ ، وإن كان أهلها فارسيين ؟

ومما يدل على أن شيئا مما تخيله من طغيان النزعة القوميـة للفرس لم يحصل ، أن أبا جعفر المنصور قتل أبا مسلم الخراسانى ، وهو أرفع رأس كان فى خراسان ، فلم ينتطح فيها من أجله عنزان ؛ أليس ذلك لأن المسألة لم تكن نزعة عصبية يتبارى فيها العرب والفرس ، ولكنها كانت جامعة إسلامية لا ترى للجنسيات فيها موضعا ، وهى المعجزة الخالدة للاسلام الذى يحاول أن يهدمه بعض أهله اليوم (على غير علم منهم) ولا يستطيعون ؟

ومن عجب أن الأستاذ يستدل بشعر بشار على أنه كان يتنقص العرب فى الحين الذى يستشهد بقوله :

نمت فى الكرام بنى عامر فروعى وأصلى قريش العجم

فهو كما ترى يفتخر بولائه لبنى عامر ، ويصفهم بالكرم ؛ وفى الوقت نفسه ينقل عن الأغانى (ومؤلفها فارسى) أن رجلا قال لبشار : « أفسدت علينا موالينا تدعوهم الى الانتفاء منا الخ وأنت غير زاكى الفرع ، ولا معروف الأصل » ، فقال له بشار : والله لأصلى أكرم من الذهب ، ولفرعى أزكى من عمل الأبرار ، وما فى الأرض كلب يود أن نسبك له بنسبه »

كأن الأستاذ كان يود أن يسب العربى بشارا بقوله : إنه غير زاكى الفرع ، ولا معروف الأصل ، فيقابله بشار بالثناء والشكر ، ليدل بذلك على أنه غير متعصب لجنسه !

على أن بشارا هذا أمر الخليفة المهدى بقتله حين بلغه أنه يميل للزندقة ، فلقى حتفه ، وهو أول من نقل الشعر العربى من سذاجة البداوة ، وأفاض عليه رواء الحضارة .

واستشهد الأستاذ على ما ذهب إليه من طغيان النعرة الفارسية بما قاله عبد الله بن طاهر مباهيا بقومه ، ومتمدحا بأنهم قتلوا الأمين بن الرشيد :

أنا من قد تعرفى نسبى سلفى الغر البهاليل

وقال مفتخرا بقتل الأمين :

فثوى والترب مضجعه غال عنه ملكه غول

فإذا افترضنا أن نسبة هـذا الشعر لعبد الله بن طاهر غير مشكوك فيها ، وأن المأمون

علم بذلك ولم يحرك ساكنا ، وأن دعبلا الشاعر هجاه وافتخر بقومه فلم يكترث له ، وأن فارسيا افتخر بقومه وتنقص العرب بقوله :

هم راضة الدنيا وسادة أهلها إذا افتخروا لا راضة الشاء والابل

إذا افترضنا أن هـذا كله صحيح وليس من وضع الوضاعين ، (وقـد وضعوا آلاف الأحاديث النبوية ، والحكايات الخرافية ، ووضعوا المعلقات ، وزادوا فى اللغة ما ليس فيها) ، أفلا يتجه اللوم فيه الى أمراء المؤمنين أنفسهم ، بل الى الأمة العربيـة بأسرها ، وقد غضت طرفها عنه ، وتركته يتغلغل فى كيانها حتى هدم العرب وأسقطهم ، وأدال للفرس منهم ؟ وهل هو بهذا يريد أن يذم العرب أم يمدحهم ؟

اللهم إن صح هـذا فيكون أول ظـاهرة اجتماعية من نوعها فى تاريخ البشر . ذلك أن تطغى النزعة القومية فى شعب من شعوب أمة ائتلافية كالأمة الاسلامية ، فتتفوق على جميع تلك الشعوب من طريق الخداع وإضمار سوء النية ، لا من طريق فضائلها الذاتية ومميزاتها الشخصية ، ثم يبقى هذا التفوق معترفا به ، ومرضيا عنه ، فى أدوار تاريخها كله الى عهدنا هذا ، حتى يقوم بعض المشتغلين بالأدب منا فينبه اليه ، فلا يأبه بهم أحد ! نعم ، لأنك لو سألت أية جماعة إسلامية فى أية بقعة من الأرض ومن بينهم العرب ، فقلت لهم : من هم سلفكم الصالح الذين حفظوا القرآن والسنة وآراء الصحابة ودونوها وبوبوها وشرحوها ولقنوها للشيوخ والأئمة ؟ لعدوا لك عشرات من الأسماء فى مقدمتهم : الحسن البصرى وسعيد بن المسيب وسعيد ابن جبير وسليمان الأعمش ومحمد بن سيرين ومجاهد وسليمان بن يسار وعطاء وطاوس ويحيى ابن أبى كثير ومكحول وميمون بن مهران والضحاك وزيد بن سالم ومحمد بن المنكدر ونافع وربيعة الرأى وابن أبى الزناد ووُكيع وابن أبى ليلى وسفيان بن عيينة ، الخ الخ ، وكلهم من الفرس أو من شعوب شتى .

هـذا الانحراف الخطير لدى النابتة الأدبية لدينا ، نشأ من خطأ جلل وقع فيه الأديب الكبير الدكتور طه حسين ، ونشره فى كتابه (الشعر الجاهلى) ، فتلقفه طلاب الأدب فى البلاد الشرقية ومضوا فيه قدما لا يلوون على شىء . فقد قال الدكتور المذكور فى كتابه ذلك ما موجزه بألفاظه :

« لم يكد ينتصف القرن الأول للهجرة حتى كان فريق من سبى الفرس قد استعرب وأتقن اللغة ، واستوطن الأقطار العربية ، فأخذ هـذا الشباب الفارسى الناشىء يتكلم لغة العرب ويحاول نظم الشعر ، وتجاوز هذا الى مشاركة العرب فى أغراضهم الأدبية والسياسية ، ولم يكن هؤلاء الموالى مخلصين للعرب حقا ، وإنما كانوا يستغلون هـذه الخصومات السياسية ليعيشوا وليحيوا حياة السادة الأحرار ، ثم ليشفوا ما فى صدورهم من غل ضـد العرب .

ولعلك تلاحظ أن الكثرة المطلقة من العلماء كانوا من العجم الموالى ، وكانوا يستظلون بسلطان الوزراء من الفرس أيضا ، وكانت غايتهم قد استحالت من إثبات سابقة الفرس فى الملك الى ترويج هذا السلطان الذى اكتسبوه أيام بنى العباس ، وإقامة الأدلة على أن الأمر قد رد الى أهله ، وأن العرب الذين حيل بينهم وبين السيادة الفعلية لم يكونوا أهلا لتلك السيادة . الخ » .

نقول :

الذى يستخلص من هذا الكلام أن هؤلاء الموالى قد عمتهم روح الشر ، فلم يكونوا مخلصين فى عملهم ، فهبوا ينظمون الشعر ويتدخلون فى السياسة ، ويطلبون العلم ليستعيدوا ما كان لقومهم من سيادة على العرب ، وليشفوا ما فى صدورهم من غل عليهم ، وقد نجحوا فى ذلك بممالأة الوزراء لهم ، وكان جلهم من بنى جلدتهم .

هذا كلام فى نظرنا بعيد عن التحقيق ؛ فانك رأيت أن هؤلاء الموالى نالوا السيادة العلمية على عهد بنى أمية ، ولم يكن إذ ذاك وزراء من الفرس يؤيدونهم ، بل كان الأمر كله بيد العرب ، ولم يشعر العرب أنفسهم ، وهم أهل ذكاء وفطنة ، أن هؤلاء الائمة الأعلام من الفرس الذين توزعوا سيادة الأقطار فى العلم كانوا يضمرون السوء لهم . ويبعد عن العقل أن أمة برمتها فى يدها الحكم تغبّى عن نية شر تضمرها لهم فئة فتخولهم قيادتها العلمية ، وسيادتها الدينية ؛ كما يبعد عن العقل أن تجمع هذه الفئة على هذه النية الفاجرة ولا يفتضح أمرها لهذه الأمة فى الأجيال المتعاقبة ، فتَبقى على احترامها لهم ، و تبقى على اعتبار أفرادها أئمة لها فى الدين الى هذا العهد ، حتى يقوم منا أديب بعد مضى ثلاثة عشر قرنا فيكشف عن دخيلة أمرهم ، فلم يكترث بما كشفه أحد ، ويمضى الناس فى احترامهم الى أبعد حد !

اذا فاز أدباؤنا المعاصرون بترسيخ هذا الخيال فى العقول ، فبأى عين ينظر الناس الى علومنا الدينية وجل وَضَعتها ومؤلفيها من الأعاجم؟ فهم الكثرة الساحقة للفقهاء والمفسرين والمحدثين والأصوليين والمتكلمين ، وكتبهم عليها التعويل فى جميع معاهد العلوم الدينية فى العالم كله ، فى التدريس والتحقيق والفتوى الى يومنا هذا ؟

وإذا عرفت أن العالم كله فى العصر الراهن اعترف بعظم شأن النهضة الدينية والعلمية والأدبية للمسلمين الأولين ، واعتبروها من الانتقالات الجديرة بالاجلال والاكبار ، فهل كانت هذه النهضة فى جلالها وعظمتها قائمة على هذا الأساس المتداعى من الضمائر التى دنستها السخائم ، والقلوب التى أفسدتها الأحقاد ؟ !

اللهم إن هذا لا يستقيم لعاقل ، ولا يمكن أن يعتبر رأيا جديرا بالاحترام . فلنقلع عن هذه الخيالات إن كان بنا الى سمعتنا العلمية والعقلية حاجة !

محمد فريد وجدى

نظرات فى الادب العربى

جاهليه و إسلاميه

— ٥ —

الأدب العصرى

لسنا هنا بصدد تفصيل القول ، واستقراء مناحيه ، فى أنواع الأدب ، وحظ كل نوع منه من النهوض ، وقسطه من الضعف ، فموضع ذلك معاهد التعليم ، وحجرات الدرس ؛ إنما هى نظرات يسودها الإجمال ، وتغلب فيها الأحكام العامة ، ليخف تتبعها ، ويسهل تناولها على قراء المجلات ، وسوادُهم الأغلب ليس من همه فلسفة التعليل ، والتعمق فى استقراء الأسباب ، والتدقيق فى إفضائها الى المسببات ، إلا على حال تغنى فيها غلبة الظن ، عن نشدان اليقين ؛ إن صح أن فى القضايا الأدبية يقينيات ينقطع عندها حبل الشك ، ويتم بإيرادها إيمان الباحثين . على أننا على استعداد لأن نجاذب من ينازعنا الحديث أطراف البحث فيه ، حتى ننتهى الى حد يحسن السكوت عليه ؛ فالطمأنينة العلمية ، والرجوع الى الحق ، وتحكيم الحجة ، دستور غير مكتوب ، ليس لمن خرج عليه رأى محترم ، ولا مذهب منتهج ، فى شريعة العلماء ، وأصحاب الفنون .

فى غضون ما أسلفنا من فصول هـذه النظرات ، أن التزام عمود الشعر العربى الجاهلى والاسلامى ، شرط أساسى فى تقويم الشعر ، واعتباره فى نظر الناقدين ؛ وأن الشعر مع ذلك خاضع لناموس التجديد ، يجود ويسمو كلما استطاع المواءمة ، بين الصور القديمة ، والصور الحديثة ، وإلباس المعانى المتجددة ، مطارف الأساليب العربية القُشب ، التى لا تُخلق على تطاول الأيام ، ولا تبلى على قدم الدهر ؛ بل :

يزيدها قـدم الليالى جـدة ... وتطاول الأيام حسن شباب

ويسقط ويسف ، كلما جد على القديم ، وبدا فى ثياب من أكفان الموتى ، وكلما تعرى من ثيابه التقليدية جملة ، وخطر فى زى « كرنفالى » غريب عما ألف ، بعيد عما عرف .

ولا شك أن المرحوم محمود سامى البارودى باشا ، يعتبر بحق مؤسس دولة الشعر فى العصر الحاضر ، اليه انتهى العهد التقليدى البحت ، وبه ابتدأ العهد الذهبى للشعر العصرى ، فلا عجب إذا غلبت على شعره النزعة التقليدية ، وكادت تستبد به مجاراة السلف الكريم من الشعراء ، فانه من عِشاشهم درج ، وفى مدارسهم تخرج ، وما الحب إلا للحبيب الأول . بيد أنه قـد

انتقل بالشعر من المجال الضيق المحدود فى الأساليب والمعانى والأغراض ، الى أفق أرحب ، وجو أفسح ، وفيض غير محدود من جزالة الألفاظ ، ونخامة المعانى ، واتساع الأغراض ، وطول النفس ، مما كاد به يبذ فحول السابقين ، ويخمل فحول اللاحقين ؛ وما قرأت مطلع قصيدته فى رثاء أبيه :

لا فارس اليوم يحمى سرحة الوادى طاح الردى بشهاب الحرب والنادى

إلا ذكرت به مطلع قصيدة الشريف الرضى فى رثاء أبيه :

منابت العشب ، لا حام ، ولا راع مضى الردى بطويل الرمح والباع

ولا قرأت حماسته ، وذكر مواقفه الحربية ، إلا تخيلت أبا فراس الحمدانى يتكلم .

ولو نزع غلاف ديوانه ، وعناوين قصائده ، لرده قارئه الى العصور الذهبية للشعر العربى . وعلى الجملة لقد كان البارودى رحمة الله عليه ، عباسيا بشعره ، عصريا بزمنه .

***

عاصر البارودىّ شعراءُ أعلام ، رفعوا لواء الشعر خفاقا ، وتبوءوا من منازله عروشا مُشْرِفة منيفة ، بوأتهم إياها ثقافتهم التى جمعت بين القديم والجديد ، فأتوا بالمطرب المرقص من أفانين البيان ؛ وكان أبرز هؤلاء ، المرحوم اسماعيل صبرى باشا ، فقد تلقى علومه فى فَرَنسَة ، وكان لذلك الأثرُ البارزُ فى شعره : معانيه وأساليبه وأخيلته ؛ ثم فى توجيهه ، إذ جعله جميعا من النوع الرقيق المشاكل لتلك العاطفة الناعمة ، والحاشية اللينة ؛ والذى لا يصلح أحيانا لأنواع من الشعر ؛ وأكبر الظن أن ذلك كان السبب الأول فى عَدّه من الشعراء المقلين ؛ وإن كان على إقلاله من المبدعين ، وفى الصدر من المجددين .

ثم جاء شوقى فملأ الدنيا ، وشغل الناس ، كما ذهب القول فى المتنبى ؛ وكان — بحق — أمير الشعراء ، إذ ضرب بالسهم الأوفر فى كل فن من فنون الشعر ، وقطع ، وقصّد ، ورَجز ؛ فهو الشاعر الكامل فى نظر النقاد ؛ وهو فى كل أولئك ، يبلغ من الإجادة فوق الإرادة . وأقسم ما قرأت من قصيدته النبوية ، التى مطلعها :

به سحرٌ يُتَيِّمهُ كِلا جفنيك يعلمُهُ
هما كادا لمهجته ومنك الكيد مُعْظَمُه

قوله :

بروحى البانُ يوم رَنَا عن المقدور أعْصَمُه
ويوم طُعِنْتُ من غُصن مُعَلَّمُه مُنَعَّمُه

قَضَاءُ الله نظرته ولُطفُ الله مَبسِمُه
رمى ، فاستهدفت كبدى بى الرامى ، وأسْهُمُه !
له من أضلعى قاعٌ ومن عجب يسلِّمُه
ومن قلبى وحبَّتِه كِناسٌ بات يهدمُه
غزال فى يديه التِّيـــهُ ، بين الناس يقسمُه
كأنّ أباه مَرَّ بأحـــمد الهادى يكلمه

إلا قلت : هذا ما أرادت الشعراء أن تقوله فأخطأته ، وبكت الديار ، ووقفت على الأطلال ، وهو الفُسْتقُ المقشَّر الذى لا يشبع منه ؛ لا شعر عمر بن أبى ربيعة ، كما قال الأولان .

هذا مثل من رقيق شعره ؛ فاقرأ بعد ذلك من قصيدته : « الحرية الحمراء » ، لترى مثلا من الجزالة والفخامة ، يملؤك روعة ، ويبهرك جلالا ؛ وتعرف من هذا وذاك ، ومن غير هذا وذاك ، أنك أمام شاعر ، يستطيع إذا شاء أن يسمعك غرد البلابل ، وقصف الرعود ، ويريك نسج الربيع فى مطارف الروض النضير ، ومواقع القنا والسيوف فى الأعناق والنحور .

وجرى فى حلبة هؤلاء الفرسان الثلاثة ، مصلّون كانوا يجاذبونهم هُدب الإجادة ، ويجارونهم فى ميادين الإبداع والإحسان ؛ أدركناهم ، وقد ملئوا الوادى السعيد غردا وسحرا ، يسمى شعرا ؛ وكان لهم فى مطلع كل موسم جولة ، وفى كل حادث صولة ؛ وكانت دولة الشعر بهم قائمة السوق ، وسوقه بهم دائمة النفوق .

لما تصاعدت دراكا هذه البدور اللوامع الى سماء الآخرة ؛ استيقظ فى نفوسنا الأمل فى أن البقية الباقية من الشعراء الأحياء فى مصر ، وهم بحمد الله كثيرون ، سيملئون الثغور التى خلت فى دولة الشعر ، وأن هذه الكواكب المتلألئة ستُبدر فى آفاقه ، التى خلاّها بدورُها ، وأن أولياء الشعر سينشدون فاخرين :

بدور سماء ، كلما انقضّ كوكب بدا كوكب تأوى إليه كواكبه

ولكننى أخشى أن أقرر أن شواهد الحال الى اليوم ، لا تعين على تحقق هذا الأمل ، إلا فى شكل مصغر ؛ فلقد فتر الشعر فتورا يشبه الجمود ، ولم ينشط منه إلا النوع الغنائى ، الذى هو من قبيل الموشحات والأزجال فى أغلب الأحوال ، والذى لا يعد من الشعر إلا على ضرب من التساهل ؛ بل لقد نُظمت أخيرا مسابقة ، فاز فيها وشّاح واحد ، بجانب ثلاثة من الزجالين . ولقد زلزلت الأرض زلزالها ، وأخرجت الأرض أثقالها ، وقال الإنسان مالها ؟ بهذه الحرب الضروس ، فلم نقرأ فيها من الشعر ، إلا هذه المنظومات المهلهلة التى تطلع بها علينا الصفحات الأدبية من الصحف اليومية ، وغثاثتها وضعفها مما يسىء الى الشعر ، أكثر مما يحسن

إليه . وليس معنى هذا أنه ليس فى مصر شعراء ، كلا ، فالشعراء المجوّدون فى مصر كثيرون ، سأعرض لبعضهم فيما يلى إن شاء الله ؛ غير أن الظاهرة العجيبة ، أن هؤلاء الشعراء قد أحبلوا ؛ واكتفى أكثرهم من الاتصال بالشعر ، بأن يعيد نشر ما سبق إنشاؤه ونشره فى المدة التى كانت مزدهرة بالشعراء الراحلين ؛ ولولا ما لهم من المكانة السامية فى نفسى لذكرت أسماءهم ، وعناوين قصائدهم ؛ ولكننى أدع ذلك لوجه الأدب ، وأستخدمه سلاحا فى مضايقتهم عند اللزوم .

أما تعليل هذا الفتور ، وبسط ما يترجح عندى من أسبابه ، فموعده الحديث الآتى ، فلقد طال بنا هذا الحديث ؟

كلية اللغة العربية **عبد الجواد رمضان**

كلمات حول الجود

قال على كرم الله وجهه : السخاء ما كان ابتداء ، فأما ما كان عن مسألة فحياء .

وقال ابن عباس رضى الله عنهما لابن أخيه : أفضل العطية ما أعطيت الرجل قبل المسألة ، فإذا سألك فإنما تعطيه ثمن وجهه حين بذله لك .

قال شاعر فى هذا المعنى :

ما اعتاض باذل وجهه بسؤاله عوضا وإن نال الغنى بسؤال
فإذا السؤال مع النوال وزنته رجح السؤال وخف كل نوال

وقال غيره :

ما ماء كفك إن جادت وإن بخلت من ماء وجهى إذا أفنيته عوضا

وقيل موجزا : أجل النوال ، ما وصل قبل السؤال .

وقيل : أولى الناس بالنوال ، أزهدهم فى السؤال .

ومما نسب الى على كرم الله وجهه من الشعر ولا نظن أنه له :

سأمنح مالى كل من جاء طالبا وأجعله وقفا على القرض والفرض
فإما كريم صنت بالمال عرضه وإما لئيم صنت عن لومه عرضى

فى عجز البيت الأخير نظر ، فإن الرضوخ للؤماء قد أوجد فى الشرق طائفة تتجر بالهجاء ، وقد استهتروا فيما هم فيه حتى فرضوا على الناس الأتاوات ، فهؤلاء يحرم إعطاؤهم ليقلعوا عما هم فيه ، وإلا اعتبر معطوهم شركاء لهم فى إفساد المجتمع .

حياة رجالات الاسلام

عبد الله بن الزبير

أمة من البطولة فى إهاب رجل ، وعبقرية موروثة ، ونفس طموح ، وروح وثاب ، وهمة دون غايتها مناط الجوزاء ، أحوج ما يكون شباب الاسلام فى عصرنا الحاضر الى التأسى به فى عصاميته التى جعلت منه شخصية نافست دولة استقام لها الملك على أطراف الأسنة وشبا الصوارم ، ولكنها عوامل التربية الاسلامية ، لا يستعصى عليها إعداد الأبطال وقادة الأمم إذا أخذت بزمامها يد صالحة ، واستقيت من منابعها الفياضة بالحياة الزاخرة بحوافز النفوس ودفعها الى الحرص على الموت لتوهب لها الحياة ، بل هى مدرسة المرأة المسلمة فى بيتها إذا أخذت بقيادها امرأة كأسماء بنت أبى بكر الصديق والدة عبد الله بن الزبير ، فإذا هى مصنع الرجولة فى أكمل معانيها وأسمى مبانيها .

فى صحيح البخارى أن ابن عباس وصف عبد الله بن الزبير فقال : « عفيف الاسلام ، قارئ القرآن ، أبوه حوارى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأمه بنت الصديق ، وجدته صفية بنت عبد المطلب عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعمة أبيه خديجة بنت خويلد » . فهو قد أخذ بأطراف المجد والسيادة فى حسبه ، وشرف بأعظم الفضائل فى نسبه ، وزكت نفسه فاستشرف الى أريكة الإمامة العظمى حتى إذا كان منها إجماعية قاب قوسين أو أدنى ، غلب القضاء ، وبلغ الكتاب أجله ، ولقى أبوخبيب ربه شهيدا مجاهدا فى سبيل الحق والعدل ، فكان مثلا مضروبا للعزة الاسلامية ، والبطولة العربية .

ولد عبد الله بن الزبير حين شب الاسلام واستقامت قناته ، وقويت شوكته ، وأخذ يناضل الوثنية بالسيف ، ويخوض فى سبيل الحق غمرات الموت بجنده الغر البهاليل ، فكان أول ما تفتحت حواس عبد الله أن شهدت مواقع العزة والنضال ، وسمع أول ما سمع أنباء غزوات الاسلام واستبسال أبطال الاسلام ، وفى طليعتهم أبوه الزبير بن العوام . روى البخارى فى صحيحه عن عبد الله بن الزبير رضى الله عنهما قال : « كنت يوم الأحزاب جعلت أنا وعمر ابن أبى سلمة فى النساء ، فنظرت فإذا أنا بالزبير على فرسه يختلف الى بنى قريظة مرتين أو ثلاثا ، فلما رجعت قلت : يا أبت رأيتك تختلف ، قال : أو هل رأيتنى يا بنى ؟ قلت : نعم ، قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من يأت بنى قريظة فيأتينى بخبرهم ؟ فانطلقت فلما رجعت جمع لى رسول الله صلى الله عليه وسلم أبويه ، فقال : فداك أبى وأمى » .

رأى ذلك عبد الله ورأى غيره ، وسنه لم تعد الخامسة ، فكان كل أولئك مخضا لحياته منذ تنفس فى المهد . يحدثنا الثقات من كتاب السيرة أن أسماء بنت أبى بكر الصديق رضى الله عنهما حملت بعبد الله بن الزبير بمكة ، قالت : نخرجت وأنا متم فأتيت المدينة ونزلت بقباء ، فولدته بقباء ، ثم أتيت به رسول الله صلى الله عليه وسلم فوضعته فى حجره ، ثم دعا بتمرة فمضغها ، ثم تفل فى فيه ، فكان أول شىء دخل فى جوفه ريق النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم حنكه بالتمرة ودعا له وبرّك عليه ، وكان أول مولود ولد فى الاسلام للمهاجرين بالمدينة » . قال أبو عمر بن عبد البر فى كتاب الاستيعاب : « وقد فرح المسلمون بمولده فرحا شديداً ، وكبروا حينما بشروا به ، لأن اليهود قالت : قد أخذناهم (سحرناهم) فلا يولد لهم بالمدينة ولد » .

ولم يكد عبد الله يبلغ سن الترغيب فى تعوّد العبادة والخير طفلا يلعب مع لداته ، حتى أمره أبوه الزبير أن يذهب ليبايع رسول الله صلى الله عليه وسلم رجاء بركته له ، فلما رآه النبى صلى الله عليه وسلم تبسم له وبايعه وهو ابن سبع سنين . وكان عبد الله منذ نشأته جريئا شجاعا مقداما ، لا يهاب ولا يفزع . روى أن النبى صلى الله عليه وسلم كلَّمَ فى غلمة من قريش ترعرعوا : عبد الله بن جعفر ، وعبد الله بن الزبير ، وعمر بن أبى سلمة ، فقيل : لو بايعتهم فتصيبهم بركتك ويكون لهم ذكر ! فأتى بهم إليه ، وكأنهم تكعكعوا ، فاقتحم عبد الله ابن الزبير أولهم ، فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : « إنه ابن أبيه » ! وكان أبوه كما أسلفنا من أشجع وأجرأ أبطال الاسلام ، وهذا سر قول النبى صلى الله عليه وسلم : « إنه ابن أبيه »

وروى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان يمر فى إحدى سكك المدينة ، وأطفال فيهم عبد الله بن الزبير يلعبون ، فلما رأوا عمر تفرقوا سوى ابن الزبير فانه بقى فى مكانه لا يريم ، فقال له عمر : لِمَ لَمْ تذهب كما ذهب أترابك ؟ فقال عبد الله : لم يكن الطريق ضيقا فأوسع لك يا أمير المؤمنين ، ولم أكن مذنبا فأخافك ! ! وهكذا نرى شخصية عبد الله وهو فى غرار الصبا وكن الطفولة قوية متينة ، نراه شديد المراس ، قوى الشكيمة ، لا يستخذى ولا يلين ، ولا يسمع لغير صوت ضميره ، ولا يبالى أوقع على الموت ، أم وقع الموت عليه ، يبغض أشد البغض حياة الجمود والاستسلام ؛ وقد نبأه النبى صلى الله عليه وسلم بشأنه فى كلمة جامعة : روى أبو يعلى والبيهقى « أن عبد الله بن الزبير حدّث ابنه عامرا ، أنه أتى النبى صلى الله عليه وسلم وهو يحتجم ، فلما فرغ قال : يا عبد الله اذهب بهذا الدم فاهرقه حيث لا يراك أحد ؛ فلما برز عن رسول الله صلى الله عليه وسلم عمد الى الدم فشربه ، فلما رجع قال له النبى صلى الله عليه وسلم : يا عبد الله ما صنعت بالدم ؟ قال : جعلته فى أخفى مكان علمت أنه يخفى على الناس ؛

قال : لعلك شربته ؟ قال : نعم ، قال : ولم شربت الدم ؟ ويل للناس منك ، وويل لك من الناس ! لا تمسك النار إلا تحلة القسم . قال بعض التابعين : فكانوا يرون أن القوة التي به من ذلك الدم » .

توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم تجاوز سن عبد الله بن الزبير التاسعة ، كما صرح به الإمام الشافعى فى الرسالة ؛ وتولى جده لأمه أبو بكر الصديق الخلافة ، وتوقف بنو هاشم أول الأمر عن بيعته لما كانوا يرون من حقهم فيها ، وانحاز اليهم فى ذلك أبو عبد الله الزبير ابن العوام لمكان أمه صفية بنت عبد المطلب من الدوحة الهاشمية . وذكر الرواة أن عمر بن الخطاب ذهب اليهم فى عصابة من الأنصار فيهم أسيد بن حضير وسلمة بن أشيم ، فقالوا لهم : انطلقوا فبايعوا أبا بكر ، فأبوا ، فخرج الزبير بالسيف ، فقال عمر : عليكم بالرجل فخذوه ، فوثب اليه سلمة بن أشيم فأخذ السيف من يده وانطلقوا به ، فبايع ، ثم بايع بنو هاشم .

لم تسمح سن عبد الله فى هذا الوقت بتكييف موقفه من خلافة جده الصديق وموقف أبيه منها ، ولم يكن الزبير ليحطب فى حبل الهاشميين بانحيازه اليهم ، ولكنه كان يطلب المجد لنفسه متربصا به سوانح النُّهَز حتى أتيحت له فى رهط الشورى أولاً ، وفى خلافة عثمان ثانياً ، وفى هذه المرة تجلت نفسه واضحة ؛ فقد روى البخارى فى صحيحه «أن عثمان بن عفان أصابه رعاف شديد سنة الرعاف حتى حبسه عن الحج ، وأوصى فدخل عليه رجل من قريش ، قال : استخلف ، قال : وقالوه ؟ قال : نعم ، قال : ومَن ؟ فسكت ، فدخل عليه رجل آخر فقال : استخلف ، فقال عثمان : وقالوا ؟ فقال : نعم ، قال : ومن هو ؟ فسكت ، فقال : فلعلهم قالوا الزبير ؟ قال : نعم ، قال : أما والذى نفسى بيده إنه لخيرهم ما علمت ، وإن كان لأحبهم الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ! » . ويظهر أن غلبة الهاشميين على الزبير فى المرة الأولى وقلة أنصاره ، وقرب العهد ، جعلته يكل أمره الى على بن أبى طالب ولم يطلب لنفسه شيئا ، فلما بلغ عبد الله أشده واستوت رجولته ، وتكيفت مطامحه ، لم يزل بأبيه حتى جعله يبين عن ذات نفسه ، ويقف موقفا صريحا يباعد بينه وبين أخواله من الهاشميين ؛ وفى ذلك يقول على بن أبى طالب : مازال الزبير يُعدّ منا أهلَ البيت حتى نشأ عبد الله .

ظلت مخايل النبل والشجاعة فى عبد الله بن الزبير تبدو قوية قاهرة ، فى بطولته ، وإقدامه وفصاحته ؛ يشهد بها مواقع النصر للاسلام جنديا صادق اللقاء ، عظيم الإيمان ، ثابت الجنان ؛ اجتمع مع أبيه فى وقعة اليرموك ، وشهد فتح إفريقية ، وكان البشيرَ بالفتح الى عثمان رضى الله عنه ، وكانت هذه البشارة فتحا جديدا فى حياة عبد الله ، كشفت بها العناية الإلهية عن فضائل اشتملت عليها نفس عبد الله ، هى عدة الأبطال فى غمرات الحياة . روى ابن عبد ربه فى كتاب العقد الفريد قال : قدم عبد الله بن الزبير على عثمان بن عفان بفتح إفريقية ، فأخبره مشافهة ، وقص عليه كيف كانت الواقعة ، فأعجب عثمان ما سمع ، فقال له : يا بنى أتقوم بمثل هذا الكلام على الناس ؟ فقال : يا أمير المؤمنين إنى أهيَب لك منى لهم ! فقام عثمان فى الناس خطيبا فحمد الله

وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس : إن الله قد فتح عليكم إفريقية ، وهذا عبد الله بن الزبير يخبركم خبرها إن شاء الله . وكان عبد الله بن الزبير الى جانب المنبر ، فقام خطيبا ، وكان أول من خطب الى جانب المنبر ، فقال : « الحمد لله الذى ألّف بين قلوبنا ، وجعلنا متحابين بعد البغضة ، الذى لا تجحد نعماؤه ، ولا يزول ملكه ، له الحمد كما حمد نفسه وكما هو أهله ، انتخب محمدا صلى الله عليه وسلم فاختاره بعلمه ، وائتمنه على وحيه ، واختار له من الناس أعوانا ، قذف فى قلوبهم تصديقه ومحبته ، فآمنوا به ، وعزروه ، ووقروه ، وجاهدوا فى الله حق جهاده ، فاستشهد الله منهم من استشهد على المنهاج الواضح ، والبيع الرابح ، وبقى منهم من بقى لا تأخذهم فى الله لومة لائم . أيها الناس : رحمكم الله ، إنا خرجنا للوجه الذى علمتم ، فكنا مع والٍ حافظ ، حفظ وصية أمير المؤمنين ، وكان يسير بنا الأبردين ، ويخفض بنا فى الظهائر ، ويتخذ الليل جملا ، يعجل الرحلة من المنزل الجدب ، ويطيل اللبث فى المنزل الخصب ، فلم نزل على أحسن حالة نعرفها من ربنا حتى انتهينا الى إفريقية ، فنزلنا منها حيث يسمعون صهيل الخيل ورغاء الابل وقعقعة السلاح ، فأقمنا أياما نجم كراعنا ، ونصلح سلاحنا ، ثم دعوناهم الى الإسلام والدخول فيه ، فأبعدوا منه ، وسألناهم الجزية عن صغار أو الصلح ، فكانت هذه أبعد ، فأقمنا عليهم ثلاث عشرة ليلة نتأتاهم وتختلف رسلنا إليهم ، فلما يئس منهم قام خطيبنا فحمد الله وأثنى عليه ، وذكر فضل الجهاد وما لصاحبه إذا صبر واحتسب ، ثم نهضنا الى عدونا وقاتلناهم أشد القتال يومنا ذلك ، وصبر فيه الفريقان ، فكانت بيننا وبينهم قتلى كثيرة ، واستشهد الله فيهم رجالا من المسلمين ، فبتنا وباتوا ، وللمسلمين دوى بالقرآن كدوى النحل ، وبات المشركون فى خمورهم وملاعبهم ، فلما أصبحنا أخذنا مصافنا التى كنا عليها بالأمس ، فزحف بعضنا على بعض ، فأفرغ الله علينا صبره ، وأنزل علينا نصره ، ففتحناها من آخر النهار ، فأصبنا غنائم كثيرة ، وفيئا واسعا ، بلغ فيه الخمس خمسمائة ألف ، فصفق عليها مروان بن الحكم ، فتركت المسلمين قد قرت أعينهم ، وأغناهم النفل ، وأنا رسولهم الى أمير المؤمنين ، أبشره وإياكم بما فتح الله من البلاد ، وأذل من الشرك ، فاحمدوا الله عباد الله على آلائه ، وما أحل بأعدائه من بأسه الذى لا يرد عن القوم المجرمين »

ثم سكت ، فنهض أبوه الزبير فقبله بين عينيه وقال : ذرية بعضها من بعض ، والله سميع عليم ، يا بنى مازلت تنطق بلسان أبى بكر حتى صمت ! ؟

صادق ابراهيم عرجون

التجديد والمجددون فى الاسلام

من القرن الأول الهجرى الى عصرنا الحاضر

الامام الأعظم أبو حنيفة

دراسات فى حياته الأوليـة والعلمية

١ — بماذا اشتغل فى أول أمره ؟

اشتغل الامام أبو حنيفة فى أول أمره تاجرا ، فكان خزازا يشترى ثياب الخز ويبيعها ، وكان له وكلاء يرسلهم الى الجهات لشراء ثياب الخز وبيعها ، وكان ماهرا فى التجارة مسعودا فيها ، وعنده رأس مال كبير . أما سيرته فى التجارة فكانت قائمة على الأمانة والصدق وحسن المعاملة .

وما زال أبو حنيفة يختلف الى السوق للبيع والشراء ، حتى قيض الله تعالى له الامام الشعبى فأرشده الى طلب العلم ، ومجالسة العلماء ، لما رآه من كامل استعداده ووفور عقله ، وفرط ذكائه ونجابته ، وشدة يقظته ، وحسن أخلاقه . ولقد أشار الامام أبو حنيفة نفسه الى شيء من هـذا فقال : مررت يوما على الشعبى وهـو جالس ، فدعانى وقال لى : الى من تختلف ؟ فقلت : الى السوق . فقال : لم أعن الاختلاف الى السوق ، عنيت الاختلاف الى العلماء . فقلت : أنا قليل الاختلاف اليهم . فقال لى : لا تفعل ، وعليك بالنظر فى العلم ومجالسة العلماء ، فإنى أرى فيك فطنة وحركة ويقظة . فوقع فى قلبى كلامه ، وهز نى الى طلب العلم ، فتركت الاختلاف الى السوق واشتغلت بالعلم ، فنفعنى الله تعالى بقوله .

٢ — كيف تعلم أبو حنيفة ؟

ولقد كان من ثمرات إرشاد الشعبى أبا حنيفة ، أن شرع فى طلب العلم ، فأخذ ينظر فى علم الـكلام ، لأنه كان يعده من أفضل العلوم لـكونه فى أصل الدين ، حتى بلغ فيه الغاية ، وصار فيه وفى طرائق الجدل رأسا يشار اليه فيهما بالبنان ؛ ولهذا دخل البصرة نيفا وعشرين مرة لمجادلة طبقات الخوارج والحشوية وأهل الأهواء وأرباب الخصومات والجـدل ، وكان أكثر فرقهم بها ، وكان يمكث فى كل مرة من هـذه المرات سنة أو أكثر أو أقل لمنازعة هؤلاء . ثم ألهم أن الصحابة ومن اليهم مع أنهم كانوا على ذلك أقدر وأعلم بحقائق الامور ، لم ينتصبوا مجادلين ولا منازعين ، بل أمسكوا عن ذلك ، وخاضوا فى الشريعة وفى تعليم الناس ، لهـذا [illegible]اك طرائق الجدل واشتغل بما كان يشتغل به سلف الأمة الصالح .

٣ — لماذا اشتغل بالفقه ؟

كان لأبى حنيفة بالمسجد حلقة يدرس فيها علم الكلام ، فجاءته امرأة ذات يوم وسألته هذا السؤال : رجل له امرأة أمة يريد أن يطلقها للسنة ، فكيف يطلقها ؟ فلم يهتد للجواب ، وأمرها أن تسأل « حماد بن أبى سليمان » وكانت حلقة درسه بجوار حلقة درس أبى حنيفة ، ثم تعلمه بالجواب ، فسألت حمادا فأجابها بقوله : يطلقها وهى طاهر من الحيض والجماع تطليقة ، ثم يتركها حتى تحيض حيضتين ، فإذا اغتسلت فقد حلت للأزواج . فرجعت المرأة الى أبى حنيفة وأخبرته بفتوى حماد ، فقال أبو حنيفة : لا حاجة لى بالكلام ويكفى ما عرفته منه ، ثم فكر فى الفقه ، فكلما قلبه وأداره لم يزدد عنده إلا جلالة وحلاوة ، ولم يجد فيه عيبا ، بل إن أمر الدين والدنيا لا يستقيم إلا بمعرفته ، لذلك عزم على الاشتغال به ، وتحول إلى حلقة « حماد » فوجد عنده كل ما كان يحتاج اليه ، وكان يسمع منه المسائل فيحفظها ويخطىء أصحابه ، فقال : لا يجلس فى صدر الحلقة بحوارى غير أبى حنيفة ، فصحبه عشر سنوات ، وقيل ثمانى عشرة سنة ؛ ثم أحب أن يعتزله ويستقل بحلقة لنفسه ، وعزم على تنفيذ ذلك . وهنا يحدثنا أبو حنيفة مما حدث بعد هذا قال : فلما دخلت المسجد ورأيت حمادا لم تطب نفسى أن أعتزله ، فجلست معه . ثم جاءه نعى قريب له مات بالبصرة ، وترك مالا ولا وارث له غيره ، فأمرنى أن أجلس مكانه ، فلما خرج وردت علىّ مسائل لم أسمعها منه ، فكنت أجيب عنها ، وأكتب جوابى ، فغاب شهرين ثم قدم ، فعرضت عليه المسائل وأجوبتها ، وكانت ستين مسألة ، فوافقنى فى أربعين ، وخالفنى فى عشرين ، فآليت على نفسى أن لا أفارقه حتى يموت ، فلم أفارقه حتى مات ، رحمة الله تعالى عليه .

٤ — ما هى العلوم التى تعلمها ؟

وعلى الجملة فقد أخذ الإمام أبو حنيفة من العلوم بأوفر نصيب ، وبلغ فيها مبلغا يشار اليه بالأصابع ، وناهيك به أنه سلم إليه علم النظر والقياس وإصابة الرأى حتى قالوا : « أبو حنيفة إمام أهل الرأى » . فأما العلوم الشرعية والعربية والأدبية والحكمية ، فكان فى كل هذا بحرا لا يجارى ، وإماما لا يمارى . وله مسائل فقهية بنى فيها أقواله على علم العربية ، ومن تأملها يقضى بتمكنه من هذا العلم بما يبهر العقل . وأما القراءات فقد أفردوا بالتأليف قراءات انفرد بها ورووها عنه بالأسانيد ؛ وكان يحفظ القرآن كله ، وصح عنه أنه كان يقرأ القرآن الكريم كله فى رمضان مرات كثيرات ، ويديم قراءته ليلا ونهارا . وأما الفقه فماذا يقال فيه بعد أن قال الامام الشافعى رضى الله تعالى عنه : الناس عيال أبى حنيفة فى الفقه ؟ وقال أيضا : من أراد أن يعرف الفقه فليلزم أبا حنيفة وأصحابه . وقال أيضا : قلت لمالك : كيف رأيت أبا حنيفة ؟ فقال : رأيت رجلا لو كلمك فى السارية أن يجعلها ذهبا لقام بحجته . وأما السنة : فقد كان فيها

بحرا زاخرا لا ساحل له ؛ وكان فى تفسير الحديث آية ، قال الامام أبو يوسف : ما رأيت أحدا أعلم بتفسير الحديث ، بصيرا بعلله ، وبالتعديل والتجريح من أبى حنيفة . ومما يدل على قول أبى يوسف هذا ، وعلى إحاطة أبى حنيفة بالسنة وتمكنه من رواياتها ، ومعرفة رجالها ، ووقوفه عند حدها لا يتجاوزها قيد شعرة ، المحاورة التى وقعت بين الامام الأوزاعى وأبى حنيفة ؛ فقد قال الامام سفيان بن عيينة : اجتمع أبو حنيفة والأوزاعى فى دار الحناطين بمكة ، فقال الأوزاعى لأبى حنيفة : ما لكم لا ترفعون أيديكم عند الركوع وعند الرفع منه ؟ فقال أبو حنيفة : لأنه لم يصح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه شىء . قال : كيف وقد حدثنى الزهرى عن سالم عن أبيه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان يرفع يديه إذا افتتح الصلاة ، وعند الركوع ، وعند الرفع . فقال أبو حنيفة : حدثنا حماد عن ابراهيم ، عن علقمة والأسود ، عن ابن مسعود ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان لا يرفع يديه إلا عند افتتاح الصلاة ، ولا يعود إلى شىء من ذلك . فقال الأوزاعى : أحدثك عن الزهرى ، عن سالم عن أبيه ، وتقول : حدثنى حماد عن ابراهيم ! ! فقال له أبو حنيفة : كان حماد أفقه من الزهرى ، وكان ابراهيم أفقه من سالم ، وعلقمة ليس بدون ابن عمر ؛ وإن كان لابن عمر صحبة ، أو له فضل صحبة ، فالأسود له فضل كثير ، وعبد الله هو عبد الله . فسكت الأوزاعى .

٥ — لماذا اشتغل أبو حنيفة بالتدريس والافتاء ؟

لما توفى حماد بن أبى سليمان شيخ أبى حنيفة ، وكان الناس به أغنياء ، احتاج الكوفيون لمن يسد مسده ، ويتولى التدريس مكانه ، فجربوا كثيرين فلم يجدوا عندهم من العلم ما يغنيهم ، فأجمع رأيهم على أبى حنيفة ، فأجاب داعيهم وقال : ما أحب أن يموت العلم . فاختلفوا إليه ، فوجدوا عنده من العلم الغزير ، والفضل الكثير ما لم يجدوه عند غيره ، فلزموه وتركوا سواه ، ولم يزل ذكره فى ارتفاع ، وتكثر أصحابه وتلاميذه ومريدوه ، حتى صارت حلقته أعظم حلقة فى المسجد ، وأقبل عليه وجوه الناس وكبراؤهم ! وأكرمه الأمراء والحكام ، وأثنى عليه الأفاضل .

٦ — عمن أخذ العلم ؟

تلقى أبو حنيفة العلم عن كبار أئمة عصره . منهم : عطاء بن أبى رباح ، المتوفى سنة ١١٤ هـ الذى سمع عائشة وأبا هريرة وابن عباس وغيرهم ، والذى يقول فيه ابن عباس : يأهل مكة : تجتمعون على وعندكم عطاء ؟ ومنهم نافع مولى ابن عمر المتوفى سنة ١١٧ هـ الذى روى عن مولاه وعن عائشة وأبى هريرة وغيرهم . ومنهم الامام الفقيه الحافظ عامر الشعبى المتوفى سنة ١٠٣ أو ١٠٤ . وأخذ الفقه عن حماد بن أبى سليمان كما تقدم ، وحماد أخذه عن ابراهيم بن يزيد النخعى المتوفى سنة ٩٥ ، وأخذه ابراهيم عن خاله علقمة بن قيس النخعى الكوفى المتوفى

سنة ٦٢، والذى ولد فى حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسمع من عمر وعثمان وعلى ، وتفقه بابن مسعود، وكان أنبل أصحابه، وأخذ ابن مسعود عن رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ وصار الفقه من الله تعالى الى نبيه عليه الصلاة والسلام . وقال خلف بن أيوب : صار العلم من الله تعالى الى رسوله صلى الله عليه وسلم، ثم صار الى الصحابة، ثم صار الى التابعين ومنهم أبو حنيفة، فمن شاء فليرض، ومن شاء فليسخط .

٧ — تلاميذ أبى حنيفة .

قال بعض الأئمة : لم يظهر لأحد من أئمة الاسلام المشهورين مثل ما ظهر لأبى حنيفة من الأصحاب والتلاميذ، ولم ينتفع العلماء والناس بمثل ما انتفعوا به وبأصحابه فى العلوم المختلفة : من تفسير الأحاديث المشتبهة، والمسائل المستنبطة، والنوازل، والقضاء والأحكام، فجزاهم الله عن الاسلام والمسلمين والعلم خير الجزاء .

٨ — من هم الصحابة الذين عاصرهم أبو حنيفة ؟

اتفق المحدثون على أن أربعة من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم كانوا فى عهد أبى حنيفة فى الأحياء وإن تنازعوا فى روايته عنهم؛ الصحابى الأول : أنس بن مالك المتوفى سنة ٩١ أو بعدها؛ الصحابى الثانى : عبد الله بن أبى أوفى المتوفى سنة ٨٦ أو بعدها؛ الصحابى الثالث : سهل بن سعد الساعدى، المتوفى سنة ٨٨ أو بعدها، الصحابى الرابع : أبو الطفيل عامر آخر الصحابة وفاة .

٩ — هل أبو حنيفة من التابعين ؟

سئل الحافظ العراقى : هل أبو حنيفة من التابعين ؟ فقال : من يكتفى فى التابعى بأنه هو الذى رأى الصحابى مجرد رؤية يعد أبا حنيفة من التابعين، ومن الثابت أنه رأى أنس ابن مالك . وسئل الحافظ ابن حجر هذا السؤال فقال : أدرك أبو حنيفة جماعة من الصحابة، ورأى بعضهم، فهو بهذا الاعتبار من التابعين؛ وقد روى بعض الأحاديث عن الصحابة، والى هذا أشار بقوله : ما جاءنا عن الله ورسوله والصحابة فعلى الرأس والعين، وما جاءنا عن التابعين فهم رجال ونحن رجال، لأنه ممن زاحم التابعين فى الفتوى .

السيد عفيفى

الفيلسوف أبو نصر الفارابى

قال ابن أبى أصيبعة (فى عيون الأنباء) : إنه هو أبو نصر محمد بن محمد بن أوزلغ بن طرخان . وقال ابن خلكان : هو أبو نصر محمد بن طرخان بن أوزلغ . وقال ابن النديم : هو أبو نصر محمد ابن محمد بن محمد بن طرخان . وقال صاعد فى الطبقات : هو أبو نصر محمد بن نصر . ولكن ما لا خلاف فيه أن اسم الفارابى : محمد ، وكنيته أبو نصر .

وذكر ابن حوقل أنه ولد بمدينة (وسيج) ، وهى على الشاطئ الغربى من نهر سرداريا .

والمستشرقون يعتمدون هذا القول . لكن كثيرين من مؤلفى العربية كالقفطى وابن أبى أصيبعة وابن خلكان صرّحوا بأن الفارابى من مدينة (فاراب) . وقال ابن خلكان : إن هذه المدينة تسمى لعهده (أطرار) . وقال الأستاذ (بارتولد) فى الفصل الذى كتبه فى دائرة المعارف الاسلامية : «إن الأصطخرى الذى وجد فى أوائل القرن العاشر يذكر أن قصبة ولاية فاراب كانت تسمى (قَدَر) فى شرق نهر سرداريا على نصف فرسخ من مجراه ؛ وعلى الشاطئ الغربى من هذا النهر على فرسخين دون (قدر) توجد (وسيج) التى هى حصن صغير .

ولسنا نعرف مولد الفارابى إلا بالتقريب استنتاجا مما ذكره المؤرخون فى وفاته . فقد ذكر ابن خلكان أنه توفى سنة ٣٣٩ هـ (٩٥٠ — ٩٥١ م) وقد ناهز ثمانين سنة ، ويكون إذاً مولده حول سنة ٢٥٩ هـ (٨٧٢ — ٨٧٣) .

ولا يعرف شىء عن طفولته وشبابه ، إنما يقول المؤرخون : إنه خرج من بلده وانتقلت به الأسفار الى أن وصل بغداد . وهو يعرف اللسان التركى ، وعدة لغات أخرى .

والظاهر أن الفارابى حين وصل الى بغداد حوالى سنة ٣١٠ هـ وهو يومئذ يناهز الخمسين ، حضر دروس أبى بشر متى فى المنطق ، واتصل بأئمة الحكمة والعلم تكميلا لما عنده من العلم ، وتحول الى حران فأخذ عن يوحنا بن حيلان المنطق ، ثم عاد الى بغداد وقرأ بها الفلسفة وتناول جميع كتب أرسطاليس . ويقال إنه وجد كتاب النفس لأرسطاليس وعليه بخط أبى نصر الفارابى : إنى قرأت هذا الكتاب مائة مرة .

ثم انتقل الفارابى الى الشام ، ثم توجه الى مصر ، وعاد الى الشام واتصل هناك بسيف الدولة ابن حمدان الذى عرف له فضله وأكرم وفادته ، فعاش فى كنفه حتى مات بدمشق سنة ٣٣٩ هـ وصلى عليه سيف الدولة فى أربعة من خواصه أو خمسة عشر . ودفن بظاهر دمشق خارج

حياة الفارابى الفلسفية :

لسنا نعرف على وجه يقينى كثيرا عن حياة الفارابى العلمية . فإنه كان رجلا ممن يخلدون الى السكينة والهدوء ، وقد وقف جهاده العلمى على التأمل .

ففى مفتاح السعادة لطاش كبرى زاده : كان الفارابى كثيرا ما ينفرد بنفسه ، ولا يكون إلا عند مجتمع ماء أو مشتبك رياض ، ويؤلف كتبه هناك . وكان أكثر كتبه فى الرقاع ، ولم يصنف فى الكراريس إلا قليلا ، ولذلك كانت أكثر تصانيفه فصولا وتعليقات ، وبعضها مبتورا ناقصا (ج ١ ص ٢٥٦ — ٢٦٠) . والفارابى إنما كان يعتزل الناس ويؤثر الوحدة ، لما رأى أن أمر النفس وتقويمها أول ما يجب أن يبتدئ به الانسان ، حتى إذا أحكم تعديلها وتقويمها ، ارتقى منها الى تقويم غيرها ، كما ذكر ذلك فى كتاب (الجمع بين رأيى الحكيمين) .

قال بعضهم : الحكماء أربعة : اثنان قبل الاسلام ، وهما أفلاطون وأرسطو ، واثنان فى الاسلام وهما أبو نصر الفارابى وأبو على بن سينا . وكان بين وفاة أبى نصر وولادة أبى على حوالى ثلاثين سنة ، وكان أبو على تلميذا لتصانيف الفارابى يعترف أنه لولاها لما اهتدى الى فهم ما بعد الطبيعة . وكما لقب أفلاطون بالحكيم الإلهى ، وأرسطاليس بالمعلم الأول ، لقب الفارابى بالمعلم الثانى ، وابن سيناء بالشيخ الرئيس .

وآراء العلماء مختلفة فى التقدير العلمى للفارابى . فالقفطى يقول : « هو فيلسوف المسلمين غير مدافع » . ويقول ابن خلكان : « هو أكبر فلاسفة المسلمين . ولم يكن منهم من بلغ رتبته فى فنونه . والرئيس أبو على بن سينا بكتبه انتفع ، وبكلامه استطاع وضع تصانيفه » .

ويقول ابن سبعين الفيلسوف الصوفى الأندلسى الذى يقال إنه انتحر بمكة شوقا الى الاتصال بالله سنة ٦٦٩ هـ فى كتاب له مخطوط ، ما نصه نقلا عن المجموعة التى نشرها الأستاذ ماسينيون :

« وأما الفارابى فقد اضطرب وخلط وتناقض وتشكك فى العقل الهيولانى ، وزعم أن ذلك تمويه وخرافة ، ثم شك فى النفس الناطقة هل غمرتها الرطوبة أو حدثت بعد . وتنوع اعتقاده فى بقاء النفوس بحسب ما ذكر فى كتاب الأخلاق وكتاب الملة الفاضلة والسياسة المدنية » .

وقال الأستاذ « كارا دى فو » فى ترجمته للفارابى بدائرة المعارف الاسلامية :

« مذهب الفارابى هو مذهب الأفلاطونية الجديدة الاسلامية الذى بدأه من قبله الكندى . ووجد فى كتب ابن سينا من بعده أكمل عبارة عنه . وقد يكون من الراجح أن الفارابى يخالف الكندى وابن سينا فى بعض المواضع ، ولكن من العسير تعيين هذه المواضع . ومن المناسب التحفظ بل الشك فى تفسير ما يتعلق بتفصيل مذهبه . والواقع أنا لا نعرف من آثاره إلا قليلا . ثم إن أسلوبه لا يخلو من غموض » .

نظرة إجمالية فى فلسفة الفارابى :

إذا نظرنا الى فلسفة الفارابى فى جملتها، وجدناها مذهبا روحانيا متسقا تمام الاتساق ، وبعبارة أدق : مذهبا عقليا . فالوجود الحقيقى عنده إنما هو العقل وإن كان ذا مراتب متفاوتة ، والله وحده هو العقل المحض الذى لا تخالطه كثرة .

والموجودات فى نظره عبارة عن سلسلة متصلة متدرجة ، والعالم كل منظم ، وأجزاؤه مرتبة ترتيبا بديعا ، وعناية الله من وراء ذلك محيطة بالأشياء جميعها (عيون المسائل ص ١٨) .

والمدينة الفاضلة أمتع ما كتب كاتب أو فيلسوف ، يتجلى فيها صدق الرجل ، وصبره وطول أناته ، وحسن تخريجه وتعليله .

يلمس القارئ فى المدينة الفاضلة للفارابى جلال الحياة الدنيا وجلال الفناء . فهو يجمع بين العبرة والتاريخ . نراه يجد فى استنباط الأحكام بحيث لا تتناقض فيها الآراء ولا تصطدم الظنون ، ولا تغيب الحقيقة وراء الأغراض والشهوات والأوهام .

كان الفارابى يصنف كتبه فى أيقظ أوقاته ، وفى أتم صورة وأجمل أسلوب . ويتجلى من هذه الكتب أنه كان عالما بالأدب والرياضيات والنحو والبلاغة والمنطق والموسيقى والهندسة والفلك . وكان يعرف التركية والفارسية .

والفارابى لا ينى يدير الفكرة فى رأسه ونفسه ، ثم هو لا يستريح حتى يسمعها صوتا ، لأن ذلك أوكد للحقائق وأدعى الى التأمل فى معانيها والترسيم للابساتها . له قدرة على نقل المعانى من فضاء التجريد الى حظيرة الموسيقى . وكان هذا فى نظره أدعى الى تثبيت المعنى وتوكيده والاستقرار فى النفس ، حيث إن هذا أكمل وضوحا وأدوم فى الذاكرة والشعور ، ولهذا كان الفارابى موسيقيا بارعا ، وصاحب مصنفات موسيقية لا زالت مرجعا للوضع والتطبيق .

تأثير فلسفة الفارابى :

لم يكن للفارابى كثير من التلاميذ ، إلا أنه اشتهر من بين تلاميذه أبو زكريا يحيى بن عدى (وله مخطوط ينسب له يسمى تهذيب الأخلاق) ، وهو نصرانى يعقوبى ، وقد اشتهر أبو زكريا بترجمة كتب أرسطو .

ولزكريا تلميذ أشهر منه ذكراً هو أبو سليمان محمد بن طاهر بن بهرام السجستانى الذى التف حوله علماء عصره فى بغداد فى النصف الثانى من القرن العاشر الميلادى (الرابع من الهجرة) . وقد انتهى إلينا بعض ما كان يدور فى مجلسه من مباحثات ، وبعض التعاليم الفلسفية التى كان يلقنها لمستمعيه . وهنا رأينا مدرسة الفارابى تستحيل الى فلسفة لفظية ، ونرى الجدل يدور حول تحديد المعانى والتدقيق فى التمييز بينها . وكانت تبحث الى جانب هذا مسائل

متفرقة من كلام الفلاسفة المتقدمين ، ومن فروع العلوم ، من غير نظام يؤلف بينها . ورأينا مسألة النفس تستأثر بالمكان الأول كما كان الحال عند إخوان الصفا . وكانت هذه الفلسفة الفارابية تعالج عجائب أفعال النفس ، وتنظر فى جوهرها العقلى ، وفى العروج بها الى العالم العقلى الأسمى .

شخصية الفارابى :

الفارابى من الفلاسفة القلائل الذين أدركوا القيمة الحقيقية لهـذا العالم وحقارة أطماعه المادية ، فى الوقت الذى أله فيه غيره من علماء عصره العالم ، وأله الانسان وأطماعه . وكانت نغمته لحنا لقلبه الزاهد حتى ارتقت نفسه الى درجات الزهد ، وخلع عن قلبه غرائز الأثرة ، ثم أخذ يلتفت الى ما وراءه لعله يرى بصيصا من وراء فلسفته الى ذلك النور الإلهى الذى حمل مشكانه الأنبياء فى كل العصور المتقدمة ؛ حتى أصبحت تعاليمه التى خلفها لنا هى التذكير برسالة الانسانية الكبرى التى حملها الأنبياء جميعا .

والفارابى نسيج وحده فى تعدد مناحى الفكر وتنوع المواهب . فهو فيلسوف يعالج الموضوعات الفلسفية العميقة . قد جمع بين عمق الفكر واستفاضة المعرفة ، وبين سعة العقل وسراوة الأخلاق والقداسة . وكان لكل فكرة فى عقله مدار ، ولكل ناحية من نواحى العلم فى نفسه مستقر . والفارابى فى كتابه المدينة الفاضلة يكاد يكون عالماً من علماء النفس ، يتصل بأجزائها فيقاربها ويخالطها ، ويعرض لكل ناحية من نواحيها ، ويصف هـذه الناحية أدق وصف ، ويصورها أتم تصوير ، حتى إذا فرغ من البواطن انتقل به الكلام الى الظواهر فراقبها وتأمل فيها ، واستخرج منها صفاتها البارزة ، وخصائصها الظاهرة . فهو فيلسوف حكيم يبنى علمه على تجربته ، ثم يصف ما توحى اليه هذه التجربة .

لا نعرف فيما قرأنا حياة أوسع آفاقا من حياته العقلية ، وذهنا أخصب تربة من ذهنه ، وفكرا أشد انطلاقا من القيود من فكره ، لقد ذاق لذة الحياة العقلية ، وتقلب فى أعطافها ، نخالط عالم الأفكار فلم يستوحش ناحية من نواحيه ، وما كان عقل الفارابى يأنس إلا بضياء الأشياء ، وما كان هذا العقل ينقبض إلا عن ظلامها ، فما كان غذاؤه إلا الأفكار والمعانى .

والخلاصة فى شخصية هذا الفيلسوف : أن الحكمة تلقته من كل جهة بفضلها ، وتأثلت فيه أكرم نبعاتها ، حتى استخلص منها أعتق جواهرها ، ثم سما الى رحيق مصاصها ، وأحرز منفس ذخائرها . كل ذلك فى كتابه المدينة الفاضلة .

تعهد نفسه بمجاهدة هواه ، لأن الهوى خصم العقل ؛ وانصرف الى أعمال الحكمة ، فطوى الحياة عاكفا زاهدا فقيرا ، قانتا لله وللعلم ، حتى كتب اسمه فى ديوان الخالدين ؟

عبد الحميد سامى بيومى

صفحات مختارة لأقطاب الفلسفة المعاصرة

الدين هو الكوة التي ينبع منها النور للانسان

هذا ما صرح به الفيلسوف الكبير اجوست سباتييه المدرس بجامعة باريس
فى كتابه (فلسفة الدين) — تحليل بسيكولوجى دقيق

—

« ما هو الانسان ؟ إنه من الناحية الظاهرية لايفترق كثيرا عن الحيوانات العليا ، ولكنه بحياته العقلية يتميز عن الحيوانيـة ويتخلص منها يسيرا يسيرا . وهنا تظهر فيـه ظواهر ونواميس من نوع جديد . فان الحياة الغـامضة للعقل تتفتح رويدا رويدا كأنها زهرة إلهية فتطلعنا من الوجود على معناه وجماله ، وفى الوقت نفسه تتضح لضميرنا منطقة الحق والجمال والخير ، ويتجلى له العالم الأدبى كوجود عال هو عالمه الذى ينتسب اليه . فهذه النواميس هى التى تصلح أن تسطو على النواميس الطبيعية ، وأن تقهرها لتوصلنا الى غايات سامية ، هى التى تحقق وتؤلف للحيوان الانسانى معنى الانسانية . فالانسان لا يستحق وصف الانسانية إلا بقدر ما يطيع هذه النواميس العليا ، وهذه هى نقطة الاتصال التى يشغلها بين هذين العالمين ، وهذا وجه ضرورة الآلام التى بواسطتها يجب أن يتخلص من الحيوانية الأصلية . فانه إذا لم ينجح فى أن يعلو عن مستوى الحيوانية ، وقع بفساد حياته الى حضيض أدنى منها .

« الحياة النفسية تقتضى بأصل تكوينها حركتين ، أولاهما تحدث من الظاهر الى الباطن حتى تصل الى مركز الذات الانسانية ، وثانيتهما من الباطن الى الظاهر ، أى من مركز الذات الى الخارج .

« الحركة الأولى هى تأثير الأشياء الخارجية على الذات الانسانية بواسطة الاحساس ، والثانية هى رد فعل للذات على تلك الأشياء بواسطة الارادة . فهذان التياران الباطنيان يؤلفان الحياة العقلية فى جملتها . من هنا يتبين الانسان التضاد الأساسى الذى تتكون منه الحياة ، والذى يقوى ويشتد بدون انقطاع . وفوق هذا فإن الجانب السلبى والجانب الايجابى للحياة العقلية ليسا متلائمين ، فإن الإحساس يسحق الارادة ؛ ونشاط الشخصية وتفتحها وميلها للامتداد والنمو ترزح تحت أعباء الوجود التى تقع عليها من كل جانب . حتى إذا اندفعت موجة الحياة من مركز الذات ، تكسرت على صخور الأشياء الخارجية . فهذا التصادم المستمر ، وهذا الكفاح بين الذات الانسانية والعالم الخارجى ، هو السبب الأول الأصلى لجميع الآلام البشرية ، وبهذا

تجد نشاط تلك الذات بارتداده على نفسه تشتد حرارته كما تشتد حرارة محور العجلة من شدة الحركة . إذا حدث هذا لمعت شرارة الحياة الباطنية وأضاءت . وهذا هو الضمير ، وبتكرر هذا الاحساس المؤلم للخيبة المتوالية تلجأ الذات للفكر والتأمل وتدرك ماهيتها ، وتقدر نفسها ، وتنفصل عن الجسد الذى كانت لا تتميز عنه ، وتبدأ فى معارضة نفسها بنفسها كأنها مؤلفة من شخصيتين ، شخصية مثاليـة ، وشخصية عادية . ومن هنا ينشأ عذابها وكفاحها وندمها ، ولـكن ينشأ فيها الى جانب ذلك اندفاعها المتجدد ، وترقيها غير المحدود فى الحياة العقلية ، بحيث تكون فى كل برهة لها درجة تؤديها الى درجة أرقى منها . ألسنا نلمح هنا النفحة الإلهية التى يستوجبها لنا هذا الألم ؟ إنه بدون هذا الألم كان لا يمكن أن تتميز الحياة العقلية عن الحياة المادية . ولا غرو فـكل ميلاد لا يكون إلا بألم . والضمير كالطفل لايولد إلا غارقا فى الدموع . ولما كان الضمير ابن الألم فقد قضى عليه أن لا ينمو إلا به . فهل نصادف أعظم العقول تلطفا ، وأكثر الضمائر حـدة ، وأشد ضروب الحياة تركزا ، إلا لدى آحاد شَل نشاطهم الخارجى بسبب مرض ، أو حرج فى حالتهم الاجتماعية ؟ فـكيف تستطيع أن تعلل وجود (أفـكار باسكال) و (مين دوبيران) و (يوميات أمييل) بغير هـذه العلة ؟ من أين جاء لهؤلاء الرجال سمو ضمائرهم الخارق للعادة إن لم يكن من هذه الناحية ، وهى أنهم شعروا شعورا عميقا بالتضاد الذى بيناه هنا بين العوامل المنصبة على الانسان ، ورأوا أنها كما توجب عليه الشقاء والبلاء ، تدفعه الى العظمة والسمو .

« استمرْ فى هذا النظر ، وتتبعْ كل واحدة من خصائصنا وهى تتفتح وتنمو ، تجدها قـد نشأت من هذا التضاد الذى رأيته ، فإذا لم يكن هو لم توجد هى . على أنه يسطو عليها حتى يكاد يقتلها بعد ظهورها ، ولا تجد أينما وجهت طرفك إلا هذا التضاد المؤيس .

« والإنسان لا يستطيع أن يعرف نفسه إلا إذا أدرك أنه محدود ، ولـكنه لا يشعر بهذه الحدود إلا بعد أن يجتازها بفكره وإرادته ، بحيث أنه أصبح لا يقنع بما يملـكه ، ولا يسعد إلا بما لا يستطيع أن يناله . فأرانى أريد أن أعرف ، وعقلى متعطش لأن يفهم ويعـلم ، فإذا وصلت الى مكتشفات أولية أسرتنى ، ولـكن وا أسفا لا ألبث حتى يصطدم فـكرى بغامض فيما حصلتُ . فالأمر لا ينحصر فى أنه توجد أشياء لا يعرفها عقلى ، ولـكنى متحقق أن هنالك أشياء لا يستطيع أن يعرفها عقلى قط . فأنّى للانسان أن يقفز الى ما بعد ظله ، أو أن يصعد على كتفىْ نفسه ليرى ما وراء السور الذى لا يستطيع أن يقتحمه ! وأنا أريد أن كل ما يمكن إدراكه يكون حقيقيا ، ولـكن هل كل ما هو حقيقى يمكننى أن أدركه ؟ إذن على أية حال يؤول علمى إن لم يكن الى شعور ماليخولى لجهالة تدرك نفسها على هذا الوصف ؟

كذلك أجد تناقضا فى خاصة تمتعى . فـكما أفضَى الساعةَ علمى الظاهر الى عكسه ، كذلك أرى كل ما أسميه متعة وسعادة يتحول الى شـقاء وتألم . فليتهم السطحيون والعامة الحظ

والخوادع والتقصير فى عـدم وصولهم الى السعادة ، ولـكنى أنا لا أتهم إلا التركيب الصميم لـكيانى ، فانه بسبب هـذا التركيب نفسه تحمل المتعة فى ثناياها سبب زوالها ، ويستحيل الصفو فيه الى كدر ، وتخرج حُمَة الألم من وسط اللذة . (الحمة إبرة العقرب ونحوها)

« لقد أصاب مذهب التشاؤم فى هذا الموطن ؛ فقد ثبت بما لا يُدحض من التجارب بأن التفانى فى البحث عن السعادة لا نتيجة له إلا زيادة قابليتنا للتألم . وهل ألم بذكر النشاط الأدبى ؟ إنى أريد أن لا أفعل غير الخـير ، ولـكنى أجد الشر لى ملازما ، فلا آتى كل ما أرتضيه ، ولا أرتضى كل ما أفعله . إنى أشعر بالحرية فى إرادتى ، ولـكنى أحس بذل الأسر فى عملى . وكلما جهدت أن أصل الى المثل الأعلى فى العدالة ، سَجل علىَّ هذا المثل الأعلى الذى لا أصل إليه أبدا أنى آثم ، وقوَّى فى نفسى الشعور بالإثم ، بحيث تصبح هنا ، وهنا على الخصوص ، الثمرة النهائية لمحاولاتى عكس ما كنت أتمناه من قبل .

« فمن أية ناحية يأتينى الخلاص ؟ كيف السبيل الى حل هذا التضاد فى ذاتى ، وهو التضاد الذى يحيينى ويميتنى فى آن واحد ؟ من الناس من يعتمدون فى سبيل تخليص الانسان من فاقاته وعقباته ، على تقدم العلم وصلاح أحوال الحياة . ولـكن كيف لايرى هؤلاء هنا ، نشوء ينبوع جديد من ينابيع القنوط ؟ كيف ينسون أن العلم بتقدمه يزيد فى التناقض الأساسى للحياة ويجعله أقتل مما هو عليه ، بدل أن يخفف من وطأته ؟ فهل حدوث اكتشاف جديد ، أو تعليل ظاهرة جـديدة ، يعنى شيئا غير إضافة ذلك الى سلسلة العلل الضرورية التى ينسجها العلم ويمدها على أشياء الـكون ؟ هل يعنى ترتيب العلم للـكائنات وتقرير نظامها وثباتها ، شيئا غير إثبات سيادة القهر عليها سيادة مطلقة . فالعلم جبرى بالمعنى الدقيق لهذه الـكلمة . فزدْ ما شئت من هذا الترقى العلمى ، وأبلغه الى عشرة أو مائة أو الى ألف ضعف ، فهل أنت بذلك صانع شيئا غير مضاعفة سلطان الجبرية العـامة التى تخضع لها أرواحنا وينحل دونها نشاطنا الباطنى ؟ وإذ ذاك تنتهى الى زيادة إدراك التضاد المؤلم بين العلم والضمير ، وبين النواميس المـادية والنواميس الادبية ، وبين الفـكر والعمل ! وبقدر ما ينمو أولهما ويتغلب ، يظهر لنا ثانيهما باطـلا لا حقيقة له . من هنا نشأت هذه الثنوية الفاسفية التى انتهى اليها الفـكر العصرى ، من قيام علم يعجز عن توليد أخلاق يمكن أن يعترف بها الناس ، وقيام أخلاق يمكن أن يعترف بها العلم . إننا بهذا التحليل قد وصلنا الى علة هذا المرض العجيب الذى يمـكن تسميته « بمرض القرن الراهن » ، وهو ضرب من الانحلال الباطنى الذى أصاب العقول المستنيرة على درجات شتى . فهو حرب باطنية تسلح الذات الانسانية ضـد نفسها ، وتُنضب ينابيع الحياة فيها . فبقـدر ما يفـكر الانسان فى إيجاد البواعث للحياة والعمل ، يقل نشاطه للجهد والعمل . فاستضاءة الفـكر هى على نسبة عكسية مع قوة الارادة ، حتى ليقول أنصار التشاؤم بأن وصـول الضمير الى قوته

وكماله يبطل فينا حب البقاء والرغبة فى العمل . ومن الذى يتجرد اليوم من التشاؤم على قدر من الأقدار ؟ ومن الذى لا يشكو اليوم من ثقل وطأة الفكر عليه ، ومن ضعف تأثير الطبيعة فيه ؟ ومن الذى لم يشاهد هذا الازدواج الغريب الذى كاد يكون عاديا ، بين خفة الأخلاق والذكاء الممتاز؟ ما هى هذه الشكوى المملة التى تتصاعد من كل ناحية ممثلة فى أحدث كتاب فى الفلسفة ، أو أعلق رواية بالقلوب ، أو أحسن قطعة تمثيلية ، إن لم تكن هى الأنين الماليخولى المنبعث من حياة يظهر أنها قريبة من الانطفاء ، ومن عالم عتيق آيل الى الفناء ؟ فهل يحسن بنا أن نقلع عن التفكير لنحتفظ بالقوة على البقاء ، أو أن نصبر للموت لنستبقى الحق فى التفكير ؟

« من هذا الشعور بالحرج الشديد ، وبالتضاد فى الحياة الباطنية للنفس يتولد الدين ، فهو الكَوَّة (١) التى ينبع منها النور المحيي للانسان من خلال الصخور المطبقة عليه . (٢)

محمد فريد وجدى

(١) الكوة بفتح الكاف وضمها الخرق فى الحائط . (٢) ننشر بقية هذا البحث الجليل فى العدد المقبل .

البراءة من الاحمدية الهندية

الموقعان على هذا ، أيوب فضلى قرانيا وخليل يونس ربيشطى من أهل ألبانيا : يقرران ويعلنان براءتهما من فرقة الأحمدية اللاهورية والقاديانية ، فقد ظهر لهما بطلان مذهب الأحمدية ، وبطلان ادعاء زعيمها ميرزا غلام أحمد القاديانى الهندى ، النبوة ، أو أنه المهدى المنتظر ، أو المجدد ، أو المسيح الموعود ، وتأويلاته لآى القرآن الكريم بغير علم ، إشباعا لرغباته ، ودعاية لذاته . وقد لمسا أضرار هذه الفرقة بجماعة المسلمين وتمزيقها لوحدتهم وهذا هو الخسران المبين .

فالموقعان يستغفران الله تعالى عما فرط منهما بغير علم ، ويعلنان أنهما قد قطعا كل علاقة وصلة من أى نوع كان بهذه الفرقة وغيرها من الفرق ، طائعين مختارين ، ابتغاء وجه الله ، عن عقيدة وإيمان من قلب خالص ملىء بالتقوى وطاعة الله لا يشوبه نفاق ولا رياء . ويسألان الله تعالى أن يوفقهما لما فيه الخير والعمل بكتاب الله وسنة رسوله سيدنا محمد خاتم النبيين من لا نبى بعده صلى الله عليه وسلم والله على ذلك شهيد ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

(أيوب فضلى قرانيا) ، (خليل يونس ربيشطى)

الاسلام والمرأة

لقد أنصف الاسلام المرأة ، ورفع من شأنها ، ووضعها فى مكانتها اللائقة بها ، بعد أن كانت مهيضة الجناح ، مهضومة الحقوق ، يسيطر الرجل عليها ويعاملها معاملة الأنعام .

فلا تجد نظاما اجتماعيا سابقا على الاسلام أخذ بيد المرأة وفرض لها من الحقوق والواجبات ، مثل ما فرض لها الدين الحنيف ، دين الاسلام ، الذى اختاره الله لخير أمة وخير نبيٍّ ، وجعله صالحاً لكل زمان ومكان ، تسير الحوادث بجانبه ، وتمشى المصالح إثر أصوله وفروعه ، وترقى الأمم بالأخذ بتعاليمه .

كنت تشرق أو تغرب فلا ترى المرأة إلا سلعة ينتفع بها ، أو متاعا يستمتع به ، ولا حول لها ولا طول ، ولا كلمة تسمع ، ولا رأياً يعتد به ، حقيرة ذليلة ، ميتة وهى فى عداد الأحياء ، مسلوبة الإرادة ، مهدرة الكرامة ، قعيدة البيت لا ترى شمسا ولا قمرا ، ولا تشم نسيما .

جاءها الاسلام فأخرجها من الظلمات الى النور ، وانتشلها من وهدتها وأعطاها حريتها ، بعد رقّ واستعباد فى البلاد التى تدعى الآن أنها مصدر المدنية ومبعث الرقى ، فأمم جهلت قدرها ، وأمم سجنتها ، وأمم احتقرتها ، والكل اشتط فى ظلمها ، وجار فى حكمه عليها ، وظلت المرأة هنا وهناك تضج بالشكوى الى الله ، وتتضرع اليه فى أن ينقذها ويخلصها ، وقد وأدوها طفلة ، وعضلوها شابة ، وأساءوا عشرتها زوجة ، ومنعوها إرثها ، وحرموا عليها النكاح أيّما .

وبينما الناس كلهم مطبقون على هذه الحال ، إذا برسول يبعث الى الناس كافة ، على فترة من الرسل ، يهيب بالناس الى إقامة دولة العدل ، وإلغاء نير الظلم ، وإزالة كسف الجاهلية ، وتقرير حقوق الضعفاء على الأقوياء حتى يكون الناس سواسية كأسنان المشط : « يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .

فنال المرأة من هذا الإصلاح العام قسط موفور ، فرفع عنها كل ما ألقاه عليها الظلم والجهل مما ناءت بحمله قروناً طويلة فى عهود مختلفة ، وأمم متباينة ، وثنية كانت أو كتابية أو جاهلية . ففى الأخيرة مثلا : ورثوا النساء كرها : يجيء الوارث ويلقى ثوبه على زوج مورثه إن لم يكن منها ويقول : ورثتها كما ورثت ماله . وبذلك يكون أحقّ بها من نفسها ، إن شاء تزوجها بلا مهر أو زوّجها غيره واستوفى مهرها ، أو منعها حقها فى النكاح لترثها . اجتثّ الاسلام هذا الإرث الجائر من أصله : « يأيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها » .

ثم شرع لها ما حماها من غائلة المتحكمين فيها ، فحرم على الرجال أن يعضلوها لتتنازل لهم عن ميراثها ، وعن حجب الرجل فتاته الى أن تتخلى له عن ملكها ، وكذا المطلّق مطلقته ليأخذ منها ما يريد ويشتهي ، وعن امتناع الزوج المبغض زوجته المحب فراقها عن تسريحها بالإحسان ، وعن إساءة عشرتها حتى تبلغ روحها الحلقوم ، فتفتدى بمهرها : « ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن »

وحرم على من له أكثر من واحدة أن يرفع بعضهن على بعض ، وأن لا يعدل بينهن ، فقال تعالى : « وعاشروهن بالمعروف ، فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا » :

ونهى أن يرمى الرجل امرأته بكل نقيصة توسلا بذلك الى التخلص منها والتزوج بغيرها ، متهما إياها بالفاحشة لتفتدى بما دفع لها محاماةً عن عرضها وذوداً عن كرامتها ، فنبّههم الله جل شأنه الى أن هذا العمل ظلمٌ وبغيٌ تأباه النفوس الكريمة : « وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا ، أتأخذونه بهتانا وإثما مبينا . وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً » .

وقد اهتمت الشريعة الاسلامية بالمرأة اهتماما كبيرا ، جعلها سيدة مكرمة محترمة ، راعية مسيطرة : « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته : الإمام راع ومسئول عن رعيته ، والمرأة راعية فى بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها ، والرجل راع فى أهله ومسئول عن رعيته ، والخادم راع فى مال سيده ومسئول عن رعيته ، فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » . وفى وضعها بين الامام والرجل لابين الرجل والخادم تنويه بشرفها وتحقيق لمكانتها وقدرها .

عطفت الشريعة عليها ، وراعت جانبها ، وقررت كل ما يريحها ويسعدها نظرت بعين ملؤها الرحمة والنَصفة الى المرأة ، وراعت ما تقوم به من تكثير النوع وتربيته ، فألزمت الرجل بنفقتها والقيام بجميع ما تحتاجه من لوازم الحياة : « الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض » : أى فى القوة والقدرة على العمل والكسب . « وبما أنفقوا من أموالهم ، فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله » .

طالبت الشريعة الرجل بالمحافظة على زوجته من مواطن المخافة وأمكنة الهلكة ، وأمرته بتعليمها ما يجب عليها وقاية له ولها من النار : « وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها » « يأيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة » الآية .

قضت عليه الشريعة الاسلامية السمحة بأن يوفّيها صداقها ، وتوعدت من لم يكن عازما على أدائه اليها : « أيما رجل تزوج امرأة على ما قلّ من المهر أو كثر ليس فى نفسه أن يؤدى اليها حقها خدعها فمات ولم يؤد اليها حقها ، لقى الله يوم القيامة وهو زانٍ »

وطلبت الشريعة من المرأة فى نظير ذلك أن تتوقى هجر فراش زوجها ، وألا تاذن فى بيته لمن لم يرغبه ، وألا تخرج من بيته بغير إذنه ، إلا إذا دعت ضرورة شرعية كخشية انهدام البيت ، أو خوف فجرة ، أو استفتاء لم يوفره لها .

هـذا قل من كثر مما أوجبته الشريعة الاسلامية الغراء للمرأة . فهل آن لأعـداء الاسلام أن يتلقوا عنه دروساً حية فى الإنصاف والعـدالة ، ويتركوا ما رموه أو يرمونه به من المثالب ، باتهامه أنه هضم حقوق المرأة وجعلها فى منزلة أدنى من درجتها التى تجدر بها ؟ ! كما أنهم عدُّوا أمر حجبها عن أعين الأشرار ، وعدم مخالطتها للفسقة الفجار ، أمراً نكراً ، وخطباً فادحاً ، ومعولا يهـدم بنـاء المجتمع البشرى ويقوّض دعائم المـدنية ! ولو تدبروا قليـلا ونظروا بعين البصيرة ، وفكروا واعتبروا ، لتكشفت لهم الحقيقة ، ولظهر لهم البرهان تلو البرهان أنهم عن الحق عمون ، وفى الضلال يهيمون .

أوجب الاسلام على الرجل لزوجته حقوقا لخصتها إجابة رسول الله صلى الله عليه وسلم حين سأله معاوية بن حَيْدَة رضى الله عنه : ما حق زوجة أحدنا عليه ؟ قال رسول الله صـلى الله عليه وسلم : « أن تطعمها إذا طعمت ، وتكسوها إذا اكتسيت ، ولا تضرب الوجه ، ولا تقبّح ، ولا تهجر إلا فى البيت » . ويقول صلوات الله وسلامه عليه : « أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا ، وخياركم خياركم لنسائهم » .

انظر معى بارعاك الله فى التوارث الذى مُنحته المرأة فى الاسلام وكانت محرومة منه قبل : فالوارثون إن كانوا ذكورا أو إناثا فى درجة واحدة وزع المـال بينهم بالتساوى لعدم وجود مايدعو لتقديم واحد منهم على آخر ؛ وإن كانوا ذكورا وإناثا فى درجة واحدة فضل الذكر على الأنثى بجعل حظه مثل حظ الأنثيين ، لأمرين : أحدهما أن الذكر مختص بالدفاع والحماية عن البيضة ، والذب والمنع عن الذمار ؛ وثانيهما أنه ملزم بالإنفاق فوق ما يلزم الأنثى التى هى كـل على الزوج أو غيره . والأب لا يفضل على الأم بالتضعيف لأنه فضـل عليها بالجمع بين الفرض والتعصيب ، فلو فضل عليها بالتضعيف أيضا لـكان فى ذلك إجحاف بها وبغى عليها . وفى مسائل أخرى تأخذ الأنثى مثل الذكر . وقد يكون نصيبها أكبر منه فى بعض المواضع . وهكذا تقرأ باب الفرائض والمواريث ، فيأخذك العجب ، وتتولاك الدهشة أمام إنصاف الاسلام للمرأة ، هذا الانصاف العظيم الشأن الذى لم يأت به نظام اجتماعى قبله ، ولم تعرفه أمة من الأمم الغابرة التى كانت تستعبد المرأة وتصادر حريتها ، وتعدها من سقط المتاع . وحين انبثق نور الاسلام ، وطلع فجره من الشرق يمزق ستر الـكفر ، ويشقق غياهب الباطل ، انتشر نور الحق فى أنحاء المعمورة ، وأخذ كل شىء فى الوجود حقه ، ونودى فى الـكل : « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا » ؟

السيد متولى الشهاوى
بتخصص القضاء الشرعى

المحاماة قديما وحديثا

مقارنة بين عهدين

في بعض أعداد سابقة من هذه المجلة أبنا لقرائها ما كان عليه المحامون فى عهد الأمبراطورية الرومانية ثم فى عهد اليونان ، وكيف أن تلك المهنة تطورت حتى بلغت أوج مجدها وسؤددها ، فأنبتت خطباء ملكوا على البلاغة أعنتها ، واقتعدوا منها غوارب المجد حتى بلغوا القمة .

ولقد بلغ من سمو تلك الصناعة فى عهد الرومان أن كان لا ينتخب لشغل منصب الولايات فى الأمبراطورية إلا من المحامين ، ومن ذلك الحين صدر أمر بتحديد عدد المحامين فى كل مقاطعة من أطراف الأمبراطورية ، فلا ينتخب لولاية الخزينة العامة إلا منهم ، فاذا قضى الواحد منهم مرة انتخابه عين فى وظيفة سامية ، وأصبح معدودا فى مصاف أعضاء شورى الدولة .

ومن أشهر القوانين التى وضعت لرفع مستوى المحاماة ، وحياطتها بسياج الإجلال والاكبار ، ذلك القانون الذى سوّى بين رجال المحاماة ورجال الجيش ، ومعلوم أن رجال الجيش فى ذلك العهد الرومانى كانوا أكبر القوم وأعزهم جاها وأرفعهم شأنا . ولعل الباعث على هذه التسوية بين رجل المحاماة ورجال الجيش ، وهم من مكانة الأمة فى الذروة ، أن الملك أدرك أنه لافرق بين من يحمى الذمار ويصد عن البلاد غوائل العدو ، وبين المحامين الذين يدافعون عن المظلومين ويستردون اليهم حقوقهم من أيدى الغاصبين بألسنتهم وأقلامهم وبالغ حججهم ، فكانوا خلقاء أن يسووا برجال الجيش الذين يعتبرون أعلى مثل فى الأمبراطورية الرومانية للتضحية والبلاء والجهاد والدفاع عن حوزة الوطن .

ولذلك أمر أحد ملوك الرومان أن ينعم على كل محام يعتزل تلك الصناعة ، بعد أن أدى الى الأمة خدمات جلى وأسدى الى بلاده سميا يذكر ، بلقب من ألقاب الأشراف فى الدولة . وهو لقب (كلا يسيم) ، ومعناه فى اصطلاحهم يومئذ (النبل والشرف) .

أما ما يتعلق بأهلية الشخص لمزاولة تلك الصناعة فقد اشترط قانون البلاد لتحقق تلك الصفة فى المحامى ، أن يكون المحامى سنه على الأقل سبعة عشر عاما ، وأن يكون قد درس علم الحقوق خمس سنوات ، وأن يؤدى الامتحان فى علم الحقوق أمام محاكم الجهة التى يريد الإقامة بها ، أو أمام محامى المدينة ، ولا بد أن يكون حسن السلوك طيب السمعة ، حتى إنهم كانوا يسألون عن سيرته وسلوكه بطريقة علنية فى حضرة جمع من الأهلين من سائر الطبقات ، ويجب أن يسبق ذلك الاجراء الأخير بأن يكون المتخصصون فى علم الحقوق من الأساتذة والمشترعين قد شهدوا له بالكفاية وسلاسة الادراك ، وبداهة الحجة ونصوع المحجة .

والمبالغة فى قصر صناعة المحاماة على الطبقات الممتازة فى كفايتها ، منع كثير من أوشاب الناس ودهمائهم من الاشتغال بها .

كذلك قد أبيح للنساء أن يدافعن عن غيرهن بادئ ذى بدء ، وبقيت هذه الاباحة قائمة فى الدولة زمنا غير يسير ، لكن حدث أن بعض أولئك النساء دخل قاعة الجلسة على صورة تدعو الى الاستهتار بما يجب أن يكون للقضاء من حرمة ووقار ، فصدر قانون يحظر على المرأة أن ترافع حتى عن نفسها ، غير أن ما بدا يومئذ من اشمئزاز بعض الطبقات من هذا الاجراء العتيق جعل هذا الحظر مخففا ، فأبيح للمرأة أن تترافع عن نفسها دون غيرها .

وهذا دليل آخر على أن أباطرة الرومان وملوكهم ، أحاطوا صناعة المحاماة بحياطة التكريم والتمجيد ، ولذلك كان آباء الشبان الذين يريدون الاحتراف بالمحاماة يرافقونهم أول مرة الى مكان الاجتماع فى موكب حافل ، ويقدمونهم الى مجلس الأعيان ليقرر بدوره أولئك الشبان فى سلك رجال المحاماة ، وقد بلغ من احتفاظ الرومان بقدسية هذه المهنة واعتبارها مع وظيفة القضاء فى كفتى ميزان ، أن يحلف كل محام وكل قاض عند نظر كل قضية على حدتها من القضايا المعروضة ، على ألا يقول المحامى إلا الحق ، وعلى ألا يقضى القاضى إلا بالحق ، وكل منهما يقوم بدوره فى جلسة القضاء عند نظر كل قضية .

ولقد كانت تقاليد الرومان فى بعض جزئياتها يومئذ غريبة ، وإن كانت فى هذا العصر قد بدت رغبة يسعى إليها ويعمل على تحقيقها ، فقد كان عدد المحامين يومئذ محدودا ، وقد رأى المهيمنون على مرافق الدولة تلقاء هذا التحديد ألا يقبل محام فى سلك المحامين إلا إذا خلا مكان بموت أو نحوه ، وكان يؤثر بالتقديم أبناء المحامين مكافأة لآبائهم واعترافا لهم بما قدموا الى العدالة من أثر مشكور . لكن هذا الاجراء كان مسبوقا بظاهرة وإن بدت غريبة إلا أنها طريفة ، فقد أباحوا أولا للخصوم وأرباب الدعاوى أن يختاروا المحامين عنهم تحريا لأفضل وجوه الطمأنينة التى يجب أن تتوافر بواعثها فى قلوب المتقاضين ، لكن بدا بالتجارب الطويلة أن ذلك الاجراء لم يؤد ثمرته المرجوة له ، بل بالعكس أفضى الى تشعب فى الآراء والتواء فى الميول ، فعمل على محو تلك الظاهرة وأقر مبدأ تحديد عدد المشتغلين بالمحاماة على ما أسلفنا بيانه .

وسوف نحاول فى أعداد تالية أن نضع أمام حضرات القراء مثلا عليا فى قديم الزمان وحاضره لأفضل تراث خلفه أسلافنا ، لننهج عليه من بعدهم ، ولنكون قدوة صالحة لخلوفنا من بعدنا ، فإلى الغد القريب ؟

عباس طه

بسم الله الرحمن الرحيم

السيرة المحمدية

تحت ضوء العلم والفلسفة

الأمور الخارقة للنواميس الطبيعية فى وقعة بدر

تمتاز العصور النبوية ، بالخوارق للنواميس الطبيعية ، فأساطير الأديان ملأى بذكر حوادث من هذا القبيل ، كان لها أقوى تأثير فى حمل الشعوب التى شهدتها على الإذعان للمرسلين الذين حدثت على أيديهم . وقد حدثت أمور من هذا القبيل فى العصر المحمدى ، صاحبت الدعوى فى جميع أدوارها ، وكانت أعظم شأنا وأجل أثرا ، من كل ما سبق من نوعها . ولست أقصد بها ما تناقله النـاس من شق الصدر ، وتظليل الغمامة ، وانشقاق القمر ، وما اليها مما لا يمـكن إثباته بدليـل محسوس ، أو مما يتأتى توجيهه الى غـير ما فـهم منه ؛ ولـكنى أقصد تلك الانقلابات الأدبية والاجتماعية التى تمت على يد محمد صلى الله عليه وسلم فى أقـل من ربع قرن . وقد أعوز أمثالها فى الأمم القرون العديدة ، والآماد الطويلة .

وقد لاحظ قراؤنا أننا نحرص فيما نـكتبه فى هذه السيرة ، على أن لا نسرف فى صرف كل حادثة الى ناحية الاعجاز ، ما دام يمكن تعليلها بالأسباب العادية ، حتى ولو بشىء من التـكلف ، مسايرة لمذهب المبالغين فى التثبت ، والمحافظين على إقامة الدستور العلمى ، ثقة منا بأن بحثا لا تحترمه النخبة المثقفة ، ولا تجد فيه صورة صحيحة لمثلها الأعلى فى عرض المسائل وتحليلها ، لا يمكن أن يؤدى الى ما قـصد منه من الخدمة العامة .

وقد أتيت بتاريخ وقعة بدر التى كان لهـا شأن عظيم فى كسر شرة أنصار الجاهلية ، والطأمنة من خيلائهم وكبريائهم ، ولم ألم بمـا صحب هذه المعركة من الأمور الخارقة للطبيعة ، فأحببت أن لا يفوتنى التنويه بها ، لأنها من قبيل الحوادث المحسوسة . ولأجل أن نعرضها على وجهها الـكامل لنتبين وجه إعجازها ، نأتى على الآيات التى وردت فى شأنها من الـكتاب الـكريم ، قال الله تعالى فى سورة آل عمران : « ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة ، فاتقوا الله



لعلكم تشكرون » الى قوله تعالى : « ليقطع طرفا من الذين كفروا أو يَكبِتهم فينقلبوا خائبين . ليس لك من الأمر شيء ، أو يتوبَ عليهم أو يعذبَهم فانهم ظالمون » . يذكّر الله المؤمنين بما أمدهم به من عنايته إذ نصرهم فى موقعة بدر ، وهم قليلو العدد لا يغنون عن أنفسهم شيئا . ومراده من ذلك أن يبيد طائفة من الذين كفروا ، أو يخزيهم ويغيظهم ، فينقلبوا خائبين . ثم وجه الحق سبحانه القولَ الى رسوله فقال : ليس لك من أمر تدبير العباد شيء ، فامض لما يوجهك الله اليه ، فانه هو الذى يدبر أمر خلقه ، فإما أن يتوب عليهم وإما أن يعذبهم على أعمالهم فانهم ظالمون .

وقال تعالى فى سورة الأنفال مشيرا الى وقعة بدر : « وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم (قافلة التجارة أو جيش المشركين) ، وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ، ويريد الله أن يُحق الحق بكلماته ويَقطع دابر الكافرين . ليُحق الحق ويبطل الباطل ، ولو كره المجرمون . إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملائكة مردِفين . وما جعله الله إلا بشرى ولتطمئن به قلوبكم ، وما النصر إلا من عند الله ، إن الله عزيز حكيم . إذ يُغَشّيكم النعاس أَمَنة منه ، وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ، ويذهب عنكم رجز الشيطان ، وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام . إذ يوحى ربك الى الملائكة أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا ، سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب ، فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان » الى قوله : « فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم ، وما رميتَ إذ رميت ولكن الله رمى ، وليبلى المؤمنين منه بلاء حسنا إن الله سميع عليم . ذلكم ، وأن الله موهن كيد الكافرين . إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح ، وإن تنتهوا فهو خير لكم ، وإن تعودوا نعد ، ولن تغنى عنكم فئتكم شيئا ولو كثرت ، وأن الله مع المؤمنين » .

معنى هذه الآيات : اذكروا إذ وعدكم الله النصر على إحدى الطائفتين : قافلة التجارة أو جيش المشركين ، فوددتم أن يكون نصيبكم غير ذات القوة منهما ، ولكن الله يريد أن يظهر الحق بكلماته ، أى بكتابه ، وأن يستأصل الكافرين . لينصر الحق ، ويزيل الباطل ، ولو كره ذلك المجرمون . واذكروا إذ تطلبون الإغاثة من ربكم بسبب كثرة عدوكم ، فاستجاب لكم ووعدكم بان يمدكم بألف من الملائكة متتابعين . وما جعل الله هذا المدد إلا بشرى لكم ، ولتطمئن به قلوبكم ، وما النصر إلا من عند الله ، لا بقوتكم ولا حيلكم . واذكروا إذ جعل الله النعاس يغشاكم وأنتم وسط ذلك الخوف ، ليذيقكم نعمة الأمن ، وأنزل لكم من السماء ماء ليروى ظمأكم ويطهركم به ، وليذهب عنكم وسوسة الشيطان ، ويحليكم برباطة القلب ، ويثبت أقدامكم حين تلتقون بأعدائكم . واذكروا إذ أوحى ربكم الى الملائكة أنى معكم فثبتوا المؤمنين فى الحرب ، سألقى فى قلوب الكافرين الرعب ، الخ . وقد عدتم من وقعة بدر تفتخرون بعدد من قتلتموهم ،

والحقيقة أنكم لم تقتلوهم ، ولكن الله هو الذى قتلهم ، وما رميتَ يامحمد حين رميتهم بحفنة من الحصباء قائلا شاهت الوجوه ، ولكن الله هو الذى رمى ، وقد امتحن الله المؤمنين بهذه النعمة ، ذلكم كان القصد ، والله مضعف كيد الكافرين . إن تستفحوا أيها المشركون ، أى إن تطلبوا النصر على المؤمنين ، فقد جاءكم النصر (الكلام مسوق على سبيل التهكم) ، وإن تقلعوا عن شرككم فهو خير لكم ، وإن تعودوا لمحاربة المؤمنين نعد لنصرتهم عليكم ، ولن تغنى عنكم فئتكم شيئا ولو كثرت ، وإن الله مع المؤمنين .

الذى يتأمل فى هذه الآيات يدرك منها أمورا لا يمكن التردد فيها :

(أولها) أن المسلمين فى وقعة بدر كانوا قليلين وناقصى العتاد ، بحيث كانوا لا يأملون الانتصار على عدوهم فى كثرة عَدده واكتمال عُدده ، وقد عبر الله عن حالتهم ذلك اليوم بأنهم كانوا (أذلة) ، والانسان لا يشعر بالذل إلا فى حالة العجز واليأس . فاذا لم يكونوا يشعرون بأنهم كانوا ذلك اليوم أذلة ، ساء ظنهم فى الوحى ودخلهم الشك فى مصدره .

(ثانيها) أنهم كانوا ، وهم رجال حرب وجلاد ، لا يتوقعون النصر يوم بدر إلا إذا جاءهم من طريق الاعجاز ، ويدل عليه قوله تعالى : « إذ تستغيثون ربكم ، فاستجاب لكم إنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين » . ولو كان الأمر ذلك اليوم عاديا لا يتطلب العون الإلهى المباشر ، لكان فى ذكر المدد الملكى هنا ، توهين للدعوة الاسلامية عند أهلها وعند خصومهم .

(ثالثها) أنهم انتصروا على أعدائهم نصرا مؤزرا ، وهم يعتقدون أنهم مُنحوه منحا ، ولم يستحقوه بقوتهم استحقاقا ، بدليل قوله تعالى : « فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم ، وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى » . ذلك أن رجالا منهم عادوا من المعركة يذكرون أسماء من قتلوهم ، وكان النبى صلى الله عليه وسلم عند بدء المعركة تناول حثوة من الحصباء ورمى المشركين بها قائلا : (شاهت الوجوه) ، فردعهم الله عن إسناد هذا النصر وما اقتضاه الى أنفسهم ، وأمرهم باسناده الى الله وحده . ومراده أن يعرفوا أنهم لو كانوا تُركوا وشأنهم بدون تأييد سماوى ، لما تمكنوا من قتلهم والتغلب على من بقى منهم . وهذا إذا لم يكن صحيحا فى تقدير رجال الحرب المحنكين ، وناهيك بعرب الجاهلية ، لكان تأثيره فى قلوب سامعيه عكسيا ، أى أنه كان يصد عن الايمان بصحة الاسلام ، ويوقر فى صدور الناس أنه يعتمد على الابهام ، وتجسيم الحوادث ، لكسب الأعوان والانصار لأغراض دنيوية باحتة .

وإذا كان الأمر على ما رأيت فان هذه الموقعة جديرة بأن يكون لها من الأثر فى تثبيت إيمان المؤمنين ، وتوثيق ارتباطهم بالاسلام ، ما عُزى إليها . وقد أشاد المسلمون بذكرها ، ونوهوا بشأنها ، ما لم يفعلوه بجميع ما تلاها من الوقائع ، حتى إنهم دونوا أسماء من شهدها من المسلمين الأولين ، وذكرها الشعراء فى أشعارهم . قال أبو تمام الطائى فى بائيته المشهورة

التى مدح بها المعتصم ابن الرشيد عقب انتصاره العظيم على أمبراطور الرومان تيوفيل سنة (٢٢٣) للهجرة :

ما بين أيامك اللائى نُصرت بها وبين أيام بدر أقربُ النسب

***

وإذا قلبنا هذه المسألة على وجه ثان وجدنا أن جانب الاعجاز فى هذه الموقعة يتجلى بمرجحات من نوع آخر . ذلك أن النبى صلى الله عليه وسلم لما ندب أصحابه لملاقاة قافلة التجارة التى لقريش ، لم يأخذوا أهبتهم لقتال ، ولكن لمنازلة عصابة من الحراس . والتأهب لمثل هذا الشأن غير التأهب لملاقاة جيش محارب . فاذا كان منازلة العصابة لا تقتضى أكثر من الهجوم عليها بالاسلحة الخفيفة واغتصاب ما بيدها ، ثم تشريدها وأسر من يقع فى اليد منها ، فان مكافحة جيش يستدعى التذرع له بجميع ما للحروب من أُهَب آلية ، كالأسلحة والتروس والدروع ، وأدوات للقطع والحفر والتحطيم ، وأهب للتموين والزحف والحصار والمواصلات .

وقد ظهر هذا الفرق على أشد حالاته عندما أخبر النبى صلى الله عليه وسلم أن الله قد وعده إحدى الطائفتين ، إما التجارة وإما جيش قريش ، فاختاروا أن يتحقق وعد الله فى التجارة ، محتجين بأنهم لم يتخذوا للحرب عدتها ، ولم يقل لهم النبى حين ندبهم أنهم قد يُدعون لملاقاة جيش مقاتل .

فلما أفلتت التجارة تعين عليهم أن ينازلوا الجيش المقاتل ، وكيف يتأتى ذلك وهم مع قلة عددهم لم يتخذوا للحرب عدتها ؟ وقد أدى ذلك الى موقف من التردد أدركه النبى صلى الله عليه وسلم وعمل على ملافاته ، وهذا الاقدام لا يكون مع وجود هذا العامل الخطر من التردد فى جيش محارب إلا إذا كانت ثقة قائده بالنصر مطلقة ، وكيف لا تكون كذلك وهو رسول وقد وعده الله إحدى الطائفتين ، وقد أفلتت إحداها فلا بد أن يكون مصداق وعد الله الأخرى .

فإذا لم يكن قائد هذه الفصيلة من المحاربين نبيا ، واثقا كل الثقة من صدق ما ينزل عليه من الوحى ، لما أقدم على الزج بمن تحت إمرته فى الحرب ، وهم على ما هم عليه من الاختلاف والتهيب ، لأنه كان يتحقق أن هزيمتهم لا بد منها لأسباب فنية وجيهة :

(أولها) تفوق العدو فى العدد بحيث كان على نسبة ٣ على ١ ، وهذا يعتبر فى عرف الحربيين تفوقا ساحقا ، لا يكون فيه للقلة أمل فى الظفر إلا إذا كان لديها من العتاد ماليس عند الأخرى ، أو من المناعة الطبيعية ما ليس مثله لخصيمتها .

(ثانيا) تفوق العدو فى الأسلحة ، وهى العوامل الفاصلة فى الحروب كما لا يخفى .

(ثالثها) تحقق الجيش المحارب من تفوق عدوه عليه فى عوامل الغلَب .

فالقائد الذى يدفع بجيشه فى أتون الحرب مع تحققه من تأثير كل هذه العوامل ، ويقول كما قال النبى صلى الله عليه وسلم : « أبشروا والله لكأنى أنظر الى مصارع القوم » وقوله : « اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحادك وتكذب رسولك ، اللهم فنصرك الذى وعدتنى به » ، قلنا إن القائد الذى يدفع بجيشه للحرب ، مع توافر أسباب الضعف فى جنوده ، وهو واثق بالفوز هذه الثقة ، لا يعقل أن يكون صادرا فيها عن مغامرة ، إلا إذا كان بريد المجازفة بكل ما يملك من نفس ومال وأهل ، وما الذى كان يدفع محمدا لذلك ولم يكن مضطرا إليه بحال من الأحوال ؟ فلا قومه كانوا يقولون له قد غررت بنا وادعيت أنك فائز ولم تفز ، لأنهم هم الذين كانوا يطلبون إليه الرجعى بدون حرب ؛ ولا مشروعه كان يتعرض للفشل لو رجع بدون قتال ، لأن العدو لم يكن ينوى أن يهاجمه فى عقر داره ، ولو فعل لاستهدف للهزيمة لأن القوة التى كانت معه لا تسمح له بالشروع فى حرب استئصال ؛ ولاهو كان يخشى أن يتفرق أصحابه عنه إذا عاد ولم يلق فلجا ، فقد خرج مرارا للاستيلاء على تجارة قريش وعاد دون أن يعمل شيئا لإفلاتها منه ، فلم يؤثر ذلك فى إيمان أصحابه به . فلم يبق إلا أنه دفع قومه فى هذه المعركة التى لم يستعدوا لها ، ثقة منه بما وعده الله من الفوز على إحدى الطائفتين ، وقد أفلتت إحداهما فلا بد أن يصدق وعد ربه فى الأخرى ، فدفع أصحابه الى منازلتها واثقا بالنصر ثقة لا حد لها ، لأن الله لا يخلف وعده كما قال فى كتابه الكريم : « فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله » . فحقق الله ظنه فيه ، وآتاه نصرا أيد به حجته ، وقوى عزيمته ، وجعله فاتحة لانتصارات أخرى سيكون من آثارها ما ابتنى عليها من الحوادث العالمية الخطيرة .

رد شبهة فى هذا الموطن .

قد يقول معترض : ليس فى انتصار محمد فى وقعة بدر ما يصح أن يجعل فى عداد المعجزات النبوية . فاذا كانت جميع عوامل الغلب تنقص المسلمين فى تلك الموقعة ، فهنالك عامل خطير جدا كان متوافرا لديهم ، وهو الثقة المطلقة فى نبوة قائدهم ، وأنه ما ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحى يوحى . فاذا اتفق لقائد أن يكون تحت إمرته رجال يثقون بكلامه ، ويصدقونه كما يصدق أصحاب محمد محمدا ، لاقى بهم الأهوال ولم يبل ، لأن عقيدتهم تضاعف من قوتهم ، وتكسبهم روحا تدفعهم فى الكريهة بغير مبالاة بما يصيب أجسادهم ، وتجعلهم لا يشعرون بما يشعر به الرجال المجردون من مثل هذه الروح من التعب والنصب ، وخاصة إذا كانوا يعتقدون أنهم إذا ماتوا انتهوا الى جنة عرضها السموات والأرض ، أعد لهم فيها من ضروب المتع ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . فهل تعجب بعد ذلك أن يكسب محمد معركة بدر ولديه من أمثال هؤلاء الرجال ثلاثمائة أزاء ألف ؟ إن العجب كان أن لا تفوز هذه الشرذمة بالغلب على عدو لا يملك من وسائل الكفاح إلا ما لديه من العتد العادية .

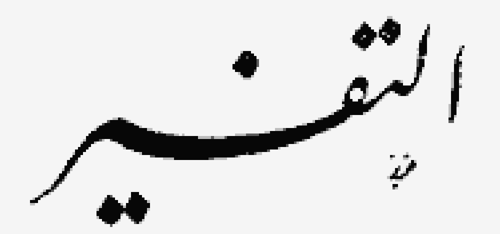
نقول : إن هذه الشبهة فى ظاهرها قوية ، لاستنادها الى أصول بسيكولوجية ، ولكنها فى الواقع شعرية خيالية ، وقائمة على افتراضات تحكمية ، فإن الأصول النفسانية التى تقوم عليها لو صدقت على عشرة رجال أو عشرين بل خمسين ، فلا تصدق على المئين ، لا سيما وقد كان معظمهم قريبى عهد بالاسلام ، ولم تظهر لهم بعد من مظاهر تأييد الله لرسوله فى المآزم ، ما يتخذونه مثالا لهم فيما هم بسبيله من منازلة جيش يفوقهم عددا وعدة ، وفيه من الأبطال المعدودين عدد ليس بالقليل . فعناصر الاستماتة فى القتال التى يفترض المشتبه وجودها فى جيش الصحابة إن وجدت فيه ، فلا توجد بالقدر الذى يوجب لهم التغلب على عدو لا ينقصه من عوامل التغلب شىء ، حتى عامل النعرة القومية ، فإن الجاهليين كان قد أمضهم تسفيه أحلامهم ، وتحقير آبائهم .

ولو أضفت الى هذا عامل تنازع البقاء ، وهو ما لا بد من أن يكون قد تيقظ فيهم بسبب قيام المسلمين على طريق تجارتهم ، يتصدون لها كلما مرت بهم ، فيضطروا إما الى زيادة عدد حامياتها ، وإما الى الاقلاع عن إرسالها ، وكلا الأمرين غير محتمل . فكان من أمس الأمور بمعاشهم أن يستبسلوا فى إبادة هذه الطائفة التى قامت عقبة فى سبيل مبادلاتهم ، وهم ما آثروا الحياة الحضرية ، فى مدينة مبنية ، ليموتوا فى حجرات دورها جياعا عارين ، ولكنهم تخيروها ليعيشوا عيشة المدنيين ، مع كل ما تقتضيه حياة الاستقرار من المبادلات والمعاوضات ، وهذه لا تكون إلا بتأمين الطرق ومسالمة الجماعات التى تقوم على جانبيها ، أو إخضاعها لسلطانهم .

إذا اعتبرت كل هذا وجدت أن جيش الجاهليين لم تكن تنقصه عوامل الاستبسال والاستماتة فى القتال ، وإذا أضفت الى ذلك تفوقه فى العَدد والعُدد ، أدركت أن التغلب عليه بشرذمة لم تتخذ كل عدتها لحرب زبون ، يعتبر آية من الآيات فى تلك البيئة التى كان أهم مايحرك الهمم فيها الى حدود التضحية، عامل الحاجات الأولية لحفظ الذات ، لا عامل الدفاع عن العقائد ، والذياد عن المبادئ . ناهيك أن تلك البيئة التى كانت لا تنقطع سلسلة الغارات فيها بسبب تنازع البقاء ، لم تنشأ فيها حرب واحدة فى مدى تاريخها الطويل ، لنصرة دين على دين ، أو مذهب على مذهب . فكانت وقعة بدر أول ما حدث من نوعها فى هذا الركن المنعزل من الأرض .

فان أصر المعترض على شبهته ، قلنا له : إن نضج العاطفة الدينية طفرة الى حد تضحية النفس فى سبيلها ، لدى قوم كعرب الجاهلية لم تؤثر عنهم حماسة دينية طوال عهدهم بالوجود ، يعتبر أكبر من المعجزة الحربية التى نحن بصددها ، وأدل على المدد الإلهى منها . فعلى أى أساس صحيح يستطيع البسيكولوجى أن يعلل انتصار المسلمين على عدوهم فى بدر بأسباب طبيعية محضة لا أثر للاعجاز فيها ؟

محمد فريد وجدى



سورة الشمس وضحاها

بسم الله الرحمن الرحيم

سبق الكلام على قوله تعالى « والشمس وضحاها » . أما قوله « والقمر إذا تلاها » فنقول فيه : اختلف المفسرون فى تلو القمر للشمس على أقوال ، وأظهرها ما قيل من أن المراد ظهوره عقيب غروبها ، وذلك عندما يكون بدرا ليلة أربعة عشر . وأقسم به فى هذا الحال لظهور سلطانه ، واستكمال جماله الرائع ، وحسنه البارع ولك أن تقول : إنه تلاها فى الضوء لعظمة أمره وقوة نوره إذ ذاك ، فكأنه شمس ليلية تجلت بعد غروب الشمس النهارية . ويقول قائلون : إن المراد أنه تابع لها ومستفيد نوره منها ، فان نور القمر مستفاد من نور الشمس كما هو معروف .

هذا ، والقمر أقرب الأجرام السماوية إلينا ، وأكبر ما تراه العين بعد الشمس من الكواكب ، وكما أن الأرض تدور حول الشمس فى عام كامل ، فكذلك القمر يدور حول الأرض فى كل شهر مرة . أما ظهوره هلالا ناقصا فبدرا كاملا ، فلكون نوره مستفادا من نور الشمس وليس ذاتيا له ، فلا غرو أن يختلف باختلاف نسبته إليها قربا وبعدا ولذلك ينكسف بالكلية عند ما تحول الأرض بينه وبينها وهو وقت الخسوف المعروف . والقمر من أكبر النعم وأبهر الآيات وأبهج المناظر التى تورث البهجة والسرور .

ثم قال تعالى : « والنهار إذا جلّاها » :

يقسم تعالى بالنهار إذا جلى الشمس وأظهر نورها وسلطانها ، والمراد إذا جلى الله الشمس فى النهار ، فالإسناد مجازىٌ كصام نهاره . وقيل إن الضمير يعود على الأرض ، أى جلّى النهار الأرض بعد ما كانت مستترة بظلمة الليل ، فالضمير عائد على معلوم غير مجهول . ومثل ذلك قول من قال إن الضمير يعود على الدنيا . وقيل إن الضمير يعود على الظلمة المعلومة من المقام . والمراد بتجليتها على هذا القول إزالتها . والقول الأول أولى لذكر المرجع واتساق الضمائر . وجوز بعضهم أن يكون الضمير المرفوع المستتر فى جلاها عائدا عليه تعالى ، كأنه

قبل : والنهار إذا جلى الله تعالى الشمس فيه . فيكون قد أقسم سبحانه بالنهار فى أكمل حالاته . ولـكنه بعيد غير متبادر .

ثم قال تعالى : « والليل إذا يغشاها » :

أى الشمس ، أى يغطى ضوءها . والكلام فى الضمير المنصوب على نحـو ما سمعت فى سابقه ؛ والأولى عوده الى الشمس لا للأرض ولا للدنيا على ماعلمت . وجيء بصيغة المضارع فى « يغشاها » إحضارا للصورة العجيبة التى تأخذ بمجامع القلوب ، وتطير بالنفوس الى علام الغيوب . وحقا إن غشيان الليل للنهار لمن أبهر الآيات ، وأعظم النعم المتواترات ؛ وكذلك مجيء النهار بعده . فسبحان الحكيم العليم « قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدا الى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون . قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمدا الى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون . ومن رحمته جعل لـكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون » . وما أشبه حال الناس وهم نائمون بالليل بحالة من فى القبور ! وما أشبه حالهم عند الانتباه وقت الصباح بحالهم إذا بعثوا من قبورهم ! « فهل من مدكر » .

ولا بأس أن نقول لك : إن الأولى فى إذا أن تكون منصوبة على الظرفية ، مجردة عن الشرطية ، والعامل فيها مضاف مقدر بعد واو القسم ، وكأنه قيل : أقسم بعظمة كذا وقت كذا ، لأن هذا الوقت هو وقت ظهور سلطانه ، وتجلى برهانه .

ثم قال تعالى : « والسماء وما بناها » :

أى من بناها . وإيثار ما على من لإرادة وصف العظمة فى من بناها ، والجـلال فى من سواها . وإذا أريد ذلك كان المقام لما ، لالمن ، كما هو مقرر فى محله ، فكأنه قيل : والقادر العظيم الذى بناها . على أن ما قد يعبر بها عن ذوى العلم كثيرا . والمراد ببنائها إيجادها .

هذا ثم نقول : إن عظمة السماء لتأخذ بلب من ينظر إليها متأملا فيها ، فلا يستطيع المرء أن يرفع بصره نحو السموات العلى إلا ويغض إجلالا وإعظاما . انقضت العصور وتولت الدهور والبشر معجبون مسحورون بجمال القبـة الزرقاء وجـلالها ، يتطاولون الى إدراكها بالخيال ، ويستنزلونها الى الأرض بالقرائح ، فـلم يستطلعوا من أمرها ، ولم يخبروا من خبرها شيئا إلا مشوبا بالأوهام ، وشبها بالأحـلام . والفضل الأكبر فى تقديرها قدرها ، وتعريف ما يقرب من الحقيقة فى شأنها ، إنما هو فضل علم الفلك الذى عرفنا أن النجوم تزيد على مئات الألوف ، وأن نور بعضها لا يصل إلينا إلا بعد ألف سنة ، وأكثر من سرعة النور الذى يسير فى الدقيقة ٩٢ مليونا من الأميال . فهو الذى عسى أن يكون أنبأنا عن عظمة تلك القبة الزرقاء التى نوه بشأنها عز وجل فى مواضع كثيرة من القرآن .

ولنتل هنا قوله تعالى : « إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب . الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار » . « أو لم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شىء ، وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم ، فبأى حديث بعده يؤمنون » ، « إن فى اختلاف الليل والنهار وما خلق الله فى السموات والأرض لآيات لقوم يتقون » .

ولنقف هنا اليوم سائلين الله التأييد والتسديد ، منشدين قول القائل :

يا خالق الخلق يا من لا شريك له ... طوبى لمن عاش بين الناس يهواك
والله ما أنست روحى ولا فرحت ... فى الدهر ما بقيت إلا بذكراك
إنى لأعجب ممن قد رأى طرفا ... من فرط لطفك ربى كيف ينساك

يوسف الدجوى
عضو جماعة كبار العلماء



فضيلة الجود

قال حكيم : من جاد ساد ، ومن ساد قاد ، ومن قاد ملك العباد .

يروى أنه قيل للاسكندر : لم لا تكنز الأموال كما كانت تفعل الملوك ؟ فقال : كنوزى هم أصحابى أكنز الأموال فيهم لا فى البيوت .

نقول يطابق هذا القول ما ورد عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب أنه قال : أحسن الكنوز محبة القلوب .

والى هذا يشير الشاعر بقوله :

وما مال من أعطى الكرامَ بناقص ... ولكنه عند الكرام ودائع

وأحسن منه قول الامام الشافعى رضى الله عنه :

وأحسن الى الأحرار تملك رقابهم ... وخير تجارات الكرام اكتسابها

وقال البستى :

من جاد بالمال مال الناس قاطبة ... اليه والمال للانسان فتان
من كان للخير مناعا فليس له ... على الحقيقة إخوان وخلان

السنة

الظلم والشح

عن جابر رضى الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « اتقوا الظلم ، فان الظلم ظلمات يوم القيامة ؛ واتقوا الشح ، فان الشح أهلك من كان قبلكم ! حملهم على أن سفكوا دماءهم ، واستحلوا محارمهم » رواه مسلم .

يتعلق بشرح هـذا الحديث أمران (١) بيان معنى الظلم وآثاره الضارة فى الشريعة الإسلامية (٢) بيان معنى الشح وآثاره الضارة بين الناس .

(١) كل الناس يعرفون معنى الظلم ، ويدركون معنى العدوان على الأنفس والأعراض والأموال والحقوق العامة والخاصة ، فاذا اعتدى أحد على غيره فى نفسه أو ماله أو عرضه ، أو سلبه حقا من حقوقه فقد ظلمه ، ومن يفعل ذلك فقد خسر خسرانا مبينا ، وكان عرضة للهلاك فى الدنيا والآخرة .

لقد نهى الله عن الظلم فى غير موضع من القرآن الكريم ، ولعن الظالمين وهددهم بأشد أنواع الجزاء ؛ ومن ذلك قوله تعالى : (ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون ، إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار مهطعين مقنعى رءوسهم لا يرتد إليهم طرفهم . وافئدتهم هواء) .

فلينتظر الظالمون الذين يفلتون من الجزاء الدنيوى على ما كسبت أيديهم عقاب الله تعالى يوم القيامة ، وإن عقابه لشديد ، وإن أخذه لأليم . ومعنى تشخص فيه الأبصار لا تقرفيه أبصارهم من شـدة الهول والفزع . ومعنى مهطعين ، مسرعين الى من يدعوهم . كما هو شأن الأسير الذى لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا . ومعنى مقنعى رءوسهم . رافعى رءوسهم من شدة الهول . ومعنى لا يرتد إليهم طرفهم ، لا يرجع إليهم نظرهم فينظروا الى أنفسهم . ومعنى وأفئدتهم هواء ، قلوبهم لا تعى شيئا من شدة الفزع والهول .

والغرض من هذه الآية الكريمة تمثيل الحالة التى يكون عليها الظالمون يوم القيامة ، يوم لا ينفع مال ولا بنون ؛ فبين الله سبحانه أن جريمة الظلم يترتب عليها يوم القيامة من العذاب والفزع ما سيصعق له الظالمون الذين ينتهكون حرمات الضعاف بقوتهم ، ويستعذبون التنكيل بعباد الله بدون أن يحسبوا لخالقهم حسابا ؛ فبين سبحانه أن هؤلاء الظالمين سيستولى عليهم فزع العذاب وهول الموقف ، فيذهب بعقولهم ، ويتملك مظهرُ ذلك الفزع حواسَّهم ، فتشخص أبصارهم

بحيث لا يستطيعون أن يحركوا رءوسهم كما يشاءون ، كما هو شأن الولهان الفزع الذى تفاجئه الـكوارث ، وتزعجه النائبات .

ومما لا ريب فيه أن هـذه الآية الـكريمة قد بينت ما سيلاقيه الظالمون من هول وفزع أحسن بيان . وإن فيها لعظة وعبرة للطاغين الذين تغرهم شهوة الجاه والسلطان فيسلبون الناس حقوقهم ويؤذونهم فى أموالهم ، وأعراضهم ، وأنفسهم ، وحقوقهم ، وهم ناعمون متلذذون بسلطانهم الزائل . وما ربك بغافل عما يعمل الظالمون .

أما الأحاديث الواردة فى التحذير عن الظلم ، وتخويف الظالمين ، فهى كثيرة لا تقف عند حد . ومنها هذا الحـديث الذى نشرحه . فقد أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نتقى شر الظلم ، ونتحاشاه ، لأن شره مستطير ، ولا بد أن ينتقم الله من الظالمين فى الدنيا والآخرة إن لم يتوبوا من ظلمهم ، ويرجعوا عن غيهم ، ويردوا الحقوق لأربابها .

ومن ذلك ما رواه مسلم وغـيره من أن رسول الله صلى الله عليه وسـلم قال : أتدرون ما المفلس ؟ قالوا المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع . فقـال : إن المفلس من أمتى من يأتى يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ، ويأتى وقد شتم هذا ، وقذف هذا ، وأكل مال هـذا ، وسفك دم هذا ، وضرب هذا ، فيعطى هـذا من حسناته ، وهذا من حسناته ، فان فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه ، أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ، ثم طرح فى النار » . ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : « إن الله يملى للظالم ، فاذا أخـذه لم يفلته » . رواه البخارى ومسلم وغيرهما ، وقـد جاء فى آخر هذا الحديث ذكر قوله تعالى : (وكذلك أخـذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة ، إن أخذه أليم شديد) ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : « صنفان من أمتى لن تنالهما شفاعتى : إمام ظلوم غشوم ، وكل غال مارق » رواه الطـبرانى . وقوله صلى الله عليه وسلم : « دعوة المظلوم مستجابة وإن كان فاجرا ففجوره على نفسه » : رواه أحمد باسناد حسن . وجاء فى بعض روايات الصحيح : « اتقوا دعوة المظـلوم ولو كافرا » الى غير ذلك من الأحاديث الـكثيرة الصحيحة الدالة على أن الدين الاسلامى قد حث الناس على ترك الظلم ، ونهاهم نهيـا شديدا عن إيذاء بعضهم بعضا فى أموالهم ، وأعراضهم ، وأنفسهم ، وأمرهم باقامة العدل والاحسان فيما بينهم ، فلا يعتدى قوى على ضعيف ، ولا يجور ذو سلطان على الناس بمـا أتاه الله من جاه ومنصب ، ومن لم يتبع أمر الله تعالى فانه لابد أن يكون نصيبه الهلاك فى الدنيا ، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى .

إن هذا القدر الذى ذكرناه من شناعة الظلم فى نظر الشريعة الاسلامية ظاهر قد لا يخفى على أحد من الناس ، ولـكن الذى يجب على المسلمين أن يتنبهوا له ، ويحاربوه بكل ما لديهم من قوة ، هو ما يبعثهم الى الوقوع فى مثل هذه المحظورات الموبقة التى قضت على كثير من قوتهم المـادية ، والأدبية ، وأورثتهم ذلا بعد عز ، ومهانة بعد شرف وكرامة . فمن أهم

الوسائل الباعثة على ارتكاب جريمة الظلم تحكم سلطان الشهوات على الأنفس ، والرغبة فى الحصول على أكبر قسط ممكن من تلك الشهوات الفاسدة التى تنقضى سراعا ، ثم تترك وراءها حسرات لا تنقضى ولا تفنى ، وشقاء لا ينقطع ، وعذابا أليما . فترى ذوى الجاه والسلطان تزين لهم بطانة السوء حب سماع النمائم والوشايات ، فيبطشون بالمؤمنين الغافلين الأبرياء طاهرى القلوب سليمى الصدور ، ويذيقونهم من أنواع الظلم والحيف ما قد يقضى على أرواحهم وأموالهم وكرامتهم ، ويسلبهم حقوقهم الطبيعية وهم غافلون .

وترى كثيرا من الناس يكادون يكونون فوضى فى باب الأموال ، فكل من أتيح له أن يستولى على مال الغير بأية وسيلة من الوسائل لا يتأخر عن ذلك بدون مبالاة بأوامر ربه ونواهيه . ألم ينه الله تعالى نهيا شديدا عن الغش والخيانة وتطفيف الكيل والميزان ؟ ألم يقل سبحانه : (ويل للمطففين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون ، وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون) ؟ ألم يقل سبحانه : (ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها الى الحكام لتأكلوا فريقا من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون) ؟ ألم يقل : (الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون فى بطونهم نارا وسيصلون سعيرا) ؟ ألم يقل صلى الله عليه وسلم : (كل لحم نبت من حرام ، فالنار أولى به) ؟ ألم يقل : (من غشنا فليس منا) ؟ الى غير ذلك من النهى الشديد الجازم عن الظلم فى باب الأموال . فما بال المسلمين يظلم بعضهم بعضا ، ويغش بعضهم بعضا . ألا إن ذلك لهو الخسران المبين .

وترى كثيرا من الناس يكادون يكونون فوضى فى شهوة الفرج ، فلا يبالون بانتهاك الحرمات ولا يحسبون للتعدى على الأعراض حسابا ، فلا زاجر يزجرهم ، ولا دين يحول بينهم وبين ارتكاب جريمة الزنا ، وما فى معناه من الرذائل الخلقية التى تمحو الفضائل كأنهم بهم لا يعرفون للانسانية معنى . وأشنع من هذا وذاك ما يرتكبه بعض قساة القلوب من قتل الأنفس البريئة التى حرم الله قتلها وأعد للقاتل عذابا أليما . قال تعالى : (ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذابا عظيما) .

يفعل المسلمون ذلك ، ويتركون دينهم وراءهم ظهريا ، كأنهم لم يسمعوا قول النبى صلى الله عليه وسلم : (كل المسلم على المسلم حرام : دمه ، وعرضه ، وماله) . ألا فليعلم المسلمون أن ارتكاب هذه الجرائم ، واقتراف هذه المظالم هى السبب فى انحطاطهم وتأخرهم ، ولا ينفعهم إلا أن يرجعوا الى الله ربهم ، ويعملوا صالحا ، لعلهم يفلحون .

٢ — أما معنى الشح ، فهو الإمساك عن الإنفاق حيث يجب البذل ، سواء كان واجبا دينيا كزكاة المال ، والنفقة على الزوج والأولاد ونحوهم ممن تجب على المكلف نفقتهم ، ومثل ذلك الإنفاق على إحياء نفس يتوقف على ذلك الانفاق إحياؤها ، أو كان واجبا تقتضيه المروءة بأن ينفق ما يناسب حاله ، فلا يليق أن يكون ذا مال كثير ويعيش عيشة البؤساء ،

أو يضيق على أولاده وأهله ، فيحرمهم من أنعم الله تعالى ، أو يسقط كرامته فى البيئة التى يعيش فيها ، فيصبح بذلك عرضة لتحقير الناس إياه ، وغير ذلك من الأمور التى تخل بالمروءة . فإذا حفظ الانسان نفسه من هذا لا يكون بخيلا فى نظر الدين . أما كونه كريما فذلك تابع لحالته المالية ، وتفاوت أنظار الناس فى تقدير الكرم ، والذى يحفظ الانسان من شر الشح هو العمل بقوله تعالى : (والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما) .

أما شر مضار الشح وأكبر آفاته ، فهو فقد التعاون بين الناس وذهاب التراحم والتواد من بينهم ، وحلول العداوة والبغضاء محل ذلك ، لأن الشحيح يبغض التعاون بطبيعته ، ولا تسمح نفسه ببذل شىء من ماله ولو يسيرا لمساعدة الضعفاء ، فتمتلئ قلوبهم ضغنا عليه ، وتثور أنفسهم حسدا عليه ، فإذا فشا الشح فى أمة كانت نتيجته فوضى الاشتراكية التى يترتب عليها سفك الدماء ، واستحلال المحارم . لذلك يشير قول النبى صلى الله عليه وسلم (وإياكم والشح ، فانما هلك من كان قبلكم بالشح ، أمرهم بالقطيعة فقطعوا ، وأمرهم بالبخل فبخلوا ، وأمرهم بالفجور ففجروا) من حديث رواه أبو داود والحاكم — والشح والبخل بمعنى واحد ، فمعنى قوله عليه الصلاة والسلام أمرهم بالبخل فبخلوا . أمرهم عن الكف عن معونة الناس . وقيل الشح الحرص على ما عند غيره . والبخل الحرص على ما عنده . فذلك صريح فى أن الشح خطر اجتماعى كبير ، يترتب عليه هلاك الأمم وفناؤها ، لأن الانسان بحسب تكوينه الطبيعى ، وفطرته التى فطره الله عليها محتاج الى التعاون مع غيره فى هذه الحياة فلا يمكنه أن يسلك سبيلها وحده وأن يقطع مراحلها منفردا . بل لابد له من ذلك فى الاستناد الى غيره والتعاون معه فى كل أطواره من وقت وجوده الى أن يوارى فى التراب . وكلما اشتد ضعف الانسان اشتدت حاجته الى غيره ، فتراه فى حال طفولته محتاجا الى غيره فى كل شىء . فإذا ما نشأ وترعرع استقل فى بعض أموره ، ولكنه لم تنقطع حاجته فى البعض الآخر .

ومن ذلك يتضح أن التعاون من ضروريات المجتمع الإنسانى ، وبقاء العمران ، والشح ينافى التعاون والتراحم بين الناس . وهيهات أن تجد الرحمة الى نفس الشحيح سبيلا ، لأن الشح يدعوه الى أن يقاطع أرحامه وأقرب الناس إليه ، فضلا عن البعيدين عنه ، ويدعوه الى القسوة والغلظة ، فلا يغيث مكروبا ، ولا يعين ضعيفا ، ولو توقفت حياته على معونته . يدعوه الى أن يكسب المال من أى طريق بدون تفرقة بين حلال وحرام ، يدعوه الى أن يحقد على كل من يحاول أخذ شىء من ماله ولو كان من أبنائه وأهله ، وقد يفضى به ذلك الحقد الى ارتكاب الجنايات وسفك الدماء . فلا ريب فى أن الشح من أكبر الآفات التى تضر بالمجتمع الانسانى . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : اللهم إنا نعوذ بك من البخل والكسل وأرذل العمر وعذاب القبر . وفتنة المحيا والممات . رواه مسلم م؟

عبد الرحمن الجزيرى

الكلام والمتكلمون

— ٧ —

الإمام الغـزالي

أسلوبه :

يلاحظ الذين يدرسون الغـزالي أن أسلوبه يختلف كل الاختلاف مع الفلاسفة الآخرين أمثال ابن سينا ومن هم على شاكلته . فبينما يرى القارئ أن أسلوب ابن سينا مثلا موجز محدود ، يلاحظ على العكس أن أسلوب أبي حامد خصب مسهب تنساب فيه العبارات والمترادفات انسياب الماء في الغدران ، وتتتابع جمله في شيء عظيم من الرشاقة . ويرى الأستاذ كارّادي فو أن الغزالي اجتمعت لديه صفات الخطيب والعالم النفساني والواعظ الديني ، فهو يفيض بالأولى ، ويحلل بالثانية ، ويأسر النفوس بالثالثة ، إذ هو يفتش عن أحب الجمل الى القلوب ، ويجمع أشد النصوص تأثيرا في العقول ، ويستخدم المجازات والـكنايات حتى لا تشتغل الأرواح والعقول بغير ما يقـول . وفوق ذلك فهو يعبر عن المعنى الواحد بتعبيرات مختلفة ، ويصور الموقف الواحد بصور متباينة . وقد جزم هـذا العالم المستشرق في كتابه « الغـزالي » بأنه لم يعرف فيمن قرأ من العلماء أسلوبا أرق وأخصب من أسلوب الغزالي ، وهو يأسف أشـد الأسف ، لأن لغته الفرنسية لا تتسع لهذا الأسلوب ، ويعتذر إذا لم يوفق الى الإجادة والاتقان في نقل ما نقله عن هذا العالم القدير . وقد أثنى الأستاذ كارادي فو على هذا الأسلوب في كتابه الآخر « مفـكرو الاسلام » ثناء عاطرا نقتطف منه ما يلي :

« إن أسلوب الغزالي مخصب سهل لدِن واضح ، وأنه إذ يستعين بالصور الخيالية ولا يغض الطرف عن الجانب العملي يستهوي القارئ ولا يتعبه . إن عقله متزن ، فهو إذا اقتبس من السنة ، فعل ذلك بدون إثقال أو إفراط . إنه يقسم ويفرع بعناية ووضوح ، وبدون تصنع أو مباهاة . ولما كان نفسانيا ، فلم يَهْوِ في الدقة المغالية . وبهـذا يمكن تشبيهه ببعض آباء الـكنيسة الإغريقيـة ولا سيما القديس « جان كريزوستوم » أي (ذو الفم الذهبي) وهو صاحب الأسلوب الجذاب السهل الساطع ، ولـكن ينبغي القول بأن الغزالي أدخل منه في باب النظر » (١)

---

(١) انظر صفحة ١٦٠ من الجزء الرابع من كتاب « مفـكرو الاسلام » .

رأيه فى العـلوم :

بقيت نقطة واحدة ينبغى أن نعلن رأى الغزالى فيها قبل مغادرة هذا المقام ، وهى رأيه فى العلوم المختلفة التى كانت ذائعة فى عصره . ويتلخص هذا الرأى فيما يلى :

تنقسم العلوم عنده الى قسمين : شرعية وغير شرعية . فأما الشرعية فـكلها خير ، وكذلك أدواتها الضرورية لها كالنحو والبلاغة والتاريخ وكل ما يحتاج إليه فى شرح الـكتاب الـكريم أو السنة الغراء . وأما العلوم الغير الشرعية ، فبعضها خير مباح ، بل مفروض أحيانا وذلك كالطب والحساب مثلا . والبعض الآخر شر محظور كالسحر والـكهانة ، أما الشعر فخيره مباح ، وشره محظور .

منزلته بين المتكلمين ورأيه فى علم الـكلام :

نشأ أبو حامد فى أشد العصور الاسـلامية نضالا بين الفرق ، ونزاعا بين النحل كما أشرنا الى ذلك آنفا ، فلمـا شب وجد العقول مضطربة والألباب حائرة ، وسمع حوله آراء متضاربة فى علم الـكلام . فالبعض يحرمه وينزله من دركات الآثام الى الدركة التى تلى الشرك بالله . وقد عُـزِى هذا الرأى من السابقين على الغزالى الى الأئمة : مالك والشافعى واحمد بن حنبل وسفيان الثورى وغيرهم من أئمة السلف . فروى عن الإمام الشافعى أنه قال : « إن أكبر الـكبائر الشرك بالله ثم علم الـكلام . ولو علم الناس مافى هذا العلم من هوى ضار ، لفروا منه فرارهم من الأسد » .

وأثر عن الإمام أحمد أنه اعتبر جميع المتكلمين زنادقة . أما مالك فقد روى عنه أنه قال : « ألا ترون أن المتكلم كلما لاقى من هـو أفصح منه وأقدر على التدليل اعتنق رأيه . وبهذا يكون قادرا على تبديل دينه فى كل يوم »

أما البعض الآخر من المسلمين ، فـكان لا يبيح علم الـكلام فحسب ، بل كان يجعله واجبا لضرورة الاحتياج الشديد إليه فى الدين . وقد أخذ هذا الفريق يدفع عن علم الـكلام مستدلا بالآيات القرآنية كقول القرآن مثلا : « قل هاتوا برهانـكم إن كنتم صادقين » وقوله « ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حى عن بينة » وغـير ذلك من الآيات الحاثة على استعمال الحجة والبرهان .

وقد استدلوا كذلك على صحة ما ذهبوا إليه بمجادلة وقعت بين الإمام على وجمع غفير من الخوارج ، وانتهت باهتداء ألفين من بينهم الى تعاليم السنة السمحة .

نشأ أبو حامد فى وسط هذه المعارك الطاحنة ، وبين هذه الآراء المتضاربة فلم يكن نصيرا لأحدها على الآخر دون تأمل ولا تفكير ، بل عكف على دراسة هذه المشكلة ، وأنعم فيها النظر

طويلا ، فخرج منها بأن بعض المحرمات محظور لذاته كالخمر والخنزير ، والبعض الآخر الأصل فيه الاباحة ولكنه ينتقل إلى الحظر عند ما يظهر شره وضرره . وعلم الكلام من هذا النوع الأخير مباح ، بل ضرورى وواجب فى بعض الظروف . فاذا ركب الانسان فيه هواه ، وغلبه العناد انتقل الى الحظر وأصبح الاستمرار فيه إثما ، بل كبيرة من الكبائر . وتعرف هذه الحالة بالإحساس بتزعزع الايمان واضطراب أسسه . فاذا وصل المتكلم الى هذه الحالة وجب عليه الاقلاع عن علم الكلام ، لأنه لا يضمن - إذا استمر - أن يعود اليه إيمانه الأول أو يفوز بإيمان آخر متين مؤسس على الحجة والبرهان . وإذا نظرنا الى الواقع المشاهد ، رأينا أن إثم الكلام أكبر من نفعه ، إذ أنه أضل أكثر ممن هدى ، لأنه فى الحالة الأولى هادم ، وفى الحالة الثانية ليس إلا مساعدا على بناء كان يمكن أن يستغنى عنه فيه . وإذاً ، فهو ليس أساسا من أسس الايمان ، وإنما هو يضىء بعض نواحيه لمن احتاج الى الاضاءة فحسب .

وبناء على كل ذلك ، فالخاصة يجب أن يتعلموا الكلام ليدفعوا به مهاجمات الملاحدة والزنادقة . أما العامة ، فاذا كانوا فى بلد ساد فيه الايمان ، فينبغى ألا يعلموا عن الكلام أكثر من أنه خطر على الدين ؛ وأما إذا كانوا فى بلد انتشرت فيه الشبه الى حد يخشى منه على الأطفال ، فيجب أن يدرس فيه الكلام حتى للجماهير ليحصنوا به أطفالهم ضد تلك الشبه ، ولكنهم لا ينبغى لهم أن يتعدوا النوع الذى ذكرناه من علم الكلام فى كتابنا « الرسالة القدسية » . أما الخاصة فلا بأس بأن يدرسوا منه ما فى كتابنا : « الاقتصاد فى الاعتقاد » . فمن لم يكفه ما فى هذا الكتاب ، فلينتظر حتى يلهمه الله الحقيقة أو فسيكون مصيره أن يهوى فى الشك أو فى الجحود .

مذهبه فى المسائل الاسلامية العامة :

يرى أبو حامد أنه يجب على كل مسلم أن يعرف أن من الواجب فى حق الله القدم والبقاء ومخالفة الحوادث ، والقيام بالنفس ، والوحدانية . وتسمى بالصفات السلبية ، لأنها تسلب عن الله ما لا يليق به كالحدوث والفناء وبقية أضدادها . وكذلك يجب فى حقه كونه حيا ، عالما ، مريدا ، قادرا ، سميعا ، بصيرا ، متكلما .

وعند كلامه على هذه الصفات اجتهد فى أن يتجنب كل المناقشات الضارة التى حدثت بين الصفاتية والمعتزلة حول صفات المعانى ، ولعله اكتفى فى هذا الموضوع بما أورده فيه ردا على الفلاسفة فى كتاب « التهافت » لأنه يعمد غالبا فى كتب التوحيد الى البراهين النقلية أو العقلية البسيطة الخالية من التعمق ، وهو يسلك عين هذه الطريقة حين يعرض لرؤية الله فى الآخرة ولمسألة كسب العبد المراد لله والمقدور له بدرجة تجعل كل حركاته وسكناته مشمولة بهذه

القدرة وتلك الارادة الإلهيتين شمولا تاما . وبيان هذا عنده أن الله خلق التصميم والشيء المصمم عليـه وأوجد الأول فى الانسان وجعـله مقدورا له ومكـتسبا . فالمنسوب الى الله الاختراع والى العبد الاكتساب . وكذلك أوجد الاختيار والشيء المختار ، والمتحرك والشيء المتحرك اليه . فالاختيار والتحرك ، والمختار والمتحرك اليه ، مخلوقة لله على سبيل الاختراع ، ومقدورة للعبد على سبيل الاكتساب .

أما جميع السمعيات من : صراط وميزان وجنة وطعام وشراب ومتعة ، فهى عنده حقيقية ، ولـكنه يضيف إليها بعض التأويلات كأن يقول مثلا : إن الصراط حقيقى ، ولـكن وصفه بأنه أرق من الشعرة مجاز ، لأنه يشبه الخط الهندسائى المستقيم الممتد بين النور والظلمة ، أو أن يقول : إن نعيم الجنة ليس مقصورا على المتع المـادية ، بل إن فيها متعا روحية عظيمة تفوق المتع المـادية كثيرا ، الى آخر ما جاء فى تعليقاته على السمعيات التى يخيل الى المطلع عليها للوهلة الأولى أن الاسلام دين مادى لا ينشغل إلا باللذات الجسمية كما فهم بعض الأوربيين فى هذا العصر ، وكما فهم — على ما يظهر — بعض معاصرى الغزالى أو السابقين عليه من الفلاسفة والتمثيليين (١) .

نضـاله مع الفلاسفـة :

ليس الغزالى أول المتكلمين المسلمين الذين ناضلوا الفلاسفة ، إذ يرجع هذا النضال الى مبدأ ظهور الفكـر الاغريقية فى البيئات الاسلامية . وقد أشرنا الى ذلك النضال فى العام المـاضى فى عرض حديثنا عن المدرسة الأشعرية ، فليرجع إليه من شاء . وقد كان هذا النضال يتمثل حينا فى محـاورات عامـة فى الميادين والأسـواق ، وحينا فى مناظرات أمام الخلفاء والأمراء وطورا فى رسائل يبعث بها بعضهم الى بعض ، أو كتب ينسخونها ويعرضونها فى المـكتبات العامة . وفى الحق أن هـذا النضال كان له ما يبرره من الناحيتين ، لأن الفلاسفة كانوا يرون أن المتكلمين الشديدى المحافظة يضعون بجمودهم حاجزا حصينا بين العقل والدين من جهة وبين العقـل والرقى الطبيعى من جهة أخرى ، ولأن المتكلمين كانوا يعتقدون أن فى هذه الحرية الواسعة التى يستبيحها الفلاسفة لأنفسهم فى النظر وفى تلك الثقة القوية التى يمنحون عقولهم إياها خطرا داهما على الدين ، لأن العقـل فى رأيهم قاصر عن إدراك كل أسرار الدين . وفوق ذلك فهو قد يضل وينخدع كما هو ديدنه ، فتـكون هنا الطامة الـكبرى على الدين ومعتنقيه . ويرى « البارون كارادى فو » أن الذى روّع المتكلمين هو أنهم رأوا الفلاسفة يحطون من شأن الوحى ويسوّون به الفلسفة الإغريقية بل يقدمونها عليه .

(١) التمثيليون هم من قالوا بأن كل ما ورد فى القرآن والحديث من متع مادية لا يخرج عن كونه تمثيلا لافهام العامة لانه لو كان حقا ، لحط من شأن الاسلام لغلبة الشهوات فيه .

ولما كان صوت الفلسفة فى العهد الذى شب فيه الغزالى قد خفت بموت ابن سينا ولم يبق لها من أنصار إلا بضعة أفراد خاملين من تلاميذ هذا الحكيم كان من الطبيعى أن يتجه أكثر نضال أبى حامد وألذعه الى ذلك الفيلسوف العظيم ، لأن روح الفلسفة الحقة الجديرة بالدراسة والنقد كانت حالة فى كتب ابن سينا . فمن أراد أن ينال من هذه الروح فلا سبيل له إلا هذه المؤلفات . وهكذا فعل الغزالى ، فكان لنقده فى كتاب « التهافت » تلك القيمة التى هزت ابن رشد فيما بعد وحملته على الدفاع عن الفلاسفة بذلك الأسلوب العنيف الحاد فى كتاب « تهافت التهافت » ؟

الدكتور محمد غلاب
أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

رذيلة الجهل

روى عن سهل بن عبد الله التسترى الصوفى أنه قال : ما عصى الله أحد بمعصية أشد من الجهل.

فقيل : يا أبا محمد هل تعرف شيئا أشد من الجهل ؟

فقال : نعم ، الجهل بالجهل ، مطية من ركبها زل ، ومن صحبها ذل ، وقيل : من الجهل صحبة الجهال ، ومن المحال محاولة ذوى المحال . خير المواهب العقل ، وشر المصائب الجهل . الجاهل يطلب المال ، والعاقل يطلب الكمال . الجهل بالفضائل من أقبح الرذائل .

وكان سفيان الثورى يقول : تعلموا العلم وإن لم تنالوا به حظا ، فلأن يذم الزمان لكم ، أحسن من أن يذم بكم ، أى لأن يُذم الزمان لإضاعة أهله لكم ، وعدم تقديرهم قدركم ، خير من أن يذم بكم . فيقال هذا زمان فسد أهله ، وضلوا عن سواء السبيل ، ويضربون الأمثال بأعمالكم.

باب الأسئلة والفتاوى

فى الرضاع

جاء الى لجنة الفتوى بالجامع الأزهر الاستفتاء الآتى :

تزوجت من ابنة عمتى وبعد دخولى بها ومعاشرتها وصل الى علمى أنى رضعت من جدتى لأبى (أم عمتى) بعد أن توفيت والدتى وكان الرضاع بعد الفطام والاستغناء عن اللبن بالطعام مع ملاحظة الشك فى الرضاع هل هو فى مدة حولين أم لا ؟

والذى أخبرنى بكل هذا هو جدتى المرضعة لى الآن . فهل الرضاع هذا بعد الاستغناء بالطعام والفطام يحرم ولو كان فى الحولين ؟ وهل يثبت التحريم بشهادة امرأة واحدة أو لا بد من شهادة عدلين ؟ محمد الشيخ

الجواب :

إن هذا الرضاع فيه ثلاث اعتبارات تجعله لا يحرم إجماعا .

فأولا — أنه لم يشهد به إلا امرأة واحدة ، وهذا يجعله غير محرم عند الحنفية والمالكية والشافعية .

وثانيا — أنه قد شك فى حصوله فى الزمن الشرعى المقدر للرضاع ، وهذا يجعله غير محرم عند الحنفية والحنابلة والشافعية .

وثالثا — أنه قد حصل بعد الاستغناء بالطعام ، وهذا يجعله غير محرم عند المالكية ووافقهم على ذلك الحنفية فى أحد قولين قويين .

وعليه ، ترى اللجنة أن هذا الرضاع لا قيمة له ، ولا بأس على الزوج أن يستمر على زوجيته بهذه الزوجة عند المذاهب الأربعة . والله أعلم ؟

رئيس لجنة الفتوى

محمد عبد اللطيف الفحام

صفحات مختارة لأقطاب الفلسفة المعاصرة

لم كان الدين هو الكوة التي ينبع منها النور للانسان ؟

بيان ذلك للفيلسوف أجوست سباتييه نفسه

انتهينا من ترجمة البحث الفلسفي الجليل لموضوع الدين من كتاب (فلسفة الدين) للعلامة أجوست سباتييه ، مدرس الفلسفة بجامعة باريس ، الى قوله : « الدين هو الكوة التي ينبع منها النور للانسان من خلال الصخور المطبقة عليه » ، ونعمد اليوم الى ترجمة ما ساقه من الأدلة الفلسفية على ذلك ، قال :

« لم يكن الدين هو الكوة التي ينبع منها النور للانسان وهو على أشد ما يكون من الشعور بالحرج وبالتضاد فى حياته الباطنة ، لأنه يحمل إليه حلا نظريا لتلك المسألة . لا ، ولكن المخرج الذى يؤتينا به الدين من تلك الحيرة ، ويقترحه علينا ، هو من القبيل العملى ، لا من طريق معلومات جديدة . أى باعادتنا الى الأصل نفسه الذى تتصل به ذاتنا ، وذلك بواسطة عمل أدبى من إحياء الثقة فى نفوسنا بذلك الأصل الذى نشأت منه الحياة ، وبالغاية التى تنتهى إليها . ومع ذلك فان هذا العمل المنجى لا يفرضه الدين علينا من طريق الالزام ، ولكنه ينشأ فينا من ناحية الضرورة . فان التمسك بالحياة ليس بشىء غير غريزة حفظ الذات فى العالم الطبيعى ، وهو يؤثر فى العالم العقلى على الأسلوب نفسه . فهو صورة سامية لتلك الغريزة . ذلك أنها عمياء وجبرية فى الكائنات الحية ، ولكنها تصطحب بالوعى والارادة فى الحياة الأدبية . وهى باستحالتها هذه تظهر على صورة الدين فى النوع البشرى .

« هذا الاندفاع وراء حفظ الحياة لا يحدث فى الفراغ ، ولا هو مجرد من غاية . لأنه يستند على إحساس ملازم للوعى الشخصى ، وهو الشعور بتبعية الانسان للكائن العام . فمن الذى فى وسعه أن يهرب من الشعور بهذه التبعية المطلقة ؟ ليس ما قدّر علينا قد بث فينا خارجا عنا وفى غيبتنا فحسب ، بواسطة النواميس العامة لحركة التطور الوجودية ، فظهرنا فى ناحية من الأرض فى زمان مّا موقرين بموروثات وقوى لم نستشر فيها ولم نخترها ؛ ليس هذا فحسب ، ولكننا لعدم وجداننا علة وجودنا فى أنفسنا ، وفى أى مجموعة من الكائنات الأرضية ، اضطررنا للبحث عن السبب الأول لوجودنا ، وعن الغاية الصميمة لذاتنا ولحياتنا ، خارج أنفسنا فى الكائن الأول نفسه . فلأجل أن يكون الانسان متدينا يجب عليه قبل كل شىء أن يعترف

وأن يرضى ، فى ثقة وبساطة وخضوع ، بتبعية وجودنا الشخصى للاصل الأبدى الذى نشأ منه وبارتباطه به ؛ وأن يريد أن يكون ضمن نظام الحياة ومتكافلا معه . فهذا الشعور بتبعيتنا يهبنا القاعدة العملية التى لا تقبل التلاشى للعقيدة بوجود الخالق . وهـذه العقيدة يمكن أن تبقى فى عقولنا غير محدودة ، وقد تلبث غير بالغة حدها الأقصى من الكمال ، ولـكن موضوعها لايزايل ضميرنا قط . وقد أُلقيت هذه العقيدة فى روعنا ، بل فُرضت علينا فرضا قبل إجالة أى فكر أو نظر فى أى تحديد معقول . وعلى هـذا فيمكن وضع هذه المعادلة الفلسفية بدون تهيب وهى : إن الشعور بتبعيتنا هو الشعور بوجود الله فينا . هذا هو الينبوع العميق الذى تفجرت منه عقيدة وجود الله عندنا بقوة لا يمكن دفعها ، ولـكنها نبعت منها هى والدين فى آن واحد ، وبتأثير الدين نفسه .

« ومع هذا يجب أن نقدِّر بأى ثمن قَبِل فكر الانسان هذه التبعية حيال الأصل العام للحياة . فقد رأينا أن هذا الفكر قد ثار على الأشياء الخارجية ونازعها ، لأن هذه الأشياء من طبيعة مغايرة لطبيعته ، ولأن الصفة الخاصة للفكر هى أن يَفهم وأن يتسلط وأن يقود الأشياء لا أن يخضع لها . فمن الذى لا يذكر فى هذه المناسبة عبارة باسكال : « ليس الانسان إلا قصبة واهية ، فهو أضعف شىء فى الوجود ، ولـكنه قصبة مفكرة . فاذا كان الوجود يستطع تحطيمها ، فانها مع ذلك أسمى منه ، لأنها تعرف أنها تتحطم ، وتعلم أن الوجود أقوى منها ، والوجود فى غفلة عن هذا كله » ؟ فمن أجل هذا ليس فى الوجود المادى أصل للسيادة يمكن أن يخضع له الانسان . إن العظمة السامية للعقل حيال مجموع الأشياء لا يمكن الاحتفاظ بها للنهاية فى شخصيتنا المؤقتة ، إلا بعامـل من الثقة والاتحاد الصميم بروح الوجود . فإن ضميرى لا يستطيع أن يحكم بتبعيتى أنا والوجود فى حالة وفاق ، إلا بقوة روحية أدركت أن لها فى الـكائن العام أصلا مشتركا وغاية واحدة . وديكارت لم ينخدع فيما قرره ، فان محاولة الفكر الانسانى أن يثبت لنفسه قيمته وعظمته هى عمل دينى فى حقيقته (١) . ودائرة حياتى العقلية التى

(١) ينوه هنا بالأصل الذى ارتآه ديكارت الفيلسوف الفرنسى أساسا لفلسفته وهو إثبات الناظر وجوده أولا بدليل لا يقبل النقض ، ثم التدرج الى إثبات ما عداها بعد الشك فيها وتقليبها على كل وجه .

ودليله على إثبات وجوده هو : أنه يفكر ، إذن هو موجود ، لأن ما ليس بموجود لا يفكر . فإذا تم له ذلك ، نظر فيما حوله شاكا فيه حتى يثبته بدليل محسوس قال : « لأجل إن يصل الانسان الى الحقيقة يجب عليه أن يخرج مرة واحـدة فى حياته من جميع الآراء التى أخذها عن غيره ، وبناء معلومات لنفسه من جديد مبتدئا من الأسس التى تقوم عليها » .

انفصمت من المنازعة بين شعورى الذاتى والحوادث العالمية ، عادت فالتأمت بواسطة حد ثالث اندرج فيه الاثنان الآخران ، وهذا الحد الثالث هو احساسى بتبعيتها جميعا لله .

***

« أليس هذا الاستنتاج من تحليل عناصر الدين فى روع الانسان ، بعيد المدى فى الفلسفة والتجريد ، بحيث لا يمكن أن يصح على الناس عامة ؟ فاذا أمكن به تفسير وجود الشعور الدينى فى عهود الثقافة العلمية العالية ، فهل يُستطاع أن يُفسر لنا به ظهور الدين فيما قبل التاريخ من عصور السذاجة الانسانية ؟

« إن الذين يُدلون بهذا الاعتراض يُثبتون على أنفسهم أنهم لم يروا جيدا استمرار التضاد بين عقل الانسان وحوادث الوجود فى أول عهد الانسان بالظهور كما هو فى آخره ، وهو التضاد الذى جعل حياته غير مستقرة وفى غاية الشقاء . وغاب عنهم أن هذا التضاد ليس بثمرة من ثمرات المنطق ، حتى إن الانسان لأجل أن يراه ويتألم منه يحتاج أن ينتظر حتى يكون فيلسوفا . ولكنه يتجلى فى الأهوال التى تساور المتوحش ، وفى الانقلابات الطبيعية التى تحدث بين يديه ، وفى أخطار الغابات وبوائقها ، كما تتجلى لنا نحن فى ارتباكات أفكارنا أمام مساتير الوجود وغوامض الموت . نعم إن مظاهر الكوارث والشعور بها تختلف بين الناس ، ولكن الهزة الدينية التى ترج الانسان وتزلزله ، هى فى حقيقتها واحدة لا تختلف . وباسكال على ما كان عليه من علم لم يكن شعوره بالحرج أقل من شعور إنسان العصور الأولى به . ألم يقل : « إن الصمت الأبدى لهذا الفضاء الذى لا نهاية له يرعبنى » . وتلميذ (كَنت) وهو محصور فى اليأس داخل الحدود التى لا يمكن اجتيازها لعلم الظواهر الطبيعية ، أو تلميذ شوبنهور الذى تأدى الى إدراك استحالة الاتفاق بين العقل والارادة ، ألم يكونا مُبْهَظين (١) تحت آصار الشعور بالعجز الأشد إيلاما للنفس ؟ وعند ما كانا يقلعان عن النظر لأجل أن يستطيعا العيش ، ألم يكونا يشعران على الرغم منهما وقلبهما يطفح بالمرارة والألم ، تكوّن تنهيدة (٢) على شفاههما هى مقدمة للدعاء ؟

***

« وعلى هذا فالدين غير قابل للزوال ، لأن ينبوعه الذى يتفجر هو منه فضلا عن أنه لا يستدّ (٣) ولا ينضب فى صميم الروح ، فإنه على نقيض ذلك يتسع ويعمق وتغزر مادته تحت التأثير المزدوج من النظر الفلسفى والتجارب الحيوية المؤلمة . والذين يتوقعون نضوبه يحسبون من الدين ما ليس منه من المظاهر الخارجية الموقوتة . والأزمات الدورية التى تنتابه ويُخشى

(١) مبهظين . من أبهظه الدين بمعنى ثقل عليه وفدحه . ومثله بهظه بفتحتين . (٢) تنهد الرجل ، أخرج نفسه بعد مده حزنا وألما . (٣) استد بمعنى انسد .

أن تأتى عليه بتغييرها لتقاليده وصوره ، لا تدل على ضعفه ، ولكنها تثبت خصوبته وخاصة التجدد فيه . ولم يُشاهد فى مدى التاريخ كله أن روح البشرية تجردت منه . فعلى هذه الدوحة الدينية التى تصعد عصارتها الالهية على الدوام ، إذا أدرك أوراقها الجفاف لطروء فصل جديد ، فلا تسقط إلا مدفوعة من أعقابها بأوراق غضيضة (١) . فالعقائد الدينية لا تموت ، ولكنها تتطور وتستحيل ، فليقلع أنصار الدين عن الهلع عليه ، وخصومه عن الفرح بوشك زواله . وما عليه الفريقان من الرجاء والخوف يدل على جهلهم بالأصل الذى يستمد منه الوجود ، وبالقاعدة التى يقوم عليها صرحه . فإذا بحثوا عنه فى سويداء قلوبهم لوجدوه حيا فى وجودهم الباطن بقدر ما تظهر لهم صوره التقليدية فى الخارج مهددة بالزوال . فإن تنَهد النفس ، وتوثبها للنهوض ، أوماليخوليتها وهى فى أشد الضيق ، هى ظواهر أدخل فى الحياة الدينية ، من تلك التقوى المغرضة أو الآلية . إن هنالك لساعات يكون فيها الخروج على الجماعة المصحوب بتألم وبحث ودعاء ، أقرب الى ينبوع الحياة من الجمود العقلى على أرثوذوكسية غير أهل لفهم العقائد فهى تحتفظ بها آثارا مصبرة . فعلى الذين يحتقرون الدين أن يحاولوا معرفة ماهيته أولا ، وأن يدركوا أنه هو الروح الباطن المبارك الذى بواسطته تتطور الحياة الانسانية وتفتح لها مخرجا الى الحياة المثالية ، وأن كل ترق إنسانى يصدر منه وينتهى إليه ، وأن الفن والأدب والعلم نفسه تتصوح زهراتها وتذبل إذا لم يتعهدها هذا الروح العالى وينعشها ، وأن النفس المجردة من الدين تختنق لحرمانها من التنفس ، فالانسان فى الواقع لا يوجد إلا إذا أوجد نفسه ، ولأجل هذا يجب عليه أن يخرج من ظلمات هذا العالم وعلائقه الى النور والى الحرية . فما بدأت الانسانية فى الظهور فيه إلا بالدين ، وبه أيضا تثبت له وتبلغ الى كمالها المنشود » ؟

محمد فريد وجدى

---

(١) غضيضة أى غضة .

الباقيات الصالحات

أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم عائشة رضى الله عنها أن تقسم شاة . فقالت يا نبى الله ما بقى إلا عنقها . فقال عليه السلام : كلها بقى غير عنقها .

وهذا المعنى أخذه شاعر فقال :

يبكى على الذاهب من ماله ... وإنما يبقى الذى يذهب

إنما يبقى إذا ذهب فى سبيل الله ، وإعانة المحتاجين من عباده ، لا أن يكون قد ذهب اسرافا وبدارا .

بحوث في المسائل الفقهية

تاريخ الفقه الاسلامى فى مصر

— ٥ —

المدرسة الثانية :

وصفنا فيما مضى حال الفقه الإسلامى فى مصر على عهد الصحابة ، وانتهينا الى أن هذا العهد كان بمثابة الإعداد والتهيئة لما بعده من العهود فى تاريخ الفقه ، فهم رضى الله عنهم ، قد غرسوا الأصول ، ووضعوا الأسس ، ثم تركوا لمن جاء بعدهم تنمية الغراس ، وتتميم البناء .

ونريد بالمدرسة الثانية هؤلاء العلماء من الرواة والمفتين والقضاة والفقهاء ، الذين تلمذوا للصحابة مباشرة ، أو بواسطة قريبة ، واشتغلوا بالفقه مادة ، وتخريجا ، وتطبيقا ، وفتيا ، حتى أسلموه الى رجال المذاهب المعروفة فى منتصف القرن الثانى من الهجرة .

فنهم : يزيد بن أبى حبيب ، وجعفر بن ربيعة ، ومرثد بن عبد الله ، وعمرو بن الحارث ، وعبيد الله بن أبى جعفر ، وعبد الله بن لهيعة ، وبكير بن عبد الله الأشجع ، وعبد الله بن وهب ، والليث بن سعد وغيرهم .

وقد اشتهر من هؤلاء العلماء أربعة كان لهم ، أكثر من غيرهم ، أثر واضح فى الفقه والرواية والفتيا ، وهم : يزيد بن أبى حبيب ، وعبد الله بن لهيعة ، وعبد الله بن وهب ، والليث بن سعد .

١ — يزيد بن أبى حبيب :

فأما يزيد بن أبى حبيب ، فهو بربرى الأصل ، أبوه من أهل دنقلة ، ونشأ بمصر مولى للأزد ، وكان حليما عاقلا مهيبا كثير الفقه والحديث ، وهو أحد الثلاثة الذين جعل إليهم عمر ابن عبد العزيز الفتيا فى مصر : يزيد ، وعبد الله بن أبى جعفر ، وهما موليان ، وجعفر بن ربيعة وهو عربى ، ولذلك أنف العرب أن تكون الفتيا الى الموالى ، فأجابهم عمر بقوله « وما ذنبى إن كانت الموالى تسمو بأنفسها صُعُدا وأنتم لا تسمون ؟ ! » .

وقد قدمنا أن يزيد أول من نشر الفقه بمصر ، وتكلم فى الحلال والحرام ، وكانوا قبل ذلك يتحدثون فى الترغيب والترهيب والملاحم والفتن ، وكان ليزيد مقام محفوظ ، ومنزلة

سامية بين المصريين والولاة ، وكانت البيعة إذا جاءت لخليفة ، فأول من يبايع من المصريين عبيد الله بن أبى جعفر ، ويزيد بن أبى حبيب .

وقال ابن لهيعة : مرض يزيد فعاده الحوثرة بن سهل أمير مصر فقال : يا أبا رجاء ، ما تقول فى الصلاة فى الثوب وفيه دم البراغيث ؟ فأعرض عنه يزيد ولم يكلمه ، فقام عنه ، فنظر إليه يزيد وقال : تقتل كل يوم خلقا وتسألنى عن دم البراغيث (١)

وقد لقى يزيد من الصحابة عبد الله بن الحارث بن جزء ، وروى عن سالم ، ونافع ، وعكرمة ، قال ابن سعد : كان ثقة كثير الحديث ، وقال الليث بن سعد : يزيد سيدنا وعالمنا (٢)

ولم تقف شهرة يزيد عند الفقه والحديث ، بل كان عالما بالفتن والحروب وما يتصل بالتاريخ والفتوح ، وقد اعتمد عليه عبد الرحمن بن عبد الحكم فى كتابه « فتوح مصر » ، والكندى فى كتابه « الولاة والقضاة » ، والطبرى فى تاريخه ، وغيرهم (٣) ، وكان من تلاميذه ابن لهيعة ، والليث بن سعد ، وتوفى سنة ١٢٨ هـ

٢ ـ ابن لهيعة :

وأما ابن لهيعة فهو أبو عبد الرحمن عبد الله بن لهيعة(٤) الحضرمى الغافقى ، كان أبوه من رجال الحديث بمصر ، فورث عنه عبد الله حبه للحديث ، وكان شغوفا بتحصيله ، وروايته ، والرحلة فى طلبه .

روى عن عطاء ، وعمرو بن دينار ، والأعرج ، وخلف ، وروى عنه الثورى ، والأوزاعى وغيرهم .

ورجال الحديث يختلفون فيه ، فمنهم من يوثقه ، ومنهم من يضعفه ، فممن وثقه أحمد ابن حنبل ، وكثيرا ما يروى عنه فى مسنده ، وممن ضعفه البخارى والنسائى (٥)

ويقول ابن خلكان : إن ابن لهيعة كان مكثرا من الحديث والأخبار والرواية ، وكان يقرأ عليه ما ليس من حديثه فيسكت ، فقيل له فى ذلك ، فقال : ما ذنبى إنما يجيئونى بكتاب يقرءونه على ويقومون ، ولو سألونى لأخبرتهم أنه ليس من حديثى (٦)

ولم تقف شهرته عند الحديث فقط ، فقد كان فقيها ، (٧) وتولى القضاء بمصر تسع سنين(٨) وأكثر ما ورد فى تاريخ مصر مروى عن طريقه .

ولد ابن لهيعة سنة ٩٦ ، وتوفى سنة ١٦٤ هـ

---

(١) تاريخ التشريع للخضرى بك ص ١٥٨ (٢) فى حسن المحاضرة ص ١٣٤ ج ١ (٣) أنظر كتاب « فى الادب المصرى الاسلامى » ص ٤٢ (٤) فى حسن المحاضرة ص ١٣٤ ج ا : عبد الله بن عقبة بن لهيعة (٥) فجر الاسلام ٢٣٥ (٦) ابن خلكان ٢٤٩ ج ا (٧) حسن المحاضرة ١٣٤ ج ا

(٨) فجر الاسلام ص ٢٣٦

٣ ـ ابن وهب :

أبو محمد عبد الله بن وهب بن مسلم القرشي ولاء ، ولد بعد انقضاء الربع الأول من القرن الثاني ، وكان المسلمون فى ذلك العهد قد أخذوا يفكرون فى التدوين ، فكتب مالك موطأه فى المدينة ، وكتب الأوزاعى مذهبه فى الشام ، وصنف ابن اسحاق فى المغازى .

شهد ابن وهب هذه الحركة ، وكان كثير الرحلة والتغرب فى طلب العلم والحديث ، فلاقى مالكا بالمدينة ، وأخذ عنه ، وذهب الى العراق وأخذ عن علمائه . ثم ألَّف كتابه « الجامع فى الحديث » ، واختاره من مائة ألف حديث كان يرويها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما جُرِّح منها فى حديث واحد (١) ، ورتب هذا الجامع على كتب : كتاب كذا . كتاب كذا الخ ، وكان هذا الكتاب الجامع مفقودا الى عهد قريب ، ثم عثر على معظمه فى مدينة أدفو ، ويعد من أقدم المخطوطات العربية فى جميع المكاتب والمتاحف بالعالم إن لم يكن أقدمها جميعا ، وهو مكتوب على ورق البردى الذى عرفت به مصر منذ القدم ، ويرجع تاريخ كتابتها الى القرن الثالث الهجرى » (٢) .

ومن الغريب أنه كان يروى عن ابن لهيعة مع ما اشتهر عنه من الدقة والعناية فى الرواية . فأنت ترى أنه من أوائل المشتغلين بجمع الحديث فى الاسلام ، وكان الى جانب ذلك فقيها بارعا ، جيد الفقه ؛ قال ابن خلكان . إن مالكا كان يكتب الى ابن وهب « الى عبد الله بن وهب المفتى » ولم يكن يفعل هذا مع غيره ، وقال ابن يونس : جمع ابن وهب بين الفقه والرواية والعبادة .

ويعده المالكية من فقهائهم ، وقد عده السيوطى بين المجتهدين المصريين ، وقال عنه إنه تفقه بمالك والليث بن سعد ، وإنما ذكرناه فى رجال هذه المدرسة لأنه من أوائل المشتغلين بالحديث كما علمت .

٤ ـ الليث بن سعد :

هو أشهر رجال هذه المدرسة ، بل هو قرين مالك والشافعى وغيرهما من أصحاب المذاهب ، بل قال عنه الشافعى إنه أفقه من مالك إلا أن أصحابه لم يقوموا به ، والشافعى تلميذ مالك ، فشهادته فى هذا خطيرة !

ويروى أن ابن وهب كان يقرأ عليه مسائل الليث بن سعد فمرت به مسألة ، فقال رجل من الغرباء : أحسن والله الليث كأنه كان يسمع مالكا يجيب فيجيب هو ، فقال ابن وهب

(١) الكواكب السيارة ٤٥ (٢) كتاب « فى الادب المصرى » ٣٩

للرجل : بل كان مالك يسمع الليث يجيب فيجيب هو ، والله الذى لا إله إلا هو . ما رأينا أحدا قط أفقه من الليث ، وقال سعيد بن أيوب : لو أن مالكا والليث اجتمعا كان مالك عند الليث شبه أبكم ، ولباع الليث مالكا فيمن يريد !

وقد نشأ هذا الإمام المظيم بمصر فى أواخر القرن الأول للهجرة ، وتثقف على علمائها الأعلام ، وطوف فى الآفاق طالبا العلم والحديث ، ولقى كثيرا من التابعين وأخذ عنهم ، ومن تلاميذه عبد الله بن المبارك ، وهاشم بن القاسم ، ويونس بن محمد ، وعبد الله بن وهب ، وأشهب وغيرهم .

وكان الليث الى جانب العلم والفقه كريما ثريا ، يتخذ لأصحابه الفالوذج ويضع فيها الدنانير فمن أكل أكثر من صاحبه ناله دنانير أكثر .

وكان يأخذ بنصيبه من زينة الدنيا غير متزمت ، ولا رافض ما أحل الله له : كتب إليه مالك يقول « بلغنى أنك تأكل الدقاق ، وتلبس الرقاق ، وتمشى فى الأسواق » فأجابه الليث « قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق » ؟

وقد رفعته منزلته العلمية ، وثروته المالية ، ونفسه الكريمة الى مصاف العظماء فى زمانه حتى قيل إن القاضى والوالى كانا من تحت أمره ومشورته لا يقطعان أمرا إلا بعد أن يرى هو فيه رأيه ، وكان اذا رابه من أحد شيء كاتب فيه فيعزل ، وقد أراده المنصور على أن يوليه إمرة مصر فامتنع ، وتوفى الليث سنة ١٧٥ هـ .

وكان بينه وبين مالك بن أنس مراسلات ومساجلات فقهية تدل على براعته الفقهية ، وربما كشفت بعض النواحى من مذهبه الذى اندثر ، ولم يبق منه إلا أقوال مبعثرة فى بطون الكتب .

وسنحاول الكشف عن ذلك إن شاء الله فى حديث بعد هذا الحديث ؟

محمد محمد المدنى
المدرس بكلية الشريعة

أغرس تستثمر

قال حكيم : من غرس العلم اجتنى النباهة ، ومن غرس الزهد اجتنى العزة ، ومن غرس الاحسان اجتنى المحبة ، ومن غرس الفكرة اجتنى الحكمة ، ومن غرس الوقار اجتنى المهابة ، ومن غرس الكبر اجتنى المقت ، ومن غرس الحرص اجتنى الذل ، ومن غرس الطمع اجتنى الكمد .

والنباهة فى الفقرة الأولى معناها الشرف والشهرة .

حياة رجالات الإسلام

عبد الله بن الزبير

موقفه من الخلافة الاسلامية

فى سيرة عبد الله بن الزبير مواطن لاختبار معدن الرجولة جدير بشباب المسلمين ان يمعنوا النظر فيها حتى يتخذوا لهم منها أسوة وإماما ، وحتى يصنعوا على ضوئها مثلهم العليا فى هذا العصر الذى لا يدين إلا للقوى الحازمة ، والعزائم الصادقة ؛ وسيرة عبد الله تحبب الى عقولنا أيام المحن ، وإن كرهتها غرائزنا وعواطفنا ، لأنها مصانع للبطولة التى تبنى تاريخ الأمم على قواعد المجد والعزة .

ولد عبد الله بن الزبير ، وشب ، واكتهل ، وعاش ما عاش فى أيام نضال كان الموت فيها أهون ما يلقى الرجل ، ولم يكن عبـد الله ليحجم عن خوض عيلم الاحداث ، وقد نهد بين آذيها ، وترعرع فى لججها ، يشهد أهوالها ، ويقتحم عبابها بما يحمل بين حنايا نفسه من مميزات البطولة التى تعده لمستقبل حافل بعظائم لا يقوم لها إلا آحاد من الناس يأتون فى أجيال متعاقبة ، تضربهم الحياة مثلا لخصائص الرجولة فى الانسانية الحية القوية .

ومن الطبيعى أن يكون عبد الله وفيا أشد الوفاء الى عهد عثمان رضى الله عنه ، لأن ذلك العهد هو المدرسة الأولى التى شهد فيها أبو خبيب نبوغ نفسه وعبقريتها ، وكانت منها أولى خطواته الى تحقيق ما يطمح اليه من عليا الأمور وسامياتها ، فقد كانت سفارته ببشرى فتح أفريقية الى عثمان ، وخطبته التى قام بها يقص قصة الفتح ، ويصف جند المسلمين على جمهرة من مشيخة المهاجرين والأنصار ، فيهم أبوه ، مطلع شمس ما كانت تنطوى عليه نفسه من بطولة جياشة بالآمال .

لم تـكد بوادر الفتنة العثمانية تلوح فى أفق المجتمع الاسـلامى حتى كان عبد الله بن الزبير قائد أبطال الشباب فى الدفاع عن الخليفة ، ولما اشتد الحصار اخترط سيفه وأخذ بباب عثمان يقاتل عنـه على رغم ما كان يرى من تباعد أبيه عن حزب الخلافة فى ذلك الوقت ، وعلى رغم ما كان يسمع من خالته أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها من نقـد سياسة عثمان وحاشيته ، ولـكن ابن الزبير لم يكن بالشاب الذى ينقاد طيعا لغـيره ، بل كان الرجل المعتد بنفسه ، المستقل بتفكيره ، يبنى على حاضره مستقبل حياته .

وكان له على أبيه سلطان قوى جعله ينأى بجانبه عن خؤلته الهاشمية ، وينحاز الى جانب الأمويين ، وفى ذلك يقول على بن أبى طالب رضى الله عنه : « ما زال الزبير رجلا منا أهـل البيت ، حتى أدركه ابنه عبد الله فلفته عنا » ، وقد أقر الزبير نفسه بهذا السلطان عليه ، فقد روى صاحب العقـد : أن رجلا سأل الزبير بعد مقتل عثمان رضى الله عنه فقال له : ما بالك يا أبا عبد الله ؟ فقال الزبير : مطلوب مغلوب ، يغلبنى ابنى ، ويطلبنى ذنبى . وبهذا السلطان غلب على خالته أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها ، وأخرجها لحرب علىّ وحزبه ، وقد كان بعض أكابر الصحابة يشعرون بهـذا السلطان له عليها ، روى أبو عمر بن عبد البر فى الاستيعاب : « أن عائشة رضى الله عنهـا قالت : إذا مر ابن عمر فأرونيه ، فلما مر ابن عمر قالوا : هـذا ابن عمر ، فقالت : يا أبا عبد الرحمن ما منعك أن تنهانى عن مسيرى ؟ قال : رأيت رجلا قـد غلب عليك ، وظننت أنك لا تخالفيه — يعنى ابن الزبير — قالت عائشة : أما إنك لو نهيتنى ما خرجت ، وبهـذا السلطان قدمته على أبيه فى الصلاة فصلى أبوه خلفه ، فقيل له فى ذلك ؟ فقال : « أما صلاتى خلف ابنى ، فانما قدمته عائشة أم المؤمنين » وبهذا السلطان قاد الرّجالة فى وقعة الجمل ، ثم صارت اليه القيادة العامة بعد رجوع أبيه عن الحرب ، روى أن ابن الزبير دخل على عائشة رضى الله عنهما فقال لها : « يا أماه ، ما شهدت موطنا فى الشرك ولا فى الاسلام إلا ولى فيه رأى وبصيرة غير هـذا الموطن ، فانه لا رأى لى فيه ولا بصيرة » ثم قال لابنه عبد الله : « عليك بحربك ، أما أنا فراجع الى بيتى » فقال عبد الله : الآن حين التقت حلقتا البطان ، واجتمعت الفئتان ؟ والله لا نغسل رءوسنا منها ! فقال الزبير لابنه : لا تعد هذا منى جبنا ، فوالله ما فررت عن أحد فى جاهلية ولا إسلام ، قال : فما يردك ؟ قال : يردنى ما إن علمته كَسَرك ، فقام بأمر الناس عبد الله بن الزبير ، وكان حريا بهذا ، فهو من أشجع الناس وأصبرهم على لأواء الحرب ، وكان أحب الناس الى خالته عائشة ، روى ابن حجر فى الاصابة : أن عبـد الله أخذ من وسط القتلى يوم الجمل وفيـه بضع وأربعون جراحة ، فأعطت عائشة البشير الذى بشرها بأنه لم يمت عشرة آلاف .

انتهت هذه الحروب ، واستقر الأمر لمعاوية رحمه الله تعالى ، وقد أراد فى آخر حياته أخذ البيعة لابنه يزيد من بعده ، ولم يكن يخشى أحدا أكثر ماكان يخشى عبادلة الاسلام والحسن والحسين ، فأخذ يعد للأمر عدته ، ويستوحى دهاءه وسياسته ، ورأى أن يقدم المدينة ليروض هؤلاء النفر ، فأرسل الى عبد الله بن عباس ، وعبد الله بن جعفر ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير ، وأمر حاجبه ألا يأذن لأحد من الناس حتى يخرج هؤلاء النفر ، ثم تكلم معاوية فقال : « أما بعد : فإنى قد كبر سنى ، ووهن عظمى ، وقرب أجلى ، وأوشكت أن أدعى فأجيب ، وقد رأيت أن أستخلف عليكم بعدى يزيد ، وأنتم عبادلة قريش وخيارها وأبناء خيارها ، ولم يمنعنى أن أحضر حسنا وحسينا إلا أنهما أولاد أبيهما ، على حسن رأيى فيهما وشديد

محبتى لهما ، فردوا على أمير المؤمنين خيرا يرحمكم الله » فتكلم القوم بكلام لم يناجح صدر معاوية ، وكان مما قال عبد الله بن الزبير : « أما بعد : فإن هذه الخلافة لقريش خاصة تتناولها بمآثرها السنية ، وأفعالها المرضية ، مع شرف الآباء وكرم الأبناء ، فاتق الله يامعاوية ، وأنصف من نفسك ، فإن هذا عبد الله بن عباس ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهذا عبد الله بن جعفر ذو الجناحين ابن عم رسول الله ، وأنا عبد الله بن الزبير بن عمة رسول الله ، وعلى خلف حسنا وحسينا ، وأنت تعلم من هما ، وما هما ، فاتق الله يامعاوية ، وأنت الحاكم بيننا وبين نفسك » .

أعرض معاوية عن البيعة ليزيد خشية أن تعاد عليه جذعة ، وارتحل عن المدينة متحينا الفرصة المواتية ، وليس له همّ إلا هؤلاء النفر الذين ينافسون ابنه فى مكانه من الخلافة ، ولم يزل يفتل فى غارب الأحداث ، ويروض الناس ، ويشاور ، ويعطى الأقارب ، ويدانى الأباعد ، حتى استوثق من أكثر الناس ، وكان بدهائه يعلم أن عبد الله بن الزبير أصلب القوم عودا ، وأصعبهم مراسا ، وأبعدهم غاية ، وأوسعهم طموحا ، وأشدهم إنكارا لبيعة يزيد ، وقد وصف له سعيد بن العاص عامله على المدينة موقف ابن الزبير فى كتاب بعث به اليه فقال : « أما الذى ظاهر بعدائه وإبائه لهذا الأمر فعبد الله بن الزبير » ولم يكن معاوية بالذى يستهين برجل فى إهاب أبى خبيب ، فكتب الى سعيد يقول له : « أما الذى يرد مع السباع إذا وردت ، ويكنس إذا كنست فذلك عبد الله بن الزبير ، فاحذره أشد الحذر » وقد تولى أمره بنفسه يروضه ويعجم عوده ، فقال له : ما ترى فى بيعة يزيد ؟ قال عبد الله « يا أمير المؤمنين إنى أناديك ولا أناجيك ، إن أخاك من صدقك ، فانظر قبل أن تتقدم ، وتفكر قبل أن تندم ، فان النظر قبل التقدم والتفكر قبل التندم » فضحك معاوية وقال : « أنت ثعلب رواغ ، كلما خرجت من جحر انجحرت فى آخر ، تعلمت الشجاعة عند الكبر ، فى دون ما تشجعت به على ابن أخيك ما يكفيك » .

قدّر العبادلة لابن الزبير صراحته الحازمة ، فأسندوا اليه أمرهم ، وفوضوا له التكلم بلسانهم عندما رأوا تصميم معاوية على تنفيذ رأيه ، فاجتمعوا وقالوا لابن الزبير : اكفنا كلامه ، فقال : على ألا تخالفونى ، فقالوا : لك ذلك ! ثم أتوا معاوية فرحب بهم وقال لهم « قد علمتم نظرى لكم وتعطفى عليكم ، وصلتى أرحامكم ، ويزيد أخوكم وابن عمكم ، وإنما أردت أن أقدمه باسم الخلافة ، وتكونوا أنتم تأمرون وتنهون ، فسكتوا ، وتكلم ابن الزبير فقال : « نخيرك بين إحدى ثلاث ، أيها أخذت فهى لك رغبة ، وفيها خيار ، إن شئت فاصنع فينا ما صنعه رسول الله صلى الله عليه وسلم : قبضه الله ولم يستخلف ، فدع هذا الامر حتى يختار الناس لأنفسهم ، وإن شئت فما صنع أبو بكر : عهد الى رجل من قاصية قريش وترك ولده ومن رهطه الأدنين من كان لها أهلا ، وإن شئت فما صنع عمر : صيّرها الى ستة نفر من

قريش ، يختارون رجلا منهم ، وترك ولده وأهل بيته ، وفيهم من لو وليها لكان لها أهلا »
فقال معاوية : هل غير هذا ؟ قال : لا ، ثم قال للآخرين : ما عندكم ؟ قالوا : نحن على ما قال ابن الزبير !

تمت البيعة ليزيد على كره جمهرة من شباب قريش يقودهم عبد الله بن الزبير ، فتوجه الى مكة ، وتحصن بالبيت الحرام ، ووجه إليه يزيد الجيوش لمحاربته ، ولكن القدر كان أسرع الى أجل يزيد ، فاضطرب أمر بنى أمية ، واستشرى أمر عبد الله بن الزبير ، وبايعه الناس ، وكاد الأمر يتم له ، لولا أن عبد الله أرادها خلافة راشدة ، وأرادها منافسوه من آل مروان ملكا عضوضا ، وأرادها عبد الله عُمرية علوية ، وأرادها مزاحموه معاويّة عَمْرية ، روى المؤرخون أن حصين بن نمير الذى خلف مسلم بن عقبة فى محاربة عبد الله بن الزبير لما بلغه موت يزيد قال لعبد الله : يا أبا بكر ، أنا سيد أهل الشام ، لا أدافع ، وأرى أهل الحجاز قد رضوا بك ، فتعال أبايعك الساعة ، ويهدر كل شيء أصبناه يوم الحرة ، وتخرج معى الى الشام فانى لا أحب أن يكون الملك بالحجاز ، فقال عبد الله : والله لا أفعل ، ولا آمن مَن أخاف الناس ، وأحرق بيت الله ، وانتهك حرمته ، قال حصين : بلى ، فافعل على ألا يختلف عليك اثنان ، فأبى عبد الله ، فقال حصين : فعل الله بك وبمن يزعم أنك سيد ، والله لا تفلح أبدا .

ويحدثنا التاريخ أن أخاه مصعب بن الزبير لما فرغ من فتنة المختار بن عبيد الثقفى قدم عليه ومعه وجوه أهل العراق الذين أيدوه وثبتوا رايته بالعراق ، وكلمه فى الإحسان إليهم ، فقال « يا أمير المؤمنين ، قد جئتك بوجوه أهل العراق ، ولم أدع لهم نظيرا ، فاعطهم من هذا المال » فقال عبد الله : « جئتنى بعبيد أهل العراق لأعطيهم من مال الله ، وددت أن لى بكل عشرة منهم رجلا من أهل الشام ، صرف الدينار بالدرهم » فقال رجل من القوم : أتدرى يا أمير المؤمنين ما مثلنا ومثلك فيما ذكرت ؟ قال : وما ذاك ؟ قال : فإن مثلنا ومثلك ومثل أهل الشام كما قال أعشى بكر بن وائل :

علقتها عرضا وعلقت رجلا ... غيرى وعلق أخرى ذلك الرجل

ثم انصرف القوم من عنده خائبين وقد فسدت قلوبهم ، وراسلوا عبد الملك بن مروان ، فخرج إليهم بعد أن ملأ أيديهم بالأموال وهزم جيوش عبد الله وقتل مصعبا ، وهل يبعد هذا الموقف عن موقف على بن أبى طالب وقد سأله أخوه عقيل بن أبى طالب شيئا من مال فمنعه وانحاز الى معاوية ، فاغدق عليه وعلى أهل بيته ، وقديما أخذ الباحثون على عبد الله بن الزبير هذه الخلال التى تند عن خلال الرجال الذين يريدون أن يشيدوا ملكا ويقيموا دولة فى غير أزمان النبوة ؟

صادق ابراهيم عرجون

عمر بن عبد العزيز

- ٦ -

عبادته :

لقد كان عمر تقيا متعبدا ، ورعا زاهدا ، وكان مع ذلك إماما عادلا رشيدا ، محبا للرعية مشفقا عليها ، لم تشغله عبادة ربه عن عباد ربه ، ولم تحل بينه وبين ما يصلحهم من جليل الأمور ودقيقها ، كما أنه لم تقعد به اعباء الخلافة وما تقتضيه سياسة الملك ، من كد ونصب ، عما عليه من تألـه وطاعة ؛ فكان يصرف النهار وبعض الليل أحيانا فيما يعود على الأمة بالخير ، فاذا فرغ من ذلك قنت آناء من الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ، ويرجو رحمة ربه .

ولم ينس عبادة التفكير لما فيها من قوة اليقين ، وكمال الايمان ، وصدق العزيمة ، والصلة بين العبد وربه .

حرص طوال حياته على تأنيب نفسه قبل أن تؤنب ، وعلى حسابها قبل أن تحاسب ، وعلى تذكيرها قبل أن تذكر .

محاورته مع مسلمة بن عبد الملك :

حينما احتضر عمر بن عبد العزيز ، دخل عليه مسلمة بن عبد الملك ، فقال: يا أمير المؤمنين إنك قد أقفرت أفواه ولدك من هـذا المال ، فلو أوصيت بهم الىَّ والى نظرائى من قومك لكفوك مؤونتهم ، وكان ذلك خيرا لهم وأحسن . فلما سمع مقالته هذه قال : اجلسونى : فأجلسوه ، فقال : قد سمعت مقالتَك يا مسلمة ، أما قولك إنى أقفَرت أفواه ولدى من هذا المال ، فوالله ما ظلمتهم حقا هو لهم ، ولم أكن لأعطيهم شيئا لغيرهم . وأما ما قلت فى الوصية فان وصيي فيهم الله الذى نزل الكتاب وهـو يتولى الصالحين . وإنما وَلَدُ عمر بين أحد رجلين : إما رجل صالح فسيغنيه الله ، وإما غير ذلك فلن أكون أول من أعانه بالمال على معصية الله ، ادع لى بنىّ ، فأتوه ، فلما رآهم ترقرقت عيناه بالدموع ، وقال : بنفسى فتية تركتهم عالة لا شيء لهم ، يابنى ، إنى قد تركت لكم خيرا كثيرا لا تمرون بأحـد من المسلمين وأهل ذمتهم إلا رأوا لكم حقا فيه ، يابنى ، إنى قد مثلت بين الأمرين : أما أن تستغنوا فيدخل أبوكم النار ، أو تفتقروا ويدخل الجنة ، فأرى أن تفتقروا وأدخل الجنـة خير لى من أن تستغنوا وأدخـل النار ، قوموا عصمكم الله ، قوموا رزقـكم الله . فاستجاب الله دعاءه فى أولاده فما احتاج أحد منهم ولا افتقر .

صفاته الأدبيـة العاليـة :

كان حليما ذا أناة ، ليس بفظ ولا غليظ القلب ، يعفو عمن ظلمه ، ويحسن الى من أساء اليه ، ويقضى بالحق ولو على نفسه ، فكان له ابن من فاطمة بنت عبد الملك ، فخرج يوما يلعب مع الصبية فشجه غلام ، فاحتمله الحاضرون ومن شجه ، وأدخلوهما على فاطمة ، فسمع عمر الجلبة وهو فى بيت آخـر ، فخرج وجاءت امرأة وقالت هو ابنى وهـو يتيم ، فقـال عمر أله عطـاء ؟ قالت لا ، قال اكتبوه فى الذرية ، قالت فاطمة فعل الله به وفعل إن لم يشجه مرة أخرى ، فقال لها عمر : إنـكم أفزعتموه .

ودخل المسجد ذات ليلة فى الظلمة ، فعثر برجل نائم ، فرفع ذلك الرجـل رأسه وقال له أمجنون أنت ؟ قال : لا ، فهم حارسه بضربه ، فقال له عمر إنما سألنى أمجنون أنت فقلت لا .

نبذة من أدعيته :

كان يتضرع الى الله فى كل شىء بما يناسبه ، فدخل الـكعبة يوما وقال : اللهم إنك وعدت الأمان دخّال بيتك ، وأنت خير منزول به فى بيته ، اللهم اجعل أمان ما تؤمننى به أن تكفينى مؤونة الدنيا ، وكل هول دون الجنة ، حتى تبلغنيها برحمتك يا أرحم الراحمين .

ووقف على عرفات يوما وقال : اللهم إنك دعوت الى حج بيتك ، ووعدت به منفعة على شهود مناسكك ، وقد جئتك اللهم ، فاجعل منفعة ما تنفعنى به أن تؤتينى فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة ، وأن تقينى عذاب النار .

وإذا نزلت به نعمة قال : اللهم لا تعطنى فى الدنيا عطاء يبعدنى من رحمتك فى الآخرة .

وكان يخشى الشيطان ويقول : يا رب خلقتنى وأمرتنى ونهيتنى ورغبتنى فى ثواب ما أمرتنى به ، ورهبتنى عقاب ما نهيتنى عنه ، وسلطت على عدوا فأسكنته صدرى ومجرى دمى ، إن أهم بفاحشة شجعنى ، وإن أهم بطاعة ثبطنى ، لا يغفل إن غفلت ، ولا ينسى إن نسيت ينصب لى فى الشهوات ، ويتعرض لى فى الشبهات ، وإلا تصرف عنى كيـده يستذلنى ، اللهم فاقهر سلطانه علىّ بسلطانك عليـه ، حتى تخسئه بكثرة ذكرى لك ، فأفوز مع المعصومين بك يا أرحم الراحمين .

نساؤه :

تزوج من النساء أربعا : هن أم لميس بنت على بن الحارث ، وقد ولدت له عبد الله وبكرا وأم عمار ، وأم عثمان بنت شعيب بن زيان ، ولم تلد له غير ابراهيم ، وفاطمة بنت عبد الملك بن مروان ، وقد ولدت له إسحق ويعقوب وموسى ، وأما عبـد الملك والوليـد وعاصم ويزيد وعبد الله وعبد العزيز وزيان وأمينة وأم عبد الله فأمهم أم ولد .

نشأة أولاده :

نشأهم تنشئة دينية ، ولم يتركهم وشأنهم ، بل عهد الى سهل مولاه بتأديبهم ، وكتب اليه :
« أما بعد : فانى اخترتك على علم منى بك لتأديب أولادى ، فصرفتهم اليك عن غيرك من موالى وذوى الخاصة بى ، فخذهم بالجفاء فهو أمعن لإقدامهم ، وترك الصحبة ، فان عادتها تكسب الغفلة ، وقلة الضحك ، فان كثرته تميت القلب . وليكن أول ما يعتقـدون من أدبك بغض الملاهى التى بدؤها من الشيطان ، وعاقبتها سخط الرحمن ، فانه بلغنى عن الثقات من أهل العلم أن حضور المعازف ، واستماع الأغانى ، واللاهج بها ، ينبت النفاق فى القلب كما ينبت العشب الماء ، ولعمرى لتوقى ذلك بترك حضور تلك المواطن أكبر على ذى الذهن من الثبوت على النفاق فى قلبه ، وهو حين يفارقها لا يعتقد مما سمعت أذناه على شىء مما ينتفع به ، وليفتتح كل غلام منهم بجزء من القرآن يتثبت فى قراءته ، فاذا فرغ تناول قوسه ونبله ، وخرج الى الغرض حافيا ، فاذا رمى سبعة أرشاق انصرف الى القائلة فان ابن مسعود رضى الله عنـه كان يقول يا بنى : قيلوا فان الشياطين لا تقيل »

كان من أولاده واحد يدعى عبد الملك : نهج منهج أبيه فى الصلاح والتقوى ، فـكتب له أبوه من المدينة بعد توليه الخلافة يقـول : « إنه ليس من أحد رشده وصلاحه أحب الى من رشدك وصلاحك ، إلا أن يكون والى عصابة من المسلمين ، أو من أهل العهد ، يكون لهم فى صلاحه ما لا يكون لهم فى غيره ، أو يكون عليهم من فساده ما لا يكون لهم من غيره فأعن أباك على ما قوى عليه ، وعلى ما ظننت أن عنده فيه عجزا عن العمل فيما أنعم الله به عليه وعليك فى ذلك ، ولا تفتتن فيما أنعم الله به عليك فيما عسيت أن تقرظ به أباك فيما ليس فيه إن أباك كان بين ظهرى إخوته يفضـل عليه الـكبير ، ويدنى دونه الصغير ، وإن كان الله « وله الحمد » قد رزقنى من والدى حسبا جميلا كنت به راضيا ، أرى أفضل ببره ولده على حقا حتى ولدت وولدت طائفة من إخوتك ، ولا أخرج بـكم من المنزل الذى أنا فيه ، فمن كان راغبا فى الجنة وهاربا من النـار فالآن التوبة مقبولة ، والذنب مغفور ، قبل نفاد الأجل وانقضاء العمل ، وفراغ من الله للمتقلبين ، ليدينهم بأعمالهم فى موضع لا تقبل فيه الفـدية ، ولا تنفع فيه المعذرة ، تبرز فيه الخفيات ، وتبطل فيه الشفاعات ، فطوبى يومئذ لمن أطاع الله وويل يومئذ لمن عصى الله ، فإن ابتلاك الله بغنى فاقتصـد فى غناك ، وأد فرائض الله فيها ، وإياك أن تفخر بقولك ، أو تعجب بنفسك ، أو يخيل اليـك أن ما رزقته لـكرامة لك على ربك ، وفضيلة على من لم يرزق مثل غناك ، فإذا أنت أخطأت باب الشكر ، وتركت منازل أهل الفقر ، وكنت ممن طغى للغنى وتعجل طيباته فى الحياة الدنيا ، فانى لأعظك بهذا وإنى لـكثير الإسراف على نفسى ، غير محكم لـكثير من أمرى ، ولو أن المرء لم يعظ أخاه حتى يحـكم أمر

نفسه ، ويعمل فى الذى خلق له من عبادة ربه ، إذا لتواكل الناس الخير ، ولرفع الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وقل الواعظون والساعون لله بالنصيحة فى الأرض ، فلله الحمد رب السموات ورب الأرض رب العالمين ، وله الكبرياء فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم » .

ولما قرأ عبد الملك كتاب أبيه سر منه ، وعمل بالذى فيه ، واتفق أن مات فى حياة أبيه وبعد أن شيع عمر جثمانه الى مقره الأخير ، وفرغ من دفنه ، استوى قائما فأحاط الناس به ، فقال : « والله يابنى ، لقد كنت بارا بأبيك ، والله ما زلت مذ وهبك الله لى مسرورا بك ، ولا والله ما كنت قط أشد سرورا ، ولا أرجى لحظى من الله فيك ، منذ وضعتك فى المنزل الذى صيرك الله فيه ، فرحمك الله ، وغفر ذنبك ، وجزاك الله بأحسن عملك ، ورحم الله لكل شافع يشفع لك بخير من شاهد أوغائب ، رضينا بقضاء الله ، وسلمنا لأمره ، والحمد لله رب العالمين »

وحزن عمر على ابنه عبد الملك حزنا عميقا ، وشاطره ذلك رعيته ، وبالغوا فيه ، حتى ناحوا عليه ، فنهاهم عمر عن ذلك بقوله : « إن الله تعالى أحب قبضه ، وأعوذ بالله أن أخالف محبته . إن الله عز وجل لم يجعل لمحسن ولا لمسىء فى الدنيا خلدا ، ولم يرض بما أعجب أهلها ثوابا لأهل طاعته ، ولا ببلائها عقوبة لأهل معصيته ، فكل ما فيها من محبوب متروك ، وكل ما فيها من مكروه مضمحل ، لذلك خلقت وكتب على أهلها الفناء ، فأخبر أنه يرث الأرض ومن عليها ، فاتقوا الله واعملوا ليوم لا يجزى فيه والد عن ولده ، ولا مولود هو جاز عن والده شيئا ، إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور » ؟

محمد مصطفى شادى

جلال العلم

لما حج هرون الرشيد ، وشخص بعد الحج الى المدينة ، أراد أن يسمع الحديث عن مالك ابن أنس ، فاستقدمه اليه ، فاعتذر الامام محتجا بأن العلم يؤتى اليه ، ولا يأتى هو الى طالبه . فقبل أمير المؤمنين أن يذهب بنفسه اليه ، ولكنه طلب أن يخلى المجلس من الناس . فاعتذر مالك محتجا بأن العلم إذا منع عنه العامة لم ينتفع به الخاصة . فقبل الرشيد عذره ، وأذن للناس فدخلوا .

نقول : لا نذكر أن عالما فى العالم كله بلغ هذا المبلغ فى تعظيم العلم .

التجديد والمجددون فى الاسلام

من القرن الأول الهجرى الى عصرنا الحاضر

الامام الاعظم أبو حنيفة

علامَ بنى مذهب أبى حنيفة ؟ كيف دونت أصوله ؟ نقد هذا المذهب والرد عليه .

---

(١) ما هى الأصول التى بنى عليها أبو حنيفة مذهبه ؟

١ — من آثار أبى حنيفة وتجديده ، أنه أول من دون الفقه ورتبه أبوابا ، ولم يسبقه أحد فى ذلك ، لأن الصحابة والتابعين إنما كانوا يعتمدون على قوة حفظهم ، فلما رأى أبوحنيفة الفقه منتشرا جعله أبوابا مبوبة ، وكتبا مرتبة على نحو ما نراه فى كتب الفقه الآن ، فكان فى هذا نسيج وحده ، ومجددا غير مدافع ، وكان مقامه فى الفقه لا يلحق كما شهد له بذلك أبناء جلدته خصوصا مالك والشافعى ، بل كان كما قال القائل :

إمامٌ رست للفقه فى أرض صدره جبالٌ جبالُ الأرض فى جنبها قفٌّ

٢ — ولقد اتفق الجمهور من العلماء على أن أصول الشريعة الاسلامية هى : الكتاب والسنة والاجماع والقياس ؛ وإن خالف بعضهم فى الاجماع والقياس إلا أنه شذوذ ؛ وألحق بعضهم بهذه الأصول الأربعة أدلة أخرى ، ولضعف مداركها وشذوذ القول فيها لا نتعرض لها هنا .

٣ — فما هى الأسس التى بُنى عليها المذهب الحنفى ، أهى الأسس التى اتفق عليها الجمهور ، أو أسس المخالفين له ؟

لقد أجاب الامام أبو حنيفة نفسه عن هذا السؤال ، كما وصل الينا من طرق كثيرة ، فقال رضى الله عنه :

« إنى آخذ بكتاب الله تعالى ، فان لم أجد فى كتاب الله تعالى ، فبسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، فان لم أجد فى سنة رسوله ، أخذت بقول أصحابه من شئت منهم ، وأدع قول من شئت منهم ، وما أخرج عن قولهم الى قول غيرهم ؛ فأما إذا انتهى الأمر وجاء الى إبراهيم والشعبى والحسن وابن سيرين وعطاء وسعيد بن المسيب وابن جبير ، وعد رجالا . . . فقوم اجتهدوا ، فأجتهد كما اجتهدوا » .

وقال الامام الحسن بن زياد صاحب أبى حنيفة : قال الامام أبو حنيفة : « ليس لأحد أن

يقول برأيه مع كتاب الله تعالى ، ومع سنّة رسوله صلى الله عليه وسلم ، ومع ما أجمع عليه الصحابة ؛ وأما ما اختلفوا فيه فنتخيّر من أقاويلهم أقربه الى كتاب الله تعالى ، والى سنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، ولا نجتهد ؛ وما جاوز ذلك فالاجتهاد بالرأى فى وسع الفقهاء لمن عرف الاختلاف وقاس ، وعلى هذا كانوا . وقال زهير بن معاوية : كنت عند الامام أبى حنيفة والأبيض بن الأعز يقايسه فى مسألة يدبرونها بينهم ، فصاح رجل من ناحية المسجد . ظننته من أهل المدينة . ما هذه المقايسات ، دعوها فأول من قاس إبليس ؛ فأقبل عليه أبو حنيفة وقال له : « ياهذا وضعت الكلام فى غير موضعه ، إبليس بقياسه رد على الله سبحانه وتعالى أمره ؛ قال الله تعالى : « إذ قال ربّك للملائكة إنى خالقٌ بشرا من طين ، فاذا سوّيته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين ، فسجد الملائكة كلّهم أجمعون ، إلاّ إبليس استكبر وكان من الكافرين ، قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدىّ أستكبرت أم كنت من العالين ، قال أنا خيرٌ منه : خلقتنى من نار وخلقته من طين » (١) . فاستكبر وَرَدَّ على الله تعالى بقياسه أمره ، وكلّ من ردّ على الله تعالى أمره فهو كافر ؛ وهذا القياس الذى نحن فيه نطلب به اتباع أمر الله تعالى ، لأنا نردّه الى أمر الله تعالى فى كتابه ، أو الى سنّة سنها رسوله أو الى اتفاق الصحابة والتابعين ، فنجتهد فى ذلك حتى نرده الى الكتاب أو السنة أو الاجماع ؛ فاتبعنا فى ردّنا الى الكتاب والسنة والاجماع أمر الله تعالى . قال الله تعالى : « يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ؛ فإن تنازعتم فى شئ فردوه الى الله والرسول » . فنحن ندور حول الاتباع ، فنعمل بأمر الله تعالى ؛ وإبليس حيث قاس خالف أمر الله تعالى وردّه ، فكيف يستويان ؟ ! » فقال الرجل : غلطت يا أبا حنيفة وتبت ، فنوّر الله قلبك كما نورت قلبى .

فمن هذه النصوص يتبين أن الامام أبا حنيفة بنى مذهبه على أصول الشرع الأربعة التى اتفق عليها جمهور العلماء ، ولم يشذ فى شىء عن هذا الاتفاق كما شذّ بعضهم ، وعلى ذلك فلا وجه للحملات التى حملها عليه خصومه بغير حق لينالوا منه ، لأنه لم يخرج فى مذهبه عما اتفق عليه جمهور علماء المسلمين وأئمتهم ؛ وإن ذكراه بالمدح والثناء جديرة بأن يحتفل بها فى كل عام ، إن لم تتكرر على الدوام .

أعد ذكر نعمان لنا إن ذكره   هو المسك ما كررته يتضوع

(٢) ما هو المنهاج الذى أثبت عليه أبو حنيفة أصول مذهبه ؟

فى مسند الخوارزمى وغيره أن الإمام أبا حنيفة رضى الله عنه اجتمع معه ألف من أصحابه أخذوا عنه ، وعاونوه فى وضع مسائل المذهب ، وفى إعداد الجواب عنها ؛ وأجل هؤلاء

(١) سورة ص الآية ٧٠ وما بعدها .

الأصحاب وأفضلهم أربعون قد بلغوا حد الاجتهاد ، فقربهم وأدناهم وقال لهم : إنى ألجمت هذا الفقه وأسرجته لكم ، فأعينونى ، فكان إذا وقعت واقعة شاورهم وناظرهم وحاورهم وسألهم ، فيسمع ما عندهم من الأخبار والآثار فيها ، ويقول ما عنده ، ويناظرهم شهرا أو أكثر حتى يستقر آخر الأقوال ، فيثبته صاحبه أبو يوسف ، حتى أثبت أصول المذهب على هذا المنهاج ، شورى بين أصحابه . وكان أكثرهم من صفوة العلماء المبرزين الذين بلغوا بعلمهم درجة الاجتهاد ، وما كانوا يعملون إلا لله تعالى ولخدمة الدين والعلم والمجتمع ، ولم يكن للمادة عليهم من سلطان .

(٣) نقد مذهب أبى حنيفة :

وجه بعض العلماء الى مذهب أبى حنيفة انتقادات وملاحظات نلخصها فى مسألتين :

المسألة الأولى : إن أدلة المذهب ضعيفة .

المسألة الثانية : إن أبا حنيفة يستعمل الرأى ويقدم القياس على النص .

فاما الزعم والادعاء بأن أدلة مذهب أبى حنيفة ضعيفة ، فغير صحيح بل هو تعصب على الامام وافتراء عليه ، فهذا كتاب تخريج أحاديث الهداية للحافظ الزيلعى ، وكتب المذهب بين أيدينا ، وكل ما فيها من أدلة يدور بين الصحيح ، والحسن ، والضعيف الذى كثرت طرقه حتى ألحق بالحسن . وقد قال جمهور المحدثين بالاحتجاج بالحديث الضعيف إذا كثرت طرقه ، وألحقوه بالصحيح تارة وبالحسن تارة أخرى ؛ وهذا النوع من الضعيف يوجد كثيرا فى كتاب السنن الكبرى للبيهقى التى ألفها بقصد الاحتجاج لمذهب الامام الشافعى رضى الله عنه ولأقوال أصحابه ، فإنه إذا لم يجد حديثا صحيحا أو حسنا لقول الامام الشافعى أو لقول أحد من أتباعه يروى الحديث الضعيف من طريق كذا وكذا ، ويكتفى بذلك ويقول : وهذه الطرق يقوى بعضها بعضا ، فعلى فرض وجود ضعف فى بعض أدلة أقوال الامام أبى حنيفة وأقوال أصحابه فانه لا خصوصية له فى ذلك ، فإن هذا أمر يشارك فى الاستدلال به جميع الأئمة كما سيأتى ، والحقُّ أحقُّ أن يتبع .

وقال الإمام الشعرانى : لقد منّ الله تعالى علىّ بمطالعة مسانيد الإمام أبى حنيفة من نسخة صحيحة عليها خط الحافظ الزّيلعى والحافظ الدمياطى وغيرهما ، فوجدته رضى الله عنه لا يروى حديثا إلا عن خيار التابعين الثقات العدول الذين هم من خير القرون بشهادة الرسول صلى الله عليه وسلم كالأسود وعلقمة وعطاء وعكرمة ومجاهد والحسن البصرى وأضرابهم ، فكل الرواة الذين بينه وبين النبى صلى الله عليه وسلم ثقات عدول ليس فيهم كذاب بل هم أعلام أخيار ، وناهيك بعدالة من أخذ عنه الإمام الأعظم وارتضاه لأحكام دينه مع شدة ورع الإمام وتحرّزه وشفقته على الأمة المحمدية ، على أنه ما من راو من رواة المحدثين ...

إلا وهو يقبل الجرح لو أضيف اليه كما يقبل التعديل ، وذلك لعدم العصمة ، ولكن العلماء رضى الله تعالى عنهم أمناء الشريعة فقدموا التعديل غالبا على الجرح لئلا يذهب غالب الشريعة ، وقالوا إحسان الظن بالرواة المستورين أولى ، مع أن جمهور المحدثين قالوا : إن مجرد الكلام فى شخص لا يسقط مروءته ، وقد خرّج الشيخان لخلق كثير ممن تكلم الناس فيهم إيثارا لإثبات أدلة الشريعة ليحوز الناس فضل العمل بها ، وليكون فى ذلك فضل كثير للأمة ؛ كما أن فى ضمن تضعيفهم للاحاديث أيضا رحمة للأمة بتخفيف الأمر بالعمل بها وإن لم يقصد الحفاظ ذلك ، فانهم لو لم يضعفوا شيئا من الأحاديث وصححوها لعجز غالب العامة عن العمل بها ، فليس لنا ترك حديث من تكلم الناس فيه بمجرد الكلام ؛ وإنما لنا ترك ما انفرد به ، وكان مخالفا للثقات ، ولو أننا فتحنا باب الترك لكل راو تكلم فيه بعض الناس لذهب معظم أحاديث الشريعة . فجميع أدلة الأئمة المجتهدين لا تخرج عن الشريعة ، وإذا قال أحد الحفاظ بضعف شىء من أدلة مذهب أبى حنيفة فذلك محمول جزما على ضعف الرجال النازلين فى السّند بعد موت الامام الأعظم إذا رَوَوْا ذلك عن طريق غير طريق الامام ؛ أما كل حديث وجدناه فى مسائل الامام فهو حديث صحيح ، لأنه لو لم يكن صحيحا لما استدل به ، وكفى صحة للحديث استدلال مجتهد به ، ويجب العمل به ولو لم يروه غيره ، ولا يقدح فى صحته وجود كذاب أو متهم بكذب فى سنده النازل عن الامام .

ويحتمل أن يكون مراد القائل بأن فى أدلة مذهب أبى حنيفة ضعيفا إنما هو فى أدلة مذاهب أصحابه التى ولدوها بعده ، وفهموها من كلامه لجهل هذا بحقيقة المذهب ؛ فإن مذهب الانسان هو ما قاله ولم يرجع عنه الى أن مات لا ما فهم من كلامه ؛ وهذا الجهل يقع فيه كثير من طلبة العلم فضلا عن غيرهم ، فيقولون مذهب أصحاب الامام مذهب له ، مع أن الامام ليس له فى تلك المسألة كلام ؛ وكل هذا من قلة الورع فى الدين وسوء التصرف . فأدلة مذهب أبى حنيفة صحيحة لا ريب فيها ، وإن جميع ما استدل به لمذهبه أخذه عن خيار التابعين كمجاهد وعكرمة والأسود وعلقمة وأضرابهم ، فلا يتصور فى أدلته ضعف بوجه من الوجوه ؛ وإن قيل بضعف حديث مستدل به ، فذلك الضعف إنما هو من حيث الراوى النازل فى السند بعد موت الإمام ، فلا يقدح ذلك فيما أخذ به الامام لمن استصحب النظر فى الرواة وهو صاعد الى النبى صلى الله عليه وسلم ؛ وكذلك أدلة أتباعه وأئمة مذهبه ، فلم يستدل أحدهم بحديث ضعيف وإنما يستدل بصحيح أو حسن أو ضعيف كثرت طرقه ، وذلك أمر يشارك فى الاستدلال به جميع الأئمة ، ولا خصوصية لأصحاب أبى حنيفة فى ذلك ، على أن الأدلة التى لم يأخذ بها كل إمام يسيرة جدا ، وباقى الأدلة اتفقوا كلهم على الأخذ بها .

فالذين يقولون بضعف فى بعض أدلة مذهب أبى حنيفة لا يفهمون كلام الامام ، ولا يعرفون

مدارك مذهبه التى هى فى غاية الدقة ، ولا أدل على هذا من قول الامام الشعرانى : دخل على شخص من طلبة العلم ، فأخرج لى بعض الكراريس وقال : انظر فى هذه ، فوجدت فيها جملة من المسائل المنقولة عن الإمام أبى حنيفة ، ووجدته قد شرع فى ردها . فقلت له : مثلك لا يفهم كلام هذا الإمام ؟ فقال : إنما أخذتها عن الفخر الرازى ، فقلت له : والفخر الرازى بالنسبة للامام أبى حنيفة كآحاد الرعية مع السلطان الأعظم ، ولا ينبغى لأحد من الرعية الطعن على إمامه إلا بحق واضح . ثم قال : ولقد كان لى صاحب عزيز على ، فذكر الامام أبا حنيفة بسوء ، وقال لا أقدر أسمع لهذ ولا ؛ فنهيته عن ذلك وأفهمته ما فيه من ضرر ، وقال الإمام الخواص : مذهب الامام الأعظم هو آخر المذاهب انقراضا كما كان أول المذاهب المدونة ؛ ولا عبرة بمن يعترض على بعض أقواله من الناس فانه جاهل بمداركه . فالدعوى بأن أدلة مذهب أبى حنيفة ضعيفة غير صحيحة ولا دليل عليها ولا يدعيها إلا من لم يفهم كلام أبى حنيفة ، ولا يعرف مدارك مذهبه الدقيقة ، أما أن أبا حنيفة يستعمل الرأى ويقدم القياس على النص فسنتكلم عنه بعد إن شاء الله تعالى ؟

السيد عفيفى



العامل بغير علم

قال الحسن البصرى : لقيت قوما من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولون : من عمل بغير علم كان ما يفسد أكثر مما يصلح .

وروى عن أوائلنا قولهم : العامل بغير علم كالسائر على غير طريق .

نقول : إننا شديدو العجب من صدور هذه الحكم العالية من قوم كانوا فى أمسهم لا يعرفون ما هو العلم ، ولا يشعرون أنهم فى حاجة اليه . وأن مدح العلم إيذان من المادح بأنه يعرف قيمته ، ولكن أعظم من المدح ، وأبعد غورا فى تقدير قدره ، أن يعرف القائل أن العامل بغير علم يهتدى به ، كان ما يسببه عمله من الفساد أكثر مما يوجده من الاصلاح . وهذا القول يحتم طلب العلم ما لا يحتمه أى ضرب من ضروب التحضيض عليه .

دراسات في القرآن الكريم

كيف نشأ تفسير القرآن الكريم

وتراجم مشاهير المفسرين

لا بد للباحث فى هذا الموضوع من أن يتجه إليه من ناحية أصله وأساسه ، أى قبل أن يكون تفسير القرآن الكريم « علما مدونا » ، حتى يستطيع أن يصل الى : كيف نشأ ، وكيف دُوّن ، ومن هو أول من دونه . والعوامل التى ساعدت على ذلك ؟ إذ للموضوع ناحيتان رئيسيتان : إحداهما تفسير القرآن الكريم قبل أن يصير « علما مدونا » ، والثانية بعد أن صار كذلك . والناحية الأولى ترجع الى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وعهد أصحابه رضوان الله عليهم أجمعين . لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أصل ذلك وأساسه ، إذ هو الذى أنزل عليه القرآن ، فهو أعلم الناس إطلاقا به . وهو فى الوقت نفسه مكلف ببيان ما يخفى على الناس من معانيه مصداقا لقوله تعالى : « وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم » ، فالسنة تبين القرآن من ناحية عمومه وخصوصه ، ومطلقه ومقيده ، وناسخه ومنسوخه ، ومنطوقه ومفهومه ، وغير ذلك مما أفاض فيه علماء أصول الفقه . بل قد أثبتوا أن السنة لا تقتصر على بيان عمومه ومطلقه الخ ، وإنما هى تخصص عمومه ، وتقيد مطلقه ، وتبين مجمله ، وتوضح مشكله . وأثبتوا أكثر من ذلك . قالوا إن السنة المتواترة تنسخ القرآن ، وإن منعه بعضهم . كالإمام الشافعى رضى الله عنه .

أما غريب القرآن الكريم . فغير محتاج بالنسبة لأكثرهم الى بيان ، لأن غريب القرآن هو غريب اللغة ، وهم أصحابها وفرسان ميدانها ، وأبناء بجدتها . وإنما قلنا بالنسبة لأكثرهم . لأنه ثبت أن بعضهم توقف فى معنى غريب القرآن وسأل عنه . فمن ذلك ما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : إذا سألتمونى عن غريب القرآن فالتمسوه فى الشعر ، فان الشعر ديوان العرب . وقال سعيد بن جبير ويوسف بن مهران : سمعنا ابن عباس يسأل عن الشىء من القرآن ، فيقول فيه هكذا وهكذا ، أما سمعتم الشاعر يقول كذا وكذا ؟ وسأل رجل ابن عباس عن قول الله جل شأنه : « وثيابك فطهر » قال : لا تلبس ثيابك على غدر ، وتمثل بقول غيلان الثقفى :

فإنى بحمد الله لا ثوب غادر   لبست ولا من سوءة أتقنع

وقال نافع بن الأزرق لابن عباس : أخبرنى عن قول الله جل وعز : « لا تأخذه سنة ولا نوم » ما السِنة . قال : النعاس . قال زهير بن أبى سلمى :

لا سنة فى طوال الليل تأخذه ولا ينام ولا فى أمره فنَد

وسئل عكرمة عن قوله تعالى : « ذواتا أفنان » ، قال : ذواتا ظل وأغصان ، ألم تسمع قول الشاعر :

ما هاج شوقك من هديل حمامة تدعو على فنن الغصون حماما

تدعو أبا فَرْخين صادف طائرا ذا مخلبين من الصقور قطاما

وغير ذلك .

كما أن بعض الصحابة يفهم من اللفظ المعنى الموضوع له فيحمله عليه ، ولا يتجه الى المعانى الثانوية من المجاز وغيره ، مع أن المعنى الأصلى قد يكون غير مراد إطلاقا ، مثال ذلك ما وقع لعدى ابن حاتم رضى الله عنه حينما نزل قوله تعالى : « وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر » ، إذ عمد الى عقال أبيض وآخر أسود ، ووضعهما تحت الوسادة ، وأكل وشرب حتى ميز بينهما على ضوء النهار ، فذكر ذلك للنبى صلى الله عليه وسلم . فبين له معنى الخيط الأبيض والأسود ، أعنى المعنى المراد من القرآن بقوله صلى الله عليه وسلم : « إنما ذلك سواد الليل وبياض النهار » .

أما الحديث الوارد عن السيدة عائشة رضى الله عنها وهو : « ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفسر من كتاب الله إلا آيا بعدد علمه اياهن جبريل » ، فمحمول عند العلماء على تفسير مغيبات القرآن ، مما لا سبيل إليه إلا بتوقيف من الله تعالى ، ولا يحمل على إطلاقه الذى قد يستفاد منه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يتحفظ فى تفسير القرآن ، فلم يفسر إلا آيات معدودات جاءه جبريل ببيانها ، وإلا لزم تخصيص العموم فى قوله تعالى : « وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم » ، ولزم أيضا تحرُّج أصحابه رضوان الله عليهم من تفسيره والخوض فى معانيه ، ولم يتحرجوا من ذلك .

وأما الحديث الذى رواه ابن عباس رضى الله عنهما وهو : « اتقوا الحديث علىّ إلا ما علمتم ، فمن كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار ، ومن قال فى القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار » ، فمحمول على تفسير القرآن بمعان يعلم المفسر أن الحق غيرها ، أو على معنى أن الرأى هو الهوى ، أى أنه يفسر القرآن تفسيرا يوافق هواه دون استناد الى أقوال أئمة السلف وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهم الطبقة العليا فى الفضل ، والمستقون العلم والحكمة منه صلى الله عليه وسلم ، فهم أصحاب الشأن الأول فى تفسير القرآن الكريم وغيره ، مما يتصل بالدين وأحكامه .

وقد كانوا رضوان الله عليهم متفاوتين فى العلم بمعانى القران . شأن أفراد كل طبقة ، فقد ورد عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه مكث سنتين يريد أن يسأل عمر بن الخطاب عن المرأتين اللتين تظاهرتا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يمنعه إلا مهابته ، ثم سأله فقال له : هما حفصة وعائشة ، ومعلوم أن القرآن قد نزل منجّما على حسب الوقائع والحوادث ، فهو يقرر أحكامها ، فقد تحدث حادثة فى بيت تنزل بسببها آية ، فصاحب الحادثة يكون أعلم بها من غيره ، ثم يعلم ذلك الغير بطريق النقل والسماع .

وقد تحرج بعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من أن يفسر القرآن ، فمنهم أسبقهم فى الاسلام إطلاقا ، وأفضلهم وأجلهم ، أبو بكر الصديق رضى الله عنه . فقد روى ابن أبى مليكة قال : سئل أبو بكر الصديق رضى الله عنه فى تفسير حرف (أى كلمة) من القرآن فقال : أى سماء تظلنى ، وأى أرض تقلنى ، وأين أذهب ، وكيف أصنع ، إذا قلت فى حرف من كتاب الله بغير ما أراد تبارك وتعالى .

قال ابن عطية : وكان جملة من السلف كثير عددهم يفسرون القرآن ، وهم أبقوا على المسلمين فى ذلك رضى الله عنهم .

أما صدر المفسرين والمؤيد فيهم فعلى بن أبى طالب كرم الله وجهه ، ويتلوه عبد الله ابن عباس ، وهو تجرد للأمر كله . وقال ابن عباس : ما أخذت من تفسير القرآن فعن على ابن أبى طالب ، وكان على رضى الله عنه يثنى على تفسير ابن عباس ويحض على الأخذ عنه ، وكان يقول : ابن عباس كأنما ينظر الى الغيب من ستر رقيق ، وكان ابن مسعود يقول نعم ترجمان القرآن عبد الله بن عباس ، إلا أن الإجماع مع هذا يكاد يكون منعقدا على إمامة علىّ فى هذا الشأن . روى عامر بن واثلة قال : شهدت على بن أبى طالب رضى الله عنه يخطب فسمعته يقول فى خطبته : سلونى ، فوالله لا تسألونى عن شىء يكون الى يوم القيامة إلا حدثتكم به سلونى عن كتاب الله ، فوالله ما من آية إلا أنا أعلم أبليل نزلت أم بنهار ، أم فى سهل نزلت أم فى جبل . فقام اليه عبد الله بن أبى أوفى اليشكرى الملقب بابن الكواء ، فقال يا أمير المؤمنين (ما الذاريات ذروا ؟) ففسرها .

ولما قال عبد الله بن مسعود : لو أعلم أحدا أعلم بكتاب الله منى تبلغه المطىّ لأتيته ، قال له رجل أما لقيت على بن أبى طالب ؟ فقال بلى قد لقيته : وعن ابن مسعود أنه قال إن القرآن أنزل على سبعة أحرف ما منها حرف إلا وله ظهر وبطن ، وإن عليا رضى الله عنه عنده من الظاهر والباطن .

والسبب فى شهرة عبد الله بن عباس فى التفسير دعوة النبى صلى الله عليه وسلم له حيث قال : اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل . وقد روى عنه فى التفسير ما لا يحصى كثرة ، لكن

أحسن الطرق عنه طريق على بن أبى طلحة الهاشمى المتوفى سنة ١٤٣ ، وقد اعتمد عليها البخارى فى صحيحه ، ويليه طريق قيس بن مسلم الكوفى المتوفى سنة ١٢٠ ه .

ويلى عليا وعبد الله بن عباس رضى الله عنهما فى التفسير ابن مسعود وأبى بن كعب وزيد ابن ثابت وأبو موسى الأشعرى وعبد الله بن الزبير وأنس بن مالك وأبو هريرة وجابر وعبد الله بن عمرو بن العاص وغيرهم رضوان الله عليهم أجمعين — كل هؤلاء مفسرون قبل أن يصير التفسير علما مدونا كما أسلفنا فى صدر هذا المقال وسنأتى على تراجمهم كمفسرين فى مقالات تالية إن شاء الله تعالى والله الموفق ؟

محمد حسين

فضيلة الحياء

قال النبى صلى الله عليه وسلم : « لكل دين خلق وخلق هذا الدين الحياء » .

وقال أمير المؤمنين على رضى الله عنه : « من كساه الحياء ثوبه ، لم ير الناس عيبه » .

وقال أديب : لا يزال الوجه كريما ما بقى حياؤه ، كما لا يزال الغصن نضيرا ما بقى لحاؤه (اللحاء بكسر اللام قشر خشب الشجر) .

أخذ هذا المعنى شاعر فقال :

يعيش المرء ما استحيا كريما ويبقى العود ما بقى اللحاء
وما فى أن يعيش المرء خير إذا ما المرء فارقه الحياء

نقول : رحم الله هذا الأديب الذى كان يعيش فى زمان تعرف فيه للحياء قيمة ! فماذا كان قائلا لو عاش فى هذا الزمان ، ورأى أن الذين يعيشون كراما معظمين بين الدهماء هم المجردون من الحياء ، الجريئون على الأعراض يثلمونها ، والأحساب يجحدونها . وليس الذنب فى ذلك ذنبهم ، ولكنه ذنب ضعاف النفوس من أهل هذا الجيل الذين يريدون أن يحمدوا بما لم يفعلوا ، ويخافون أن يذموا بما فعلوا . فهؤلاء هم الذين يشجعون الوقحاء ، ويمدونهم بالمال والجاه . ولو كان لهم من الفعال ما يحفظه لهم المجتمع لما خشوا بأس هؤلاء المتقولين ، وكان المجتمع هو الذى يرد عنهم بأسهم ، وينكل بهم أشد تنكيل .

فإذا ذكرت أهل الحياء فى هذا الدور من الفتنة الخلقية ، فحدث عن المهملين المنسيين ولا حرج . ولكن لا يبقى إلا ريثما ينتهى دوره ، ثم يعود الحق الى نصابه .

اختلاف الناس

فى عــدد أيام الشهور القمرية

بيان معنى قوله صلى الله عليه وسلم : (شهرا عيد لا ينقصان) :

فى شرح الإمام النووى على صحيح الحافظ مسلم رضى الله عنه بالجزء السادس وجه ١٤٣ بالهامش ، قال حدثنا يحيى بن يحيى ، قال أخبرنا يزيد بن زريع عن خالد عن عبد الرحمن بن أبى بكرة عن أبيه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « شهرا عيد لا ينقصان » . رمضان وذو الحجة . ثم قال : وحدثنا أبو بكر بن أبى شيبة ، قال حدثنا معتمر بن سليمان عن اسحق بن سويد ، وخالد عن عبد الرحمن بن أبى بكرة عن أبى بكرة أن نبى الله صلى الله عليه وسلم قال : « شهرا عيد لا ينقصان » ، فى حديث خالد — شهرا عيد رمضان وذو الحجة — (يعنى أن إسحاق بن سويد لم يذكر فى حديثه عن عبد الرحمن بن أبى بكرة رمضان وذو الحجة ولم يسمهما) .

قال النووى الأصح أن معناه لا ينقص أجرهما والثواب المرتب عليهما وإن نقص عددهما وقيل معناه لا ينقصان جميعا فى سنة واحدة غالبا ، وقال الخطابى لا ينقص ثواب ذى الحجة عن ثواب رمضان لأن فيه المناسك . وهو ضعيف ، والأول هو الصواب المعتمد . وهو معنى قوله صلى الله عليه وسلم : « من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه » وقوله صلى الله عليه وسلم : من قام رمضان إيمانا واحتسابا وغير ذلك ، فكل هــذه الفضائل تحصل سواء تم عدد رمضان أم نقص والله أعلم .

وكل هذا جاء من اختلاف الناس فى عدد أيام الشهور القمرية ٢٩ يوما أو ٣٠ ، وفى إمكان رؤية الهلال فى بلد وتعذر رؤيته فى غيره . وقد دلت حسابات المراصد الفلكية أن الشهر القمرى القانونى تحققت مدته من مقابلة الخسوفات القديمة بالحديثة ، وهى التى تعود الى دورتها السابقة تماما بعد مضى ٢٢٣ دورة من دورات القمر القانونية ، وذلك يتم فى مدة ١٨ سنة شمسية و ١٠ أيام

ثانية	دقيقة	ساعة	يوم		كسر	يوم
٢ر٨	٤٤	١٢	٢٩	، أى	٥٣٠٩	٢٩

ومنها حسبت مدة الأيام بين الهلالين فكانت ٢ر٨ ٤٤ ١٢ ٢٩ ، أى ٥٣٠٩ ٢٩

والطريقة المتبعة من قديم فى حساب الأهلة هى جعل الشهور العربية بموجب ذلك ، شهر ٣٠ يوما وشهر ٢٩

ومن البيان الآتي يتضح أن شهر رمضان إذا اعتبرت أيامه بالرؤية ٢٩ يوما لا ٣٠ وتم بأيامه الماضي من السنة ٢٦٥ يوما فإن شهر ذي الحجة غير ممكن أن يكون بعد ذلك عدد أيامه ٢٩ يوما فقط لأن الأهلة الاثنى عشر يجب أن تكون مدتها ٧٧٠٨ر٣٥٤ يوما .

وبذلك يقتضى أن شهر الحجة وهو شهر العيد الثاني يكون ٣٠ يوما لتتم الدورة القانونية ٧٧٠٨ر٣٥٤ يوما فلا ينقصان شهرا العيد .

	يوم	كمر	يوم
محرم	٣٠	٥٣٠٩	٢٩
صفر	٢٩	٥٣٠٩	٢٩
	٥٩	٠٦١٨	٥٩
ربيع أول	٣٠	٥٣٠٩	٢٩
	٨٩	٥٩٢٧	٨٨
ربيع ثاني	٢٩	٥٣٠٩	٢٩
	١١٨	١٢٣٦	١١٨
جمادى الأولى	٣٠	٥٣٠٩	٢٩
	١٤٨	٦٥٤٥	١٤٧
جمادى الآخرة	٢٩	٥٣٠٩	٢٩
	١٧٧	١٨٥٤	١٧٧
رجب	٣٠	٥٣٠٩	٢٩
	٢٠٧	٧١٦٣	٢٠٦

	يوم	كمر	يوم
ماقبله	٢٠٧	٧١٦٣	٢٠٦
شعبان	٢٩	٥٣٠٩	٢٩
	٢٣٦	٢٤٧٢	٢٣٦
رمضان	٣٠	٥٣٠٩	٢٩
	٢٦٦	٧٧٨١	٢٦٥
شوال	٢٩	٥٣٠٩	٢٩
	٢٩٥	٣٠٩٠	٢٩٥
ذو القعدة	٣٠	٥٣٠٩	٢٩
	٣٢٥	٢٣٩٩	٣٢٥
ذو الحجة	٢٩	٥٣٠٩	٢٩
	٣٥٤	٧٧٠٨	٣٥٤

والذي يظهر بجلاء — والعلم عند الله — أن الإشارة في الحديث الشريف تنص على تنبيه صلى الله عليه وسلم بما يقر عليه قرار الأرصاد الفلكية لحساب النيرين كما قال تعالى : (الشمس والقمر بحسبان) وإذا كانت تسمية الشهرين هي من تفسير الراوي (خالد) وليست من متن الحديث كما خلت منه رواية إسحاق بن سويد . كما وإن شهر العيد هو شهر شوال لا رمضان والعلامة في شوال واضحة ٢٩٥ يوما أما الاجتهاد ففي تمام شهر رمضان إذ هو عند الميقاتيين يتم به الماضي من أيام السنة ٢٦٦ وبحساب الرصد ٢٦٥ يوما ونصف وربع .

ولم نجد أثرا لإدخال الأجر والثواب في هذين الحديثين ؟

محمد حفظى

الحرب ضد بنت الحان

جاءنا من لوزان حيث المكتب الدولى لمكافحة المسكرات عن طريق جمعية منع المسكرات بمصر النشرة الآتية تبين ما حدث من إجراءات فى بعض الممالك الاوربية ضد انتشار الخمر :

فى النرويج : حرمت سلطات مدينة (أوسلو) بيع الخمور فيما عدا المطاعم ، ثم ألغت هذا التحريم الآن ، فالتمست جمعيات منع المسكرات استمراره ، وقد جاء فى أحد الملتمسات المرفوعة : إن الهدوء والأمن والنظام من دعائم الحياة الاجتماعية المثلى ، ولن يتأتى لنا ذلك إلا إذا غرسنا فى نفوس الشعب مقت الشراب ، وقد طلب المستر « جاكسون » رئيس الاتحاد النرويجى لمنع المسكرات الى الجمعيات مواصلة كفاحها . كما أذاع الاتحاد المحلى لمدينة أوسلو نداء بهذا المعنى .

فى الدانمارك : منع بيع الكحول ، ولكن سمح بالبيرة التى لا تحوى أكثر من ٢ ٪ من الكحول ، وصرح أخيرا ببيع أنواع من البيرة القوية ، فكانت العاقبة وخيمة ، وتجلى للعيان نتائج السكر المميتة ، ومما يزيد الأمر شناعة وخطورة أن إطفاء الأنوار إجبارى ولا يخفى ما يتهدد الأمن العام من جراء معاقرة بنت الحان . وقد صرح المستر « لارسن ليدت » لجمعيات منع المسكرات بمواصلة عملها وعقد اجتماعاتها الخاصة بيد أنه حظر عليها الاجتماعات العامة ، ومما يجدر بالذكر أن أكثر الجمعيات نشطت نشاطها الطبيعى فى كثير من البقاع .

فى السويد : بالرغم من الصعوبات الراهنة تمكنت جمعيات منع المسكرات من إحياء يومها السنوى بتاريخ ١٩ مايو فكان يوما مشهودا بحق . إذ عقد فيه ٧٠٠ اجتماع وقد شهد الاجتماع الذى عقد فى الهواء الطلق بمدينة استوكهلم خمسة آلاف شخص ، ومما يجمل ذكره أن الخطباء فى كل مكان رددوا نغمة واحدة هى « أن الوقت الحالى يتطلب منا كل ما نملك من قوة جسمانية وخلقية » .

فى سويسرة : وجه الجنرال (جويزان) القائد العام للجيش السويسرى الى شباب سويسرة النداء الآتى : —

إن أرض الوطن وديعة فى يد شبابه ، ولن تسلم هذه الوديعة المقدسة من يد الغاصب المستبد إلا إذا سلم الشباب من غائلة الخمر .

فاتق الله أيها الشاب فى وطنك وفى نفسك ، واعلم يقينا أيها السويسرى الشاب أن فى يدك

وحدك الخاتم الذى ستطبع به بلادك ، فلا تلطخ جبهة الوطن ، ولا تطبعه بطابع المذلة والعار ولن يكفل لك ذلك إلا مجانبة الخمر ، فاغنم هذا الشرف بقوة عزيمتك . القائد العام

الجنرال جويزان

في استراليا : أخذ اتحاد منع المسكرات على عاتقه إنشاء مشارب للبن وعصير الفواكه (بدلا من بارات الخمر) ، فرحبت السلطات العسكرية بهذا العرض الجميل ، ولكن مشروعا كهذا المشروع لايبرز فى حيز الوجود بأقل من عشرة آلاف جنيه ، ومع أن هذا المبلغ لا يستهان به فقد تغلبت روح العزم والتضحية على كل العقبات ، وأضحى المشروع قاب قوسين أو أدنى من الظهور .

في فنلنده : أوضح ذلك المستر (فاجر هولم) وزير الشئون الاجتماعية فى خطاب قال فيه : « اتخذت اجراءات شديدة لمنع المسكرات أثناء الحرب ، وضوعفت هذه الاجراءآت بعد انتهائها فأغلقت جميع المحال التى تحتكر بيع الخمور ثم فتحت ثانية فى الثامن من شهر ابريل . وعقب الوزير قائلا : اتضح لنا الآن أن أعصابنا التى تماسكناها تماسكا يدعو الى الاعجاب أثناء الحرب فقدت توازنها الآن من جراء استهلاك المشروبات الذى ارتفع ارتفاعا محسوسا وأعلن عن نفسه بكثير من حوادث السكر المزرية ، لهذا أرى من اللازم إغلاق جميع الحانات على ألا تعود قبل منتصف مايو .

وقد طلبت جمعيات منع المسكرات ايقاف بيع المشروبات الروحية لأجل غير مسمى ، فاعتذر الوزير قائلا : إن الرأى العام قد لا يعضد مثل هذا الاجراء ، لأنه يجب أن يلاحظ أن لاحتكار بيع الخمر شأنا كبيرا فى ماليتنا ، ولكنا مع هذا التزمنا خطة أخرى تخفض مستوى الاستهلاك برفع أثمان الخمور ، فالمشروب الذى كان يساوى اللتر منه ٣٦ مارك (١٥ قرشا) من بضع سنين لا يقل ثمنه الآن عن ٨٠ مارك (٣٦٫٥ قرشا) .

وأوحى الوزير الى رجال الصحافة أن يشدوا من أزر جمعيات منع المسكرات ، ثم وجه النصح الى الجمعيات نفسها أن تلم شملها لتستفيد من مجهودها المشتت بتعددها ، وأشار الى أنه من الكثير جدا ومن المرهق للحكومة أن تمد ثمانية وعشرين هيئة باعانات مالية ، وأشار الى أن عشرة جرائد خاصة بمنع المسكرات تصدر فى فنلنده وحدها ، وأظهر أسفه لأن واحدة من هذه الجرائد لا تحظى بقارىء من الشعب غير أعضاء الجمعيات .

واختتم قائلا : بأنه يرجو أن تتسع دائرة هذا الجهاد المحدود فى القريب العاجل ليكون أشمل نفعا وأعم فائدة وأكثر جدوى . سكرتير الجمعية

محمد رضا

طنافس فاخرة للازهر

مكرمة من المكارم الملكية

لحضرة صاحب الجلالة الملك المعظم ، فاروق الأول حفظه الله ، مآثر خالدة فى تأييد الدين ، والتنويه بمكانته . فقد حرص ، حرس الله ذاته ، على تأدية فرائضه ، والقيام بواجباته نحوه ، فأشعر الشعب المصرى ، بل الشعوب الاسلامية قاطبة ، أن الدين حرمة يجب أن تصان ، وأن له مكانة يجب أن تحترم ، وأن مهمته من المجتمع الانسانى بمنزلة مهمة الروح من الجسد ، إذا زايلته فسد ، وتحللت عناصره شذر مذر .

إن هذه الأصول المقررة كُتبت كثيرا فى الصحف الدورية والكتب ، وخُطب بها على المنابر فى كل صقع من أصقاع الأرض ، ولكن تأثير كل ذلك لم يبلغ ما بلغه تأثير رعاية الفاروق للدين ، وتنويهه بكرامته ، من طريق عملى لا كلامى ، وهو فى ميعة الصبا ، وريق الشبيبة .

قام كثير من الملوك لهذا الدين بالخدم الجليلة ، وتباروا فى ذلك ، وبذلوا فى سبيله الأموال الطائلة ، ولكنهم لم يبلغوا من التأثير بأعمالهم ما بلغه جلالة الفاروق ، لأنهم قاموا بما قاموا به أيام كان العمل للدين من أعظم المفاخر ، والتقصير فى حقه من أشد الكبائر ، وأيام كان الناس لا يصدرون إلا عن الدين ولا يردون إلا موارده ؛ ولكن مليكنا المفدى جاء فى عهد اعتُبر الابتعاد فيه عن الدين ألمعية ، والتجاهل له مدنية ، فرفع عن العقول هذا الوهم القاتل ، وأزال من النفوس هذا الجهل الفاضح ، بما سلكه فى تأييد حجة الدين من سيرة لم تتفق إلا للأفذاذ من المملكين فى خلال العصور ، وخلائق لم تؤثر إلا عن كبار القلوب من صاغة الأمم ، فكان بعمله هذا رافعا كابوسا كان رائنا على كثير من الصدور ، فاستطاعت أن تستنشق الهواء طلقا ، وأن تواجه الحقيقة سافرة . وما هى إلا أيام حتى اتضح للغاوين أنهم كانوا فى خيلائهم مأفونين ، وفى علمهم السطحى واهمين ، وأن الدين ضرورى للاجتماع ضرورة أقوى روابطه ، بل هو روحه الذى يدبره ، لأنه يتحكم فى الأخلاق ، وهى كما تعلم مِساك الاجتماع وقوامه ، إذا ضعفت انحلت عراه ، وزايله ترابطه ، وفنى فى أمم أخرى .

هذه الحقيقة قالها الدين منذ وُجد ، وأثبتتها الفلسفة قديما وحديثا ، فعملُ جلالة الفاروق لإعادة سلطان الدين فى العهد الأخير ، يفوق كثيرا ما فعله سابقوه من السلاطين والملوك فى هذه السبيل .

لقد جلس هرون الرشيد مرة الى الامام مالك ليسمع منه ، فاعتُبر ذلك من أجل ما أُثر عنه من احترام الدين وأهله ، ووُضع فى أرفع مكان من تاريخه ، ولا يزال يتناقله الكتاب

والمؤرخون ، أفلا يعتبر جلوس صاحب الجلالة الفاروق للاستماع الى الامام المراغى أربع مرات فى كل رمضان ، واتخاذ ذلك تقليدا ملكيا يحتفل به كل عام ، فى حشد يحضره أركان الدولة وأقطابها ، من الأعمال المجيدة التى يسجلها التاريخ فى أرفع مكان من صحائفه الخالدة ؟

وقد أحيا جلالته سنة بطل العمل بها منذ أكثر من ألف سنة ، وتعد من الأعمال الفذة التى لها من التأثير الأدبى أكثر مما لأى عمل غيره ، ألا وهى صلاته بالناس إماما .

لا جرم إنه ليس فى وسع الفيلسوف الذى وقف قلمه على تسجيل تطورات النفوس ، أن يسجل لملك عصرى ما هو أبعد مدى فى تهذيب نفسية الشعوب من هذا العمل الخطير .

وإن من يمن نقيبة جلالة الفاروق أن يكون شيخ الدين فى عهده المبارك حضرة صاحب الفضيلة الإمام المراغى ، ذلك الرجل المصلح الذى يستطيع أن يكون عند ظن جلالته فى توثباته نحو الاصلاح الدينى علما وعملا واضطلاعا بكبريات الشئون ، فجاءت جميع هذه المساعى الكريمة فى إنهاض العاطفة الدينية متلائمة متوازنة يؤيد بعضها بعضا .

وإن مجلة الأزهر ترجو أن تحلى صفحاتها اليوم بتمام رغيبة شريفة لجلالة الملك المعظم ، وهى عمل طنافس قيمة يفرش بها أرض الجامع الأزهر محط رحال العلم والعلماء منذ ألف سنة .

فقد أصدر حفظه الله ، وأطال أيامه ، أمره الى سعادة ناظر خاصته أن يستصنع طنافس من أنفس ما تصنعه المصانع المصرية لفرش أرض الجامع الأزهر ، وكان ذلك فى شهر سبتمبر سنة ١٩٣٧ ، فحول هذا الأمر الى وزارة التجارة لتتولى الاشراف فنيا على تنفيذه . فتم هذا العمل العظيم وسلم للجامع الأزهر ليودعه بمخزنه ريثما يتم الترتيب اللازم لتسلمه نهائيا وفرشه بالمسجد . وقد أحصى مقدار ما صنع من هذه الطنافس بالأمتار المربعة فبلغت (٣٨٩٣ر٠٧) وهى مساحة واسعة لم يسمع بفرش مثلها فى تاريخ المساجد وأماكن العبادة . وقد بلغت نفقاتها ٦٠٣٤ جنيها و ١٥٠ مليم .

إن هذا العمل الكريم الذى يدل على أشرف صفات النفس وهى السخاء ، يدل فى الوقت نفسه على تعظيم شعائر الله ، وإكبار شأن المصلين المخبتين . وقد مدح الله فى كتابه العاملين على ذلك فقال : « ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب » .

فليهنئ جلالة الملك المعظم ما وفقه الله له من هذه الأعمال الجليلة ، فإن بعضها يرفع القدر ويخلد الذكر ، فما ظنك بجملتها ، والله لا يضيع أجر المحسنين ؟

محمد فريد وجدى

صفحة من الصوفية الشرقية

تعاليم بوذا

المثل العليا فى سياسة النفس ومجاهدة الشهوات فى نظره

بوذا : هو المصلح للدين البرهمى الهندى فى القرن الخامس قبل المسيح ، ولمذهبه من الأتباع فى الهنـد والصين واليابان ما يقرب من أربعمائة مليون نسمة . والدعوة اليـه لا تزال قوية فى تلك الأصقاع ، وقد رأينا أن نلم بحقيقة مذهبه تنويرا لعقول الباحثين فى الأديان الشرقية ، فنقول :

أصله ونشأته وتاريخ حياته :

بوذا : لقب له ، ومعناه العارف ، ويلقب أيضا بشيكـهامونى ، ومعناه رسول المعرفة . واسمه شيرهانيا أى المصلح ، وجوتاما اسم أسرته ، وأحيانا يطلق عليه اسم أسرته .

ولد بوذا قبل المسيح بنحو ٩٦٠ سنة فى أسرة ملكية بأمارة نيبال ، وكان وليا للعهد ، فنشأ مترفا فى النعيم ، راغدا فى العيش ، متوسعا فى الثراء ، بعيدا عن منغصات الحياة ، حتى إذا بلغ التاسعة عشرة من عمره ، تم زواجه فى أعظم حفل عرف فى التاريخ ، وطابت له حياته الزوجية ، وظل منعما فى ظل هذه السعادة الوافرة ، يقطف من ثمارها الدانية ، ويرفل فى هنائه العريض ، فى قصر من أعظم وأجمل قصور الهند التاريخية ، وحوله الأوفياء من رجال حاشيته . ولـكنه لم يلبث على هذه الحال طويلا حتى تحول نعيمه الى التفكر والتأمل فى النوع الانسانى ، وما هو عرضة له من الآلام والمصائب والموت ، فأخذ يفكر فى وسيلة تنقذه من ذلك ، أو تخفف عليه من وقعه .

فقيل : إنه كان فى طريقه يوما إلى النزهة فى موكبه الرسمى ، فإذا برجل قد أكلت الأمراض لحمه وشحمه ، وهو مشرف على الموت يستغيث ، فوقع بصره عليه ، فسأل من حوله عن هذا الحيوان الغريب الذى لم يتفق له رؤية مثله قط ، ولم يصدق أن إنسانا يكون بهـذا الشكل ، فقيل له إنه مريض . هنالك ساءل نفسه : ما الذى دفع بهذا الإنسان إلى هـذه الآلام ؟ وما حقيقة هذه الأجسام ؟ وما هى النفس ؟ وما السبيل لمعرفة النفس ؟ وما هى الغاية من الحياة ؟ فاستغرق فى هذه الأفـكار ؛ وما هى إلا فترة وجيزة من الزمن حتى ترك كل شىء ، وهجر زوجته وأسرته وولايته ، وخرج إلى حيث لا يسكن أحد ، ولا يشغله عن تفكيره شىء ؛ خرج إلى الغابات والأحراش هائما على وجهه ، طالبا للحقيقة ، راغبا عن الدنيا ، زاهدا فى ملاذها ،

معنيا بالتأملات ، رائضا نفسه على خشونة الحياة ، وهو فى التاسعة والعشرين من عمره . أقام على هذا الاعتكاف ست سنين ، حتى أحس بأن نوعا من المعرفة أشرق فى نفسه ، وقذف بنور فى قلبه ، لاحظ أن هذه الحياة تحوطها الأكدار والآلام من كل جانب ، بل إنها آلام تتبعها الأحزان ، وتجعل كل إنسان فى نقص دائم ، ولاحظ أن منشأ تلك الآلام ، التى طم سيلها فى هذه الحيـاة ، اللذات والأمانى التى تتبعها الرغبات . فاللذات فى أعقابها آلام وإن تطلعت النفس إليها ، وفى الحرمان منها آلام أيضا ، فلولا اللذات ما كانت الآلام ، ولولا استهواء الأمانى ، ما كانت آلام الحرمان ، فلا بد إذاً لدرء هـذه الآلام من القضاء على أصلها ، وذلك بالقضاء على اللذات وعلى تمنيها ، ولا يتم هـذا إلا إذا راض المرء نفسه على هجرها جملة ، ومجاهدتها ليكون للإنسان القدرة التامة على نفسه ، فكان الركن الذى أقام عليه بوذا مذهبه الخلقى هو أن يجاهد الانسان نفسه ، ويروض إرادته على ترك اللذات ، والصبر على الحرمان منها .

فنهض يدعو اليه ، غارسا محبته فى القـلوب ، بقوله وعمله ، ومبشرا به بين العالمين ، غير مبال بالصعوبات والعقبات التى كان يلاقيهـا فى سبيل الدعوة ، فالتف حوله شيب وشباب ، وصار له أعضاء وأنصار ، يدعون الى مذهبه ، وأخذوا يجوبون الآفاق هـداة مرشدين ، واستمر عددهم ينمو ، ودعوتهم تذيع ، ومذهبهم فى الحياة ينتشر ، وبوذا من ورائهم لا يكل ولا يمل ، حتى مات فى الثمانين من عمره .

أوصافه :

وصل بوذا الى تعاليم وحقائق عن طريق التجربة والموازنة الدقيقة بين الأمور والآراء المختلفة ، وكان على جانب عظيم من طيب النفس ، وحسن الخلق ، ولطف المعاشرة ، وكانت نفسه معتركا حامى الوطيس ، بين نوازع الجسم ، وما أخذ به نفسه من الرياضة ، حتى انتهى أمره بالانتصار المؤزر عليها .

تعـاليم بوذا لضبط النفس وتربيتها :

قال : إن الأمور التى تهدى الانسان الى الصراط المستقيم ، ليفوز بحياة سعيدة خالية من شوائب الآلام ودواعيها ، هى رياضة النفس وتربيتها ، فاختار بوذا للوصـول الى تلك الغاية السامية أمورا إذا التزمها الشخص ، لا يحيـد عن الجادة المستقيمة ، فى كل شأن من شئون حياته ، وهى على الترتيب الآتى :

١ — أن يتجه الإنسان فى أى أمر يريده اتجاها صحيحا مستقيما خاليا من كل سلطان للشهوة واللذة عليه . وهذا (الاتجاه) يؤدى الى :

٢ — تفـكير صحيح مستقيم ، لا تؤثر فيه نزعات الأهـواء ، ولا جموح الشهوات ، ولا اضطراب الأمانى والأحلام . وهذا التفكير يفضى الى :

٣ — نورانية تجعله يستطيع الوصول الى حقائق الأمور ، من غير أن يرمق بطرفه أى حجاب من حجب اللذات والأهواء .

٤ — ولا شك أن الأمور الثلاثة المذكورة يترتب عليها أمر رابع ، وهو : اطمئنان العقل والقلب الى فكرة خاصة ، من بين ما يعرض لها من الأفكار والآراء ، وبه يصير القلب فى روح وريحان من النعيم المعنوى .

٥ — والمتمم للأمور الأربعة السابقة : هو اللفظ المستقيم ، بأن يكون منطق المرء مطابقا لاعتقاده ، وهو الإقرار باللسان ، عما فى الجنان .

٦ — والأمر السادس الذى لابد منه لسلوك الطريق الوسط هو : مطابقة العمل للعلم ، فكل منهما مؤكد للآخر أو متمم له . وهذا يؤدى الى :

٧ — الجهد الصحيح لكى تكون الحياة مستقيمة سائرة على مقتضى السلوك ، والعلم الحق ، ومنع كل ماله صلة باللذات .

٨ — يترتب على الأصول السالفة : الحياة الصحيحة المستقيمة وهى المطلوبة .

وجماع القول أن لب الفضائل عند بوذا هو مجاهدة اللذات ، ورياضة النفس على تركها جملة ، والفناء فى سبيل الغاية ، وهى : المعرفة .

ومنشأ الرذائل عنده اللذات والانهماك فيها ، وذلك يرجع الى ثلاثة أمور مرتبة ، وهى :

١ — الاستسلام للملاذ . وهذا يؤدى الى :

٢ — سوء النية فى طلب الأشياء .

٣ — ويترتب عليه الغباوة وعدم إدراك الأمور على الوجه الصحيح .

ولأجل التربية العملية الحقيقية للنفس والاستيلاء على الارادة ، نهى بوذا أتباعه عن الأمور الآتية :

١ — لا تقض على حياة حى ، فالبوذيون لا يقتلون الحيوانات المؤذية وغير المؤذية مطلقا ، ولا يذبحون القرابين ولا يأكلون اللحم ، فهم نباتيون تدينا .

٢ — لا تأت أمرا يتصل بالحياة التناسلية إذا كان محرما .

٣ — لا تسرق ولا تغتصب ولا تطمع فى مال لا تستحقه .

٤ — لا تكذب ولا تقل قولا غير صحيح فيذهب بك فى الدرك الأسفل من النار .

٥ — لا تتناول مسكرا ما .

٦ — لا تأكل طعاما نضج فى غير أوانه .

٧ — لا تكلل رأسك بالزهور ولا تتخذ طيبا ما .

٨ — لا ترقص ولا تحضر حفلة غنائية .

٩ — لا تقطن فراشا وثيرا .

١٠ — لا تأخذ ذهبا ولا فضة .

هذه هى التعليمات البوذية ، وهى سبيل السعادة فى نظر أتباعه ومريديه ، ولكن هل يمكن القيام عليها ؟ إننا كلما درسنا الأديان المختلفة زدنا اعتقادا بأن الدين عند الله الاسلام ، فهو أعدل طريقا ، وأقوم مذهبا ، وأجمع للفضائل من كل ما عداه ، فى يسر وهوادة لا تدع للمتنكب عنه عذرا ؟

أبو الحسنات محمد محيي الدين الهندى
« طاغور »

—

ما قيل فى المؤاخاة

قال لقمان : إذا أردت مؤاخاة رجل فانظر فان كانت محاسنه أكثر فارتبطه .

نقول : هذا كلام حكيم ، فان أى إنسان لا يخلو من النقص ، فمن كان يرجو أن يصادف إنسانا لا زلة له ، طال انتظاره ، وعز مطلبه ، وعاش عمره ولا صديق له .

وقال حكيم : ليكن اختيارك من الأشياء جديدها ، ومن الاخوان قديمهم .

وقيل : لا تستبدلن أخا مستفادا بأخ قديم ، فإنه قد لا يستقيم لك ، وتكون قد فقدت الأول . والى هذا المعنى أشار أبو تمام بقوله :

نقِّل فؤادك حيث شئت من الهوى ... ما القلب إلا للحبيب الأول
كم منزل فى الأرض يألفه الفتى ... وحنينه أبدا لأول منزل

وقال حكيم : الصديق الألوف ، لا يباع بالألوف .

وقال مسلم بن يسار : ما من عمل إلا وأخاف أن يكون دخله ما أفسده إلا الحب فى الله . مرضت مرضا فلم أجد شيئا أوثق فى نفسى من قوم كنت أحبهم لا أحبهم إلا لله .

التشريع الاسلامى وأثره

الخالد فى المجتمع

فى عدد فارط من هذه المجلة عرضنا الجانب غير يسير من سماحة الشريعة الإسلامية ، وبلوغها أقصى درجات الكمال فى المسايرة لمرافق الناس وحاجاتهم ، وبينا كيف أنها أحكمت روابط هذا المجتمع بما آتته آحاده من الوصايا الحكيمة ، وما قررته له من الأحكام العادلة ، فما من حدث تتمخض عنه الأيام والليالى إلا وله فى الشريعة المطهرة مرد وعليه منها شاهد ودليل .

فالتشريع الإسلامى الذى يحكم روابط المجتمع ويضع قواعد منيعة لحماية الأسر والجماعات والأمم من الانحلال ، ثم يضع أحكاما للفرد بين المجموع فيحكم صلته بالآخر ويحبب له مكارم الأخلاق ، لأن الأخلاق فى واقع أمرها حياة كل اجتماع وزاده ، وقوته وعتاده ، هذا التشريع خليق بالبقاء وجدير بأن تدوم له أحكامه ما دامت الكائنات .

عُنى التشريع الاسلامى بإقامة الأخلاق على المبادئ النبيلة التى تتمثل فيها حياة الفرد وحياة الأمة كاملة . وقد بُعثَ الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم لتدعيم الأخلاق بما يصلح لتدعيمها من العقائد الصحيحة ، فكان أثره فيها معجزا من كل وجه .

فالشريعة تحض على السخاء والكرم والشكر على المعروف ، وتبين كيف يحذر الإنسان ربه وتبين عاقبة حسن الظن بالله والناس ، وتحمل إلينا بلسان صاحبها صلى الله عليه وسلم إن كمال الدين فى النصيحة وإن المستشار أمين . وإن الدال على الخير كفاعله ، وإن الدرجات العلا فى قضاء حوائج الناس ، وإن العدل أساس الملك ، وإن من أحب الله أحبه الله والعباد ، وما الى تلك المبادئ السامية المتصلة بالنفوس الخيرة مما لا يدخل تحت عد ولا يحيط به حصر ، والتحدث عن تلك المبادئ وما إليها كثير الشعب ، متنوع المشارب ، لا تستنفده بحوث أو أسفار ، ولا يقوم بتحليلها جيل أو أجيال ، وإنما ينشده كل فرد فى جيله فى الأفق الذى يعيش فيه ، وإلا فأين تشريع وضعت أصوله على الأرض ، وأحكمت مراميه بين أهل عصره وجيله ، فى مبادئه وأحكامه ، من تلك المبادئ السامية التى تخضع لها النفوس بما يلقى اليها من روح الإذعان والقبول . ويهديها الى أسمى معارج الكمال حين يتحدث التشريع الاسلامى عن الحذر من الله والناس ، فيقول سبحانه وتعالى : « ويحذركم الله نفسه والله رءوف بالعباد » « واعلموا أن الله يعلم ما فى أنفسكم فاحذروه واعلموا أن الله غفور حليم » .

وتحدثنا السنة المطهرة فيما ورد على لسان صاحب الشريعة فيما أخرجه البخارى ومسلم عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (الناس كإبل مائة

لا يجد الرجل فيها راحلة) والحديث يقصد الى أن مائة الإبل قد لا تجد فيها راحلة ، وهى القوية فى سيرها السهلة فى خطاها ، فلا يجد راكبها فى سيرها عناء ولا اضطرابا فى أعصابه ولا خفقانا فى قلبه ، فهى نادرة الوجود فى مائة من الإبل ، وكذلك الانسان الكامل بخلائقه وسمو نفسه فى الناس يكون صادقا فيهم قاضيا لحاجتهم لا يحمل فى صدره لأحد إحنة ولا موجدة ، ولا تغيره سفاسف الأمور ولا سخائم الصدور ، ويحدثنا عمرو بن الفغواء الخزاعى رضى الله عنه فيما أخرجه الامام أبو داود فى صحيحه فيقول : « دعانى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد أراد أن يبعثنى بمال الى أبى سفيان يقسمه فى قريش بمكة بعد الفتح ، فقال : التمس صاحبا فجاءنى عمرو بن أمية الضمرى فقال : بلغنى أنك تريد الخروج وتلتمس صاحبا . قلت أجل . قال فأنا لك صاحب . قال فجئت رسول الله صلى الله عليه وسلم وقلت قد وجدت صاحباً فقال من ؟ قلت عمرو بن أمية الضمرى . قال إذا هبطت بلاد قومه فاحذره . فإنه قد قال القائل أخوك البكرى ، فلا تأمنه . فخرجنا حتى إذا كنت بالابواء قال إنى أريد حاجة الى قومى بودّان ، فتلبث لى . قلت راشداً فلما ولى تذكرت قول النبي صلى الله عليه وسلم ، فشددت على بعيرى أوضعه حتى خرجت ، حتى إذا كنت بالأصافر إذا هو يعارضنى فى رهط ، فأوضعت فسبقته . فلما رآنى قد فته انصرفوا . وجاءنى فقال قد كانت لى الى قومى حاجة . قلت أجل . ومضينا حتى قدمنا مكة . فدفعت المال الى أبى سفيان » اهـ .

فصريح الحديث يدل على أن الحذر من الأصدقاء والأقرباء وذوى المنازل المختلفة عند الرجل خليقة من خلائق الرجل المؤمن ؟

عباس طه

فضل الكتابة

قال رجل من الأنصار للنبي صلى الله عليه وسلم : إنى لأسمع الحديث ولا أحفظه يا رسول الله . فقال له النبي : استعن بيمينك ، أى اكتبه .

وقال عليه الصلاة والسلام : قيدوا العلم بالكتابة .

وقال الشعبي : إذا سمعت شيئا فاكتبه ولو فى الحائط .

نقول : انظر كيف قلب الاسلام أوضاع الجاهلية فى عشية وضحاها ، فبعد أن كان العرب مشهورين بالأمية حتى أطلق عليهم القرآن كلمة الأميين ، أصبحوا يتواصون بالكتابة حتى على الحائط لمن لم يجد ورقا .



مات الشرق بموت (دارا) وعادت اليه الحياة بواسطة محمد
النهضة الأوربية أوجدتها المدنية الاسلامية
(سيباستيان شارلتى)

أدهش المفكرين من أهل المدنية الحاضرة سرعة نمو المدنية الاسلامية وإشراقها إشراقا أخذ بالأبصار والعقول ، حتى فرضت زعامتها على العالم كله ، مما لم يعهد له مثيل فى تاريخ التطور البشرى ، وخاصة إذا كان حامل لواء هـذه المدنية شعباً لم تعرف له أصالة فيها . فكان الكثيرون من كتاب الغرب ، لأجل أن يفروا من تبعة تعليل هذا الأمر الجلل ، يغفلون التنويه بعظمة المدنية الاسلامية . والى هؤلاء وجه الكلام المسيو سيباستيان شارلتى Sébastien Charlety فى جريدة (ديبيش دو تولوز) الفرنسية فقال :

« إننا كثيرا ما نظلم المدنية الاسلامية العظيمة ، ولا نذكر أنه لما قدّم سفير هارون الرشيد الى الأمبراطور شارلمانى ساعة حائط ، كان إعجابه بها بالغا ، ونحن لا نمثل لأنفسنا هذا الأمر بأنه يشبه فى أيامنا هذه أن يقدم أحد رواد المجاهيل الى ملك زنجى فونوغرافا ، ويسمعه من أناشيده »

« لقد بالغ الناس فى تقدير الصفات العقلية العالية للعرب الفاتحين ، مما أصبح لا يمكن تصديقه اليوم . وقد حُلت هذه المسألة على الوجه الآتى : وهو أن عرب البلاد العربية والبدو من أهل القبائل لم تدم دولتهم إلا قرنا واحدا وهى دولة الأمويين . فلما جاءت الدولة العباسية سنة (٧٥٠) انسحب هؤلاء البدويون بعد أن أتموا عملهم الحربى ، وعادوا سيرتهم الأولى من الحياة المتنقلة .

« ولقد اعتاد الناس كلما ذكروا تاريخ المسلمين أن يذكروا العرب ، والواقع أن الذين كان يطلق عليهم هذا الاسم لم يكونوا عربا ، ولكنهم كانوا أهل المدن المصرية والكلدانية والسورية ، أى المتمدنين القدماء من أهل الشرق الخالد الذين كانوا قد قبلوا الاسلام دينا لهم ، وحذقوا اللغة العربية .

« فى ذلك الزمان شرع هؤلاء المتمدنون العريقون فى المدنية ، الذين مر عليهم عهد المدنية اليونانية ، فى ترجمة كنوز المكتبات اليونانية الى اللغة العربية ، وبواسطتهم ولدت المدنية الاسلامية . فلم تكن هذه المدنية والحالة هذه من عمل العرب ، ولكنها كانت من عمل أولئك الذين كان يطلق عليهم فى القرون الوسطى اسم سارازان (Sarrasins) (١) وهم الورثة المباشرون لمصر وكالدانيا (بابل) .

« إننا نرى بأعيننا بدائع ألف ليلة وليلة ، والفن الأسبانى العربى فى العمارة ، ولكن يجب أن يكون الانسان متضلعا فى العلوم لكى يفهم أن هؤلاء الذين اكتشفوا علم المثلثات والجبر ، والذين رقوا علم الفلك ترقية عظيمة جدا فى مراصدهم المزودة بأدق الآلات ، ونهضوا بعلم الطب فى مستشفياتهم نهضة قوية ، وألفوا علم الكيمياء من معلومات كانت منثورة لا تجمعها جامعة ، فعلوا ذلك كله لأنهم اعتمدوا فى معارفهم على الأسلوب التجريبى .

« أما فى عالم تطبيق العلوم الطبيعية ، إذا أردنا أن لا نقول شيئا عن تبريزهم فى الزراعة وصناعتى التعدين والنسج ، فإن العرب أورثونا البوصلة وبارود المدافع ، وهذا الاكتشاف الضخم وهو عمل الورق ، قد أدى الى الحصول على الكتب بثمن زهيد .

« وقد قيل لنا إن نهضتنا ، كما يدل اسمها عليها ، كانت وليدة الآداب اليونانية والرومانية . وهذا كذب تقى(٢) . والحقيقة أنه وليد المدنية العربية التى جلبتها الى بلادنا الحروب الصليبية . وقد عُلم من عرض تاريخ المدنيات الانسانية ، وهو تاريخ هذا العالم الأرضى ، أنه قد وُجدت مدنيات قديمة ذات أصول شرقية ، تلتها المدنية اليونانية الرومانية ، ثم المدنية العربية طوال عهد القرون الوسطى ، ثم عقبتها مدنيتنا الراهنة . وقد جحدنا فضل المدنية العربية علينا كما جحد اليونانيون قبلنا فضل المدنية المصرية . ولكن أمر هذا الجحود لايهم كثيرا لأننا لم نُضع من حقيقة هذا التاريخ شيئا .

« الاسلام فى القرن العشرين أصبح على وشك انقلاب عظيم ، وإن تحفزاته لتهز الكرة الأرضية ، ومعنى هذا أن الأمبراطورية الاسلامية تحاول أن تبعث فجأة ، والعلاج الذى يراه الشرقيون لتحقيق ذلك هو أن يأخذوا إخذ الغربيين طفرة بواسطة قرارات حكومية إجبارية ، فهم يريدون أن يكونوا مع بقائهم على ما هم عليه . ولذلك تراهم يتربصون بالمدنية الغربية الدوائر . وهم على حق فى ذلك إطلاقا . فان مدنيتنا ستبيد كما بادت المدنية اليونانية الرومانية . ولكنهم يتخيلون موتها فجأة ، وهنا هم واهمون . فان الشرق مات قبل الآن بموت (دارا) (٣)

---

(١) هذه الكلمة مشتقة من فعل شرق (بتشديد الراء) وكان يطلقه أهل أوروبا على المسلمين حين زحفوا لفتح بلادهم . (٢) يريد بهذا التعبير أن الحامل عليه كان التعصب للدين . (٣) دارا ملك الفرس الذى فى القرن الرابع قبل الميلاد وقهره واستلحق مملكته الاسيوية سنة (٣٣٠) ق . م .

وعاد فحيي بظهور محمد ، ولـكن بين موته وحياته مضت ألف سنة فيجب ، علينا أن نتذكر هذا الرقم لنـطـمئن به أنفسنا » ؟

شارل سيباستيان

(مجلة الأزهـر) : إن ما كتبه المسيو سيباستيان وقال إنه اقتبسه من كتاب (أخلاق وعادات إسلامية) للاستاذ ا . ف . جوتييه ، إن كان قصد منه الغض من قيمة الإسـلام فى تطوير العقلية الإنسانية من طريق الطفرة ، فهو لم يؤد الى ما قصده منه ، لأن هذا الدين لم يقل : إنه جاء لترقية أمة معينة ، وبعثها لتأتى بالعجب العجاب طفرة ، حتى يكون فى تدليله بأن الذى قام بالمدنية الإسلامية هم رجال دخلوا فيه من أجناس شتى ، كانوا قبل أن يجىء مستعدين للارتقاء بما صقلته المدنية اليونانية الرومانية من عقولهم ، وما لطفته من شعورهم ، نقضٌ لهذا الوعد . ولـكن الإسلام قال : إنه جاء للبشر كافة ليفك عن أعناقهم أغلال التقاليد الضارة ، ويجلو عن بصائرهم غشاوات العقائد الباطلة ، ليحيوا حياة صحيحة ، يحققون بها ما الفطرة الانسانية أهل لتحقيقه من الوصول الى المثل العليا فى العلم والعمل . وهو لم يسند قيادة العالم فى هذا السمت لأمة من الأمم ، ولـكنه ترك المجال حرا للمتنافسين فيه من كل جنس وبيئة .

فاذا صح ما ذكره المسيو سيباستيان من أن الذين قاموا بالمدنية الاسلامية هم أقوام من أعرق الشرقيين فى الممالك التى افتتحها المسلمون ، وليسوا هم العرب أنفسهم ، لم يحط ذلك من قيمة الاسـلام ، ولم يناقض أصـلا من الأصول التى قررها ، أما قال الله فى آية محكمة من كتابه : « يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شـعوبا وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، إن الله عليم خبير ؟ » أولم يقـل رسول الاسلام محمد صلى الله عليه وسلم : « لا فضل لعربى على أعجمى ، ولا لأبيض على أسود ، إلا بالتقوى أو بعمل صالح » ؟ .

ولـكن المسيو سيباستيان غاب عنـه أن العرب وإن كانوا لم يبرزوا فى العلوم والفنون التى ابتنت عليها المدنيـة ، وقامت على أركانها ، بسبب ما كانوا عليه من البعـد عنها ، فانهم ساهموا فى إيجاد هذه المدنية مساهمة لا تقل عن مساهمة الذين باشروها بأنفسهم ، ذلك أنهم مهدوا الطريق لوجودها ، وأمدوها بالأموال لتوسيع نطاقها ، واستبقاء حياتها ، والاستفادة من ثمراتها .

يقول المسيو سيباستيان : إن عمـل العرب اقتصر على فتوح البلدان ، ثم انسحبوا من الميدان ، فتولاه الذين أسلموا من أبناء قدماء المصريين والبابليين . وهذا قول بعيد عن التحقيق ، ألم يكن من العرب أمراء المؤمنين ، وكثير من علماء الدين ، وحكام الأقاليم ، والقضاة والمفتين ؟ فهل كان نقلة العلوم الذين يذكرهم يستطيعون أن يقوموا بما قاموا به من نشر الكتب العلمية

وترجمتها ، لو كانت هذه الهيئة الحاكمة لا ترضى عنه ولا تساعد عليه ؟ أنسى ما استفاض فى تاريخ المسلمين أن أمراء المؤمنين ووزراءهم كانوا هم الذين أوجدوا هذه الحركة العلمية ، وسخروا المترجمين لترجمة المؤلفات اليونانية والكلدانية وغيرها ، وبذلوا لهم من الأموال ما لا يكاد يصدقه العقل ، وشجعوهم تشجيعا لم يؤثر عن قادة الأمم قبلهم ؟ فهل كان يخيل له أن هذه النهضة تقوم لها قائمة لولا هذه الأموال الطائلة التى بذلت فى سبيلها ؟

فإن كان قيامها من الممكنات فلم لم تقم بنفسها قبل مجىء الاسلام ؟

إن العرب والبدو الذين يذكر أنهم قد قصروا عملهم على الفتوحات والتبسط فى الأرض ، كانوا يستطيعون أن يعملوا ما عمله الفاتحون قبلهم ، من هدم المعابد والهياكل ، وإحراق ما بها من ذخائر المؤلفات ؛ أفلا يكون تركهم لها قائمة وترك ما فيها لأهلها ، من المفاخر التى لم يسجل مثلها لأمة فاتحة ، وهم يعلمون أن فى تلك الهياكل والكنائس من أعلاق الذخائر الشىء الكثير ، فعفّوا عنه كله وتركوه لأهله ، وأمّنوهم على إقامة شعائرهم . ومن أغرب مايؤثر عنهم من روح التسامح الدينى أنهم تركوا للشعوب التى فتحوا بلادها كل مقدساتها حتى التماثيل التى كانوا يقدسونها .

فهل هذه الروح العالية من التسامح التى كان لا يعرفها أهل ذلك العصر ، واحترام أهلها حتى الذين بقوا منهم على يهوديتهم ونصرانيتهم أو مجوسيتهم من المترجمين ، قليلة الأثر فى بعث الهمم على نقل تلك العلوم وزيادة مادتها ؟

إذا كان المسيو سباستيان يبحث عن علة بسيكولوجية ، لسرعة تطور العقلية الاسلامية وتبريزها فى العلوم الطبيعية ، ويرضيه منها ما نقلناه عنه هنا ، أليس فى تسامح العرب الى هذا الحد فى معاملة الأجانب عن دينهم ، والابقاء على معابدهم وهياكلهم ، وما فيها من الأصنام والأنصاب ، مجال فسيح للبحث عن علة هذا التسامح فى نفسية شعب كان جاهليا بالأمس لا يقيم للتسامح وزنا ؟

الاسلام لا يهمه أن يقوم بما أهاب بالناس للقيام به من نشر العلم وبناء المدنية الفاضلة هذا الشعب أو ذلك ، لأنه دين الانسانية قاطبة ، ولديه أبناء آدم كلهم سواء ، ولا يهم العالم أن يعرف أى عنصر من العناصر الاسلامية تولى بناء مدنيته الباهرة ، ولكن يهمه أن يتحقق أن الدين الإسلامى هو الذى دعا إليها ، وبعث الهمم لإيجادها ، ليدحض به ما أرجف به المرجفون من أنه دين بدوى محض ، لا ينتظر منه عمل فى تشييد أية مدنية ، بل هو مسوق لأن يهدم أية حضارة يصادفها فى طريقه . وقد قال بهذا الضلال البعيد كتاب كثيرون ، فالذى يهم هؤلاء اليوم أن يدرك هؤلاء أنهم فى تأكيدهم ما ادعوه مبطلون .

أما إذا كان مرمى المسيو سباستيان أن يوهم قراءه أن أمر المدنية الاسلامية التى أصبح تاريخها يبهر العقول ، لم يقم به العرب الأقحاح ، ولكن أولئك الذين دخلوا فى دينهم من آحاد

الأمم التى كانت متمدنة ، فتابعوا طريقهم فى استثمار عقولهم وفنونهم ، فنُسب ما عملوه للاسلام وليس الاسلام منه فى شىء ، قلنا إذا كان المسيو سباستيان يرمى الى هذا فهو على خطأ عظيم ، لأن ما قلناه فى صدر هذا المقال يكفى فى إبطاله ، ونزيد عليه هنا : أن هؤلاء الذين يصفهم المسيو سباستيان بأنهم صاغة المدنية الاسلامية ، كانوا موجودين حيث كانوا قبل البعثة المحمدية وبعدها ، فكانوا قابعين فى أكسار بيوتهم لا يستطيعون أن يأتوا عملا ، فلم يقوموا ببعض ما قاموا به والاسلام باسط رواقه عليهم ؟ أليس لأنهم كانوا ممنوعين عن ذلك ، وكانوا لا يجدون من المحيطين بهم مشجعا عليه ؟ بل كان كثير منهم يرى رأى قادتهم فى أن التبحر فى البحوث مخالف للدين ، وأنه يجر الى النار ؟

فلا يجوز للمسيو سيباستيان وهو يعلم كل هذا بالضرورة أن يغفله فى سبيل تعليل ظهور العقلية الاسلامية سامية كل السمو طفرة . وما أظنه قد بلغ مراده من هذا التعليل ، فقد يعترض عليه معترض قائلا :

إذا كنت تعلل ما ظهر به المسلمون فى القرن الثانى من التطور العقلى بأنهم كانوا أبناء وأحفاد أقوام عاشوا فى المدنية آمادا طويلة ، وتمرست عقولهم بالمعارف والنظريات أجيالا متعاقبة ؛ فبم تعلل تطور عقلية أصحاب النبى وآدابهم فى جميع أحوالهم ، وعدلهم فى حربهم وسلمهم ، ورحمتهم برعاياهم بصرف النظر عن عقائدهم وأجناسهم ؟ بم تعلل هذا الانقلاب الضخم فى شعب كان جاهليا جافيا بالأمس ، لا يعرف غير سلطان القوة ، ولا عدلا إلا ما تمليه عاداته القومية ، ولا رحمة إلا ما يتفق وأوهامه التقليدية ، فانقلب شعبا ، مدنيا لطيفا ، لا يعرف لغير الحق سلطانا ، ولا سوى العدل المطلق ميزانا ، رحيما بالضعفاء الى حدود الايثار ، عاطفا على المقهورين الى مستوى المساواة . فهل كانوا تمرسوا فى جاهليتهم بهذه الخلال التى يستحيل ان يتحلى بها شعب من طريق الطفرة ، بل لا بد لأجل أن تصبح من طبيعة الجماعة أن تتمرس بها أجيالا طوالا .

فالإسلام الذى هو أصل هذا الخير كله هو الذى يجب أن يُنوّه به ، وأن يُشاد بذكره ، وأن يُستنزل عجب الناس من اشتماله على جميع عناصر الترقى البشرى حتى لا يعقل أن يوجد فى التعاليم البشرية أجمع منه وأشمل لهذه العناصر التى تتولى اليوم النوع البشرى فى جميع مجالات النشاط العقلى والمادى .

نهضة الاسلام فى القرن العشرين .

قال المسيو سباستيان فى هذا الموطن : إن المسلمين يتحركون للنهوض ، وإن رجات حركاتهم تهز الكرة الأرضية ، والعلاج الذى يأخذون به أنفسهم هو أن يأخذوا إخذ الغربيين طفرة بأوامر حكومية . وهم يتربصون بالمدنية الأوربية التلاشى والانحلال الخ .

نقول : أما أن المسلمين يتحركون للنهوض ، وأن رجات حركاتهم تهز العالم الأرضى كله فصحيح ، فانك لا تكاد تجد ركنا من أركان الأرض لا يشغل أهله من أمر النهوض شاغل مستوعب لأفكارهم ، ولكنهم لا يرجون ذلك من طريق هلاك المزاحم لهم ، أى ليخلوا لهم الجو دونه ، وهم مقيمون على ما هم عليه من الحالة النفسية والخلقية . فهم يعرفون أنهم ما تدهوروا الى الحد الذى وصلوا اليه إلا لتركهم تعاليم الاسلام الاصلاحية ، ويرون بأعينهم أن الغربيين لم يبلغوا الى ما بلغوا اليه إلا بالقيام على أصول وآداب قرآنية . وهذا هو السبب الذى يدفعهم لأن يأخذوا إخذ الغربيين من طريق الاكراه الحكومى .

فاذا كانوا يرون بعد هذا أن المدنية الغربية محكوم عليها بالتلاشى ، فليس ذلك لما يتسرب اليها من العلل من ناحية هذه الأصول المرقية ، ولكن من ناحية ما التاثت به من العيوب الأدبية ، وما اندس الى صميم اجتماعها من العوامل المفككة . وهم يعلمون أن تلاشيها لن يجىء فجأة ، وأنها فى تلاشيها ستترك صدوعا فى العالم البشرى يصعب رأبها على المدنية التى تخلفها إلا بعد بذل مجهودات عنيفة .

مات الشرق بموت (دارا) وحيى بمجىء محمد .

هذه أحق وأجمل عبارة نؤثرها عن كاتب أوروبى ، وهى من قبيل الاعتراف بالحق لصاحبه .

ولو نظرت نظرا علميا لوجدت الأمر كما قال : فإن الأمة الممثلة لعظمة الشرق كانت فى ذلك العهد الأمة الفارسية ، وقد أدال دولتها الاسكندر ، واحتل بلادها ، ولما مات أصابها ما أصاب سائر الممالك التى دوخها العاهل المقدونى ، والتاثت من عوامل التحلل والتدهور بما تلتاث به كل بلاد تصدعت أركانها ، وتآكلت وطائدها ، فعاشت كما شاءت الحوادث ، لا كما شاءت المبادئ . وكل ما قام فى الشرق من دولة بعدها لم تقم بقواها الذاتية ، وبروحها المدبر ، ولكن قامت على أنقاض دولة سبقتها فى الوجود ثم بادت .

فلما جاء محمد صلى الله عليه وسلم بعثت دولة الشرق ببعثه ، ظهرت وليدة ، ثم ترعرعت ونمت ، وشبت وازدهرت ، بروح خاصة حلت بها ، حاصلة على جميع مميزات الأرواح التى كتب لها البقاء ، تحوطها العوامل المدبرة ، وتحفها الأصول المقررة ، وتتراءى لها المثل العليا . فأدت للعالم رسالة لم تؤد له مثلها دولة فى مدى تاريخ الانسانية كله .

فان كانت هذه الأمة تتحفز للنهوض اليوم ، فانها إنما تفعل محفوزة ببواعثها الذاتية ، وقواها المعنوية ، غير مبطنة شرا بأحد ، على السمت نفسه الذى اتبعته فى وجودها الأول ؟

محمد فريد وجدى

الحلل السندسية فى الأخبار والآثار الأندلسية .

تم طبع المجلد الثالث من المعلمة الأندلسية التى وضعها الكاتب الكبير الأمير شكيب أرسلان ، وهى تاريخ مفصل للأندلس ضمنه زبدة تحقيقاته الشخصية ، ومشاهداته العيانية ، وأضاف إليها ما وقف عليه فى عشرات من الكتب التى وقعت له بين عربية وأفرنكية . وقد تناول هذا المجلد الكلام على شرق الأندلس ومملكة بلنسية ومرسية وجغرافيتهما وأحوالهما وأهلهما ، ووصف مدن الأندلس وحصونها وتراجم رجالها وملوكها ، ودول الأندلس وملوك الطوائف الخ الخ وهو كتاب جدير بالقراءة والاقتناء ، ليس له نظير فى المطبوعات العربية . وثمنه عشرون قرشا غير أجرة البريد .

كيف تنجح فى الحياة .

ثمانمائة حكمة لمشهورى الفلاسفة والعظماء .

جمع هذه الحكم ورتبها الأستاذ الفاضل أحمد افندى أبو الخضر منسى ، وهو كتاب طريف لا يسأم مطالعه ، يتنقل به من حكمة الى حكمة بدون تكلف ، وكل منها كما لا يخفى زبدة تجربة عملية ، أو إلهام قلب متعطش للحقيقة . فالكتاب يمثل خلاصة مستقطرة لأكبر العقول التى ظهرت بين ظهرانى الناس منذ زمان طويل الى اليوم .

من أطرف ما نؤثره عن هذا الكتاب ، أنه افتتحه بقول للفيلسوف تولوتستوى هو دواء لأكثر الناس فى هذا العصر لو اتبعوه ، وهو : « إننا نأكل ثلاثة أضعاف ما تتطلبه أجسامنا فنصاب بأمراض لا عدد لها تصرم حبل حياتنا قبل أوانها »

إننا نوصى باقتناء هذا الكتاب وإدمان النظر فيه ، وحمل الأبناء على مطالعته ، ووضعه على متناول الأيدى من الكافة ، فانه خير ما تتغذى به العقول والأرواح . ثمنه سبعة قروش .

مناهل العرفان فى علوم القرآن .

هذا كتاب حافل بالعلم قصد به مؤلفه حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ المفضال الشيخ محمد عبد العظيم الزرقانى أن يضع كتابا جامعا لعلوم القرآن الكريم ، فجمع فيه كل ما يتعلق بهذا المطلب الخطير جمع عالم نحرير ، وألم بما اعترى كل بحث من شبهات المشتبهين ، وأقاويل الملحدين ، فجاء عملا جمع بين القديم والحديث جمعا يعسر أن تصادفه فى كتاب واحد فى أهم موضوع من المواضيع الاسلامية .

وإنا لنكتفى اليوم بهذه الاشارة راجين أن تتاح لنا فرصة تحليله تحليلا دقيقا خدمة للعلم ، وليس هذا بكثير عليه .

جماع العلم :

لحضرة الأستاذ الجليل صاحب الفضيلة الشيخ احمد محمد شاكر اختيارات ممتعة يتحف بها قراءه الكثيرين من حين لآخر . وقد أتحفنا هذه الدفعة بكتيب جم الفائدة ، غزير المادة ، وهو كما قال عنه : « درة كريمة من درر الشافعي ، وطرفة من أبدع طرفه . حكى فيه مناظرات بينه وبين بعض أهل العلم في عصره في أصول الاستدلال ، أو إن شئت : في بعض مسائل من أصول الفقه ، وأكثر ما يدور الجدال فيه في الاحتجاج بالأخبار ، وحجة الاجماع وحقيقته ، والأمر والنهي ، ونحو ذلك » .

وهذا أبلغ ما يقال في تقريظ هذا الكتاب ، وفي التحضيض على مطالعته ، وهل ينتظر أحد أن يحدثه أعلم من الشافعي في هذه الموضوعات ؟

التشريع الاسلامي : تاريخه وفلسفته .

هذا كتاب وضعه مؤلفه حضرة الاستاذ الجليل جلال الحنفي خطيب جامع عطاء وإمام جامع الأزبك ببغداد ، وهو كما يدل عليه اسمه يبحث في حكمة التشريع الإلهي . وهو موضوع تتطالّ إليه الأعناق ، والشريعة الاسلامية بحر طام بالأصول الشرعية التي تعتبر مثلا عليا لكل شريعة عادلة . والأستاذ مؤلف هذا الكتاب ذو عقلية عصرية جمع بين التالد والطريف من المعلومات . فنرجو لكتابه الرواج الذي يستحقه . وقد طبع في مطبعة السعادة بجوار المحافظة .

الأمراض الاجتماعية وعلاجها :

هذا مؤلف جديد لحضرة الاستاذ الجليل علي فكري الذي كان أمينا أول ورئيس المغيرين لدار الكتب المصرية ، وهو مشهور بمؤلفاته الكثيرة القيمة التي يغذو بها المطبوعات العربية بين آن وآخر خدمة للعقول والقلوب في العصر الحاضر .

كتابه الذي نحن بصدده اليوم يحاول فيه محاربة أربعة أدواء قتالة انتشرت في كل صقع وأصابت أهله بالويلات الجسام ، وهي الزنا والمقامرة وتعاطي الخمر والتعامل بالربا الفاحش . ولست في حاجة لأن أقول إن الأستاذ علي فكري من الأفراد القلائل الذين منحوا حب الخير لذاته ، فهو إن كتب فلا يفعل إلا مسوقا بعاطفة إنسانية شريفة ، فيجيء ما يكتبه نصحا مؤثرا يقع من القلوب موقع القبول ، وهو واسع المجال في خاصة التبيين ، فلا يترك مما يتصل بما يعالجه من الموضوعات مناسبة حتى يلم بها ، فيجد القارئ نفسه بين دين وأدب وتاريخ وفكاهة فلا يسأم المطالعة ، ولا يرجئها . وهذه مزية لا يحظى بها جميع المؤلفين وخاصة الذين يتصدون لمعالجة القلوب .

فنشكر لحضرة الاستاذ الموقر صنيعه ، ونرجو له المزيد من التوفيق .

بسم الله الرحمن الرحيم

السيرة المحمدية

تحت ضوء العلم والفلسفة

الحالة النفسية والاجتماعية للمسلمين بعد انتصارهم على قريش ببدر

قد تمر على المجتمعات فى بدء حياتها حوادث تؤثر فى وجودها من ناحية ترابط آحادها وتماسك أجزائها ، ولـكنها لا تبلغ ، مهما عظم شأنها ، ما يحدثه النضج الاجتماعى الذى يتم بعد مكابدتها للأطوار التى يستدعيها الاجتماع فى أدواره المقررة فى قرون عديدة .

فهذه الجماعة من مهاجرى مكة ، ومؤمنى قبيلتى الأوس والخزرج اللتين ألف بين آحادهما دين لم يكن للعرب فى وثنيتهم العتيقة ، وتقاليدهم الموروثة ، عهد بمثله ، كانت بحاجة لأجل أن تحيا حياة اجتماعية أن تتأثر بعوامل الاجتماع ، وأن تخضع لأفاعيلها ، ولا يكون ذلك إلا إذا وُجدت تلك العوامل واستعد الآحاد للتأثر بها ؛ وهى لا توجد بالصناعة ، وإن أمكن إيجاد بعضها فيتعذر إيجاد بعضها الآخر ، لأنها تتعلق بالبيئة الطبيعية ، وبقابلية الآحاد للتطور ، وبالأحوال الاقتصادية ، وبالجماعات المجاورة ، وكل هذه الشئون ليس فى اليد إيجادها .

أما مجرد العقيدة الدينية فلا تـكفى فى تـكوين وحدة اجتماعية ، لأن العقيدة عمل قلبى لا يتوقف على الاندماج فى جماعة . وقـد عاش المسيحيون بعـد عيسى عليه السلام نحو ثلاثة قرون لا تجمعهم جامعة ، متفرقين فى بلاد متباعدة ، وبقى اليهود أكثر من ألفى سنة مشتتين فى الأرض ليس لهم دولة . فـكان لا بد لأجـل قيام دولة إسلامية من توافر عناصر الاجتماع فى الطائفة التى اتخذته دينا لها ، ومن خضوعها لأفاعيلها آمادا طويلة .

فاذا كان على محمد صلى الله عليه وسلم ، لأجل أن يصل الى تأليف جماعة ، أن يوجد العوامل الأدبية والمادية التى تتـكاتف على إيجادها على الأسلوب نفسه الذى تتبعه الطبيعة فى تأليف الجماعات ، فأنى له أن يوجد لها الزمان الـكافى لترسيخ نتائجها فى نفسية الجماعة ، وهو شرط لا بد من توافره فى حياة الجماعات ؟

اللهم إن هذا من المحالات القلمية ، وهو فى البلاد العربية التى لا يوجد فيها من عوامل الاجتماع إلا ما يكفى لتوليد القبائل ، يعتبر مما لا يجوز أن يفكر فيه إنسان ، وكيف يجوز التفكير فيه والطبيعة نفسها عجزت عن إحداثه ، فبقيت الجماعات العربية على الحالة القبيلية من يوم وُجدت الى مبعث النبى صلى الله عليه وسلم ؛ لا لنقص فى قواها المعنوية ، ولكن لعدم توافرعوامل تآلفها . فانتداب محمد صلى الله عليه وسلم للإتيان بمحال فى تاريخ البشر ، أمر لم يقدم عليه فرد من أفراده ، ولم يطف فى رأس عبقرى من عباقرته من يوم وُجد العالم الى يومنا هذا .

لا جرم أن الانتداب لمثل هذا العمل يعتبر غريبا الى أبعد حدود الغرابة ، ولكن غرابته وخروجه عن دائرة الأمور العادية لا يجوز أن يثنينا عن النظر فى الوسائل التى تذرع بها محمد صلى الله عليه وسلم ، تحت إرشاد الوحى ، للوصول الى هذه الغاية البعيدة .

أول ما وجّه النبى همته اليه ، أن جعل للطائفة التى اتبعته غاية سامية تسعى للوصول إليها ، لأن كل جماعة لا يكون لها غاية ، تركد حيث هى ، وتكتفى من الحياة بما يحفظ وجودها الشخصى وكيانها القومى ، وقد تلبث على هذا عشرات القرون حتى تبيد أو تفنى فى جماعات أقوى منها . فكانت الغاية التى عينها النبى للجماعة التى يرأسها أن تكون نواة الدين الذى شُرع لاصلاح جميع الأديان ، وأن تُحمى الدعوة إليه ضد كل من يحاول أن يحول بينها وبين الانتشار .

وهذا لا يكفى فى تكوين أمة ، ولا فى إقامة دولة ، فالأمة لا يتحقق لها وجود إلا بتوافر عدد أفرادها ، وشغلهم حيزا معروف الحدود بين الأمم المجاورة لها ، والدولة فى حاجة الى مقومات اقتصادية وأدبية وسياسية . وهل يمكن الوصول الى هذا كله إلا بانشاء العلاقات بينها وبين الجماعات القريبة منها والبعيدة عنها ؟

ولكن هل هذه العلاقات مما يمكن إيجاده من غير طريق العوامل التى توجبه ؟

هذه العوامل تقتضى فيما تقتضيه التبادل الاقتصادى ، والتبادل الثقافى ، وكل هذا يقتضى الإنتاج الزراعى والصناعى ، والإنتاج الفكرى . فهل كانت يثرب بالبيئة التى تولد كل هذه العوامل ؟

هذا هو الأسلوب الطبيعى فى توليد الأمم وإقامة الدول ، ولو صادفها محمد فى البيئة التى ظهر فيها لما كان فى عمله إعجاز ، ولكان أمكن الخصم تعليل نجاحه بالعلل الاجتماعية ولو من طريق التلاعب بالألفاظ ، غير مقدر كم كان يقتضى تنبيه هذه العوامل من الآماد المتعاقبة فى شروط ملائمة ؟ ولكن النبى لم ينتقل الى الرفيق الأعلى بعد إحدى عشرة سنة من يوم انتقاله الى يثرب حتى كانت للاسلام أمة ، وكانت له دولة .

إن ميزة الأوامر الإلهية أن تنفذ ولو قامت دونها جميع الحوائل الطبيعية والانسانية .

وقد أراد الله أن تكون للإسلام أمة ودولة قبل أن يفارق رسوله العالم الأرضى فكانتا ، كانتا فتيتين قويتين حاصلتين على جميع عوامل النماء والتطور ، نقلتا العالم كله من حال الى حال آخر ، لا صورتين وهميتين لم تلبثا أن انحلتا بعد وفاة موجدها ولم تتركا أثرا .

فإذا كان فى تكوينهما على خلاف السنن المعروفة إعجاز يقف العلم الاجتماعى أمامه حائرا ، فان فى بقائهما واستمرارهما وعظمة آثارهما إعجازاً ثانيا ليس بأقل من الأول .

يستخف بعض الناس بتأليف الأمم ، فيخيل إليهم أن الآحاد كأحجار البناء يضعها البنَّاء حيث أراد ، لاحماً بعضها ببعض بالمِلاَط ، فيشيد منها قصراً على النظام الذى وضعه من قبل . هـذا النظر يدل على فاقة علمية توجب المرحمة . والحقيقة أن الآحاد الذين تتألف منهم الأمم كائنات عاقلة لا يمكن تشبيهها بالأحجار ، والمِساك الذى يجمع بينها مؤلف من رُبُط معنوية تشترك فى تكوينها ضرورات طبيعية ، ومقتضيات بيئية ، وحاجات عقلية وروحية ، فإذا لم تنتظم جميع هـذه العوامل مئات الألوف من الآحاد فى وحدة لا انفصام لها ، اعترى هذه الفئام التفكك ، فلم يتم ترابطها بحيث إذا تحركت تحرك جميع آحادها اضطرارا لا اختيارا فى آن واحد ، كما يتحرك الجسم فتنفعل جميع أعضائه فى اتجاه واحد ، وعلى غرار واحد ، لا يسأل عضو عضوا لِمَ تحَرك .

فتخيلْ كيف تصل أمة مؤلفة من عدة ملايين أو عشرات الملايين الى هـذا الضرب من التكافل مع تخالف آحادها فى أخلاقهم وعقلياتهم ونفسياتهم وآمالهم وأهوائهم ؟ فاذا رأيت أمما قائمة ولم يصادف قادتها أثرا من الحوائل ، فما ذلك إلا لأن هذه الأمم كانت من عمل الطبيعة لا من عمل القادة . والعمل الطبيعى يجرى على أدوار متعاقبة ، فى آماد طويلة ، تنفقها الطبيعة فى التوفيق بين هذه المتناقضات ، لا بصبها فى قالب واحد ، فهذا محال ، ولكن بإخضاعها لنظام تعاونى يحول تصادمها الضار الى تكافل مفيد للجماعة كما هو مشاهد فى كل جماعة قائمة .

فهذا العمل الطبيعى البطىء لا يمكن محاكاته بالصناعة ، بمعنى أنه لا يمكن إقامة أمة من مجموعة آحاد من بيئات مختلفة ، بل لا يمكن تحويل الجماعات الصغيرة القائمة على مبدأ التناحر الى وحدة اجتماعية يسودها التكافل والترافد من غير الطريق التدريجى التى تسلكها الطبيعة فى إيجادها بالعوامل الخاصة بها ، وهى لا توجد بالصناعة كما قدمنا . وهذا الأمر من الوضوح بحيث أن الله نبه العقول الى إعجازه ، ونوه عنه بعبارة تشف عن عظم شأنه ، فقال تعالى : « هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين وألف بين قلوبهم ، لو أنفقت ما فى الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم ، إنه عزيز حكيم» .

تأمل فى قوله تعالى : « لو أنفقت ما فى الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم » ، تجد فيه إشارة صريحة يدركها أولو العلم اليوم على النحو الذى ذكرناه هنا . فان الذى يؤلف القلوب ، ويوحد

بين مطالبها ، ويوجهها وجهة واحدة ، هى العوامل الطبيعية الموجبة لذلك ، لا المغريات المادية التى تزول آثارها بزوال تأثيرها .

بعد أن أصبح أمر الإعجاز فى عمل النبى صلى الله عليه وسلم واضحا كل الوضوح ، يؤيده الكتاب الكريم نفسه ، ويؤيده العلم ، وجب علينا أن نتحسس من ذلك العامل الخفى الذى قام مقام جميع عوامل الاجتماع والتآلف الى أبعد حد ، فتأثرت الجماعة بجميع مقومات الاجتماع على أوسع وأكمل وجه ، دون أن تدخل فى الأدوار التى تحصلها للنفس . ودخولها فى تلك الأدوار فى سنين معدودة لا يكفى لإيجابها ، فلا بد من مرور آماد طويلة عليها ، وتكرر حدوثها لتتهيأ النفس لقبول آثارها ، والقيام على آساسها (١) . فأى حدث فى العالم أغرب من قيام أمة متعاقدة الخناصر ، محكمة الأواصر ، متكافلة الطبقات ، منزهة من جميع عيوب الأمم السابقة والمعاصرة لها ، ومن أشيعها غشمرة المتغلب ، وسيطرة المتحكم ، وعُجب القوى المنتصر ، وبغى الجاهل المقتدر ؟

هذا غريب حقا ، وهو من أكبر دلائل نبوة القائم به محمد صلى الله عليه وسلم . فاذا ألانت النبوة الحديد ، وفجرت الماء من الصياخيد (٢) ، وأحيت الموتى بعد أن اخترمتهم المنون ، فإن إلانة النفوس الجاهلية ، وتفجير ماء الحياة الروحية ، وبث أصول البطولة الصحيحة فى القلوب ، أشد إعجازا ، وأبعد أثرا من هذه الآيات الجزئية . فهذه الآيات تَشكك فيها الباحثون ، وأنكرها الماديون ، ولكن الآيات المحمدية لا يمكن إنكارها ، فهى ماثلة أمام الأعين ، منوها فى تاريخ الأجيال السابقة ، تشهد بأن روحا ربانيا حل بهذه الجماعة ، فدفعها لإحداث أكبر الأحداث العالمية ، وتنبيه الأمم كافة من سباتها الذى كان طال عليها الأمد فيه .

ذلك العامل الخفى الذى أحفينا فى البحث عنه ، هو (الإيمان) الذى نفثه محمد صلى الله عليه وسلم فى رُوع جماعته (٣) ، فجعلهم يتلقفون ما يلقى إليهم بلهف عظيم ، فتتكيف به نفسياتهم ، ويصبح حالا لها كأنها ولدت مفطورة عليه .

هذا التعليل قد يجد فيه بعض الخصوم فرجة يتقحمون منها للغض من درجة إعجازه ، فيقولون : ما دامت المسألة استحالت الى الايمان ، فقد أمكن تعليلها بعلة طبيعية ، لأن الايمان يفعل بالنفوس ما تفعله الوراثات المتأصلة ، فيسوقها الى الأغراض التى تُوَجَّه إليها من طريق الانسياق الذاتى ، مضطرة غير مختارة ، فلا عجب أن يطبعها المستولى عليها من هذه الناحية على أى الصور شاء ، وأن يدفعها الى أى الوجهات أراد .

---

(١) آساس جمع أسس (بفتحتين) وهى بمعنى الاس (مثلثة) والاساس . وجمع الاس إساس (بكسر الاول) . وجمع الاساس أسس (بضمتين) . (٢) الصخرة الصيخود هى التى لا تعمل فيها المعاول . (٣) الروع (بضم الراء) : القلب والذهن والعقل . والروع (بفتحها) : الفزع .

نقول : مهلا مهلا ، فان فى طى هذه المسألة أمرا يعتبر فى أرفع درجات الاعجاز ، ألا وهو إيجاد هذا (الايمان) ؛ فعلى الخصم قبل أن يمضى قدما فى التعليل به ، أن يفسر لنا كيف أمكن للنبى أن يبثه فى قلوب ألوف مؤلفة من الناس على حال يستولى معها على جميع مشاعرهم ، فيسقط كل ما ورثوه من عقائدهم ، وما جمدوا عليه من وساوسهم ، وأن ينفرد بالسلطان على قلوبهم فيخضعها لكل ما يقدمه إليهم من مختلف التعاليم والوصايا خضوعا مطلقا ، بحيث يصبح منقوشا فى سويداء قلوبهم ؛ ولا تنس أن هذه التعاليم والوصايا لا تشايع ما كانوا عليه من ناحية من النواحى ، فلا يمكن أن يقال هنا إنهم أخذوا بها لأنها ناسبت ما كانوا عليه ، ولاءمت ما توارثوه من قبل ، ولكنها كانت تناقض ما كانوا قائمين عليه من كل وجه :

كانوا معددين للآلهة ، فجاءهم بالتوحيد .

كانوا يخضعون لحكم القوة ، فأخضعهم لسلطان الحق .

كانوا يأخذون بالتقليد ، فحولهم الى حكم العقل .

كانوا يحكمون بالعادات ، فجعلهم يحكمون بالقانون .

كانوا قانعين بما كانوا عليه ، فأهاب بهم لطلب الأحسن .

كانوا واقفين مع عالم المادة ، فحفزهم لتنور عالم الروح .

كانوا مكتفين بالأمر الواقع ، فدفعهم لتحرى المثل الأعلى .

كانوا يأخذون بالظنون ، فأمرهم أن لا يأخذوا إلا بالدليل .

كانوا راضين بالجهل ، فحضهم على طلب العلم .

كانوا يحرصون على الامتيازات ، فقرر لهم مبدأ المساواة .

فالايمان الذى يستولى على النفسية ، ويجردها من كل ما لابسها من الأصول التى صارت بتوالى توارثها فى الآماد المتتالية ملكات راسخة فيها ، ويحل محلها أصولا تناقضها من كل وجه ، ويجعل منها كيانا جديدا لشخصيتها ، لا يجوز أن ننظر اليه نظرنا الى الأمور العادية ، فنعلل به ما نريد أن نتعقله ، ونمضى غير مكترثين له . لأن مثل هذا (الايمان) الذى يقلب كيان النفس ويحولها من حال الى حال ، لا يعقل أن يكون ثمرة دعوة كلامية ، وإلا أمكن إصلاح أية جماعة بإيجاد إيمان لها من طريق الدعوة ، فلا يكون على الأرض أمة منحرفة عن الصراط السوى فى أية بقعة من بقاع الأرض ، وتصبح مهمة المصلحين من أيسر المهام الاجتماعية ؛ وما نشاهده فى الواقع يخالف ذلك كل المخالفة ، فقد بح صوت الهداة والمرشدين فى كل زمان ومكان من الدعوة الى الفضائل ، والتنفير من الرذائل ، فلم يزدد الناس إلا مضيا فيما هم فيه ، كأن كل هذه الإهابات بهم لا تعنيهم .

يقول المعترضون : نعم لأن المدعوين لا (إيمان) لهم بهؤلاء الدعاة .

نقول : هذا حق ، ولكنكم أرجعتمونا من طريق الدور الى مسألتنا الأولى وهى الإيمان . فما الذى قام به محمد غير مجرد الدعوة فأوجد لنفسه فى القلوب هذا الإيمان الراسخ الذى تمكن به من صب نفسية أمة برمتها فى قالب جديد لم تكن تعرفه ، ولا تسمع بمثله من قبل ؟

قلنا مجرد الدعوة ، لأنكم تنكرون المعجزات ، فعليكم أن تفسروا لنا كيف وصل محمد الى بث (الإيمان) بنبوته فى هذه النفوس كلها ، وتوصل بذلك الى التحكم فى تكييفها ، حتى حولها من حال الى حال آخر ، صلحت معه لأن تصل الى زعامة العالم كله فى سنين معدودة ؟

المسألة خطيرة ، خطيرة الى أبعد حدود اليأس . وهى فى هذا المأزق تصبح أقرب الى الحل منها وهى على بساط البحث . فإن الدليل على صحة النبوة هو صحة النبوة نفسها ، والفارق بين صحيحها وكاذبها ليس من الدقة بحيث لا تدركه إلا العقول القوية . فالنبوة الكاذبة فرية خسيسة لا تحل إلا بقلوب خوت من كل خير ، ونفوس تجردت من كل فضيلة ، وصارت مباءة لكل دناءة ورجس . والذى يستسيغ الكذب على الله بادعاء أن بينه وبينه اتصالا ، لا يعقل أن يكون إلا فى الدرك الأسفل من فساد الأخلاق ؛ ويستحيل أن يتولد من هذه النفس المنحلة عمل صالح تتألف منه أمة كريمة ، ذات أصول قويمة ، تتأدى فى سنين قليلة الى سيادة الأرض ، ناشرة حولها سمعة زكية ، وصيتا مُدَوِّيا ، اعتبرت منقذة للعالم مما كان يرسف فيه من قيود العبودية ، ويرزح تحته من آصار الجاهلية .

النبوة الحقة تثمر ثمراتها فى الجماعات التى تحل بها ، دون ان تستطيع أية قوة صدها عن بلوغ مداها ، كما قال تعالى : « كتب الله لأغلبن أنا ورسلى إن الله قوى عزيز » .

نعم إن النبوات تلاقى عقبات كأداء فى طريقها ، ولكنها تتغلب عليها فى النهاية كما قال الله تعالى : « ولقد كُذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ، ولا مبدل لكلمات الله ، ولقد جاءك من نبأ المرسلين » .

الخلاصة :

الخلاصة أن الله قد أمد جماعة المسلمين الأولين من طريق الاعجاز (بإيمان) راسخ بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، بعد أن طهر نفوسهم من جميع أدران الجاهلية ، ونقش فى صميم روعهم من الأصول الأدبية ، والمبادئ الاجتماعية ، والمثل العليا ، ما لا سبيل إليه عادة إلا بعد تطورات متعاقبة فى آماد طويلة ، ليتم بواسطة هذه الأمة ما سبق فى علمه من الانقلابات العالمية التى كان العالم فى أشد الحاجة إليها . بقى علينا الآن أن ننظر كيف تقلبت فى الأدوار التى سيقت إليها تحت هداية الوحى ، وقوامة خاتم المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم ، والله ولى التوفيق ؟

محمد فريد وجدى



سورة الشمس وضحاها

بسم الله الرحمن الرحيم

« والشَّمسِ وضُحاها ، والقمرِ إذا تَلاَها ، والنَّهارِ إذا جَلاَّها ، واللَّيل إذا يَغْشَاها » :

قلنا فيما سبق : إن القرآن له عناية كبرى بلفت الأنظار الى الآيات الكونية وما فيها من العبر والدلائل على عظمة الله ومزيد حكمته ، فتراه يقول : «ومن آياته الليلُ والنهارُ والشمسُ والقمرُ» ، ويقول : « وهو الذى جعلَ لكم الليلَ لباسا والنومَ سُباتاً ، وجعل النهارَ نُشُوراً » ، ويقول : « وهو الذى خلق الليلَ والنهارَ والشمسَ والقمرَ ، كلٌّ فى فَلَكٍ يَسبَحون » ، ويقول : « اللهُ الذى جعل لكم الليلَ لتسكنوا فيه والنهارَ مُبْصِراً » . وهذا كثير جداً فى القرآن الشريف . يريد بذلك تعالى أن يوقظ النفوس من رقدتها ، وينبه العقول من غفلتها ، الى أن عظمة الله أظهر من الشمس ، وهو سبحانه وتعالى أدنى الى الانسان من النفس .

ولنذكر لك بعض ما قال العلماء فى هذا المقام ، نحاول بذلك تثبيت إيمانك ، وتتميم إيقانك ، فنقول :

انظر الى هاتين الآيتين « الليل والنهار » وما تضمنتاه من العبر والدلالات على ربوبية الله وحكمته ، كيف جعل الليل سكناً ولباساً يغشى العالم ، فتسكن فيه الحركات ، وتأوى إليه الحيوانات الى بيوتها ، والطير الى أوكارها ، لتستجم فيه ، وتستريح من كد السعى والتعب ، حتى إذا أخذت النفوس راحتها وسباتها ، واستعدت الى معايشها وتصرفها ، جاء فالق الإصباح سبحانه وتعالى بالنهار ، يقدم جيشه بشير الصباح ، فهزم تلك الظلمة ومزقها تمزيقا ، وكشفها عن العالم فإذا هم مبصرون ، فانتشر الحيوان ، وتصرف الانسان فى معاشه ومصالحه ، وخرجت الطيور من أوكارها . فياله من تدبير حكيم ، وعمل عظيم ! ولكن تكرره كل يوم أسقط وقعه فى القلوب فلم تنفعل به النفوس ، لأن كل ما كثرت مشاهدته ضعف التأثر به والالتفات اليه ، فسبحان من لا ضعف فى قدرته ، ولا قصور فى حكمته ، ولكن الله يضل من يشاء ويهدى

من يشاء . بل نقول : إن من آياته الباهرة أن يُعمى الله عن هذه الآيات الواضحة البينة من شاء من خلقه . « ومن العجب أن يقف الانسان فى الماء الى حلقه ثم ينكر وجود الماء ويستغيث من العطش » !

ثم تأمل بعد ذلك ـ رعاك الله ـ حال الشمس والقمر فى طلوعهما وغروبهما لإقامة دولتى الليل والنهار ؛ ولولا طلوعهما وغروبهما لبطل أمر العالم ، وكيف كان الناس يسعون فى معايشهم ويتصرفون فى أمورهم والدنيا مظلمة عليهم ؛ وكيف كانوا يتهنون بالعيش مع فقد النور ؟

ثم تأمل الحكمة فى غروبهما ، فانه لولا غروبهما لم يكن للناس هدوء ولا قرار مع فرط الحاجة الى النوم ، وجموم الحواس . ومن البين أنه لولا الغروب لكانت الأرض تحمى بدوام شروق الشمس واتصال طلوعها حتى يحترق كل ما عليها من حيوان ونبات ، فصارت تطلع وقتا بمنزلة السراج يرفع لأهل البيت ليقضوا حوائجهم ، ثم تغيب عنهم كما ينطفئ السراج عندما تذهب الحاجة الى نوره ليقروا ويهدءوا ، وصار ضياء النهار مع ظلام الليل ، وحر هذا مع برد هذا مع تضادهما ، متعاونين متظاهرين ، بهما تمام مصالح العالم . وقد أشار تعالى الى هذا المعنى منبها عليه ، لافتا النظر إليه ، كما سبق لك بمثل قوله : « قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سَرْمَداً الى يوم القيامة مَن إله غير الله يأتيكم بضياء ، أفلا تسمعون . قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمداً الى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه ، أفلا تبصرون » . وقال فى السورة الأخرى : « تبارك الذى جعل فى السماء بروجاً ، وجعل فيها سراجاً وقمرا منيراً . وهو الذى جعل الليل والنهار خِلْفة لمن أراد أن يذّكر أو أراد شكوراً » . فبين سبحانه وتعالى كون كل واحد منهما يخلف الآخر ، بل يغشى أحدهما صاحبه فيطلبه حثيثا حتى يزيله عن سلطانه أيضا .

وإن شئت بعد ذلك فتأمل أحوال هذه الشمس فى انخفاضها وارتفاعها لإقامة الفصول الأربعة ، وما فيها من المصالح والحكم ، إذ لو كان الزمان كله فصلا واحدا لفاتت مصالح الفصول الباقية فيه ، فلو كان صيفا كله لفاتت منافع الشتاء ، ولو كان شتاء لفاتت منافع الصيف ؛ وكذلك لو كان ربيعا كله أو خريفاً كله . ففى الشتاء تختبىء الحرارة فى بطن الأرض وأجواف الأشياء ، فتتولد مواد الثمار وغيرها ، وتبرد الظواهر ، ويستكثف الهواء ، ويكثر السحاب والمطر ، والثلج والبرد ، وبذلك حياة الأرض وأهلها ، واشتداد أبدان الحيوان وقوتها ، وتزايد القوى الطبيعية ، واستخلاف ما حلّلته حرارة الصيف من الأبدان . وفى الربيع تتحرك الطبائع وتظهر المواد المتولدة فى الشتاء ، فيظهر النّور والزهر بالشجر ، ويتحرك الحيوان للتناسل . وفى الصيف يحتد الهواء ويسخن جداً ، فتنضج الثمار ، وتنحل فضلات الأبدان والأخلاط التى انعقدت فى الشتاء ، وتغيب البرودة وتهرب الى الأجواف ، ولهذا

تبرد العيون والآبار ، ولا تهضم المعدة الطعام التى كانت تهضمه فى الشتاء من الأطعمة الغليظة لأنها كانت تهضمها بالحرارة التى سكنت فى البطون ؛ فلما جاء الصيف خرجت الحرارة الى ظاهر الجسد وغارت البرودة فيه . فإذا جاء الخريف اعتدل الزمان ، وصفا الهواء وبرد ، فانكسر ذلك السموم ، وجعله الله بحكمته برزخاً بين سموم الصيف وبرد الشتاء ، لئلا تنتقل الحيوانات وهلة واحدة من الحر الشديد الى البرد الشديد فيعظم أذاه ؛ أما إذا انتقل إليه بتدريج وترتيب لم يصعب عليه ، فإنه عند كل جزء يستعد لقبول ما هو أشد منه حتى تأتى شدة البرد بعد استعداد وقبول . وكذلك الربيع برزخ بين الشتاء والصيف ، ينتقل فيه الحيوان من برد هذا الى حر هذا بتدريج وترتيب ، فتبارك الله رب العالمين ، وأحسن الخالقين !

وتأمل حكمته تعالى فى سير الشمس وما فيه من المصالح والحكم ، فأنه لو كانت تطلع فى موضع من السماء فتقف فيه ولا تعدوه لما وصل شعاعها الى كثير من الجهات ، لأن ظل أحد جوانب كرة الأرض يحجبها عن الجانب الآخر ، ويكون الليل دائماً سرمدا على من لم تطلع عليه ، والنهار سرمداً على من هى طالعة عليهم ، فيفسد هؤلاء وهؤلاء . فاقتضت الحكمة الإلهية ، والعناية الربانية ، أن قدر طلوعها من أول النهار من المشرق ، فتشرق على ما قابلها من الأفق الغربى ، ثم لا تزال تدور وتغشى جهة بعد جهة حتى تنتهى الى المغرب فتشرق على ما كان مستورا عنها فى أول النهار ، فيختلف عندهم الليل والنهار فتنتظم مصالحهم .

ولنقف هنا اليوم ، وموعدنا العدد الآتى إن شاء الله ، والمقام مقام إطناب ، سالكين فى ذلك مسلك القرآن ، منشدين قول القائل :

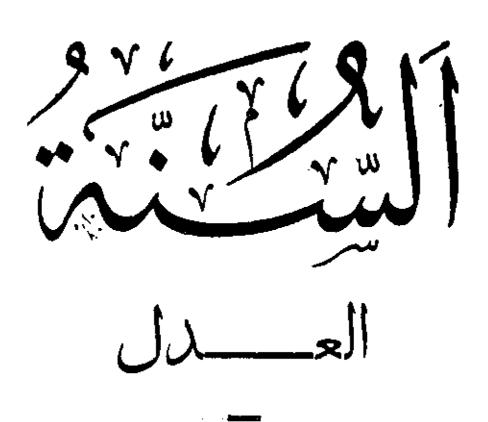
وحدثتنى يا سعد عنهم فزدتنى شجونا فزدنى من حديثك يا سعد
هواهم هوى لا يعرف القلب غيره فليس له قبل وليس له بعد

يوسف الدجوى
عضو جماعة كبار العلماء

هل يفسد الزمان ؟

اعتاد الناس إذا رأوا شحا مطاعا ، وهوى متبعا ، وفاحشة فاشية ، أن يقولوا : قد فسد الزمان . والزمان لا يفسد ولكن يفسد أهله ، كما هو ظاهر لا يحتاج الى دليل ، فاذا تطلبوا الرشد فليصلحوا أنفسهم وإلا حقت عليهم الكلمة التى حقت على الأمم البائدة . وقد أدرك هذه الحقيقة الأصمعى قبل أكثر من ألف سنة فقال :

إن الجديدين فى طول اختلافهما لا يفسدان ولكن يفسد الناس



العـــدل

عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « ما مِن أميرِ عشَرةٍ إلا يُؤتَى به يومَ القيامةِ مَغْلولاً لا يَفُكُّه إلا العَدْلُ » . رواه أحمد بإسناد جيد رجاله رجال الصحيح . ذكره الحافظ المنذرى .

يتعلق بشرح هذا الحديث أمور : (١) بيان معنى الحديث إجمالا . (٢) بيان معنى العدل . (٣) آثار العدل بين الناس ، وفضل من عدل .

(١) الغرض من هذا الحديث تحذير الرؤساء والأمراء من المظالم والاستهانة بالحقوق المنوطة بهم ، وإلا كانوا من الظالمين الذين يستحقون العقوبات التى ذكرناها فى المقال الذى قبل هذا .

وقوله صلى الله عليه وسلم : « ما من أمير عشرة الخ » ليس الغرض منه تحديد هذا العدد كما هو معروف من الأحاديث الأخرى ؛ فقد وردت أحاديث صحيحة تدل على وجوب العدل مع كل مرءوس ولو كان واحدا : قال صلى الله عليه وسلم : « كلكم راع ومسئول عن رعيته : الإمام راع ومسئول عن رعيته ، والرجل راع فى أهله ومسئول عن رعيته ، والمرأة راعية فى بيتها ومسئولة عن رعيتها ، والخادم راع فى مال سيده ومسئول عن رعيته ، وكلكم راع ومسئول عن رعيته » . رواه البخارى ومسلم . فهذا الحديث صريح فى أن كل فرد من الأفراد مطالب بتحقيق العدل بنسبة ما يكلف به من الأعمال ، سواء كان مع نفسه أو مع غيره ولو كان واحدا . وسيأتى فى تعريف معنى العدل بيان هذا . وإنما اقتصر الحديث الذى معنا على ذكر العشرة لأن هذا العدد كان أقل عدد يرأسه أمير غالبا عند العرب . وقد ورد ما يدل على ذلك فى الأحاديث الصحيحة : فمن ذلك ما روى البخارى معناه فى حديث طعام أبى بكر الذى كان أعده لبعض فقراء أهل الصفة فأكلوا منه ولم ينقص شيئا ، فأخبر بذلك النبى صلى الله عليه وسلم وكان عنده وفود من قبائل العرب ، فأمر أبا بكر بإحضاره وقدمه لهؤلاء الوفود وأجلس عليه كل عشرة مع رئيسهم ، فأكلوا جميعا حتى شبعوا . وهكذا ، فقد كان عدد العشرة هو أقل عدد يستحق أن يكون له رئيس .

أما قوله : « إلا يؤتى به يوم القيامة مغلولا » فمعناه أنه يؤتى به وهو مقيد بقيد من حديد فى عنقه أو فى يده . يقال : غله غُلا بالضم ، إذا وضع فى رقبته أو فى يده غُلاً من حديد .

وقد يقال إن هذا بظاهره ينافى الأحاديث التى تدل على أن الإمام العادل يكون محوطا بعناية الله تعالى ومشمولا برحمته من أول الأمر ، فقد ورد أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : سبعة يظلهم الله يوم لا ظل إلا ظله ، وأول هؤلاء السبعة الامام العادل ؛ فكيف يتفق هذا مع ظاهر هذا الحديث الذى يفيد أن كل أمير عشرة يؤتى به مغلول اليدين والعنق ، وفى ذلك من الإهانة والتعذيب ما لا يخفى ؟

والجواب : أن معنى الحديث تحذير الرؤساء والأمراء من الظلم ، وحثهم على العدل . فالذى يؤتى به مغلولا إنما هم الظالمون .

ومعنى « لا يفكه إلا العدل » : أن العادلين آمنون من هذه الإهانة ، بل هم منعمون من أول أمرهم لأنهم متصفون بالعدل ، وما دام العدل ملازما لهم فهم منفكون عن كل ما يصيب الظالمين من جزاء . فالعدل وقاية لهم من كل ما يمس الظالمين من عقاب ، ووسيلة للنعيم الخالد وحسن الجزاء .

أما معنى العدل فهو معروف بين الناس ، وهو ضد الجور والظلم ، ولكن علماء الأخلاق بحثوا فى معنى العدل بحثا دقيقا ، فقالوا : إنه صفة من صفات النفس الخلقية الفاضلة التى يترتب عليها أداء الحقوق المشروعة لمستحقيها كاملة ، بحيث لا يظلم أحد فى شىء من الأشياء التى أقرها له الدين وجعلها مقصورة عليه . وهذه الصفة الخلقية الفاضلة تظهر آثارها فى ثلاث قوى نفسية : وهى القوة الشهوية ، والقوة الغضبية ، والقوة العقلية . ولهذا عرفوا العدل بأنه التوسط بين طرفى الإفراط والتفريط فى هذه القوى ، فمتى اعتدلت هذه القوى كان صاحبها عادلا . مثال التوسط فى الشهوات هو أن يقف معها عند الحد الذى أمره به الدين والعقل ، فلا تحمله شهوته على الاعتداء على أعراض الناس وأموالهم وأنفسهم ، ولا تذهب به الى ما يضره فى خلقه أو دينه أو بدنه ؛ ولا تحمله على ما نهاه عنه الدين من حقد وحسد وغير ذلك . فمن توسط فى هذه الشهوة سواء كانت شهوة جاه أو مال ، أو منصب أو لذة من اللذات البدنية ، واقتصر على ما هو مشروع منها ، فقد ملك زمام العدل مع نفسه ومع الناس . أما إذا طغت عليه شهوته فحملته على الخروج عما أمره الله به ، وزينت له الاعتداء على أعراض الناس وأموالهم وحقوقهم العامة أو الخاصة ، فقد باء بأقبح الآثام وكان من الظالمين الطاغين . هذا هو نتيجة الافراط فى الشهوات ، ويسمى عند علماء الأخلاق خلاعة أو مجنونا .

وأما الإفراط فى ترك الشهوات الطبيعية التى خلقها الله تعالى لمصالح وحكم ، كاهمال الجسم من الغذاء الحلال الضرورى والنظافة وغيرهما ، فانه يترتب عليه السقم الذى يحول بين المرء

وبين أداء وظيفته المطلوبة منه للمجتمع الانسانى . ومثل ذلك إهمال شهوة الفرج وإماتتها ، وهى مودعة فى النوع الانسانى لغرض التناسل وتكثير سواد الأمة ، وإعدادها للقيام بما هو مطلوب منها ، الى غير ذلك من المصالح العامة والخاصة التى تقتضيها الشهوات الطبيعية فى الانسان . فمن أفرط فى شهوته كان ظالما ، ومن فرط فيها كان جامدا ، ومن توسط كان عادلا .

ومثال التوسط فى الغضب ، هو أن يضبط نفسه ولا يطيع غضبه فى الخروج عما يقتضيه العقل والدين ، فلا يغضب إلا إذا انتهكت الحرمات العامة أو الخاصة : بأن يتعدى أحد على دينه أو عرضه أو ماله أو نفسه ، أو رأى منكرا من المنكرات التى نهى الله تعالى ورسوله عنها . فالغضب لذلك ممدوح ، ولابد منه لبقاء النوع الانسانى . والتوسط فى الغضب يسمى شجاعة ؛ والشجاعة وسط بين الجبن وبين التهور . ومن كان كذلك فإنه يملك نفسه ويصرفها عن إيذاء الناس وظلمهم ، والتعدى على أموالهم وأعراضهم وأنفسهم ، ويحمله على إعطاء كل ذى حق حقه ، ويدفع عن نفسه وعن دينه وعرضه عدوان الناس ؛ وبذلك ينجو من عار الجبن ، وعدم الغيرة على عرضه وماله ودينه .

أما الإفراط فى الغضب فانه يترتب عليه أسوأ الآثار وأشنعها ، فان الذى يحمله غضبه على الخروج عن الدفاع عن هذه الأمور التى أمر الله بصيانتها والدفاع عنها ، يكون ظالما لامحالة ، لأنه لا يبالى بأن يؤذى الناس فى أموالهم وأعراضهم ، بل وفى أنفسهم ، تشفيا وانتقاما بدون مبرر ، وذلك شر وبيل لا يقره الدين ولا العقل ، ولا يرضاه الله ورسوله .

وأما ترك الغضب فانه يترتب عليه الجبن وعدم المبالاة بالتعدى على الأعراض والأنفس والأموال ، وذلك خروج عما يقتضيه العقل والدين .

ومثال التوسط فى القوة العقلية ، هو أن يقف الانسان مع عقله وتفكيره موقف المتدبر للأمور على ما هى عليه ، المتأمل فى أسرار الكون ونظمه وما جاءت به الشرائع الإلهية من حكم واعتقاد . فمن وقف مع عقله هذا الموقف كان متوسطا بين البلادة والغرور . ويشتمل ذلك على ثلاثة أمور : حكمة الاعتقاد ، وحكمة العمل ، وحكمة الأخلاق . فأما حكمة الاعتقاد ، فأولها توحيد الله تعالى وتنزيهه عن كل ما لا يليق به . وهذا متوسط بين رذيلتين : الأولى نفى الألوهية رأسا ، أو اعتقاد إلهين أحدهما معطل كما تقول الثنوية . وأما حكمة العمل فهى أداء الواجبات بلا إفراط أو تفريط ، وهذا متوسط بين ترك العمل رأسا ، والمبالغة فيه ، كما إذا ترك التمتع بما أباحه الله له من حلال طيب . وأما حكمة الأخلاق فهى كالجود المتوسط بين الإسراف والشح .

فهذا إيضاح ما ذكره علماء الأخلاق من الفلاسفة فى تعريف العدل . وقد عرفت أن العدل

معروف بين الناس ؛ وأن كل إنسان يشعر بما يحيق به من ظـلم وإن تفاوتت مدارك الناس فى تقدير الظلم والعدل . فالرئيس الذى يتصرف فى دماء الناس وأموالهم وأعراضهم وحقوقهم العامة والخاصة ، لا يجهل معنى العدل والظلم ، وليس فى حاجة الى معرفة هذه الدقائق . وإذا سألته لماذا يظلم هذا لا يعدم مبررا يبرر به ظلمه . ولـكن الواقع أن العدل والظلم لا يخفيان على أحد ، وأن الرئيس العادل أو الظالم لا يخفى أمرهما وما ربك بغافل عما يعمل الظالمون .

(٣) أما آثار العدل بين الناس ، فهى سعادة المجتمع ، وصلاح أفراده فى كل شأن من شئونهم . فمتى عدل الرئيس القائم على مصالح جماعة من الناس ، وحارب العوامل التى تحول بينه وبين إقامة العدل ، فانه يكون قد ظفر بالسعادة هو ورعيته التى يحوطها بدون نزاع . ولهذا كان قوام الدين الاسـلامى فى صدر الاسلام ، على رجاله الذين يقومون بالعـدل ويتوخونه فى كل صغيرة وكبيرة . فـكان الرئيس منهم ينسى شخصه وولده وأعز شىء عليه فى سبيل إقامة العدل وإعطاء كل ذى حق حقه . ولو شئنا أن نذكر أمثلة لذلك من عدل حكام المسلمين الأولين لطال بنا المقام كثيرا ؛ ولـكن لا بأس من أن نورد شيئا من ذلك عسى أن يكون فيه عظة وعبرة للمسلمين الذين ينالون حظا من الرياسة .

فمن ذلك ما روى عن الحسن قال : جىء الى عمر رضى الله عنه بمـال فبلغ ذلك حفصة أم المؤمنين ، فجاءت ، فقالت : يا أمير المؤمنين أنشدك حق أقربائك من هذا المـال ، وقد أوصى الله بالأقربين . فقال : يابنية : حق أقربائى فى مالى ، وأما هذا فمال المسلمين ؛ غششت أباك ، ونصحت أقرباءك ، قومى ! فقامت والله تجر ذيلها .

ومن ذلك ما روى من أنه رضى الله عنه جمع عمـاله ، وجمع رءساء القبائل معهم ، ثم قال لهم : إنى والله ما أرسل عمالى إليكم ليضربوا وجوهكم ولا ليأخـذوا أموالـكم ، ولـكن أرسلتهم إليكم ليعلموكم دينكم وسننكم ، ويحفظوا دماءكم وأعراضكم ، ويقسموا بينكم فيئكم ، فمن ُفعل معه سوى ذلك فليرفعه الىّ ، فو الذى نفس عمر بيده إذن لأقصنه منه ! فوثب عمرو ابن العاص أحد الأمراء فقال : يا أمير المؤمنين : أفرأيت إن كان رجل من المسلمين على رعيته فأدّب بعض رعيته إنك لمقصه منـه ؟ قال : إى والذى نفس عمر بيده إذن لأقصنه منـه ! وقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسـلم يقص من نفسه . ألا لا تضربوا المسلمين فتذلوهم ، ولا تمنعوهم حقوقهم فتكفروهم ، ولا تنزلوهم الغياض فتضيعوهم (الغياض جمع غيضة ، والغيضة مكان يجتمع فيه المـاء ثم يقل فينبت فيه الشجر) . وكان رضى الله عنه يباشر أحوال رعيته بنفسه ليقيم بينهم العدل بقدر ما يستطيع . وكان يؤثر رعيته على نفسه وولده عند نزول الشدائد والإحن .

وما نحن بقادرين على أن نذكر فى هـذا المقام ما كان عليه عمر رضى الله عنه من عدل

شامل لجميع أفراد الرعية . ولكن كان من آثار هذا العدل أن قامت الدولة الاسلامية فى عهده على أساس ثابت قد وضعه رسول الله صلى الله عليه وسلم من قبل ، فقوى الاسلام فى عهده ، وانهارت الدولتان اللتان كانتا تسودان العالم يومئذ ، وهما الفرس والرومان .

وبالجملة ، فالدين الاسلامى قد أمر المسلمين بإقامة العدل بينهم أمرا صريحا ، وهدد الظالمين تهديدا شديدا ، ولعنهم لعنا كبيرا ، قال تعالى : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان ، وإيتاء ذى القربى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى » . والله يهدى المسلمين الى سواء السبيل ؟

عبد الرحمن الجزيرى

الحزم والعزم

يروى عن بزرجمهر الوزير الفارسى المشهور أنه قال : إن الحازم إذا أشكل عليه الرأى ، بمنزلة من أضل لؤلؤة فجمع ما حول مسقطها من التراب ثم التمسها حتى وجدها ؛ وكذلك الحازم يجمع وجوه الرأى فى الأمر المشكل ثم يضرب بعضها ببعض حتى يخلص رأيه .

وقال شهاب الدين : كن ذا عزيمة فان عزائم الرجال تحرك الأسباب .

وقال شاعر :

إذا كنت ذا رأى فكن ذا عزيمة   فان فساد الرأى أن يترددا

وأضاف إليه بعضهم :

إذا كنت ذا عزم فأنفذه عاجلا   فان فساد العزم أن يتقيدا

ووصف أديب عضد الدولة الوزير فقال : وجه فيه ألف عين ، وفم فيه ألف لسان ، وصدر فيه ألف قلب .

وقال شاعر يمدح ملكا :

عزماته مثل السيوف صوارما   لو لم يكن للصارمات فلول

والعزيمة لا تستحق المدح إلا إذا كانت فى نصرة حق وإلا كانت عدوانا .

بحوث في المسائل الفقهية

تاريخ الفقه الاسلامى فى مصر

— ٦ —

مذهب الإمام الليث :

ترجمنا فى مقالنا السابق لجماعة من علماء القرن الثانى الذين اشتغلوا بالفقه والحديث فى مصر رواية وتأليفا وفتيا ، وكان من هـؤلاء الذين ترجمنا لهم الامام المصرى الأكبر : الليث بن سعد الفهمى .

ونريد اليوم أن نعرض لمذهب هذا الامام الجليل من ناحيتين : ناحية العوامل التى أدت الى ضياعه ، وناحية الطابع الفقهى الذى كان يتميز به .

١ — الأسباب التى أدت الى ضياعه :

لقـد قال الامام الشافعى رضى الله عنه فى الليث كلمة تتضمن أهم الأسباب التى أدت الى ضياع مذهبه : « هو أفقه من مالك إلا أنه ضيّعه أصحابه » . والمتتبع لتاريخ الفقه الاسلامى يعرف أن أصحاب المذاهب لم يضعوا بأنفسهم أسس مذاهبهم بحيث تكون قواعد كلية يترسمها الأتباع ، ويطبقون أحكامها على المسائل الجزئية ، كما يظن كثير من الناس ؛ ولكن الأمر على عكس ذلك ؛ فالأتباع هم الذين وضعوا القواعد وأسسوا الأسس معتمدين على فتاوى إمامهم ومسائله ، فكثير من الاصطلاحات المذهبية يعرفه الأتباع ولا يعرفه الامام نفسه . ومثلهم فى ذلك مثل واضعى النحو والبلاغة : لم يكن العرب الناطقون بالكلام البليغ ، المتفق مع القواعد النحوية والصرفية يعرفون أن هذا فاعل أو أن هذا مفعول ، أو أن هذا مجرد أو مزيد ، أو جامد أو مشتق ، أو أن هذا الفصل لكمال الاتصال ، وهـذا الوصل لكمال الانقطاع ، ولا أن فى هذه العبارة استعارة بالكناية أو استعارة تخييلية ، وهكذا ؛ وإنما هذه أشياء وضعت بعـد استقراء الكلام البليغ لجعلت مقاييس للكلام . فكذلك الأئمة المجتهدون ، كل منهم يفتى برأيه وما يتضح له ملاحظا معنى فى نفسه ، ومَدْركا له ، يصرح به حينا ، ويضمره حينا ؛ فاذا جاء تلاميذه وتابعوه أرجعوا أقواله وآراءه الى قواعد ودوائر يرسمونها للمذهب أخذا من مجموعة أقوال الامام نفسه ، وربما ناقشوه فى بعض هذه الأقوال ، أو عقبوا

عليه فى بعض ما رأى من الآراء ؛ ولا تكاد تجد مذهبا يخرج فى جملته عن هذه الطريقة ، إذا استثنينا مذهب الامام الشافعى الذى وضع بنفسه رسالته المعروفة ، وضمنها كثيرا من قواعد مذهبه .

وبهذا يظهر أن الجانب الأكبر من المسئولية فى ضياع مذهب من المذاهب ، واقع على عاتق الأصحاب والأتباع الذين لم يخدموا المذهب على الطريقة التى وصفنا ، فأدى ذلك الى بقائه أقوالا مبعثرة ، وآراء متناثرة ، ومسائل مبثوثة فى تضاعيف الكتب من غير بيان لأصلها الذى بنيت عليه ، ومصدرها الذى أخذت منه ، كما هو الشأن فى مذهب الامام الليث رضى الله عنه .

على أن الليث لم يرزق بأصحاب من الطراز الأول كما رزق أبو حنيفة بصاحبيه : أبى يوسف ومحمد ، وكما رزق مالك بأمثال ابن القاسم وأشهب ، وكما رزق الشافعى بأمثال البويطى والمزنى والربيع .

وأكثر الأئمة دوّنوا لهم كتبا ، فمالك ألّف فى المدينة ، وأبو حنيفة وأصحابه ألفوا فى العراق ، والشافعى ألف بمصر ، والأوزاعى ألف فى الشام ، ولم يؤلف الليث .

وهناك سبب آخر : ذلك أن الحركة الفقهية كانت قائمة على أشدها فى الحجاز والعراق والشام ، لأنها كانت حواضر الخلفاء ، ومهبط العلم ، ومقصد الراحلين فى طلب العلم ، ومحط أنظار المسلمين ؛ أما مصر فلم تكن الى هذا العهد بالبلد التى توحد دينها ولغتها ونظامها ، بل لم يكن المسلمون قد انبثوا بعد فى قراها وأقاليمها ، ولم يكن من أهل البلاد من أقبلوا على هذا العلم يدرسونه ويثبتونه إلا قليلا منهم لا تغنى جهوده المفرقة فى هذا الشأن الخطير ، فلذلك لم يجد الليث من يتعصب له ، ويهتم بفقهه . ولعل السياسة أيضا لعبت فى ذلك دورا ، فان الليث كان رجلا مهيبا مسموع الكلمة ، يخافه الأمراء ويخشون حسن صلته بالخلفاء ، وكثيرا ما كتب الى الخليفة فى عامل من عماله فصرفه عن عمله ، بل إنه كان قريبا من منصب الإمارة قربا جعل بعض المؤرخين يخطىء فيزعم أنه ولى مصر فعلا حينا من الزمن ، وهذا القرب ، أو بتعبير أدق ، هذه الجدارة بمنصب الإمارة ، جعلته موضع دسائس ووشايات ، وجعلت أحد خصومه يكتب الى الخليفة أبى جعفر المنصور ليقول له :

لعبد الله عبد الله عندى ... نصائح حكتها فى السر وحدى
أمير المؤمنين تلاف مصرا ... فأن أميرها ليث بن سعد

ولسنا نزعم أن ذلك وأمثاله أصاب من نفس الخليفة موقعا ، أو أنتج أثرا ، ولكننا نقول : إن هذه المنزلة التى تمتع بها الليث فى حياته قد جعلت كثيرا من أهل العلم يُغْضون عن خدمة مذهبه من حيث لا يقصدون ، وجعلت كثيرا من الأمراء والولاة يتخففون من ذكراه بعد موته كما كانوا يتهيبونه فى حياته ، إن لم نقل جعلتهم يصدون عنه ويصرفون عن مذهبه .

وها نحن أولاء نرى الى عهد قريب كيف كانت هيبة الامام محمد عبده وحسن صلته بكبار الرجال سببا فى كثير مما أصابه فى حياته ، ثم سببا فى ضياع كثير من آرائه وأفكاره ؛ ولولا أن الله قيض له تلميذه المخلص المغفور له العلامة السيد رشيد لضاعت أكثر أفكاره بين أعدائه الكارهين وأصدقائه المفرطين ، حسدا أو كسلا .

ولقد كان يحتمل أن تفتر هذه النزعة التى اعترضت مذهب الليث لو كان له أصحاب وتلاميذ مخلصون عنوا به ، واهتموا بمذهبه ، ولو لم تبد فى الأفق طلائع المذاهب الفقهية الجديدة الواردة على مصر من الحجاز والعراق ، والمصريون دائما عشاق ما يرد اليهم ، « لا يطربهم زامرهم » ، ولا يسلبهم شاعرهم ! . . .

هذه هى أهم الأسباب التى ضيعت مذهب الامام الليث ، وتحالفت على كتمانه ، وحرمان العلم والفقه الاسلامى منه .

على أن فى الكتب المطبوعة وغيرها من فقه الامام الليث طائفة صالحة لو عنيت بها هيئة علمية ناشطة لا ستخرجت منها خيرا كثيرا ، ولكننا لم نعرف بعد نظام التعاون العلمى ، وإنشاء الهيئات التى تتخصص لموضوع واحد فتنتج فيه ، وتكتشف له ، كما يفعل علماء الآثار ، مع أن آباءنا الأقدمين هم الذين علموه لأوربا ، وأنشأوه على غير مثال !

ننظر بعد ذلك فى الطابع الذى يمتاز به فقه الامام الليث :

هل كان الليث من رجال الرأى أو من رجال الحديث ؟

كان بين مالك والليث رضى الله عنهما مراسلات ومحاورات ، وكانت هذه المراسلات والمحاورات من أبدع ما عرف فى التاريخ الاسلامى بين عالم وعالم ، جمعت بين حسن الادب ، وجمال الأسلوب ، ونزاهة النقد ، والهدوء فى المناقشة والجدال ؛ ولو كنا بصدد دراسة أدبية لجلينا هذا الجمال الأدبى ، فلرأى الناس فيه آية من آيات الإبداع ينبغى أن تكون فى عصرنا الحاضر من المثل العليا للعلماء والمتأدبين ، ولكننا نريد أن نستخلص من هذه المناقشات الهادئة المتزنة طريقة الامام الليث فحسب ؛ ومعروف أن العلماء فى ذلك الوقت كانوا بين مدرستين : مدرسة الرأى ، ومدرسة الحديث ، وإن كانت كل مدرسة من هاتين تتشعب الى مدارس تتقارب أحيانا وتتباعد أحيانا ، فمن أى المدرستين كان الليث ؟ أكان من مدرسة الحديث التى كان رجالها يتمسكون بالنصوص التى تروى ولا يحيدون عن ظواهرها ، ويرون ضعيف الحديث خيرا من جيد الرأى ، أم كان من رجال الرأى الذين يقيسون وينظرون ويتشددون فى قبول الأحاديث ؟

لقد كان مالك يأخذ عليه أنه يفتى الناس بأشياء مخالفة لما عليه أهل المدينة ، ويقول له فى أدب وتلطف : « إنه يحق عليه الخوف على نفسه ، لاعتماد من قِبَله على ما يفتيهم به ، ولأن الناس تبع لأهل المدينة التى كانت اليها الهجرة ، وبها نزل القرآن ، وفى أصحابها بث رسول الله صلى الله عليه وسلم علمه ، وفيهم يقول الله عز وجل : « والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم باحسان ، رضى الله عنهم ورضوا عنه ، وأعد لهم جنات تجرى تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ، ذلك الفوز العظيم » .

فيجيبه الليث بمثل هذا الأسلوب الهادئ : « لقد أصبت بالمدى الذى كتبت به من ذلك إن شاء الله تعالى ، ووقع منى بالموقع الذى تحب ، وما أجد أحداً ينسب اليه العلم أكره لشواذ الفتيا ، ولا أشد تفضيلا لعلماء أهل المدينة الذين مضوا ، ولا آخذ لفتياهم فيما اتفقوا عليه منى . . . ولكن كثيرا من أولئك السابقين الأولين خرجوا الى الجهاد فى سبيل الله ابتغاء مرضاة الله فجندوا الأجناد ، واجتمع اليهم الناس فأظهروا بين ظهرانيهم كتاب الله وسنة نبيه ولم يكتموهم شيئا علموه ؛ وكان فى كل جند منهم طائفة يعلمون كتاب الله وسنة نبيه ، ويجتهدون برأيهم فيما لم يفسره لهم القرآن والسنة وتقدمهم عليه أبو بكر وعمر وعثمان الذين اختارهم المسلمون لأنفسهم ، ولم يكن أولئك الثلاثة مضيعين لأجناد المسلمين ولا غافلين عنهم ، بل كانوا يكتبون فى الأمر اليسير لاقامة الدين والحذر من الاختلاف بكتاب الله وسنة نبيه ، فلم يتركوا أمرا فسره القرآن أو عمل به النبى صلى الله عليه وسلم أو ائتمروا فيه بعده إلا علموهموه ، فاذا جاء أمر عمل فيه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بمصر والشام والعراق على عهد أبى بكر وعمر وعثمان ولم يزالوا عليه حتى قبضوا لم يأمرهم بغيره ، فلا نراه يجوز لأجناد المسلمين أن يحدثوا اليوم أمرا لم يعمل به سلفهم من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم والتابعين لهم ، مع أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قد اختلفوا بعد الفتيا فى أشياء كثيرة ، ثم اختلف التابعون ، ثم اختلف الذين كانوا بعدهم . . . وكان يكون من ابن شهاب اختلاف كثير إذا لقيناه ، وإذا كاتبه بعضنا فربما كتب اليه فى الشيء الواحد على فضل علمه ورأيه بثلاثة أنواع ينقض بعضها بعضا ، ولا يشعر بالذى مضى من رأيه فى ذلك ، فهو الذى يدعونى الى ترك ما أنكرت تركى إياه » .

فالليث إذاً من رجال الحديث كمالك ، ولكنه لا يرى ما يراه من الاعتداد بعمل أهل المدينة إلا فيما أجمع عليه المتقدمون منهم ؛ أما فيما عدا ذلك فقد انبث فى الأمصار أصحاب مضت لهم فيها سنة وعمل مستندان من غير شك الى سنة من الرسول وعمل كما استند أهل المدينة ؛ ولئن كان أبو بكر وعمر وعثمان فى المدينة ، ولهم بعرف أهلها وعملهم صلة وعهد ، لقد كانوا أيضا يكتبون الى أجناد المسلمين حتى فى الأمر اليسير حذرا من الاختلاف بكتاب

الله وسنة نبيه ؛ فالأمر إذاً بين أهل المدينة وغيرهم من الأصحاب على سواء ، وكل ما ينبغى على الفقيه ، أن ينقد وينظر ، ويقارن ويتبصر ، ليخرج من معترك الآراء والفتاوى والروايات الى ما هو أشبه بالحق ، وأقرب الى الصواب .

هذا هو المعنى الذى أراد الليث أن يقنع به مالـكا ، رضى الله عنهما . ولعلنا نأتى فى مقالنا الآتى إن شاء الله بشواهد من جزئيات الفقه تشهد له وتدل عليه ؟

محمد محمد المدنى
المدرس بكلية الشريعة

فضيلة الصبر

قال الله تعالى : « إن الله مع الصابرين » ، ولا يعقل أنه يوجد مقام أرفع من هذا المقام .

وقد صدق الحسن البصرى رضى الله عنه حيث قال : وجدت الدنيا والآخرة فى صبر ساعة .

وقال على بن الحسين رضى الله عنهما : احتمال الصبر عند البلية ، أسلم من إطفائها بالمشقة .

نقول : هذا كلام يوهم أن من ابتلى بنازلة وجب عليه أن يصبر عليها ، وأن لا يعمل لدفعها ، وليس هذا مراد على بن الحسين ، وإنما مراده أن يعلم الناس أن الصبر صفة يجب أن يحرص عليها مهما كانت شديدة على النفس ، فقد تكون أخف عليها من التوفر على دفع البلية نفسها . وإنما يطلب الصبر فى المواطن التى لا يجدى فيها غيره ، فالصبر فى وطيس الحرب من الضرورات وإلا انقلب الدفاع الى هزيمة منكرة ، والهزيمة يتبعها الوقوع فى أسر العدو . ويحسن الصبر فى المرض ، لا بترك العلاج ، ولـكن بترك الجزع الذى تكون نتيجته زيادة إعداد البنية لقبول أفاعيل الداء .

فالصبر معناه توطيد الحالة المعنوية للنفس للصمود للبـلايا التى لا مفر منها فى الحياة ، لا استشعار البلادة إزاء كل بلية وتركها تفعل ما تشاء .

صفحات مختارة لأقطاب الفلسفة المعاصرة

الديانة صلاة القلب

مترجمة من كتاب فلسفة الدين للفيلسوف أجوست سباتييه
أستاذ الفلسفة بجامعة باريس (١)

« إننا نستطيع الآن أن نستخلص أصل الدين وأن نضع له تعريفا . فهو صلة وعلاقة معروفة ومرادة ، تنشئها الروح المكروبة بينها وبين القدرة الخفية التي تشعر هي أنها تابعة لها ، وأن مقدورانها تحت مشيئتها . فالصلاة هي الدين في حالة العمل ، أي هي الدين الحق . فالصلاة هي التي تميز الظاهرة الدينية من كل الظواهر التي تشبهها أو تجاورها ، كالشعور بالأدب ، والشعور بالجمال . فاذا كان الدين حاجة عملية للانسان فتوفيتها لا تكون إلا عملية كذلك . فأية نظرية لا تكون كافية في هـذا الموطن . لأن الدين لا يكون شيئا يعتد به إذا لم يكن عملا حيويا بواسطته تحاول النفس أن تنجو من الهلاك بالتجائها الى أصلها الذي تنزلت منه . وهذا العمل هو الصـلاة . وهي كما أعنيها ليست التلفظ بكلمات ، أو ترديد عبارات ، ولـكنها الحركة التي تقوم بها النفس لتضع نفسها في علاقة شخصية ، واتصال مباشر بالقدرة الخفية التي يحس الانسان بوجودها حتى قبل أن يستطيع أن يطلق عليها اسما . فحيث لا توجد هذه الصلاة الباطنية فلا يكون هناك دين . وعلى العكس حيث تنبع هذه الصلاة وتحرك الروح حتى في غيبة أي شكل من الأشكال وأي مذهب مقرر ، فهناك دين حي بمعناه الصحيح . وبناء على هذا فإن إيراد تاريخ الصلاة يعتبر أحسن تاريخ لتولد الدين في النفس الانسانية . وقد رأيت أن هذا التاريخ قد بدأ بالصلاة في أخشن أشكالها ، وانتهى بالصلاة على أكمل حالاتها على شفتي عيسى ، وهي لم تكن تعنى إلا الخضوع لله والثقة بارادته الابوية (ينطبق هذا الـكلام على قوله تعالى : « ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن ») .

« لهذا التعريف التعييني للدين مزية إصلاح تعريف (شلاير ماكر (٢)) وتكميله . لأنه يوفق بين العنصرين المتضادين اللذين يؤلفان العاطفة الدينية ، وهما العنصر المنفعل والعنصر الفاعل ، أي الشعور بالتبعية والشعور بالحـرية . فالصلاة بنبوعها من شعورنا بالفاقة والقهر تخلصنا

(١) راجع ما ترجم من كتابه بالصفحات من ٣٧٦ الى ٣٧٩ ومن ٤٠٤ الى ٤٠٧ من هذا المجلد.
(٢) (Scheiemacher) شلاير ماكر : فيلسوف ألماني مشهور (١٧٦٨ — ١٨٣٤) .

منهما لأنها تقتضى الخضوع والإيمان . فاما الخضوع فهو يجعلنا نسلم بتبعيتنا ونرضى بها ، وأما الايمان فيحول تبعيتنا الى حرية . ومن ناحية أخرى فان هذين العنصرين يقابلان قطبي الحياة الدينية ، لأن الانسان فى كل تقوى حقيقية يسجد أمام القدرة العليا التى تحيط به ، ثم ينهض حاصلا على شعور بالخلاص من الأسر ، وبالوفاق مع الله جل وعز . ولكن (شلاير ماكر) قد أخطأ بعدم اعتماده إلا على ناحية التسليم فحسب . ولم يستطع بعد ذلك أن يخلص من مذهب وحدة الوجود ليصل الى باحة الحرية ، ولا أن يجد أى ارتباط بين الحياة الدينية والحياة الأدبية . وعلى هذا فالدين عمل حر بقدر ما هو شعور بالتبعية . وهذه طبيعة الصلاة وخاصتها فى تحويلها كل شيء عن حالته . فالشعور الساحق الذى كان اعترانى عقب هزيمتى ، انقلب شعورا بالفرح لانتصارى . وكل حالة من الحالات تستحيل الى ضدها ، بحيث إن الانسان المتدين يعيش فى طاعة حرة ، وفى حرية طائعة ، فى وقت واحد .

« فاذا كان الدين فى أكثر الأحيان قد استعمل قوة للقهر ، وأداة للاستعباد ، فقد كان أيضا فى أكثر الأحيان على الأقل أصلا لجميع الحريات . فالقوة التى تستطيع أن تثنينى هى نفسها تستطيع أن تقيمنى ، لأنها تمر بروحى . والإله الذى أعبده سيصير لى فى النهاية الإلهَ الباطنى الذى يدفع عنى كل مخافة ، ويضعنى فوق جميع التهديدات المادية . فتحقيق وجود الله فى روحى على علم منى بذلك ، هو الخلاص المحقق لذاتى ولحياتى .

« لقد عرفت الآن لماذا الديانة الطبيعية تقصر عن أن تكون ديانة . ذلك لأنها تحرم الانسان من الصلاة ، فتدع الله والانسان بعيدين أحدهما عن الآخر ؛ فلا تكون بينهما صلة صميمة ، ولا مخاطبة باطنية ، ولا مبادلة بينهما ، ولا عمل إلهى فى الانسان ، ولا رجوع من الانسان الى الله . وإذا تعمقت فى جوهر هذه الديانة وجدتها جزءا من الفلسفة ، ولدت على عهد سلطان المذهب العقلى (الراسيوناليسم) (١) ، والعمل النقدى ، والتعقل الشخصى ، فهى تجريد فلسفى ، ولم تكن شيئا أكثر من هذا . وأصولها الثلاثة وهى وجود الله ، وخلود الروح ، وأداء الواجب ، ليست إلا مواد ثُفلية لا روح فيها ، بقيت فى قاع البوتقة التى ذابت فيها جميع الديانات المادية . فهذه الديانة التى تزعم أنها طبيعية لم يصادفها أحد فى الطبيعة ، ومعنى هذا أنها لا طبيعية ولا دينية . ولما كانت صناعية وميتة ، فلم تكد تترك شيئا يلحظ فيه أنه من الخصائص الدينية . وقد ظهر فى زمن من الأزمان أن من مزاياها مناعتها ضد النقد العلمى ، ولكن بامتحانها ظهر أنها أقل مقاومة للنقد العلمى من أى دين آخر . والعلة التى أوجدتها هى التى تتولى الآن هدمها ، وأصولها قد أصبحت اليوم أشد تعرضا لخطر الدحض أمام الفكر الراهن ، من أصول الأديان التى كانت ترجو أن تحل محلها .

(١) الراسيوناليسم Rationalisme مذهب فلسفى ينكر الوحى ، ويدعى تعليل كل شيء بالعقل ، وأن الآراء تتولد من العقل مباشرة لا من التجربة .

نتيجة ما تقدم :

« علام كنا نبحث عندما بدأنا هذه الأفكار ؟ كنا نريد من هذا البحث أن نفهم الضرورة التى تولد الدين فى قلب الانسان ، وتطبع ألفاظ الصلاة على شفتيه . يلوح لى أن الضرورة فى تلك الساعة تصير أظهر ما تكون لضميرى ، وعلى حال لا يمكن دفعها . لأنى أشعر أنها تأتى من مصدر أبعد من نفسى ، ومن ثقافة أعلى من ثقافتى ، ومن عادة أرفع من عاداتى وعادات أسلافى . فلأجل اكتشاف أصلها وجب علينا الصعود الى مصدر الحياة العقلية ، والوصول الى ذلك التضاد الأساسى الذى تتألف منه وتنمو فيه ولا يلبث حتى يزول : فالديانة هى الصلاة الباطنية والخلاص . وهى من لوازم الإنسان الى حد أنه لا يستطيع أن يقتلعها من قلبه ، إلا إذا حكم على نفسه أن ينفصل عن نفسه ، وأن يلاشى فى ذاته كل خصائص الانسانية .

« هنا قد يعترض علينا معترض فيقول : إذا كان الأمر كما تقولون فكيف يوجد هذا العدد الكبير من رجال غير متدينين وملحدين ؟

« ونحن نجيبه بقولنا : أليس من الوهم أن نظن وجود عدد كبير من الناس غير متدينين وملحدين ؟ إن الناس ليخلطون ، وخاصة فى بلادنا ، بين المجافاة الظاهرة لصورة من صور الدين ، أو لعقيدة من عقائده ، أو لمذهب من مذاهبه ، أو لتقليد من تقاليده ، وبين الإلحاد واللادينية ؛ وهذا خطأ كبير . فكم رجل من هؤلاء الثائرين لا يتبع دينا من الأديان تديناً ، بل منهم من قطعوا علائقهم بالصور الدينية العامية ، عندما أحسوا بيقظة روح دينية فى نفوسهم أعلى وأكثر تجردا عن المصالح المادية من الأديان الموجودة بين أيديهم . وبمحادثاتى الى عدد من هذه الأرواح التى يقال عنها إنها مجردة من العقيدة ، وقد يخيل إليها هى أيضا أنها غير متدينة ، وجدتُ دائما أن الناس لا يعتدون من هؤلاء إلا بما ينكرون بدون نظر الى ما يثبتونه . فالرجل الذى يعلن بأنه كافر ، هو فى الحقيقة ليس بكافر إلا بالإله الذى يعتقد به غيره . فهو ينكر إله قسيسه أو كاهنه ، وإله طفولته أو إله جيرانه ؛ ولكن تأمله جيدا تجد أن له إلها لا تدركه الأبصار فى صميم روحه ، يعبده باسم خاص به ، ويجود بنفسه كل يوم فى سبيله . وإذا لم يكن هذا الإله عاليا ، كان وا أسفا إلها منحطا غليظا . فيستحيل على الانسان أن يعيش بدون أن يخرج عن نفسه ، وأن لا يهبها لشىء من الأشياء . وليس شىء أكثر محالا من اعتبار أن هناك تعارضا بين الاعتقاد بإله لا تدركه الأبصار ، حاضر وفعال على الدوام ، وبين الحياة العليا للعقل الذى بعمله القوى فى الخفاء يوجد العقيدة بالله فينا . فيأيها العدل ويأيتها الرحمة التى تخدمهما وتسعى لتحقيقهما جميع الأرواح الخيرة ، ويأيتها الحقيقة التى يبحث عنها الفلاسفة والعلماء ، ويأيها الجمال الجذاب الذى يتراءى لنا ثم يفر على الدوام ، ويتعقبه ... الفنانون : ماذا أنتن جميعا إذا لم تكونى وجوها متعددة لهذا الهيكل الباطن القائم

فى صميم كل ضمير إنسانى ، الهيكل الذى يتوجه به كل إنسان الى الإله الذى ليس له اسم ، مهديا إليه أحسن ما لديه من روحه ومن حياته !

لا يوجد فى الواقع إلا صنف واحد من الناس يمكن أن يوصف بالكافر وبالملحد : ذلك هو الصنف الفَسْل (١) الذى يتخذ من فَسُولته سلاحا وستارا فى آن واحد لحياة قوامها الأثرة الوحشية المتغشمرة . إذاً لا توجد لا دينية حقيقية إلا تلك الحالة النفسية القاحلة المحرقة التى يتولد منها على الدوام السخَر والازدراء ، ذلك المذهب الذى يهزأ أصحابه بكل شىء ويزدرونه ، وهو المذهب الذى سماه (جول لومتر) بالاستهزائية . وفى هذا أىُّ تأكيد مؤثر لجميع ما قلناه ! فصحيح إذن أن من يهزأ بالعقيدة فى الله يجب أن يبدأ بالاستهزاء بنفسه ! وصحيح أيضا أن فى العيش مع الأثرة والمادية ، لا يمكن أن يوجد سبب كاف للاستمرار فى الحياة . وصحيح كذلك أنه لأجل بقاء الشخصية وعدم انطفائها فى الظلام الدامس ، يجب أن يتضاعف الشعور بالذات فى باطن الشخصية ، أريد بذلك أن أقول : يجب أن يتضاعف بالشعور بوجود الله .

« إذا كان الأمر كذلك فانى لا أتردد فى القول بأنى لا أريد أن أعتزل العالم فى فكرة خالصة من جميع العلاقات وجميع الواجبات ، فان تكافلا أخويا ارتبطنى قبل أن أوجد على هذه الأرض . فأنا واحد من أفراد القافلة الانسانية ، ولن أنفصل عنها ، وسأسير فى طريقها ، وسأشاطرها آلامها وآمالها ، وسأقول لها : « إن إلهك هو إلهى ، وإيمانك هو إيمانى » ؛ وسأجتاز مع هذه السيارة الكبيرة المسكينة (٢) الصحارى والقفار ، وإن لزم أن أكون ضحية السراب الذى يخادعها ، فسأتجه معها نحو الأفق الذى يتألق فيه ذلك الكوكب العجيب الذى يهديها ويجتذبها . جملة القول : أنى متدين لأنى إنسان ولا أستطيع أن أفر من الانسانية » ؟

رأينا فى هذا البحث الخطير

عربنا هذا البحث الفلسفى الخطير للاستاذ الكبير (اجوست سباتييه) مدرس الفلسفة فى جامعة باريز ، وهو كما رأى القراء يرمى الى إثبات أن الدين فطرى فى النفس البشرية ، وأنها لا معدى لها عنه ، وأن الانسانية لا يكون لها معنى إذا تجردت منه . وهذا يوافق ما قرره الاسلام من كل وجه . ولا يخفى ما لمثل هذا البحث من الأثر فى تأييد دين الفطرة فى هذا العهد الذى امتلأت فيه الصدور بالشكوك ، وطمت الشبهات حتى أخذت بِمُخَنَّق العقول (٣) .

---

(١) الفسل : الرجل الرذل الذى لا مروءة له ولا جلد . وفعله : فسل يفسل فسالة وفسولة، على وزان كرم .

(٢) السيارة : القافلة ،وأصلها القوم يسيرون. قال الله تعالى: « يلتقطه بعض السيارة » أى بعض الذين يسيرون.

(٣) المخنق : موضع حبل الخنق من العنق .

وقد حرصنا على توفية مبدأ الترجمة الحرفية حقه، رغما عما فى البحث من تسامح فى التعبير ألفته الفلسفة الغربية وجرت عليه، وهو ديدننا فى كل ما ننقله عن الفرنجة، ليتبين منه رأيهم الصحيح، ويتضح مرمى ما يكتبون.

وهنا يحسن أن ننبه القارئ الى أن كتاب الأستاذ اجوست سباتييه واحـد من بضعة مؤلفات قال عنها النقاد إنه يرجع إليها الفضل فى إيقاظ العاطفة الدينية فى القرن العشرين.

على أنى ألاحظ على الأستاذ المؤلف إسرافه فى تقدير عدد المتدينين، وفى الخلط بين الإله الحق وإله الهوى الذى يخضع له الأكثرون، ولـكنهم لا يعتبرونه إلها. فمثل هـذا الإطلاق لو سمح به فى الشعر فلا يسمح به فى تحقيق فلسفى عميق كالذى نحن بصدده.

يقول الأستاذ سباتييه: إن من الوهم أن نظن أنه يوجد عدد كبير من الناس غير متدينين وملحدون، ويضرب لنا مثلا بمن يكفرون باله طفولتهم أو إله جيرانهم، ولهم إله لا تدركه الأبصار فى صميم أرواحهم يجودون بأنفسهم فى سبيله.

هذا حسن ولا نجادل فيه، وفى رأينا أن هؤلاء أفذاذ فيمن يصرحون بأنهم لا دينيون، ولـكن أكثرهم لا يعلنون سريرتهم ويبقون معدودين من الملل التى نشأوا فيها، مكتفين بالترفع عما وقع فيه العامة من التجسيد والتشبيه، وعازيه الى جهلهم وعاميتهم، ومتربصين بحيدانهم عن القصد أن يزول عندما ينتشر فيهم العلم، وتنير بصائرهم الفلسفة.

أما الذين اتخذوا لهم إلها منحطا غليظا، فلا يصح أن يوصفوا بالتدين، لأنهم يعرفون جيدا أن هـذا الاله المنحط الغليظ هو هواهم، فاذا كانوا وهبوه أنفسهم فهم يعترفون بأن ذلك سيوصلهم الى سوء المنقلب. وهذه الحالة ليست من التدين فى شىء، ولا تؤدى الى ما يؤدى إليه الإخبات والخشوع، والشعور بالتبعية لقيوم السموات والأرض.

وقول الأستاذ: «لا يوجد فى الحقيقة إلا صنف واحد من الناس يمكن أن يوصف بالـكافر وبالملحد، هو الصنف الفسل الذى يتخذ من فسولته سلاحا وستارا فى آن واحد لحياة قوامها الأثرة الوحشية المنغشمرة»، فهو صحيح، ولـكنى أخالف الأستاذ فى ذهابه الى أنه قليـل العدد. نعم، إنه كان كذلك فى القرون الماضية، أيام كان للدين السلطان المطلق على القلوب والعقول، أى الى ما قبل نحو ثلاثة قرون، ولـكنه بعـد ذلك بدأ يكثر تحت قيادة علماء حاكموا المعتقدات الى المقررات العلمية، وأثبتوا مجافاتها لها من كل وجه، ونشروا ما كتبوه بين العامة، فأنـكروه أولا ونفروا منه، ثم ألفوه وأساغوه، ثم هاموا به وتدلهوا فيه، حتى أصبح اليوم دين أكثر المتمدنين. فاذا كنا نبحث عن التدين الآن، فنحن نعمد الى كبار العقول أمثال اجوست سباتييه من أقطاب المفكرين، لا الى الأوساط الذين تشبعوا بالمبادئ المادية وجمدوا عليها، متابعين فى ذلك ما كتبه خصوم الدين فى القرون الثلاثة الأخيرة.

ولا أخفى القراء أنى مهما أظهرت إعجابى بالتحليل النفسانى الذى قام به الأستاذ اجوست سباتييه ، وأثبتَ به أن التدين هو معنى الانسانية ولا إنسانية بدونه ، فانى لا أزال أرى أن قضية الدين تحتاج لشاهد من العلم نفسه ، يأبى النفوس من ناحية الدستور الذى سنه وأصبح العمل به ضربة لا زب على العقول .

ذلك أن العلم قد غرس فى النفسية البشرية فى العهد الحديث ، أن كل معقول لا يؤيده دليل محسوس ، لا يمكن أن يؤدى الى اليقين الذى تثلج عليه الصدور ، وتطمئن اليه القلوب . فمهما تأدى الانسان بواسطة التحليلات المدققة الى نتائج ، فانها لا تخرج عن كونها من المعقولات التى يعوزها الدليل المحسوس . ولا يخفى أن العقيدة لا تبلغ درجة التأثير العملى إلا إذا وصلت الى درجة اليقين ، وأين هى فى هذه الحالة النفسية للمعاصرين ، الذين يتطلبون الدليل المحسوس ، ولا شئ غير الدليل المحسوس ؟ فالتدين فى هذا العهد يحتاج الى هذا الدليل المحسوس .

ليس الحصول على الدليل المحسوس فى الشئون الاعتقادية فى هـذا العصر من الصعوبة فى الدرجة التى يتوهمها الأكثرون ، فيكفى فيها هدم عقيدة سلبية أقامتها الفلسفة المادية من طريق الآراء العلمية ، لا من طريق الأدلة الحسية ، واكتسبت بالجرى عليها صفة المقررات اليقينية وما هى منها فى شىء .

هذه العقيدة السلبية هى أن الوجود ينحصر فيما تدركه الحواس الانسانية ، ولا شىء فوقه أو وراءه يدبره ويتحكم فيه ، فهو قديم بمادته وقواه ، وقائم بنفسه لا يحتاج لسواه ، وأن كل ما يقال عن خضوعه لقوى أرفع منه ، وعن تخلف نواميسه بعوامل غير طبيعية ، فهُراء لا يجوز الالتفات إليه .

يتنزل من هـذه العقيدة أصول تناسبها ، وهو أن لا روح مستقلة للانسان ، ولا بقاء له بعد هذه الحياة فى عالم أرفع من هـذا العالم ، وأن الفضيلة والرذيلة أمران اعتباريان ، وأن الحياة البشرية قائمة على ما تقوم عليه الحياة الحيوانية من الصيال والنضال ، وأن المثل الأعلى للانسان أن يصل الى درجة السوبرمان ، أى الانسان الحاصل على أقصى ما يمكن الوصول اليه من الكمال ، الكمال المقرر عند الماديين ، وهو بلوغ قواه البدنية ، وخصائصه العقلية ، وإرادته الشخصية ، الى أعلى ما يمكن أن تصل اليه على مقتضى الاعتبارات المادية ، لا الاعتبارات الروحية ، التى هى فى نظرهم من بقايا الأوهام الجاهلية .

فهذه العقيدة السلبية التى أقامت صرحها الفلسفة المادية ، وأحكمت بناءها فى مدى الثلاثة القرون الأخيرة ، قد صادفت فى هذا العهد الأخير من الاستكشافات العلمية ما هدمها من أعمق قواعدها ، بل ما نسفها نسفا وذراها فى الهواء . ونصب مكانها عَلَم التعاليم الروحية مؤيدا بأقوى الأدلة الحسية ، على ما تحب الفلسفة العملية ، ويتطلبه أهـل العصر الراهن من الحجج المادية .

فى رأيى أن تنبيه الغريزة الدينية فى هذا العصر يقتضى أولاً تحطيم هذه البَنِيَّة الإلحادية فى عقول الناس ، فقد أوت منها على درجات شتى فى الصميم ، باعتبار أنها مصاصة التفكير الحديث الخالص من سلطان القديم . ولا يكفى فى تخليص الفطرة الانسانية من ظلمات هذه المادية ما يُفصله الأستاذ أجوست سباتييه من التضاد بين الشعور الباطنى للانسان ، وما عليه الوجود الخارجى من عدم المبالاة به . فاننا نشاهد اليوم أن هذا الشعور بالتضاد وبفداحة تكاليف الحياة قد زادت الماديين مضيا فى إلحادهم ، بل اتخذوا من شدة وطأة هذه التكاليف دليلا محسوسا على نفى العناية الإلهية التى يدين بها المؤمنون . وكانت النتيجة الطبيعية لهذا الشعور أن جدوا على ما هم عليه ، ونشطوا لنشر آرائهم على صور شتى ، بثوا فيها من سموم الإلحاد ما قَدَر سحر البيان عليه .

فالدواء كل الدواء فى نظرى ، هو هدم تلك العقيدة الإلحادية الثاوية فى أعمق ثنايا الصدور ، وهدمها لا يحتاج الى جهد عنيف ، فإن حوادث خارقة للنواميس طرأت منذ نحو تسعين سنة ، اضطرت أعلى علماء الكون عقولا أن يبحثوا فى علة حدوثها ، فعثروا على حدود العالم الروحانى الذى طالما كذَّب به الماديون ، وبنوا على تكذيبهم به كل ما أسسوه من النظريات المادية ، ونمقوه من البحوث الإلحادية .

وفى رأيى أن تدريس هذه البحوث يجب أن يبدأ به فى المدارس الدينية ، فان ما ثبت علميا اليوم من هذه الدراسات الروحية هو من أقوى أسلحتها فى محاربة المادية . ولا يحط ذلك من قدر هذه المدارس بعد أن اعترف بها العلم الرسمى نفسه . فقد قررت جامعات امريكية تدريس هذه البحوث منذ بضع سنين ، وقررت جامعة كامبردج الانجليزية ، وهى من أشهر الجامعات العالمية ، تدريسها فى شهر مايو من هذه السنة (١٩٤٠) ، وستبتدأ الدراسة فيها فى اكتوبر المقبل . وهذا فتح دينى خطير لم يسجل تاريخ البشرية له ضريبا . وقد أعلناه لقراء العربية فى جريدة الأهرام فى شهر يونيو الماضى .

وقد نشرت الجرائد الانجليزية هذا الخبر ، وعززته المجلة الروحية (La Revue Spirite) فقالت عنه فى عدد شهر مايو من هذه السنة : « فتح جديد قد كسبناه » بعد تمهيد :

« مما يجب أن يسجل هنا عما حدث فى جامعة كامبردج ، هو أننا لمحنا فيه أن العلم الوضعى قد خطا خطوة جديدة ودخل الى مجال سبق لعلماء ممتازين أن درسوه ومحصوه . ومما يجب تكراره فى كل مناسبة أن اليوم الذى يعترف فيه العلم بالعالم الروحانى ، يخطو فيه بالانسانية الى درجة من الرقى لا يتصورها العقل الآن . . . ونحن فى فرحنا لما حدث ، وأملنا العظيم فيه ، نبعث بأفكارنا المشجعة الى الذين قاموا بوضع هذا الكرسى الجديد للدراسة الروحية بجامعة كامبردج » .

العقبات التي تحول دون تدريس هذا العلم بالمدارس الدينية :

لما ظهرت هذه البحوث فى أمريكا سنة (١٨٤٧) أولاً ، ثم انتقلت الى انجلترة وفرنسا وألمانيا وإيطاليا وغيرها ، تولاها بالبحث علماء أعلام ، وقرروا أنهم حيال عالم روحانى حافل بالمدهشات تجب دراسته بصبر وتثبت عظيمين ، وغَلَ فيه (١) عدد لا يحصى من خفاف العقول ، وأخذوا يجربون فيه تجارب للحصول على أنباء شخصية ، وليس لهم من صفة التمحيص العلمى ، والتثبت العقلى ، ما يقيهم المزالّ (٢) ، فأساءوا الى سمعة هذه المباحث الخطيرة أيما إساءة ، فتخيلها البعيدون عنها أن الغرض منها استحضار الأرواح وسؤالها عن توافه الأمور . هنا كان المجال فسيحا أمام المشعوذين والممخرقين ، الذين يستغلون سرعة تصديق الناس ، فكانوا عقبة كأداء أمام تقدم البحوث العلمية فى هذه السبيل .

ولكن العلماء دأبوا على ما هم فيه بصرف النظر عن كل ما حدث حولهم ، وأجروا تجاربهم فى بيوتهم الخاصة وجامعاتهم ومعاملهم ، فتأدوا الى اكتشافات بعيدة فى عالم الروح يجب أن تضاف لحساب الدين ليستغلها المشتغلون بنشره بالأدلة المحسوسة .

هذه العقبات قد ذللت الآن بكثرة عدد العلماء الذين ألفوا فيه ، وبكثرة جمعياتهم التى قصروها على أنفسهم ، وبتقرير عدة جامعات لتدريس هذه البحوث وزيادة مادتها ، وفى مقدمتها جامعة كامبردج كما رأيت .

فالطريق إذن قد أصبحت ممهدة أمام المجددين .

محمد فريد وجدى

(١) وغل يغل وغلا على وزن ضرب : دخل متطفلا

(٢) المزال : جمع المزلة وهو المكان الذى يزل فيه . وأصل الزلل السقوط .

الكلام والصمت

قال على كرم الله وجهه : بكثرة الصمت تكون الهيبة .

وروى أن قوما تحدثوا عند الأوزاعى العالم المشهور وفيهم أعرابى لم يتكلم ، فقال له بعضهم : لم لم تتكلم ؟ فقال : إن الحظ للسامع فى أذنه ، وإن الحظ فى لسانه لغيره . يريد أن من يستمع لغيره يحظى بما يسمعه ، ولا حظ لمن يتكلم إذ ينتقل لسامعه .

وقال الامام النَّخَعى : كانوا يتعلمون السكوت كما يتعلمون الكلام .

هذا كلام ثمين ، فان من يعرف كيف يتكلم يجب أن يعرف كيف يسكت ، فقد يضيع المحسن بتوسعه فى الكلام ، ما يكسبه من إحسانه فيما هو بسبيله .

الكلام والمتكلمون

— ٨ —

الامام الغـــــزالى

تتمة الحديث عن نضاله مع الفلاسفة :

هاجم الغزالى الفلاسفة مهاجمة عنيفة فى كتابيه : « المنقذ من الضلال » ، و « تهافت الفلاسفة » . وقد قسمهم فى الأول الى ثلاثة أقسام :

القسم الأول الدهريون ، وهم عنده طائفة من الأقدمين جحدوا الصانع المدبر ، العالم القادر ، وزعموا أن العالم لم يزل موجودا كذلك بنفسه لا بصانع ، ولم يزل الحيوان من نطفة ، والنطفة من حيوان ، كذلك كان وكذلك يكون أبدا . وهؤلاء هم الزنادقة .

والقسم الثانى الطبيعيون ، وهم فى رأيه قوم أكثروا بحثهم عن عالم الطبيعة وعن عجائب الحيوانات والنبات ، وأكثروا الخوض فى علم تشريح أعضاء الحيوانات ، فرأوا فيها من عجائب صنع الله وبدائع حكمته ما اضطروا معه الى الاعتراف بقادر حكيم ، مطلع على غايات الأمور ومقاصدها . ولا يطالع التشريح وعجائب منافع الأعضاء مطالع إلا ويحصل له هذا العلم الضرورى بكمال تدبير البانى لبنية الحيوان ، لا سيما بنية الانسان ، إلا أن هؤلاء لكثرة بحثهم عن الطبيعة ظهر عندهم لاعتدال المزاج تأثير عظيم فى قوام قوى الحيوان به ، فظنوا أن القوة العاقلة من الانسان تابعة لمزاجه أيضا ، وأنها تبطل ببطلان مزاجه فينعدم ، ثم إذا انعدم فلا يعقل إعادة المعدوم كما زعموا ، فذهبوا الى أن النفس تموت ولا تعود ، فجحدوا الآخرة ، وأنكروا الجنة والنار ، والقيامة والحساب ، فلم يبق عندهم للطاعة ثواب ، ولا للمعصية عقاب ، فانحل عنهم اللجام ، وانهمكوا فى الشهوات انهماك الأنعام . وهؤلاء أيضا زنادقة ، لأن أصل الإيمان هو الإيمان بالله وبالرسول واليوم الآخر . وهؤلاء جحدوا اليوم الآخر وإن آمنوا بالله تعالى وبصفاته .

والقسم الثالث الإلهيون ، وهم فى نظره المتأخرون منهم ، مثل : سقراط ، وهو أستاذ أفلاطون ، وأفلاطون هو أستاذ أرسطاليس ، وأرسطاليس هو الذى رتب لهم المنطق ، وهذب العلوم ، وخمّر لهم ما لم يكن مخمرا من قبل ، وأنضج لهم ما كان فجًّا من علومهم ، وهم بجملتهم ردوا على المصنفين الأولين من الدهرية والطبيعية ، وأوردوا فى الكشف عن فضائحهم ما أغنوا به غيرهم ، (وكفى الله المؤمنين القتال) بتقاتلهم ؛ ثم رد أرسطاليس

على أفلاطون وسقراط ومن كان قبلهم من الإلهيين ردا لم يقصر فيه حتى تبرأ عن جميعهم ، إلا أنه استبقى أيضا من رذائل كفرهم بقايا لم يوفق للنزاع منها ، فوجب تكفيره وتكفير متبعيه من متفلسفة الاسلاميين كابن سينا والفارابى وأمثالهما . على أنه لم يقم بنقل علم أرسطاليس أحد من المتفلسفة الاسلاميين كقيام هذين الرجلين ، وما نقله غيرهما ليس يخلو من تخبيط وتخليط يتشوش فيه قلب المطالع حتى لا يفهم ، وما لا يفهم كيف يرد أو يقبل (١) .

وأهم ما يلفت النظر فى هذه النصوص ، هو أن الغزالى وفق الى مالم يوفق إليه الفارابى من معرفة الفرق بين فلسفتى أفلاطون وأرسطو ، ومن الإيقان بأنهما كانا خصمين فى مذهبيهما ، وأنه قد وقع بينهما نضال فى أصول المذهبين ، على عكس ما تصور الفارابى من أن الفلسفتين متفقتان فوضع كتابه « الجمع بين فلسفتى الحكيمين : أفلاطون وأرسطو » . ولعل السبب فى تخلص الغزالى من هذه الخدعة هو أن التقريب الذى اصطنعه أتباع « الأفلاطونية الحديثة » بين هذين الفيلسوفين لم يصح عنده ، فصرح بأن خصومة قامت بينهما ؛ ولكن ينبغى أن نعلن أيضا أن أبا حامد قد أساء فهم سقراط وأفلاطون كل الإساءة ، بل إن انخداعه فى مذهبيهما أكثر خطورة من انخداع الفارابى فى مذهب أرسطو ، لأن سقراط لم يأخذ عليه الى الآن أحد من مؤرخى الفلسفة المحترمين أية هفوة فى آرائه عن الألوهية وخلود النفس والحياة الأخرى . وكذلك أفلاطون — إذا استثنينا مسألة التناسخ — لم يؤخذ عليه شىء فى مذهبه الإلهى ، على عكس أرسطو الذى شهدت كتبه الحقيقية بقوله الذى لا شك فيه بأن العالم لا صانع له ، وبأن الإله لم يزد على كونه أول المحركات ، وبأنه لا يعلم شيئا عن العالم مطلقا ، وبأن النفس لا تحيا ألبتة حياة شخصية ، وبأن القول بشعورها أو تعقلها أو حياتها بعيدةً عن الجسم ضرب من الخيال العابث ، الى آخر ما قرره فى كتبه ورد عليه فيه تلاميذه ومعاصروه وزعماء الأفلاطونية الحديثة .

أما طريقته فى كتاب « التهافت » فهى تختلف كثيرا عن طريقته فى « المنقذ » ، إذ أنه فى هذا الأخير يعرض للمذاهب عرضا موجزا سطحيا لا يروى ظمأ ولا ينقع غلة ، بينما هو يتناول فى « التهافت » النظريات التى هى فى رأيه خاطئة ، فيبسطها بفصاحة ولباقة قل أن يوفق الى مثلهما صاحب النظرية نفسه ، ثم يسرد براهينها فى وضوح وجلاء ؛ فاذا انتهى من كل هذا ووضع النظرية موضع الملموسات ، أخذ يوجه الى صميمها من سهام النقد ما يهدم به حججها أو يضعفها على أقل تقدير . وبهذا يتم له ما يريد من إبطالها ، أو من نزع الثقة فيها . ويعلق الأستاذ « كرّادى فو » على هذه الطريقة بما يفيد أن الغزالى قد بسط بعض نظريات ابن سينا بسطا لم يقم به مؤلفها نفسه ، وبأنه إذا تعقب كتب الشيخ الرئيس لم يجد فيها أكثر من عناصر

(١) انظر صفحتى ١٠ و ١١ من كتاب « المنقذ من الضلال » للغزالى .

أولية لكثير من هذه النظريات التى بسطها الغزالى فى كتبه ونسبها الى صاحبها بعد أن وضحها فى شىء من الدقة . ومن العجيب أن ابن رشد قد طعن عليه فى هذا المنهج ، ورماه بأنه لم يحسن بسط هذه النظريات ، وبأن السبب فى عدم هذا الإحسان إما أن يكون الجهل أو عدم النزاهة . ولعل فى نقد ابن رشد شيئا من التحامل .

هاجم أبو حامد الفلاسفة فى عشرين مسألة ، منها ست عشرة فيما وراء الطبيعة ، وأربع فى الطبيعة ، وهى تتلخص فيما يلى :

(١) قولهم بقدم العالم . (٢) قولهم بأبدية العالم والزمان والحركة . (٣) تضليلهم فى قولهم بأن الله فاعل العالم وصانعه . (٤) عجزهم عن الاستدلال على وجود الصانع للعالم . (٥) عجزهم عن إقامة الدليل على أن الله واحد . (٦) اتفاقهم على استحالة إثبات العلم والقدرة والارادة للمبدأ الأول . (٧) قولهم بأن الأول لا يجوز أن يشارك غيره بجنس ويفارقه بفصل . (٨) قولهم : إن وجود الأول بسيط . (٩) عجزهم عن إقامة الدليل على أن الأول ليس بجسم . (١٠) عجزهم عن إقامة الدليل على أن للأول مبدأ وعلة . (١١) عجز من يرى منهم أن الأول يعلم غيره ويعلم الأنواع والأجناس بنوع كلى عن إثبات ما يرى . (١٢) عجزهم عن إقامة الدليل على أن البارى يعلم ذاته . (١٣) قولهم بأن الله لا يعلم الجزئيات . (١٤) قولهم : إن الأفلاك حيوانات مطيعة لله تعالى بحركاتها الدورية . (١٥) قولهم بأن للأفلاك قوى تحركها ، وغايات تتجه اليها . (١٦) قولهم بأن النفوس الفلكية مطلعة على جميع الجزئيات الحادثة فى هذا العالم . (١٧) قولهم بضرورة اقتران المسببات بالأسباب . (١٨) عجزهم عن إقامة البرهان العقلى على أن نفس الانسان جوهر روحانى قائم بنفسه . (١٩) قولهم بأن النفس الانسانية يستحيل عليها العدم بعد وجودها وأنها سرمدية . (٢٠) إنكارهم لبعث الأجساد .

على أن الباحث إذا نظر فى أصول هذه المسائل العشرين ، وفى الموضوعات التى تعالجها ، استطاع أن يضغطها فيحولها — كما فعل « البارون كارادى فو » — الى بضع مسائل ، مثل : (أ) أزلية العالم وأبديته . (ب) علم الله بالجزئيات ، وهى تتناول بالمجاورة مسألة الصفات . (ج) مسألة الأفلاك ، وهى قليلة الأهمية . (د) النفس البشرية وكل ما يتعلق بها . (هـ) نظرية الأسباب والمسببات .

فأما النظرية الأولى ، وهى نظرية أزلية العالم ، فقد وردت كما ورد غيرها من النظريات فى كتب فلاسفة المسلمين صريحة واضحة ، كما يتبين ذلك من كتب الفارابى وابن سينا وابن رشد .

ومن أقوى الأدلة التى ساقها الفلاسفة ، وأكثرها أثرا فى الحياة العقلية ، لا فى الشرق وحده ، بل فى أوروبا فى القرون الوسطى ، هو قول ابن سينا لخصومه القائلين بحدوث العالم ما معناه : إن كنتم تقولون بحدوث العالم ، فإنكم لا شك تعترفون بأن كل حادث كان قبل

حدوثه ممكنا . ولما كان الامكان صفة وجودية ، ولما كانت الصفة الوجودية لا تقوم بذاتها ، فقد وجب أن يكون هناك موصوف وجودى سابق على هذا الحادث ليقوم به الإمكان ، وهذا الموصوف السابق على الحادث هو الهيولى . وإذاً ، فالهيولى سابقة على كل حادث ممكن .

غير أن الغزالى قد أجاب على هذا الإشكال بأن الإمكان ذهنى لا يحتاج ألبتة الى موجود خارجى يقوم به ، لأن جميع المفاهيم الذهنية كالإمكان والوجوب وما أشبهها أمور اعتبارية لا حقائق خارجية حتى تحتاج الى موجود ثبوتى تقوم به .

وكما أنكر الغزالى سابقية الهيولى على الحوادث الممكنة ، أنكر كذلك كل أزلية عدا أزلية البارى ، ورد على الفلاسفة فيما زعموه من أن هذه الأزلية ضرورة لا محيص عنها لنفى وقوع التغير فى ذات البارى ، أو صيرورتها محلا للمرجح الحادث ، أو انقلاب حقيقة الحادث الى الإمكان بعد الاستحالة ، أو غير ذلك مما يترتب على القول بحدوث العالم ؛ ولكنه قبل أن يرد عليهم أوضح نظريتهم إيضاحا تاما كما هو ديدنه دائما . وقد ورد هذا الإيضاح ومناقشته ببسط واف فى صفحتى ٧ و٨ من كتاب « تهافت الفلاسفة » فارجع اليه إذا شئت .

ومن أبدع ما رد به أبو حامد على الفلاسفة فى نظرية أزلية الزمان ، قوله لهم ما معناه : إنكم صرحتم بأنه لا يوجد وراء هذا العالم لا ملاء ولا خلاء ؛ ولما كان هذا العالم عندكم محدودا ، فقد وجب أن يكون المكان فى رأيكم متناهيا بتناهيه ما دام لا يوجد بعده لا ملاء ولا خلاء . وإذ كان قد ثبت تناهى المكان فلا معنى لأن لا يثبت تناهى الزمان .

ومن هذه الاعتراضات التى ساقها الغزالى الى خصومه ما يأتى :

إنى لا أدرى كيف تقولون بلا نهائية الزمان مع جزمكم بانتهاء الأسباب الى سبب أول تسمونه صانع العالم . فإذا كان الزمان عندكم يتسلسل الى غير النهاية ، فلم لا تتسلسل الأسباب أيضا الى غير نهاية ؟ لا ريب أن الدهريين الذين يقولون بأزلية العالم وينكرون صانعه بتاتا هم أكثر منكم تمشيا مع المنطق ، إذ ما قيمة القول بالصانع لعالم أزلى لم يسبقه عدم ، ولم يتقدمه هذا الصانع إلا تعقلا فقط ؟

ومن المهاجمات رده القيم الذى وجهه الى ابن سينا ، إذ قرر هذا الأخير فى إشاراته أن سلسلة الأسباب العامة ممكنة الوجود ، لأنها مؤلفة من حلقات ممكنة ، والمؤلف من الممكن ممكن . ولهذا كان لا بد من طرف خارج عن هذه السلسلة ، وهو واجب الوجود . فقال له أبو حامد : إنكم لا شك تعترفون بأن اليوم والليلة متناهيان ، ولا تجحدون أن الزمان مكون من الليالى والأيام على نحو ما تكونت سلسلة الأسباب من حلقاتها ؛ فعلى طريقتكم فى التفكير ، كان يلزمكم أن تقولوا : إن المؤلف من المتناهى متناه كما جزمتم بأن المؤلف من الممكن ممكن .

اما مسألة إنكار الفلاسفة على البارى العلم بالجزئيات ، وقول ابن سينا : إنه يعلمها بطريقة

كلية فحسب ، لأن علمه بالأفراد وأعمالهم نقص فى حقه ، إذ الأفراد مشخصة ، والمشخصات لا تكون موضوعا إلا للعلم المؤسس على الحواس ؛ ولما كان علم الله غير مؤسس على الحواس ، فقد تنزه عن الاحاطة بالأفراد المشخصة ؛ وكذلك أعمال الأفراد هى متغيرة متحولة ، وتغير المعلوم يقتضى تغير العلم ، وتغير العلم يقتضى تغير العالم ، والتغير على البارى محال ، فقد وجب أن يتنزه علم البارى عن الجزئيات المتغيرة . وقد آثرنا أن نكتفى فى هذه المسألة بما أسلفناه فيها حين عرضنا لفلسفة ابن سينا فى مقالات سابقة تجنبا للإعادة .

أما مسألة ارتباط الأسباب بالمسببات ، وضرورة وجود الثانية متى وجدت الأولى مستكملة لشروطها ، وعدم وجود المسببات من غير أسباب ، وهى المسألة التى أجمع عليها الفلاسفة ، فقد أنكرها أبو حامد كما أنكرها الأشعرية من قبله ، ورد فيها على الفلاسفة ردودا طويلة جاء فيها أن أولئك الحكماء ليس لهم على صحة دعواهم دليل غير مشاهدة وقوع هذه المسببات ، وهذه المشاهدة تثبت أن المسببات وقعت عند وجود الأسباب ولا تثبت أنها وقعت بها . والفرق بين الحالتين جلى ، لأن الشمس مثلا تلقى أشعتها على وجه القصار وقماشه ، فيسود الأول ويبيض الثانى . وهو يعترض عليهم أيضا بقصة ابراهيم وعدم تأثير النار فى جسمه ، وما شاكل ذلك ؛ ولكن قد فاته فى هذه المسألة أن الفلاسفة يوجبون لتأثير الأسباب فى مسبباتها استكمال الشروط الطبيعية . وعلى هذا يكون اعتراض أبى حامد ضعيفا ، لأن الفلاسفة لا يسلمون بإمكان نجاة ابراهيم من النار إلا بعلل خاضعة للناموس الطبيعى ، كانطفاء النار ، أو انطلاء جسد ابراهيم بما يحفظه منها .

لم تقتصر مهاجمة أبى حامد للفلاسفة على النظريات التى اعتقد بطلانها ، بل هاجمهم فى نظريات هو مؤمن بصحتها ، ولكنه أراد أن يثبت عجزهم عن التدليل على صحة ما يدعون . ومن ذلك مسألة جوهرية النفس البشرية ، فإنه هاجمهم فيها مع إيمانه بصحة آرائهم ، واعترافه بهذا الإيمان فى قوله : « وليس شىء مما ذكروه يجب إنكاره فى الشرع ، فإنها أمور مشاهدة أجرى الله تعالى العادة بها ، وإنما نريد أن نعترض الآن على دعواهم معرفة كون النفس جوهرا قائما بنفسه ببراهين العقل . ولسنا نعترض اعتراض من يبعد ذلك من قدرة الله تعالى ، أو يرى أن الشرع جاء بنقيضه ، بل ربما نبين فى تفصيل الحشر والنشر أن الشرع مصدق له ، ولكننا ننكر دعواهم دلالة مجرد العقل والاستغناء عن الشرع فيه فنطالبهم بالأدلة (١) » .

ومن هذه المسائل التى صادمهم فيها وهو مؤمن بصحتها ، مسائل : وحدة البارى ، وكونه صانع العالم ومنشئه ، وكونه يعلم ذاته ، وكونه ليس بجسم ، وما شاكل ذلك مما لو حاولنا الإتيان عليه لطال بنا البحث .

الدكتور محمد غلاب
أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

---

(١) انظر صفحة ٧١ من كتاب « التهافت » للغزالى .

دراسات في القرآن الكريم

الاصول العامة و المبادىء الشاملة فى كتاب الله

تحويلها الى جزئيات معينة

يقول الله تعالى : « يأيها الذين آمنوا لا تَسألوا عن أشياء إنْ تُبْدَ لكم تَسُؤْكم ، وإن تَسألوا عنها حين ينزَّل القرآن تُبْدَ لكم ، عفا الله عنها ، والله غفور حليم . قد سألها قوم من قبلكم ثم أصبحوا بها كافرين » :

إن مدار المعنى فى هذه الآية وتفهمه فهما صحيحا ، إنما هو على فهم كلمة « أشياء » . وإن المفسرين يحملون هذا اللفظ على أمرين : الأول : التكاليف الشاقة التى لا يطيقونها ؛ والثانى : أمور خفية وحوادث جزئية وقعت بالفعل تتعلق بأشخاص بأعيانهم .

هذا هو ما يحملون عليه الأشياء التى نهت الآية الكريمة عن السؤال عنها ، لما فى إبدائها بسبب السؤال من مَساءة للسائلين . وعلى ذلك يصير المعنى : إن السؤال عن تلك التكاليف الشاقة مستتبع لإيجابها لتجاوز السائلين للاستسلام لما يلقى عليهم من قِبَل الرسول دون بحث فى كيفية أو كمية ، كما أن السؤال عن تلك الأمور الخفية والحوادث الجزئية مستتبع لإبدائها ، وفى إبدائها مساءة وفضيحة .

ثم إنهم يستندون فى الحمل على النوع الأول ، إلى ما روى عن على رضى الله عنه ، أنه قال :

« خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم لحمد الله وأثنى عليه ثم قال : « إن الله كتب عليكم الحج » . فقام رجل فقال : أفى كل عام يا رسول الله ؟ فأعرض عنه حتى أعاد ثلاث مرات ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ويحك ! وما يؤمنك أن أقول : نعم ؟ ولو قلت نعم لوجبت ، ولو وجبت ما استطعتم ، ولو تركتم لكفرتم ، فاتركونى ما تركتكم ، فانما هلك من كان قبلكم بكثرة مسائلهم واختلافهم على أنبيائهم . فاذا أمرتكم بأمر فخذوا منه ما استطعتم ، وإذا نهيتكم عن أمر فاجتنبوه » .

ويستندون فى الحمل على النوع الثانى ، إلى ما روى عن أنس رضى الله عنه : « إن الناس سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أشياء حتى أحفوه فى المسألة ، فقام صلى الله عليه وسلم مغضباً فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : والله ما تسألونى عن شىء فى مقامى هذا إلا بينته لكم !

فكان ممن سألوه رجل من قريش يقال له عبد الله بن حذافة ، فقال : يا نبى الله : من أبى ؟ فقال له صلى الله عليه وسلم : أبوك حذافة . ثم قام آخر فقال : أين أبى ؟ فقال : أبوك فى النار » .

هـذا مجمل ما يذكره المفسرون فى بيان الأشياء المنهىّ عن السؤال عنها . وقد قلنا : إن معنى الآية ينبنى على ما يحمل عليه لفظة أشياء .

وإنا قبل أن نعرض لبيان ما نحن مقتنعون بأنه الصواب فى الآية ، لا بدّ لنا أن نمهد لذلك ببيان ما فى هذا الذى ذكروه من خطأ أو ضعف .

ولنبدأ القول فى النوع الثانى ، وهو الحوادث المعينة الواقعة فعلا لأشخاص معينين ، ككون حذافة أباً لعبد الله ، وككون أبى السائل الآخر فى النار . وإليك البيان :

إن مما لا يصح أن يكون مراداً للقرآن هو أمثال تلك الحوادث الجزئية ؛ وذلك لأن قوله تعالى فى الآية : « وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم » واضح فى أن ما نهوا عن السؤال عنه إنما هو من قبيل ما يكون للوحى به علاقة ، وواضح أنه لا ينبغى بحال أن يكون للوحى علاقة بتلك الأمور الجزئية ، وتلك الحوادث المتعلقة بشئون خاصة لأناس معينين ، إذ أن مثل هـذا أنزلُ من أن يكون من مقاصد الوحى ، وأصغر من أن يكون من غاياته ؛ فالوحى أسمى من ذلك مقصداً ، والقرآن أجل وأبعد من ذلك غاية . فما أنزل القرآن إلا ليقرر مبادئ عامة الخير ، شاملة النظام ، كافلة إصلاح البشر أبيضه وأسوده ، أو ليبنى أصلا كليا غير مقصور النفع والترقية على أمة دون أمة ؛ ولا مختص التهذيب بشعب دون آخر . على العموم فالقرآن إنما نزل على النبى الكريم ليضع للنظام البشرى قواعد وأصولا ، لا ليبين جزئيات لأشخاص بأعيانهم . القرآن إنما جاء للهداية والإرشاد ، والتهذيب ومكارم الأخلاق ، لا لبيان من هو أبو فلان ؟ أو ما هو مقر فلان ؟ مما لا علاقة له بمقاصد القرآن التى هى مبادئ وقوانين ، وغاياته التى هى كليات وقواعد . وقد قلنا : إن من الجناية على عظمة القرآن وجلاله أن يجدّب وهو خصب روىّ ، ويخفض وهو شامخ علىّ . من الجناية على كتاب الله أن يحد ويقصر وهو المديد المتطاول ، ويضيق وهو الواسع الشامل .

من ذلك تعلم أنه لا يصح أن يكون ذلك مرادا من الآية الكريمة ؛ وما رووه فى هذا الصدد لم يرو أن الآية قد نزلت بسببه ، فليكن ذلك الذى رووه - إن صح - حادثا مستقلا لا علاقة له بوحى ولا بتنزيل .

وأما النوع الأول مما حملوا عليه الأشياء المنهىّ عن السؤال عنها ، وهو الأمور التكليفية ، فالمأخذ على المفسرين فيه هو أنهم قد تركوه مجملا دون أن يفصلوه فيحددوه ، إذ هو محتمل أن يكون من قبيل الأمور التى لم يكن قد نزل فيها وحى يبين أنها من قبيل المكروه

والمحظور، أو من قبيل المطلوب المرغوب ، فيكون السؤال فيه طلبا لبيان حكم الله حتى لا يسيروا فيه إلا على وفق ما شرع الله ؛ ومحتمل أن يكون من قبيل الأمور التى نزل فيها وحى ولكن كانت نصوصه محتملة أكثر من معنى ، فيكون سؤالهم فيها طلبا لتحديد المراد وتعيينه من بين ما احتمله النص من المعانى .

هذان معنيان يحتملهما النوع الأول الذى حملوا عليه لفظ الأشياء فى الآية . فان هم كانوا يريدون الأول فذلك ما لا يصح أن يكون مرادا للآية ، فقد علمت أن سيدنا عمر بن الخطاب قد كانت له فى ذلك النوع مواقف عدة ، وما كانت قط تلك المواقف داعى مؤاخذة له ، بل كانت على النقيض من ذلك مبعث حمد له وثناء ، وموجب تقدير وإكبار ؛ فلقد طلب الى الرسول أن يكون فى الحجاب تشريع ، كما سأل أن يكون فى الخمر بيان حاسم ، الى غير ذلك من مواقف قد عدت من مفاخره ، وحسبت له فى مناقبه . وأى مؤاخذة على الناس فى أن يمتنعوا عن السير فى عمل من الأعمال إلا على وفق ما يشرعه الله لهم من حظر وتحريم ، أو طلب وتحتيم ، تحرجا منهم أن يسايروا مقتضى تفكيرهم ، خوفا من تغلب الهوى واستيلاء الأغراض ؟

وعلى هذا ، فلم يبق إلا حمل الأشياء فى الآية على ما يكون من قبيل ما نزلت فيه من قبل الله نصوص محتملة لأكثر من معنى ؛ ويكون سؤالهم على هذا طلباً لتحديد المراد من ذلك النص المحتمل ، وتعيين المعنى المقصود منه حتى لا يبقى صالحا للدلالة إلا على معنى واحد . وهذا هو ما أردت أن أحمل الآية عليه ، وأفسرها به ، وإليكم بيان ذلك ، وبالله التوفيق :

إن من المعلوم أن نصوص الشريعة الإسلامية منقسمة من حيث دلالتها إلى قسمين : قسم لا يحتمل أكثر من معنى واحد ، وليس له دلالة إلا عليه ؛ وقسم يحتمل أكثر من معنى واحد ؛ ويسمون الأول فى الاصطلاح الأصولىّ قطعىّ الدلالة ، ويسمّون الثانى ظنىّ الدلالة .
ومن مجىء النصوص الشرعية على هذين النحوين ندرك فى يقين أن ذلك مقصود للشارع الحكيم ، وأن ذلك القصد لا محالة يكون لمغزى خطير وحكمة سامية ؛ وما ذلك المغزى ولا تلك الحكمة إلا أن الله قد أراد أن يدفع عن عباده الحرج فيما شرع لهم ، ويرد عنهم المشقة فيما كلفهم به ، رحمة منه وفضلا ، وحكمة وعدلا . ذلك أن الاسلام هو الدين المنزل على خاتم النبيين ، المرسل للناس كافة أسودهم وأبيضهم ، فهو لذلك دين خالد على الزمان ، عام لجميع البشر ؛ فلو كانت نصوصه كلها من قبيل ما لا يحتمل إلا معنى واحدا لكان فى ذلك حمل للناس على اختلاف آفاقهم وأمكنتهم ، وعلى اختلاف تقاليد معايشهم التابعة لطبائع بقعهم وأقطارهم ، وفى مختلف الأزمان ومظاهر العمران ، على طريق واحد فى جميع التكاليف ، وفى ذلك من الحرج والمشقة مالا يحتمل . ويرى فى مقابل ذلك أن فى تعدد السبيل أمام العاملين يسراً ورخاء ، يعيا المرء بهذا السبيل فيتركه إلى سبيل آخر ، وفى كلا الأمرين هو شاعر أنه ممتثل لربه مطيع ، بدلا من أن يضطره العجز لترك الجادة إلى المخالفة والعصيان . هذا من ناحية .

ومن ناحية أخرى ، فقد يكون تحقيق المصلحة التى لأجلها التشريع أو دفع المضرة مرتبطا فى وقت السؤال بأشق الوجـوه التى يحتملها النص ، فيصير بالتحـديد والتعيين لو أجيبوا الى السؤال هو الدين الذى لا يعدل عنه الى سواه ، وفى ذلك الحرج والمشقة التى قد تفضى بهم الى الترك والـكفران .

هذا ، ويجب ألايغيب عنا فى هذا المقام أن النصوص التى تحتمل أكثر من معنى ، لا تكون إلا فى نوع التكليف الذى يرتبط تحقيق المصلحة أو دفع المضرة فيه بالوجوه التى يحتملها النص ، بحيث يكون الوصول الى ما قصد بالتـكليف من تحصيل خير أو دفع شر غير مقصور على طريق واحد ، بل تتعدد الطرق الموصلة إليه . وأما ما ترتبط الغاية فيه من التـكليف بطريق واحد فهذا هو ما يدَل عليه بالنصوص القطعية الدلالة ، أعنى التى لا تحتمل إلا معنى واحدا . وعلى ذلك يكون معنى قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لـكم تسؤكم » الآية : لا تطلبوا من الرسول تحـديد نص محتمل ، ولا تحاولوا تعيين معنى من معان صلح النص للدلالة عليها ، فإنـكم إن طلبتم ذلك — والوقت وقت وحى وتشريع — فليس بجائز إذ ذاك أن يعتذر الرسـول عن الإجابة بعدم العلم ، بل لا بد من التحديد والتعيين ، وفى ذلك ضياع لهذا المقصد الأسمى ، وذهاب بتلك الحـكمة العالية ، من رد المشقة عن عباده فيما شرع لهم ، ودفع الحرج عنهم فيما كلفهم به ، وتيسير الدين وتسهيل الأخذ بأحكامه ؛ أى : دعوا المحـكم من آيات الله كما أنزل محكما ، ودعوا المتشابه منها كما أنزل متشابها ، فإن ذلك من المعمود المقصود رحمة بكم وتيسيرا لـكم . وعلى هذا فيكون المقصود بالأشياء التى نهى الله عن السؤال عنها هى المتشابه من آياته ونصوص أحكامه ، أى ما يحتمل منها الدلالة على أكثر من معنى كما قدمنا ، ويكون المقصود بالنهى هو حماية ذلك المتشابه ، وصيانة هذا المحتمل عن التحديد والتعيين حتى لا يوقعهم ذلك فى الحرج والمشقة التى قد تفضى بهم الى ترك التـكليف ، فيتورطون فيما تورط فيه من قبلهم من الأمم السابقة ، من مخالفة وعصيان ، وترك وكفران ، كما حدثتنا به الآية الـكريمة التى نحن بصددها الآن : « قد سألها قوم من قبلـكم ثم أصبحوا بها كافرين » ، وكما حدثنا القرآن فى موضع آخر عن بنى إسرائيل ، اسمع قوله تعالى : « وإذ قال موسى لقومه إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة ... » الآيات ، فلقد أراد الله بذلك أن يضع أمام أعيننا صورة من صور الغابرين ، ومثـلا من أمثلة المتقدمين ، ليرينا الى أى حد بلغ التـكليف من المشقة ، بمحاولتهم التحديد ، وإمعانهم فى التعيين ، وقد كان بدون ذلك يسيراً سهلا . فهـذا متعلق الأمر فى الآية قد أطلق إطلاقا دون تحديد بلون أو تحديد بسن أو شئ مما حاولوا الاستفسار عنه من رسـولهم ؛ فـلو أنهم بمجرد أمرهم بذلك ذبحوا بقرة ما على وفق الإطلاق فى الآية ، لـكانوا محققين للأمر ، ولـكانوا ممتثلين مستجيبين ؛ لو أنهم ذبحوا بقرة فى أى سن : فارض أو بكر ، وعلى أى لون : صفراء أو حمراء ، وبأى حال : سائمة أو عاملة ، لـكانوا بذلك

طائعين ، ولكنهم بالغوا فى تحديد المحتمل ، وتعيين المتشابه ، تُحدد لهم بأندر الجنس وجودا ، وأعزه منالا ، حتى كادوا لا يفعلون .

هذا ، وإنك إذا نظرت الحديث الذى ساقوه للاستدلال به فيما حملوا عليه الآية ، وجدته يشهد لهذا الذى فسرنا به الآية شهادة واضحة جلية . انظر قوله عليه السلام : « إن الله كتب عليكم الحج » ، تجد هذه العبارة كما ترى محتملة أمرين : محتملة أن يكون الحج قد فرض مرة فى العمر ، وأن يكون قد فرض فى كل عام مرة ، وتجد سؤال السائل قد حاول به تحديد أحد المعنيين ، وتجد أن محصل ما قد قال له الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قد كان يصح أن مقتضى الظرف الحاضر يجعل المصلحة فى هذا الوقت مرتبطة بأشق الوجهين ، فيبين به النص المحتمل ، ويعين به المتشابه ، ويصير الحج مفروضا فى كل عام ، وفى ذلك من الحرج والمشقة ما يكاد يقطع معهما بالعجز عن الامتثال ، والوقوع فى المخالفة والكفران ، فلتتركوا الأوامر والنواهى على الحال التى أؤديها اليكم بها .

وعلى العموم ، فإن من الواضح الجلى أن من بالغ الحكمة وعظيم المنة ، أن يكون بين نصوص الاسلام تلك النصوص المحتملة المتشابهة ، لما فى ذلك من رفع المشقة ودفع الحرج . أما أولا : فبتعدد الطرق أمام العاملين ؛ وأما ثانيا : فبعدم تعيين أشق الوجهين مرادا من النص ، مما قد كان يقتضيه الأمر وقت السؤال ، بأن يكون حصول المصلحة أو دفع المفسدة لا يتمان فى عهد السؤال إلا بأشق الوجهين .

ولا يفوتنا فى هذا المقام أن نلتفت الى أن الله تعالى قد نوه بتلك الحكمة السامية ، وأشاد بتلك المنة الجليلة : اقرأ فى أول سورة آل عمران قوله عز من قائل : « هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات ، فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، وما يعلم تأويله إلا الله . والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا ... » الآية ، فان المراد بالمحكم فى تلك الآية هو قطعى الدلالة ، أى الذى لا يحتمل إلا معنى واحدا ؛ والمراد بالمتشابه هو ظنى الدلالة ، أى الذى يحتمل أكثر من معنى واحد . وإنما كان ظنى الدلالة متشابها لأن المعانى التى يحتملها متشابهة فى دلالته عليها وانفهامها منه ؛ وكان قطعى الدلالة محكما لأن المحكم هو المتقن الذى يمنعه إتقانه من التحلحل والفساد . ولما كان قطعى الدلالة ليس فيه للهوى منفذ ، ولا للشهوة والغرض اليه سبيل ، بتأويل ذوى الهوى له الى أهوائهم ، وتوجيهه نحو أغراضهم ، لما كان ذلك فيه غير ممكن لأنه لا يحتمل إلا معنى واحدا ، كان بذلك متقنا محكما ؛ وإنما كان قطعى الدلالة كذلك أُمًّا للكتاب ، لأن الأم هى مرجع أبنائها إذ يفزعون ، ومآلهم بعد مايترددون فيجيئون ويذهبون ، واليها يردون إذ يضلون .

ولما كان محكم النصوص إنما تبنى به أصول الدين وقواعده ، وكان المتشابه المحتمل أكثر من معنى يجب فى تأويله ألا يحمل على معنى يتجاوز تلك الاصول ، بل يجب أن يكون ما يحمل عليه فى داخل تلك الأصول ، لما كان كذلك كان المحكم بمثابة الأم ، والمتشابه بمثابة الأبناء ، فالمحكم هو المآل والمرد للمعنى الذى يحمل عليه المتشابه ، فأى معنى مما يحتمله المتشابه لايصح أن يحمل عليه حتى يرد الى تلك الأصول ، فإن جاوزها انقطع نسبه عنها وكان من غير الدين ، وإن لم يتجاوزها فهو من الدين ، وذو نسب الى تلك الأصول عريق ؛ ومن ذلك يصير من المفهوم الجلى قوله تعالى : « فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه » ، إذ المعنى على ذلك : أن الذين أظلمت قلوبهم بالشك ، وازدحمت نفوسهم بكراهية الحق ، وولعوا بالبعد منه والميل عنه ، من شأنهم أن يهملوا المحكم من النصوص لأنها لا منفذ فيها للهوى ، وليست محل اختلاف وتردد من ذلك ، وأن يقصروا أنفسهم على اتباع المتشابه يؤولونه الى أهوائهم ، ويحولونه الى أغراضهم ، وإن تجاوزوا به الأصول ونأوا به عن المحكم يبتغون بذلك فتنة الناس ، إذ يكون من شبههم التى يضللون بها أن ما يلقونه على الناس لم يجيئوا به من عند أنفسهم ، بل يزعمون أنه مأخوذ من نصوص الكتاب ، تلك النصوص ذات الاحتمال ، فى حين أنهم لم يرجعوا بها الى المحكم ، مغررين بذلك ومضللين ، وأنهم لو ردوه الى الله والى الرسول ، لو ردوه الى المحكم من آيات الله لأدرك معناه الحق ، وعرف المراد الصحيح منه ؛ ثم إن هؤلاء الزائغين يبتغون الى ذلك مبتغى آخر هو تأويله ، أى رده الى مآل يوافق شهواتهم ويساير أغراضهم ، دون تقيد بمحكم ، ولا رجوع الى أصل .

وعلى الجملة ، فالآية الكريمة تحدد مقصد الزائغين من قصر أنفسهم على اتباع المتشابه دون رجوع به الى المحكم ، وتقيد بالأصول ؛ تحدده بأمرين : الأول : هو فتنة الناس وتضليلهم بإيهامهم أن ما جاءوا به إنما هو من كتاب الله ؛ والثانى : هو إمالته حيث شاءوا ، والرجوع به الى ما يهوون ويشتهون .

ولما كان عدم رد المتشابه الى المحكم عند تأويله ، وأن يمال الى الهوى حيث يكون ، من لوازمه أن ما حملوه عليه من معنى جاروا به أهواءهم إنما هو معنى من عند أنفسهم ، فقد رد عليهم الله ذلك ، إذ قال : « وما يعلم تأويله إلا الله » ، فهو يريد أن يقول : إن هؤلاء الزائغين ليسوا هم الذين يعلمون تأويل هذا النوع من الآيات ، بل الله وحده هو الذى يعلم ذلك ، وقد وضع المحكم مآلا للمتشابه ومرجعا له فى تأويله حتى لا يعول على معنى مما يحمل عليه إلا المعنى الذى لا يتجاوز تلك الأصول ، ولا يتعدى تلك المحكمات .

وإنك ترى أنه ، بعد وضوح ذلك على ما قررناه ، أن قوله تعالى : « والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا » قد أصبح واضحا جليا . فان المراد حينئذ أن الذين

لا يعلمون ما يعلمون إلا علم حق ويقين ، فهم بذلك ثابتون على ما علموا لا يتقلقلون ، متمكنون منه لا يتزعزعون ، لا جرم يعرفون ربهم وما يجب له من شأن معرفة صحيحة ، وأنه محاسب كل أحد حسابا دقيقا ، وأنه مجاز كل إنسان بما عمل : فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره ، وأنه لا يعييه شىء فى الأرض ولا فى السماء ، وأن بيده ملكوت كل شىء ؛ ويعلمون كذلك الدنيا على حقيقتها ، فلم تفتنهم زهرتها ، ولم تغرهم زخارفها ، فهم بهذا يقولون : آمنا يا ربنا بمحكم كتابك ومتشابهه ، فإن المحكم والمتشابه كلاهما من عندك ؛ فكان علمهم الحق بربهم حتى قدروه حق قدره ، وبالدنيا حتى أنزلوها من أنفسهم منزلة تليق بها ، مانعاً لهم من أن يوجهوا المتشابه نحو أهوائهم ، ويؤولوه وفق أغراضهم ، تاركين المحكم وراءهم ظهريا .

هذا هو ما ينبغى أن تفسر به تلك الآية ، أما ما يذكره المفسرون فيها من معان يدل على عدم صحتها أنهم كلما خاطوها من ناحية تمزقت من ناحية أخرى ؛ وإلا فقل لى بربك كيف ينفهم أن القرآن الذى أنزله الله هداية للناس وإرشادا ، وتنظيما لحياتهم ، وتحقيقا لسعادتهم وترقيتهم ، كيف ينفهم أن يكون ذلك فيه غيرُ المفهوم كما يقولون ، إذ يرون أن المتشابه هو ما استأثر الله بعلمه ؟ قل لى بربك : أى فائدة من أن يكون فى الكتاب الذى أنزل لهذه الأغراض السامية غيرُ المفهوم ، وهو لا يحقق غاية من تلك الغايات ؟ ! وأى عقل ذلك الذى يسيغ أن ينزل الله كلاما غير مفهوم ، مع أن ذلك هو العبث بعينه ، والسفه الذى نضن عنه ببعض المخلوقين فضلا عن الخالق العظيم !

اللهم إن هذا ما لا ينبغى أن يقال فى جانب الله ذى العلم الشامل والحكمة البالغة ، وما لا ينبغى أن يمس به كتاب الله الذى من أخص أوصافه أنه المبين وأنه المفصل .

هذا ، وإننا لم يكن من غرضنا تفسير تلك الآية ، آية هو الذى أنزل عليك الكتاب ... ولكن عرضنا لهذا الإجمال فيها للمناسبة التى بينها وبين الآية التى نحن بصدد بيانها ، وقد تسنح لى فرصة أخرى لشرحها شرحا مفصلا .

بقى أنه لا يصح أن يكون أحد من علماء الاسلام بعد العلم بأن شريعتنا شريعة شاملة فى الزمان ، فهى الشريعة الباقية على مدى الأيام حتى ينتهى الليل والنهار ؛ وشاملة فى المكان فهى لجميع الناس أسودهم وأحمرهم ، عربيهم وعجميهم ، لا يصح أن يكون من علماء الاسلام بعد العلم بذلك من يجهل أن شريعة ذلك شأنها لا يكون من الضرورى لها أن تحتوى أمرين هما من مقتضياتها المحتومة . أما أول هذين الأمرين ، فهو أن يكون من نصوصها ذلك النوع الذى بيناه من النصوص وهو المتشابه ، أى الذى يحتمل أكثر من معنى واحد وهو ظنى الدلالة كما بينا ذلك سابقا ، حتى لا يحمل الناس فى مختلف العصور ، ولكل عصر مقتضيات ،

وفى مختلف البقع والأمكنة ، ولكل مكان ما يناسبه من نماذج العيش وأساليب الحياة ، حتى لايحمل الناس والأمر كذلك على السير فى سبيل واحد ، لما فى ذلك ما لا يخفى من الحرج والإرهاق . وأما ثانى الأمرين ، فهو وجود التشريع ضمن مبادئ عامة وقوانين شاملة ، بأن تناط الأحكام بأوصاف ومعان يدور معها الحكم وجودا وعدماً ، حتى يعطى كل ما تلده الأيام من حوادث حكمه ، بأن يتبين ما فى الحادث من وصف ومعنى أهو مناط حظر وتحريم أم مناط طلب وتحتيم ، فما كان من المعقول أن يجتمع فى عهد الرسول كل حوادث الدنيا حتى ينص على حكم كل حادث على حدة .

وإنى بهذه المناسبة لحريص أن أرد على الذين قد فهموا خطأ أن القياس الفقهى دليل زائد على الكتاب والسنة ، وأبين أنهم فى فهمهم هذا جد مخطئين ، إذ القياس الفقهى ليس شيئا وراء تبين ما فى الحادث من مناط ليعلم أن ما ارتبط بذلك المناط من حكم هو الحكم لذلك الحادث . وسأتبع ذلك فى العدد القادم ببحث مستفيض كنت قد كتبته بمناسبة ما كتبه بعض العارضين لهذا البحث فاعتبروا القياس دليلا غير الوحى من كتاب وسنة . وفقنا الله للإخلاص حتى نهتدى به الى الحق والخير ، إنه سميع قريب ؟

« يتبع »

حامد محيسن

وصايا حربية

أوصى هارون الرشيد عبد الملك بن صالح أمير سرية حربية له فقال : أنت تاجر الله لعباده ، فكن كالمضارب الكيس إن وجد ربحا اتجر ، وإلا احتفظ برأس المال ، ولا تطلب الغنيمة حتى تحرز السلامة ، وكن من احتيالك على عدوك أشد خوفا من احتيال عدوك عليك .

هذه من خير الوصايا الحربية . والقصد منها عدم الاسراف فى سفك دماء رجاله لغير ما داع موجب ، والتعويل على حسن التدبير لحركاته ، فقد يحتال على العدو ويخيل اليه أنه يصيب بذلك منه مقتلا ، فيقع فى شر من الشرك الذى نصبه ، فان للعدو عقلا ونظرا كما له هو عقل ونظر . فاذا افترض أن عدوه لن يصل الى تقدير سائر حركاته ، كان مدعيا لنفسه من التفوق العقلى ما ليس له عليه دليل ، وهذه الحالة كثيرا ما أودت بالجيوش الجرارة ، وكانت سببا فى إذلال أمم عزيزة .

وقد شرح محارب مجرب هذه الحقيقة على نحو ما فصلنا فقال : احترس من تدبيرك على عدوك ، كاحتراسك من تدبيره عليك ، فرب هالك بما دبر ومكر ، وساقط فى الذى احتفر ، وجريح بالسلاح الذى شهر .

نظرات فى الادب العربى

جاهليه و إسلاميه

— ٦ —

الشعر العصرى أيضا

أسلفت أن الشعر العصرى قد وقف أو كاد ، بعد أن ذهب الرعيل الأول من رجاله الى جوار الله ؛ ووقفت عند تعليل هذا الوقوف ، وعرض أهم أسبابه . ولما لم أكن منفردا بهذا الرأى فى الشعر العصرى ، فأنى أذكر أولاً ما أورده النقاد المعاصرون من تعليل هذا الوقوف :

يرى قادة النقاد المعاصرين ، أن السبب فى وقوف الشعر بعد شوقى وحافظ وأضرابهما من الشعراء الراحلين ، إنما مردّه إلى ضعف امتزاج الثقافتين : الغربية والعربية ، اللتين تتكون منهما الثقافة العصرية ، فشوقى وأضرابه ، أمكنهم أن يطعّموا الأدب القديم بالأدب الأجنبي ، إلى حد ، فنجحوا فى مجاراة الثقافة العصرية نجاحهم المعهود ؛ والبارودى — وإن لم يجدد فى الشعر على هذا الوجه — إلا أن نجاحه إنما أتى من رجوعه بالشعر الى العصر البعيد الراقى ؛ فترسم آثار أبى نواس ، وأبى فراس ، والمتنبى ، والشريف الرضى ، من حيث الأغراض والمعانى ، وخولة اللفظ . فأما من جاء بعد هؤلاء من الشعراء ، فهم بين رجلين : شاعر على النمط القديم ، لا يلائم شعره الذوق العصرى ، وآخر ممعن فى تقليد الشعر الافرنجى ، فى معانيه وأسلوبه وصوره وأخيلته ، ينبو عن شعره الذوق الشرقى ؛ لأن لكل من الثقافتين مزاجا خاصا ، وطابعا خاصا ؛ فالثقافة الأفرنجية أكثر ما تعنى بالحياة الواقعية ، مع مجاراة الزمن ، والنظر الى المستقبل ؛ والثقافة العربية محافظة فى الاجتماع والسياسة ، وعنايتها بالماضى أكثر من عنايتها بالحاضر والمستقبل .

وعندى أن هذا السبب — على قوته وفضل اعتباره — إنما يصلح تعليلا لعدم نجاح الشعراء المعاصرين نجاح شوقى وأضرابه ، وبقى تخلّفهم عن مجاراة البارودى غير معلل ، فأن ناقدا منصفا لا يستطيع أن ينكر شاعرية المغفور له الشاعر البدوى محمد عبد المطلب ، الذى كان عربى الثقافة ، وكان يجاذب أولئك الفحول أبراد التبريز والإجادة فى شتى المواقف الشعرية فى عصرنا الحاضر . كما لا يستطيع ناقد أن يجحد شاعرية الشاعرين العظيمين : حسن القاياتى ، وأحمد محرم ، وكلاهما عربى الثقافة ؛ ولئن شدا ثانيهما شيئا من اللغة الأجنبية ، إن ديباجة شعره لتردّه الى أساليب العصر الأموى ، لا العصر العباسى .

لا جرم أن امتزاج الثقافات ، طار بالشعر العباسى الى الذروة ، ولـكن عدم هذا الامتزاج أو قلته ، لم يقصّر بالشعر الأموى عن مساماته ، بل عن سبقه فى ميدان الإجادة كما سبقه فى الحياة ؛ ولم يقصر بشعراء الأندلس عن التبريز فى الشعر الرقيق ، وإن وقفوا دون شعراء الشرق فى الجزالة ، وقوة الأسر فى الغالب .

ولا يزال عندنا الأزهر ودار العلوم ، وثقافتهما تـكاد تكون عربية بحتة ، لم تطغ عليها الثقافة الأجنبية ، ولـكن جَوْدها ـ مع ذلك ـ بالشعراء المجيدين نزر فى هذا العهد الآخير . وعلى الجملة فتعليل وقوف الشعر ، بضعف امتزاج العنصرين المـكونين للثقافة الحاضرة ، هو التزام من النقاد المعاصرين لمذهبهم ، وهو طرح الأسلوب الشعرى القديم من الحساب ، لأنه أصبح لا يلائم الذوق العصرى كما سبق ؛ ولـكن رجال المدرسة القديمة لا يزالون على أن التزام عمود الشعر العربى شرط أساسى فى قبول الشعر ، وأن الشعر يهز من عواطفهم ، ويحرك من مشاعرهم ، بمقدار قربه من النهج القديم أسلوبا وخيالا ، وإن كانوا يفضلون التجديد القوى المتولد عن الهضم الـكامل لروائع الثقافة الأجنبية ، كما حصل فى العصر العباسى .

ورحم الله أبا عبادة البحترى ، إذ يقول ـ وقد عيب عليه أنه لم يسر على المنطق فى شعره :

كلفتمونا حـدود منطقكم والشعر يغنى عن صدقه كذبه
ولم يكن ذو القروح يلهج بالمنـ ـطق : ما نوعـه ، وما سببه
والشعر لَمْح ، تكفى إشارته وليس بالهَذْر طولت خطبه

لقد اصطلحت على الشعر فى عهده الحاضر أحداث عدة ، ليس أهمها عدم امتزاج الثقافتين ، وإن كان منها . فأن هذا الامتزاج إنما هو ضرورى ، أو قريب من الضرورى ، فى نقد الشعر ، وليس ضروريا فى إنشائه ؛ وعلى حد التعبير الحديث : فى الأدب الوصفى ، لا فى الأدب الإنشائى . ولعل أهم هـذه الأحداث ، هو تلك الموجة المادية الجارفة ، التى اجتاحت الشرق العربى ، وفى مقدمته مصر ، وافدةً من الغرب ، على أثر الحرب الـكبرى ، وتجلى العلوم الطبيعية فيها تجليا ، أظهر من الحقائق الواقعية ، ما هو أروع من الخيال ؛ وصرف وجـوه الناس عن ذلك الهدوء الروحى الذى كانت تنعم النفوس فى أفيائه ، وتسبح فى آفاقه الفِـيح البواسم ، الى تلك السوق المصطخبة الزاخرة بضروب الملذات الجسمية المغرية ، التى أغنتهم بنعيمها المحقق ، عن ارتياد مسارح النعيم فى أخيلة الشعراء ؛ ومتى ضعف الخيال ، أو فقـد ، انهدم الركن الأول من أركان الشعر العربى منذ كان الشعر العربى ؛ ولا عجب أن يزدهر النثر ويقوى ، ويتسنم هـذه الذروة التى سما إليها على أنقاض شقيقه الشعر ، فلم يزل النثر الفنى منذ كان ، يرتـكز على عماد من العقل والمنطق ، رُفعت من ذراه هذه الحضارة الطاغية ، التى سخرت الأرض والسماء ، والهواء والماء . بيد أن اندفاع تيار الطبيعية ، وطغيانه هذا الطغيان ، الذى كان أول

فرائسه الأمن ، قـوام كل أمر ، وملاك كل سعادة ، أعاد الى نفسى بواعث الأمـل ، فى أن المحنة العالمية القاسية التى تخـوض الأمم غمارها اليوم ، هى النهاية الفاجعة لفشل الحضارة الراهنة ، وهى الهضبة التى ستتكسر على صخورها أمواج الطبيعة الـكافرة الفاجرة ، وهى المرشد النصيح المهيب بهذا العالم المضطرب المذعور ، أن ينشد الأمن فى السماء ، بعد أن أعياه فى الأرض ، حتى فى عالم الخيال . أجل ، إن نتيجة هذا الهم الشامل ، وهذا البلاء النازل ، هو الايمان الـكامل ؛ وفى هذا الايمان ضمان لعودة المدنية الفاضلة : مدنية الحق ، والعدل ، والجمال .

***

يلى هذا السبب فى الأهمية ، ضعف الوازع الشعرى فى نفوس فحول الشعراء الأحياء من المدرسة القديمة والحديثة معا ؛ ولهذا الضعف أسباب ، منها خلو الميدان من أعلام الشعر ، وحاملى لوائه ، الذين كان فى منافستهم ، والوقوف بجانبهم ، مَراد فخار ، ومجال عظمة ، لغيرهم من الشعراء ؛ ومنها فوضى النشر ، وامتلاء السوق بالمتشاعرين ، واختلاط الأمر على القراء ، فى تمييز الشاعر من المتشاعر ؛ ورحم الله صحيفة كان نشرها للقصيدة ، إجازة كالإجازات العليا فى أيامنا هذه ، يستحق بها منشئها أن يسلك فى نظام الشعراء ، تلك صحيفة المؤيد ، سقى الله أطلالها الدوارس ، وحَيَّا أعلامها الطوامس . . .

ومنها ، بطء التقرب بين ممثلى المدرستين : القديمة والحديثة ، فالمجددون يقابلون بفتور ، أو بنقد عنيف ، ما تجود به قرائح شعراء المدرسة القديمة ، وهؤلاء يسيئون الظن بـكل نقد يصدر عن أولئك ، وليس مع التنافر وسوء الظن تعاون ولا اطمئنان .

وليس بـأقل من السببين الآنفين ، أثر الإذاعة ، وإيثارها — بحكم موقفها من السواد الغالب فى الأمة — أقربَ أنواع الشعر من أفهام العـامة ، وإعراضها إعراضا تاما عن جزله ومحكمه ؛ وليس أقتل لنشاط الشاعر من إهمال آثاره الفـكرية ، فى حين يستبد بالحـظ من لا يساميه شعرا ، ولا يدانيه فخرا .

هذا ، الى ما أسلفنا فى غضون هـذه النظرات ، هو ما وصل بالشعر الى هذا الموقف ، الذى أصبح فيه جديرا بأن ينشد ، وأن ننشد معه :

أين امرؤ القيس والقـوافى ... إذ مال من تحته الغبيط
استنبط العـرب فى المـوامى ... بعـدك ، واستعـرب النبيط

عبد الجواد رمضان

حياة رجالات الإسلام

عبد الله بن الزبير

صرامته فى الحق — فصاحته — شجاعته

قلنا فى المقال السابق إن عبد الله بن الزبير كاد يتم له أمر الخلافة وتجتمع عليه الأمة لولا خلال عدها بعض المؤرخين نقصا فى استعداده لهذا المنصب الخطير ، وعددناها تساميا منه عن مزالق السرف ومضال السياسة الجائرة ، فلا يضيره أن يكون أراد بالناس سياسة جده الصدّيق وعدل الفاروق ، ولم تكن له رعية الصديق ولا جند الفاروق . وإذا كان أبو خبيب قد أُتى من قِبل أطماع الناس وفساد ضمائرهم فانه قد ساعد على نفسه بما فتح من ثُغَر بينه وبين أقرانه من الهاشميين ، بدأت بالمنافسة التى أذكتها المعاصرة ، وقد أخذت تشتد وتقوى حتى تحولت الى خصومة ظاهرة تؤرثها المفاخرة ، ويزيد أوارها المتربصون من الأمويين .
روى ابراهيم بن محمد البيهقى فى كتاب « المحاسن والمساوى » : أن عبد الله بن عباس دخل المسجد بعد مسير الحسين بن على الى العراق ، فإذا هو بابن الزبير فى جماعة من قريش قد استعلاهم بالكلام ، فجاء ابن عباس حتى ضرب بيده بين عضدى ابن الزبير وقال : « أصبحت والله كما قال الأوّل :

يا لكِ من قُبَّرة بمعمَر ... خلا لك الجو فبيضى واصفرى
ونقّرى ما شئت أن تنقرى ... قد رُفع الفخ فماذا تحذرى

خلت الحجاز من الحسين بن على ، وأقبلت تهدر فى جوانبها » . فغضب ابن الزبير وقال : « والله لكأنك ترى أنك أحق بهذا الأمر من غيرك » . فقال ابن عباس : « إنما يرى من كان فى حال شك ، وأنا من ذلك على يقين » . فقال : « وبأى شىء تحقق عندك أنك أحق بهذا الأمر منى ؟ » قال ابن عباس : « لأنا أحق ممن يدل بحقه ، وبأى شىء تحقق عندك أنك أحق بها من سائر العرب إلا بنا ؟ » فقال ابن الزبير : « تحقق عندى أنى أحق بها منكم لشرفى عليكم قديما وحديثا » . فقال ابن عباس : « أنت أشرف أم من قد شرفت به ؟ » فقال ابن الزبير : « إن من شرفت به زادنى شرفا الى شرف قد كان لى قديما وحديثا » . قال ابن عباس : « أفمنّى الزيادة أم منك ؟ » قال : « بل منك » . فتبسم ابن عباس ، فقال ابن الزبير : « يا ابن عباس دعنى من لسانك هذا الذى تقلبه كيف شئت ، والله لا تحبونا يا بنى هاشم أبدا » . قال

ابن عباس : « صدقت ، نحن أهل بيت مع الله عز وجل لا نحب من أبغضه الله تعالى » . فقال ابن الزبير : « يا ابن عباس ما ينبغى لك أن تصفح عن كلمة واحدة » . قال : « إنما أصفح عمن أقر ، وأما عمن هرّ فلا ، والفضل لأهل الفضل » . قال ابن الزبير : فأين الفضل ؟ قال : « عندنا أهل البيت ، لا تصرفه عن أهله فتظلم ، ولا تضعه فى غير أهله فتندم » . قال ابن الزبير : « أفلست من أهله ؟ » قال : « بلى إن نبذت الحسد ، ولزمت الجدد » .

زادت هذه الخصومة شدة على مر الزمن ، ودفعت الهاشميين الى الامتناع عن بيعة ابن الزبير وإظهار الطعن عليه ، فشردهم ، وحبس زعماءهم ، ونفى قادتهم . قال صاحب العقد : « ولما توطد لابن الزبير أمره ، وملك الحرمين ، والعراقين ، أظهر بعض بنى هاشم الطعن عليه ، وذلك بعد موت الحسن والحسين ، فدعا عبد الله بن عباس ومحمد بن الحنفية وجماعة من بنى هاشم الى بيعته فأبوا عليه ، فجعل يشتمهم ويتناولهم على المنبر ، ثم قال لهم : لتبايعن أو لأحرقنكم بالنار ! فأبوا عليه ، فحبس محمد بن الحنفية فى خمسة عشر من بنى هاشم فى سجن عارم ؛ وفى ذلك يقول له كثير عزة وكان شيعيا :

تخبّر من لاقيت أنك عائذ بل العائذ المظلوم فى سجن عارم
سميّ النبي المصطفى وابن عمه وفكّاك أغلال وقاضى مغارم

وقال ابن عبد البر فى الاستيعاب : « إن ابن الزبير أخرج محمد بن الحنفية ونفى ابن عباس الى الطائف ، وقد كان لهذا النزاع أثر سىء فى فشل ابن الزبير وتفرق كثير من أصحابه عنه » .

أما شجاعة عبد الله بن الزبير ورباطة جأشه وفصاحة منطقه وبراعة بيانه ، فعن البحر حدث ولا حرج . ذكر ابن عبد ربه فى كتاب العقد : « أن عبد الله لما بلغه قتل مصعب صعد المنبر فجلس عليه ثم سكت ، فجعل لونه يحمر مرة ويصفر مرة ، فقال رجل من قريش لرجل الى جنبه : ماله لا يتكلم ؟ فو الله إنه للخطيب اللبيب ! فقال له الرجل : لعله يريد أن يذكر مقتل سيد العرب فيشتد عليه ذلك ، وغير ملوم . ثم تكلم عبد الله فقال : « الحمد لله الذى له الخلق والأمر ، والدنيا والآخرة ، يؤتى الملك من يشاء ، وينزع الملك ممن يشاء ، ويعز من يشاء ، ويذل من يشاء . أما بعد فإنه لم يعز من كان الباطل معه ولو كان معه الأنام طرا ، ولم يذل من كان الحق معه ولو كان فردا . ألا وإن خبراً من العراق أتانا فأحزننا وأفرحنا ، فأما الذى أحزننا فإن لفراق الحميم لوعة يجدها حميمه ثم يرعوى ذوو الألباب الى الصبر وكريم الأجر ، وأما الذى أفرحنا فإن قتل مصعب له شهادة ، ولنا ذخيرة ، أسلمه الطغام الصم الآذان أهل العراق وباعوه بأقل من الثمن الذى كانوا يأخذون منه ، فإن يقتل فقد قتل أخوه وأبوه وابن عمه وكانوا الخيار الصالحين . أما والله لا نموت حتفا كما يموت بنو مروان ، ولكن قعصا بالرماح وموتا تحت ظلال السيوف ! ألا إنما الدنيا عارية من الملك الأعلى الذى لا يبيد ذكره ،

ولا يذل سلطانه ، فإن تقبل الدنيا علىّ لم آخذها مأخذ الأشر البطر ، وإن تدبر عنى لم أبك عليها بكاء الخرق المهين » .

خرج العراق بمقتل مصعب عن طاعة عبد الله ، وكانت الشام قد استتمت طاعتها لعبد الملك ابن مروان ، ولم يبق مع عبد الله غير الحرمين على ما فيهما من دخن ممن يوالى الهاشميين ؛ فلما رأى عبد الله ذلك جمع خاصته من القرشيين ليستشيرهم ، فقال لهم : ما ترون ؟ فقال رجل من بنى مخزوم : والله لقد قاتلنا معك حتى لا نجد مقيلا ، ولئن صبرنا معك ما نزيد على أن نموت ، وإنما هى إحدى خصلتين : إما أن تأذن لنا فنأخذ الأمان لأنفسنا ، وإما أن تأذن لنا فنخرج . فقال عبد الله : لقد كنت عاهدت الله أن لا يبايعنى أحد فأقيله بيعته إلا ابن صفوان . فقال له ابن صفوان : أما أنا فانى أقاتل معك حتى أموت بموتك ، وإنى لتأخذنى الحفيظة أن أسلمك فى مثل هـذه الحالة ! وقال له رجل آخر : اكتب الى عبد الله بن مروان ، فقال له : كيف أكتب ؟ من عبد الله أمير المؤمنين الى عبد الملك بن مروان ؟ فوالله لا يقبل هذا أبدا ! أم أكتب لعبد الملك بن مروان أمير المؤمنين من عبد الله بن الزبير ؟ فوالله لأن تقع الخضراء على الغبراء أحب إلىّ من ذلك ! فقال أخوه عروة بن الزبير وهو جالس معه على السرير : يا أمير المؤمنين قد جعل الله لك أسوة ، قال : من هو ؟ قال : حسن بن على ، خلع نفسه وبايع معاوية . فرفع عبد الله رجله وضرب بها عروة حتى ألقاه عن السرير وقال : قلبى إذاً مثل قلبك ! ! والله لو قبلت ما يقولون ما عشت إلا قليلا ، وقد أخذت الدنية ، وإن ضربة بسيف فى عز ، خير من لطمة فى ذل !

هذا موقف ليس فى حاجة الى التعليق على ما فيه من شجاعة ، وشرف نفس ، وقوة قلب ، واستهانة بالموت فى سبيل الكرامة والعقيدة . وليس بغريب على ابن أسماء الصديقية وابن الزبير حوارى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فثمة ما هو أعجب وأسمى ، وهو ما نحب أن نطيل التأمل فيه ، ونود بجدع الأنف لو أن كل مسلم ولا سيما الشباب أطال التأمل فيه وجعله مَثَله الأعلى فى تكوين رجولته ، وتعلّم منه كيف تكون الحياة العزيزة . وكذلك نود لو أن كل امرأة مسلمة جعلته شعارها فى تربية بنيها تربية صادقة الرجولة حتى يكون منهم للوطن الاسلامى عدة قوية فى هذا العصر الثائر الكلِب .

روى أبو عمر بن عبد البر فى الاستيعاب وجمهرة المؤرخين عن عروة بن الزبير وغيره ، قال : « لما كان قبل قتل عبد الله بن الزبير بعشرة أيام ، دخل على أمه أسماء وهى شاكية ، فقال لها : كيف تجدينك يا أمه ؟ قالت : ما أجدنى إلا شاكية ، فقال لها : إن فى الموت لراحة ، فقالت : لعلك تمنيته لى ، ما أحب أن أموت حتى يأتى علىّ أحد طرفيك ، إما قتلت فاحتسبك ، وإما ظفرت بعدوك فتقر عينى ! قال عروة : فالتفت إلىّ عبد الله فضحك ؛ فلما كان فى اليوم

الذى قتل فيه ، دخل عليها فى المسجد ، فقالت له : يا بنى لا تقبلن منهم خطة تخاف فيها على نفسك الذل مخافة القتل ، فوالله لضربة سيف فى عز خير من ضربة سوط فى الذل ! ! فقال عبد الله : يا أماه أما ترين ؟ خذلنى الناس ، وخذلنى أهل بيتى ، فقالت : لا يلعبن بك صبيان بنى أمية ، عش كريما ، ومت كريما ! ! ثم قبل رأسها وودعها ، وضمته الى نفسها ، فخرج من عندها وصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : « أيها الناس ! إن الموت قد تغشاكم سحابه ، وأحدق بكم ربابه ، واجتمع بعد تفرق ، وارجحن بعد تمشق ، ورجس نحوكم رعده ، وهو مفرغ عليكم ودقه ، وقاد اليكم البلايا تتبعها المنايا ، فاجعلوا السيوف لها غرضا ، واستعينوا عليها بالصبر » . ثم قال لعبد الله بن صفوان وكان صفيه : قد أقلتك بيعتى ، وجعلتك فى سعة ، فخذ لنفسك أمانا ، فقال ابن صفوان : مه ؟ والله ما أعطيتك إياها حتى رأيتك أهلا لها ، وما رأيت أحدا أولى بها منك ، فلا تضرب فتيان بنى أمية هذه الصلعة أبدا ! ثم دخل ابن الزبير بيته فنام ، فجاء ابن صفوان وقد دنا أهل الشام من المسجد فاستأذن ، فقالت الجارية : هو نائم ، فقال ابن صفوان : أوليلة نوم هذه ؟ ! أيقظيه ! فلم تفعل ، فأقام ثم استأذن ، فقالت : هو نائم ، فانصرف ثم رجع آخر الليل وقد هجم القوم على المسجد ، فخرج ابن الزبير فقال : والله ما نمت منذ عقلت الصلاة نومى هذه الليلة وليلة الجمل ، ثم دعا بالسواك فاستاك متمكنا ، ثم توضأ متمكنا ولبس ثيابه ، ثم قال : أنظرنى حتى أودع أم عبد الله فلم يبق شىء ، وكان يكره أن يأتيها فتعزم عليه أن يأخذ الأمان ، فدخل عليها وقد كف بصرها ، فسلم ، فقالت : من هذا ؟ فقال : عبد الله ، فتشممته ، ثم قالت : يا بنى لا ترض الدنية ، فإن الموت لا بد منه ! قال : إنى أخاف أن يمثلوا بى ، قالت : إن الكبش إذا ذبح لم يخف السلخ !

ثم خرج وقد جعل له مصراع عند الكعبة فكان تحته ، فقال له رجل من قريش : ألا نفتح لك باب الكعبة فتدخلها ؟ فقال عبد الله : من كل شىء تحفظ أخاك إلا من نفسه ، والله لو وجدوكم تحت أستار الكعبة لقتلوكم ، وهل حرمة المسجد إلا كحرمة البيت ؟ ثم تمثل :

ولست بمبتاع الحياة بسُبّة ولا مرتق من خشية الموت سلّما

ثم شد عليه أصحاب الحجاج ، فقال : أين أهل مصر ؟ فقالوا : هم هؤلاء من هذا الباب ، لاحد أبواب المسجد ، فقال لأصحابه : اكسروا أغماد سيوفكم ، ولا تميلوا عنى ، فإنى فى الرعيل الأول ، ففعلوا ، ثم حمل وحملوا معه ، وكان يضرب بسيفين ، فقال رجل يقال له خلبوب لأهل الشام : أما تستطيعون إذا والاكم ابن الزبير أن تأخذوه بأيديكم ؟ قالوا : ويمكنك أنت أن تأخذه بيدك ؟ قال : نعم ، قالوا : فشأنك ، فأقبل وهو يريد أن يحتضنه ، فاستقبله ابن الزبير بضربة قطع بها يده . فقال خلبوب : حسّ ! فقال ابن الزبير : اصبر

خلبوب ! ثم دخل عليه أهل حمص من باب بنى شيبة ، فقال : من هؤلاء ؟ فقالوا : أهل حمص ، فشد عليهم حتى أخرجهم وهو يرتجز :

لو كان قِرنى واحدا كُفيته أوردته الموت وقـد ذكيته

ثم دخل عليه أهل الأردن من باب آخر ، فجعل يضربهم بسيفه حتى أخرجهم من المسجد ، ثم انصرف وهو يقول :

لا عهـد لى بغارة مثل السيل لا ينجلى قتامها حتى الليل

فأقبل عليه حجر من ناحية الصفا وهو منصرف فضربه بين عينيه ، فنكس رأسه وهو يقول :

ولسنا على الأعقاب تدمى كلومنا ولـكن على أقدامنا يقطر الدم

فلما علم أصحاب الحجاج بمقتله كبروا ، فقال عبد الله بن عمر : ما هذا ؟ قالوا : أهل الشام يكبرون لقتل عبد الله بن الزبير ، فقال ابن عمر : الذين كبروا لمولده خير من الذين كبروا لقتله .

وروى أن عبد الله بن عباس قال لقائده : جنبنى خشبة ابن الزبير ، فلم يشعر ليلة حتى عثر فيها ، فقال : ما هذا ؟ فقال : خشبة ابن الزبير ، فوقف ودعا له ، وقال : « لئن علتك رجلاك لطالما وقفت عليهما فى صلاتك » ثم قال لأصحابه : « أما والله ما عرفته إلا صوّاما قواما » .

وروى ابن القاسم عن مالك أنه كان يقول : « ابن الزبير كان أفضل من مروان ، وكان أولى بالأمر من مروان ومن ابنه » .

وقال مجاهد : « كان ابن الزبير إذا قام للصلاة كأنه عمود ، وكان يواصل من الجمعة الى الجمعة ، وما كان باب من العبادة إلا تـكلف ، ولقد جاء سيل بالبيت فرأيته يطوف سباحة » .

وقال عمرو بن دينار : « ما رأيت مصليا أحسن صلاة من ابن الزبير » .

صادق ابراهيم عرجون

فضيلة العفو

كان المأمون بن هارون الرشيد غاية فى العفو حتى إنه قال : لو علم الناس حبى للعفو لتقربوا الىّ بالجرائم .

وقال هو أيضا : والله إنى استلذذت العفو استلذاذا أظن أن الله لا يأجرنى عليه .

نقول : العفو من كرائم الخصال ، وقد حض الله عليه ، ولـكن فى الحال التى يغلب الظن فيها أنه يكون أنفع للمذنب وللناس من العقوبة . أما إذا كان العفو مجرد هوى للنفس يضعه الانسان حيث يفسد الأخلاق ، ويشيع الرذيلة ، ويزعج الأمن ، انقلب العفو الى جريمة .

التجديد والمجددون فى الاسلام

من القرن الأول الهجرى الى عصرنا الحاضر

الامام الاعظم أبو حنيفة

دراسات فى مذهبه

١ — هل كان يستعمل أبو حنيفة الرأى ويقدم القياس على النص ؟

زعم بعض المتعصبين أن الإمام الأعظم كان يستعمل الرأى ويقـدم القياس على النص ؛ ولو فهموا مدارك مذهب أبى حنيفة ، وحقيقة الرأى ، ما قالوا هذا القول غير الصحيح ، بل كان إفراطهم وتجاوزهم الحد فى ذم أبى حنيفة ينقلب إلى مدحه والثناء عليه ؛ فليس الرأى بمذموم ولا القياس إلا إذا لم يكن مندرجا تحت أصل من أصول الشريعة ، ولم يصادف قاعدة من قواعدها ؛ وكل كلام شهدت له الشريعة بالصحة ، أو وافق الأصول ، أو اندرج تحت القواعد ، فهو من السنة وليس من الرأى المذموم . جاء فى السنن الـكبرى للبيهقى فى باب القضاء : أن الرأى المذموم هو كل ما لا يكون مشبها بأصل . وعلى ذلك يحمل كل ما ورد فى ذم الرأى . وأبو حنيفة فى دينه وورعه لا يعقل أن يتخطى دائرة هذا الأصل . والمعروف عنه بالدليل أنه لم يكن يقدم رأيا أو قياسا على نص . ولا أدلّ على هذا من قوله : إنه يأخذ أولاً بما فى القرآن الـكريم ، فإن لم يجد فبالسنة ، فإن لم يجد فبقول الصحابة ، فإن اختلفوا أخذ بما كان أقرب إلى القرآن أو السنة من أقوالهم ، ولا يخرج عنهم ، فإذا لم يجد لأحد منهم قولا اجتهد رأيه فى دائرة أصـول الشرع ؛ حتى إنه قال : عجبٌ للناس ! ! يقـولون إنى أفتى بالرأى ، ما أفتى إلا بالأثر .

ويقول ابن حزم : جميع أصحاب أبى حنيفة مجمعون على أن مذهب أبى حنيفة أن ضعيف الحديث أولى عنده من القياس والرأى .

ويقول الامام أبو جعفر البلخى : فهذا الذى رويناه — وهو تأخير القياس عن الـكتاب والسنة وأقضية الصحابة — هو النقل الصحيح عن أبى حنيفة .

ويقول الامام الجلال السيوطى : إن الامام أبا حنيفة كان يقـدم الحديث على القياس ، بل كان يقدم الآثار على القياس فضلا عن الأحاديث ، وأقضية الصحابة كلها من قسم الآثار ؛ فـكان لا يقيس إلا إذا لم يجد دليلا للمسألة فى كتاب ولا سنة ولا فى أقضية الصحابة .

ويقول الامام أبو مطيع : كنت جالسا مع الامام أبى حنيفة فى جامع الكوفة ، فدخل عليه سفيان الثورى وجعفر الصادق وغيرهما من الفقهاء ، فقالوا لأبى حنيفة : بلغنا أنك تكثر من القياس فى الدين وأول من قاس إبليس . فناظرهم الإمام يوم الجمعة من بكرة النهار إلى قرب الزوال ، وعرض عليهم مذهبه ، وقال : إنى أقدم العمل بالكتاب ثم بالسنة ثم بما اتفق عليه الصحابة ، فإذا اختلفوا قِسْتُ حينئذ . فقالوا له : أنت سيد العلماء ، فاعف عنا ما مضى من وقيعتنا فيك بغير علم .

أما ماروى عن الإمام أبى حنيفة من قوله : « رأينا هذا أحسن ما قدرنا عليه ، فمن جاء بأحسن منه فهو أولى بالصواب منا » ، وقوله : « هذا الذى نحن فيه رأى لا نجبر عليه أحدا ولا نقول يجب على أحد قبوله ، فمن كان عنده أحسن منه فليأت به نقلده » ، فالمراد بهذا الرأى ما هو واضح مما تقدم من أنه لا يجتهد رأيه إلا عند فقد النص ، حتى قال هو نفسه : « هذا القياس الذى نحن فيه نطلب به اتباع أمر الله تعالى، لأنا نرده الى الكتاب أو السنة أو اتفاق الصحابة ثم نجتهد الرأى بعد ذلك عند فقد النص » . وقد قال الإمام الشعرانى : لم يزل الأئمة كلهم ومقلدوهم يقيسون فى الأحكام الى وقتنا هذا من غير نكر حيث لم يجدوا دليلا نصا فى المسألة، بل جعلوا القياس أحد أدلة الشريعة كما قال الامام الشافعى : « إذا لم نجد دليلا فى المسألة قسناها على الأصول » .

فلا خصوصية للإمام أبى حنيفة فى اعتراض بعض المتعصبين عليه من هذه الناحية ؛ ثم إن صح الدليل بعده فى تلك المسألة فانه معذور ، وفيما إذا وجد حديثا ولم يصح عنده فقاس فى تلك المسألة على أصل صحيح ، لأن القياس على الأصول أقوى عند بعضهم من خبر الآحاد الصحيح فكيف بالضعيف ؛ وقد كان الامام أبو حنيفة يشترط فى الحديث المنقول عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل العمل به أن يرويه عن الصحابى جمع عن مثلهم ، وهكذا اعتقاد كل منصف فى الامام الأعظم .

ويحتمل أن الذى أضاف الى الإمام أبى حنيفة أنه يقدم القياس على النص ظفر بذلك فى كلام بعض مقلديه الذين يجمدون على القياس المنقول عن إمامهم ولا يخالفونه كما عليه غالب المقلدين ويقولون : إن الإمام لم يأخذ بهذا الحديث ؛ فلما رأى المعترض ذلك فى كلام بعض المقلدين ظن أن ذلك مذهب للامام فعزاه إليه لجهله بحقيقة المذهب .

على أن غالب قياسات الإمام أبى حنيفة من القياس الجلى الذى يعرف به موافقة الفرع للأصل بحيث ينتفى احتمال افتراقهما . على أن كل معترض على الامام أبى حنيفة كما قال الامام الشعرانى جاهل بمدارك الامام ؛ وكما قال : لقد تتبعت المسائل التى قدم فيها المقلدون من الحنفية القياس على النص فوجدتها قليلة جدا ، وبقية المذهب كله فيه تقديم النص على القياس ، ولا

خصوصية لمذهب أبي حنيفة في ذلك . وهـذا هو الامام الليث بن سعد يقول : « أحصيت على مالك بن أنس سبعين مسألة كلها مخالفة للسنة مما اجتهد فيها برأيه » . وقد روى ابن أبي العوام عن نصر بن يحيي البلخي قال : قلت لأحمد بن حنبل : ما الذى نقمتم على أبي حنيفة ؟ قال : الرأى . قلت : فهـذا مالك ألم يتكلم بالرأى ؟ قال : بلى ولـكن رأى أبي حنيفة خلد فى الـكتب . قلت : فقد خلد رأى مالك فى الـكتب أيضا . قال : أبو حنيفة أكثر رأيا منه . قلت : فهلا تكلمتم فى هذا بحصته وهذا بحصته ؟ فسكت .

فان كان أبو حنيفة استعمل الرأى على الوجه المتقدم ، فهذا مالك وهذا الشافعى تكلم كل منهما بالرأى على الوجه المذكور أيضا ، فمعظم الأدلة التى أخذ بها الامام أبو حنيفة هى التى أخذ بها كل إمام ، وما انفرد بعضهم عن صاحبه إلا ببعض أحاديث ، وكلهم فى فلك الشريعة يسبحون. فالعاقل من أقبل على أقوال أبي حنيفة وأقوال جميع الأئمة وعمل بها بانشراح صدر لأنها لا تخرج عن مرتبتى الشريعة اللتين هما : التخفيف والتشديد . ولقد قال الامام الشعرانى : لقد بلغنا كل أقوال الإمام أبي حنيفة فما رأيت فيها قولا إلا وهو مستند الى صريح آية أو حـديث أو أثر أو مفهوم أو الى قياس على أصل صحيح ، وما رأيته استدل بحـديث ضعيف ، وإنما يستدل به إذا كثرت طرقه ، ولا خصوصية له بذلك بل يوافقه جميع الأئمة ؛ وقـد ثبت مدح الامام مالك ومدح الامام الشافعى لأبى حنيفة ، فلا عبرة باعتراض غيرهما على بعض أقواله .

٢ — أبو حنيفة عَـلَم المجدّدين — مدرسة الرأى وأئمتها :

على أنا لو سلمنا أن أبا حنيفة كان يجعل للرأى والقياس — فى حدود الشرع — اعتبارا ، ويحلهما المـكان الارفع ، فلا خصوصية له فى ذلك . وهـذا شأن المجددين — والاسلام دين تجديد وإصلاح ونهضة ، بنص الحديث السابق نشره — الذين لا يعرفون الجمود ، ويعتقدون أن الشريعة الاسلامية صالحة لـكل زمان ومكان ، وما من حادثة تحصل إلا ويمكن تطبيقها على قواعدها ومبادئها العامة ، وإيجاد حكم لها فيها مهما كانت هـذه الحادثة ، ولا تخدم شريعة الله تعالى بأفضل من هذا . ولم ينفرد أبوحنيفة باعتبار الرأى والقياس وإنزالهما المـكان الأسمى ، فقد ورد عن الصحابة رضى الله تعالى عنهم من اجتهاد الرأى والقياس على الأصول عند عدم النص ما يطول ذكره ؛ ونقل عن كثير من كبارهم وأعيانهم قضايا أفتوا فيها برأيهم ، كأبى بكر وعمر ، وزيد بن ثابت وأبيّ بن كعب ومعاذ بن جبل وغيرهم . والمتتبع لما ورد عن السلف يرى أن الذى كان يحمل لواء مدرسة الرأى عند فقد النص : عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه ، فـكان إذا أعياه أن يجد فى القرآن والسنة نَـظَـر هل كان فيه لأبى بكر قضاء ، فان وجد قضى به ، وإن لم يجد دعا رءوس الناس ، فاذا اجتمعوا على أمر قضى به . وجاء فى المبسوط للسرخسى « أن عمر كان يستشير الصحابة مع فقهه حتى إذا رفعت إليـه حادثة قال : ادعوا لى عليا ،

وادعوا لى زيدا . . . فكان يستشيرهم ثم يفصل بما اتفقوا عليه » . وأشهر من سار على طريقة عمر « عبد الله بن مسعود » ومعلوم أن علم أهل العراق كان عن عبد الله بن مسعود ، وأن مدرسة العراق أومدرسة الرأى توجت بأبى حنيفة ؛ وإذا تتبعنا تسلسل هذه المدرسة وجدنا أن أبا حنيفة أخذ عن حماد بن أبى سليمان ، وحماد أخذ عن إبراهيم النخعى ، وابراهيم أخذ عن علقمة بن قيس ، وعلقمة أخذ عن عبد الله بن مسعود ، وعبد الله أخذ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان صلى الله عليه وسلم يجتهد رأيه حيث لا يكون وحى ، كما ترى هذا فى مسألة أسرى بدر ، لأنه لو كان صلى الله عليه وسلم حكم فيها بمقتضى الوحى ما عوتب فى هؤلاء الأسرى . فمنبع العلم والتربية فى الاسلام ، ومصدر التشريع والحكمة ، هو رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال المزنى : الفقهاء من عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم الى يومنا هذا استعملوا المقاييس فى الفقه فى جميع الأحكام فى أمر دينهم ، وأجمعوا على أن نظير الحق حق ، ونظير الباطل باطل ، فلا يجوز لأحد إنكار القياس لأنه التشبيه بالأمور والتمثيل عليها .

وقال الحافظ ابن عبد البر : لا خلاف بين فقهاء الأمصار فى إثبات القياس فى الأحكام إلا من شذ ؛ وممن حفظ عنه أنه قال وأفتى مجتهدا رأيه وقايسا على الأصول فيما لم يجد فيه نصاً من التابعين :

أولاً — من أهل المدينة : سعيد بن المسيب ، وعروة بن الزبير ، وأبان بن عثمان ابن عفان ، وابن شهاب ، وأبو الزناد ، والإمام مالك بن أنس وأصحابه ، وابن أبى ذئب ، وابن دينار ، وابن الماجشون ، والقاسم بن محمد ، وسالم بن عبد الله بن عمر ، وربيعة الرأى .

ثانيا — ومن أهل مكة واليمن : عطاء ، ومجاهد ، وطاوس ، وعكرمة ، وعمرو بن دينار ، وابن جُرَيج ، ويحيى بن أبى كثير ، وابن عيينة ، ومسلم بن خالد ، والإمام الشافعى .

ثالثا — ومن أهل الكوفة : علقمة ، والأسود ، وشريح القاضى ، ومسروق ، وابراهيم النخعى ، والشعبى ، وسعيد بن جبير ، وحماد بن أبى سليمان ، وابن المبارك ، وسائر الكوفيين .

رابعاً — ومن أهل البصرة : الحسن ، وابن سيرين ، وإياس بن معاوية ، وعثمان البتى ، وسوار القاضى .

خامساً — ومن أهل الشام : مكحول ، والأوزاعى .

سادسا — ومن أهل مصر : الليث بن سعد ، وابن وهب ، وابن القاسم : وأشهب ، وابن عبد الحكم ، وسائر أصحاب الإمام مالك ؛ وأصحاب الامام الشافعى : المزنى والبويطى والربيع ، وغير هؤلاء من علماء الأمصار .

فعلم مما تقدم أن الامام أبا حنيفة لم يقدم الرأى على النص ، ولم ينفرد بالقول بالقياس على الأصول ، بل على ذلك كثير من الصحابة والتابعين وفقهاء الأمصار ؛ وسقط قول من عاب الامام أبا حنيفة بذلك جمودا منه وعدم إدراك لمدارك مذهبه ؛ وما كان أبو حنيفة جامدا ، ولكنه كان عَلَم المجددين ، وحاملا لواء التجديد ، وخير من يعمل للشريعة الاسلامية لجعلها جديدة دائما ، صالحة لكل زمان ومكان ، سادّة حاجات البشر وجميع حوادث الحياة المتجددة فى كل يوم ؟

السيد عفيفى

اختيار الاخوان

قال الفضيل بن عياض : من سخافة عقل الرجل كثرة معارفه .

هذه كلمة يفهمها من كان له قلب ، فإن لمعرفة الناس واجبات لا يصح التقصير فيها ، وإلا انقلب ودهم الى عداوة . فمن كثر معارفه كان منهم فى شغل دائم لا يكاد يفرغ لعمل صالح يؤديه لوطنه ولنفسه ولأهله . لأنه لا يخلو أن يكون منهم مريض ، يجب أن يعوده ، وعائد من سفر ، ينبغى أن يهنئه بالسلامة ، ومصاب بكارثة ، لا بد من مواساته ، ومحتاج لمعونة ، يفرض عليه أن يكون عند ظنه به ، الى غير هذه الأصول مما لا يمكن حصره ، فإذا قام بهذا كله لم يبق له وقت ينظر فيه لمصلحة عامة ولا خاصة . ولا سبب للتورط فى هذه العلائق إلا حب الظهور ، وهو داء دوى يؤدى الى عكس المراد منه . فكيف لا يكون من سخافة العقل التمادى فيه ؟

أليس الامام عبد الله بن المبارك أكيسَ الناس حين أجاب من سأله : ألا تستوحش من ملازمتك لكتبك وتركك الناس ؟ فقال : كيف أستوحش وأنا أجالس الله تعالى والملائكة والأنبياء والخلفاء والعلماء والأولياء والشهداء ، أفترون أن أدع مجالسة هؤلاء وأجالسكم ؟

وممن بنى على الأساس الذى وضعه الفضيل بن عياض ، حفص بن حميد ، حيث قال : من لم ينقص كل يوم صديقا لا يفلح أبدا .

والقصد فى هذا أن لا ينقطع الانسان عن الناس ، وأن لا ينهمك بهم ، وأن يتخذ بين ذلك سبيلا .

حكم اقامة القبور فى المساجد

وبناء المساجد على القبور

فتوى من حضرة صاحب الفضيلة مفتى الديار المصرية

أصدرت دار الافتاء فى الديار المصرية الفتوى الآتية فى شهر جمادى الآخرة الماضى :

كتبت وزارة الأوقاف ما يأتى : « يوجد بوسط مسجد عز الدين ايبك قبران ورد ذكرهما فى الخطط التوفيقية ، وتقام الشعائر أمامهما وخلفهما ، وقد طلب رئيس خدم هـذا المسجد الى محافظة مصر دفنه فى أحد هذين القبرين ، لأن جده الذى جدد بناء المسجد مدفون بأحدهما . فنرجو التفضل ببيان الحكم الشرعى فى ذلك » .

الجواب :

إنه قـد أفتى شيخ الاسلام ابن تيمية بأنه لا يجوز أن يدفن فى المسجد ميت لا صغير ولا كبير ولا جليل ولا غيره ، فإن المساجد لا يجوز تشبيهها بالمقابر .

وقال فى فتوى أخرى : إنه لا يجوز دفن ميت فى مسجد ، فإن كان المسجد قبل الدفن غير ، إما بتسوية القبر ، وإما بنبشه إن كان جديدا الخ ا هـ

وذلك لأن الدفن فى المسجد إخراج لجزء من المسجد عما جعل له من صلاة المكتوبات وتوابعها من النفل والذكر وتدريس العلم ، وذلك غير جائز شرعا ؛ ولأن اتخاذ قبر فى المسجد على الوجه الوارد فى السؤال يؤدى الى الصلاة الى هـذا القبر أو عنده ؛ وقد وردت أحاديث كثيرة دالة على حظر ذلك .

قال شيخ الاسـلام ابن تيمة فى كتاب اقتضاء الصراط المستقيم « ص ١٥٨ » ما نصه : إن النصوص عن النبى صلى الله عليه وسلم تواترت بالنهى عن الصلاة عند القبور مطلقا ، وعن اتخاذها مساجد أو بناء المساجد عليها . ا هـ

ومن الأحاديث ما رواه مسلم عن أبى مرثد الغنوى قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لا تجلسوا على القبور ولا تصلوا إليها » .

وقال ابن القيم رحمه الله فى زاد المعاد : نص الامام أحمد وغـيره على أنه إذا دفن الميت فى المسجد نبش . وقال ابن القيم أيضا : لا يجتمع فى دين الاسلام قبر ومسجد ، بل أيهما طرأ على الآخر منع منه ، وكان الحكم للسابق .

وقال الامام النووى فى شرح المهذب ج ٥ ص ٣١٦ ما نصه :

اتفقت نصوص الشافعى والأصحاب على كراهة بناء مسجد على القبر ، سواء كان الميت مشهورا بالصلاح أو غيره ، لعموم الأحاديث . قال الشافعى والأصحاب : وتكره الصلاة الى القبور سواء كان الميت صالحا أو غيره .

قال الحافظ أبو موسى : قال الامام الزعفرانى رحمه الله : ولا يصلى الى قبر ولا عنده تبركا به ولا إعظاما له ، للأحاديث . اهـ

وقد نص الحنفية على كراهة صلاة الجنازة فى المسجد لقوله صلى الله عليه وسلم : « من صلى على جنازة فى المسجد فلا أجر له » .

وعلل صاحب الهداية هذه الكراهة بعلتين : إحداهما أن المسجد بنى لأداء المكتوبات ، يعنى وتوابعها من النوافل والذكر وتدريس العلم . وإذا كانت صلاة الجنازة فى المسجد مكروهة للعلة المذكورة كراهة تحريم — كما هو إحدى الروايتين ، وهى التى اختارها العلامة قاسم وغيره — كان الدفن فى المسجد أولى بالحظر ، لأن الدفن فى المسجد فيه إخراج الجزء المدفون فيه عما جعل له المسجد من صلاة المكتوبات وتوابعها . وهذا مما لا شك فى عدم جوازه شرعا . والله أعلم .

الباقيات الصالحات

فى مدينة المنصورة حى آهل بالسكان والطلبة يطلق عليه « حوض البستان » لا يوجد فيه مسجد تقام فيه الشعائر الدينية .

وقد لاحظ جماعة من فضلاء المنصورة هذا النقص ، فانتدبوا لإكماله ، وألفوا جمعية لهذا الغرض برياسة الأستاذ على محمود شرف أسموها « جمعية تشييد مسجد حوض البستان وملحقته الصحية » وجعلت فى تصميم المشروع ملحقة صحية هى : حمام ومغسل ، ترفيها للطبقات الفقيرة .

وقد أهابت الجمعية بسراة المنصورة فلبوا نداءها وتبرعوا بالأرض وبالمال ومواد البناء . ولكن إتمام المشروع لا يزال فى حاجة الى مال ، ولذلك فهم يهيبون بطلاب الباقيات الصالحات أن ينفحوا الجمعية بشئ مما تسمح به نفوسهم الخيرة ، والله لا يضيع أجر المحسنين .

تاريخ علم التفسير

ونماذج من تفسير رسول الله صلى الله عليه وسلم

أثبتنا فى المقال السابق أن رسول الله صلى الله عليه وسلم فسر القرآن الكريم ، ولكنه ليس تفسيراً بالمعنى المعروف عند المتأخرين ، أى الذى يكون مرجعه قواعد اللغة والبلاغة وغيرها ، بل هو بيان لمراد الله سبحانه وتعالى من حيث التشريع وتقديم الأحكام ، وبيان ناسخه ومنسوخه ، ومحكمه ومتشابهه ، ومنطوقه ومفهومه ، وحلاله وحرامه ، وبيان ما فيه من أخلاق سامية ، ونظم اجتماعية عالية ؛ ومرجعه صلى الله عليه وسلم فى ذلك كله الوحى ؛ فلذلك قال بعض الأصوليين فى مباحث الاجتهاد : إن الرسول صلوات الله وسلامه عليه ليس له أن يجتهد فى الأحكام ، لأن غاية الاجتهاد ظن الحكم ، أى استفادة الحكم من الدليل على سبيل الظن ، والرسول صلى الله عليه وسلم يمكنه معرفة الحكم عن طريق العلم واليقين بالوحى . وخالفه بعضهم ، بل الجمهور على أن له أن يجتهد ، واستدلوا على ذلك بقوله تعالى : « عفا الله عنك لم أذنت لهم » ، وقوله صلى الله عليه وسلم : « لو استقبلت من أمرى ما استدبرت لما سقت الهدى » .

ولهم فى هذا الموضوع جدل وحجاج وأدلة واستدلالات ليست موضوعنا ، بل الذى أردنا أن نقرره هو أن تفسير النبى صلى الله عليه وسلم ليس تفسيرا بالمعنى الذى نعهده من كتب المفسرين ، فلا إعراب ولا استئناف بيانى ونحوى ، ولا نكات بلاغية ، ولا ما شابه ذلك مما سنعرض له عند تفسير الطبقات ، وإنما هو بيان للأحكام والتحذير من مخالفتها ، وشرح لمكارم الأخلاق والترغيب فيها ، وبيان ما فى القصص من جلال وروعة وعبرة لأولى الأبصار .

نماذج من تفسيره صلى الله عليه وسلم :

١ — عن الأشعث بن قيس رضى الله عنه قال : « كانت لى بئر فى أرض ابن عم لى ، قال النبى صلى الله عليه وسلم بينتك أو يمينه ، فقلت : إذاً يحلف يا رسول الله . فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « من حلف على يمين صَبْرٍ ليقتطع بها مال امرئ مسلم وهو فيها فاجر لقى الله وهو عليه غضبان » فأنزل الله تصديق ذلك : « إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا أولئك لاخلاق لهم فى الآخرة » الى آخر الآية » .

وكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكرون بهذه الآية الكريمة من تصدى ليمين ، فيعود عنه مخافة الله تعالى . فمن ذلك ما وقع لامرأتين كانتا تخرزان فى بيت فخرجت إحداها فادعت على الأخرى شيئا ، فرفع أمرهما الى ابن عباس ، فقال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« لو يعطى الناس بدعواهم لذهب دماء قوم وأموالهم ، ذكروها بالله واقرءوا عليها « إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم » الآية ، فذكروها فاعترفت .

٢ — عن عائشة رضى الله عنها قالت : « تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية : « هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات ، فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ـ الى قوله أولو الألباب » قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « فإذا رأيت الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمّى اللهُ فاحذروهم » .

٣ — قول الله تعالى : « وإنى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم » : روى أبو هريرة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « ما من مولود يولد إلا والشيطان يمسه حين يولد فيستهل صارخا من مس الشيطان إياه إلا مريم وابنها . ثم يقول أبو هريرة : واقرءوا إن شئتم « وإنى أعيذها » الآية .

٤ — قوله تعالى : « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » : روى أنس بن مالك قال : « كان أبو طلحة أكثر أنصارىّ بالمدينة نخلا ، وكان أحب أمواله إليه (بيرحا) ، وكانت مستقبلة المسجد ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب ، فلما أنزلت هذه الآية : « لن تنالوا البر » قام أبو طلحة فقال : يا رسول الله إن الله يقول : « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » وإن أحب أموالى الىّ بيرحا ، وإنها صدقة لله أرجو برها وذخرها عند الله ، فضعها يا رسول الله حيث أراك الله . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : بخ ! ذلك مال رابح ، ذلك مال رابح ، وقد سمعتُ ما قلتَ ، وإنى أرى أن تجعلها فى الأقربين . قال أبو طلحة : أفعلُ يا رسول الله ؛ فقسمها أبو طلحة فى أقاربه وفى بنى عمه » .

٥ — قول الله تعالى : « ولَتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا » : روى عن أسامة بن زيد رضى الله عنهما « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ركب على حمار على قطيفة فدكية وأردف أسامة بن زيد وراءه يعود سعد بن عبادة فى بنى الحارث بن الخزرج قبل وقعة بدر ، قال : حتى مر بمجلس فيه عبد الله بن أبى ابن سلولَ ، (وذلك قبل أن يسلم عبد الله بن أبى) ، فإذا فى المجلس أخلاط من المسلمين ، والمشركين عبدة الأوثان ، واليهود ، والمسلمين ، وفى المجلس عبد الله بن رواحة . فلما غشيت المجلسَ عجاجةُ الدابة خمّر عبد الله بن أبى وجهه بردائه ثم قال : لا تغبّروا علينا ! فسلم رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهم ، ثم وقف فنزل فدعاهم الى الله ، وقرأ عليهم القرآن ، فقال عبد الله بن أبى ابن سلول : أيها المرء إنه لا أحسن مما تقول إن كان حقا ، فلا تؤذنا به فى مجالسنا ، ارجع الى رحلك فمن جاءك فاقصص عليه ! فقال عبد الله بن رواحة : بلى يا رسول الله فاغشَنا به فى مجالسنا فإنا نحب ذلك ؛ واستب المسلمون والمشركون واليهود حتى كادوا يتثاورون ، فلم يزل النبى صلى الله عليه وسلم

يخفضهم حتى سكنوا . ثم ركب النبي صلى الله عليه وسلم دابته فسار حتى دخل على سعد ابن عبادة ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : يا سعد ألم تسمع ما قال أبو حُبَاب ؟ يريد عبد الله ابن أبي ، قال كذا وكذا ، فقال سعد بن عبادة : يا رسول الله اعف عنه واصفح عنه ، فوالذي أنزل عليك الكتاب لقد جاءك الله بالحق الذي نَزّل عليك ، وقد اصطلح أهل هذه البَحْرة على أن يتوجوه فيعصبوه بالعصابة ، فلما أبى الله ذلك بالحق الذي أعطاك الله ، شرِق بذلك ، فذلك فعل به ما رأيت . فعفا عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكان النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه يعفون عن المشركين وأهل الكتاب ، ويصبرون على الأذى . فذلك قول الله تعالى : « ولتسمعن » الآية » .

٦ — قول الله تعالى : « وإن خفتم أن لا تقسطوا فى اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء » : روى الامام البخاري بسنده عن ابن شهاب قال : « أخبرني عروة بن الزبير أنه سأل عائشة عن قوله تعالى « وإن خفتم أن لا تقسطوا فى اليتامى » فقالت : هذه اليتيمة تكون فى حجر وليها تشركه فى ماله ، ويعجبه مالها وجمالها ، فيريد وليها أن يتزوجها بغير أن يقسط فى صداقها فيعطيها مثل ما يعطيها غيره ، فنُهوا عن أن ينكحوهن إلا أن يقسطوا لهن ويبلغوا بهن أعلى سنتهن فى الصداق ، فأمروا أن ينكحوا ما طاب لهم من النساء سواهن . قال عروة قالت عائشة : وإن الناس استفتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد هذه الآية فأنزل الله « ويستفتونك فى النساء » . قالت عائشة : وقول الله تعالى فى آية أخرى : « وترغبون أن تنكحوهن » رغبة أحدكم عن يتيمته حين تكون قليلة المال والجمال ، قالت : فنهوا أن ينكحوا من رغبوا فى ماله وجماله فى يتامى النساء إلا بالقسط من أجل رغبتهم عنهن إذا كن قليلات المال والجمال » .

٧ — قول الله تعالى : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما » : روى البخاري بسنده عن عروة قال : « خاصم الزبير رجلا من الأنصار فى شَريج من الحَرّة ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : اسق يا زبير ثم أرسل الماء الى جارك ، فقال الأنصاري يا رسول الله آن كان ابن عمتك ! فتلون وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : اسق يا زبير ثم احبس الماء حتى يرجع الى الجَدْر ، ثم أرسل الماء الى جارك ؛ واستوعى النبي صلى الله عليه وسلم للزبير حقه فى صريح الحكم حين أحفظه الأنصاري ، كان أشار عليهما بأمر لهما فيه سعة . قال الزبير : فما أحسب هذه الآيات إلا نزلت فى ذلك » .

هذه نماذج من تفسير القرآن فى عصر النبي صلى الله عليه وسلم . وسنواصل كتابة هذه النماذج ، ثم نعلق عليها ونقارن بينها وبين تفسير الطبقات . والله الموفق ؟

حسن حسين

رجاء فى دولة رئيس الوزراء

من فضيلة شيخ علماء الاسكندرية

تشرف حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمود أبو العيون شيخ علماء الاسكندرية ، بمقابلة حضرة صاحب الدولة حسن صبرى باشا رئيس مجلس الوزراء ، فكاشف دولته بما يرجوه الناس على عهده من العناية بالأعراض والآداب العامة ، فوجد أن هذا الإصلاح من أوليات مقاصده ، فشكر لدولته هذه العناية ، ورفع الى دولته الكتاب التالى :

« نصيحتنا لدولة الوزير الأكبر ، أن يرقب الله فى كل ما يعمل ، وأن يسترشد فيه بذوى الضمائر والذمم ، وأن يؤثر مصلحة الجماعة على مصلحة الفرد ، وأن يرقب الحوادث عن كثب فى حذر ويقظة ، فانها تمر كالبرق لا تملى ولا تمهل ، وأن يمثل لنفسه دائما شهداء التاريخ الذين جادوا بالنفائس والأعلاق فى سبيل الذياد عن كرامة البلاد ، وحقوق الوطن .

« ثم الدين والأخلاق يادولة الوزير المصلح ، فإنه لن يصلح أمر هذه الأمة إلا بالاعتصام بالدين ، والحفاظ على تقاليده وشعائره ، ولا يفسد أمرها إلا بالتفريط فى دينها ، والتورط فى أخلاقها ، وعكوفها على لذاتها وشهواتها ، خصوصا فى الظروف التى تتجه فيها القلوب ، وتنصرف فيها الى الله سبحانه وتعالى ؛ وأمتنا — أعاذها الله من سخطه ونقمته ! وهى ما هى من الجوع والقحط ، والهلع والكرب ، ومصيرها المعلق بخيط الهباء — لاهية عن دينها ، منحلة فى أخلاقها ؛ فانظر — يارعاك الله — الى الملاهى والمسارح والمقاصف ، وأندية القمار ، وحانات الخمور ، وبيوت الفساد والشرور ، تجدها مكتظة عامرة ، ذاخرة بالشباب الضائع ، بالعشى والإبكار .

« ولقد نعلم يادولة الوزير أنك نشأت فى الصلاح والتقوى ، وأنه ليعز عليك أن ترى أمتك على هذا المثال فى وقت ترى فيه الأمم الأخرى قضت على كثير من الشرور والآثام ؛ وكلمة حازمة منك يادولة الوزير بصفتك حاكما عسكريا ، تنقذ البلاد والعباد من هذه البوائق المهلكة للأنفس والأموال والشرف ، حتى يتأذن الله بانفراج هذه الجائحة العاتية . إن يكن ذلك صلح حال هذه الأمة ، وحسن مصيرها ، وإلا يكن — لا قدر الله — كنا من الهلاك الأدنين .

فإما الى صداحة تطرب الورى   وإما الى نواحة فى المآتم

« وفقك الله ، وأمتعك بالحسنى ، فى ظل حضرة صاحب الجلالة الملك الصالح ، ملك مصر المعظم ، فاروق الأول ، نصره الله وأعزه ، وأيد ملكه » .

محمود أبو العيون
شيخ علماء الاسكندرية

من آداب الشريعة وأخلاقها

ما من ظاهرة من ظاهرات هـذا المجتمع تشع عليه نورا وبهجة ، وتملأ مناحيه خيرا وبركة ، إلا كان لها مرد من الشريعة ، ومصدر من الدين .

ولقد عنيت الشريعة فيما عنيت بتطهير المجتمع من أرجاسه ، فأقامت حدوداً للفضائل إذا عولجت بالاخلاص فى العمل أثمرت ثمرتها المرجوة لها .

فبينما تحظر على الناس ريع التدابر والتقاطع والتناحر ، وتجنبهم مزالق المحظورات الخلقية ، إذا بهـا تدعو الى حماية الفرد والجماعة والأمة من غوائل الانقسام ، وتدعو الى الاتحاد والتعاضد . فهى تدعو الى البر بالأبوين ، وبر الأبناء ، وصلة الرحم ، وبر الأتباع ، ورحمة اليتيم والأرملة ، وتدعو الى رعاية حقوق الجار ، وحقوق المسلم على المسلم .

فيروى الشيخان فى صحيحيهما عن أبى هريرة رضى الله عنه « أن رجلا جاء الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله من أحق الناس بحسن صحابتى ؟ قال : أمك ، قال : ثم من ؟ قال : أمك ، قال : ثم من ؟ قال : أمك ، قال : ثم من ؟ قال : ثم أبوك » . ويروى مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة رضى الله عنه « أن رجـلا قال يا رسول الله من أحق الناس بحسن الصحبة ؟ قال : أمك ، ثم أمك ، ثم أمك ، ثم أبوك ، ثم أدناك فأدناك »

وروى أبو هريرة رضى الله عنه قال : « قبّـل رسول الله صلى الله عليه وسلم الحسن بن على وعنده الأقرع بن حابس التيمى جالسا ، فقال : إن لى عشرة من الولد ما قبلت منهم أحدا ، فنظر إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال : من لا يرحم لا يرحم » . رواه البخارى وأبو داود والترمذى . ويروى البخارى فى صحيحه عن أسامة بن زيد رضى الله عنهما « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يأخذنى فيقعدنى على فخذه ويقعد الحسن على فخذه الأخرى ثم يضمهما ثم يقول : اللهم ارحمهما فانى أرحمهما » . وروت عائشة رضى الله عنها قالت : « جاء أعرابى الى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : أتقبلون الصبيان ؟ فما نقبلهم . فقال النبى صلى الله عليه وسلم : أو أملك لك أن نزع الله من قلبك الرحمة ؟ ! » رواه الشيخان .

ثم تتسلسل الفضائل التشريعية التى لا بد منها لحماية المجتمع ، فتشيد الشريعة المطهرة بالبر بذوى الأرحام ، ثم تتأكد صلتها وتتوثق توثقا يقوم على تركيزه فى النفوس والأخلاق ، ذلك التضافر الوثيق الذى جاء فى القرآن الكريم والأحاديث الصحيحة . قال الله تعالى : « وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيرا »

وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من سره أن يبسط له فى رزقه ، وأن ينسأله فى أثره ، فليصل رحمه » رواه الثلاثة .

ويأتى بر الأتباع ، والمراد بهم الخول والمماليك . يروى أبو داود والترمذى فى صحيحيهما عن أبى مسعود رضى الله عنه قال : « كنت أضرب غلاما لى فسمعت صوتا من خلفى : اعلم أبا مسعود ، مرتين ، لله أقدرُ عليك منك عليه ! فالتفتّ فإذا هو النبي صلى الله عليه وسلم ، فقلتُ : يا رسول الله هو حر لوجه الله . قال : أما لو لم تفعل للفحتك النار ، أو لمستك النار » .

فتلك المبادئ الرحيمة التى وردت بلسان صاحب الشريعة المطهرة ، شاهد عدل على أن خلود تلك الشريعة وقيامها على أسس صالحة ومناهج من الخير قويمة ، آية الآيات على ملابستها لكل زمن ، ومسايرتها لكل جيل .

ولم تكن تلك الشريعة فى سمو مبادئها معنية بتلك الأخلاقيات التى تخلع على المجتمع أمثل المناهج وأنبل الأشكال ، وتحوطه بسياج منيع من الأخلاق الفاضلة فحسب ، بل هى معنية أيضا بتنظيم الأسرة وحماية الفرد ، ورعاية ما لكل على أخيه من الحقوق المفروضة ، فقد عنيت الشريعة بنظام الأسرة ، وهى أول حجر فى بناء المجتمع ، فشرعت فيما شرعت قيود النكاح فى الزيجة ، وشروطه وأحكامه وأركانه ، ثم موانع النكاح الشرعية ، وبيان المحللات والمحرمات من النساء ، ثم الولاية على النكاح ، ثم فى الوكالة بالنكاح ، ثم فى الكفاءة ، ثم فى المهر ، ثم فى وجوب المهر . ثم عن الحالات التى يجب للزوجة فيها نصف المهر ، والتى لا تستحق فيها شيئا منه ، ثم عن شروط المهر وقبضه وما للمرأة من التصرف فيه ، ثم فى ضمان المهر وهلاكه واستهلاكه واستحقاقه ، ثم فى قضايا المهر ، ثم فى نكاح المسلم للكتابيات ، وفى النكاح الغير الصحيح والنكاح الموقوف ، وهكذا مما يتصل بتنظيم حياة الأسرة وإقامتها على أسس السعادة والرخاء ، مما سوف نعالج بيانه فى أعداد تالية ، إن شاء الله ؟

عباس طه



(الانتشار الاسلامى بين مختلف الشعوب لا يمكن وقفه)

(وأثر الجامعة الأزهرية فيه)

جاء فى جريدة (لا سومور فودوا السويسرية) Le Semeur Vaudois تحت عنوان (على ذكر خريطة) (١) ما يأتى :

« يعلم الناس أن للاسلام قوة انتشار عظيمة . وقد عالجت هذا الموضوع مجلات وجرائد كثيرة جدا . ونحن ننشر هنا للتدليل على صحة هذا الأمر خريطة ذات دلالة قوية فى هذا الموضوع ظهرت فى عـدد شهر فبراير سنة ١٩٣٨ من مجلة (ليفانجلياش دائشلاند) . وهى منقولة من كتاب الأستاذ (بول شمتز) المطبوع عند جولدمان بمدينة لبزج . وهى توضح بطريقة مؤثرة جميع الممالك التى أصبحت إسـلامية محضة ، وجميع البقاع العالمية التى انتشرت فيها طلائعه ، وخاصة ما كان منها فى أفريقا وآسيا .

« وقد ظهر مقال للاستاذ (مينولف كوسترس) فى مجلة (دائش رندشو) فيه تفصيلات عن هـذه الحركة الانتشارية ، جاء فيه : « إنه من مائة وثلاثين مليونا من الأفريقيين أصبح سبعون مليونا يسيرون تحت لواء النبى . وقد أصبح جميع شمال أفريقا إسلاميا . وقـد كان عدد المسلمين فى مستعمرة (دائش أوستافريقا) مائتين وخمسين ألفا قبل الحـرب الماضية ، فأصبحوا الآن ثلاثة ملايين! وتأثير الاسلام يمتد حتى جنوب أفريقا . والسبب فى ذلك أن الجامعة الأزهرية بالقاهرة ، وهى مركز الدعوة الى الاسلام ، ترسل مندوبين غيورين الى جميع الأقطار الأفريقية . وتصدر جرائد كثيرة فى البلدان الـكبيرة ، وترسل الى تلك البقاع حاملة رسالة الـكفاح ضد المسيحية ، والثقافة النصرانية الى وسط تلك القارة الـكبيرة » . انتهى ما قاله الأستاذ مينولف كوسترس .

---

(١) نشر الاستاذ شميتز Shmitz كتابا أسماه (الاسلام فى الغد) ذكر فيه ما يصادفه الاسلام من الانتشار العظيم وخاصة فى هذا العصر فى أفريقا وآسيا حتى يـكاد لا يدع فيهما مكانا لغيره . وقد نشر خريطة لون الممالك الاسلامية فيها بلون أسود يتضح منها أن هاتين القارتين تـكادان تصبحان إسلاميتين صرفا .

« وقد بين الأستاذ د . ج . ريشتر ، وهو عالم إخصائى فى هذه الشئون فى فصل مفيد جدا نشره عن التطورات البعيدة المدى التى حدثت فى العالم الاسلامى جاء فيه قوله : « إن التطور الاسلامى قد أصبح من أكبر الحوادث التاريخية للعصر الحاضر ، فيجب تتبعه بأكبر ما يمكن من الانتباه » انتهى .

هذا ما جاء فى جريده (لوسومور فودوا) السويسرية ، وهو موضوع كما يعرف القراء ليس بحديث العهد ، فقد كتب جميع المبعوثين الدينيين الأجانب عنه بحوثا ضافية ، أشهرها ما نشره الكاردينال لافيجرى Lavigeri الفرنسى فى أواخر القرن التاسع عشر ، فقد شكا مر الشكوى من فشل الدعوات النصرانية فى القارة الافريقية ، وقال إن الدراويش البسطاء ، والتجار الذين يجوبون تلك الأقطار ينشرون الاسلام أينما حلوا ، فيقبل عليهم الناس أيما إقبال ، ويعاهدونهم على الاسلام دون أية مقاومة .

وقد أيد الكردينال لافيجرى مبعوثون كثيرون ، ولا يخفى أن هؤلاء يتذرعون للتحبيب فى ملتهم بالمال الوفير ، وبالوسائل التعليمية والتطبيبية ، ولكن كل ذلك لم يجدهم نفعا . حتى قالوا إن من يصبأ الى ملتهم من المتوحشين لا يلبث أن يهرب الى المسلمين ، وإن كان لا يجد لديهم بعض ما يجده عند أولئك الدعاة من العيش الرغيد .

ينصح الأستاذ رشتر فى البحث الذى نشره عن تطور العالم الاسلامى ، المهتمين بأمر الدعوة الدينية ، أن يتتبعوا بانتباه عظيم حركة ذلك التطور ، وماذا يفيدهم ذلك التتبع الدقيق ؟ أليس الأولى أن يدرسوا العلة الحقيقية فى هذا التهافت على الاسلام من أمم وشعوب وقبائل عريقة فى الوثنية ، عجزت جميع المغريات المادية عن تحويلها عنها ، ونجحت دعوة مجردة من جميع المسولات لنشر هذا الدين ؟

أما وقد أغفلوا ذلك فنحن نتولى بيان هذه العلة خدمة للعلم والفلسفة والدين ، فنقول :

تلك العلة هى أن الاسلام دين سهل ترتاح له النفس ويستسيغه العقل بدون شرح ولا تعمق فى التدليل ، يجد فيه كل من الساذج والمثقف ثلَجا فى الصدور ، وسكَنا فى القلب ، يهب على الأول من ناحية ملاءمته للفطرة الانسانية ، ومناسبته للغرائز الجبِلية ، وعلى الثانى من جهة ما يُفيض عليه من نور يكشف له من معضلات التدين ، ومشكلات الاعتقاد ، ما كان يحيك فى صدره ولا يجد له مصرفا ، ويَرين على صدره ولا يصادف منه مخرجا ، فلا يعود يشعر بحرج فى نفسه يقيمه ويقعده ولا يرى عنه مَعْدِلا . وهذا ما أشار اليه الحق جل شأنه بقوله : « وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين » ، وقوله تعالى : « يأيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين » .

هذا الشفاء للصدور هو الذى يحمل النفوس على الترامى على الاسلام لأول معرفتها به ،

حتى يمكن أن يقال إنه لا يحتاج الى دعوة غير التعريف به . وقد فتح الله مغالق قلوب أهل الجاهلية الجهلاء بهذا القرآن وحده ، فله ينسب هـذا الانتشار الذى صادفه الاسلام لأول ظهوره مما ليس له مثيل فى تاريخ العالم ، ولا يزال يفتح به الدعاة اليه القلوب الغُلف التى يتصدون لها ، وكان إذا أراد النبى صلى الله عليه وسلم أن يدعو قوما الى الاسلام قرأ عليهم آيات من القرآن ، فلا يلبثون أن يمدوا اليه أيديهم يعاهدونه على الايمان .

فهذا التأثير العظيم ، لهـذا الكتاب الكريم ، لا يجوز أن يغفل البحث فى مصدره ، وخاصة فى هذا العصر ، عصر التحليلات المعمقة ، والمقارنات المدققة . أما التفكير فى صده فما لا سبيل اليه . فلقد عملت على هـذا الصد جماعات وأمم فى خلال تاريخه فلم يستطيعوا أن يضعفوا من توثبه ، بل زادوه قوة على قوته . وقد أنبأ الله المسلمين بأن كل صد لهذا الدين محكوم عليه بالفشل مهما كان مصدره ، ومهما كانت الوسائل التى تبذل فيه ، فقال تعالى : « ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله ، فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ، ثم يغلبون »

وقد صدق هذا الوعيد مرات لا تحصى فى ظروف تاريخية معروفة . وقد تحقق فى هذا العصر على أوضح ما يكون . فإن دعاة الملل يصرفون ملايين الجنيهات ليضعفوا بها من سريان هذا الدين فلم يحصلوا على طائل ، فأنفقوا أموالهم وباؤوا بالفشل كما قال وعد الله بذلك وأيده فى آيات أخرى منها : « يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره » .

ولو كان الاسلام دينا يمكن صد تياره لأمكن ذلك فى مثل هـذا العهد الذى طمت فيه الشكوك ، وعمت فيه الشبهات ، ونسى الناس فيه أنفسهم ، من الضوضاء الفاتنة المصمة ، التى تحدثها هذه المدنية الساحرة . وإنك لتراه على عكس ما كان متوقعا ، تراه يخوض غمرات هذه الفتنة العمياء فيفتح فيها الى القلوب طريقا . ألست ترى خفوف الناس فى كل بلد من بلاده الى تأليف الجمعيات للتذكير بآياته والإهابة الى بيناته ، وانتداب الأفراد الى إصدار المجلات لنشر فضائله ، والاشادة بذكر دلائله ؟ وقد تعدت هذه الحركة مواطنه الى البلاد الأجنبية فكثر الباحثون فيه ، والمعجبون به ، مما نلم به فى كل عدد يصدر من هـذه المجلة نقلا عن المصادر العلمية الوثيقة .

فإذا كان هـذا كله والفتنة متغلبة ، والشبهات متوثبة ، والنفوس منصرفة ، والعقول معقولة ، فما ظنك حين تنجاب هذه الكِسَف عن الصدور ، وتزول هـذه الغشاوات عن العيون ، وينشط الناس لتنور الحقائق واتباعها ، وتعرف الأباطيل واجتنابها ؟ عند ذاك ترى ما لا يخطر لك ببال من تدافع الناس بالمناكب دخولا الى حظيرة هذا الدين ، وفى الوقت نفسه تعرف أن ثوران هذه الشبهات التى كنت تشكو منها كانت سببا مباشرا فى تجلية حقائق هذا الدين ، فكأنها كانت محكا له .

محمد فريد وجدى

اقامة الصلاة الجامعة لاجل السلام

بأمر حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم

حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الامام الشيخ المراغى يؤم المصلين

تفضل حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم ، فأوفد حضرة صاحب المعالى أحمد حسنين باشا رئيس ديوان جلالته ، الى حضرة صاحب الدولة حسن صبرى باشا رئيس مجلس الوزراء ، بالرسالة الملكية الكريمة التالية :

« فاروق الأول ملك مصر بعون الله .

« بما فطر عليه من حب السلام والوئام بين الأمم ، يدعو المسلمين فى مصر والسودان ، وإخوانه المسلمين فى سائر الأمصار ، الى صلاة جامعة تقام ليلة النصف من شهر شعبان الحاضر المبارك ، بين صلاة المغرب والعشاء ، تتلوها توجهات الى الله سبحانه وتعالى ، ودعوات بأن يرسل رحمته على العالم ، ويعيد اليه قريبا عهد سلام ووفاق ، يداوى جراح الانسانية ، ويعلى قدر المدنية ؛ وأن يقى بلاد المسلمين من كل شر ، ويعلى قدر الاسلام والمسلمين » .

***

وقد أذيعت هذه الرسالة بالراديو لإبلاغها للعالم الاسلامى بالموجة القصيرة وبالموجة المتوسطة .

***

تصريح لفضيلة الأستاذ الامام عن هذه الصلاة

وقد أفضى حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الامام لمندوب جريدة المقطم عقب صدور هذا الأمر الكريم بما يلى :

« إن النداء الملكى السامى الكريم ، يدل على عاطفة كريمة نحو العالم جميعه ، لا فرق بين المسلمين وغير المسلمين ، وعلى حب السلام بين الأمم ، وعلى كراهة شديدة لما يجرى فى العالم الآن من التخريب والتدمير والتقتيل .

« واتجاه جلالة الملك المعظم الى المسلمين جميعهم فى بقاع الأرض ، والعبارة الكريمة التى اختارها ، من نداء المسلمين بوصف الإخاء الاسلامى ، يبينان بأجلى بيان مقدار عناية جلالته بالمسلمين جميعهم ، وحبهم جميعهم حب الأخ لأخيه ، اتباعا لقول الله تعالى « إنما المؤمنون إخوة »

« والرجاء عظيم فى أن يقدر العالم جميعه هـذه العاطفة الكريمة حق قدرها ، وتستيقظ فى الأمم عاطفة الإخاء الانسانية حتى تنتهى الأحـوال المكدرة ، ويحل الصفاء والسـلام فى العالم » انتهى .

وقد أدى حضرة صاحب الجلالة الصلاة الجامعة بعد المغرب من ليلة النصف من شعبان فى مسجد الفتح ، وقد أم المصلين حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الامام . وبعد صلاة الركعتين التى نص عليهما فقهاء الحنفية والمالكية ، دعا فضيلته الدعاء الذى سيأتى بعد .

وقد تولى فضيلة مدير المساجد إذاعة لاسلكية تضمنت كيفية أداء هذه الصلاة والدعاء المأثور فيها ، وفاقا لما تضمنته الرغبة الملكية السامية .

وهـذا نص الدعاء البليغ الجـامع الذى فاه به حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الامام عقب الصلاة :

« لا إله إلا الله الحليم الكريم ، رب العرش العظيم ، نحمده وهو الحقيق بالثناء ، ونضرع اليه وهو المقصود بالدعاء ، ونصلى على خاتم أنبيائه ورسله ، وعلى آله الأطهار ، وصحبه الأخيار .

« إلهى أنت أكرم من قصد اليه المضطرون ، وأمل فيما لديه الراغبون ، نسألك موجبات رحمتك ، وعزائم مغفرتك ، والغنيمة من كل بر ، والسـلامة من كل إثم ، لا تدع لنا ذنبا إلا غفرته ، ولا همًّا إلا فرجته ، ولا حاجة هى لك رضا إلا قضيتها ، يا أرحم الراحمين .

« إلهى أسرف الناس فى العصيان ، وتمادوا فى الطغيان ، فإن تعذبهم فإنهم عبادك ، وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم ، لكننا نلجأ الى عزتك ، ونستجير برحمتك ، ونطلب عفوك ، ونستمنح رضاك .

« إلهى نسألك أن ترفع عن العالم غضبك ، وأن ترسل عليه رحمتك ، وأن تعيد اليه عهد سلام يداوى جراحه ، ويكشف بلواه ، وأن توقظ فيه بنفحة من النفحات الإلهية عاطفة الإنسانية ، وتزيل عنه أحقاده التى أكلت القلوب ، وغطت على العقول ، وأظمأت النفوس الى الدماء ، وحببت اليها الخراب والدمار .

« إلهى أسألك أن تصون بلاد المسلمين من كل سوء ومكروه ، وأن تعيد الى الاسـلام عزه ومجده ، وأن ترد الناس الى الحق والعدل ، وتأخذ بيدهم الى الصراط المستقيم .

« إلهى أسألك أن تقى مصرنا العزيزة من الضر ، وأن تحفظ لنا مليكنا المحبوب فاروقا الأول ، وأن ترعاه برعايتك التى لا يخذل من شملته ، ولا يضام من أظلته ، أنت حسبنا ونعم الوكيل ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم . »

بسم الله الرحمن الرحيم

السيرة المحمدية

تحت ضوء العلم والفلسفة

وقعة احُد — درس عملى فى وجوب إطاعة القيادة العليا

لقد أصاب الجاهليين من اندحارهم ببدر شر عظيم ، فقد قتل سبعون من أشرافهم ، ووسموا بعار لا يمحوه إلا انتصار عظيم الشأن ينالونه من المسلمين ، ليستردوا به مكانتهم من قلوب العرب ، باعتبار أنهم القائمون على تمثيل الدين الذى يقدسونه ، وحماية البيت الذى يحجونه .

وكان أشد ما يحفزهم للتفكير فى حل جماعة المسلمين ، والاستبسال فى مقاتلتهم ، أنهم بقيامهم فى طريق تجارتهم الى الشام ، يوصدون فى وجوههم بابا من الرزق ، لو ظل موصدا أصبح مُقامهم فى مكة من المحال ، واضطروا الى أن يعيشوا معيشة البدو الرُحَّل ، ييممون منابت الكلأ حيث كان ، كما يفعل البدو الذين يعيشون على ما يقتنونه من الأنعام ، وهى حياة لم يألفوها ، بَلهَ أنها تضطرهم لترك البيت وشأنه يتولى أمره من يستطيعه ، فيسرع اليه المسلمون ، ويكون فى ذلك القضاء الأخير عليهم وعلى ملتهم .

والذى جعلهم يلمسون هذا المصير الحتم ، أنهم لما أدركوا استحالة وصولهم الى الشام من طريق يثرب ، عولوا على اتخاذ طريق آخر اليها من ناحية العراق ، فأرسلوا قافلة تجارية من ذلك الطريق يحميها فريق من أشداء قريش ، معهم سفيان بن حرب ، وصفوان بن أمية ، وحويطب ابن عبد العزى ، وهم من صناديد قريش ، فبلغ خبرهم النبى صلى الله عليه وسلم ، فأرسل لملاقاتهم كتيبة من مائة راكب تحت إمرة زيد بن حارثة ، وكان ذلك فى جمادى الآخرة من السنة الثانية للهجرة ، فالتقوا بالقافلة عند ماء اسمه القردة بنجد ، فتقاتل الفريقان ، وانتصر المسلمون وغنموا التجارة ، وهرب حماتها قانعين من الغنيمة بالإياب . فأدرك المشركون أن لا منجاة من المسلمين إلا بإبادتهم ؛ فأسرعوا للعمل على ذلك قبل أن يخرج الأمر من يدهم . فلندعهم قليلا لنرى ماذا حدث فى جماعة المسلمين بعد وقعة بدر .

الأعمال الاسلامية بعد وقعة بدر :

(غزوة بنى قينقاع) — لما حل النبى صلى الله عليه وسلم بالمدينة ، كان بجوارها قوم من اليهود يقال لهم بنو قينقاع كانوا قد عقدوا بينهم وبين المسلمين معاهدة عدم اعتداء . ولكنهم

لما آنسوا انتصار المسلمين ببدر ، أمضّهم هذا الأمر وأخذوا فى معاكسة المسلمين ، فاعتدوا على سيدة من نساء الأنصار . فدعا النبي رؤساءهم وحذرهم عاقبة البغى . فقالوا له : « يا محمد لا يغرنك ما لقيت من قومك فإنهم لا علم لهم بالحرب ، ولو لقيتنا لتعلمن أنا نحن الناس » . فأمره الله أن يبلغهم قوله تعالى : « ستغلبون وتحشرون الى جهنم وبئس المهاد . قد كان لكم آية فى فئتين التقتا (يريد المسلمين وجيش المشركين ببدر) ، فئةٌ تقاتل فى سبيل الله ، وأخرى كافرة ، يرونهم مثليهم رأى العين ، والله يؤيد بنصره من يشاء ، إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار » . فلم يرفعوا بهذا القول رأسا ومضوا فى بغيهم . فحاصرهم النبي صلى الله عليه وسلم ، فأدركهم الرعب ، فطلبوا الخروج بأنفسهم دون أموالهم . فقبل رسول الله طلبهم ، وَجلَوا قاصدين الشام .

(غزوة السويق) — لما بلغ أبا سفيان بن حرب خبر قتل ابنه فى معركة بدر ، هاج هائجه وأقسم أن لا يمس رأسه ماء حتى يغزو محمدا ، وسوّلت له حمية الجاهلية أن يخرج فى مائتين من رجاله ، وقصد أن يقابل رئيس بنى النضير من اليهود ليستنصر بقومه ، فلم يسمح بمقابلته ، فأرسل بعض رجاله فحرقوا نخلا بجوار المدينة ، وصادفوا أحد الأنصار فقتلوه . فخرج إليه النبي صلى الله عليه وسلم فى مائتين من المسلمين ، فلما بلغه ذلك أدركه الرعب ، فهرب هو ورجاله ، وأخذوا يخففون أثقالهم بالقاء ما لديهم من الدقيق المتخذ من الحنطة والشعير ، ويسمونه السويق . فسميت هذه الغزوة لهذا السبب بغزوة السويق .

(زواج على بن أبى طالب بفاطمة الزهراء) — فى هذه السنة وهى الثانية ، تزوج على ، وعمره إحدى وعشرون سنة ، بفاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسنها خمس عشرة سنة . وفيها دخل رسول الله بعائشة بنت أبى بكر أم المؤمنين .

(غزوة بنى غطفان) — دخلت السنة الثالثة بعد الهجرة ، وفى ربيع الأول منها أجمع بنو ثعلبة ومحارب من غطفان على الإغارة على المدينة ، فخرج إليهم رسول الله فى أربعمائة وخمسين رجلا . فلقيه رجل منهم يقال له دعثور ، فلما وعى منه الاسلام ، عاد الى قومه وحضهم على الدخول فيه ، فأسلموا جميعا .

(غزوة بحران) — نمى الى النبي صلى الله عليه وسلم أن جمعا من بنى سليم يريدون الإغارة على المدينة ، فخرج إليهم فى ثلاثمائة من أصحابه ، فهرب المغيرون .

(سد طريق العراق على تجارة قريش) — لما لم يطق المشركون من أهل مكة صبرا على انقطاع تجارتهم ، حاولوا الاتصال بالشام من طريق العراق تحت قيادة أبى سفيان بن حرب وغيره من صناديدهم ، فأرسل النبي صلى الله عليه وسلم كتيبة من جنوده فاستولوا على قافلة التجارة وهرب حماتها .

(غزوة أحد) — عود على بدء — درس عملى فى وجوب إطاعة القيادة العليا :

قلنا لما آنس القرشيون أن طرق التجارة استدت فى وجوههم ، لم يبق لهم إلا أحد أمرين : إما الاستماتة فى التغلب على المسلمين ، أو الهجرة من مدينتهم والتفرق فى الأرض لطلب الرزق ، فآثروا الوجه الأول ، واجتمع نحو ثلاثة آلاف رجل منهم تحت قيادة أبى سفيان بن حرب ، ومعهم الأحابيش حلفاؤهم (١) ، وأبو عامر الراهب ومعه عدد ممن على شاكلته . وخرج معهم جماعات من أعراب كنانة وتهامة ، وساروا حتى نزلوا مقابل المدينة بذى الحليفة .

فلما بلغ النبى صلى الله عليه وسلم خبرهم ، استشار أصحابه فى البقاء بالمدينة والدفاع فيها ، أو فى الخروج اليهم ؛ فرأى أكثرهم أن الخروج اليهم أمثل ؛ فسار سحرا على رأس ألف رجل حتى إذا بلغ (الشوط) ، وهو بستان بين أحد والمدينة ، نكص عبد الله بن أُبَىّ شيخ المنافقين على عقبيه ، ونكص معه ثلاثمائة ممن هم على شاكلته .

فلما رأت طائفتان من المؤمنين ممن كانوا قريبى عهد بالاسلام تخاذُلَ هذه الجماعة ، تولاهما الخور ، وكادتا أن تنحوا نحوهما ، فعصمهما الله من ذلك . وفى ذلك نزل قوله تعالى : « إذ همّت طائفتان منكم أن تفشلا والله وليهما ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون » .

وتحدث بعض المسلمين فى وجوب قتال المتخذلين ، فأنزل الله فى ذلك قوله تعالى : « فما لكم فى المنافقين فئتين (أى ما لكم افترقتم فى أمرهم الى رأيين) ، والله أركَسَهم بما كسبوا ، أتريدون أن تَهدُوا من أضل اللهُ ، ومن يضلل اللهُ فلن تجد له سبيلا » فتركوهم .

ثم ساروا حتى نزلوا الشّعب من أُحُد ، وهو جبل فى الشمال الشرقى من المدينة ، جاعلين ظهورهم الى الجبل ووجوههم الى المدينة ، ونزل المشركون ببطن الوادى ، وكان على ميمنتهم خالد بن الوليد (وكان لم يسلم بعد) ، وعلى ميسرتهم عكرمة بن أبى جهل ، وعلى المشاة صفوان ابن أمية . واستحضر الرماة وكان عددهم خمسين فجعلهم خلف الجيش على ظهر الجبل ، وأمرهم أن لا يبرحوا مكانهم سواء أكان المسلمون منتصرين أم منهزمين . فابتدأ القتال بالمبارزات الفردية على عادة العرب ، ثم حملت خيالة المشركين ثلاث مرات وفى كل مرة يرتدون على أعقابهم ، بسبب ما يصيبهم من النبال ، ثم التقت المشاة وحمى الوطيس ، وكان نساء المشركين ينشدن الأناشيد يحمسن الرجال ، فلم تجدهم حماستهم نفعا ، لأن المسلمين على قلة عددهم صبروا لهم صبر الكرام ، وماهى إلاساعة حتى شعر المشركون بالخور وولوا الأدبار ، ونساؤهم يبكين ويولولن ، وتبعهم المسلمون يجمعون الغنائم والأسلاب .

فلما رأى الرماة الذين وضعهم النبى صلى الله عليه وسلم لحماية ظهور المسلمين ما آلت اليه

(١) الاحابيش : قوم من قريش وكنانة وخزيمة وخزاعة اجتمعوا فى الحبشى (بضم فسكون فكسر) وهو جبل باسفل مكة ، وتحالفوا على التناصر والتعاون .

الحال من النصر ، مالوا الى النزول ، فقال لهم رئيسهم عبد الله بن جبير : إن فى ذلك مخالفة لأمر الرسول ؛ فعصوه ونزل أكثرهم ، وبقى هو وقليل من المتثبتين . فلما آنس خالد بن الوليد زوال هذه العقبة أسرع الى الذين بقوا فوق الجبل فقتلهم جميعا وأتى المسلمين من ورائهم ، فلما رأوا ذلك اختل نظامهم ودهشوا حتى صار بعضهم يضرب بعضا ؛ وقتل رجل حامل لواء المسلمين وأشاع أن محمدا قتل ، فتسرب الفشل عند ذلك الى قلوب المؤمنين ، وانقسموا الى طائفتين .

قالت أولاهما : إذا كان محمد قد قتل فعلام نقاتل ؟ فلنرجع الى أهلنا .

وقالت ثانيتهما : إذا كان محمد قد قتل فلا خير بعده فلنقاتل فى سبيل ديننا حتى نقتل .

أما النبى صلى الله عليه وسلم فقد ثبت مكانه ، وكان بين يديه أبو طلحة الأنصارى ، وكان مناضلا مسدد الرماية ، فنثر كنانته وهو يقول : وجهى لوجهك فداء ! وكان كلما مر برسول الله رجل قال له انثر كنانتك لأبى طلحة . وعاونه سعد بن أبى وقاص وسهل بن حنيف ، وقام أمام النبى أبو دجانة سماك بن خرشة جاعلا نفسه مترسا له وهو منحن عليه ، فكان نبل المشركين يقع على ظهره ، وكان يدفع الناس عنه زيادة بن الحارث حتى وقع صريعا دونه . وقصد رسول الله أُبى بن خلف من المشركين يريد قتله ، فلما قرب منه ضربه ضربة كانت سبب هلاكه .

وكان أبو عامر الراهب قد حفر حُفَراً وغطاها ليقع فيها المسلمون ، فوقع النبى فى واحدة منها فأغمى عليه ، وخدشت ركبتاه ، فأخذ على بيده ، ورفعه طلحة بن عبيدالله حتى استوى قائما ، فرماه عتبة بن أبى وقاص بحجر كسر رباعيته (وهى السن التى بين الثنية والناب) ، فهجم على عتبة حاطب بن أبى بلتعة فقتله ؛ وتصدى له عبد الله بن شهاب من المشركين فشج وجهه ؛ وجرحت وجنتاه بسبب دخول حلقتى المغفر فيهما من ضربة وجهها اليه ابن قمئة من الجاهليين . وجاء أبو عبيدة فعالجهما ليخرجهما فكسرت بسبب ذلك ثنيتاه . وسار النبى وبين يديه بعض أصحابه يريد الشعب ، فلما انتهى اليه أقبلت اليه ابنته فاطمة وأخذت تغسل وجهه وتضمده .

قتل فى هذه الوقعة من المسلمين نيف وسبعون ، منهم عم النبى حمزة . وكان أكثرهم جراحة المنافحون عن النبى صلى الله عليه وسلم ، فأصاب طلحة أكثر من سبعين جرحا ، وشلت يده .

ومثّل المشركون بقتلى المسلمين ، حتى إن هندا زوج أبى سفيان شقت بطن حمزة وأخرجت كبده لتأكلها فلم تستطع ازدراد شىء منها بعد أن لاكت قطعة منها بين أسنانها .

ثم إن أبا سفيان قائد جيش المشركين صعد الجبل ونادى بأعلى صوته : نعمت فعال ، يوم بيوم بدر ، وموعدكم بدر العام المقبل . ثم قال : إنكم ستجدون فى قتلاكم مثلة لم آمر بها ولم تسؤنى .

ثم قفل المشركون راجعين الى مكة .

ما يجب أن يستخرج من العبر من هذه الوقعة :

إن هذه الوقعة فى عرف رجال الحرب تعتبر أنها أفضت الى هزيمة المسلمين ، ولكن المتأمل

فيها لا يجدها تشبه الهزائم الحربية فى شىء . فإن المعهود فى الهزائم أنها تقتضى أن يولى المهزوم الادبار ، وأن يتعقبه خصمه الظافر يقتل بعض جنوده ويأسر بعضا آخر ، ويستولى على جميع معسكره . فإذا كان يريد أن يفرغ من خصمه نهائيا ، كما كانت نية المشركين من قبل ، تبع العدو المنتصر المنهزمين الى مقر تجمعهم ، سواء أكان ذلك معقلا أم مدينة ، واستولى عليه وأقام فيه حامية ليمنع عودهم الى معاكسته .

ولكن الذى آنسناه عقب هذه الوقعة ، أن المشركين بعد أن انتصروا على المسلمين لم يتعقبوا فلولهم ، ولم يحتلوا مدينتهم ، بل لم يعملوا على أسر النبى وهو رأس هذه الحركة القائمة ضدهم ، وعاد من ميدان المعركة على مهل ، ثم لم يعجله شىء عن إصلاح شأنه وغسل جراحه . ومن أغرب ما يُلاحظ أن قائد المشركين صعد الجبل وخاطب المسلمين وهم على مسمع منه ، وواعدهم العام المقبل ، كأن الفريقين كانوا فى مباراة رياضية ، لا فى وقعة حربية ! ولم يعهد مثل هذا قط فى تاريخ الحروب وخاصة القديمة منها ، إذ كانت الى التفانى الحيوانى أقرب منها الى التنازع الانسانى .

ولا يمكن أن يقال إن جيش المشركين كان خلوا من وسائل المطاردة ، فقد كان فيهم مائتا خيال تحت إمرة أمهر قادة الحرب فى الجاهلية ، خالد بن الوليد ، وقد كان فى وسعه على الأقل أن يحيط النبى صلى الله عليه وسلم بخيالته فيمنعه الرجوع الى المدينة . وقد ثبت أن النبى لم يعد من ساحة القتال فى أكثر من بضعة عشر رجلا وأربع عشرة امرأة ! فأى عون من الله لنبيه أظهر من هذا فى مثل هذه المحنة ؟

وقد تبين المشركون بعد أن بعدوا عن المدينة ، أنهم ارتكبوا خطأ فاحشا فى ترك المسلمين وشأنهم ، إذ قال بعضهم لبعض : أى شىء فعلتم ، لا محمدا قتلتم ، ولا الكواعب أردفتم ، بئس ما صنعتم ! ارجعوا .

فبلغ النبى صلى الله عليه وسلم ذلك ، فخرج اليهم فى عسكره ولحق بهم . فلما رأى المشركون ذلك ، وقد ذاقوا استبسالهم فى الحرب ، خشوا أن تدور الدائرة عليهم ، فانصرفوا .

لا جرم أن هذا من أعجب ما يحفظه تاريخ التنازع بين الحق والباطل . وقد رأينا أن سبب هذه الهزيمة كان عصيان الرماة للأمر الذى صدر إليهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقد ذكر الله ذلك فى كتابه فقال : « ولقد صدقكم الله وعده إذ تَحُسُّونهم بإذنه (أى تقتلونهم) ، حتى إذا فشلتم وتنازعتم فى الأمر ، وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون (جواب الشرط محذوف هنا تقديره : عاقبكم بالهزيمة) ، منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ، ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ، ولقد عفا عنكم ، والله ذو فضل على المؤمنين » .

محمد فريد وجدى

السنة

الرقية وأخذ الاجر على قراءة القرآن

عن أبى سعيد « أن رهطاً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم انطلقوا فى سَفْرة سافروها حتى نزلوا بحى من أحياء العرب فاستضافوهم فأبوا أن يضيّفوهم ، فلدغ سيد ذلك الحى ، فسعوا له بكل شىء لا ينفعه شىء ، فقال بعضهم : لو أتيتم هؤلاء الرهط الذين قد نزلوا بكم ، لعله أن يكون عند بعضهم شىء ! فأتوهم ، فقالوا : يأيها الرهط إن سيدنا لدغ فسعينا له بكل شىء لا ينفعه شىء ، فهل عند أحد منكم شىء ؟ فقال بعضهم : نعم والله إنى لراق ، ولكنْ والله لقد استضفناكم فلم تضيّفونا ، فما أنا براق لكم حتى تجعلوا لنا جُعلا ! فصالحوهم على قطيع من الغنم . فانطلق فجعل يتفُل ويقرأ الحمد لله رب العالمين حتى لكأنما نشِط من عقال ، فانطلق يمشي ما به قَلَبَة . قال : فأوفوهم جُعلهم الذى صالحوهم عليه . فقال بعضهم : اقسموا ، فقال الذى رقى : لا تفعلوا حتى نأتىَ رسول الله صلى الله عليه وسلم فنذكرَ له الذى كان فننظرَ ما يأمرنا . فقدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فذكروا له ، فقال : وما يُدريك أنها رقية ؟ أصبتم ، اقسموا واضربوا لى معكم بسهم » . رواه البخارى فى كتاب الطب .

يتعلق بشرح هذا الحديث أمور : (١) شرحه إجمالا . (٢) هل تجوز الرقية بالقرآن وغيره ؟ (٣) هل يجوز أخذ الأجرة على قراءة القرآن والرقية به ؟ (٤) وإذا كانت تجوز فهل لها ذلك الأثر الذى يعتقده الناس .

(١) لعل معنى هذا الحديث ظاهر لا خفاء فيه إلا فى بعض ألفاظه ، وإليك بيانها :

« يضيفوهم » معناه : ينزلونهم ضيوفا عليهم . يقال : ضيف الرجل بالتشديد تضييفا : أنزله به ضيفا . « والرهط » : أقله ما دون العشرة من الرجال ليس فيهم امرأة ، وقد يطلق الرهط على أكثر من ذلك ، وهو هنا ثلاثون كما صرح بذلك فى بعض الروايات ، حتى صرح أيضا بأن عدد الجُعل الذى أخذوه ثلاثون شاة نخص كل واحد منهم شاة . « والقطيع » : هو الشىء المقتطع سواء كان من غنم أو غيرها ، والمراد به هنا الغنم كما ذكرنا . « فجعل يتفل ويقرأ الحمد لله رب العالمين » : ينبغى أن يكون التفل بعد القراءة لا فى أثنائها . وقد قيل : ان حكمة ذلك أن بركة القراءة تحصل فى الجوارح التى يمر عليها الريق فتحصل البركة فى الريق

أيضا ، فاذا أصاب محل الألم كان له أثره فى البرء . « ونشط من عقال » : المشهور فى اللغـة أن نشط بالفتح وكسر والشين معناه عقد ، وأنشط معناه حل . فالمناسب هنا أن يقال أنشط لأن معناه حل من عقال ، أى حبل . ولـكن الرواية نشط بضم النون وكسر الشين معناه حل من عقال ، وهذا لغة فيه . « وقلبة » بتحريك حروفه كلها معناه : علة ، وسميت العلة قلبة لأن الذى يصاب بها يقلب من جنب الى جنب لمعرفة محل العلة وموطن الداء . « وما يدريك أنها رقية » : الغرض من هـذا اللفظ تعظيم ذلك الأثر الذى ترتب على قراءة الفاتحة ، لأن « ما أدراك » كلمة تقال عند التعجب من الشىء ؛ وتستعمل فى تعظيم ذلك الشىء أيضا ، وهو المناسب هنا كما بينا .

« والرقية » بضم الراء وسكون القاف : تجمع على رقى بضم الراء ، يقال رَقَى يرقِى رُقْـية ، ورقيت فلانا أرقيه بمعنى عوذته من شر ما يؤذيه .

(٢) اختلف العلماء فى جواز الرقية بالمعنى الذى ذكرناه ، فمنهم من قال إنها لا تجوز لأن الدين الاسلامى مبنى على قواعد كونية ، وأسباب معقولة مرتبطة بمسبباتها الطبيعية ، فلا يجوز للناس أن يتحولوا عن هذه الأسباب الى الرقية والتعاويذ والتمائم ونحو ذلك ، ويذروا ماخلق لهم ربهم من العقاقير الطبية ، والأدوية النافعة لـكل داء من الأدواء . وهذا الفريق الذى ينكر جواز استعمال الرقية ونحوها يقول : إنه قد ورد فى السنة ما يؤيد رأيه هذا ؛ من ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : « اقرءوا القرآن ولا تغلُـوا فيه ، ولا تجـفُـوا عنه ، ولا تأكلوا به ، ولا تستكثروا به » . رواه أحمد . ومعنى « لا تغلوا فيه » : لا تزيدوا فيه ما ليس منه ، سواء كان فى تلاوته أو فى غيرها . ومعنى « ولا تجفوا عنه » لا تتحولوا عن المبالغة فى احترامه . فهذا الحديث صريح فى النهى عن الأكل بالقرآن سواء كان على سبيل الرقية أو غيرها . ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : « اقرءوا القرآن واسألوا الله به ، فان مِن بعدكم قوما يقرءون القرآن يسألون به الناس » . رواه أحمد والترمذى . ومن ذلك ما رواه ابن ماجه عن أبى بن كعب ، قال : « علمت رجلا القرآن فأهدى لى قوسا ، فذكرت ذلك للنبى صلى الله عليه وسلم فقال : إن أخذتها أخذت قوسا من نار » . ومن ذلك ما رواه أبو داود وابن ماجه من حديث عبادة ابن الصامت أن النبى صلى الله عليه وسـلم قال لعثمان بن أبى العاص « لا تتخذ مؤذنا يأخـذ على أذانه أجرا » . فهـذه الأحاديث وأمثالهـا تدل على أن كتاب الله تعالى قد أنزل على الناس للهداية وسلوك السبل القويمة التى توصل الى صلاح المجتمع الانسانى ، والقضاء على كل مايخالف العقل والسنن الطبيعية . فيجب على المسلمين أن يستمسكوا به ، وأن يفقهوا معانيه على وجهها الصحيح ، وأن يتدبروه كما أمرهم الله به فـلا يتخذوه سلعة لا تجديهم نفعا ويتركوا قواعده الخلقية والعمرانية ، والاجتماعية التى اشتمل عليها ، فإن ذلك خسران لا شك فيه .

هذا هو رأى القائلين بعدم جواز الرقية .

(٣) أما أخـذ الأجرة على قراءة القرآن ، فقد عرفت من الأحاديث التى أسلفناها حجة القائلين بالمنع .

أما الفريق الآخـر الذى يقول بالجواز ، فانه يقف بإزاء ذلك الـكلام موقف المستمسك بالأحاديث الصحيحة التى وردت فى هذا المقام ، فيقول للفريق الأول : وماذا تصنعون بحديث البخارى الذى معنا وأمثاله من الأحاديث الصحيحة التى لا توازيها الأحاديث التى عولتم عليها فى الصحة والمتانة ؟ وقد أجاب بعضهم عن ذلك بأن حديث البخارى وأمثاله من الأحاديث التى تدل على جواز أخـذ الأجرة على القـرآن ، وعلى جواز الرقية بالقـرآن ، منسوخة بهذه الأحاديث . ولـكن هذا الجواب غير سديد ، لأنه لا دليل على النسخ مطلقا . على أن الأحاديث الدالة على عدم جواز أخذ الأجرة على قراءة القرآن يمكن تأويلها : فقوله صلى الله عليه وسلم فى الحديث الأول « لا تأكلوا بالقرآن » ، معناه : لا تطلبوا ولا تسألوا به الناس ، أما إذا أعطيتم من غير مسألة فذلك جائز لا مانع منه . والحديث الثانى صريح فى أن المنهى عنه إنما هو سؤال الناس بالقرآن . وحديث أبى الذى رواه ابن ماجه وإن كان صريحا فى النهى عن أخذ القوس فى نظير تعليم القرآن أجرة ، ولـكن يمكن حمله على خصوص هذه الحادثة .

هذا ما يقوله المحدثون وشراح الأحاديث . ويجمل بنا أن نذكر أيضا آراء الفقهاء فى هذا المقام ، ثم نبين ما عساه أن يكون الصواب :

فأما الفقهاء ، فان الحنفية يقولون : إن الإجارة على الطاعات غير صحيحة . وهذا هو أصل مذهبهم ، لأن كل طاعة عندهم يختص بها المسلم لا يصح الاستئجار عليها ، وكل قربة تقع من العامل إنما تقع عنه لا عن غيره ، فلو لم يكن أهلا لأدائها فـلا يصح أن يأخذ عليها أجرا من غيره . ويستدلون على هذا الأصل بالأحاديث التى ذكرناها . أما حديث أخذ الأجرة على الرقية الذى معنا هنـا وأمثاله فانه ورد فى حالة خاصة وهى إكرام أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم . فليست المسألة قاعدة عامة يمكن اتخاذها حجة ، وإلا كانت قراءة الفاتحة على من لدغ دواء عاما ، والواقع غـير ذلك ، فان سورة الفاتحة قـد اشتملت على عقائد وحكم ودعاء بالهداية الى الصراط المستقيم وغـير ذلك من العلوم والمعارف التى لا يمكن استقصاؤها ولم تكن يوما من الأيام دواء لمن يلدغ . وعلى فرض أنها دواء لذلك فالشرط فى إفادتها أن يكون الراقى بها له حالة خاصة تقربه من الله عز وجل كهؤلاء الأصحاب الذين أخلصوا لله ورسوله ؛ فهى بمنزلة دعاء يستجيبه الله منهم . وهـذا هو رأى المتقدمين من الحنفية . أما المتأخرون منهم فقد أجازوا أخذ الأجرة على بعض الطاعات للضرورة كتعليم القرآن ، وتعليم العلم ، والأذان والإمامة ، والوعظ . هذا هو رأى الحنفية .

أما المالكية فانهم يقولون إن قراءة القرآن والأذكار والتهاليل ونحوها مختلف فى أخذ الأجرة عليها ؛ والمنقول عن الامام مالك رضى الله عنه ، أن هذه الأشياء لا يصح أخذ الأجرة عليها . فالرقية بالقرآن ونحوه مختلف فيها عندهم .

أما الحنابلة فانهم يقولون : إنه يجوز آخذ الأجرة على الطاعات وتعليم القرآن ونحوه لا بعنوان كونها أجرة ، بل بعنوان كونها صلة ينتفع بها فى نظير حبسه على أدائها . ووافقهم الشافعية فى بعض الأمور ، فقالوا تصح الأجرة على الإمامة فى مقابل إتعاب نفسه بالحضور الى موضع معين ، لا على أداء الصلاة نفسها . ومثل الامامة فى ذلك الخطبة . وأجازوا اخذ الأجرة على قراءة القرآن وعلى الأذان والاقامة ونحوهما .

هذا هو ملخص آراء المذاهب فى هذا الموضوع .

(٤) والذى ينبغى أن يعلم ها هنا أن العلماء اتفقوا على جواز الرقية عند اجتماع ثلاثة شروط : الشرط الأول : أن تكون بكلام الله تعالى ، أو بأسمائه وصفاته . الشرط الثانى : أن تكون باللسان العربى . الشرط الثالث وهو أهمها : أن يعتقد أن الرقية لا تؤثر بذاتها ، وأن المريض قد يشفى بإذن الله تعالى لا بهذه الرقية . ويدل على هذا ما رواه البخارى نفسه فى هذا الباب من أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يرقى نفسه فى المرض الذى مات فيه بالمعوذات .

هذه الشروط ذكرها شراح الحديث كالحافظ ابن حجر وغيره . وقد نقل عن ابن التين « أن الرقى بالمعوذات وغيرها من أسماء الله تعالى إذا كان على لسان الأبرار من خلق الله مفيد قد يستجيبه الله تعالى ، ولكن قد عز هذا النوع فلم يوجد من المقربين من يستجاب له على هذا النحو . ومن الأسف أن الناس قد فزعوا الى تلك الرقى المنهى عنها . ومن يفعل ذلك بغير اللسان العربى المفهوم كان متهما بالشرك » .

هذا ما ذكره الفقهاء والمحدثون فى مسألة الرقية ونحوها . ولكن الناس فى زماننا هذا قد غفلوا عن معانى الأحاديث الصحيحة ، وتركوا آراء علماء المذاهب ، واندفعوا خلف المضللين الذين يتشبثون بظاهر الأحاديث فيصرفون الناس عن التمسك بالوسائل المشروعة طمعا فى أموالهم ، فكثر لذلك الدجالون ، وساعدهم على تضليل الجهلة سوء فهم بعض الفقهاء لمعانى الأحاديث والفقه . وياليتهم فهموا منها ما قد يتبادر الى أذهان الصالحين من أن تلاوة القرآن ونحوه من الدعوات الصالحات يجب أن تكون خالصة لوجه الكريم ، لا أنها سلعة من السلع التى تبتز بها أموال الناس بالباطل . وحسبنا الله ونعم الوكيل ؟

عبد الرحمن الجزيرى

رمضـــان

كان الكتاب حين يكتبون عن رمضان يديرون أحاديثهم فى الكثير الغالب حول ناحيته الدينية ، فيتحدثون عنه لماذا فرض ، ومتى فرض ، وهل كتب صيامه على المسلمين خاصة ، أو كتب عليهم كما كتب على الذين من قبلهم ؛ وهل كان افتراضه لمجرد الامساك عن الطعام والشراب ونحوهما ، أو أن هناك غايات سامية وراء ذلك ، كتطهير النفس وتهذيب الروح وعلاج البدن مما عساه يلم بالنفس والروح والبدن من أوزار وأقذار ، وأمراض وأوضار .

كانوا يديرون أحاديثهم حول هذه الناحية ، ثم يفيضون فيها ، ويغفلون ناحية من نواحى الحديث فى رمضان كانت جديرة بأن تتناولها أقلامهم ، ليس لما فيها من طرافة فحسب ، بل لما فيها من مغزى سام ، وتقدير لطيف لشهر رمضان ومكانته فى نفوس المسلمين : تلك هى ناحية العادات الاجتماعية التى أحدثها رمضان بين العادات الحسنة المسلمين . ويؤسفنى أن أقول « المسلمين السابقين » لأنهم أصحاب الفضل فى غرسها ، والعناية بها ، والمحافظة عليها ؛ أما مسلمو اليوم فهيهات من كاف نفسه إحداث عادة حسنة ، بل هيهات من كلف نفسه الإبقاء على عادة من تلك العادات التى عنى بها أسلافه تقديرا لهذا الشهر وإكراما له !

ولعل من أحسن العادات الحسنة أو أحسنها ، عادة العناية بالفقراء والترفيه عنهم ، والاحتفال بهم فى هـذا الشهر ، فكنت ترى قصور الأغنياء ، بل بيوت المتوسطين تغص بالفقراء رمضان كله ، يشركونهم فى فضل الله عليهم ، طيبة بذلك نفوس الأغنياء ، مبتهجة قلوبهم ، يفطر الفقراء من فطورهم ، ويتسحرون من سحورهم ، لا يستأثر الأغنياء دونهم بطيب ، ولا يتمتعون بشهى . ولقد بلغ من عناية المسلمين الأولين بتلك العادة والاهتمام بشأنها فى ذريتهم وأهليهم ، أن وقفوا ضياعهم ودورهم على الإنفاق على الفقراء فى شهر رمضان ، وقلما تجد بين الواقفين المسلمين من فاته هذا الغرض .

لهذا كنت لا تجد بين الفقراء والأغنياء ما تجده اليوم من غل وحقد وحسد وبغضاء ، ينظر كل منهم الى الآخر نظره الى العدو ، ينتظر عليه الفرص ، ويتربص به الدوائر ، بل كنت تجد بينهم التواد والتراحم ، والتعاطف والتواصل ، يتمنى الفقير للغنى المزيد من فضل الله ، ويتمنى الغنى للفقير اللطف والعون من الله .

ولقد كان من العادات الحسنة أيضا إحياء ليالى رمضان بتلاوة القرآن ، تلك العادة التى كانت شائعة فى سائر الأسر تقريبا ، حتى لقد كان من العار أن يخلو قصر أو دار من فقيه لهذا الغرض ، وكانت الأسر تتنافس فى اختيار الفقهاء ممن حسن صوته وذاع صيته ، ولا زلنا نذكر

يقال ، أن فلانا الفقيه أحيا رمضان فى أسرة فلان بكذا جنيها ، وخلعة من جيد « الجوخ والشاهى » ، وأن فلانا الفقيه اختص بأسرة فلان ، وما الى ذلك من حديث الفقهاء . وليس من التكرار أن أقول : إن من أوقاف الأغنياء أوقافا خاصة بالفقهاء فى شهر رمضان .

هـذا وإن من العادات الاجتماعية ذات الأثر البعيد بين المسلمين ، عادة التزاور فى شهر رمضان ، فكنت تجد الدور تعمر بزوارها ، تخالطهم البشاشة ، ويعلوهم البشر ، ويسودهم الصفاء ، يتذاكرون فيما بينهم شئون دينهم ، ولا ينسون شئون دنياهم ، يحاولون تفسير آية مما يسمعون ، ويتساءلون عن حكم فقهى لما يعرض فى رمضان من حوادث ، كحوادث الإفطار والإمساك ، والصلاة ، وزكاة الفطر ، ونحو ذلك ـ وما أكثر ما يعرض فى رمضان من حوادث ـ ويتشاورون فى حل مشكلة من المشكلات التى تعترض أفرادهم ، يتحققون بقول الرسول عليه الصلاة والسلام : « مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى » ؛ يحرمون ما حرم الله من ورق ونرد ونحوهما مما ابتدع واتبع ؛ يظلون كذلك رمضان كله ، حتى إذا أقبل العيد جددوا زياراتهم مسلمين مهنئين .

هذه بعض عادات السلف الصالح ، فأين أنتم يا شباب الجيل ؟ ! يا مثقفى العصر ! يا حاملى لواء المدنيـة ! أين أنتم من تلك العادات ، وأين ما ابتدعتم منها ؟ ! والله إن الحديث عنكم لمشج ومخز ، وإن المقارنة بينكم يا مثقفون وبين أسلافكم ـ الجهلاء كما تزعمون ـ لتنجلى بالحكم عليكم بما لا يسركم ولا يرضيكم .

يا شباب الجيل ! نبئونى كيف استقبالكم لرمضان ، وكيف معاملتكم للفقراء ، وما هى عنايتكم بالقرآن ، وكيف تقضون لياليه وأيامه ؟ أتسمحون بالجواب ؟ ألا فاسمعوا قول الله تعالى : « فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات ، فسوف يلقون غيا ، إلا من تاب وآمن وعمل صالحا فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون شيئا » .

يا شباب الجيل « لطالما أوضعتم فى الفتنة ، واضطجعتم فى مراقد الضلال » ! فهل فيما يجرى فى العالم من خطوب وأهوال نذير لكم ، فتقلعوا عما أنتم فيه ، وتحاسبوا أنفسكم ، وتتدبروا أعمالكم ، وتشتغلوا بالجد من أموركم ، وتحاولوا أن تعيدوا سير أسلافكم فى برهم وتقواهم ، وتوازنوا بين أعمالكم وأعمالهم ، لتعلموا أيكم خير لنفسه وأمرته ووطنه ؟ !

إن فى رمضان لفرصـة للتوبة والإنابة ، وإنه خير الأوقات لاستجابة الدعاء واستنزال الرحمة ، فطهروا أنفسكم فيه بالأعمال الصالحة ، ثم ادعوه مخلصين أن يصلح أحوالكم ويجنبكم وأمتكم غضب الله وسخطه ، ويباعد بينكم وبين ما ينزل بغيركم من دمار وبوار ، ويحفظ على أمتكم أمنها وسلامتها ، ويرد عنها كيد الكائدين ، وطمع الطامعين ؟

أبو الوفا المراغى

بحوث فى المسائل الفقهية

تاريخ الفقه الاسلامى فى مصر

— ٧ —

فى مذهب الإمام الليث :

لم يَرْم الإمام الليث فيما حاجّ به مالكا رضى الله عنهما الى إهدار عمل أهل المدينة ، وإنما رمى الى عدم إهدار آراء الأصحاب الذين ضربوا فى أنحاء المملكة الإسلامية طولا وعرضا ، وانبثوا فى معسكرات المسلمين ودواوينهم فى سائر البلاد المفتوحة والمختَطّة ، ولابسوا الأحوال والظروف التى أحاطت بهم ملابسة قريبة ، ولم يقطعوا الصلة بالخلفاء وكبار الصحابة ، بل وثّقوها بالمشاورات والمراسلات والرِّحَل ، وهم بعد هذا كله ، وقبل هذا كله ، مُثل تحتذى ، بما لهم من علم وفضل ، وإخلاص لله ، وغيرة على شريعته .

ولم يكن مالك رضى الله عنه بالذى يغيب عنه ذلك ، أو يمارى فيه ، ولكنه أراد توحيد الناس على عمل أهل المدينة الذين استقر قرار الرسول صلى الله عليه وسلم فيهم ، فذلك أجدى على المسلمين من تشعيب الخلاف ، وتوسيع الجدال ، وتكثير صور الفقه بلا مبرر .

فمالك رضى الله عنه يرى بهذا الدافع الشريف أن المصلحة العامة للمسلمين تتحقق فى العمل بما عمل به أهل المدينة ، لأن فى ذلك جمعا للناس على عمل إن لم يكن هو عملَ الرسول فى جملته وتفصيله ، فهو عمل قد أقره وسكت عليه ، أو هو على أدنى فرض أقرب العمل من عمل الرسول .

والليث رضى الله عنه يسلم لمالك فضل أهل المدينة وسَبْقَهم ، ويقره ويشكر له هذا الدافع الشريف ، ولكنه يرى ألا يقيَّد المسلمون فى جميع بقاع الأرض بعمل أهل بلد واحد فى كل أحوالهم ، وكأنه يرى أن إقرار النبى صلى الله عليه وسلم لعمل من الأعمال لا يتضمن حكما بأن هذا العمل وحده هو الصحيح المقبول فى نظر الشرع ، فقد يكون غيره أيضا صحيحا مقبولا ، ولعل الرسول صلى الله عليه وسلم لو اطلع عليه لأقره أيضا ، فعمل أهل المدينة ، حتى بعد التسليم باقراره من الرسول صلى الله عليه وسلم ، لا يهدر عمل سواهم ، ولا ينبغى أن يكون ملزما للمسلمين .

وقد ورد فى رسالة الليث الى صاحبه أمثلة فقهية كثيرة يؤيد بها ما ذهب اليه ، فى حوار هادئ ، وجدال مهذب :

١ — مَثّل له بمسألة الجمع ليلة المطر ، فقد أنكر الليث أن يجمع أحد من أجناد المسلمين بين الصلاتين ليلة المطر ، فعاب عليه مالك هذا الإنكار ، فاحتج الليث بأن مطر الشام أكثر من مطر المدينة بما لا يعلمه إلا الله ، ومع ذلك لم يجمع إمام فى الشام قط ليلة مطر ، وفيهم أبو عبيدة بن الجراح ، وخالد بن الوليد ، ويزيد بن أبى سفيان ، وعمرو بن العاص ، ومعاذ ابن جبل الذى قال فيه الرسول صلى الله عليه وسلم : « أعلمكم بالحلال والحرام معاذ بن جبل » ، وقال فيه : « يأتى معاذ يوم القيامة بين يدى العلماء برَتوة (١) » ولم يجمع عمر بن عبد العزيز بالشام بين المغرب والعشاء قط ليلة المطر ، والمطر يسكب عليه فى منزله الذى كان فيه بخناصرة ساكنا .

هكذا مثّل الليث لصاحبه ، وأحب أن يقف القارئ معى أمام هذا المثال متدبرا : إن الليث يثبت أن أهل الشام وفيهم من فيهم لم يجمعوا قط فى ليلة مطر ، ولا ينكر ، ولا يسعه أن ينكر ، أن أهل المدينة يجمعون ، فهو إذاً يقرر أن الجمع وعدم الجمع كلاهما يستند الى عمل من الصحابة ، فما الذى دعاه الى أن ينكر أن يجمع أحد بين الصلاتين ليلة المطر ؟ أو لا يقوم العذر لمالك إذا عاب عليه هذا الإنكار ؟ ولكن فى المسألة باطنا غير هذا الظاهر هو الذى حمل الليث على الإنكار حين أنكر ، وعلى الإصرار حين روجع : ذلك أنه لمح العلة فى إباحة الجمع ليلة المطر ، وهى التخفيف ، ثم نظر فوجد مطر المدينة قليلا بمعنى أنه ليس فى كل الليالى مُلِحاً سَكوبا ، فاذا سكب المطر ليلة وأسحّ كان ذلك بين أهل المدينة غريبا ، ووجدوا فيه مشقة لم يألفوها ، ولم يُعدُّوا لها ، أما فى الشام فالمطر أكثر من مطر المدينة بما لا يعلمه إلا الله ، كما يقول الليث ، وقد ألف أهل الشام سَحَّه وتَسْكابه ، وأعدُّوا له ما ينفى عنهم مشقته ويدفع غوائله ، فلذلك أبيح لأهل المدينة ما لم يبح لأهل الشام ، لأن المطر يشق على أهل المدينة الذين لم يألفوه ، بما لا يشق على أهل الشام . وهذا — فيما أرى — أحد المواضع التى تأثر الفقه فيها بالإقليم والمناخ ، أو بعبارة أدق ، أحد المواضع التى تفيد مراعاة الفقه لظروف الإقليم والمناخ .

٢ — ومن أمثلة الليث أيضا : مسألة القضاء بشاهد ويمين صاحب الحق ، كان يُقضَى بذلك فى المدينة ، ويقول الليث : إنه لم يقض بذلك أحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بالشام ، وبحمص ، وبمصر ، وبالعراق ، ولم يكتب به إليهم الخلفاء الراشدون : أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلى ؛ ولقد ولى عمر بن عبد العزيز ، وهو من هو فى إحياء السنن ، والجد فى إقامة الدين ، والإصابة فى الرأى ، والعلم بما مضى من أمر الناس ، فكتب إليه رزيق ابن الحكم : إنك كنت تقضى بالمدينة بشهادة الواحد ويمين صاحب الحق ؛ فكتب إليه عمر

---

(١) الرتوة : الخطوة وما أشرف من الارض .

ابن عبد العزيز : إنا كنا نقضى بذلك بالمدينة فوجدنا أهل الشام على غير ذلك ، فلا نقضى إلا بشهادة رجلين عدلين ، أو رجل وامرأتين .

وهذا المثال واضح ، والدليل فيه جيد ، وهو يؤيد الفكرة التى ذهبنا إليها فى التعقيب على المثال الأول ، من مراعاة الفقه لاختلاف أحوال الناس والأقاليم ، فإذا اطمأن القاضى الى يمين رجل يعرف فيه التقوى والورع فى زمان لم يكثر فيه الخداع ، وبلد لم يعهد فيه الفجور ، فليس له أن يلتزم ذلك فى كل زمان ، وفى كل بلد ، وفى كل قضاء .

٣ — ومثل الليث لمالك أيضا بمسألة مؤخر الصداق : أهل المدينة يقضون بأن المرأة متى شاءت أن تتكلم فى مؤخر صداقها تكلمت فدفع إليها ، وقد وافق أهل العراق أهل المدينة على ذلك ، ولم يقض أحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مصر والشام لامرأة بصداقها المؤخر إلا أن يفرق بينهما موت أو طلاق فتقوم على حقها ، فهى إذاً من المسائل التى يرجع فيها الى عرف المتقاضين ، ولا ينبغى أن يصار فيها الى عرف بعينه فيلزم الناس جميعا به .

ولم يقف الليث عند هذا الحد فى محاورته لمالك ، بل انقلب فى رسالته مهاجما بعد أن كان مدافعا ، فأخذ ينتقد على مالك بعض أقواله ، ويناقشه فيها ، فكان مما أورده عليه من ذلك :

(١) أن مالكا يقول فى الخليطين فى المال : إنه لا تجب عليهما الصدقة حتى يكون لكل واحد منهما ما تجب فيه الصدقة ، مع أن عمر بن الخطاب كتب أنه يجب عليهما الصدقة ويترادان بالسوية ، وقد كان يُعمل بذلك فى ولاية عمر بن عبد العزيز قِبَلكم وغيره فيما حُدِّثنا — هكذا يقول الليث — والذى حدثنا به يحيى بن سعيد ، ولم يكن بدون أفاضل العلماء فى زمنه .

فهو فى هذا يأخذ عليه أنه قال بشىء يخالف عمل أهل المدينة الذى سجله كتاب عمر بن الخطاب ، وقضاء عمر بن عبد العزيز وغيره .

(٢) ثم يذكرُ له نقدا آخر يتصل برواية الحديث فيقول : « إنك تذكر أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يعط الزبير بن العوام إلا لفرس واحد ، والناس كلهم يحدثون أنه أعطاه أربعة أسهم لفرسين ومنعه الفرس الثالث ، والأمة كلهم على هذا الحديث : أهل الشام وأهل مصر وأهل العراق وأهل أفريقية لا يختلف فيه اثنان ، فلم يكن ينبغى لك — وإن كنت سمعته من رجل يُرضى — أن تخالف الأمة أجمعين » .

تلك أمثلة من دفاع الليث عن مذهبه ونقده لمذهب مالك ، وكلها تدور حول ما تمسك به الليث من أن ما عليه أهل كل بلد له حجة وأصل ، وأنه لا مصلحة للناس فى جمعهم على عمل أهل المدينة .

ونحب قبل أن نترك هذا الفصل أن نلخص للقراء مذهب مالك فى الاحتجاج بعمل أهل المدينة ومن خالفه فى ذلك : فعمل أهل المدينة أنواع ثلاثة :

(١) عمل أجمعوا عليه لم يخالفهم فيه غيرهم ، وهذا حجة عند الجميع بلا خلاف ، والليث من بينهم ، وفى كلامه تصريح بذلك حيث يقول فى رسالته : « ولا تجد أحـدا أشد تفضيلا لعلماء أهل المدينة الذين مضوا ، ولا آخذ لفتياهم فيما اتفقوا عليه منى » .

(٢) عمل يخالفهم فيه غيرهم .

(٣) عمل فيه الخلاف بين أهل المدينة أنفسهم .

فالأخيران هما محـل النزاع ، وينبغى ألا يغيب عن البال أن العمل الذى هو حجة عنـد المالـكية بلا خلاف هو العمل النقلى ، كأن ينقل أهل المدينة تعيين المنبر النبوى ، أو محل وقوفه أو نزوله ، أو نحو ذلك ، أما العمـل الاجتهادى الذى هو عن رأى ونظر وتفقه فهو محل نزاع حتى بين المالـكية ؟ « يتبع »

محمد محمد المدنى
المدرس بكلية الشريعة



الانس بالوحدة

للأدباء مجال مستملح فى الغلو ، وليس الغلو بمستملح إلا فى الأدب ، حتى قيل : إن أعذبه أكذبه . وقـد افتن الشعراء فى مدح العزلة عن النـاس ، ونحن نورد أحسن ما قالوه فى ذلك فى معرض الإطراف الشعرى لحسب : قال عبد المحسن الصورى :

أنست بوحـدتى حتى لوانى ... رأيت الأنس لاستوحشت منه
ولم تدع التجارب لى صـديقا ... أميـل إليـه إلا ملت عنـه

وقال ابن فارس اللغوى :

إذا ازدحمت همـوم القلب قلنا ... عسى يوما يـكون له انفراج
نديمى هـرتى وأنيس نفسى ... دفاتر لى ومعشـوقى السراج

وقال غيره :

عفـا الله عن هـذا الزمان فانه ... زمان عقوق لا زمان حقوق
وكل رفيق فيه غـير موافق ... وكل صديق فيه غير صدوق

دراسات في القرآن الكريم

الاصول العامة والمبادىء الشاملة فى كتاب الله

تحويلها الى جزئيات معينة

هذا هو البحث الذى قـد استدعاه كلامنا فى الآية التى كنا بصدد الـكتابة فيها بمناسبة بيان المحـكم والمتشابه ، أو بعبارة أخرى : قطعى الدلالة وظنيها ، والذى وعـدنا به القارئين فى المقال السابق ؛ وقد كانت كتابة هـذا البحث بمناسبة عرض بعض الـكتابين فى بحوث له للقياس والرأى ، واليكم نصه :

ألقى بعض الباحثين محاضرات تحت عنوان « الامام الشافعى واضع علم أصول الفقه » ؛ وكان مما عرض له فى تلك المحاضرات بيان معتمد التشريع الاسلامى ومستمده ، فـكان مما قاله فى هذا : « كان التشريع الاسلامى فى عهد الرسول يعتمد الوحى من كتاب الله وسنة رسوله ، وكان يعتمد رأى النبى ورأى أصحابه » . ورأينا بعد هذا كاتبا آخر فى جريدة السياسة يناقش هذا الباحث فى جعله القياس والرأى من مستمدات التشريع الاسلامى ، وجعل يغرق فى ذم القياس والرأى ، وانتظرنا بعـد قراءة تلك المناقشة أن يكتب الأستاذ الباحث بمناسبة تلك المناقشة تفصيلا لمـا قـد يكون بالعبارة من إجمال كان هو مثار الشبهة ومنشأ الغموض ، ولـكن الأستاذ الى الآن لم يـكتب شيئا فى ذلك ؛ ولمـا كان هذا البحث ذا مساس بأصل شرعى خطير ، كان واجبا مؤكدا وحتما مقضيا على كل من لديه حق فى هذا البحث أن يرسل من نوره على هذا الموضوع حتى يتبين للناس واضحا جليا ، وليعلموا أن الأستاذ الباحث كان غير مصيب حين أسرف فى ذم الرأى والقياس ، وحين حاول إبطال كونه مدركا شرعيا وطريقا لاستنباط الأحـكام لمـا يجد من حوادث لم يـكن على حكمها فى الشريعة نص خاص أو عام ، وليعلموا كذلك أن ما يتبادر الى الفهم من عبارة الأستاذ المحاضر ، سواء أكان مرادا له أم غير مراد ، من أن نتيجة الرأى والقياس شىء غـير الوحى ، ليس هو الحق فى التشريع الاسلامى ، بل الحق والواقع غيره . ولو أن الأستاذ الباحث كان قد ناقش الأستاذ المحاضر فى هذا الموضوع من ناحية غير ذم الرأى والقياس لـكان قد أصاب ، ولـكان لنا العذر فى ألا نعرض لهـذا الموضوع ؛ فلا بد لنا إذاً أن نبسط هذا البحث حتى يتبين فيـه ما نعرف من حق يقضى علينا الواجب الدينى بنشره على الناس :

الحق أن معتمد التشريع الاسلامى ليس إلا شيئا واحدا ، ذلك الشيء الواحد هو الوحى من الله الى رسوله الكريم ، سواء فى ذلك عهد الرسول ، والعهد الذى بعده ، والعهد الذى بعده ، وهكذا الى يوم القيامة ؛ غير أن الوحى كان يظهر تارة فى ثوب قرآنى من كلام الله المعجز ، ويظهر تارة أخرى فى ثوب من فعل الرسول أو قوله ، وهو ما يسمى فى اصطلاح الفقهاء والأصوليين بالسنة ، كما يسمى الأول بالكتاب ، فليس شيء آخر وراء الوحى الذى يلبس مرة ثوب الكتاب وأخرى ثوب السنة يكون مصدرا ومعتمدا للتشريع الاسلامى .

أما الإجماع فهو غير خارج عن هذين الأصلين ، إذ المقرر عند الأصوليين ، كما هو الواقع ، أن الإجماع لا يكون إلا مبنيا على مستند من الكتاب أو السنة ، وليس هناك إجماع قط يتكون بدون استناد الى أحد الأصلين .

أما القياس فحقيقته وحاصله هو أن الواقعة حين تحدث ولم يكن قد سبق للمجتهد حكم عليها ، وليس بين النصوص ما يبين حكمها من خاص أو عام ، فإنه ينظر ما فى تلك الحادثة من معان ، وأيها هو القوى الغالب ، حتى إذا أدرك من بينها معنى كان قد علم من قبل أن الشارع قد ربط به حكما فانه حينئذ يرى ذلك الحكم حكما لتلك الحادثة . وهذا الحكم فى واقع الأمر هو لتلك الحادثة من يوم نزل الوحى على الرسول بالحكم على أصل هذا الفرع ، غاية ما هناك أن المجتهد لم يتبين ذلك إلا حين وقوع الحادثة ونظره إياها . فأنت ترى أن المجتهد لم يستأنف تشريعا ، ولم ينشئ حكما ، بل كل ما له فى ذلك هو إظهار أن تلك الجزئية تنتظمها مادة من مواد الوحى ، وتشملها قاعدة من قواعد الشريعة . هكذا شأن الاجتهاد ، وهكذا شأن القياس ، سواء كان القائس هو الرسول إن جرينا على القول باجتهاده ، أم كان ذلك من أحد أصحابه ، أم من غيرهم من أئمة المسلمين ، كأبى حنيفة والشافعى ؛ فما محصل اجتهادهم إلا تطبيق مواد الوحى ، وإظهار شمول قواعد الشريعة لما جد من حوادث ، إذ تلك القواعد قد وضعت على وجه صالح لانتظام كل ما يحدث للناس من أقضية ، وما يجد لهم من شئون ؛ وهذا من لوازم كون الاسلام شريعة ختامية أبدية صالحة لإقامة العدل والنظام بين جميع شعوب الأرض على اختلاف أمكنتها وأسباب معائشها ، وعلى تباين ألوانها وألسنتها فى متتابع العصور والأزمان .

وعليه فمآل القياس على الحقيقة ونهايته ، هى جعل الجزئية المنظورة مشمولة لمعنى نص من النصوص ، حيث إن ذلك النص لم يشملها بلفظه .

وإليك مثلا يوضح لك أمر القياس ، ويتبين به أن المجتهد حين يرى فى حادثة رأيا ليس مشرعا ولكن مظهر حكم الله فيها ومتبينه :

فاذكر إذ عرض على الامام الشافعى بيع التفاح بالتفاح متفاضلا أو مؤجلا ، فانه حين يقيسه على البر ويسويه به فى الحكم ، وهو تحريم بيعه بمثله إلا مثلا بمثل يدا بيد ، لقوله عليه السلام

« لا تبيعوا البر بالبر إلا يدا بيد مثلا بمثل » فالشافعى لم يحرم بيع التفاح إلا حين نظر فوجد من المعانى فى تلك الثمرة كونها مطعوما ، وكان قد علم قبل ذلك بطريق من طرق معرفة العلة المقرر فى علم الأصول أن الشارع رتب حكم التحريم فى البر على كونه مطعوما ، وربطه به بمقتضى النص الآنف الذكر ، فلما رأى أن العلة والباعث على تحريم البيع فى البر على هذا الوجه هى كونه مطعوما ، وأصبح مآل النص (حديث الرسول السالف الذكر) « لا تبيعوا مطعوما بمطعوم إلا يدا بيد مثلا بمثل » كان لا شك بيع التفاح بالتفاح داخلا تحت هذا المعنى ومشمولا له . فحكم بيع التفاح بالتفاح متفاضلا أو مؤجلا قد قررته الشريعة من يوم قال الرسول « لا تبيعوا البر بالبر الخ » ، ولكن الشافعى لم يتبينه إلا يوم نظر تلك الحادثة ، فسوّى التفاح بالبر فى الحكم لمّا وجد علة حكم الأصل وهو البر ، فى الفرع وهو التفاح .

بقى هناك طرق أخرى لاستنباط الأحكام الشرعية كالاستحسان والمصالح المرسلة ، والواقع أن المصالح المرسلة مهما اختلفت عبارة القوم فى تحديدها وتصويرها فهى راجعة الى القياس ، وكل ما هنالك من تفاوت أن ما اصطلحوا على تسميته بالقياس قد اشترطوا فيه أن يكون المعنى الذى يشترك فيه المقيس والمقيس عليه ، ويسوى المجتهد بسببه فى الحكم بينهما ، معنى يكون الشارع قد اعتبره بخصوصه فى خصوص حكم المقيس عليه ، كما فى المثال السالف الذكر ، فإن الإمام الشافعى يرى أن الشارع قد اعتبر ذلك الأمر بخصوصه وهو كون الشىء مطعوما علة ذلك الحكم المخصوص وهو تحريم بيع البر بالبر على هذا الوجه ، فأما إذا كان المعنى المناسب الذى يعلل به الحكم لم يشهد باعتباره بخصوصه شاهد شرعى خاص ولكن فهم من جملة تصرفات الشارع اعتبار جنسه فى جنس الحكم ، سمى نوع القياس للاشتراك فى مثل هذه العلة بالمصالح المرسلة فى اصطلاح الأصوليين .

وإليك مثلا لهذا : قام أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بجمع القرآن الكريم بعد وفاة الرسول ، وبعد أن تردد فيه الخليفة الأول لرسول الله « أبو بكر الصديق » رضى الله عنه ، وجعل عمر الفاروق يحاول إقناعه بذلك حتى أقنعه ، وبعد أن تردد فى ذلك زيد بن ثابت حين كلفه الخليفة بذلك ، حتى لقد تحدث عن نفسه بأنه لو كلف نقل جبل لكان أهون عليه مما كلفه به الشيخان ، وأنه ما زال به الفاروق والصديق حتى شرح الله صدره لذلك ؛ ترى أنا إذا نظرنا فى هذا العمل نجد أن الصحابة لم يستندوا فيه الى نص ؛ لذلك كانت حجة أبى بكر فى تردده حين عرض عليه عمر ذلك كما كانت حجة زيد بن ثابت : « كيف أقدم على عمل لم يقدم عليه رسول الله ؟ » ثم هم الى هنا لم يقيسوه على أصل خاص لعلة اعتبرها بخصوصها الشارع ، ولكن لما كان مفهوما من جملة الشريعة وروح التشريع وجوب المحافظة على أصل الاسلام وسد ذريعة الاختلاف فيه ، فهم استندوا الى ذلك الأصل فيما قاموا به من جمع القرآن الكريم .

ومن قبيل الاستدلال بالمصالح المرسلة أيضا ، ما ذهب إليه الإمام مالك وشيوخ مذهبه من جواز سجن المتهم وضربه ، وإن كان السجن والضرب نوعين من العذاب ، وهو لم يعهد بالشريعة إلا فى الحدود ، ولكن لما رأى الامام مالك أن أموال الناس قد يتعذر استخلاصها من أيدى السراق والغصاب لعدم البينة لأنهم حين يقدمون على تلك الجرائم يتحرون التفادى من أن يؤخذوا ببينة ، لما رأى ذلك أجاز هذا التعذيب حين كان الوسيلة لتحصيل الأموال وردها الى أربابها ؛ فتراهم وإن لم يستندوا فى ذلك الى نص ولا قاسوا على أصل خاص ، ولكن لما كان مفهوما من جملة الشريعة وروح الاسلام تغليب منفعة المجتمع على منفعة الفرد ، وإيثار المصلحة العامة على الخاصة ، فهم استندوا الى ذلك الأصل فى جواز إساءة الفرد لاستتباب مصلحة المجتمع . فأنت ترى أن المجتهد حين سلك هذا النوع من الاستدلال لم يحد عن طريق القياس ، بل كل الذى حصلت به المخالفة للقياس المشهور أنه فى هذا النوع من الاستدلال قد استند الى علة هى وإن لم يشهد لها أصل من الشريعة خاص ، قد شهد لها عمومات الشريعة ، وجملة تصرفاتها .

وأما الاستحسان ، فمهما اختلفت عبارة القوم فى رسمه أو تحديده ، فكلها ترجع الى أن الاستحسان عبارة عن أن يخالف المجتهد مقتضى دليل عام فى مسألة من متناولات ذلك الدليل فيعطيها حكما غير الحكم الذى هو لها بمقتضى هذا الدليل ، ولنظائرها لاعتبار قام فى تلك المسألة بخصوصها . أو قل : الاستحسان بعبارة أخصر من هذه : هو تخصيص دليل بدليل آخر .

وإليك مثالا يوضح هذا : أجاز الفقهاء أن يدخل الشخص الحمام دون تقدير للأجرة ، وبغير تعيين لمدة المكث فيه ، وبغير تقدير لما يستنفده من الماء فى تنظيف جسمه ؛ ومقتضى الأدلة الشرعية فساد عقد الإجارة والبيع إذا جهل أحد العوضين أو إذا جهلا معا ، فكان مقتضى هذا عدم جواز دخول الحمام من غير تعيين ولا تقدير ، ولكن لما كان عرف كل بلد فى مثل هذا يكاد يكون محددا لتلك الأعواض ومقدرا لها ، فإن حصل بعد ذلك تفاوت بين تقديرى المتعاقدين لم يكن إلا فى نزر يسير ، فلو نحتم تفاوض الداخل مع صاحب الحمام فى تقدير ذلك كله لفتحنا بذلك بابا لمفاوضات ربما أدت الى تخاشن فى القول ، والى مشادات ليتها كانت فى شىء كثير ، بل هى فى غير ذى قيمة ، بل فى تافه يسير لا يجمل مثله بكرامة أخوين فى وطن ، إن لم يكن فى دين ، مع منافاته لما يندب إليه الاسلام من تسامح بين المتعاملين ، وفى هذا تضييق لباب المعاملة ، وخلق للمشقة والحرج ، والحرج من أول مقاصد الإسلام إزالته واستئصاله .

فانظر تر أن المستحسن لم يشرع استنادا لاستحسان نفسه ، ولا اعتمادا على نظر عقله ، ولكنه فى استحسانه قد استند الى مادة الوحى وما أصلته من أصول وأسسته من قوانين . وما كان الاستحسان الذى يشعر به المجتهد فى مثل هذا إلا منبعثا عن شعوره بقوة ووضوح

فى الأصل الشرعى الذى استند إليه فى التخصيص والاستثناء ، وإحساسه بانزياح الشبه عنه ، كما ترى فى هذا المثال الذى أسلفناه . وبهذا ترى أن المستدل بطريق المصالح المرسلة لم يخرج عن كونه قائسا ، وقد علمت حقيقة القياس كما ترى ، وأن المستحسن لم يحد عن مقتضى أصل من أصول الشريعة .

هـذه حقيقة اجتهاد الفقهاء ، وذلك مآل الرأى والقياس فى الاسلام : لم يكن المجتهد والذى رأى وقاس إلا مطبقا لمـادة الوحى ، ومفصلا لقواعد الشريعة ، ليبين انتظامها لمـا يحدث للناس من أقضية ، وما يجد لهم من شئون ، وأن ما تقاصر عنه لفظ القاعدة الشرعية لم يتقاصر عنه معناها ؛ وكيف لا يكون كذلك ويكون كما يفهم بعض النـاس من أن الاجتهاد والرأى ليسا مستمدين من الوحى بل هو تشريع من عند صاحبهما ، ولو كان كما يفهم هذا البعض لـكان القائس والمستحسن مبتدعا ، وهل البدعة إلا أن يشرع الانسان من عند نفسه ؟ ولقد عرّفنا رسول الله مـكان البدعة وأنه النار وبئس المصير « كل بدعة ضلالة وكل ضلالة فى النار » ، لو كان كما يفهم بعض الناس ، ما كنت ترى الإمام الشافعى حين خالف الإمامين أبا حنيفة ومالـكا فى الأخذ بالاستحسان لايزيد فى رده له عن أن يقول : « من استحسن فقد شرع » ؛ فاكتفى فى الرد ببيان أن الاستحسان مفض الى تشريع المرء من عند نفسه . أما أن تشريع المرء من نفسه منكر وباطل ، أما أنه لا يدعيه من المسلمين أحـد لنفسه ، أما أنه شأن الله وحـده ، فذلك ما قد فرغوا منه ، وليس بين المسلمين من يخالف فيه ، فاذا عرفت بعد هذا أن الامام الشافعى ممن يحتجون بالقياس ويعتـبرونه دليـلا شرعيا ، عرفت أن القائس ليس مشرعا من نفسه بل مستمد من الوحى ، كما أن المستحسن كذلك فى نظر الامامين أبى حنيفة ومالك ، وكما هو الواقع .

نعم لو كان كما يفهم بعض الناس ما عنى القرآن فى كثير من آياته بذم الذين حللوا وحرموا من عنـد أنفسهم ، ولا بالغ فى تخطئتهم وتسفيههم ، فعرفهم أن التحليل والتحريم شأن الله وحده ، إذ هو الذى يعلم مواطن الضرر ومواقع المصلحة ، وما ينظم شئون الناس من شرائع وقوانين .

ولا بد لى أن أسوق لـكم آية من تلك الآيات حتى تعرفوا منها ذلك واضحا :

« قل أرأيتم ما أنزل الله لـكم من رزق فجعلتم منه حراما وحلالا ، قل آلله أذن لـكم أم على الله تفترون ؟ ! وما ظن الذين يفترون على الله الـكذب يوم القيامة ، إن الله لذو فضل على الناس ولـكن أكثرهم لا يشكرون » :

أكتب هذا بمناسبة ما رأيته وفهمته من محاضرة ذلك الباحث ، مع اتهامى لفهمى إلى حد كبير ، إذ لا أزال أظن أن يكون مراد الأستاذ فى محاضرته هو هذا الذى فصلته .

أما ما جاء بالمقال الذى نشرته جريدة السياسة من الإغراق فى ذم الرأى والقياس ، والإمعان فى حظره ، فذلك مالا يتفق مع ما روى عن رسول الله ، ولا مع ما مضى عليه عمل أئمة المسلمين من أصحاب رسول الله ومن بعدهم ، كما أنه لا يتفق بعد ذلك كله مع طبيعة الاسلام وحقيقته . روى عن الرسول صلى الله عليه وسلم « أنه حين أرسل معاذا قاضيا الى اليمن قال له : بم تقضى إذا لم تجد حكما فى كتاب الله ولا فى سنة رسوله ؟ قال : قال له معاذ : نقيس الأمر بالأمر فما وجدناه أقرب عملنا به ، فقال له الرسول الكريم : أصبت » . ومثل هذا ما جاء فى العهد الذى كتبه الفاروق عمر بن الخطاب الى أبى موسى الأشعرى ، فقد قال له فيه : « اعرف الأشباه والنظائر وقس الأمور برأيك » . وإذا نحن تصفحنا عمل أصحاب الرسول وخلفائهم الراشدين وفقهائهم المجتهدين ، وجدنا أخذهم بالقياس واعتمادهم عليه فى الاستدلال قد تكرر منهم ، وتعددت حوادثه حتى شاع بينهم ، وذاع أمره فيهم ، دون أن يبدى أحد منهم إنكارا ، أو يبدو على وجه واحد منهم علائم نضرة أو استكراه مما تقضى العادة فى مثله بقاطع العلم باعتماد القياس والأخذ بمقتضاه ، وهاهم أولاء الأئمة الأربعة الذين لم يبق بين المسلمين اليوم سوى مذاهبهم قد أجمعوا على الأخذ به ووجوب العمل بمقتضاه ، لا بل قد اعتمدوا ما هو دونه من المصالح المرسلة والاستحسان . وعلى العموم فإنا إذا بحثنا آراء المسلمين فى القياس وجدناهم مجمعين على حجته والعمل به ، وعلى أنه أصل من الأصول الشرعية ، ولا تجد بينهم من يخالف فى ذلك إلا فريقا من الشيعة . وإنا بعد أن عرفنا ما للشيعة من شذوذ فى الاسلام فانه لا يبقى لخلاف تلك الفرقة منهم قيمة ينخدش بها ذلك الإجماع .

أفبعد هذا وبعد ما مضى على العمل بالقياس أربعة عشر قرنا من فقهاء الشريعة وأئمة الاسلام ، يصح للأستاذ الباحث أن يكتب فيحاول منع القياس ، ويخرج فى مقال كتبه فى ساعة أو ساعتين على أعلام الشريعة وأئمة المسلمين ، الذين أفنوا أعمارهم فى بحث الشريعة وتعرف مقاصد الاسلام ، فما أقدموا على الأخذ بالقياس إلا بعد إمعان نظر وطول تمحيص وتدقيق غير مشغولين عن هذا بشأن آخر من شئون الحياة ؟ اللهم إن هذا غير ما ينبغى لمن يقدم على بحث دينى كهذا . على أننا إذا أغضينا عن ذلك كله وفرضناه غير واقع فهناك ناحية ليس للناظر اليها مناص من القول بضرورة كون القياس أصلا أسسته الشريعة ، وعلما بناه الاسلام : تلك الناحية هى أننا قاطعون بأن شريعة الاسلام هى الشريعة الختامية ، وهى الأبدية الى نهاية هذه الحياة ، وقاطعون أنها صالحة لإقامة النظام ونشر السلام بين جميع الأوساط ، وفى كل مكان ، ومتسعة لما يحدث للناس من أقضية ، وما يجدّ لهم من شئون ، فتعطى كل حادثة حكمها مهما اعترى العالم من تغير ، وطرأ عليه من تطورات ؛ ثم إنا قاطعون الى جانب هذا بأن نصوص الشريعة غير متناولة بلفظها لجميع ما يحدث من الوقائع ؛ وإذا كان الأمر كذلك فليس من سبيل الى أن تنتظم أصول الشريعة جميع الحوادث فتعطى كل حادثة حكمها سوى القياس .

وإذاً فما أمر الشريعة إلا إحدى اثنتين : فإما نحن قائلون بأن الشريعة صالحة لكل زمان ومكان ، وحينئذ فلا بد لتعميم نصوصها لجميع ما يحدث من القياس ، وإما نحن قائلون بعدم القياس ، ومن لوازم هذا ألا تكون الشريعة صالحة لكل زمان ومكان ، وليس هناك من ثالثة . أفلا يتقى الله بعد هذا من يحاول الإقدام على نظر فى الدين وبحث فى الشريعة ؟ ! ولو اتقى الله الباحثون فى الدين والناظرون فى الاسلام ، ومحصوا نظره ، وحرروا بحوثهم ، لما منى الاسلام بما منى به من تخليط وتلبيس ، وعيب وتشويه ؛ فاللهم اهدنا سبيلك الحق إنك سميع الدعاء !

وبعد ، فلنعد الى نظرة أخرى فى أجزاء الآية بعد ما بينّا المقصد الذى ترمى اليه والأصل الذى أسسته لحماية تلك الحكمة البالغة ، التى هى بقاء المحتمل من النصوص على احتماله دون توحيد لمعناه ، ولا تحديد للمراد منه ، دفعا للحرج ، وتحقيقا للرحمة .

وإن أول ما يطالعنا من روائع القرآن إذا بدأنا النظر فى أجزاء الآية ، هو التعبير عن المنادى باسم موصول « يأيها الذين آمنوا » دون أن يقول : يأيها الناس ، أو يا عبادى ، أو نحو ذلك مما كان يصح التعبير به . وإنك إذا استعرضت استعمال الاسم الموصول على أى وضع من أوضاعه مسنداً اليه أو مسندا ، أو متعلقا من متعلقات الجملة وقيودها ، وجدت أمره يدور فى جميع ذلك على شيء واحد هو قصد المتكلم أن يجعل من الصلة مقويا لتحقيق ما يرمى اليه . وإذا تبينت هذا المعنى فيما معنا وجدته يطالعك فى بهاء وجلاء ؛ ألا ترى أن الغرض من الآية هو النهى عن المساءلة فى النصوص المحتملة إبقاء على الحكمة من ذلك ؟ فهو لهذا قد ناداهم بعنوان الايمان ، لما أن الإيمان داع حىّ ، ودافع قوى على الاستجابة والامتثال .

وإن ثانى ذلك ، ما تدركه من دقة وبلاغة فى أن قدّم إحدى الشرطيتين على الأخرى ، بأن قدم قوله : « إن تبدلكم تسؤكم » على قوله : « وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبدلكم » ، إذ السر فى ذلك أنه ليس من شك فى أن الناهى عن شيء يعنى كل العناية بكل وسيلة لتحقيق الانتهاء ، وليس من شك فى أن من أول وسائل الانتهاء هو بيان ما فى النهى من أضرار ومساءات للمنهيين ، فلو جاء فى وصف المنهى عنه بما يغرى المنهى بفعله لكان عابثا ومناقضا معاً ، فلو كانت العبارة هكذا « لا تسألوا عن أشياء إن تسالوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم » لكان عبثا وتناقضا من وجهين : أما أولا فلأنه ليس للسائل من غاية فوق أن يوضح له ما سأل عنه ، وما داموا إن هم سألوا يوضح لهم ما سألوا عنه ، فلا جرم أنهم يسارعون الى السؤال ويتمادون فيه ، فكيف يتحقق مع هذا غرض الناهى ؟

وأما ثانيا ، فلأنه إذا عرف السائل أن مصدر الجواب والايضاح وثيق ، كان ذلك أكثر إغراء بالسؤال ، ولا شك ان الوحى هو أوثق مصادر الايضاح والتحديد ؛ لذلك كان لا بد

من تقديم الشرطية الأولى على الثانية لما فى الأولى من أن فى الإبداء أضرارا ومساءات مما هو أعون على الغرض وأبلغ فى تحقيقه .

وإنك لتزداد إيمانا بإعجاز القرآن حين تنظر فتجد أن الشرطية الثانية بعد أن كانت لو وضعت أولا تكون مغرية بالسؤال ، صارت بعد أن وضعت ثانيا من أقوى عوامل التنفير عن مقارفة المنهى عنه ، فانه مادام فى الابداء السوء وما يكرهون كما هو مقتضى الشرطية الأولى ، فقد صار استتباع السؤال للابداء المسىء من أقوى الدوافع والمنفرات عن السؤال .

وثالث ذلك ، أنه لما كان من صور التكاليف التى كان يصح أن يكلف الله بها عباده هى أن يجعل التكاليف كلها متوحدة بحيث يكون لكل فعل من أفعال العباد حكم لا يحتمل غيره ، بأن تكون جميع النصوص محددة المعنى لا تحتمل إلا معنى واحد ، لما كان كذلك كان عدم توحيد الأحكام عفوا من الله عن الناس ، إذ لم يحرجهم ولم يشق عليهم بحملهم جميعا على سلوك طريق واحد مع اختلاف مناهج الحياة فيهم ، ومع تباين أزمنتهم وأمكنتهم ، لهذا كانت عبارة الآية الكريمة « عفا الله عنها » : أى عفا الله عن الأشياء التى حاول الناس بسؤالهم فيها أن يوحدوا معانى نصوصها ، ولم يجزهم على محاولتهم ذلك مع أنهم كانوا حقيقين أن يجزوا بتحقيقه عليهم ما حاولوه من تعسير يسر ، وتصعيب سهل ، وتضييق واسع ، لما فى تلك المحاولة من الغفلة عن حكمة الله فيما أنزل من نصوص محتملة ، دفعا للحرج ورحمة بالعباد ، ولما فى تلك المحاولة أيضا من إشعار بالتلكؤ فى الاستجابة والتباطؤ فى الامتثال كفعل بنى إسرائيل فيما طلب اليهم من ذبح البقرة . وبذلك يتضح لك سر إيثار وصفى الغفران والحلم على سائر صفاته تعالى فى قوله « والله غفور حليم » ، إذ أن ترك جزائهم بتوحيد التكاليف بعد محاولتهم ذلك بالسؤال ، غفران لهم وحلم عليهم .

هذا ، ولما كان من أبلغ الحكم وأسماها ، ومن أعظم النعم وأوفاها ، أن يكون فى نصوص الأحكام نصوص متشابهة ومحتملة أكثر من معنى واحد حتى يفضى الى اختلاف الأحكام باختلاف أنظار الأئمة ... لما كان كذلك ترى القرآن قد اشتد فى حماية هذا الأصل والذود عنه بالتنفير عما قد يفضى الى جنسه ؛ لذلك تراه بعد أن نهى عن السؤال صونا لذلك الأصل ، تراه قد سلك للتنفير عما يمسه سبيلا آخر ، فبين عاقبة السؤال فيمن سبقهم من الأمم ، فقال : « قد سألها قوم من قبلكم ثم أصبحوا بها كافرين » : أى أن من قبلكم قد سألوا أن يحكم لهم المتشابه ، ويحدد لهم المحتمل ، ويشخص المطلق ، فأدى بهم ذلك الى الحرج والمضايقة ، حتى انتهى الأمر بكفرهم بتلك الأحكام وتركهم لها . فما أسمى حكمة الله فينا ، وما أعظم نعمته علينا ! ! رب قد أخلصت اليك عملى ، فوفقنى للخير ، واهدنى للصواب ؟

حامد محيسن

الكلام والمتكلمون

— ٩ —

الحركة الفكرية بعد الغزالى

متفلسفو المتكلمين :

رأينا حين عرضنا لدراسة الغزالى أن هذا الإمام كان له من تأليفه غايتان جوهريتان : الأولى هى القضاء على كبرياء العقل البشرى وثقته بنفسه ، وهـذا لا يتم إلا بمهاجمة الفلاسفة وتحطيم آرائهم ومذاهبهم بعد إثبات خطئها أو ضعفها على الأقل . والغاية الثانية هى بعث الروح الدينية من مرقدها بعد أن طغى عليها سلطان العقل الذى مكنته الفلسفة الإغريقية من التباهى بعظمته وجبروته . وقد أوضح أبو حامد هاتين الغايتين بكتابيه اللذين عنون أحدهما بـ « تهافت الفلاسفة » وسمى الثانى : « إحياء علوم الدين » . وهو من غير شك لم يضع هذين العنوانين عبثا ولا عن طريق المصادفة ، وإنما قصد بالأول إخفات صوت النظر ، وبالثانى إحياء صوت الإيمان التسليمى . فلننظر الآن الى أى حـد نجح الغزالى فى هذه المحاولة التى قام بها لنصر العقيدة على العقل :

لما كانت الأمة الاسـلامية مكونة من عامة يصلحون للإيمان التسليمى ، ومن خاصة لابد لإيمانهم من سند عقلى من جهة ، وكانت النهضة العـربية لا تزال تطبع العصر بطابعها من جهة ثانية ، لم ينجح الغزالى فى أول الأمر فى دعوته ، ولم يستطع أن يفرض الايمان التسليمى على الخاصة ، ولا أن يحصرهم فى دائرة علم الـكلام المباح ، بل لم يلبث أن هب من خاصة المسلمين جماعة صبغوا عـلم الـكلام بصبغة النظر المحض ، ومزجوا آراء الاسلام بالفلسفة ، وأفاضوا فى بسط آراء المعتزلة والفلاسفة ، وحاولوا مناقشتها والرد عليها فى مؤلفات ضخمة بلغت مجلداتها العشرات . ومن هـؤلاء المتفلسفين أبو حفص عمـر النسفى ، وأبو الفتح محمد الشهرستانى ، وفخر الدين الرازى ، وعبد الله بن عمر البيضاوى ، وعضد الدين الإيجى الشيرازى ، وسعد الدين التفتازانى ، والسيد الجرجانى ، وأثير الدين الأبهرى ، وغيرهم . وإليك كلمة وجيزة عن كل واحد من هؤلاء العلماء :

(١) عمـر النسفى :

حياته ومنتجاته : هو أبو حفص عمـر نجم الدين ، وقد ولد فى نسف فى سـنة ٤٦١ هـ (سنة ١٠٦٨ م) ، وكان من أكابر علماء عصره فى مذهب الحنفية . وتوفى فى سـنة ٥٣٧ هـ

(سـنة ١١٤٢ م) . وأهم مؤلفاته : كتاب العقائد النسفية الذى يعتبر بحق رمزا أعلى للعقيدة الاسلامية . وقد طبعه « كورتون » فى « لندرا » سنة ١٨٤٣ ، وطبع فى الاستانة ثم فى مصر . وله عدة شروح وتعليقات نخص منها بالذكر أدقها وأجلها فى رأينا ، وهو شرح سعـد الدين التفتازانى . وأول ما يحاول شراح هذا الـكتاب إثباته هو تبيين أن خطة الغزالى قد نزعت من علم الـكلام حليته الضرورية له ، وهى النظر العقلى ، وأن هذه الحلية قد بدأت تعود إليه على أيدى النسفى وشراحه ومن نحا نحوهم .

يمتاز هذا الـكتاب بميزة جديدة ، وهى مخالفته طريقة الـكتب النظرية القديمة التى كانت تبدأ بحوثها بمقدمات منطق أرسطو ، وفرفريوس حسب منهج الأفلاطونية الحديثة الذى انتقل إلى فلاسفة الاسلام فساروا عليه .

خالف النسفى فى كتاب العقائد هذه الطريقة القديمة ، فبدأ مقدمته ببيان علمى ، له قيمته فى العصر الحديث ، وهو يتلخص فى أن موضوع العلم هو حقائق الأشياء ، وأن هذه الحقائق ثابتة لا سبيل إلى الشك فيها رغم إرادة المرتابين ، وأن فى مقدرة العـلم الانسانى الاستيلاء عليها ، وأن وسائل الاستيلاء هى : الحواس ، والعقل ، والخبر الصادق ؛ وأن الإلهام لا يصلح لأن يكون وسيلة من وسائل المعرفة ، فـكان هـذا التقرير من جانبه صدمة قاسية اتجهت إلى تعاليم الصوفية ، وعلى رأسهم الغزالى الذى أعلن أن الإلهام هو أمثل وسائل المعرفة وأصدقها : « قال أهل الحق : حقائق الأشياء ثابتة ، والعلم بها متحقق ، خلافا للسوفسطائية ؛ وأسباب العلم للخلق ثلاثة : الحواس السليمة ، والخبر الصادق ، والعقل . فالحواس خمس : السمع والبصر والشم والذوق واللمس . وبكل حاسة منها يوقف على ما وضعت هى له . . . وأما العقل فهو سبب للعـلم أيضا ، وما ثبت منه بالبديهة فهو ضرورى كالعلم بأن كل الشىء أعظم من جزئه ، وما ثبت بالاستدلال فهو اكتسابى . والإلهام ليس من أسباب المعرفة بصحة الشىء عند أهل الحق » (١) .

يتألف هذا الـكتاب بعد المقدمة من ثمان وخمسين فقرة ، تتناول كل واحدة منها مشكلة من المشاكل التى هى موضع خلاف بين الفلاسفة والمتـكلمين ، أو بين أهل السنة والمعتزلة ، أو خبرا سمعيا انعقد عليه إجماع السلف .

فالفقرة الأولى : عالجت مشكلة حدوث العالم ، فقررت أنه بجميع أجزائه محدَث ، وعللت ذلك بأن العالم أعيان وأعراض ، وعرّفت الأعيان بأنها ما قام بذاته ، والأعراض بأنها ما قام بغيره ، ثم قررت أن الاولى إما مركبة ، وهى الأجسام ، وإما بسيطة ، وهى الجواهر . وهذه

---

(١) انظر صفحة ٦٢ وما بعدها من شرح العقائد النسفية .

الفقرة مشتملة على ثلاث مشاكل : الأولى تقرير حـدوث العالم ، والثانية تألفه من جواهر وأعراض ، والثالثة القول بالذر أو الجزء الذى لا يتجزأ .

والفقرة الثانية عنيت باثبات أن محدث العالم هو الله ، وأنه هو الواحد الأزلى الحى القادر على كل شىء ، العالم بكل شىء ، السميع البصير المريد . وهذه هى الصفات الإيجابية . ثم ذكر المؤلف بعد ذلك الصفات السلبية التى يجب تنزيه الله عنها ، وهى أنه ليس بعرض ولا جسم ، ولا جوهر ولا مصور ، ولا محدود ولا معدود ، ولا متبعض ولا متجزئ ، ولا متركب ولا متناه ، ولا يوصف بالمائية ولا بالـكيفية ، ولا يتمكن فى مكان ، ولا يجرى عليه زمان ، ولا يشبهه شىء ، ولا يخرج عن علمه وقدرته شىء . وقد اختتم هذه الفقرة باثبات صفات المعانى وادعائه — كما قال الأشعرى من قبل — أنها : لا هو ولا غيره . ذلك التعبير الذى اضطر اليه المتكلمون حينما أحرجهم الفلاسفة وضيقوا عليهم الخناق بقولهم : إن كانت الصفات عين البارى ، فهى ليست صفات ، وبهذا يكون قادرا بذاته ، عالماً بذاته ؛ وإن كانت غيره ، فقد استكمل بغيره ؛ وإن كانت أبعاضه ، فقد تألف . فلم يجد المتكلمون فى وسعهم إلا أن يقرروا أنها لا هو ولا غيره .

وقد عرضت الفقرة الثالثة للقرآن ، فقررت أنه كلام الله الغير المخلوق ، وأنه مكتوب فى المصاحف ، مقروء بالألسن ، مسموع بالآذان ، ولـكنه ليس حالا فى شىء من هذا كله .

اعتبر الباحثون الغربيون هـذه الفقرات الثلاث أهم ما فى هذا الـكتاب ، لأنها تتعلق بالأصول الأساسية للعقيدة ، أما ما يليها وهو من الفقرة الرابعة الى الثامنة والثلاثين ، فقد عنى فيه المؤلف بالخلق وتعلق الإرادة الإلهية به ، ورؤية الله فى العالم الآخر ، ونعيم القبر وعذابه وسؤال الملـكين ، ثم بالبعث ، ثم بحكم مرتكب الـكبيرة الذى كان موضع الخلاف بين المعتزلة والسلف منذ بدء الحركة الفكرية الاسلامية . ورأى المؤلف فيها أن الـكبيرة لا تمحو صفة الإيمان من المؤمن ، وأن المؤمنين لا يخلدون فى النار من أجل الـكبائر ، ثم عالج بعد ذلك مسألة الاسلام والإيمان ، وأثبت أن الإيمان لا يزيد ولا ينقص ، ثم مسائل النبوة والخلافة والإمامة .

أما آخر الـكتاب — وهو من الفقرة التاسعة والثلاثين الى الثامنة والخمسين — فهو يتعلق بأحكام غير منسجمة مثل أحكام صلاة الجنازة ، وانتفاع الميت بدعاء الأحياء له ، وصدقاتهم عليه ، ومثل الحديث عن العشرة المبشرين بالجنة والحواريين ، ومثل حظر الاعتقاد بالتنبؤات ، ومثل علامات الساعة ، ومثل القول بعدم عصمة الأئمة المجتهدين ، وغير ذلك .

بان مما تقـدم أن النسفى لم يزدر الفلسفة كما فعل الغزالى ، وأن كتابه — على الرغم من أنه كتاب توحيد — لم يخل من كثير من التعبيرات الفلسفية العالية ، وأنه قد احتوى هو

وشروحه المختلفة على الفروق بين الأعيان والجواهر والزمان والمكان عند الفلاسفة والمتكلمين ، وشمل كذلك اختلافات لطائفة من وجهات النظر بين الفريقين ، بعضها مبنى على أسس إغريقية محضة ، والبعض الآخر مبنى على مبادئ قد بحثت فى العصور الاسلامية بحثا دقيقا . ولهذا أخطأ أولئك المؤلفون فى الأولى وأصابوا فى الثانية .

ومن خصائص هذا الكتاب وشروحه أيضا ، أنها حملت على المنكرين والمرتابين حملات عقلية شعواء ، ويرى أحد المستشرقين أن هذه الحملات هى أحد الفروق بين هؤلاء المؤلفين ، وبين الغزالى الذى انزوى فى ركن من أركان التنسك .

ولا يمكن أن تكون هذه الملاحظة صحيحة إلا إذا حملناها على موقف الغزالى بازاء المرتابين الذين أنكروا المعرفة البصيرية ، وإلا فكيف نغضى عن نضاله العنيف الذى فاض به كتاب « التهافت » ضد الفلاسفة ، والذى تناول أهم آرائهم بالنقد والتجريح .

ويلاحظ « البارون كارادى فو » فرقا آخر بين النسفى وشراحه من جهة ، والغزالى من جهة أخرى ، وهى أن الغزالى هاجم الفلاسفة باسم الدين ، أما هؤلاء المؤلفون فقد هاجموهم باسم العقل ؛ وثمرة الخلاف هى أن الغزالى حاول إهانة العقل ، وهؤلاء اعترفوا بأهميته وضرورة تدخله فى البحث . ولا ريب أن هذا الاعتراف من جانبهم يجعل لبحوثهم قيمة فى نظر العلماء المحدثين .

(٢) الشهرستانى :

حياته : ولد أبو الفتح الشهرستانى فى سنة ٤٧٩ هـ (سنة ١٠٨٦م) فى شهرستان بخراسان . وقد درس فى نيسابور ، وهناك اطلع على مذهب الأشاعرة فاعتنقه . وفى سنة ١١١٦ م أدى فريضة الحج ، ثم اتجه إلى بغداد فأقام بها ثلاثة أعوام ، ثم عاد الى بلده وأقام بها حتى توفى فى سنة ٥٤٨ هـ (سنة ١١٥٣ م) .

منتجاته : يعتبر كتابه « الملل والنحل » عرضا عاما لأكثر مذاهب الفرق الاسلامية ، ولبعض المذاهب الفلسفية الأخرى من إغريقية وفارسية وعربية . وقد أسلفنا رأينا فى هذا الكتاب حين عرضنا لمصادر الفلسفة الاسلامية فى الفصل الذى أفردناه للكتب المترجمة ؛ وكل ما نقوله عن هذا الكتاب بعد الذى أسلفناه عنه ، هو أنه طبعه « كوريتون » فى سنة ١٨٤٠ م وترجمه الى الألمانية « هاربروكير » فى سنة ١٨٥٠ م . وللشهرستانى كتابان آخران ، هما « نهاية الإقدام » و « مصارعة الفلاسفة » ، الأول فى التوحيد ، والثانى فى مناقشة بعض الآراء الفلسفية .

(٣) البيضاوى :

حياته : لا تعرف المصادر التى بين أيدينا الآن تاريخ مولد عبد الله بن عمر البيضاوى ، وإنما تحدثنا فقط أنه ولد فى « بيضا » إحدى مدن الفرس . وكان والده قاضيا بتلك المقاطعة ، ثم تولى هو القضاء بعد أبيه فى شيراز ، ثم انتقل بعد ذلك الى تبريز ، وظل فيها إلى أن توفى فى سنة ٦٨٥ ﻫ (سنة ١٢٨٦ م) .

مؤلفاته : أشهر مؤلفاته كتبه الآتية : (ا) « أنوار التنزيل وأسرار التأويل » فى تفسير القرآن . وقد فضل عامة المسلمين هذا الكتاب على غيره من التفاسير ، ولكن الخاصة الذين ينظرون الى الأمور نظرة نقد وتمحيص ، يرون أنه إما سطحى ، وإما مفرط فى الايجاز حين يعرض للمسائل التى تستوجب البحث والنقاش . وفوق ذلك فهو متأثر بكتاب الكشاف للزمخشرى تأثرا يكاد يدرجه فى عداد المقلدين . وما لم يقتبسه من الكشاف ، فهو كذلك ليس من ابتداعاته ، وإنما اقتبسه بلا تصرف من مؤلفين آخرين . وقد استطاع الباحثون الغربيون أن يظهروا للعيان الفرق بين هذا المؤلف وبين عباقرة المفسرين الآخرين كالزمخشرى والرازى رغم تقدم هذا الكتاب بين جماهير المسلمين على « الكشاف » و « مفاتيح الغيب » . (ب) « توالى الأنوار » وهو فيما وراء الطبيعة . (ج) « مصباح الأرواح » وهو فى علم الكلام . (د) « منهاج الوصول » وهو فى فقه الشافعية . (ﻫ) « نظام التواريخ » وهو فى تاريخ الفرس ، وقد كتبه باللغة الفارسية .

(٤) أثير الدين الأبهرى :

حياته ومنتجاته : هو أثير الدين مفضل بن عمر الأبهرى ، ولا يعرف التاريخ عنه أكثر من أنه توفى فى سنة ٦٦٣ ﻫ (سنة ١٢٦٤ م) .

أما مؤلفاته فأشهرها اثنان ، وهما فى الفلسفة المدرسية ، ولهما عدة شروح . وكثيرا مايرجع اليهما العلماء فى بحوثهم ، والطلاب فى استذكاراتهم . فأولهما : « هداية الحكمة » وهو ثلاثة أقسام : المنطق والطبيعيات والإلهيات ؛ وثانيهما كتاب إيساغوجى وهو « إيزاجوج » تأليف « فرفريوس » مع شيء من التصرف . ومن أشهر شروحه كتاب شمس الدين أحمد الفنارى ، وقد شرحه أيضا زكريا الأنصارى المتوفى فى سنة ٩٣٦ ﻫ (١٥٢٠ م) . وعلق عليه الحفناوى المتوفى فى سنة ١١٧٨ ﻫ (سنة ١٧٦٤ م) ، ولا يعرف بعد ذلك للأبهرى إلا ثلاث رسائل صغيرة فى الفلك .

الدكتور محمد غلاب
أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

حياة رجالات الاسلام

عبد الله بن عمرو

هـذه شخصية من رجالات الاسلام ، وعلماء الصدر الأول ، وتلاميذ مدرسة النبوة ، تمثل ناحية جديدة من نواحى الحياة الفكرية الاسلامية ، تلك هى ناحية اتصال الثقافة الأجنبية بالثقافة الاسلامية ؛ ولسنا نفهم ، ولا أحـد يرضى عن عقله يفهم من كلمـة الثقافة الأجنبية وقتئذ معناها الواسع الذى يفهمه قارئ العصر الحاضر ، وإنما الذى نفهمه ونقصده من كلمة الثقافة الأجنبية ، ما تعطيه الحياة فى بيئة الجزيرة العربية مشرق شمس الاسلام ومطلع نوره ، على عهد البعثة المحمدية ، فقد كانت هناك جاليات من اليهود لها كتابها وثقافتها الخاصة ، تحتل جزءاً عظيما من جزيرة العرب تعيش فيه بأسلوبها الخاص ، وقـد صار هذا الجزء بعد مجىء الاسلام مركز النهضة ، ومصدر الحياة الفـكرية الاسلامية ، وكانت هناك جماعات من العرب وغـيرهم يدينون بالنصرانية ، لهم علومهم ومعارفهم الخاصة ، ينبثون فى كثير من مواطن الجزيرة العربية .

ومن الطبعى ألا تقف هذه الجماعات يهودية ونصرانية جامدة إزاء حدث الاسلام الأعظم الذى هز الـكرة الأرضية هزة نفضت عنها آثار الجمود ، وقد صور القرآن الـكريم النضال القوى بين هـذه الجماعات وبين أهل الاسلام تصويرا رائعا ، يشرح فى وضوح نظرة هؤلاء الى من يساكنونهم من أبناء البلاد ، وما فى تلك النظرة من تحقير واستصغار ، ويشرح لنا موقفهم العنيد إزاء الاسلام وشريعته . ومن الغريب أن هؤلاء المتميزين بثقافتهم ودياناتهم لم يكونوا ينشطون فى سبيل نشر ثقافتهم والدعاوة لدياناتهم ، بل كانوا حرصاء أشد الحرص على ألا يعلم أحد من الناس علمهم ، ولا يعنيهم أن يدين أحد غيرهم بدينهم ، إبقاء لهذا التمايز الذى يدلون به على سواهم ، وقد صادف هذا الجمود طبيعة صدوفة عند العرب ، منصرفة لتوافه الأمور ، لا تبحث عن دين أو ثقافة ، فاذا وجدنا منهم حينئذ من يقرأ ويكتب فقد وجدنا الفذ الذى لا يساميه أحد من أقرانه ، وإذا وجـدنا من يتجاوز القراءة والـكتابة بالعربية الى غيرها من لغات الأمم المجاورة أو الجاليات المخالطة ، فقد وجدنا علائم انفتاح العقل العربى لحياة جديدة ؛ ولـكن هل كان من ذلك شىء يمثل ظاهرة عامة فى الأمة ؟ ! لو حاول الباحث أن يتلمس هـذا النحو لأعياه أن يجد شيئا له قيمة اجتماعية تشعر بالتحول أو الاستعداد إلا بمعجزة إلهية ، وهـذا ما قام به الاسلام بانقلابه الخطير . ومهما يكن فان الشخص الذى يعنى

فى مثل تلك البيئة بشىء من العلم والثقافة لا بد أن يكون على استعداد فكرى صالح للحياة التى أنشأها الاسلام ، وهذا ما نجد شيئا منه فى حياة عبد الله بن عمرو .

كان عبد الله بن عمرو أسبق الى هداية الاسلام من أبيه عمرو بن العاص . وأصحاب الطبقات يذكرون أن أباه أسلم سنة ثمان للهجرة ، قدم هو وخالد بن الوليد وعثمان بن طلحة المدينة مسلمين ، فلما دخلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونظر اليهم قال : « قد رمتكم مكة بأفلاذ كبدها » . وأخرج البخارى عن الشعبى أنه « لم يكن بين مولد عبد الله ومولد أبيه إلا اثنتا عشرة سنة » . وهذا من نوادر التاريخ .

أسلم عبد الله بن عمرو فى استواء رجولته واكتمال عقله ، وكان — فيما يظهر — قبل إسلامه من القلائل الذين تخطوا حدود بيئتهم ، فعنوا بشىء من المعارف الفكرية ، وكتبوا وقرءوا ؛ ولم يقتصر عبد الله بن عمرو فى معارفه البدائية على لغة قومه ، بل تعلم غيرها من لغات الجاليات الأجنبية التى كانت تعايش العرب فى جزيرتهم ؛ فابن قتيبة يحدثنا فى كتاب المعارف « أنه كان يقرأ بالسريانية » . وكان يقرأ التوراة ، عارفا بما فيها ؛ ففى صحيح البخارى عن عطاء بن يسار قال : « لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص قلت : أخبرنى عن صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى التوراة ، فقال : أجل ، والله إنه لموصوف فى التوراة ببعض صفته فى القرآن : « يأيها النبى إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا ، وحرزا للأميين ، أنت عبدى ورسولى ، سميتك المتوكل ، ليس بفظ ولا غليظ ، ولا صخاب فى الأسواق ، ولا يدفع بالسيئة السيئة ، ولكن يعفو ويغفر ، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء ، بأن يقولوا لا إله إلا الله ، ويفتح به أعينا عميا ، وآذانا صما ، وقلوبا غلفا » . قال عطاء : ثم لقيت كعبا فسألته عن ذلك فما اختلفا حرفا .

وقد كانت لهذه الميزة التى كان لها خطرها فى ذلك العهد ، أكبر الأثر فى توجيه حياة عبد الله بن عمرو ، وتكييفها تكييفا يتفق مع استعداده الفطرى ، فقد اتجه عبد الله الى حياة العلم ، وصرف نفسه اليها دون غيرها من جوانب الحياة الاسلامية المتكاثرة . لازم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واستأذنه أن يكتب حديثه فأذن له ، قال : « يا رسول الله أأكتب كل ما أسمع منك فى الرضا والغضب ؟ قال : نعم ، فانى لا أقول إلا حقا » . وفى حديث أبى هريرة « ما كان أحد أحفظ لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم منى إلا عبد الله بن عمرو فانه كان يعى بقلبه وأعى بقلبى ، وكان يكتب وأنا لا أكتب » . وروى الامام أحمد أن عبد الله بن عمرو قال : « رأيت فيما يرى النائم كأن فى إحدى يدى عسلا وفى الأخرى سمنا وأنا ألعقهما ، فذكرت ذلك للنبى صلى الله عليه وسلم ، فقال : تقرأ الكتابين : التوراة والقرآن ، وكان يقرؤهما » .

جعل الله قرة عين عبد الله بن عمرو فى العلم والعبادة ، فكان من أعلم أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم بحديثه وسننه وأقضيته ، وكان عنده منها ماليس عند غيره من علماء الصحابة ؛ وحسبنا شهادة أبى هريرة السابقة ، وهى من رواية البخارى : « ما أجد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثر حديثا منى إلا ما كان من عبد الله بن عمرو ، فإنه كان يكتب ... » . وأبو هريرة يقول فيه أبو عبد الرحمن عبد الله بن عمر بن الخطاب كما فى طبقات ابن سعد : « أنت أعلمنا يا أبا هريرة برسول الله صلى الله عليه وسلم وأحفظنا لحديثه » . وروى المقريزى عن حيوة بن شريح قال : « دخلت على حسين بن شُفَى بن ماتع الأصبحى وهو يقول : فعل الله بفلان ، فقلت : ماله ؟ فقال : عمد الى كتابين كان شفى سمعهما من عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنه ، أحدهما : قضى رسول الله فى كذا ، وقال رسول الله كذا ؛ والآخر ما يكون من الأحداث الى يوم القيامة ، فأخذهما ورمى بهما بين الخولة والرباب » (مركبين عظيمين من سفن الجسر) . وفى استيعاب ابن عبد البر : روى شفى عن عبد الله بن عمرو أنه قال : حفظت عن النبى صلى الله عليه وسلم ألف مثل . وفى طبقات ابن سعد عن مجاهد قال « رأيت عند عبد الله بن عمرو صحيفة فسألت عنها ، فقال : هذه الصادقة ، فيها ما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس بينى وبينه فيها أحد » .

وقد كان عبد الله بن عمرو أحد علماء الصحابة الذين قامت عليهم النهضة الفكرية فى الأقطار الاسلامية . فالتاريخ يحدثنا أنه رحل فى كنف أبيه الى مصر حينما أمره معاوية عليها ، وأقام عبد الله بها ينشر علمه على تلاميذه الذين دونوا هذا العلم وحفظوه ونشروه . قال صاحب فجر الاسلام : « كان من الصحابة الذين بمصر علماء علّموا بها وأسسوا مدرستها ، وأشهرهم عبد الله بن عمرو بن العاص ، وقد كان عبد الله هذا من أكثر الناس حديثا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان يدون ما يسمع ، وكان مع هذا كثير الاطلاع فى غير الحديث ، وقد خرج مع أبيه الى مصر عندما ولاه إياها معاوية ، ولما حضرت الوفاة عمرا استعمل ابنه عبد الله عليها فأقره معاوية ثم عزله ، ويعد بحق مؤسس المدرسة المصرية ، فقد أخذ عنه كثير من أهل مصر ، وكانوا يكتبون عنه ما يحدث » . والمتأمل فى آثار الفكر الاسلامى فى مصر أول عهدها بالنهضة يلمح الصبغة الروائية تغلب عليه ، ويرى غلبة القصص والعناية بروايات التاريخ ، وأحاديث الفتن ، وهذا فى الواقع من أثر ثقافة عبد الله بن عمرو الذى أحاط خبرا بكثير من أحاديث التوراة وقصصها .

أما عبادة عبد الله بن عمرو فقد روت لنا منها صحاح السنة مواقف تجعل عبد الله رأسا من رءوس العباد الصالحين فى الأمة المحمدية ، فضلا عما كانت سببا له من التشريع الحكيم الذى رفع الله به الحرج عن هذه الأمة ، روى البخارى فى صحيحه عن أبى سلمة بن عبد الرحمن

قال : « حدثني عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما قال قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا عبد الله ألم أخبر أنك تصوم النهار وتقوم الليل ؟ فقلت : بلى يا رسول الله ، قال : فلا تفعل ، صم وأفطر ، وقم ونم ، فإن لجسدك عليك حقا ، وإن لعينك عليك حقا ، وإن لزوجك عليك حقا ، وإن لزورك عليك حقا ، وإن بحسبك أن تصوم كل شهر ثلاثة أيام ، فإن لك بكل حسنة عشر أمثالها ، فإن ذلك صيام الدهر كله . فشددت فشدد على ، قلت : يا رسول الله إنى أجد قوة ، قال : فصم صيام نبى الله داود عليه السلام ولا تزد عليه ، قلت : وما كان صيام نبى الله داود عليه السلام ؟ قال : نصف الدهر . فكان عبد الله يقول بعد ما كبر : يا ليتنى قبلت رخصة النبى صلى الله عليه وسلم » .

وفى هذا الحديث ضروب من الفقه وأسرار التشريع المرتكز على رعاية المصالح ودرء المفاسد ، والأخذ من الحياة بحظ الاستقامة القوية ، فهو :

أولاً — يصور لنا صلة الفرد بالمجتمع ، ويبين أن هذا الفرد ليس ملكا مطلقا لنفسه يتصرف فيها كما يشاء ، حتى لو كان هذا التصرف فى أبواب الخير الخاص ، ويشرح لنا حق الجماعة على الفرد باعتباره عضوا فيها وأحد مقوماتها ، فلا يجوز له أن يتصرف فى نفسه تصرفا يؤدى الى نقص حيوية الأمة ، وإضعاف نشاطها ؛ وهذا كله واضح من إباء النبى صلى الله عليه وسلم على عبد الله بن عمرو مواصلة الصوم ، ولم يبال صلوات الله عليه بقول عبد الله : إنى أجد قوة ، بل قال له : لا تفعل ، وقد جاء صريحا فى طريق آخر حكمة هذا النهى : روى البخارى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لعبد الله بن عمرو : « إنك لتصوم الدهر وتقوم الليل ؟ فقلت : نعم ، قال : إنك إذا فعلت هجمت له العين ، ونفهت له النفس ، لا صام من صام الدهر » ! ومعنى هجمت له العين : غارت ودخلت وضعف إبصارها من قلة الغذاء ، ومعنى نفهت له النفس : تعبت وكلت ، فلا تستطيع القيام بواجبها فى الحياة ، وأداء ما عليها من الحقوق .

وثانيا — فيه تصوير مقام رأفة النبى صلى الله عليه وسلم ورحمته بأمته ، وحرصه على برها وخيرها ، تصديقا لقوله تعالى : « لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم » .

وثالثا — فيه بيان حق أهل الرجل عليه ، وأن الانصراف عنهم الى مداومة العبادة يوحشهم ، وربما كان سببا لقطع صلتهم به ، ولا يخفى ما يترتب على ذلك من هدم بناء الأسرة وتعطيل النسل ، وإهمال الذرية إذا وجدت ، فلا تتوافر لها عوامل المراقبة والتربية الصالحة التى تجعلها عضوا عاملا فى الأمة ، فوق ما يكتنف ذلك من إشاعة روح الجفوة والتزمت فى أفراد الأسرة مما يكبت فيها روح التوثب والعمل النشيط .

ورابعا — فيه بيان حق الضيف ، والترغيب فى مشاركته طعامه وشرابه ، لتندفع عنه

طبيعة الحياء التي تكون عادة عند أكثر الناس إذا كانوا في بيوت غيرهم ، فاذا أحجم صاحب البيت عن مؤاكلة ضيفه انخذلت نفس الضيف وانقمعت ، وحرمت قسطها من ضيافتها .

وخامسا — في قول عبد الله بن عمرو : « يا ليتني قبلت رخصة النبي صلى الله عليه وسلم » تحقيق لمعجزة نبوية ، وتبيين لقوله صلى الله عليه وسلم : « إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق ، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه » .

صادق ابراهيم عرجون

من الحكم الحربية

قال حكيم : إن حازما واحدا في الحرب خير من ألف فارس ، لأن الفارس يقتل عشرة أو عشرين ، والحازم قد يقتل جيشا بتدبيره .

نقول : يشير هذا الحكيم الى عظم خطر الفنون الحربية ، فقد ينتصر جيش قليل العدد على جيش جرار بتدبير خطة يضعها قائده لا يجد خصمه أمامها محيدا عن التسليم . ولقد عرف المسلمون الأولون هذا الأمر فولوا قيادتهم الذين يعرفون بالتمهر في أساليب الحرب . وقد أحسن أبو الطيب في تجلية هذا الركن الركين في علم الكفاح فقال :

الرأي قبل شجاعة الشجعان ... هو أول وهي المحل الثاني

ولربما طعن الفتى أقرانه ... بالرأي قبل تطاعن الأقران

لولا العقول لكان أدنى ضيغم ... أدنى الى شرف من الانسان

ولما تفاضلت النفوس ودبرت ... أيدي الكماة عوالي المُرّان

المران على وزن رمان : معناه الرماح الصلبة اللدنه واحدها مُرّانة . وإنما سميت الرماح مرانا لأن خشبها من شجر المُرّان ، وهو باسق ، أوراقه كأوراق التوت ، وله ثمر أحمر يؤكل .

الحسن بن الهيثم

كان القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) من أزهى العصور فى تاريخ العرب ، حيث كان قد تم نقل ما نقل من اليونانية والهندية والفارسية الى العربية من كتب الفلسفة والطب والعلم . وكان العلماء الإسلاميون قد بدءوا فى شرحها والتعليق عليها وتصحيح أخطائها . وكان قد ظهر أساطين أعلام منهم فى هذه العلوم ، منهم فى الفلسفة الكندى والفارابى ، وفى الطب أبو بكر الرازى ، وفى الكيمياء جابر بن حيان ، وفى الرياضيات أبو عبد الله محمد ابن موسى الخوارزمى ، وثابت بن قرة وبنو شاكر ، وفى الفلك أبو معشر البلخى وحنين ابن اسحاق وأحمد بن كثير الفرغانى وسهل بن بشر ومحمد بن جابر الحرانى المشهور بالبتانى ، وغيرهم كثيرون لهم مؤلفات قيمة نقل أكثرها الى اللاتينية ، وكانت المراجع المعتمدة عند أهل أوروبا لدراسة هذه العلوم فى تلك العصور .

وفى أوائل القرن الحادى عشر الميلادى (الخامس من الهجرة) ولد الحسن بن الهيثم سنة ٣٥٤ هـ — ٩٦٥ م ، وكان أول أمره بالبصرة .

فابن الهيثم شهد عند أول نشأته عصراً صاخبا بجلبة الحركة العلمية المتدفقة ، فبدأ فى صبر وأناة مرحلة من حياته كانت بغيته فيها الإلمام بنواحى النشاط العلمى فى ذلك العصر ، وأخذ يدرس كل ما وصلت إليه يداه من كتب المتقدمين والمتأخرين ، لا فى العلوم الرياضية وفروعها فحسب ، بل فى الطب وفى الفلسفة من منطق وطبيعى وما بعد الطبيعة أيضا .

ولم يكن يقنع بمجرد الاطلاع على تلك الكتب ، وإنما عنى بتلخيصها ، وبالتصنيف فيها ، وكان يبغى من ذلك ثلاثة أمور ، نقلها ابن أبى أصيبعة من خطه قال : « وأنا — ما مدت لى الحياة — باذل جهدى ، ومستفرغ قوتى فى مثل ذلك ، متوخيا منه أمورا ثلاثة : أحدها إفادة من يطلب الحق ويؤثره فى حياتى وبعد مماتى ؛ والآخر أنى جعلت ذلك ارتياضاً لى بهذه الأمور ، فى إثبات ما تصوره وأتقنه فكرى من تلك العلوم ؛ والثالث أنى صيرته ذخيرة وعدة لزمان الشيخوخة وأوان الهرم » .

بلغت شهرة ابن الهيثم مصر ، وكان صاحبها فى ذلك العهد الحاكم بأمر الله الفاطمى ، وكان قد بلغه قوله : لو كنت بمصر لعملت فى نيلها عملا يحصل به النفع فى كل حالة من حالاته من زيادة ونقص . فأرسل إليه الحاكم أموالا وهدايا ، ورغبه فى الحضور الى مصر ، وخرج لاستقباله عند قدومه وأكرم مثواه ، ثم طالبه بما قال فى أمر النيل . فسار ابن الهيثم ومعه جماعة من البنائين متتبعا مجرى النيل حتى وصل الى أصوان وتجاوزها الى موضع الشلالات ، فلم يجد

الأمر منفقا وفكرته الهندسية ، فعاد الى القاهرة واعتذر الى الحاكم بخطأ تقديره ، فقبل الحاكم عذره ، واضطره لقبول منصب فى الدولة وهو كاره له ، ولما أراد التخلص منه للانقطاع الى البحث والعلم لم يجد مندوحة إلا التظاهر بالجنون والاحتجاب فى داره . فلما مات الحاكم عاد الى الظهور ، وأقام بالقاهرة الى أن توفى فى حدود سنة ثلاثين وأربعمائة أو بعدها بقليل ، بحسب رواية القفطى .

الناحية العلمية من ابن الهيثم :

من المعروف أن الطريقة العلمية الحديثة لم تنشأ إلا بعد عصر البعث فى أوروبا ، وينسب الفضل فى إنشائها الى « فرنسيس باكون » أحد فلاسفة الانجليز وكتابهم فى القرن السابع عشر . فهو أول من أوضح أن الطريقة الصحيحة فى البحث هى الاعتماد على الأمور الواقعة ومشاهدتها ، والمضى فى جمع الحوادث وتبويبها وترتيبها حتى يمكن بالاستقراء الوصول الى المعلومات الصحيحة عنها .

هذه الطريقة فى البحث التى تعد من مبتكرات العصر الحديث ، هى الطريقة التى أدرك ابن الهيثم أنها المثلى . فقد رأى ضرورة الأخذ بالاستقراء ، والأخذ بالقياس ، والأخذ فى بعض البحوث بالتمثيل ؛ وضرورة الاعتماد على الواقع الموجود ، على مثل ما هو متبع فى البحوث العلمية الحديثة .

ومن هنا ندرك أن ابن الهيثم سبق باكون فى بناء الأسلوب العلمى بنحو ستة قرون . وقد بين ابن الهيثم طريقته هذه فى كتابه « المناظر » فقال : نبتدىء فى البحث باستقراء الموجودات ، وتصفح أحوال المبصرات ، وتمييز خواص الجزئيات ، ونلتقط باستقراء ما يخص البصر فى حال الإبصار ، وما هو مطرد لا يتغير بظاهر لا يشتبه من كيفية الإحساس ؛ ثم نترقى فى البحث والمقاييس على التدريج والترتيب مع انتقاد المقدمات والتحفظ من الغلط فى النتائج ، ونجعل غرضنا فى جميع ما نستقريه ونتصفحه ، استعمال العدل لا اتباع الهوى ، ونتحرى فى سائر ما نميزه وننقده طلب الحق لا الميل مع الآراء » .

ثم قال فى موضع آخر :

« ونصل بالتدرج والتلطف الى الغاية التى عندها يقع اليقين ، ونظفر مع النقد والتحفظ بالحقيقة التى يزول معها الخلاف ، وتنحسم بها مواد الشبهات » .

ثم قال :

« وما نحن مع جميع ذلك براء مما هو فى طبيعة الانسان من كدر البشرية ، ولكننا نجتهد بقدر ما هو لنا من القوة الإنسانية ، ومن الله نستمد العون فى جميع الأمور » .

كان أكثر نشاط ابن الهيثم محصورا فى الرياضيات وتطبيقاتها ، وكان إلى جانب هذا كثير الاشتغال بمؤلفات أرسطو وجالينوس .

ومما تحسن ملاحظته أن ابن الهيثم كان يبتغى من وراء طلبه للعلوم الحق الذى يقربه إلى الله ، حتى إننا نجده ينزع فى تفكيره نزعة دينية ، بل له مشاركة فى علم الكلام ، فهو يرد على الرازى فى الإلهيات والنبوات ، وله كتاب فى إثبات النبوات ؛ وهو يرد على ابن الراوندى وعلى المعتزلة فى أمر الصفات ، وفى الوعد والوعيد ، وغير ذلك .

والبحث عن هذا الحق هو الغاية التى كان يقصدها ابن الهيثم من وراء الفلسفة ، وعنده أن الفلسفة ينبغى أن تكون أساسا تقوم عليه العلوم جميعا .

وجاء فى مذكرات الأستاذ مصطفى بك نظيف : أن علماء الرياضة والفلك فى عصر ابن الهيثم كانوا يقولون إن ضوء القمر هو ضوء الشمس منعكسا عن سطحه ؛ فأبطل ابن الهيثم هذه النظرية القديمة ، وأقام على أنقاضها نظرية جديدة : هى أن ضوء القمر هو ضوء ثانوى أو عرضى يشرق من سطح القمر المستضىء بالضوء الذاتى المشرق من الشمس ، كما يشرق الضوء من جسم كثيف معتاد إذا وضع بالقرب من جسم مضىء بذاته ، وليس هو ضوءاً منعكسا بالمعنى الخاص بالانعكاس .

وابن الهيثم لا يكتفى بوصف الآلة أو الجهاز ، بل يأتى بشرح مسهب مفصل لكيفية صنع الجهاز . فجهازه فى الانعكاس وجهازه فى الانعطاف يختلف كل منهما اختلافا جوهريا عن نظيره الذى ذكره بطليموس .

وصنْع مثل هذه الأجهزة فى عصر لم يكن مزودا بالعدد الميكانيكية المعروفة الآن ذات المقاييس والأبعاد والتدريجات المضبوطة ، يدل على أنه قد اجتمعت فيه الصفات التى تؤهله لأن يكون واحدا من العلماء الذين اجتمعت فيهم المقدرة الرياضية الرفيعة ، مع الكفاية العملية الممتازة .

يضاف الى ذلك أن لابن الهيثم بحوثا فى علم الضوء لم يسبقه اليها أحد ، إذ كانت المعلومات فى علم الضوء قبل ابن الهيثم لا رابط يربطها ، ولا منظم ينظمها . فان اعتبر نيوتن رائد علم الميكانيكا فى القرن السابع عشر ، فابن الهيثم رائد علم الضوء فى القرن الحادى عشر .

أما فيما يتعلق بتصانيفه فى علوم الرياضيات وتوابعها ، فقد بلغت ثلاثة وأربعين كتابا . وأما كتبه فى العلوم التعليمية فقد وصلت الى خمسة وعشرين كتابا (ابن أبى أصيبعة) .

أشهر هذه المؤلفات كتاب المناظر الذى اتضح أخيرا أن كتاب الذخيرة اللاتينى ترجمة له ، وكتاب الأصول الهندسية والعددية ، وكتاب الجامع فى أصول الحساب .

شخصية ابن الهيثم :

هو رجل اضطلع برسالة علمية جديدة قام بها خير قيام ، أثبت فيها صحة نظرياته الهندسية والرياضية ، وقوض أركان النظريات القديمة التى ارتآها بطليموس وجرى عليها رجال العلم فى الزمن القديم .

وكان ابن الهيثم مستقلا فى تفكيره ، قويا فى استقرائه ، محيطا بما عرف من علم الطبيعة الى زمانه ؛ وكان قوى الخلق لا يثبط عزيمته الإخفاق ، فكان لا يكبو حتى ينهض ، كتيار اليم يعلو ويزخر عبابه إذا اعترضت الأسداد مجراه .

وكان ابن الهيثم يؤيد رأيه بشواهد مستمدة من الطبيعة ، وكان يعتبر كل ضروب النشاط الانسانى ضروبا من الفنون ، فهناك فن التفكير وفن الطبيعة وفن الدين . وكل هذا يؤدى الى أن الحياة نفسها فن .

وهذا يبين لنا بالاختصار المنهج الذى نهجه ابن الهيثم فى دراساته الكثيرة ، وهو أنه جمع فى بحوثه ومصنفاته بين عقل الفيلسوف ، وبصيرة الصوفى ، وتثبت العالم ؟

عبد الحميد سامى بيومى

مقابلة الاساءة بالاحسان

قال أمير المؤمنين على رضى الله عنه : « عاتب أخاك بالإحسان إليه ، واردد شره بالإنعام عليه » . وقال الجاحظ : « من قابل الاساءة بالاحسان فقد خالف الله فى تدبيره » . والذى نراه أن الجاحظ قد تعجل فى حكمه ، فان هنالك حالات من الاساءة يغنى فيها الاحسان ما لا تغنى العقوبة ، وقد يبارك فى أثرها حتى تحمل المسىء على تقويم خلقه . والمدار على تحرى هذه الحالات ، والتفرقة بينها وبين ما يعتبر مخالفة لتدبير الله .

على أن الاساءة إليك غير الاساءة على الاطلاق ، فأنت حر فى أن تعفو عمن ظلمك ، وأن تصفح عمن شتمك ، كما أنك حر فى أن تعطى من حرمك ، وتصل من قطعك ، ما دام قصدك أن تؤدبه ، ولكنك لست حرا فى أن تعفو عمن أساء الى أهله ، ولا الى الجماعة ، ولا الى من لا تملك إرادته ، ولا تعرف أيصلح الاحسان من شأنه أم يفسده .

شهر الصيام

قد يصل هذا العدد الى أيدى قرائنا وهم فى أول يوم من شهر الصيام ، واول ما يشوقهم من العنوانات الماثلة فى فهرسته قد يكون الكلام عن الصيام الذى هم فيه . والكلام عن الصيام أصبح شائقا حتى لدى غير المسلمين ، لأنه أضحى عاملا طبيا تعالج به أمراض خطيرة ، لايسد مسده فيها غيره . ومن يعلم أن أكثر الأمراض العضالة يأتى من طريق التغذى ، يدرك ما ينبنى على الإمساك عنه من قيمة صحية .

وإنما كان التغذى سببا للأمراض ، لأن الناس لا يصدرون فيه عن علم ، ولكن عن العادة والجهل والنهم . والقاعدة العامة عندهم أنه مادام التغذى سببا لاستدامة الحياة والقوة ، فالإكثار منه يعتبر استكثارا من أسباب الحياة والقوة ، إلا أن يصل الى حد الإفراط ، ولكن ليس للإفراط عندهم معيار غير ما ينتجه من أعراض الكِظَّة (١) ، ويغيب عنهم أنه قد يكون إفراط ولا يكون شعور معجل بأعراض للكظة .

ونحن لأجل أن نأتى على أفضل ما نعلمه من حكمة فرض الصيام على المسلمين ، لا نرى بدا من التوسع فى فلسفة التغذى ، فان هذه الحكمة ثاوية فى أطوائها ، فنقول :

الانسان فى حاجة الى مقادير معينة من الأطعمة المختلفة ، وهى على نوعين :

(١) أطعمة معوضة لما يدثر من مادة الجسم ، كالعضلات والأعصاب والعظام والدم ، وهى كالقمح والبقول والخضر والفاكهة .

(٢) وأطعمة مولدة للحرارة الغريزية الضرورية للحياة ، وهى السبب المباشر فى دوامها كالسكر والدهنيات والنَشَاء (بالفتح) .

فاذا تغذى الانسان ، وهو عادة يجعل غذاءه خليطا من هذه الصنوف ، هُضمت هذه المواد فى معدته وأمعائه ، وانتقلت الى الرئتين فالقلب ، ومنه الى الشرايين لتطوف بجميع أجزاء الجسم ، وتعطى كل خلية فيه حظها منه .

فإذا كانت الأغذية بقدر حاجة الجسم ، استوعبتها الخلايا الجثمانية ، وبقى الدم نقيا كما كان ، وإن كانت تزيد عن حاجته ، بقيت فى الدم ، وكيف تستطيع البقاء فيه وهو ليس بحاجة الى المزيد ؟ فتتحول الى مواد سمية ، يصيب الجسم منها بلاء عظيم ، بعد أن تكد الأعضاء التى

(١) الكظة : البطنة ، وأعراض ثقيلة تعترى الانسان من الامتلاء من الطعام .

وظيفتها تخليصه من السموم ، فى حمايته منها ، وتضمحل من كثرة العمل ، وتنضب عصاراتها ، وتعجز عن أداء وظيفتها ، فتتعرض الحياة للخطر ، إما بطروء أدواء خطيرة على الأعضاء الرئيسية بسبب عجزها عن القيام بأعبائها ، وتراكم السموم عليها وتصلبها ، وإما بفساد الدم ، وانشحانه بمواد غريبة عنه ، وعدم صلاحيته لأداء مهمته .

هذه هى النظرية العلمية فى تولد الأمراض وفساد الصحة ، وهى تخالف النظرية العامية ، فهم يتخيلون أن على الانسان أن يأكل ما يشتهى ، وعلى المعدة أن تهضم ما ينفعه ، وأن تلفظ مايضره ، ورأى العامة فى الأمراض أنها إما تصيبهم من برد أو من أسباب أخرى لا يعرفونها .

فإذا حدثتَهم عن ضرر الإفراط فى الغذاء ، ضربوا لك الأمثال بافراد من المصابين بالنهم يعرفونهم وتعرفهم ، ولفتوا نظرك لقوتهم وبدانتهم ، وخلوهم من الأمراض ؛ ويغيب عنهم أن هؤلاء معرضون للصعق من طريق الفجاءة ، وخير منهم الذين إذا أسرفوا على أنفسهم وجدوا جزاء إسرافهم معجلا ، فيضطرون للاعتدال . فقدتبين أن الناس من هذه الناحية على ضربين ، أحدهما يلاقى جـزاء إفراطاته على الفور ، فيمرض ويشفى ، ويتكرر عليه ذلك حتى يعتـدل أو يموت ؛ وثانيهما لا يحس من تجاوزه الحد بأذى ، فيصر على ما هو عليه ، حاصلا على ظاهر من الصحة والضلاعة ، حتى يفاجئك نعيه ، فتقول : كنت معه البارحة ، وكان أحسن ما يكون صحة وقوة ، فما الذى دهاه بعد أن افترقنا ؟ !

وليست تبعات الإفراط فى الطعام بقاصرة على الناحية المادية من الإنسان ، ولـكنها تقع عليه فى ناحيته العقلية والنفسية أيضا ؛ فإن امتلاء المعدة بالأطعمة تستدعى قوة عصبية عظيمة تعين المعدة على هضمها ، فتنصرف قوى أعصابه الى معدته ، فلا يكاد يصلح فى أثناء الهضم لعمل عقلى ، وقد يستمر الهضم أربع ساعات بعد كل وجبة فتضيع عليه اثنتا عشرة ساعة من يومه سدى ، والانسان عادة لا ينقطع فى تلك الساعات عن العمل العقلى ، ولـكنه لا يتقنه ؛ وقد عُرف ذلك منذ العهد الأقدم ، فقالوا : إن البـطنة تذهب الفطنة .

هـذا غير ما تسببه البطنة وارتباكاتُها العقلية من سوء الخلق ، وضيق الصدر ، والتبرم بكل شىء ، حتى يكاد أحدهم أن يمزق ثيابه لأقل بادرة ، وإذا نام استيقظ ثقيل الأعضاء ، متتابع النفَس ، متـكاسلا ، متثائبا ، كأنه خارج من كابوس ، لا من نوم مجـدِّد لما اضمحل من قوى بدنه .

لتخليص الانسان من هذه الشرور الحائقة بالجسم والنفس كل يوم ، نصح الله لعباده أن لا يسرفوا فى التغذى ، فقال تعالى : « وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين » ، وقال النبى صلى الله عليه وسلم : « حَسْبُ الانسانِ من الطعام لقيماتٌ يُقمن صلبه » . وقال : « ما ملأ ابن آدم وعاء شرا من بطنه » .

ولذلك أيضا فرض الله على عباده الصيام فى كل سنة شهرا . والصيام واحد من الأسس الخمسة التى بنى عليها الاسلام ، وهو بهذا الاعتبار عبادة ، القصد منها تقريب الانسان من بارئه كالصلاة والحج ، فان كانت الصلاة قد جعلت لإحكام الصلة بينه وبين ربه ، والحج لتحقيق التجرد من جميع العلائق الدنيوية ، والالتجاء الى الله خالصا من جميع الاعتبارات والتعلقات ، فان الصيام قد شرع لتصفية النفس من كدور المادة ، وتنقيتها من أدرانها ، بالإقلال من تناولها إلا ما يقيم الحياة ، والإخفاف من أعبائها إلا ما لا محيص عنه لاتقاء الأعراض . فأين تكون أنت من هذا إذا قلبتَ حقيقته فجعلته وسيلة للإكثار مما يتعين الإقلال منه ، وذريعة للوقوع فى شرور التخم والوخم التى تبعدك عن التمتع بصحة نفسك ، بَلْهَ الزلفى من ربك ؟

ولايجوز أن نغفل هنا القول أن لعدم التملؤ من الطعام فائدة روحية لها أكبر تأثير فى أخلاق الانسان وتعديل مزاجه ، لا يمكن الحصول عليها بوسيلة أخرى من وسائل الترويض والتربية .

ذلك : أن المعدة إذا لم يلق إليها إلا القدر الضرورى لحفظ الحياة ، قويت على هضمه بوسائلها الذاتية ، دون أن تضطر شطرا كبيرا من القوى العصبية للبدن أن يعينها على التخلص منه ، فتتفرغ هذه القوى لأداء مهامها الفكرية والعقلية والشعورية ، فيحصل صاحبها بسبب هذا التفرغ على ثمراتها الأدبية ؛ فيفتح له التفكير مجالات للنظر والتأمل ، ويجنى العقل من هذه المجالات ما يزيد به مادته العلمية ، ويستفيد الشعور الانسانى من هذه الأعمال ما يرفع به مستوى أدبه النفسى ، واتزانه الخلقى . وما جُعلت كل هذه القوى عبثا ، ولكن لتعمل فيه ، ويتأدى هو تحت تأثيرها الى درجات متتابعة من السمو الفكرى والعقلى والأدبى . ولولا هذه القوى وفعلها فيه فى خلال العصور لما ارتقى الانسان عما كان عليه قيد أنملة .

الآن يمكنك أن تقدر ما يجنيه الإنسان على نفسه وعلى بنى نوعه بتعطيله القوى العصبية عن العمل فيه ، بسبب صرفها الى هضم ما يلقيه فى معدته من المواد الغذائية التى تزيد عن حاجته .

إن انصراف هذه القوى الثمينة فى الهضم ، يُضيع على الانسان عملها الأدبى ، ويتركه تحت تأثير غرائزه الحيوانية ، فيعيش كما تمليه عليه من الميول التى لا تتفق وسموه الروحى ، ولا تلتئم وكيانه العلوى ، وتحرمه من الذخر الخلقى الذى يغالب به الحوادث ويتغلب عليها ، ويصبر به على العوادى الطبيعية لا حتى تنجلى فحسب ، ولكن حتى يستفيد من كلَبها عليه دروسا يدفع بها أمثالها عن نفسه وبنى نوعه ؛ ويتأمل تحت ضوئها فى كل ما يحيط به ليزيد به مادة علمه ، وعدد وسائله .

أما المحروم من نعمة هذه القوى فييأس من كل بادرةِ فشل ، ويضجر من كل سانحة خيبة ، ويضيق ذرعا بأصغر الحوادث ، ويشعر بالخور أمام أقل عقبة تلوح له ، ويحس بالإعياء إزاء أدنى عمل عقلى فلا يهم بمحاولته ، وهذه الحالات تضطره للتسلح بما يناسبها من الصخَب والجلَب ،

وقد تتضيق المنادح أمام عينه فلا يفرج عنه إلا مشادة أول محتك به ، وإبلاغ النزاع الى غاياته القصوى ، حتى اذا استنفد بقية قواه العصبية ، سكن جيَشان صدره وهمد أو نام ، واستيقظ متأهبا لتمثيل أدوار أخرى !

فى هذه الحالة لا يكون لصاحبنا نصيب من الحياة الانسانية ، وقد لا يُرزق بمن ينبهه الى أن ما به ناشئ من ضعف قواه العصبية المعدلة لمزاجه ، وأقوى أسباب إضعاف هذه القوى التملؤ من الطعام بدون انقطاع .

فهل تستطيع أن تتخيل أن لهذه الحالة علاجا خيرا من الصيام ؟

وهناك أمر آخر أعظم شأنا من كل هذا ، وهو حرمان الانسان بواسطة التملؤ الغذائى من التعرض للنفحات الإلهية ، والإلهامات العلوية ، فاذا كان الانسان بهذا التملؤ يكتسب من الرعونات الخلقية ما يكاد يخرجه عن دائرة الانسانية ، فكيف يرجّى أن يتصل بالملأ الأعلى وهو على هذه الحالة ، وتلك حضرة لا يقبل فيها إلا ذوو الهمم النزاعة الى الكمال ، والقلوب التواقة الى عالم الجلال ، ممن أدركوا أن الحياة إذا لم تكن غايتها هذه الرتبة العلية ، كانت عبئا ثقيلا على صاحبها ، تنتهى كما بدأت فى آلام وتباريح ليس لها حد تقف عنده : « ومن أعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى . قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا ؟ قال كذلك ، أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى . وكذلك نجزى من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى » .

وهل يتأتى لمن وصفنا حالتهم أن يذكروا آيات الله ويعملوا بها ، أو أن يؤمنوا بها ولا يسرفوا على أنفسهم ؟

لتدارك الانسان من الوقوع فى هذه الحالة السيئة من الحياة البهيمية ، شرع الله الصيام ، فالصيام رياضة نفسية ، يتمكن بها الانسان أن يستولى على زمام ميوله الجسدانية ، فيعدل من تطرفها ، ويقمع من تعسفها ، ويوجهها الى وجهة الصلاح ، فيحيا حياة طيبة ، ويعرُج بما يكتسبه فيها من القوى الروحية الى عالم القدس ، فيتعلق منه بسبب يرفعه من عالم الحيوانية ، وهو لا يرفعه اليه حتى يصل به الى أبعد غايات الانسانية .

لبلوغ هذا الشأو البعيد ، شُرع الصيام ، لا ليكون سببا فى التوسع فى المآكل ، فتقتصر حكمته على أن يشعر الانسان بألم الجوع بضع ساعات .

إن ما ذكرناه من الحكم البالغة للصيام قد أدركه الكملة من رجال هذا الدين ، فاتخذوه وسيلة للاتصال بالملأ الأعلى ، فحصلوا من السعادات الروحية ، وهم أحياء ، ما لا يدور فى خلد المترفين الذين استعبدوا أنفسهم للملاذ ، فجنت على عقولهم وأجسادهم شر الجنايات ؟

محمد فريد وجدى

نظرات فى الادب العربى

جاهليه و إسلاميه

— ٧ —

مناهج الشعراء

درج الشعراء القدامى ، على أن يستوحى الشاعر خياله ، ويترسم خواطره الخاصة ، فيما يقرضه من الشعر ، فلا ينظر الى شعر غيره ، ولا يترسم خطاه ، إلا حين يريد معارضته ، ومساماته ؛ كما فعل كثير منهم فى مختلف عصور الأدب ؛ وإذا أخـذ شاعر عن شاعر ، فانما يأخـذ معنى سبق اليه الأول ، فى البيت ونحوه ، أو بعض الألفـاظ والترا كيب ، كما هو متعارف معلوم .

ولـكن شعراء العصر الحاضر ، قد استحدثوا نوعا غير المعارضة ، واستخدموه باسراف فيما قرضوا من الشعر ؛ وهو أن يعمد الشاعر — إذا أراد أن ينظم قصيـدة فى غرض من الأغراض — الى ديوان أحد الشعراء المتقدمين ، فيتخير قصيدة من قصائده ، يتخذها إمامه فى نظم قصيدته ، ويتهـدّى بمعانيها وألفاظها الى ما يريد من المعانى ، ويفيد من قافيتها ومن أسلوبها إفادة تختلف قوة وضعفا ، وخفاء ووضوحا ، على حسب قوة المتأخر وضعفه . وقد نبه النقاد المعاصرون على ما وقع لـكثير من شعراء العصر الحاضر من هذا النوع ، بما تعرفه جمهرة الأدباء ، مما زخرت به المؤلفات الحديثة ، وتناولته الصحف والمجلات بالشرح والتفصيل.

وشوقى — على جلالة قدره — قـد سار فى هـذا الطريق غير مرة ، وأ كثر قصائده التى نسجها على هذا المنوال ، عرض له جمهرة من كبار النقاد ، وردوه الى مراجعه ، واتخذوه فى أ كثر الأحيـان سبيلا الى الموازنة بين الشاعرين ، وخرجـوا من ذلك الى مدح الشاعر ، أو لومه ، كل على حسب ما تملى عليه صلاته به ، وعواطفه نحوه .

ومن القصائد التى لم يتعرض لهـا ناقد — فيما أعـلم — قصيدته فى رثاء المغفور له شيخ الشعراء : إسماعيل صبرى باشا ، التى جاء فى مطلعها :

أجلٌ — وإن طـال الزمان — مُوافى ... أخـــلى يديك من الخليـل الوافى
داع الى حـــقّ ، أهابَ بخـاشع ... لَبِىَ النّـذيرَ على هـدى وعفـاف

فقد تهدّى فيها بقصيدة حكيم الشعراء أبى العلاء المعرى ، التى رثى بها الشريف أبا أحمد الموسوى الملقب بالطاهر ، وعزّى ولديه : الرضىّ ، والمرتضى أبا القاسم ؛ والتى جاء فى مطلعها :

أوْدَى — فليت الحادثات كَفَافِ مالُ المُسِيفِ وعَنْبَرُ المُسْتَافِ
الطاهر الآباء ، والأبناء ، والـ أثواب ، والآراب ، والألّاف

وأذكر أننى كنت ممن شهد حفل الاربعين لشيخ الشعراء ، واُعْجِبَ بروعة قصيدة أمير الشعراء ، التى ساعد على تجلّيها إلْقاء العالم الشاعر الجليل : على الجارم بك ؛ إعجابا حمانى على أن أردّ على المرحوم الشاعر الكاتب يوسف يكن بك ، نقدّه لها فى مقال نشرته له المقطم ونشرت الرد عليه ؛ واستشهدتُ على قوة القصيدة بأبيات ، منها قوله :

فُجِعَتْ رُبَا الوادى بواحد أيكِها وتجرّعتْ ثُكْلَ الغدير الصافى
فَقَدَتْ بَنَانا كالربيع مجيدة وَشْيَ الرياض ، وَصَنْعَةَ الأفوافِ
إنْ فاته نسبُ « الرضىّ » فربّما جَرَيَا لِغَايَةِ سُؤْدُدٍ وطِرَاف
أوْ كان دُونَ أبى الرضىّ أبوّة فلقد أعاد بيان عبد مناف
شرفُ العصاميين صُنْعُ نفوسهم من ذا يقيس بهم بنى الأشراف ؟ !
قل للمشير الى أبيه وجدّه : أعلمت للقمرين من أسلاف ؟
لو أنّ « عِمْرانا » نِجَارُك لم تَسُدْ حتى يشار إليك فى الأعراف

ولم يخطر ببالى ، ولا مر بخاطر من قرأ كلمتى من الأدباء وأثنى بالخير ، أو فند ما فيها ولم يرضه ، آنئذ ، قصيدةُ المعرّى ، وكانت بقعة خصبة للردّ علىّ ؛ حتى عثرت فى بعض دراساتى لسقط الزند على هذه القصيدة ، فرأيت فيها — إلى جانب الوزن ، والقافية ، والرضىّ ، وكثير من ألفاظها وقوافيها — قوله :

أنتم ذوو النَّسبِ القصير ، فَطولُكم بادٍ على الكبراء والأشراف
والراح إن قيل: ابْنَةُ العنب ، اكتفت بأبٍ عن الأسماء والأوصاف
ويُخَالُ موسى جدُّكم — لجلاله فى النفس — صاحبَ سورة الأعراف

فعرفت أن أمير الشعراء رحمه الله ، ليس أبا عذر هذا المعنى ، كما كنت أعتقد ، وإنما أخذه من الحكيم ، ثم تصرف فيه هذا التصرف الذى لا يخلو من براعة ، وفضل حيلة ، تكفلان له ما تبوأته شاعريته الفذة ، من مقام كريم . فالمعرى يتكلم فى موسى بن جعفر الصادق وهو أبو على الرِّضَا ، ومعنى بيته الأخير : يُخالُ جدُّكم موسى — لشرف ذاته ، وفضائل نفسه — مثل موسى النبى عليه السلام ، المذكور فى سورة الأعراف ، فى قوله تعالى : « وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر » الى سائر الآيات فيها . وشوقى - بعد أن أغنى المرثىّ عن شرف النسب القصير الذى أحرزه الرضى ، وفاته ، بشرف العصامية ، وأيد دعواه بقوله : أعلمت للقمرين من أسلاف — نقل الكلام عن موسى جد الممدوح ، الى موسى (ابن عمران) وعَنَى أنّ موسى الرسول لم يحرز الكرامة ببنوّته لعمران ، وإنما أحرزها

باصطفاء الله له بالرسالة ؛ ولا أكذبُ الله ، أنى لم أفهم صلة هـذا البيت على وضعه هـذا ، بما سبقه من الأبيات ، إلا على وجه يشيع الضعف فى مطاويه ؛ فلقـد تعلّمنا فى الأزهر أنّ الرسالة وَهْبية لا كسبية ، فليست من صنع نفس موسى ، ولا يستحق بها شرف العصاميين ؛ وعندى أن أمير الشعراء كان فى غنى ، أىّ غنى ، عن هـذا البيت ؛ لو لم يطغ هوى تقليده للمعرى ، على وحيه الشعرى ؛ وإنما أتكلم على قدر عقلى ، وفوق كل ذى علم عليم .

***

قال أمير الشعراء :

ذهبَ الذبيح السمح مثلَ سَمِيِّه ... طُهْرَ المُكَفَّن ، طيب الألفاف

كم بات يذبح صـدرَه لشَكاته ... أتراه يحسبها من الأضياف ؟ (١)

الى أن قال :

أخنت على الفلك المُدار ، فلم يدُر ... وعلى العُباب فقرّ فى الرّجّاف

نظر فى البيت الثانى الى قول المعرى :

إن زاره الموتى كساهم فى البلَى ... أكْفان أبلج مكرم الأضياف

وطوى فى البيت الثالث ما بسط الحكيمُ فى قوله :

رَغتِ الرُّعود ، وتلك هدّة واجبٍ ... جبَل هوى من آل عبد مناف

بخلت ، فلمّا كان ليلةَ فقْدِهِ ... سَمَحَ الغمامُ بدمعه الذرّاف

ويقال إنّ البحر غاض ، وإنها ... ستعود سِيفا لُجة الرّجّاف (٢)

وقال الأمير :

يا راكبَ الحدْباءِ ، خلِّ زمامَها ... ليس السبيل على الدليل بخاف

دانَ المطىَّ الناسُ ، غيرَ مطية ... للحقّ ، لا عجْلى ، ولا ميجَاف

لا فى الجياد ، ولا النياق ، وإنما ... خلقت بغير حوافر وخفاف

تنتاب بالركبان منزلةَ الهدى ... وتَؤُمُّ دار الحق والإنصاف

قـد بلّغتْ ربَّ المدائن ، وانتهت ... حيثُ انتهيتَ بصاحب الأحقاف

---

(١) مات المرحوم بعلة الذباح ، ويقال له : الذبحة بكسر الذال وضمها مع فتح الباء والحاء ، وهى وجع الحلق كأنه يذبح . (لسان العرب) . ومنه تعرف أنه لو استبدل بصدره : حلقه ، لكان أشبه بالصواب .

(٢) توفى المرثى فى ليلة كانت السماء ترعد فيها (رعدت السماء ترعـد بفتح العين وضمها رعدا ورعودا ، وأرعدت : صوتت للامطار) ولا يخفى بدع رغاء الرعود هنا . والسيف بالكسر : شاطئ البحر ، واللجة معظم ماء البحر ، والرجاف من نعوت البحر ، والضمير فى أنها للشان والقصة ، والواجب الساقط والهالك .

ولا ريب أنّ مِفتاح هذه الأبيات ، هو قول الحكيم :

هَلاّ استعاض من السرير جوادَه وَثّابَ كل قرارة ونِيَاف
هيهات ! صادَمَ المنايا عسكرا لا ينثنى بالكرّ والإيجاف

هذا ، ومن روائع قصيدة المعرّى قوله :

تكبيرتان حِيَال قبرك للفتى محسوبتان بعمرة وطواف

ومن الشواهد الأزهرية قوله :

والطير أغربة عليه بأسرها : فُتْخُ السَّراةِ وساكناتُ لَصاف (١)

ومن روائع الشوقية ، قوله :

ما أنت يا دنيا ، أرؤيا نائم أم ليل عرس ، أم بساط سلاف ؟!
نعماؤك الريحان ، إلا أنه مست حواشيه نَقِيعَ زُعاف
ما زلت أصحب فيك خلقا ثابتا حتى ظفرتُ بخُلْقك المتنافى

وقوله :

لا يوم للأقوام حتى ينهضوا بقوادم من أسمهم وخواف

وأما بعد ، فقد كان من الدروس التى ألقيتها على الفرقة النهائية فى كلية اللغة العربية ، هذا العام : الموازنة بين قصيدة الحصرى : يا ليل الصب متى غده ، وقصيدة أمير الشعراء فى معارضتها ، وراعنى ما شهدته من ثورة الطلبة ووجومهم ، عندما آنسوا منى الميل الى ترجيح كِفة الحصرى ، نزولا منهم على أثر العواطف الخاصة ، وتمردا على حكم النظر العلمى ، وكانت صدمة من خيبة الأمل فى اتساع صدورهم للنقد ، وانتفاعهم بما علموا ، فهرتنى على أن أطيل القول ، وأشتد فى النصيحة ، وأعيد ما كنت أظنهم فى غير حاجة الى إعادته ، من أن الكمال لله وحده ، وأنه لا يقدح فى عظمة شوقى ، أن ينتابه الضعف حينا ، على حين أنه يتسنم قمة الإجادة أحيانا ، وأن عواطفى نحو شوقى ، أرسخ وأقوى ، على أضعف حاليه عندى ؛ الى غير ذلك من وجوه الإقناع ؛ فلعلى غير محتاج فى موقفى مع القراء الكرام اليوم ، الى مثل ما احتجت اليه فى موقفى مع طلبتى أمس . ولم يزر بزهير بن أبى سلمى ، والنابغة الذبيانى ما قاله النقاد القدامى من أنهما كانا ينظران فى أشعارهما الى شعر أستاذهما : أوس بن حجر ، حتى كانوا يقولون :

---

١ — السراة بالمهملة المفتوحة : جبال فى أرض اليمن ، ولصاف كحذام : جبل طيئ ، وفتخ ، جمع فتخاء العقبان التى تكسر جناحها فى الطيران ، والمعنى أن كل الطيور فى الحزن على المرثى ، مثل الأغربة ، وإن لم تلبس حدادا ، ولم تقل شعرا . وقد نسب الى شاعر الغربان رثاء الفقيد بقصدة على روى القاف ، فى أبيات بديعة قبل هذا البيت .

إن زهـيرا كان يتوكأ فى شعره ، على شعر أوس . وذكر ابن قتيبة أبياتا لأوس ، استغلها زهير والنابغة لفظا ومعنى ، أو معنى فقط ، منها قوله :

لعمرك أنا والأحاليف هؤلا لفى حِقْبة أظفارها لم تقلم

أخذه زهير ، فقال :

لدى أسد شاكى السلاح مقذف له لبد أظفاره لم تقلم

وأخذه النابغة ، فقال :

وبنو قُعَـيْن لا محالة أنهم آتوك غير مقلمى الأظفار

ولا يخامرنى ريب فى أن الأفضل للشاعر ، أن ينزع فى نظمه ، عن وحى خياله ، ويستغنى بفيض خواطره الخاصـة ، وشعوره المستقل ، عن النظـر الى أشعار الأقدمين ؛ ولعل هذه قضية يقلّ فيها الخلاف ؟

كلية اللغة العربية **عبد الجواد رمضان**

من ثمرات الورع

روى أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا يدفعون عن أنفسهم أربعة أشياء : الامامة ، والوديعة ، والوصية ، والفتوى .

كان الصحابة يهربون من تولى هـذه الأشياء الأربعة ، ومن العجب أنها صارت مطمح الأنظار بعدهم ، ذلك لأن الصحابة طلبوا الدين لذاته ، وغيرهم طلبوا الدين للاستعلاء على الناس بسلطانه . وأعجب من هذا أن الناس يرون هذا الرأى ، ويعرفون المتزاحمين على هذه الخطط بسيماهم ، فيغضون عن ذلتهم هذه ، ويتغابون عنها ، ويمضون فى معاملتهم على ما توجبه وظائفهم ، فيزدادون مضيا فى تـكالبهم ، ويضطر الناشئون لتقليدهم ، للوصول الى أغراضهم ، على طريقة أسلافهم ، ما دام الوازع معدوما ، وما دام الناس يشجعونهم عليه .

هـذا أثر من آثار تراخى عرى التـكافل بين أفراد الجماعة ، وهو نذير شؤم على المجموع لا على طائفة منحرفة من طوائفها . قال تعالى : « واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة ، واعلموا أن الله شديد العقاب » . فى هـذه الآية زجر شديد عن التغابى عن انحراف الطوائف والأفراد فى المجتمع الواحد . وما دامت الحياة المشتركة تقتضى التـكافل فـلا محل للاغضاء عن الزلات بعد ما ثبت أن عقوباتهم تعم الجماعة ، ولا تخص الجناة .

في عالم الأدب العربي[١]

الشعوبية وأثرها في الأدب العربي

– ٨ –

وإذا كان الخلفاء العباسيون قد قدروا الفرس حق قدرهم ، وأنزلوهم من أنفسهم أسمى المنازل ، وعرفوا لهم تلك اليد العظيمة في إقامة دولتهم ، فلم ينسوا عربيتهم ، لذلك تراهم لم يترددوا في القضاء على مثيرى الفتنة ضدهم ولو كانوا من أحب الناس لديهم وأقربهم إليهم ؛ فهذا هو أبو مسلم الخراسانى الذى تعهّد الدولة العباسية فى منبتها ، وتولاها بحذقه وبراعته حتى قوى منها العود ، وأينع الثمر ، وآتت أطيب الأكل ، فان كل ذلك لم يشفع له أمام تنكيل المنصور به والقضاء عليه حينما استشعر منه روح الكبرياء والمناوأة ! وهؤلاء هم البرامكة الذين شغلوا مكانا من قلب الرشيد غير يسير ، فقد أتى على بنيانهم من القواعد ، ومزّق شملهم شر ممزّق لما جاوزوا الحدود ، وخرجوا على المألوف ؛ ومثل هذا ما فعله المأمون بالفضل ابن سهل ! وما أقدمهم على هذا العمل إلا شعورهم بتساوى المسلمين فى الحقوق والواجبات مهما كانت أجناسهم .

ومما يدل على أن الفرس كانوا يكبرون العروبة ، أن كثيرا منهم كانوا ينتحلون لأنفسهم نسبا عربيا ؛ فهذا أبو مسلم الخراسانى انتحل لنفسه نسبا عربيا ، فزعم أنه من نسل سليط بن عبد الله بن عباس ! ويحكى صاحب الأغانى أن إسحاق الموصلى تناظر مع ابن جامع بحضرة الرشيد ، فسبه ابن جامع ، فمضى إسحاق الى خازم بن خزيمة العربى فتولاه وانتمى إليه ، فقبل ذلك منه ، فقال إسحاق :

إذا كانت الأحرار أصلى ومنصبى ودافع ضيمى خازم وابن خازم
عطست بأنف شامخ وتناولت يداى الثريا قاعدا غير قائم

فذلك يدل على أن من الفرس من كان يتطلب الشرف من طريق الانتساب الى العرب .

يروى الأغانى : أنه كان لعلى بن الخليل صديق فارسى ، فغاب مدة وقد أصاب مالا ورفعة ، ثم عاد الى الكوفة وادعى أنه من تميم ، فقال يهجوه :

يروح بنسبة المولى ويصبح يدعى العربا
فلا هذا ولا هذا ك يدركه إذا طلبا

ويحكى الأغانى أيضا أن والبة بن الحباب كان يدعى النسب الى العرب ، فقال فيه أبو العتاهية :

أوالب أنت فى العـرب كمثل الشيص فى الرطب
هـلم الى الموالى الصيـــد فى سعة وفى رحب
فأنت بنا لعمـر اللّـــه أشبه منـك بالعـرب

وهـذا كله لا يحول بيننا وبين أن نقول : إن الشعوبية قد بلغت أقصى غاياتها فى القرن الثالث الهجرى ، لما قدمنا من أن شعور الفرس بأنهم أقاموا الدولة ، وشعور العباسيين بأنهم مدينون للفرس ، قد مهّد لمن يبغضون العرب أن يلصقوا بهم ما شاءت لهم أهواؤهم ونزعاتهم من ذم وقدح ، كما أنه أتاح لمتعصبي العرب أن يردوا هـذا القدح بمثله أو بأقذع منه .

هذا ولا نحب أن يفهم القارئ أن كل الفرس وكل العرب كانوا على غرار واحد ، يبغض بعضهم بعضا ، فالحق أن الـكثرة الساحقة فى الأمتين كانوا متشبعين بروح الاسلام من عدم الاعتداد بالجنسية ، فإن طرأ ذكر الجنسية عرضا عرف الفرس للعرب فضلهم ومكانتهم وأسبقيتهم فى الاسلام ، واعترف العرب للفرس بحضارتهم العريقة وثقافتهم القديمة اللتين أفادتا العـرب كثيرا ، وخطت بهم خطوات واسعة نحو الرقى والـكمال .

فهذا هو عبد الله بن المقفع الفارسى يمتدح العـرب ويطريهم ، ويجاهر بأنهم أعقل الأمم وأجدرها بالبقاء .

فقد روى أبو العيناء الهاشمى عن الفخذمى عن شبيب بن شبة قال : « كنا وقوفا بالمِرْبَد ـ موضع بالبصرة كان مألف الأشراف ـ إذ أقبل ابن المقفع فبشبشنا به وبدأناه بالسلام ، فرد علينا السلام ، ثم قال : لو ملتم الى نيروز وظلها الظليل ، وسورها المديد ، ونسيمها العجيب ، فعوّدتم أبدانـكم تمهيـد الأرض ، وأرحتم دوابكم من جهد الثقل ؛ فان الذى تطلبونه لم تفلتوه ، ومهما قضى الله من شىء تنالوه ؛ فقبلنا وملنا ؛ فلما استقربنا المـكان قال لنا : أى الأمم أعقل ؟ فنظر بعضنا الى بعض فقلنا : لعله أراد أصله من فارس ، فقلنا : فارس ؛ فقال : ليسوا بذلك ، إنهم ملـكوا كثيرا من الأرض ، ووجدوا عظيما من الملك ، وغلبوا على كثير من الخلق ، ولبث فيهم عقد الأمر ، فما استنبطوا شيئا بعقولهم ، ولا ابتدعوا باقى حكم فى نفوسهم ؛ قلنا : فالروم ؛ قال : أصحاب صنعة ؛ قلنا : فالصين ، قال أصحاب طرفة ؛ قلنا : فالهند ، قال : أصحاب فلسفـة ، قلنا : السودان ، قال : شر خلق الله ، قلنا : الترك ، قال : كلاب مختلسة ؛ قلنا : الخزر ، قال : بقر سائمة ، قلنا : فقـل ؛ قال : العرب ؛ قال : فضحكنا ؛ قال : أما أنى ما أردت موافقتكم ولـكن إذ فاتنى حظى من النسبة فلا يفوتنى حظى من المعرفة ؛ إن العرب حكمت على غير مثال مثل لها ، ولا آثار أثرت ، أصحاب إبل وغنم ، وسكان شعر وأدم » .

على أنك لا تـكاد تعثر فى العصر العباسى على قرين لابن المقفع يلف لفه ، ويشايعه فى ...

من امتداح العرب وتنقيص الفرس أصله ومنيته، سوى ابن قتيبة ؛ بل الذى لا تلقى عناء فى وجدانه أن طغمة من الأعاجم فى العصر العباسى أخذوا ينقـصون العرب ، ويهجـنون محامدهم التى بها يفخرون ويعتزون ، ومنهم من ألـف كتبا فى مناقب العجم ، واخترعوا القصص العديدة التى تطوح بكل شىء يعتز به العرب .

وقد تصدى للرد على هـذه المثالب الجاحظ فى بيانه وتبيينه ؛ وألف ابن قتيبة كتاب (العرب) رد فيه على من وضع شأن العرب ، وذكر ما اختصت به العرب من الفضائل .

هذا ، ولم يكن وكر الشعوبية بلاد الشرق فحسب ، بل تعدتها الى بلاد الأندلس فى الغرب .

فهذا هو أبو عامر بن غرسية ، فقـد أنشأ رسالة يفضل فيها العجم على العرب ، فرد عليه كثير من فقهاء الأندلس وأدبائها ، وقد نقل هذه الردود صاحب كتاب « ألف باء » .

وقبل أن نختم هذا البحث لا بد لنا أن نشير الى أمرين ، أما أولهما : فان الشعوبية كغيرها من النزعات كانت من العـوامل التى أخصبت ، ناحية من الأدب العربى ؛ وذلك ما قصدنا إليه وحده دون أن نعرض لها من الوجهة العلمية إلا نزرا يسيرا استدعاه ذلك القصد .

وأما ثانيهما : فانه لا بد لنا أن نقف موقف الحاكم المنصف بين الخصمين ، فنقول : إن الأمثلة التى سردناها نثرها ونظمها لا تخلو عن هوى فى النفس من الطرفين ، وإن كلا منهما كان مسرفا مغاليا فيما يلصقه بخصمه من شين ونقص ، مما جعل التاريخ يعيد نفسه فيعرض على الأذهان صورة من صور الجاهلية الممعنة فى الفرقة والاختلاف ، المسرفة فى الهجو والسباب .

ولئن كان للجاهليين عذرهم فما عذر هؤلاء وقد جاء الاسلام معفـيا على كل هذا ، داعيا الى الوحـدة والاعتصام بحبله المتين ، ناظرا الى الشعوب على سـواء ، جاعلا مناط الرفعة والـكرامة تقوى الله وطاعته ؛ فالناس بذلك يتفاوتون ، وعلى أساسه يعاملون ؟

احمد ابراهيم موسى
تخصص البلاغة والأدب

لا غنى عن الناس

سمع عمر أمير المؤمنين رجـلا يقول : اللهم أغننى عن الناس . فقال له الفاروق : أراك تسأل الموت . قل : اللهم أغننى عن شرار الناس . وقال رجل لابن عباس : ادع الله أن يغنينى عن الناس . فقال له ابن عباس : إن حوائج الناس متصل بعضها ببعض كاتصال الأعضاء ، فمتى يستغنى المرء عن بعض جوارحه ؟! ولـكن قل : أغننى عن شرار الناس .

إن فى هذين القولين لحـكمة ، فما أكثر الذين يعتدون فى الدعاء !

كلمات فى الأخلاق

الصداقة حاجة اجتماعية

فى رأى ابن المقفع

الإنسان فى الحياة المادية زميل الإنسان ومعاونه ، وعشيره ومؤانسه ؛ ومهما بلغ الإنسان من الرخاء والسعة والاعتداد بالنفس فهو فى حاجة ملحّة الى من يبادله الرأى ، ويكشف له عن نوازعه ، ويفضى إليه بذات نفسه . تلك غريزة كامنة فى الطبيعة الإنسانية . وقديما قالوا : الانسان مدنى بالطبع ، أى أن به ميلا الى التآلف والتعاطف ، وحاجة الى التعارف والتفاهم ؛ وعلى هذا قامت شتى الروابط فى المجتمع الإنسانى ، وكانت الضرورة الداعية لاتخاذ الأودّاء والخلصاء ، واصطفاء الأصدقاء والأخلاء .

ولبلغاء العرب وحكمائهم فى الصداقة والصديق أقوال كثيرة ، ولكنها نتف مبعثرة تقع موقع الحكمة ، وتجرى مجرى المثل ، وقد يظهر فيها التضارب ، وربما بلغت فى الأداء غاية الإيجاز والرمز ؛ ولعل ابن المقفع هو أول من اهتم بهذه الناحية الخلقية فأفرد لها فى التدوين ، ونظمها فى باب تمكن مذاكراته والوقوف عليه ، فى كتابى الأدب الصغير والأدب الكبير .

لقد كانت محنة أخلاقية هزّت كيان المجتمع الاسلامى فى عهد ابن المقفع ، وهو سقوط أسرة مالكة وقيام أخرى ، وكان هو فى صميم هذه المحنة يرى الشر يكشف له عن ناجذيه فى كل خطوة ، والبطش يتهدده فى كل فرصة ؛ ولقد حاول جاهداً ان يعيش على الحذر والمسالمة لعله يسلم ، ولكن هيهات ! فقد طاحت به الوقيعة فى النهاية ؛ فلا غرو إذا ما رأينا الرجل يحفل كثيراً بالدعاية للأخلاق الكريمة ، فينشد إصلاحها ، ويعظ الناس فى الأخذ بأسبابها ؛ ولا غرو إذا ما رأيناه يبالغ كثيرا فى الحث على اختيار الصديق ، والتمسك بما تقتضيه معاملة الأصدقاء من الخلال الشريفة : كالوفاء والإيثار ، والبذل والمسامحة ، والحفظ والرعاية ، وما الى ذلك من الصفات التى هى جماع الأخلاق الطيبة .

وما كل ما كتبه ابن المقفع فى الصداقة والصديق من ابتداعه ، ولا هو من فيض تجربته واختراعه ، ولكنه تلقف كثيرا من حكمة الهند ، وآداب الفرس ، وتجربة العرب ، وصنع من كل ذلك سمطاً منتظماً لو تدبرته لرأيته المثل الأعلى فى بابه . وفى تقدمته للأدب الصغير يقول : « وقد وضعت فى هذا الكتاب من كلام الناس المحفوظ حروفاً فيها عون على عمارة

القلوب وصقالها وتجلية أبصارها ، وإحياء للتفكير ، وإقامة للتدبير ، ودليل على محامد الأمور ومكارم الأخلاق ، إن شاء الله » .

ولعلك تعرف أن الرجل كان من الكتاب المثاليين ، أى أنه كان يصور الأمور على ما يجب أن تكون لا كما هى كائنة ؛ ولقد كان يذهب فى الصداقة ومعاملة الأصدقاء مذهباً مثاليا يسمو على طاقة البشر ، ويرهق طبيعة الانسان المتقلبة ؛ ومن هـذه الناحية تهجم بعض الباحثين على ابن المقفع ، وقال : إنه يفرض فروضاً لا يمكن أن تحتملها طبيعة الإنسان ، وإنه ليذهب فى كلامه إلى الخيال أكثر مما يقصد إلى الحقيقة . وليس هـذا على ما أرى بعاب ولا نقص ، فان الرجل كان يشفع القول بالعمل ، ويؤيد الرأى بالتنفيذ . لقد كان ابن المقفع يقول : « ابذل لصديقك دمك ومالك » ، وأنت قد تقول : ولكن أين هو الانسان الذى يبلغ فى الصداقة إلى حد البذل والإيثار ؟ وأين هو الرجل الذى تدفعه رجولته فينسى من أجل صاحبه روحه وماله ؟ وأنا أقول لك : لا تعجب فقد كان ابن المقفع نفسه هو ذلك الرجل ، وما كان الكاتب الكبير فى رعاية الصداقة إلا آية الوفاء وحجة الفداء . ولقـد روى فى سيرته أن كان جالساً مع صديقه وختنه عبد الحميد الكاتب ، فدخل عليهما الجند يطلبون عبد الحميد للاقتصاص منه عند الخليفة ، فقالوا : أيكم عبد الحميد ؟ فقال ابن المقفع : أنا ، وقال عبد الحميد : بل أنا ، وهمّ الجند بأخذ ابن المقفع فى صاحبه لولا أن أسرع عبد الحميد فقال : تمهلوا وتدبروا فان لكل منّا سمات تميزه ، وأنا من سماتى كذا وكذا مما تعرفونه ، فأخذوه ! ولولا ذلك لذهب ابن المقفع فداء صاحبه وهو قرير العين ! !

فالرجل كما ترى كان إماماً فى الأخـذ برأيه ، وما كان من الذين يقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم ، وليست الصداقة عنده بالأوصاف والأقوال البليغة يهوّل بها على الناس ، على أنها لا تقع موقعاً من نفسه ، ولكنها تضحية بالروح والمال ، وخلق كريم يخدم فيه القلب واليد واللسان ، ولذا فهو يحـذر من آفة القول مع ترك العمل فيقول : « وليعرفك إخوانك — والعامة إن استطعت — أنك إلى أن تفعل ما لا تقول أقرب منك إلى أن تقول ما لا تفعل ، فان فضل الفعل على القول زينة ، وفضل القول على الفعل عار وهجنة ، وإن إحكام هـذه الخلة من غرائب الخلال » (١) .

وابن المقفع يبتدئ فيقسم الناس الى أربعة أقسام : الأصدقاء ، والمعارف ، والعامة ، والأعداء ، ثم يقرر لكل منهم حقه فى المعاملة والسلوك فيقول : « ابذل لصديقك دمك ومالك ، ولمعرفتك رفدك ومحضرك ، وللعامة بشرك وتحننك ، ولعدوك عدلك وإنصافك ، واضنن على كل أحد بدينك وعرضك » (٢) .

---

(١) الادب الكبير ص ٧١ . (٢) الادب الكبير ص ٦٢ .

« واعلم أن من عدوك من يعمل فى هلاكك ، ومنهم من يعمل فى صلاحك ، ومنهم من يعمل فى البعد منك ، فاعرفهم على منازلهم ، (١) وإن كنت مكافئا بالعداوة فإياك أن تكافئ عداوة السر بعداوة العلانية ، وعداوة الخاصة بعداوة العامة ، فان ذلك هو الظلم والاعتداء ؛ واعلم مع ذلك أنه ليس كل العداوة والضرر يكافأ بمثله ، كالخيانة لا تكافأ بالخيانة ، والسرقة لا تكافأ بالسرقة (٢) » .

« والبس للناس لباسين ليس للعاقل بد منهما ، ولا عيش ولا مروءة إلا بهما : لباس انقباض وانحجاز من الناس ، تلبسه للعامة ، فلا يُلفونك إلا متحفظا متشددا متحرزا مستعدا ؛ ولباس انبساط واستئناس تلبسه للخاصة الثقات من أصدقائك ، فتلقاهم بذات صدرك ، وتفضى إليهم بمصون حديثك ، وتضع عنك مؤونة الحذر والتحفظ فيما بينك وبينهم ؛ وأهل هذه الطبقة ـ الذين هم أهلها ـ قليل من قليل حقا ، لأن ذا الرأى لا يدخل أحدا من نفسه هـذا المدخل إلا بعد الاختبار والتكشف والثقة بصدق النصيحة ووفاء العهد (٣) » .

محمد فهمى عبد اللطيف

(١) الادب الكبير ص ٩٥ . (٢) الادب الكبير ص ٩١ . (٣) الادب الكبير ص ٧٧ ، ٧٨ .

فضيلة الصبر

قال الله تعالى : « والعصر ، إن الانسان لفى خسر ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وتواصوا بالحق ، وتواصوا بالصبر » .

وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الإيمان فقال : الصبر والسماحة .

وقال الحسن البصرى : وجدت الدنيا والآخرة فى صبر ساعة .

وقد أجاد أبو الفتح البستى فى قوله :

ولم أر مثل الشكر جنة فارس ولم أر مثل الصبر جُنة لابس

وقال غيره :

وليس الفتى من خوَّر الخطبُ صبرَه ولكنه من خار فى صبره الخطبُ

نقول : لا يصح أن يفهم من هـذا أن الانسان يجب عليه متى ابتلى بكارثة أن يصبر لها جامدا حتى تزول ، ولكن أن يعمل لإزالتها فى صبر وثبات حتى لا يعزب عنه رأيه بالهلع .

وقد أمر الله بالصبر فى القتال ، فهل يتوهمن أحد بعد هذا أن الصبر استسلام وجمود ؟

كلمات قصيرة :

الدعوة الى الاسلام

منذ أيام غير طويلة ، طالعت في إحدى الصحف مقالا لكاتب اجتماعي ، يتهم فيه علماء الدين ، والقائمين بالدعـوة إليه خاصة ، بأنهم يشجعون الناس على ما هـو أشبه بما يسمى « بالفوضى الدينية » ، إذ يرحبون بكل راغب في « الاسلام » مهما كان تفكيره واعتقاده ، وعلمه وإدراكه ، غير مبالين بغرضه من هذه الرغبة ، مع أن كثيرا منهم قد لا يكون له قصد سوى الارتزاق من هذا المال الذى منَّاه به « الواعظون » ، أو الصدقات التى قد ينفحه بها المثرون ، من فضل ثرائهم ؛ وأنه ربما كان فيهم مع ذلك من يريد بدينه « الجديد » أن يخلص من زوجته التى لم يجـد في نصرانيته ، أو يهوديته ، ما يساعده على أن يطلقها ، أو يفارقها بالمعروف ! ! ثم أهاب بالمشرعين في نهاية المطاف أن يضعوا حدا لهذه المسألة . . .

والذى يقرأ هذه الكلمة ، لا يشك في أنها تنطوى في جملتها على شيء من التجنى على رجال الدين ، والقائمين بالدعوة إلى سبيل الله بالحكمة ، والموعظة الحسنة . . .

لقـد كان النبي صلى الله عليه وسلم ، يحرص كل الحرص على « هداية الناس » حتى لا تكون فتنة (١) ويكون الدين كله لله . وكان يبالغ في هذا الحرص ، الى أن ينال من راحته ونومه ، ولم يخفف من هذا الكد المتواصل ، إلا بعد أن زاده الله علما في ذلك بأمثال قوله تعالى : « ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعا ، أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ؟ وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله ، ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون » ، وقوله تعالى : « إنك لا تهدى من أحببت ولكنّ الله يهدى من يشاء ! » . وكان حقا على أصحابه ، أن يكونوا على قدمه مبشرين ومنذرين ، لئلا يكون للناس على الله حجة . وحضهم على الدعوة للاسلام بالحكمة والموعظة الحسنة ، حتى أنه قال : « لأن يهدى الله بك رجلا واحدا خير لك من الدنيا وما فيها » .

ولكنه لم يقصد بهذه الهداية أن يقود المسلم غيره للدين قيادة عمياء ، خالية من الدراية والنظر ، ولكنها هداية النور والعلم ، في هوادة وتثبت . وليس أدل على ذلك من قوله تعالى : « وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه . . » فانها قد رسمت دستورا للدعوة الى الله ، لا تصل إليه أمة بلغت من الحضارة والمدنية ، ونضوج العقل ، ودقة التفكير ، شأوا عاليا ، ودرجة سامقة ، إذ تضمنت النجدة وإغاثة الملهوف ، وإيواء المستجير ، ودفع الخوف عنه ، وزادت عليه الدعوة الى الله من طريق التروى والتعقل ، في جو من الأمن والطمأنينة ، ليكون إيمانه صادرا عن تثبت واستدلال .

(١) معنى الفتنة هنا الوثنية .

وكل نبي من الأنبياء يفاخر بأتباعه يوم القيامة ، ثم يكون أشد هؤلاء مفاخرة ، وأكثرهم مباهاة ، نبينا ـ عليه أفضل الصلاة والسلام ـ لا لكثرة سواد ، وزيادة عدد فحسب ، ولكن لأن فيهم العلماء الذين نشروا اللواء بعده ، وذادوا عن حياض هذا الدين ، ودعوا إليه بالتي هي أحسن .

وتجد القرآن الكريم ، يعنى بالنظر والتفكير ، والتدبر والمعرفة ، والتأمل فى مصنوعات الله ، ويقدم ذلك كله على ما سواه : « أفلا ينظرون الى الإبل كيف خلقت ، وإلى السماء كيف رفعت ، والى الجبال كيف نصبت ؟ » ، « قل سيروا فى الأرض ثم انظروا » ، « أو لم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض ؟ » ، « قل انظروا ماذا فى السموات والأرض . . » ولعل فى هذه الآيات وأمثالها ، ما يدلنا على عناية هذا الدين بالفكرة والمبدأ ، أكثر من عنايته بالأرقام والأعداد ، فهو يريد أن يكون فكرة فى النفوس ، وعقيدة فى القلوب ، حتى يكون الله ورسوله أحب مما سواهما وكفى : « قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره ، والله لا يهدى القوم الفاسقين » .

على أن هؤلاء الذين يقصدهم حضرة الكاتب ، ممن يطيرون وراء المنفعة ، ويسيرون فى أعقاب الأغراض ، ممن يؤمنون وجه النهار ، ويكفرون آخره ، لا يقيم الدين لهم وزنا ، وهم أشبه عنده بالمنافقين الذين كانوا يؤمنون ، ليأخذوا من أسلاب الحرب ، وغنائم القتال « فإن أعطوا منها رضوا ، وإن لم يعطوا منها إذاهم يسخطون . . »

ولكن هل يستطيع المكلفون بقبول من يطلبون الدخول فى الاسلام أن يطلعوا على ضمائرهم ، ليقفوا على خبيئة نفوسهم ، ويرفضوا طلب المحتالين منهم ؟ ذلك ما لا سبيل إليه . وفيم هذا التشديد كله فى بيئة انتشر فيها دعاة يغرون الناس بالمال لقبول دعوتهم ، ويعدونهم بضروب المساعدات والرعايات ؟ فإذا لم يكن إزاء هذه الحركة النشطة شيء من التسامح فى قبول طالبي الدخول فى الاسلام ، اعتبر ذلك منا صداً عن الدين ، وأحجم الكثيرون عن الإقبال عليه تحاميا من التشهير . على أنه لو أحصى عدد الذين يسلمون لأغراض مادية لما بلغوا عشر معشار الذين يطلبون الاسلام رغبة فيه .

وبعد : فهذه كلمة توجب التفكير على الذين يعالجون هذا الموضوع دون تعمق فيه ، فإن الكلام فى انتشار الأديان والدعوة إليها شئون اجتماعية يصحبها ظواهر نفسية لا يحسن إعارتها نظرات سطحية ، والبت فيها دون إطالة الروية ، وإنعام النظر البعيد .

ابراهيم على أبو الخشب
المدرس بمعهد القاهرة

من اخلاق الشريعة وآدابها

أسلفنا للقراء شطرا من الكلام عن آداب الشريعة وأخلاقها ، وكيف أنها تحكم المجتمع بأمثل الطرائق وأنبل الأنماط والمناهج ، وتخلع على هذا الوجود ناموسا كان وما يزال موردا للخير ومثابة للطمأنينة والأمن والهداية ، وكيف أنها تواصت بين أطوائها بالمبادئ العامة لقوانين البشر بل لقوانين الوجود كله فى أمر معاشه ومعاده فى أدق صوره وأبلغ مراميه .

فهى توصى بالرحمة لخلق الله جميعا ، وتفيض فى تلك الرحمة إفاضة دونها كل إفاضة ، ذلك لأن الرحمة بين الناس بل بين الكائنات ، المظهر الأول لبقاء هذا المجتمع قائما يؤدى كل جزء من أجزائه رسالة الى الجزء الآخر بأمانة وحزم وإخلاص .

فيروى الشيخان فى صحيحيهما عن أبى هريرة رضى الله عنه عن الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم ، فيقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « جعل الله الرحمة مائة جزء فأمسك عنده تسعة وتسعين جزءا وأنزل فى الأرض جزءا واحدا فمن ذلك الجزء يتراحم الخلق حتى ترفع الفرس حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه » . وأخرج الترمذى فى صحيحه عن عبد الله ابن عمر رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « الراحمون يرحمهم الرحمن ، ارحموا أهل الأرض يرحمكم من فى السماء » . وقال أبو هريرة رضى الله عنه : سمعت أبا القاسم صلى الله عليه وسلم الصادق المصدوق صاحب هذه الحجرة يقول : « لا تنزع الرحمة إلا من شقى » . وجاء شيخ كبير يريد النبى صلى الله عليه وسلم فأبطأ القوم عنه أن يوسعوا له ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ليس منا من لا يرحم صغيرنا ويوقر كبيرنا » . روى هذه الثلاثة أبو داود والترمذى . ويروى الترمذى فى صحيحه عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ليس منا من لم يرحم صغيرنا ويوقر كبيرنا ، ويأمر بالمعروف وينه عن المنكر » . وعن أنس رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « ما أكرم شاب شيخا لسنه إلا قيض الله له من يكرمه عند سنه » . ويروى الشيخان فى صحيحيهما عن النعمان ابن بشير رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » .

ويروى أبو داود رضى الله عنه فى صحيحه فى باب المزاح نوعا من الأخلاق المثالية تدل على مبلغ عناية الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم بالأمن والطمأنينة تعمر القلب وتملأ النفس بهجة وتثبيتاً حتى فى المزاح الذى قد يند عن طرائق الحياة الجدية أحيانا بما ينساق إليه بعض الفطر والطبائع صادرا عن حسن طوية وسلامة تحيزة ؛ فيروى أبو داود فى هذا الصدد فيقول :

« وكان أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فى سفر معه ، فأخذ بعضهم من أخيه حبلا وهو نائم فاستيقظ ففزع فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يحل لمسلم أن يروّع مسلما » .

ومثل هـذه القصة فى المزاح قصة أخرى يرويها أبو داود فى صحيحه ، فقـد روى عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أنه قال : « كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سفر ، فانطلقت لحاجتى فرأيت حمرة (نوع من العصافير) معها فرخان ، فأخذت فرخيها ، فجاءت الحمرة فجعلت تعرش (تصيح حزنا على فرخيها) ، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : من فجع هذه بولدها ؟! ردوا ولدها إليها » !

ومثل هـذه القصص قصة أخرى هى أمثولة عالية للخلق الكريم ، وآية رائعـة للقلب الرحيم ، فهى بعد حفز للأقوياء على الرحمة بالضعفاء ، بما ادخر الله لهم من مثوبة ، وما كتب لهم من باقيات صالحات . فقـد روى البخارى ومسلم فى صحيحيهما عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « بينما رجل يمشى بطريق ، اشتد عليه العطش ، فوجد بئراً فنزل فيها فشرب ، ثم خرج فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش ، فقال الرجل : لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذى كان بلغ بى ، فنزل البئر فملأ خفه ثم أمسكه بفيه فسقى الكلب فشكر الله له فغفر له » قالوا يا رسول الله : وإن لنا فى البهائم أجراً ؟ فقال : نعم فى كل ذات كبد رطبة أجر » .

فبينا تلك الشريعة السمحة تفيض أيما إفاضة فى تواصى الناس بالرحمة الشاملة إبقاء على ذلك الرباط الوثيق أن تنحل عراه وأن ينهار مبناه ، إذا بها توصى بعد ذلك بالبر بالفقير والحدب عليـه والتوجع له إذا نزل به مكروب أو حلت بساحته فاقة ، ويشمل ذلك اليتيم والأرملة والجار الضعيف ، فمن ذلك ما رواه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى فى شأن الرحمة باليتيم والمثوبة عليها . فقد روى هؤلاء الأربعة عن سهل بن سعد رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « أنا وكافل اليتيم فى الجنة هكذا ، وقال بأصبعيه السبابة والوسطى » .

والشأن فى الأرملة التى لا زوج لها شأن هؤلاء فى بذل الرحمة والمعـونة ، والرفق بها ، والعطف عليها ، فقد حكى العلامة ابن رشد أن الأرملة إذا كان فيها نوع من الجمال يرغب فيها الأزواج ويحببهم إليها ، ثم عفت نفسها عنهم وحبست ذاتها على يتاماها ، كان لها أجر الصابرين . وذلك بدهى الظهـور لأن انشغالها بأطفالها وسهرها على راحتهم مع تغير حال واشتغال بال وكثرة بلبال مما يضاعف لها فى ذلك الأجر .

هذا وأسرار الشريعة الاسلامية لا تحصى . وسنحاول قدر الجهد أن نضع بين يدى القراء من هذا النوع ما يتيسر لنا على التتابع . فإلى الغد القريب ؟

عباس طه

معرض الآراء العالمية

فى الإسلام والمسلمين

حالة المرأة العربية فى الحريم

للأوربيين ولوع بالكتابة عن المرأة الاسلامية ، وكثيرا ما شطت أقلامهم طلبا للإغراب ، واستنزال عجب القراء ، فأتوا بما يشبه ما دُوِّن فى حكايات ألف ليلة وليلة . وهم إذا كتبوا عن المرأة العربية حيث الحجاب الكثيف ، والعزلة التامة عن الرجال ، جاءوا بما لا يوجد إلا فى عالم الخيال . وقد انتشرت هذه الكتابات منذ قرون ، وزادها الكتاب المحدثون توكيدا ، فأصبحت هذه الخيالات حقائق يتعذر إزالتها من الأذهان . فإذا اتفق لأحدنا وقابل أوروبيا أقبل من بلاده حديثا ، وجده دهشا مما يجد من التناقض بين الصورة الذهنية التى علقها عن الشرق والشرقيين ، وبين ما عليه حالهم فى الواقع ، ولكن الذين يزورون الشرق عدد قليل ، وأكثرهم من التجار والمستعمرين ، وهؤلاء لا تأثير لهم على الرأى العام فى بلادهم لأنهم لا يكتبون ؛ ومن يجىء الى بلادنا من كتابهم تشوقهم الآثار والعاديات ، أكثر ما تشوقهم الأخلاق والعادات ، فلا يعيرونها إلا نظرات سطحية . وبذلك بقى الشرق الاسلامى معتبرا دار عذاب للمرأة تعانى فيه الويل والثبور .

وقد وقفنا على مقال نشر فى جريدة (جورنال دو جنيف) السويسرية، تحت العنوان المتقدم، آنسنا فيه اعتدالا ، فرأينا أن نعربه لقراء هذه المجلة ليعلموا بعض مايقال عنهم ، وسنلاحظ على ما يقتضى الملاحظة منه .

قال :

« المرأة العربية فى الطبقة الثرية ليست بتعسة الحظ فى حريمها ، فهى لا تتألم من التشدد فى حبسها ، وإن شدة حبها للاطلاع على كل ما يمس عاداتنا وأزيائنا النسوية لا يقابل منها رغبة فى التحرر والخلاص مما هى فيه . فهى كطفلة جاهلة كل الجهل ، طيبة القلب عطوف ، لا تدرى مما هو خارج حملها سوى أسرتها شيئا ، وكل معلوماتها تنحصر فى دائرة حليها ومسائل الحمل والإجهاض ، وهى تشعر بضجر لا تستطيع تحديده ، ولا تعرف كنهه .

« يندر أن يكون للعربى الثرى من أهالى شمال أفريقا أكثر من زوجتين ، ويكثر



أن لا يكون له غير زوجة واحدة ، تكون سيرته معها عادية ، أعنى ليست على أسلوب الوحشية الظالمة البهيمية التى تخيلها قصاصون ليسوا على شىء من العادات العربية البيتية . وقد اعتاد العربى أن لا يفضى بشىء عما يجرى فى داخل داره . ويرى أنه لا يصح أن يُسأل عن أحوال امرأته . فهذا الأمر لا يجوز الإلمام به إلا إذا رأى هو أن يتكلم فيه . فإذا اتفق أن امرأته محتضرة ، فلا يذكر ذلك لأحد ، محتفظا باتزانه العادى ، وبأسلوبه الكلامى المشبع بالغاية القصوى من الأدب . وهذا التحفظ منه فى هذا الموطن عادةٌ يجرى عليها ، ولا يدل على عدم التأثر مما هو بسبيله . وللنساء العربيات ككل نساء العالم أزواج يختلفون فى صفاتهم الطيبة والرديئة .

« أما حالة هؤلاء النسوة فتلوح لهن عادية لا شية فيها . أما اللاتى يتألمن منها فهن اللائى يردن أن يذقن لذة الحرية التى لا تصلح لها بيئتهن ، ولا يصلحن هن لها ، والعربيات وإن كن على جانب عظيم من الذكاء ، فان نفوسهن قد ألفت العادات التى نشأن عليها ، وإن كانت تربيتهن الحديثة قد جعلتهن كالمنحطات عن مكاناتهن . وقد عرفتُ شابتين عربيتين كلتاهما حاصلة على الدكتوراه فى علم الحقوق ، دخلتا الحريم بالزواج بعد عودتهما من جامعة باريس عن طيب نفس ، ولم تخرجا منه . وليس هذا بالأمر النادر .

« فعلى المرأة الأوربية التى يسعفها الحظ بأن تقبل فى الحريمات ، باعتبار أنها صديقة لأهلها ، أن ترى من الواجب عليها أن لا تحاول جذب أخواتها العربيات الى قبول فكرة التحرير . فهذه قد تكون غلطة بسيكولوجية واجتماعية . ولكن يجب عليها أن تعتبر صواحباتها المسلمات الجميلات اللاتى يشبهن ملكات بيزانطة ، مخالفات لها فى الشعور . فيجب أن تعاشرهن ، وأن تحترم أسلوب حياتهن ، دون أن تسعى فى بذر بذور الآراء التى لم تستعد عقولهن لقبولها .

« أما أعظم ما يمكن أن يعمل لهن فهو العناية بأمر صحتهن ، وإشراك الأزواج فى هذه العناية . ذلك لأنهن مصابات بفقر الدم بسبب معيشتهن فى الظل ، ولأن دورهن الفخمة تجاور فناء قذرا مملوءا بالفضلات ، تقيم فيه خادمات قذرات ، وأطفال مصابون بالقمل . وليس لهذه السيدات حديقة يمكن أن يستنشقن فيها الهواء بعيدين عن الأنظار . فإذا أصبن بمرض تولت علاجهن العجائز ، وهن اللاتى يقمن بصناعة التطبيب فى القبيلة ، ويعشن محترمات مبجلات ، وليس لعلاجهن أساس علمى ، بل هو مستمد من فنون الشعوذة . أما الطبيب من جنس الرجال فلا يقبل فى هذه الدور إلا نادرا ، ولا يلجأ أهل المريض أن يبعثوا به الى المستشفى إلا حين لا يرجى له شفاء .

« فالمرأة الأوروبية تستطيع أن تؤدى لهذه الأسر خدمات جليلة بالتوسط فى إدخال مبادىء العناية الصحية إليها ، ذلك أجدى عليها من بث الآراء الاجتماعية فيها .

« وقد اعتاد النساء المسلمات أن لا يقبلن الأخذ بالوسائط الصحية ، فيما يتصل بالأمراض النسوية ، إلا من نساء بشرط أن يكن متزوجات . ويمكن بواسطة العلاج بالحقن مكافحة أمراض كثيرة ، وآفات جمة ، مثل الزهرى الذى يفتك بعدد عظيم من الجنس العربى ويدنسه !

« فاذا برت الأوربية مرضى هذه الأسر بهذه الوسائل السهلة وبدون ألم ، فوجئت بشكر عظيم من هؤلاء النسوة ، وذكرن ذلك طوال حياتهن . وتجدهن لا يدخرن شيئا فى سبيل الإعراب عن سرورهن ليثبتن فرط شكرهن . فيأيتها الممرضات من الجنس الأبيض ، هل تنتظرن من مرضاكم المتمدنات مثل هذه الثمرة ؟ » (د . ج)

***

(مجلة الأزهر) : إن هذه المقالة على خلوصها من التجنى وتعمد التشهير ، لا تخلو من المبالغة والإغراب ، فان الادعاء بأن العربيات المحجبات كلهن مصابات بفقر الدم ، يشبه قول خصوم الحجاب هنا : إن جميع المحجبات مبتليات بهذا الداء ؛ والواقع يدل على خلاف هذا الاتهام . فان تلك النسوة إن كن محجبات فهن لسن بمحبوسات ، وكل من زار البلاد المغربية يعرف ذلك كل المعرفة . ولكن كتاب الفرنجة يعادون الحجاب ولا يقصرون فى اتهامه بكل نقيصة ، ويقلدهم لدينا من يأخذون إخذهم ، ويزيدون عليهم فى مناوأته .

واليوم وقد أسفر النساء ، ونتج عن سفورهن ما نتج من الاستخفاف بالآداب ، والاغراق فى التبرج ، قلب أنصارهن بالأمس لهن ظهر المجن ، وأخذوا يشهرون بهن فى كل ناد ، حتى أخذوا يصيحون بوجوب إقامة شرطة للآداب !

كل هذا ولما يمض على سفورهن غير سنين معدودة ، فما ظنك حين يتغلغلن فيه ، ويرتكب الطائشات منهن من ضروب الاستهتار فى التبرج ما لا قبل للشعور الاجتماعى على قبوله ؟ عند ذلك يطرأ على الشرق داء جديد يدعونه تهتك النساء ، يضاف الى سائر علله ، وهو أشدها فتكا ، وأصعبها مراسا ، وأفعلها فى إفساد نفسية الجماعات ، وتفكيك عراها ، والإسراع بها الى الهلاك .

فإذا كان يتعذر اليوم إعادة الحجاب ، فهل يعز على السلطات المختصة أن تحد من التبرج الممقوت ، وأن تصد من ضروب التهتك المعيب ؟ هل تستطيع تلك الجهات أن تضع لتقصير الثياب وتضييقها حدا ؟ هل يتسنى لها أن تمنع كشف الرأس والصدر والذراعين والساقين فى الطرقات ؟

إذا أمكن ذلك وأنا فى شك من إمكانه ، لاشتداد الفتنة وتحكمها ، فإن ترك حبل الأمور على غواربها ، والاكتفاء بالشكوى منها ، لا تكون له نتجية غير تطور الداء الى حالات يستعصى معها على العلاج ، ولا يدرى إلا الله ما يؤدى إليه من الأزمات الخلقية والمعضلات الاجتماعية .

ويبالغ الأستاذ (د . ج) فى حكمه بأن الزهرى شائع بين العرب ، وهو يريد عرب بلاد المغرب . فما أصدق المثل العربى فى هذا الموطن وهو : رمتنى بدائها وانسلت !

إن هذا الداء لم يكن معروفا ببلاد الشرق قبل حلول الأجانب به ، فهم الذين جلبوه فيما جلبوه معهم من فوائد المدنية ومضارها ، حتى أنه قد نسب إليهم فسماه الناس بالداء الافرنكى .

فاذا كان يكثر فى عرب المغرب كما يقول الكاتب ، ولم يقدم لنا دليلا على ما يقول ، فإن هذا الداء قد يجىء من طريق العدوى ، ولا يشترط أن يكون المصاب قد التاث به من الوقوع فى الاثم المسبب له . فقد يشرب الانسان من كوب ماء فى مقهى يكون قد شرب منه قبله مصاب بالزهرى ، فاذا كان فى فم الشارب البرئ أو فى لسانه جرح ، تلقح بميكروب هذا المرض العضال ، فسرت ميكروباته فى دمه وأحدثت به الزهرى . وهذا المصاب الجديد يعدى أهله به ، وهؤلاء يعدون غيرهم من هذا الطريق ، فينتشر فيهم ، والجميع يتساوون فى الجهل به ، وفى الخجل من الاعتراف به لطبيب ، فيتطور لديهم ، ويبلغ أشد درجاته .

وقد فطن الانجليز لهذه الحالة النفسية لدى المصابين به ، فأسسوا مصحات تتعهد لمن يترددون عليها كتمان أمرهم ، وتعالجهم منه بحيث لا يشعر بهم أقرب الناس اليهم . كل ذلك تشجيعا للمصابين على المبادرة بالتخلص من هذا الداء الوبيل .

فلو فطن الشرقيون لتأسيس مثل هذه الدور ، خفت وطأة هذه الآفة الخبيثة التى لا تقتصر عواديها على الشخص وحده ، ولكن على ذريته أيضا الى يوم يبعثون .

أقول هذا وأنا موقن بأن خير علاج لهذه الاباحة إعادة سلطان العقائد الأولية الى النفوس ، فهى وحدها التى تتحكم فيها ، وتحد من سطوة الشهوات عليها . وفى العلم والفلسفة أسلحة ماضية لإثبات هذه العقائد ، لا تقوى عليها الشبهات الإلحادية . وهذا العلاج وإن كانت ثمرته بطيئة إلا أنها تكون دائمة ، ولا تترقب من القوة الوازعة ضعفا لنعود أقوى وأكلب مما كانت عليه ، كما حدث ذلك فى كل أدوار التاريخ ؟

محمد فريد وجدى

تاريخ الفن المصرى القديم :

هذا كتاب أصدرته دار الهلال على عادتها من طبع ملحقات سنوية فى موضوعات حيوية ، تحسن إدارتها انتخابها ، وتبدع فى تحليتها بالصور ، وفى إتقان طبعها . وقد وصلنا منها أخيرا سفر نفيس جم الفوائد فى فن العمارة . ومن يعرف أن المصريين القدماء قد بلغوا من هذا الفن أوجه الأعلى ، يدرك أن الكتاب الذى يبحث فيه يجب أن يكون ذا قيمة عالية ؛ ومن يستطيع أن يبلغ هـذه الدرجة غير الرجال الذين وقفوا حياتهم على دراسة هـذه الآثار القيمة لأول وأكبر مدنية قامت فى العالم ؟ لذلك وقع اختيار دار الهلال على واحد من أولئك الاخصائيين وهو الأستاذ القدير محرم كمال ، الأمين المساعد بالمتحف المصرى ، فعهدت إليه بوضع كتاب فى هذا الموضوع . فجاء سفرا فخما يقع فى مائتين وعشرين صفحة محلى بعشرات من صور التماثيل والهياكل ، لا يدع صغيرة ولا كبيرة مما تتوق النفس الى معرفته فى هذا الموضوع إلا أتى به فى أسهل وأبلغ عبارة . فنشكر لدار الهلال هذا الاختيار الموفق ، ونثنى على إحسان الأستاذ المؤلف فيما تصدى له ، ونرجوه المزيد .

بردة محفوظ :

البردة قصيدة مشهورة مدح بها الأستاذ البوصيرى من أهل القرن السابع الهجرى خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم ، فنسج على منواله شعراء كثيرون الى عصرنا هـذا ، كان منهم المرحومان البارودى باشا ، وشوقى بك ، واليوم يقدم الى القراء الأستاذ الشاعر المطبوع احمد محفوظ بردة جديدة سيجد فيها القراء لذة الجديد ، فى عبارات منتحلة ، وألفاظ منتخبة ، وشاعرة موفقة . قدم لها معالى الدكتور هيكل باشا وزير المعارف فأحسن الثناء على ناظمها ، وإنا نشاركه هذا الثناء ، كافأ الله شاعرنا بما يستحقه فى هذه وتلك .

على هامش التاريخ المصرى القديم :

عرفنا حضرة صاحب السعادة عبد القادر حمزة باشا صاحب البلاغ محاميا مدرها ، وكاتبا سياسيا مبدعا ، وما كنا نعرفه مؤرخا محققا إلا حين حظينا بقراءة كتابة الممتع (على هامش التاريخ المصرى القديم) ، فقد فاجأنا به على غير انتظار ، فكانت مباغتة طريفة وقعت منا أحسن وقع ، حفزتنا الى الاكباب على قراءته ، وإذا به ثمرة يانعة لدراسات طويلة شاقة فى تاريخ مصر القديم ، بذل الباشا الأستاذ فيها سنين كثيرة ، شفعها برحلات الى مواطن الآثار فى صعيد مصر ، فكان أثر هذا الجهد المتواصل ظهور هذا العمل التاريخى الضخم .

إن سعادة الأستاذ وهو يكتب هذا السفر الجليل كان يتوخى فيه غرضين : أولهما العلم



لذاته ، وقد وفاه حقه الى حـد بعيد يجعـله فى مقدمة الدراسات الممحصة التى لا يحتاج معها مطالعه الى المزيد ؛ وثانيهما باعتبار أن التاريخ خير ما يبنى فى نفوس الناشئة الشعور بالعزة القومية ، وهى كما لا يخفى من أكبر العوامل فى بعث الهمم لإبلاغ المجتمع أرقى ما يمكن أن يصل إليه من الشرف والسؤدد . فقد قال سعادته :

« الآراء متفقة على أن التاريخ أعظم مهذب للأفراد والشعوب . فاذا كان هذا التاريخ تاريخ مجد لم يسبقه مجد أمة أخرى ، فهو لأبناء هذا المجد أعظم محىٍ للشعور بالعزة القومية ، وأقوى ماقن للفضائل الوطنية والاجتماعية » .

ثم قال سعادته :

« إن الناشئ فى انجلترة أو فى فرنسا أو فى ألمانيا أو فى غيرها من البلاد الراقية ، ينشأ وتاريخ بلاده يسايره فى كل سنة من سنى تعليمه ، فلا يكاد يغادر مقاعد الدرس حتى تـكون نفسه قد انطبعت بطابع ما فى هذا التاريخ من عظمة وجمال . ومن هذا الانطباع يتولد حب خاص للوطن ، وتتولد رغبة فى محاكاة أبطاله ، ويسمو تبعا لذلك الشعور بالقومية ، وتربى أو تقوى فضائل الإقدام ، وسمو النفس ، ومجالدة المخاطر ، والميل الى طيب الأحدوثة . ومن عجيب أمر التاريخ أنه يولد هذه الفضائل كلها ، سواء أكان تاريخ مجد وبسطة فى الغنى والسلطان ، أم كان تاريخ متاعب وآلام . وقد عرفت الأمم الراقية ذلك فجعلت من تاريخها القـومى أول عامل فى تربية الفضائل النفسية ، وإبراز صفات الرجولة . أما نحن فقد جهلنا هذا فصار الناشئ منا ينشأ وهو لا يرتسم فى ذهنه عن مصر القديمة غير خيال مبهم ، وإذا اتفق له أن عرف شيئا عنها فليس هـذا الشيء سوى صورة مشوهة تختلط فيها الخـرافات بالأخطاء ، وبذلك يفقد التاريخ المصرى روحه ، ويتعذر عليه أن يتحدث الى النفوس حديثا يقومها ويربى الفضائل فيها» .

فى سبيل تحقيق هذين المقصدين الشريفين ، تصدى سعادة الأستاذ صاحب البلاغ لنشر مؤلفه الذى نحن بسبيل الـكلام عنه .

لقد جمع هذا الـكتاب جميع المغريات على القراءة والاطلاع : فهو مدبج بقلم عُرف منذ نحو ثلاثين سنة بالإبداع فى البيان ، ومبوب أحسن تبويب بحيث تتداعى فصوله تداعيا منطقيا ، ومحلى بعشرات من الصور واللوحات المتقـنة الصنع وبعضها بالألوان ، ومطبوع أتقن طبع فى مطبعة دار الـكتب المصرية على ورق غاية فى الجودة .

فنشكر لسعادة المؤلف هديته النفيسة ، راجين له حياة طيبة ، ومزيداً من التوفيق .



مناوشات غير خطيرة قبل المعركة الفاصلة ، وقعة الأحزاب

سرية أبي سلمة :

أهلت السنة الرابعة فبلغ النبي صلى الله عليه وسلم أن طليحة وسلمة ابنى خويلد الأسديين ، يؤلبان قومهما لحربه ، فاستدعى رسول الله أحد أصحابه أبا سلمة بن عبد الأسد المخزومى ، وأمره أن يسير حتى يطأ أرض بنى أسد بن خزيمة ويغير عليهم ، وأمر أن تسير معه كتيبة ، فسار فى المحرم حتى بلغ جبلا لهؤلاء القوم يقال له قطن ، فشن عليهم الغارة فهربوا من بيوتهم ، واستاق أبو سلمة ما صادفه من إبل وغنم .

سرية عاصم بن ثابت :

فى صفر من السنة الرابعة قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم رجال من بنى عضل والقارة ، وهما قبيلتان من بنى الهون ، وطلبوا إليه أن يرسل معهم من يفقه قومهم فى الدين ، فأرسل معهم ستة من أصحابه تحت إمرة عاصم بن ثابت . وكان هؤلاء الرجال غير صادقين فى دعواهم ، بل مأجورين لبنى لحيان الذين قتل المسلمون منهم أحد رجالهم ، سفيان بن خالد ، فأرادوا أن يرزءوا المسلمين بقتل رجال منهم أخذا بالثأر .

فلما بلغت السرية الرجيع ، وهى ماء بين مكة والمدينة ، أحسوا بالغدر ، وخرج نحو مائتين من بنى هذيل فى طلبهم ، فاضطر رجال السرية للجوء الى جبل هناك والاستعداد للمقاومة . فطلب إليهم بنو هذيل أن ينزلوا ولهم الأمان ، فاغتر بعهدهم ثلاثة رجال ، فلما صاروا فى أيديهم قتلوا أحدهم لمقاومته لهم بعد أن شعر منهم بالغدر ، وباعوا الاثنين بمكة لمن يريد أن يثأر لقتلاه من أهل مكة ، وهنالك قتلا .

سرية بئر معونة :

فى صفر من السنة الرابعة وفد على النبى صلى الله عليه وسلم أبو عامر بن مالك من صناديد

بنى عامر ، وكان يدعى لبطولته ملاعب الأسنة ، فدعاه رسول الله للاسلام ، فلم يذعن ولكنه لم يبعد . وقال للنبي : إنى أرى أمرك هـذا حسنا ، فلو بعثت معى رجالا الى أهل نجد فانى أتوقع أن يستجيبوا لهم .

فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : إنى أخشى عليهم أهل نجد .

فقال ملاعب الأسنة : أنا لهم جار .

فأرسل رسول الله لهم المنذر بن عمرو فى سبعين من أصحابه اشتهروا بالاكثار من حفظ القرآن حتى أطلق الناس عليهم لقب القراء ، فساروا جميعا حتى نزلوا بئر معونة ، ومنها بعثوا أحدهم ، حرام بن ملحان ، بكتاب الى عامر بن الطفيل سيد بنى عامر . فلما وصل إليه لم يلتفت الى الكتاب ، ولكنه ثار على مقدمه وقتله ، ثم استثار قومه على بقية إخوانه ، فلم يقبل بنو عامر أن يخفروا ذمة ملاعب الأسنة ، فاستصرخ عامر بن الطفيل عليهم بنى رعل وذكوان وعصية ، وهى قبائل من بنى سليم ، فأجابوه وذهبوا معه حتى التقوا بأصحاب رسول الله فقاتلوهم قتالا عنيفا حتى أتوا عليهم جميعا إلا رجلين ، أحدهما كعب بن زيد وقع بين القتلى حتى ظن أنه منهم فنجا ، وعمرو بن أمية وكان على سرح للقوم ، أى مع حيوانات سائمة لهم ، فخلص من القتل .

فلما بلغ النبي صلى الله عليه وسلم أمر هذه المجزرة الشنيعة حزن حزنا شديدا .

غزوة بنى النضير :

بنو النضير يهود كبنى قينقاع الذين قلبوا ظهر المجن للمسلمين فاضطروهم للجلاء عن حصونهم والهجرة الى الشام . وهؤلاء جروا على سنة سابقيهم فحدثتهم أنفسهم أن يغتالوا النبي صلى الله عليه وسلم . وذلك أنه بينما كان مع بعض صحابته فى ديار بنى النضير ، تآمر رجال منهم على إلقاء صخرة عليه من مكان عال ، رغما عما كان بينه وبين هؤلاء القوم من عهد عدم الاعتداء ، فلما تبين رسول الله قصدهم رجع الى المدينة وأرسل محمد بن مسلمة يكلفهم الجلاء عن بلاد العرب الى حيث يشاءون .

فتهيأ القوم للرحيل علما منهم أنهم لا يقوون على حرب المسلمين ، فارسل اليهم منافقو المدينة من يخبرهم بأنهم يساعدونهم لو وقع عليهم عدوان ، وأنهم وإياهم متكافلون فى الحياة ، وقد حكى القرآن الكريم ما قالوه فى قوله تعالى : « ألم تر الى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب ، لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحدا أبدا ، وإن قوتلتم لننصرنكم ، والله يشهد إنهم لكاذبون . لئن اخرجوا لا يخرجون معهم ، ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ، ولئن نصروهم ليولن الأدبار ثم لا ينصرون . لأنتم أشد رهبة فى صدورهم من الله ، ذلك بأنهم قوم لا يفقهون . لا يقاتلونكم جميعا إلا فى قرى محصنة أو من وراء

جُدُر ، بأسهم بينهم شديد ، تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى ، ذلك بأنهم قوم لا يعقلون . كمثل الذين من قبلهم قريبا ذاقوا وبال أمرهم ولهم عذاب أليم . كمثل الشيطان إذ قال للانسان اكفر ، فلما كفر قال إنى برىء منك إنى أخاف الله رب العالمين . فكان عاقبتهما أنهما فى النار خالدين فيها ، وذلك جزاء الظالمين » .

ولكن بنى النضير اطمأنوا الى هذا الوعد ، وتلكأوا عن الجلاء ، فأمر النبى صلى الله عليه وسلم بالتعبئة ، فلما اجتمع المدد المطلوب خرج بهم . فلما بلغ بنى النضير خبر خروجه دخلوا الى حصونهم وامتنعوا فيها ، منتظرين ما يقوم به المنافقون الذين غرروا بهم تحت إمرة زعيمهم عبد الله بن أبى ، فلم يمدوا اليهم يدا بمساعدة كما لم يفعل مع بنى قينقاع من قبلهم .

فطلبوا الى رسول الله أن يقوموا بما تعهدوا به من الجلاء ، آخذين معهم ما تحمله الإبل من الأموال إلا آلة الحرب . فقبل ما اقترحوه وخرجوا . فمنهم من نزلوا بخيبر ، ومنهم من هاجروا الى الشام ، وأسلم منهم اثنان .

غزوة ذات الرقاع :

بلغ النبى صلى الله عليه وسلم أن قبيلتين من قبائل نجد ، وهما بنو محارب وبنو ثعلبة ، تتهيآن لحربه . فجرد من صحابته سبعمائة مقاتل وخرج بهم لملاقاة عدوهم . وما زالوا سائرين حتى وصلوا ديار القوم ، فلم يجدوا بها رجالا . ذلك أنهم لما بلغهم قدوم جيش المسلمين لاذوا بقنن الجبال ، ثم تشجع بعضهم ونزلوا للقتال . فلما اقترب الجمعان اعتراهم الرعب وولوا الأدبار .

غزوة بدر التى أوعد بها أبو سفيان :

قلنا عند ما انتهينا من إيراد تفصيلات وقعة أُحد أن أبا سفيان واعد المسلمين اللقاء فى بدر من العام المقبل ، وقبل النبى صلى الله عليه وسلم تحديه . ولكن أبا سفيان لم يستطع أن يوفى بوعده ، وخشى أن يُتهم بالنكول فعمد الى الحيلة . فكان ما حاكه منها أنه استأجر رجلا يقال له نعيم بن مسعود الأشجعى ليأتى المدينة ويرجف بما جمعه أبو سفيان من الجنود الكثيرة ، ليكسر من حدة المسلمين ، وينال من قواهم النفسية . فلم يبالوا بأقوال نعيم ، وخرجوا ألفا وخمسمائة تحت قيادة النبى صلى الله عليه وسلم ، وما زالوا يسيرون حتى أتوا بدرا فلم يجدوا بها أحدا . لأن أبا سفيان بعد أن وصل بمن معه الى بدر وأرسل الرجل الذى استأجره للإرجاف ، ظن أن إرجافه سيفيد الفائدة المرجوة منه . فقال لقومه إن هذا عام مجدب ، ولا يصلح للقتال غير عام معشب ، هلموا للرجوع . وكان قد خرج بهم على هذه النية ليرى الناس أن قريشا وفت بتحديها وأن المسلمين هم الذين نكصوا على أعقابهم خوفا منهم .

أما المسلمون فلما قدموا بدرا أقاموا بها يتجرون فى سوقها الذى كان ينعقد مرة فى شعبان من كل سنة ، فأصابوا خيرا كثيرا ، وسجلوا على أعدائهم الخذلان .

وقد حكى الله هذه الحادثة فى الكتاب الكريم فقال تعالى : « لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين . أولما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها (فى وقعة أحد) ، قلتم : أنى هذا ؟ قل هو من عند أنفسكم ، إن الله على كل شىء قدير . وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله ، وليعلم المؤمنين ، وليعلم الذين نافقوا ، وقيل لهم تعالوا قاتلوا فى سبيل الله أو ادفعوا ، قالوا لو نعلم قتالا لاتبعناكم ، هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان ، يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم ، والله أعلم بما يكتمون . الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا ، قل فادرأوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين . ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا ، بل أحياء عند ربهم يرزقون . فرحين بما آتاهم الله من فضله ، ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولاهم يحزنون . يستبشرون بنعمة من الله وفضل ، وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين ، الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح ، للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم . الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم ، فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل . فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء ، واتبعوا رضوان الله ، والله ذو فضل عظيم . إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين . ولا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر إنهم لن يضروا الله شيئا ، يريد الله أن لا يجعل لهم حظا فى الآخرة ، ولهم عذاب عظيم . إن الذين اشتروا الكفر بالإيمان لن يضروا الله شيئا ، ولهم عذاب أليم . ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملى لهم خير لأنفسهم ، إنما نملى لهم ليزدادوا إثما ، ولهم عذاب مهين . ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب ، وما كان الله ليطلعكم على الغيب ، ولكن الله يجتبى من رسله من يشاء ، فآمنوا بالله ورسله ، وإن تؤمنوا وتتقوا فلكم أجر عظيم » .

غزوة دومة الجندل :

كانت هذه الغزوة فى ربيع الأول من العام الخامس للهجرة . وسببها أن النبى صلى الله عليه وسلم بلغه أن الأعراب اجتمعوا بدومة الجندل يقطعون الطريق على من مر بهم ، وأنهم يريدون الدنو من المدينة وكان بينهم وبينها خمس عشرة ليلة . فأمر رسول الله بتعبئة ألف مقاتل من جنوده وخرج بهم لفض جماعة أولئك المفسدين . فلما قرب منهم وبلغهم الخبر تفرقوا ، فاستاق المسلمون ما شيتهم ورعاءهم . وبث النبى صلى الله عليه وسلم كتائبه الى كل وجه فلم يجد منهم أحدا ، وكفى الله المؤمنين القتال .

غزوة بنى المصطلق :

بنو المصطلق بطن من خزاعة ، وتسمى هذه الغزوة غزوة المريسيع أيضا ، وهو ماء لتلك القبيلة .

سبب هذه الغزوة أنه بلغ النبي صلى الله عليه وسلم أن الحارث بن ضرار سيد بنى المصطلق يحشد الجنود لمحاربته ، فاستعد للقائه وندب الناس للقتال ، فلباه عدد كبير ، وكان منهم جمهور غفير من المنافقين ، خرجوا طلبا للغنيمة . فلما نمى خبر قدوم النبي بجيشه الى ديار بنى المصطلق أدركهم الرعب حتى تخاذل رجال منهم وتركوا معسكرهم . ولما وصل جيش المسلمين اليه ترامى الفريقان بالنبل، ثم هجم المسلمون عليهم وقتلوا منهم عشرة وأسروا سائرهم حتى نساءهم وذريتهم ، واستولوا على ما شيتهم وكانت ألفى بعير وخمسة آلاف شاة .

وكان بين الأسرى برة بنت الحارث سيد بنى المصطلق ، فتزوجها النبي صلى الله عليه وسلم ، فلما رأى أصحابه أن بنى المصطلق صاروا أصهارا لرسول الله ردوا ما أخذوه من أموالهم من الغنائم ، وأطلقوا الأسرى أيضا ، لأنهم رأوا أنه لا يصح أن يؤسر من يمت الى نبيهم بسبب . فقالت عائشة رضى الله عنها : « ما أعلم امرأة كانت أعظم بركة على قومها من جويرية » ، تريد برة بنت الحارث وقد غير النبي صلى الله عليه وسلم اسمها . وقيل إن جويرية هى التى طلبت الى النبي ليلة زفافها إليه أن يطلق سراح الأسرى من قومها ، فأطلقهم . فكان أثر هذه المكرمة عظيما فى بنى المصطلق الى حد أن حملهم على الاسلام على بكرة أبيهم .

نار فتنة ما شبت حتى خمدت :

شبت نار فتنة بين المهاجرين من أصحاب النبي وبين أهل المدينة ، فلولا حكمة الرسول ، ورسوخ الإيمان فى قلوب المسلمين ، لأدت الى انفصام وحدة المسلمين .

ذلك أن عبد الله بن أُبَىّ زعيم المنافقين شهد مع شيعته هذه الغزوة طمعا فى غنائمها . واتفق أن أجيرا لعمر بن الخطاب خاصم حليفا للخزرج ، فضرب أولهما الثانى وأسال دمه . فصاح الحليف (يا لَلخزرج) وصاح الأجير (يا لَلمهاجرين) ، فأقبل إليهما رجال من الفريقين كادوا يقتتلون ، لولا أن خرج إليهم رسول الله قائلا : ما بال دعوى الجاهلية ؟ فأخبره بالأمر . فقال : دعوا هذه الكلمة فإنها منتنة ، ثم حقق القضية فلم يجد للمضروب حقا ، فوقف الأمر عند هذا الحد .

ولكن شيخ المنافقين أراد أن لا تفوته هذه الفرصة . فكلم بنى الخزرج قائلا : « ما رأيت كاليوم مذلة ، أوَ قد فعلوها ، نافرونا فى ديارنا ، والله ما نحن والمهاجرون إلا كما قال الأول : سمِّن كلبك يأكلك . أما والله لئن رجعنا الى المدينة ليُخرجن الأعز منها الأذل . ثم التفت الى من معه وقال : هذا ما فعلتم بأنفسكم ، أحللتموهم بلادكم ، وقاسمتموهم أموالكم ، أما والله لو أمسكتم عنهم أيديكم ، لتحولوا الى غير دياركم ، ثم لم ترضوا بما فعلتم ، حتى جعلتم أنفسكم غرضا للمنايا دون محمد ، فأيتمتم أولادكم ، وقللتم وكثروا ، فلا تنفقوا عليهم حتى ينفضوا من عنده » .

فلما بلغ هذا الكلام النبي صلى الله عليه وسلم غضب وتغير وجهه ، فقال عمر : مرني أو مر غيري بقتله يا رسول الله ، فلم يقبل منه هذا الرأى ، وأمر جيشه بالعود الى المدينة ، وبينما هم ببعض الطريق نزلت سورة المنافقين وفيها القضاء عليهم ، وهى :

« إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله ، والله يعلم إنك لرسوله ، والله يشهد إن المنافقين لكاذبون ، اتخذوا أيمانهم جُنة فصدوا عن سبيل الله ، إنهم ساء ما كانوا يعملون . ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون . وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم ، كأنهم خشب مسندة ، يحسبون كل صيحة عليهم ، هم العدو فاحذرهم ، قاتلهم الله أنى يؤفكون . وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لووا رءوسهم ورأيتهم يصدون وهم مستكبرون . سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم ، لن يغفر الله لهم ، إن الله لا يهدى القوم الفاسقين . هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا ، ولله خزائن السموات والأرض ولكن المنافقين لا يفقهون . يقولون لئن رجعنا الى المدينة ، ليُخرجن الأعز منها الأذل ، ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ، ولكن المنافقين لا يعلمون . يأيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ، ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون . وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتى أحدكم الموت ، فيقولَ رب لولا أخرتنى الى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين . ولن يؤخر الله نفسا إذا جاء أجلها ، والله خبير بما تعملون » .

لا يجوز لنا أن نختتم هذه المقالة حتى ننبه القارئين الى العلو الخلقى ، والسمو الفكرى اللذين ظهر عليهما النبي صلى الله عليه وسلم حيال إرجاف شيخ المنافقين عبد الله بن أُبَىّ . فقد كان فى استطاعته قتله وقتل كل من يلف لفه من منافقى المدينة ، فقد كان الحاكم المطلق فى المدينة وضواحيها . وقد اضطر بعض المشركين ومنهم عبد الله بن أبىّ المذكور لإظهار الإسلام نفاقا ، والعمل سرا على حل جماعة المسلمين . ولو كان النبي قتل زعيم المنافقين لقال الناس إن محمدا استخدم القوة الغاشمة فى بث دعوته ، فلو تركها عرضة للنقد والتفنيد لانحلت وبطل أمرها من قريب . فكان فى تركه وترك أمثاله ، ومقارعتهم بالحجج البينة ما يدفع هذه الشبهة عن الإسلام ، ويثبت بدليل محسوس أنه تأسس على الحقائق الثابتة ، وقام على قاعدة النظر والتمحيص ، وقد انتشر انتشارا لم يعهد له مثيل فى تاريخ العقلية الانسانية لهذا السبب نفسه .

محمد فريد وجدى

التفسير

سورة الشمس وضحاها



« والشمس وضحاها ، والقمر إذا تلاها ، والنهار إذا جلاها ، والليل إذا يغشاها ، والسماء وما بناها ، والأرض وما طحاها » :

قدم الشمس وما معها على السماء وما بناها ، لأن الغرض من ذلك أخذ النفوس بذكر تلك الآيات الى الله تعالى ، والاعتراف بقدرته وعظمته ، فهو من باب تقديم الدليل على المدلول ، والمقدمات على النتيجة . وكأنه سلك سبيل الترقى ، فكان ذلك كالطريق الى جذب العقل من حضيض عالم المحسوسات الى يفاع عالم الربوبية ، وبيداء كبرياء الصمدية .

وفى قوله : « وما بناها » إشارة الى حدوث السماء وكل ما فيها ، ومنها الشمس والقمر ، فإن كل ذلك لا يكون إلا بتقدير مقدر وتدبير مدبر .

هذا ، وعبر « بما » للإشارة الى الوصفية ، وأنها محل الاعتناء . وهم يفعلون ذلك إذا كان الوصف عجيبا يريدون لفت النظر اليه . وكأنه قيل : والقادر العظيم الشأن الذى بناها ودل على وجوده وكمال قدرته بناؤها . والمراد ببنائها إيجادها . وكذا الكلام فى قوله: « والأرض وما طحاها » أى بسطها .

هذا وفى السماء آيات بينات ، وعجائب مدهشات . ويكفيك منها أنها واقفة فى الجو على ثقلها وعظمتها وكثرة ما فيها من أجرام لا عدد لها ، بغير ممسك يمسكها من فوقها ، ولا عمد ترفعها من تحتها . ومن البدهى أنه لا بد لها من مخصص يخصصها بحيز مخصوص وسمك مخصوص ، لا بد لذلك من مخصص قادر حكيم عليم .

فان قلت : إن الأشياء لها مقتضيات ولوازم بمقتضى طبعها وجبلتها على ما يقول الطبيعيون ، قلنا لك بعد تسليم هذا وعدم مناقشتهم فيه : من الذى طبعها على ذلك وأعطاها تلك الخصائص ؟ لا شك أن جعلها متفاوتة لكل منها طبع مخصوص ومقتضى مخصوص أدل دليل على المخصص والمرجح الذى خلق كل شيء ثم هداه وهدى اليه . أفلا يجوز فى العقل ألا توجد تلك العناصر التى أوصلوها الآن الى نحو الثمانين ؟ فمن الذى أوصلها الى ذلك الحد ومتعها بتلك الخصائص ؟

ولنعد الى الكلام فى السماء فنقول :

إن هذه الأجسام إنما وقفت فى الجو العالى بقدرة الله تعالى وعظيم تدبيره . وإياك أن تصغى لحديث الجاذبية الذى يتشدق به كثير من العصريين . فالجاذبية مطعون فيها كما يعرفه الاخصائيون ؛ وعلى فرض تسليمها فخَلْقُها فى الأشياء من أعجب الآيات وأكبر الدلالات ، لأن الممكن ليس له شىء من نفسه كما هو مقرر فى محله ، فلا بد أن يرجع الأمر أخيرا الى الله تعالى ، فهو رب الأرباب ، ومسبب الأسباب « إليه يرجع الأمر كله » . ولعله معلوم لك أن هذه الأجسام فى ذاتها قابلة للحركة والسكون ، فجعلها متحركة بحركة مخصوصة لا بد له من فاعل مختار ، فضلا عن تخصيصها بحيز مخصوص ، وانتقالها الى حيز مخصوص . وليس يخفى عليك بعد ذلك أن قطعها الفلك فى مدة مخصوصة ثم عودها لمثل ذلك طول الدهر ، من أعجب العجب الذى لا يمكن تعليله بسبب . وليت شعرى ما الذى أوجب أن تكون تلك الحركات بعضها مشرقية وبعضها مغربية ، وبعضها الى الشمال وبعضها الى الجنوب ، وبعضها سريع وبعضها بطىء !

وإجمال القول أنك إذا نظرت فى اختصاص كل شىء من هذه العوالم الفائتة الحصر بوضعه وموضعه ، وصفته وطبيعته ، وحليته ونعته ، وخصائصه ومقتضياته ، وجدته ليس إلا من الله تعالى ، فسبحان من لا يشغله شأن عن شأن « يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون » .

ثم انظر بعد ذلك فى الأرض لتعلم أن زيادتها ونقصها عما هى عليه أمر جائز ، وقبولها لأجزاء أخرى غير تلك الأجزاء التى فيها أمر جائز . أليس من الجائز ألا تكون فيها تلك العناصر التى تحتاج إليها العوالم من الغذاء والدواء ، وإنباتها لجميع الأشياء حتى الرجال والنساء بمقتضى ما أودع فيها الحكيم العليم والقادر العظيم ؟

ثم انظر بعد ذلك كيف جعلها من الشمس على مسافة مخصوصة حتى تنتفع المخلوقات بضوئها وحرارتها ، فلو كانت بعيدة جدا عن الشمس لما أمكن ذلك ، ولو كانت قريبة جدا من الشمس لم يعش عليها إنسان ولا حيوان . أليس كل ذلك من الآيات الباهرة ، والبراهين الظاهرة ، والنعم المتواترة ؟

وإن شئت فانظر الى الجبال التى جعلها الله أوتاد الأرض ، وفيها من المنافع ما لا يأتى عليه البيان . ولعله لا يغيب عنك ما فيها من المعادن والجواهر التى تفوق العد ، مما أفاد العالم أكبر فائدة . وانتفاعنا بالجبال فى نعمة المياه والأمطار غنى عن البيان . ولهذا يقرن الله ذكر الأنهار بالجبال فى كثير من الآيات كقوله : « رواسى شامخات ، وأسقيناكم ماء فراتا » .

وإن شئت بعد ذلك فانظر الى ما تنبته الأرض من النباتات التى لا تحصى عدا ، وفيها من المنافع والأسرار ما يدهش العقول ويملأ النفوس بعظمة الله تعالى ورحمته ومزيد إنعامه .

وليس يخفى عليك ما قال الله تعالى : « وفى الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل ، إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون » . ولعلنا لا نحتاج للتنبيه على أن بعض الشجرة يكون نَوْرا ، وبعضها ثمرا ، وبعضها ورقا ، وبعضها خشبا ، الى آخر ما يرشدك اليه الوجدان والبرهان . أليس ذلك كله برهانا ساطعا ودليلا قاطعا على تقدير العزيز العليم ؟ ومن أعجب العجب ما يقولون من أن بعض أنواع الورد يكون أحد وجهيه فى غاية الحمرة ، والثانى فى غاية السواد ، مع كون نسبته الى الشمس والهواء والماء والتربة واحدة .

ولننشد فى هذا المقام قول القائل :

يقولون أين الله أين عجائبه ... وذا الكون سفر واضح وهو كاتبه
يشككون والايمان ملء قلوبهم ... ويبدون ما تلك القلوب تكذبه
فأى امرئ فى الجو يرسل طرفه ... إذا ما بدت أقماره وكواكبه
وليس يقول الله فى عرش مجده ... وهذى حواشيه وهذى مواكبه
وأى امرئ ما سبح الله مرة ... إذا راقب الأزهار وهى تراقبه
عجائب ربى فى الأنام كثيرة ... ولكن جهل المرء لا شك غالبه

أو نقول ما قال ذلك البدوى الذى لم تشغله المدنية وزخرفها عن أن يرجع الى قلبه ويستمع من حديث لبه ، حيث يقول :

هاج للقلب من هواه ادكار ... وليال خلالهن نهار
وجبال شوامخ راسيات ... وعيون مياههن غزار
ونجوم تلوح فى جنح ليل ... مشرقات فى كل يوم تدار
وشموس مضيئة للبرايا ... فى نهار وفى الدجا أقمار
ورياح تهب من كل فج ... وبروق وراءها أمطار
إن شأن الإله شأن كبير ... جل ربا وجلت الآثار
والذى قد ذكرت دل على الله ... نفوسا لها هدى واعتبار

يوسف الدجوى
من جماعة كبار العلماء

السنة

ليلة النصف من شعبان

روى عن عائشة رضى الله عنها ، قالت : « دخل علىّ رسولُ الله فوضع عنه ثَوْبَيْه ثم لم يستتمّ أن قام فلبسهما ، فأخذتنى غَيْرة شديدة ، ظننت أنه يأتى بعضَ صُوَيحِبَاتى ، فخرجت أتبعه ، فأدركته بالبَقِيع ، بقِيع الغَرْقَد يستغفر للمؤمنين والمؤمنات والشهداء ، فقلت : بأبى وأمى ، أنت فى حاجة ربك وأنا فى حاجة الدنيا ! فانصرفتُ فدخلتُ حجرتى ولى نَفَس عالٍ ، ولحقنى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فقال : ما هذا النَّفَس ياعائشة ؟ فقلت : بأبى وأمى أتيتنى فوضعتَ عنكَ ثوبيك ثم لم تستتمّ أن قمتَ فلبستهما ، فأخذتنى غَيْرة شديدة ظننت أنك تأتى بعضَ صُوَيحباتى حتى رأيتك بالبقيع تصنع ما تصنع . فقال : ياعائشة : أكنت تخافين أن يَحِيفَ الله عليك ورسوله ؟ أتانى جبريل عليه السلام فقال : هذه ليلة النصف من شعبان ولله فيها عُتَقاء من النار بعدد شعور غنم بنى كلب ، لا ينظر الله فيها الى مشرك ، ولا الى مشاحن ، ولا الى قاطع رحم ، ولا الى مُسْبِل ، ولا الى عاق لوالديه ، ولا الى مُدْمِن خمر . قال : ثم وضع عنه ثوبيه فقال لى : ياعائشة تأذنين لى فى قيام هذه الليلة ؟ قلت : نعم بأبى وأمى ، فقام فسجد ليلا طويلا حتى ظننت أنه قد قبض ، فقمت ألتمسه ووضعت يدى على باطن قدميه ، فتحرك ، ففرحت ، وسمعته يقول فى سجوده : أعوذ بعفوك من عقابك ، وأعوذ برضاك من سَخَطك ، وأعوذ بك منك ، جل وجهك ، لا أحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك . فلما أصبح ذكرتهن له ، فقال : ياعائشة تعلّميهن ، فقلت : نعم . فقال : تعلميهن وعلميهن ، فإن جبريل عليه السلام علمنيهن وأمرنى أن أردّدَهن فى السجود » . رواه البيهقى من طريق العلاء بن الحارث ، وقال هذا مرسل جيد ، لأن العلاء لم يسمع من عائشة . ذكره الحافظ المنذرى .

يتعلق بشرح هذا الحديث أمور : (١) بيان معناه إجمالا . (٢) بيان حكم إحياء ليلة النصف من شعبان وما ورد من ذلك . (٣) بيان حكم الدعاء الخاص المشهور بين الناس ليلة النصف من شعبان .

(١) أما معنى الحديث إجمالا فظاهر ؛ ولا يخفى ما فيه من الدلالة على شغف السيدة عائشة رضى الله عنها برسول الله صلى الله عليه وسلم، وحرصها على أن يكون قريبا منها قربا تزداد به شرفا ورضوانا من الله عز وجل ، فلما رأته خرج من حجرتها أدركها ما يدرك النفوس البشرية من الغيرة على من تحب ؛ وكيف لا تغار على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهى ترى وتلمس كل يوم من آيات النبوة ودلائلها ما قد لا يتيسر لغيرها من الصحب الكرام ؟ فحملتها هذه الغيرة الممدوحة على أن تخرج من حجرتها وتتبعه ، فوجدته ذاهبا الى الله ، وفى طاعة الله ؛ وجدته مهتما بالدعاء للشهداء والأموات الذين جاهدوا فى الله حق جهاده ، ويستغفر للمؤمنين والمؤمنات ؛ فلما رأته على هـذه الحالة وقارنت بين خواطر نفسها وبين عمله صلى الله عليه وسلم ، خجلت من نفسها وقالت : « بأبى أنت وأمى ، أنت فى حاجة ربك وأنا فى حاجة الدنيا ! » ورجعت متغيرة نادمة على ما حدثتها به نفسها ، الى آخر ما ذكر فى الحديث .

ولا ريب أن الحافظ المنذرى ثقة فى الرواية ، فلا يترك حديثا مطعونا فيه بدون أن ينبه على ذلك الطعن ، ويبين موقعه من القوة والضعف ؛ وهو لم يطعن فى رواية هذا الحديث ، كما لم يطعن فى رواية أحاديث أخرى وردت بمعناه . فما نقل عن أبى بكر بن العربى من أن الأحاديث التى وردت فى ليلة النصف من شعبان كلها موضوعة ، غير سديد ، ولا وجه له من جهة العقل ولا من جهة النقل .

أما الأول : فلأن الشريعة الإسلامية وإن كانت لا تقدس الأيام لذاتها كما لا تقدس الأمكنة كذلك ؛ ولكن قد يقع فى بعض الأيام والأمكنة ما يفضلها على غيرها ، فإذا أمرنا الله بأن نعظم مكانا خاصا كالكعبة ، أو أياما مخصوصة كأيام الأعياد والمواسم ، فانه يلزمنا أن نمتثل أمر الله ، ويكون تعظيم المكان أو اليوم هو تعظيما لله عز وجل بامتثال أمره .

نعم قد يقال : إن فى بعض ألفاظ الحديث مبالغة لم يقع مثلها فى الأحاديث الصحيحة التى يرويها البخارى ومسلم مثلا ، وهـذه المبالغة هى أن الله يعتق من النار بعدد شعر غنم بنى كلب ، وهى قبيلة لها غنم كثيرة ، فاذا فرض وعتق من النار كل عام بعدد شعور غنم هذه القبيلة على التحقيق ، استغرق ذلك جميع المواليد فلم يبق أحد مستحقا للنار . ولكن الواقع أن العرب كانوا يعبرون عن الكثرة بمثل هذه العبارة فيقولون : عدد النجم ، أو عدد الرمال ، أو عدد الحصى ، ويريدون بذلك المبالغة فى الكثرة ؛ فالغرض من هذه العبارة ظاهر جلى .

وهناك إشكال آخر ، وهو أن الدين الاسلامى قد حكم فى هذه المسائل حكما واضحا ، وهو أن حقوق العباد لا تمحى إلا بردها الى أربابها ، أو بالعفو عنها ؛ وحقوق الله تعالى تمحى بالتوبة والإقلاع عن تركها ؛ فمن يقترف خطيئة أو إثما مع الله أو مع عباد الله فليتحلل وليتب من ذنبه ؛ وقد استثنى الحديث المذكور بعض الكبائر المتعلقة بحقوق العباد ، كقاطع الرحم ،

والعاق لوالديه ، ومسبل الإزار خيلاء وتكبرا على عباد الله ، والمشاحن الذى لا ينفك عن إيذاء الناس فى معاملاته إياهم ؛ وذكر من الكبائر المتعلقة بحقوق الله الإدمان على شرب الخمر ، ولم يذكر قاتل النفس التى حرم الله إلا بالحق ، والقتل هو من أكبر الكبائر بعد الشرك بالله ، وكذلك لم يذكر الزانى بحليلة الغير ، ولا السارق ، وهما من الكبائر المجمع عليها ، الى غير ذلك من الكبائر والموبقات التى تقدم ذكرها فى مقام آخر .

والجواب عن ذلك أن الأحاديث الواردة فى النهى عن موبقة من الموبقات لا يلزم أن نذكرها جميعها ، فاذا كان الله سبحانه لا ينظر الى هؤلاء العصاة فى هذه الليلة فلا ينظر لغيرهم من باب أولى ، وتكون النتيجة أن الذين يعتقون من النار فى هذه الليلة هم الذين خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا ، فالله سبحانه يزيد لهم العمل الصالح ، وييسره لهم ويحبب اليهم التوبة ، وبذلك يعتقهم من النار ، وإن كانوا من الأموات الذين خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا وماتوا ولم يتوبوا ، فان الله سبحانه قد يعفو عنهم إلا إذا كانوا متصفين بهذه الأوصاف التى نهى عنها الحديث . وبالجملة فان الغرض من هذا الحديث هو الترغيب فى الأعمال الصالحة ، والتوبة عن الموبقات فى هذه الليلة التى يغفر الله فيها للمؤمنين خطيئاتهم . هذا هو مجمل معناه ، وليس فيه شىء يستلزم إنكاره عقلا ، لأنه ترغيب فى الأعمال الصالحة الهامة ، وزجر عن الموبقات .

وأما من جهة النقل فلأن الحافظ المنذرى مشهور بدقة الرواية ، ولم يترك حديثا فيه جهة من جهات الضعف إلا نبه عليها ، وكفى به حجة .

(٢) أما ما ورد فيه من إحياء ليلة النصف من شعبان بعبادة الله تعالى وطاعته فى جوف الليل ، فهو أمر مشروع فى ذاته لا نزاع فى مدحه ، وليس من البدع فى الدين أن يقوم المرء الليل ويقطعه بعبادة ربه والدعاء للأحياء والأموات من المؤمنين ، إنما الذى لا يجوز هو أن يحكم الانسان حكما شرعيا لا أصل له فى الدين ، فيقول مثلا : إن إحياء ليلة كذا بالعبادة فرض أو سنة مؤكدة ، أو صيام يوم كذا سنة أو واجب بدون أن يرتكز فى ذلك على سند صحيح من كتاب الله أو سنة رسوله ، أو تقليد مجتهد من المجتهدين المعروفين ، وهكذا .

نعم ورد أن الأئمة الأربعة كرهوا الاحتفال فى المساجد بهذه الليلة ، ولكن هذا شىء وما فعله النبى صلى الله عليه وسلم شىء آخر . قال فى إحياء العلوم : « وأما صلاة شعبان فليلة الخامس عشر منه يصلى مائة ركعة كل ركعتين بتسليمة يقرأ فى كل ركعة بعد فاتحة الكتاب قل هو الله أحد إحدى عشرة مرة ، وإن شاء صلى عشر ركعات يقرأ فى كل ركعة بعد الفاتحة قل هو الله أحد مائة مرة ؛ كان السلف يصلون هذه الصلاة ويسمونها صلاة الخير ، ويجتمعون فيها ، وربما صلوها جماعة ... الخ » . وقد قال شارحه الزبيدى : لم يصح شىء فى هذا الباب ،

وقد كره الحجازيون الاحتفال والاجتماع لإحياء هـذه الليلة ، وأجاز ذلك بعض أئمة أهـل الشام . فالأئمة الأربعة يكرهون مثل هذا الاحتفال كما يكرهون الدعاء الخاص اه .

ولا يخفى أن هذا كله غير ما نحن فيه ، وغـير ما يدل عليه هذا الحديث ، لأن الحديث إنما يدل على أن النبي صلى الله عليه وسلم قام هذه الليلة يعبد الله ويستغفر للمؤمنين والمؤمنات ، وهذا لا شك فى كونه مشروعا نافعا يقره العقل والدين . فالأحاديث الواردة فى هذا المقام صحيحة السند لا يصح إنـكارها بدون دليل من العقل أو النقل ، ومن أنـكرها كان مجازفا .

(٣) أما الدعاء المعروف بين الناس فـلم يرد ذكره فى الأحاديث التى يعول عليها مطلقا ؛ نعم ذكره الألوسى فى تفسير قوله تعالى : « يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الـكتاب » بصيغة قريبة من الصيغة المشهورة بين الناس ، ونسبه الى سيدنا عمر ، كما نسب صيغة أخرى لبعض الرواة . ولـكن لم يبين لنا صحة السند وعدمها كما هو شأن المفسرين فى الغالب .

والحق الذى لا مرية فيه أن مثل هذه الاجتماعات فى المساجد ، وهذه الأدعية التى لم يرد لها أصل عند الأئمة الأربعة ولا عند أئمة المحدثين ، ينبغى اجتنابها ، لأن الله تعالى يكتفى من عباده المؤمنين بأى دعاء يدعون به ما دامت قلوبهم متجهة الى الله عز وجل ، مخلصة فى مناجاته ، وقد ورد فى السنة الصحيحة أن الدعاء لا يستجاب إذا كان صاحبه متلبسا بالحرام ، فقد قال صلى الله عليه وسلم : « يطيل الرجل السفر أشعث أغبر يمد يديه الى السماء يقول يا رب يارب ، ومطعمه حرام ، ومشربه حرام ، وملبسه حرام ، وقد غذى بالحرام ، فأنى يستجاب لذلك » . فينبغى للداعين أن يلاحظوا ذلك عند دعائهم حتى يستجاب لهم .

وبالجملة فمن أراد أن يقلد رسول الله صلى الله عليه وسلم فى إحياء هذه الليلة فليحيها بالعبادة وحده بدون اجتماع كما ورد فى الحديث الذى معنا .

وها هنا مبحث دقيق يذكر لمناسبة قوله تعالى : « يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنـده أم الـكتاب » فى هـذا الدعاء : فان بعض المفسرين يظن أنها متعلقة بالقضاء والقدر ، وأنه فى هذه الليلة تكتب الآجال والأرزاق ، وغير ذلك من الأمور المتعلقة بشئون العباد ؛ فالله تعالى يمحو ما أراده أزلا ويثبت غيره . ولـكن يرد على هذا سؤال واضح ، وهو أن قضاء الله تعالى الذى انتهى إليه علمه لا يمكن أن يغير مطلقا ، وإلا انقلب العلم جهلا ، فانه إذا كان يعلم أن فلانا سيموت فى يوم كذا لا محالة ثم بدا له بعـد ذلك أن يغير هـذا الموعد ، لزم التغير فى علم الله ، وهو ما يسمونه بالبداء ، بمعنى أنه قد بدا له أمر صرفه عن إرادته الأولى ؛ وهذا ممنوع . نعم أجازه بعضهم مستدلا بأن أصحاب النبى المبشَّرين بالجنة وعلى رأسهم سيدنا عمر كانوا يخافون عذاب الله تعالى أشد من غـيرهم ، حتى قال عمر : « لو نادى مناد : كل الناس

يدخلون الجنة إلا واحدا ، لظننت أنى ذلك الواحد » . فهذا يدل على أن القضاء يمكن تغييره .
ولكن ليس فى هذا وأمثاله شيء من الدلالة ، لأن سيدنا عمر وأمثاله من كبار الصحابة قدوة للناس ، فهم إنما يقولون ويفعلون ما فيه مصلحة المجتمع بصرف النظر عن شخصيتهم .

والحق الذى لا شبهة فيه أن هذه الآية الكريمة لا علاقة لها بهذا الموضوع رأسا ، بدليل ما قبلها ، لأن الله تعالى قال : « وما كان لرسول أن يأتى بآية إلا بإذن الله ، لكل أجل كتاب ، يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب » . ومعنى هذا أن الله سبحانه وتعالى أرسل الرسل الى الأمم كما أرسل سيدنا محمداً بشريعة تناسب كل زمان ومكان ، فلكل أجل كتاب معناه : لكل وقت حكم يكتب على العباد بحسب ما يلائم حالهم ، فإذا جاء رسول الى أمة من الأمم بشرع ، لا بد أن يراعى حالها وصلاحيتها لقبول هذا التشريع ، فيتدرج معها حسبما تطيق ، وذلك كان شأن الاسلام مع العرب فى كثير من الآيات والأحكام المتعلقة بالزواج والطلاق والميراث ، بل والعادات واللذات وهكذا ، حتى إن النبى صلى الله عليه وسلم لما أرسل معاذا الى اليمن أمره بأن يطالبهم بالتوحيد فقط ، ثم بعد ذلك يأمرهم بالصلاة ، ثم بالصيام ، لأنه أشق ، ولا يطالبهم بالزكاة إلا بعد أن يستقر الإسلام فى أنفسهم ، فكذلك شأن العادات التى كانوا يقدسونها . وما قصة تحريم الخمر بخافية على أحد ، لأن العرب كانوا مولعين بشرابه فلم يحرمه الله عليهم من أول الأمر ، بل أخذ يرشدهم الى المضار التى تنشأ عنه ، ويلفتهم الى أن يقارنوا بين مضاره وبين ما يجدون فيه من لذة حتى يعلموا أنهم خاسرون بشرابه ، وبعد ذلك حرمه عليهم . فقوله تعالى : « يمحو الله ما يشاء ويثبت » معناه ينسخ من الأحكام المؤقتة ما لا يناسب تطور الأمة ، ويثبت ما يناسب ذلك التطور ، « وعنده أم الكتاب » : الأصل الذى يريد أن تستقر عليه حال الأمة .

وهذا التفسير هو الذى اختاره الإمام على كرم الله وجهه ، وهو الصواب فيما أعتقد . وذلك لأن مسائل القضاء والقدر لا ينبغى أن تكون مرتبطة بأعمال الناس وشئونهم العامة والخاصة ، لأن الله تعالى خلق الأسباب والمسببات ، وربطها ببعضها ربطا محكما ، وكلف الناس بأن يعملوا لدينهم ودنياهم على منهج خاص أتتهم به الشريعة وبينته لهم أحسن بيان . فالمريض الذى ينفعه دواء خاص لا يحل له أن يتركه اعتمادا على القضاء والقدر ، والقادر على السعى على الرزق يحرم عليه أن يكون عالة على الناس اعتمادا على القضاء والقدر ، والذى يترك الأرض بدون حرث وغرث وسقى اعتمادا على القضاء والقدر ، يكون آثما جاهلا بلا كلام . وهكذا كل الأسباب المشروعة النافعة ، يجب على الناس أن يستمسكوا بها ، ويحرم عليهم أن يستمسكوا بالقضاء والقدر فى شأنها ، لأن القضاء والقدر مخبوء لا علم لأحد به ، ولم يكلفنا الله تعالى بالبحث عنه وعن معرفته ، بل بالعكس قال لنا : لا ينفعكم الاحتجاج به لا فى الدنيا

ولا فى الآخرة . فاذا كان الاستمساك بالقضاء والقدر يدفع المرء الى العمل بهمة ونشاط وهو يقول أنا لا أبالى باقتحام المخاطر فى سبيل الله لأنه لا يصيبنى إلا ما هو مكتوب ، فذلك حسن . أما إذا كان الاستمساك بالقضاء والقدر يحمل الناس على التواكل وترك العمل ، فذلك قد نهى عنه الله ورسوله نهيا شديدا . روى أن النبى صلى الله عليه وسلم دخل على علىّ وزوجه فاطمة فسألهما : هـل يقومان الليل ؟ فقال علىّ : أرواحنا بيد الله إن شاء قمنا وإن شاء لا ، فغضب النبى صلى الله عليه وسلم ، وخرج وهو يقول : « وكان الإنسان أكثر شىء جدلا ! » هدانا الله الى سواء السبيل ؟

عبد الرحمن الجزيرى

فضيلة الحياء

قال النبى صلى الله عليه وسلم : « لـكل دين خلق وخلق الاسلام الحياء » .

وليس معنى الحيـاء أن ينزوى الرجـل عن الناس خجلا من الاتصال بهم ، وأن يصمت فى المجلس تهيبا منهم ، كل هذا يعتبر ضعفا لا حياء ، إنما الحياء أن لا يتأخر عما يتقدم فى مثله الرجال (حياء منه) أن يقال ضن بنفسه فى حالة حاجة المجتمع إليه ، وأن لا يضعف عن الإدلاء بحجته فى المجامع (حياء منه) أن يظن به عيا أو حصرا ، وأن لا يأتى ما يخالف الـكرامة والمروءة وشرف الرجولة (حياء منه) أن يتهم بالخسة والدناءة وسقوط الهمة . فالحياء هو هذا لا أن يظهر الرجـل كأنه امرأة خـفرة تشيح بوجهها عن كل من يقابلها ، وتحيد عن طريقها حتى لا يصادفها من اعتاد أن يسلك هذا الطريق من أهل الوجاهة .

وأحسن ما وقفنا عليه مما قاله الحـكماء فى الحياء قول أرسطو : « من استحيا من الناس ولم يستحى من نفسه فلا قدر لنفسه عنده » .

لا جرم أن هذه من أبلغ الحـكم ، فان النفس الشريفة تخجل من نفسها أن تتصف ببعض صفات السوء ، ولو لم يؤانس أحد منها ما يدل عليها . فهذه النفس واحدة من نفوس عالية كتب لها الشرف فى الوجود ، والسمو فى الحياة ، وإن كانت من الفقر بحيث لا يأبه بها أحد . فهى ليست فى حاجة لأن يأبه بها أحد ، ما دامت تشعر بأنها سامية ، وبأن تناسب الملأ الأعلى طلاقة نفس ، وكرم قصد ، وبعد غاية .

تاريخ الفقه الاسلامى فى مصر

— ٨ —

المدرسة الثالثة :

تحدثنا فيما مضى عن أساطين المدرسة الثانية ، وأشبعنا القول ، بقدر ما تتسع له صفحات من مجلة سيارة ، فى الليث بن سعد الفهمى ، أحد الأئمة المجتهدين ، وكبير الفقهاء المصريين .

واليوم نتحدث عن المدرسة الثالثة ، ونعنى بها مدرسة التابعين للأئمة المجتهدين ، والعهد بها يبدأ بعد فترة من منتصف القرن الثانى للهجرة ، وينتهى باستيلاء الفاطميين على مصر فى أوائل القرن الرابع .

ظهر كثير من أساطين هذه المدرسة فى عصر الأئمة المجتهدين أنفسهم ، وتلمذ بعضهم لهؤلاء الأئمة فعلا ، وسمع منهم ، وروى عنهم ، وكانوا يتفاوتون ، وتختلف حظوظهم من الفقه والنظر باختلاف ملكاتهم ، ودرجات استعدادهم ، وطرق دراستهم . فمنهم من كان عمله ينحصر فى جمع أقوال إمامه ، وتمحيص الرواية عنه ، وحكاية مذهبه ، فان زاد على ذلك شيئاً فلا تعدو زيادته أن تكون تخريجا ، أو رداً لأصل ، أو تبيينا لمجمل ، أو تفريعا لمسألة من المسائل الكلية ؛ ومنهم من كان ينظر فى أقوال إمامه فيرجح منها ويختار ، ويقوى بعضها ، ويضعِّف بعضا ؛ ومنهم من كان يطلق لنفسه العنان ، ويمنح عقله قسطا كبيرا من حرية الرأى والنظر ، فربما رفض قول إمامه ، وعارض مذهبه ، واستقل برأى يراه .

ومهما يكن من شىء ، فقد استطاع الفقه الاسلامى أن يظفر على أيدى رجال هذه المدرسة ونظرائهم من رجال الأمصار الأخرى بنحو قرنين من الزمان استوى فى مداهما علما ناضجا له كل خصائص العلوم فى عهود رقيها ونهضتها ، من دراسة ينقطع لها نوابغ العلماء ، وتحقيق يعكف عليه ذوو العقول الممتازة ، والأفهام الجبارة ، وتأليف يتوفر له أرباب الأقلام السيالة ، فلو أن امرأ زعم أن هذا العصر هو العصر الذهبى فى تاريخ الفقه الاسلامى لما كان فى ذلك مبعدا عن الصواب . وناهيك بعصر يُزْهى على العصور بأمثال ابن القاسم ، وأشهب ، وابن عبد الحكم ، وابن وهب من فقهاء المالكية ، وأمثال الكندى ، وابن أبى الليث ، والبويطى ، والمزنى ، والربيع المرادى من فقهاء الحنفية والشافعية !

ولقد كان المسجد الجامع يومئذ ، وهو مسجد عمرو بن العاص رضى الله عنه ، أشبه بنبع صاف فياض يزدحم حواليه الوراد ، بل أشبه بجامعة علمية كأرقى ما نعلم من الجامعات الحديثة ، تلتقى فيها الدراسات ، وتدور المحاورات ، وتعقد المناظرات ، وتعرض الكتب والتآليف والرسائل ، وتنقد المذاهب ، وتناقش الآراء ، وتمحص المسائل ، فى كنف من حرية الرأى ،

واستقلال الفكر ، وأدب البحث ، وعفة المقال ؛ فاذا أفضى الأمر فى شىء من ذلك الى خصومة فهى خصومة شريفة غايتها الوصول الى الحق ، قد تشتد أحيانا وتعظم حتى ليخيل إليك أنها حرب عوان وهى حرب أى حرب ، ولكن جندها العلماء ، وقادتها الأئمة الأعلام ، وسهمها الحجة والبرهان !

كل أولئك قد عاد على الفقه الاسلامى بأوفر المغانم ، وحمّلَ التاريخ منه كنوزا لو أنفق منها أهل الزمان مدى الزمان لأربت على الإنفاق !

كيف وردت إلى مصر المذاهب الفقهية ؟

لقد عرفت مصر فى ذلك العهد المذاهب الفقهية الثلاثة المشهورة ، أما مذهب ابن حنبل فلم تعرفه مصر إلا فيما بعد ؛ وقد ذكر السيوطى أنه لم يظهر ولم يسمع خبره بمصر إلا فى القرن السابع.

فأول من نقل مذهب الحنفية إلى مصر إسماعيل بن اليسع الكوفى ، وهو قاض ولاه المهدى قضاء مصر سنة ١٦٤ هـ وكان يرى رأى أبى حنيفة فى إبطال الأحباس « الأوقاف » ، وكان الليث بن سعد يومئذ حيا ، وهو يرى صحة الأوقاف ، وأهل مصر جميعا على هذا الرأى لا يحبون جدالا فيه أو مراء ، فثقل عليهم هذا القاضى ، الذى يريد أن يحدث لهم أحكاما لا يعرفونها ، فدبروا لعزله ، واستعانوا على ذلك بالليث بن سعد الذى كان يخالفه فى رأيه ، والذى كان له من النفوذ والسلطان ما قد ذكرنا ، فكتب الليث الى المهدى فعزله .

ولكن المذهب الحنفى لم يبطل بذلك من مصر ، فقد ترك هذا القاضى الحنفى فى نفوس كثير من أهل العلم أثرا من فقهه ورأيه ، ثم حدث ظرف سياسى بعد ذلك فى مصلحة هذا المذهب ، ذلك أن الرشيد أولع بأبى يوسف الفقيه صاحب أبى حنيفة ، وقربه إليه ، وولاه قضاءه ، وكان يستشيره فى أمر تولية القضاة بالأمصار ، فلا يشير إلا بقاض حنفى ، فكان لا يولى ببلاد العراق وخراسان ومصر والشام إلا من كان حنفيا ، وانتشر بذلك مذهب أبى حنيفة فى مصر كما انتشر فى أمصارٍ غيرها .

وإذا كان هذا الحظ قد صادف المذهب الحنفى فروج له فى مصر ، وحض عليه العامة والخاصة ، فقد نال المذهب المالكى حظوة من نوع آخر لدى المصريين ، ذلك أن طائفة من أبناء مصر النبغاء قد درسوا هذا المذهب وأجادوه ، وتعرف كثير منهم الى صاحبه مالك بن أنس رضى الله عنه ، فرحلوا إليه ، وأخذوا عنه ، وبهرهم علمه ، وملكتهم مهابته ، فكانوا أداة لنشر مذهبه بين المصريين لا تقل عن الأداة الرسمية التى كان لها بعض الشأن فى الترويج لمذهب الحنفية . فمن هؤلاء عثمان بن الحكم الجذامى أول من أدخل علم مالك الى مصر ، والذى قيل إنه لم تنبت مصر أفضل منه ، وهو فقيه محدث من أصحاب مالك ، روى عنه وعن موسى بن عقبة ، وروى عنه الليث ، وابن وهب ، ورشيد بن سعد ، وتوفى بالاسكندرية سنة ١٦٣ هـ .

ومنهم بطل المالكية وعمدتهم عبد الرحمن بن القاسم ، الفقيه المصرى البارع ، الذى صاحب مالكا عشرين سنة ، وقال فيه مالك : « لم أر مثله ، هو جراب مملوء مسكا » ! وحسبك أن المالكية لا يصفون قولا من أقوال أئمتهم بأنه المعتمد فى المذهب إلا قول ابن القاسم !

والناس يختلفون فى ابن القاسم ، فمنهم من يعده مقلدا لمالك ، متبعا فى الفقه أصول مذهبه ؛ ومنهم من يرفعه الى درجة الاجتهاد المطلق ؛ وقد غالى بعضهم فى ذلك حتى قال : إن المالكية فى الحقيقة قاسميون ! والحق أن ابن القاسم مجتهد ولكن فى حدود مذهب الإمام مالك وعلى طريقته ، وإن رجلا يصاحب إمامه عشرين عاما كاملة لا بد أن يكون قد تأثر به الى أبعد حدود التأثر مع نماء قوة النظر فيه ، ولذلك يعد بعض المالكية الخلاف بينهما يسيرا متقاربا ، بل يأبون أن يعدوا بينهما خلافا حقيقيا إلا فى أربع مسائل ذكرها ابن ناجى فى كتاب الزكاة من شرح المدونة . وتوفى ابن القاسم سنة ١٩١ هـ .

وقد نبغ فى المصريين إمام آخر يعد ثانى اثنين أولهما ابن القاسم : وهو أشهب بن عبدالعزيز ابن داود القيسى ، تفقه بمالك والمدنيين والمصريين ، وانتهت اليه الرياسة بمصر بعد ابن القاسم ، وهما بالنسبة لمالك كمحمد بن الحسن ، وأبى يوسف بالنسبة لأبى حنيفة . توفى أشهب سنة ٢٠٤ هـ

ومن كبار المالكية فى مصر لذلك العهد : عبد الله بن وهب ، ولعل القراء يذكرون أننا عددناه من قبل فى رجال المدرسة الثانية وترجمنا له بينهم ، لأنه كان من أوائل المشتغلين بجمع الحديث وتدوينه ، فهو ذو شخصيتين إحداهما شخصية المحدث ، والأخرى شخصية الفقيه ، ويظهر أن أولاهما قد طغت على الأخرى حتى إنك لتراه فى فقهه راوية أكثر منه فقيها ، وإذا كان مالك يكتب اليه : « الى فقيه مصر » أو « الى أبى محمد المفتى » فانه كان يلمح الى هذا الذى أثبتناه فيقول فيه : إنه عالم ، وإنه إمام ، وإنه ديوان العلم ، على حين كان يقول فى ابن القاسم : إنه فقيه !

هؤلاء بعض الذين نشروا فقه مالك بين المصريين ؛ وقد اشتد الخلاف بين الحنفية والمالكية ، ووجد كل مذهب أنصارا له من المصريين يؤيدونه ويبثون فقهه بين العامة ، ويعقدون له الحلق فى المسجد الجامع .

وفى تلك الأثناء لمع فى بلاد الحجاز وبلاد العراق نجم ثاقب ، شرق ذكره فى الآفاق وغرب ، ذلك هو الإمام النابه الذكى الفقيه الأديب : محمد بن إدريس الشافعى .

كان رضى الله عنه تلميذا لمالك ، وكان يعرف مقامه بين أهل المدينة ، ومقدار انتشار مذهبه فى أهل الحجاز ، فلم يطمع فى نشر مذهبه بينهم .

وكان إذا رحل الى العراق وجد كل شىء فيها الى جانب المذهب الحنفى ، فأبو حنيفة

عراق بين عراقيين ، والعراقيون يومئذ مصدر القوة والجاه والسلطان ، فأنى له أن يزاحم بمنكبيه فى هذا المزدحم ؟

ولكنه كان إذا نظر الى مصر وجد كل شىء فيها يدعوه إليها ، فمصر بلد تكرم الوافدين وتحتفل بالواردين ، وأخبار الخلاف بين فقهائها تترامى إليه ، وتلاميذه من المصريين يزينون له الرحيل إليها ، فلتكن مصر إذاً مثابته ومقصد آماله ، وليرحل إليها كما أشار عليه تلاميذه لعل الله أن يجمع به بين المتخالفين ، ويصلح بين المتخاصمين ، ويفتح له بذلك فتحا مبينا .

قال الزعفرانى : سأل الشافعى الربيع عن أهل مصر قبل أن يرحل إليهم ، فقال له الربيع : هما فرقتان : فرقة مالت الى قول مالك وناضلت عنه ، وفرقة مالت الى قول أبى حنيفة وناضلت عنه ! فقال الشافعى : أرجو أن أقدم الى مصر إن شاء الله فآتيهم بشىء أشغلهم به عن القولين جميعا . فلما أراد الخروج الى مصر أنشد لنفسه :

أخىَّ أرى نفسى تتوق الى مصر ومن دونها أرض المهامهِ والقفرِ
فوالله ما أدرى ألَلفوز والغنى أساق إليها ؟ أم أساق الى قبرى ؟

قال الزعفرانى : فوالله لقد سيق إليهما جميعا ! !

« يتبع »

محمد محمد المدنى
المدرس بكلية الشريعة

توفية الدين

روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من أخذ أموال الناس يريد إتلافها أتلفه الله » .

وقال حكيم : الدَّين يجمع كل بؤس : هم بالليل وذل بالنهار ، وهو ساجور الله فى أرضه ، فإذا أراد الله أن يذل عبدا جعله طوقا فى عنقه .

وعن عمرو بن دينار قال رجل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أريت إن قتلت شهيدا فأين أنا ؟ قال رسول الله : فى الجنة . ثم قال : قال لى جبريل : إن لم يكن عليه دين .

وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه : شهد رسول الله صلى الله عليه وسلم جنازة رجل من الأنصار ، فقال : أعليه دين ؟ قالوا نعم ، فرجع ، فقال على رضى الله عنه : أنا ضامن يا رسول الله . فقال له النبى : ياعلى فك الله رقبتك كما فككت عن أخيك المسلم ، ما من رجل يفك عن رجل دينه إلا فك الله رهانه يوم القيامة !

نقول : إن هذا التشديد فى الأمور المالية من مظنة التسامح فيها ، يدل العالم الاجتماعى أن هذا الدين أسس على علم عال ، وحكمة سامية . فإن الترابط الاجتماعى لا يقوم إلا على التعاون ، فإن لم يقم هذا التعاون على الوفاء بالحقوق ، تراخت أواخيُّه ، وضعف الاجتماع .

تاريخ علم التفسير

نماذج من التفسير فى عصر النبي صلى الله عليه وسلم

أشرنا فى المقالين السابقين إلى أن تفسير رسول الله صلى الله عليه وسلم القرآن ليس على النمط الذى نعلمه من تفسير العلماء على اختلاف طبقاتهم ؛ فهو يبين الناسخ والمنسوخ ، ويخصص العام ، ويقيد المطلق . . . الخ . ومن النماذج التى نوردها يتبين ذلك جليا .

انظر إلى المثال رقم (١) الآتى تجد الآية الكريمة أنزلت أول ما أنزلت ، عامة ، فلما شكا ابن أم مكتوم ضرارته نزل الاستثناء فخصص العام ، على إحدى الروايات فى ذلك ؛ أو نزلت آية فيها النص على التخصيص مكان الآية العامة ، على إحدى الروايات . ومعلوم أن تخصيص العام فى آية قرآنية بآية ، أو نزول آية مكان آية ، لا يكون إلا فى حياة النبي صلى الله عليه وسلم ، إذ هذا من شأن الوحى وهو مختص به صلى الله عليه وسلم .

ويرى بعض الأصوليين أن السنة المتواترة تنسخ القرآن ، ويرى أكثرهم أن السنة ، ولو كانت غير متواترة ، تخصصه ، إلى آخر ما دونوه فى كتبهم ، واستدلوا عليه .

وإنما الذى نريد أن ننبه عليه هنا أن تفسير النبي صلى الله عليه وسلم وبيانه ، ليس كتفسير علماء الطبقات ، لأجل أن يتضح لنا عند المقارنة مقدار الفروق بين التفاسير ، والعوامل التى أدت إلى ذلك .

وإذا نظرت الى المثال رقم (٢) رأيت فيه كذلك تخصيص العام ، أو بيان المجمل . وقد شدد النبي صلى الله عليه وسلم فى تنفيذ القصاص حيث تمسك به أصحاب الحق ، انظر الى قوله صلى الله عليه وسلم : « يا أنس : كتاب الله القصاص » ثم أقر رسول الله صلى الله عليه وسلم قبول الأرش حين رضى به أصحاب الحق .

وهكذا إذا أمعنت النظر فيما نورده من النماذج حصلت عندك صورة صحيحة لتشريع الأحكام وبيانها وتقريرها ، خصوصا إذا كنت على علم مما قرره علماء الأصول .

وإليك النماذج :

١ — قول الله تعالى : « لا يستوى القاعدون من المؤمنين غيرُ أولى الضرر والمجاهدون فى سبيل الله » :

لما نزلت هذه الآية قال النبي صلى الله عليه وسلم : ادعوا فلانا (١) — لأحد كتاب الوحى —

---

(١) هو سيدنا زيد بن ثابت رضى الله عنه كما فى بعض الروايات .

فجاءه ومعه الدواة والكتف ، فقال : اكتب « لا يستوى القاعدون من المؤمنين والمجاهدون فى سبيل الله » . فقال ابن أم مكتوم : يارسول الله أنا ضرير ، فنزلت مكانها : « لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون فى سبيل الله » .

ويروى ابن جريج قال : أخبرنى عبد الكريم أن مقسما مولى عبد الله بن الحارث أخبره أن ابن عباس رضى الله عنهما أخبره : لا يستوى القاعدون من المؤمنين : عن بدر ، والخارجون الى بدر .

فأنت ترى أن الآية أول ما أنزلت كان نصها : « لا يستوى القاعدون من المؤمنين والمجاهدون فى سبيل الله » ، وقد أملاها النبى صلى الله عليه وسلم على سيدنا زيد بن ثابت بهذا النص ، فلما شكا ابن أم مكتوم ضرارته استثنى الله من أصيب بالعمى من حكم العام ، رحمة منه بالعباد ؛ ونزلت آية أخرى مكان هذه الآية تنص على الاستثناء على ما يفهم من قول الراوى : « فنزلت مكانها » . وبعض الروايات الأخرى تنص على أن الذى نزل بعد الشكوى إنما هو الاستثناء فقط ، كرواية البخارى بسنده عن ابن شهاب ، قال ابن شهاب : حدثنى سهل بن سعد الساعدى أنه رأى مروان بن الحكم فى المسجد فأقبلت حتى جلست الى جنبه ، فأخبره أن زيد بن ثابت أخبره أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أملى عليه : « لا يستوى القاعدون من المؤمنين والمجاهدون فى سبيل الله » فجاء ابن أم مكتوم وهو يملها علىّ فقال : يا رسول الله والله لو أستطيع الجهاد لجاهدت ، وكان أعمى ، فأنزل الله على رسوله صلى الله عليه وسلم ، وفخذه على فخذى فثقلت على حتى خفت بأن ترض فخذى ، ثم سرى عنه : « غير أولى الضرر » . فهذه الرواية صريحة فى أن الذى نزل بعد الشكوى هو الاستثناء فقط .

٢ — قول الله تعالى : « والجروح قصاص » :

لما كسرت الربيّع ، وهى عمة أنس بن مالك رضى الله عنه ، ثنية جارية من الأنصار ، طلب القوم القصاص ، فأتوا النبى صلى الله عليه وسلم فأمر بالقصاص ؛ فقال أنس بن النضر ، وهو عم أنس بن مالك : لا والله لا تكسر سنها يا رسول الله . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا أنس : كتاب الله القصاص ! فرضى القوم ، وقبلوا الأرش . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره » .

٣ — قول الله تعالى : « ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا » الآية :

عن أبى النعمان قال : كنت ساقى القوم فى منزل أبى طلحة فنزل تحريم الخمر ، فأمر مناديا فنادى ، فقال أبو طلحة : اخرج فانظر ما هذا الصوت . قال : فخرجت فقلت : هذا مناد ينادى : ألا إن الخمر قد حرمت . فقال لى : اذهب فهرقها . قال : فجرت فى سكك المدينة . قال : وكان

خمرهم يومئـذ الفضيخ . فقـال بعض القوم : قتل قـوم وهى فى بطونهم ؟ قال : فأنزل الله : « ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح » الآية .

٤ — قول الله تعالى : « خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين » :

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قدم عُيَـينة بن حصن بن حذيفة فنزل على ابن أخيه الحُـرّ بن قيس ، وكان من النفر الذين يدنيهم عمر ، وكان القراء أصحاب مجالس عمر ومشاوراته كهولا كانوا أو شبابا . فقال عيينة لا بن أخيه : يابن أخى لك وجه عند هذا الأمير فاستأذن لى عليه ، قال : سأستأذن لك عليه . قال ابن عباس : فاستأذن الحر لعيينة ، فأذن له عمر ، فلما دخل عليه قال هِىْ يا بن الخطاب ! فو الله ما تعطينا الجزل ، ولا تحكم بيننا بالعـدل . فغضب عمر حتى هم أن يوقع به . فقال له الحر : يا أمير المؤمنين إن الله تعالى قال لنبيه صلى الله عليه وسلم : « خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين » ، وإن هذا من الجاهلين . والله ما جاوزها عمر حين تلاها عليه ، وكان وقافا عند كتاب الله . وعن ابن الزبير فى معنى الآية قال : أمر الله نبيه صلى الله عليه وسـلم أن يأخذ العفو من أخلاق الناس .

٥ — قول الله تعالى : « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة » :

روى البخارى بسنده عن نافع عن ابن عمر رضى الله عنهما أن رجلا جاءه فقال : ياأبا عبد الرحمن ألا تسمع ما ذكره الله فى كتابه : « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا » الآية ، فما يمنعك ألا تقاتل كما ذكر الله فى كتابه ؟ فقال : يابن أخى أعـيَّر بهذه الآية ولا أقاتل أحب الى من أن أعير بهذه الآية التى يقول الله تعالى : « ومن يقتل مؤمنا متعمدا » الى آخر الآية . قال : فان الله يقول : « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة » . قال ابن عمر : قد فعلنا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ كان الاسلام قليلا ، فـكان الرجل يفتن فى دينه ، إما يقتلونه وإما يوثقونه ، حتى كثر الاسلام فلم تكن فتنة . فلما رأى أنه لا يوافقه فيما يريد ، قال : فما قولك فى على وعثمان ؟ قال ابن عمر : ما قولى فى على وعثمان ؟ أما عثمان فـكان الله قد عفا عنه فكرهتم أن يعفو عنه ، وأما على فابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وخَتَـنه ، وأشار بيده ، وهذه ابنته حيث ترون .

وروى البخارى بسنده عن سعيد بن جبير قال : خـرج علينا أو إلينا ابن عمر ، فقال رجل : كيف ترى فى قتال الفتنة ؟ قال : وهل تدرى ما الفتنة ؟ كان محمد صلى الله عليه وسلم يقاتل المشركين ، وكان الدخولُ عليهم فتنة ، وليس بقتالـكم على الملك ؟

حسن حسين

الكلام والمتكلمون

— ١٠ —

فخر الدين الرازى :

نسبه وحياته : هو الامام أبو عبد الله محمد بن عمر التيمى البكرى المعروف بابن الخطيب الملقب بفخر الدين الرازى ، وهو ينتمى الى أسرة عربية عريقة .

ولد هذا الامام فى مدينة الرى بفارس سنة ٥٤٣ هـ — ١١٤٩ م . نشأ فى بيت علم وأدب ، فوالده الامام ضياء الدين عمر — خطيب الرى — كان على جانب عظيم من العلم ، برع فى علم الأصول والمذهب ، وأخذ عنه الكثيرون . ويذكر ابن أبى أصيبعة أن له تصانيف عدة فى الأصول والوعظ وغير ذلك . درس الرازى من العلوم والفنون ما عرف فى عصره وكتب فيها .

اشتغل فى مبتدأ أمره بالفقه والأصول والتفسير على والده ، ثم تنقل بين الحيرة وخوارزم وغيرها من المدن والأمصار ، ودرس العلوم الاسلامية دراسة عميقة متبحرة ، حتى لقبه معاصروه بشيخ الاسلام لعلمه الواسع وتقواه . وكان شافعى المذهب . ثم قصد الكمال السمعانى واختلف اليه مدة ، ثم عاد الى الرى ، فألم بالطب ، ونبغ فى الأدب ، ونظم الشعر بالعربية والفارسية ووعظ بهما ، وكان من أهل الدين والتصوف . كان يعظ فى بلدة الرى وغيرها من المدن فيلقى للناس أفانين الحكمة وأزاهيرها ، فيبكى كثيرا ، ويبكى الناس كثيرا .

غير أنه لم يكتف بهذه العلوم الذائعة فى عصره ، واشتاق الى الاشتغال بالعلوم العقلية ودراسة مذاهب المتكلمين والفلاسفة ، فتردد على مجد الدين الجيلى أحد أصحاب محمد بن يحيى . ولما رحل المجد الجيلى الى مراغة ليدرس بها ، صحبه فخر الدين وقرأ عليه مدة طويلة علم الكلام والحكمة . ويقال : إنه حفظ « الشامل » لإمام الحرمين ، ثم ارتحل الى خراسان ، وفيها وقف على مؤلفات الفارابى وابن سينا وعلم منها علما كثيرا (١) . وظل عاكفا على دراسة الحكمة حتى فاق فيها أهل عصره .

ولما اكتمل علمه ، ترك الرى وعبر الى خوارزم ؛ وهناك جادل المعتزلة فأخرج من البلدة ، فقصد ما وراء النهر ، فحدث له هناك ما حدث له فى خوارزم ، فعاد الى الرى . . . فى هراة لقب الرازى بشيخ الاسلام ، وحضر مجلسه أرباب المذاهب والمقالات يسألونه وهو يجيب ، وكان بينه وبين الكرامية أحاديث جدلية عنيفة ، يتهمهم بالإلحاد ويتهمونه ، واستعرت العداوة

---

(١) انظر صفحة ١٩٠ من القفطى .

بينه وبينهم حتى قيل : إنهم سموه ، وبلغ من أمر الحشوية أن كتبوا له رقعا فيها أنواع السيئات يضعونها على منبره .

وفى أواخر أيامه ، وقد بلغ أوج كماله العلمى ، حدث له ما حدث لأبى حامد الغزالى من قبل ، فقلت ثقته بالعقل الانسانى وأحس بعجزه ، وأدرك تماما أنه لا يستطيع الاحاطة بالوجود فى ذاته ، فأدركته حالة صوفية كانت تنتابه منها فى بعض مجالس وعظه نوبات فيصرخ مستغيثا . وعظ يوما بحضرة السلطان شهاب الدين الغورى وحصلت له حال ، فاستغاث : « يا سلطان العالم ، لا سلطانك يبقى ، ولا تلبيس الرازى يبقى » . قال ابن الصلاح : أخبرنى القطب الطوغانى مرتين أنه سمع فخر الدين الرازى يقول : « ياليتنى لم أشتغل بعلم الكلام ، وبكى » . وقال فى كتابه الذى صنفه فى أقسام الذات : « ولقد تأملت الطرق الكلامية ، والمناهج الفلسفية ، فما رأيتها تشفى عليلا ولا تروى غليلا ، ورأيت أصح الطرق طريقة القرآن . أقرأ فى التنزيه : « والله الغنى وأنتم الفقراء » ، وقوله تعالى : « ليس كمثله شيء » ، و « قل هو الله أحد » ؛ وأقرأ فى الاثبات : « الرحمن على العرش استوى » ، « يخافون ربهم من فوقهم » ، و « إليه يصعد الكلم الطيب » ؛ وأقرأ فى أن الكل من الله قوله : « قل كل من عند الله » ، ثم أقول وأقول من صميم القلب ، من داخل الروح : إنى مقر بأن كل ما هو الأكمل والأفضل الأعظم الأجل فهو لك ، وكل ما هو عيب ونقص فأنت منزه عنه » .

مرض الرازى وأيقن أنه لا محالة مائت ، ففى الحادى والعشرين من المحرم سنة ٦٠٦ ه ست وستمائة — ١٢٠٦ م أملى على تلميذه ابراهيم بن أبى بكر الأصفهانى وصية تعتبر غاية مثلى للأتقياء ، جاء فيها :

« اعلموا أنى كنت رجلا محبا للعلم ، فكنت أكتب فى كل شيء شيئا ، لا أقف على كمية ولا كيفية ، سواء كان حقا أو باطلا ، أو غثا أو سمينا ، إلا أن الذى نظرته فى الكتب المعتبرة لى أن هذا العالم المحسوس تحت تدبير منزه عن مماثلة المتحيزات والأعراض ، وموصوف بكمال القدرة والعلم والرحمة . ولقد اختبرت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيت فيها فائدة تساوى الفائدة التى وجدتها فى القرآن العظيم ، لأنه يسعى فى تسليم العظمة والجلال بالكلية لله تعالى ، ويمنع من التعمق فى إيراد المعارضات والمتناقضات ، وما ذلك إلا العلم بأن العقول البشرية تتلاشى وتضمحل فى تلك المضايق العميقة والمناهج الخفية . ولهذا أقول : كل ما ثبت بالدلائل الظاهرية من وجوب وجوده ووحدته وبراءته عن الشركاء فى القدم والأزلية ، والتدبير والفعالية ، فذلك هو الذى أقول به ، وألقى الله تعالى به . وأما ما انتهى الأمر فيه إلى الدقة والغموض ، فكل ما ورد فى القرآن والأخبار الصحيحة المتفق عليها بين الأئمة المتبعين للمعنى الواحد ، فهو كما هو . والذى لم يكن كذلك ، أقول : يا إله العالمين إنى أرى الخلق مطبقين على أنك أكرم الأكرمين وأرحم الراحمين . فكل ما أمر به قلمى أو خطر ببالى

فأستشهد وأقول : إن علمت منى أنى ما سميت إلا فى تقديس اعتقدت أنه الحق وتصورت أنه الصدق ، فلتـكن رحمتك مع قصدى ، لا مع حاصلى ، فذاك جهد المقل ، وأنت أكرم من أن تضايق الضعيف الواقع فى زلة . فأغثنى وارحمنى ، واستر زلتى ، وامح حوبتى ، يا من لا يزيد ملـكه عرفانُ العارفين ، ولا ينقص ملـكه بخطأ المجرمين . وأقول دينى متابعة سيد المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم ، وكتابى القرآن العظيم ، وتعويلى فى طلب الدين عليهما » .

مؤلفاته :

للرازى مؤلفات لو حاولنا أن نحللها هنا لخرجنا عن خطة الإيجاز التى رسمناها لأنفسنا فى البحوث المتعلقة بالمتكلمين من هذه الفصول . ولذا نحن نكتفى فيها بهذه الإشارة الوجيزة ، فنقرر أنها كانت بمثابة موسوعة ضخمة لعلوم عصره ، إذ اشتملت على الفلسفة والتوحيد وتفسير القرآن والفقه والأدب والشعر والهندسة والطب . وقد نالت كتبه من النجاح والتأثير فى أهل عصره حدا جعلها تنسيهم أكثر مؤلفات من سبقوه .

حافظ الدين النسفى — حياته ومنتجاته :

ولد حافظ الدين أبو البركات عبد الله بن احمد بن محمود النسفى فى نسف ، ولا يعرف المؤرخون متى ولد بالضبط ، وإنما يؤكدون أنه لما شب تلقى العلم عن شمس الأئمة الكردلى وعن حميد الدين الضرير ، وأنه بعد أن أتم دراسته عين أستاذا فى المدرسة القطبية السلطانية بكرمان ، وأنه ارتحل الى بغداد ثم لم يلبث أن غادرها . وفى أثناء سفره توفى ودفن فى خرزستان فى سنة ٧١٠ هـ — ١٣١٠ م .

أما مؤلفاته فأهم ما بقى منها ما يلى :

(١) كتاب « المنار فى أصول الفقـه » . وقد شرحه المؤلف نفسه فى كتاب سماه : « كشف الأسرار » .

(٢) كتاب « الوافى » وقد شرحه أيضا بكتاب سماه : « الـكافى » .

(٣) « كنز الدقائق » وهو بعض ما فى كتاب « الوافى » . وقـد تلقى عليه تلميذه ابن الساعاتى بعض فصوله فى كرمان فى سنة ٦٨٣ هـ . وهذا الـكتاب لا يزال الى الآن يدرس فى دمشق وفى الجامعة الأزهرية ، وله شروح كثيرة أهمها ما يلى :

(ا) « تبيين الحقـائق » للزيلعى المتوفى فى سـنة ٧٤٣ هـ – ١٣٤٢ . أو ١٣٤٣ م . (ب) « رمز الحقائق » للعينى المتوفى فى سنة ٨٥٥ هـ – ١٤٥١ م . (ج) . « تبيين الحقائق » لمـلا مسكين الذى كتبه فى سـنة ٨١١ هـ – ١٤٠٨ أو ١٤٠٩ م . (د) « توفيق الرحمن » للطائى المتوفى فى سنة ١٠٩٢ هـ – ١٧٧٨ م .

(٤) « العمدة فى أصول الدين » وقد عرف أيضا بعنوان : « المنار فى أصول الدين » . وقد نشره فى أوروبا « كوريتون » فى سنة ١٨٤٣ م . وقد سلك فيه مؤلفه نهج نجم الدين النسفى فى العقائد النسفية ، ثم شرحه فى كتاب عنونه : « الاعتماد فى الاعتقاد » .

وبهذه المناسبة ينبغى أن ننبه الى أن النسفى مؤلف العقائد ليس هو النسفى المفسر كما تعتقد الكثرة المطلقة من المتعلمين .

هذه هى أهم مؤلفاته الموضوعة . أما شروحه فأهمها ما يأتى :

(٥) « مدارك التنزيل وحقائق التأويل » فى تفسير القرآن .

(٦) شرح كتاب « النافع » لناصر الدين السمر قندى .

(٧) « المستصفى » فى شرح منظومة نجم الدين النسفى .

هذا ، ويؤكد الأستاذ « هيفينينج » فى دائرة المعارف الاسلامية أن أبا البركات النسفى لم يكتب شرحا للهداية كما زعم الحاج خليفة ؟

الدكتور محمد غلاب
أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

العمل للدنيا عبادة

قال المأمون : أمور الدنيا أربعة : إمارة ، وتجارة ، وصناعة ، وزراعة ؛ فمن لم يكن أحد أهلها كان كلًّا على الناس .

وقال حكيم : قوام الدنيا والدين العلم والكسب ؛ فمن رفضهما فقال أبتغى الزهد لا العلم ، والتوكل لا الكسب ، وقع فى الجهل والطمع .

وقال غيره وهو مستمد من أحاديث نبوية كثيرة : بذل الجهد فى طلب الحلال ، وقلة الحوايج الى الناس ، أفضل العبادة .

وقد قال أحد الشعراء :

ليس التصوف أن يلاقيك الفتى وعليه من لبس المجوس مرقع
بطرائق سود وبيض لفقت وكأنه فيه غراب أبقع

وقال غيره فى المراءاة بالتصوف :

عجبت من شيخ ومن زهده يذكر النار وأهوالها
يكره أن يشرب فى فضة ويشرب الفضة إن نالها

وقال الحسن البصرى : إن قوما جعلوا تواضعهم فى ثيابهم ، وكبرهم فى صدورهم ، حتى لصاحب المدرعة بمدرعته ، أشد فرحا من صاحب المطرف بمطرفه . (المطرف رداء من حرير)